

البيان المخرَّب

في اختصار أخبار ملوك الفونرسة والمغرب

للأبي العباس أحمد بن محمد بن عزالري

المؤلف بعد سنة ٧١٢ هـ

المجلد الثالث

حققه ، وضبط نصّه ، وعلّق عليه

محمد زكريا الشيباني

بشائر عواد مغيرة



دار المغرب للنشر
تونس

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب. 677 تونس 1035

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهرومستاتية ، أو أشرطة مخططة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

البيان المعتبر
في اختصار أخبار ملوك الهند وبلادهم

المجلد الثاني

[ابتداء أمر اللّمتونيين] (١)(٢)

[والموجب لخروجهم عن الصّحراء إلى وطن المغرب، أن أحد بني جدالة^(٣)، ويُعرف بيحيى بن إبراهيم من جدالة، كان قد توجه لأداء فريضة الحجّ واجتاز في إياه على مدينة القيروان، وذلك سنة أربعين وأربع مئة، فحضر بها مجلس الفقيه المدرّس أبي عمران الفاسي، فسأله عن قبيلته ووطنه، فذكر أنه من الصّحراء من قبيلة جدالة، إحدى قبائل صنّهاجة، فقال له الفقيه: ما مذهبكم؟ فقال له: ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب، لأننا في الصّحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التّجار الجّهال، حرقتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم...]^(٤).

... ويشتّهون، وفيما أقوام على تعليم العلوم يحرصون، وعلى النّفقه في الدّين من الله يرغبون، فعسى يا سيّدنا ننظر في من يتوجه معي إلى بلادنا ليعلمنا ديننا، فقال له الفقيه: سوف أجتهد لك في ذلك إن شاء الله تعالى؛ فعرض الفقيه الأمر على الطّلبة هنالك، فلم يجد أحدا يوافقّه على ذلك، لأجل مشقة السّفر البعيد، والانقطاع في

(١) هذه القطعة التي تنتهي في أوائل حوادث سنة ٥٤١ هـ كانت في أصلها أوراقا عثر عليها الأستاذ ليفي بروفنسال، ونشر منها القسم الخاص باستيلاء السيد الكبيطور على بلنسية. ثم قام الأستاذ هويسى ميراندا بنشر سائرهما في مجلة «Hesperes» سنة ١٩٦٠ م، ثم أعاد نشرها صديقنا العلامة الأستاذ إحسان عباس، يرحمه الله، في دار الثقافة استنادًا إلى نشرة ميراندا وعلق عليها بعض تعليقات مفيدة أفدنا منها، كما أصلح بعض أخطائها، وقد أصلحنا بعض ما فيه من غلط الطبع، ثم قيدناه بالشكل، فإن مثل هذه النصوص لا تفهم ولا تُضبط إلا بذلك.

(٢) كل ما بين حاصرتين فهو من زيادات الناشرين للتوضيح حسبما يأتي التعليق عليه.

(٣) وتكتب «كدالة» فهي كاف أعجمية، وهي إحدى قبائل صنّهاجة.

(٤) هذا النص من الحلل السندسية، وهو أيضًا باختلاف لفظي في الروض ٨٠، والبكري ٨٥٨-٨٥٩، وترجمة أبي عمران الفاسي في عيون «الإمامة ونواظر السياسة» لأبي طالب الرواني، ص ١٦٧ وفيه مصادر ترجمته واسمه موسى بن عيسى بن أبي حاج. والتاريخ المزعوم حول هذا اللقاء لا يصح البتة فإن أبا عمران الفاسي توفي سنة ٤٣٠ هـ كما هو مشهور، فإن كان مثل هذا اللقاء قد تم فإنه قبل هذا التاريخ.

الصَّحَارَى، فُدِّلَ الْفَقِيهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ فَهَاءِ الْغَرْبِ الْأَقْصَى اسْمُهُ وَاجَا^(١)، فَأَعْطَاهُ كِتَابًا يُوصلُهُ إِلَيْهِ يُؤَكِّدُ فِي الْاجْتِهَادِ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا وَصَلَ يَحْيَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى أَقْصَى الْمَغْرِبِ وَجَدَهُ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ: «مَلَكُوس»، وَاجْتَمَعَ مَعَهُ فِيهِ، وَأَعْطَاهُ كِتَابَ الْفَقِيهِ أَبِي عَمْرَانَ، فَحَبَّ بِهِ وَأَكْرَمَهُ، وَكَلَّمَهُ يَحْيَى بِمَا أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ، وَأَعْلَمَهُ بِوَصِيَّةِ الْفَقِيهِ أَبِي عَمْرَانَ إِلَيْهِ، وَتَوَكَّدَهُ عَلَيْهِ، فَاخْتَارَ لَهُ شَخْصًا يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَاسِينَ، فَسَارَ مَعَهُ إِلَى قَبِيلَةِ جَدَالَةَ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ نَحْوُ سَبْعِينَ شَخْصًا مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ مِنْ فَهَائِهِمْ لِيُعَلِّمَهُمْ وَيُفَقِّهَهُمْ فِي دِينِهِمْ، فَانْقَادُوا لَهُ انْقِيَادًا عَظِيمًا، وَوَالَوْهُ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ تَكَرُّبًا، وَأَقَامُوا مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ مَدَّةً كَبِيرَةً، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ أَعْدَادٌ كَثِيرَةٌ، إِلَى أَنْ أَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ الْمَذْكُورُ لِقَبَائِلِ جَدَالَةَ بِغَزْوِ قَبَائِلِ لَمْتُونَةَ، فَحَارَبَهُمْ جَدَالَةُ حَتَّى غَلَبَوْهُمْ وَدَخَلُوا فِي دَعْوَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَاسِينَ، وَغَزَوْا مَعَهُمْ سَائِرَ قَبَائِلِ الصَّحْرَاءِ وَحَارَبَوْهُمْ، فَقَوِيَ أَمْرُ جَدَالَةَ وَظَهَرُوا لَهُمْ إِلَى أَنْ مَاتَ يَحْيَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ.

وَبَقِيَ فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَاسِينَ يُمَثِّلُونَ كُلَّ مَا بِهِ يَأْمُرُهُمْ مُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، إِلَى أَنْ نَقَضَ عَلَيْهِ شَخْصٌ مِنْهُمْ، اسْمُهُ: الْجَوْهَرُ بْنُ سُحَيْمٍ^(٢)، شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِهِ وَجَدَ فِيهَا تَنَاقُضًا، فَتَوَافَقَ مَعَ بَعْضِ رِجَالٍ مِنْ كُبَرَائِهِمْ فَعَزَلُوهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ، وَقَطَعُوا مِنْهُ مَا لَهُمْ، وَانْتَهَبُوا دَارَهُ وَهَدَمُوهَا، وَأَخَذُوا مَا كَانَ فِيهَا، وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَاسِينَ عَنْهُمْ خَائِفًا مِنْهُمْ.

وَكَانَ أَمِيرَ لَمْتُونَةَ يَوْمَئِذٍ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ بْنِ بُولَنْكَائِينَ^(٣) اللَّمْتُونِيُّ، فَرَحَلَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ الْمَذْكُورُ، فَتَلَقَّاهُ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ بِأَحْسَنِ قَبُولٍ مِنْ إِقْبَالِهِ، وَأَخَذَ مَعَهُ فِي أُمُورِهِ وَأَحْوَالِهِ، فَتَوَجَّهَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَاسِينَ إِلَى شَيْخِهِ وَاجَا الَّذِي دَخَلَ يَحْيَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْجَدَالِيَّ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ كَتَبَ وَلَمْ يَتَوَجَّهْ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ، فَأَعْلَمَهُ بِمَا جَرَى فِي جَدَالَةَ، وَبَيَّنَّ لَهُ

(١) وَيَكْتُبُ «وَإِذَاكَ» لِأَنَّ الْجَيْمَ فِيهِ كَافٌ أَعْجَمِيَّةٌ، وَفِي الْمَسَالِكِ لِلْبَكْرِيِّ ٢/ ٨٥٩: «وَجَا بَن زَلَوِي».

(٢) فِي الْمَسَالِكِ لِلْبَكْرِيِّ ٢/ ٨٥٩: «سَكَم».

(٣) سَمَاءُ الْبَكْرِيِّ: «يَحْيَى بْنُ عُمَرَ بْنِ تَلَا جَائِينَ» (الْمَسَالِكُ ٢/ ٨٥٩)، وَسَمَاءُ الْقَلْقَشَنْدِيِّ: «يَحْيَى بْنُ عُمَرَ بْنِ وَارْكُوتَ بْنِ وَرْتَنْطَقَ بْنِ مَنْصُورَ بْنِ مَرْصَالَةَ (صَبْحُ الْأَعَشَى ٥/ ١٨٤).

أمره معهم وحالته، فسَّق على الشَّيخ واجاج المذكور ما أعلمه من ذلك، فكتبَ إلى بعض أشياخ جدالته يُعاتبهم على ما صدر لعبد الله بن ياسين منهم وما بلغه من فعل المشغين عليه وهو مقيم بينهم، وأخذ في ذلك أخذًا كُليًا عليهم، وعاتبَ عتابًا شافيًا إليهم، لكونهم كانوا قد انقادوا إليه، ثم انتقدوا ما شيَّعه عدوه عليه، فلما وصل جواب الشَّيخ واجاج من أشياخ الجداليين المذكورين، مستعذرين له على تقصيرهم في حق عبد الله بن ياسين، أمره بالرجوع إلى تلك القبائل الصَّحراوية، وكتبَ لأشياخهم يُعلمهم أن من خالفه قد خالف الجماعة.

بعض أخبار عبد الله بن ياسين مع لَمْتُونَة في ابتداء أمرهم

وذلك أنه لما استقرَّ عبدُ الله بن ياسين عند لَمْتُونَة، انقادوا له وأطاعوه، واحتال على الذين شاغبوا عليه في جدالته فقتلهم، وأمرَ بقتل من استوجب القتل عندهم، فأجابته بعض القبائل الصَّحراوية ودخلوا في دعوته والتزموا السُّنة به، وكان أشدهم انقيادًا له أميرُ لَمْتُونَة يحيى بنُ عمر، فكان يخرجُ معه مع قبائل لَمْتُونَة لمحاربة بعض القبائل الذين لم يخرجوا تحت طاعته، إلى أن نهضوا إلى قبيلة لَمطَة فسألوهم ثلث أموالهم ليطيَّب لهم الثلثان الباقيان - كذا سنَّ لهم عبدُ الله بنُ ياسين في الأموال المختلطة - فأجابوه إلى ذلك ودخلوا معهم في دعوته مدةً كبيرة، وتقدَّم يحيى بنُ عمر اللَّمْتُونِي على قبيلة مَسُوفَة وغيرها.

وكان عبدُ الله بنُ ياسين قد دخل بلادَ الأندلس في دولة ملوك الطوائف، فأقام بها سبعة أعوام، وحصل فيها على علوم كثيرة، ثم رجع إلى المغرب الأقصى فمرَّ بتامسنا فوجد فيها أمما لا تُحصى أكثرهم تحت أمراء البرغواطة^(١)، وكان عسكرُ أمراء برغواطة أكثر من ثلاثة آلاف، وانضاف إليهم من سائر القبائل، ما بين فارس وراجل، أزيد من عشرين ألفا من جُراوة وزغاوة ومطغرة والبرانس ورگونة وغيرها.

وكان أهل المغرب يتولَّون أمورَ بلادهم، وأمراؤهم يتولَّون الإمارة بينهم، إلى أن تغلب كل شخصٍ منهم على موضعه، كما فعل ملوك طوائف الأندلس. فمرَّ عبدُ الله بنُ

(١) حول ضبط «برغواطة» ينظر تاريخ الإسلام ٥٤٤/١٠.

ياسين ببلاد المصامدة بعد مُنْصَرَفِهِ من الأندلس فوجدهم يُغيرون بعضهم على بعض، يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم، ولا يرجعون إلى طاعة إمام. فكان من عبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم: ألا تعرفون الله ربكم ومحمدًا رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؟ فقالوا له: نعم، عرفنا الله ربنا ومحمدًا نبينا ﷺ، فقال لهم عبد الله: فما لكم بدلتُم وغيرتُم؟ هلا قدّمتم عليكم إمامًا يحكم بينكم بشريعة الإسلام وبسنة النبي عليه السلام؟ فقال له بعض أشياخ المصامدة: لا يرضى أحدٌ منا ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله، فتركهم ورحل عنهم إلى بلاد جزولة، فكان من أمره مع يحيى بن إبراهيم وجدالة ما تقدّم ذكره. ثم رحل من جدالة إلى لمتونة، فانقادوا له، وكان أميرهم يحيى بن عمر أشدّ انقيادًا له كما تقدّم ذكره. قال بعض المؤرخين في «المجموع المقترق» وفي كُتُب غير ذلك، إن بعد الأربعين والأربع مئة قامت قبائل في الصحراء من صنهاجة يُعرفون ببني وارث وخلفهم لمتونة وجدالة، وهم يُجاورون البحر، ليس بينهم وبينه قبيلٌ غيرهم، وهذه الثلاثة قبائل في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوة الحق وردّ المظالم وقطع المغارم، وهم متمسكون بالسنة.

وكان الذي شرع فيهم ذلك، ودّهم على أرشد المسالك، عبد الله بن ياسين، وأول ما أخذت لمتونة من البلاد بلاد دُرْعَة.

قال أبو عبيد رحمه الله^(١): وكان للمتونة في قتالهم في ابتداء أمرهم شدة وجلد، وليس كذلك لغيرهم، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ولا يُحفظ لهم فرازٌ من زحف، وكان قتالهم على النُجْب أكثر من الحُيْل وأكثرهم مترجلون على أقدامهم صفوفًا صفًا بعد صف، يكون بأيدي رجال الصف الأول القنا الطوال، وكانت لهم راية يُقدّمونها أمام الصفوف، فهم يقفون ما وقفت منتصبه، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا، فكانوا في ذلك أثبت من الهضاب، فمن قرّ أمامهم سلبوه ولم يقتلوه، ويقتلون الكلاب، ولا يستصحبون شيئًا منها في سكناهم ولا في حركاتهم، وكان يحيى بن عمر يمثل أمر عبد الله بن ياسين امتثالًا عظيمًا، ولقد أخبر جماعة عنها أن عبد الله قال له في بعض الحروب: أيها الأمير، إن عليك أدبًا، فقال له يحيى: وما الذي أوجب عليّ؟ فقال له

(١) هو أبو عبيد البكري صاحب كتاب المسالك، والخبر فيه ٢ / ٨٦٠.

عبدُ الله: لا أخبرُك حتى آخذَ حقَّ الله بك، فحكَّمه في نفسه وضرَّبه بالسَّوطِ ضرباتٍ في رجله ثم قال له: إنَّ الأميرَ لا يدخُلُ القتالَ بنفسِه؛ لأنَّ حياته حياةُ عسكرِه وهلاكه هو هلاكُهم.

بعض أخبارِ الأميرِ أبي زكريَّا يحيى بنِ عمرِ أميرِ اللَّمْتُونِيِّينَ وسببُ

تسميتهم بالمرابطين وخروجهم من الصَّحراءِ إلى سِجِلْمَاسَة ودَرْعَة

كان هذا أبو زكريَّا مُنْقَادًا في جميعِ أمورِه لإمامة عبد الله بن ياسين، فقدَّمه بعسكرِه وعبدُ الله في مقدِّمته، وهو في الحقيقة الأميرُ الذي يَأْمُرُ وينهى. وكان يلي لَمْتُونَةَ جَبَلٍ فيه قبائلٌ من البربر على غيرِ دينِ الإسلام، فدعاهم عبدُ الله بنُ ياسين إلى الدِّينِ فامتَنَعُوا له، فأمرَ يحيى بنَ عمرَ بغزوهم فغزاهم لَمْتُونَةَ، وسبَّوهم وقسموا سبيهم بينهم، وأخذَ أميرُهم مُحمَّسهم، وهو أولُ مُحمَّس قسَمه اللَّمْتُونِيُّونَ في صَحرائهم، وكان قد فُقد في ذلك الوقت من عسكرِهم أكثرُ من نصفِ عددهم، وكان إمامُهم عبدُ الله بنُ ياسين يُصبرُّهم إلى أنْ ظهروا بأعدائهم، فسَمَّاهم عبدُ الله بالمرابطين، وسَمَّى أميرَهم يحيى بنَ عمرَ أميرَ الحق. ووقفتُ على كتابٍ قديمٍ... لَمَّا بعثَ الفقيهُ أبو محمد عبدُ الله بن ياسين لأهل هذا الجبلِ المُوالي لبلادِ لَمْتُونَةَ يُدعوهم للدخولِ في الإسلامِ وشرِعة محمد عليه السلام وأنْ يؤدُّوا ما فَرَضَ اللهُ عليهم من الزَّكاةِ فامتَنَعُوا وقتلوا رُسُلَه، فأمرَ لَمْتُونَةَ بغزوهم، فخرجَ إليهم وصعدَ عليهم الجبلَ وقَاتَلَهُمْ ثلاثةَ أَيامٍ قتالًا...^(١) مات من لَمْتُونَةَ فيه عددٌ كثير، وصبرَ الفريقانِ صبرًا عظيمًا، فلَمَّا كان في اليومِ الرابعِ جَمَعَ عبدُ الله بنُ ياسين أصحابَه لَمْتُونَةَ وقال لهم: إذا احتسَبْنَا أنفُسَنَا في حقِّ الله وسُنَّةِ نبيِّنا محمد ﷺ، وأراكم قد أعياكم حربُ هؤلاءِ المشركين ولمْ يأْمُرْنَا اللهُ أنْ نترْكهم إذ...^(٢) فاستعينوا بالله ربِّكم ينصُرْكم عليهم، فخرَّجت لَمْتُونَةَ في اليومِ الرابعِ، وكان...^(٣) أسبغ...^(٤)

(١) فراغ في الأصل.

(٢) كذلك.

(٣) كذلك.

(٤) كذلك.

وعَزَمَ على الحرب، فَحَمِيَ الوَطِيسُ بينَ الفَرِيقَيْنِ، واشتَدَّتْ الحربُ إلى أنْ انْهَزَمَ أعداؤُهُمْ وَقَتَلُوهم قَتْلًا ذَرِيعًا وَسَلَبُوا أَمْوَالَهُمْ وَسَبَّوْا نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ...^(١) وعادوا إلى بلادِهِمْ، فَأَمَرَهُمْ إِمَامُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَاسِينَ بِإِعْطَاءِ الْخُمْسِ لِأَمِيرِهِمْ يَحْيَى بْنِ عَمْرِو...^(٢) وَأَخَذُوهُ.

ولَمَّا ظَهَرَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَاسِينَ اسْتِقَامَةُ لِمُتُونَةَ وَجِدُّهُمْ وَاجْتِهَادُهُمْ، أَرَادَ أَنْ يُظَهِّرَهُمْ وَيَمْلِكَهُمْ بِلَادَ الْمَغْرِبِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ قَدْ غَزَوْتُمْ وَنَصَرْتُمْ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ فَتَحْتُمْ مَا كَانَ أَمَامَكُمْ وَسَفَتَحْتُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا وَرَاءَكُمْ، فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنَ الصَّحْرَاءِ إِلَى سِجْلِمَاسَةَ وَدَرْعَةَ وَأَهْلِهَا يَوْمَئِذٍ تَحْتَ طَاعَةِ زَنَاتَةَ الْمَغْرَاوِيِّينَ وَأَمِيرِهِمْ مَسْعُودَ بْنَ وَأُودِينَ وَذَلِكَ بَعْدَ مَا خَاطَبُوهم فَلَمْ يُجِيبُوهم إِلَى مَا طَلَبُوا مِنْهُمْ، فَغَزَوْهم فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ وَأَكْثَرَهُمْ عَلَى النَّجْبِ رُكْبَانًا^(٣) وَمِنْهُمْ رِجَالًا وَفُرْسَانًا، فَقَاتَلَهُمْ لِمُتُونَةُ إِلَى أَنْ غَلَبُوهم، فَطَلَبُوا الْعَفْوَ مِنْهُمْ وَأَدْخَلُوهم سِجْلِمَاسَةَ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ قَتَلُوا مَسْعُودَ بْنَ وَأُودِينَ أَمِيرَهُمْ، وَقِيلَ: بَلْ قَرَأَ أَمَامَهُمْ وَأَقَامَ بِهَا الْأَمِيرُ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ مَدَّةَ أَشْهُرٍ مَعَ إِخْوَانِهِ اللَّمْتُونِيِّينَ.

ثُمَّ تَخَلَّفَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَرَحَلَ مِنْهَا مَعَ إِخْوَانِهِ إِلَى الصَّحْرَاءِ لِأَجْلِ جِدَالَةِ أَعْدَائِهِمْ، وَبَعْدَ ذَلِكَ زَحَفَتْ زَنَاتَةُ الْمَغْرَاوِيِّينَ عَلَى سِجْلِمَاسَةَ، فَدَخَلُوهَا وَقَتَلُوا مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ اللَّمْتُونِيِّينَ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، فَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي السَّنَةِ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعَ مِائَةٍ^(٤)، وَقِيلَ: فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَدِمَ أَهْلُ سِجْلِمَاسَةَ عَلَى مَا فَعَلَ مَعَ لِمُتُونَةَ، وَتَوَاتَرَتْ رُسُلُهُمْ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَاسِينَ يَذْكُرُونَ أَنَّ زَنَاتَةَ الْمَغْرَاوِيِّينَ [زَحَفَتْ إِلَيْهِمْ]^(٥)، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا وَقَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا وَطَلَبُوا الْوُصُولَ إِلَيْهِمْ وَالْقُدُومَ عَلَيْهِمْ لِأَخْذِ ثَأْرِهِمْ مِنْهُمْ، فَندَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَاسِينَ اللَّمْتُونِيِّينَ وَغَيْرَهُمْ [إِلَى غَزْوِ زَنَاتَةَ ثَانِيَةً]^(٦)، فَخَالَفَهُ

(١) فراغ في الأصل.

(٢) كذلك.

(٣) ذكر البكري أن عدد الجمال المستعملة في الجيش كانت (٣٠) ألف جمل (المسالك ٢ / ٨٦٠).

(٤) ينظر البكري ٢ / ٨٦٠.

(٥) ما بين الحاصرتين من المسالك للبكري ٢ / ٨٦١.

(٦) كذلك.

قبائل جدالة وذهبوا إلى الساحل، فأمر عبد الله بن ياسين أمير لمتونة يحيى أن يتحصن في جبلهم، وهو جبل غزير الماء والكلاء.

قال أبو عبيد رحمه الله^(١): كان في طوله مسيرة ستة أيام، وفي عرضه مسيرة يوم واحد، وفيه حصن يُسمى أركي^(٢)، حوله نحو من عشرين ألف نخلة، فصار يحيى بن عمر في ذلك الحصن، قيل: بسبب مرض أصابه، وقيل غير ذلك.

وكان أبو بكر بن عمر قد تركه أخوه يحيى بن عمر أميراً على بلاد درعة، فاجتمع لعبد الله بن ياسين جيش كثيف من لمتونة ومسوفة ولطة ومزجة^(٣)، وصار بهم إلى درعة. ثم بعد ذلك رجعت جيوش جدالة إلى يحيى بن عمر، قيل: إنهم كانوا نحو ثلاثين ألفاً وأقل منهم رُكبان على النُجُب وبعضهم على الخيل، وذلك في سنة ثمان وأربعين، وقيل: سنة تسع؛ وكان التقاؤهم مع لمتونة في موضع معروف عندهم، قُتل فيه يحيى بن عمر وقُتل فيه بشر كثير، وهم يذكرون بزعمهم أنهم يسمعون في ذلك الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات، والآن يحترمون ولا يدخله أحد منهم^(٤).

ذكر دولة الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني رحمه الله

وذلك أنه لما بلغ الخبر بوفاة أخيه أبي زكريا ببلاد الصّحراء، قدّمه أمامه عبد الله بن ياسين في درعة، وتوجّه إلى سجلماسة وأخذ له البيعة من أهلها، ثم وصلها الأمير أبو بكر فبويع بها في أوائل شهر محرم مفتتح عام خمسين وأربع مئة، وقيل غير ذلك، وبإيعه فيها بعض الزناتيين على يدَي عبد الله بن ياسين، وخرج الأمير أبو بكر من سجلماسة بعسكره في الثالث عشر إلى درعة ليأخذ منهم ما أوجب له عليهم من الزكاة والفطرة، وكان بدرعة قوم من زناتة فامتنعوا له فقاتلهم الأمير أبو بكر وهزمهم وغنم إبلهم ومواشيهم، وولى الأمير أبو بكر على بلاد درعة رجلاً من خيار لمتونة، وترك معه جمعاً

(١) المسالك ٢ / ٨٦١.

(٢) في مسالك البكري: «أركى» بالراء.

(٣) في مسالك البكري ٢ / ٨٦٢: «ترجة».

(٤) ينظر مسالك البكري ٢ / ٨٦٢.

كبيراً وعاد إلى سِجْلَمَاسَة، وانصَرَف أبو محمد عبدُ الله بنُ ياسين عنه إلى بلاد المصامدة وغيرها حين تذكَّر ما عاينَه من تلك القبائل وأحوالهم، فخرج من سِجْلَمَاسَة قاصداً إلى أغمات، فاجتمع بوريكة وهيلانة وهزميرة، وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامسنا فوجدهم على ما كان تركهم من الفتنة الفهاء^(١) فقال لهم: ألا تعرفون أنه من مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار؟ فوعظهم وقال لهم: اتقوا الله وارْتَدَعُوا عما أنتم عليه من فتنيتكم وقدموا على أنفسكم من يؤلفكم، فقالوا له: ما هو فينا، ولا في قبائلنا إلا كل قبيلة منا ترى أن يكون الأميرُ منها، فقال لهم: إن أنتم سمعتم مني أدلكم على رأي صالح يُصلحُ الله به أحوالكم: هذا أميرُ لَمْتُونَة الصَّحراء أهل الزُّهد والورع، وقد كانوا سمعوا به، وما أصلح الله من البلاد على يديه، فأنعموا له. وأخذ عليهم العهودَ والمواثيقَ بذلك.

ثم رحل عنهم ورجع إلى سِجْلَمَاسَة فتلَقاه الأميرُ أبو بكر بنُ عمر على مسيرة يوم منها، وسرَّ بقدومه عليه، فبشَّره عبدُ الله بنُ ياسين بما أفاء الله له على يديه، فشكره الأميرُ أبو بكر على ذلك ودعا له بامتدادِ عمره، فقال له أبو محمد عبدُ الله: تأهب للحركة إليهم وقدمك المبارك إليهم، فأخذ في غد ذلك اليوم في حركته وولَّى على سِجْلَمَاسَة أحدَ إخوانه مع جمع وافر من لَمْتُونَة، وخرج من سِجْلَمَاسَة في السابع عشرَ لربيع الآخر من السنة خمسينَ المذكورة، وذلك في عسكرٍ فيه أربع مئة فارس وثمان مئة راكب على النُجُب وألف راجل، وكان وصولهم إلى أغماتٍ وريكة في الثاني لجمادى الأولى من السنة، فتلقتهم بعضُ أشياخ قبائل المصامدة على مرحلتين من أغمات، فاحتلَّ الأميرُ أبو بكر مدينةَ أغمات واستوكن مع إمامه عبد الله بن ياسين فبايعه بعضُ القبائل بها.

ثم وفدت عليه وفودها فبايعوه، وأقام بأغمات مع إمامه مدةً من ستة أشهر؛ فلما كان أولُ شهر ذي قعدة من العام المؤرخ: انصَرَف عنه إمامه أبو محمد إلى بلاد تامسنا فقتله برغواطة في أوائل سنة إحدى وخمسين وأربع مئة، وقال بعضُ المؤرخين لدولتهم: إنه توجه في بلاد السُّوس ليُصلح بين إخوته جدولة في فتنة، فأصابه مرضٌ فقضى نحبه

(١) هكذا قرأناها، ولعل هذه القراءة هي الصواب، والفهاء: الجهلاء.

ووصل نعيه إلى أغمات، وأما ما صحَّ عنه فإنه قتله برغواطة كما تقدَّم ذكره^(١). ولم يقتل عبد الله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة وأعمالها وأغمات وبلاد السوس وغيرها.

ومما يُذكر من أحوال عبد الله بن ياسين^(٢) أنه سافر مع قوم كانوا معه فعطش جميعهم فشكوا ذلك إليه فقال: عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً. ثم سار بهم ساعة وقال احفروا، فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفرة، فعدوا ذلك كرامة له، فشربوا جميعاً وسقوا دوابهم وانصرفوا. وكانت لمتونته لا تقدّم أحداً منهم للصلاة إلا من صلى خلف عبد الله بن ياسين، وقيل: كان عبد الله نكاحاً للنساء يتزوج في الشهر عدداً منهن ثم يطلقهن، فكان لا يسمعُ بامرأةٍ حسنةٍ إلا خطبها، ولا يجاوزُ بصدائهن أربعة مثاقيل.

وأما ما شذَّ فيه عبد الله من الأحكام^(٣) فأخذهُ الثُلث من الأموال المختلطة، وزعم أنها بذلك تطيب، وأن الرجل إذا دخل في دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له: قد أذنبت ذنوباً كثيرةً فيجب أن يُقام عليك حدودها، فيضربوه حدَّ الزنا وحدَّ الافتراء، وإن علموا أنه قتل قتلوه سواء أتاها تائباً طائعاً أو غلبوا عليه. ومن يتخلف من مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطاً، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط، فكان أكثرهم يصلون بغير وضوء إذا حان الوقت وأعجلهم الأمر من أجل الضرب.

ومما يُحفظ من جهل عبد الله بن ياسين أن رجلاً اختصم إليه مع تاجر غريب، فقال له التاجر في جوابه: حاشا لله أن يكون ذلك، فأمر بضربه.

ولما مات ابن ياسين وقتله برغواطة كان الأمير أبو بكر بن عمر قد تولى أمر صنهاجة وغيرها وطاعت له قبائل المصامدة بأسرها، فقام معهم لقتال برغواطة حتى أخذ الثأر منهم. وفي ابتداء هذه الدولة اللمتونية اختلاف اختصرنا منه ما وقع الاتفاق عليه.

(١) ذكر صاحب «روض القرطاس» حروبه مع برغواطة ومقتله في إحدى المعارك متأثراً بجراحه يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤١، وذكر في أنه دفن في موضع يقال له كريفلت (ص ٩٦).

(٢) النقل من مسالك البكري ٨٦٣/٢.

(٣) عنون البكري لهذا النص في كتابه ٨٦٤/٢.

ذِكْرُ نَسَبِ أُمَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْمُرَابِطِيَّةِ

قال دَوُّو العلم بأخبارهم: إِنَّ الْجَدَّ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ نَسَبُ جَمِيعِهِمْ هُوَ مَنْصُورُ، وَالْجَدُّ الَّذِي يَفْتَرِقُ مِنْهُ أَفْخَاذُهُمْ: تَرْجُوتُ بْنُ وَرْتَّاسِنَ بْنِ مَنْصُورَ بْنِ مَصَالَةَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ وَانَالِي الصَّنَهَاجِيِّ ثُمَّ اللَّمْتُوِيَّ. وَكَانَتْ لَتَرْجُوتَ ثَلَاثَةُ بَنِينَ: مُحَمَّدٌ وَحَمِيدٌ وَإِبْرَاهِيمُ، فَتَفَرَّقَتْ مِنْهُمْ بَطُونٌ كَثِيرَةٌ، وَكَانَ الْقَائِمَ بِالْمُلْكِ فِي الصَّحْرَاءِ بَعْدَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، وَهُوَ جَدُّ يَحْيَى بْنِ عُمَرَ الْأَمِيرِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرَهُ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: أَمِيرُ الْحَقِّ، وَهُوَ: يَحْيَى بْنُ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ تَرْجُوتَ، وَكَانَ لِأَمِيرِ الْحَقِّ يَحْيَى الْمَذْكُورِ مِنَ الْوَلَدِ أَرْبَعَةٌ بَلْ ثَلَاثَةٌ: مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَعِيسَى، وَكَانَ لِأُمِّ مُحَمَّدٍ نَبَأُ ظَرِيفٍ يَأْتِي ذِكْرَهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَاسْتَصَحَبَ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ الْأَمْرَ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ، فَلَمَّا قَضَى نَحْبَهُ وَلِيَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ أَخُوهُ أَبُو بَكْرُ بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ يَرَى فِي مَنْامِهِ بَقَرَتَيْنِ يُخَيَّرُ فِيهِمَا فَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَيَقَالُ لَهُ: هَذَا الَّذِي أَخَذْتَ هُوَ الْمَلِكُ، وَالَّذِي تَرَكْتَ هُوَ الْوَلَدُ وَكَانَ لَهُ ابْنَانِ: إِبْرَاهِيمُ وَيَحْيَى، فَأَمَّا يَحْيَى فَيَعْرِفُ بِابْنِ عَائِشَةَ، وَهِيَ بِنْتُ يَارَانَ بْنِ تَايَغِشْتَ أُخْتُ إِسْحَاقَ بْنِ يَارَانَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَلَمْ تَعْرِفْ أُمُّهُ، وَكَانَ أَسْوَدَ الْجِلْدَةِ، وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرَ بْنِ عُمَرَ. وَأَمَّا فَخْدُ يَوْسُفَ بْنِ تَاشْفِينَ وَمَنْ ذَكَرَ مَعَهُمْ فَهُمْ بَنُو إِبْرَاهِيمَ، فَهُوَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ تَوْرَجُوتَ.

وَفِي سَنَةِ سِتِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ: اسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ لِلْأَمِيرِ أَبِي بَكْرَ بْنِ عُمَرَ وَطَاعَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَوَجَّهَ عُمَالَهُ إِلَيْهَا، وَكَانَ مُسْتَوِطًا بِمَدِينَةِ أَغْمَاتَ، وَكَانَتْ بِهَا امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ تُعْرَفُ بِزَيْنَبِ النَّفْزَاوِيَّةِ: قَدْ شَاعَ ذِكْرُهَا وَأَمْرُهَا فِي قِبَائِلِ الْمَصَامِدَةِ وَغَيْرِهَا، فَكَانَ يَخْطُبُهَا أَشْيَاخُهُمْ وَأَمْرَاؤُهُمْ فَتَمْتَنِعُ لَهُمْ وَتَقُولُ: لَا يَتَزَوَّجُنِي إِلَّا مَنْ يَحْكُمُ الْمَغْرِبَ كُلَّهُ، فَكَانُوا يَرْمُونَهَا بِالْحُمُقِ، وَكَانَ لَهَا أَخْبَارٌ مُسْتَطَرَفَةٌ غَرِيبَةٌ كَمَثَلِ أَخْبَارِ الْكَهْنَةِ، فَبَعْضُ يَقُولُونَ: إِنَّ الْجَنَّ يُكَلِّمُهَا، وَبَعْضُ يَقُولُونَ: هِيَ سَاحِرَةٌ، وَبَعْضُ يَقُولُونَ: كَاهِنَةٌ، فَأَعْلِمَ بِجَاهِلِهَا الْأَمِيرُ أَبُو بَكْرُ بْنُ عُمَرَ فَخَطَبَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَوَعَدَتْهُ بِإِلٍ كَبِيرٍ تُخْرِجُهُ لَهُ، ثُمَّ أَدْخَلَتْهُ فِي دَارٍ تَحْتَ الْأَرْضِ مَعْصَبَ الْعَيْنَيْنِ، ثُمَّ أَزَالَتِ الْعِصَابَةَ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَرَأَى بَيُوتًا فِيهَا ذَهَبٌ كَثِيرٌ وَفِضَّةٌ وَجَوَاهِرٌ وَيَوَاقِيتُ، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَبُو بَكْرُ بْنُ عُمَرَ كُلَّ الْعَجَبِ لِمَا عَايَنَ مِنَ الدَّخَائِرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ زَيْنَبُ: هَذَا كُلُّهُ مَالُكَ وَمَتَاعُكَ أَعْطَاكَ اللَّهُ

إياه على يدي، فصرفته الآن عليك، وكان رؤيته له بضوء الشمع، ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما أدخلته فيه، فلا علم من أين دخل ولا من أين خرج، وكان دخوله معرّساً بزَيْنَب المذكورة في شهر ذي القعدة من عام ستين وأربع مئة. وكانت هذه المرأة موسومةً بالجمال والمال، وكان لها محاسنٌ وخِصالٌ محمودة ورويةٌ مُستظرفة، فقليل - والله أعلم -: إنَّ الجَنَّ كانت تخدمُها، وقيل غير ذلك كما تقدّم.

وفي سنة إحدى وستين وأربع مئة: بعث الأمير أبو بكر بن عمر عسكرياً كبيراً قدّم عليه ابن عمّه يوسف بن تاشفين، وبعث معه جملةً كبيرة من أشياخ لمتونة ومن قبائل البربر المصامدة وغيرهم، وذلك برسم قتال رؤساء القبائل القاطنين بأرض المغرب، وكان أكبرهم شوكةً بني يفرن الزناتيين المستوطنين في قلعة مهدي بن تبالا^(١). فحاربهم يوسف بن تاشفين بمن كان معه من القبائل التي دخلت في طاعة الأمير أبي بكر بن عمر، وقرّ معنصر بن حماد إلى مدينة فاس، وقتل من اتهم بالقيام بأمر لمتونة، وقتل يوسف بن تاشفين أناساً من سدراتة.

وفي هذه السنة: ضاق المجمعُ بمدينة أغمات وريكة عن الحلق فيها، فشكا أشياخ وريكة وهيلانة بذلك إلى الأمير أبي بكر بن عمر مرةً بعد أخرى إلى أن قال لهم: عيتوا لنا موضعاً أبني فيه مدينةً إن شاء الله تعالى، وكان سكناه مع إخوانه في الأخبية، حتى ابتنى بزوجه زينب التّفزاوية في هذا العام؛ فزاد الحلق بأغمات من أجل... هيلانة وهزميرة على أن يعيتوا موضعاً حيث يكون بناء المدينة، فوقع التنازع بين المذكورين في ذلك، وطلب كل واحد أن يكون بناء المدينة في بلادهم لئیسب بناؤها إليهم، وذلك لأجل ما تقدّم بينهما من الفتنة ومداولة الإمارة إلى أن اجتمعت أشياخ قبائل المصامدة وغيرهم، فوقع تدبيرهم أن يكون موضع تلك المدينة بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة، فعرفوا بذلك أميرهم أبا بكر بن عمر وقالوا له: قد نظرنا لك موضع صحراء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا تبيت إلا السدر والحنظل. ثم كان أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت، فامتنع لهم من ذلك وقال: نحن من أهل الصحراء، ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكنى على الوادي، فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس

(١) هي قلعة فازاز، وهذا الرجل سباه ابن خلدون: «مهدي بن توالى» (تاريخه ٦/ ٢٤٥).

جَنَائِهَا، وَذَكَالَةَ فُذَائِهَا، وَزِمَامُ جَبَلٍ دَرَنَ بِيَدِ أَمِيرِهَا طُولَ زَمَانِهَا، فَرَكِبَ الْأَمِيرُ أَبُو بَكْرٍ فِي عَسْكَرِهِ مَعَ أَشْيَاحِ الْقَبَائِلِ فَمَشَوْا مَعَهُ إِلَى فَحْصِ مَرَّاكُشَ وَهُوَ خَلَاءٌ لَا أُنَيْسَ بِهِ فَقَالُوا لَهُ: ابْنِ هُنَا مَدِينَةً تَكُونُ مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ هِيلَانَةَ وَهَزْمِيرَةَ.

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ فِي الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ لِرَجَبٍ: ابْتَدِئَ بِأَسَاسِ مَرَّاكُشَ، وَذَلِكَ قَصْرُ الْحَجَرِ، وَشَرَعَ النَّاسُ فِي بِنَاءِ الدُّورِ دُونَ سُورِ.

وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعِثَهُ: كَانَ رَكُوبُ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ بَنُ عُمَرَ وَإِخْوَتُهُ وَجَمِيعُ مُحَلَّتِهِ مَعَ أَشْيَاحِ الْمَصَادِمَةِ وَالْفَعْلَةِ مِنَ الْبَنَائِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَابْتَدَأَ الْعَمَلَ فِي الْأَسَاسِ بِمُشَارَكَةِ الْأَشْيَاحِ وَحَسَبَ عَوْنَهُمْ، فَأَعَانُوا عَلَى الْبِنَاءِ بِالْمَالِ وَالرَّجَالِ، فَقَامَ سُورُ قَصْرِ الْحَجَرِ فِي نَحْوِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرَهُ ذُووُ الْمَعْرِفَةِ وَالْأَخْبَارِ، وَاشْتَغَلَ النَّاسُ فِيهَا بِبِنَاءِ الدِّيَارِ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ جُهْدِهِ وَاسْتَطَاعَتِهِ. فَذَكَرُوا أَنَّ أَوَّلَ دَارٍ بُنِيَ بِمَرَّاكُشَ مِنْ دِيَارِ لِمُتُونَةَ: دَارُ تَوْرَزَجِينَ بْنِ الْحَسَنِ الْكَائِنَةِ بِمَوْضِعِ أَسْدَالٍ، بَنَاهَا بِالطُّوبِ وَجَدَّدَهَا، وَهِيَ الْآنَ ظَاهِرَةٌ عَلَى الْمَقَرِّ بِالْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا سَنَةً سِتٍّ وَسَبْعِ مِائَةٍ، وَذَكَرُوا أَنَّ اللَّمْتُونِيِّينَ حِينَ طَلَبُوا مَوْضِعًا صَحْرَاءَ يَبْنُونَ فِيهِ مَدِينَتَهُمْ لِيَبْعَدُوا مِنْ مَوَاضِعِ الْوَادِي وَالْغِيَاضِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ لِعَادَتِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ فَوْقَ بَحْثِهِمْ وَجِدُّهُمْ وَاجْتِهَادِهِمْ عَلَى مَوْضِعِ مَدِينَةِ مَرَّاكُشَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثِ وَسِتِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ: كَانَ الْأَمِيرُ أَبُو بَكْرُ بْنُ عُمَرَ قَاعِدًا عَلَى السُّورِ وَالْفَعْلَةُ أَمَامَهُ يَعْمَلُونَ فِي السُّورِ وَفِي غَيْرِهِ، إِلَى أَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى فَرَسٍ أَشْعَثُ الرَّأْسِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ: أَيَّدَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، إِنَّ جِدَالَهَ أَغَارَتِ عَلَى إِخْوَتِكَ فَقَتَلُوا الرِّجَالَ وَسَلَبُوا الْأَمْوَالَ وَهَزَمُوهُمْ. فَلَمَّا اسْتَوْفَى كَلَامَهُ قَالَ الْأَمِيرُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، وَبَعَثَ إِلَى أَشْيَاحِ لِمُتُونَةَ وَكُبَرَائِهِمْ وَعُظَمَائِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ أَغَارَتِ جِدَالُهُ عَلَيْهِمْ وَقَتَلُوهُمْ، وَأَنَا مُسَافِرٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ لِأَخَذِ بَثَارِهِمْ، فَانْظُرُوا مِنْكُمْ رَجُلًا أَسْتَخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ. فَأَطْرَقَ الْجَمِيعُ رُؤُوسَهُمْ وَصَمَتُوا ثُمَّ رَفَعُوا وَيْهُتَوَا فَلَمْ يَكُنْ إِجْمَاعٌ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا بَدَّ أَنْ تُدَبِّرُوا مَنْ تَرَوْنَهُ يَصْلَحُ لَذَلِكَ، ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَلَمَّا كَانَ فِي... ^(١) أَبُو بَكْرٍ صَلَّى وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يُسَمِّيَ لَهُ رَجُلًا صَالِحًا يَسْتَخْلِفُهُ، فَهَتَفَ بِهِ

(١) فراغ في الأصل.

هاتفٌ مرعوبًا فقال: مَنْ هو هذا الغائب؟ فأنساه الله ذكْرَ يوسفَ بنِ تاشفينَ إلى أن وصل من بلاد المغرب في تلك الأيام وحضر بين يدي أبي بكر بن عمر وهو يُعيدُ القولَ على إخوته، وهي الثالثة، فقال له يوسفُ بن تاشفين: أنا أكونُ خليفَتكَ إن شاء الله عزَّ وجلَّ، فقال له الأميرُ أبو بكر: صدقتَ يا يوسف، أنت والله خليفتي، وتذكر قولَ الهاتف له فولاه الأمرَ بعده^(١).

ذكرُ حركة الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء^(٢)

لَمَّا أَخَذَ الأميرُ أبو بكر في الحركة إلى الصحراء وَلَّى يوسفَ مكانه وقَسَمَ الجيشَ بينَ يوسفَ وبينه، ف قيل: إِنَّ الذي تَرَكَ مع يوسفَ بنِ تاشفينَ من اللَّمْتُويينَ الثُّلُثُ ورحلَ معه الثُّلُثانِ^(٣)، وذلك في غُرَّة ربيع الآخر من سنة ثلاث وستين، فسَيَّعه يوسفُ ووادعه، وأوصاه أبو بكر فطاوعه. وكان أبو بكر بنُ عمرَ لَمَّا عَزَمَ على حركته تلك قال لزوجِه زَيْنَب: إِنِّي مسافرٌ مِنْكَ بِرَسْمِ الفتن والحروب ولا يمكنني أن أمشيَ عَنكَ وَأَنْتِ في عصمتي، فَإِنْ أَنَا مِتُّ كُنْتُ مَسْؤُولًا عَنكَ، والرأيُ أَنْ أُطَلِّقَكَ، فقالت له: الرأيُ السَّيِّدُ ما تراه، فطلَّقها، فذكروا أَنه قال لابن عمِّه يوسفَ بن تاشفين: تزوَّجها، فَإِنَّا امرأةٌ مسعودة، وقيل: إِنها هي التي طَلَبَتْ مِنْهُ طلاقَها فأَسْعَفَها بذلك.

ذكرُ ولاية يوسف بن تاشفين ونَبَذَ من أخباره^(٤)

لَمَّا تَوَجَّهَ الأميرُ أبو بكر بنُ عمر إلى الصحراء وَلَّاه مكانه وتركَ معه الثُّلُثَ من لِمُتُونَةِ إِخْوَانِهِ، فاشتغلَ ببناءِ مَرَاكُشٍ وتحصينِها، وحصلَ منها تحتُ سُورٍ وأبوابٍ في قَصْرِ الحَجَرِ، وأعانَه القِبائِلُ في جميعِ أمورِهِ وأحوالِهِ، وَحَبَّبَ نَفْسَهُ إِلَيْهِمْ، وَأَفَاضَ إِحْسَانَهُ

(١) هكذا جاء النص، وذهب ابن أبي زرع إلى أن أبا بكر بن عمر هو الذي استدعى يوسف وعقد له على المغرب، وأن أشياخ المرابطين اتفقوا على تقديمه لما علموا من دينه وفضله وشجاعته (الروض ٩٨).

(٢) ينظر الاستقصا ٢/ ٢٠-٢١.

(٣) في الروض: «نصف الجيش».

(٤) ينظر وفيات الأعيان ٧/ ١١٢-١١٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٥ فما بعد.

عليهم، وكان يُكاتبُ الأميرَ أبا بكرٍ بكلِّ ما يصنع، فيشكرُه على ذلك، وأبو بكرٍ بنُ عمرٍ في الصحراءِ يحاربُ جدالةَ حتى أخذ ثأره منهم في خيرٍ طويلٍ.

وتزوَّج يوسفُ بن تاشفينَ زَيْنَبَ النَّفْزَاوِيَّةَ في شهرِ شعبانِ المكرَّم من سنة ثلاثٍ وستينَ بعدَ تمامِ عِدَّتِها، ودخلَ بها، فسرَّت به وسرَّ بها، وأخبرتُه أنه يملكُ المغربَ كلَّه فبَسَطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموالَ الغزيرةَ، فأركبَ الرجالَ الكثيرةَ، وجمعَ له القبائلَ أموالاً عظيمةَ، فجندَ الأجنادَ وأخذَ في جَمْعِ الجيوشِ من البرِّ والاحتشاد... بنفسِه، وبتدبيرِ زَوْجِه زَيْنَبِ في كلِّ يومٍ معَ أمِسِه، حتى... سَلَكَ أهلُ المغربِ في قانونِ الضغطِ فتأتى من مُلكِه ما لم يَتَأَتَّ...

وفي سنة أربعٍ وستينَ وأربعَ مئة: تحرَّك الأميرُ يوسفُ بن تاشفينَ بعسكرِ جَرَّارٍ إلى بلادِ المغرب... ورجعَ إلى وطاط إلى ملوِيَّة^(١) إلى ناحيةِ جُراوةَ ودَوَّخَ ما مرَّ عليه من القبائلِ، ودخلت كُلُّها في طاعته، هكذا ذَكَرَ ابنُ القَطَّانِ في «نَظْمِ الجُمانِ».

وفي هذه السنة: صنع الأميرُ يوسفُ بن تاشفينَ دارَ السَّكَّةِ بِمَراكشَ، وصَربَ فيها السَّكَّةَ بدراهمَ مدوَّرةَ زِنَةِ الدَّرهمِ منها درهمٌ وربُّعٌ، سَكَّه من حسابِ عشرينَ درهماً للأوقيةَ، وهو الدَّرهمُ الجَوْهريُّ المعلومُ في وقتنا هذا، وصَربَ الدينارَ الذَّهبيَّ باسمِ الأميرِ أبي بكرٍ بنِ عمرٍ في هذا العامِ.

وفيها: ارتدَّت قبائلٌ في القبلَةِ في جهةِ سِجِلْمَاسَةَ من زَناتَةِ وغيرِهِم، فجهَّزَ إليهم يوسفُ بن تاشفينَ عسكراً قوَّدَ عليه محمدُ بن إبراهيمَ اللَّمْتُونِيَّ، فخرَجَ في شهرِ ربيعِ الآخرِ وغنمَ تلكَ القبائلَ وقتلَ المرتدِّينَ ورجعَ بغنائمَ كثيرةَ.

فدوَّن يوسفُ الدَّواوينَ ورَتَّبَ الأجنادَ وطاعتهُ البلادَ، وكتَبَ إلى بعضِ إخوانِه في السَّرِّ من أبي بكرٍ بنِ عمرٍ يُخضِّصُهُم على الوُصُولِ إليه، والقُدومِ عليه ويَعِدُّهُم بالخيرِ الجزيلِ الحَفيلِ، فوصلَ منهم جماعةٌ كبيرةَ.

وفي هذه السنة: وُلِدَ ليوسفَ بن تاشفينَ مولودٌ ذَكَرَ سَمَّاهُ المُعزَّ بالله من زَوْجِه زَيْنَبَ النَّفْزَاوِيَّةَ.

(١) نهر ملوية قرب طنجة (ينظر الروض المعطار ٥٤٥).

وفيها: قَوِيَ أَمْرُ الْأَمِيرِ يَوْسُفَ وَعَظُمَتْ شَوْكَتُهُ، فَاشْتَرَى جَمَلَةً مِنَ الْعَبِيدِ السُّودَانِ وَبَعَثَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَاِتْبَعَ لَهُ بِهَا جَمَلَةً مِنَ الْأَعْلَاجِ فَأَرْكَبَ الْجَمِيعَ وَانْتَهَى عِنْدَهُ مِنْهُمْ شَرَاءً مَالَهُ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ فَارْسًا، وَمِنَ الْعَبِيدِ شَرَاءً مَالَهُ نَحْوُ الْأَلْفَيْنِ، وَأَرْكَبَ الْجَمِيعَ فَعَلَّظَ حُجَابَهُ وَعَظُمَ مُلْكُهُ.

وفيها: افْتَرَضَ عَلَى الْيَهُودِ فَرِيضَةً ثَقِيلَةً فِي جَمِيعِ طَاعَتِهِ اجْتَمَعَ لَهُ فِيهَا مِئَةُ أَلْفٍ دِينَارٍ عَشْرِيَّةٍ وَبَيِّعَ عَلَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ.

وفي هذه السنة: اتَّصَلَ الْخَبْرُ بِالْأَمِيرِ يَوْسُفَ أَنَّ ابْنَ عَمِّهِ الْأَمِيرَ أَبَا بَكْرٍ بْنَ عُمَرَ قَدْ أَخَذَ فِي الرُّجُوعِ مِنَ الصَّحْرَاءِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ، فَاعْتَمَّ لَذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا وَحُزْنَ حُزْنًا عَظِيمًا، وَصَعُبَ عَلَيْهِ مَفَارِقَةُ الْمُلْكِ بَعْدَ أَنْ ذَاقَ حَلَاوَتَهُ وَرَتَّبَ فِيهِ مَا رَتَّبَ مِنَ الْأَجْنَادِ وَالصَّخَامَةِ، فَعَرَفَتْ زَيْنَبُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَتْ لَهُ: أَرَأَيْكَ مَهْمومًا مَكْرُوبًا مِنْ وَصُولِ ابْنِ عَمِّكَ إِلَى مُلْكِهِ الَّذِي وَلَّاكَ عَلَيْهِ، وَاللَّهِ لَا ذَاقَ أَبُو بَكْرٍ طَعْمَهَا أَبَدًا، فَطَبَّ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا، فَقَالَ لَهَا: إِنَّهُ... اسْتَخْلَفَهُ إِلَيَّ مِنْ بَيْنِ كُلِّ بَنِيهِ وَيَثْقُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ ابْنِ عَمِّي لَقَاتَلْتُهُ، فَقَالَتْ لَهُ: أَنَا أَذْلُكَ... اللَّهُ، فَقَالَ: مَا ذَلِكَ يَا زَيْنَبُ، فَإِنِّي وَاللَّهِ أَعْرِفُكَ مَيْمُونَةً، قَالَتْ لَهُ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ وَبَعَثَ مَقْدَمَاتِ رِجَالِهِ إِلَيْكَ فَلَا تَخْرُجْ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ بَادِرْهُ بِهَدِيَّةٍ جَلِيلَةٍ... فَلَا يَقَاتِلْكَ عَلَى الدُّنْيَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ خَيْرٌ لَا يَسْتَحِلُّ سَفْكَ دِمَاءٍ... عَلَى أَمْرِكَ وَتَقْوَرُ بِمُلْكِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَقَالَ لَهَا: وَاللَّهِ لَا خَالَفْتُكَ فِي أَمْرِ تُشِيرِينَ بِهِ أَبَدًا^(١).

وفي سنة خمس وستين وأربع مئة: كَانَ وَصُولُ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ بْنَ عُمَرَ مِنْ صَحْرَائِهِ إِلَى مَرَاكُشَ، فَوَجَدَ يَوْسُفَ قَدْ اسْتَبَدَّ بِالْمَمْلَكَةِ وَأَعْجَبَتْهُ الْإِمْرَةُ وَطَاعَتْ لَهُ جَمِيعُ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ مَغْلُوبٌ عَلَيْهِ، وَعَزَمَ عَلَى تَسْلِيمِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ.

ذَكَرُ خَلْعِ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ بْنَ عُمَرَ نَفْسَهُ عَنِ الْمُلْكِ

وإسلامه ليوسف بن تاشفين

كَانَ وَصُولُ أَبِي بَكْرٍ بْنَ عُمَرَ مِنَ الصَّحْرَاءِ إِلَى أَغْمَاتٍ فِي الْخَامِسِ لَشَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ الْمُبَارَكِ فِي السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ، قَادِمًا إِلَى مَرَاكُشَ، فَتَزَلَّ بِخَارِجِ أَغْمَاتٍ فِي مَضَارِبِهِ، وَتَسَابَقَ

(١) ينظر روض القرطاس ٩٨.

أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ إِلَى مَرَاكُشَ بِرَسْمِ رُؤْيَيْهَا وَرُؤْيَةِ بَنَائِهَا وَالسَّلَامَ عَلَى أَمِيرِهَا يَوْسُفَ، وَكَانُوا قَدْ سَمِعُوا عَنْ ضَخَامَةِ مُلْكِهِ وَجَمِيلِ كِرَامَتِهِ وَجَزِيلِ إِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَى إِخْوَانِهِ وَقَرَابَتِهِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَادِمِينَ عَلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَوَصَّلَهُمْ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، وَأَمَرَ لَهُمْ بِالْكَسَى الْفَاخِرَةِ وَالْحَيُولِ الْعَتِيقَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَبَرَّةِ وَالْمَكْرُمَةِ؛ فَلَمَّا عَايَنَ الْأَمِيرُ أَبُو بَكْرُ أَحْوَالَ يَوْسُفَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى نَحْوَةِ الْمُلْكِ وَعِزِّ السُّلْطَانِ، عَزَمَ عَلَى تَسْلِيمِ الْأَمْرِ لَهُ، وَعَلِمَ أَيْضًا يَوْسُفُ أَحْوَالَ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ مِنَ اللَّيْنِ فِي أَمْرِهِ لَتَقْوَاهُ وَدِيَانَتِهِ، [كَمَا أَنَّ يَوْسُفَ] ^(١) اسْتَهَالَ نَفُوسَ إِخْوَانِهِ بِإِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَزَادَ طَمَعُهُ فِي الْإِنْفِرَادِ وَالْإِسْتِبْدَادِ.

وَانْقَطَعَ رَجَاءُ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الْمُلْكِ، فَبَعَثَ إِلَى يَوْسُفَ يُعَلِّمُهُ بَوَصُولِهِ إِلَيْهِ، وَعَيَّنَ لَهُ يَوْمًا مَعْلُومًا يَكُونُ فِيهِ اجْتِمَاعُهُ بِهِ، فَخَرَجَ يَوْسُفُ مِنْ مَرَاكُشَ فِي جُنْدِهِ وَعَبِيدِهِ، وَتَلَقَّاهُ فِي نِصْفِ الطَّرِيقِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ رَاكِبًا عَلَى دَابَّتِهِ وَلَمْ تَكُنْ قَبْلُ عَادَتَهُ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ وَقَعَدَا عَلَى بُرْئُسٍ بُسْطَ لَهْمَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، فَسَمِّيَ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ فَحْصَ الْبُرْئُسِ إِلَى الْآنِ، وَأَبُو بَكْرٍ مَعَ ذَلِكَ مَتَعَجَّبٌ مِنْ كَثَرَةِ عَسَاكِرِهِ وَاحْتِفَالِ هَيْئَتِهِ، يُطِيلُ النَّظَرَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، فَتَكَلَّمَ الْأَمِيرُ أَبُو بَكْرٍ مَعَ يَوْسُفَ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا يَوْسُفُ، أَنْتَ ابْنُ عَمِّي وَمَحَلُّ أَخِي، وَأَنَا لَا غِنَى لِي عَنْ مَعَاوَنَةِ إِخْوَانِنَا بِالصَّحْرَاءِ، وَلَمْ أَرْ مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِ الْمَغْرِبِ غَيْرُكَ، وَلَا أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ، وَقَدْ خَلَعْتُ نَفْسِي لَكَ وَوَلَّيْتُكَ عَلَيْهِ، فَاسْتَمِرَّ عَلَى تَدْبِيرِ مُلْكِكَ وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِهِ وَخَلِيقٌ لَهُ، وَمَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ إِلَّا لِأَمْرِكَ ^(٢) فِي بِلَادِكَ وَأُسَلِّمَ لَكَ [وَأَعُوذًا] ^(٣) فِي مَقَرِّ إِخْوَانِنَا وَمَوْضِعِ اسْتِيطَانِنَا. فَدَعَا لَهُ الْأَمِيرُ يَوْسُفُ وَشَكَرَ [وَقَالَ لَهُ: لَكَ عَلَيَّ] ^(٤) أَلَا أَقْطَعُ أَمْرًا دُونَكَ، وَلَا أَسْتَأْثِرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَشْيَءٍ عَلَيْكَ، وَأَحْضَرَ [أَشْيَاخَ لِمُتُونَةٍ] ^(٥) الصَّحْرَاوِيِّنَ، وَخَلَعَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ، وَشَهِدَ بِذَلِكَ بَعْضُ

(١) مَا بَيْنَ الْحَاصِرَتَيْنِ زِيَادَةٌ لِتَوْضِيحِ الْمَعْنَى.

(٢) فِي الْحُلُلِ: «لَأَهْدُتْكَ» وَهِيَ بِمَعْنَى.

(٣) زِيَادَةٌ مَتَعِينَةٌ.

(٤) كَذَلِكَ.

(٥) كَذَلِكَ.

العدول وأعيان القبائل، وعاد الأمير أبو بكر إلى أغمات موضع نزوله ورجع يوسف إلى مراكش دار مملكته، فكان هذا التدبير برأي زينب النفاوية زوجته، فهي التي جسّرت له على ذلك كله حتى ملك المغرب أسعد ملك وأمه نصراً على العدو، ولم يهزم له قط جيش ولا ردت له راية بملك، والله يؤتي ملكه من يشاء.

ذكر الهدية التي أهداها الأمير يوسف بن تاشفين

إلى ابن عمه أبي بكر بن عمر^(١)

لما وصل الأمير أبو يعقوب إلى مراكش بعد اجتماعه بالأمير أبي بكر بن عمر وخلعته له نفسه وتقديمه ليوسف وبيعه، شرع يوسف في توجيه الهدية المذكورة، وذلك خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب، وسبعون فرساً منها خمسة وعشرون مجهزة بفاخر الجهازات، وسبعون سيفاً مُحلّاة، وعشرون من الأشابر^(٢) المذهبة، ومئة وخمسون من البغال والذكور والإناث، وخدمون كثيرون بنفيس الأمتعة والكسى الفاخرة، وبعث له عشرين جارية أبقاراً وجملّة من خدم الخدمة ووجه له بمئتين من البقر وخمس مئة رأس من الغنم وألف ربيع من دقيق الدرمق واثني عشر ألف خبزة وسبع مئة مد من الشعير، وبعث إليه وزناً صالحاً من العود والعنبر والمسك.

وكتب يعتذر له من ذلك ويخلف أنه ما بقي له شيء مما ادّخره واقتناه، فطابت نفس الأمير أبي بكر وقال: خير كثير هذا من يوسف. ثم انصرف بهديته بعدما أعطى منها بعض إخوانه وخاصيته؛ وأقام بصحرائه ثلاثة أعوام والأمير أبو يعقوب يمدّه بالتحف والهدايا إلى أن قتله السودان المجاورون للمتونة في الصحراء لأنه كان يُحاربهم، حتى قضى الله بوفاته بسهم أصابه كان فيه منيته، وذلك في سنة ثمان وستين وأربع مئة.

وفي سنة ست وستين وأربع مئة: بعث الأمير أبو يعقوب مردلي بن بانلونكا بعسكر ضخم إلى ناحية سلا، فافتتح تلك القبائل من غير قتال ولا نزال، فأمنهم وانصرف

(١) ينظر الحلل الموشية ١٦-١٧ وفيه تفصيل أكثر.

(٢) الأشابر: المهامز.

عنهم في الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر، وكان خروجه من مراكش في الثاني لشهر صفر، فكانت غيبته هذه نحو ثلاثة أشهر.

وفيها: بعث أيضًا يوسف بن تاشفين عسكريًا إلى الغرب قود عليه يطي بن إسماعيل، ولما وصل إلى وادي بهت بعث رقاصًا إلى أمير مكناسة الخير بن خزر الزناتي بأنه قد عفا عنه، وبعث كتابه إليه بذلك، فقرأ كتابه على زناته وشاورهم في أمره فقالوا: نقاتله بأجمعنا حتى نخرجه من بلادنا، فقال لهم: لا سبيل لذلك ولا أفعله حتى أبعث له فبعث إليه منخفاد بن عبد العزيز الزناتي، فلما وصل إلى يطي بن إسماعيل رحب به وأكرمه ولمن كان معه فقال له منخفاد: نحن رجال الأمير أبي يعقوب، وبلادنا بلادك، غير أننا لا بد لنا من الاجتماع به وشروط نشرطها عليه، وحينئذ نسلم البلاد إليه ونخرج له عنها، وضمن له اللمتوني ابن إسماعيل تلك الشروط عنه وتعاهد على ذلك معه، ودخل مكناسة وخرج الخير منها أميرها ومن كان معه من زناته إلى موضع القناطير، وولي مكناسة بعد الخير بن خزر الزناتي الأفضال اللمتوني، ورحل ابن إسماعيل بعسكره مع الخير المذكور إلى مراكش، وأنعم عليه الأمير يوسف بكل ما أراد، ثم صرفه، فبقي الخير مستوطنًا بخارج مكناسة إلى أن مات رحمه الله.

ذكر تسمية يوسف بن تاشفين رحمه الله بأمر المسلمين

وفي هذه السنة: اجتمع أشياخ القبائل على الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين وقالوا له: أنت خليفة الله في المغرب، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير إلا بأمر المؤمنين، فقال لهم: حاشا لله أن أتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به الخلفاء، وأنا راجل^(١) الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد الغرب، فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به فقال لهم: يكون أمير المسلمين، فقيل: إنه هو الذي اختاره لنفسه، فأمر الكتاب أن يكتبوا بهذا الاسم إذا كتبوا عنه أو إليه.

وفي سنة سبع وستين وأربع مئة: افتتح أمير المسلمين يوسف مدينة فاس، وذلك لما افتتح مدينة مكناسة، ووصله أميرها الخير وأحسن إليه وأكرمه وخيره حيث يريد

(١) هكذا في الأصل، وهي كذلك في الحلل، والوجه: «رجل».

السُّكْنَى وَأَسْعَفَه فِي كُلِّ مَطْلَبٍ، جَهَّزَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَسْكَرًا جَرَّارًا وَقَدَّمَ عَلَيْهِ ابْنَ عَمِّهِ يَحْيَى بْنَ وَاسِينُوا اللَّمْتُونِيَّ، وَأَمَرَهُ بِمَنَازِلَةِ فَاسَ فَكَانَ وَصُولُهُ إِلَيْهَا عَقِبَ رَجَبِ الْفَرْدِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ. وَكَانَ أَمْرَاءُ فَاسَ يَوْمَئِذٍ أَبْنَاءَ حَمَامَةٍ، فَقَاتَلَهُمْ يَحْيَى قِتَالًا شَدِيدًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَفِي الثَّامِنِ دَخَلَهَا عَنُودَةٌ، مَاتَ فِيهَا مِنْ أَهْلِ فَاسَ بَشَرٌ كَثِيرٌ وَسُلِبَتِ دِيَارُهُمْ ثُمَّ عَفَا عَنْهُمْ وَانْحَصَرَ ابْنَا حَمَامَةٍ: الْفَتْوحُ وَدُونَاثُ فِي قَصْرِ هُمَا، ثُمَّ طَلَبُوا^(١) الْأَمَانَ فَعُفِيَ عَنْهُمَا فِي نَفْسَيْهِمَا، فَكَتَبَ بِفَتْحِ فَاسَ وَبِأَخْبَارِ الْفَتْوحِ بْنِ حَمَامَةٍ وَأَخِيهِ إِلَى الْأَمِيرِ يَوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ، فَأَمَرَ بِتَوْجِيهِهِمَا حَيْثُ شَاؤُوا^(٢)، فَاسْتَوْصَى الْفَتْوحُ مَغِيلَةَ^(٣)، وَاسْتَوْلَتْ لِمُتُونَةُ عَلَى مَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا اللَّهُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: وَصَلَ الْخَبْرُ إِلَى يَوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ بِوَفَاةِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَبَيْعَةِ الْخَلِيفَةِ الْمُقْتَدِرِ بِاللَّهِ فِي الثَّالِثِ عَشَرَ لَشَعْبَانَ^(٤).

فَتْحُ مَدِينَةِ تِلْمَسَانَ

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ: جَهَّزَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ يَوْسُفَ بْنَ تَاشَفِينَ عَسْكَرًا ضَخْمًا وَقَدَّمَ عَلَيْهِ ابْنَ عَمِّهِ مَزْدَلِيَّ اللَّمْتُونِيَّ، وَبَعَثَهُ إِلَى مَدِينَةِ تِلْمَسَانَ^(٥)، وَكَانَ أَمِيرُهَا يَوْمَئِذٍ الْعَبَّاسُ بْنُ يَحْيَى أَمِيرُ رَنَاطَةٍ، فَكَتَبَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ كِتَابًا بِالْعَفْوِ عَنْهُ إِنْ نَزَلَ دُونَ قِتَالٍ فَخَرَجَ هَذَا الْعَسْكَرُ مِنْ مَرَّاكُشَ فِي أَوَائِلِ شَهْرِ مُحَرَّمٍ وَوَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ تِلْمَسَانَ عَقِبَ شَهْرِ صَفَرٍ، فَقَدَّمَ مَزْدَلِيَّ الْكُتُبَ إِلَى الْعَبَّاسِ بِكِتَابِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، فَعِنْدَ وَصُولِ الرَّقَاصِ بِالْكِتَابِ إِلَيْهِ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ مِنْ تِلْمَسَانَ، فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ الْأَمِيرُ مَزْدَلِيَّ بِمَطْلَبِهِ وَوَافَقَهُ فِي مَذْهَبِهِ، وَرَحَلَ الْأَمِيرُ مَزْدَلِيَّ إِلَى تِلْمَسَانَ وَدَخَلَهَا فِي مُهْلَةٍ وَحَالٍ هُدْنَةٍ، ثُمَّ وَلَّى عَلَيْهَا ابْنَهُ يَحْيَى بْنَ مَزْدَلِيَّ وَرَجَعَ إِلَى مَرَّاكُشَ، فَكَانَ وَصُولُهُ إِلَيْهَا فِي نِصْفِ رَبِيعِ الْآخِرِ

(١) هَكَذَا فِي الْأَصْلِ، وَهُوَ جَائِزٌ، وَالْأَحْسَنُ: «طَلَبُوا».

(٢) هَكَذَا فِي الْأَصْلِ، وَهُوَ جَائِزٌ، وَالْأَحْسَنُ: «شَاءُوا».

(٣) كَأَنَّ الْمُرَادَ: فَطَلَبَ فَتُوحَ الذَّهَابِ إِلَى مَغِيلَةَ.

(٤) يَنْظُرُ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ ١٠/١٤٩-١٥٠، ٢٤٨.

(٥) جَعَلَ ابْنُ خُلْدُونٍ هَذِهِ الْحَرَكَةَ سَنَةَ ٤٧٢ هـ (تَارِيخُهُ ٦/٢٤٧).

من هذه السنة ومعه العباسُ صاحبُ تِلْمَسَانَ، فَأَنعَمَ عليه أميرُ المسلمين بكلِّ خيرٍ، وأَمَرَ له بظواهرِ كريمة وانصَرَفَ إلى وطنه.

وفي سنة تسع وستين وأربع مئة: وَصَلَ إبراهيمُ بن أبي بكر بن عُمَرَ من الصَّحراءِ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، فَتَزَلَّ بخارجِ أَغْمَاتٍ في خَلْقٍ كثيرٍ من إخوانه لِمَتُونَةٍ، فَسَمِعَ بذلك أميرُ المسلمين، فَبَعَثَ إليه الأَمِيرَ مَزْدَكِي فَقَالَ له: ما الذي تريدُ يا إبراهيمُ؟ قال: أَطالِبُ مُلْكَ أَبِي الذي غَضَبَنَا فيه عَمِّي يوسُفُ، قال مَزْدَكِي: إِنَّ المُلْكَ بيدَ اللهِ يُوْتِيهِ من يشاءُ، واللهُ تعالى قد خَصَّ هذا الرَّجُلَ بالمُلْكِ دوننا، فَإِنْ كُنْتَ عاقلاً فاطْلُبْ منه أَنْ يُعِينَكَ بهالٍ وَخَيْلٌ ترجعُ بهما إلى بلدك، وَإِنْ طَلَبْتَ غيرَ هذا أَخافُ أَنْ يَجْعَلَ على رَجْلِكَ قِيدًا وَيَحْبِسَكَ عندهَ عبدًا، وما قَلْتُ لك ذلك إلا بوجهِ الشَّفَقَةِ عليك، فقال له: يا عَمِّي مَزْدَكِي رضي اللهُ عنكَ، عسى أَنْ تجتمعَ معه في أَمْرِي وتُبَيِّنَ له حالي، وكان الأَمِيرُ مَزْدَكِي حَسَنَ السِّيَاسَةِ صحيحَ المذهبِ عارِفًا بخدمةِ الملوكِ، فَهَدَّنَ إبراهيمَ المذكورَ وقال له: أَقِمْ في موضعِكَ حَتَّى آتِيكَ بكلِّ ما يُرضيكِ، فانصَرَفَ عنه ووَصَلَ إلى الأَمِيرِ يوسُفَ بنِ تاشُفِينِ فَحَسَّنَ كلامَه إليه، وَأَنعَمَ الأَمِيرُ يوسُفُ عليه بهالٍ وَخَيْلٌ وكُسَى وغيرِ ذلك بعدما بولغَ في كرامَتِهِ وضيافَتِهِ، واحتمَلَ له ذلك مَزْدَكِي، فَشَكَرَهُ الولدُ على ذلك وانصَرَفَ عنه من هنالك، ولم يجتمعَ بالأَمِيرِ يوسُفَ ولا رآه، وانصَرَفَ إلى الصَّحراءِ وبقيَ بها إلى أَنْ مات.

وَجَرَتْ لأَمِيرِ المسلمينَ معَ أميرِ تازَا في هذه السنة - وقيل: في سنة سبع وستين - حروبٌ شديدةٌ بفتحِ الوادي هَزَمَهُ أميرُ تازَى، وهو: أَبُو يَعْلَى، وكان معه القاسمُ بنُ عبد الرحمن بن أبي العافية على لِمَتُونَةٍ، وذلك بموضعِ (أجرسيف)^(١).

وفي هذه السنة: وُلِدَ للأَمِيرِ يوسُفَ بنِ تاشُفِينِ وَلَدُهُ الفضلُ من زَوْجِهِ زَيْنَبَ النَّفْزَاوِيَّةِ، وكانت أَحَبَّ ما لديه، امرأةٌ غالبَةٌ عليه، ليس... ولا كان أَمْرٌ إِلَّا أَمَرَهَا، وكان يقولُ لِبَنِي عَمِّهِ إِذَا خلا بهم وورَدَ ذَكَرُهَا: إِنَّا فَتَحَ البلادَ برأيها...

(١) ينظر الروض المعطار ١٢.

الكَبَيْطُورُ فِي بَلَنْسِيَّة

وكان الطاغية لُذْرِيْقُ النَّصْرَانِي، الملقَّبُ بالكَبَيْطُور، قد أخذ بمُخَنَّقِ بَلَنْسِيَّة وأَلْقَى زُورَه عليها، يَحْبِي رَعِيَّتَهَا وَيَسْتَغْلِيها حاضرةً وبادية. وقد اسْتَضَعَفَ حَفِيدُ ابنِ ذِي النُّون، مَلِكُها المَشْتُوم، وكان اجْتَلَبَه لِيُحْتَرَمَ به فَرَمَى بِسَهْمِه إلى نَحْرِه، فَخَلَعَه اللَّعِينُ وبقي حتى أَرَادَ الله بما أَرَادَ من حَتِفِه، وكان أَيْضًا صَاحِبُ سَرَقُسطَةَ ابنِ هُودِ يَمِيرُ لُذْرِيْقَ وَأَصْحَابُه النَّصَارَى، وَيَعْضُدُه بالسَّلَفَةِ، وَيُوجِّهُ المَغِيرَةَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، فَكان ما يَأْتِي به الذِّكْرُ.

قال مُحَمَّدُ بنُ عُلُقَمَةَ: وفي شَعْبَانَ من العامِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ: انْتَقَلَ الكَبَيْطُورُ إلى سَرَقُسطَةَ، واسْتَخْلَفَ على أَطْعَمَتِهِ المَخْتَرَنَةَ وَضَرَائِبِ المَفْرُضَةِ بِبَلَنْسِيَّة، فَتَنَقَّسَ مُحَقِّقُ أَهْلِها، وانْفَرَجَتِ الضَّيْقَةُ عَنْها.

ثُورَةُ القَاضِي ابنِ جَحَّافٍ بِبَلَنْسِيَّة^(١)

ولَمَّا ظَهَرَ ابنُ عَائِشَةَ بِمُرْسِيَّة، وَتَوَالَى ظَفَرُه بِها وَبذَوَاتِها، وَقَعَ الإِصْفَاقُ من القَاضِي أَبِي أَحْمَدَ جَعْفَرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَحَّافٍ، وَصَاحِبِ الأَحْكامِ ابنِ وَاجِبٍ، وَأَهْلِ العَقْدِ وَالْحَلِّ من أَهْلِ بَلَنْسِيَّة، على اسْتِدْعاءِ مُحَمَّدِ بنِ عَائِشَةَ، فَانْفَذَ إِلَيْهِمَ لَمَّةً من المَرابِطِينَ تحتَ نَظَرِ ابنِ نَصْرٍ، وَاتَّصَلَ النَظَرُ بَمَنْ بِبَلَنْسِيَّة، فَنَظَرَ أَحْبَاءُ سُلْطانِهِمِ ابنِ ذِي النُّونِ في إِنْفاذِ عِيالِهِمَ وَذَخائِرِهِمَ وَأَمْوَالِهِمَ إلى المَعاقلِ وَالْقِلاعِ، وَأَخْرَجَ حَفِيدُ ابنِ ذِي النُّونِ بَعْضَ عِيالِهِ إلى ابنِ يَاسِينَ قَائِدَهُ على حِصْنِ شُبْرُبٍ، وإلى ابنِ حُدَيْدَةَ بِحِصْنِ العِقَابِ، وَفَرَّ على وَجْهِهِ مَنْ فِيها مِنَ الرُّومِ من رِجالِ لُذْرِيْقٍ. وَخَرَجَ القَاضِي وَالْفُقَهَاءُ لَتَلْقَى ابنَ نَصْرٍ، رُسُولِ ابنِ عَائِشَةَ وَإِدْخالِهِ البَلَدَ، وَفَرَّ القَادِرُ عَنِ البَلَدِ إلى دارِ هَجِينَةَ، فَفَحَصَ ابنُ جَحَّافٍ عَنْه إلى أَنْ ظَفَرَ عَلَيْهِ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ لَسَبْعِ بَقِيْنَ من رَمْضَانَ.

نَقْلُ القَادِرِ حَفِيدِ ابنِ ذِي النُّونِ

لَمَّا حَصَلَ بِيَدِ ابنِ جَحَّافٍ، أَمَرَ بِقَتْلِهِ، فَتَوَلَّى ذَلِكَ فَتَى من بَنِي الحَدِيدِيِّ^(٢) زَعِيمٌ طَلِيطْلَةُ، فَقَتَلَهُ بِيَدِهِ كَفَعْلِهِ بَوْلِيَّهَ أَبِي بَكْرِ ابنِ الحَدِيدِيِّ، وَحُمِلَ رَأْسُهُ على عَصَا يُطَافُ بِهِ

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الضبط من خط الذهبي في تاريخ الإسلام ٩/ ٤٤٨.

الأسواق والسكك. واحتوى ابن جحاف على ما كان معه، وطرح جثته في سبحة، فواراه رجل من التجار: اجتاز به على باب مغطى بحصير خلق، ودفنه دون كفن.

وتبوأ ابن جحاف تبؤؤ الرياسة، ورتب أرزاق الجند والخدمة، واستشعر غلظة الرؤساء، وأظهر أبهة الملك، وطمح بصره إلى قضية القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد، فما حسن النظر، ولا ساعده القدر، فكان يجلس مكتنفا بالوزراء والفقهاء والرُعاء، والغلمة أمامه، ويركب فيتقدمه العبيد والطرد، ويتأخر عنه الجند، وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء.

وكتب لذرير الكبيطور إلى ابن جحاف المذكور يهنئه على تلك الأمور، وي... بالحسنة التي اكتسبها في رمضان بقتل سُلطانِه، ويطلب منه أطعمته المختزنة عنده ببلنسية. فراجع الكبيطور، يُقسم بمغلظات الأيمان ألا يبرح من بلنسية حتى يظفر به، ويأخذ ثار ابن ذي النون منه، وأنفذ إلى الحصون المجاورة يستمدد القوات، فأمدته من اتقى شره، وأقبلت الميرة إلى محله، واتصل الضرب منها إلى بلنسية، فأضر بها، وقتل من ظفر به من أهلها. وكان معه جملة من رجال ابن ذي النون.

وفي خلال ذلك، ألحق ابن جحاف من الجند عدداً، وأنفذ إليه ابن عائشة بعد ذلك المدد مدداً، واجتمع له ببلنسية زهاء ثلاث مئة فارس، وابن جحاف يزداد غلظة وحجةً، وجيش الروم يراوهم ويغاديه، والحرب تدور عليهم، فمنهم القتل والجرحى. وأمل الكبيطور إزعاج المُرَاطين من بلنسية، وكان ابن جحاف قد استقلهم، لكنه يستعملهم، واستشعروا ذلك منه. ودخل الكبيطور ابن جحاف في إخراجهم واستبداده بالملك لنفسه ليقيم معه مقام ابن ذي النون، يحمي حوزته، ويُقاتل عنه، فطمع في ذلك.

وفي سنة ست وثمانين وأربع مئة: عظم بلاء الطاغية على بلنسية، واشتد حالهم، وعظم أمرهم. فاستصرخوا أمير المسلمين يوسف، وبسطوا عنده القول فيما نزل بهم. فجاء في أمرهم، وأمر قواده وعماله على بلاد الأندلس بنصرهم، فتلاحقت جموع المسلمين بشاطبة، واتصل النبأ بالعدو، فما برح، ولا تزحزح. فوصلت الجيوش ومعها من المطوعة خلق كثير خيلاً ورجلاً، فاستقبلت بلنسية سيراً حثيثاً حتى أشرفت عليها، واستشرف أهلها عليهم، واستبشروا بنصرهم والانتقام من عدوهم، واستنشقوا ريح

الحياة. وخرج العدو إلى طرف محلته؛ فعبأ الجيش فرقتين وأمر كل فرقة، فلزمت مصافها. وأوقع الله لهما قضاءً في قلوب المسلمين التَّكْوَلَ عنهم؛ فرجعوا عودهم فبهت أهل المدينة، وسقط في أيديهم ويسوا من الحياة. واستأسد العدو، واشتدَّ كلبه، وأقام يجبي الرعية ويوجه المغيرة، ويمنع الدخول إلى المدينة، ويعيث في فل الفار عنها، ومن تحرك من قريته، أو شعر بحركته، يستبعد أهله وكذلك. فلم يقدم أحد على التحرك ولا حدث نفسه بالتحول. ولما صدرت جيوش المسلمين إلى شاطبة، بادر الأمير أبو بكر بن إبراهيم إعلام أمير المسلمين.

وفي سنة سبع وثمانين وأربع مئة: لما انصرف جيش الأمير أبي بكر بن إبراهيم اللثميّ يحكم القدر السابق عن بلنسية، أيقن من فيها بالهلكة، وغلب على الناس اليأس، وضاعت النفوس، وزاد حقد العدو، وقسا قلبه، وهلك أكثر الناس جوعاً، وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك، ومن فر إلى المحلة فقت عيناه، أو قطعت يده، أو دقت ساقاه، أو قتل. فرضي الناس بالموت في المدينة، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافاً لانفساح مدة الحصار، وتضاعف حقد العدو لصبرهم وطلبهم النصرة.

ذكر تغلب العدو على بلنسية في هذه السنة

لما بلغ بأهل بلنسية الماء الزبى، وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى، ولا نصر ولا غوث، ألجأهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار، لا بحكم الاختيار. فتجمعوا إلى قاضيهم أبي المطرف ابن جحاف، وسفروا إلى الطاغية الكبيطور لعنه الله من يتوسط لهم معه أخذ الأمان. فأجاب في هذا الشأن، وعقد نيته على الحتر، ونقض العهد، وإعطاء أمان مثله من الأنجاس. فخرج إليه القاضي، وعقد عليه العقود، وأخذ الموائق والعهود، وحزم في كل ذلك، وبلغ الغاية التي ما بعدها غاية، ولا وراءها لمجهد نهاية، فلما كمل الأمر فتحت له الأبواب، ودخل المدينة بجملته، وذلك في جمادى الأولى من هذه السنة، فلم يعمل هو وأصحابه لعنهم الله ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال، فانتشطت الأنفس من عقال، وانبسطت الآمال، وأمن الناس. وهو مع ذلك يراعي أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة، وحصل لعنه الله على هذه الحضرة، ورعى على ما هي عليه من النعمة والنصرة والحسن والبهجة.

واشتدَّ جَزَعُ المسلمينَ بدانيةً وما اتَّصلَ بها من ذلك الصُّقْع من القلاع والقواعد، وكثر شرُّ الغارات من بَلَنْسِيَّةَ عليها، وتوالى الضُّربُ وعَظُمَ الضَّررُ، وانقَطَعَت السَّابِلَةُ، وخافت الطُّرُق، وصار أهلُ تلك الجهات في أَضيقَ من العِزْق، وقد حَمِيَتِ الفِتْنَةُ. فخاطَبَ الناسُ أميرَ المسلمين مُستصِرِّحِينَ مُعلِّمينَ بفساد الشُّرْق، وإشراف الأُمَّة على الهَلَكَةِ. فتحرَّك إلى مدينة سَبْتَةَ، وتقدَّم أمرُه إلى القبائل بالَّلِّحاق بها، وأقام هنالك يُجَنِّدُ الأَجنادَ، ويُسرِّبُ الأُمُدادَ، وجعلَ تلك الجيوشَ وأمرها إلى نَظَرِ ابن أخيه الأمير أبي عبد الله ابن أخي يوسفَ لأُمِّه، والأمير أبو بكر هو أيضًا ابنُ أخي يوسفَ بن تاشفينَ لأُمِّه وابنُ عمِّه. وأوعِزَ أميرُ المسلمينَ إلى صاحبِ غُرْناطَةَ وما والاها أن يُمدِّدوه بأنفُسِهِم ورجالِهِم، وكتبَ إلى صاحبِ شَنْتَ بَرِيَّةِ ابنِ رَزِينِ الملقَّبِ بالحاجبِ، وإلى الشَّيْطاني - وكان من أنجادِ الفُرسانِ ودُهاةِ الحرب - ليجتمعوا مع ابن أخيه لاجتماعِ الكلمة واتِّصالِ المُعاضِدةِ والمُظاهرةِ على منازلةِ العدوِّ بِلَنْسِيَّةِ.

ولحقَ الجيشَ بالأنْدلسِ عَقِبَ شعبانَ المَكْرَمَ ما يَنيفُ على أربعةِ آلافِ فارسٍ، وأضعافُها مرَّاتٍ من الرِّجالِ. وتحركَ من أَمْرٍ بالحركةِ إلى الاجتماعِ به. وأقبلتِ دوابُّ الميرةِ من كُلِّ صُقْع، ونزلتِ المحلَّاتُ على فرسَخٍ من بَلَنْسِيَّةِ. فصارت مِصرًا عَظِيمًا. ورأى الرُّومُ بحرًا محيطًا، وهُمُّوا بالفرارِ وإخلاءِ بَلَنْسِيَّةِ إلَّا اللَّعينَ زعيمَهُم الكَبِيطُورَ، فلم يرُعْه في ظاهرِ الأمرِ ذلك الجَمْعُ ولا عِيبُ به، وكانت له في الطَّيرِ عِيافَةٌ وزَجَرٌ، يُضِيفُ إلى ذلك مَحْرَقَةٌ من كَذِبِهِ، يَقْوِي بها نفوسَ أصحابِهِ، وفي ذلك يقولُ أحدُ أهلِ بَلَنْسِيَّةِ [من البسيط]:

قولوا للذُّريقِ إنَّ الحقَّ قد ظَهَرَ أو نَقْدوه إذا ما طيرُهُ زَجَرَ
سيوفُ صُنْهاجَةٍ في كُلِّ معتركٍ تأبى لأطيارِهِ أن تصدُقَ الخبرا

وعَمَدَ اللَّعينُ، عندَ نزولِ المحلَّاتِ عليه، إلى الضَّعْفَةِ من النِّساءِ والوُلدانِ من المسلمينَ فأزعَجَهُم إلى المحلَّةِ، وقال: الحقوا بأهلِ ملَّتِكُم! فوقَّعن إلى أيدي السُّودانِ وخَدَمَةِ الدَّوابِّ والسُّفلةِ من الباعةِ فغلَّبوا عليهنَّ وفَسَّقوا بهنَّ، ولم يُرْفَعْ ذلك إلى صاحبِ الجيشِ، فيَقَعَ التَّغْيِيرُ والنَّهْيُ عن المنكرِ.

ثم رحلت المحلة إلى دانيّة وغيرها، فضاع الحزم وانتقص العزم، وظهر العجز، واختل الجيش، وصاحبه في غفلة عنه، مغترّ بكثرتّه، يقدّر أنّ الجيش بوفره، ويتهاون بعده، ويحسب أنه مثله على مثله. فبدت العورة، وأمكنت الفرصة. وكان الكيطور قد ضاقت نفسه من مقاومة هذا الجمع؛ فاستجاش الأذفونش، وشاع ذلك في محلات المسلمين، فتوجّست النفوس، وأشرّبت خوفه القلوب، وكانت هذه الأمور، دواعي لِمَا جرّه المقدور.

ذكر عُذر لُذريق اللّعين لمحلة المسلمين

ولمّا رأى لُذريق - لعنه الله - ضياع المحلة، وتفرّق الناس عنها في كلّ وجهة، اعتبر العرة وأعمل الحيلة ولم ينتظر النصرة. فركب في بعض خيله، وكمّن البعض ليلاً على مقربة من المحلة، وخرج صبح تلك الليلة بمن معه في أهبة وعلى تعبئة، والناس في طمأنينة وعلى غفلة. فلما اشتهر من في المحلة، وقعت الرجة وعلت الصيحة. وركب من بقي من المرتزقة والمطوعة، ولم يبق في المحلة إلا الغلّة ومن لا يدفع عن نفسه. وصمّمت الخيل إلى لُذريق المذكور، فاستطردّ لهم إلى المدينة، ونشطوا في أثره، فاستدراّ بالسور، ولازمته الجيوش تُصيب منه وتظهر عليه فخرجت كائنة إلى المحلة، فدوّختها. وكان الأمير محمد بن أخي أمير المسلمين شاكياً متخلّفاً بها، فبادر بالخروج عنها. واتصلت بالمسلمين الصيحة بدخول المحلة، فبهت الناس، ولم يشكّوا، لِمَا كان في أنفسهم، أنّ الأذفونش طرّقها. فهام كلّ على وجهه، وأخذوا في غير طريق، ومن صمد إلى المحلة، فرأى النهب فيها، والخيل تحرقها، تنكّب عنها، فلم يرجع أحدٌ إليها. وأقبل العدو على النهب، ولم يتبع الفلّ، ورّفه عن الخيل لسقوطها من عنده بالضّيقة لِمَا لحقها بكنسية. فلم يعمل سيفٌ، ولا أريق دمٌ إلا أفذاذ رزقهم الله الشهادة.

واتصل النبا بإذفونش وقمه الله وقد تجاوز في نصف طريقه لنصرة لُذريق، وبلغته هديته من نهب المحلة، فكره أن يفرّق جمعه ويخفق جيشه، فقصد أرض وادي آش من نظر غرناطة، فتردّد في جهاتها، واكتسح ما ألفاه بها، وحمل جملة من رعيّتها المعاهدة لعمارة أرض طليطلة.

واتَّصل النَّبَأُ أَيضًا بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ يَوْسُفَ، فَبَلَغَ مِنْهُ كُلَّ مَبْلَغٍ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ لِتَضْيِيعِ الْحَزْمِ وَإِسْلَامِ الْمُحَلَّةِ دُونَ حَرْبٍ يَقُومُ بِهِ عُذْرٌ، وَانْتَقَلَتْ جِيُوشُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى دَانِيَّةٍ، ثُمَّ إِلَى شَاطِئَةٍ، فَابْتَدَرُوا بِمُخَاطَبَةِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ مُعْتَذِرِينَ، فَأَعْرَضَ عَنْ كِتَابِهِمْ وَأَضْرَبَ عَنْ جَوَابِهِمْ. وَلَمَّا طَالَ إِعْرَاضُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ ابْنِ أَخِيهِ وَمِنْ مَعَهُ، اسْتَلْطَفَهُ وَرَجَعَ فِي أَمْرِهِ إِلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَسَلَّمَ الْأَمْرَ لِلَّهِ فِيهَا قَضَى، وَعَادَ مِنَ الْعَتَبِ وَالسَّخَطِ إِلَى الرِّضَى، وَخَاطَبَهُ بِلُزُومِ شَاطِئَةٍ لِتَشْمِيرِ الْعَادِيَةِ، عَنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ إِلَى بَلَنْسِيَّةٍ، وَحَضَّهُ عَلَى الضَّرْبِ عَلَيْهَا. فَبَلَغَ مِنْ ذَلِكَ مَا فِي وَسْعِهِ وَبَدَّلَ غَايَةَ جُهْدِهِ. وَلَمْ يَزَلْ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ يُمِدُّ ابْنَ أَخِيهِ بِالْأَمْوَالِ وَالرِّجَالِ إِلَى أَنْ عَظُمَ الْجَيْشُ وَكَثُفَ، وَضَخُمَ أَيضًا أَمْرُ الْفِتْنَةِ وَالتَّعَبِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ كَتَبَ إِلَيْهِ، يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ. وَبَعَثَ عَوَضَهُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ الْحَاجِّ، فَلَحِقَ بِشَاطِئَةٍ وَانضَمَّتْ الْجِيُوشُ عَلَيْهِ. وَكَانَتْ هُدْنَةً عَلَى دَخْنٍ!

ذِكْرُ حَرْقِ الْقَاضِي أَبِي أَحْمَدَ ابْنِ جَحَّافٍ

وَمَحَنَةُ أَهْلِهِ وَقَرَابَتِهِ وَمَحَنَةُ أَهْلِ بَلَنْسِيَّةِ^(١)

وَلَمَّا تَمَهَّدَتْ بَلَنْسِيَّةٌ لِلْكَيْطُورِ لَعَنَهُ اللَّهُ بَدَأَ يَثْقِفُ قَاضِيَهَا ابْنَ جَحَّافٍ وَثِقَافِ أَهْلِهِ وَقَرَابَتِهِ، فَعَمَّهِمُ الثَّقَافُ، وَبَلَغَتْهُمْ الْمِحْنَةُ، وَجَعَلَ يَطْلُبُهُمْ بِهَالٍ حَفِيدِ ابْنِ ذِي النَّوْنِ. وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُمْ حَتَّى اسْتَصَفَى أَمْوَالَهُمْ وَاسْتَفَدَّ أَحْوَالَهُمْ. فَلَمَّا لَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا، أَمَرَ بِإِضْرَامِ النَّارِ، وَسِيقَ الْقَاضِي أَبُو الْمَطْرَفِ، يَرْسُفُ فِي قِيُودِهِ، وَأَهْلُهُ وَبَنُوهُ حَوْلَهُ، وَقَدْ حُشِرَ النَّاسُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالرُّومِ. ثُمَّ قَالَ لِلْمَلَإِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: مَا جَزَاءُ مَنْ قَتَلَ أَمِيرَهُ عِنْدَكُمْ فِي شَرِّكُمْ؟ فَصَمَتُوا، فَقَالَ لَهُمْ: جَزَاؤُهُ عِنْدَنَا الْإِحْرَاقُ بِالنَّارِ! وَأَمَرَ بِهِ وَبِجُمْلَتِهِ إِلَى ذَلِكَ الضَّرْمِ، وَقَدْ لَفَحَ الْوُجُوهَ عَلَى الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ. فَضَجَّ الْمُسْلِمُونَ وَالرُّومُ، وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ فِي تَرْكِ الْأَطْفَالِ وَالْعِيَالِ، إِذْ لَا ذَنْبَ لَهُمْ، وَلَا عِلْمَ بِتِلْكَ الْأُمُورِ عِنْدَهُمْ، فَأَسْعَفَ الرِّعْيَةَ فِي رَغَبَتِهِمْ بَعْدَ جَهْدٍ وَمُدَّةٍ، وَتَرَكَ النِّسَاءَ وَالصَّبِيَّةَ.

(١) تنظر الحلة السيرة لابن الأبار ٢/ ١٢٥-١٢٦، والتكملة له أيضًا ١/ ٣٧٥، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٥٩٤، وتنظر الذخيرة ٣/ ٧٣ فما بعدها.

وحُفِرَ للقاضي حُفْرَةٌ، وأُدْخِلَ فِيهَا إِلَى حُجْرَتِهِ، وَسُوِّيَ التُّرَابُ حَوْلَهُ، وَضُمَّتِ النَّارُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا دَنَتْ مِنْهُ، وَلَفَحَتْ وَجْهَهُ، قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ثُمَّ ضَمَّهَا إِلَى جَسَدِهِ. فَاحْتَرَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَلَمْ يَكْفَ غَضَبُ الطَّاغِيَةِ عَلَيْهِ إِلَّا لَشِدَّةِ صَبْرِهِ عَلَى تِلْكَ الْأُزْمَةِ، وَاجْتِهَادِهِ فِي طَلِبِ النَّصْرَةِ، وَدَفْعِهِ إِيَّاهُ بِالْمُطَاوَلَةِ، رَجَاءً فِي اسْتِمْسَاكِ الْبَلَدَةِ وَإِبْقَاءِ الْكَلِمَةِ.

وَعَمَدَ الطَّاغِيَةُ لَعَنَهُ اللَّهُ بَعْدَ إِحْرَاقِ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الْجِلَّةِ مِنْ أَهْلِ بَلَنْسِيَّةٍ، فَتَقَفَّهْمَ وَأَعْرَمَهُمْ حَتَّى اسْتَأْصَلَ جَمِيعَ مَا عِنْدَهُمْ وَجَعَلَ النَّاسَ فِي الْمَحَنَةِ أَسْوَى، يَأْخُذُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، حَتَّى عَمَّتْهُمْ الْمَحَنَةُ، وَهَلَكَ فِي ذَلِكَ الثُّقَاتُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلَهَا كَفَارَةً لَهُمْ.

وَمَّا امْتَحَنَ بِهِ أَهْلُ بَلَنْسِيَّةٍ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ: الْغَلَاءُ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلْقَمَةَ: بَلَغَ رَطْلُ الْقَمْحِ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ بِمِثْقَالٍ وَنِصْفٍ، وَرَطْلُ الشَّعِيرِ بِمِثْقَالٍ، وَرَطْلُ زَرْيَعَةِ الْكَتَّانِ سِتَّةَ أَثْمَانٍ مِثْقَالٍ، وَأَوْقِيَّةُ الْجُبْنِ ثَلَاثَةَ دِرَاهِمٍ، وَأَوْقِيَّةُ الْبَصْلِ بِدِرْهَمٍ، وَرَطْلُ الْبَقْلِ بِخَمْسَةِ دِرَاهِمٍ، وَبَيْضَةُ دِجَاجَةٍ بِثَلَاثَةِ دِرَاهِمٍ، وَرَطْلُ اللَّحْمِ الْبَغْلِيِّ بِسِتَّةِ دَنَانِيرٍ، وَرَطْلُ الْجِلْدِ الْبَقْرِيِّ بِخَمْسَةِ دِرَاهِمٍ.

وَفِي رَبِيعِ الثَّانِي: عَظُمَ الْبَلَاءُ، وَتَضَاعَفَ الْغَلَاءُ، وَاسْتَوَى فِي عُدْمِ الْقُوَى الْفُقَرَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ. فَأَمَرَ ابْنُ جَحَّافٍ اقْتِحَامَ الدُّورِ فَحَصًّا عَنِ الْقُوَى. وَأَعَادَ ابْنُ جَحَّافٍ اسْتِصْرَاحَ ابْنِ هُودٍ وَرَغْبَهُ فِي الْمَالِ وَالْبَلَدِ، مَعَ الْأَجْرِ فِي اسْتِنْقَازِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ. وَانْسَلَخَ هَذَا الشَّهْرُ، وَرَطْلُ الْقَمْحِ بِثَلَاثَةِ مِثْقَالٍ غَيْرِ رُبْعٍ، وَمَا سِوَاهُ تَابِعٌ لَهُ. وَلَا يَصُلُّ إِلَى إِدْرَاكِ شَيْءٍ مِنَ الْمَوْجُودِ إِلَّا أَهْلُ الْجَاهِ، وَتَرَمَّقَ سَائِرُ النَّاسِ بِالْجُلُودِ وَالْأَصْبَاغِ وَعُرُوقِ السُّوسِ، وَمِنْ دُونَ هَؤُلَاءِ بِالْفِتْرَةِ وَالْقِطْطِ وَجَيْفِ بَنِي آدَمَ. وَهَجَمَ عَلَى نَضْرَانِيٍّ وَقَعَ فِي الْحَفِيرِ، فَأُخِذَ بِالْيَدِ، وَوُزَّعَ لَحْمُهُ.

وَجَدَّ الطَّاغِيَةُ فِي حَرَقٍ مِّنْ خَرَجٍ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْمَحَلَّةِ، لِئَلَّا يَخْرُجَ الضُّعَفَاءُ وَيَتَوَقَّرَ الْقَوْتُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ. فَهَانَ عَلَى النَّاسِ الْإِحْرَاقُ بِالنَّارِ، فَعَبَثَ فِيهِمْ بِالْقَتْلِ، وَعُلِّقَتْ جِثَّتُهُمْ فِي صَوَامِعِ الْأَرْبَاضِ وَبَوَاسِقِ الْأَشْجَارِ.

ودخل جمادى الأولى، وعُدِمَت الأَقْوَاتُ بالجُمْلَةِ، وهَلَكَ النَّاسُ. ولم يبقَ من ذلك الجَمِّ إِلَّا نَزْرٌ يسير. وتَوَالَى اليَسِيرُ، واستَحْكَمَ الوَبَاءُ، وبينما الرجلُ يمشي، سَقَطَ مَيِّتًا. ولم يبقَ ما يَدْبُ على أربعِ إِلَّا اثْنَانِ لابنِ جَحَافٍ وابْنُهُ، واثْنَانِ لابنِ رُثْبَيْرٍ. وباعَ ابنُ رُثْبَيْرٍ فَرَسَهُ من الجزارينَ بمِئَتِي مِثْقَالٍ، واستثنى منه عَشْرَةَ أَرْطَالٍ، فباعَ الرُّطْلَ منه أولَهُ بعَشْرَةَ دنانير، وآخَرَهُ باثْنِي عَشَرَ دِينَارًا، ورأسُهُ بخمسةَ عَشَرَ مِثْقَالًا.

ولَمَّا بَلَغَ الأَمْرُ إلى هذا القَدَرِ، وابنُ هودٍ يُخَاطَبُ بالتسويةِ والمَظَلِّ، اجتمعَ النَّاسُ إلى الفقيهِ ابنِ الوليدِ الوَقَشِيِّ في التَكَلُّمِ لابنِ جَحَافٍ. فأخذوا الأمانَ بشرطِ التَّوَقُّفِ ريثما يُسْتَصْرَخُ من بُمُرْسِيَّةٍ وصاحبِ سَرْقُسْطَةِ، وعلى بقاءِ ابنِ جَحَافٍ على حالِهِ أَمْنًا في نَفْسِهِ ومَالِهِ وجميعِ أَهْلِهِ، ويُخَلَّى اللَّعِينُ عن المدينةِ بعدمَا قَدَّمَ عليها ابنُ عُدَيْسٍ مُشْرِفًا، وتكونُ الأبوابُ بأيدي الرُّومِ البَلَدِيِّينَ إلى آخِرِ الشَّهْرِ المؤجَّلِ. وخرجَ الأرسالُ في مَنَاصِفِهِ، وهو جُمادى الأولى.

وفي هذا اليوم: وصلَ القمَحُ ثلاثةَ مِثْقَالٍ للرُّطْلِ، ورُطْلُ الشَّعِيرِ مِثْقَالَيْنِ ونصفًا، وأوقيةُ الجُبْنِ بعَشْرَةَ دراهمٍ، وبيضةُ دجاجةٍ بثمانيةِ دراهمٍ. وبعدمَا نَفَذَتِ الأرسالُ ارتَفَعَتِ الحربُ، ولانَ السَّعَرُ، والحمدُ لله. وذلكَ لَمَّا انصرَمَ الأَجَلُ، خرجَ القاضي إلى الكَبَيْطُورِ يومَ الخميسِ منسَلَخَ الشَّهْرِ المذكورِ. ثم صارَ وفُتِحَ البابُ، ودخلَ اللَّعِينُ إلى المدينةِ معَ جُمْلَةٍ من رجالِهِ. وصعدَ جماعةٌ منهم، فمَلَكُوا الأبراجَ والأبوابَ، وتسابقَ الباعةُ من موضعِ المَحَلَّةِ بالخُبْزِ والفواكهِ إلى المدينةِ. وخرجَ أهلُ البلدِ إليها لابتِباعِ القُوتِ منها، فتهَلَّلَتِ الوجوهُ، وانبَسَطَتِ النفوسُ، إِلَّا أَهْلَ العقولِ والنظرِ في العواقبِ.

واستمرَّتِ المحنةُ عليهم إلى أنْ دَخَلَ شهرُ شعبانَ، فاتَّصَلَتِ الأنباءُ أَنَّ عساكَرَ المسلمينَ بِمُرْسِيَّةٍ. فأشاعَ الرُّومُ: أَنَّهُ مَتَى نَزَلَتْ علينا مَحَلَّةُ المسلمينَ، أمْضَيْنَا السَّيْفَ على أَهْلِ بَلَنْسِيَّةٍ، ومَشَى بريجه: مَنْ وُجِدَ عندهُ شيءٌ من آلاتِ الحديدِ، فمَالَهُ ودُمُهُ حلالٌ. فبرَّئَ النَّاسُ منه حتَّى من الإبرِ والمساميرِ، ووضعوا ذلكَ بِيابِ القَصْرِ، وقد تضاَعَفَ الجَرْعُ والخوفُ. ثم مشَى بريجه من الغَدِ بالخروجِ إلى البحرِ لجرِّ القِطْعِ التي فيه إلى البرِّ، فلمَّا تكاملَ النَّاسُ، لحِقَ بهم المُتَرْجِمُ معَ زعماءِ الرُّومِ، فمَيَّزَهُم، فَمَن كان من أَهْلِ اليسارِ صُرِفَ إلى المدينةِ، وَمَن كان من أَهْلِ النجدةِ جُرِّدَ ونُفِيَ، وغَلَبَ على الظنِّ أَنَّهُم قُتِلُوا،

فكان الحزن في دورهم. واستمرت الحال على ذلك شهر رمضان ومحلة الأمير محمد بن تاشفين ابن أخي أمير المسلمين بقرب المدينة، واجتمع على الأمير محمد جميع عساكر المرابطين المغربية والصحراوية، وجميع عساكر الأندلس. فلحق به تأييد الدولة صاحب لاردة، وسيد الدولة من طرطوشة، وحسام الدولة من شنت برية، ونظام الدولة من البوننت، فكانت أفعالهم ضد ألقابهم، ولحق الشنياطي من الثغر، وابن ياسين صاحب شبرب، وابن يملول صاحب حصن الأشرف، وغير هؤلاء المذكورين.

واستهل هلال شوال، وصلى الناس بمنزل عطاء على ساقية هواره، ومن كان بالمدينة من النصارى المعاهدين يتصنع لمن بها من المسلمين، ولا شك عندهم في غلبتهم لهم.

وفي الثامن من شوال: أشاع اللعين أن ابن رذمير ملك أرغون لحق بجملته لنصرته، فأعمل الحيلة وأخرج جمعا من الروم، وأمرهم أن يشغلوا المسلمين بالتناوش ليظنوا أنه الكبيطور، وخرج هو من حومة أخرى، فأجفلوا أمامه، فأخذ إلى المحلة، فدوختها خيله، واتصل الصراخ بالأمير محمد، فكر إليها، ومتى انفض الناس عنه والمحلة تنهب، فتوقف العدو عن الاتباع وأقبل على النهب. ثم رجع إلى المدينة، فمشى بريجه باجتماع المسلمين إلى القصر، ثم خرج عليهم ونظر إليهم وعرض بذكر المرابطين وكثرتهم وأن ذلك ما أغنى عنهم، وجعل ينظر في عطفه، ويشمخ بأنفه. ثم قال: انظروا إلي في سبع مئة ألف مثقال، وإلا هلكتم، وأحلت السيوف عليكم، ثم خرج وبقي المسلمون في القصر، وأغلق عليهم الباب، فصاروا في سجن، والروم تحفهم بالأسلحة، فرأوا الموت، ووقع البهت، وخرست الألسنة. ثم رجع اليهودي وزيره إليهم، وقال لهم: لم أزل ألافه حتى قاطعته عليكم بمئتي ألف مثقال، فبادروا بتوزيعها، وافدوا أنفسكم منه، فتوزع العدو على الأحوال واشتد ثفاف الأغنياء.

وبلغ اليهودي لعنه الله من المسلمين مبلغ الغاية في العذاب وسلط اليهود على الإسلام، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية، ومنهم الأمناء الموكلون، والمتصرفون وأصحاب الرسوم، وخدام البر والبحر. وجلس اليهودي للقبض بصاحب المدينة من

الضرب بالعصا والسَّوط، وقِيضَ لكلِّ منهم شيطانًا يُخْرِجُ مَعَهُ كُلَّ عَدُوٍّ، فَإِنْ جَاءَ بِشَيْءٍ
وَالَّا أُخِذَ بِالسَّوطِ والعَذَابِ، وَتَمَادَّتْ هَذِهِ الْمُحَنَّةُ مَدَّةً، فَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.
... رَجُلَيْنِ مِنْ أَجْنَادِ رِجَالِهِ وَبَقِيَ الْمُسْتَعِينُ بْنُ هُودٍ الْمَذْكُورُ فِي مُحَارَبَةِ مَعَ الرُّومِ،
إِلَى أَنْ وَصَلَ ابْنُهُ... ذَكَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذَكَرُ فَتَحَ بَلَنْسِيَّةَ وَعَوَّدَهَا لِلْمُسْلِمِينَ

قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ: أَخْبَرَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبُؤْيُيُّ قَالَ: لَمَّا لَحِقَ
الْأَمِيرُ مَزْدَكِي... صَدَرَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْفَارِطَةِ نَزَلَ بِمَقْرُبَةٍ مِنْهَا، كَمَا تَقَدَّمَ ذَكَرُهُ،
وَكَانَ الرُّومُ الَّذِينَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ اسْتَصْرَحُوا مَلِكَهُمُ الْأَكْبَرَ أَذْفُونُشَ فَتَحَرَّكَ إِلَيْهَا بِجَيْشٍ
أَخْشَنَ، فَلَمَّا كَانَ عَلَى فَرَسَيْنِ مِنْهَا أَفْرَجَ الْأَمِيرُ مَزْدَكِي عَنْهَا وَصَارَ بِمَحَلَّتِهِ إِلَى قَلْبِيرَةِ^(١)،
فَأَقَامَ الْأَذْفُونُشَ بِبَلَنْسِيَّةٍ نَحْوَ شَهْرٍ وَالرُّومُ تَرَوُّهُ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَا وَيُرْغَبُونَهُ فِيهَا وَيَهُونُونَ
عَلَيْهِ أَمْرَ جِيوشِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا أَحْتُوا عَلَيْهِ خَرَجَ بِجِيوشِهِ لِقَصْدِ قَلْبِيرَةِ وَهُوَ يُظْهِرُ الْقَصْدَ
لَأَكْلِ الزَّرْعِ وَفَسَادِهِ يَسْتُرُ اسْتِطْلَاعَ جَيْشِ الْأَمِيرِ مَزْدَكِي فِي بَاطِنِ أَمْرِهِ، فَتَحَرَّكَ الْأَمِيرُ
مَزْدَكِي لَمَّا اتَّصَلَ بِهِ ذَلِكَ مِنْ هُنَالِكَ وَكَتَبَ الْكَتَائِبَ وَعَبَّأَ الْمَوَاكِبَ فِي وَجْهِ الْأَذْفُونُشَ،
فَظْهَرَ لِأَذْفُونُشَ مِنْ عَزْمِهِ وَصَرَامَتِهِ وَقُوَّةِ جَاشِهِ مَا ظَهَرَ. فَكَانَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مُكَافَحَةٌ
عَظِيمَةٌ عَامَّةُ النَّهَارِ، [وَعِنْدَ] الْمَغْرِبِ [أَخَذَ] الْأَذْفُونُشَ فِي الصَّدْرِ إِلَى بَلَنْسِيَّةٍ وَجَدَّ فِي
إِخْلَائِهَا وَخَرَجَ بِجَمِيعِ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الرُّومِ، وَأُضْهِمَتِ النَّارُ فِي الْجَامِعِ وَالْقَصْرِ وَبَعْضِ
الدُّورِ، وَصَدَرَ الْأَمِيرُ مَزْدَكِي إِلَى بَلَنْسِيَّةٍ فِي شَهْرِ رَجَبٍ، فَأَنْقَذَ اللَّهُ بَلَنْسِيَّةَ مِنْ يَدِ الشُّرْكِ
وَمَلَكَةِ الرُّومِ وَطَهَّرَهَا وَصَرَفَ إِلَيْهَا نَوْرَ الْإِسْلَامِ وَدِينَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ
أَعْوَامٍ وَشَهْرٍ وَنِصْفٍ وَبَعْدَ نَفْوِذِ الْقَدَرِ السَّابِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى... وَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ بِهَا،
جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ تَمْحِيطًا لَهُمْ وَتَطْهِيرًا لِبَعْرَتِهِ^(٢).

وَوَلَّيَهَا فِي هَلٍّ ذِي الْحِجَّةِ الْقَائِدُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ فَاطِمَةَ، ثُمَّ اسْتَنَابَ فِيهَا
وَنَهَضَ إِلَى سَرَقُوسْطَةَ فَوَافَاهَا ثَانِيَ عِيدِ النَّحْرِ مَعَ أَلْفٍ وَخَمْسٍ مِائَةِ فَارَسٍ، وَذَلِكَ لَمَّا وَصَلَ

(١) هي: Cullera، مدينة تقع إلى الجنوب من بلنسية.

(٢) ذكر ابن بسام في الذخيرة ١٠١/٥ أن استرداد بلنسية كان في شهر رمضان سنة ٤٩٥ هـ.

وَلَدُ ابْنِ هُودٍ مِنَ الْعُدُوَّةِ بِكِتَابٍ مِنْ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ وَصُولِ هَذَا الْكِتَابِ تَوَجَّهَ الْقَائِدُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ فَاطِمَةَ إِلَيْهَا بِجَيْشٍ كَثِيفٍ مِنْ أَلْفٍ وَخَمْسٍ مِائَةِ فَارِسٍ فَوَفَّاهُ ثَانِيَ عِيدِ النَّحْرِ مِنَ السَّنَةِ الْمُرَّرَةِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: أَخَذَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَرَكَةِ مِنْ حَضْرَتِهِ مَرَّاكُشَ بَرَسُمَ الْجَوَازِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ... الْمَرْسُومَ بِالْأَنْوَارِ الْجَلِيلَةِ، فَلَمَّا جَازَ... ثُمَّ صَدَرَ إِلَى غَرْنَاطَةَ [وَعَقَدَ عَلَيْهَا] لِلْقَائِدِ عَلِيِّ بْنِ الْحَاجِّ، وَجَمَعَ أَعْلَامَ الْمُرَابِطِينَ وَالرُّؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ فِي حَالِ الْبَيْعَةِ [لِابْنِهِ عَلِيٍّ]. وَوَجَّهَ أَحْمَدُ بْنُ هُودٍ الْمُقْتَدِرُ بِاللَّهِ^(١) ابْنَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَدْعُودَ عِمَادَ الدَّوْلَةِ مِنْ رُوطَةَ^(٢) إِلَى قُرْطُبَةَ بِهَدِيَّةٍ جَلِيلَةٍ مِنْهَا: أَرْبَعَةُ عَشَرَ رُبْعًا مِنْ آتِيَةِ الْفِضَّةِ مَطْرَازَةٌ بِاسْمِ الْمُقْتَدِرِ بْنِ هُودٍ، فَأَمَرَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشْفِينٍ بِصَرْفِهَا قَرَارِيطَ وَفَرَّقَهَا لَيْلَةَ عِيدِ النَّحْرِ فِي طَبَقَاتِ الْمُرَابِطِينَ، [وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ: عَقَدَ الْبَيْعَةَ لَوْلَدِهِ عَلِيٍّ بْنِ يَوْسُفٍ]^(٣) وَحَضَرَ الْعَهْدَ عَبْدُ الْمَلِكِ ابْنُ الْمُسْتَعِينَ بْنِ هُودٍ، وَكَتَبَهُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْقَصِيرَةِ^(٤).

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: تَوَفَّى مَلِكُ شَتَمَرِيَّةٍ مِنْ ثَغْرِ الْأَنْدَلُسِ الْمَلْقَبُ بِذِي الرِّيَاسَتَيْنِ حَسَامُ الدَّوْلَةِ^(٥)، وَكَانَتْ رِيَاسَتُهُمْ فِي هَذَا الْقَطْرِ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، أَوْلَهُمْ: مُؤَيَّدُ الدَّوْلَةِ هُذَيْلُ بْنُ خَلْفِ بْنِ أَزْحَنَ، ثَارَ بِهَا وَدَامَ مُلْكُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ مَاتَ، ثُمَّ قَامَ بَعْدَهُ أَخُوهُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى أَنْ مَاتَ، [ثُمَّ وَلِيَ ابْنُهُ هُذَيْلُ]^(٦)، ثُمَّ ثَارَ بَعْدَهُ ابْنُهُ ذُو الرِّيَاسَتَيْنِ هَذَا حَسَامُ الدَّوْلَةِ، وَتِمَادَى مُلْكُهُ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ^(٧) مَدَّةً يَسِيرَةً وَصَارَ أَمْرُهُ إِلَى أَمْرِ الْأَمِيرِ يَوْسُفٍ.

(١) الصواب: المستعين بالله، وهو حفيد المقتدر بالله، وينظر أعمال الأعلام (١٧٤)، والحلة السيرة ٢/٢٤٨.

(٢) Rueda، وهي من مدن الثغر الأعلى كانت تابعة لسرقسطة، ينظر معجم البلدان ٣/٩٦.

(٣) زيادة من أعمال الأعلام (١٧٤).

(٤) نص هذا العهد في «الجلل الموشية» ص ٦٣، وفيه أن الذي كتبه هو الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور.

(٥) هو عبد الملك بن هذيل بن رزين أبو مروان، تنظر ترجمته في الحلة السيرة ٢/١٠٨-١١٥.

(٦) زيادة من الحلة السيرة لا يصح النص بدونها.

(٧) سَمَاءُ ابْنِ الْأَبَارِ يَحْيَى، وَقَالَ: «وَعَلَيْهِ أَنْقَرَضَ مُلْكُهُمْ» (الحلة السيرة ٢/١٠٩).

وفي سنة سبع وتسعين وأربع مئة: أخذ يوسف بن تاشفين في الحركة إلى حضرة مراكش من بلاد الأندلس لِمَا كَمَلَ أمر البيعة لابنه عليّ وَضَبَطَ أحوالها وتقديماً عَمَلٍ للنظر في أشغال التحرك، صار إلى العدو، وأوعزَ إلى أبي الحسن عليّ بن الحاج عامله على غرناطة في النهوض إلى شرق الأندلس، واستحثّه في السير، فلحق به كتابه وهو على مقربة من الجزيرة الخضراء... بامثال أمره، ووصل عليّ بن الحاج إلى بكنسية في شهر صفر... الأمير يوسف في... كتب إليه جوابه في محلة مضاربه، وأقام عليّ ابن الحاج بكنسية إلى شهر رمضان فوردّه... الخبر عن منازلة أذفونش بن فردلند مدينة سالم، فتوجّه بجُملة وافرة من الخيل والرجال... فلما احتلّ بقلعة أيوب استمدّد القائد الأعلى أبا محمد عبد الله ابن فاطمة فبادرَ إليه... تفاوَصَ فاجتمع الرأي على غزو بلاد العدو، فلحقاً مدينة طليطلة من... سرّ قسطة... المحلة، واتصل بالحلّ والترحال، فوافوا مدينة طليطلة، فخرج منها... والحرب تدور على الدوام وبأخرة أحلت... الأمير عليّ بن الحاج رحمه الله... فيه طرف المعتكّ ميّتاً بدريه وسلاحه... ولا ضربة... إلى تطيلة فدُفن في قبلي جامعها وانصرف... قاهراً ومالاً وافراً، فاقتفى أثر أبيه وسلك سبيله في عضد الحق وإنصاف المظلوم... الظالم وأمن الخائف وسدّ الثغور ونكاية العدو، فلم يرم السداد في أعماله، والتوفيق في حسن أفعاله، وكان أخصّ الناس به أبو محمد عبد الله بن أسباط، فجعلَه المترجم عن بيانه، وأقامه في الأوصية مقام لسانه، وناط به الآمال، وأوطأ عقبه جماهير الرجال.

وفي سنة ثمان وتسعين: شاع الخبرُ بالأندلس بمرض الأمير يوسف واستيلاء الآلام عليه، وخاض فيه أهل الدولة الذين يستنبطون الغوائل، ويشعلون نيران الشقاق والنفاق، واتصلت الأخبار بالطاغية أذفونش على غير صورتها، وجلبت لديه في غير معرضها، وصوّرَ عنده أن بلاد المسلمين من الرجال قد خلت، ومن الحماة وذوي النجدة قد تفرّغت، وظنّ أنه من هذا الحادث قد اضطربت الأمور، وانحلّ نظام التدبير، فخرج الأعداء في زهاء ثلاثة آلاف وخمس مئة، فتوغّلوا في نظر إشبيلية حتى وصلوا إلى موضع يُعرف بمقاطع، فغنم من تلك القرى الغنائم الوفيرة والأسلاب الكثيرة، وخرج أبو محمد سير من إشبيلية وتحصّن في حصن هنالك، وتلاحقت به أجناده وأمداده،

وبقي هناك مُرتقبًا لورود أبي عبد الله ابن الحاج بعسكر غرناطة إلى أن استوفت العساكر، فهرب جميع الكفرة وولّوا أمامهم فارّين مهزومين، وبلغ المسلمون الشفاء من القتل فيهم، وكاد السيف يستأصلهم ويُقنيهم، وصحَّ بعد هذا الفتح الجليل أن الذي قُتل منهم ألف وخمس مئة.

وفي هذه السنة: تنهّى القحطُ في بلاد الأندلس والعدوة، حتى أيقن الناس بالهلاك. وفي سنة تسع وتسعين: تزيّدت بالأمير يوسف علته التي قبض منها. وفيها: صدر الأمير تميم عائداً من شرق الأندلس ووصل مرّاكش بسبب ذلك. وفيها: عزل موسى ابن الحاج عن غرناطة، ووليها أبو بكر بن إبراهيم اللّمتوني. وفيها: قرئ بإشيلية كتاب نفذ من وليّ العهد بتأخير القاضي ابن [منظور]. وفي هذه السنة: خرجت سبعون قطعة من البحر الغربي وقصّدت بيت المقدس، فلمّا توسّطت البحر [هبت] عليها ريح فرقتها وأغرقتها فلم يرجع شيء منها وكفى الله المسلمين شرّها.

وفيها: ظهر نجمٌ منظورُ الضوء طويلُ الذّوابة... كأنها طيرةُ المجرة تَمادى نحو ثلاثة أشهر.

وفي سنة خمس مئة: استأثر الله أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى، وذلك يوم الاثنين مستهلّ شهر المحرم من السنة^(١).

بعض أخباره على الجملة

... كان خائفًا لرّبه كتومًا لسرّه، كثير الدّعاء والاستخارة، مُقبلاً على الصّلاة، [يأكل من عمل]^(٢) يده... أكثر عقابه كان الاعتقال الطويل إلا من انتزى وشقّ العصا فالسيف أحسم لانتشار الداء.

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ٤١٧/١٠) وابن خلكان (وفيات ١٢٥/٧) والذهبي في تاريخ الإسلام (٨٣٨/١٠) أنه توفي في ثالث المحرم، وفي الحلل الموشية (٦٧) أنه مات في شهر ربيع الآخر من السنة.

(٢) زيادة من الحلل الموشية.

كُنْيَتُهُ: أَبُو يَعْقُوبَ.

دينارُهُ: تَبَرُّ فِي إِحْدَى صَفَحَتَيْهِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» وَتَحْتَ ذَلِكَ: «أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ». وَفِي الدَّائِرِ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [الآيَةُ [آلِ عِمْرَانَ: ٨٥]]. وَفِي الصَّفْحَةِ الْأُخْرَى اسْمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَبَّاسِيِّ.

عُنْوَانُ كُنْيَتِهِ: مِنْ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرِ الدِّينِ إِلَى فُلَانٍ.

وَكَانَ يُفَضِّلُ الْفُقَهَاءَ وَيُعَظِّمُ الْعُلَمَاءَ وَيَصْرِفُ الْأُمُورَ إِلَيْهِمْ، وَيَأْخُذُ فِيهَا بِرَأْيِهِمْ، وَيَقْضِي عَلَى نَفْسِهِ بِقُتْيَاهُمْ، وَوَلَعَ بِالِاخْتِصَارِ فِي مَلْبَسِهِ، وَمَا زَالَ إِلَى أَنْ لَقِيَ اللَّهَ مَجْدًّا فِي الْأُمُورِ، مُلَقَّنًا لِلصَّوَابِ فِيهَا، مُسْتَصْحِبًا حَالَ الْجَدِّ، مُؤَدِّيًا إِلَى الرَّعِيَّةِ حَقَّهَا مِنَ الذَّبِّ عَنْهَا وَالْعِلَظَةِ عَلَى عَدُوِّهَا، وَإِفَاضَةً لِلْأَمْنِ وَالْعَدْلِ فِيهَا، وَيَرَى صُورَ الْأُمُورِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَكَانَ مُعَظَّمًا مَهُوبًا لَا يَخْلُدُ إِلَى رَاتِبَةٍ، وَلَا يَسْكُنُ إِلَى دَعَاةٍ.

نَسَبُهُ: هُوَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ بْنِ تَرْجُوتَ بْنِ وَرْتَانَطْنَ بْنِ مَنْصُورَ بْنِ مَصَالَةَ بْنِ أَمِينَةَ بْنِ وَانَالِي الصُّنْهَاجِيِّ، وَقَدْ ذَكَرَ الْهَمْدَانِيُّ فِي كِتَابِ «الْإِكْلِيلِ» أَنَّ صُنْهَاجَةَ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ وَائِلَ بْنِ حِمِيرٍ، وَاجْتَمَعَتِ الرِّوَايَاتُ أَنَّ صُنْهَاجَةَ مِنْ حِمِيرٍ.

وَطَوَى الدَّهْرُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ يَوْسُفَ، فَاسْتَرْجَعَ مَا وَهَبَ وَقَبَضَ، وَهُوَ عَلَى أَوَّلِهِ فِي الْحَزْمِ وَالْعَزْمِ لِنُصْرِ الدِّينِ وَإِظْهَارِ الْكَلِمَةِ وَعِضْدِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ امْتَدَّحَهُ الشُّعْرَاءُ فِي حَرَكَاتِهِ وَغَزَوَاتِهِ، وَصُدُورِهِ وَوُرُودِهِ، فَأَجْزَلَ لَهُمُ الْعَطَاءُ، وَرَثَاهُ جَمَاعَةٌ، مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرُ بْنُ سِوَارٍ^(١) مِنْ جُمْلَةِ مَرَاثِيهِ وَأَنْشَدَهَا عَلَى قَبْرِهِ [مِنْ الْكَامِلِ]:

مَلِكُ الْمُلُوكِ وَمَا تَرَكْتَ لِعَامِلٍ عَمَلًا مِنَ التَّقْوَى يَشَارِكُ فِيهِ
يَا يَوْسُفُ مَا أَنْتَ إِلَّا يَوْسُفُ وَالْكَلُّ يَعْقُوبُ بِمَا نَطْوِيهِ
اسْمَعْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَنَاصِرَ الدِّينِ الَّذِي بِنَفْسِنَا نَفْدِيهِ
جُوزَيْتَ خَيْرًا عَنْ رَعِيَّتِكَ الَّتِي لَمْ تَرْضَ فِيهَا غَيْرَ مَا يُرْضِيهِ

(١) تَرْجَمَتْهُ فِي الْمَغْرِبِ لَابِنُ سَعِيدٍ ٤١١/١، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ سِوَارِ الْأَشْبُونِيِّ، وَالْقَصِيدَةُ مَذْكُورَةٌ فِي الذَّخِيرَةِ لَابِنِ بَسَامٍ ٨٣١/٤.

أَمَّا مَسَاعِيكَ الْكَرَامُ فَإِنَّهَا
فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ مَبْرُورَةٌ
تَصِلُ الْجِهَادَ إِلَى الْجِهَادِ مَوْفَقًا
وَنَجِيًّا مَا دَبَّرْتَهُ كَنْجِيَّةً
مُتَوَاضِعًا لِلَّهِ تُظْهِرُ دِينَهُ
وَلَقَدْ مَلَكَتْ بِحَقِّكَ الدُّنْيَا وَكَمْ
لَوْ رَامَتْ الْأَيَّامُ أَنْ تَحْصِيَ الَّذِي
إِنَّا لَمَفْجُوعُونَ مِنْكَ بِوَاحِدٍ
وَإِذَا سَمِعْتَ حَمَامَةً فِي أَيْكَةٍ
وَمَضَى قَدْ اسْتَرَعَى رَعِيَّتَهُ ابْنَهُ
وَإِذَا هَزَبَ الْغَابَ صَرَى شِبْلُهُ
وَإِذَا عَلِيٌّ كَانَ وَارِثَ مُلْكِهِ
خَرَجْتَ عَنِ التَّكْيِيفِ ^(١) وَالتَّشْيِيهِ
تُرْدِي عَدِيدَ الرُّومِ أَوْ تُفْنِيهِ
حَتَّمُ الْقَضَاءِ بِكُلِّ مَا تَقْضِيهِ
فَكَأَنَّ كُلَّ مُغَيَّبٍ تَدْرِيه
فِي كُلِّ مَا تُبْدِيهِ أَوْ تُخْفِيهِ
مَلَكَ الْمُلُوكِ الْأَمْرَ بِالتَّمْوِيهِ
فَعَلْتَ سِيَوْفُكَ لَمْ تَكُنْ مُحْصِيَهُ
جُمِعَتْ خِصَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِ فِيهِ
تَبْكِي الْهَدِيلَ فَإِنَّهَا تَرِثِيهِ
فَأَقَامَ فِيهِمْ حَقَّ مُسْتَرَعِيهِ
فِي الْغَابِ كَانَ الشَّبْلُ شَبْلَ أَبِيهِ
فَالسَّهْمُ مَلَقَى فِي يَدَيْ بَارِيهِ

ذَكَرُ دَوْلَةِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلِيٍّ بْنِ يُونُسَ

وَلَمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ يُونُسَ بْنِ تَاشْفِينٍ وَصَّى الْأَمْرَ إِلَى وَلَدِهِ وَلِيَّ عَهْدِهِ
عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، فَاضْطَلَعَ أَبْرَعُ اضْطِلَاعٍ، وَقَامَ أَحْمَدَ مَقَامٍ، وَأَلْبَسَهُ اللَّهُ الْمَهَابَةَ، وَقَذَفَ
لَهُ فِي الْقُلُوبِ الْمَحَبَّةَ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ، وَاتَّفَقَتِ الْكَلِمَةُ، وَبَعْدَ مُوَارَاةِ أَبِيهِ خَرَجَ وَيْدُهُ
فِي يَدِ أَخِيهِ أَبِي الطَّاهِرِ تَمِيمٍ [عَلَى] قِبَائِلِ الْمُرَابِطِينَ وَالْمَضْمُودِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ زُعَمَاءِ
الْقِبَائِلِ وَرُؤَسَائِهِمْ، فَنَعِيَاهُ إِلَيْهِمْ، وَجَدَّ أَبُو الطَّاهِرِ بَيْعَةَ أَخِيهِ وَأَخَذَ الْحَاضِرِينَ بِذَلِكَ
فَاسْتَتَبَّ الْأَمْرَ، وَبَادَرَ الْأَمِيرُ أَبُو الطَّاهِرِ إِلَى مَكْنَسَةِ بَالْجِيشِ وَالْأَمِيرُ يُحْيَى بْنُ أَبِي
بَكْرٍ بَفَاسٍ وَالْأَمِيرُ مَزْدَلِي بِتِلْمَسَانَ، وَكَانَ الْأَمِيرُ سَيْرُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فِي طَاعَةِ إِشْبِيلِيَّةَ،

(١) فِي الذَّخِيرَةِ: «التَّحْدِيدُ».

ولحق الأمير أبو بكر بن إبراهيم بغرناطة في ربيع الأول من هذه السنة. وقصده زعماء الأقطار مهتةً وامتدحتهُ الشعراءُ فوهب الهبات لهم؛ وكان خروجه من غرناطة في رجب العام المذكور.

ذكر حركة أمير المسلمين علي بن يوسف من مراكش إلى الأندلس

وتحرك أمير المسلمين علي بن يوسف من حضرة مراكش مع جيوش المرابطين والمصموديين والجنود والحشود يوم الجواز إلى بلاد الأندلس لتفقد أهلها وسد خللها، وأخذ السير إلى أن وصل إلى مدينة سبتة وجاز البحر منها إلى الجزيرة الخضراء، فبادر إليه قضاة الأندلس وفقهاؤها وزعمائها ورؤساؤها وأدباؤها وشعراؤها، فامتدحتهُ الشعراءُ فأجزل لهم العطاء، وقضى لمن كان ذا أرب أربه، وسنى لكل ذي مطلب مطلبه، فولى أخاه أبا الطاهر تميمًا غرناطة، وولى أبا عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني قرطبة، وبقي محمد بن الحاج تحت الحمل^(١) إلى أن ولّاه بعد ذلك مدينة فاس ثم نقله إلى بلنسية في سنة ثلاث.

قال ابن الصيرفي: وجرت في هذا العام أحداث، ذكر في كتاب «تقضي الأنباء في سياسة الرؤساء»: وفي هذا العام: انبرى أبو العلاء بن زهر^(٢) إلى مطالبة القاضي ابن منظور بإشيلية، وخبر ذلك أن ابن زهر اعتل، فذكر ذلك للقاضي فقال: وطيب ماهر يمرض! فنهى ذلك إلى الوزير أبي العلاء ابن زهر فحرك منه وقال [من الكامل]:

إن ابنَ منظورٍ تعجّب هازلًا لِمَا مَرِضْتُ فَقُلْتُ: يَعْثُرُ مَنْ مَشَى
قد كان جالينوسُ يمرضُ دائمًا فمن الفقيه المرتضى أكل الرشا

فأنفذ أمير المسلمين علي إليه كتاب عزله.

ولما كملت أشغال حاز بها للأندلس... أمورها وعمت البيعة دانيها وقاصيها، صدر الأمير علي بن يوسف إلى سبتة، وأدى مشيه في... إلى حضرته مراكش.

(١) ينظر المعجم في أصحاب القاضي الصدي، ص ١٧٥-١٧٦، بتحقيقنا.

(٢) هو أبو العلاء زهر بن عبد الملك الطبيب المشهور، ترجمته في تاريخ الإسلام ٤٣١/١١.

وفي سنة إحدى وخمسة مئة: ورد الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بغرناطة والياً عليها، فاطمأنت النفوس وهجرت العيون... بمملكته، وظهر به جمال دولته، ونظر الأمير أبو الطاهر في أسباب الغزو وأحسن إلى الجند، وخرج منسلخ شعبان المكرم من العام، فلما احتل الجيش مدينة جيان تلوم بها الأمير أبو الطاهر أياماً حتى وفدت عليه الجيوش والعساكر من قرطبة وغيرها، واستقبل على حصن أقليش^(١)، فاضطربت المحلات بإزائه وانتشرت الحروب عليه إلى أن دخله عنوة وامتنع أهله في قصبته والحروب مُحْدَقَةٌ به، وفي خلال ذلك وصل إليه وكلد أذفونش شانجه من روج المأمون التي كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس، فكانت بينه وبين جيوش المسلمين حروب يطول ذكرها كانت الدائرة فيها على الروم، مات فيها شانجه بن ألفنش أخزاهما الله، ورجع الأمير أبو الطاهر إلى غرناطة.

قال ابن الصيرفي: فكان ذلك دليل اليمن والبركة بولاية علي بن يوسف في أول دولته، وكانت الواقعة على الروم وموت شانجه المذكور في... سؤال. وفي آخر هذا العام: مات أذفونش لعنه الله تعالى.

بعض أخبار الأذفونش ملك قشتالة أخزاه الله

قال الراوية: هلك طاغية الروم الأعظم أذفونش بن فردلند بطليطلة في شهر ذي الحجة من عام اثنين وخمسة مئة، وكان ملكه نيّفاً على خمسين سنة بأشهر. وهو: أذفونش بن فردلند بن غرسيّة بن شانجه برّكه^(٢)، وكان لغرسيّة بن شانجه برّكه ثلاثة أولاد: غرسيّة، وفردلند، ورددير.

قال أبو بكر بن عبد الرحمن: كان غرسيّة أشجع إخوته وقتله أخوه فردلند في حرب كان بينهما وترك ابنين قام أحدهما بالملك، وهو شانجه، وخرج الآخر إلى بلاد الإسلام، وهو إلفنت^(٣) الذي أحرق جامع البيرة وقتل لعنه الله بروطة بسبب يطول

(١) معجم البلدان ١/ ٢٣٧.

(٢) Abarca.

(٣) Infante.

شرحُه هنا، ويقولون في اسم إلفنت: إلهنت يصرفون الفاء هاء في النطق، ومعناه عندهم: ابن الملك، كما عند الفرس: سابور، وهلك غرسيّة بن شانجُه بركة وقد قَسَم البلادَ بينَ بنيهِ واختَصَّ فردلند ورُدْميرُ بملكِه مناصفةً، ولم يكن لِرُدْمير من الولد إلا شانجُه، فلمّا قَتَلَه المقتدرُ بالله بن هود في الحرب التي كانت بينهما، قام بالملك بعده شانجُه وحده، فلمّا هلك تركَ ابنين: بطرّة وأذفونشُ المصروعُ على أفراغه بما أفضى إلى هلكه.

ولمّا أشرف فردلند على الهلك أيضًا قَسَم بلاده بين أولاده شانجُه وأذفونش وعرسيّة^(١)، فخصَّ شانجُه بملك بُرغوش^(٢) وقشتالة وما حولها من المِدن، وخصَّ أذفونش بليون وما حولها من المِدن، وخصَّ عرسيّة بغليسيّة وبرتغال، ففسد ما بين شانجُه وأذفونش، وكانت بينهما حربٌ أتت على أكبرِ رجالهما، ثم ظفرَ شانجُه بأخيه أذفونش فأسره وحبسه مصفدًا عنده في قشتالة مدّة، ثم حلَّ اعتقاله ونفاه عن بلاده فلحقَ بالمأمون بن ذي الثون بطليطلة وبقيَ عنده مدّة كانت سببًا لتطلّعه على أحوالها حتّى استولى بعد ذلك عليها، وقد تقدّم ذكره فيه.

وكانت لشانجُه وأذفونش أختٌ يقال لها: أراكة^(٣) تميل إلى أخيها أذفونش، فداخلت بعضَ رجال أخيها شانجُه على قتله، وخرجَ شانجُه يتصيدُ في [لمّة] من خيله وفي جملته الداخلُ في قتله، وتسابقت تلك الخيلُ الجري، فأجرى ذلك الفارسُ وبيده رُمحٌ مُعدّة، فلمّا قَرَّب من شانجُه طعنه فقتله، ومرَّ على غلوائه إلى حصن سمورة^(٤) وبه أراكةُ أختُهما فاعتصم بها... الدعوة بالأذفونش وأنفذَ فيه، فلحقَ للحين، وانفرد بالملك. فلمّا استوسق أمره قتل قاتل أخيه وقال بلغته: «عملٌ جيّد وعادةٌ سوء». ويُذكر أن أذفونش بن فردلند لعنه الله زنى بأخته أراكة فجمع بين النصرانية والمجوسية، ثم طلبَ إلى أحبار دينه المغفرة ممّا واقعَه، فحملوه على قصدِ الكنائس الفاضلة والتعبُد أخزاهم الله ولعنهم؛ ثم فسَد ما بين أذفونش وعرسيّة، فكانت بينهما حربٌ أسر فيها

(١) ينظر في ذلك أعمال الأعلام (٣٢٩).

(٢) Burgos.

(٣) Urraca.

(٤) معجم البلدان ٣/ ٢٥٥.

أَذْفُونُشَ لِأَخِيهِ غَرَسِيَّةَ فَجَبَسَهُ ثُمَّ دَسَّ عَلَيْهِ مَن قَتَلَهُ... فِي مَحْبِسِهِ وَانْفَرَدَ فِي مَمْلَكَتِهِ إِلَى أَنْ تَوَفَّى هَذِهِ السَّنَةَ الْمَوْرَخَةَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: فَسَدَ صُلْحُ الْمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ أَحْمَدَ بْنَ هُوْدَ مَعَ الرُّومِ، وَعَادَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَى مَا أَذْكَرُ بَعْضُهُ.

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِ مِئَةٍ: تَحَرَّكَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَلِيُّ بْنُ يُوْسُفَ مِنْ مَرَّاكُشَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ بِرِسْمِ الْغَزْوِ وَالْجِهَادِ وَفَتَحَ مَدِينَةَ طَلَبِيرَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا تَمَهَّدَتِ الْمَمْلَكَةُ لِعَلِيِّ بْنِ يُوْسُفَ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ تَحَرَّكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَأَجَازَ الْبَحْرَ وَيَمَّمُ غَرْنَاطَةَ وَتَلَوَّمَ بِهَا رِثْمًا أَجَازَتِ الْعَسَاكِرُ الْعُدُوِّيَّةَ وَالْحَشُودُ وَالْمُطَوَّعَةُ وَتَاهَبَتِ الْجِيُوشُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ، ثُمَّ تَحَرَّكَ إِلَى قُرْطُبَةَ وَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا وَمَشَى الْبَرِيحَ بِأَعْيَادٍ، وَلَحِقَتْهُ الْجِيُوشُ وَالْأَجْنَادُ، وَتَحَرَّكَ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ طَلَبِيرَةَ فَتَزَلَّ عَلَيْهَا ثُمَّ دَخَلَهَا، وَوَقَعَ النَّهْبُ وَالسَّيُّ فِيهَا، وَاعْتَصَمَ الرُّومُ فِي قَصَبَتِهَا، وَأَجَارَهُمُ اللَّيْلُ فَرَمَوْا بِأَنْفُسِهِمْ فِي النَّهْرِ وَتَسَرَّبُوا بَيْنَ الْمَحَلَّاتِ فَأُفْلَتُوا، وَامْتَلَأَتْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ بِالسَّقَطِ وَالثِّيَابِ وَالْمَاشِيَةِ وَالْأَسْلِحَةِ، وَطُهِرَ الْجَامِعُ وَرُدَّ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمُسْلِمَةِ وَرَجَعَ بِهِ حَرَامُهُ وَإِقَامَةُ الصَّلَوَاتِ وَمَحَا اللَّهُ مِنْهُ الْكُفْرَ، وَنَدَبَ لَهَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ الْخَلِيلَ وَالرَّجَالَ وَالرُّمَاهُ، وَقَوَّدَ عَلَيْهِمْ أَحَدَ الْمُرَابِطِينَ^(١)، وَرَحَلَ الْأَمِيرُ عَلِيُّ عَنْ طَلَبِيرَةَ، فَاسْتَقْبَلَ طَلَيْطَلَةً فَأَنَاحَتْ مَحَلَّتُهُ عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ... الضَّيِّقَةُ... وَسَاءَتْ ظُنُونُ أَهْلِهَا مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ طَلَيْطَلَةٌ مِنَ الْحِصَانَةِ وَالْمَنْعَةِ، وَدَامَتْ عَلَيْهَا الْحَرْبُ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ وَالسَّبْتِ، وَأَخَذَتِ الْجِيُوشُ فِي الْقُفُولِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَانْقَضَى أَمْرُ هَذِهِ الْحَرَكَةِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَصَدَرَ عَلِيُّ بْنُ يُوْسُفَ وَقَدْ دَوَّخَ تِلْكَ الْبِلَادَ، وَلَمْ يُعْهَدْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ مِثْلُ هَذِهِ الْغَزْوَةِ قُوَّةً وَظُهُورًا وَعُدَّةً وَوَفُورًا وَنَكَايَةً فِي الْعَدُوِّ، وَبَقِيَ رُعْبُهُ فِي الرُّومِ.

وَمِنْ أَخْبَارِ الْمُسْتَعِينِ ابْنِ هُوْدَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ

قَالَ الرَّاوِيَةُ: نَزَلَ الْمُسْتَعِينُ أَحْمَدُ بْنُ هُوْدَ حِصْنَ رُوْطَةَ إِلَى مَدِينَةِ سَرْقُسْطَةَ، فَجَدَّدَ الْبَيْعَةَ عَنْ أَهْلِهَا لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْبَغِي بُولَايَةَ عَهْدِهِ، فَلَمَّا كَمُلَ لَهُ مِنْ تَجْدِيدِ الْبَيْعَةِ أَمْلُهُ، عَزَمَ عَلَى الْغَزْوِ عَلَى بِلَادِ الرُّومِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُ، فَجَمَعَ وَحَشَّدَ وَسَارَ فِي جَيْشٍ دَهْمٍ، وَتَحَرَّكَ فِي

(١) يَنْظُرُ نَظْمُ الْجَمَّانِ لَابْنِ الْقَطَّانِ، ص ١٣-١٤.

شهر جُمادى الآخرة فاجتاز بمدينة تُطِيلَة ودخل منها على أرنية^(١) فغلب على أرباضها، واعتصم أهلها منه بكنيسة منيعة، ثم صالح على مال يؤدون إليه أخذ به رهائن منهم، ثم انصرف قافلاً عنهم، وشن في صدره الغارات على من بذلك الصقع من الروم وهدم وحرق وقتل وسبى وعاد إلى بلاده، فلما شارف بلاد الإسلام لحقته خيل الروم المتألفة من البلاد في أول يوم من رجب الفرد فاجتلدوا أحراً جلد، وصبر الفريقان وطال الضرب، واستشهد المستعين بن هود وانفض الجمع وألحم السيف... على كثير من المسلمين، كرمهم الله بالشهادة أجمعين.

وولي عبد الملك الملقب عماد الدولة بعد استشهاد أبيه، وبايعه الناس بسرقسطة بعدما اشترطوا عليه ألا يستخدم الروم ولا يتلبس بشيء من أمرهم، واتصل بعبد الله ابن فاطمة موت المستعين، فطمع في سرقسطة وتحرك إليها، وذلك على نحو شهر واحد من الواقعة، فلما انتهى إلى مقربة منها وجه إليه أهلها أن ينصرف عنهم ولا يبدأ الفتنة مع المباع له خشية استصراخه بالروم فيعود الحرب على الأول، ثم بعد ذلك لم يف عماد الدولة ابن المستعين بالشرط الذي ألزمه نفسه من طرح الروم وتركهم، فعزم على مداخلتهم، وفهم منه ذلك أهل سرقسطة، فاستدعوا الأمير محمد بن الحاج صاحب كنيسة من قبل أمير المرابطين معوضاً به من الأمير عبد الله ابن فاطمة الوالي على غرناطة، فوافاه صبيحة يوم السبت العاشر من ذي القعدة ففتحت له الأبواب، ففتحها، واضطربت المحلة في الشريعة منها، ودخل المرابطون سرقسطة، وتقدم أهلها لمحمد بن الحاج، فدخل الجعفرية، وصار القصر المذكور في ملكه تحت ثقافه، فجرى ابن المستعين على سيرة أبيه وصانع أذفونش ابن رذمير فاستجاب له ووافاه بحصن تطيلة، ومحمد بن الحاج بالجيش في تلك الناحية. ثم انصرف إلى سرقسطة، وتقدم ابن رذمير حتى كان منها على فرسخين، فابتدر ابن الحاج إلى حرمة وأمر الناس بالخروج إليه للمحربة، ورتب الناس على هيئة الأبهة والرتبة عامة يومهم، وبآخره أخلوا مراكزهم وتسلكوا إلى المدينة، فظهر الخلل والتسلل، وانتهر ابن رذمير الفرصة وقسم جيشه فرقتين وصدمت

(١) في أعمال الأعلام: «أرنيط».

إحدهما ابن الحاجَّ وصَدَمَت الأخرى ابنَه أبا يحيى، ففترَّق الناس عنه واستشهد هناك^(١)، وفُقد في تلك الواقعة جُملةً من المسلمين، وذلك عَشِيَّة يوم الأحد متَّصِف شهر ذي الحجة من السنة المؤرَّخة.

تلخيص التعريف بتاريخ من مَلَك سَرْقُسطة وبعض أخبار البلاد الشرقية من بني هُود رحمهم الله إلى هذه السنة

كان استيلاء المستعين سُلَيْمان بن هُود الجُذامي على طاعة مُنذر بن يحيى وتغلُّبه على شَرْق الأندلس في ذي الحجة من سنة ستٍّ وثلاثين وأربع مئة، وكان هذا المستعين صاحبَ مدينة لارِدَة وبلَغِي^(٢)، واجتمع [له] ذلك الثَّغر كُلُّه: سَرْقُسطة وتُطيلة وقلعة أيوب ودَرْوَقَة^(٣) ووَشَقَة وْبَرْبُشْتَر ولارِدَة وبلَغِي ومدينة سالم ووادي الحجارة إلى أن توفِّي في سنة ثمانٍ وثلاثين وأربع مئة، فوَلِيَ ابنُه المُقتدر بالله أحمدُ بن سُلَيْمان بن هُود في سنة ثمانٍ المذكورة، وتوفِّي سنة أربع وسبعين وأربع مئة وكانت مدَّة ولايته ستًّا وثلاثين سنة، ووَلِيَ ابنُه المؤتمن سنة أربع المذكورة، وتوفِّي سنة ثمانٍ وسبعين وأربع مئة، وكانت مدَّته أربعة أعوام. ووَلِيَ بعده المستعين بن هُود المقتول في ملحمة يوم الاثنين مستَهْل رَجَب من السنة ثلاث وخمس مئة المؤرَّخة. ووَلِيَ عمادُ الدولة أحمدُ بن أحمدَ المستعين ابن المؤتمن ابن أحمدَ المقتدر ابن سُلَيْمان المستعين بالله ابن هُود الجُذامي في غُرَّة رَجَب من هذه السنة، وأخرجه أهل سَرْقُسطة كما تقدَّم ذكره في يوم السَّبْت العاشر من ذي القعدة، ودخلها عاملُ عليّ بن يوسف.

وفي سنة أربع وخمس مئة: استقرَّ محمدُ ابنُ الحاجَّ بِسَرْقُسطة وابنُ رُدْمير يُساجله الحربَ والظهورَ عليه، وعبدُ الملك ابنُ المستعين معه في جيوش تعضُّل بها الأرض، فنزَلَ على نحو فرسخ من المدينة ومحمدُ ابنُ الحاجَّ يُناوشه الحربَ صباحًا ومساءً إلى أن لحق أبو عبد الله بن عائشة الوالي على مُرْسِيَّة من قِبَل أمير المسلمين عليّ بن يوسف بعسكريَّة

(١) المقصود أبو يحيى.

(٢) Balaguer، وينظر معجم البلدان ١/ ٤٨٨.

(٣) الضبط من معجم البلدان ٢/ ٤٥٣.

مُرْسِيَّة والطاغيةُ ابنُ رُدْمِيرٍ صادِرٌ إلى بلادِهِ والعساكرُ المسلمةُ في أثرِهِ، ولم تَزَلْ بعدَ ذلك الحربُ متَّصلة والمضاربُ متردِّدة وغزواتُ محمد بن الحجاج متواليةً إلى أن توجهَ عليُّ بن كنفاط اللّمتونيُّ بعسكرٍ من المُرابطينَ في جهة قلعة أيوب، فنازلَ حصناً من حصون ابن المستعين وَضَيَّقَ عليه وأخذ بِمُخَنَّقِهِ، فلَمَّا نال منه الضَّغْطَةُ اسْتَصْرَخَ أَهْلُهُ بآبن المستعين صاحبِهِم، فوجَّه إليه مددًا من الرُّوم شَفَى أمرَهُ حتى دَخَلَ الحصنَ وخرج منه ليلاً على المحلَّة والنَّاسُ على طُمَأْنِينَةٍ، فتغلبَ العدوُّ على المحلَّة وأسَرَّ أميرَهُم ابنَ كنفاط، وصَدَرَ المددُ الرُّومِيُّ به إلى روطَة، فبقي في اعتقال ابن المستعين مدةً ثم خَلَّى سبيلَهُ، فكان مُهادنةً ثم كانت حرب، والحربُ سِجالَ والنفوسُ آجال.

وفي هذه السنة: خرج الأميرُ أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين عن غرناطة، ووَلِيَ مدينةَ تِلْمُسان واستقرَّ بها.

وفي سنة خمس وخمس مئة: وَلَّى أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسف الأميرَ مَزْكَلِي على مدينة قُرْطُبة وغرناطة والسمرية وما انتظم معها من الحصون والقرى.

وفي شهر صَفَرٍ منها: قام المنصورُ بن سَير بن مَسْلَمَة، الشَّهيرُ بآبن الأَفطَس، من أرض النَّصرانية إلى مدينة إشبيلية فصمَّم منها إلى حضرة أمير المسلمين، فكانت له منزلةٌ لطيفة ومكانةٌ رفيعة.

وفيها: خرج عمادُ الدولة من مدينة روطَة برسم مُحاربة سَرَقُسطَة، فخرج إليه وإليها محمدُ بن الحجاج بعسكرٍها فحاربَهُ ثم بَعَدَ منه.

وفي سنة ستٍّ وخمس مئة: غزا الأميرُ مَزْكَلِي بعساكرِهِ ومنٍ انضافَ إليه قاعدةُ وادي الحجارة بأرض الرُّوم واكتسَح ما حولها وَضَيَّقَ عليها ثم صَدَرَ إلى قُرْطُبة بغنائمه.

وفيها: أُغْرِيَ بِالْأَمِيرِ مَزْكَلِي عِنْدَ أميرِ المسلمين فاقْتَضَى نَظَرَهُ إيفادَ مشيخَتِهِ من المُرابطين لِثِقَاف... ما إلى نَظَرِ الأميرِ مَزْكَلِي من بلاد الأندلس، وكان لأبي عليٍّ بن... حثيثُ المسعى والقِدْحُ المُعَلَّى، واتَّصل النَّبَأُ به فبادَرَ إلى أميرِ المسلمين، ولما اجتمع به جَلَا عن نَفْسِهِ فارتَفَعَ الظَّنُّ وَحَصَّحَصَ الحق... إلى طاعته على أكرمِ حال وأتمِّ آمال.

وفي سنة سبع وخمسة مئة: توفي الأمير سِيرُ بن أبي بكر الوالي على مدينة إشبيلية بتقديم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وذلك في شهر رجب من عام أربعة وثمانين، وكانت وفاته في شهر جمادى الأولى من هذه السنة بموضع يُعرف باغرناط على مقربة من إشبيلية، خرج زافاً لنفسه فاطمة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ومشيعاً لزوجته حواء بنت تاشفين، وكان هذا تاشفينُ أخا يوسف بن تاشفين لأُمّه وابن عمّه؛ لأنه لما مات تاشفين والد يوسف دخل مكانه أخوه علي. فخرجت حواء وأختها من إشبيلية فلم يُعهَدْ مثل ذلك اليوم لهواً وكثرة ونعماً، خرج فيه الجُمُ الغفير إلى مضارب المحلة بعين العلو، فلما جن الليل نزل بالأمير سِيرُ بن أبي بكر بن تاشفين مَغْصُ تزيد عليه حتى قضى رحمه الله عند انصداع الفجر فشهِد جنازته بشرٌ عظيم.

وكانت هذه الحرّة حواء^(١) أديبة شاعرة جليّة ماهرة: أخبر أبو عبد الله محمد بن سعيد الخزرجي في كتابه، قال: حدّثني أبو محمد بن جَلُون، عن شيخه أبي عبد الله بن زَرْقُون، وكان شيخه مالك بن وَهَيْب، قال: أَمَرَت الحرّة حواء اللّْمُتُونِيّة بِمَرَاكُش بمجلس الكتبة والشّعراء كانت تُحاضِرهم فيه وكانت ذات نباهة وخطر، فاجتمع يوماً في ذلك المجلس جماعة منهم: ابنُ القصيرة وابنُ المَرْخِي، وهذا لقب له لأنه يقال: كان له فتورٌ على فصاحته، وحضر غيرهما، فلما غُصَّ المجلس أقبلت الحرّة تُريدُهم وهم يتحدّثون ويأخذون في الشعر، وكان ابنُ المَرْخِي قد قال صدر بيت وهو: «أنا للبدرِ أخ» ولم يُجرّه أحدٌ منهم، إذ أقبلت الحرّة فسَلّمت عليهم، وبأذرها ابنُ المَرْخِي وقال لها: حيّاك الله يا قمري ويا زهري، فقالت: وصفتني والله بأفل وذابل، ففرح بفطنتها، فقالت له: فيم كنتم؟ قال لها: كنّا قد قلنا صدر بيت ولم يَقْدِر أحدٌ على عبّزّه، فقالت: أنشدني، فقال: «أنا للبدرِ أخ»، فقالت على البديهة: «على ذا سنخ»، فتعجّب الحاضرون من براعتها.

وفي هذه السنة: خرج الأمير مُزْدَلِي من حضرة مَرَاكُش إلى الأندلس وولاه علي بن يوسف على مدينة قُرْطُبة وغرناطة، فأجاز البحر للأندلس إلى مدينة إشبيلية فاستمد... الأمير سِيرُ ابن أبي بكر اللّْمُتُونِي فأمّده بعسكر ضخم من المرابطين والحشم وغيرهم، وانضم إليهم عسكر قُرْطُبة وغرناطة ولّة من العدو ولقيف من المُطوّعة خيلاً ورجلاً،

(١) ترجمتها في الذيل والتكملة لابن عبد الملك ٤٢٩/٥، بتحقيقنا.

فَعَظُمَ الْجَيْشُ، وَأَمَّ بِهِ الْأَمِيرُ مَرْزُوقِي أَرْضَ طَلَيْطَلَةَ فَدَوَّخَهَا وَاکْتَسَحَ بِهِ أَوْدِيَّتَهَا وَأَبْلَغَ فِي نِكَايَتِهَا، وَصَدَرَ إِلَى قُرْطُبَةَ ظَافِرًا ظَاهِرًا عَلَى عَدُوِّهِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: خَرَجَ لِرُومِ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ نَحْوُ خَمْسِ مِائَةِ قِطْعَةٍ تَحْمِلُ مِائَةَ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ فِيهِمْ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةِ فَارِسٍ وَخَمْسُونَ أَلْفًا مِنَ الرُّمَّةِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرَصَرًا عَاتِيَةً أَغْرَقَتْهُمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ وَأَتَتْ مَعَ ذَلِكَ مَرَائِبُ الْحَاجِّ وَجُمْلَةُ مَشْحُونَةٍ بِالْأَطْعَمَةِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: صُرِفَ الْقَاضِي أَبُو مَرْوَانَ الْبَاجِيُّ عَنْ قَضَاءِ إِسْبِيلِيَّةٍ، وَقَدَّمَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ دَاوُدَ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَى فَاسَ، وَوَلِيَ الْقَضَاءِ أَبُو مَرْوَانَ الْبَاجِيُّ ثُمَّ صُرِفَ، وَوَلِيَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَمَجُونٍ فَنُقِلَ إِلَى غَرْنَاطَةَ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ وَرْدٍ ثُمَّ صُرِفَ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ الْفَقِيهُ الْخَطِيبُ الْمُقَرَّرِيُّ أَبُو الْحَسَنِ شُرَيْحُ بْنُ شُرَيْحٍ ثُمَّ صُرِفَ، وَوَلِيَ الْفَقِيهُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَجْمَعِينَ، وَكَانَتْ وَلَايَةُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ الْمُتَأَخَّرِ مِنْهُمْ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ.

قَالَ ابْنُ حَمَادٍ: وَكَانَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ أَمَرَ الْقَاضِي مُحَمَّدَ بْنَ عَيْسَى بَيْنِيَانَ جَامِعَ سَبْتَةَ، وَزَادَ فِيهِ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى الْبَحْرِ، وَكَانَ بُنْيَانُهُ عَامَ أَحَدٍ وَتِسْعِينَ، وَقَبْلَ بِنَاءِ الْجَامِعِ بِأَعْوَامِ أَمَرَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ بِنَاءَ سُورِ الْمِينَاءِ السُّفْلِيِّ بِسَبْتَةَ عَلَى يَدِ الْقَاضِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَحْمَدَ.

وَقَامَ عَلَى يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ رَجُلٌ يُعْرِفُ بِابْنِ الزَّرِّ بِحَارَى وَادَّعَى أَنَّهُ ابْنُ مُعْتَصِرِ الزَّنَاتِيِّ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ فَاسَ بِلَادِ غُمَارَةَ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ يَوْسُفُ وَقَتْلَ خَلْقًا مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ أَعْطَى غُمَارَةَ مَالًا فَغَدَرُوهُ وَأَتَوْا إِلَيْهِ بِرَأْسِهِ. وَقَامَ عَلَيْهِ أَيْضًا مَاخُوخُ الزَّنَاتِيِّ بِنَاحِيَةِ تِلْمَسَانَ، وَاخْتَطَطَّ بِلَدًا لِنَفْسِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ يَوْسُفُ وَفَرَّ أَمَامَهُ وَخَرَجَ مِنْ بِلَادِهِ.

ذَكَرُ حَرْقِ «الْإِحْيَاءِ» وَمَا قَالَ أَبُو حَامِدٍ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ

قَالَ ابْنُ الْقَطَّانِ فِي «نَظْمِ الْجُمَانِ»^(١): أَمَرَ عَلِيُّ بْنُ يَوْسُفَ بِإِجْمَاعِ قَاضِي قُرْطُبَةَ ابْنِ حَمْدِينَ وَفُقَهَائِهَا عَلَى حَرْقِ كِتَابِ «الْإِحْيَاءِ» فَأُحْرِقَ عَلَى الْبَابِ الْغُرِّيِّ مِنْ رَحْبَةِ الْمَسْجِدِ بِجُلُودِهِ بَعْدَ إِشْبَاعِهِ زَيْتًا بِمَحْضَرِ جَمَاعَةٍ مِنْ أَعْيَانِ النَّاسِ، وَوَجَّهَ إِلَى جَمِيعِ بِلَادِهِ بِأَمْرِ

(١) نظم الجمان، ص ١٤ فما بعدها.

بإحراقه، وتَوَالَى الإِحْرَاقُ عَلَى مَا اشْتَرَى مِنْهُ بِلَادُ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَكَانَ إِحْرَاقُهُ لَهُ سَبَبًا لَزَوَالِ مُلْكِهِمْ وَانْتِشَارِ سُلُوكِهِمْ، وَكَانَ الْمُتَلَقَّبُ بِالْمَهْدِيِّ فِي بِلَادِ الْمَشْرِقِ يَوْمَئِذٍ، فَذَكَرَ ابْنُ الْقَطَّانِ فِي السَّفَرِ الثَّلَاثَ عَشَرَ مِنْ كِتَابِ «نَظْمِ الْجَمَانِ»: وَرَحَلَ الْمَهْدِيُّ مِنْ بِلَادِ أَقْصَى الْمَغْرِبِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ مِائَةٍ فَدَخَلَ قُرْطُبَةَ ثُمَّ وَصَلَ إِلَى الْمَرِيَةِ فَدَخَلَ فِي مَرْكَبٍ إِلَى الشَّرْقِ، فَغَابَ فِيهِ إِلَى أَنْ وَصَلَ مَرَاكِشَ سَنَةِ أَرْبَعٍ عَشْرَةَ. وَذَكَرَ ابْنُ الْقَطَّانِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعِرَاقِيِّ، شَيْخٍ مُسْنَنٍ مِنْ سُكَّانِ فَاسٍ، مَنْ أُثْبِتَ فِي مَدْرَسَةِ أَبِي حَامِدٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ كَثَّ اللَّحْيَةُ عَلَى رَأْسِهِ كَرَزِيَّةٌ صُوفٌ وَدَخَلَ لِلْمَدْرَسَةِ وَحَيَّاهَا بِالرَّكَعَتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ إِلَى الشَّيْخِ أَبِي حَامِدٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى، فَقَالَ لَهُ: دَخَلْتَ قُرْطُبَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ فَقَهَاؤُهَا؟ قَالَ: فِي خَيْرٍ، قَالَ: هَلْ انْتَهَى إِلَيْهِمْ كِتَابُ الْإِحْيَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَاذَا قَالُوا فِيهِ؟ فَلَزِمَ الرَّجُلُ الصَّمْتَ حَيَاءً مِنْهُ فَعَزَمَ عَلَيْهِ لِيَقُولَنَّ مَا طَرَأَ، فَأَخْبَرَهُ بِإِحْرَاقِهِ وَبِالْقِصَّةِ كَمَا جَرَتْ. قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الشَّيْخِ أَبِي حَامِدٍ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى الدَّعَاءِ وَالطَّلْبَةِ يُؤْمِنُونَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ مَزُقْ مُلْكَهُمْ كَمَا مَزَقُوهُ، وَأَذِهْبْ دَعْوَتَهُمْ كَمَا حَرَقُوهُ، فَقَامَ الْمَهْدِيُّ فَقَالَ: أَيُّهَا الْإِمَامُ، ادْعُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ عَلَى يَدَيَّ، فَتَغَافَلَ عَنْهُ أَبُو حَامِدٍ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ وَقْتٍ إِذَا بِشَيْخٍ آخَرَ عَلَى شَكْلِ الْأَوَّلِ فَقَالَ لَهُ أَبُو حَامِدٍ فَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ الْمُتَقَدِّمِ، فَتَغَيَّرَ وَدَعَا بِمِثْلِ دُعَائِهِ الْأَوَّلِ فَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ: عَلَى يَدَيَّ، فَقَالَ لَهُ: عَلَى يَدَيْكَ، فَقَبِلَ اللَّهُ دُعَاءَهُ.

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسٍ مِائَةٍ تَوَفَّى الْأَمِيرُ مَرْذَلِيُّ الْوَالِي عَلَى قُرْطُبَةَ فِي شَوَّالٍ غَازِيًا عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ حَصْنِ مَسْطَاسَةَ صُرِفَ بِهِ إِلَى قُرْطُبَةَ فَوُصِّلَ بِهِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ثَانِي يَوْمَ وَفَاتِهِ وَصَلَّى عَلَيْهِ إِثْرَ صَلَاةِ الْعَصْرِ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ حَمْدِينَ.

نَسَبُهُ: هُوَ مَرْذَلِيُّ بْنُ بُولَنْكَانَ بْنِ حَسَنَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ تَوَرْجُوتَ، قَالَ ابْنُ الصَّيْرِفِيِّ: لَمْ أَزَلْ أَطْلُبُ نَسَبَ لِمُتَوَنَةٍ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مِنْهُ إِلَّا أَنَّ الْجَدَّ الَّذِي تَفْتَرِقُ مِنْهُ أَفْخَاذُهُمْ تَرْجُوتَ. وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: تَوَفَّى الْكَاتِبُ الْجَلِيلُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْقَصِيرَةِ، الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الدُّوَلُ الثَّلَاثُ: الْعَبَادِيَّةُ الْمُعْتَمِدِيَّةُ، وَالدُّوَلَةُ الْيُوسُفِيَّةُ، وَهَذِهِ الدُّوَلَةُ الْعَلَوِيَّةُ، بَعْدَ خُطُوبِ أَصَارَتِهِ طَرِيدًا وَقَطَّعَتْ مِنْهُ وَرِيدًا^(١).

(١) العبارة بنصّها في قلائد العقيان لابن خاقان، ص ١٠٤.

وفي هذه السنة: اتّصل الخبرُ بأمير المسلمين عليّ بن يوسف وهو بحضرته مرّاكش عن وفاة الأمير مرزكي، فسَدَّ خللاً من مُصايبه ودَفَعَ رُزءَ فَقْدِهِ بابنيه، فوَلَّى الأمير عبد الله بن مرزكي من مرّاكش، ووَرَدَ غَرْنَاةُ آخرِ ذي القعدة، وتحَرَّكَ الأميرُ محمدٌ فاحتلَّ أيضًا بقرطبة واستقرَّ بها وضبطَ أمورها وأحوالها.

وفي سنة تسع وخمس مئة: ضَرَبَ العدوُّ على نَظَرِ قُرْطُبَة، فخرَجَ إليه محمدُ بن مرزكي بعسكره، وبَادَرَ في الاستعجالِ لِأثره، فلحِقَ بالعدوِّ، ونشِبَت الحربُ، وصَبَرَ المسلمون، فاستُشهِدَ محمدُ بن مرزكي والأميرُ محمدُ بن الحاجِّ والأميرُ أبو إسحاق بن دانية والأميرُ أبو بكر بن واسينو، ومات من الأمراء نحوُ الثمانينَ من وجوه المُرابطينَ وجملةٌ كبيرةٌ من الحشَمِ وأهل الأندلس، وذلك يومَ الخميسِ مستَهْلٌ صَفَرٍ من السنة المؤرَّخة، فكان مصابًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا. واتّصل الخبرُ بأمير المسلمين عليّ، فوَلَّى قُرْطُبَة الأميرَ أبا بكر يحيى بن تاشفين، وهو ابنُ عمِّه شقيق أبيه لأُمِّه، فنَفَذَ إليها وقَدِمَ عليها، ولأَيامٍ من وُصُوله اكتسَحَ العدوُّ الأوَّلُ صاحبُ الجَوْلَة على قُرْطُبَة، فلحِقَه بجهة بَيَّاسَة، ولحِقَ الصَّريخُ بالأمير عبد الله بن مرزكي صاحبِ غَرْنَاة، فبادَرَ في أثره وتتابعَ الجيشُ مُغَدًّا، فلحِقَ به على مقرَّبه، فكانت للرومِ أيضًا، واستُشهِدَ خَلْقٌ من المسلمين كَرَّمهم اللهُ بالشَّهادة في أعلى عَلَيَّين، وذلك يومَ الأربعاء الثامن والعشرينَ من جُمادى الآخرة من هذه السنة.

وفي هذه السنة: توفِّيَ محمدُ ابنُ الحاجِّ صاحبُ سَرَقُسْطَة شهيدًا، واتّصل الخبرُ بأمير المسلمين، فأنفَذَ ولايةَ سَرَقُسْطَة للأمير أبي بكر ابن أبي يحيى إبراهيم^(١) وكان مقيمًا بها، فتولَّى الأمرَ فيه وأخذَ بالعزمِ والحزمِ، ونَقَفَ أمورَ المملكة ونَظَرَ في مصالح الرعية.

وفي هذه السنة: عَوَّضَ عبدُ الله ابنُ فاطمة عن ولاية فاس بولاية مدينة إشبيلية فاستقرَّ بها في أولِ السَّنة المؤرَّخة.

وفي سنة عَشْرٍ وخمس مئة: تحَرَّكَ الأميرُ أبو بكر صاحبُ سَرَقُسْطَة إلى الغزو فقصدَ حصنَ رُوطة فأحرقَ وبالَغَ في النكابة، ثم تحَرَّكَ إلى برجة، وبها عمادُ الدولة ابنُ المستعين بن هُود، فضيَّقَ عليها وبالَغَ في نكايتها حتَّى صالحَ أهلها ورجعَ عنها إلى مدينة سَرَقُسْطَة.

(١) هو المعروف بابن تيفوليت، تزوج بأخت علي بن يوسف وولاه غرناطة ثم سرقسطة، وتوفي

سنة ٥١٠هـ (الإحاطة ١/ ٤١٢-٤١٧).

وفي هذه السنة: قَدَّم أميرُ المسلمين محمدَ بنَ ميمون قائدَ الأسطولِ البحريِّ، فكان له غزواتٌ مشهورة وأُمُورٌ مذكورة.

وفي هذه السنة: أَمَرَ صاحبُ المَهْدِيَّةِ عليُّ بنَ يحيى بن تميم بإعدادِ الأساطيلِ وعمارِتها إلى جزيرةِ جَرْبَةَ، فساروا في جُمادى الأولى وحاصَرها وأخذوا بِمُخَنَقِ أَهْلِها إلى أنْ أَقَرُّوا بالطَّاعَةِ له وسَلَّمُوا لأَمْرِهِ ونَزَلُوا على حُكْمِهِ، فانصَرَفَ الأسطولُ عنها وصَلَحَ أَمْرُ البحرِ في هذه السنة^(١).

وفيها: أَرَجَفَ العوامُ بأنَّه سيكونُ في شهرِ رمضانَ خَطْبٌ عظيمٌ وحادِثٌ كبيرٌ، وقَطَعَ على الدَّولةِ شديدٌ، وأنَّ السُّلطانَ سيموتُ فيه، وفشَا القولُ بذلكَ فيهم وانتَشَرَ، فأكَذَّبَ اللهُ قَوْلَهُم وعَطَّلَ إِرْجافَهُم، وعَمِلَتِ الشَّعْرَاءُ في ذلكَ، وقد تكونُ أَصَابَتُهُم فيها أيضًا كما حَدَّثَنَا أبو الصَّلْتِ، قال: حَدَّثَنِي أبو محمد عبدُ العزیز ابنُ الإمامِ أحدِ خَوَاصِّ الأَمرِ أبي القاسمِ محمد بنَ عَبَّادٍ، قال: كُنْتُ في عسكرِ الأَمرِ أبي القاسمِ عِندَ وَجْهِهِ مَعَ أميرِ المسلمينِ يوسُفَ بنِ تاشُفینِ مَلِكِ المَغربِ الأَقصَى إلى لِقَاءِ أَذْفُونَشَ بنِ فِرْدَلَنْدِ مَلِكِ جَلِيقِيَّةِ أَوَّلِ غَزْوَةٍ غَزَاهَا المُرَابِطُونَ بِالأَنْدَلُسِ، وكانَ النَّاسُ يَنْزِلُونَ بَنزُولَهُ وَيَرْحَلُونَ بِرَحِيلِهِ تَقْرِيبًا وَرَعِيًّا لِمَكَانِهِ مِنَ السَّنِّ وَعِظَمِ القَدْرِ وَوُفُورِ العَدَدِ وَجُودَةِ الرَّأْيِ، قال: فَسَمِعْنَا طَبولَهُ تُضْرَبُ وَقِيلَ: أميرُ المسلمينِ يَتَقَدَّمُ إلى العَدُوِّ، فَأَمَرَ الأَمرِ أبو القاسمِ مَنجَمَهُ بِتَحْقِيقِ طَالِعِ الوَقْتِ والنَّظَرِ فِيهِ، قال: فَوَجَدَهُ بِحَسَبِ ما تَقْتَضِيهِ أَصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ دَالًّا عَلَى أَنَّ الدَّائِرَةَ تَكُونُ عَلَى المسلمينِ وَأَنَّ النُّصْرَ والغَلَبَ لِلْمُشْرِكِينَ، قال: فَأَشْفَقَ مِنْ ذَلِكَ وَكَرِهَ إِعْلَامَ يوسُفَ لِنِفَارِهِ مِنَ الاستِدْلالِ بِالنَّجُومِ وَالْعَمَلِ بِهَا، وَلَمْ يُمَكِّنْهُ غَيْرُ مُسَاعَدَتِهِ وَالِاتِّتِقَالِ مَعَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحَاوِلُ ذَلِكَ إِذْ خَفَّتِ الْأَصْوَاطُ وَهَدَأَتِ الضَّجَّةَ وَجاءَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ يوسُفَ قَدْ بَدَأَ لَهُ فِي الِاتِّتِقَالِ مِنْ هُنَا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَاعَاتٍ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ بَعِيْنَهُ عَادَتِ الْأَصْوَاطُ وَضُرِبَتِ الطُّبُولُ، فَأَمَرَ الأَمرِ أبو القاسمِ مَنجَمَهُ بِأَخْذِ طَالِعِ الوَقْتِ والنَّظَرِ فِيهِ فَوَجَدَهُ أَوْفَقَ طَالِعِ وَأَسْعَدَ نَصْبَةً وَأَدْلَاهَا عَلَى أَنَّ الظُّفَرَ لِلْمُسْلِمِينَ وَالدَّائِرَةَ لِلْمُشْرِكِينَ حَسَبَ ما جَرى الأَمْرُ عَلَيْهِ، قال: فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْ قُوَّةِ سَعَادَةِ

(١) انظر رحلة التجاني (١٢٥).

يوسف، وقال: وهذا من المصنوع لهم المُعْتَنَى بِأَمْرِهِم المُلْتَمِثِينَ إِلَى رُشْدِهِم الَّذِينَ...
لهم التوفيق، وَيُجَدِّمُهُم السَّعْدَ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَابِقِ عِلْمِهِ وَنَافِذِ حُكْمِهِ.

وَكَتَبَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَلِيُّ بْنُ يَوْسُفَ مِنْ مَرَّاكُشَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ
فَاطِمَةَ كِتَابًا يَحْضُهُ فِيهِ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ، أَذْكَرُ الْآنَ مِنْهُ بَعْضُ فُصُولٍ: وَقَدْ رَأَيْنَا وَاللَّهُ وَلِيُّ
التَّوْفِيقِ، وَالْهَادِي إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ، أَنْ نَجِدُدَ عَهْدَنَا إِلَى عَمَلِنَا بِالتَّزَامِ أَحْكَامِ الْحَقِّ وَإِثَارِ
أَسْبَابِ الرَّفْقِ، لِمَا نَرَجُوهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّلَاحِ الشَّامِلِ وَالْخَيْرِ الْعَاجِلِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُسِّرُنَا
لِمَا يُرْضِيهِ فِي قَوْلٍ وَعَمَلٍ بِقُوَّتِهِ. وَأَنْتَ، أَعَزُّكَ اللَّهُ، تَمَنَّيْتُ بِإِشَارَةِ التَّذَكُّرِ، وَيَكْتَفِي
بِلَمَحْظَةِ التَّبَصُّرِ، لِمَا تَأْوِي إِلَيْهِ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالتَّجَرِبَةِ، فَاتَّخِذْ الْحَقَّ إِمَامَكَ، وَمَلِّكْ يَدَهُ
زِمَامَكَ، وَأَجِرْ عَلَيْهِ فِي الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ أَحْكَامَكَ، وَارْفَعْ لِدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ حِجَابَكَ،
وَلَا تُسَدِّدْ فِي وَجْهِ الْمُضْطَرِّ الْمَظْلُومِ بَابَكَ، وَوَطِّئْ لِلرَّعِيَّةِ - حَاطَهَا اللَّهُ - أَكْنَافَكَ، وَابْذُلْ
لَهَا إِنْصَافَكَ، وَاسْتَعْمِلْ عَلَيْهَا مِنْ يَرْفُقُ بِهَا وَيَعْدِلُ فِيهَا، وَاطْرَحْ كُلَّ مَنْ يَخِيفُ عَلَيْهَا
وَيُؤْذِيهَا، وَمَنْ تَثَبَّتْ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلِكَ زِيَادَةً، أَوْ خَرَقَتْ فِي أَمْرِهَا عَادَةً، أَوْ غَيَّرَتْ رِسْمًا، أَوْ بَدَّلَتْ
حُكْمًا، أَوْ أَخَذَتْ لِنَفْسِهِ دَرَهْمًا ظَلَمًا، فَاعْزِلْهُ عَنْ عَمَلِهِ، وَعَاقِبْهُ فِي بَدْنِهِ، وَالزِّمُّهُ رَدًّا مَا أَخَذَ
تَعَدِّيًّا إِلَى أَهْلِهِ، وَاجْعَلْهُ نَكَالًا لغيرِهِ، حَتَّى لَا يَقْدِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى مِثْلِ فَعْلِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى، وَهُوَ وَلِيُّ تَسْدِيدِكَ، وَالْمَلِيُّ بَعْضُكَ وَتَأْيِيدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ. وَهُوَ مِنْ
إِنْشَاءِ ابْنِ الْجَدِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةٍ وَخَمْسِ مِائَةٍ: تَحَرَّكَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَلِيُّ بْنُ يَوْسُفَ مِنْ حَضْرَتِهِ
مَرَّاكُشَ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، فَأَجَازَ الْبَحْرَ فِي أَوَاخِرِ مُحَرَّمٍ وَيَمَّمُ إِشْبِيلِيَّةَ رَيْثَمَا اسْتَبَّ أَمْرُ
الْغَزْوِ وَلِحِقَتْ الْعَسَاكِرُ الْعُدُوِّيَّةُ، وَتَاهَبَتْ الْعَسَاكِرُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ وَلِحِقَتْ مِنْ قُرْطُبَةَ لِمَّةٌ مِنَ
الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَلَفِيفٌ مِنَ الْمَجَاهِدِينَ الزُّعَمَاءِ خَيْلًا وَرَجُلًا، وَتَاهَبَ فَهَاءُ إِشْبِيلِيَّةِ
وَمَجَاهِدُوهَا، وَاسْتَوْفَتْ مَطْوَعَةَ غُرْنَاطَةَ وَمَرْتَبُوهَا، ثُمَّ تَحَرَّكَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِجَمِيعِ الْعَسَاكِرِ
مِنْ إِشْبِيلِيَّةِ لَغَزْوِ قُلْمَرِيَّةٍ^(١)، فَحَاصَرَهَا عَشْرِينَ يَوْمًا وَضَيَّقَ بِهَا ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهَا إِلَى
إِشْبِيلِيَّةِ، وَمَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ فَاطِمَةَ وَالْمَنْصُورُ بْنُ الْأَفْطُسِ فَقَابِلًا أَرْوَامًا فِي بِلَادِ الرُّومِ،
ثُمَّ وَرَدَا إِلَى إِشْبِيلِيَّةِ وَاسْتَأْفَا غَنِيمَةً عَظِيمَةً وَأَسْرَى كَثِيرَةً، وَانْصَرَفَ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ.

(١) وَيُقَالُ فِيهَا: «قُلْمَرِيَّةٌ»، كَمَا فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ ٤ / ٣٩١.

وأنفذ أمير المسلمين عليّ بولاية أبي الوليد بن رُشد حُطّة القضاء بقرطبة.
ومدح الشعراء لأمر المسلمين، فمن ذلك لأبي العباس التّطيلي^(١) من قصيدة
طويلة، [من الرجز]:

ارْكَبْ إِذَا دَارَتْ رَحَاهَا وَانْزِلْ	وَقُلْ إِذَا صَمَّ صَدَاهَا وَافْعَلْ
وَاقْتَصَّ وَاسْتَوْفٍ وَهَبْ فَاحْتَفِلْ	وَابْلُغْ بِأَدْنَى السَّعْيِ أَقْصَى الْأَمَلِ
فِي عُمَرِ الشَّعْرِ وَسَيْرِ الْمَثَلِ	وَرُتْبَةِ الْوُسْطَى مِنَ الْعَقْدِ الْعَلِيِّ
وَجْهْكَ بِالْإِحْسَانِ وَالْحُسْنِ مَلِي	وَأَنْتَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ وَلِي
نَيْطَتْ بِكَ الْأَمَالُ فَاقْطَعْ وَصِلْ	وَهَذِهِ الدُّنْيَا فَوَلٌّ وَاعْزِلْ

وفي هذه السنة: ورد كتاب عليّ بن يوسف بولاية موسى بن حماد قضاء غرناطة.
وفيها: قدّم ياشبيلية لحُطّة القضاء أبو الحسن شُريح بن محمد بن شُريح الرُعيني
عن إصفاق من أهل بلده.

وفيها: ولي محمد بن سعيد قضاء المرية.

وفيها: فسد ما بين الزُّهرّي وابن زُهر، من الصداقة والصّهر، ورَمَى كُلُّ وَاحِدٍ
صاحبه بقاصمة الظّهر، وبادر ابن زُهر بمخاطبة عليّ بن يوسف، فبادر إليه الزُّهرّي إثر
ذلك بنفسه، فتكلّم في ابن زُهر ملء فيه، فأمر الزُّهرّي بسكنى مرّاكش، ثم ورد ابن زُهر
بعد ذلك إليها وقد أظلم له النّير وصعب عليه اللّين، فتلقّى من أمره ما أصدّره... ولم
يسمح له بالوصول، وكان قبل في غاية الجاه والعزة والتمكين من الدّولة، يؤلّى من قبله
حاكمٌ يحكم من حاشيته، وصاحبُ المدينة من توليته، وشهودُ البلد بحكمه، وأمرُ
المستخلص وأملاكُ السّلطان جاريةً على نَهْيِهِ وأمره بمدينة إشبيلية، والزُّهرّي في كلّ
ذلك تلوّه ومقتد به، فما راعوا حق الحرمة، ولا أدّوا شكر النعمة^(٢).

(١) ينظر ديوانه ١٤٧.

(٢) ينظر الذيل والتكملة لابن عبد الملك ١٣/٣، بتحقيقنا.

ذكرُ ولاية أبي حفص عُمر بن يوسف بن تاشفين

وفي هذه السنة: صرف عليُّ بن يوسف أميرُ المسلمين الأميرَ أبا زكريّا يحيى بن عليّ عن إشبيلية، وقَدَّم أخاه أبا حَفْص واليًّا عليها، ولَمَّا وَصَلَ الأميرُ أبو حفص إلى إشبيلية برَزَ إليه أهلُها وخرج الأميرُ أبو مروان بن أبي العلاء زُهر، وكان أبوه أبو العلاء مستوطنًا بفاس بالأمر، فلَمَّا رآه أصغَرَه وقصَّر به، وترجَّل صاحبُ المدينة خالصةُ ابن زُهر فأخذ بيده مُسلمًا عليه، فلَمَّا أَعْلِمَ به أَمَرَ عليه فأُلْقِيَتْ عِمَامَتُهُ في عُنُقِهِ وجُرَّ إلى السَّجَن، فتقلَّبت نفوسُ الحاشية واستشعروا الشرَّ. وجلس الأميرُ أبو حفص عشيَّة ذلك اليوم في رَحْبة القصر فاستحضر من حاشية ابن زُهر رجلين متلبَّسين بأمره، فأمرَ بضرب أعناقهما وطِيفَ برُوحه على أسواق المدينة، وذهب أدبُ ابن نُهَيْة العتاد وأقبل أدبُ... الحجاج...؛ فتتَقَفَّ البلدُ وتمهَّد وسكَّن الإرجاف وفرَّ المُريب وجاء البريء، وأقبل الأميرُ أبو حفص على تتبُّع هذه الحاشية وجعلَ غرضه الانتقامَ فيهم والتشريدَ لهم.

وفي هذه السنة: نفَذَ عهدُ أمير المسلمين عليِّ بن يوسف إلى... محمد بن ميمون قائد الأسطول بتعمير جُمْلَتِهِ وغزو بلاد الرُّوم بها فعمر خمسةً وعشرين... الدُّرية والنَّجدة فاستفتح مدينةَ قطرون، وهي على مسافة يوم من مدينة... فيها، وامتنعت جُمْلَةٌ من أهلها بقصبتها وهي وَعرة المرتقى بأسقة الذُّرى فتعلقت...، وأشرَفوا على استفتاحها فحمَّاهَا اللَّيْل... دوتها وصدَرَ المسلمون إلى الأسطول وعدَّها... وخسونَ رأسًا من السَّبي وكثير... وانصرف عنها القائد إلى المَريّة.

قال... أبو بكر: ونهَضَ عليُّ بن يوسف إلى مدينة إشبيلية... في الإقبال، وأثبتَ ابنَ رَوَادَةَ ريثما يلحقُ بقرطبة، فلَمَّا تمهَّدت مدينةُ قرطبة واستتبَّ أمرُه أخذَ في الصَّدَر منها، فلقي أبا الطاهر بجزيرة طَريف مقبلاً وصادراً، ولحقَ أبو الطاهر غرناطة في رمضانَ المعظَّم^(١).

وفي هذه السنة: وَلِيَ مُرْسِيَّةَ أبو زكريّا يحيى ابنُ غانية اللَّمْتُويّ.

وفيها: وَلِيَ قضاء المَريّة أبو الحَسَن بنُ أَضحى.

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ٣٢، والحلل الموشية ٧٠-٧١.

وفيها: نهَضَ يَنالُه إلى شرق الأندلس فلم يَزَلْ به إلى جُمادى الأولى من العام المقبل.
وفي سنة ستِّ عشرة وخمس مئة: أغزى أبو عبد الله محمد بن ميمون قائد الأسطول
علي بن يوسف مدينة نقوطرة من عمل رُجار، صاحبِ صِقْلِيَّة، ففتَحَها وسبى نساءها
وأطفالها... فيها، وكان علي بن يحيى صاحبُ المهديَّة كتبَ كتابًا إلى رُجار عندما وقع بينهما
وَحْشة يضمَّنُ تهديدَه فيه بإدخال المثلثين والعرب إلى صِقْلِيَّة، فلمَّا كان من غزو أبي عبد الله
ما كان لم يشك رُجارُ صاحبِ صِقْلِيَّة أنَّ السببَ الباعثَ على ذلك والمحرِّكَ له صاحبُ
المهديَّة، فاستنفرَ أهل بلاد الروم قاطبةً وأكثر الاستنصار واستجاش وحشد، كأنَّها في
ذلك كلُّه لأمره، فمَنع السَّفرَ إلى سواحل المسلمين، والتَّأمَّ له ما لم يُعْهدْ مثله.
وفي هذه السنة: ولي الأميرُ تميم بن يوسف إشبيلية من بعد ولايته غرناطة، فورَدَها
في جُمادى الثانية.

وفي سنة سبع عشرة وخمس مئة: صُرف الأميرُ تميم عن ولاية إشبيلية وولَّيها أبو
بكر بن علي بن يوسف.
وفيها: حاصر أسطولُ صاحبِ صِقْلِيَّة مدينة المَهديَّة ونزلَ عليها في جُمادى
الأولى في نحو ثلاث مئة مركب حملَ على ظهورها ثلاثين ألفَ راكب وزهاء ألف فارس،
فأرسل الله عليهم ريحًا صيرت جميعهم إلى الانتشار، وأصلَّتْهم مع بَرْدِ الماء حرَّ النار،
فلمَّا عاينوا ما نزل بهم أنزلوا عن ظهورِ مراكبهم ما كان أنجاه الغرقُ من أفراسهم فصدموا
بها جيوش المسلمين، فخيَّب الله أمالهم وجعل الدائرة عليهم لا هم، وأقْلَعَ جميعُ الأسطول
خاسرين إلى بلادهم، وبعد ذلك لم تجلب صِقْلِيَّةُ بخيل على المَهديَّة، إلى أن استولى
عليها بعد ذلك وأخرج الروم منها الموحدون على ما يأتي^(١).

وفي سنة ثمان عشرة وخمس مئة: تسمَّى محمد بن تومرت السُّوسي بالمَهديِّ،
وكان لَمَّا اشتهر صيته في قبائل الجبال ووصلوا إليه رحلَ معهم إلى جبل إيجليز لهرغة،
فلَمَّا صار في منعة الجبل وحماية عشيرته خاطبَ القبائل ومدَّ يده للبيعة، وذلك في سنة
ستِّ عشرة على ما أذكُّره في موضعه.

(١) تنظر التفاصيل في الكامل لابن الأثير ١٠/٦١١-٦١٣.

قال الیسع بن عیسی الغافقي^(١): ولما صعد الإمام بالجبل أمر بتحسين موضعه لأنه ما كان له إلا طريق واحد، وذلك الطريق لا يمشي فيه إلا راكبٌ بعد راكب من كثرة توغره، وأخذ يحرّض أصحابه على قتال المثلثين ويقول لهم: اقتلوا المجسمين والبرابر المفسدين والفقهاء المكارين.

قال ابن القطان^(٢): ولما ارتقى جبل إيجليز أقام فيه ثلاثة أعوام: من سنة خمس عشرة إلى هذه السنة المؤرخة.

وفي سنة تسع عشرة وخمس مئة: أمر المهدي بتمييز الموحدین، ونودي في جبل المصامدة من هرغة وجنيسة: من كان مطيعاً لله ولرسوله وللمهدي فليصل، وكانوا يعرضون إلى أبي محمد البشير فيخرج قوماً على يمينه وقوماً على يساره، فكل من أخرجته على يمينه يزعم أنه من أهل الجنة، وكل من أخرجته على يساره يزعم أنه من أهل النار، ولا يخرج على اليسار إلا من كان شاكاً في أن الإمام هو المهدي المعلوم... الله ممن خرج على اليسار آلاًفاً، ذكر ذلك ابن القطان وغيره^(٣).

وأخبرني أبو علي صالح قال: لما قتل محمد بن تومرت هزيمة تينمل، قال له الفقيه الإفريقي أحد عشرته: كيف تقتل أقواماً بآبائك ودخلوا في طاعتك وتقسم أموالهم؟ فأمر به فقتل وصلب لأنه كان شك في عصمته، وكان قتله هزيمة تينمل سنة ثمان عشرة، جمع المهدي عليهم أهل تلك الجبال فقام بهم وقتل منهم فيما ذكروا خمسة عشر ألفاً، فلما استأصلهم وسبى أموالهم بنى حصن تينمل، فلما ملك المهدي تلك الجبال وما حولها ضاق الأمر على علي بن يوسف فبعث إليها عسكرياً فهزم.

وفي هذه السنة^(٤): خاطب أهل نظر غرناطة من جبل دور... والشارات لابن ردمير، وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسلهم ملحة عليه في الاستدعاء مطمعة له بدخول غرناطة، وجوهوا له زماماً يشتمل على اثني عشر ألفاً من مقاتلتهم، وأعلموه أن هؤلاء ممن

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ٧٥.

(٢) نظم الجمان ٢٣.

(٣) نظم الجمان، ص ١٠٢-١٠٤.

(٤) تنظر الإحاطة ١/ ١١٤، والحلل الموشية ص ٧٥-٨٠.

شهدت أعينهم لقرب مواضعهم وبالبعد من يخفى أمره، ويظهر عند ورودك شخصه، وهذه الجملة كافية، وعورات البلاد بادية، وعندنا رتب ونظر نخرج لك عنها بالمسانية. فاستزاد طمعه وابتعث جسعه واستفزه بأوصاف غرناطة وما لها من الفضل على سائر البلاد بتحسينها وكثرة عيونها وأنهارها ومنعة قصبته وانطباع رعيته وأنها المباركة التي يملك منها غيرها، وهي المسماة سنام الأندلس عند الملوك في توارخها، وأشخصوا بكتابهم وزمامهم كهولاً منهم تكلموا بين يديه ملء أفواههم ورموا على ذلك الغرض حتى عزم وجد في الحشد وانتخب من تحشده خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل.

وتحرك بهم أول شعبان وقد أخفى مذهبه وكتّم أربه إلى أن وصل بلبنسية في يوم الثلاثاء المو في عشرين من رمضان، فأمر بضرب محلته، ومشى في أهبة، فمر عليها وزاحمها ثم رحل عنها من موضع إلى موضع إلى أن وصل مدينة وادي آش، فاضطرب محلته بموضع يعرف بالقصر من باديتها على فرسخ منها، وذلك لعشر بقين من شوال، فبدأ نحيث المعاهدة^(١) في استدعائه، وافترض سرهم في اجتلابه، وهم الأمير أبو الطاهر بجمعهم وثقافهم، فأعياه ذلك بكثرتهم وبعد أقطارهم، وأقبلوا يتسللون إلى ابن رذمير على كل طريق ومن كل فج عميق... فكثرت رجلته وضخمت مجلته وضائق مدينة وادي آش بالحرب من جهة القبلة، فرأى... فجاء في حرها من الغد، فأنت عليها السهم وفقد جملة من... أقام بمضطرب محلته نحو النهر وأهل وادي آش في حصار صعب قد أخذوا المنازل وسكنوا... أرباض... المتجلدة من السترة تتقل إليها الأحجار، وكانت تبرز المخدرة من خدرها ومنهتك من سترها.

ولما اتصل بأمير المسلمين نبأ ابن رذمير اللعين، أنفذ أمره إلى أقطار العدو بتسريب الجيوش إلى الأندلس، فأجازت البحر وجدّت في السير حتى أجدت بغرناطة، وأقبلت عسكرية مرسية ولبنسية، وتحرك ابن رذمير من وادي آش، وأخذ على بريطة^(٢) يوم

(١) يعني: ظهر ما كان مكتوماً في أنفسهم.

(٢) في الإحاطة والحلل: «وتحرك من وادي آش فتزل بقرية دجة»، وقرية دجة هذه تقع غرب وادي آش في منتصف الطريق بينها وبين غرناطة. (ينظر التعليق على الإحاطة).

التحر، فصلى الناس بالمُصلى صلاة الخوف وهم في الأسلحة، وتحرك الأمير أبو الطاهر من غرناطة بالجيوش للقاء العدو، فمشى مسافة أميال ثم صدر إلى المدينة، وظهرت أخية العدو في غد صدوره إليها على فرسخين منها، وجاءت الطلائع مُنيئة بها فعميت... وانقطعت السابلة والواردة وقلت المرافق وتراحم الناس في المدينة وسكنت المساجد والمصاطب والرحاب والخراب، وكثر الجزع والإرجاف والموجان بالنهار والليل... والأسوار معمورة بأهل البلدة وما نسي في الدور غير الصبية والنسوة، وتوالت الأمطار وسالت الطرق وضافت النفوس أشد ضيقة.

وأقام ابن رُدَيمر بمضطرب محلة بضعة عشرة ليلة لم تسرح له سارحة ولا سُنت غزوة ولا انفصل بعض جيشه عن بعض، والمعاهدة تجلب إليه الأقوات والعُلوفات، وخيل المسلمين تراوحه وتغاديه دون مُناوشة، وفي خلال ذلك سَفَر إلى رأس من رؤوس المعاهدة بالحضرة يُعرف بابن القلاس يوبّخه على استدعائه ويُلومُه على تضمينه بما لا يفي به ولا يقدر عليه، فاحتج له بتلومُه وتباطؤه في إقباله حتى أقبلت الجيوش من الشرق والغرب والعدوة، وقال له: قد أوبقتنا وأوقعتنا في الهلكة إلى المسلمين، وساق نفسه إلى الحزي، فلما انصرف السفير بهذا المقالة تحرك ابن رُدَيمر بمحلته من موضع إلى موضع إلى الجبل الذي بجوف... قبرة^(١)، فبدت للمسلمين جملة محلته، وكانت قبل مُكمنةً بالجبال والشعراء.

وبعد حركته من خارج غرناطة لحق الأمير أبو بكر أمير المسلمين بمحلته من إشبيلية، فأقام يوماً، ثم تحركت الجيوش في أثر العدو، وأقام ابن رُدَيمر بجبل قبرة أياماً ثم تحرك منه، وعساكر المسلمين تتبّعه وتنتقل بانتقاله... عن يمينه وشماله، إلى حصن أرنيسول^(٢)، فصبّحت الجيوش يوم الأربعاء الثالث عشر من صفر، فكانت عامّة النهار مكافحة وفي أثنائها مُناوشة والظهور عليه. فلما طفّلت الشمس أمر الأمير تميم برفع خبائه من وهدة كان فيها إلى ربوة عالية...، فاختل الأمر وانتكشت تعبئة الجيوش وساء به الظنون،

(١) Cabra، وهي في الشمال الغربي من غرناطة، وينظر معجم البلدان ٤ / ٣٠٥.

(٢) حصن يقع في الجنوب من غرناطة. (ينظر التعليق على الإحاطة، والكامل لابن الأثير ١٠ / ٦٣١).

وَأَخَذَ النَّاسُ فِي الْفِرَارِ وَجَعَلُوا أَوْجَهُهُمْ إِلَى السَّاقَةِ، وَتَهَيَّبَ الْعَدُوُّ الْأَمْرَ فَلَمْ يَدْخُلِ الْمَحَلَّةَ إِلَّا بَعْدَ هَدَأَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ أَخَذَ إِلَى جِهَةِ السَّاحِلِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى غَرْنَاطَةِ فَضْرَبَ مُحَلَّتَهُ عَلَى ثَلَاثَةِ فَرَسَخٍ مِنْهَا، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَفِي الرَّابِعِ... الْعَسَاكِرُ وَسَرَّعَانَ خَيْلِهِ بِقُرْبٍ مِنَ الزَّائِيَةِ صَمَدَ أَبُو حَفْصَ بْنِ تَوْزُجِينَ بِجَيْشٍ مَكْنُاسَةٍ... وَوَقَعَ الضَّرْبُ وَالْحَرْبُ فَأَخْرَجَهُمْ عَنْهَا، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَنْجَلَتِ الْجِيُوشُ عَنْ هَذَا الْفَحْصِ... اسْتَشْهَدَ رِجَالٌ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ... وَانْتَقَلَ ابْنُ رُذَمِيرٍ إِلَى السَّمَرِجِ مُضِيًّا عَلَيْهِ وَالْخَيْلُ تُحْرِجُهُ، فَاضْطَرَبَ مُحَلَّتَهُ مُضْطَرًّا ثُمَّ رَحَلَ مِنْهُ وَرَجَعَ إِلَى وَادِي آشٍ وَقَدْ بَادَرَهُ يَنَالُهُ اللَّتْمُوتِيُّ بِعَسْكَرِ فَاسٍ، فَحَارَبَهُ مِنْ جِهَةِ وَادِيهَا، فَفَقَدَ عَدَدًا كَثِيرًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَصِيبَ لَهُ زَعِيمٌ كَبِيرٌ، فَرَفَعَ أَخْزَى رَفَعٌ، وَدَفَعَ شَرَّ دَفْعٍ، فَأَخَذَ الْجِيُوشُ تُضَيِّقُ عَلَيْهِ إِلَى فَحْصِ قَرْبَاةٍ^(١) مِنْ أَنْظَارِ مَرْسِيَّةٍ، فَاجْتَاَزَ بِجِيُوشِهِ وَأَخَذَ عَلَى حُصُونِ شَاطِئَةِ وَالْعَسَاكِرُ فِي كُلِّ ذَلِكَ تَطًّا أَذْيَالَهُ وَتَنَاوَشُهُ وَتَصِيبُ مِنْهُ، فَكَانَ يَتْرُكُ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ هَلَكَى وَمَرْضَى لَا تُرْجَى، حَتَّى لَحِقَ بِلَادَهُ مَخْتَرَمَ الْجَمْعِ مَقْلُوعًا بِلا حَرْبٍ، وَمَنْ خَلَصَ مِنْ حَمَلَتِهِ إِلَى مَوْضِعِهِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الْأَمْرَاضُ... الْأَغْرَاضُ فَكَادَ الْحَيُّ وَالْمَوْتُ يُوَاصِلُهُمْ. وَصَدَرَتِ الْعَسَاكِرُ... وَاسْتَقَرَّ الْمُخْتَصُّ مِنْهَا بِالْأَنْدَلُسِ فِي مَوَاضِعَ أَرْزَاقِهَا، وَأَخَذَ الْمَدَدُ فِي الْإِجَازَةِ إِلَى الْعُدُودِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: احْتَسِبَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ آجَرَہَ اللَّهُ، وَتَجَسَّمَ النَّهْوَضُ إِلَى حَضْرَةِ مَرَّاكَشٍ، فَتَلَقَّاهُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَكْرَمَةِ وَالْمَبَرَّةِ، وَبَيَّنَ لَهُ الْقَاضِي أَمْرَ الْأَنْدَلُسِ وَمَا بُلِيَتْ بِهِ مِنْ مُعَاهِدَتِهَا وَمَا جَرَّوْهُ إِلَيْهَا وَجَنَّوْهُ عَلَيْهَا مِنْ اسْتِدْعَاءِ ابْنِ رُذَمِيرٍ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الذِّمَّةِ، وَأَصْغَى إِلَيْهِ الْأَمِيرُ عَلِيٌّ وَتَلَقَّى قَوْلَهُ بِالْقَبُولِ، فَوَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى تَغْرِيبِهِمْ وَإِجْلَائِهِمْ مِنْ أَوْطَانِهِمْ، وَهُوَ أَخْفُ مَا يُؤْخَذُ بِهِ مِنْ عِقَابِهِمْ، وَنَفَذَ عَهْدَهُ إِلَى جَمِيعِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ بِإِجْلَاءِ الْمُعَاهِدِينَ إِلَى الْعُدُودِ، فَفُتِيَ مِنْهُمْ فِي رَمَضَانَ عَدَدٌ جَمٌّ أَنْكَرْتَهُمُ الْأَهْوَاءُ وَأَكَلَتْهُمْ الطُّرُقُ وَنَسَفَتْهُمْ الْأَسْفَارُ وَنَزَلَ فِيهِمُ الْوَبَاءُ، وَفَرَّقَهُمُ اللَّهُ شَذَرَ مَذَرٍ، وَأَحْلَلَ بِهِمْ عَاقِبَةَ مَكْرِهِمْ وَأَذَاقَهُمْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فَاطِر: ٤٣].

(١) Caravaca، وتقع شمالي مرسية. (ينظر معجم البلدان ٤/ ٣١٩).

ونبه القاضي على بناء الأسوار، فشرع الأمير علي بن يوسف في بناء سور مُحْدِقٍ
بمراكش في هذه السنة، فكمّل في أقرب وقت وأعجله، وورد كتاب الأمير علي بن يوسف
إلى الأندلس بالنظر في الأسوار بجميع البلاد، فتلّوم ذلك النّظر فيه، حتّى صرّف الأمير
أبو الطاهر عن غرناطة وقرطبة في رمضان ونهض إلى مراكش، وقدم أبا عمر يناله على
غرناطة، وقدم أبا حفص عمر بن سير على قرطبة، وخرج يناله من غرناطة بالجيش
متحملاً ميرة أقلّيش، فلما احتلّ... اعترضه جملة وافرة من الروم ووقع الضرب بينهم،
وثبت المسلمون فهزم الله الكفرة، وأورد يناله الميرة وصدر ظافراً. ولما استقرّ يناله
بغرناطة بعد انفصال الميرة وقد تهيّب أمره وانتهج أمر السور. ثم أغزى الأمير أبو... ابن
يوسف بن تاشفين أرض طليطلة في جيشه وجيش قرطبة فغنمها وصدر منها غنائما
ظافراً إلى غرناطة.

ذكر التعيب بالأندلس وبناء الأسوار في هذه السنة

فلما صدر حدّ في تعيب البلد وقُد ذلك من وقع الاتفاق عليه من قاضي القطر
أبي القاسم بن ورد وصاحب المستخلص أبي علي بن هذبة، وقدم لقبض المعتب
رجل من بني نجبة، لم يكن من الحزمية ولا من الخدمة، فمزق المال كلّ مزق، وعاث فيه
كلّ مخرق، وذمّ يناله جميع البنّائين، وشدّ على الناس في دفع المال، فكانت الآلات متمكنة
والموردة متصلة، وتهيّب يناله، فكان الناس يخافونه لضغطه وشدّته، وكمل السور في
أقرب وقت، وكان حاطب ليل، وبعض البنّائين غثاء سيل، لا وفوا التأسيس ولا قوموا
الترصيص، ولأقرب مدة وهى وسقط كثير منه على المجاورة بجهة باب الرملة وباب
البيرة، فأهلك جملة لا تُحصى، وكثر الدّعاء على بانيه ومؤنّيه.

وتولّى النّظر في أسوار الميرية رجل منهم يُعرف بابن العجمي من أصحاب ابن
ميمون، فأخذ بالحزم، واستكثر بالسياسة والعزم، ولم ينفق شيئاً من المال إلا في موضعه،
ولا استعان إلا بمن جدّ في نصحه، ورأى الناس ذلك فتساهلوا في الأداء وتواصلوا
حمل تلك الأعباء، فكمّل السور على واجبه من التحصين والتحسين، بيسير من المؤنة
دون ضرب ولا سجن. وتولّى أهل قرطبة رمّ أسوارها على سالف عاديهم، فعزم أهل

كُلَّ مَسْجِدٍ إِقَامَةً مَا يَلِيهِمْ فَكَمَّلَ الْأَمْرَ دُونَ تَشْعِيبٍ وَلَا تَعْتِيبٍ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ إِشْبِيلِيَّةَ
بِوَسْطِ الْحَالِ دُونَ إِسْرَافٍ وَلَا إِجْحَافٍ.

وَفِي لَيْلَةِ الْأَحَدِ الْحَادِي عَشَرَ لَدَى الْقَعْدَةِ: تَوَفَّى بِقَرْطَبَةِ الْفَقِيهِ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ
ابْنُ رُشْدٍ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ رُشْدٍ، وَلَهُ «شَرْحُ الْمُسْتَخْرَجَةِ» تَأْلِيفٌ لَمْ
يَسْبِقْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى مِثْلِهِ يَنْفُذُ عَلَى الْمِثَّةِ جُزْءٍ^(٢)، هَكَذَا ذَكَرَ صَاحِبُ كِتَابِ «الْأَنْوَارِ
الْجَلِيلَةِ فِي مَحَاسِنِ الدَّوْلَةِ الْمُرَابِطِيَّةِ»^(٣)، وَلَهُ مَقَدِّمَاتٌ فِي الْفِقْهِ فَسَّرَ فِيهَا مَذْهَبَ مَالِكٍ
رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَبْلَغِ حُجَّةٍ وَأَوْضَحَ مَعْنَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّوَالِيفِ. وَصَلَّى عَلَيْهِ ابْنُهُ وَدُفِنَ
بِمَقْبَرَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ فَلَمْ يُعْهَدْ مِثْلُ ذَلِكَ الْيَوْمَ فِي الْحَقْلِ وَكَثْرَةِ الْمَخْلُوقِ فِيهِ.

وَفِي سَنَةِ عَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ: قَالَ ابْنُ حَمَّادٍ: قَامَ رَجُلٌ فِي رَيْفِ سَبْتَةٍ فِي كَرْكَالٍ
وَادَّعَى أَنَّهُ الْخَضِرُ، فَقُبِضَ عَلَيْهِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ وَوَصَلَ إِلَى سَبْتَةِ يَوْمِ
الثَّلَاثَةِ لثَلَاثَ عَشْرَةٍ مِنَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ فَحُمِلَ مِنْهَا إِلَى حَضْرَةِ مَرَّاكُشَ فَقُتِلَ وَصُلِبَ.
وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: تَوَاتَرَتْ أَخْبَارُ الْمَهْدِيِّ بِمَرَّاكُشَ وَطَاعَتْ لَهُ الْجِبَالُ كُلُّهَا...
فَأَكْمَلَ الْبَشِيرُ الْوَنَشْرِيَّ السَّمِيزِيَّ فِي الْعَامِ الْفَارِطِ، أَمَرَهُ الْمَهْدِيُّ بِالتَّحْقِيقِ عَلَى الْبَاقِينَ...
فَغَزَا بِهِمْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ كَبْكُ، وَوَصَلَ إِلَى أَغْمَاتٍ وَحَوَزَ مَرَّاكُشَ وَرَجَعَ إِلَى الْجَبَلِ، فَأَخَذَ
الْأَمِيرُ عَلِيُّ بْنُ يَوْسُفَ بَيْنِي الْمَرَاصِدِ بِقَرْبِ مَرَّاكُشَ وَيَسُدُّ الطُّرُقَ الَّتِي يَنْزِلُ مِنْهَا أَتْبَاعُ
الْمَهْدِيِّ إِلَى الْأَوْطَانِ.

وَذَكَرُوا أَنَّهُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ: كَانَ وَصُولُ ابْنِ رُشْدٍ إِلَى مَرَّاكُشَ وَوَفَاتُهُ بِقَرْطَبَةِ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: نَهَضَ يَنَالُهُ اللَّمْتُ الْوَالِي عَلَى غَرْنَاطَةَ إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ، فَلَمْ
يَزَلْ بِهِ إِلَى أَنْ عَزَلَ عَنْ غَرْنَاطَةَ فِي جُمَادَى الْأُولَى مِنْ عَامِ اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ

(١) تَرْجَمَتْهُ مَشْهُورَةٌ وَسِيرَتُهُ مَذْكُورَةٌ، وَقَدْ تَرْجَمَهُ الْجَمُّ الْغَفِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ، فَتَنْظُرُ الصَّلَةُ الْبَشْكُوَالِيَّةُ
٢١١/٢ (١٢٧٠)، وَتَعْلِيقُنَا عَلَيْهَا.

(٢) هُوَ الْمُسَمَّى بِـ«الْبَيَانِ وَالتَّحْقِيقِ»، وَالشَّرْحَ وَالتَّوْجِيهَ وَالتَّعْلِيلَ لِمَسَائِلِ الْعَتَبِيَّةِ طَبَعَتْهُ دَارُ
الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ، وَهُوَ مُمْتَشِرٌ مَشْهُورٌ.

(٣) لِأَبِي بَكْرٍ الصِّيرَفِيِّ.

سنة وتسعة أشهر، وكان أبو عُمر يَنَالُهُ استَدْعَى فقهاء وعلماء من أهل جَيَّان، فلَمَّا حَضَرُوهُ أَمَرَ بِسَجْنِهِمْ ظُلْمًا واعتداءً، ثُمَّ نَهَضَ لِلْغَزْوِ إِلَى الشَّرْقِ فَلَمْ يَزَلْ فِي تِلْكَ الْوِجْهَةِ وَهُمْ فِي الْعُقْلَةِ إِلَى أَنْ عَزَلَ بِالْأَمِيرِ أَبِي حَفْصِ عُمَرَ بْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ، فَلَمَّا وَرَدَ غَرْنَاطَةَ بَادَرَ بِإِخْرَاجِهِمْ وَإِصْدَارِهِمْ إِلَى بِلَدِهِمْ عَلَى غَايَةِ الْمُبَرَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَفَرَّجَ اللَّهُ بَعْزَلَةَ يَنَالُهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ الْعُتْمَةَ وَانْفَرَجَتِ الضَّيْقَةُ بِالْأَنْدَلُسِ.

وفي سنة إحدى وعشرين وخمس مئة: قال ابنُ الْقَطَّانِ^(١): وَجَعَ الْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنَ الرِّجَالِ وَنَحْوَ أَرْبَعِ مِائَةِ فَارِسٍ، فَنَزَلُوا عَلَى مَرَاكُشَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لِمُتُونَةٍ فِي أَكْثَرِ مِنْ عَدِيدِهِمْ مَعَ أَمِيرِهِمْ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ فَهَزَمُوهُ، وَمَاتَ عَسْكَرُ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ عَلَى بَابِ أَغْمَاتٍ، وَطَالَ حَصَارُ مَرَاكُشَ نَحْوَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَلْتَقُونَ فِيهِ وَيَتَقَاتِلُونَ، وَخَرَجَ عَلِيُّ بْنُ يَوْسُفَ أَيْضًا بِعَسَاكِرِهِ وَانْهَزَمَ، وَمَاتَ مِنْ عَسْكَرِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ بِالزُّحَامِ عِنْدَ بَابِ دَكَّالَةِ، وَفَرَّ أَقْوَامٌ مِنْ عَسْكَرِهِ حِينَ لَمْ يَجِدُوا مِنْ أَيْنَ يَدْخُلُونَ إِلَى مَرَاكُشَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى وَادِي أَمِّ رَيْبِيعٍ، فَلَمَّا رَجَعُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَ عَلِيُّ بْنُ يَوْسُفَ بِخَلْقِ لِحَاهِمَ وَمِثْلِ بَهِيمٍ. وَلَمَّا مَكَثَ أَصْحَابُ الْمَهْدِيِّ بِحُشُودِهِمْ فِي الْبُحِيرَةِ الْمَدَّةَ الْمَذْكُورَةَ، وَصَلَتِ الْحُشُودُ وَالْعَسَاكِرُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إِلَى عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَيْهِمْ فَهَزَمَهُمْ وَقَتْلَهُمْ قِتْلًا ذَرِيعًا، وَفُقِدَ فِي هَذِهِ الْهَزِيمَةِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَشِيرُ وَلَمْ يَجِدْهُ الْمُوَحِّدُونَ وَلَا الْمُرَابِطُونَ لَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا^(٢). وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ لَطَائِفَةُ الْمَهْدِيِّ عَلَى عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ أَرْبَعُونَ هَزِيمَةً، وَعَلَيْهِمْ هَذِهِ الْهَزِيمَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِهَزِيمَةِ الْبُحِيرَةِ قُتِلُوا فِيهَا أَجْمَعِينَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا نَفَرٌ يَسِيرٌ مَعَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، وَقَدِمَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ مَرَّةً أُخْرَى وَبَاتَ عَلَى هَيْلَانَةٍ فَحَشَدَهُمْ وَرَجَعَ بِهِمْ إِلَى مَرَاكُشَ فَهَزَمُوا أَيْضًا، فَمَاتَ فِي تِلْكَ الْهَزِيمَةِ نَحْوُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَتَوَجَّهَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ مَعَ خَمْسِينَ رَجُلًا إِلَى تِنَمَلٍ وَوَجَدَ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ لَهُمْ: بَقِيَ الْأَمْرُ^(٣).

(١) سقط هذا النص من المطبوع من نظم الجمان لابن القطان.

(٢) ينظر البيذق ٢٨.

(٣) تفاصيل وقعة البحيرة في البيذق ٧٨-٨١، ومعنى: «بقي الأمر» أي بقي عبد المؤمن حيًا، يقول راوي الخبر: «فأسرعت حتى وصلت المعصوم (أي المهدي) فأعلمته فقال لي: عبد المؤمن في الحياة؟ قلت: نعم. قال لي: الحمد لله رب العالمين قد بقي أمركم».

وفي سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة: ولّى أمير المسلمين عليّ بن يوسف ولده عمراً في مدينة غرناطة واحتلّها في شهر جمادى الأولى، وكان في جملة رجل زيه التلثيم نشأ بمدينة طنجة وتأدّب بإشبيلية يُعرف بموسى بن مفروح له خطُّ بارع وأدبٌ صالح ونفوذٌ في الحساب، وكانت له نفسٌ ذكيّة وهمةٌ عالية، ألقي إليه الأمير أبو حفص جميع الأعمال وأوطأه عقب الرجال، فاستبدّ بالأمر واستقلّ... فدسّ إليه يهوديٌ ينتحل الطّب سقاه يوم أربعاء ودُفن يوم الجمعة.

ولحق الأمير أبو بكر والي إشبيلية بغرناطة متوجّهاً إلى شرق الأندلس فسار إليه الأمير أبو حفص أخوه، فدخلوا المدينة في أجمل هيئة وأتقن زينة... فاجتمع بأخيه وأقبلا مقترنين والجيش تحفّهما، وكان مضطرب محلة الأمير أبي بكر بالمُصلّى، فتلوّم أياماً ثم تحرك إلى وجهته فقصّد حصناً كان للروم قد تمكّوه غدراً فنصب عليه الحرب ودخله عنوة، وامتلأت أيدي المسلمين بكثير من الأسلحة والآلات والزّي والمتاع، وثقّف الأمير أبو بكر الحصن بالرجال والرّماة وصدر، فبرّز له بغرناطة أحفل تبريز، ثم أغدّ السير إلى إشبيلية.

وقد نفذ كتاب أمير المسلمين إلى ولده صاحب غرناطة بوصوله إليه، وأقام واجدى^(١) بن سير مع أخيه عمر والي إشبيلية وعبد الرحمن بن أبي بكر والي قرطبة، وصدر أبو عمر ينأله عن الشرق إلى غرناطة ثم توجه إلى الجزيرة وجاوز البحر، فلما وصل إلى حضرة أمير المسلمين عليّ بن يوسف أشار بذكره إليه مُعاهدة غرناطة، فأمر بمحضّره معهم في مجلس نظره، فأدّلوا بحجج في ظلّمه فسجنه لهم حتى أنصفهم من ظلّامتهم، ثم بعد ذلك أصابه طاعونٌ كان سبب حتفه، وكان هذا ينأله إذا عاقب الجاني اعتدى عليه، وإذا أتى بالبريء لم يسمع منه، وكان له كاتب يهودي الأعراق والأخلاق يُغيّض الناس ويُغيّضونه، أشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتّصل به، فبدأ بشؤمه أميره ينأله، فجرّ إليه العزل وأوردّه السّجن وأدّاه إلى الهلكة، وغدا شؤمه عليه فاستؤصل ماله ونهب داره وطلب ليوقع به ففرّ وهلك بعد ذلك، وكان أشقر أزرق دميم الخلق في وجهه خال.

(١) هو المعروف باسم «أجداي» عند ابن القطان ١٠٦ (وينظر تعليق الدكتور محمود مكي عليه).

وفي رمضان المعظم من هذه السنة: صُرفَ الأميرُ أبو حفص عمرُ ابنُ أميرِ المسلمين عليَّ بن يوسف عن غرناطة، وكانت ولايته بها أربعة أشهر، ووليها عبد الله بن أبي بكر اللمْتُوني، وكان في شرق الأندلس بجيش العدو، فلما وصلته الولاية أورد كتابًا على أبي يحيى بن رَوَّادَ يستنبيه في الأمور المختصة فتولَّى ذلك.

وفي هذه السنة: استمرت عزمُ عليَّ بن يوسف اقتداءً بأبيه في إشارتهم إلى مَنْ يقومُ بالأمر من بعده، فاستدعى من ثواب القبائل مَنْ وثق بدينه ونظره، وفاوضهم في مذهبه، فكلُّ شيخ وردَ على تهممه، وأشار بالأمير أبي محمد سَيرِ ابنه، فأمرَ كتبتَه بإنشاء البيعة له، فنزع كلَّ سهمه إلى غرض طبعه وعلمه، فلما وقف عليه أعرض عنه وأمرَ بنقل البيعة المتعهدَة في قُرْبَة باسمه، فألزم نفسه ما التزم وقلَّده ما تقلَّده، وأنفذَ الكتبَ إلى عمَّاله وقضاة بالأندلس حتى أخذ البيعة في كلِّ بلدة، فانعقدت في كلِّ قاعدة بيعة يوم الجمعة الرابع عشر من جمادى الأولى... أمير أبي حفص، ثم دنا بهما واستدعى الزعماء والأعيان من جميع جهات غرناطة، فلما... فيها أنفذَ إلى أمير المسلمين بها وتساجل في هذا الشأن أهل البلاد، هكذا ذكر الصيرفي في كتابه.

قال الورَّاق في «المقباس»: لما عزم عليُّ بن يوسف على أن يخلعَ عهده على ابنه سَير الذي من أمته قمر^(١)، وجَّه إلى عقد ذلك... أهل العقد والحل من الفقهاء والقضاة، وجمع لذلك بني عمه وأخويه: الأمير تميمًا كبيره وأخاه إبراهيم صغيره المشتهر بابن تاغيشت، وهي أمة سوداء، فسلم الأمر لابنه سَير وشهد الشهود عليه بذلك، وكملت البيعة له وأرسل بها إلى سائر الأقطار والأنظار، فاستقرت البيعة للمذكور والتزم قبولها، واستقلَّ بالأمر ونظر في سائر ما تدعوه الضرورة من أمور الجيوش والأحكام والولايات والعزل وردَّ المظالم، وقعد للناس قعودًا فحماً، وكان تامَّ الخِلقة حسن الخلق كامل الأدوات من الفروسيَّة وغيرها جميل الهيئة، ولم يكن له ولد؛ لأنه كان عقيماً، ولم تطل مدَّته، فهلك في حجر أبيه، وتكلَّم الناس في سبب موته بأحاديث شنيعة.

(١) تنظر الإحاطة ١/ ٤٥٥.

ذكر ولاية تاشفين بن علي بن يوسف الأندلس ونبيذ من أخباره

لما وليّ عليّ بن يوسف ابنه سيّراً ولاية عهد، وجعل له الأمر من بعده، رأى أن يوّليّ ابنه تاشفين الأندلس فولاه إمارة غرناطة والمريّة، إلى أن عزل عن قرطبة ابن عمّه عبد الله بن جنونة، فولاه مدينة قرطبة مضافاً إلى ما بيده لما حسن منابه، وذلك بعد سنتين من ولايته، فدخل قرطبة سنة أربع وعشرين واستقرّ بها ونظر في مصالح أمورها. وكان بطلاً شجاعاً حسن الرّكبة والهيئة لولا بخل أخلّ به، وكان يسلك طريق ناموس الشريعة ويميل إلى طريقة المستقيمين وقراءة كتب المرّيدين، وقيل: إنه لم يشرب قطّ مسكراً ولا استمع إلى قينة ولا اشتغل بلذّة صيد ولا غير ذلك ممّا يلهو به الملوك من سائر اللّهو، وظهّرت له بارقة في النّصر على التّصارى الضّارين ببلاد الأندلس، فإنه كان يؤثّر فيهم ويهزّمهم في أكثر الأوقات، فأحبّه أهل قرطبة خواصّها وعوامّها، فبعد صيته وعلا ذكره، وساس أهل الأندلس سياسةً طار بها ذكره من الاستقامة واتباع لأموال الشريعة^(١).

ولما بعد صيت تاشفين في أمر الغزو والجهاد، وشاع ذكره في سائر البلاد، كبر ذلك على أخيه وليّ عهد أبيه سيّر، وفاوض أباه في ذلك وقال له: إن الأمر الذي أهلتني له لا يحسن لي مع تاشفين، فإنه قد حمل الذّكر والثناء دوني وغطّى على اسمي وأمال إليه جميع المملكة، فليس لي اسمٌ معه ولا ذكر، فحيثُ عزّله أبوه عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حضرته، فوصل تاشفين مرّاكش وصار في جملة من يتصرّف بين يديّ أخيه سيّر، فكان يحضر مجلسه في جملة كبار لمتونة ويقف على باب، ولم تطل المدة إلى أن جرى من أمر سيّر ما جرى، ومات حسباً أذكر في موضعه، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين، هكذا ذكر الوراق.

وكانت ولايته بالأندلس سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة، قال أبو بكر الأنصاري: وليّ غرناطة الأمير تاشفين فوافاه في السابع والعشرين لذي حجة سنة ثلاث وعشرين،

(١) تنظر الإحاطة ٤٥٦/١.

فَقَوَّى الحِصُونَ وَسَدَّ الثُّغُورَ وَأَذَكَّى العِيُونَ عَلَى العَدُوِّ وَآثَرَ الجُنْدَ، وَلَمْ يُكَبِّرْ إِلَّا الجِدَّةَ، وَلَمْ تُنَلَّ عِنْدَهُ الحِطَّةُ إِلَّا بِالْغَنَاءِ وَالنَّجْدَةِ، وَلِذَلِكَ حَمَلَ عَلَى الخَيْلِ وَقَلَّدَ الأَسْلِحَةَ وَأَوْسَعَ الأَرْزَاقَ وَاسْتَكْتَرَّ مِنَ الرُّمَاتِ وَأَرْكَبَهُمْ وَأَقَامَ هِمَمَهُمْ، وَعُغْنِي بِالْغَزْوِ وَمُبَاشَرَةِ الحَرْبِ، فَهَزَمَ الجِيُوشَ وَفَتَحَ الحِصُونَ، وَتَهَيَّيَّ العَدُوَّ، وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَّا ظَاهِرًا وَلَا صَدَرَ إِلَّا ظَافِرًا، وَمَهَّدَ المُلُكَ بِالْحَزْمِ وَتَمَلَّكَ نَفُوسَ الرِّعِيَةِ بِالمَعْدَلَةِ وَقُلُوبَ الجُنْدِ بِالنِّصْفَةِ. قَالَ: وَلَوْ لَا الاختصار لَأُورِدْنَا مِنْ خِلَالِهِ السَّنِيَّةُ مَا يَضِيقُ عَنْهُ الرَّحْبُ وَلَا يَسَعُهُ الكِتَابُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَهِيَ سَنَةُ ثَلَاثَ وَعَشْرِينَ: أَغْزَى وَاجِدَى ^(١) بَنُ عُمَرَ بْنِ سَيْرِ اللَّمْتُونِيِّ عَلَى طَلَبِيرَةٍ بِجَيْشٍ إِشْبِيلِيَّةٍ، فَاکْتَسَحَ مَا بَهَا وَبِالْغِ فِي النِّكَايَةِ، وَصَدَرَ بِالسِّيْقَةِ، فَتَبِعَهُ زُهَاءُ خَمْسِينَ فَارِسًا لِلْعَدُوِّ فَخَضَّ عَلَى صَرْفِ عَدَدٍ يُصِيبُ مِنْهُمْ أَوْ يُشَرِّدُهُمْ، فَتَهَاوَنَ بِهِمْ، فَلَحِقَهُ عَدَدٌ آخَرُ؛ فَقِيلَ لَهُ: بِدَدُّهُمْ قَبْلَ تَجْمُعِهِمْ، فَأَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى تَكَامَلَ لِلْعَدُوِّ زُهَاءُ ثَلَاثَ مِائَةِ فَارِسٍ حَمَلَ عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فَانْهَزَمَ لَهُمْ وَأَصَابُوا مِنَ المُرَابِطِينَ جُمْلَةً وَافرةً وَأَسْرَوْا عِدَّةً، وَرُفِعَ الأَمْرُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ فَأَلْزَمَ وَاجِدَى فِدِيَةً مِّنَ أُسْرِ وَأَنْفَذَ عَزْلَتَهُ وَوَلَايَةَ الأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ الْحَاجِّ وَحُجُوزَ ^(٢)، وَكَانَتْ وَلايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ تِينْغَمَرٍ مَدِينَةَ قُرْطُبَةَ فِي السَّنَةِ الْفَارِطَةِ عَنْ هَذِهِ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ عَلِيٍّ بْنِ يَوْسُفَ.

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: اسْتَصْرَخَ صَاحِبُ قُرْطُبَةَ الأَمِيرَ تَاشَفِينَ، وَالعَدُوُّ مَصْمَمٌ نَحْوَهَا، فَبَادَرَ إِلَيْهَا فَارْتَدَعَ العَدُوُّ عَنْهَا وَرَجَعَ عَوْدَهُ عَلَى بَدْنِهِ، فَلَمْ تَكُنْ لَهُ نِكَايَةٌ، فَفَتَى الأَمِيرُ تَاشَفِينَ أَعِثَّتَهُ إِلَى مَدِينَةِ جَيَّانَ وَأَقَامَ يَسْتَطْلِعُ الْأَنْبَاءَ ثُمَّ صَدَرَ إِلَى غَرْنَاطَةِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: تَوَفَّى صَاحِبُ بَلَنْسِيَةِ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ يَدَّرَ وَتَوَلَّاهَا يَتَّانُ بْنُ عَلِيٍّ اللَّمْتُونِيُّ ^(٣)، فَقَرَنَ اللَّهُ بِذَلِكَ... وَظَهَرَ بِالرُّومِ وَسِيقَ رَأْسُ زَعِيمِهِمْ عَشْتُونَ إِلَى غَرْنَاطَةِ

(١) قد تقدم أن واجدى هذا هو ابن سير، فهل هذا قد سمي على اسم عمه؟

(٢) هو لقب لابن الحاج، ويكتب: «مقور» بالقاف والجيم والكاف هما بدل من الكاف الأعجمية.

(٣) هو أصغر أبناء علي بن يوسف.

في شهر جُمادى الآخرة، فُنِصِبَ على ذروة رُمح وطيف به الأسواق والسُّكَّ وشُهر
بضَرْبِ الطُّبُول^(١)، وأغذَّ به البشيرُ إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف وهو بمرّاكش؛
فأنشد الأميرَ تاشفين أبو بكر محمد بن يوسف شعراً ارتجالاً، وهو [من الطويل]:

بِسَعْدِكَ شَبَّتْ فِي الْأَعَادِي لَظَى الْحَرْبِ	فَجَاءَكَ مَا تَهْوَى مِنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ
وَقَدْ كُنْتَ بِشَّرَّتِ الْأَمِيرِ بَأْتَهَا	بَعِيدُ مَسَرَّاتٍ تَجِيءُ عَلَى قُرْبِ
فَقَدْ أَنْجَزَ الرَّحْمَنُ بِالنَّصْرِ وَعْدَهُ	وَسَهَّلَ أَمْرًا كَانَ فِي غَابَةِ الصَّعْبِ
فَخَيْلِكَ قَدْ أَلَقْتَ بِإِيلَانِ بَرَكْهَا	وَأَمْضَتْ عَلَى غَشْتُونَ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ
وَجَاءَكَ مِنْهَا رَأْسُ غَشْتُونَ مُحْبِرًا	عَلَى جَسَدٍ لِلرُّمَحِ كَفًّا عَلَى...
صَوْتًا أَحْرَ الْمَسَى فِي لِسَانِهِ...	وَلَكِنَّهُ فِي الْحَالِ مِنْ أَفْصَحِ الْعَرَبِ
وَمَا هَذِهِ مِنْ تِلْكَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ	وَلَكِنَّهُ تَرَبُّبٌ أَضْيَفُ إِلَى تَرَبِّ
.....	عَلَى الْبَرَى وَقُرْبِ إِلَى الْحَبِّ

وقيل في ذلك [من البسيط]:

يَا تَاشَفِينُ وَقُطِبُ الْحَرْبِ عَاطِشَةٌ	وَلَيْسَ إِلَّا دُمُ الْأَعْدَاءِ يُرْوِيهَا
قَدْ رَاسَلْتِكَ مَلُوكُ الرُّومِ صَاغِرَةً	فِي السَّلَامِ إِذْ كَادَتْ الْهَيْجَاءُ تُغْنِيهَا
فَخَيْلُهَا الْكُفْتُ مُلْقَى الْبِيدِ وَادْعَةٌ	وَكُفْتُكَ الْخَيْلُ تَعْدُو فِي مَغَانِيهَا
تَخْشَى عِقَابَكَ فِي أَقْصَى مَنَازِلِهَا	وَتَطْلُبُ الْعَفْوَ مِنْ أَعْلَى صِيَاصِيهَا
إِذَا أَتَتْ رُسُلُهَا جَاءَتْكَ مُقْبِلَةً	وَالسَّيْفُ مِنْ غِمْدِهِ سَرًّا يُنَاجِيهَا
تَخَافُ بَحْرَ نَدَاكَ الْغَمْرُ يُغْرِقُهَا	وَتَتَّقِي الشَّزَرَ مِنْ مَرَاكٍ يَعِيشِيهَا

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ١٨١، وفيه الإشارة إلى أن رأسه حمل إلى مراكش وطيف به هناك، لا في غرناطة كما ذكر هنا.

لَا تَسْمَعُ الْقَوْلَ إِلَّا أَنْ يُحَرِّكَهَا وَلَا تَرَى الشَّخْصَ إِلَّا أَنْ يُنَادِيَهَا
تَمْلِكُ الرُّعْبُ مِنْهَا كُلَّ جَارِحَةٍ فَمَا لِأَعْضَائِهَا فِعْلٌ يُؤَاتِيَهَا
فَاهِنًا فَإِنَّ بِلَادَ اللَّهِ أَجْمَعَهَا إِلَيْكَ تَكْفُلُ مَنْ فِيهَا وَتَكْفِيهَا

وَلَمَّا وَرَدَتْ رُسُلُ الرُّومِ رَاغِبَةً فِي السَّلَامِ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَصَرَفَهُمْ إِلَى مَلِكِهِمْ،
وَأَمَرَ بِتَشْيِيعِهِمْ إِلَى مَأْمَنِهِمْ، ثُمَّ أَخَذَ فِي الْحَزْمِ وَالْعَزْمِ، وَنَظَرَ فِي حَسْمِ الْعِلَلِ، وَحَدَّ لَهُمْ
التَّأْثُبَ، وَأَمَرَ الْأَدِلَّةَ بِالْفَخْصِ عَنِ الْأَنْبَاءِ وَأَخَذَ الْأَلْسِنَةَ.

وَبَآثَرَ ذَلِكَ وَرَدَ النَّبَأُ الصَّادِقُ أَنَّ الْقُمَطَ احْتَفَلَ فِي الْحَشْدِ وَخَرَجَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ،
وَعَزَمَ الْأَمِيرَ تَاشِفِينَ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى طَرَفِ نَظَرِهِ فَتَوَاتَرَتِ الْأَنْبَاءُ بِتَعْرِيجِ الْعَدُوِّ إِلَى
طَرِيقِ إِشْبِيلِيَّةَ يَوْمَ النَّصْفِ مِنْ رَجَبٍ، وَكَانَ وَالِيهَا أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ الْحَاجِّ اللَّمْتُونِيُّ
الْمَلَقَّبُ وَمُجُوزٌ^(١)، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَالْخَيْلُ جَائِلَةٌ بِالشَّرَفِ^(٢)، فَخَرَجَ بِمَنْ كَانَ مَعَهُ فَوْقَ
عَلَى ضَفَّةِ الْوَادِي بِبَعْضِ خَيْلِهِ وَرَجَلِهِ، وَأَجَازَ الْبَعْضَ لِيَكْفَ عَادِيَةَ الْخَيْلِ الْغَادِيَةَ
عَلَيْهِمْ، فَظَفَرُوا بِبَعْضِ الرُّومِ وَكُرُّوا بِهِمْ إِلَى الْأَمِيرِ عُمَرَ، فَاسْتَخَبَرَهُمْ وَأَمَرَ بِضَرْبِ
أَعْنَاقِهِمْ، وَمَنْ بِالضَّفَّةِ الْآخَرَى مِنْ خَيْلِ الرُّومِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ، فَاحْتَلَّتْهُمْ الْحَمِيَّةُ،
وَاقْتَحَمُوا النَّهْرَ فَحَاصَ الْمُسْلِمُونَ حَيْصَةً أَجَلَّتْ عَنِ الْأَمِيرِ عُمَرَ صَاحِبِ إِشْبِيلِيَّةَ قَرَبَ
الْمُسْلِمِينَ كَرَمًا... بِشَهَادَةٍ، فَقِيلَ: إِنَّ حَجْرًا كَانَ يُلْقَى عَلَى الظَّهْرِ، فَلَمَّا أَهْلَبَ الْفَرَسَ
بِالْجُرْيِ سَقَطَ وَأَثْقَلَهُ عَنِ الْقِيَامِ الدَّرْعُ، فَدَاسَتْهُ الْخَيْلُ وَبُطَّتْ بَطْنُهُ بِالطَّعْنِ. وَفِي صَبِيحَةِ
تِلْكَ اللَّيْلَةِ اضْطَرَبَ الرُّومُ بِالْمَحَلَّةِ عَلَى فَرَسَخَيْنِ مِنْ مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةَ، فَقَتَلُوا عَظِيمًا وَسَبَّوْا
عَظِيمًا بِمَرَأَى عَيْنٍ وَمَسْمَعِ أُذُنٍ، وَاسْتَاقُوا مِنَ الْأَسْرَى وَالْمَوَاشِي وَالْأَرَابَ مَا لَا يُحْصِيهِ
عَدٌّ وَلَا يَحْصُرُهُ حَدٌّ، فَلَمْ... عَنْ إِحْرَاقِ الزَّرْعِ وَقَطْعِ الشَّجَرِ، وَأَسْرَعُوا فِي الصَّدَرِ، وَلَمَّا
عَلِمَ تَاشِفِينَ بِأَخْذِ الْعَدُوِّ إِلَى جِهَةِ إِشْبِيلِيَّةَ خَرَجَ بِالْجَيْشِ إِلَى سَمْتِ قُرْطُبَةٍ، فَتَلَقَّاهُ كِتَابُ

(١) هذا لقب ابن الحاج، كما تقدم، وأبو حفص عمر هذا هو أخو يحيى بن علي ابن الحاج مجور
المتقدم قبل قليل.

(٢) هي منطقة التلال المحيطة بإشبيلية.

القاضي بها محمد بن أصْبَغ مُعَلِّمًا له باكتساح العدو مدينة إشبيلية، وعَرَفَه باستشهاد صاحبها، فجَدَّ السَّيْرَ في الوُصُول إليها وقد قُتِلَ رَئِيسُهَا وَفُضَّ جَمْعُهَا^(١)... من أهل الحاضر المتصرفين أسعارها، وكثُر... والتأدب من إشبيلية وأمر بتنكيله وسوقه إلى جزيرة...

وكان تميم بن يوسف بن تاشفين واليًا على فاس فيها، فعزله أخوه في سنة ثلاث وعشرين بعد ولاية العهد لسير بن علي، فولَّى بعده محمد بن يزول.

وفي هذه السنة، وهي سنة أربع وعشرين: عزل يزول عن المغرب وولَّى حازم بن داود بن عمرو بن يحيى.

وفي هذه السنة: هبط الموحدون إلى مراكش وحصروها وبقيت أيامًا لا يدخلها أحد، ثم وقعت الملاقاة، فحصل من اللمتوين خلق كثير لم يخص لهم عدد، وهرب باقيهم إلى مراكش، واتبعهم الموحدون إلى بابها فتراموا في الحفير وطلع فيه الناس على الناس حتى امتلأ منهم، ثم رجع الموحدون عنهم إلى محلتهم وبقوا عليهم أيامًا، ف وقعت بينهم وقعة مات فيها من الموحدين من قضى الله له بذلك. انتهى كلام ابن حماد.

وفي هذه السنة، وهي سنة أربع وعشرين المذكورة: نزلت طائفة من قبائل الموحدين إلى كيك، فهزموا عسكريًا علي بن يوسف وأخذوا أموالهم وسلاحهم وأخبيتهم^(٢).

ثم نزل بهم عبد المؤمن بن علي إلى أغمات فحصرها وقتلوا في يوم واحد نحو ثلاثة آلاف أكثرهم سودان، فاتصلت الهزيمة بموضع أفراك، وفي اليوم الثاني أصبحوا على باب الشريعة فخرج إليهم علي بن يوسف من مراكش فهزموه حتى دخل باب المخزن^(٣).

(١) ذكر ابن القطان هذه الحادثة ومنها استشهاد أمير إشبيلية عمر بن مجور في سنة ٥٢٦ هـ. (نظم الجمان ١٩٧)، وذكر أن عبد الملك في ترجمة سليمان بن جعفر بن سليمان الحضرمي أنه هو الذي خاطب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين عن أهل إشبيلية يعلمه باستشهاد أميرها عمر بن مقور بقتل الروم إياه في رجب ست وعشرين وخمس مئة. (الذيل والتكملة ٦٠/٢، بتحقيقنا). أما ابن الخطيب فذكر هذه الحادثة في رجب من سنة ٥٢٥ هـ. (الإحاطة ١/٤٥١-٤٥٢).

(٢) ينظر نظم الجمان لابن القطان ١١٤.

(٣) نظم الجمان لابن القطان ١١٦-١١٧.

وفي هذه السنة: توفي المَهْدِيُّ، لَمَّا رَجَعَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ مِنْ حَرَكْتِهِ وَجَدَهُ مَرِيضًا فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَوَعَدَهُمْ وَكَلَّمَهُمْ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى دَارِهِ فَتَوَفَّى، وَكَتَمَ أَصْحَابُهُ وَفَاتَهُ، وَكَانَ عُمُرُ الْمَهْدِيِّ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً. هَكَذَا ذَكَرَ ابْنُ الْقَطَّانِ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(١).

وفي سنة خمس وعشرين وخمس مئة: وَرَدَ كِتَابُ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ عَلَى الْأَمِيرِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بُولَايَةَ قُرْبُطَةَ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهَا أَمَرَ بِالنَّظَرِ فِي الْمِرَّةِ إِلَى أَرْنِيهِ ^(٢) وَقَدْ انْتَدَبَتِ النَّصْرَانِيَّةُ هَذَا الْحِصْنَ خَيْلًا وَرَجُلًا وَأَحَدَقَتْ بِهِ لَتَمْنَعَ وَصُولَ الْمِرَّةِ إِلَيْهِ وَقَدْ نَفَذَتْ الْأَمْوَالُ عَلَيْهِ وَطَمِعُوا بِهِ لِكَوْنِهِ شَجِيًّا فِي حُلُوقِهِمْ وَقَذَى فِي عَيْنِهِمْ، فَاسْتَمَدَّ الْأَمِيرُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَمِيرَ تَاشَفِينَ مِنْ غَرْنَاطَةِ فَأَمَدَّهُ بِنَفْسِهِ، وَاجْتَمَعَ بَهِمَا فِي سَمْتٍ مُرْسِيَّةٍ وَابْنِهَا وَرَفِيسُهَا يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ابْنِ غَانِيَةٍ، وَتَسَامَعَتِ الرُّومُ بِذَلِكَ، فَأَرْسَلَتْ أُمَدَّادَهَا مِنَ الْبِلَادِ النَّازِحَةِ وَالْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ، فَأَحَدَقَتْ بِالْحِصْنِ، وَأَمَدَّ الْمِرَّةَ، فَحَالَ بَيْنَ اتِّصَالِ الرُّومِ، وَأَمَرَ الْأَمِيرُ تَاشَفِينَ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ابْنَ غَانِيَةٍ بِأَخْذِ مَخَاضَةِ النَّهْرِ عَلَى مَنْ بَتَلَكَ الضَّفَّةَ مِنَ الْمَدَدِ، فَلَمَّا رَأَى الرُّومُ ذَلِكَ اسْتَمَرُّوا إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ فَقَلَّ الطَّمَعُ فِيهِمْ، وَأَمَرَ الْأَمِيرُ تَاشَفِينَ بِضَرْبِ الْمَحَلَّةِ، فَلَمَّا حَلَّ بِالْمَغْرِبِ صَدَرَ النَّاسُ إِلَى الْأَخْبِيَةِ وَتَرَكَ يَحْيَى ابْنَ غَانِيَةٍ الْمَخَاضَةَ الَّتِي وَقَفَ عَلَيْهَا، فَبَادَرَ الرُّومُ الْخَوْضَ مِنْهَا رَجُلًا وَخَيْلًا... فَأَخَذَهُمُ الطَّعْنُ فِي النَّهْرِ، وَذَهَبَ الْمُسْلِمُونَ أَكْثَرُهُمْ غَرْقًا وَطَعْنًا وَفِي... أَمَدَّ الْأَمِيرُ تَاشَفِينَ الْحِصْنَ بِالرُّمَادَةِ وَالرَّجُلَةِ وَصَدَرَ... أَظْهَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ... وَأَخَذَ تَاشَفِينَ فِي... مِنْ هُنَاكَ الْمَرِيَّةَ، ثُمَّ وَصَلَ غَرْنَاطَةَ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةَ سِتٍّ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ.

وفي هذه السنة، أعني سنة خمس وعشرين: توفي بمدينة قُرْبُطَةَ أَبُو الْعَلَاءِ زُهْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ زُهْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَلَمْ يَزَلْ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَلِيُّ بْنُ يَوْسُفَ يُوَالِي الْحُرُوبَ مِنْ قِبَلِهِ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ وَيَأْمُرُ عَسَاكِرَهُ بِمُلَازِمَةِ السُّكْنَى حَيْثُ بَقِيَتْ لَهُمُ الطَّاعَةُ مِنْ أَهْلِ الْجِبَالِ... مَطَاوِلَةَ الْحَرْبِ وَالنِّزَالِ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ أَخَاهُ إِبْرَاهِيمَ الشَّهِيرَ بِابْنِ تَاغِيشت، فَانْكَسَرَتْ مَحَلَّتُهُ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ،

(١) نظم الجمان لابن القطان ١٢٦ فما بعدها.

(٢) تقدم ذكرها، وهي «أرنيط».

فَأَخَذَ الْمُوَحِّدُونَ أَخْيَيتَهُمْ وَأَسْلَحَتَهُمْ وَأَلْوِيَتَهُمْ، فَلَمَّا جَرَتْ هَذِهِ الْكَائِنَةُ وَشَاعَ ذِكْرُ هَذِهِ
الْهَزِيمَةِ بِبِلَادِ الْمَصَامِدَةِ كَثُرَ الْوَافِدُونَ إِلَيْهِمْ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ قِبَائِلِ الْمَصَامِدَةِ يِقَاتُلُ
الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ فِي دَارِهِ إِذَا تَخَلَّفَ عَنْ اتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ وَيُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَمَّا مَصَامِدَةُ
الْجَبَلِ فَاتَّبَعُوهُ أَجْمَعِينَ، وَأَمَّا مَصَامِدَةُ الْفَخْصِ فَقَلِيلٌ.

وفي سنة ستٍّ وعشرين وخمسة مئة^(١): اتَّصَلَ الْخَبَرُ بِالْأَمِيرِ تَاشَفِينِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ
يُوسُفَ أَنَّ الْعَدُوَّ خَرَجَ مِنْ طُلَيْطَلَةَ إِلَى جِهَةِ قُرْطُبَةَ، فَاسْتَمَدَّ الْأُمْدَادَ وَاسْتَعَدَّ غَايَةَ
الِاسْتِعْدَادِ، وَخَرَجَ إِلَى الْجِهَادِ، فَدَارَتِ الْحَرْبُ عَلَى الرُّومِ، وَأَخَذَ السَّيْفُ مَاخَذَهُ مِنْهُمْ،
وَقُبِضَ عَلَى قَائِدِهِمْ وَعَلَى عَشْرِينَ مِنْ زُعَمَائِهِمْ، وَامْتَلَأَتْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ
وَزِيَّهِمْ وَدَوَابِّهِمْ. فَأَمَرَ الْأَمِيرُ تَاشَفِينِ بِثِقَافِ الْأَسْرَى وَالْغَنَائِمِ، وَنَهَضَ بِهِمْ إِلَى قَلْعَةٍ
رَبَاحَ لِقَرَبِهَا مِنَ الْمُعْتَرِكِ، فَأَلْفَى أَحْوَالَهُمْ مَخْتَلَةً، وَأُمُورَهُمْ مَعْتَلَةً، فَأَصْلَحَ مَا فَسَدَ، وَسَدَّ
مَا اخْتَلَّ، وَتَرَكَ الْأَسْرَى عِنْدَهُمْ لِيُقَادُوا بِهَا مَنْ فِي دَارِ الْحَرْبِ مِنْ أَسْرَاهُمْ، وَصَدَرَ إِلَى
عَرْنَاطَةَ ظَاهِرًا وَظَافِرًا، فَأَنشَدَهُ الشُّعْرَاءُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا قِيلَ فِيهِ مِنْ قَصِيدَةٍ [مِنْ الْخَفِيفِ]:

رَكِبَتْ رَدْعَهَا جِيوشُ الضَّلَالِ	وَسَرَتْ مِنْ رِمَاحِهَا بَذْبَالِ
مُلْقِيَاتٍ دُرُوعَهَا لَا لَوْقَتِ	فِيهِ تَقْضَى... الْجُلُودَ وَغَشَى الصَّلَالِ
حَثَّ فِي إِثْرِهَا الْأَمِيرُ بِعُقْبَا	نِ جِيَادِ هَوَتْ بِأَسْدِ رَجَالِ

ومنها:

أَنْتِ يَا تَاشَفِينُ وَاللَّهِ وَاقٍ	لَكَ نَفْسُ الْعُلَى وَشَخْصُ الْكِمَالِ
لَيْسَ آمَالٌ مَنِ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا	أَنْ تُرَى أَنْتِ غَايَةَ الْأَعْمَالِ
وَهَنِيئًا بِأَنْ نَهَضْتَ وَأَقْبَلِ—	تَ حَمِيدَ التَّهْوُوسِ وَالْإِقْبَالِ

ومنها:

رُبَّ أَشْيَاءَ لَيْسَ يُبْلَغُ مِنْهَا	كُنْهُ مَا فِي النُّفُوسِ بِالْأَقْوَالِ
غَيْرَ أَنَّ الْكَلَامَ أَنْ جَلَّ قَدْرًا	... وَعَايَنْتَ فَوْقَهُ بِالْفِعَالِ

(١) خبر هذه الغزوة في الإحاطة ١/ ٤٥٢.

وفي هذه السنة: خاطب الأمير تاشفين رذريق صاحب طليطلة أخزاه الله، وكان معروفاً عندهم بالماء الحدة فولاه... السليطين^(١) بن ردمير حفيد أذفونش ملك قشتالة... من الأمير تاشفين... ونظر من خلال ذلك في... بها إلى أن استبشر أهلها بقدم تاشفين عليها، فقويت أنفسهم برويته وتأنسوا به وانضم إلى جيشه بقية جيشها، وتألف إليه عدد جَم من مطوّعتهم وأدماء أهل باديته، فأخذ بهم في أثر العدو حتى يسير من لحاقه لحلوله ببلاده فكرر راجعاً إلى قرطبة.

وفي هذه السنة: انصافت ولاية قرطبة إلى تاشفين، وكتب له بذلك ابن أبي الخصال عن أبيه:

من أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين، أعزه الله بتقواه، وأمدّه بتوفيقه وهُداه، كتابنا، كتب الله لك معاني ومباني الخيرات، ومهد لك مراقي الأعمال الصالحات، من مراكش حرسها الله تعالى، لعشرة بقين من رجب الفرد سنة ست وعشرين وخمس مئة، وقد رأينا والله نسأله الخيرة فيما نرتبه والتوفيق في كل ما نصنعه، أن نجتمع لك قرطبة وأعمالها إلى ذلك العمل الذي أنت فيه. فإذا وقفت على كتابنا هذا، فانهض بنفسك على بركة الله إلى هناك. واجعل قرطبة دار سكناك وقرارة مثواك. وعلى مقدار ما زدناك من العمل فازدد من التيقظ لاتساع ذرعك وامتداد مسعاك. واستعن بالله في إعلانك وإسراك. وخذ من أوقات ليلك لأوقات نهارك، واجعل لنظرك حظاً من سهرك ولفكرك مستمنحاً من تدبرك، واستظهر بحسن المشورة في مواطن الاشتباه، فإن الله سبحانه يقول لرَسُوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. واستخلف على غرناطة عند انفصالك عنها أبا محمد الزبير بن عمر، أعزه الله بتقواه، وألزمه من استشعارك مراقبة الله تعالى من الذي تلزمك إياه، واعهد إليه بشاكلة ما نعهد إليك والمستعان الله لا رب سواه.

ومنها: وأول ما نوصيك به تقوى الله، فاجعلها بردة شعارك وعقدة إصمراك، وعهدة إيرادك وإصدارك، ثم اعتمد المعدلة في عباد الله، فإنما أنت واحد منهم وكلنا

(١) السليطين: تصغير السلطان، وهو المعروف عندهم Emperador، وهو ابن أراكة بنت ألفونسو السادس، فهو ألفونسو السابع الذي حكم بين ٥٢٠ و ٥٣١ هـ.

عبيدُ الله إلى تراب انتسابنا وإلى الحساب مآبنا، والناس كلُّهم سواءٌ في أولِ النشأة والحال، وإنَّما يتميَّزُونَ بالمساعي والأعمال، فهي التي رَفَعَ اللهُ منها بعضَهم فوق بعضٍ درجات... على مجازاة المحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته بحُكم باتّ، وحُقٌّ على مَنْ آتاه الله حظًّا من ولاية لأدائه وقلَّده قسطًا من وقاية عبادِهِ، أن يقومَ بينهم بالقِسط كما أمرَ الله ويخشى يومًا حُقَّ لمن يوصي، اليوم الآخر أن يخشاه، وإنَّ من عَزَمَ الأمور وحزامة التدبير أن يلحظوا بعَيْن الكلاءة... بكلِّ سُوءٍ ومساءة والله المستعان وعليه التكلان لا ربَّ غيره.

وفي سنة سبع وعشرين وخمس مئة: وصل العدوُّ دَمَرَه الله إلى حَوْمة مدينة شَرِيش والبحيرة، ولم يلقه أحد من المسلمين وصَدَرَ إلى بلاده، هكذا ذكر ابنُ حمادة^(١).

وفي سنة ثمان وعشرين: غزا تاشفينُ بن عليٍّ بن يوسف الرومَ وهزَمَهم وأخذ الأسرى من...، وذلك أنه اتَّصل بالأمير تاشفينُ أن عَظَمَاءَ الروم وزعماءَهم تألَّف لهم جيش... يحتوي على الآلاف من زُعمائهم ومشهوري أبطالهم، وقَصَدُوا ناحية بَطْلَيْوُس وباجة ويابرة وما بذلك الصُّقع من بلاد الإسلام، فَشَنُّوا الغارةَ عليها واستحوذوا جميعَ ما أُلْفُوا بها، وانتَهَوْا إلى مواضع كانت لا تُرَوَّعُ بعدو، لُبَعْدِها وَمَنَعَتِها وتَعَذَّرَ الوُصول إليها، فجاسُوا خلالها ودَوَّخوا أرضَها واخترقوا طولَها وعرضَها، فاجتمع من المسلمين ضِعْفُ شِيعَةِ العدوِّ المُجَحِّفِ بِإِسْبِيلِيَّة، وانثَنُوا على مَهْلٍ لِثِقَلِ السَّيْقَةِ وثِقَتِهِمْ بَبُعدِ الصَّارِخِ منهم، فَتَنَى الأميرُ تاشفينُ الأَعِنَّةَ وَأَمَرَ الأَدِلَّةَ أن يتجسَّمُوا به كُلَّ ذُرْوَةٍ وثَنِيَّةٍ، رجاءً في لحاقِهِمْ، فَأَفْضَى الإغْذاذُ به إلى فِدَّانٍ بِقُربِ زَلَّاقَةِ موضعِ المَعْتَرَكِ الذي أوقع فيه جَدُّهُ بالطاغية أذْفُونُش بن فردلند أخزاه الله، ولم يكنْ إلَّا كِلا ولا حتَّى أَقْبَلَتِ الطلائعُ مُنْذِرَةً بِهِمْ، فَلَمَّا تَرَأَى الجُمُوعانِ اضْطَرَبَتِ المَحَلَّتَانِ وترتَّبَتِ المَوَاقِبُ، فَأَخَذَتِ مَصَافَهُا،

(١) أَرخ ابن القطان لهذه الغزوة في سنة ٥٢٧ هـ أيضًا، وقال بأن السليطين صاحب قشتالة وابن هود قد اشتركا فيها. (نظم الجمان ٢٠٠). على أن الأستاذ محمود مكي أشار في تعليق له إلى أن المراجع المسيحية والمراجع العربية الأخرى غير ابن القطان لم تذكر اشتراك ألفونسو السابع بنفسه في تلك الغزوة. (ينظر تعليقه على نظم الجمان).

ولزمت الرجال مراكزها، فكان في القلب مع الأمير تاشفين وجوه المُرابطين وأصحاب
الطاعات، وعليه البنود البيض الباسقات مكتبةً بالآيات، وفي الجانبين كفاة الدولة وحمة
الدعوة، من أبطال الأندلس عليهم الرايات بالصُور الهائلات، وفي الجناحين من أهل
الثغر وذوي الجلالة والصبر، وفي المقدمة مشاهير زناته وليف الحشم أهل العزائم الماضية
والبصائر الثابتة بالرايات المصنفة والأعلام المُنيفة، فأنقذ الأسرى من أيدي الطاغية،
وأخذ الغنيمة وقتل جملة كبيرة، وصدر إلى قرطبة ثم إلى غرناطة، وذلك في جمادى الأولى
من سنة ثمان وعشرين، فأشده الشعراء مهتةً بقدومه من غزوه ووصفت هزيمته للروم،
فمن ذلك من قصيدة طويلة، بُدئةً اقتصرت عليها [من الكامل]:

أما وبيض الهند عنك خصوم	فالروم تبذل ما ظباك تروم
تمضي سيوفك في العدى ويردّها	عن نفسه حيث الكلام رحيم ^(١)
دار جعلت بيوتها قطبها	أبدأ على قمم الملوك تحوم
وكانها الفرسان قد عرقت بها	فطقت وغاصت رؤس وجسوم
جاست خلال ديارهم وحماها	في كل واد بالفرار تهم
لله يا يوم العروبة إنه	يوم على الدين الكريم كريم
فتح عظيم القدر يمن بشره	فتح يقل لقدره التعظيم
يستفتح البلدان سعدك طالعا	من بعد إقليم عنا إقليم
خضعت ملوك الروم في بلدانها	لأغر قام بتاجه التعميم
... الكتاب بعد سير والتي	فنييت بصارم تاشفين الروم
هذي سماء المملك الجمه النفاق
وأنت أمير المسلمين

(١) هكذا في الأصل، وفي الإحاطة ١/ ٤٥٣: «وخيم». وقد اقتصر ابن الخطيب من القصيدة على هذين البيتين.

وفي هذا الشعر طولٌ اقتصرتُ منه على هذا، وقد وردَ في كتاب «الإنباء في سياسة الرؤساء»، وإنما هذه نبذةٌ مقتصرٌ عليها.

وفي هذه السنة، وهي سنة ثمان وعشرين: أغزى تاشفينُ الروم، وهي غزوةُ البكار^(١)، كانت على المسلمين، قال أبو بكر يحمي بنُ محمد الأنصاري: خرج الأميرُ تاشفينُ في إثر عيد النحر بجيش غُرناطة وقرطبة ولفيف من المجاهدين خيلاً ورجلاً ليقطعَ بالعدو المغزو وقد اكتسح ما بتلك الجهة، وأوعزَ تاشفينُ إلى أبي يعقوب يئتان بن عليٍّ فخرج بجيش تلك الجهة، أعني إشبيلية، فاجتمع به بفحص الریحانة في شهر ذي الحجة، فنهضت الحملتان إلى موضع يُعرفُ بالبكار طريقَ العدو التي لا تحيى له عنها، فلما اشتدوا في طلبه تمكن العدو من رؤيتهم، واستشعر أن الأميرَ تاشفينَ في طلبه، فحاصرهم الجرع، فصدر المسلمون إلى البكار، فاضطربت المحلة وانبتت الأدلة، ولما تحقق العدو صدرَ الأميرُ تاشفينُ إلى البكار حملوا الحملة في انتهاز الفرصة فانتدب من أنجادهم ألفان وأردفوا عددهم من الرجلة وصمدوا صمدَ المحلة، وقد تهوّر الليل وضيق الحزم، فافتحموها من فرج كثيرة فثار الصياح وعلا الصهيل واختلطت الأصوات ونفرت الدواب وقطعت مقاودها وقودها فوقعت على الأخبية فوقع النهب، وفر الناس وتسلمت المحلة وقصد العدو مضربَ خباء الأمير تاشفين وقد قرب فرسه لينجو عليه، فانتهاز ناصيته ونجا من حظه وقال: لا أسلم وأسلم الأمة ولا أبرح أو تُنجلي عما انجلت عليه هذه الكرة، فأحدق به رجالٌ من أهل الأندلس وأفذاذ من المرابطين، لم يلتزم الجمعُ أربعين، فاعترضوا بينه وبين الروم فوقع الضرب واشتدت الحرب وعظم الخطب، والأميرُ تاشفينُ في درعه متشحاً بسيفه، ودُرقتُ يده، يشدُّ حملته، ويؤدي صفحته، فلم يرَ أربطاً جاشاً ولا أشهم نفساً ولا تحدث عن أحد قبله بما ظهر منه في مطلع ذلك الهول، وتفاقم الأمر وقد هتكت خبائه بالطعن، وجذت أواخيه بالضرب فعانقت الأرض، وبأخرة طعن أحدُ العبيد قومس الروم فأخرج

(١) Albacar، شمال قرطبة، إذ لا يبعد عنها سوى ٢٠ كم، وهو قائم إلى يوم الناس هذا بالاسم نفسه. (نظم الجبان ٢١٥).

الرُّمَحَ من وراء ظهره؛ فكانت المُحَاجَزة، وانصَدَعَ الفَجْرُ فأنجَلَت الظُّلُمَةُ والحَرْبُ على أَفْذَاحِ قَتْلَى وأَعْدَادِ جَرَحَى... مَبْطُوحَةٌ ودِمَاءٌ مَسْفُوحَةٌ، ولولا قَدَرُ اللَّهِ السَّابِقِ بَشُوتُ الأَمِيرِ الأَجَلُ تَأَشْفِينِ لَحَلَّتِ الفُضِيحَةُ، والأَرْفَةُ التي لَيْسَتْ لَهَا كاذِبَةٌ. وَرَجَعَ العَدُوُّ في أُخْرِيَّاتِ اللَّيْلِ إلى مُضْرِبِ مَحَلَّتِهِ، فأقام إلى الصُّحَى مَعَ أَخِيذِ آلِ بِلَدِهِ وَرَكِبَ الأَمِيرُ تَأَشْفِينِ في الصُّبْحِ إلى قَشْرَشٍ^(١)... طَبَلَهُ، وَكَرَّ إلى حِصْنِ قَشْرَشٍ بِالمَحَلَّةِ، ثُمَّ رَحَلَ صَدْرًا إلى قُرْطَبَةٍ.

ولَمَّا اسْتَقَرَّ الأَمِيرُ تَأَشْفِينِ بِقُرْطَبَةٍ أَنشَدَهُ الشُّعْرَاءُ، فَقَالَ الفَقِيهُ أَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ يَوْسُفَ الأَنْصَارِيَّ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ يَمْدَحُهُ وَيُعْظِّمُهُ وَيَذْكُرُ بَلَاءَهُ فِي الحُرُوبِ وَفَعْلَهُ بِهَا يَجْنِي فِي ذَلِكَ [مَنْ الرِّجْزُ]:

كَمْ يَكِي السُّهَامُ الأَرُوعُ

وَأَخَذُوا كُلَّ طَرِيقٍ. وَلَمَّا سَكَنَتِ الثَّائِرَةُ عَادَ إِلَى إِقَامَةِ رَسْمِهِ، وَالتَّزَامِ حُكْمِهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ يَسْتَعْدِيهِ، وَيَذْكُرُ مَوْضِعًا سَلِبَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ: وَأَنَا أَيْضًا سُلِبْتُ أَنَا وَذَهَبَ مَالِي وَمَالُكَ... وَصَارَ أَيْدِي سَبَأٍ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ الأَنْصَارِيُّ: وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: خَرَجَ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ابْنِ غَانِيَةٍ عَامِلٌ بَلَنْسِيَّةٍ وَمُرْسِيَّةٍ إِلَى حِمَايَةِ الزَّرْعِ بِالثَّغْرِ وَبَثَّ الطَّلَاعَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ، فَانْتَهَى إِلَيْهِ تَقَدُّمُ عَسْكَرِ العَدُوِّ يَرُومُ الضَّرْبَ عَلَى بِلَادِ الإِسْلَامِ، فَأَخَذَ فِي أَثَرِهِمْ حَتَّى لَحِقَهُمْ، فَاسْتَأْصَلَهُمُ اللَّهُ وَاسْتَنْقَذَ الأَسْرَى وَصَرَفَ السِّيْقَةَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: هَلَكَ الطَّاعِيَةُ أَذْفُونُش، وَلَمَّا هَلَكَ أَخْزَاهُ اللَّهُ أَفْضَتِ القَوْمُوسَةُ إِلَى رُدْمِيرَ أَخِيهِ بِاجْتِمَاعِ الرُّومِ عَلَيْهِ بَعْدَ أُمُورٍ مُشْتَتَّةٍ وَشُؤُونَ مُضْطَرِبَةٍ، فَأَقَرَّ كُلَّ عَامِلٍ عَلَى عَمَلِهِ بِبِلَادِ شَرْقِ الأَنْدَلُسِ مِنْ بِلَادِهِ، وَانصَرَفَ إِلَى قَشْتَالَةِ حَضْرَةِ مُلْكِهِمْ عَجَّلَ اللَّهُ بِهِلْكِهِمْ، فَاتَّفَقَتِ المُوَادَعَةُ فِي حِينِ ذَلِكَ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ابْنِ غَانِيَةٍ عَامِلٍ بَلَنْسِيَّةٍ وَمُرْسِيَّةٍ وَبَيْنَ رُدْمِيرَ بْنِ رُدْمِيرَ لَعْنَهُمَا اللَّهُ، إِلَى انْقِضَاءِ عَامِ ثَلَاثِينَ الْآتِي بَعْدَ هَذِهِ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ.

(١) فِي نَظْمِ الْجَمَانِ ٢١٦: «قَشْرَش»، وَهِيَ Caceres.

وبعد ذلك قطع أهل أرغون برفقة خراجت من افراغه ناهضة إلى وشقة، فبادر صاحب افراغه سعد بن مُردنیش إعلام رُدمير، فأحضر الملاء من القسيسين والرهبان وزعماء الروم وقال لهم: ما منزلة آبائي ومن درج من أجدادي عندهم وما تعتقدونه في أنفسكم؟ قالوا: على سواء، واجتماع ملوك وأبناء ملوك، لهم السمع والطاعة وعندهم العزة والقوة على قدم الدهر كابرًا عن كابر وأورثه الأول للآخر. قال: فأين أنا منهم؟ قالوا: أنت أحدهم والمُفضي إليه مُلكهم وشأنك شأنهم ومكانك مكانهم. قال: فما جزاء من حلَّ أمرًا أبرمته، وفسخ ما كنت أحكمته، وهم: فلان وفلان؟ وعدّ سبعة من عظمائهم وزعمائهم، قالوا: حُكْمك ولا اعتراض عليك، فأمر أولئك إحضار سلب الرفقة، فلما كمل أمر بضرب أعناقهم وصرف ذلك السلب إلى أربابهم.

وفي هذه السنة: تيمم فاس القاضي ابن الملجوم، كتب أمير المسلمين علي بن يوسف إلى أهل مدينة فاس يُنبئهم بدم قاضيه ابن الملجوم وعزله عنهم.

فصول منه^(١): أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ويسركم لما يرضاه، وقد أنهي إلينا وتحقق لدينا أن الجهول ابن الملجوم، أجهل بأحكام القضاء من الملجوم. وأنه أظهر فيكم أحكامًا يترحم من مثلها على سدوم، فقد وليناه خطة المَلُوم. ونبذناه بالعراء وهو مذموم. وجعلنا شُهْب العزلة لشياطينه كالرجوم. ولعل متعسفًا يتعسف أو متكلفًا يتكلف... يلوئنا في تقديمه وينالنا من العتب بأليمه ولا قدح... فقد اختار رسول الله عليه السلام لوحي الله... لعين بني سرح، وقد اغتر عثمان بحُمران... إلخ.

وفي هذه السنة: ولي قضاء إشبيلية القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله، ووصل كتاب ولايته من مراكش إلى إشبيلية عن علي بن يوسف رحمه الله بتاريخ يوم الخميس منسلخ جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وخمس مئة.

(١) أورد السلفي في ترجمة أبي الخطاب عمر بن محمد بن يعمر المري هذه الرسالة في «معجم السفر» (ص ٢٢٨ من ط. زمان) باختلاف لفظي، ولكنه ذكر أنها في مناسبة عزل أبي الحسن بن أضحي، لا ابن الملجوم.

وفي هذه السنة: خرج العدوُّ ابنُ رُدْمِيرٍ بشرق الأندلس فكسره جيشُ ابنِ غانيةٍ صاحبِ مُرْسِيَّةٍ ولم يسلم منه إلا بشر يسير، وصدَرَ ابنُ غانيةٍ ظافرًا بالغنائم، وأمّا الطاغيةُ فبقي أيامًا ومات من مَرَضٍ أصابه.

وفي سنة تسع وعشرين وخمس مئة: قال أبو بكر يحيى بن محمد الأنصاري: وقُتل في هذه السنة قاضي قُرطبة أحمد بن خَلَف التُّجَيْبِيُّ رحمه الله، أكْبَ رجلٌ عليه وهو في المسجد الجامع وهو في السَّجدة الأولى من ركعتي الجُمُعة فَضَرَبَهُ بِخَنْجَرٍ فَصَرَخَ وَقُطِعَتِ الصَّلَاةُ وَبُطِشَ بِالضَّارِبِ وَحُزَّ رَأْسُهُ فَرُفِعَ فِي عَصَا وَشَهَرَ رَجُلٌ آخَرُ سَيْفًا فَقُتِلَ بِهِ وَأُلْحِقَ بِصَاحِبِهِ، وَهَرَجَ النَّاسُ فِي الْجَامِعِ لَا يَعْلَمُ أَكْثَرُهُمْ مَا حَدَثَ فِيهِ، ثُمَّ انْزَعَجُوا إِلَى الْمُقْصُورَةِ فَسَدَّتْ أَبْوَابُهَا وَمُنِعُوا مِنْهَا، وَشَهَرَ الْمُرَابِطُونَ أَسْلِحَتَهُمْ وَأَخْرَجُوا أَمِيرَهُمْ تَاشَفِينَ عَلَى بَابِ السَّابِاطِ، وَحُمِلَ الْقَاضِي فِي نَعْشٍ فَقَضَى عِنْدَ الْعَصْرِ، وَالتَّطَخَّتْ قُرْطُبةُ بِمَا لَمْ يَشْتَمَلْ عَلَيْهِ دِيوَانُ، وَلَا بَدَرَ فِي زَمَانٍ، مَنْ اغْتِيَالَ قَاضِيٌ عَدْلٌ فَقِيهٌ خَيْرٌ جَامِعٍ لِأَعْمَالِ الْبِرِّ، قُتِلَ مَظْلُومًا سَاجِدًا فِي صَلَاةِ الْجُمُعةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا كَانَ مِنْ تَحْذِيرِ الْوَالِي خَشِيَّتَهُ عَلَى ابْنِ رُشدٍ، فَكَانَ الْأَمْرُ الَّذِي أَصِيبَ هَذَا بِهِ.

وَنَارَتِ الْعَامَةُ أَيْضًا بِقُرْطُبةِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ فِي رَجَبٍ عَلَى الْيَهُودِ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِسَبَبِ قَتْلِ وَجِدِّ بْنِ أَظْهَرِهِمْ، فَفُتِحَتْ مَنَازِلُهُمْ وَانْتَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ وَقُتِلَ نَفَرٌ مِنْهُمْ.

وَنَارَتِ السَّفْلَةُ أَيْضًا بِإِسْبِيلِيَّةٍ عَلَى قَاضِيهِمْ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ الْعَرَبِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ فِي عِقَابِ الْجُنَاةِ اخْتِرَاعَاتٌ مُهْلِكَاتٌ وَمُضْجِكَاتٌ، فَانْتَدَبَ أَنْفُسًا جَمَّةً صَلْبًا وَضَرْبًا، وَسِيقَ إِلَيْهِ أَحَدُ الزَّمَرَةِ فَأَمَرَ بِضَرْبِ يَدَيْهِ وَثَقَبَ شِدْقَيْهِ فَانْبَطَلَتِ الْحِكْمَةُ عَلَيْهِ، وَعَثَرَ أَعْوَانُهُ عَلَى حَامِلٍ خَمْرٍ لَمْ تُنَمَّ عَلَيْهِ، فَبَاغَتْهُ وَتَحَفَّى بِسُؤَالِهِ وَتَلَمَّسَ طَرِيقًا يُخْرِجُهُ إِلَى ثِقَاتِهِ، فَطَمَسَ ذَلِكَ الرَّجُلَ وَأَبْهَمَ الْأَمْرَ، وَقَالَ: عِنْدِي خَادِمٌ رُومِيَّةٌ... وَالْخَمْرُ قَوَامٌ شَرْعِيهَا، فَابْتَعْتُهَا وَحَمَلْتُهَا، ثُمَّ عَثَرَ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ، فَأَطْرَقَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ بَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَحَامِلَهَا»،... اللَّعْنُ عَلَيْهَا. فَأَمَرَ بِلَعْنِهِ وَعَرَضَهُ عَلَى الْحَامِلِ ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ، فَانْطَلَقَ عَلَيْهِ اللَّعْنُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ وَلَا... ذَلِكَ أَمْرٌ مِنَ الْعِقَابِ وَأَشَدُّ مِنَ الْعَذَابِ، فَلَمَّا طَالَ عَلَى الرَّجُلِ الْأَمْرُ انْتَقَلَ عَنِ الْبَلَدِ، وَظَلَّ ابْنُ الْعَرَبِيِّ يُوَالِي التَّشَدُّدَ وَالتَّسَلُّطَ حَتَّى قُتِلَ عَلَى الْفُسَّاقِ وَالْأَشْرَارِ فَهَاجُوا.

... عبد المؤمن بخليفته، وتحرك عبد المؤمن لتاوررت فدخلها واستولى على بلاد
السُّوس كلها وقتل من لم يتبعه من أهلها وهزم قائدها علي بن يوسف وعسكره وحصل
بعسكره في تيونوين. هكذا ذكر ابن القطان^(١).

وفي هذه السنة: هلك الطاغية أذفونش أخزاه الله تعالى.

وفي سنة ثلاثين وخمس مئة^(٢): أغزى تاشفين بن علي بن يوسف الروم في شعبان
المكرم بعدما استحصّر زعماء المُرَاطين ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم قالوا: الدولة
لنا فإما تركها أو حمايتها لا يتقدمنا أحد إلى لقاء عدونا، فإذا استشهدنا فالأمر لمن شاء الله
بعدنا، ثم دعا العرب فقالوا: أزم العدو بنا ولا تشرك أحدًا معنا، وسيرى الله عملنا. ثم
استدعى زناتة والحشم فقالوا: لا جواب إلا الفعل، وشرطنا أن تعول أيتامنا، فجزى كلاً
خيرًا وأجابهم بما أطاب أنفسهم وقوى عزهم. وكرّ إلى الأمير تاشفين من أعلمه أن
الروم مالت إلى التحصن في جبل القصر، فأخذ إلى الجبل، فتعلقت الخيل به ترهقه
ونصيب منه، وقد شرع القتل في الروم، فهاهم الأمر وتردّوا أخذًا في غير طريق، وأخذ
الروم الضرب إلى عدة أميال، فأتى على جلهم القتل وأفلت النزر وامتلات أيدي المسلمين
من دوابهم وأسلحتهم، وفكّت أغلال الأسارى وصرفت الأغنام إلى البلاد النازحة
والأقطار الشاسعة، وكاد هذا يُربي على ما تقدّم من نظرائه لاستئصال هذه الشوكة المؤلّفة
والحية القاتلة، وصدر تاشفين إلى قرطبة وقد صنع الله له كأفضل ما عوّده.

وأقبل عيد الفطر، فأنشدته الشعراء، فقال الفقيه أبو بكر يحيى بن محمد بن
يوسف من قصيدة طويلة [من البسيط]:

عَرَفْتُ وَاللَّيْلَ مُزَوَّرًا عَلَى الْأَفُقِ خَفِيَ مَسْرَاكِ فِي الظُّلُمَاءِ وَالْعَسَقِ
يَا بَانَةً كُلَّمَا افْتَرَّ الصَّبَاحُ لَنَا أَلْقَى النَّسِيمُ عَلَيْهَا نَفْسَ مُعْتَبِقِ
ومنها:

لَا تَعْدِلُنْ تَاشَفِينُ... مَلَكًا طِعَانُهُ وَعَطَايَاهُ عَلَى نَسَقِ

(١) نظم الجمان ٢١٠.

(٢) تنظر الحلل الموشية ١٠١.

ومنها:

يا أكرمَ الناس عفوًا عندَ مقدرةٍ وأجملَ الناس في خَلْق وفي خُلُقِ
قد نَافَسَ العيدُ أعيادًا لك اطرَدت على الفتوح اطرَادَ الخيل في الطَّلِقِ
فاهنًا بعيديك من أعيادِ ذي ظَفَرٍ له نظائرُ تأتي بعدُ في نَسَقِ
لا زال مُلكُك يعلو كعبه أبدًا هامَ الملوك كما تعلو على السُّوقِ

وكانت في هذه السنة أحداثٌ أعرضنا عنها لئلا يطول الكتابُ بها.

وفي هذه السنة: أغزى الروم سعد بن مُردنيس صاحبُ افراغه وابنُ غانيةَ صاحبُ بَلَنْسِيَّةِ ومُرْسِيَّةِ، وذلك أنه أحسَّ بنفادِ القوت في مكناسة أحدِ حصون شرق الأندلس، استدعى من طَرطُوشة ولاردة والحصون المجاورة لهم، فنازل مكناسة وصار بذلك إلى يحيى بن علي بن غانية، ونظر روم سرقسطة في توصيل الميرة إلى مكناسة، فلما شارفوها دبَّ الرعب في قلوبهم فتركوا الميرة وقرؤا بأنفسهم، ولحق أبو زكريا يحيى بن علي ابن غانية ففرق من مكناسة وتشوَّف صاحبها لنبهته وحماية الأمان فنزل عنها، فوق لهم أبو زكريا وأصحابهم شيعةً إلى مأمَنهم، وانتقل من فورهِ إلى تلك الحصون المجاورة لمكناسة فافتتحها بفعل أهل مكناسة وانقضت غزوتُه بفتح عدة حصون منيعة المعقل.

وفي سنة إحدى وثلاثين: أخذ الأميرُ تاشفين في الحركة عن الأندلس إلى حضرة أبيه، وذلك بعدما ما وصله خطابُ والده مستأذِنًا له في تجديد العهد به، وكان علي بن يوسف اعتلَّ في السنة الفارطة وارتبك في مرضه حتى أُرِجِف به فساءت الظنون وتمكَّن الجَرَعُ ببلاد الأندلس، فلما وصله الخطابُ المذكور تلقى ذلك بالقبول ونزع في القُفول إلى مراكش، فكان من أمره ما يُذكر في موضعه إن شاء الله تعالى؛ هكذا ذكر أبو بكر بن محمد. وقال ابنُ حمادة: أغزى تاشفينُ الرومَ في ربيع من عام أحد وثلاثين، وفتح حصونًا للروم.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة، قال ابنُ حمادة: كان السَّيْلُ العظيم بطَنْجة، حملَ الديارَ والجُدُرَ، ومات فيه خلقٌ عظيمٌ من الناس والدواب.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة: اجتمع عسكرُ المُرابطين مع أميرهم تاشفين بن عليٍّ مع عسكرِ عبد المؤمن بن عليٍّ ببلد منانة بموضع بني مَلُول، فكانت بينهم محاربةٌ عظيمةٌ شهرًا كاملاً وثلاثة أيام انجَلَتْ عن هزيمة تاشفين فأتبعه عبدُ المؤمن إلى ايمى تانورت وأخذ عبدُ المؤمن بلادَ منانة، وكان تاشفينُ قد أرسل إلى جُزولة ليغيثوه، فلما وصلوا إليه وجدوا الهزيمة عليه فضرَبَ جُزولة على آخر عسكرِ عبد المؤمن طَمَعًا أن تكونَ له، فكرَّت عليهم عساكرُ عبد المؤمن فقتلت جُزولة عن آخرهم وأخذ دوابهم وأسلحتهم، وكانوا آلافًا من الفرسان والرجالة، ولم يبقَ منهم إلا الأقل^(١).

ذكرُ وفاة سَير

وفي هذه السنة: توفيَّ الأميرُ أبو محمد سَيرُ ابن أمير المسلمين عليٍّ بن يوسف وليُّ عهد أبيه. وقد تقدَّم القولُ في ولاية تاشفين الأندلسَ أنه لما شاع ذكرُه فيها كبر ذلك على أخيه سَير فتسبَّب في عزَلته عنها، فوصل تاشفينُ مراكش وصار يتصرَّف بأمر أخيه ويقفُ على بابِه كأحد حُجَّابِه. وكان سَيرُ يركنُ للراحة ويصطحبُ أهلَ الفكاهة، فاقتحم ليلاً على أخيه عُمَر^(٢) في داره فضرَبه وقضى عليه فمات رحمه الله، وقيل غيرُ هذا، والله أعلمُ بذلك. وذكروا أنَّ والدَةَ سَير هي التي غارت بأخيه تاشفين لئلا يكبر على ابنها ويتملَّك في بلاد الأندلس، فكانت سببَ عزَلته ووصوله.

قال الورَّاق في «المقباس»: فكان الذي خافت... من تاشفين... ولما مات سَيرُ ابن عليٍّ فاوَّضت أمُّه قمرُ أباه فيمن يُوليه عهدَه دون تاشفين، فقالت له: ابنُك إسحاق، وكانت أمُّه قد ماتت وتركتَه صغيراً فربَّته قمرُ أمِّ سَير، فكان لها كابنها، فقال عليُّ بن يوسف: هو صغيرُ السنِّ لم يبلغ الحُلُم ولكنِّي أجمعُ الناسَ في المسجد الجامع من أهل مراكش خاصَّةً وعامةً وأخبرهم في ذلك. فإن صرَّفوا الخيارَ إليَّ فعلتُ ما أشرتُ إليه.

(١) نظم الجمان ٢٤١.

(٢) كانت في الأصل: تاشفين، وقد أصلحه العلامة إحسان عباس رحمه الله وقال: «وهو خطأ واضح، وقد صرَّح ابن القطان بالحادثة على نحو أوضح فقال: ودخل متسورًا على أخيه عمر يريد زوجته، فجرح جراحة عجلت منيته». (نظم الجمان ٢٤٥).

ذكر ولاية العهد لتأشفين ابن أمير المسلمين

علي بن يوسف بن تأشفين

ولما مات سيّر بن علي ولي عهد أبيه، طلب أشياخ المرابطين من علي بن يوسف في أن يؤلي ولي عهد، فقال لهم: اجتمعوا واختاروا لأنفسكم واتفقوا على من ترصونه، وقصد بذلك التوثيق في أمر تأشفين، فلما اجتمع الناس في المسجد الجامع الكبير بالسقاية بمراكش حرصها الله تعالى خاصة وعامة، وتشاوروا في من يختارون ومن عليه يجتمعون، فقالوا كلهم بصوت واحد: تأشفين. تأشفين، فلم تعط السياسة لأبيه مخالفتهم فيه، فعقد له الولاية بعهد، ونقش اسمه في الدنانير والدراهم مع اسمه، وقلده النظر في الأمور السلطانية فاستقل بذلك، وكتب إلى العدو والأندلس وبلاد المغرب في بيعته فبايعوه، ووصلت البيعات من كل الجهات مؤرخة برجب الفرد عام ثلاثة وثلاثين وخمس مئة.

وفي سنة أربع وثلاثين وخمس مئة: خرج تأشفين بعسكر كبير من لمتونة والحشم وزناة لقتال الموحدين ومعه جمع من النصارى مع قائدهم البربرير^(١)، فبقي يحاربهم نحو شهرين ثم رجع إلى مراكش ورجع الموحدون إلى تينمل وانجلى الحرب على قتلى من الفريقين، وقال ابن حمادة: يوم الأربعاء لثمان خلون من شوال التقى تأشفين مع الموحدين وقتل له خلق كثير وحينئذ رجع إلى مراكش.

وفي سنة خمس وثلاثين وخمس مئة: خرج جيش اللمتونيين من مراكش مع الحشم والروم فالتقى مع الموحدين بجبل جذميرة فهزمهم وأتبعهم حتى وصل فج طروندت، فالتقى الجمعان وتحارب الفريقان، فكانت للموحدين على اللمتونيين، ورجعوا إلى مراكش خاسرين وقائد الروم اللعين مجروح، ورجع الموحدون مع عبد المؤمن إلى تينمل. ثم خرج جيش اللمتونيين مع قائد الروم المذكور فالتقى مع الموحدين فحاربهم، ودخل الموحدون إلى السوس فبنوا إسنجرو بالحجر والطين، ورجع عنه جيش اللمتونيين، وغنم الموحدون بعض بلاد السوس ورجعوا إلى تينمل.

(١) هو قائد الفرقة الرومية في جيش المرابطين.

وفي هذه السنة: انجلى أهل المغرب انجلاءً عظيماً إلى الأندلس، ذَكَرَ ذلك ابنُ حمادة. وذكرُوا أيضاً أنَّ محاربةَ اللَّمْتُونِيِّينَ معَ الموحِّدين إنما كانت في سنة أربع وثلاثين. وفيها: تحرَّك عبدُ المؤمن من بلاد المَصَامِدَة إلى الغرب، وطالت غَيْبَتُهُ إلى سنة إحدى وأربعين على ما نذكرُ إن شاء الله تعالى.

وفي سنة ستِّ وثلاثين وخمس مئة: قال ابن حمادة: وصل الموحِّدون إلى ريف سَبْتَة، ثم إلى تيطاون، ثم رجَعُوا إلى غُمارَة.

وفي هذه السنة: خرج تاشفينُ بعساكره لتتبع الموحِّدين.

قال البيدقُ^(١) وغيره: رحل عبدُ المؤمن بن عليّ بن تينمل برسم التوجُّه إلى بلاد الغرب سنة خمس وثلاثين، وقيل: في أواخر أربع، فما زال يرحل من موضع إلى موضع والقوم تردُّ عليه والقبائل من كلِّ جهة تصلُّ إليه إلى أن وصل تاجررت بني وابوط، فصرَّف الإمام... ابنُ زجو بجيش فغنم صفروى في منتصف محرم من سنة ستِّ وثلاثين.

قال: وفي هذه السنة^(٢): أكل وادي فاس باب السِّلْسِلَة وفُتِقت جزيرة مليلة، وأكل البحرُ طَنْجَة إلى الجامع الكبير، وأكل وادي سبو أخِيَّة لمتونة، وكان عبدُ المؤمن إذ ذاك في غيَّاته، وبلغ الشَّعِيرُ في ذلك الوقت ثلاثة دنانير للسَّطْل، وكان تاشفينُ بمحلَّته على فاس.

قال أبو مروانَ الوَرَّاق^(٣): وقد كان أميرُ المسلمين عليُّ بن يوسف أمَّل في ابنه تاشفين ما لم تكن الأقدارُ تُساعدُه. وجاءت الأيام بخلاف ما أمَّل فيه، فتشَاءَمَ به وعَزَمَ على خَلْعِه وصرَّف عهده إلى ولده الأصغر إسحاق، ووجَّه إلى عامله على إشبيلية عمر^(٤) أن يصلِّ إليه ليجعله شيخَ ابنه ومدبِّرَ أمره، وأخذ في العزم على ذلك إلى أن وافاه خبرُ أمَّضِه وأقلَّقه ولم يُمهله إلى أن يستتمَّ تدبيره، فأمرَ عند ذلك تاشفين أن ينزعج لذلك

(١) البيدق ٩١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ينظر هذا النص في الإحاطة ١/ ٤٤٧.

(٤) في المطبوع من الإحاطة: «أغماو»، والتحريف والتصحيح في هذه الطبعة قد تجاوز الحد من كثرتِه.

فانزَعَجَ على غير أهبة للضرورة وأتبعه والدّه بمددِه وما لم يمكن الخروجُ به من عَجَلَتِه، وذلك في هذه السنة المؤرّخة.

ولمّا وصل تاشفينُ في حركته هذه إلى فاس ضَرَبَ محلّته بظاهريها، وكان وُصُولُه إليها في أول زمن المشتى، فَرَوَتْ الأرضُ بنزول الغيث وتَوالت الأمطارُ والغيوم وحملت الوديان، واشتدَّ البردُ إلى أن هَلَكَ كثيرٌ من عساكرِ تاشفينِ بردًا وجوعًا لانقطاع الطُّرق عنهم. وكان إقامةُ تاشفينِ بظاهر فاسَ أيامًا، ثم رحل عنها ونزل بالنواظر: من ناحية تازا، وانتهى حالُ عسكرِ تاشفينِ حتّى أحرَقوا الشُّرجَ وصحافَ العود، ولم تتمسكْ أوتادُ الأخبية لرخاوة الأرض، وغرقت الدّوابُّ في مرابطها، إلى بطنِها، وكثُر الموتى في الضّعفاء، فكانت شرائطُ الأخبية مربوطةً في جِيفِ الموتى، وتوالى عليها المطرُ نحو خمسة عشرَ يومًا بلياليها، ثم رفعَ الله ذلك عنهم بعدَ يأس من الدّنيا، ولم يزل تاشفينُ ينتقلُ في أرض المغرب من موضع إلى موضع إلى آخر هذه السنة.

وقال البيدق: دخل عبدُ المؤمن مدينةَ المزمة فأخذه بها المطرُ ثمانية أيام فسماها ناغروت ان والوط^(١)، فقلّعنا منها إلى جبل تمسامان^(٢). فخرج ابنُ رَجْو بالعسكر فغنمَ مليلةً وأخذ فيها مئةَ بكرٍ فقسمها عبدُ المؤمن على الموحّدين نفَعهم الله بذلك، وكانت فيهم بنتُ مأكِسن بن المعزِّ صاحبِ مليلة وفاطمة بنتُ يوسف، فأخذ عبدُ المؤمن بنتَ مأكِسن وأخذ أبو إبراهيمَ فاطمةً، فعملوا آسَاس^(٣) ورَحَلوا إلى ندرومة بلاد كومية، ورَحَل إلى موضع تاجرا وميّز بها عسكره وهو قد تقوى أمره وعظم شأنه وذكره، فبعثَ ابنُ رَجْو إلى جهة الساحل فأتى بغنائم وهران، وترادفت الفتوحاتُ من كلِّ مكان، ووصل إلى عبد المؤمن زيري ابن ماخوخ الزناتيّ مطيعًا، فبعثه إلى غيَّاته فقبضوا عليه بنو مَكُود وقتلوه وحزّوا رأسه وحملوه إلى فاس وعُلّق على باب السِّلْسلة.

(١) كذلك عند البيدق ٩٧.

(٢) في البيدق: «تمس آمان»، وينظر المسالك والممالك للبكري ٧٦٣/٢، ٧٦٥، وهو اختلاف في

الرسم حسب، واللفظ واحد.

(٣) نوع من الطعام، إذ عبارة البيدق: «أأكلنا آسَاس».

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسة مئة: توفي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين رحمه الله باتفاق، قيل: توفي لسبع خلون من رجب ولا شهر موته إلا لخمس خلون من شوال، فكانت مدته من حين قدمه أبوه سبعاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، وقيل: وتسعة أشهر بتقريب على خلاف في ذلك. وأما حقيقة مدته بعد وفاة أبيه فست وثلاثون سنة والأشهر المذكورة. وكان مولده يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وأربع مئة: فكان عمره إحدى وستين سنة تقريباً.

أمه: رومية، وهي فاض الحسَن، وقيل: قمر.
صفته: معتدل القامة أسيل الوجه.

وقال أبو مروان الوراق: كان مهلك علي بن يوسف بمراكش سنة سبع وثلاثين بعدما بلغته أخبار أمرضته وأورثته همًا وغمًا أثر في جسمه فالتزم فراشه، ولما يئس من نفسه، أمر عند ذلك بإخراج ابنه أبي بكر من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها؛ لأنه خاف من خوضه في أمور، فأصاب أبا بكر في سفره مرض، فكان الرجال يحملونه على أعناقهم، ووصل المذكور إلى الجزيرة فسجن بها ولم تطل مدته في محبسه هذا إلى أن هلك^(١).

ولما اشتد ألم علي بن يوسف وزادت علته عهد أن يدفن مع قُبور عامة المسلمين فدفن بها في جملتهم، وجُددت البيعات لولي عهده تاشفين، وهو في أمره المتقدم ذكره ومتابعته لعبد المؤمن.

حكاية طريفة^(٢)

واسْتَوَزَرَ علي بن يوسف في آخر أيامه إسحاق بن يَتَّان بن عُمر بن يَتَّان وما بلغ عمره ثمانية عشر عاماً، وكان يتوقد ذكاءً وعقلاً وفهماً، فأعجب به إعجاباً كثيراً وجعل إليه النظر في المظالم والشكايا، فاتبع الناس في أمورهم وكافة شؤونهم، وكان مع ذلك في

(١) كان أبو بكر هذا هو أكبر أبناء علي بن يوسف، وقد حقد بسبب تحويل ولاية العهد إلى غيره من إخوته فاضطرب أمره.

(٢) تنظر الحلل الموشية ٦٨-٦٩.

طبعه ومولده مثل كاهن: يأتي بغرائب من الأخبار، ومما يؤثّر عن هذا الفتى أن تاشفين بن علي بن يوسف قال له: يا إسحاق، إن الناس تكلموا في أمرك وخاصوا في حديثك وفي الذي يؤثّر من المغيبيات، فمنهم من صدّقك، ومنهم من كذّبك، فقال الفتى: اختبرني واسألني عما شئت مما صنعتّه. قال تاشفين: قد غبت من أمسك، أخبرني بما فعلته أمس بعدما قمت من مجلسي هذا وفارقتك ودخلت داري؟ قال له: دخلت دارك وجلست في مجلسك فقدم لك طبق فيه خوخ فتناولت واحدة وأكلتها حتى انتهيت على آخرها، ثم تناولت أخرى فعضضت فيها عضةً وصرفتها إلى الطبق، ثم قمت، أفتحب أن أخبرك بما فعلت؟ قال له تاشفين: اقطع الكلام ها هنا.

وجرى ذكره يوماً في مجلس علي بن يوسف فقال لهم: قد عزمْتُ على أن أختبره، ولم يكن حاضراً في ذلك الخبر، ثم قام علي بن يوسف ودخل... فأخبره القوم اليوم تفتضح فيما تدّعيه من علمك مع أمير المسلمين. فقال لأهل...: أخبركم؟ فقالوا: أخبرنا، فقال لهم: قام بنفسه يريد أن يكتب بطائق فيها اسمي واسم أمي فكتبها ووضعها في ثني الوسادة إلى أن يحين خروجه، فإذا حان ويريد أن يخرج خرج... فيجعلها... ويسألني عما خبأ لي فينساها عند خروجه ويخرج إليكم دونها، فإذا رأني تذكر فيدعو بأحد عبيده ويسأله في أذنه أن يخرجها إليه ويأكله إياها من كمّه لئلا يُطْلَع على ذلك، فما لبث أن خرج علي بن يوسف من داره ودخل مجلسه، فلما وقعت عينه عليه دعا بالغلام فسأله في الأذن ودخل الغلام الدار ثم خرج مُسرّعا بالبطاقة فناوله إياها من كمّه إلى كمّه، فابتدر القوم وقالوا لعلي بن يوسف: يا أمير المسلمين! قد أعلمنا بجميع ما أردت، وقصّوا عليه الحديث كما كان حدّثهم، وقالوا له: قد علمنا صدقه في كل ما يدّعيه ويؤثّر عنه، فعجب علي بن يوسف من ذلك.

وكان علي بن يوسف في آخر أمره امتنع الإعطاء لأجناده حتى رجع أكثرهم يُكْرُونَ دوابهم، وهو أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين في مُغامرتهم، ويأخذون منهم في نفقاتهم، وأكثر ما يحبّ عليهم، واضطربت عليه الأمور من لدن ظهور المهدي فلم يستقم له حال حتى مات، رحمه الله، في هذه السنة.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين: وصلت قرائر المَجُوس في مئة وخمسين مركبًا بين كبارٍ وصغار إلى سَبْتَةِ، فخرّجت إليه أجفائها، فتقاتلوا فقتل من الفريقين خلقٌ كثير. وفيها: دخل الموحدون وجدة.

وفيها: ظهر ليلة نجمٍ عظيم في أقصى المغرب في ليلة سادس عشر لرمضان. وانتقل تاشفينُ بمحلّته إلى تلمسان ونزل عبدُ المؤمن بمحلّته بين الصّخرتين بمقرّبة منه، وكانت بينهم حروبٌ كثيرة يطول ذكرُها.

وبعث عبدُ المؤمن يوسف بن وأنودين بعسكرٍ إلى مديونة، فتلاقى مع جيشٍ لمتونة، خرج عليه من تلمسان أبو بكر بنُ الجوهر ومحمد بن يحيى بن فانو فتلاقى العسكرانِ بوادي الزيتون، وتقابل الجمعان، فقتل من الفريقين خلقٌ كثير، وفي أثناء ذلك وصلت محلّة من بجاية لنصر تاشفين، وذلك في سنة تسع وثلاثين، برّسم قتال الموحّدين وقائدها ميمون بن المنتصر، فهزّمهم الموحّدون من الصّخرتين إلى باب تلمسان وبعث القائد المذكور إلى عبد المؤمن يُعلّمه بتوحيده سرًّا ويُعلّمه بفتح إفريقية إذا فتح المغرب، فكان ذلك كذلك على ما يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى^(١).

وفي سنة تسع وثلاثين: خرج قائدُ الروم البربريُّ بعسكره ومعه عسكرُ لمتونة والحشم، فهزّمهم الموحّدون، وقتل القائد المذكور وتبدّد عسكره^(٢). وكان تاشفينُ في سطسيف بمحلّته، فزادت الحربُ بينه وبين الموحّدين مدةً من شهرين إلى أن وصل ابنُ المنتصر من بجاية كما ذكرنا، وهزّمه الموحّدون ووحد سرًّا ووعد بفتح بجاية.

وفي هذه السنة: قُتل ابنُ زجو، ورحل تاشفينُ من سطسيف، ونزل على وهران، فهربَ ينجمار^(٣) اللَّمْتُوني بجمع إلى الصّحراء، وهربَ ابنُ زنجي^(٤) إلى الغرب وبقي تاشفينُ بعسكرٍ مشّت، والقائدُ ابنُ ميمون في الأسطول في البحر برّسم أن يطلّع تاشفينُ

(١) البيذق ٩٤، ٩٧.

(٢) البيذق ٩٦.

(٣) في البيذق: «أنكار»، والجيم والكاف في اللفظين كاف أعجمية، والهمزة فيها مسهلة إلى ياء، فكلا اللفظين عندئذ صحيح.

(٤) في البيذق: «ونكي»، والجيم والكاف كاف أعجمية.

فيها إن رأى ما لا طاقة له من قتال الموحّدين فلم يُقدّر الله. وخرج عسكرُ من الموحّدين وأتباعهم لقتال تاشفين، قوّد عليه عبدُ المؤمن أبا حفص، فهزَمَ عسكرُ تاشفين وتبعه وأحاط به وحصره، فخرج تاشفينُ فارًّا بنفسه يريدُ الدُّخولَ في القطائع، فبينما هو سائرٌ على فرسه في الليل إذ صادفَ حافةً خاف منها ومات^(١)، رحمه الله، فلما أصبحَ وجدّه الموحّدون ميتًا في تلك الحافة، ففقطّعوا رأسه وبعثوا به إلى عبد المؤمن فصيّره ووَجَّهه إلى تينمل. وقُتل من أصحابِ تاشفين خَلْقٌ كثير، وقرّ منهم جَمْعٌ كبير، ولم يبقَ منهم بعد ذلك إلّا سيّدُ الملوك السّدراتي... تقدّم له فعفا عنه.

وذكر ابنُ حمّاد في مقتل تاشفين أيضًا قال: إنه لما كان ليلة سبعمائة وعشرين من رمضان من سنة تسع وثلاثين المذكورة وصل تاشفينُ بن عليٍّ من تلمسان إلى قُرب وَهْران، فاتّبعه عسكرُ الموحّدين وحصّروه وضيقوا عليه وأطلقوا النيرانَ في محلّته، فلما رأى ما لا طاقة له به وعلم أنه مأخوذ، خرج هو وبعضُ أصحابه على فرسه فقرّر كل واحدٍ منهم على طريقه، فمنهم مَنْ قُتل ومنهم مَنْ حصل في القطائع، وخاف تاشفينُ من حافة عظيمة وهلك، ووُجد ميتًا، وذلك ليلة سبعمائة وعشرين المذكورة.

ثم وَلِيَّ إسحاق بن عليٍّ بن يوسف، وذلك أنه لما مات تاشفينُ على ما ذكر بعضُ المؤرّخين بُويع لابنُه إبراهيم بن تاشفين، فطلّع عليه إسحاق إلى مراكش فنقضَ بيعته ودعا لنفسه ووقع الخلاف والتدابيرَ بينهم إلى انقطاع دولتهم ودخول الموحّدين عليهم على ما أذكره إن شاء الله ملخصًا في موضعه^(٢).

وفي هذه السنة: ظهرت في الأندلس دعوةُ الموحّدين، فأول مَنْ قام بدعوتهم فيها أهلُ مارتلة^(٣) في السابع عشر من ربيع الأول، ثم خالفت بعد ذلك طلياطة^(٤) على المرابطين ودخلت في دعوة الموحّدين.

(١) في البيهقي: «فبينما هو سائر على فرسه إذا بحافة فتركته فرسه في تلك الحافة»، وتنظر الحلل الموشية ١١٠.

(٢) الحلل الموشية ١١٠-١١٥.

(٣) Mertola، وهي على نهر وادي آنا من كورة باجة في البرتغال الحالية، وينظر الروض المعطار ٥٢١.

(٤) Tejada، تبعد عن إشبيلية إلى الشمال الغربي منها مسافة ٣٠ كم، وينظر معجم البلدان ٤/ ٣٩.

تلخيص التعريف بتواريخ من وليّ إشبيلية من مشاهير الممتونيين

المُرابطين من حين استيلائهم عليها إلى انقراض دولتهم^(١)

فأول من وليّها بعد خلْع المعتمد بن عباد عنها بتقديم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين: الأمير سيّر رحمه الله، فولّيها سيّر المذكور في رجب الفرد من سنة أربع وثمانين وأربع مئة، وتوفي على مقربة من إشبيلية وهو زافاً بنته فاطمة ومُشيّعاً لزوج حواء بنت تاشفين، وقد تقدّم خبرها في السنة المذكورة، فكانت وفاته فجاءة في ذي القعدة من سنة سبع وخمس مئة، فكانت مدة ولايته بها ثلاثاً وعشرين سنة.

ثم وليّها يحيى بن سيّر بن أبي بكر في ذي الحجة من عام سبعة وخمس مئة، وعُزل عنها في ذي الحجة أيضاً عام ثمانية وخمس مئة، فكانت ولايته سنة واحدة.

ثم وليّها عبد الله ابن فاطمة الشهير بالنيولان في محرم سنة تسع وخمس مئة، وتوفي بها في رمضان المعظم من عام أحد عشر وخمس مئة، فكانت ولايته [عامين وتسعة أشهر]^(٢).

ثم وليّها إبراهيم بن يوسف بن تاشفين بعد ولايته سبّته ووليّها في شوال عام أحد عشر وخمس مئة، وعُزل عنها في جمادى الأولى عام ستة عشر وخمس مئة، فكانت ولايته لها أربعة أعوام وتسعة أشهر.

ثم وليّها تميم بن يوسف بن تاشفين، فولّيها الأمير تميم بعد ولايته غرناطة في جمادى الثانية عام ستة عشر وخمس مئة، وعُزل عنها في ذي الحجة عام سبعة عشر وخمس مئة، فكانت ولايته إلى أن عُزل سنة واحدة وأربعة أشهر.

ثم وليّها أبو بكر بن عليّ بن يوسف، فكانت ولايته إلى أن عُزل أربعة أعوام وخمسة أشهر أولها محرم عام ثمانية عشر وخمس مئة وآخرها رجب عام اثنين وعشرين وخمس مئة.

ثم وليّها عمر بن سيّر، فكانت ولايته إلى أن عُزل خمسة أشهر أولها شعبان وآخرها ذو الحجة عام اثنين وعشرين وخمس مئة.

(١) ينظر كتاب «مفاخر البربر» ص ٨١، حيث أورد أسماء الولاة، وبين ما أورده وما هنا اختلاف واضح.

(٢) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين مستفاد من بدء ولايته إلى حين وفاته.

ثم وَلِيَهَا يَحْيَى بْنُ مُقُورٍ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ إِلَى أَنْ عُزِلَ عَامًا وَاحِدًا وَشَهْرَيْنِ اثْنَيْنِ أَوَّلُهَا مُحَرَّمٌ عَامٌ ثَلَاثَةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ وَآخِرُهَا صَفَرٌ عَامٌ أَرْبَعَةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ. ثم وَلِيَهَا عَمْرُ بْنُ مُقُورٍ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ إِلَى أَنْ قُتِلَ عَامَيْنِ وَثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ أَوَّلُهَا رَبِيعُ الْأَوَّلِ عَامٌ أَرْبَعَةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ وَآخِرُهَا رَجَبٌ عَامٌ سِتَّةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ.

ثم وَلِيَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بَنَ تَاشَفِينَ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ إِلَى أَنْ قُبِضَ عَلَيْهِ وَحُبِسَ فِي الْقَصْرِ شَهْرَيْنِ اثْنَيْنِ أَوَّلُهَا شَعْبَانُ الْمَكْرَمِ وَآخِرُهَا شَوَّالُ الْمَعْظَمِ، وَكِلَاهُمَا فِي عَامٍ سِتَّةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ.

ثم وَلِيَهَا الْأَمِيرُ تَاشَفِينُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ يَوْسُفَ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ إِلَى أَنْ عُزِلَ سَنَةً وَاحِدَةً أَوَّلُهَا شَوَّالُ عَامٍ سِتَّةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ وَآخِرُهَا رَمَضَانُ عَامٍ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ. ثم وَلِيَهَا يَتْنَانُ بْنُ عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ وَالِيًا بَلَنْسِيَةَ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ إِلَى أَنْ عُزِلَ سَنَةً وَاحِدَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ أَوَّلُهَا شَوَّالُ عَامٍ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ وَآخِرُهَا صَفَرٌ عَامٌ تِسْعَةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ.

ثم وَلِيَهَا أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ إِلَى أَنْ عُزِلَ تِسْعَةَ أَعْوَامٍ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ أَوَّلُهَا رَبِيعُ الْأَوَّلِ عَامٌ تِسْعَةٌ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ وَآخِرُهَا ذُو حِجَّةٍ عَامٌ ثَمَانِيَةٌ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ.

ثم وَلِيَهَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْكَلِيٍّ فِي شَهْرِ مُحَرَّمٍ عَامٍ تِسْعَةٌ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ، فَظَهَرَتْ فِي الْأَنْدَلُسِ دَعْوَةُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْعَامِ الْمَذْكُورِ، وَقَامَ أَهْلُ مَارْتَلَةَ بِدَعْوَةِ الْمَهْدِيِّ فِي السَّابِعِ عَشَرَ لِرَبِيعِ الْأَوَّلِ عَامٍ تِسْعَةٌ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ، وَخَالَفَتْ بَعْدَ ذَلِكَ طَلِيَاظَةُ عَلَى الْمُرَابِطِينَ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْعَرَبِ، إِلَى أَنْ صَارَتْ أَكْثَرُ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ فِي طَاعَةِ الْمُوَحِّدِينَ.

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ: تَغَلَّبَ الْمُوَحِّدُونَ عَلَى اللَّمْتُونِيِّينَ الْمُرَابِطِينَ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ بَعْضِ الْبِلَادِ الْمَغْرِبِيَّةِ عَلَى مَا أَذْكَرُ فِي دَوْلَتِهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثم فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ: وَصَلَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ... وَدَخَلَ أَغْمَاتَ دُونَ قِتَالٍ. وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ: دَخَلَ الْمُوَحِّدُونَ مَرَآكُشَ وَقُتِلَ إِسْحَاقُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ يَوْسُفَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ (١).

(١) إِلَى هُنَا تَنْتَهِي الْقِطْعَةُ الَّتِي نَشَرَهَا مِيرْنَدَا ثُمَّ إِحْسَانُ عَبَّاسٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

اختصارُ الخبر بحركة تاشفين إلى الجبل برسم قتال الموحدين

فخرج تاشفين^(١) من مراكش في جمادى الأولى من عام ثلاثة وثلاثين وخمس مئة في جمع كثير من الفرسان والرجال فيهم مجلّة وافرة من قبائل جزولة وهو يعتقد أنه يهزم كل من ناهضه ويغلب كل من عارضه، فوصل بجمعه المجموع، وعسكره المسموع، إلى مقرّبة من جمع الموحدين، فخرج إليه عبد المؤمن، واجتمعوا بين مضائق وجبال لا يكاد الفارس يتصرّف فيها بقتال، فكثرت الحرب بينهم في تلك المضائق، وبين تلك الجبال الشواهي، ثم أمر تاشفين بالرحيل فانصرفوا مبادرين، ورغب إليه جزولة في الرجوع إلى بلادهم فأذن لهم في ذلك وقال لهم تاشفين: لا تسلكوا تلك المسالك. وكان عبد المؤمن قد علم أنّ جزولة لا بدّ لهم من تلك الأوعار والمضائق الكبار، فأرصد لهم عسكرًا من الموحدين في تلك المضائق كامنين، ثم إنّ جزولة لم يسمعوا وصية تاشفين فسلكوا بين تلك الأوعار والجبال^(٢)، فخرج عليهم عسكر الموحدين بأعداد من الفرسان والرجال فهزموهم وقتلوهم واستاقوا خيلهم ونساءهم إلى تينمل^(٣)، ولم يلق حربًا مع تاشفين، وبعد ذلك رغب أشياخ جزولة في التوبة والدخول في طاعة الموحدين، فكتب لهم بذلك ظهيرًا حسنًا.

(١) هو تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، انظر ترجمته في الإحاطة ١/٤٦٦، والاستقصا

٦٨/٢.

(٢) في م: «والأجبال»، وما أثبتناه من النسخ الخطية.

(٣) قيدها ياقوت بفتح الميم واللام وتشديدها ولام أخرى «تَينَمَلَل»، معجم البلدان ٢/٦٩.

اختصارُ الخبر بحركة عبد المؤمن^(١) الطويلة الأعوام،

ومقتل تاشفين أمير أهل اللّثام من سنة أربع وثلاثين إلى سنة أربعين

ولمّا رجع عبدُ المؤمن من محاربة تاشفين عزم أن يخرجَ بجَمْعِهِ إلى جهة فاسَ وتِلْمَسَانِ لِمَا قَدَّرَ اللهُ لَهُ من فتح البُلدان، فحشد أهل طاعته وجلبهم من كلِّ مكان فانجلبوا من كلِّ قَبِيلٍ موحد، واستركبوا كلَّ^(٢) صعبٍ وذلولٍ منجر^(٣)، وقَدِمَ على تينمَلٍ نائبًا عنه صهره موسى بن سليمان، وتحرك على طُرُقَاتِ الجبل بخيل كثيرة العدد ورجال.

ولمّا وصل خبره إلى تاشفين بمَرَاكُش جند جنوده وحشد حشوده وخرج في طلبه، فكان آخرَ عهده بأبيه على ما يأتي ذكره.

فمشى عبدُ المؤمن في تلك الجبال، وعدّه عسكره آلاف الرجال، يغزو بهم يمينًا وشمالًا، ويُقبَلُ عليه أهلها بالطاعة إقبالًا، فكان الموحدون يمشون في الجبال المانعة حيثُ الأرزاق الواسعة، وكان تاشفينُ ينزلُ البسائط بعساكره، فما يجدُ من البرابر مَنْ يُدخله ولا مَنْ يَسْتَعِينُ به فيواصله، وذلك بسبب إداره، إلى أن استقرَّ عبدُ المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاسَ المعروفة بكراندة، ونزلَ تاشفينُ بحصن الموضع المذكور فأقام فيه شهرًا دونَ حَطَبٍ ولا فَحْمٍ، حتى أُلْجَأَتْهُمُ الضَّرورةُ لحرق أوتاد أخبيتهم وخشب أبنيتهم، والمطرُ مع ذلك مستصحَبٌ دائم.

ولقد أخبر ابنُ صاحب الصلاة بسند ذكره عمّن أخبره، أن امرأةً بعثت لتاشفينَ بطبق كبير عليه سبينة، فظنَّ أنه بفاكهة^(٤) وإذا فيه فحم، فسَرَّ به، وانتقل عبدُ المؤمن إلى جبل غُمارة فتبعه تاشفين، ثم انتقل من جبل غُمارة إلى جهة تِلْمَسَانِ

(١) المعجب ٢٦٢ فما بعد، ونهاية الأرب ٢٤/٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣٠٥، والاستقصا ٩٩/٢.

(٢) سقطت من م.

(٣) في م: «منجرد» ولا معنى لها، وقوله: منجر، أي: جرّار.

(٤) في م: «فاكهة».

فانتقل تاشفينُ بمحلّته إليها، ونزل عبدُ المؤمن بين الصّخريّتين على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى^(١).

وفي أثناء هذه الحركة الطويلة الأعوام^(٢) اتّصلت الحروبُ ببلاد أهل اللّثام وغلّت الأسعارُ بمَرَّاكش حتى وصلَ فيها الرُّبُع من الدّقيق بمِثقال حشميّ ذهبي، وتوالى هذا^(٣) الجَدْبُ حتى جَفَّت في الأرض مذاربُها واغبرَّت جوانبُها، وقلّت السّجايي بهذه الفتن وكثرت اللّوازمُ على الرعايا بالعدوّتين. وألحَّ العدوُّ النّصرانيُّ بالصّربات على جميع جهات الأندلس حين علموا عَجَزَ الإمارة بالمغرب واشتغالها بحرب الثّائرين المهيّجين للفتن أخذ الله الحقّ منهم. واستولى الرُّومُ في هذا الوقت على كثير من البلاد والحُصون وكثيرُ الجذب بالشّعر^(٤).

ثم توفّي عليُّ بن يوسف في سنة سبع وثلاثين^(٥)، وقد تقدّم ذكره.

وفي خلال ذلك حدّثت الشّحناء والمقاطعة بين قبيل لَمْتُونَة ومسوفة، فخاف على نفسه يحيى بن تاكغت وبرّان^(٦) بن محمد، فوصلا إلى عبد المؤمن، ثم تَبِعَهما يحيى بن إسحاق، وهو ابنُ عمّهما المعروف بأنجمار، الذي كان صاحبَ تِلْمَسَان، بجميع إخوانه ورجاله، فزاد الحُكْلُ في أمر تاشفين وفَسَدَت نِيَّاتُ اللَّمْتُونِيِّينَ لِقَبِيلِ مسوفة^(٧)، وترقّبوا لهم الوقائع المَخُوفَة^(٨)، وتباغضوا بُغْضًا وقَتَلَ بعضهم بعضًا، وضرب يحيى بن تاكغت المسوفي على موضعٍ من نظَرِ تِلْمَسَان فخرج إليه منها محمد بن زجو اللَّمْتُونِي فقتل يحيى

(١) تاريخ ابن خلدون ٢٥٢/٦.

(٢) في ك: «وفي أثناء هذه المدة الحركة»، وفي م: «وفي أثناء مدة هذه الحركة...»، وما أثبتناه من ر٣.

(٣) في م: «وتوالاها الجذب».

(٤) في ر٣: «وكثير الجهر الثغر» ولا معنى لها، وفي م: «وكثير من الثغر» ولا معنى لها أيضًا وهو تصرّف من الناشرين عجيب، وما أثبتناه من ك، وهو الصواب، فقوله: «وكثير»: مبتدأ، والعطف هنا ممتنع.

(٥) انظر خبر وفاة علي بن يوسف في المعجب ٢٧١، وتاريخ ابن خلدون ٢٥١/٦.

(٦) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٣١٢، ٣١٤، ووقع فيه: «براز» وبه أخذ ناشرو (م).

(٧) في ك: «لمتونة».

(٨) في ر٣: «المخافة».

وابنه واحترَّ رأسيهما ووجهَ بهما إلى تاشفين، فأمرَ بحملِهما إلى سِجْلَمَاسَة حيث كانت أختُ يحيى المذكور، فقالت: إن كان لنا رجالٌ فسيأخذونَ بئارنا إن شاء الله تعالى، فبلغ الكلامُ عبدَ المؤمن فانتصر لها ووافَقها على رأس تاشفين، فكان ذلك كذلك.

قال الكاتبُ أبو عليّ ابنُ الأثيريّ التِّلِمَسانيّ^(١): لَمَّا كان الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن نازلاً على تِلِمَسَانَ بالجبل المعروف بالصَّخْرَتَيْنِ في شهر المحرم مفتتحَ عام تسعة وثلاثين، كان أولُ افتتاحِه على أيدي الموحِّدين فتحًا عظيمًا بشرقيّ تِلِمَسَانَ، هَزَمَ فيه الموحِّدون عساكرَ من عساكرِ تاشفين كان خَرَجَتْ لبلاد رَناتَة، فكانت الوقِعةُ فيهم من أكبر الوقائع استأصلت أكثرَهم، فَضْرَبَ عبدُ المؤمن الطُّبُولَ في مجلسِه بأعلى الجبل، وكان الواليّ على تِلِمَسَانَ أبو بكر ابنُ مَزْدَلِي^(٢) اللَّمْتُونِيّ.

قال أبو عليّ الأثيريّ: ووصلت إلى تاشفينَ محلَّةٌ صُنْهاجَة من بجاية، وكان المقدَّم عليها طاهرُ بن كباب الصُّنْهاجيّ، وكانوا عندما قدّموا عليها برَّرَ لهم بجموعِه وملاً فَحَصَ تِلِمَسَانَ خيلاً ورجالاً إلا أن الإِدْبَارَ كان لهم مُحادياً، وبانقضاءِ دولتهم مُنادياً، فنزَلَ الصُّنْهاجيُّونَ بمحلَّتِهم فأكرمَهم تاشفينُ وأحسنَ إليهم ولقائِدهم، والموحِّدون عند ذلك ينظرون ما يصنعون من بروزٍ واحتفال وكثرة خيل^(٣) ورجال، فما هالَهم أمرُهم ولا هابَهم كثرتُهم.

ولمَّا استقرَّ الصُّنْهاجيُّونَ ورأوا سكونَ تاشفينَ على قتالِ الموحِّدين، خَرَجُوا في بعض الأيام وطلَّعوا من جهة العباد مُقَدِّمينَ غيرَ مهيبين، فهبطَ عليهم الموحِّدون فهزَموهم وقتلُوهم.

قال البيهقيّ في كتابه: لَمَّا وصلتَ محلَّةُ بجاية هَزَمَهم الموحِّدون من الصَّخْرَتَيْنِ إلى باب المدينة، وبعثَ قائِدهم لعبد المؤمن يُعلِّمُه بتوحيده سرّاً ويعدُّه بفتحِ بجاية وغيرها، فكان كذلك^(٤).

(١) هو أبو علي حسن بن عبد الله الأثيري صاحب كتاب «نظم اللآلي في فتوح الأمر العالي» انظر الحلة السيرة ٩٢/٢.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/٢٥٢، ٣٠٨.

(٣) في ك: «خيلهم»، ولا يصحّ.

(٤) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/٣٠٧-٣٠٨.

وقال ابن بُجَيْرٍ: لَمَّا صَحَّ مَوْتُ عَلِيٍّ بنِ يَوْسُفَ عندَ أَشْيَاحَ لَمْتُونَةٍ وَمُسُوفَةٍ الذينَ كانوا مَعَ تَاشُفِينَ مِثْلَ: بَرَّانَ وَأَنْجَمَارَ قَبْلَ ذَلِكَ واليَ تِلْمَسَانَ وَوَصَلَ إِلَى^(١) المُوَحِّدِينَ بَرَّانَ اللَّمْتُونِيُّ وَيَحْيَى بنَ تَاكَغَتَ، ثُمَّ وَصَلَ أَنْجَمَارُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَ حِصَارِ فَاسَ، وَكَانَ المُوَحِّدُونَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ حِينَ مَاتَ عَلِيٌّ بنِ يَوْسُفَ اقْتَسَمُوا عَلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ مِنْهُمْ بِجَبَلِ غِيَاثَةٍ، وَفِرْقَةٌ بِجَبَلِ الرِّيفِ بِطُوبَى وَمَلِيلَةَ وَغُمَارَةَ، وَفِرْقَةٌ مَعَ يَوْسُفَ بنِ وَانُودِينَ وَابنِ زَجُو وَابنِ يَوْمُورَ، وَتَوَجَّهُوا إِلَى جَبَلِ مَدْيُونَةَ وَجِهَهُ تِلْمَسَانَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْوَالِي عَلَى تِلْمَسَانَ حِينَئِذٍ مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى بنِ فَاوُ بَعْسَكَرَ مِنْ زَنَاتَةَ وَغَيْرِهِمْ، فَالْتَقَى مَعَهُمْ، وَقَتَلَ مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى المَذْكُورَ فِي (وَادٍ)^(٢) هُنَالِكَ وَانْهَزَمَ عَسَاكِرُهُ وَافْتَرَقَتِ زَنَاتَةُ إِلَى بِلَادِهَا، وَوَلَّى تَاشُفِينُ أَبَا بَكْرَ ابنَ مَزْدَلِي، وَطَاعَ بَنُو وَمَانُو^(٣) مِنْ زَنَاتَةَ لِعَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَوَصَلَ^(٤) إِلَيْهِ أَشْيَاحُهُمْ^(٥) بِالرِّيفِ مِنْهُمْ بَنُو مَاخُوحَ وَيَوْسُفَ بنَ يَدَّرَ وَغَيْرِهِمْ، فَأَرْسَلَهُمْ مَعَ بَعْضِ المُوَحِّدِينَ إِلَى ابنِ يَوْمُورَ وَابنِ زَجُو فَتَوَجَّهُوا بِعَسَاكِرٍ إِلَى بِلَادِهِمْ فَطَاعَ جَمِيعُ إِخْوَانِهِمْ.

وَلَمَّا اتَّصَلَ بِتَاشُفِينَ خِلَافُ بَنِي وَمَانُو وَجَّهَ عَسَاكِرًا إِلَيْهِمْ وَمَعَهُمُ قَائِدُ الرُّومِ الْمُسَمَّى بِالرَّبْرِتِيرَ، وَاتَّصَلَ ذَلِكَ بِالمُوَحِّدِينَ فَأَذْجَلُوا إِلَى غِيَاثِهِمْ فَأَدْلَجَ سِيرَهُ الْقَائِدُ الْمَذْكُورَ بِالْعَسَاكِرِ إِلَى مَوْضِعِ بَنِي وَمَانُو، فَوَجَدَهُمْ قَدْ تَحَصَّنُوا بِجَبَلٍ عِنْدَهُمْ، وَنَزَلَ عَسَاكِرُ اللَّمْتُونِيِّينَ بِمَوْضِعِهِمْ فَهَدَمُوهُ وَحَرَقُوهُ وَطَلَعُوا إِلَيْهِمْ بِالْجَبَلِ فِي يَوْمٍ رِيحٍ عَاصِفٍ، فَهَبَطَ عَلَيْهِمْ بَنُو وَمَانُو فَهَزَمُوهُمْ، وَكَانَ مَعَهُمْ بَعْضُ قِبَائِلِ زَنَاتَةَ، وَبَعْدَ تِلْكَ الْهَزِيمَةِ أَغَارَ ابْنُ وَانُودِينَ وَابنُ زَجُو وَابنُ يَوْمُورَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنَ المُوَحِّدِينَ وَبَنِي وَمَانُو عَلَى بِلَادِ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ وَبَنِي يَلُومِي فَقَتَلُوا وَغَنِمُوا وَوَجَّهُوا بِالْغَنَائِمِ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمُ الزَّنَاتِيُّونَ وَأَخَذُوا الْغَنَائِمَ الْمُتَوَجَّهَةَ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ

(١) سقطت من م.

(٢) بياض في الأصول، وما بين الحاصرتين منّا.

(٣) رسمها في النسخ: «لقرو ماتو»، وستأتي على الوجه بعد قليل.

(٤) في ر ٣، م: «ووصلوا».

(٥) سقطت من م.

وَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ كَانَ مَعَهُمَا^(١)، وكانوا نحوَ ست مئة رجل من بني ومانو وغيرهم وفيهم أبو بكر بنُ ماخوخ من بني ومانو، وتحصَّن ابنُ واندوينَ معَ من كان معه من الموحدينَ بجبل هنالك، ورحَلَ عسكرُ اللَّمُونِيِّينَ إلى موضع منداس: بلد بني يلومي من زَنَاته، فاجتمعت عليهم قبائلُ بني يلومي برحائلهم معَ حمامةَ بن مطهرَ وبني ينجاسنَ وبني ورسيفنَ وبني توجينَ، وجميعُهم دونَ رحائلَ معهم.

ولَمَّا قُتِلَ مَنْ قُتِلَ من بني ومانو وَصَلَ الأميرُ عبدُ المؤمنِ إلى جهة تِلْمَسَانَ فنَزَلَ بين الصَّخْرَتَيْنِ، وهناك وَصَلَهُ بنو ومانو فأقْلَعَ معهم إلى سِرت، فاجتمعَ عليه بنو ومانو أجمعونَ ومعهم تاشفينَ بن ماخوخ، وفي ذلك المنزل اجتمع عبدُ المؤمنِ بـابن زجو وابن يومور وَمَنْ كان معهم، وهناك وَصَلَتْهُ هديَّةُ بني ومانو فصَرَفَهَا عليهم.

ثم رَحَلَ عبدُ المؤمنِ من موضع سِرتَ إلى بلاد بني يلومي من زَنَاته، فلَمَّا حَقَّقَ الأميرُ تاشفينُ وَصُولَ عبدِ المؤمنِ إلى تلك الجهات واجتماعه بـزَنَاته دَخَلَ تِلْمَسَانَ وجَنَّدَ فيها عسكرًا وبعثه إليه، فاجتمع معه بموضع منداس، فتوجَّه عبدُ المؤمنِ بعسكره قاصدًا محلةَ الربريرِ قائدِ الرومِ وَمَنْ كان معهم من الجنود والحشود، فقاتلهم ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع هَزَمَهُم واحتوى على محلَّتِهِم وعلى مَنْ كان معهم من زَنَاته بني يلومي وغيرهم.

ثم رَحَلَ الأميرُ عبدُ المؤمنِ عازمًا على النزول بين الصَّخْرَتَيْنِ، فرَحَلَ معَ بني ومانو، وكانت الغنائمُ التي استاقوها كثيرةً زَعَمُوا أنها كانت نحوَ ثلاثين ألفًا من الغنمِ واثنِي عَشَرَ ألفًا من البقر، فاعترَضَهُم قائدُ الرومِ الربريرُ المذكورُ بالعسكرِ فاستنَقَذَ من الغنائمِ أَكْثَرَهَا وَقَتَلَ من كوميةٍ نحوَ أربع مئة رجل، ووصلَ العسكرُ معَ قائدِ الرومِ لِتِلْمَسَانَ فاجتمع معَ الأميرِ تاشفينَ فيها.

وكتبَ تاشفينُ منها إلى البلادِ يستدعيهم لِنَصْرَتِهِ، فوصلَهُ عسكرُ سِجِلْمَاسَةَ وعسكرُ بِجَايةِ صحبةَ طاهر بن كباب، وهو قائدُ من قُودِ صُنْهاجِةِ بني حماد، فاجتمعت تلك العساكرُ بِتِلْمَسَانَ، ووصلَ من^(٢) الأندلسُ إبراهيمُ^(٣) بن تاشفينَ بعسكرِ فولاه

(١) في م: «معها».

(٢) ليست في ك.

(٣) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/٢٥٢، ٣٠٨.

أبوه عقده^(١)، وقد كان وصله قبل ذلك بموضع كراندّه حين مات جدّه، فبعثه والده إلى قُرطبة يرسم القراءة فيها، ثم استدعاه منها، ووصله إلى تلمسان في آخر سنة ثمانٍ وثلاثين وخمس مئة.

ولما وصل إبراهيم بن تاشفين من الأندلس وأبوه يميّز العساكر من الحشود والجنود والوفود فميزوا وبرزوا، وعجب الناس من كثرة عددهم وعددهم واحتفالهم بالزينة، حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجموع حسناً وجمالاً وعدّة وكمالاً، وما من شيء كُمل إلّا ودنا نقصه. واصطفت العساكر من باب القرماديين إلى الجهة المتصلة بأصل الجبل، وذلك كان آخر كماله.

ذكر مقتل البربرير وأكثر أصحابه^(٢)

قال ابن صاحب الصلاة: كان هذا الرومي البربرير من أكبر الطُغاة بالأندلس نجدة وظهوراً متصلة فتردّى من حافة عظيمة... وتغلب الموحدون على... من قدر الله بوفاته من اللّمتونيين، فلما أصبح الله بالصباح هبطوا في الحافة المذكورة، فوجدوا تاشفين بها على تلك الصورة في ليلة سبع وعشرين لرمضان من عام تسعة وثلاثين وخمس مئة، ففقطعوا رأسه، ووجهه الأمير عبد المؤمن إلى تينمل فعلق في غصن الشجرة التي عند مسجد المهدي.

وقال ابن بُجير: كان تاشفين قد ضاقت حاله، وكثرت بخارج وهران أوجاله، حتى بقي عسكره أياماً دون علف في الحصن الذي بناه من أجل الحصار، وكان عبد المؤمن وجه أبا حفص^(٣) عمر بن يحيى الهنتائي مع بني ومانو الزناتيين إلى بلاد بني ومانو وبني توجين وبني ورسيفن، فحشدوا، وغنموا غنائم كثيرة ورجعوا بها إلى جهة وهران، فاجتمعوا ذات يوم في الجبل المُطل على وهران فصاحوا صيحة عظيمة بلسان واحد: «أصبح والحمد لله»، ولم يكن اللّمتونيون يصيحون بذلك، فلما سمعهم

(١) في م: «عهده».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٠٨ وقد ذكر أن اسمه البربرير في أكثر من موضع.

(٣) له ذكر في سير أعلام النبلاء ١٩/٥٤٦، وتاريخ ابن خلدون ٧/٥٠٦.

أهل عسكر تاشفين وقعت رَهْجَةٌ^(١) عظيمة، فأمر ألا يُجْرَج إليهم خيفة الكمين، وأقام الموحدون على مضاربهم إلى الظهر ثم توجهوا إلى جهة عين الماء الذي يشرب منه أهل وهران فسقوا دوابهم فيه ورجعوا دفعة واحدة حتى وصلوا إلى خباء تاشفين، وكانت خباؤه بإزاء الحصن الذي بناه، فترامى فيه مع من كان معه، منهم ابن مزدي وبشير الرومي، ووقع القتل في أهل العسكر فلهجوا إلى حمى سور وهران، فأخذ الموحدون النوازل التي كانت في محلة تاشفين والخطب وغيره وقربوها إلى باب الحصن وشعلوا فيها النار فاحترقت أبوابه وهو على أعلى ذلك الحصن إلى العتمة وهيب النار في الزيادة، فلما رأى تاشفين ذلك أيقن بالهلاك، فخرج مع ابن مزدي والعليج بشير وصندل الفتى، أما بشير فاحترقت لحيته وعرف فرسه وذيله، وأما صندل الفتى فسقط في النار وصار فحمة، وأما ابن مزدي فدخل بين الأموات حول الحصن ثم تسلل خفية حتى لحق بسور وهران مبهوت العقل، فبقي مبهوتا ثلاثة أيام ومات.

ومشى تاشفين والعليج بشير إلى الرحي التي على الوادي هناك، فعارضه أهل الرحي فعرجا إلى سباخ ورحلا فنجا بشير ورهقت رجل فرس تاشفين التي كان يسميها ريمانة وسقطت في حافة عظيمة فاندق عنق الفرس ومات تاشفين من ذلك في ليلة سبع وعشرين لشعبان عام التاريخ.

وأما أهل دار تاشفين التي سموها حصنا فتحصنوا فيه، وكانوا نحو ثلاث مئة رجل من حشم وحشد وروم فقتلوا أجمعين إلا سبعة منهم فيهم ابنا مزدي^(٢)، وطلب تاشفين فوجد ميتا، وصلبت جثته على حصنه ووجه رأسه إلى تينمل^(٣).

وقال الكاتب الأشيري التلمساني: لما انحصر تاشفين في الحصن الذي بناه مع نفر من أعيان لمتونة، يس من الحياة؛ لأنه عاين عزم الموحدين عليه وما جلبوه من الخطب لإشعال النيران من كل جانب إليه، فكان يأخذ ذخائره وأثوابه ويرمي

(١) في ر ٣، م: «رجفة».

(٢) سقطت من م.

(٣) تنظر وفاة تاشفين في الكامل ١١/ ١٠٢، والمعجب ٢٧١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٢٩٣، وتاريخ

ابن خلدون ٦/ ٣٠٨.

بها في النار بيده، وودَّع أصحابه واقتحم الخروج على النار من بابِه والليلُ قد أرخى
سُدُوكه، والجيشُ قد شَمَّر للقتال ذيوكه، فوُجد في صبيحة تلك الليلة ميتًا لم يوجَد
فيه أثر طعنة ولا ضربة، فقيل: إن فرسه صرَّعه في أحد تلك الأجراف، وسيق إلى
الموحِّدين فأصعدوه الصَّدع^(١)، وتَمَّ لله فيه الصُّنع، وذلك الليلة^(٢) المتقدِّم ذكرُها.

اختصارُ الخبر عن فتح وَهْران

وما فَتَحَ اللهُ للموحِّدين بعدَ قتالِ تاشفين

ولمَّا قُتِلَ تاشفينُ لَجَأَ في تلك الليلة مَنْ سَلِمَ من تلك الواقعة إلى حصن وَهْران،
فانحصَرُوا فيه، وقد كان لأهله^(٣) في الحصار^(٤) نحو شهرين، فَقُطِعَ عنهم الماء، فلمَّا رَأَوْا
أنهم عاطشون^(٥) طلبوا التَّأمينَ من الموحِّدين فلم يُجيبوهم إلى ذلك إلا على حُكم الأمير
فامتنعوا من ذلك حتى أجهدهم العطشُ فنزلوا بعدَ قَتْلِ تاشفينَ بثلاثة أيام.

قال الكاتبُ الأثيري: أخبرني أبو الحسن الطَّرازُ، وكان مِمَّنْ حُصِرَ بَوَهْرانَ،
أنَّ العطشَ انتهى بالناسِ إلى^(٦) أن مات في اليوم الواحد الثلاثونَ والأربعونَ بين
نساءٍ ورجالٍ، ولمَّا خَرَجُوا انطَرَحُوا على الماء حتى مات بعضهم لَمَّا رَوِيَ، وبعد
ذلك حَكَمَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ قَبَّحَهُ اللهُ بِقَتْلِهِمْ فاستَوْصلوا عن آخرِهِم.

وقال ابنُ بُجَيْرٍ: لَمَّا اشْتَدَّ القتالُ على أهل وَهْرانَ مات أكثرُهم بالعطشِ، إلى
أنْ خَرَجُوا على حُكم البرابرِ الذين يسمُّونَ بالموحِّدين فَقَتَلُوهم أَجمِيعَ كبارًا
وصغارًا بعدَ ثلاثة أيامٍ من قَتْلِ تاشفينَ، وذلك يومَ عيدِ الفطر من سنة تسع وثلاثينَ
وخمس مئة.

(١) هكذا في النسخ، وفي م: «المصرع»، ولا تستقيم سجعًا مع اللفظة الآتية بعدها.

(٢) في م: «الليلة».

(٣) في م: «أهله».

(٤) في م: «انحصار».

(٥) في م: «عطشوا».

(٦) ليست في ك.

ذكرُ مُنازلةِ تِلْمَسَانَ وفتحِ تاجررتَ منها وما اتَّصلَ بذلك^(١)

وذلك أنه لَمَّا قُتِلَ تاشفينُ ووصلَ خبرُهُ إلى^(٢) تِلْمَسَانَ، خَرَجَ مَنْ كانَ بها من لَمُتُونَةٍ، وختلت تاجررتُ^(٣) منهم، وبقي فيها العامةُ من الحَضَرِ والسُّوقَةِ، فلَمَّا بَلَغَهُم خبرُ وَهْرانَ خرجَ جماعةٌ من أهلِ تِلْمَسَانَ للقاءِ أبي محمد عبد المؤمن، وكانوا في نحو ستينَ رجلاً من أعيانهم، فَقَدَّرَ اللهُ عليهم أنْ لَقِيَهُم يَصِلَاتِنِ الزَّناقِيُّ بِجَمْعٍ عند وادي تافنا فأفناهم فيه وقتلهم عن آخرهم، ووصلَ إلى تِلْمَسَانَ ما كان من قَتْلِهِم فزاد خوفُ أهلِ تِلْمَسَانَ من عبد المؤمن؛ لأنَّ يَصِلَاتِنَ كانَ تحتَ طاعتهِ بجملتهِ وجماعتهِ.

قال الأثيري: وكان قدومُ أبي محمد عبد المؤمن على تِلْمَسَانَ بعدَ فتحِ وَهْرانَ يومَ الجُمُعَةِ الموفى ثلاثينَ لرمضانَ المعظَّم من عام تسعة وثلاثين، فنَزَلَ بالْمُنِيَّةِ، ونفَذَ حُكْمَ اللهِ في أهلِ تاجررت، وذلك غُدوةَ يومِ الفطر، ودخلها الموحِّدون فرَبَّوا مروسها وقَسَموا دورها، ثم وافاهم فتحُ سِجْلَمَاسَةَ والقلعةِ وغيرها.

وقال ابنُ بُجَيْرٍ: لَمَّا وصلَ إلى أهلِ تِلْمَسَانَ ما جرى لأهلِ وَهْرانَ خافوا خوفاً شديداً، وقرَّ جميعُ مَنْ كانَ فيها من لَمُتُونَةٍ وخَدَّائِهِم مع الصَّحراويِّ إلى فاس، وذلك قبلَ وصولِ عبد المؤمن إلى تِلْمَسَانَ؛ لأنَّ الصَّحراويَّ كان قد نَزَلَ بخارجِها عازِماً أنْ يَلْحَقَ تاشفينَ، فبلغه خبرُهُ، فتوجَّهَ إلى فاس، فوقعَت في أهلِ البلدِ ضِجَّةٌ عظيمةٌ وضَجُّوا خائفينَ على أنفسهم، فلَمَّا سمعوا بإقبالِ عبد المؤمن إليهم تحيَّروا من أعيانهم ستينَ رجلاً كما تقدَّم ذكرُهُ، وبعثوا بهم يَطْلُبُونَ العفوَ منهم، فوقعوا في جَمْعٍ كبيرٍ فقتلُوهم أَجمَعينَ ولم يَنْجُ منهم إلا اثنان، فزاد خوفُهُم وعَظُمَ أمرُهُم، فلَمَّا قَرَّبَ عبدُ المؤمن من تِلْمَسَانَ خَرَجَ إليه الطلبةُ والأعيانُ والألواحُ والصَّبِيانُ يَرِغَبُونَ في العفوِ عنهم، فجردَّهم الموحِّدون من أثوابِهِم وقتلَ يَصِلَاتِنَ جماعةً منهم يومئذٍ والأَمِيرُ عبدُ المؤمن واقفٌ ومعه أبو إبراهيم من أصحابِ مَهْدِيَّهم، ودخلَ عبدُ المؤمن تِلْمَسَانَ

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٣٠٩/٦، والاستقصا ١٠٦/٢.

(٢) سقطت من م.

(٣) في تاريخ ابن خلدون ٣٠٩/٦، والاستقصا ١٠٦/٢: تكرر.

وَقَتْلَ فِيهَا خَلْقًا فِي فَنْدَقِ كَلِيلَا، وَأَقَامَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ وَلَّى عَلَيْهَا سُلَيْمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ بَنَ وَانُودِينَ الْهَنْتَاتِيَّ، وَرَحَلَ إِلَى مُنَازِلَةِ فَاسَ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ^(١) مِنْ عَامِ أَرْبَعِينَ.

وَقَالَ ابْنُ صَاحِبِ الصَّلَاةِ: لَمَّا اسْتَقَرَّ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتِلْمَسَانَ بَعْدَ اسْتِشْهَادِهِ مِنْ اسْتِشْهَادِ امْتَنَعَتْ قَصَبَتُهَا عَنْهُ^(٢) بَمَنْ فِيهَا مِمَّنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَقَامَ مَدَّةً عَلَيْهَا ثُمَّ رَحَلَ إِلَى فَاسَ وَتَرَكَ عَسْكَرًا مُحَاصِرُهَا.

ذَكَرُ فَتْحَ مَدِينَةِ فَاسَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى^(٣)

وَلَمَّا رَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَالْمُوحِّدُونَ مِنْ تِلْمَسَانَ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْوُفُودُ وَالْحَشُودُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَمَكَانٍ، فَتَوَجَّهَ إِلَى مَدِينَةِ فَاسَ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ^(٤) مِنْ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، فَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَيْهَا^(٥) جَمْعًا مِنَ الرِّجَالِ لِلْحَرْبِ وَالنِّزَالِ لِيَعْلَمَ مَا عِنْدَ الصَّحْرَاوِيِّ صَاحِبِهَا مِنْ خَيْلٍ وَرِجَالٍ، فَصَعِدُوا لَيْلًا فِي الْجَبَلِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْهَا نَحْوُ أَلْفٍ وَخَمْسِ مِائَةِ فَارِسٍ فَرَجَعُوا إِلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَقَدْ نَزَلَ بِمَحَلَّتِهِ عَقِبَةَ الْبَقَرِ وَعَسَاكِرُهُ قَدْ مَلَأَتْ السَّهْلَ وَالْوَعْرَ، فَمَيَّزَهُمْ هُنَالِكَ، وَكَانُوا فِي ثَمَانِينَ سَاقَةً عَلَى عِدَدِ الْقَبَائِلِ وَالْوُفُودِ، فَنَشَرُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْبُنُودِ وَجَازُوا الْوَادِيَّ سَاقَةً بَعْدَ سَاقَةٍ، وَالصَّحْرَاوِيُّ بِجَبَلِ الْعَرَضِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ رَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ وَنَزَلَ بِالْجَبَلِ الْمَذْكُورِ، فَنَشَرَ عَلَيْهِ عِلْمَهُ الْمَنْصُورَ، وَقَطَعَ بَعْضَ الْأَشْجَارِ وَعَمَلَ بِهَا الزُّرُوبَ عَلَى الدُّوَابِّ احْتِيَاظًا عَلَى أَهْلِ مَحَلَّتِهِ وَاتِّقَاءً مِنَ الْحَرْبِ وَخُدْعَتِهِ، ثُمَّ بَعَثَ عَسْكَرًا مِنْهَا لِحَصَارِ مَكْنَسَةِ، فَخَرَجَ لَهُمْ مِنْهَا ابْنُ وَجُوطِ اللَّمْتُونِيُّ فَهَزَمَهُمْ، وَكَانَ بِمَكْنَسَةِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ الْحَشَمِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ، وَانْصَافَ لَهُمْ خَلْقٌ مِنَ الْقَبَائِلِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا، فَتَوَجَّهَ الْأَمِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ لَهَا بِرَسْمِ إِغَاثَةِ عَسْكَرِهِ، وَتَرَكَ عَلَى حَصَارِ مَدِينَةِ فَاسَ أَبَا بَكْرَ بْنَ الْخَيْرِ مَعَ جُمْلَةٍ^(٦) مِنَ الْمُوحِّدِينَ،

(١) فِي م: «الْآخِرِ»، خَطَأً.

(٢) فِي م: «مِنْهُ».

(٣) يَنْظُرُ تَارِيخُ ابْنِ خُلْدُونِ ٣٠٩/٦، وَالِاسْتِقْصَا ١٠٧/٢.

(٤) فِي م: «الْآخِرِ»، خَطَأً.

(٥) سَقَطَتْ مِنْ م.

(٦) فِي ر ٣، م: «جَمَاعَةٌ».

فيهم أبو إبراهيم وغيره، ولما وصل إلى مكناسة برزَ عليها وجدَّ في حصارها، ثم وجهَ منها أبا حفص عمر بن يحيى الهتتائي ليكونَ مع أبي إبراهيم على حصار فاس ومحاولتها، إلى أن جرى ما جرى بين الصَّحراويِّ صاحبها وبين الجيَّانيِّ مُشرِفها، وذلك أنه طلبه بهال وضيق عليه، فلم يكنْ في وسعه إعطاؤه إليه، فكتبَ إلى أحد قواد الموحِّدين ووَعده أن يُمكنه من البلد، فإنْ مَفَاتَحَها كانت تَبَيَّتْ عنده، ودبَّرَ^(١) وجهَ الحيلة في ذلك فلم يشعر الصَّحراويُّ حتى عاينَ رجالَ الموحِّدين على السُّور فكسَّرَ قُفْلَ باب الفتح وخرَجَ منه، واستولى الموحِّدون على مدينة فاس بعدَ حصارها سبعةَ أشهر، وذلك في شهر ذي القعدة من عام أربعين، فأقام بها عبدُ المؤمن أربعةَ أيام ثم رحل عنها وتركَ واليَّ عليها أبو^(٢) إسحاق بن جامع ومُشرِفُها أبو^(٣) محمد عبد الله بن خِيار الجيَّانيِّ المذكور، وتركَ على حصار مكناسةَ أبو زكريا بن يومور وتوجَّه إلى سلا.

وذكر ابنُ صاحب الصَّلاة أنَّ الصَّحراويَّ كان تعرَّس بامرأة من قبيلة في ليلة الثاني عشرَ لذي قعدة، فتمكَّن الجيَّانيُّ من ماله وبعثَ إليه بطعام وشراب ليشغله به تلك الليلة، فلما كان صبيحةَ اليوم المذكور أدخل الموحِّدين المدينة، وفرَّ الصَّحراويُّ إلى طنجة، ثم جاز إلى الأندلس، واتصل فتحُ فاس بالأمير عبد المؤمن وهو بمكناسة، فوصل إليها، وأقرَّ أهلها إبقاء الجيَّاني على إشرافها، وذلك في^(٤) سنة أربعين.

وفي هذه السنة: وصلت كتبُ أهل سبَّته بالسمع والطاعة والدُّخول في حزب الجماعة، ووصل لعبد المؤمن يحيى بن أنجمار في جُمْلَةٍ من إخوانه مَسُوفَةٍ، وكلَّهم مُلثَّمون، ثم أزالوه بظاهر فاس وصاروا في زِيِّ الموحِّدين، ثم وصله عمرُ بن يتان فارًّا من أمير لَمْتُونَة إسحاق^(٥) بن علي بن يوسف من مَرَاكش، فلقي من الكرامة ما لا مزيدَ عليه، ثم ارتدَّ ودخل فاس، فلما يسَّرَ الله فتحها حصل في يد الموحِّدين مع جُمْلَةٍ من الناس، فأمرَ بقتلهم وبقي هو مَغْفُوءًا عنه لما تقدَّم من وصية المَهْدِيِّ على ذُرِّيَّة يتان.

(١) في ك: «ودبَّرَوا».

(٢) هكذا في الأصول، وفي م: «أبا» على المفعولية.

(٣) هكذا في الأصول، وفي م: «أبا» على المفعولية.

(٤) سقط من م.

(٥) الوافي بالوفيات ٤١٨/٨.

ذكرُ مُنازلة الأمير أبي محمد عبد المؤمن من مدينة مراكش

وفتح مدينة سلا في طريقه^(١)

ولما فرغ أبو محمد عبد المؤمن من أشغال فاس وترتيبها ورثب على حصار مكناسة عسكرياً يقيم عليها، أخذ في الحركة على تؤدة^(٢) واستعداد وعدة إلى مُنازلة مراكش، فلما وصل مدينة سلا امتنع أهلها منه، وحين وقف على مجاز هذا^(٣) الوادي ألفاه بسعده في آخر مدّه، فأمر عسكريه أن يعبروه بأجمعهم، وتغلب على سلا من ساعته وفتحها قبل إراحته، وأمن أهلها ورثب أحوالها وانضافت قصبتها التي كان تاشفين بناها في الرباط، وكان دخوله لها في السابع من ذي الحجة من سنة أربعين، ونزل بها بدار ابن عسرة وأقام بها أربعة أيام، وتوجّه في الحادي عشر من الشهر المذكور إلى مُنازلة مراكش حرسها الله تعالى.

وقال ابن بُجَيْر: كان فتحها على يد رجل يسمّى ييورك وابنيه: محمد وعليّ، وذلك أنهم أرسلوا إلى الموحدّين فوصلوهم ليلاً وصنعوا السلا ليم فصعدوا بها على السور وقتلوا كلّ من وجدوه على السور، ودخلوا سلا ووجدوا فيها أناساً وهرّب آخرون في حلق الوادي فرجع عليهم البحر فغرقوا، فعيّد فيها عبد المؤمن عيد الأضحى، وولّى عليها عبد الواحد الشرقيّ، وأقامت سلا على طاعة الموحدّين إلى أن ظهر الماسي المعروف بابن هود ببلاد السوس فقتل أهل سلا عاملهم وقدموا ولده هوداً، فبقي بها إلى أن قتل أبوه^(٤)، ودخلت البلد وعادت إلى طاعة الموحدّين إلى انقضاء دولتهم^(٥).

(١) نهاية الأرب ٢٤/٢٩٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣١٠، والاستقصا ٢/١٠٨.

(٢) في م: «تودة».

(٣) ليس في ك.

(٤) غير ناشرو (م) العبارة إلى: «وقدموا والده هوداً فبقي بها إلى أن قتل ابنه...»، وهو غلط محض سببه أنهم ظنوا أن ابن هود هو اسمه في حين أن المقصود اسم القبيل بني هود، وما أثبتناه في النسخ كافة وهو الصواب الذي ليس فيه ارتياب.

(٥) في م: «دولهم»، وهو تحريف.

وكان الصَّحراويُّ لَمَّا فَرَ من فاسَ توجَّهَ إلى طَنْجَةَ معَ مَنْ كان معه من^(١) لَمْتُونَةَ وغيرهم، قيل: إنهم كانوا في ثلاث مئة رجل فأقاموا بها خمسة أشهر في أسوأ حال من شدة الضيق وغلاء السَّعَر، ثم إنَّ قَائِدَ الأُسْطُولِ عليَّ^(٢) بن عيسى وصل إلى طَنْجَةَ بالقطائع من باديس^(٣) فاجتمع مع الصَّحراويِّ وأظهر له النُّصْحَ ولأَصْحَابِهِ وأن يُجَوِّزَهُم إلى الأندلس برسم يحيى^(٤) بن غانية، فتعاقدوا معه على ذلك، فَقَذَفَ بهم إلى مَرَسَى شريش وغدرهم، فكان من أمر الصَّحراويِّ ما يُذكر إن شاء الله تعالى.

قال: وكان ولي سَبْتَةَ حَيْثَنُذِ يوسُفُ^(٥) بن مخلوف التينمليُّ من قِبَلِ عبد المؤمن؛ لأنَّ أهلها بايعوا عبد المؤمن من قِبَلِ فَتْحِ سَلا، ثم إنَّ الجنود الذين تَرَكَ الصَّحراويُّ بطَنْجَةَ بادروا إلى ابن الجُبْرِ بمصمودة^(٦)، فزحف بهم إلى طَنْجَةَ فدخلها وقتل قاضيها في جُمْلَةٍ مَنْ قَتَلَ فيها، ولَمَّا وصل الخبرُ إلى سَبْتَةَ صَرَخَ صَارِخٌ أنَّ واليهم عَزَمَ على قَتْلِ قاضيهم، وكان قاضيهم الإمامُ العالمُ أبا^(٧) الفضل عِيَاضًا^(٨) رحمه الله، فقتلوا واليهم وَمَنْ كان معه.

قال: وكان الأميرُ أبو محمد عبد المؤمن قد بعث أبا حفص عمر بن يحيى الهَنْتَاتِيَّ بعسكرٍ إلى بَرِغَوَاطَةَ، فغزاهم ثم غَنِمَهُمْ ثم عاد إلى عبد المؤمن، فتلاقى^(٩) معه^(١٠) على إيجليز^(١١)، فَقَسَمَ الغنائمَ على الموحِّدين ورحل بعساكره حتَّى وصل قريبًا من مَرَّاكُش، فخرج إليه جَمْعٌ كبيرٌ من لَمْتُونَةَ، لكنْ قَذَفَ اللهُ الرُّعْبَ في قلوبهم ومروا

(١) في م: «في»، وهو تحريف.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/٣١٢.

(٣) في م: «بادس».

(٤) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/٢١٠، ٥/٣٣٦، ٦/٢٩، ٣٢، ٣٧، ٤٥، ٢٢٤.

(٥) له ذكر في المغرب لابن سعيد ٢/١٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣٠٩، ٣١١، ٣١٢.

(٦) في م: «بقصر مصمودة»، وليست في الأصول.

(٧) في م: «أبو... عياض».

(٨) في ر٣، م: «عياض».

(٩) في م: «فتلاقيا».

(١٠) سقط من م.

(١١) جبل له ذكر في الروض المعطار ٥٤٠، وتحرفت العبارة في م إلى: «فتلاقيا على الخيل»!

وهي قراءة عجيبة.

لائذين بسورهم بعدما قُتل منهم خلقٌ كثير. واتّصلت بعبد المؤمن الأخبارُ أن لَمَطَةً في فُحوص مَرَاكُش بحشودهم قد أَمَرَهُم أميرُهُم إِسْحَاقُ أن يَقرُّبوا إلى المدينة، فتَبِعَهُم الموحِّدون فأدركوهم وقَتَلوهم قَتْلًا ذريعًا وغَنِموا لهم من الجِمال عددًا كثيرًا قيل: ثمانين ألفًا، ذَكَرَهُ الأَشِيرِي، ووصل إثر هذا الفتح كتابٌ من أبي عبد الله الجَيَّانِي وأدرَج فيه شعرًا أوله [من الطويل]:

أضاءت لنا الأيامُ واتّصل النُجُحُ وكانت وجوهُ الدَّهرِ مُسَوَّدَةً كُلُّحُ
فأجابه عبدُ المؤمنِ بنُ عليٍّ رحمه الله:

هُوَ الفَتْحُ لَا يَجْلُو غَرَابَةُ الشَّرْحِ أَصَابَ بَنِي التَّجْسِيمِ مِنْ يَأْسِهِ تَرْحُ
أَتَنَابَهُ البُشْرَى عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ بِمَهْلِكِ قَوْمِ كَانَ وَعْدُهُمُ الصُّبْحُ

وفي سنة إحدى وأربعين وخمس مئة: كان نزولُ عبد المؤمن ببجل إيجليز، ولازَمَ حصارَ مَرَاكُش في أوَّل يومِ المحَرَّم من سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، فأقام عليها تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا، وكثرتِ العساكرُ لديه، ووَفَدَ كبارُ الرجال من البلاد عليه مثل: أبي الغَمَر^(١) ابن غَرْوَن الثائر بشَرِيش وابن حَمْدِين^(٢) وغيرهما، وكان اللَّمْتُونِيُّونَ بداخل مَرَاكُش في عِدَّة من كبارهم وبقية من أحشادهم وأميرهم إِسْحَاقُ بن عليٍّ بن يوسف، وكان صَبِيًّا صغيرًا، فأَمَرَهُم بالخروج إلى حرب النازِلين عليهم، فعزَموا على قتالِهِم وخرجوا إليهم بخيلهم ورجلهم في نحو خمسة آلاف وخمس مئة من الفرسان ومن الرجال ما لا يُحصى عددهم كثرةً، ووصلوا بِجَمْعِهِم إلى محَلَّة الموحِّدين، وكان عبدُ المؤمن أَمَرَ أصحابه أن يَكْمُنوا لهم ولا يظهروا أحدٌ منهم، فلَمَّا استَحَرَّ النهار وعَمَّ عسكرُ اللَّمْتُونِيِّينَ الاغترار، خَرَجَت عليهم الكمانُ فانهَزَموا في الحين وولَّوْا أدبارَهُم والسَّيْفُ يصفحُ رقابَهُم ويمحو آثارَهُم، وأتبعَهُم عسكرُ الموحِّدين إلى باب دكالة، وأخذوا من خيلِهِم نحو ثلاثة آلاف، وقَتَلوا من فُرسَانِهِم ورجالِهِم ما لا يُحصى كثرةً، هكذا ذَكَرَ ابنُ صاحبِ الصلاة.

(١) له ذكر في ابن خلدون ٦/٣١٧.

(٢) بغية الملتبس (٦٨٥)، وتاريخ الإسلام ١١/٩٢٦، والوافي ١٣/١٦٧، المرقبة العليا ١٠٣.

قال: فلما طال عليهم الحصارُ تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا هلكوا جوعًا طولَ هذه المدة وضاقوا حتى أكلوا الجيفَ وأكل أهل السَّجن بعضهم بعضًا وعُدِمَت الحيواناتُ كُلُّها وعُدِمَت الحِنطة بأسرها، وطلبَ إسحاقُ مخازنَ أبيه فلم يجدَ فيها شيئًا، قال أبو عبد الله بنُ عبَّدة كاتبُ إسحاقَ المذكور: فعجزت عساكرُ اللَّمْتُونِيِّينَ عن الدِّفاع والامتناع بضَعْفِ العَدَدِ والعُدَّةِ وكثرة الضَّيقِ والشَّدةِ، وفُتحت مَرَّاكُشُ حينئذٍ.

ذَكَرُ فَتَحَ مَرَّاكُشَ حَرَسَهَا اللَّهُ وَدَخَلَ الْمُوحِدِينَ إِلَيْهَا

وَاسْتَيْلَاهُمْ عَلَيْهَا وَقَتَلَ إِسْحَاقَ أَمِيرَ لَمْتُونَةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ ^(١)

وفي يوم السبت الثامن عشر لشوال من عام أحدٍ وأربعين وخمس مئة أمرَ عبدُ المؤمن بالدَّخُولِ مِنَ الْمَدِينَةِ فَأَحْدَقُوا حَوَالِيَهَا وَرَفَعُوا سُلَالِيْمَهُمْ إِلَى السُّورِ وَطَلَعُوا عَلَيْهَا فَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ عَنُودًا مِنْ بَابِ إِيْلَانَ، وَقَتَلُوا جَمِيعَ مَنْ أَدْرَكُوا مِنَ اللَّمْتُونِيِّينَ، وَانْحَصَرَ إِسْحَاقُ أَمِيرُهُمْ مَعَ أَشْيَاحِهِمْ، مِنْهُمْ: سَيْرُ ^(٢) بَنُ الْحَاجِّ وَسَيْرُ بْنُ يَتَّانَ وَجُمْلَةُ مَنْ أَعْيَانِهِمْ بِدَاخِلِ قَصَبَتِهِمُ الْمَعْرُوفَةِ بِقَصْرِ الْحَجَرِ، وَمَلَكَهَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ثُمَّ اسْتَوْلَى بِالْعَلْبَةِ عَلَى قَصَبَتِهَا وَعَلَى مَنْ تَحَصَّنَ بِهَا، فَامْتَنَعَ الْبَاقِي مِنْهُمْ فِي غُرْفَةٍ كَانَتْ عَلَى بَابِ دَارِ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ وَطَلَبُوا الْعَفْوَ وَالْأَمَانَ فَلَمْ يُسْعَفُوا، وَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ الْأَمِيرِ وَالْمُوحِدِينَ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَنْ حَضَرَ أَجْلُهُ وَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِحَيَاتِهِ، وَسَلِمَ مِنَ الْقَتْلِ أَوْلَادُ يَتَّانَ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ قَالَ خَيْرًا فِي الْمَهْدِيِّ فَأَوْصَى عَلَيْهِ وَعَلَى بَنِيهِ خَيْرًا، وَأَمَّا أَمِيرُهُمْ إِسْحَاقُ الْبَائِسُ فَوُجِدَ مُسْتَخْفِيًا فِي كَدَسٍ فَحُمَ فِي إِحْدَى غُرَفِ الدَّارِ الْمَذْكُورَةِ، فَسِيقَ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ فَأَشْفَقَ عَلَيْهِ وَحَنَّ لِصِغَرِ سَنَةِ وَهُوَ ابْنُ سِتَّةَ عَشَرَ عَامًا وَهُمْ أَنْ يَعْفَوْا عَنْهُ وَيَسْجَنَهُ، لَكِنْ بَعْضُ أَشْيَاحِ الْمُوحِدِينَ عَزَمُوا عَلَيْهِ فِي قَتْلِهِ فَضَرَبُوا رِقَبَتَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَبَادَ أَمْرُ أُمَرَاءِ اللَّثَامِ، وَأُبْيَحَتْ مَرَّاكُشُ لِقَتْلِ مَنْ وَجِدَ فِيهَا مِنَ اللَّمْتُونِيِّينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ عَفَا عَنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَاشْتَرَاهُمْ مِنَ الْمُوحِدِينَ وَأَعْتَقَهُمْ وَمَنْ عَلَيْهِمْ وَأَطْلَقَهُمْ، وَاسْتَوْلَى عَبْدُ الْمُؤْمِنِ عَلَى

(١) ينظر نهاية الأرب ٢٤/٢٩٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣١٠، والاستقصا ٢/١٠٨.

(٢) له ذكر في نهاية الأرب ٤/٢٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣٠٩.

ذخائر علي بن يوسف وعلى ذخائر^(١) تاشفين وجميع أمراء لمتونة مما يقصر عن شرحه اللسان، ولا يأتي على وصفه ميبين البيان.

وذكر ابن الأثيري هذا الفتح المذكور مختصراً عنه، قال: وكان في صدر محاصرة مراكش فتح أعماق، وإن الحثالة الباقية بعد^(٢) إسحاق بمراكش بعد أيام من النزول عليهم اغتروا وخرجوا مع أهل مراكش، ورتبوا ساقتهم بفحص باب دكالة، فدفع عليهم الموحدون من كل جهة فقتلوهم وهزموهم، وأمر الأمير عبد المؤمن بقطع رؤوس القتلى منهم، وبعد الحيل التي غنمت لهم، فكانت ثمان مئة فرس، ومن الدروع والسلاح ما لا يحصيه أحد، فذل لذلك أهل مراكش وأيقنوا بالهلاك، وانتقلت المحلة الموحدية إلى دار الفتح وسط البحيرة في صدر شوال من سنة إحدى وأربعين، فلم تزل هنالك، وأمر المدينة في كل يوم يزيد ضعفاً وأحوالها ترق، إلى أن كان يوم السبت السابع عشر من شوال ففتحت مراكش ودخلها الموحدون.

وقال البيهقي: وأمر أبو محمد عبد المؤمن بعمل السلام للشور وقسمها على القبائل فدخلت هنتاتة وتينمل من جهة باب دكالة ودخلت صنهاجة وعبد المخزن من باب الدباغين، ودخلت هسكورة مع القبائل من جهة باب يتان، فدخلوا البلد بالسيف، وبقي القتال على قصر الحجر من بكرة إلى وقت الزوال. ولم يدخل القصر حتى ماتت فانو بنت عمر بن يتان؛ لأنها كانت تخرج للقتال في هيئة رجل، وكان الموحدون يتعجبون من قتالها، وكانت بكرًا عذراء، فلما دخل القصر أخرج أولاد السلاطين الذين كانوا به من ذرية علي بن يوسف إلى موضع المحلة بجبل إيجليز وهم مع جملة من قراباتهم وخدمتهم وأهل دخلتهم، فقتلهم ابن واجاج^(٣) عن آخرهم ولم يبق منهم إلا إسحاق بن علي بن يوسف السلطان... وبعض الأصاغر، فكان إسحاق يتضرع لأبي محمد عبد المؤمن فيقول له: مالي في الرأي شيء، فيقول له غلامه: اصمت، رأيت ملكًا يتضرع لملك غيره؟ فأراد عبد المؤمن تركه وترك الأصاغر منهم فاغتاظ

(١) «علي بن يوسف وعلى ذخائر» سقطت من م.

(٢) في م: «مع».

(٣) له ذكر في الاستقصا ١٠٩/٢.

ابنُ واجاج وصاح بالموحدين وقال لهم: ارتدَّ عبدُ المؤمن علينا؛ لأنه يريدُ أن يريَّ أفراخَ السَّبُعِ^(١) إلينا، فغضب عبدُ المؤمن لقوله وقام من مجلسه فتبعه الموحدون إلا أبا الحسن بن واجاج وأبا حفص، فأخذ ابنُ واجاج إسحاقَ وصَرَبَ عنقه، ثم جَبَذَ طلحةَ ليقْتله، فكانت يده سكين، فضرب بها ابنُ واجاج ضربةً قَتَله بها، ثم قُتِلَ طلحةُ من بعده في الحين، فأخذ أبو بكر ابن تيزمت وُحِلَ إلى عبد المؤمن فقال له: ألم تعلمَ أنَّي خصمٌ لعلِّي بن يوسف؟ فقال له: أعلمُ ذلك، فقال له: فلأني شيءٌ تقتلني؟ فقال له: لأنك رَمَيْتَ يدَكَ في الإمام المهديِّ وحملته إلى السَّجَن فقتلتكَ السُّنَّةُ لأجل ذلك، فقال لهم: إذا^(٢) عَزَمْتُمْ على قتلي فأخبركم أنَّ عندي بَرَمَتَيْنِ ثِنْتَيْنِ^(٣) مملوَّتَيْنِ ذهبًا أخافُ أن أحاسِبَ عليها إن تركتها، فاخترار له عبدُ المؤمن أُمْناءَ يمشون معه، وذلك اثنان من كلِّ قبيل الموحدين، فسار معهم إلى داره فأدخلهم إليها وأغلقها على نفسه وعليهم، وكان بيده عِكَازٌ فيه سكينٌ عَدْر، فلما استأمنوا له وظنوا أنه يُخرجُ لهم ما ارتهن فيه أخرج سكينَ العَدْرِ من عِكَازِهِ فغَدَرهم به وقتلهم فلم يخرج منهم إلا رجلٌ واحد، وقتل أحدَ عشرَ رجلاً، فدخلت عليه الدارُ وهو قد تحصَّن في غرفة فحاربهم حتى هَدَمُوا عليه وقتلوه وجَرُّوه إلى جبلٍ إيجليز، وبقيت مَرَاكِشُ ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج، وتابى الموحدون دخولها؛ لأنَّ المهديَّ كان يقول: حتى تُطهَّروها، فسئل الفقهاء عن ذلك فقالوا لهم: تَبْنُونَ مساجدَ أنتم وتجددونَ أحرَّ، ففعلوا ذلك.

وكان لعلِّي بن يوسف جماعةٌ من الولد، منهم أبو بكر، وهو أولُ وَلَدٍ وَلَدَ^(٤) له وهو ابنُ ستِّ عشرة سنة، وأبو بكر هذا يُعرفُ ببكور، وكان ذا مِرَّةٍ وَنَجْدَةٍ، وهو الذي أَكْبَلَهُ أبوه وسَجَنَهُ بالجزيرة إلى أن مات، وعمرُ الكبير، وسير، كان وليَّ عَهْدِهِ، مات في حياته، وتأسفين، وتيمم، وإبراهيمُ الذي حجَّ، وإسحاقُ الذي قُتِلَ حين دخول عبد المؤمن مَرَاكِش، ومحمد، وباران، وداود، وعمرُ الصغير، ومزدلي، وبيتان، وهو أصغرهم.

(١) في م: «فراخ السُّبُوعَة».

(٢) في م: «وإذا».

(٣) سقطت من م.

(٤) في م: «خلق».

رَجَعَ الخبر؛ قال ابنُ صاحب الصَّلَاة: لَمَّا كَانَ فَتْحُ مَرَّاكُشَ وَدَخَلَهَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ رَجَعَ مِنْهَا إِلَى مَحَلَّتِهِ وَجَعَلَ الْأَمْنَاءَ عَلَى أَبْوَابِهَا مَدَّةَ شَهْرَيْنِ اثْنَيْنِ، فَاجْتَمَعَ فَيْؤُهَا وَمَالُهَا، ثُمَّ قَسَمَ دِيَارَهَا عَلَى الْمُوَحِّدِينَ، وَتَوَالَتِ الْفَتْوحُ إِثْرَ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، مِنْهَا: دُخُولُ قَصَبَةِ تِلْمَسَانَ، وَذَلِكَ فِي الْخَامِسَ عَشَرَ لِسَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ فِي الشَّهْرِ الَّذِي دُخِلَتْ فِيهِ مَرَّاكُشُ، كَانَ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَحَضَرَ فِي الْمَحَلَّةِ مَعَ جَمَاعَةِ الْمُوَحِّدِينَ يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقِ الْمَسُوفِيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَنْجَمَارٍ، وَكَانَ قَدْ وَحَّدَ وَهَاجَرَ مَعَ إِخْوَانِهِ مِنَ تِلْمَسَانَ أَيَّامَ كَوْنِهِ أَمِيرَهَا، فَاحْتَرَمَتْ زَوْجُهُ زَيْنَبُ بِنْتُ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ عَنِ الْبَيْعِ وَجَمِيعِ عِيَالِ أَصْحَابِهِ وَأَخَوَاتِهِ، وَاحْتَرَمَتْ دَارَهُ عَنِ الْفَيْءِ، فَلَمَّا اسْتَوَظَنَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِمَرَّاكُشَ جَمَعَتْ زَيْنَبُ الْمَذْكُورَةُ جَمِيعَ مَالِهَا وَذَخَائِرِهَا وَرَفَعَتْ ذَلِكَ إِلَى (١) الْخَلِيفَةِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، فَشَكَرَ الْخَلِيفَةُ (٢) فَعَلَهَا وَنَفَذُوا (٣) أَمْرَهُ أَلَا يُبَاعَ مِنْ بَنَاتِ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ وَاحِدَةً (٤)، لَكِنْ أَخَوِي الْمَهْدِيُّ: عَيْسَى وَعَبْدُ الْعَزِيزِ أَخَذَا مِنْهُنَّ ابْنَتَيْنِ كُرَّهًا عَلَى الْخَلِيفَةِ. وَلَمَّا تَوَالَى هَذَا الْفَتْحُ الْعَظِيمُ وَاسْتَوْسَقَ الْأَمْرُ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، قَامَ نَائِرُ بِلَادِ السُّوسِ اخْتَصَرْنَا خَبْرَهُ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: ثَارَ الدَّعْيُ الْمَاسِيُّ بِبِلَادِ السُّوسِ وَتَسَمَّى بِالْهَادِي (٥) وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُودٍ، قَامَ فِي الشَّهْرِ الَّذِي دُخِلَتْ فِيهِ مَرَّاكُشُ. وَكَانَ هَذَا الدَّعْيُ الشَّقِيُّ قَصَارًا عَلَى ضِفَّةِ بَحْرِ سَلَا، وَكَانَ أَبُوهُ دَلَالًا بِالسُّوقِ فَادَّعَى الْهَدَايَةَ وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْهَادِي، وَاسْتَقَرَّ بِرِبَاطِ مَاسَةٍ فِي غُرَّةِ سَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ الْمُغْتَرُّونَ بِهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَقَبِيلٍ إِلَيْهِ، فَاجْتَمَعُوا بِشَقَاوَتِهِمْ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا طَارَ لَهُ الذِّكْرُ فِي الْآفَاقِ وَتَحَدَّثَتْ بِهِ الرِّفَاقُ، وَكَثُرُوا عِنْدَهُ وَاسْتَدَّوْا (٦) لَهُ، فَقَامَتْ بِدَعْوَتِهِ جُمُوعٌ لَا تُحْصَى أَبَادَهُمْ

(١) سَقَطَ مِنْ م.

(٢) قَوْلُهُ: «أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ فَشَكَرَ الْخَلِيفَةُ» سَقَطَ مِنْ م، وَالسَّقَطُ فِي هَذِهِ الْمَطْبُوعَةِ وَالتَّحْرِيفُ كَثِيرٌ.

(٣) فِي م: «وَنَفَذَ».

(٤) قَوْلُهُ: «عَلِيٌّ بْنُ يَوْسُفَ وَاحِدَةً» سَقَطَ مِنْ م.

(٥) يَنْظُرُ تَارِيخُ ابْنِ خُلْدُونِ ٦/ ٣١٠، وَالْإِسْتِقْصَا ٢/ ٣١٠.

(٦) فِي م: «وَاسْتَدَّوْا».

سيفُ الحقِّ وسبقَ لهم الحُتْفُ بغاية السَّبْق، وأتته دعوته الكاذبة الغارّة في جميع العُدوة، حتّى لم يبقَ منها إلا مَرَاكُشُ وفاس، وارتدّت سائرُ البلاد كلّها، فوجّه الأميرُ أبو محمد عبد المؤمن إليه عسكرياً قوّد عليهم أبا زكريا المعروف بأنجبار، فهزّمه الشَّقِيُّ الدَّعِيُّ الماسِيُّ المذكور، و^(١) رَجَعَ إلى الخليفة خاسراً، ثم خرج إليه ^(٢) الشيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى وأشياخُ الموحّدين مع طائفة من الروم والرُّماة وغيرهم من الأجناد واستعدّوا غاية الاستعداد، وخرج في هذا العسكر المذكور مُستخفياً في جُملة الرُّماة الكاتبُ الجليلُ أبو جعفر بن عطية، وقد كان كاتباً لإسحاق بن عليّ بن يوسف، فالتفّ في جُملة الناس لا يعلمه أحدٌ منهم، واتّصل سيّرُ الموحّدين حتّى وصلوا رِباطَ ماسّة حيث القائمُ الدَّعي، وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة، وكان جُملةُ عسكر الموحّدين نحو ستة آلاف فارس ومن الرّجالة مثل ذلك، وكان جمعُ الدَّعِيِّ الشَّقِيِّ سبع مئة فارس ومن الرّجالة نحو الستين ألفاً، فالتقيا يومَ الخميس السادس عشر من الشهر المذكور، فهزّم الدَّعِيُّ المذكورُ وعسكره المغرور وقُتل في المعركة هو وأكثرُ عسكره.

ذكرُ السبب في تقريبِ ابنِ عطية^(٣)

وطلب الشيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى كاتباً يكتب عنه بهذا الفتح إلى عبد المؤمن، إذ لم يكن عنده كاتب، فعرف بابن عطية فأمرَ بحضوره فحضر وكتبَ عنه فأجاد، وأتقنَ ما أراد، فقرّبه أبو حفص وأحسن إليه وحصلَ في جُمَلته. وبعثَ الرسالة بالفتح إلى الخليفة عبد المؤمن، فلمّا وصلت هذه الرسالة وقُرئت في مجلس الخليفة استغربها الحاضرون من الطلّبة والفقهاء والكتّاب والنُّبهاء والشّعراء، واستحسنها الخليفة لِمَا فيها من وَصفِ الحال بغاية الإبداع وأنها أخذت من الفصاحة والبلاغة والتشبيه الغريب بالقلوب والأسماع، وأجمع البُلغاء على إبداعها غاية الإبداع، فكانت سبباً

(١) سقطت الواو من م.

(٢) سقط من م.

(٣) تنظر الإحاطة ١/ ٢٦٣.

لِسَعْدِهِ وَرِفْعَةِ قَدْرِهِ وَجَدَّهِ، فَاسْتَكْتَبَهُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ إِثْرَ ذَلِكَ. ثُمَّ عَلَا قَدْرُهُ وَذَكَرُهُ... وَحَسَنَ التَّوَسُّطَ لِلْمُوحِّدِينَ وَبِالرَّعَايَا وَالْجُنُودِ عَلَى مَا لَمْ يَسْبِقْهُ فِيهِ... وَلَا أَدْرِكُ خَالِدًا وَلَا جَعْفَرًا مِنَ الْفَضَائِلِ^(١) مَا أَدْرِكُ. ثُمَّ إِنَّ الدَّهْرَ عَدَا عَلَيْهِ بَعْدَ وَانِهِ، وَطَوَّلَبَ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ فَأَمْضَى عَلَيْهِ حُكْمَ مَا رَأَى مِنَ الرَّأْيِ فِي سُلْطَانِهِ، بِحَيْثُ لَمْ يُجِبْ اسْتِغَاثَتَهُ إِلَّا عَوَاءَ الذَّنَابِ أَوْ صَدَى تَسَعَّرَ عَلَيْهِ نَارُ الْاِكْتِتَابِ، فَرَوَيْتِ الْأَرْضُ مِنْ دِمِهِ، وَبَعْدَهُ لَمْ يُرْتَسَمَ بِرَسْمِهِ بَلْ وَجِدَ فَقَدْ قَدِمَهُ وَفَقَدُ النَّاسِ حُسْنَ وَسَاطَتِهِ، وَيُثْمَنَ مُلَاطَفَتِهِ. وَسَأَذْكُرُ سَبَبَ مَوْتِهِ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذِكْرُ حَرَكَةِ الشَّيْخِ أَبِي حَفْصِ الْهَنْتَاتِيِّ مِنْ حَضْرَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ

لِمُحَارَبَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْقَبَائِلِ الَّذِينَ قَامُوا بِدَعْوَةِ الْمَاسِيِّ

الْمَعْرُوفِ بِابْنِ هُودٍ بَعْدَ ظَفَرِهِ بِهِ وَقَتْلِهِ^(٢)

لَمَّا انْصَرَفَ الشَّيْخُ أَبُو حَفْصٍ مِنْ غَزْوَةِ الْمَاسِيِّ وَأَرَاهُ بِمَرَاكُشَ أَيَّامًا، خَرَجَ غَازِيًا إِلَى أَهْلِ نَفِيسٍ فَغَلَبَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى هَيْلَانَةٍ وَقَتَلَ كَثِيرًا مِنْهُمْ حَتَّى أَذَعَنُوا بِالطَّاعَةِ، فَانْصَرَفَ إِلَى مَرَاكُشَ فَأَرَاهُ بِهَا، وَخَرَجَ إِلَى هَسْكَورَةَ وَفَتَحَهَا، ثُمَّ نَهَضَ إِلَى سِجْلِمَاسَةَ فَدَخَلَهَا وَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا وَأَمَّنَ أَهْلَهَا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَرَاكُشَ ظَافِرًا غَانِيًا، ثُمَّ أَرَاهُ بِمَرَاكُشَ، وَخَرَجَ غَازِيًا إِلَى بَرْغَوَاطَةٍ فَنَهَضَ إِلَيْهِمْ فَقَاتَلُوهُ مُدَافِعِينَ لِأَهْلِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ مَتَمَسِّكِينَ بِطَاعَةِ الْمَاسِيِّ، فَدَامَ عَلَى قِتَالِهِمْ مَدَّةً، ثُمَّ عَزَمُوا عَلَى مِقَاتِلَتِهِ، فَدَارَتْ بَيْنَهُمْ دِفَاعٌ وَحُرُوبٌ وَمُدَافَعَاتٌ وَحَمَلَاتٌ، فَانْهَزَمَ مَنْ كَانَ مَعَهُ وَانْصَرَفَ خَائِبًا عَنْهُمْ، وَدَامَتِ الْفِتْنَةُ مِنْهُمْ وَمَنْ يُجَاوِرُهُمْ. وَفِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْفِتَنِ قَامَ مِنْ أَهْلِ سَبْتَةِ قَوْمٌ عَلَى مَنْ بِالْقَصْبَةِ حَتَّى غَلَبَوْهُمْ، وَأَوْقَدُوا النَّارَ عَلَيْهِمْ بِالْبُرْجِ الَّذِي احْتَصَنُوا^(٣) فِيهِ حَتَّى قَتَلُوهُمْ وَصَلَبَوْهُمْ، وَجَارَ الْبَحْرَ عِيَاضُ الْقَاضِي إِلَى يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ غَانِيَةٍ وَهُوَ بِالْحَضْرَاءِ، وَطَلَبَ مِنْهُ وَالِيَا، فَأَرْسَلَ مَعَهُ يَحْيَى بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصَّحْرَاوِي، فَأَجَارَهُ الْبَحْرَ

(١) المقصود: خالد البرمكي وابنه جعفر.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/٣١١، والاستقصا ٢/١١٣.

(٣) في م: «تَحَصَّنُوا».

إلى سَبْتَة، فاستَوَلَى عليها وَاخْلَعُوا طَاعَةَ عبد المؤمن. وقام أهل المدينة على الموحّدين فيها وقتلوا الحافظ بها يوسف بن مخلوف، وكان قد غزا مع القاضي عياض الروم في البحر.

ولما فتح الموحّدون مدينة فاس واستقروا بها، فرَّ يحيى الصّحراويُّ صاحبُها واستقرَّ بطَنْجَة، ثم جاز البحر إلى الأندلس برغبته إلى قائد البحر عليّ بن عيسى بجزيرة قادس، فأجازه القائد المذكور وأجاز أصحابه اللَّمْتُونِيَّينَ والروم الذين كانوا معه إلى جزيرة قادس، فاسترط القائد عليّ^(١) على يحيى هذا أنه إذا وصل قرطبة إلى ابن غانية أن يشفع عنده^(٢) في عيسى والدّه ويخرجه من سجنه بقرمونة ويسرّحه إليه، فضمن له ابن الصّحراويّ ذلك. فلما أجازه عليّ عزّم على أن يأخذ خيلهم وما بقي عندهم من مالٍ ورجال، وقد كان أعطاه مالاً كثيراً، ففهم يحيى عنه ذلك، ففرَّ إلى ابن غانية بقرطبة فاستقرَّ عنده، وأطلق والدّ عليّ المذكور، ووفى له. ثم إن ابن الصّحراويّ لما حصل بسبّة تحيّل على القائد عليّ بن عيسى المذكور واستدعاه إليها وخدّعه وقتله، ثم إن ابن الصّحراويّ أيضاً كثرت فتنته، ودام تخليطه، ورام أن يحيي ما مضى من أيام آبائه، فلم تُعنه الأيام... أخذًا في العفو عند بُعد وصوله إلى برغواطَة حسبما أذكره.

ذكر الوفد الناهض من إشبيلية إلى عبد المؤمن وهو أوّل وفد

نهض من الأندلس إليه في أواخر سنة إحدى وأربعين^(٣)

أما فتح إشبيلية وطاعة أهلها فكان ذلك في الثاني عشر من شعبان من هذه السنة. وكان وصول هذا الوفد بالبيعة إلى عبد المؤمن ودخولهم مرّاكش في شهر ذي الحجة من العام المؤرّخ. فأولهم: القاضي أبو بكر^(٤) ابن العربي، والخطيب أبو عمرو بن

(١) سقط من م.

(٢) سقط من م.

(٣) الاستقصا ١١٧/٢.

(٤) المرقبة العليا ١٠٥.

حَجَّاج، وأبو^(١) بكر بن الجَدِّ، وأبو^(٢) الحَسَن الزُّهْرِي، وأبو الحَسَن ابنُ صاحب الصَّلَاة، وأبو بكر بنُ شَجَرَة، ووَلَدُ البَاجِي، والهُوزَنِي، ومُحَمَّدُ ابنُ الزَاهِد، ومُحَمَّدُ^(٣) ابنُ القَاضِي شُرَيْح، وعَبْدُ العَزِيز الصَّدْفِي، وَعَلِيُّ بنُ طَالِب، وَعَلِيُّ بنُ سَيِّد، وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ. فَلَمَّا كَانَ عِيدُ الْأَضْحَى أَذِنَ لَهُمْ فِي السَّلَام، وَجَاوَبَهُم بِالتَّامِينَ وَالتَّسْكِينِ، وَالْوَعْدَ الْجَمِيلَ الْمُؤْذِنَ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَذِنَ لَهُمْ بِالْدُخُولِ عَلَيْهِ فِي مَجْلِسِهِ الْعَالِي^(٤) بِقَصْرِ الْحَجَرِ، فَتَقَدَّمَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ ابْنَ الْعَرَبِيِّ بِالْكَلَامِ، وَخَطَبَ خُطْبَةً بَلِيغَةً اسْتَحْسَنَهَا الْخَلِيفَةُ، ثُمَّ تَلَاهُ أَبُو بَكْرِ ابْنَ الْجَدِّ بِخُطْبَةٍ ثَانِيَةٍ فَأَحْسَنَهَا وَأَجَادَ، وَدَفَعُوا لَهُ بَيْعَةَ أَهْلِ إِشْبِيلِيَّةَ بِخُطُوطِ أَيْدِيهِمْ فِيهَا، فَأَمَرَ بِقَبُولِهَا مِنْهُمْ. ثُمَّ إِنَّ الْخَلِيفَةَ سَأَلَ ابْنَ الْعَرَبِيِّ عَنِ الْمَهْدِيِّ: هَلْ رَأَاهُ وَلِقِيَاهُ فِي مَجْلَسِ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ أَمْ لَا؟ فَقَالَ لَهُ: لَمْ أَلْقَهُ، وَإِنَّمَا سَمِعْتُ بِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: لَا بَدَّ مِنْ ظَهْوَرِهِ، ثُمَّ انْفَصَلُوا مِنْ عِنْدِهِ بِخَيْرٍ كَثِيرٍ وَإِنْعَامٍ كَبِيرٍ.

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ مِقْدَامٍ: لَمَّا وَصَلَ هَذَا الْوَفْدُ مَرَّ أَكْشَ وَارْتَدَّتِ الْقِبَائِلُ بِسَبَبِ قِيَامِ الْمَاسِيَّةِ، وَشَى وَاشَى إِلَى الْخَلِيفَةِ أَنَّ إِشْبِيلِيَّةَ ارْتَدَّتْ بَمَنْ فِيهَا، وَشَاعَ الْخَبَرُ بِذَلِكَ وَلَا عِلْمَ عِنْدَ الْوَفْدِ بِهِمْ، فَلَمْ يَشْعُرُوا إِلَّا وَالْمُوَحِّدُونَ قَدْ أَحَاطُوا بِالْدارِ الَّتِي كَانُوا بِهَا عَلَى الْأَسْقَافِ بِالرَّمَاكِ وَالسُّيُوفِ، فَمِنْهُمْ مَنْ غَشِيَ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ بُهِتَ وَظَهَرَ الْمَوْتُ لَدَيْهِ، وَرَقَبَ عَلَيْهِمُ الرُّقَبَاءُ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَرَأَوْا الْمَوْتَ عِيَانًا وَجَهَارًا، وَدَامَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَى أَنْ وَصَلَ الْحَقُّ بِرَاءَةِ أَهْلِ إِشْبِيلِيَّةَ بِكِتَابِ الشَّيْخِ أَبِي يَعْقُوبَ بْنِ سُلَيْمَانَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ، فَاسْتَدْرَكَ الْأَمِيرُ أَرْوَاحَهُمْ، وَعَجَّلَ سَرَاحَهُمْ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ أَبَا إِسْحَاقَ بْنَ جَامِعٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سُلَيْمَانَ مَوْنَسِينَ^(٥) لَهُمْ، فَقَالَا لَهُمْ: إِنَّمَا وَجَّهَ لَكُمْ الرِّجَالَ

(١) بغية المتتمس (١٨١).

(٢) التكملة لابن الأبار (٢٧٥٣)، والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (٢٦٨)، والذيل لابن عبد الملك ٥/١٦٢، وصلة الصلة لابن الزبير ٤/ الترجمة ٢١٦، والمستملح للذهبي (٦٦٥)، وتاريخ الإسلام ٣٧٥/١٢.

(٣) التكملة لابن الأبار (١٤٠٥)، والذيل لابن عبد الملك ٦/٢٢٩، والمستملح (١٢٥).

(٤) في م: «العام»، وهو تحريف.

(٥) في م: «معتدلين».

إشفافاً عليكم ونظراً حسناً إليكم؛ لأنَّ الأميرَ رضي الله عنه قال: إنَّ وصلَّهم خبرُ
ارتدادِهِم يَفْرُونَ على وجوههم فتأكلُهم الطريقُ^(١) بمن فيها من الثَّائرين، فثابت إليهم
نفوسُهم، وكان لهم بعدَ ذلك السَّراحُ والإِنعام، وأمَرَ لهم بالزاد الوافر على أوقى الكمال
والتَّمام، فأمرَ للقاضي ابن العربيِّ بمئةٍ مثقالٍ ذهبيَّةٍ حَشَمِيَّةٍ، ولابن حَجَّاج الخطيب بمثل
ذلك، ولسائر الوفد^(٢) على قَدَر منازلهم، وانصَرَفوا بظهارِهم من كُتُب ابن عَطِيَّة بالإِنعام
عليهم بصَرَف أموالهم وضياعهم إليهم. وكان انصرافُهم من مَرَّاكش في جُمادى الآخرة
من سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة. وتوفيَّ القاضي ابنُ العربيِّ وهو على دابَّته في الشهر
المذكور عندَ وصوله إلى مدينة فاس، ودَفَنوه في رَوْضة الجَيَّانِي وعُمُرُه خمسٌ وسبعونَ
سنة. وسببُ وصولهم إلى فاس أنَّهم أخذوا على طريق الجبل بسبب فتنة القبائل.

تلخيصُ دخولِ الموحدِينَ للأندلسِ أوَّلاً^(٣)

لَمَّا اتَّصَلَ بالأندلس موتُ عليِّ بن يوسف ومَقْتُلُ تاشفينَ بن عليٍّ وليِّ عهده
[واستيلاءُ الموحدِينَ على]^(٤) مدينة فاس، طاع عليُّ بن عيسى بن ميمون قائدُ البحر
المُتَنَزِّي على المُلُثَمِينَ بِقَادِس، [وقصدَ عبدًا]^(٥) المؤمن، فوصلَ إليه وهو بجبل العرض،
فأمرَ عبدُ المؤمن القائدَ المذكور أن يتوجَّه إلى الجزيرة المذكورة وأن يهدِمَ الصَّنَمَ الذي
فيها، فانصَرَف. وشاع خبرُه بجزيرة الأندلس، وخطَبَ له عليُّ المذكورُ بِجامع قَادِس،
وهي أوَّلُ خُطبة خُطبت له بجزيرة الأندلس، وذلك في أوَّل عام أربعين وخمس مئة. ثم
طاع أحمدُ^(٦) بن قُبَيْيٍّ من موضع قيامه من حصن مَرْتُلَّة عندَ غَلْبَةِ سِدْرَاي^(٧) بن وزيرٍ

(١) في م: «الطرق»، وهو تحريف.

(٢) في م: «الوفد»، وهو تحريف.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/٣١٢.

(٤) ما بين الحاصرتين فراغ في النسخ.

(٥) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ.

(٦) الوافي بالوفيات ٧/٢٩٧.

(٧) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/٣١٢.

عليه، وكانت طاعته على يد علي بن عيسى المذكور، أجازته في غراب هو وأصحابه المختصون به من مرتلة إلى سبته، وكانت سبته إذ ذاك في طاعة الموحدين تحت نظر الشيخ أبي يعقوب يوسف بن مخلوف، فأعان ابن مخلوف ابن قسي في المشي لعبد المؤمن حتى وصله بجبل العرض في شعبان من العام المذكور، ثم بعثه صُحبة الشيخ أبي إسحاق برّان بن محمد المسوفي إلى الأندلس لحرب من فيها من الثوار المثلّمين بعسكر من الموحدين تنويهاً به، وبعث معه أبا عمران موسى^(١) بن سعيد من جبل العرض أيضاً، وعمر^(٢) بن صالح بعسكر آخر.

وقد ذكر ابن صاحب الصلاة إجازة أبي إسحاق برّان بن محمد المسوفي، وعمر بن صالح الصنهاجي، وأحمد بن قسي مع البعوث معهم إلى الأندلس في تاريخ المرتدين^(٣) الثوار بها، فقال من جملة كلامه: لما جاز العسكران إلى الأندلس قصداً مدينة شريش أولاً، وكانت تحت الطاعة، ثم جازوا وادي إشبيلية وساروا إلى لبلة، ثم تحرّكوا منها إلى مرتلة وهي تحت الطاعة، ثم تحرّكوا منها إلى شلب ونزلوا على أنظارها ثم فتحوها ونهضوا منها إلى باجة، فأطاع سدرّاي بن وزير وخرج إلى الموحدين فأدخلهم باجة إلى أيمن حال، وطاع جميع أهل الغرب والجوف من الأندلس. ثم رحل أبو إسحاق برّان من باجة إلى مرتلة، وأقام بها زمن الشتاء، ثم أمر سدرّاي بن وزير أن يصل إليه إلى مرتلة بجميع العسكر الذي إلى نظره، فوصله بجميع ذلك من الفرسان والرّجال، وتحرّكوا منها إلى لبلة، فتلّقاهم يوسف^(٤) بن أحمد البطرّوجي صاحبها، ومشى الجميع بعدما طاع أهل طلياطة^(٥) وحصن القصر، ووصل الجميع إلى إشبيلية فحصرها برّاً وبحراً ففتحها الله تعالى.

(١) نفح الطيب ١/ ١٨٢.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.

(٣) في م: «المريدين» وهو تصحيف ظاهر.

(٤) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤.

(٥) في ر ٣: «طلياطة» وهو خطأ، وطلياطة قرية من إشبيلية تبعد عنها عشرين ميلاً (الروض

المعطار: ٣٩٥).

ذكر ما حدث على أهل إشبيلية من الحوادث

عند فتح الموحدين لها على جهة الإيجاز^(١) والاختصار^(٢)

كان^(٣) فتحها يوم الأربعاء الثاني عشر من شعبان المكرّم من سنة إحدى وأربعين، ذكر ذلك ابن صاحب الصلاة في كتابه فقال: فتحت عند أوان العصر، وفرّ لمتونة منها إلى قرمونة، وقتل من أدرك منهم ومن أتباعهم، وقتل أبو عمر الينافيّ الفقيه، وعبد الله^(٤) ابن القاضي أبي بكر ابن العربي عن غير قصد في باب المسجد، وملك الموحدون المدينة وقصبتها التي كانت قصر ابن عبّاد.

وكان شيخُ الموحدين الذي يرجعون إليه أبا إسحاق بن محمد المَسْوفِيّ. وحضر هذا الفتح من رؤساء الأندلس وثوارها أبو محمد سدرّاي بن وزير شيخ أهل الغرب بالأندلس، ويوسف بن محمد البَطْرُوجِيّ الثائر بلبلّة، وليد بن عبد الله قائد شنترين، وجميع أهل الغرب بعسكرهم ورجالهم، ودخل أبو إسحاق^(٥) المَسْوفِيّ، ووحد أهل طلياطة^(٦) وحصن القصر وأهل الشرف، وحين... إشبيلية أعلم بذلك عبد المؤمن فسّر به، وأمر بوصول الشيخ أبي يحيى بن الجبر إليها مُعيناً لمن فيها من الموحدين، فوصلها، وسدّ خللها، وثقف أعمالها. واجتمع مع أبي إسحاق برّان، عن رأي واحد، وسعد مساعد، ناظرًا في المجابي، شريكًا في التدبير والنظر للموحدين، ناصحًا لهم، ثم وفد عليه وفد أهل الغرب طائعين مُنيين، ثم ترادفت الفتوح من قبل الخليفة بمراكش، فتوجّه وفد إشبيلية إليه كما تقدّم، فأمر لهم بصرف أموالهم وضياعهم، وبعد ذلك اعترضهم أبو إسحاق في رجوعهم، فرجعوا إلى عبد المؤمن شاكين به ويفغله، فأمر بإطلاق أيديهم، وأمر أن يشتغل يوسف بن أحمد بالاحتساب بها،

(١) في ر ٣: «الإنجاز»، وهو تصحيف.

(٢) ينظر ابن خلدون ٦/٣١٣.

(٣) في ر ٣: «لما كان» وليس بشيء.

(٤) التكملة لابن الأبار (٢٠٧٣)، والمستملح (٤٣٣).

(٥) سقطت الكنية من م.

(٦) في ر ٣: «طليطلة»، وهو تحريف.

ودامت الحال شهوًراً على خيراتٍ وبركاتٍ إلى أن وصل عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي ومعهما يصلاتن ابن عمهما.

قال أبو عبد الله محمد بن عبد الملك^(١): لَمَّا وَصَلَ عَبْدُ الْعَزِيزِ وَعِيسَى إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ مَعَ عَسْكَرٍ مِنَ الْمُوحِّدِينَ الْغَازِينَ، نَظَرَ النَّاسُ حَيْثُ يُنْزَلُونَهُمْ لِلسُّكْنَى، فَاتَّفَقَ الرَّأْيُ عَلَى حَوْمَةِ الْجَبَّانَةِ مِنْ دَاخِلِ إِشْبِيلِيَّةَ لِيَكُونُوا قَرِيبًا مِنْ قَصْرِ ابْنِ عَبَّادٍ حَيْثُ سَكَنُ^(٢) أَشْيَاحَ الْمُوحِّدِينَ: أَبِي يَحْيَى بْنِ الْجُبْرِ وَأَبِي إِسْحَاقَ بَرَّانَ النَّاطِرِ فِي الْمَخْزَنِ بِالْأَمْرِ الْعَالِي لِيَتَوَصَّلَ^(٣) الْمُوحِّدُونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ. فَتَزَلُّوا فِيهَا، فَلَمْ يَحْفَظُوا سُكْنَاهَا، وَابْتَدَرُوا^(٤) بِحَرْقِ سُقْفِهَا، وَعَمَلُوا أَصَاطِبَ مِنْ بِيوتِهَا لِدَوَائِبِهِمْ، وَكَانُوا قَوْمَ سُوءٍ، فَفَسَدَتِ الدِّيَارُ فِي أَقْرَبِ مَدَّةٍ، وَاسْتَطَالَتِ أَيْدِي أَتْبَاعِهِمْ عَلَى الْأَنْدَلُسِيِّينَ الْمُجَاوِرِينَ لَهُمْ، فَفَرَّوْا أَمَامَهُمْ، وَسَاءَتْ حَالُ أَهْلِ إِشْبِيلِيَّةَ بِهِمْ، وَعَبْدُ الْمُؤْمِنِ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ حَتَّى رُفِعَ لَهُ بِهِ، فَأَمَرَ بِالْكَتَبِ لِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ كُلِّهَا الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ طَاعَةِ الْمُوحِّدِينَ بِتَمْشِيَةِ الْعَدْلِ، وَرَفَعَ الْمَظَالِمَ وَالْجَوْرَ.

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: خَرَجَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ عَلِيٍّ لَغَزْوِ الْقَبَائِلِ الثَّائِرِينَ^(٥)، وَذَلِكَ لَمَّا تَفَاقَمَ نِفَاقُ بَرَغَوَاطَةٍ وَدَكَالَةٍ وَيَحْيَى الصَّحْرَاوِيِّ عِنْدَهُمْ، فَدَوَّخَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ أَرْضَهُمْ وَبِلَادَهُمْ، وَاسْتَأْصَلَ طُغَاتَهُمْ، وَهَزَمَهُمْ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ، وَسَبَّاهُمْ وَفَرَّقَهُمْ أَيَادِي سَبَا، وَصَيَّرَهُمْ أَحَادِيثَ وَأَنْبَا، حَتَّى أَذْعَنُوا بِالطَّاعَةِ وَدَخَلُوا فِي حِزْبِ الْجَمَاعَةِ، وَفَرَّ يَحْيَى الصَّحْرَاوِيُّ عَنْهُمْ، وَتَبَرَّأَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَمِنْهُمْ، وَانْتَلَفَ^(٦) بِحَيْثُ لَا يَعْلَمُ، وَجَعَلَ يَتَضَرَّعُ إِلَى الْأَمِيرِ^(٧) فِي أَنْ يُعْفَى عَنْهُ وَيَسْلَمَ. فَرَجَعَ

(١) هذا في القسم المفقود من الذيل.

(٢) في م: «سكنه».

(٣) في م: «ليَتَصَلَ».

(٤) في م: «وابتدأوا»، وهو تحريف.

(٥) في م: «الثائرة».

(٦) في م: «واختفى».

(٧) في م: «الأمر»، وهو تحريف.

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى حَضْرَةِ مَرَّاكُشٍ مَنْصُورًا ظَافِرًا بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ خُرُوجِهِ مِنْهَا. وَبَعْدَ انْصِرَافِهِ تَوَسَّطَ الْأَشْيَاخُ إِلَيْهِ فِي يَحْيَى الصَّحْرَاوِيِّ، فَعَقَا عَنْهُ. وَبَعْدَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْمُبَارَكَةِ كَانَ الْخَيْرُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَصِلُ، وَالْوُدُّ بِطَاعَتِهِ يَتَّصِلُ، وَأَتَتْهُ الْمُخَاطَبَاتُ فِي السَّنَةِ بَعْدَهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ بِالرَّغْبَةِ فِي الدَّخُولِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَطَاعَتِ سَيِّدَتِهِ، وَوَصَلَ وَفَدَّهَا، وَكَذَلِكَ وَصَلَ إِلَيْهِ أَهْلُ سَلَا، فَأَمَرَهُمْ بِهَدْمِ سُورِهَا، فَهَدَمُوا، وَصَفَّحَ عَنْ دِمَائِهِمْ.

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: أَمَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِالْكَتْبِ لِلْبُلْدَانِ لَمَّا اسْتَقَرَّ بِمَرَّاكُشٍ مُرِيحًا لِلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَقِيَامِ أَمْرِ الْمُوَحِّدِينَ. وَكَانَ رُفِعَ لَهُ أَنَّ الْمَظَالِمَ قَدْ ظَهَرَتْ، وَالْقِبَالَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ اسْتَهْزَتْ، فَكَتَبَ أَبُو جَعْفَرٍ بِخَطِّهِ عَنْهُ كِتَابًا إِلَى الطَّلَبَةِ وَالْأَشْيَاخِ... يَأْمُرُهُمْ فِيهِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ... عَنْ سَفْكَ الدِّمَاءِ، فَأَجَادَ فِيهِ، وَكَانَتْ... فِي مَعَانِيهِ، وَذَلِكَ بِتَارِيخِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَوَجَّهَ مِنْهَا نُسخًا كَثِيرَةً لِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْعُدُودِ، فَجَمَعَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ قَوَانِينَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، وَالسِّيَاسَةِ وَالرِّيَاسَةِ، فَكَانَتْ حُجَّةً بِأَيْدِي النَّاسِ، وَمُؤَمَّنَةً لَهُمْ مِنَ الْبَاسِ. وَلَمَّا وَصَلَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ بَحَثُوا عَلَى أَهْلِ الْأَشْغَالِ، الْمُتَصَرِّفِينَ فِي الْأَعْمَالِ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْإِقْرَارِ وَالْاعْتِرَافِ، وَبَالْغَا فِي الْبَحْثِ عَلَيْهِمُ وَالْإِنْصَافِ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ ظَهَرَ عَلَيْهِمَا الْفُسُوقُ^(١) وَالظُّلْمُ، وَالْفُسَادُ وَالْإِثْمُ وَالْجُرْمُ، فَوُجِدَ أَحَدُهُمَا غَيْرَ مَخْتُونٍ، وَالْآخَرُ اسْتَرَابَتْ فِيهِ^(٢) الظُّنُونُ، وَكَانَا يَشْتَغِلَانِ بِقَبْضِ الْفِطْرَةِ، فَظَهَرَ مِنْهُمَا الْغِشُّ لِلْخِلَافَةِ وَالْإِمْرَةِ^(٣).

ذَكَرُ سَبَبِ كِتَابِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْبُلْدَانِ

وَبَقِيَّةُ مَا جَرَى بِإِشْبِيلِيَّةَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَكْوَانِ

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا رُفِعَ إِلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ مَا فَعَلَ عَبْدُ الْعَزِيزِ وَعَيْسَى أَخُو الْمَهْدِيِّ بِإِشْبِيلِيَّةَ مِنْ اسْتِطَالَةِ أَيْدِيهِمَا عَلَى أَهْلِهَا وَعَلَى الْأَنْدَلُسِيِّينَ الْمُجَاوِرِينَ لَهَا، وَظَهَرَ مِنْ

(١) فِي م: «الْفُسُوق».

(٢) فِي م: «عَلَيْهِ».

(٣) فِي م: «وَالْإِمَارَةُ».

أَخَوِي الْمَهْدِيَّ بِإِشْبِيلِيَّةَ مَذْهَبٌ فِي قَتْلِ النَّاسِ وَإِبَاحَةِ الدِّمَاءِ، وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ وَاتَّصَلَ
 بِالْعَتَدَاءِ، ثُمَّ تَغَيَّرَا عَلَى الْبَطْرُوجِيِّ صَاحِبِ لَبْلَةٍ وَعَزَمَا عَلَى الْإِيقَاعِ بِهِ، فَفَهِمَ ذَلِكَ
 مِنْهُمَا، فَفَرَّ بِنَفْسِهِ عَنْهُمَا، فَخَرَجَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ عِنْدَ مَغِيْبِ الشَّمْسِ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي عَزَمَ
 عَلَى الْفِرَارِ فِيهِ، فَسَرَى لَيْلَتَهُ وَحَصَلَ فِي لَبْلَةٍ مَعَ جَمَلَةٍ^(١) مِنْ أَصْحَابِهِ، فَثَارَ بِهَا وَأَمَّنَ
 مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا، وَوَجَّهَ فِي الْحَيْنِ إِلَى طَلِيَاظَةٍ وَحَصَنَ
 الْقَصْرَ مَنْ تَقَفَها وَمَلَكَها، وَأَعْلَنَ بِنِفَاقِهِ، وَأَعَادَ بَيْنَ لَبْلَةٍ وَإِشْبِيلِيَّةَ قَبِيحَ فِتْنَتِهِ.
 وَاتَّصَلَتِ الْفِتْنَةُ مِنْهُ وَمَنْ كَمْتُونَةُ أَهْلِ قُرْطُبَةَ عَلَى إِشْبِيلِيَّةَ أَعْظَمَ اتِّصَالَ، عَلَى تَكْرِيرِ
 الْأَيَّامِ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ، مَدَّةَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ إِلَى سَنَةِ أَرْبَعٍ، وَاتَّصَلَتِ الْفِتْنَةُ
 بِالْعُدُوِّ وَالْأَنْدَلُسِ. ثُمَّ خَالَفَ ابْنُ قِسْيٍ فِي مَدِينَةِ شَلْبٍ، وَنَشَأَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ
 عَلِيٍّ بْنِ الْحَجَّامِ وَبَيْنَ أَمِيرِ الْغَرْبِ بِمَدِينَةِ بَطْلِيُوسَ، بِسَبَبِ تَغْلُبِ ابْنِ الْحَجَّامِ عَلَى ابْنِ
 وَزِيرٍ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ مَدِينَةِ بَطْلِيُوسَ، ثُمَّ تَغْلَبَ ابْنُ غَانِيَّةَ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ، وَقَامَ
 أَهْلُ سَبْتَةَ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَقَتَلُوا وَالْيَهُمَ وَأَخْرَجُوهُمْ، وَثَبَّتَ أَبُو الْغَمَرِ بْنُ عَزْرُونَ
 بِشَرِيْشٍ وَرُنْدَةَ عَلَى طَاعَةِ الْمُوَحِّدِينَ، وَارْتَفَعَ السَّعْرُ بِإِشْبِيلِيَّةَ^(٢) وَعَظُمَتِ الْمَجَاعَةُ بِهَا،
 بِاتِّصَالِ الْفِتَنِ وَالتَّحَامِهَا. وَامْتَنَعَ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى بْنُ مَيْمُونِ الْقَائِدُ مِنْ تَوْصِيلِ الْأَطْعَمَةِ
 وَالْأَقْوَاتِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ فِي الْبَحْرِ، إِذْ كَانَ قَائِدُ الْبَحْرِ مَالِكًا لَهُ، لَا تَجْرِي جَارِيَةٌ فِيهِ
 خَوْفًا مِنْهُ، لَا سِتْبَاحَتِهِ أَمْوَالَ التُّجَّارِ وَدِمَاءَهُمُ الَّذِينَ يَسُوقُونَ الْأَقْوَاتَ وَيَتَصَرَّفُونَ فِي
 مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَتَلَهُمْ^(٣) بِسَيْفِهِ، وَسَقَاهُمْ^(٤) الْمَوْتَ مِنْ خَوْفِهِ. وَبَقِيَتْ إِشْبِيلِيَّةَ مُحْصُورَةً
 بَرًّا وَبَحْرًا وَالنَّاسُ بِهَا فِي شِدَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ عَدَمِ الْقُوْتِ حَتَّى بَاعَتْ خَبْزَةً بِدَرْهَمٍ وَنَصْفٍ،
 وَبَاعَ قَدْحُ الْقَمْحِ بِسِتَّةِ وَثَلَاثِينَ دَرْهَمًا، وَبَاعَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ بِإِشْبِيلِيَّةَ بِأَيْسَرِ يَسِيرِ^(٥)،
 وَاسْتَوَى الْغَنِيُّ بِهَا وَالْفَقِيرُ، وَبَاعَ أَصْلُ زَيْتُونٍ بِالشَّرَفِ بِنَصْفِ دَرْهَمٍ، وَدَارُ تَسَاوَى
 مِئَةَ دِينَارٍ بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ.

(١) فِي م: «جَمَاعَةٌ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

(٢) فِي م: «بِهَا».

(٣) فِي م: «يَقْتُلُهُمْ».

(٤) فِي م: «وَيَسْقِيهِمْ».

(٥) فِي م: «بِالْأَيْسَرِ الْيَسِيرِ».

ولمّا اتّصلت هذه الأحوال القبيحات، واشتدّت الكربات... المجرمون عيسى وعبد العزيز ويصلاتن ابن عمّهما بمن كان معهما من إشبيلية... وجميع بلاده بما عنده من الفرسان والرجال، مُعيناً لهم... على جهة مألقة... جرير ضراً ولازموها شهوياً، ووصلهم في البحر بالقطائع أبو محمد عبد الله بن سليمان مُعيناً لهم، حتّى فتح الله الجزيرة على يد أبي الغمر بن غرّون المذكور، وأخرج لمتونة عنها، وقتل أتباعهم، واستأصل أشياعهم، واتّصل حال أهل إشبيلية على ما ذكرته من الشدة. ثم رجع أخوا المهديّ ويصلاتن إلى مراكش، فبعث عبد المؤمن والياً على إشبيلية أبا يعقوب يوسف بن سليمان بعسكر من الموحّدين، وبقي أبو إسحاق برّان على شغل المخزن، فألفاها في غاية من الشدة في كلّ نوع، وقد اجتمعت عليها الفتن بكلّ جمع. فسكن روعة أهلها بعدله، وساس أعاديّه بدهائه وعقله، واجتمع برّان الناظر في المخزن، ففتح عليه أبواب السياسة، وأعانه الله على نُصح الخليفة في الرئاسة، واتفق رأيهم على بناء قصبة بإشبيلية، وعلى ترحيل الموحّدين الساكنين بالجبّانة إلى القصبة بسبب تشكّي الناس من ضرّهم^(١)، فعزموا على ذلك، وحازوا موضعها الذي هي الآن فيه، وأخرجوا أهلها عن ديارهم، وعوّضوهم في المدينة أعواضاً من ديار المخزن مما لا يُرضيهم، وكان هذا على الناس أشدّ من قتل نفوسهم، وزيادة في كثرة همومهم وبوسهم، وهدموا سور ابن عبّاد وبَنَوْا بأحجاره هذه القصبة، ولم يزل الناس يتشكّون من هذا العوض مدة الخليفة الأوّل والثاني والثالث وهم ينظرون لهم، إلى أن طال الزمان، وأرضاهم الإحسان.

وخرج أبو يعقوب بن سليمان المذكور إلى لبلة، ففرّ البطروجيّ من الغرب وجهة شلب، مقرّ ابن قسيّ، فعسكر الموحّدون ومن تبعهم من الرؤساء الأندلسيّين في فصل الشتاء والبرد، فدوّخ نظر يوسف البطروجيّ بطلياطة^(٢) ونظرها، ثم انتقل إلى لبلة وأقطارها، ثم انتقل إلى جهة الغرب وأغار على طيرة^(٣) ونظرها، وتلقاه أهل

(١) في م: «ضرّهم».

(٢) في م: «بألياطة».

(٣) معجم البلدان ٢١ / ٤.

مدينة العلياء بالتوحيد، وكان بمدينة شتَمَرِيَّة القائد عيسى بن ميمون والدُ القائد عليّ المذكور قبل هذا واليًا عليها، فاتّصل بعسكرِ الموحدّين وغزاهم جهة شَلْب، فتعرّضت لهم جماعةٌ من أصحاب يوسفَ البَطْرُوجيّ ليدافعوهم عن جهة شَلْب، فهزموهم واستأصلوهم.

وتمّادى غزوُ الموحدّين تلك الجهة حتى أنكروا بلادَ العدوِّ غربَ الأندلس، وألزموهم عظيمَ الحربِ والكرب، وألحَّ المطرُ عليهم فلم يُمكنهم الرجوعُ على^(١) الطريق الأول لامتلاء الأودية وحملها، وثقل الأرض ووحلها. فانصرف الموحدون على جهة بطليوس.

ولمّا فهم^(٢) محمد بن عليّ بن الحجاج صاحبُ بطليوس في تلك الأيام، وأوصلهم بالقوارب وأجازهم على الوادي، وحيّاهم بالتضييف الحافل من كلِّ جانب، فرعى له ذلك، وعُدَّ له أنه عهد، وسألموه في طريقهم، ولم يُروّعوا له سربًا لأجل توفية حقوقهم، ووصلوا إشبيلية موفورين منصورين.

ووصل كتابٌ من الخليفة عبد المؤمن لأبي يعقوب، يشكره على غزوته هذه، جوابًا على خطابه، يذكر له فيه: وصل كتابكم الأئيل مضمّنًا من الإعلان بما شاء^(٣) الله للموحدّين من الفتح الجليل، والصنع الجميل، في الجملة أتى، فكانت شلب عجل الله الفتح إليهم... وفي أثناء هذا الحال... أذفونش خزاه الله...^(٤) قرطبة، فتغلّب على يحيى بن عليّ بن غانية حربيته^(٥) وشوكته حتى أعطاه بيّاسة وأبدّة، وبعث الرّوم على مدينة أشبونة وطرطوشة ولاردة وإفراغة وشتَمَرِيَّة، واستولوا على جملة من بلاد الأندلس، فداخل ابنُ غانية صاحبُ قرطبة برّان بن محمد صاحب إشبيلية أعادها الله للإسلام.

(١) في م: «إلى».

(٢) في م: «وعلم بهم» مكان: «ولمّا فهم».

(٣) في م: «بما سنّى»، وهو تحريف.

(٤) قوله: «أتى فكانت شلب عجل الله الفتح إليهم، و... وفي أثناء هذا الحال... أذفونش خزاه

الله... سقط كله من م.

(٥) في م: «بقوته»، وهو تحريف.

ذكر دخول الموحدين قُرْبَةَ وقرْمُونَةَ

وخروج ابن غانية عنهما ووفاته في هذه السنة^(١)

لَمَّا وَقَعَتِ الْمُدَاخِلَةُ وَالْمُوَاصِلَةُ بَيْنَ الْمُوحِدِينَ وَبَيْنَ يَحْيَى بْنِ غَانِيَةَ بِرَأْيِ أَبِي إِسْحَاقَ بَرَّانَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَنُصَحِهِ وَاجْتِمَاعِهِ مَعَهُ بِاسْتِجَاةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا تَسَلَّطَ أَذْفُونُشَ عَلَى ابْنِ غَانِيَةَ وَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِمَا اتَّفَقَ مَعَهُ مِنَ الْإِثَاوَةِ الَّتِي كَانَ يَعْطِيهِ كُلَّ عَامٍ، طَلَبَ مِنْهُ قُرْبَةَ أَنْ يُعْطِيَهَا لَهُ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا أَنْتَ عَامِلِي عَلَيْهَا وَأَنَا مَلِكُكَ إِيَّاهَا يَوْمَ إِخْرَاجِي ابْنَ حَمْدِينَ عَنْهَا، فَأَنْفَ مِنْ ذَلِكَ ابْنُ غَانِيَةَ أَنْفَةً الْمُؤْمِنِ وَرَاجَعَ نَفْسَهُ إِلَى حِمَايَةِ الدِّينِ^(٢)، فَوَجَّهَ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ بَرَّانَ بْنِ مُحَمَّدٍ^(٣) أَنْ يَجْتَمَعَ مَعَهُ، فَحِينَ وَصَلَ الْخَبْرُ إِلَى بَرَّانَ الْمَذْكُورِ، سَارَ إِلَيْهِ وَاجْتَمَعَ مَعَهُ بِاسْتِجَاةٍ، وَانْفَرَدَا فِي الْمُنَاجَاةِ بَيْنَهُمَا مَدَّةَ يَوْمٍ، فَبَيَّنَ عَلَيْهِ أَبُو إِسْحَاقَ فَضْلَ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَمَذْهَبَهُ فِي نَصْرِ الدِّينِ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُنْقَطِعَةِ وَقَمْعِ الْكُفَّارِ عَنْهَا، وَاتَّفَقَ الصُّلْحَ بَيْنَهُمَا، وَضَمِنَ لَهُ أَبُو إِسْحَاقَ بَرَّانُ أَنَّهُ يَوْجِدُ لَهُ عَسَاكِرَ تَحْمِي بِلَادِهِ وَيَكُونُوا أَعْوَانَهُ وَأَجْنَادَهُ عَلَى أَنْ يُمَكِّنَ أَبُو زَكْرِيَّا الْمَذْكُورُ الْمُوحِدِينَ مِنْ قُرْبَةَ وَقُرْمُونَةَ وَيَسْكُنَ ابْنُ غَانِيَةَ مَدِينَةَ جَيَّانَ عَوَضًا عَنْ قُرْبَةَ وَقُرْمُونَةَ. فَاتَّفَقَا عَلَى ذَلِكَ، وَانْفَصَلَا عَلَى هَذَا الصُّلْحِ وَالْعَهْدِ، وَالرَّبْطِ عَلَى الْوَفَاءِ وَالْعَقْدِ. وَعِنْدَ انْفِصَالِهِمَا خَاطَبَ أَبُو إِسْحَاقَ بَرَّانَ عَبْدَ الْمُؤْمِنِ بِوَصْفِ الْحَالِ، وَبَتَأْدِي أَبِي زَكْرِيَّا ابْنَ غَانِيَةَ إِلَى الطَّاعَةِ، وَصَفَاءِ مَذْهَبِهِ فِي الدُّخُولِ فِي هَذَا الْأَمْرِ السَّعِيدِ، وَاسْتَأْذَنَ أَبُو إِسْحَاقَ فِي الْمَشْيِ إِلَى الْحَضَرَةِ لِيُشْرَحَ^(٤) الْحَالَ مُشَافَهَةً، فَأَذِنَ لَهُ فِي الْوُصُولِ، فَوَصَلَ مُسْتَعْجِلًا، ثُمَّ صَرَفَهُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ مُعْجَلًا، وَخَاطَبَ مَعَهُ أَبَا زَكْرِيَّا الْمَذْكُورَ مُسْتَدْنِيًا وَمُوَاصِلًا، وَمُنْجِزًا لَهُ مِنَ الْعِدَاتِ وَالْخَيْرَاتِ فَوْقَ مَا كَانَ آمِلًا.

(١) انظر بعض هذه الأخبار في ترجمة يحيى بن علي بن غانية في الإحاطة ٤/ ٣٤٣-٣٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٤-٣١٥، والاستقصا ٢/ ١١٨.

(٢) في م: «الموحدين»، وهو غلط محض.

(٣) في ر: «فوجه أبا إسحاق وبرّان بن محمد»، وهو تحريف بين.

(٤) في ك: «بشرح»، وفي م: «يشرح» وما أثبتناه من ر وهو الأولى.

ولمَّا وُصِّلَ كِتَابُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ إِلَى ابْنِ غَانِيَةِ الْمَسُوفِيِّ صَاحِبِ قُرْطُبَةَ
وما يَلِيهَا مِنَ الْبُلْدَانِ، ابْتَهَجَ وَزَادَ سُرُورَهُ، وَقَوَّى فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزْمَهُ وَظُهُورَهُ، فَتَخَلَّى
لَهُ الْمُوَحِّدُونَ عَنْ مَدِينَةِ جَيَّانَ، وَشَاعَ الْخَبْرُ عِنْدَ أَذْفُونُشَ وَالنَّصَارَى بِذَلِكَ، فَجَمَعَ
عَسَاكِرَهُ الدَّمِيمَ وَخَرَجَ بِهِ مُحَارِبًا لِأَبِي زَكَرِيَّا الْمَذْكُورِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُعْطِيَهُ جَيَّانَ،
وَالَّا أَغَارَ عَلَيْهِ فِيهَا وَنَازَلَهَا بِأَعْدَادِهِ، فَلَمْ يُمْكِنِ ابْنَ غَانِيَةَ إِلَّا أَنْ يُنْعِمَ لَهُ بِهَا وَهُوَ
يُظْهِرُ خِلَافَ مَا يُبَيِّنُ، وَلَمْ يَطْلُعْ أَحَدٌ عَلَى سِرِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاسْتَعَجَلَ أَذْفُونُشُ
بِجَمْعِهِ الدَّمِيمَ وَنَزَلَ عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ جَيَّانَ، وَطَلَبَهُ بِإِنْجَازٍ وَعَدِهِ، فَغَزَمَ بِحَيِّ رَحْمَةِ اللَّهِ
عَلَيْهِ عَلَى الْوَفَاءِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الذَّبِّ عَنْ حَرِيمِهِ وَحُرْمِهِ، فَرْتَّبَ ^(١) الْفَرَسَانِ وَالرَّجَالَ
وَالْحِمَاةَ ^(٢) الْأَبْطَالَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ وَحَصَنَ الْقَصْبَةَ بِالثَّقَاتِ ^(٣) وَأَكْمَلَ عَزْمَهُ...
أَذْفُونُشُ أَنْ يُوَجِّهَ... وَبَعْدَ ذَلِكَ يَصُلُّ هُوَ بَعْدَهُ... مِثْلَهُ مِنْ... وَقَصَدُوا الْمَوْضِعَ الَّذِي
كَانَ فِيهِ ابْنُ غَانِيَةَ وَاقِفًا بِبَابِ الْقَصْبَةِ، فَقَبَضَ عَلَى جَمِيعِهِمْ حِينَ ^(٤) تَقَبُّضِ مَلِكٍ مِقْدَامٍ،
فَارْسَ شَهْمِ هُمَامٍ، وَقَيَّدَ جَمِيعَهُمْ فِي الْحَدِيدِ وَالْكُبُولِ، وَاحْتَمَلُوا إِلَى سِجْنِ الْقَصْبَةِ الْمَانِعَةِ
عَلَى أَسْوَأِ مَحْمُولٍ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ جِهَادًا مَبْرُورًا، وَلَقِيَ بِذَلِكَ مِنْ رَبِّهِ نَصْرَةً وَسُرُورًا.
وَاتَّصَلَ خَبْرُ هَذِهِ الْبَطْشَةِ فِي الْحَيْنِ، بِأَذْفُونُشَ اللَّعِينِ، فَأَقْلَعَ مُرْتَاعًا فَرِعًا،
وَانْصَرَفَ عَلَى طَرِيقِ بَيَّاسَةَ وَمِنْهَا إِلَى بِلَادِهِ بِقَشْتَالَةَ ^(٥)، وَانْتَقَضَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ غَانِيَةَ
الْعَهْدُ ^(٦)، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا اجْتِمَاعٌ أَبَدًا بَعْدُ.
ولمَّا كَمَّلَ لَهُ بَعْوَنُ اللَّهِ مَرَادَهُ، وَرَجَعَ ^(٧) لَهُ عِنْدَ اللَّهِ جِهَادُهُ، احْتَمَلَهُمْ مَكْبُولِينَ

(١) فِي م: «فَوْثَب»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ لَا مَعْنَى لَهُ.

(٢) فِي م: «وَالْمَشَاة»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

(٣) فِي م: «بِالثَّقَاب»، وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

(٤) سَقَطَتْ مِنْ ٣، م.

(٥) فِي م: «قَشْتَالَةَ».

(٦) الْعِبَارَةُ فِي م: «وَانْتَقَضَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ غَانِيَةَ مِنْ عَهْدٍ»، وَلَا نَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَتَوْا بِهَا، فَضْلًا
عَنْ أَنَّ الْأَسْلُوبَ يَقْتَضِي رَفْعَ الْعَهْدِ.

(٧) فِي م: «وَرَجَعَ» بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ، وَلَا مَعْنَى لَهَا، وَهِيَ قِرَاءَةُ سَيِّئَةٍ.

إلى قلعة ابن^(١) سَعِيد وفي نِيَّتِهِ ما ارتَبَطَ عليه من الوفاء للموَحِّدين، وطاعة أمير المؤمنين، وسار منها إلى غَرْنَاطَةَ لِيَجْتَمَعَ مَعَ مَنْ بِهَا مِنَ اللَّمْتُوتِيِّينَ، وَيَرْبِطَهُمْ لَهَا^(٢) ارتَبَطَ، وَيَشْتَرِطَ عَلَيْهِمْ ما اشْتَرَطَ، فَأَقَامَ بِغَرْنَاطَةَ نَحْوَ شَهْرَيْنِ، وَتَوَفَّى بِهَا عَصَرَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ الْمُكَرَّمِ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ، وَدُفِنَ بِالْمَسْجِدِ الصَّغِيرِ الْمُتَّصِلِ بِقَصْرِ بَادِيسَ، وَأُلْصِقَ قَبْرُهُ بِقَبْرِ بَادِيسَ بْنِ حَبُوسَ.

وَلَمَّا وَصَلَ خَبِرَ مَوْتَهُ لِصَاحِبِ^(٣) الْقَلْعَةِ أَبِي مَرْوَانَ بْنِ سَعِيدٍ قَائِدِ ابْنِ غَانِيَةَ وَأَمِينِهِ، دَخَلَ إِلَى الْأَقْمَاطِ الْمَسْجُونِينَ عِنْدَهُ، وَأَعْلَمَهُمْ بِمَوْتِ ابْنِ غَانِيَةَ، وَارْتَبَطَ مَعَهُمْ عَلَى أَنَّهُ إِنْ حَلَّاهُمْ تَكُونُ الْقَلْعَةُ بِيَدِهِ كَأَحَدِي بِلَادِ النَّصَارَى، فَضَمِنُوا لَهُ ذَلِكَ. وَخَاطَبَ أَبُو إِسْحَاقَ بَرَّانَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْأَمِيرَ عَبْدَ الْمُؤْمِنِ بِمَا كَانَ مِنْ هَذِهِ الْحَوَادِثِ، فَجَاوَبَهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَلَمَّا عَلِمَ أَذْفُونُشُ بِمَوْتِ ابْنِ غَانِيَةَ، زَادَ طَمَعُهُ فِي قُرْطُبَةَ وَأَنْظَارِهَا، فَحَشَدَ جَمِيعَ الْكَفَّارِ بِبِلَادِهِ لِمُنَازَلَتِهَا، وَأَعْلَمَ الْمُوَحِّدُونَ حَضْرَةَ أَمِيرِهِمْ بِذَلِكَ وَاسْتَغَاثُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِهِ، فَوَجَّهَ لَهُمْ عَسْكَرًا مَعَ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ وَالَى نَظْرَهُ بَعْدَ هَذَا بِتَوْجِيهِ عَسْكَرٍ فِي^(٤) إِثْرِ عَسْكَرٍ، وَاجْتَمَعَ رَأْيُ الْمُوَحِّدِينَ بِأَشْيِيلِيَةَ لَمَّا تَحَقَّقُوا احْتِشَادَ الطَّاعِيَةِ أَذْفُونُشُ لِمُنَازَلَةِ قُرْطُبَةَ أَنْ يُوَجِّهُوا إِلَيْهَا أَبَا الْعَمَرِ بْنَ غَرْوَنَ لَعَلَّهُمْ يَنْجِدُونَهُ وَشَهَامَتَهُ^(٥)، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا.

وَلَمَّا عَلِمَ بِهَذِهِ الشَّدَّةِ يَوْسُفُ بْنُ أَحْمَدَ الْبِطْرُوجِيُّ بَلْبَلَةً، رَغَّبَ إِلَى الْمُوَحِّدِينَ أَنْ يُعِينَهُمْ بِجُمْلَةٍ مِنْ فُرْسَانِهِ يَمْشُونَ مَعَ ابْنِ غَرْوَنَ إِلَى قُرْطُبَةَ لِحَرْبِ الرُّومِ وَمَدَافِعَتِهِمْ، فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَوَجَّهَ أَرْبَعَ مِائَةَ فَارِسٍ مِنْ أَنْجَادِ أَصْحَابِهِ، فَكَانَ لَهُ ذَلِكَ عُنْوَانُ قَبُولٍ، فِي رَجْعَتِهِ إِلَى الطَّاعَةِ وَمَأْمُولٍ.

(١) فِي م: «بَنِي».

(٢) فِي م: «بِهَا».

(٣) فِي م: «إِلَى صَاحِبِ».

(٤) سَقَطَ مِنْ م.

(٥) فِي م: «وَشَجَاعَتُهُ».

وأَعْلَمَ المُوَحِّدُونَ الَّذِينَ بِإِشْبِيلِيَّةَ أَمِيرَهُمْ بِمُنَازِلَةِ أَذْفُونُش قُرْطُبَةَ، فَأَزْعَجَ عَسْكَرًا صُحْبَةً أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ يَوْمُور^(١). وَلَمَّا وَصَلَ أَبُو زَكَرِيَّا بْنُ يَوْمُورَ بِعَسْكَرِ المُوَحِّدِينَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ، اجْتَمَعَ مَعَ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا، وَتَشَاوَرُوا كَيْفَ يَكُونُ السَّلُوكُ إِلَى قُرْطُبَةَ، إِذِ العَدُوُّ مُنَازِلٌ جَوَانِبُهَا، فَرَأَوْا أَنَّ يَكُونُ السَّلُوكُ إِلَيْهَا عَلَى الجَبَلِ كَيْ لَا^(٢) يَكُونُ عِنْدَ الطَّاعِيَةِ خَبْرٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَدْخُلُوهَا^(٣)، فَاسْتَجَازُوا عَلَى ذَلِكَ وَسَلَكُوا الطَّرِيقَ الكَبِيرَ، فَلَمْ يَعْلَمْ العَدُوُّ بِخَبَرِهِمْ حَتَّى دَخَلُوهَا لَيْلًا، ثُمَّ بَرَزُوا مِنَ الغَدِّ عَلَيْهِ تَبْرِيزًا أَذْهَلَهُ، وَأَذْهَبَ طَمَعَهُ فِيهَا وَهَالَهُ، وَأَقَامَ قَلِيلًا مِنَ الأَيَّامِ وَأَقْلَعَ خَائِبًا لَمْ يَحِطْ بِنَيْلِ مَرَامٍ. وَكَانَ بِقُرْطُبَةَ مَدَّةَ حَصَارِهَا مَجَاعَةٌ عَظِيمَةٌ أَكَلُوا... بَعْدَ إِقْلَاعِ العَدُوِّ عَنْهَا وَأَقْفَرَتْ، ثُمَّ... فِي أَوَّلِ^(٤)...

وَلَمَّا فَرَغَ أَبُو زَكَرِيَّا بْنُ يَوْمُورَ مِنْ مُحَارِبَةِ العَدُوِّ الْمَذْكُورِ وَصَلَهُ خُطَابُ يَوْسُفَ بْنِ أَحْمَدَ البِطْرُوجِيِّ رَاغِبًا، ثُمَّ وَصَلَ بِنَفْسِهِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ مُتَطَارِحًا طَالِبًا أَنْ يَشْفَعَ لَهُ عِنْدَ خَلِيفَتِهِ^(٥)، وَأَنْ يَرْجَعَ تَحْتَ طَاعَتِهِ، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ فِيمَا جَنَّاهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَكَذَلِكَ رَغِبَ فِي أَحْمَدَ بْنِ قَسِيِّ خَلِيلِهِ، وَفِي مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَدِيثِيهِ، فَخَاطَبَ فِيهِ أَبُو زَكَرِيَّا الْمَذْكُورُ بِمَا رَغِبَ فِيهِ، وَأَوْصَلَ الأَمَانَةَ عَنْهُ بِمَا طَلَبَ، فَوْصَلَ الأَمْرَ بِالْعَفْوِ عَنْهُ وَعَنِ صَاحِبِيَّةٍ. وَكَانَ سِندْرَايَ بْنِ وَزِيرٍ قَدْ قَبِضَ يَدَهُ مَدَّةَ ارْتِدَادِ الثَّوَارِ عَنْ فِتْنَةِ المُوَحِّدِينَ وَأَمْسَكَ نَفْسَهُ عَنْ مُقَابَحَتِهِمْ وَاشْتَغَلَ بِمُحَارِبَةِ ابْنِ قَسِيِّ وَدَفَاعِ البِطْرُوجِيِّ وَمُغَالَبَةِ مُحَمَّدَ بْنِ الْحَجَّامِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْمُوَحِّدِينَ قَبْلَهُ حَقْدٌ، وَلَا ثَبَّتَ مِنْهُمْ عَلَيْهِ نَقْدٌ، فَلَمَّا وَصَلَ أَبُو زَكَرِيَّا بْنُ يَوْمُورَ بِالعَسَاكِرِ بِأَدْرِ بِخُطَابِهِ^(٦) إِلَيْهِ وَإِلَى أَبِي إِسْحَاقَ بَرَّانَ بْنِ مُحَمَّدٍ بِالْإِعْتِذَارِ عَنْ تَوَقُّفِهِ وَالِاسْتِغْفَارِ عَنْ تَخْلُفِهِ، فَسَعِيَ لَهُ أَحْسَنَ السَّعْيِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ.

(١) لَهُ ذِكْرٌ فِي نَهَايَةِ الأَرْبِ ٣٠١/٢٤.

(٢) فِي م: «لِكَيْلَا».

(٣) فِي م: «بِدْخُولِهَا».

(٤) قَوْلُهُ: «فِي أَوَّلِ...» سَقَطَ مِنْ م.

(٥) فِي م: «الْخَلِيفَةُ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ لَا يَتَسَقَّى سَجْعًا مَعَ الَّذِي بَعْدَهُ.

(٦) فِي م: «بِالْخُطَابِ».

وفي سنة أربع وأربعين وخمس مئة، في آخرها: نهض^(١) سُدْرَاي بن وزير إلى إشبيلية، فبادَرَ إليها بنفسه، فاجتمعَ بهما فيها. ثم توجهَ منها بنفسه وأهله وماله إلى حضرة مَرَّاكُش، ولَمَّا واصلَ إليها قَبِلَهُ أميرُ المؤمنين أبو محمد عبدُ المؤمن، وتَخَدَّم له الوزيرُ أبو جعفر^(٢) ابنُ عَطِيَّة حتى خَفَّ جانبُه وشكَّرَ له بِدارَه، ثم تلاه أبو الغمَر بن غَرُون، ثم تابَعهما يوسُفُ البِطْرُوجِي مُلقِيًا بنفسه، تائبًا عَمَّا جَنَاه من قبيح الفتنة في أمسيه، واجتمع الكلُّ بحضرة مَرَّاكُش. ثم نَظَرَ الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن في الحركة إلى مدينة سَلا^(٣).

وفي سنة خمس وأربعين وخمس مئة: تحرَّك أبو محمد عبدُ المؤمن من مَرَّاكُش إلى مدينة سَلا ليتطلَّعَ منها على أخبار الأندلس، فلَمَّا واصلَ إليها رأى أن يُجري ماءَ عينِ غبولة إلى مدينة المَهْدِيَّة، وهي رِباطُ الفتح من سَلا، فأمرَ بِاحْضارِ الفَعْلَةِ، وأجرى الماءَ حتى أوصلَه إليها في شهرينِ اثْنَيْن، وأمرَ باستدعاء شيوخ جميع الأندلس الذين تحت طاعته، فوصلَ كتابُه إلى أهل إشبيلية، فخطبوا أهلَ قُرْطُبَة وأهلَ بلاد ابن وزير والغربِ وبلادِ الجُوف وبلاد ابن قِيبِي والبِطْرُوجِي، فوصلوا إلى إشبيلية مُسارعين^(٤) مُبادرين، واجتمع الجميعُ بإشبيلية، وتحرَّكوا منها في الخامسِ عشرَ من ذي الحِجَّة، وسلكوا طريقًا إلى شَرِيش ومنها إلى طَرِيف، وتلك النواحي كُلُّها مُقفَرةٌ لا سُكْنَى بها ولا عِمارة لقُرب الفتنة المُهلِكة لأهل الأندلس، فأجازوا البحرَ وأخذوا الطريقَ إلى سَلا^(٥).

قال ابنُ صاحبِ الصَّلَاة: فمرَرْنَا في طريقنا على قَصْرِ عبد الكريم وليس فيه إلا قَلِيلٌ^(٦) من الناس في خِيَمَاتٍ وحانوتٍ^(٧) واحد كان سوقُهم به، والأسودُ تَزَارُّ حوَالِيَه والأرضُ مُوحِشَةٌ قَفْرة، أخلاها تَهَارُجُ الفتن. فوصلوا إليها في السابع والعشرين

(١) في م: «قام».

(٢) سقطت الكنية من م.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٤-٣١٥.

(٤) في م: «مُسرعين».

(٥) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٥، والاستقصا ٢/ ١١٩-١٢٠.

(٦) في م: «القليل».

(٧) الضبط في الكلمتين من ك.

من ذي الحجة، وهم في نحو خمس مئة فارس بين^(١) الشيوخ والأجناد والقواد ومن تبعهم من رجالهم. فأمر الأمير عبد المؤمن... على ميلين من سلا، فنزلوا إليهم وسلموا... الأندلس ما وجب...^(٢) والدعاء لهم وخليفتهم بما حضر من الكلام. وبعد هذا نزل جميع الوفد في الديار وأدرت عليهم الضيافات أتم إدار.

وفي سنة ست وأربعين وخمس مئة في أول يوم من هذا العام المؤرخ: أمر أمير المؤمنين الوافدين بدخولهم إليه وسلاهم عليه في رجة دار ابن عشرة وهو جالس على حصير في الرجة المذكورة وعليه غفارة زبيبة، وعلى رأسه عمامة صوف، والوزير ابن عطية يقدم الداخلين من الوفد ويعرف بهم و^(٣) يسميهم. فأشار ابن عطية بالتقدم في الكلام، فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن حجاج^(٤)، فقال في أثناء كلامه: إن أذفونش لعنه الله بعد ما تنحنح وسعل، ودبر وبهر، فغلط في مقال عوصا من^(٥) اللعنة بالتأييد، ثم قال: إنه أضعف بلادنا وأفقرها^(٦). فعلم الخليفة أنه أخطأ، فسكت وأعرض عنه، وحجل جميع الوفد من مقال، وهبت من حاله، فتلاقى الناس في المجلس الفقيه أبو بكر ابن الجدد، فخطب في الحين خطبة بليغة ذكر فيها أولي^(٧) الأمر العزيز والدعاء للخليفة وما يجب من البدار إلى طاعته، والدخول في جماعته، وتكلم رؤساء المجلس واحداً بعد واحد^(٨)، ثم انفصل المجلس في ذلك اليوم، ووعد الناس بالرجوع إلى المجلس والتكرار في اليوم الثاني للمبايعة، فحضر جميع الوفد ودخلوا على سبيل الدخول^(٩).

(١) في م: «من».

(٢) قوله: «الأندلس ما وجب...» سقط من م جملة.

(٣) قوله: «الداخلين من الوفد ويعرف بهم و» سقط كله من م وأخلت به، فهو أمر عجيب.

(٤) في م: «حجاج» بالميم، وهو تحريف.

(٥) في م: «عن».

(٦) في م: «وأفقرها» بتقديم الفاء، وهو تصحيف.

(٧) في م: «أولاد»، وهو تحريف لا معنى له!

(٨) في م: «واحداً واحداً»، خطأ.

(٩) ينظر الاستقصا ١١٩/٢.

ذِكْرُ بَيْعَةِ رُؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِ الْوَافِدِينَ عَلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ

بِمَدِينَةِ سَلَا وَانْخِلَاعِهِمْ لَهُ^(١)

لَمَّا دَخَلُوا عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بَادَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ سِدْرَائِي بْنُ وَزِيرٍ أَوَّلًا وَبَايَعَ عَلَى الْإِنْخِلَاعِ مِنْ بِلَادِهِ بَاجَةً وَيَابُورَةً وَأَنْظَارِيهَما، فَشَكَرَ عَلَى فِعْلِهِ ذَلِكَ. وَأَرَادَ الْبِطْرُوجِيُّ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى النَّطْقِ، وَلَا شَرَحَ بَيَانَ الْحَقِّ، فَنفَذَ عَلَيْهِ تَوْقِفَهُ، وَتَبَيَّنَ تَحَرُّجُهُ، لَكِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَفَعَ رَأْسَهُ لِلنَّاسِ وَقَالَ مُشِيرًا إِلَيْهِ: هَذَا أَبُو الْحَجَّاجِ صَاحِبُنَا بِالشَّرَفِ. فَلَمْ يَشْكُرْهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا قَبَّلَ يَدَهُ. ثُمَّ قَامَ ابْنُ غُرُونٍ وَبَايَعَ عَلَى الْإِنْخِلَاعِ مِنْ بِلَادِهِ، وَكَذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّامِ، وَكَذَلِكَ عَامِرُ بْنُ مَهْيَبٍ صَاحِبُ طَبِيرَةِ، وَكَذَلِكَ بَايَعَ جَمِيعُ مَنْ حَضَرَ مِنَ الثَّوَارِ، وَتَخَلَّفَ ابْنُ قُبَيْبٍ وَأَشْيَاخُ بِلَدِهِ شَلْبُ عَنْ هَذَا الْجَمْعِ، وَلَمْ يَحْضُرْ مَنْ يَنْوُبُ عَنْهُ، فَظَهَرَ لِلْخَلِيفَةِ فِسَادُ مَذْهَبِهِ وَارْتِدَادُهُ. ثُمَّ دَخَلَ سَائِرُ النَّاسِ مِنَ الْوَافِدِينَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى كُمَلُوا^(٢)، وَكَانَ السَّبْقُ لِأَهْلِ إشبيلية. وَتَكَلَّمَ فِي هَذَا^(٣) الْمَجْلِسِ كُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ مِنَ الْأَشْيَاخِ وَالْأَجْنَادِ وَمِنْ سَائِرِهِمْ، وَلَمْ يُثَرِّبْ^(٤) أَحَدٌ عَلَيْهِمْ وَلَوْ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ سَخِيفٍ، أَوْ تَظَلَّمَ بِطَلَبٍ ضَعِيفٍ، وَأَنْشَدَ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ أَرَادَ. وَأَمَرَ جَمِيعَ الْوَفْدِ بِالْإِنْخِلَاعِ إِلَى بِلَادِهِمْ بَعْدَ إِقَامَتِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا.

وَخَاطَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ الْأَشْيَاخَ وَالطَّلَبَةَ الَّذِينَ بِإِشْبِيلِيَّةٍ بَوَصَفِ الْحَالِ، وَبِمَا يُبْلَغُ الْأَمَلُ لِلْأَمَالِ. وَبَعْدَ إِنْخِلَاعِهِ هَذَا الْوَفْدَ تَحَرَّكَ الْأَمِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ^(٥) الْمُؤْمِنِينَ رَاحِلًا إِلَى مَرَاكُشِ حَضْرَتِهِ، وَانْصَرَفَ مَعَهُ ابْنُ وَزِيرٍ عَلَى أَمَلٍ وَجَدَلٍ وَعِدَّةٍ كَرِيمَةٍ مَبْرُورَةٍ، وَخَاطَبَ أَخَاهُ أَنْ يُمَكِّنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بِلَادِهِ، فَامْتَثَلَ ذَلِكَ وَفَعَلَ. وَأَمِيرَ الْبِطْرُوجِيِّ

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٣١٥/٦، والاستقصا ١١٩/٢.

(٢) في م: «أتموا»، وهو تحريف.

(٣) في م: «بهذا».

(٤) في م: «يعتب»، وهو تحريف قبيح، وثرب فلان عليه: لامة وعيره بذنبه، وفي التنزيل العزيز:

﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ أَلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]. يقال: ثرب عليهم فعلهم: قبحه.

(٥) في م: «أمير المؤمنين».

فَصُرِفَ مَهْجُورًا إِلَى مَرَّاكُشَ... لَبْلَةٌ مِنَ التَّمَادِي عَلَى الْإِرْتِدَادِ مَا أَوْجَبَ سَجْنَهُ... الْغَلْبَةُ عَلَيْهِمْ... بَنِ عَيْسَى.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: حَاصَرَتِ الْعَرَبُ سِيْرَوَانَ^(١)... وَضَيَّقَتْ عَلَيْهَا^(٢).

وَفِيهَا: أَخَذَ مُؤَنَسُ بْنُ يَحْيَى الْعَرَبِيُّ مَدِينَةَ بَاجَةَ وَأَطَاعَهُ أَهْلُهَا^(٣).

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ: شَرَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ فِي الْحَرَكَةِ إِلَى بَجَايَةِ وَأَنْظَارِهَا عَلَى مَا أَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذِكْرُ حَرَكَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ إِلَى بَجَايَةِ وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى

مَمْلَكَةِ بَنِي حَمَادٍ وَبِلَادٍ مُتَبَجِّجَةٍ وَتَيْسِيرِ ذَلِكَ^(٤) بِالْعَجَبِ^(٥) الْعَجِيبِ

لَمَّا أَرَادَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ غَزْوَ بَنِي حَمَادٍ اسْتَسَرَّ ذَلِكَ مَعَ خَاصَّتِهِ وَوُزَرَائِهِ، مِنْهُمْ: أَبُو إِبْرَاهِيمَ وَأَبُو حَفْصٍ وَغَيْرُهُمَا، وَأَظْهَرَ لَهُمْ مَا فِي طَبْعِهِ مِنْ ذَلِكَ، فَاشْتَغَلَ بِاحْتِشَادِ قِبَائِلِ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ جِبَالِهِمْ، وَخَرَجَ مِنْ مَرَّاكُشَ فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ سِتِّ الْفَارِطَةِ مُظْهِرًا لِلنَّاسِ غَزْوَ الرُّومِ بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى سَلَا، أَقَامَ بِهَا شَهْرَيْنِ يُرَدِّدُ الرَّأْيَ فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ وَصَلَ^(٦) مِنْهَا إِلَى سَبْتَةِ مُظْهِرًا لِلنَّاسِ الْإِجَازَةَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ. وَاسْتَدْعَى مَنْ لَهُ مِنَ الْعَمَالِ بِإِشْبِيلِيَّةٍ وَأَنْظَارِهَا، فَوَصَلُوا إِلَيْهِ، وَاسْتَوْضَحَ مَسَائِلَهُمْ. ثُمَّ رَحَلَ مِنْهَا رَاجِعًا مُظْهِرًا الْإِنْصِرَافَ إِلَى مَرَّاكُشَ، وَأَشَاعَ الذِّكْرَ بِذَلِكَ لِلنَّاسِ، وَمَقْصِدُهُ فِي نَفْسِهِ وَنَفْسِ خَاصَّتِهِ بَجَايَةَ وَبِلَادُ إِفْرِيقِيَّةٍ. وَكَانَ حِينَ حَرَكَتِهِ هَذِهِ مِنْ مَرَّاكُشَ خَاطِبَ عَامِلِهِ عَلَى تِلْمُسَانَ وَهُوَ ابْنُ وَانُودِينَ يَأْمُرُهُ بِمَنْعِ التُّجَّارِ الْمَسَافِرِينَ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالتَّحَرُّكِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ بَرًّا وَبَحْرًا لِأَجْلِ الْإِخْبَارِ، بِانْتِقَالِ الْمَسَافِرِينَ

(١) سَقَطَتْ مِنْ م، وَلَمْ نَقْفَ عَلَيْهَا.

(٢) فِي م: «عَلَيْهِمْ».

(٣) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٨٠/٤ وَالْمَقْصُودُ هُنَا سَنَةُ سِتِّ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ.

(٤) يَنْظُرُ الْكَامِلُ ١٥٨-١٥٩، وَالْمَعْجَبُ ٢٧٢ فَمَا بَعْدَ، وَنَهَايَةُ الْأَرْبِ ٣٠٢/٢٤ فَمَا بَعْدَ،

وَتَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٢٣٥-٢٣٦، وَالْإِسْتِقْصَا ١٢٠/٢-١٢١.

(٥) فِي م: «فَالْعَجَبُ».

(٦) فِي م: «تَوْصَلَ».

والتُّجَّار. فامتثل ذلك والتزم الأمر في فعله هنالك^(١). ولما فصل من طَنْجَة أخذ على قَصْر عبد الكريم على طريق جَعَلَ فيه فاسًا على يمينه، وأخذ قاطعًا إلى الشرق، ونادى منادي المحلّة عن أمره: أيُّها الناس، مَنْ تكَلَّم منكم بكلمةٍ معناها إلى^(٢) أين هو المشيُّ هل إلى الشرق أو إلى الغرب أو إلى^(٣) القبلة؟ فجراؤه السَّيف... ثم تحرَّك إلى جهةٍ بِجَايَة مُستعجلاً في الرحيل، على أول غَرْضه من التأميل، فما شعر ابنُ حمَّاد صاحبُ بِجَايَة، المعروفُ بالعزیز، حتى وصلَ عاملُه بالجزائر بعدما خرج منها، ودخلها الموحدون، فصَبَّح بِجَايَة في إثر ذلك. وعَلِم بوصولِه أبو عبد الله بنُ ميمون المعروفُ بابنِ حَمْدُون، وقد كان بينَه وبينَ أبي محمد عبد المؤمن عهدٌ على ذلك ومُوافقة، ففتح له بابَ مدينةِ بِجَايَة، وقد كان ابنُ حمَّاد حين وصله مُستنابُهُ من الجزائر نُظِر في قطعة من قطع البحر وركبها لفوره^(٤)، وراها مُفزعَةً لُدْعَرِه، وأضاف إلى القطعة المذكورة قطعتين اثنتين ملاءهما بجميع ذخائره من الجوهر والياقوت والذهب الصامت والآنية والثياب وغير ذلك، وأدخل فيها عياله، وقَدَفَت في حينه بذلك إلى مدينة^(٥)... وكان فيها أخوه شقيقه، فأحسَّ منه غَدْرَه، فرحل عنه في البحر، ووصل إلى مقرِّبة من القُسْطَنْطِينَة^{(٦)(٧)} في آخر مراسيها، وقد كان حصَّنَها برجال من عنده، فنزل في البرِّ منها على ثلاثين ميلاً وأخرج من القطائع جميعَ ماله المشحون فيها وأوقَرَه على الدواب واحتمله إلى القُسْطَنْطِينَة وأقام بها حتى نازَلَه الموحدون وحاصروه بها مدة، فرغَب في الأمان بجميع^(٨)... لعدْلِه، واثقًا بفضله، فلقي من التأنيس ما أنساه... مظنة تركه^(٩)،

(١) في م: «هناك».

(٢) سقط من م.

(٣) سقط من م.

(٤) في م: «لعبوره»، وهو تحريف.

(٥) سقطت من م.

(٦) في م: «قُسْطَنْطِينَة».

(٧) من هنا إلى قوله: «القُسْطَنْطِينَة» بعد سطرين سقط كله من م.

(٨) سقطت من م.

(٩) قوله: «مظنة تركه» سقط من م.

وانتقل بأثقاله، وأحمال ماله، وجميع أهله وعياله، مع المحلة إلى مراكش، فأعطاه الديار والأموال، وتم له الآمال، ودام هو وبنيه تحت إنعام وإكرام، حتى انقرضوا بعد هذا بسنين. وبعد استقراره بمراكش، وتوالي إسبال^(١) النعم عليه من الخليفة بالآلاف الدنانير والهبات الجزلة، وإحضاره للمذاكرة في مجلسه العالي، أشغل نفسه^(٢) بالطراد والصيد، وتعامل وتجاهل، واستعمل شبك الحديد لصيد الأسود الضواري، فكان يتحیل عليها ويصيدها ويدخلها في أقفاص حديد ويسوقها إلى عبد المؤمن ويتحفه بها، فتعقر بحضرته على معنى الملاعبة والمطاردة بين يدي الملوك، وكان يعطيه على كل أسد يصيده ألف مثقال.

واستاق ابن حماد المذكور في بعض الأيام شبل أسد صغير وأدخله إلى الخليفة في مجلسه، فأمر بحل الشبل من عقاله، فمشى الشبل بين الناس يخترق الصفوف حتى وصل إلى الخليفة فربص بين يديه، وسكن لا يتحرك من موضعه، فعجب الناس من ذلك. وكان قد سبق إليه في ذلك المجلس رزور، فتكلم بين يديه بأنواع من الكلام، فارتجل أبو علي الأشيري أبياتاً من الشعر في صفة الحال بالمجلس المذكور، وهي [من الرمل]:

أَنَسَ الشَّبْلُ ابْتِهَاجًا بِالْأَسَدِ	ورأى شبهه أيهه فقصد
ودعا الطائر بالنصر له	فقضى حقكم لما ورد
أنطق الخالق مخلوقاته	بالشهادات فكل قد شهد
أنك القائم بالأمر له	بعد ما طال على الناس الأمد

رجع الخبر: ولما استولى أبو محمد عبد المؤمن على بجاية وأنظارها، وجميع^(٣) أقطارها، كان ميمون وزير ابن حماد قد فر إلى قبائل العرب بني سليم، فكتب إليه بالأمان، والعدل والامتنان، فوصل من فوره ولقي ما وعد له^(٤) وسعد بمذهبه.

(١) في م: «سيل».

(٢) في م: «اشتغل» مكان «أشغل نفسه»، وهو تحريف وسقط في آن.

(٣) في م: «وجع»، وهو تحريف.

(٤) في م: «به»، وهو تحريف.

وكتبَ أبو محمد عبدُ المؤمن رسالةً فصيحَةً إلى أهلِ العُدوة والأندلس، بوصف^(١)
فَتْحِ بِلْجَايةَ بخطِّ أبي جعفرِ بن عَطِيَّةَ أَبَدَعَ فيها غايةَ الإبداع، ووفى شرحَ هذا الفتح
بها أبهجَ القلوبِ والأسماع، وبعثَ بها إلى سائرِ الأقطاعِ و^(٢)الأصقاع.

ذكرُ سببِ هجرِ عبدِ العزيزِ وعيسى أخوي المَهديِّ

وَمَقْتَلِ يَصْلَاتِنِ صِهْرِهِمَا وَصَلْبِهِ^(٣)

وذلك أن الأميرَ^(٤) عبدَ المؤمن لم يزل من وفاة المَهديِّ يَكْنُفُ^(٥) عبدَ العزيز
وعيسى ويُحَسِّنُ إليهما وإلى يَصْلَاتِنِ مَعَهُمَا بالإحسان التام، والإنعام العام. وهذا
يَصْلَاتِنِ يُغَوِّيهما^(٦)، ويوقدُ نارَ الحسدِ في جوانِحِهما، ويجعلُ نَقْضَ العهدِ وخَلَعَ
الطاعةِ غذاءً بجوارِحِهما، فإذا^(٧) دخلَ مجلسَ الأمرِ العاليِ دخلَ قاطبًا، وإذا خرجَ خرجَ
غاضبًا، فيستريحُ بذيِّ الأمرِ بالتصريح، وينسُبُ إليه كلَّ فعلٍ^(٨) قبيح، حتى فشًا^(٩)
سرُّه وسرُّ أصحابِه، ووَضَحَ وضوحَ الشمسِ غدرُهُ وغدرُ أترابه، وتبيَّنَ مكرُهُ في
طلابه، فأخذه^(١٠) بعد^(١١) طولِ إذايةٍ وسَجَنَةٍ^(١٢)... فلما كان إياهُ من الغزوة المذكورة...
عليه بامضاء حدِّ الحسامِ على جذعِ بمرأى من جميع الأنام. ولما كان... خذ^(١٣)

(١) في م: «فوصف»، محرّفة.

(٢) سقط من م.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٣١٦/٦، والاستقصا ١٢٤/٢.

(٤) في م: «أمير المؤمنين».

(٥) في م: «يأْتلف».

(٦) في م: «يغريهما» محرّفة.

(٧) في م: «وإذا».

(٨) سقط من م.

(٩) في ك، ر٣: «مشى».

(١٠) قوله: «في طلبه فأخذه»، سقط من م.

(١١) في ر٣: «بعض».

(١٢) في م: «وسجن».

(١٣) هكذا في ك، ر٣، وكأنه عجزَ كلمة، ووقع في م: «هذا»، وهو تحريف بين.

ليصلاتن^(١) أظهرت نفوسهم الخبيثة ما في طيها من إرادة النفاق والانتكاث، وأطمعتهم فيما لم يستحقوه أحلام الأضغاث^(٢)، فبسطت بهم بعد ذلك حوادث الأحداث^(٣)، إنصافاً على ما كانوا طُبعوا عليه من ديب عقارب الحسد، وكُملت^(٤) للأمر العالي أفاعيهم بكل رصد، فاعتقلوا بعد الهجر، ثم سُرحوا، ووصلوا إلى فاس، وأعطوا ومُنحوا فلم يقنعوا، فكان من حديثهم ما يطول فيه البيان، فقتلوا وضلّبا في جذعين في ذي القعدة من^(٥) عام ثمانية وأربعين وخمس مئة على ما يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى^(٦).

وفي سنة سبع وأربعين وخمس مئة: كان وصول أبي محمد عبد المؤمن إلى مراکش حضرته من حركة بجاية، فلما استقر بها وفد الناس إليه من جميع بلاده مهنيين له بيايه، وبما منحه الله من الظفر بأعدائه، ويسر له من طلابه، مُستبشرين بيمين سلامته، وعودته إلى مقرّ خلافته^(٧).

ووفد وفد إشبيلية في جملة من وفد وورد، وفيهم القاضي أبو موسى عيسى بن عمران رحمه الله تعالى، فأنشد في معنى التحريض على البيعة للسيد أبي عبد الله ابن الخليفة عبد المؤمن، وهي [من الكامل]:

طال انتظارُ العالمين لبيعة	فقلوبهم كالنار ما لم تُعقد
فليؤرينك الله بعد تمامها	عُمراً يطول بنصر دين محمد
إن قيل من للأمر واحتفل الورى	لأجاب كلّ بالجواب الأqvد

(١) في م: «الوصلاتن»، وهو تحريف.

(٢) في م: «أضغاث الأحلام» ولا ندرى من أين أتوا بها.

(٣) في م: «الأحاديث»، وهو تحريف ظاهر لا يتفق مع الانتكاث والأضغاث!

(٤) في م: «وكش»، وهو تحريف.

(٥) سقط من م.

(٦) قوله: «إن شاء الله تعالى» سقط من م.

(٧) تاريخ ابن خلدون ٦/٣١٦.

أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ تَبَيَّنَ نَوْرُهَا لِلنَّاضِرِينَ عَلَى جَبِينِ مُحَمَّدٍ
 ذَاكَ الَّذِي أَعْطَيْتُكَ كُنْيَةً إِسْمِهِ ^(١) لِيَحُورَ أَكْرَمَ غَايَةِ لِلْسُّودِدِ
 فَرَعَ غَذَاهُ الْعِلْمُ مِنْ لَدُنْ نَشْأَةٍ حَتَّى اسْتَوَى وَغَدَا مَنَارَ الْمُهْتَدِي ^(٢)
 مَا عُدُّ مَنْ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ أَصْلُهُ أَلَا يَنَالُ الْعِلْمَ أَخْذَاً بِالْيَدِ

فاستحسنها أمير المؤمنين، وكانت حاجة في نفس يعقوب، فأعربت له عن ضمائر القلوب، وشاع قبول هذه الأبيات عند أشياخ الموحدين؛ فتكلموا في ذلك بإجماع وإصفاق، وقالوا: إنَّ القول قولهم على أصحِّ الاتفاق ^(٣)، وبأدَر الناس من طلبة الحضر والأشياخ بالرغبة في تنجيم ^(٤) هذا الخبر، وتوالت الرغبات ^(٥) يوماً بعد يوم وصرَّحوا أنَّ السعدَ لهم في انتظام ^(٦) الأمر العزيز بالعهد الكريم. فقبل أمير المؤمنين منهم، واستحسن القول عنهم.

ووفدت الشعراء للتهنئة بفتح بجاية، فمنهم: أبو عمر بن حربون ^(٧)، قال من قصيدة طويلة يمدحه ويذكر وقعته في العرب [من الطويل]:

إلى هذه كان انتهاء المطالب فسقياً ورعيّاً بعدها للركائب ^(٨)
 فيا نعمة كانت من الله نقمة على كلِّ مُزور ^(٩) عن الحقِّ ناكبٍ

(١) في م: «أعطته كنيته اسمَه».

(٢) في م: «مهتد».

(٣) في م: «اتفاق».

(٤) سقط اللفظ من م.

(٥) في م: «الرعية»، وهو تحريف عجيب!

(٦) في م: «انتظامهم».

(٧) في ك، ر: «حزمون» مصحف، وهو أبو عمر أحمد بن عبد الله بن حربون الشلبي الشاعر المعروف.

(٨) في م: «للمراكب».

(٩) في م: «مغرور»، وهو تحريف.

جلا السعدُ والترائبُ^(١)

وصَيْرَنَ^(٢) بِيضَ الهندي حُمْرًا كَانَمَا^(٣) سَفَرْنَ إلينا عن حدودِ الكواعبِ

وقائعُ غَارَتْ في البلادِ وأنجَدَتْ فَمَدَّ يَدًا لِلسَّلمِ كُلُّ مُحَارِبِ

فَأَيَقَنَ مُرْتَابٌ وَأَمَّنَ كَافِرٌ وثَابَتْ إلى العاصي بصيرةُ تَائِبِ

فكيف يُطِيقُ النَّاسُ شُكْرَ جَنَابِكُمْ وَأَعْمَارُهُمْ^(٤) من بعض تلك المواهبِ

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة: تحرَّك أبو محمد عبدُ المؤمن من حضرته^(٥) مَرَّ اكْشَ إلى مدينة سَلا لِتَشِيعَ^(٦) كُبراءُ العربِ الوافدينَ عليه بالطاعة مع بعض أُمرائِهِم من إفريقية، وفي نفسِه أن يربطَ فيها^(٧) العهدَ الميمون، و^(٨) الطاهر المصُون، فلَمَّا وَصَلَ سَلا انعقدت البيعةُ لابنه محمد على أوفى شروطها ورُبوطها^(٩). وأمرَ بالكَتَبِ في وَصَفِ الحالِ ورغبةِ بالموحِّدين في البيعة المذكورة المؤذنة لهم بِبَسْطِ الآمالِ، وذلك من إنشاء ابن عَطيَّة، فوصلت البيعاتُ من كُلِّ الجهاتِ^(١٠)، ووَفَدَتِ الشعراءُ من الأندلسِ للتهنئة على هذه البيعة السعيدة، فمنهم: أبو الوليد إسماعيلُ بن محمد الشَّوَّاشِ، فقال من^(١١) قصيدة [من الطويل]:

أجابَ به داعي الحياة مُثُوبًا فبادرَه واستنجدَ الرِّيحَ مَرَكبًا^(١٢)

(١) كذا في النسختين، لم يبقَ من البيت سوء ما أثبتنا، وسقط البيت جملة من م.

(٢) في م: «وصير».

(٣) في م: «كانما».

(٤) في م: «وأمرهم».

(٥) في ر ٣، م: «حضرته».

(٦) في ر ٣، م: «ليشيع».

(٧) سقط من م.

(٨) في: «والعهد الطاهر» وفي م: «الطاهر» من غير الواو.

(٩) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا.

(١٠) في ك: «من كل جهات».

(١١) في م: «في».

(١٢) قدم البيت الأول على الثاني في ك.

إِمَامٌ هُدًى يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ مُعَلِّناً
خَلِيفَةً مُهَدًى السُّورَى وَأَمِينُهُ
حَوَاهُ أَمِينٌ لِلْإِمَامَةِ حَافِظٌ
وَأَنْجَزُهُ فِي الْفَتْحِ صَادِقٌ وَعَدِهِ
لَقَدْ رَضِيتَ فِيكَ الْخِلَافَةَ مُرْتَضًى
وَبِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالْفُوزِ وَالرِّضَا
وَنُوجِيتَ بِالسَّعْدِ (٣) الَّذِي قُدِّرَتْ لَهُ (٤)
هُوَ الْمَلِكُ الْمَيْمُونُ فِي مَطْلَعِ الرِّضَا
فَأَنْشَى مِنْ صَفْوِ الْحَيَاةِ وَسَرَّهَا
وَيَكْفِيهِ فَخْرًا يَضْمَنُ الْفَضْلَ وَالنُّهَى

فِيَا فُوزَ مَنْ لَبَّى وَيَا وَيْلَ مَنْ أَبَى
تَوَلَّاهُ فِي الْمَحْيَا (١) وَوَالَاهُ مُعَقِّبَا
وَأَدَى حَقَّوَقَ اللَّهِ فِيهِ وَأَوْجَبَا
فَمَكَّنَهُ فِي الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبَا
لَهَا (٢) أَوْجَبْتَ فِيكَ الدِّيَانَةَ مُجْتَبًى
وَلَايَةَ عَهْدٍ تُطْلَعُ السَّعْدَ كَوَكْبَا
فَأَمْضَيْتَ أَمْرًا كَانَ أَوَّلَى وَأَوْجَبَا
أَنَارَ وَفِي حُجْرِ الْمَعَالِي تَرْتَبَا (٥)
وَبَوَّئِ مِنْ مَغْنَاكَ غَيًّا مُؤَشِّبَا (٦)
بَأَنَّ كَانَ مِنْكَ ابْنًا وَكَنْتَ لَهُ أَبَا

وَمَدَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْقُصَادِ، فَهَنُوهُ بِالْبَيْعَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَغَلَبَتْهُ عَلَى بَنِي

حَمَادٍ.

وَلَمَّا كَمُلْتَ رَغْبَةُ الْمُوَحِّدِينَ فِي الْبَيْعَةِ (٧) لِلابْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، وَأَخَذُوا بِيَدِهِ،
وَارْتَبَطُوا بِالْمُعَاهَدَةِ عَهْدِهِ (٨)، رَأَوْا أَنَّ الْعِزَّةَ تَابِعَةٌ لَهُمْ فِي تَوَلِيَةِ السَّادَاتِ الْبَيْنِينَ، وَأَنَّ
الْخَيْرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، يُوَالُونَ الرِّغْبَاتِ فِي تَوَلِيَةِ هَاتِهِ الْوَلَايَاتِ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ
مَا بَاشَرُوا بِهِ مِنْ رَغْبَاتِهِمْ، وَأَسْعَفَهُمْ فِي طَلَبَاتِهِمْ.

(١) فِي م: «لِلْمَحْيَا».

(٢) فِي م: «لَا».

(٣) فِي م: «بِالْأَمْرِ».

(٤) فِي م: «قَرَّ عِلْمُهُ».

(٥) فِي م: «تَرْتَبَا».

(٦) زَعَمَ نَاشِرُو (م) أَنَّ مَكَانَ الْبَيْتِ بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ، مَعَ أَنَّهُ ثَابِتٌ فِي ك، ر، ٣، كَمَا تَرَى.

(٧) فِي م: «بِالْبَيْعَةِ».

(٨) فِي م: «وَارْتَبَطُوا بِالْمُعَاهَدَةِ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ وَسَقَطٌ.

ذِكْرُ^(١) ولاية السّاداتِ الأكرمين أولادِ الخليفة

أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي^(٢)

وَلِيَ السَّيِّدُ الْأَعْلَى أَبُو حَفْصَ مَدِينَةَ تِلْمَسَانَ، وَتَوَجَّهَ مَعَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ بَرُو^(٣)....
عَلَيْهَا، وَصَهْرًا لِلْخَلِيفَةِ^(٤)، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبَّاسٍ... فَالَهُ^(٥)، وَوَلِيَ السَّيِّدُ أَبُو سَعِيدٍ^(٦)
غَرْنَاطَةَ، فَمَشَى مَعَهُ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ وَأَبُو سَعِيدٍ عَثْمَانُ بْنُ مَيْمُونٍ
الصَّنْهَاجِي، ثُمَّ انْصَافَ إِلَيْهَا^(٧). بَغَرْنَاطَةَ عِنْدَ مَشْيِ السَّيِّدِ إِلَيْهَا أَبُو يَحْيَى بْنُ بَخِيْتٍ،
وَمِنْ الْكِتَابِ: أَبُو الْحَسَنِ بْنُ هَرْدُوسَ^(٨)، ثُمَّ ابْنُ طُفَيْلٍ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ بْنُ حُبَيْشٍ الْبَاجِي،
وَتَوَجَّهَ السَّيِّدُ الْأَسْنَى أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى بَجَايَةَ، وَسَارَ مَعَهُ عَلَى مَعْنَى التَّدْرِيبِ
الشَّيْخُ أَبُو سَعِيدٍ يَخْلُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ. وَوَلِيَ السَّيِّدُ أَبُو الْحَسَنِ عَلَى مَدِينَةِ فَاسٍ، فَسَارَ
مَعَهُ وَزِيرًا يَدْرِئُهُ أَبُو يَعْقُوبَ يَوْسُفُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَمِنْ الْكِتَابِ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ مَضَاءَ
يُعَلِّمُهُ وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ.

رَجَعَ الْخَبَرُ لِسَبَبِ مَقْتَلِ أَخَوَيْ الْمَهْدِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى: لَمَّا كُمِلَتِ الْبَيْعَةُ
لَوْلِيِّ الْعَهْدِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَاتَّصَلَتْ بِهَا الْوَلَايَاتُ لِلْسَّادَاتِ، دَبَّتْ عَقَارِبُ الْحَسَدِ فِي قُلُوبِ
عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعِيسَى وَأَصْحَابِهِمَا بِمَكَانٍ مَقَرَّهُمْ بِمَدِينَةِ فَاسٍ، وَاشْتَعَلَتْ نَارُ الْحَسَدِ فِي
نَفُوسِهِمْ، وَكَسَتْهُمْ ثِيَابُ الْحَقْدِ عَوَضًا مِنْ لُبُوسِهِمْ، مَعَ مَا كَانُوا طُبِعُوا عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ

(١) فِي م: «ذَكَرَى».

(٢) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٦/٣١٦، وَالْإِسْتِقْصَا ٢/١٢٤، وَذَكَرَهَا ابْنُ الْأَثِيرِ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ ٥٥١
مِنْ الْكَامِلِ ١١/٢١١-٢١٢.

(٣) فِي م: «بَدُو»، وَلَمْ يُنَبِّهُوا إِلَى الْفَرَاغِ الَّذِي بَعْدَهُ.

(٤) فِي م: «وَصَهْرُ الْخَلِيفَةِ».

(٥) فِي م: «بَالَهُ».

(٦) فِي ك: «أَبُو عَثْمَانَ سَعِيدٌ» وَهُوَ غَلَطٌ.

(٧) سَقَطَ مِنْ م.

(٨) فِي م: «الْعَرْدُوسُ». وَيَنْظُرُ تَعْلِيْقُنَا فِي الصَّفْحَةِ ٢٣٨ مِنْ هَذَا الْمَجْلَدِ.

الاعتقاد وكاس الأحقاد، يتنكرون^(١) للفتوح والأفراح، ويحسدون الأمر على الماء القراح. فسروا^(٢) في الحين ليلاً ونهاراً إلى مراكش لينتقضوا ما عقده الله في محله وأمله لأهله، وتواعدوا مع أصحابهم أن يجتمعوا في جامع علي بن يوسف فأخلفوهم وأفردوهم وتحيلوا^(٣) بسوء تدبيرهم ورأيهم الفرصة في حلهم أن في الليل والنهار تكمن^(٤) الآجال، وأن الأدواء تشعب بسبب الاستعجال، فلم يعلموا ذلك، بل استعجلوا لأنفسهم^(٥) أقدار المهالك.

وحين بلغ الخليفة خروجهم من فاس على غير طريق ساء ظنه بهم، فوجه في الحين ابن عطية ليصددهم عن تعددهم ويردهم عن التغيير الذي يرددهم، فوصل ابن عطية إلى مراكش في يومين، فوجددهم قد أحدثوا أحداثاً وقتلوا واليها ابن يفراخن^(٦) المستتاب بها، فنذ لهم من الله القضا، وحق فيهم من الحسام الاقتضا، فقتلوا وصلبوا بأعلى جذع، وقتل عيسى قرب باب الدباغين، وعبد العزيز بباب أغمات، ثم بعد توجه الوزير ابن عطية خرج الأمير أبو محمد عبد المؤمن من سلا قافلاً إلى حضرته مستطعاً ما حدث وكان^(٧) مستمعاً، حتى توسط الطريق فتلقاها الثفج^(٨)، وأدركه الفتح والفرج، في وادي كسس، فوصل مراكش ودخل داره، وقرّ قراره، فأخذ في قطع دابريهم، وتحكم السيف في أولهم وآخرهم، فلما أكمل غرضه وأهلك الله من بغى عليه، وتفرغ ذهنه، وظهر له من الله عونه، أمر الوزير الكاتب أبا جعفر ابن عطية بالكتب إلى جميع البلدان، فكتب بما لا مجال معه من الفصاحة والبلاغة في ميدان، وشرح حالهم.

(١) في م: «يتكّدرون».

(٢) في م: «فسدوا».

(٣) في م: «وتحينو»، وما أثبتناه من النسخ.

(٤) هكذا في النسخ وفي ك، م: «تكمن».

(٥) في م: «أنفسهم».

(٦) هكذا في النسخ، وفي م: «تفراجين».

(٧) في م: «وما كان»، وما أثبتناه من النسخ.

(٨) في م: «الشبج»، وهو تحريف.

ذكرُ مقتل الناكثينَ معهما من الموحدينَ وأصحابها

ولمّا وصلَ الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن إلى مراكش لم يزلَ يتبعُ^(١) الإيقاع بأصحابِ الناكثينَ المذكورينَ، فألفاهم في جَمْعهم أكثرَ من كلِّ قبيلٍ وقد خالطَهم من أهلِ التخليط من سائرِ القبائلِ بعضُ نفرٍ قليلٍ، فقَبَضَ عليهم وسُجِنُوا، ونفَذَ الأمرُ بعدَ إحضارِهم وإقرارِهم لإخوانِهم من كلِّ قبيلٍ أن يتولَّوا قتلَ إخوانِهم بأيديهم ويكونوا... للأمرِ العاليِ ثارَه، وقطَعُوا من العدوِّ مِفصلَه وفِقارَه. وطلَعَ عبدُ المؤمن في أعلى البُرج الذي على قَصْرِ الحَجَر للجلوسِ وهو حَقْدُ^(٢) عليهم وعَبُوسٌ، وأحْضَرَ أولئك الغادرينَ المنافقينَ المسجونينَ، فامتثلَ الموحدونَ ما أُمروا به من قتلِهم في أيامٍ، وذلكَ يومًا بعدَ يومٍ، فنشأت من الموحدينَ إثر ذلكَ بعضُهم في بعضٍ من كلِّ مَشَاءٍ بنميمةٍ، وسَمَاعٍ في فتنةٍ مُليمةٍ، فطَرَقَ للموحدينَ في هذا الوقتِ وَحْشَةٌ من الحَجَلِ والوَجَلِ، ودهشةٌ من قبيحِ ما ظهر من الغادرينَ المذكورينَ من نكوثِ العهدِ في السَّهْلِ والجبلِ، فترامُوا على خليفَتِهم راغبينَ في العفوِ وإزالةِ الكَدْرِ، وجَلَبَ ما تعودوه من الخُلوصِ والظَّفَرِ، فقبِلَ منهم ما أَمَلُوا وتعطفَ عليهم على عادَتِهِ بها سألُوا، وكتبَ إلى البلدانِ رسالةً بتغافرِ الموحدينَ، من أفصحِ الرسائلِ، تبيَّنَ عن الأحوالِ المذكورةِ لكلِّ مُستفهمٍ وسائلٍ، من إنشاءِ ابنِ عَطيّة، بتاريخِ سنة ثمانٍ وأربعينَ وخمسَ مئة.

وأقام عبدُ المؤمن بعدَ ذلكَ شهرًا مُواليًا إحسانَه وإنعامَه على جميعِ الموحدينَ المُتظافرينَ^(٣) حتى أخذُوا ما كان من تلكِ الهيعةِ، ورأَوْا بإدْرارِ البركاتِ والمسراتِ أنها خيرٌ من الدَّعةِ في الأرجا، فضلًا منه وإجمالًا، وطَوَّلًا تابَعه تألَّفٌ في القلوبِ واشتمَلت عليه اشتمالًا. ونَظَرَ فيها استخارَ اللهُ فيه من البعوثِ إلى الأندلسِ.

وفي سنة تسع وأربعينَ وخمسَ مئة: نَظَرَ أبو محمد عبدُ المؤمن في توجيهِ البعوثِ إلى حِمايةِ الأندلسِ، وكان أبو زكريا يحيى بنُ يُومور^(٤) متردِّدًا بالنظرِ والحماية بما أَمَرَ

(١) في م: «يتبع»، وما أثبتناه من النسخ.

(٢) في م: «حاقد»، وهو تحريف.

(٣) في م: «المتغافرين»، وهو تحريف.

(٤) في تاريخ ابن خلدون ٣١٦/٦، والاستقصا ١٢٥/٢: «يغمور».

به من الولاية بقرطبة وإشبيلية، فطراً عليه أنّ الشقيّ الغادر عليّاً الوهبيّ غدر مدينة لَبْلَةَ ليلاً، وجَرَّ إلى أهلها عَصِياناً وويلاً، أتاها ليلاً وأهلها نيام، فلم يشعروا إلا وقد حَلَّ بهم الداءُ الهيام، فكان منهم قومٌ سَبَقُوا إلى قَصْبَةِ الموحّدين ودخلوا فيها، فأَمِنُوا من عادية الحادثة ودعاويها، وأنّ الجميع ذهلوا فلم يقدرُوا على الوُصُول، وحصلُوا في حالة الذُّهول. فحين وصل الخبرُ إلى أبي زكريّا وهو بقرطبة خرج من فوره بعسكره، وسرى ليلاً ونهاراً إلى لَبْلَةَ، فلما قاربها تقدّم سرعانُ الموحّدين فدخلوا القَصْبَةَ إلى إخوانهم فتقوَّوا بهم وأبو زكريّا على أثرهم، فهربَ الشقيّ المذكور، وخرج أهلُ لَبْلَةَ إلى أبي زكريّا في صَبِيحَةِ فرار الغادر معتذرينَ طائعين، فلم يعذُرْهم فيما جنّى لديهم بل ظلّمَهم وتعدّى ببغيه عليهم فقتلَهم أجمعين، واستبدَّ في ذلك برأيه الخسيس اللعين، ولم يستأذن الأمير^(١) في حديثهم، وكان معه أبو الغمر بن عُرُون^(٢) فصوّب له إنفاذ السيف في برّهم وخبيثهم، ولم يُصْغِ إلى صوت مُستغيثهم، وكان هذا الثَّكُلُ على أهل لَبْلَةَ يومَ الخميس الرابع عشرَ من شعبان سنة تسع وأربعين وخمس مئة. ولَمّا وصل عبدُ المؤمن ما فعل يحيى بنُ يومورَ في أهل لَبْلَةَ بانفراده واستبداده بعثَ أبا محمد عبدَ الله إلى إشبيلية يأمرُه بأخذه واعتقاله بمشاركة برّان بن محمد، فأخذه يومَ الفطر من عام تسعة وأربعين، وجدها بالمُصَلَّى فاجتمعوا به وأنهبوا إليه ما أَمِرا به، فامتثلَه، فاعتقلاه في الحديد وأدخلاه في قطعه^(٣) في...^(٤)

ونَهَضَ عبدُ الله بن سُلَيْمان به، وبقيَ أبو إسحاق واليًّا على^(٥) إشبيلية لتثقيف أموال لَبْلَةَ في المخزن، فلَمّا وصل ابنُ يومورَ المَعْمَرَةَ^(٦)... فأخّر فدام على ذلك إلى أن زار أميرُ المؤمنين قبرَ المَهدي، وسار المذكورُ في جُمْلَةِ الناس فعفا عنه وأمنه وبقيَ

(١) في م: «الأمر»، وهو تحريف.

(٢) في م: «عزّون»، وهو تصحيف.

(٣) الاستقصا ٢/ ١٢٥.

(٤) سقطت من م.

(٥) قوله: «واليًّا على» جعل بياضاً في م مع وجوده في النسخ الخطية!

(٦) هكذا في النسخ، واستبدلها ميرندا بالحضرة، وتبعه ناشرو (م)، والمعمرة هنا بمعنى الحضرة.

عليه حساب الآخرة. ثم إنه وجهه أمير المؤمنين إلى تِلْمَسَانَ مع ابنه^(١) السيّد أبي حفص في جملة أشياخ الموحّدين الماشين صُحْبَتَهُ، وفي آخر هذه السنة وصل ابن وزير إلى أمير المؤمنين وهنّاه على ظهوره وعَلَبَتِهِ، وأخبره بتسلّط العدو ابن الرّنك على الثغور وملازمته لهم لقطع زروعهم والإغارة عليهم في بسائطهم وشتّ شمل جميعهم، فأمر بالكتب لهم بتأنيسهم وعدتهم^(٢) بالنصر الذي كان يؤمّله قبلكم ويستعدّه لغزو أعدائهم ويعدّ برفع ضرائرهم ونيل سرائرهم^(٣)، وخاطب بذلك أهل باجة وأهل يابرة، وكان الكتب لهم بتاريخ الثالث والعشرين من محرّم عام خمسين وخمس مئة.

وفي سنة خمسين وخمس مئة: بعث عبد المؤمن إلى إشبيلية وقرطبة واليّن، وكانا^(٤) دون أمير من الموحّدين في هذه المدة التي أوقع فيها بابن يومور دون من يدافع عليهما.

ذكر ولاية عبد الله بن أبي حفص بن علي

على إشبيلية وأبي زيد عبد الرحمن بن بخيت^(٥) قرطبة

كان وصولهما إلى الأندلس في هذه السنة المؤرّخة، فأقام أبو محمد بإشبيلية ونهض أبو زيد إلى قرطبة، فعندما وصل إليها خرج مع الموحّدين إلى حصن البطروج وما يليه من الحصون التي فيها النصارى دمّرتهم الله تعالى، وفتح الله به عليهم بهزائم شتى، وصحبته النصر على ما يراد ويأتي^(٦)، وهزم القمط اللعين صاحب بطروج، ثم تغلب على الحصن المذكور بعد ذلك وأخذ فيه القمط المذكور وبعث به إلى مراکش.

ولما وصل هذا الفتح والنّجح إلى أبي محمد بن أبي حفص بإشبيلية، أمر بضرب الطبول عليه سروراً بذلك، ودخل أهل إشبيلية عليه مهينين، فتكلّم له أحد أشياخ

(١) من ك فقط.

(٢) في م: «وعدته».

(٣) في م: «ضرائهم ونيل سرائرهم»، وما أثبتناه من النسخ كافة.

(٤) لو قال: وكاتنا، لكان أحسن.

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «بكيث» (٦/٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣)، وفي تاريخ

ابن صاحب الصلاة (ص ١٢٠): «تيجيت».

(٦) في م: «ويتأتى».

إشبيلية بعد السّلام عليه وقال له: لم تَجِر العادةُ بضَرْب الطُّبول بإشبيلية على فتوح أهل قُرْطُبة، فتغيّر لونُ أبي محمد المذكور وفَهِم ما أشار إليه، فنَظَرَ في الأحشاد ونَصَب الأجناد وتفاوَضَ في أمرِهِ معَ أبي إسحاق بَرّان صاحبِ المخزن فيما عَزَمَ عليه من الجهاد، فصَوَّب مُرادَهُ وَقَوَّى اجتهادَهُ، وَكَتَبَ إلى صاحبِ بطليوس يُعَلِّمُهُ بما في نفسه، وأمرَهُ بجمع أجناد الثَّغر الذي إليه، وأن يكونوا على استعداد وعلى وَعْد صحيح بالمرصاد. وخرج أبو محمد المذكورُ بعسكرٍ وافرٍ، والتَفَّ بالعسكر المذكور من أهل إشبيلية وأَقْطَارِها قومٌ كثير من المجاهدين المحتسين، إلى أن وصل بطليوس، فاتفق رأيُ الجميع على غزو جهة من جهات ابن الرنك أهلكه الله، وعزَموا على ذلك، فلَمَّا أجازوا قَنْطَرَةَ السَّيْف أسروا إلى حصن أطرونكس، وكان حديث الإسكان للنصارى والبُنيان، فأغاروا على جهاتِهِ وَجَنَابَتِهِ، وامتَلأت أيدي المسلمين من نسايتهم وأبنائهم ومواشيهم، وأباحوا السَّيْفَ في رِقاب رجالِهِم، وتَقَبَّضُوا على جميع أموالِهِم، ثم إتهم وصلوا إلى الحصن المذكور فقاتلوه ساعةً من النهار، وتغلَّبوا على الكفرة الفُجَّار، وقتلوا جميعَ الرجال وسَبَّوا^(١) النساء^(٢)... والأموال. واتصل الخبرُ بالنصارى المُجاورين لهم، فاحتشدوا وجاؤوا مُسرِّعينَ راغبينَ لنَصْر^(٣)... وغوث أبنائهم وصُلبانِهِم، فلَمَّا تراءى الجُمُعانُ أَكْثَرَ المسلمونَ من الصَّبر وتلاوة القرآن فانهمزَ الكُفَّارُ وولَّوا الأدبار مُستصحبينَ الحَسارَ والدمار. فترادَّفت للغنائم^(٤)، ونفل^(٥) الله المسلمين^(٦) خيرًا من جزيل المغانم.

ثم رجع أبو محمد إلى إشبيلية بنفسه، وقَسَمَ عسكره والخُمُسَ من الفَيءِ المذكور. وخاطَبَ الحضرةَ بصورةَ الفتح، وخاطَبَ ابنَ بخيتَ من قُرْطُبةَ لِمَا اتفق من الفتح،

(١) في ق: «وأسروا».

(٢) بعد هذا فراغ قدر كلمة.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) سقطت من م.

(٥) في م: «وفعل»، وهو تحريف.

(٦) في م: «للمسلمين»، خطأ.

ثم تَوَالَى غَزُوُ ابْنِ بَخِيْتٍ مِنْ قُرْطُبَةَ لِبَعْضِ الْحِصُونِ، وَنَارَزَلَهَا وَتَغَلَّبَ عَلَيْهَا، مِنْهَا: حَصْنٌ مُتَنَوِّرٌ، وَحَصْنٌ الْمَدَوَّرُ، وَغَيْرُهُمَا، وَخَاطَبَ الْحَضْرَةَ بِجَمِيعِ هَذَا الْفَتْحِ مَفْسَّرًا مُبَشِّرًا، فَنفَذَ الْأَمْرَ الْعَالِي لِأَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي حَفْصٍ وَالْيَإِشْبِيلِيَّةَ وَإِلَى أَبِي زَيْدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ بَخِيْتٍ بِالْمَشْيِ إِلَى الْحَضْرَةِ وَزِيَارَتِهَا، فَمَشَى.

وَلَمَّا وَصَلَ الْوَالِيَانِ الْمَذْكُورَانِ^(١) مِنْ قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَّةَ إِلَى الْحَضْرَةِ بَايَعَا خَلِيفَتَهُمَا وَعَرَّفَاهُ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ لَهُمَا بَيِّمْنَ نَظَرِهِ وَجَدَّ عَسْكَرِهِ، وَبِرْعَايَةِ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ وَدَعَاءِ أَهْلِهَا لَهُ بِالتَّأْيِيدِ عَلَى نَصْرِهِ الْمَدِيدِ. وَاتَّصَلَ تَوْحِيدُ أَهْلِ غَرْنَاطَةَ وَفَتْحُهَا، فَتَوَالَتْ عَلَى الْحَضْرَةِ الْبَشَائِرُ، وَرَغِبَا مِنَ الْحَضْرَةِ أَنْ يُشَرِّفَهُمَا بِسَيِّدٍ يَصُلُّ مَعَهُمَا إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ وَقُرْطُبَةَ يَسْتَنْدَانِ إِلَيْهِ وَيُخْدِمَانِهِ^(٢)، وَحَضَرَ أَبُو بَكْرُ بْنُ الْجَدِّ، فَرَغِبَ مَثَلَهُمَا وَصَرَّحَ فِي رَغْبَتِهِ بِاسْمِ السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ، فَقَبِلَ رَغْبَتَهُمْ وَبَعَثَهُ مَعَهُمْ بِعَسْكَرٍ مَنْصُورٍ، غَرْنَاطَةَ مَعَ جُمْلَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُوَحِّدِينَ أُولِي النَّجَابَةِ وَالظُّهُورِ.

اختصارُ الخبرِ بفتحِ غَرْنَاطَةَ وأخذِهَا مِنَ اللَّمْتُونِيِّينَ وَتَمَكِينِ

ابْنِ يَدَّرٍ مِنْهَا لِلْمُوَحِّدِينَ، وَوَلَايَتِهَا السَّيِّدُ أَبُو سَعِيدٍ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ^(٣)

وَلَمَّا اتَّصَلَ خَبَرُ هَذِهِ الْفَتْوحِ الْمَذْكُورَةِ بِمَيْمُونِ بْنِ يَدَّرٍ^(٤) اللَّمْتُونِيِّ الْوَالِي عَلَى غَرْنَاطَةَ، وَصَحَّ عِنْدَ اللَّمْتُونِيِّينَ الَّذِينَ بِهَا مَا ذَكَرْتُهُ، جَزَعُوا مِنْ انْفِرَادِهِمْ وَقَلَّةِ أَعْدَادِهِمْ، فَخَاطَبُوا الْحَضْرَةَ رَاغِبِينَ فِي الصُّلْحِ، وَأَنْ يُعْفَى عَنْهُمْ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ وَأَمَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ صَاحِبَ الْأُسْطُولِ بِسَبْتَةِ وَأَبَا سَعِيدٍ ابْنَ^(٥) أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا أَنْ يَكُونَ لُجْوَانِهِمْ^(٦)، فَأَجَازَ الْبَحَرَ إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضِرَاءِ وَنَهَضَ مِنْهَا إِلَى غَرْنَاطَةَ الْمَذْكُورَةِ، فَتَلَقَّاهُ^(٧) مَيْمُونُ بْنُ

(١) فِي النِّسْخِ: «الْوَالِيَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ»، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي هَذَا الْكِتَابِ فَأُصْلِحَ لِبِشَاعَتِهِ.

(٢) فِي م: «وَيُحْتَرِّمَانِ بِهِ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

(٣) الْكَامِلُ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٢٢٣/١١، وَتَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٣١٧/٦، وَالْإِسْتِقْصَا ١٢٥/٢.

(٤) فِي الْمَصَادِرِ السَّابِقَةِ: «بَدْرٌ» وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

(٥) سَقَطَ مِنْ ق.

(٦) فِي م: «جَوَابِهِمْ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

(٧) فِي ق، ر، ٣: «فَتَلَقَّاهُ».

يَدْرَ المذكور وإخوته المثلثون^(١) بأوفى برٍّ وإكرام، وأحفى بشر واهتمام، وقال: ادخلوها
بتحية وسلام، وخرج الجميع من المثلثين راجعين مع أبي محمد المذكور إلى العُدوة
أمينَ في نفوسهم وأهلهم وأموالهم وبنينهم، ووصلوا في صحبته إلى الحضرة، وأنجز
لهم ما وعدوا به من الخيرات والإسكان في الديار، والآمال في الاستقرار.

وكتب أمير المؤمنين إلى ابنه أبي سعيد بالإجازة إلى الأندلس وبإضافة ولاية
غرناطة إلى ما بيده من عمل سبته، فأجاز البحر بجمع من الموحدين والجند المسترزين،
فوصل إليها وملكها، وبادر إليه من سعد من الثوار المجاورين لها، كأبي مروان بن
سعيد وبنيه، وكأبي جعفر بن ملحان وغيرهم، ولما استقر السيد الأسنى بغرناطة
بعث عسكره إلى الميرية^(٢)... ولتطلع أحوال النصارى...^(٣) فنهض العسكر
وكمّن على مقربة منها إلى نصف النهار، ثم خرج، وأغاروا على باب الميرية وقتلوا من
النصارى عددًا كثيرًا ورجعوا من غارتهم إلى حصن برجة^(٤)، فبادر أهل الحصن للقاء
الموحدين وقالوا لهم: إن النصارى بقصبة الميرية في عدد قليل فنزلوا برجة وخطبوا
السيد بغرناطة بمقالة أهل برجة، ونصحهم، فاحتفل السيد في الأحشاد وجمع
الأجناد، ونهض من^(٥) غرناطة، فوصل الميرية ونازلها ونصب المجانيق عليها،
فاستغاث الكفرة الذين في القصبة بغويهم أذفونش فوصلهم بعسكره الذميم ووصل
معه حليفه ابن مُردنيس مُعينًا له، فلم يجدوا سبيلًا للقصبة ولا للدخول عليهم،
فنزلوا على بُعد وعلى حال خزي لا يُقدر لهم على شيء.

وكان في جملة عسكر الموحدين: أحمد بن ملحان^(٦) الثائر بوادي آش مع من

(١) في النسخ: «المثلثين»، ولا يصح، وقد سبق أن نوّهنا غير مرة أن هذا يقع في الكتاب بكثرة فأصلح.

(٢) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) معجم البلدان ١/ ٣٧٤.

(٥) في م: «أهل»، خطأ.

(٦) له ذكر في كامل ابن الأثير ١١/ ٥٦.

وَصَلَ مِنَ الثَّوَارِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَهْلِ غَرْنَاطَةَ^(١) مُعِينًا بِرِجَالِهِ وَفُرْسَانِهِ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي مُحَمَّدَ بْنِ سُلَيْمَانَ مَنَازَعَةً، فَأُنفَ مِنْ ذَلِكَ وَارْتَدَّ إِلَى ابْنِ مُرْدَنْشِ وَإِلَى أَذْفُونُش وَلَحِقَ بِعَسْكَرِهِمَا، وَلَمَّا عَجَزَ أَذْفُونُش وَابْنُ مُرْدَنْشِ عَنْ نَصْرِ النَّصَارَى أَقْلَعَا وَافْتَرَقَا وَلَمْ يَجْتَمِعَا أَبَدًا وَلَا ارْتَفَقَا، وَرَجَعَ أَذْفُونُش خَاسِرًا، فَعَظُمَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَمَاتَ فِي السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ، وَخَاطَبَ السَّيِّدُ أَبُو سَعِيدٍ أَبَاهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ أَنْ يَتَوَجَّهَ أَبُو جَعْفَرٍ الْوَزِيرُ صُحْبَةَ السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ يَوْسُفَ ابْنَ الْخَلِيفَةِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَيَسِيرَ إِلَى السَّمَرِيةِ، وَيُنْزَلَ النَّصَارَى مِنْ قَصَبَتِهَا عَلَى الْأَمَانِ، فَكَانَ ذَلِكَ، وَإِذَا كَمُلَ هَذَا يَرْجِعُ أَبُو جَعْفَرٍ مَعَ السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ.

ذِكْرُ وِلَايَةِ السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ يَوْسُفَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ

مَدِينَةُ إِشْبِيلِيَّةَ وَأَنْظَارُهَا أَعَادَهَا اللَّهُ^(٢)

لَمَّا وَصَلَ أَشْيَاخُ إِشْبِيلِيَّةَ إِلَى الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ رَغِبُوا فِي سَيِّدٍ يَرْجِعُ مَعَهُمْ إِلَيْهَا وَيَسْتَنْدُونَ إِلَيْهِ فِي مَصَالِحِهَا^(٣)، وَصَرَّحَ ابْنُ الْجَدِّ بِطَلَبِ السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ فَقَالَ لَهُمُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ: إِنَّهُ صَغِيرٌ، فَقَالُوا: بَلْ هُوَ كَبِيرٌ، فَأَسْعَفَهُمْ فِي ذَلِكَ وَبَعَثَهُ مَعَهُمْ أَمِيرًا، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ بَدَأَ أَوَّلًا بِغَزْوِ طَبِيرَةِ وَالثَّائِرِ فِيهَا عَلَى الْوُهَيْبِيِّ، فَحَصَرَهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَذَلِكَ لَمَّا رَجَعَ الْوَزِيرُ ابْنُ عَطِيَّةَ مِنْ مَدِينَةِ السَّمَرِيةِ، وَأَنْزَلَ النَّصَارَى مِنْ قَصَبَتِهَا عَلَى الْأَمَانِ، فَخَرَجَ مَعَ السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ بِعَسْكَرِ الْمُؤَحِّدِينَ فَنَازَلُوا طَبِيرَةَ وَعَلَى الْوُهَيْبِيِّ بِدَاخِلِهَا، فَأَقَامَ الْمُؤَحِّدُونَ عَلَيْهَا شَهْرَيْنِ مِنْ أَوَّلِ عَامِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ، وَكَانَ ابْنُ عَطِيَّةَ وَصَلَهُ خَبَرُ الْمَطَالِبَةِ لَهُ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، فَتَقَلَّقَ لِلْإِنْصِرَافِ إِلَى الْحَضْرَةِ حِينَ بَلَغَهُ الْوَقُوعُ فِي جَانِبِهِ هُنَاكَ، فَرَأَى الرَّأْيَ فِي الْمَصَالِحَةِ وَالْقَنُوعِ مِنَ الْوُهَيْبِيِّ الْمَذْكُورِ^(٤) بِاللَّفْظِ فِي الْخُطْبَةِ، فَصَوَّلَحَ عَلَى اخْتِيَارِهِ، وَقَنَعَ

(١) فِي م: «الْغَرْنَاطَةُ».

(٢) الْإِحَاطَةُ ١/ ٢٦٥.

(٣) فِي ق: «مَصَالِحُهُمْ».

(٤) لَيْسَتْ فِي ق.

منه بإقراره. وعند ذلك ألقَعَ السيّد بعسكره منصرفاً إلى إشبيلية بعد ما استولى على بلاد ابن وزير، وقَدِمَ على شَلَبَ وبلاد الغرب يعقوبُ بن حَيُّونَ الهزرجي والحفَّاطُ المتوجّهون^(١) معه من الموحدّين، فكمَلُ القَبْضُ من بلاد ابن وزير والعزْلُ بأبدع تدبير، وفي هذه الحركة خرج تاشفينُ اللَّمْتُونيُّ من مرثلة وضمّن له عن الأمر...^(٢) بصناعه...^(٣) فملكها الموحدون، وكان تملكها، وصُرف تاشفينُ...^(٤) يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من سنة اثنتين وخمسين المذكورة، وهذه البلدة، أعني مرثلة، أول مدينة خرج عنها المُلثَّمون^(٥) وأخرُ بلدة ثار فيها المُرتدّون على الموحدّين، وكان لَمَّا وصل السيّد إلى طَبِيرة ونازلها وفد عليه أشياخُ بلاد بني وزير وفي مجلّتهم الشاعرُ الأديبُ أبو بكر بن المُنخَل^(٦)، فقال يمدّحه ويتغزّل في قصيدة طويلة أولها [من الطويل]:

أَقْدَلِكُ أَمْ غُصْنٌ مِنَ الْبَانِ أَهَيْفُ وَحَظُّكَ أَمْ سَيْفٌ مِنَ الْهِنْدِ مَرَهْفُ

ومنها:

فَقَالُوا: أَغْزَوْ؟ قُلْتَ: لَا شَكَّ أَنَّهُ فَقَالُوا: فَمَنْ يَغْزُو الْعِدَى؟ قُلْتَ: يَوْسُفُ
سَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكُفُّهُ وَصَارُمُهُ الْعَضْبُ الَّذِي يُتَخَوَّفُ

(١) في النسخ: «المتوجهين» وأصلحت.

(٢) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٣) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٤) بياض قدر كلمة واحدة.

(٥) في النسخ: «الملثمين» وأصلحت.

(٦) هو أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن المنخل المهري الشلبي الأديب، كان أحد الأدباء المتقدمين والشعراء المجوّدين، له ديوان شعر لم يصل إلينا. وتوفي في حدود الستين وخمس مئة. ترجمه ابن الأبار في التكملة (١٣٩٩)، وابن سعيد في المغرب ١/٣٨٧، وابن عبد الملك في الذيل ٤/١٠٤ بتحقيقنا، والذهبي في المستملح (١٢١) وتاريخ الإسلام ١٢/٢٠٢، والصفدي في الوافي ٧/٢ وغيرهم.

ذكرُ نكبة الوزير الكاتبِ أبي جعفرٍ أحمدَ ابنِ عَطيّةٍ ومقتلِهِ

رحمه الله ونُبذ من آثارِهِ ولُمع من أخبارِهِ^(١)

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الملك، قال: كان أبو جعفر لَمَّا غابَ هذه الغيبةَ تمكَّن أعداؤه منه وقالوا ما شاءوه عنه من قبيح المطالبة وصريح المكاتبة، فلمَّا وصلَ الحضرةَ وجدَ حاله قد^(٢) تغيَّرت والمطالب في جانبِهِ قد أثَّرت، وعبدُ السلام الكُومِيُّ قد استكفَى بالحال، وانتضى سيفه لمطالبته بأعظمِ نِصال^(٣)، فلمَّا كان بعدَ أيام من وُصولِهِ جَمَعَ الناسَ في الجامع الذي بجَنب دارِ الحَجَر، وسئلوا عن ابنِ عَطيّة وأحواله وهو حاضرٌ قد أزال عِمامته بالأمر عن رأسِهِ، وبقي حاسرًا بعد التعميم، خَمَلًا^(٤) بعدَ التقدُّم في الأمر الكريم، دَهْشًا في نفسه، مُكَدَّرًا في حسِّهِ، وجميعُ أشياخ الموحِّدين والطلبة وأهل الأندلسِ حضور، فقال ابنُ عُمرَ للحاضرين: يقولُ لكم سيِّدنا: من أعطى منكم شيئًا لابنِ عَطيّة أو صانعه أو علِمَ منه شيئًا من قبيح فليقلِّه، فقال كلُّ إنسان بحسب دينه وعقلِهِ، حتَّى وصلَ السؤالُ إلى ابنِ وزير فقال: أعطاني فوقَ ما أعطيتَهُ أضعافًا، وسيِّدنا رضي الله عنه لو جَعَلَ بينَهُ وبينَ عبيده وأجناده وعُمَّالِهِ ورعيّته عبدًا حَبَشِيًّا يوصلُ له عَنَّا كلامنا ومسائلنا لعظَّمناه وأملَّناه وهادَيْنَاه، ويا ليتَهُ لو رضيَ إلينا بالقبول، فاستحسنَ الخليفةُ كلامَ ابنِ وزير، وكان كلامُهُ سببًا لرفعِ السؤالِ عنه في هذا المجلس، فخرجَ ابنُ عَطيّة إلى الموضع الذي أُمرَ باعتقالِهِ به، فكان آخرَ العهد به، وذلك في سنة اثنتين وخمسين المذكورة.

ثم^(٥) بعدَ هذا المجلس أنفَذَ فيه وفي أخيه حُكَمَ الله تعالى، فأُخرجَا من سجنِهِما

(١) الإحاطة ١/ ٢٦٤-٢٦٧، والاستقصا ٢/ ١٣١ فما بعدها، ونفح الطيب ٥/ ١٨٣ فما بعدها.

(٢) ليست في ق.

(٣) في م: «نِصال».

(٤) في م: «خاملاً»، وما أثبتناه من النسخ.

(٥) ليست في ق.

وُجِّلا إلى جبل دَرْن^(١) وقُتِلَا بموضع تاجْهُوتَ^(٢) قُرْبَ المَلّاحَةِ، وذلك في التاسع والعشرين لَصَفَرٍ من سنة ثلاث وخمسين وخمسة مئة.

ونِدَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ ذَلِكَ^(٣) عَلَى قَتْلِهِ، وَبَكَى عَلَيْهِ بِالدَّمُوعِ، وَذَكَرَ الرُّوَاةُ الثِّقَاتُ أَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ ابْنِ عَطِيَّةَ أَحَدٌ مِنَ الْكُتَّابِ وَلَا الْوُزَرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي جَدِّهِ وَمَجْدِهِ، وَكِتَابَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ، وَنُصْحِهِ وَخِدْمَتِهِ، وَسُلُوكِهِ طُرُقَ الْمَكَارِمِ، وَاجْتِنَابِهِ لِلْمَحَارِمِ، وَالتَّذَاذِهِ بِقَضَاءِ الْمَسَائِلِ، وَتَلَطُّفِهِ فِي تَوْصِيلِ الرِّغْبَاءِ مِنْ مَضْطَرٍّ وَسَائِلِ، وَإِحْسَانِهِ بِالتَّلَطُّفِ لِلْوَفُودِ وَخِدْمَتِهِ...^(٤)، حَرِيزٌ^(٥) وَالْجُنُودُ، لَكِنَّ الدَّهْرَ الْعَثِرَ فَوْقَ سِهَامٍ^(٦) الْحَسَدَ بِالْمَنَآيَا إِلَيْهِ، فَغَدَرَهُ مِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَرَعْ الْفَضْلَ الَّذِي يُحِبُّ^(٧)... يَدُهُ^(٨) بِالْبُهْتَانِ، وَبَدَّوْا مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ كَشْفَ السِّرِّ، وَصُحْبَةَ أَعْدَاءِ الْأَمْرِ^(٩)، وَأَعْظَمَهُمْ لَهُ مَطَالِبَةُ مِرْوَانَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(١٠) الَّذِي كَانَ ثَائِرًا بِبِلَنْسِيَّةَ عَلَى حُسْنِ مَا سَعَى لَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ حَتَّى خَلَّصَهُ مِنْ سِجْنِ مَيُورَقَةَ، فَكَانَ هُوَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ أَكْبَرَ أَعْدَائِهِ وَسَبِّيًا فِي مَوْتِهِ وَفَنَائِهِ، فَإِنَّهُ قَالَ فِيهِ شَعْرًا رَمَاهُ فِي الْمَجْلِسِ يُحَرِّضُ فِيهِ عَلَى قَتْلِهِ وَالْإِيقَاعَ بِهِ، وَهُوَ [مِنَ الْبَسِيطِ]:

قُلْ لِلْإِمَامِ أَدَامَ اللَّهُ مَدَّتْهُ قَوْلًا تَبِينُ لَذِي لُبٍّ حَقَائِقُهُ

(١) الضبط من ق.

(٢) له ذكر في المسالك والممالك للبكري ٧٢٣/٢، ٧٤٤. والجيم أصلها كاف أعجمية، ولذلك كتبت في هامش ق بكاف تحتها نقط ثلاث.

(٣) قوله: «بعد ذلك» ليس في ق.

(٤) فراغ قدر كلمة.

(٥) قوله: «وخدمته... حريز» سقط من م.

(٦) في ر ٣: «سهم».

(٧) سقطت من م.

(٨) سقطت من م.

(٩) هكذا في النسخ كافة، وغيرها ناشرو (م) إلى: «الأمير» وما أحسنوا في ذلك صنعًا ولم يتنبهوا إلى أن السجعة تقتضي صحة ما أثبتناه بين: «السر» و«الأمر».

(١٠) له ذكر في نفح الطيب ٤٠٨/٣ و ٤٥٦/٤.

إِنَّ الزَّارِجِينَ قَوْمٌ قَدْ وَتَرْتَهُمْ وَطَالِبُ الشَّارِ لَمْ تَوْمَنْ بِوَائِقُهُ
 وَلِلْوَزِيرِ إِلَى آرَائِهِمْ مَيْلٌ لِذَاكَ مَا كَثُرَتْ فِيهِمْ عِلَائِقُهُ
 فَبَادِرِ الْحَزَمَ فِي إِطْفَاءِ نَوْرِهِمْ فَرَبِّمَا عَاقَ عَنْ أَمْرِ عَوَائِقُهُ
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ وَالْحَقُّ أَبْلَجُ لَا تَخْفَى طَرَائِقُهُ
 هُمْ الْعَدُوُّ وَمَنْ وَالَاهُمْ كُهُم فَاحْذَرْ عَدُوَّكَ وَاحْذَرْ مَنْ يَصَادِقُهُ

وكان هذا من أكبر الطالبين^(١) له غدرًا ومكرًا.

قال محمد بن عبد الملك: حدّثني القاضي أبو العباس ابن الصّقر بحضرة مراكش قال: كان الناس يزورون ابن عطية لمعنى المنفعة به فينفّعهم ولم يطلبوا له. وكنت ممن يختصّ به، فكتبت له أبياتًا فيها مخادعة الزائرين، منها [من البسيط]:

وعاملوك بزوراتٍ مزورةٍ فالودّ في الصّدر لا في المشي بالقدم

ويرحم الله أبا الحسن المسعودي حيث قال: لو لم يكن لأبي العتاهية إلا هذه الأبيات التي أبان فيها عن صدق الأخوة والوفاء لكان مبرّرًا على غيره ممّن كان في عصره، وهي^(٢) [من الرجز]:

إِنَّ أَخَاكَ الصَّدَقَ مَنْ يَسْعَى مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
 وَمَنْ إِذَا رَيْبُ زَمَانٍ صَدَعَكَ شَتَّتَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكَ

قال: وهذا في زماننا معدومٌ ومستحيلٌ وجوده، ومتعذّر^(٣) كونه، فكيف بزماننا اليوم؟

وحكى أبو عبد الله بن داودوش، قال: سئل أبو العباس الجراوي عن الوزير الكاتب أبي جعفر ابن عطية فقال: كان من الخليفة بحيث علّم من الاختصاص ولطف المحلّ، فتذاكرنا سبب الإيقاع به، فقال: اختلف الناس في ذلك، والأشهر أنه خرج بسرّ

(١) في ق: «الظالمين».

(٢) البيتان في زهر الآداب ١٧٣/٢.

(٣) في ق: «معتبر»، وفي ك، ر: «معتذر» وما أثبتناه هو الأصوب.

أَوْثَرَهُ، فَحُبِسَ مَدَّةً ثُمَّ دُفِعَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ كَوْمِيَّةٍ يُعْرِفُ بِيُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، فَحَمَلَهُ مَعَ أَخِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يُعْرِفُ بِتَيْنِسَكْتٍ: مِنْ طَرِيقِ تَيْنَمَلٍ، فَتَكَلَّهَ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ مُحْصَلَةٍ. ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ كَتَبَ قَبْلَ قَتْلِهِ إِلَى الْخَلِيفَةِ وَهُوَ مَحْبُوسٌ كِتَابًا^(١) يَتَضَمَّنُ نَظْمًا وَنَثْرًا وَدَفَعَهُ إِلَى الْمُقَرَّبِ عَبْدِ السَّلَامِ فَأَمْسَكَ الْكِتَابَ^(٢) عِنْدَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَدْفَعْهُ إِلَى الْخَلِيفَةِ بَغْيًا مِنْهُ عَلَيْهِ حَتَّى جَرَى الْقَدَرُ بِمَا جَرَى، وَالنَّظْمُ هَذَا [مِنْ الْبَسِيطِ]:

عَطْفًا عَلَيَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ	بَانَ الْعِزَاءُ لَفَرَطِ الْبُتِّ وَالْحَزَنِ
قَدْ أَغْرَقْتَنَا ذُنُوبٌ كُلُّهَا لُجَجٌ	وَرَحْمَةٌ مِنْكُمْ أَنْجَى مِنَ السُّفْنِ
وَصَادَقْتَنَا سَهَامُ الدَّهْرِ عَنْ ^(٣) غَرَضٍ	وَعَطْفَةٌ مِنْكُمْ أَوْقَى مِنَ الْجَنَنِ
هِيَ هَاتِ لِلْخَطْبِ أَنْ تَسْطُو حَوَادِثُهُ	بِمَنْ أَجَارْتَهُ رُحَمَاكُم مِّنَ الْمَحَنِ
فَالثُّوبُ يَطْهَرُ بَعْدَ الْغَسْلِ مِنْ دَرَنِ	وَالطَّرْفُ يَنْهَضُ بَعْدَ الرِّكْضِ فِي سَنَنِ
أَنْتُمْ بِذَلَّتُمْ حَيَاةَ الْخَلْقِ كُلَّهُمْ	مِنْ دُونَ مَنْ عَلَيْهِمْ لَا وَلَا ثَمَنِ
وَصِيبَةٌ كِفْرَاخِ الْوَرَقِ مِنْ صِغَرٍ	لَمْ يَأْلَفُوا النَّوْحَ فِي فَرْعٍ وَلَا فَنَنِ
قَدْ أَوْجَدْتُهُمْ أَيَادِي مَنْكَ ^(٤) سَابِقَةً	وَالْكُلُّ لَوْلَاكَ لَمْ يَوْجَدْ وَلَمْ يَكُنِ

وَالنَّثْرُ مِنْهَا: تَاللهُ لَوْ أَحَاطَتْ بِي كُلُّ خَطِيئَةٍ، وَلَمْ تَنْفَكْ نَفْسِي عَنِ الْخَيْرَاتِ بَطِيئَةً، حَتَّى سَحَرْتُ مَنْ بِالْوُجُودِ، وَأَنْفَتُ لَأَدَمَ مِنَ السَّجُودِ، وَأَبْرَمْتُ لِحَطْبِ نَارِ الْخَلِيلِ حَبْلًا، وَأَبْرَيْتُ^(٥) بَعْدَهُ إِلَى^(٦) ثُمُودَ نَبَلًا، وَحَطَطْتُ عَنْ يُونُسَ شَجَرَةً الْيَقْطِينَ، وَأَوْقَدْتُ مَعَ هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ، وَافْتَرَيْتُ عَلَى الْعِذْرَاءِ الْبَتُولِ، وَقَذَفْتُهَا

(١) فِي ك، م: «كُتِبَ» وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنَ النُّسخِ الْآخَرَى.

(٢) فِي ك، م: «الْكِتَاب».

(٣) فِي م: «فِي».

(٤) فِي النُّسخِ: «مِنْكُمْ» وَلَا يَسْتَقِيمُ عَرُوضًا.

(٥) فِي م: «وَبَرَيْتُ» وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنَ النُّسخِ.

(٦) فِي م: «وَبَرَيْتُ لِقَدَارِ ثُمُودَ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

وَقَبِضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرُّسُولِ فَبَنَدْتُهَا، وَكُتِبَتْ صَحِيفَةً الْقَطِيعَةِ بَدَارِ النَّدْوَةِ، وَظَاهَرَتْ
الْأَحْزَابُ الْقُصُوصَ^(١) مِنَ الْعُدُوَّةِ، ثُمَّ جِئْتُ بِطَوَّلِهِ وَحِلْمِهِ لَائِذَاً، وَبِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
عَائِذَاً، لَقَدْ آنَ لِمَقَالَتِي أَنْ تُسْمَعَ، وَتَغْفَرَ لِي هَذِهِ الْخَطِيئَاتِ أَجْمَعُ^(٢) [من الطويل].

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ^(٣) لَنَا بِحِمْلِ قُلُوبٍ هَذَا الْخَفَقَانُ

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: كَانَتْ وَقْعَةُ زَغَبُولَةَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ،
عَلَى السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ يَوْسُفَ ابْنِ الْخَلِيفَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّصَارَى أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ غَنَمُوا
نَظَرَ إِشْبِيلِيَّةَ، فَأَمَرَ السَّيِّدُ أَبُو يَعْقُوبَ بِوُصُولِ مَيْمُونِ بْنِ حَمْدُونَ الْوَالِي عَلَى شِلْبَ
وَالْبِلَادِ الَّتِي كَانَتْ بِيَدِ ابْنِ وَزِيرٍ، وَيَسْتَعْجِلُ بِعَسْكَرِ الْغَرْبِ، فَوَصَلَ إِلَيْهِ، فَاسْتَعْجَلَ
السَّيِّدُ إِلَى حَرَبِهِمْ وَمُقَارَعَتِهِمْ، وَبَرَزَ إِلَيْهِمْ بِعَسْكَرِ إِشْبِيلِيَّةَ، فَلَقِيَ النَّصَارَى بِحِصْنِ
زَغَبُولَةَ، فَدَارَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ الْكُفَرَةِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَهَالِ النَّاسُ وَأَجْفَلُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ
وَانْهَزَمُوا عَنِ السَّيِّدِ بِجَمْعِهِمْ، وَاسْتُشْهِدَ فِي الْمَعْرَكَةِ ابْنُ غُرُونٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ الْحَجَّامِ
وَجُمْلَةٌ مِنْ أَشْيَاخِ الْمُوحِدِينَ، وَاسْتُشْهِدَ الْحَافِظُ مَيْمُونُ صَاحِبُ الْغَرْبِ، وَاسْتَخْلَصَ
أَبُو يَعْقُوبَ يَوْسُفَ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِدَلِيلٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ، أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَلْحَمَةِ فِي الْغُبَارِ
وَطَارَ بِهِ أَيَّ مَطَارٍ، وَفَرَّ ابْنُ وَزِيرٍ بِجَوَادٍ مُعَارٍ مِنْ أَحَدِ قَرَابَاتِهِ، وَأُسِرَ مِنْ عَامَةٍ
إِشْبِيلِيَّةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ، وَذَلِكَ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ، فَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ فَنَظَرَ
فِي اسْتِجْلَابِ الْعَرَبِ وَحَمَاةِ الْجَزِيرَةِ مِنَ الْحَرْبِ وَالتُّوبِ^(٤).

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: تَحَرَّكَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ مِنْ حَضْرَةِ
مَرَّاكُشَ فِي أَوَّلِ شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ إِلَى رِبَاطِ الْفَتْحِ الْمَسْمُومِ بِالْمَهْدِيَّةِ
عُدُوَّةَ سَلَا، وَكَانَ قَدْ اسْتَوَزَرَ بَعْدَ ابْنِ عَطِيَّةَ عَبْدَ السَّلَامِ بْنَ مُحَمَّدٍ الْكُومِيَّ، وَاسْتَكْتَبَ
عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ عِيَّاشِ الْقُرْطُبِيَّ^(٥)، فَأَمَرَ بِالْكَتْبِ إِلَى قِبَائِلِ الْمُوحِدِينَ بِالنَّقْرِ لِلْجِهَادِ،

(١) سقطت من م.

(٢) نفح الطيب ٥/ ١٨٤-١٨٥.

(٣) في م: «فمن».

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٧ باختصار.

(٥) ترجمته في الوافي ١٩/ ١٨٥.

والاستعداد في الزاد، وأمر أهل البلاد البحرية بإنشاء الأساطيل والأجفان لحمل جميع...^(١) وأمنيته من ذلك، وسالت العساكر تابعة...^(٢) الموحدون وسائر العساكر بالإنعام وأسبل عليهم ثلثات العطاء التام، واستخلف مكانه على بساط العدو الشيخ المذكور المرحوم أبا حفص عمر بن يحيى ليتطلع أمر البلاد الغربية، ونظر في الحركة إلى إفريقية برسم منازل المهدي في سنة أربع وخمسين وخمس مئة حسبما أذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر حركة أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن إلى بلاد إفريقية ومنازلته مدينة المهدي وتملكها^(٣)

لما استوفت العساكر من سائر البلاد برسم الجهاد واستخلف أبا حفص كما ذكرنا، واستخلف يوسف بن سليمان على مدينة فاس وأنظارها، وأمر بحضرة مراكش ابنه أبا الحسن علياً، وأمر بإشبيلية ابنه السيد الأسنى أبا يعقوب على أول ولايته لها. وترك عبد الله بن أبي حفص بإشبيلية، وترك ابن بخيت بقرطبة، وأمر بغرناطة ابنه السيد أبا عثمان، فلما تحقق كمال بُغيته وأمنيته تحرك من موضع معسكره بمدينة سلا، فكان خروجه منها في العاشر من شهر صفر من عام أربعة وخمسين وخمس مئة، فاستصحب السير والنصر أمامه والظفر ملازم أعلامه، حتى وصل مدينة المهدي مقرّ النصارى من أهل صقلية، ونازلها، وتلاحق الأسطول إليه فيها بالآلات والمجانيق والعُدَد وغيرها، وحضر الفعلة لها، فأمر^(٤) بقتال الكفرة ورماهم بالحجارة نهاراً وليلاً، وأرسل عليهم من سحائب السهام وبلاً^(٥)، وأسأل عليهم المنيا من كل جانب سيلاً، ودام حصاره لهذه المدينة المنيع في المعقل الرفيعة، فدام حصار الموحدون لها سبعة أشهر حتى يسر الله فتحها على صلح من النصارى وطلبوا الخروج بأمان إلى

(١) فراغ قدر كلمة.

(٢) فراغ قدر خمس كلمات.

(٣) الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٤١، والمعجب ٢٩٨، والاستقصا ١٣٥/ ٢.

(٤) بعد هذا في م: «لها» وليست في النسخ ولا معنى لها.

(٥) في م: «وابلاً» وما هنا من النسخ.

بلادهم فَمَنْ عليهم بِمُرادهم وأَخْرَجَهُم منها وَطَهَّرَ اللهُ بها صُفْعَ إفريقيةَ والزَّابِ،
وَتَحَلَّلَ له عنده جَزِيلُ الأجر والثواب.

وفي أثناء هذا ظَهَرَ من العربِ بني سُلَيْمِ القائمينَ بتعديهم على مدينة قَابِسَ ما
أَوْجَبَ استدعاءهم واستدناءهم، فخطبهم أبو محمد عبدُ المؤمن بشعرٍ طويل من
قول القاضي ابنِ عمران يستدعيهم فيه وَيُسْتَدْنِيهِم، فمنه هذا [من الكامل]:

أَسْلَيْمُ دَعْوَةَ ذِي إِخَاءٍ مُرْشِدٍ	هَادٍ إِلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ الْمُسْعِدِ
وَمُذَكِّرٍ مَا كَانَ أَسْلَافٌ لَكُمْ	فَضْلُوا بِهِ أَفْعَالَ كُلِّ مُسَدِّدٍ
بِجَهَادِ أَعْدَاءِ الْإِلَهِ وَنَضْرِهِمْ	لِرَسُولِ رَبِّهِمُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
وَتَعَرَّفُوا أَنَا عَلَيْكُمْ صُبْرٌ	حَتَّى يَعُودَ جَوَابُ هَذَا الْمُنْشِدِ

وَكَتَبَ أَيْضًا شعراً ثانياً من قول ابنِ طُفَيْلٍ معيداً عليهم بالاستدعاء، وتوجَّهَتْ
هذه الأشعارُ إلى شيوخ العربِ إلى جميع إفريقيةَ، وصَبَرَ عليهم في ردِّ جوابهم على
هذا النظم، وقد كانوا تغلبوا على مدينة قَابِسَ، فجرد إليهم عسكرياً وأقام هو على
مدينة المَهْدِيَّةِ، فلم تكنْ إلا أيامٌ ووصلَ الفتحُ بهزيمتهم وبقتلهم... ^(١) يوسُفُ الوالي
على إشبيليةَ يَعْرِفُهُ بالهزيمة المذكورة ويشرحُ له أمورَها ^(٢)، فقال في نصِّ الكتاب ^(٣):
أَعَزَّكُم اللهُ، وجعلنا وإياكم من الشاكِرينَ لِنُعماءه، إنَّ من الواجبِ الْمُحْتَمِّ والمفروضِ،
الحَزْمَ على مَنْ لَزِمَهُ شُكْرُ النِّعمِ لِمُسْديها، أن يقرَّرَ أولاً النِّعمةَ بكما إليها، وَيَعْمُرَ
خاطرَه بتفصيل إجمالِها، وَيُخَضِّرَ في ذهنه بهجةَ جمالِها حتى يفيضَ على باطنه نورُ
إشراقِها، وَيَهْمِي بيباق ^(٤) مَقولِهِ هَاطِلُ غيداقِها، وتبارى له نَفحاتُ الشُّكرِ في ميدانِ
استيقاقِها، وهو الفتحُ الذي بَرَزَ في الإعجاز والإغراب، وأضحى نسيجَ وحده في
الأشباه والأتراب، يتأكَّدُ بِمحَلِّه وجوبُ الاعتبار، ولا يزال موقعه يَعظُمُ بزيادة
الاستيضاح والاختبار. وهي طويلةٌ نظماً ونثراً أَضْرَبْنَا عنها للاختصار.

(١) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٢) في ر ٣: «أمرها».

(٣) في م: «كتابه» وما أثبتناه من النسخ.

(٤) في م: «بيادع»، وهو تحريف.

ولمَّا وُصِّلَ هذا الكتابُ انشَرَحَتْ صدورُ الموحدِّين، وتحقَّقوا نصرَ الله بأوْفَى اليقين، وقُرِئَ على المنابر، وتكرَّرت المسارُّ في الرعايا والعشائر.

وفي سنة أربع وخمسين وخمس مئة: خرج محمدُ بن مُردنِش من مدينة مُرْسِيَّة بعسكره مع أصحابه النَّصارى وبجمعه المُفسِدِ منتَهزًا الفرصةَ في ظنِّه، ومتخيلاً بما أفسدته الخمرُ من ذهنه، أنه بمَغِيب أمير المؤمنينَ يتغلَّبُ على الموحدِّين، حتَّى نزَلَ مدينةَ جَيَّانَ وفيها محمدُ بن عليٍّ الكُومِيّ، فصادَفَ عنده من النِّكثِ للبيعة قَبُولًا لمُرادِه، وأعجَلَه الشُّؤمُ في رأيهِ بارتدادِه، فظنَّ ابنُ مُردنِش أنَّ سائرَ الموحدِّين يَجِدُ عندها وعندَ أهلها ما وَجَدَ عندَ الكُومِيّ المذكور من العناد والفساد، فوصلَ قُرْبَةَ ونازلَها ودمَّرَ زرعَها وعفَى ربعَها، وكان بها أبو زيد ابنُ بخيت واليًّا عليها، فدافعَ مدافعةَ الأبطال، وأهلُ الوفاءِ في كلِّ حال، ودامَ حصارُه إلى أنِ اجتمع القاضي أحمدُ بن إدريسَ مع أبي زيد المذكور وتخيلاً بحيلة من حِيلِ الحرب على لسان ابن وزير من إشبيلية إلى ابن مُردنِش وهو يقولُ له: عَجَّلْ بالإقلاع عن قُرْبَةِ وسِرْ إلى إشبيلية وأنا ضامنٌ لك دخولَها، فحينَ قرَأَ الكتابَ أَمَرَ بالإقلاع والإسراع، فوصلَ ابنُ مُردنِش بجمعه إليها ونزَلَ على ميل منها، فبقِيَ عليها ولم يَرِ شيئًا من أمرِ الكتاب، فعلمَ أنها خُدعة، فأقلَعَ خاسرًا عنها، ولقيت إشبيليةَ عظيمَ الخطبِ وعميمَ الرُّعبِ، وحلَّ بأهلها كَرْبٌ وحَرْبٌ، وضَبَطَها السيِّدُ أبو يعقوبَ بحَرْمِه وجِدِّه وبمَن كان معه من الموحدِّين وأشياخ إشبيلية وأعيانها^(١) المخلصين يَسْمُرُونَ طَوْلَ ليلهم على الأسوار، ويقفونَ بأبوابِ المدينة طَوْلَ النهار، ويتعوَّذُ الجارُ من الجار^(٢)، وساءَ ظنُّ الموحدِّين بالناس، فسَجَنَ منهم من اتَّهَمَ، وأمضى السَّيفَ على مَن صَحَّ عنه أنه غَشَّ الأمرَ وأجرَمَ، وسَلِمَ مَن لازَمَ الطاعةَ واستسلم. وتَمَادَى ذلك كُلُّهُ حتَّى ورَدَ الكتابُ المبشِّرُ بالفتح المؤرَّخ بالثاني من ذي الحجة من السنة المذكورة من ظاهر المَهديَّة^(٣).

(١) في ر ٣: «وأعيان».

(٢) في ق: «البحار من البحار»، وهو تحريف ظاهر، وفي م: «الجار من شرِّ الجار» ولفظة «شرٌّ» لا أصل لها في النسخ ولا معنى لها في مثل هذا الموضع.

(٣) المن بالإمامة ١١١ فما بعدها، وتاريخ ابن خلدون ٣١٨/٦، والاستقصا ١٤١/٢.

وفي سنة خمس وخمسين وخمسة مئة: فَتَحَ اللهُ تعالى مدينةَ المَهْدِيَّةِ، وَنَزَلَ النَّصَارَى عنها، وَمَلَكَهَا المسلمونَ، فجلسَ عبدُ المؤمنِ مجلسَ التهنة والشُّكرِ لله على ذلك، وأمرَ بالكتبِ بوصفِ الفتوح والجدلِ الممنوح^(١) شَرَحَ فيه...^(٢) ثم تيسيرِ الفتح في هذه...^(٣) [من الطويل]:

ولمّا قَضَيْنَا بالمشاركِ أمرنا	وتَمَّ مرادُ الله في كلِّ مطلبٍ ^(٤)
وأشرقَت الشمسُ المنيرةُ فوقنا	وأصبح وجهُ الحقِّ غيرَ محجَّبٍ
وطُهِرَ هذا الصُّقْعُ من كلِّ كافرٍ	وعاد به الإسلامُ بعد تغلُّبٍ ^(٥)
وكُسِّرَتِ الصُّلْبَانُ في كلِّ بيعةٍ	ونادى منادي الحقِّ في كلِّ مرقَبٍ
أشْرْنَا بأعناقِ المطيِّ إليكم	فطار بها شأوُ السرورِ بمغربٍ
فأبشِرْ أبا حفص بنَصرٍ مؤزَّرٍ	كفيلٍ بما تَبَغَّيه في كلِّ مذهبٍ
ولا بدَّ من يومٍ أغرَّ محجَّلٍ	يُسِيلُ دمَاءَ الكُفْرِ في كلِّ مذنبٍ
وتشفي صدورَ المؤمنينَ بغزوةٍ	تكونُ على حُكمِ الحسامِ المذرَّبِ
ويغزو بلادَ الرومِ جيشٌ عَرْمَرَمٌ	تُخَيِّرُ ^(٦) من قيس وأبناءِ يعرُبٍ
يصولُ به من عُصبةِ الحقِّ معشرٌ	بجُملةٍ ما يلقاهُ خيرٌ مجرَّبٍ ^(٧)

(١) في ق، ر٣: «الموضوح» وما هنا من ك، وهو الذي في المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف.

(٢) بياض بمقدار نصف سطر.

(٣) قوله: «ثم تيسير الفتح في هذه...» سقطت من م.

(٤) لم يبق في النسخ من هذا البيت سوى قوله: «وتم مراد»، واقتبسناه من المنّ بالإمامة، ص ١١٧، والمؤلف ينقل منه.

(٥) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «تَغْيِبُ»، وفي م: «تَقَلُّبُ»، وهو تحريف.

(٦) في النسخ: «بخيل» وبه يكسر الوزن، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة، ويذكر بعض النسابة أن البربر ينحدرون من قيس بن عيلان، فالمراد هنا أن الجيش يتكون من البربر والعرب. على أن المحققين من النسابين لا يصححون هذه النسبة.

(٧) في المنّ بالإمامة: «نخيلة ما أبقاه أمير مجرَّب».

فَيَدْمَعُ بِالصَّمْصَامِ كُلَّ مُجَاهِرٍ وَيَقْطَعُ بِالْبَرْهَانِ كُلَّ مُشْغِبٍ
فَطُوبَى لِأَهْلِ الْغَرْبِ مَاذَا يَرَوْنَهُ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ الْمُقَرَّبِ

فَأَمَرَ السَّيِّدُ أَبُو يَعْقُوبَ أَنْ يَكْتُبَهَا الطَّلَبَةَ بِإِسْبِيلِيَّةٍ وَيَحْفَظُونَهَا^(١)، وَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّهَا مِنْ إِنْشَاءِ أَبِيهِ، فَامْتَثَلَ النَّاسُ ذَلِكَ. وَأَمَرَ السَّيِّدُ بَقَرْعِ الطَّبُولِ عَلَى هَذِهِ الْمَسَارِّ الَّتِي اسْتَلَذَّتْ بِهَا النَفُوسُ، وَكَانَ قَرْعُ الطَّبُولِ مَعَ الْإِطْعَامِ مَتَّصِلًا^(٢)، وَالْيُسْرُ مُسْتَمِرًّا مُشْتَمَلًا، وَالشُّعْرَاءُ يُنْشِدُونَ أَشْعَارَهُمْ بِالتَّهْنِائِ وَيَتَمَنُّونَ التَّلَجَّ بِصَحِيحِ الْأَمَانِيِّ، فَلَمَّا وَصَلَ السَّيِّدُ مِنْ أَبِيهِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنَ الْمَسَرَّاتِ، جَاوَبَهُ عَلَى كِتَابِهِ بِمَا يَوْجِبُ الْحَالَ مِنَ التَّهْنِئَةِ وَالِدَعَاءِ وَالتَّامِيلِ، وَطَلَبَ مِنْهُ إِغَاثَةُ^(٣) الْأَنْدَلُسِ، وَجَاوَبَهُ أَيْضًا بِشِعْرٍ عَلَى مَعْنَى الْوَاصِلِ إِلَيْهِ ذَكَرَ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ سَيِّدِ الْمَالَقِيِّ^(٤) يَذْكُرُ فِيهِ حَالَ الْفِتْنَةِ وَأَحْوَالَ ابْنِ مُرْدَنْيَشٍ وَغَيْرِهِ، فَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا^(٥) [مِنْ الطَّوِيلِ]:

هُوَ الْأَمْرُ أَمْرُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ رَدُّ يُؤَيِّدُهُ أَيَّدُ وَيَسْمُو بِهِ جَدُّ
وَقَدْ وَضَّحَتْ آيَاتُهُ وَأَنَاتُهُ وَقَدْ أَفْجَمَتْ^(٦) رَغْمًا^(٧) بِهِ أَلْسُنُ لُدُّ
وَمَا اشْتَبَهَتْ مُذْ حُمَّ إِلَّا لَزَائِغٍ عَقِيدَتُهُ كَفَرُّ وَإِقْرَارُهُ جَحْدُّ
فَمَنْ يَبِغِ فِيهَا الْغِيَّ بَعْدَ اجْتِلَائِهِ فَإِنَّ حَسَامَ الْهِنْدِ فِيهِ لَهُ رَشْدُ
وَهَذَا رِيَّاحُ رِيحِهِ عَصَفَتْ بِهِمْ فَعَادُوا^(٨) كَعَادِ حِينَ جَلَّلَهَا الرَّمْدُ
وَلَمْ يُنْجِهِمْ حَصْنٌ حَصِينٌ إِذَا انْزَوُوا وَلَمْ يُغْنِهِمْ ذَاكَ الْعَدِيدُ وَلَا الْعَدُّ

(١) هكذا في الأصل والجادة: «ويحفظوها».

(٢) المن بالإمامة ١١٩.

(٣) في م: «إغاثته»، وما أثبتناه من النسخ كافة.

(٤) هو أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي، المتوفى بعد الستين وخمس مئة.

(٥) القصيدة في كتاب المن بالإمامة ١٢١ باختلاف لفظي.

(٦) في ق، ر ٣: «أعجمت»، وما أثبتناه من ك وهو الموافق لما في المن بالإمامة.

(٧) في المن بالإمامة: «رعبًا».

(٨) في م: «فصاروا»، وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ وهو الموافق لما في المن بالإمامة.

ولم يجدوا النصر العتيد بزعمهم
وكانت سبيل الرشد واضحة لهم
ولا سلكوا فيها سلوكك تعذّر
ولكنهم مالوا إلى الكفر ميلة
إليكم أمير المؤمنين توجهت
لعل عياناً منكم لعبيدكم
فقد عضهم ناب من الكفر منغص
بكم يعصم الله العلي جميعهم
بكم يعتلي الإسلام شرقاً ومغرباً
من اللات بل ردّوا حديثاً كما أردوا
فما منهم فيها رصيم^(١) ولا وخذ
ولا انتضحت فيها الشكائم واللثد^(٢)
فصالت بهم منكم يد ولها الأيد^(٣)
بنا^(٤) الرغبات الجمّ يحتثها جهد
وقرباً لكم منهم يدال به البعد
ودانوا لكم دهرًا وأنابُهُ درد
بكم تعظم الآمال بل يكثر الرّفد
فلله فيها دائبًا ولك الحمد

ونخصّ الرقاص بالجواب بهذا الشعر، وابن مُردنيش يلحّ بالفتنة والضّر، ويستعين
بالنصارى أهل الكفر، وإشبيلية في مثل الحلقة من الفتن إلى أن سنّى الله وُصول الجواب
من ظاهر قُسطنطينة بتاريخ ربيع الأول من العام المؤرّخ يُعرّف به بصحيح الإياب، [وما
ثنى من أعنة خيل الله لهذه الأسقاع]^(٥) وحماية ذلك الجواب^(٦)، ويذكر فيه فتح قفصة.
وركب الرقاص بالجواب من بجاية، فساعدته الرّيح، وخرج في المريّة.
ووصل إشبيلية في أقرب وقت من تاريخه، ثم وصل كتاب آخر مبشّر^(٧) بتمادي

(١) الرصيم: البطيء، وهو ضدّ الوخذ الذي معناه سريع الخطو. وفي م: «رسيم»، وهو تحريف،
وفي المنّ بالإمامة: «وسيم» وهو تحريف أيضًا لا معنى له.

(٢) في م، والمنّ بالإمامة: «واللبد» وهو تصحيف، وما أثبتناه من النسخ كافة، واللثد، القوم
المقيمون لا يظعنون.

(٣) لم يبقَ من هذا الشطر في النسخ سوى قوله: «فصالت»، واستدركنا باقيه من المنّ بالإمامة.

(٤) في ر: «به»، وما أثبتناه من بقية النسخ والمنّ بالإمامة.

(٥) ما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ١٢٢.

(٦) في المنّ بالإمامة: «الجناب»، وهو أحسن.

(٧) في ك، م: «مبشّرًا» وما أثبتناه من بقية النسخ وهو الأفصح.

السَّيْر والانصراف، فارتفعت المسائر المؤذنة ببسط الأرجاء والأكناف، يأمر فيه ببناء مدينة بجبل طارق في التاريخ المذكور، فتوجه السيد أبو سعيد من غرناطة بنفسه وعسكره إلى الجبل المذكور، فنزلوا فيه وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع عليه الوقف والاتفاق من نواحيه، فزادت به آمال الأندلس وتحققوا نيل الأمل، وأيقنوا بالفتح والنجاح بينان هذا الجبل^(١). وكان السيد أبو إسحاق^(٢) بإشبيلية يزعم الفعلة والرجال للبناء المذكور، ويرتقب وصول الأخبار بقرب والده من هذه الأقطار، فوصله الخبر بالتحقيق من إيايه، والتحقق برجعته وانقلابه، وأنه في القرب من أحواز فاس وقد استاق من العرب ما لا يحصى، فعزم السيد أن يخرج من إشبيلية إلى التبرك بلقياه، فلما كان يوم عزمه وصله الخبر بغدر أصحاب ابن همشك مدينة قرمونة وأن الموحدین الذين فيها احتصنوا بقصبتها، فكان باقي ذلك اليوم يوماً عصيباً أحدث هذا الخبر فيه حوادث سوء وخطوباً، فامتنع السيد من سفره ورجع إلى مقره، ووجه عسكراً إليها وتكدرت الأحوال من حينها^(٣).

ذكر أخبار عبد السلام في وزارته

إلى حين الإيقاع به فيها ومنيته^(٤)

لما خرج عبد المؤمن من مراكش إلى غزوة المهدية في شوال سنة ثلاث وخمسين استوزر هذا عبد السلام الكومي، فعند وصوله إلى تلمسان أمر ابنه السيد أبا حفص أن يصحبه في غزاته، وكان والياً عليها، فامتل ذلك، ولما وصل بجاية كان ابنه السيد أبو محمد عبد الله والياً عليها، فتغلب عبد السلام المذكور على جميع الأمور في هذه الغزاة وطالب السادات ونسب إليهم عند أبيهم قبائح الأفعال من الراحات والبطالات وأتهم يشربون الخمر، وقرر عنده ذلك وكرر المطالبة لهم هنالك، فتأثر الخليفة لقوله وبحث عليهم وبعث شيوخ الموحدين إليهم، فدخلوا موضعهم

(١) ذكر ابن صاحب الصلاة خبر بناء المدينة مفصلاً (المن بالإمامة ١٢٩ فما بعدها).

(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المن بالإمامة وم: «وكان من اشتغال السيد أبي يعقوب»، وهو الصواب لما سيأتي بعده من كلام.

(٣) ينظر المن بالإمامة ١٣٧-١٣٨.

(٤) المن بالإمامة ١٧٠ فما بعدها، والمعجب ٢٦٧، والحلة السراء ٢/ ٢٣٨-٢٣٩.

وَجَمَعَهُمْ دُونَ إِذْنٍ وَلَا مَشُورَةٍ، فَوَجَدُوهُمْ يَأْكُلُونَ طَعَامًا^(١) وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَشْرُوبٌ مَطْبُوخٌ مِنْ رُبِّ حَلَالٍ، فَرَجَعُوا إِلَيْهِ وَشَهِدُوا بِالْحَالِ وَزَوَّرُوا كَلَامَ كُلِّ طَالِبٍ مُحْتَالٍ، فَتَيَقَّنَ وَالِدُهُمْ تَحَامُلَهُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُظْهِرْ لَهُ شَيْئًا، فَلَمَّا نَارَ^(٢) الْمَهْدِيَّةَ وَأَقَامَ عَلَيْهَا الْمَدَّةَ الْمَذْكُورَةَ وَخَاطَبَهُ أَهْلُ قَابِسَ بِالْتَّوْحِيدِ، بَعَثَ عَبْدُ السَّلَامِ الْمَذْكُورَ بِعَسْكَرٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مُقَدِّمًا عَلَيْهِمْ فَأَعْجَلُوا السَّيْرَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمَذْكُورَةِ فَانْهَزَمَ مَنْ كَانَ فِي جَوَانِبِهَا مِنَ الْعَرَبِ الْقَاطِنِينَ بِهَا وَقَتَلُوا وَاسْتَوْصَلُوا، وَاسْتَبَدَّ عَبْدُ السَّلَامِ بِجَمْعِ الْغَنَائِمِ وَالْأَمْوَالِ وَتَنْفِيلِ مَا شَاءَهُ مِنَ الْأَنْفَالِ، فَنُسِبَ إِلَيْهِ الْاِحْتِجَانُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْإِنْكَارُ لَهَا وَالكِتْمَانُ، كَمَا نَسَبَ هُوَ لِابْنِ عَطِيَّةِ الْبَاطِلِ وَالْبُهْتَانِ، وَكَمَا تَدِينُ ثُدَانُ، وَفِي مَدَّةٍ مَعْيِيَةٍ تَكَلَّمَ أَشْيَاخُ الْمُوَحِّدِينَ فِي حَالِهِ وَاسْتَعْلَاثِهِ عَلَيْهِمْ وَتَقْصِيرِهِ بِأَوْلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَطْلَبَتِهِ لَهُمْ بَعْدَ تَشْكِيهِمْ بِحَالِهِمْ إِلَيْهِمْ، فَاجْتَمَعُوا مَعَ الْخَلِيفَةِ وَرَغِبُوا أَنْ يَكُونَ ابْنُهُ أَبُو حَفْصٍ يُوَصِّلُ كَلَامَهُ إِلَيْهِمْ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَاسْتَوَزَرَ أَبَا حَفْصٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَاسْتَبَشَرَ الْمُوَحِّدُونَ بِذَلِكَ، فَلَمَّا اسْتَقَامَتِ لِلْمُوَحِّدِينَ الْأُمُورُ وَوَصَلَ عَبْدُ السَّلَامِ الْمَذْكُورُ وَفَتَحَ اللَّهُ الْمَهْدِيَّةَ وَرَحَلَ الْمُوَحِّدُونَ عَنْهَا إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ وَهَزِمَ الْعَرَبُ وَاسْتَأْفَقَهُمْ أَمِيرُ الْمُوَحِّدِينَ مَعَهُ، كَانَ عَبْدُ السَّلَامِ الْمَذْكُورُ يُبَاشِرُ عَلَى ظَاهِرٍ مِنْ حَالِهِ إِلَى أَنْ وَصَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ إِلَى تِلْمَسَانَ، فَتَشَكَّى أَهْلُ الْعُدُوَّةِ بِعُمَالِ عَبْدِ السَّلَامِ مِنْ حَمْلِهِمْ عَلَى الرِّعْيَةِ وَظُلْمِهِمْ وَتَعَدِّيهِمْ وَمِنْ كَوْمِيَّةِ إِخْوَانِهِ وَوَصَفَوْهُمْ بِاِحْتِجَانِ الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَةِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ، وَأَطْنَبُوا فِي التَّشْكِيِّ وَالتَّبَكِّيِّ، وَأَضَافُوا ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى عَبْدِ السَّلَامِ، فَأَمَرَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِجَمْعِ الْمُشْتَكِينَ، وَحَضُورِ أَشْيَاخِ الْمُوَحِّدِينَ، وَطَلَبَةِ الْحَضَرِ وَالْقَاضِي لَسَاعِ أَقْوَالِهِمْ وَتَبَيُّنِ أَحْوَالِهِمْ وَتَشْكِيهِمْ بِمَا كُفِّفُوا مِنْ أَثْقَالِهِمْ، فَيَبَيَّنُوا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا فِيهِ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ، وَوَصَلَ كَلَامُهُمْ عَلَى آيِنِ التَّوَصُّلِ، فَتَغَيَّرَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَتَأَثَّرَ وَقَالَ: عَجَبًا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ وَسَعَتِهِ وَقَلَّةِ مَا عِنْدَنَا مِنَ الْمَالِ عَلَى كَثَرَةِ جَمْعَتِهِ! كَانَتْ لَمْ تُؤْنَةُ إِنَّمَا يَمْلِكُونَ إِلَى تِلْمَسَانَ هَذِهِ، وَكَانُوا يُنْصِفُونَ أَجْنَادَهُمْ، وَنَحْنُ الْآنَ قَدْ مَلَكْنَا ذَلِكَ وَزَائِدًا وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُعْطِي الْمُوَحِّدِينَ؟ هَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ! وَكَانَ عَبْدُ السَّلَامِ وَاقِفًا يَسْمَعُ كَلَامَهُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْحَقِّ بْنُ وَانُودِينَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ذَلِكَ لِنُضْيِيعِ الْمَخَازِنِ وَالِدِّينَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ: مَا مَعْنَى الدِّينِ؟ فَكَرَّرَ عَلَيْهِ

(١) فِي م: «الطعام» وَمَا أَثْبَتَاهُ مِنَ النسخ.

(٢) فِي م: «نزل»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَأَقَامَ عَلَيْهَا».

الدِّينَ مرةً بعدَ مرة، فقام أميرُ المؤمنينَ من مجلسه ذلك مُغَضَّبًا، فبادرَ عبدُ السلامَ لتقويم نعليه فتركها له ولم يلبسها ودخل حافيًا إلى موضعه، فلما كان ظهرُ^(١) ذلك اليوم قُبِضَ على عبد السلام وسُجِنَ في موضع مجلسه، ووصلَ الساداتُ والموحِّدون أربهم فيه، فلما أفلحَ عبدُ المؤمن من تِلْمَسَانِ تركه مسجونًا بها فتحيلَ في قتله بأن أمرَ السَّجَانَ فَعَمِلَ له ثُرْدَةٌ مسمومةٌ فأكلها ومات في حينه. وكان السببُ الذي كثرَ إِدْلالَ عبد السلام الكوميَّ على الأمر، أن كان والدُ عبد المؤمن تزوَّج والدَةَ عبد السلام، فولدت له ابنةً تُسمَّى نَبْذَةً^(٢)، فكان يرى لنفسه حقًا ولم يعلم أن المُلْكَ عقيم وأن مسرَّاته هموم.

رَجِعَ الخبر: ولما وصل الخبرُ إلى إشبيليةَ بغدُرِ قَرْمُونَةَ تكدَّرت الأحوالُ بها وبلاد الأندلس الموحَّدية إلى أن وصل الخليفةُ من إفريقيةَ وعبرَ البحرَ إليها، وفي تلك الأيام...^(٣) بإشبيليةَ وردَ من قُرْطُبَةَ خبرٌ كاذبٌ أن ابنَ هُمُشْكَ صَهرَ ابنِ مُردْنِشٍ نازَلَ قُرْطُبَةَ ودمَّرَ زروعها، وأنَّ أبا زيد بنَ بخيتٍ استشهدَ عليها، وذلك أن ابنَ هُمُشْكَ لما أفلحَ من مُنازلتها أكمَنَ بخيله ورجله على مقرَّبةٍ منها، فخرج أبو زيد المذكورُ ليتطلَّعَ على تلك الأمور، فخرجَ عليه الكمينُ فقتلَ رحمه الله تعالى.

ذِكْرُ جَوَازِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ سَبْتَةِ

بَعْدَ إِيَابِهِ مِنْ غَزْوَةِ الْمَهْدِيَّةِ وَفَتْحِ إِفْرِيقِيَّةِ^(٤)

كان جَوَازُهُ في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمس مئة ليجتمع بالموحِّدين بالأندلس وبرؤسائها وينظرَ كيف يكونُ غَزُوُ الرُّومِ المُحَارِبِينَ لها، فبرزَ إليه يومَ جاز البحرَ من النَّظَّارةِ عالمٌ لا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ، وكان يومًا مذكورًا مشهورًا، وكان السيِّدُ أبو يعقوبَ قد وصلَ من إشبيليةَ بجُمْلَةِ أصحابه من الموحِّدين ومن الرؤساءِ الأندلسيين، ونَفَرَ النَّاسُ^(٥) عِنْدَ مَشْيِ هَذَا السَّيِّدِ مِنْ إِشْبِيلِيَّةِ

(١) في ك، م: «في ظهر».

(٢) هكذا في النسخ مجوَّدة، وفي م: «بنذة»! وهو تصحيف.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) المن بالإمامة ١٣٨ فما بعدها.

(٥) سقطت من م.

من شيوخها وطلبتها وأعيانها وقاضيتها^(١) أبي بكر الغافقي^(٢)، وأبي بكر ابن الجَد^(٣) وسائر أهل النِّبَاهَةِ بِإِشْبِيلِيَّةٍ من الكُبرَاءِ والشُّعراء، وكذلك من أهل قُرْبَةِ وجميع الأقطار والأنظار التي تحت طاعة الموحدين، وَوَصَلَ هذا الجُمُعُ إلى الجبل المذكور جبل طارق فأمر الوزير السيد أبو حفص أن يُجَمَعَ الوفودُ للسلام، فدخلوا وسَلَّمُوا سلامَ جماعة وأقروا له بالسمع والطاعة، وأذن للشُّعراء في الإنشاد، فأوردوا ما نَظَّمُوهُ من أفكارهم بمحضَرِ الوَرَادِ^(٤)، فقال أبو بكرُ بنُ المُنَخَّلِ^(٥) من قصيدة طويلة^(٦) [من الطويل]:

فتحتُم بلادَ الشرقِ فاعتمدوا الغربا فإن نسيمَ النصرِ بالفتح قد هبّا
أصرَّتُم إليه الخيلُ وهي أجادلُ فسالت بكم بحرًا وطارَت بكم شُهبا
وأشدُّ القرشيُّ المعروفُ بالطلِّيقِ قصيدةً أولها^(٧) [من البسيط]:

ما للعدى جنةٌ أوقى من الهَرَبِ كيف المَقَرُّ وخيلُ الله في الطلبِ
لوبدلوا قَدَمًا^(٨) زَلَّتْ بقادمةٍ لأصبح الكلُّ طيارًا من الرُّعبِ

(١) في م: «وقضاتها»، غيرها ناشرو (م) عن عمد ظنًا منهم أنه الصواب الذي ليس فيه ارتياب، باعتبار أن في إشبيلية عدة قضاة أو قاضيين كما نوهوا في تعليقهم، وكل ذلك وهم، فالقاضي هو أبو بكر الغافقي، وأما أبو بكر ابن الجَد فلم يكن يومئذ قاضيًا، والعبارة في المنّ بالإمامة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار حيث قال: «وقاضيتها أبي بكر الغافقي والشيخ الحافظ أبي بكر ابن الجَد».

(٢) ترجمه ابن الأبار في التكملة (٥٩٢) وذكر أنه توفي في نحو السبعين وخمس مئة.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن يحيى الفهري، أبو بكر ابن الجَد، ترجمته في تكملة المنذري ١/ الترجمة ١٢٣، وتكملة ابن الأبار (١٤٩٥) والتعليق عليها، وتوفي بإشبيلية سنة ٥٨٦ هـ.

(٤) في م: «الوارد»، وهو تحريف.

(٥) في النسخ: «النحل»، وهو تحريف، وقد سبق التعريف به.

(٦) القصيدة بطولها في المنّ بالإمامة ١٤٢ فما بعدها.

(٧) القصيدة بتمامها في المنّ بالإمامة ١٥٣ فما بعدها.

(٨) في المنّ بالإمامة: «قومًا».

وأنشد أبو عبد الله^(١) ابنُ صاحبِ الصلاة من قصيدة أولها^(٢) [من الطويل]:

تلاًلاً من نور الخلافة بارقُ أضاءت به الآفاق والليل غاسقُ
وأشرقت الدنيا به فكأتمها من البشر في كل الجهات مشارقُ
بسعدك يبري السيف ما عزز قطعه وينفذ حد السهم ما هور اتقُ
ولا زال أمر الله للدين هادياً وأنت لدين الكفر ماحٍ وماحقُ

قال أبو القاسم ابنُ أبي هارون^(٣): كنت واحداً من جميع الوفد، فأقمنا بجبل طارق نحو عشرين يوماً تحت إنعام وإكرام إلى أن عيدنا عيد الأضحى، فرتب أموره وجهاز عساكره وحصن ما حصن من البلاد الأندلسية، وحينئذ أذن للناس بالانصراف إلى مواطنهم فانصرفوا.

وفي سنة ست وخمسين وخمس مئة: كان صدور أمير المؤمنين من...^(٤)، وذلك بعد أن أقام بجبل الفتح وبعث منه عسكرياً جزاراً إلى بلاد العدو برسم الغزو، وتقدم بين يديه، وقدم على القبائل ابن الشرقي، وعلى الأندلسيين ابن صناديد، فوصلوا إلى فخص بلقون، فوجدوا طاغية الروم قد استعدت للقائهم، فالتقى معهم، فكان بين الفريقين حرب شديدة نصر الله فيه المسلمين على أعدائهم الكافرين، وكانت هزيمة لم يعهد مثلها، وقفلوا إلى الأمير عبد المؤمن فوجدوه قد قفل إلى حضرته لأمر حدث بعده في حبالها، ولم يفصل من الأندلس حتى مهدها ورفق برعيها، فاستقامت بذلك الأمور للموحدين وقمع الله المعتدين. ومن قول أبي العباس الجراوي في ذلك مادحاً لأمر المؤمنين عبد المؤمن [من الكامل]:

أعليت دين الواحد القهار بالمسرفية والقنا الخطار

(١) وكذا كناه ابن الخطيب في أعمال الأعلام، ص ٣٠٦، وفي المن بالإمامة: هو أبو الحسين عبيد الله بن محمد ابن صاحب الصلاة.

(٢) القصيدة بطولها في المن بالإمامة ١٥٩ فما بعدها.

(٣) قال ابن صاحب الصلاة: «حدثني الأستاذ أبو القاسم بن أبي هارون» ثم ذكر هذا الخبر (المن بالإمامة ١٦٧).

(٤) فراغ في الأصل بقدر كلمتين.

ورأى بك الإسلام قُرَّةَ عَيْنِهِ
وسلَّكَتْ من طُرُقِ الهداية لاجِبًا
وجرَّتْ معاليكُم إلى الأَمَدِ الذي
وقَفْتُ على ما قد أَرَدْتَ سَعَادَةً
لا تُخْلِقُ الأيامُ جِدَّةَ مُلْكِكُمْ
لا غَرَوْ أن كنتَ الأخيرَ زمانَهُ
وافَيْتَ أُنْدُلُسًا فَأَمَّنَ خَائِفٌ
وحلَلْتُمُ جِبَلَ الهُدَى فحلَلْتُمُ
جِبَلَ الهُدَى والفتْحِ والنَّصْرِ الذي
لو بَدَّلُوا أَقْدَامَهُمْ بِقِوَادِمِ
لوراءِ موسى ما فعلتَ وطارقُ
أَتَمَمْتَ ما قد أَمَلُوهُ ففاتَهُمُ
بعرابِ خيلِ فوقَهُنَّ أَعَارِبُ
أَكْرَمَ بَهَنٍ قِبائِلًا إِقْلَالُهَا
وانظُرْ إذا اصْطَفَيْتَ كِتَابُهَا إلى
لو أَتَيْتَ نَصْرَتَ عَلِيٍّ لَمْ تَرِدْ
هم أَظْهَرُوهُ مَعَ النَّبِيِّ وَوَاجِبُ
مِلْكِ المُلُوكِ لَقَدْ أَنْفَتَ إلى العُلَى
أَنْتَ السَّيْلُ إلى النِّجَاةِ فَكُلُّنَا
وجَرَيْتَ في نَصْرِ الإِلهِ إلى مَدَى
قد ضاقَ دَرْعُ الكُفْرِ مِنْكَ وَأَهْلُهُ

وغَدَتْ بِكَ الْغَرَاءُ دَارَ قَرَارِ
طُوبَى لِمَنْ يَمْشِي على الأَثَارِ
بُعِدْتَ مَسَافَتُهُ على الأسْفَارِ
وَقَفْتَ عَلَيْهَا خِدْمَةُ الأَقْدَارِ
أَبَدًا وَلَا تَبْلَى على الأعْصَارِ
فالْفَضْلُ لِلأَصَالِ والأَسْحَارِ
وَسَمًا لَأَخْذِ الثَّأْرِ رَبُّ الثَّارِ
منهُ عُقُودَ عِزَائِمِ الكُفَّارِ
سَبَقَتْ بِشَائِرُهُ إلى الأَمْصَارِ
طاروا عن الأوطانِ كُلِّ مَطَارِ
زَرِيًّا بِمَا لَهْمَا مِنَ الأَثَارِ
من نَصْرِ دِينَ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ
من كُلِّ مُقْتَحِمٍ على الأَخْطَارِ
في الحَرْبِ يُغْنِيهَا عَنِ الإِكْثَارِ
ما تَحَمَدُ الْكُتُبُ في الأَسْطَارِ
خَيْلُ ابْنِ حَرْبٍ سَاحَةَ الأَنْبَارِ
أَنْ يُتَّبِعُوا الإِظْهَارَ بِالإِظْهَارِ
وَنَظَرْتَ مِنْ فَوْقِ إلى الأَقْدَارِ
لَوْلَاكَ كَانَ على شَفِيرِ هَارِ
يَكْبُو وَرَاءَكَ فِيهِ كُلُّ مُجَارِ
بِمَوْفَقِ الإِيرَادِ والإِصْدَارِ

متأهبُّ للأمرِ قبلَ أوَانِهِ مُطَّلَعٌ عَلَى.....^(١) رَارٍ
متحمِّلٌ أعباءَ كُلِّ عَظِيمَةٍ ^(٢) بِالنَّفْعِ وَالْإِضَارِ
مُلِئْتُ بِهِ الدُّنْيَا صَفَاءً بَعْدَمَا مُلِئْتُ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
أَخْلِيْفَةُ الْمَهْدِيِّ دُمْتَ مَوْيِدًا بِاللَّهِ مِنْتَقِمًا مِنَ الْكَفَّارِ
ترمي شياطينَ الأعادي في الْوَعَى بِرُجُومِ خَيْلٍ مِنْ سَمَاءِ غُبَارِ
رَوَّعْتَ^(٣) كُلَّ مُرَوَّعٍ وَحَفِظْتَ كُلَّ مَضِيعٍ وَحَمَيْتَ كُلَّ ذِمَارِ
ومن قوله أيضًا رحمه الله يمدِّحُه ويذكرُ إفريقيَّةَ حينَ كانَ بها على المَهْدِيَّةِ
[من البسيط]:

كانت محلَّ أناسٍ قبلنا فخلَّوْا عنها وآثارُهم فيها مُقيَّما
تالله لو عَلِمْتُ مقدارَ وارثها هَبَّتْ إِلَيْكَ رُبَاهَا وَالْقَرَارَاتُ
قالوا العَظِيَّاتُ أحياءُ فقلتُ لهم بل لم تكنْ قَبْلَ أَنْ كَانَ الْعَظِيَّاتُ
أما سَمِعْتُمْ جَرِيرًا عَنْ هُنَيْدَتِهِ يُشْنِي بِرَى أَنِهَا فِي الْجُودِ غَايَاتُ
وَأَيْنَ مِنْ حَبْسِهِ الْأَلْفَ مِنْ ذَهَبٍ هُنَيْدَةُ مِنْ سِوَاهِ أَوْ هُنَيْدَاتُ
وإِنَّ مِنْ قَيْسٍ عَيْلَانَ أَرْوَمْتُهُ وَقَيْسُ عَيْلَانَ أَمْلَاكُ وَسَادَاتُ
ومن يكنُ من أميرِ المؤمنينَ فقد قامت على فضلِهِ مِنْهُ الشَّهَادَاتُ
أهناً إمامَ الهدى فالعدلُ مُنبَسِطٌ وَالِدَيْنُ مِنْتَظِمٌ وَالْكَفَرُ أَشْتَاتُ
أَعَيْتُ مَا تُرْكُمُ مِنْ أَنْ تُنَالَ وَكَمْ سُنَّتْ عَلَيْهَا مِنَ الْأَقْوَالِ غَارَاتُ
وكم أَرَادَتْ وُلَاةُ الشَّعْرِ تَحْضُرُهَا فَأَخْفَقَتْ دَوْنَهَا مِنْهُمْ إِرَادَاتُ
هَٰذِي أُبَيَّاتُ عَبْدٍ مُخْلِصٍ لَكُمْ مَحْضَ اعْتِقَادٍ وَمَا تُغْنِي الْأُبَيَّاتُ

(١) بياض في الأصل.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) هكذا في النسخ كافة، ولو قال: «أَمَنْتَ كُلَّ مُرَوَّعٍ» لكان أحسن.

الأمرُ أعظمُ مقدارًا وأرفعُ من
دمتُم ودام لكم إسعادُ سعدكم

ومن قوله أيضًا رحمه الله في فتح المَهْدِيَّة ويمدحُ الخليفةَ عبدَ المؤمن [من الكامل]:

لَمَنْ الحَيُولُ كَأَتْنِ سَيُولُ
طُوِيَتْ لَهَا الدُّنْيَا فَابْعَدُ مَا انْتَحَتْ
يَغْزُو أَدِيمَ الأَرْضِ مِنْ صَهْلَانِهَا
فَصَهْلُهَا مَحْضُ الثَّنَاءِ وَإِنْ يَكُنْ
تُثْنِي عَلَى المَلِكِ الَّذِي أَيَّامُهُ
عَمَّ البَسِيطَةَ مُلْكُهُ فَكَأَنَّهُ
جَهْلَ النَّصَارَى أَنَّهُ المَلِكُ الَّذِي
أَهْلُ الجَهَالَةِ هُمْ فَكَيْفَ أَلُومُهُمْ
لَمْ يَنْزِلُوا طَوْعًا وَلَا كَرْهًا^(١) وَلَـ
وَدَرَتْ نَفُوسُهُمْ بِأَنَّكَ ظَافِرٌ
فَعَفَوْتَ عَفْوَ القَادِرِينَ تَكَرَّمَا
شَكَرَ البِلَادُ مَعَ العِبَادِ خَلِيفَةً
لَوْ تَنَطَّقُ المَهْدِيَّتَانِ لَقَالَتَا
بِالْأَمْسِ يَمَلَأُ سَمْعَهَا نَاقُوسُهُمْ

وكان وصولُ أبي محمد عبد المؤمن إلى مدينة مراكش من هذه الغزوات المتقدمة
الذكر في شهر ربيع الأول من سنة ست وخمسين المذكورة.

(١) لم يبق منها إلا الكاف، وما بعدها بياض.

(٢) ما بين الحاصرتين ليس في النسخ، ولا يستطيع الوزن بغيره.

ذِكْرُ فَتْحِ قَرْمُونَةَ وَأَخْذِهَا مِنْ يَدِ ابْنِ هَمْشُكٍ^(١)

لَمَّا وَصَلَ السَّيِّدُ أَبُو يَعْقُوبَ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ مِنْ وَدَاعِ أَبِيهِ فِي أَوَّلِ عَامِ سِتَّةٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ، رَتَّبَ السَّرَايَا عَلَى^(٢) حَرْبِ أَهْلِ قَرْمُونَةَ يُغَادُوهُمْ وَيُرَاوِحُوهُمْ، فَعَمَّ جِهَاتِهِمُ الْحَصَارَ، وَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُمْ الْإِسَارَ، وَمَنْ اللَّهُ أَنْ أُمَكْنَ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ الْغَادِرِ الَّذِي غَدَرَ قَرْمُونَةَ، وَمَكَّنَ مِنْهَا ابْنَ هَمْشُكٍ، وَهُوَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَرَّاحِيلَ، وَسَيِّقَ أُسِيرًا مَكْبُولًا إِلَى السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ بِإِشْبِيلِيَّةَ، فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَتْبَاعَهُ وَأَشْيَاعَهُ. وَفِي أَثْنَاءِ هَذَا وَصَلَ يَوْسُفُ بْنُ سُلَيْمَانَ بِعَسْكَرٍ ضَخْمٍ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ جَهَّزَهُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ حِينَ وَصُولِهِ إِلَى مَرَّاكُشَ، فَاتَّصَلَتْ أَمَالُ النَّاسِ عِنْدَ وَصُولِهِمْ وَاتَّصَلَتِ الْمَسَرَّةُ^(٣) بِحُلُولِهِمْ، وَقَوِيَتْ بِهِمْ إِشْبِيلِيَّةُ، وَدَخَلَتِ الْأَقْوَاتُ وَالْمِيرَةُ إِلَى قُرْطُبَةَ، وَتَوَجَّهَ السَّيِّدُ أَبُو يَعْقُوبَ إِلَى مَرَّاكُشَ لَزِيَارَةِ أَبِيهِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى حَرْبِ قَرْمُونَةَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي حَفْصٍ، فَسَارَ إِلَيْهَا وَنَزَلَ عَلَيْهَا حَتَّى ضَاقَ مَنْ فِي دَاخِلِهَا مِنَ الرَّعْيَةِ، وَالشَّرْذِمَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَيُسُؤُوا مِنْ نُصْرَةِ ابْنِ مُرْدَنْشَ لَهُمْ، وَقَيَّضَ اللَّهُ لَهُمْ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَدَاخَلَ الْمُوَحِّدِينَ وَطَلَبَ مِنْهُمْ الْأَمَانَ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَرَعِيَّةِ بَلَدِهِ، فَأَجَابُوهُ لَذَلِكَ، فَأَجْمَعَ أَصْحَابَهُ وَفَتَحَ بَابَ الْمَدِينَةِ وَدَخَلَهَا الْمُوَحِّدُونَ بَعْدَمَا طَالَ حَصَارُهَا مَدَّةً مِنْ سَنَةٍ، وَكَانَ فَتْحُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْخَامِسَ عَشَرَ لِمَحْرَمٍ مِنْ عَامِ سَبْعَةٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ، وَكَانَ تَغْلُبُ ابْنَ هَمْشُكٍ عَلَيْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْخَامِسَ عَشَرَ لِرَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ.

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ: رَحَلَ السَّيِّدُ أَبُو يَعْقُوبَ مِنْ مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةَ إِلَى حَضْرَةِ أَبِيهِ بِرَسْمِ زِيَارَتِهِ، وَكَذَلِكَ تَوَجَّهَ أَيُّضًا السَّيِّدُ أَبُو سَعِيدِ ابْنِ الْخَلِيفَةِ لَزِيَارَةِ أَبِيهِ، فَغَدَرَ ابْنُ هَمْشُكٍ بَعْدَهُ مَدِينَةَ غَرْنَاطَةَ حَسْبَمَا أذْكُرُهُ.

(١) الضبط من ق. وانظر: المن بالإمامة ١٧٧ فما بعدها.

(٢) في م: «رتب السيد أبو يعقوب حرب...» ولا ندري من أين أتوا بها، ففي جميع النسخ ما أثبتنا.

(٣) في ك، م: «المسرات».

ذكرُ غَدْرِ ابنِ هُمُشِكْ مدينةَ غَرْنَاطَةَ ومُلكِها^(١)

وذلك أن ابنَ إبراهيم بن هُمُشِكْ لم يزل في كلِّ صائفة يُفسدُ زرعَ قُرْطَبَة ويُضِرُّ بجَنابِها وربوعها مدةَ الأعوام التي كان عبدُ المؤمن بإفريقية، وأنه استولى بغدْره على قَرْمُونَة وغيرها، ولم يبقَ من البلاد المجاورة لإشبيلية إلا قليلٌ منها، فلما كان إيابُ عبد المؤمن وعبوره البحرَ إلى جبلِ الفَتْحِ ثم انصرافُه إلى مَرَاكُش، لازمت [العساكرُ من الموحِّدين]^(٢) حصارَ قَرْمُونَة حتى فَتَحَها اللهُ كما ذكرنا، [فأسفَ]^(٣) عليها ابنُ هُمُشِكْ وهو على مدينة جَيَّان، [فاضطربت الفتنة في قلبه]^(٤) وجَنَّ في خاطره الفاسد أن يغدرَ مدينةَ غَرْنَاطَةَ، إذ هي بمقرَّبة منه، فداخَلَ مَنْ بها من اليهود لعَنَهم اللهُ وارتبطَ معهم على أن يجتمعوا بالليل ويعدُّوه بليَّةٍ معيَّنة يصلُّهم فيها إلى باب الرِّبَضِ^(٥) فيكسرونَ البابَ ويدخلونه، فكان ذلك^(٦) كذلك، ودخلها في هذه السنة، وكان واليها السيِّدُ أبو سعيد قد نهَضَ لزيارة أبيه بالحضرة المَرَّاكُشيَّة كما تقدَّم ذكره، فمضى ابنُ هُود سراً من ابنِ هُمُشِكْ إلى اليهود وارتبطَ معهم على دخوله المدينة، وكانت القَصْبَةُ مُحَصَّنَةً بالرجال الأبطال مملوءةً بالأقوات والآلات، فوصل الغادرُ في اللَّيلة الموعودة وقد اجتمعت الكُفْرَةُ اليهود فكسروا قُفْلَ الباب وبادروا بالصَّياح للأصحاب، فلما تسامَعَ الناسُ بذلك بادَر مَنْ كان هنالك مَنَّ له ولاءٌ واعتقادٌ في الدِّين، فلما أصبح الصُّباحُ من تلك اللَّيلة وقد ملكَ ابنُ هُمُشِكْ المدينة، خاطَبَ أميرَه ابنَ مُرْدَنِش بِمُرْسِيَّةٍ يُعلِّمُه بما اتَّفَقَ له، وأطمعَه أنه إذا وصل بعسكره يُنزِلُ طوعاً مَنْ في القَصْبَةِ من الموحِّدين، فاحتشدَ ابنُ مُرْدَنِش مَنْ ببلادِه واستدعى النَّصارى أصحابه، ووصلوا إليه، وخرج في جَمْعِهِ الذَّمِيم طامعاً فيها ضَمِنَ له ابنُ هُمُشِكْ، وكان ابنُ هُمُشِكْ

(١) المن بالإمامة ١٨١، والكمال لابن الأثير ٢٨٣-٢٨٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣١٩.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة، ص ١٨٢.

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ، وهو من المنّ بالإمامة أيضاً.

(٤) بياض في النسخ، وهو من المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف.

(٥) في ق، ر ٣: «الروض»، وباب الربض: أحد أبواب غرناطة، ولعله ربض البيازين.

(٦) سقطت من ك.

عند دخوله شرع في قتال من بالقصبة وعذب من حصل في يده منهم، وعبث فيهم
ورماهم بالمنجنق، وأعان الله المحصورين بالقصبة بما كان عندهم من الأقوات
والآلات فأعدوها مع عون الله عددهم، وشاع خبر تجلدهم وتشتيتهم، وبلغ الخبر أمير
المؤمنين عبد المؤمن فتحرك من حضرته لجواز البحر إلى الأندلس.

ذكر حركة أمير المؤمنين برسم الجواز إلى الأندلس

حين بلغه غدر ابن هُمشك غرناطة^(١)

لما خرج أبو محمد عبد المؤمن من مراكش على عادته من فخامة هيئته وضخامة
جيوشه برسم الغزو لبلاد الأندلس، تمادى مشيه على تلك الهيئة المعهودة، فلما كان
في بعض الطريق وصله الخبر بغدر غرناطة، فساء ذلك وتأثر له، فلما وصل سلا تقدم
منها السيد أبو سعيد ابنه بمن كان معه، وأسرع السير إلى الأندلس لعله يدخل قصبة
غرناطة ويفر^(٢) ابن هُمشك، وكان السيد قد قرر له أن ابن هُمشك في جملته المعلومة له،
وإذا بابن مُردنيش قد وجهه عسكرياً من الروم في ألفي فارس ورجالة كثيرة، فلما
وصل السيد مالقة استدعى منها أبا محمد عبد الله بن أبي حفص الوالي على إشبيلية
أن يصله بعسكرها، فهض أبو محمد المذكور والتقى بالسيد أبي سعيد، وتجمعوا
بأجمعهم، وتقدم السيد بالموحدين والجند الأندلسيين ونزلوا فحصى غرناطة حيث
السواقي الجارية، فخرج إليهم ابن هُمشك بالنصارى وأصحابه، ودارت الحرب بينهم
في الموضع المذكور، فانهزمت جموع الموحدين وفرّوا أجمعين، فقطعت بهم تلك السواقي
عند فرارهم فسقطوا فيها بخيلهم، وكانت من أقوى أسباب انهزامهم وقتلهم،
واستشهد في ذلك اليوم الشيخ أبو محمد بن أبي حفص المذكور، وتخلص السيد أبو
سعيد، [ووصل^(٣) مدينة مالقة، واستشهد في ذلك اليوم العصب كثير من^(٤)]
الموحدين والأندلسيين، وكان زُرداً عظيماً وخطباً جسيماً، وثبت الله الموحدين المحصورين

(١) المن بالإمامة ١٨٥ فما بعدها.

(٢) في م: «مقرّ» وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ والمن بالإمامة ١٨٦.

(٣) بياض في الأصل، وهي مستفادة من المن بالإمامة ١٨٨.

(٤) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين مستفاد من المن بالإمامة.

بِقَصْبَةِ غَرْنَاطَةِ، إِذْ كَانَ الْخَطْبُ بِمَرَأَى مِنْهُمْ يَنْظُرُونَ مِنْ أَعْلَى الْقَصْبَةِ لِقَتْلِ إِخْوَانِهِمْ،
وَانْصَرَفَ ابْنُ هَمْشُكٍ مِنْ هَذِهِ الْوَقِيعَةِ مَعَ أَصْحَابِهِ النَّصَارَى إِلَى الْقَصْبَةِ الْحُمْرَاءِ بِغَرْنَاطَةِ،
وَأَسْرَى الْمُوَحِّدِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَقْتُلُهُمْ وَيَعْبَثُ فِيهِمْ عَلَى مَرَأَى مِنْ إِخْوَانِهِمْ.

وَلَمَّا وَصَلَ خَبْرُ هَذِهِ الْوَقِيعَةِ إِلَى رِبَاطِ الْفَتْحِ، وَكَانَتْ الْعَسَاكِرُ قَدْ تَلَاَحَقَتْ
بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِيَّةٍ مَا تَحَرَّكُوا إِلَيْهِ مِنَ الْغَزْوِ لِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَاخْتَارَ مِنْهُمْ عَسْكَرًا
ضَخْمًا مِنْ أَعْيَانِ كُلِّ قَبِيلٍ مِنْ أَهْلِ الشَّهَامَةِ وَالنَّجْدَةِ وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ ابْنَهُ السَّيِّدَ أَبَا
يَعْقُوبَ، فَتَحَرَّكُوا مِنْ رِبَاطِ الْفَتْحِ إِلَى أَنْ وَصَلُوا بَحْرَ الرُّقَاقِ فَجَازَوْا مِنْهُ إِلَى الْجَزِيرَةِ
الْخَضْرَاءِ، وَاسْتَوَفَتِ الْعَسَاكِرُ وَتَلَاَحَقَتْ وَتَبَادَرَتْ فِي الْإِجَازَةِ وَتَسَابَقَتْ، وَتَحَرَّكُوا
مِنْهَا إِلَى مَالَقَةِ فَاجْتَمَعُوا بِالسَّيِّدِ أَبِي سَعِيدٍ وَتَحَرَّكَ الْجَمِيعُ.

ذَكَرُ حَرَكَةِ السَّيِّدَيْنِ ابْنِي الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ

مِنْ مَالَقَةِ إِلَى غَرْنَاطَةِ وَهَزِيمَةِ ابْنِ هَمْشُكٍ^(١)

فَتَحَرَّكَ السَّيِّدَانِ أَبُو يَعْقُوبَ وَأَبُو سَعِيدٍ مِنْ مَدِينَةِ مَالَقَةِ إِلَى غَرْنَاطَةِ وَابْنُ
مُرْدَنْيَشٍ قَدْ وَصَلَ بِمَحَلَّتِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى طَمَعًا فِي مُلْكِ غَرْنَاطَةِ، فَنَزَلَ فِي
الْجَبَلِ الْمُتَّصِلِ بِقَصْبَةِ غَرْنَاطَةِ وَابْنُ هَمْشُكٍ بِالْحُمْرَاءِ مَعَهُ نَحْوُ ثَمَانِيَةِ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ
النَّصَارَى دُونَ عَسْكَرِيَّتِهِ وَابْنُ مُرْدَنْيَشٍ فِي أَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْعَدَدِ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ كُلُّ يَوْمٍ
وُضُوءَ الْعَسَاكِرِ وَيَطْنُونُ ظُنُونَهُمْ، وَالْمُوَحِّدُونَ^(٢) يَمْشُونَ فِي طَرِيقِهِمْ عَلَى تَوْدَةِ حَتَّى
وَصَلُوا وَادِي شَنْيَلٍ^(٣)، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْخَمِيسِ الْخَامِسِ وَالْعَشْرِينَ لَرَجَبِ رَكِبَ السَّيِّدَانِ
وَرَكِبَ جَمِيعُ الْعَسَاكِرِ بَعْدَمَا عَلَفُوا خِيُولَهُمْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِهِمْ وَعَزَمُوا أَنْ
يَسِيرُوا لَيْلَهُمْ، وَقَدَّمُوا الْأَدْلَاءَ أَمَامَهُمْ وَتَسَنَّمُوا الْجَبَلَ إِلَى أَعْلَاهُ الَّذِي عَلَى وَادِي
شَنْيَلِ الْمُتَّصِلِ بِالْقَصْبَةِ الْحُمْرَاءِ حَيْثُ مَحَلَّةُ النَّصَارَى وَصَاحِبُهُمْ ابْنُ هَمْشُكٍ، وَمَشَوْا
طَوْلَ لَيْلَتِهِمْ عَلَى تَوْدَةٍ فِي الْجَبَلِ الْمَذْكُورِ عَلَى شَوَاهِقِهِ وَأَحْجَارِهِ وَقَدْ سَهَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
عَلَى وَعَرِهِ، وَكَانَتْ لَيْلَةٌ مُقْمِرَةٌ، فَلَمَّا بَرَقَ ضَوْؤُ الْفَجْرِ اظْلَعُوا عَلَى مَحَلَّةِ الْكُفْرَةِ فَبَدَرُواهُمْ

(١) المِنْ بِالْإِمَامَةِ ١٨٩.

(٢) فِي النِّسْخِ: «وَالْمُوَحِّدِينَ» وَلَا تَسْتَقِيمُ فَاصْلَحَتْ.

(٣) يَنْظُرُ مَسَالِكَ الْأَبْصَارِ ٤/ ٢٢٧.

بالكفاح في مضاجعهم^(١) وأعجلوهم عن ركوبهم، فما قَدَرُوا أن يركبوا خيلهم إلا وقد أحان الله حينهم، ثم كانت منهم بعدَ مُواقعاتٍ وحَمَلاتٍ ومُدافعاتٍ، ثم أذهَلهم الله وأعماهم، فظنُّوا أنَّ الأرضَ متَّصلةٌ إلى محلَّة ابن مُردَنيش، وكانت بِوادي حداره^(٢) منفصلةً عنهم، فولَّوا أدبارهم عندَ الدِّفاع والانهزام وتردَّوا في وادي حداره عندَ إظلام الظلام، فتقطَّعت في حافاتِ ذلك الوادي أجسامُهم وحان في ذلك الصِّباح السعيد حِمَامُهم، وقُتل في تلك المعركة قائدُ النَّصارى وحُزَّ رأسه وسِيَقَ إلى قُرْطَبَة بعدَ أيامٍ وعُلِّق بباب القصر، وتردَّى في الوادي صهرُ ابن مُردَنيش وقُوَّادُه الأكابر وفُرسانُه المشاهير، وكان ابنُ مُردَنيش في الجبل المتَّصل بَعَرْنَاطَة يَرى قَتْلَ إخوته فيتفطرُّ كبِدُه بحسرتِه. ودخلَ الموحدونَ مدينةَ غَرْنَاطَة وَسَطَ النَّهار، على أُنْمِ النَّصر والإظهار، وخرجَ الموحدونَ المحصورونَ بالقَصْبَة في الحين قاتِلين لَمَن في المدينة من الأَشقياءِ القاطنين، وأقْلَع ابنُ مُردَنيش منهزمًا [من موضع محلَّته]^(٣) بباقي شَرذمته وتركَ أخبيته وأَسلابه، كما أفرَدَ في ذلك اليوم [أصحابه]^(٤)، فاقْتَفَى الموحدونَ أثره وقتلوا من أدركوه من قومه، وانتسب هذا الفتحُ بالعدوة الأندلسية إلى سعد السيِّد أبي يعقوب، واستقرَّ في النفوس ذلك وعندَ أشياخِ الموحِّدين، وكان ذلك سببًا في نَيْله الأمرَ العزيز، وأَعْلَمَ السيِّدان المذكورانَ حضرةَ الخليفة بالفتح فسُرَّ بذلك سُروراً تامًّا وشكَّرَ الله تعالى شكرًا عامًّا.

(١) غيَّرها ناشرو (م) إلى: «مضابِعهم» وقالوا في تعليق لهم: «من ضابِع المقاتل خصمه: إذا استلَّ كلُّ منهما سيفه فمدَّه إليه» وهو تغيير فاسد وتعليل أفسد منه؛ لأنَّه لا يدلُّ على المعنى المراد، والمحقق لا يغيِّر ما في النسخ من غير تعليل صحيح، فلفظة «مضاجعهم» جاءت في جميع النسخ، فضلًا عن أنَّها كذلك في المورد الذي ينقل منه المصنف وهو المَنّ بالإمامة، حيث قال: «فلَمَّا فرق ضوءُ الفجر بالصباح من يوم الجمعة الثامن والعشرين المؤرخ المذكور، أُطلِّوا على محلات الكفرة في ذلك الصِّباح، فبدَّأوهم في مضاجعهم بالكفاح، وخلطوا أحشاءهم بالسيف والرماح، فلم يلحقوا أن يركبوا خيلهم». (المَنّ بالإمامة ١٩٢).

(٢) معجم البلدان ٢/ ٢٢٧.

(٣) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المَنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلِّف ١٩٣.

(٤) بياض في النسخ، وهي مستفادة من المَنّ بالإمامة ١٩٤.

ولمّا أكملَ اللهُ هذا الفتحَ العظيمَ الشَّانَ تحرَّكَ العسكرُ لحصارِ ابنِ هُشَك بِمدينةِ جَيَّانَ، وأنَّ يَسْتَأْصَلَ في جميعِ جَنَابَتِهِ مَنَ فيها من أهلِ التَّفَاقِ والعُصيانِ، وأنَّ يُخَصَّصَ هو بالنِّكايةِ والانتقامِ منه بأوفى الخُسْرانِ، فنَزَلَ الموحِّدونَ بِساحِلِ قَريَّتِهِ^(١) المذكورةِ الظَّالِمَ أهلُها السابقَ أخذُها بما اقتَضاهُ جَهْلُها، فلاذَ هو ومَنَ فيها من الأَشقياءِ والكُفَّارِ بالِجُذُرِ والآكامِ، وأصبحوا بِأسوارِهِم راضينَ بحالَةِ الضَّيْمِ والاهْتِصامِ، ظانِّينَ بأنَّهم مانِعَتُهُم حصُونُهُم وآتَى لهم من الامتناعِ والاعتصامِ؟ فانْتَسَفَ ما حَوَّالِها فخرِبَ عامرُها، ودامَ ذلكَ إلى أن وصلَ الأمرُ إلى الساداتِ باستيطانِ قُرْطَبَةٍ.

ذَكَرَ حَرَكَةَ السَّيِّدِينَ مِنْ غَرْنَاطَةِ وَقُدُومِهَا عَلَى قُرْطَبَةٍ

وذلكَ في شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ^(٢)

ولمّا وصلَ السَّيِّدانِ: أبو يعقوبَ وأخوه أبو سعيدَ إلى قُرْطَبَةٍ خَرَجَ أَهْلُ قُرْطَبَةٍ لِلِقائِها بِجَهَةِ بابِ القَنْطَرَةِ، وكانَ أعيانُ قُرْطَبَةٍ الذينَ أَبْقَتْهُمُ الفِتْنَةُ على أَقدامِهِم بارِزينَ مَعَ النِّظَّارَةِ مِنَ العَامَّةِ، وذلكَ في نحوِ ثَمانيِّنَ رَجُلًا خَاصَّةً بِجَلالِهِم مِنَ الفِتْنَةِ على البِلادِ وما كانَ حَلَّ بِلادِهِم مِنَ القَفْرِ بِثُغُورِها وإنْجَادَ، وقدَ ظَهرَ على هِيائِهِم وَصُورِهِم البُؤْسُ، واستمرَّ على بِلَدِهِم وَعَليهِم مِنَ الفِتْنَةِ الدَّرْسُ، فَلَقَدْ ذاقَتْ قُرْطَبَةُ وَأَهْلُها مِنْ سِوَةِ هَذِهِ الفِتْنَةِ الأَنْدَلِيسِيَّةِ ما لَمْ يَذُقه أَحَدٌ مِنْ أَوائِلِهِم في الفِتْنَةِ الحَمُودِيَّةِ بِالحاحِ ابنِ هُشَكٍ وَقَساوتِهِ العَجَمِيَّةِ.

ولمّا اسْتَقَرَّ السَّيِّدانِ بِقُرْطَبَةٍ أَمَرَا بِنِباءِ قُصُورِها وَحِمايَةِ ثُغُورِها، وانْجَلَبَ إِلَيْها أَهْلُها في أَقْرَبِ مَدَّةٍ، وَتَجَدَّدَتْ آمالُهُم وَصَلَحَتْ أَحْوالُهُم، وكانَ مَقامُ السَّيِّدَيْنِ بِقُرْطَبَةٍ نَحْوَ ما أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

وفي سَنَةِ ثَمانيٍّ وَخَمسينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ: وَصَلَ الأَمْرُ إلى السَّيِّدِ أَبِي يَعْقُوبَ بِالحَرَكَةِ إلى الحَضْرَةِ، فَتَوَجَّهَ إلى إِشبيليةَ وَلَمْ يُقِمْ بِها إِلَّا سِتَّةَ أَيَّامٍ، وَوَصَلَ سِيرَهُ إلى الحَضْرَةِ تَأْمِيلًا أَنْ يَصِيرَ لَهُ الأَمْرُ وَوِلايَةُ العَهْدِ بِخَلْعِ أَخِيهِ المَخْلُوعِ وَاتِّفاقِ المَوْحِدِينَ على تَقْدِيمِهِ لِلإِمَامَةِ.

(١) في م: «كديته»، وما أثبتناه من النسخ والمن بالامامة الذي ينقل منه المصنف.

(٢) المن بالامامة ١٩٧ فما بعدها.

وأقام السيّد أبو سعيد بغرناطة على الحالة التي أمر بها فزادها تمصيراً ويسّر
خيراتها تيسيراً وانصافت إشيليّة ونظرّها في الأشغال إليه.

ذكر سبب خلع السيّد أبي عبد الله ابن أمير المؤمنين

عبد المؤمن من^(١) ولاية عهد أبيه^(٢)

لما تحرّك عبد المؤمن في هذه السنة إلى زيارة الإمام المهدّي، كان ذلك في
فصل الشتاء والبرد، فزار وودّع وانصرف، وقد ظهر في تلك الحركة من جرّحة
محمد المخلوع ما أوجب^(٣) عليه إثر ذلك الخلع من شرب الخمر وظهور السكر عليه،
[وذلك]^(٤) أنه [كان]^(٥) يتقيّاً يوماً على ثيابه وأطنابه وهو راكب على فرسه في المحلّة
على مرأى من أشياخ الموحّدين والعامّ من الناس الزائرين، فصحّ عند أبيه نكره
وتخلّطه وسكره، فأسقط هو بفعله من الأمر نفسه وكسف بالنهار شمسّه، وتكلّم
الناس بعد ذلك بأقاويل شنيعة أنبأت عن خلعه وحفّه على ما يذكر إن شاء الله تعالى.

ذكر حركة أمير المؤمنين عبد المؤمن

من حضرة مرّاكش إلى رباط الفتح بسلا^(٦)

كان خروجه من مرّاكش يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول من السنة
المؤرّخة على نيّة الغزو والجهاد، والنظر في الآلات والاستعداد، فاتصل سيّره وعزمه
على عادته من المشي الرفيق، ومراحله إلى منازل المبنية في الطريق، والعساكر المتقدّمة

(١) في م: «في».

(٢) المن بالإمامة ٢١٢-٢١٣.

(٣) في النسخ: «من جرّحة محمد المخلوع [...] الطريق ما أوجب»، وهي غير مستقيمة، وأصل
العبارة في المن بالإمامة التي ينقل منها المؤلف: «ثم ألق ووصل المنسك الكريم، وزار وودّع
وانصرف وقد نال الأجر العظيم، وعند الانصراف منها في الطريق ظهر من جرّحة محمد
المخلوع بما أوجب...»، ص ٢١٣.

(٤) ما بين الحاصرتين منّا للتوضيح.

(٥) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين منّا.

(٦) المن بالإمامة ٢١٤ فما بعدها.

معه على الوفور والكمال، والظهور والإقبال، حتى وصل إلى رباط الفتح من سلا فأراح بها منتظراً لاستيفاء المتأخرين من العساكر، فتلاحقوا واستوفوا بجموعهم وتسابقوا مبادرين بحسن الطوع الذي بين ضلوعهم، وبعد ذلك مَرَضَ أبو محمد عبد المؤمن.

ذكر وفاة عبد المؤمن رحمه الله تعالى^(١)

لَمَّا مَرَضَ وَأَخَذَهُ وَجَعُهُ الَّذِي تَوَفَّى مِنْهُ دَامَ بِهِ أَيَّامًا وَالنَّاسُ يَنْتَظِرُونَ شِفَاءَهُ وَالْأَطْبَاءُ كُلُّ يَوْمٍ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا تَمَادَى الْمَرَضُ بِهِ أَمَرَ بِاسْقَاطِ اسْمِ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ مِنَ الْخُطْبَةِ، الَّذِي كَانَ وَلِيَّ عَهْدِهِ، وَفَهُمُ النَّاسُ أَنَّ الْجُرْحَةَ الْمُصَوَّفَةَ قَدْ مُضِيَ بِهَا وَأُسْقِطَ اسْمُهُ بِسَبَبِهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَمَرَ بِقَتْلِهِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ أَبُو حَفْصٍ وَأَوْصَاهُ^(٢) وَوَعَى مِنْهُ السَّرَّ الَّذِي وَعَاهُ وَاسْتَوْثَقَ بِوَصِيَّتِهِ أَيْضًا لِابْنِهِ أَبِي حَفْصٍ بِتَقْدِيمِ أَخِيهِ شَقِيقِهِ يَوْسُفَ، وَكَانَ أَبُو حَفْصٍ الْمَذْكُورُ قَدْ مَلَكَ جَمِيعَ الْأُمُورِ، جَعَلَ لَهُ أَبُوهُ ذَلِكَ.

وَلَمْ يَزَلِ الْوَجَعُ يَشْتَدُّ بِهِ وَهُوَ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى وَالْأَطْبَاءُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ الْخَمِيسِ الْعَاشِرِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنَ السَّنَةِ تَوَفَّى رَحِمَهُ اللَّهُ، فَحُمِلَ إِلَى تَيْمَلْ وَدُفِنَ بِجَانِبِ قَبْرِ الْمَهْدِيِّ، وَكَانَ لَهُ مِنَ السِّنِينَ، عَلَى مَا رَوَاهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِرَوَايَةِ أَبِي يَحْيَى زَكَرِيَا بْنُ يَحْيَى بْنِ سِنَانٍ: ثَلَاثٌ وَسِتُونَ سَنَةً، وَقِيلَ: أَرْبَعَةٌ وَسَبْعُونَ.

ذكر^(٣) بعض أخباره على الجُمْلَةِ وَسِيرِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٤)

نَسَبُهُ: هُوَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ عَلَوِيِّ بْنِ يَمَلِيٍّ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ نَصْرِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَامِرِ بْنِ الْأَمْتَرِ بْنِ مُوسَى بْنِ عَوْنِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى بْنِ وَرْجَانِ بْنِ سَطْفُورِ بْنِ يَعْقُورِ بْنِ مَلَطَاطِ بْنِ هُودِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ، بِالْعَيْنِ الْمُعْجَمَةِ، وَغَيْلَانَ: اسْمُ رَمَكَةٍ سَمِّيَ بِهَا،

(١) المن بالإمامة ٢١٧-٢١٨، والكمال لابن الأثير ١١/ ٢٩١-٢٩٢، والمعجب ٣٠٦-٣٠٧،

ونهاية الأرب ٣١٨/٢٤.

(٢) سقط من ر٣.

(٣) ليست في ك.

(٤) المن بالإمامة ٢١٩-٢٢٠.

فَعَبْدُ الْمُؤْمِنِ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ، هَكَذَا أُثْبِتَ نَسَبَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَهُ، وَأَصْلُهُ مَنْقُولٌ مِنْ خَطِّ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَاحِدِ حَفِيدِهِ، وَفِي ذَلِكَ خِلَافٌ.

وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ وَخَمْسَةَ وَعَشْرِينَ يَوْمًا، أَوَّلُهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ الرَّابِعَ عَشَرَ لِرَمَضَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ، وَآخِرُهَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ثَامِنَ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ.

عُمُرُهُ: ثَلَاثٌ وَسِتُونَ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى حَمْلَهُ إِلَى تِنْمَلِ السَّيِّدِ عَلِيِّ ابْنِهِ.

كُتِبَتْهُ أَيَّامُ خِلَافَتِهِ: مَيْمُونُ الْهَوَّارِيُّ، [وَأَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبَلٍ] ^(١)، وَأَبُو جَعْفَرِ بْنِ عَطِيَّةَ، وَعَطِيَّةُ ^(٢) بْنُ عَطِيَّةَ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنِ عِيَّاشٍ.

وُزَرَؤُهُ: ابْنُ عَطِيَّةَ، وَعَبْدُ السَّلَامِ الْكُومِيُّ، وَأَبُو حَفْصِ ابْنِهِ، وَأَبُو الْعُلَى إِدْرِيسُ بْنُ يَدِي ابْنِهِ أَبِي حَفْصٍ.

قُضَاتُهُ: أَبُو مُوسَى صِهْرُهُ مِنْ أَهْلِ تِنْمَلٍ وَحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ.

بَنُوهُ: الْخَلِيفَةُ بَعْدَهُ يَوْسُفُ، شَقِيقُهُ أَبُو حَفْصٍ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَخْلُوعُ، أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ صَاحِبُ بَجَايَةِ، أَبُو سَعِيدِ عُثْمَانُ صَاحِبُ غَرْنَاطَةِ، أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ، أَبُو الرَّبِيعِ سُلَيْمَانُ، أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى، أَبُو إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلُ، أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ، أَبُو يَوْسُفَ يَعْقُوبَ، أَبُو الْحَسَنِ عَلِيٌّ، أَبُو زَيْدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَبُو سُلَيْمَانَ دَاوُدَ، أَبُو مُوسَى عَيْسَى، أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ. الْبَنَاتُ: صَفِيَّةُ، وَعَائِشَةُ.

وَمِنْ مَكَارِمِهِ وَإِنصَافِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَانْبِسَاطِهِ فِي مَجْلِسِهِ مَا حَدَّثَ الثَّقَةَ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَحْدُثُ الشُّيُوخَ مِنْ أَهْلِ الْجَمَاعَةِ وَأَهْلِ خَمْسِينَ وَبَعْضَ الطَّلَبَةِ مِنَ الْحَضَرِ، قَالَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: كُنْتُ فِي تِلْمِزَانِ طَالِبًا أَقْرَأُ أَصُولَ الدِّينِ، وَكَانَ لِي صَاحِبٌ بِهَا فَرَحَلْ عَنِّي مِنْ تِلْمِزَانِ يَرِيدُ الشَّرْقَ، فَوَصَلَ بِجَايَةَ، فَخَاطَبَنِي مِنْهَا يَعْرِفُنِي فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ

(١) فَرَاغَ فِي النِّسْخِ، وَمَا أُثْبِتَنَاهُ مِنَ الْمَنَ بِالْإِمَامَةِ ٢١٩.

(٢) فِي م: «وَعَقِيلٌ»، وَلَا نَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَتَوْا بِهَا، وَمَا أُثْبِتَنَاهُ مِنَ النِّسْخِ كَافَّةً، وَهُوَ: أَبُو عَقِيلِ عَطِيَّةُ بْنُ عَطِيَّةَ أَخُو أَبِي جَعْفَرِ الْقَضَاعِيِّ الْمَرَاشِيِّ، يَنْظُرُ رِسَائِلَ مُوَحَّدِيَّةٍ، ص ٢٢، ٧١، وَالتَّعْلِيقُ عَلَى الْمَنَ بِالْإِمَامَةِ ٢٢٠.

وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ فَقِيَهُ عَالِمٌ بِالْعِلْمِ الَّذِي تَطَلَّبُهُ فَلْتَنْتَقِلَ إِلَيْهِ، فَعِنْدَ وَصُولِ كِتَابِهِ إِلَى رَحْلَتِي إِلَى بَجَايَةِ فَلَقِيْتُ السَّهْدِيَّ. وَحَدَّثَ أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَضَرْتُ مَعَهُ فِي غَزْوَةِ بَجَايَةِ، فَلَمَّا تَوَسَّطْنَا نَظَرَ تِلْمِصَانٌ نَظَرَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى قَرْيَةٍ كَثِيرَةِ الدُّوَرِ، فَأَمَرَ بِوُقُوفِ الْعَسَاكِرِ وَحَثَّ السَّيْرَ مُنْفَرِدًا عَلَى فَرَسِهِ حَتَّى وَصَلَ الْقَرْيَةَ، فَوَقَّفَ عِنْدَ أَحَدِ أَبْوَابِ دُورِهَا سَاعَةً يَسْأَلُ أَهْلَ الدَّارِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْعَسْكَرِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ الْمَحَلَّاتُ وَنَزَلَ هُوَ فِي مَضَارِبِهِ أَمَرَ بِإِحْضَارِ أَهْلِ الدَّارِ الْمَذْكُورَةِ فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَبِيهِمْ فَقَالُوا: إِنَّهُ تَوَقَّى وَتَرَكَ أَوْلَادًا أَرْبَعَةً، فَأَسْهَمَهُمْ أَرْضًا وَاسِعَةً لِاحْتِرَائِهِمْ، وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ الْغَنَمِ وَمِثْلَهَا مِنَ الْبَقَرِ، وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ دِينَارًا، وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ ظَهِيرًا بِالْعِزِّ وَالْأَمَانِ وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، وَأَنْ يَكُونُوا حُكَّامًا عَلَى قَبِيلِهِمْ.

وَذَكَرَ ابْنُ صَاحِبِ الصَّلَاةِ أَنَّهُ كَانَ سَاكِنًا بِتَيْنَمَلِ أَيَّامِ السَّهْدِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ جَارَةٌ، فَأَهْدَتْ لَهُ عَتْرًا عِنْدَ إِيَابِهِ مِنْ إِحْدَى حَرَكَاتِهِ فَقَبِلَهَا مِنْهَا، وَانْصَرَفَتْ الْيَوْمَ لَهُ بِالسُّعُودِ وَالظُّهُورِ حَتَّى مَلَكَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَوَجَّهَ لِلْمَرْأَةِ أَلْفَ دِينَارٍ وَقَالَ لَهَا: هَذَا جَزَاءٌ عَلَى هَدِيَّتِكَ الْعَتْرِ.

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بَعْدَ الْفَتْحِ بِمَدِينَةِ مَرَّاكُشَ وَفَدَّ إِلَيْهِ مَنْ كَانَ يُوَالِيهِ مِنْ طَلَبَةِ الْخَضِرِ^(١) وَاسْتَقَرُّوا عِنْدَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَالَقِيُّ فَرَأَاهُ دُونَ ثِيَابِ تَرْضِيهِ، فَقَالَ لِأَشْيَاخِ الْمُوحِدِينَ: هَؤُلَاءِ الطَّلَبَةُ عَرَايَا ضُعَفَاءُ، فَتَرَى أَنْ نَدْفَعَ لَهُمْ مَالًا نُقَارِضُهُمْ بِهِ وَيَتَجَرَّوْنَ فِيهِ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَأَسْلَفَ مِنْ مَالِ الْمَخْزَنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَلْفَ مِثْقَالٍ فَاكْتَسَوْا مِنْهَا وَأَصْلَحُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَمْ يَأْخُذْهَا مِنْهُمْ أَبَدًا.

وَمِنْ جِدِّهِ وَظُهُورِ سَعْدِهِ مَا أَخْبَرَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَحَدُ أَشْيَاخِ الْمُوحِدِينَ بِحَضْرَةِ مَرَّاكُشَ قَالَ: كَانَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ فِي أَيَّامِ طَلَبِهِ قَدْ سَافَرَ مِنْ تِلْمِصَانَ إِلَى مَدِينَةِ فَاسَ يَرِيدُ الْإِقَامَةَ بِهَا لَطَلَبِ الْعِلْمِ وَلِقَاءِ أَهْلِ الْفَضْلِ، فَصَحِبَ فِي طَرِيقِهِ تِلْكَ تَاجِرًا مِنْ أَهْلِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ذَا رَحْلٍ كَبِيرٍ وَمَالٍ، قَالَ التَّاجِرُ: فَرَأَيْتُ فِتْنَى حَسَنَ الْوَجْهِ فَاسْتَدْعَيْتُهُ لِلصُّحْبَةِ مَعِيَ فَأَبَى، فَلَمْ أَزَلْ أُرْغَبُهُ حَتَّى أَجَابَ، فَتِمَادَى السَّيْرَ مَعَهُ إِلَى فَاسَ، فَطَلَبَ الْكَرِيمِيُّ مِنَ التَّاجِرِ أَجْرَةَ دَوَابِّهِ فَدَفَعَ لَهُ مَا حَضَرَهُ وَنَقَصَهُ

(١) غَيْرَهَا نَاشِرُو (م) إِلَى: «الْخَضِرَةِ»، وَمَا أَصَابُوا فِي ذَلِكَ، وَهَذَا الْمِصْطَلَحُ تَكَرَّرَ فِي الْكِتَابِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ.

خَمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا فَأَسْلَفَهَا لَهُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ. ثُمَّ إِنَّ التَّاجِرَ طَلَبَهُ بِفَاسٍ فَلَمْ يَجِدْهُ وَلَا وَجَدَ لِمَنْ يَعْطِيهِ الدِّرَاهِمَ، فَكَتَبَ اسْمَهُ فِي زِمَامِهِ، وَارْتَحَلَ التَّاجِرُ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ وَبِلَادِ الشَّرْقِ فَغَابَ نَحْوَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَكَانَ طَوَّلَ تِجَارَتِهِ يَشْتَرِي بِتِلْكَ الْخَمْسَةِ عَشَرَ دِرْهَمًا سَلْعَةً بِنَاحِيَةٍ وَيَجْعَلُهَا مَعَ رَحْلِهِ ثُمَّ يَبِيعُهَا، وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهَا الْبَرَكَهَ بِقُوَّةِ سَعْدِهِ حَتَّى نَمَتْ. ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ طَوَّلِ السِّنِينَ الْمَذْكُورَةِ وَزَوَالِ الْفِتْنَةِ رَجَعَ إِلَى بَجَايَةِ بِجَمِيعِ رَحْلِهِ فَوَجَدَ عَبْدُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ وَلِيَ إِمَارَةَ الْبَحْرِ بِهَا مِنْ قَبْلِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُثَقِّفَ أَمْوَالَ التُّجَّارِ الْوَاصِلِينَ مِنَ الإسْكَندَرِيَّةِ حَتَّى يَسْتَعْلَمَ أَحْوَالَهُمْ، فَتَقَفَ مَالُ التَّاجِرِ الْمَذْكُورِ وَأَخَذَ أَرْمَتَهُ بِجَمِيعِ الْمَكْتُوبِ فِيهَا، وَوَجَّهَهَا لِعَبْدِ الْمُؤْمِنِ، وَسَجَنَ التَّاجِرَ، فَلَمْ يَزَلْ يَرْغُبُ حَتَّى أُخْرِجَ مِنَ السَّجَنِ، فَاسْتَعَجَلَ بِنَفْسِهِ بِالْوُصُولِ إِلَى الْحَضَرَةِ، فَالْتَزَمَ لِقَاءَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَتَعَرَّضَ لَهُ وَذَكَرَ لَهُ مَسْأَلَتَهُ مَعَهُ، فَأَحْضَرَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ زِمَامَ التَّاجِرِ وَفَتَشَ مَا ذَكَرَهُ فَوَجَدَ مَالًا غَيْرَ مَكْتُوبٍ وَعَدَدَ الدِّرَاهِمِ الْخَمْسَ عَشْرَةَ وَأَنَّ الْمَجْتَمِعَ فِي الرِّبْحِ أَلْفَ دِينَارٍ، فَجَزَاهُ عَلَى أَمَانَتِهِ وَمَا ادَّعَاهُ مِنْ رَوِيَّتِهِ^(١) خَيْرًا وَكَتَبَ لَهُ ظَهِيرًا بِالْأَمَانِ فِي أَهْلِهِ وَنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَمَرَ بِصَرْفِ رَحْلِهِ وَمَتَى شَاءَ يَنْصَرِفُ إِلَى مَحَلِّهِ.

أَخْبَرَنِي أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ قَالَ: وَفِي صَدْرٍ مِنْ دَوْلَتِهِ جَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَنَزَلَ بِجَبَلِ الْفَتْحِ فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ الْحِصْنِ الْكَائِنِ فِيهِ الْآنَ، وَبَعَثَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ إِلَى بِلَادِ الْعَدُوِّ بِرَسْمِ الْغَزْوِ وَتَقْدِيمَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَدَّمَ عَلَى أَصْنَافِ الْقَبَائِلِ ابْنَ الشَّرْقِيِّ وَعَلَى الْأَنْدَلُسِيِّينَ ابْنَ صَنَادِيدٍ. فَوَصَلُوا إِلَى فَحْصٍ بَلْقُونِ فَوَجَدُوا طَاغِيَةَ الرُّومِ قَدْ اسْتَعَدَّ لِلْقَائِمِ وَالتَّقَى مَعَهُمْ، فَكَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ حَرْبٌ شَدِيدٌ نَصَرَ اللَّهُ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ عَلَى الْكُفَّارِ هَزِيمَةٌ لَمْ يَعْهَدُ مِثْلَهَا. وَقَفَلُوا رَاجِعِينَ، فَوَجَدُوا عَبْدَ الْمُؤْمِنِ قَدْ رَجَعَ إِلَى حَضْرَتِهِ لِأُمُورٍ حَدَثَتْ بَعْدَهُ فِي جِبَاهِهَا وَلَمْ يَنْفَصِلْ مِنَ الْأَنْدَلُسِ حَتَّى مَهَّدَهَا وَرَفَّقَ بِرِعَّتَيْهَا، فَاسْتَقَامَتْ بِذَلِكَ الْأُمُورُ لِلْمُوحِّدِينَ وَمَلَكَوا الْأَنْدَلُسَ مَا عَدَا مُرْسِيَّةً وَبَلَنْسِيَّةً وَأَنْظَارَهَا فَإِنَّهَا لَابْنُ مُرْدْنِشٍ مَعَ تِلْكَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا إِلَى أَنْ رَجَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ لَطَاعَةَ الْمُوحِّدِينَ عَلَى مَا يَأْتِي.

انتهى ما اختصر من أخبار عبد المؤمن رحمه الله تعالى.

(١) في م: «عن رؤيته»، ولا معنى لها.

خلافة أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف

ابن الخليفة عبد المؤمن رحمهما الله تعالى^(١)

نسبه: قد تقدّم في خلافة أبيه.

بُويع في الليلة التي توفي فيها أبوه بتقديم أخيه أبي حفص شقيقه إليه في ولايته وحمايته، وخلع ابنه محمد الآخر فرضي بخلعه وتسليم الأمر لأخيه، فانبسطت الآمال في أيامه، بسعادة أعلامه، وكثرت البركات منه للموحّدين والأجناد في أعطياته، واتّصل الإحسان منه بمواساته. وقد كان توقّف الأخوان: أبو محمد وأبو سعيد عن بيعته وعن البدار لحضرته، واستبدّ السيّد الأعلى أبو حفص بالأوامر السلطانية على ما كان مع أبيه والشيخ أبي حفص وجميع الموحّدين وأشياخ القبائل على الرضى به والتأيّن بمقدّمه [والاستسعاد بفضائله، الصادرة عنه، الظاهرة عليه برتبته فنقد^(٢)] الأمر منه بكلّ تأنيس للناس، وبهدايا من العدل باديات الأنوار والاعتباس، ثم نفذ الأمر بانصراف العساكر المجتمعة إلى مواضعهم وتأخير العزم إلى وقت يأذن الله فيه باجتماعهم. وكملت البيعة بأكمل خلوص السرائر وطيب الوفاء في الضمائر، وتسمّى لنفسه باسم الأمير واستقلّ بما صار إليه من التأمير. وبعد إكمال هذا الترتيب انصرف من سلا إلى مدينة مراکش مع أخيه والموحّدين، فملك دار الخلافة، وأنافت به السعادة أكرم إنافة.

وعظ الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الناس، أعني الموحّدين على طبقاتهم ومراتبهم، وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم، ولما يجب عليهم من فروضهم ومسئولتهم، وبحق البيعة، وذلك قبل أن يعلم الناس بالوفاة، ولما توفي الخليفة أظهر الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى من فطانة^(٣) النصيح والوفاء، والدفاع

(١) المن بالإمامة ٢٢٨ فما بعدها، والكمال لابن الأثير ١١/ ٢٩١-٢٩٢، والمعجب ٣٠٨، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٢١، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٢/ ٦٤٦، والإحاطة ٤/ ٣٥٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٩، ونفع الطيب ٤/ ٣٧٨، والاستقصا ٢/ ١٤٦ وغيرها.

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استدركناه من المن بالإمامة ٢٢٨.

(٣) في م: «بطانة»، وهو تحريف.

بالحماية على أكمل الاستيفاء، ما وَطَّأ^(١) الأحوال ومَهَّد الآمال، برأيه السَّديد وسَعِيهِ الحميد، ولازَمَ الحضورَ بنفسه، واقتدى الموحِّدون به في حَدْسِهِ^(٢)، فاستقامت الأحوال وتحقَّقت الآمال، وتوالى استبدادُ السيِّد أبي حفص على معنى الوزارة والإمارة بإنفاذ الأوامر السلطانية عن أمرِهِ على ما كان عليه عند أبيه على رِضَى من الأمير أبي يعقوب أخيه واتِّفاق، وإجماع من شيوخ الموحِّدين وإصفاق، فكانت بينهما أُخوةٌ مبرورة، وكان ابنُ جامع بينَ أيديهما يتصرَّف في رَفْع الرُّفوعاتِ والمسائل وتوصيل رغبة الوافِدِ ومسألة السائل، وكان هذا إدريسُ نشأة دار أمير المؤمنين وابن أميرهم الأمين.

ذكرُ الإخوة^(٣)

كان السيِّد أبو الحَسَن عليُّ بن عبد المؤمن حاضراً ليلة وفاة أبيه والبيعة لأخيه، فسار إلى تينمل وحمل أباه ودَفَنَهُ ورجع من مَشْيِهِ وفي نفسه عِلَّةٌ من دخول الحسد، مؤذنةً له في الدارين بطول الكمد، فأقام مكموداً فريداً يُظهرُ إخاءً في طيِّهِ حُقوداً، فلم تمهله عِلَّتُهُ ولا طالَت به مدَّتُهُ حتى فاضت نفسه في تلك الأيام وغابت شمسُه بليل الحِمام.

وأما السيِّد أبو محمد فأقام بِبِجَايةَ بعدَ الحال يُقدِّم رجلاً ويؤخِّرُ أخرى، ويرى الرأي ويكرِّره مع مَنْ يختصُّ به، ولم تزل مخاطبةُ الأمير إليه بالاستعطاف والاستدعاء، والجواب منه بالعدة في الرحيل إلى تلك الأرجاء، فَمَطَّلَ نحوَ سنة ونصف، واعتذر عن الوصول، ثم عَزَمَ وتحرك من بِجَايةَ وظاهره جَمْعُ الشُّملِ الموصول، فلما استقلَّت به المراحل أدركته مِيتَتُهُ وفاتته أُمْنِيَّتُهُ، وذلك في عام ستين، فوصل خبرُ نَعْيِهِ إلى أخيه أبي يعقوب بمَرَّاكُش فتفجَّع له وآوى جُمْلَتَهُ وأهلَهُ، ونظر في تثقيف بِجَايةَ وأنظارِها، ريثما وَجَّهَ لها من اختاره للحماية أقطارِها.

وأما السيِّد أبو سعيد فتوجَّهَ إليه إلى قُرْبَةِ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم وأبو يحيى بن أبي حفص، فتمارَضَ عندَ وصولِهما واعتلَّ، وارتبطَ لهما ثم انحَلَّ، فرجعا من

(١) في ك، م: «وطَّد» وما أثبتناه من ق وهو الأصح.

(٢) في م: «حسَّه»، وهو تحريف.

(٣) المن بالإمامة ٢٣٥-٢٣٦.

عنده بمواعيده، فلما استقرَّ بمراكش تكلم الناس المُرَجِفون، وزخرفَ في حديثه المُزخرفون. ثم ثبت الله الحق، وذلك أنه لما التوت حال السيد المذكور في الاعتذار، وتلوم له بالانتظار، عزم السيد أبو^(١) حفص على المشي إليه واستدعائه [بالتأنيس]^(٢) والقدوم إلى جبل الفتح يبعون اجتماعهما عليه، فكان خروج هذا السيد من مراكش في ربيع الأول من سنة ستين.

وتحرك هذا السيد أبو حفص إلى أخيه السيد أبي سعيد في جملة من أعيان الموحدين، كأبي يحيى بن أبي حفص، وأبي يعقوب بن بخيت، وإسحاق بن جامع، ويوسف بن وانودين، ومن أشياخ ثوار الأندلس المتخصين به، كأبي محمد سدرأي بن وزير، وصاحب لبلة علي^(٣) ابن الفخار، ومن أشياخ لمتونة ومسوفة جماعة منهم: علي بن محرز بن زياد، فوصل السيد المذكور بعسكر موفور إلى طنجة وركب منها البحر إلى سبتة منفردًا مع خاصته الخاصين به، وكتبه عبد الملك بن عياش وأمر بمشي الناس على البر إلى القصر ومنه إلى سبتة. فلما كان في اليوم الثاني من وصوله إلى سبتة عبر غراب إلى الجزيرة الخضراء ليعلم من فيها بوصول السيد أبي حفص إلى سبتة وعبوره في أثره، وكان السيد أبو سعيد قد احتل بجبل الفتح مع خاصته وخدمته. وعبر السيد أبو حفص البحر في^(٤) ذلك اليوم في عدة عظيمة من نشر البنود وقزع الطبول والشُرور بالوفود، واتصل الشمل بذلك الوصول، وكان يومًا شهيرًا، كله سرور. وبرز أيضًا السيد أبو سعيد بجبل الفتح براياته وبشر ملاقاته ما أبهت الحاضرين وسر الناظرين. واجتمعًا خير اجتماع، وارتفع الإرجاف أجمل ارتفاع، وعم الخير جميع الجهات والأصقاع.

(١) قوله: «السيد أبو» فراغ في ك، وهو ثابت في ق، وقد أضاف ناشرو (م) ألفاظًا أخرى إلى النص هنا ليست منه، مع أن النص من غيرها مستقيم.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المتن بالإمامة ٢٣٦، وهو المورد الذي ينقل منه المؤلف.

(٣) سقط من م.

(٤) سقط من م.

وَوَفَدَ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَشْيَاحِ إِشْبِيلِيَّةَ وَقُرْطُبَةَ وَغَرْنَاطَةَ مَعَ الشُّعْرَاءِ ^(١) لِلتَّهْنَانِي ^(٢)،
بِاتِّصَالِ الْمَسَرَّاتِ وَالْأَمَانِي، وَدَامَتِ الْإِقَامَةُ بِالْجَبَلِ مَدَّةً مِنْ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا فِي مَسَرَّةٍ
مُتَّصِلَةٍ وَمِبْرَةٍ مُشْتَمِلَةٍ، وَأَنْشَدَ الشُّعْرَاءُ أَشْعَارَهُمْ، وَقَضَوْا فِيهَا وَرَدُوا بِهِ أَوْطَارَهُمْ،
فَمِنْ قَوْلِ أَبِي عَمْرٍو ^(٣) ابْنِ حَرْبُونَ [مِنْ الْبَسِيطِ]:

قَدْ حَصَّصَ الْحَقُّ لَا رَيْبَ وَلَا فَنَدُ	هَذِي الْفَتْوحُ الَّتِي كَانُوا بِهَا وَعَدُوا
خُذُوا بِحَظِّكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ	فَمَا لِغَاوِ نَبَا مِنْ بَعْدِهَا رَشْدُ
وَاسْتَمْسِكُوا بِعُرَى الْأَمْرِ الَّذِي بَهَرَتْ	آيَاتُهُ كُلُّ مَنْ يَعْلُو وَيَقْتَصِدُ
الْيَوْمَ ضُمَّ صَدَى الْغَاوِي بِأَرْضِكُمْ	وَالْكَلْبُ يَنْبِجُ مَا لَمْ يَزَارِ الْأَسَدُ
هُوَ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِهِ	قَدْ أَنْجَزَ الْوَعْدَ حَقًّا وَانْتَهَى الْأَمَدُ
هَذَا سَلِيلُ إِمَامِ الْحَقِّ بَيْنَكُمْ	لَا الْمَالُ مَذْخَرٌ عَنْكُمْ وَلَا الْوَلَدُ
فَقَدْ ظَفَرْتُمْ بِفِيَاضِ مَوَاهِبُهُ	تُحْصَى الْحَضَى قَبْلَ أَنْ يُحْصَى لَهَا الْعَدْدُ
انْظُرْ إِلَى جَمْعِ الْبَحْرَيْنِ كَيْفَ حَوَى	مِنْ الْفَضَائِلِ مَا لَمْ يَحْوِهِ بَلَدُ
لَأَقَى الْكَلِيمُ عَلَى الشَّاطِئِ بِهِ خَضِرًا	وَفِيهِ لَأَقَى [أَخَاهُ] ^(٤) السَّيِّدُ الصَّمْدُ
صُنُونٍ مَا اجْتَمَعَا فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ	إِلَّا لِيَحْمِيَ فِيهَا دِينَهُ الْأَحَدُ

وَقَالَ أَيْضًا عِنْدَ جَوَازِهِ الْبَحْرَ [مِنْ الطَّوِيلِ]:

تَجَشَّمْتُ هَوْلَ الْبَحْرِ فِي طَلَبِ الْبَحْرِ وَلَمْ أَشْكُ صَرَفَ الدَّهْرِ إِلَّا إِلَى الدَّهْرِ

(١) فِي ك، م: «الشُّعْرَاءُ»! وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

(٢) فِي ق، ر، ٣ كُتِبَتْ: «لِلتَّهْنَانِي» إِمَّا بِحَذْفِ الْأَلْفِ الْوَسْطِيَّةِ كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ الْكُتَّابِ، أَوْ هِيَ كَذَلِكَ،
وَمَا أُثْبِتَنَاهُ مِنْ ك، وَهُوَ الْمَطَابِقُ لِلْسَّجْعَةِ.

(٣) هَكَذَا فِي النُّسخِ جَمِيعًا، وَفِي الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ: «أَبُو عَمْرٍ»، وَهُوَ أَبُو عَمْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَرْبُونَ
(وَيَنْظُرُ تَحْفَةَ الْقَادِمِ لَا بِنِ الْأَبَارِ ٦٣). وَالْقَصِيدَةُ بِتَمَامِهَا فِي الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ ٢٥٤-٢٥٨.

(٤) بِيَاضُ فِي النُّسخِ اسْتَفْدَنَاهُ مِنَ الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ ٢٥٦.

فَقُلْ لِلدِّيَاجِي إِغْرِي^(١) أَوْ تَكْشَفِي
لَعَمْرُكَ مَا أَلْقَى أَبَا حَفْصِ الرُّضَى
وَأَشْكُو اللَّيَالِي [مَا تَطَاوَلَ مِنْ عُمْرٍ]^(٢)
وَلَوْ أَنَّهُ أَمْسَى عَلَى قُنَّةِ النَّسْرِ
هُوَ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَشِبْهُهُ
وَنَاهِيكَ^(٣) مِنْ فَرْعٍ وَحُسْبِكَ مِنْ بَحْرِ

فَاسْتَحْسَنَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ مَعَ تَقَدُّمِ الْقَصِيدِ وَمَا ذَكَرَ فِيهَا مِنَ الْمَقْصُودِ.

ثُمَّ نَفَذَ أَمْرَهُ بِالْانْصِرَافِ وَعُبُورِ الْبَحْرِ إِلَى الْعُدُوَّةِ وَالْانْعِطَافِ، وَسَرَّحَ أَشْيَاحَ
بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ الْوَافِدِينَ، وَالْعَمَّالَ وَالْأَجْنَادَ الْقَاصِدِينَ، وَجَازَ السَّيِّدَ أَبُو حَفْصٍ
وَالسَّيِّدَ أَبُو سَعِيدٍ وَأَكْثَرَ الْجِلَّةِ الْخَاصِّينَ بِهِ، وَلَمْ يَقُمْ السَّيِّدُ سَبْتَةً إِلَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَى أَنْ
عَادَتِ الْمَرَكَبُ وَالْقَطَائِعُ بِالْعُبُورِ إِلَيْهِمْ، فَأَجَازَ الْجَمِيعُ إِلَيْهِ، وَاسْتَقَرُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَحَرَّكَ
السَّيِّدُ الْأَعْلَى مِنْ سَبْتَةٍ وَاجْتَازَ فِي سَيْرِهِ عَلَى فَاسٍ، ثُمَّ أَعَجَّلَ الطَّرِيقَ إِلَى حَضْرَةِ مَرَآكُشَ
وَمَعَهُ أَبُو سَعِيدٍ، إِلَى أَنْ وَصَلَ فَتَلَقَّاهُ الْأَمِيرُ أَبُو يَعْقُوبَ خَارِجَ مَرَآكُشَ عَلَى أَوْفَى
الاسْتِبْشَارِ، وَالسَّرُورِ بِاجْتِمَاعِهِمْ وَالْإِسْتِظْهَارِ.

وَوَصَلَ السَّيِّدُ مَرَآكُشَ فِي أَوَّلِ رَجَبِ الْفَرْدِ مِنْ عَامِ سِتِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ، وَأَنْشَدَ
الشُّعْرَاءُ أَشْعَارَهُمْ بِالتَّهْنِائِي وَالْمَدَائِحِ فَأَجَادُوا وَأَحْسَنُوا، وَخَطَبَ الْخُطَبَاءُ فَأَفْصَحُوا
فِي ذَلِكَ بِالسَّحَرِ الْحَلَالِ وَبَيَّنُّوا، فَقَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْوَلِيدِ الشَّوَّاشُ الشُّلْبِيُّ فِي ذَلِكَ
الْمَجْلِسِ مَهْنَةً لِلْأَمِيرِ أَبِي يَعْقُوبَ بِالْقُدُومِ الْمَيْمُونِ الْمُطْلَى^(٤) بِالْأُلْفَةِ وَالنِّظَامِ مِنَ
قَصِيدَةِ أَوْلَاهَا^(٥) [مِنْ الْكَامِلِ]:

(١) هَكَذَا فِي النُّسخِ، وَفِي الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ: «أَغْدَقِي»، وَقَرَأَهَا نَاشِرُو (م): «أَغْدَفِي» وَهِيَ قِرَاءَةُ سَقِيمَةٍ.

(٢) بَيَاضٌ فِي النُّسخِ، وَمَا بَيْنَ الْخَاصَرَتَيْنِ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ ٢٥٩.

(٣) غَيَّرَهَا نَاشِرُو (م) إِلَى: «وَحُسْبِكَ» كَمَا فِي الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ، بِحُجَّةِ أَنَّ الْمُؤَلِّفَ يَنْقُلُ مِنْهُ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ ثَابِتٌ
فِي النُّسخِ كَافَّةً، فَلَا يَجُوزُ تَغْيِيرُهُ، وَمَا الَّذِي أَدْرَاهُمْ بِأَنْ نَاسَخَ الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ لَمْ يَخْطِئْ؟

(٤) فِي ك، م: «الْمَعْلَنُ»، وَفِي ر ٣: «الْمَطْلَقُ» وَفِي الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ: «الْمَعْلَى»، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ ق، وَلَعَلَّهُ
الْأَصُوبُ.

(٥) الْقَصِيدَةُ بِتِمَامِهَا فِي الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ ٢٦٢-٢٦٥.

وَضَحَتْ بِأَنْوَارِ الْهُدَى نَسَمَاتُهُ
 مَلِكُ الْمُلُوكِ مُؤَيَّدٌ لَكِنَّهُ
 دَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَكَافَّةُ أَهْلِهَا
 أَبَدَى لَنَا بَسَنَاءَهُ وَهَنَائِهِ
 كَثُرَتْ فَضَائِلُهُ فَكَاثَرَتْ الْحَصَى
 وَمَضَتْ بِبَرْقِ غُيُومِهِ صَفَحَاتُهُ
 وَأَفَادَهُ دَهْرًا بَعِيدًا^(٣) مُنْعَمًا
 نَجَّلُ الْخَلِيفَةَ يُقْتَدَى بِرَشَادِهِ
 وَرَدَ الزُّلَالُ الْعَذْبَ فِي يَنْبُوعِهِ
 فَهَنَّاكَ أَسَّسَ بِالتَّقَى بُنْيَانُهُ
 وَتَقَيَّلَ الْخُلُقُ الرُّضِيَّ فَأَيَّنَعَتْ
 يَا خَيْرَ مَنْ مَلَكَ الْوَرَى وَدَعَاهُمْ
 جُوزِيَتْ بِالْحُسْنَى إِذَا مَا مُحْسَنُ
 مِنْ يُصَفِّ حَبَّكَ أَسْعَدَتْ أَحْوَالُهُ
 مَنْ يَقْتَدِي^(٤) بِسَنَّاكَ يُهْدَى وَمَنْ يَرْمُ
 نَجَّلُ الْهُدَى وَأَخْوَكَ عَزَّتْ نَسَبُهُ
 فِي اللَّهِ أَعْمَلَ سَعْيَهُ فَحَوَتْ لَهُ

وَأَبَانَتْ الْهُدَى الْقَدِيمَ سِمَاتُهُ
 غَلَبَتْ عَلَيْهِ مِنَ التَّقَى مَلَكَاتُهُ
 فَعَفَا وَعَفَّ وَسَامَحَتْ عَطَفَاتُهُ
 عَجَبًا وَظَاهَرَ^(١) حُسْنَهُ حَسَنَاتُهُ
 عَدَا وَقَدَّ قَلَّتْ لَهُ سِقَوَاتُهُ^(٢)
 وَمَضَتْ مِضَاءً صِفَاحِهِ عَزَمَاتُهُ
 وَصَلَتْ بِبَاهِرِ خَيْرِهِ خَيْرَاتُهُ
 وَسَادَهُ وَتَبَيَّنَ فِيهِ سِمَاتُهُ
 صَفَوْا مَعِينًا لَمْ تَشْبُهُ قَذَاتُهُ
 وَهَنَّاكَ شَيَّدَ بِالْهُدَى حُجْرَاتُهُ
 أَضْحَاوَهُ وَتَيَسَّرَتْ طَلَبَاتُهُ
 اللَّهُ فَايْتَدَرَتْ لَهُ دَعَوَاتُهُ
 فِي فَعْلِهِ جُزِيَتْ لَهُ فَعَلَاتُهُ
 وَمَأَلَّهُ وَتَقَبَّلَتْ قُرْبَاتُهُ
 سُبُلَ النِّجَاةِ فَأَنْتُمْ مَنَجَاتُهُ
 وَالمَجْدُ تَقْصُرُ دَوْنَهَا غَايَاتُهُ^(٥)
 جَمَعَ الْفَضَائِلَ وَالْعُلَى مَسْعَاتُهُ

(١) في ق: «وأظهر»، وما أثبتناه من ك، وهو الموافق لما في المنّ بالإمامة.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة: «قلّت به سنواته».

(٣) في م: «مفيدًا»، غيرها ناشرو (م) استنادًا إلى ورودها كذلك في المنّ بالإمامة مع أنها على ما أثبتناها في النسخ كافة، وقد تكرر مثل هذا منهم وهو أمر لا يجوز في علم تحقيق النصوص.

(٤) كذا، بإثبات الياء، والقياس حذفها لأنه فعل شرط مجزوم، ولكن الوزن يمنعه.

(٥) هذا البيت بياض في النسخ لم يبق منه إلا لفظة «غاياته»، فاستدركناه من المنّ بالإمامة.

أَنْتُمْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ أَوْثَقُ عَصْمَةٍ وَبِأَمْرِكُمْ عُظِفَتْ عَلَيْهِ حَيَاتُهُ
لَا زِلْتُمْ لِلْمَكْرُمَاتِ وَلِلْعُلَى شَمَلًا وَلَا يَقْضَى عَلَيْهِ شَتَاتُهُ
وَاسْتَقْبِلُوا فِي الدَّهْرِ عُمْرًا بَاقِيًا مَا وَاصَلْتَ غَدَوَاتِهِ رَوْحَاتُهُ

وفي سنة ستين وخمس مئة: تحرك السيّد أبو حفص بأمر أخيه إلى قتال ابن مُردنیش؛ قال ابنُ صاحبِ الصّلاة^(١): وأقام السيّد أبو حفص بمَرَاكُشَ بعدَ انصرافه من جبل الفتح ومعه أخوه أبو سعيد بقيّة شهر رجب الفرد وشعبان المكرّم، وكان أبو سعيد بن الحُسَيْن وأبو عبد الله بن يوسُف قد تقدّما بعسكر العرب وبعثوا منهم عندَ وصولهم إشبيلية نحوَ خمس مئة فارس إلى مدينة بطليوس لحماية صيفتها^(٢)، فيسّر الله تعالى غزوَ شِرْذِمَةٍ كبيرة من النّصارى أهل سَنَتَرَيْنَ فهزَمَهم المسلمون وغنمَهم واستأصلوهم قتلاً وسَبِيًّا، فكان ذلك عنوانَ الفتح.

ثم إنَّ أبا سعيد وأبا عبد الله خرّجا من إشبيلية بالعسكر إلى مدينة قُرْبَةِ لدفع المحارِبِينَ الأشقياء عن جِهاَتِها، فالتقوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتَمِعٍ معدٍّ من عسكر ابن مُردنیش بحِصْنٍ لك^(٣)، فكانت بينهم مُدافَعَاتٌ وَكَرَّاتٌ عظيمةٌ ظهرَ فيها من إقدام أبي عبد الله بن يوسُف ومن أعيان العرب وصبرِ أهل العسكر ودفاعِهم ما لم يظهر مثله في الزّمان الأوّل، اتّصلت الحربُ بينهم بطول يوم كامل على شُرْبِ الماء بوادي لك المذكور، وانفصلت الحربُ بينهم مكافأة، فوصل كتابُ أبي سعيد وأبي عبد الله إلى الأمير أبي يعقوب بمَرَاكُشَ مستغيثين ومعرّفين بهيئة حربيهم وطولِ مواقفهم^(٤)، وذلك في أول يوم من رمضان من السنة المؤرّخة، فغار السيّد أبو حفص وعسكرُ في يومه ذلك، وأمر الموحدون العرب بالإسراع والنفوذ إليه بما لديهم، وخرج من مَرَاكُشَ في العشر الأوّل من شهر رمضان المذكور من العام،

(١) المن بالإمامة ٢٧٥ فما بعدها.

(٢) في م: «صيفتها» وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ وهو الذي في المن بالإمامة.

(٣) معجم البلدان ٢٢/٥.

(٤) في م: «مواقفهم»، وفي المن: «مواقفتهم»، وكلاهما تحريف، والمقصود موافقة الأعداء.

وخرج معه أبو سعيد عثمان، وهي غزوته الأولى إلى ابن مُردنِش الفاتحة للموحدِين في عدوهم، فأزعجهم السيرُ حتى أجاز البحر، ووصل إشبيلية واجتمع بالموحدِين المذكورين، وتذاكروا وتشاوروا وخرجوا من إشبيلية مصممين إلى بلاد ابن مُردنِش، وذلك في أول ذي القعدة من العام، فأول حصن نازلوه: [أندوَجْر]^(١) لقربه من قُرطبة، ففتحوه في يوم نزولهم عليه، وبادر أهل الحصون المجاورين له بدخولهم في الطاعة وشن الغارة بالعساكر المنصورة على نواحيها، فاستاقوا الغنائم وامتلات أيدي الموحدِين من السبي والفيء، وازدادوا نِعَمًا إلى نعيمهم، وشفيت قلوبهم، وأنعم السيدُ عند كمال هذا الفتح الميسر على الموحدِين بزايد وبركة زادها لهم.

ولما كان الفراغ من فتح الحصن المذكور وثقف من وجب تثقيفه وسبى من سبى، وتحكمت في ذلك [رماحه وسيوفه واصطفى]^(٢) فيها [من رآه، واستحسن مرآه، أقلع منها قًا]^(٣) صدا إلى بلاد ابن مُردنِش، وتسامع ابن مُردنِش أن العزم عليه، فاحتشد جميع أهل شرق الأندلس وكل من له عليه طاعة، واستدعى أحلافه النصراري من طليطلة وأنظارها، فوصلوا إليه بجمع كبير دميم حقير تسابقوا لإجابته وحماية غوايته، فخرج بهم من مُرسية مقره، واعترض الموحدِين وهم بمدينة لورقة، وأقبل بجمعهم إليهم وجلس مضيئًا في الطريق عليهم لا يمكنهم النفوذ إلا بعد مقارعة، فعدل الموحدون عن ذلك المضيق، إلى حصن واسع في أفسح طريق، وأتوا لورقة من غربها والشقي مع عسكره بقربها، ثم إنهم رحلوا من نحوها وتوجهوا في طريقهم قاصدين مُرسية، فأقلع ابن مُردنِش من موضعه بجمعها وتماشى يومهم ذلك عسكرُ الموحدِين في جانب الجبل عن سمت الطريق، وعسكرُ ابن مُردنِش على يسرة الطريق في الجبل الآخر، داما على ذلك يومهم كله، فلما كان يوم الجمعة السابع من ذي الحجة من عام ستين المذكور وصلوا أول فحَص مُرسية على عشرة أميال منها ألح عسكرُ ابن مُردنِش بالدفاع والقراع، فعبأ الموحدون عساكرهم

(١) بياض في النسخ وما بين الحاصرتين من المتن بالإمامة ٢٧٧.

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه من المتن بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف ٢٧٧.

(٣) بياض في النسخ استدركناه من المتن بالإمامة.

وَرَفَعُوا رَايَاتِهِمْ وَنَهَوْا قِبَائِلَ الْعَرَبِ الَّذِينَ مَعَهُمْ وَقِبَائِلَهُمْ وَتَعَاهَدُوا عَلَى الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، فَدَفَعَ ابْنُ مُرْدَنْشٍ بَعْسَكَرَهُ فِيهِمْ وَأَصْحَابَهُ النَّصَارَى ثَلَاثَ دَفْعَاتٍ: الْأُولَى فِي الْعَرَبِ، وَالْاِثْنَتَيْنِ فِي الْمُوَحِّدِينَ، فَثَبَّتَهُمُ اللَّهُ وَأَنْجَدَهُمْ وَقَوَّى قُلُوبَهُمْ، فَعَظُمَ الْغَبَارُ وَالْقَتَامُ، وَرَجَعَ شَمْسُ النَّهَارِ فِي إِظْلَامٍ، وَتَمَاثَلَتِ الرُّكْبُ بِالرُّكْبِ، وَعَظُمَ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ، إِلَى أَنْ فَتَحَ اللَّهُ لِلْمُوَحِّدِينَ وَوَلَّى الْكُفْرَةَ مُدْبِرِينَ فَقَتَلُوا قَتْلًا ذَرِيعًا، وَخَرَّ أَكْثَرُهُمْ صَرِيعًا، وَفَرَّ ابْنُ مُرْدَنْشٍ مَهْزُومًا وَقَدْ عَايَنَ مَصَارِعَ أَصْحَابِهِ وَأَحْزَابِهِ، وَاسْتَدَّ إِلَى جَبَلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَعْرَكَةِ، فَضْرَبَ فِيهَا قُبَّةً خِبَاءً عَلَى مَعْنَى خُدْعَةِ الْحَرْبِ مَعَ فَلِّهِ الْمَهْزُومِ فِي ذَلِكَ سَاعَةً مِنْ بَقِيَّةِ الْيَوْمِ إِلَى أَنْ سَتَرَهُ اللَّيْلُ وَقَدْ أَحْدَقَ بِهِ الشَّكْلُ وَالْوَيْلُ، وَرَكِبَ مِنْ حِينِهِ وَفَرَّ إِلَى مُرْسِيَّةٍ مَهْزُومًا ذَلِيلًا مَلُومًا.

ثُمَّ إِنَّ الْمُوَحِّدِينَ أَقْلَعُوا فِي بُكْرَةِ غَدِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِ فَتَزَلُّوا سَاحَةَ مُرْسِيَّةٍ وَأَقَامُوا بِهَا وَعَيَّدُوا بِظَاهِرِهَا وَتَتَبَعُوا تِلْكَ الْأَصْقَاعَ بِالتَّدْمِيرِ وَالْغَارَةِ عَلَى جَنَبَاتِهَا، فَاسْتَأْقُوا نَعْمَ أَهْلِهَا وَتَحَكَّمُوا بِالتَّطَاوُلِ فِي وَعَرِهَا وَسَهْلِهَا مَدَّةَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ بِالْأَمْنِ لَهُمْ فِي الْإِقَامَةِ وَالتَّعْقِيبِ بِالْغَارَاتِ فِي كُلِّ نَظَرٍ وَاجْتِلَابِ الْغَنَائِمِ عَلَى أَوْفَى السَّلَامَةِ، وَخَاطَبُوا الْخَلِيفَةَ أَبَا يَعْقُوبَ بِوَصْفِ هَذَا الْفَتْحِ وَشَرَحَ الْحَالِ، فَوَرَدَتِ الْبُشْرَى بِحَضْرَةِ مَرَّاكُشٍ فِي الثَّالِثِ وَعَشْرِينَ مِنْ ذِي حِجَّةٍ مِنَ الْعَامِ، وَدَخَلَ الْفَرَسَانُ لِلْمُوَحِّدِينَ وَبِأَيْدِيهِمْ عَلَامَاتُ ابْنِ مُرْدَنْشٍ مَنكُوسَةً، وَضُرِبَتِ الطُّبُولُ، وَاتَّصَلَ السَّرُورُ وَالْمَأْمُولُ، وَأَمَرَ الْأَمِيرُ فِي الْحِينِ بِقِرَاءَةِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ الْفَقِيهُ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ الْمَالْقِيِّ، وَكَانَ مِنْ إِنْشَاءِ الْكَاتِبِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عِيَّاشٍ، وَقَدْ ذَكَرَ نَصَّهُ ابْنُ صَاحِبِ الصَّلَاةِ فِي تَارِيخِهِ^(١)، أَغْنَى ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ هُنَا، وَبَعَثَ السَّيِّدُ فِي طَيِّ هَذَا الْكِتَابِ مَدْرَجًا فِيهِ قَصِيدَةً طَوِيلَةً أَوَّلُهَا [مَنْ الْوَافِرُ]:

لَقَدْ بَلَغَتْ جَيَادُكُمْ مَدَاهَا وَنَاَلَتْ مَا أَرَادَتْ مِنْ عِدَاهَا

وَهَا هِيَ فَاسْأَلُوا الْإِصْبَاحَ [عَنْهَا]^(٢) بِحَمْدِ اللَّهِ [قَدْ حَمِدَتْ سُرَّ]^(٣) أَهَهَا

(١) المن بالإمامة ٢٨٢ فما بعدها.

(٢) بياض في النسخ مستدرك من المن بالإمامة ٢٨٩.

(٣) بياض في النسخ مستدرك من المن بالإمامة ٢٨٩.

تُعَدُّ رِضَاكُمْ عِزًّا وَجَاهًا
تَهَيُّمٌ بِحَبِّ طَاعَتِكُمْ فَتَطْوِي
كَأَنَّ قَطَا الْمَفَاوِزِ حِينَ ثَارَتْ
لَقَدْ شُنَّتْ بِأَرْضِ الشَّرْقِ حَتَّى
فَبُورُكُ لِلْخَلِيفَةِ فِي رَجَالٍ
هُوَ النُّورُ الَّذِي بَهَّرَتْ وَلاَحَتْ
حَبَاهُ بِهِ الْخَلِيفَةُ عَنْ إِمَامٍ
أَبَا يَعْقُوبَ إِنَّ بِنَا إِلَيْكُمْ
وَدُونَكُمْ تَحِيَّةٌ مُسْتَهَامٌ
وَلَا عَدِمْتَكُمْ الْعَلِيَّاءُ فَمَهْمَا
فَمَا تَشْكُو عَلَى حَالِ وَجَاهَا
بَسَاطَةُ الْفَقْرِ حَتَّى قَدْ طَوَاهَا
تَعَلَّمَتْ الْهُدَايَةَ مِنْ قَطَاهَا
أَبَاحَتْ بَعْدَ مَنَعَتِهَا حِمَاهَا
أَطَاعُوا اللَّهَ فَيَمُنْ قَدْ عَصَاهَا
بِهِ شَمْسُ الْهُدَايَةِ فِي ضُحَاهَا
قَدْ انْتَشَرَ الْبَرِّيَّةُ مِنْ عَمَاهَا
كَمَا بِالْحَائِثَاتِ يُرَى صَدَاهَا
يَطِيبُ الْجَوُّ مِنْ مَسْرِى شَذَاهَا
رِعَاكُمْ ذُو الْجَلَالِ فَقَدْ رَعَاهَا

وفي هذه السنة المؤرخة: اختصَّ الأميرُ أبو يعقوبَ بوزارته أبا العليَ إدريسَ بن جامعَ وقربه وأحبه، فظهرت في هذه المدة للناس في أحوالهم منه وبه دلائلُ اليُمنِ واتِّصالِ العَدْلِ والفضلِ والأمنِ، يسيرُ الراكبُ حيثُ شاء من بلادِ العُدوةِ في طُرُقِها من جبلِها وسهلِها آمنًا في نفسه وماله لا يخافُ إلا اللهَ تعالى، وأحسنَ لَمَن وفَدَ إليه واستغاثَ به من أجنادِ الأندلسِ المُضَاعِيَنَ والمأسورينَ، فقدَّاهم بِمالِهِ وأعطاهم الخيولَ [بسروجها ولجها، وآلاتِ الحربِ] ^(١) والكساءَ ^(٢) الرفيعةَ وأوصلَ البركةَ للموَحِّدينَ وللناسِ المقيمينَ معه وطلبةَ الحضرِ ^(٣) الوافدينَ عليه في كلِّ شهرٍ على التوالي والاستمرارِ، واستبانَ فضلُهُ وعدْلُهُ في كلِّ الأقطارِ ^(٤).

(١) بياض في النسخ، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة ٢٩٣.

(٢) في م: «الكسوة» وما أثبتناه من النسخ.

(٣) في م: «الحضرة» وهو تحريف عجيب وفهم غريب، وإذا هم كانوا بالحضر فكيف يفدون عليه؟

(٤) في م: «وعدله في الأقطار نورًا من الأنوار»، وهذه العبارة ليس في شيء من النسخ اقتبسها (المحققون) من المنّ بالإمامة من غير إشارة، وهو أمر عجيب.

وفي سنة إحدى وستين: عيّد السيّدان: أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين عبد المؤمن بظاهر مُرْسِيَّة عيد الأضحى على أثر التعييد بالنصر والظفر بعدوهم، ثم انعطفا آخذين في الانصراف إلى الحضرة، فلمّا وصلا إلى قُرْبَةِ أقام أبو سعيد فيها برأي مقدّم من الأمير واتفاق على حالته الأولى، وانفصل السيّد أبو حفص عنه إلى إشبيلية منصرفاً إلى الحضرة، وأجاز البحر مستعجلاً للدخول حتى وصل قرية مكول^(١)، فكتب إلى أخيه شعراً من إنشاء ابن حربون، فمناه^(٢) [من الخفيف]:

علّلوا العيش باقتراب الدّيارِ	وانظروا هل بدا لها من مزارِ
هذه حضرة الإمام فحطّوا	عندها الرّحل فهي دار قرارِ
فاشكروا للركاب أن جمعتكم	بالأمير الأجلّ فرع نزارِ
بملك عند الملك مكين	قد كساه ثوب الثّقى والفخارِ
نصر الله دينه من لدنكم	بجيوش جاست خلال الدّيارِ

واعتمَلَ السّيرَ متشوّفاً، فكان ورودُه حضرة مرّاكش في الثّاني عشر من ربيع الآخر من السنة المؤرّخة، ثم نزل الأمير عن فرسه والتّقيا فتصافحا وتسالما، ثم سلّم الناس على الأمير وعلى من حضر، وركبوا ودخلوا القصر بعد صلاة العصر، واجتمعا [خير]^(٣) اجتماع، وكان من السرور ما أبهَج الناظرين بغاية الاختراع. وفي اليوم الثّاني من هذا الوصول صنّع اللواصِلين والمقيمين الأطعمَة والأشربة الحلال المُدارة على المسارّ السارة مدة خمسة عشر يوماً، ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة والعطاء الجزيل، فاجتمع لجميع الناس السرور والمال الحاضر الموفور. وبعد هذا الإنعام والاتّصال العام رجع الناس إلى قبائلهم للاستقرار، بعد نيل الغزو والأجر في هذه الأسفار، وخذت نار الفتنة من ابن مُردنيس مدة من خمسة أعوام إلى أن حدث بينه وبين صهره ابن همّشك الشّنان الذي أذكّره بعد أن شاء الله تعالى، فنظر أمير المؤمنين في غزوه^(٤).

(١) الروض المعطار ٥٤٤.

(٢) القصيدة بتمامها في سبعة وعشرين بيتاً في المن بالإمامة باختلاف لفظي ٢٩٤-٢٩٦.

(٣) بياض في النسخ، واللفظة مستفادة من المن بالإمامة ٢٩٩.

(٤) تفاصيل ذلك في المن والإمامة ٢٩٧-٣٠١.

ذكرُ ابتداءِ الولايات من الأمير أبي يعقوب

لإخوته السادات والحُفَظ من أشياخ الجماعات^(١)

قال الراوية: ولَمَّا كَمُلَ الإطعامُ والإنعام، مَيَّزَ النَّاسَ عَلَى جَمِيعِ طَبَقَاتِهِمْ بَهِيَّتِهِمْ وَخَيْلِهِمْ وَرَجْلَهُمْ، فَكُتِبَتْ أَسْمَاؤُهُمْ عَلَى الْإِسْتِيفَاءِ وَخَرَجَتْ لَهُمُ الْبَرَكَاتُ عَلَى الَّذِي كَتَبُوهُ وَرَتَّبُوهُ، وَنَظَرَ الْأَمِيرُ أَوَّلًا مَشُورَةَ أَخِيهِ أَبِي حَفْصٍ فِي وَلايَةِ بَجَايَةَ وَأَقْطَارِهَا وَجَمِيعِ جِهَاتِهَا وَأَقْطَارِهَا، إِذْ كَانَتْ دُونَ الْوَالِ، وَعَلَى حَالَةِ إِغْفَالٍ، فَاخْتَارُوا لَهَا مِنَ الْإِخْوَةِ السَّيِّدِ أَبَا زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا مِنَ الْخَضِرَةِ غُرَّةَ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِينَ فِي جُمْلَةٍ مُتَعَيَّنَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْحُفَظِ وَالْمُوَحِّدِينَ.

وَنَظَرَ أَيْضًا فِي حَدِيثِ إِشْبِيلِيَّةَ، إِذْ كَانَتْ تَحْتَاجُ إِلَى الْوَالِ، فَاخْتَارَ لَهَا الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَعَقَدَ لَهُ الْأَمِيرُ رَايَتَيْنِ فِي مَجْلِسِهِ الْكَرِيمِ، وَاخْتَارَ جُمْلَةً وَافِرَةً مِنْ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالتَّقْدِيمِ، وَعَيَّنَ لَهُ وَزِيرًا يَسُوسُ أَحْوَالَهُ وَيَنْظُرُ أَعْمَالَهُ وَأَشْغَالَهُ، وَهُوَ: أَبُو زَكَرِيَّا ابْنُ سَنَانٍ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ مِنَ الطُّبُولِ فَضْرِبَتْ يَوْمَ خُرُوجِهِ اهْتِبَالًا بِهِ وَإِعْلَامًا بِرَفْعَتِهِ وَرُتْبَتِهِ. فَتَحَرَّكَ مِنْ مَرَّاكُشِ غُرَّةِ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِينَ الْمَذْكُورَةِ.

قال ابنُ صَاحِبِ الصَّلَاةِ^(٢): فَخَرَجَ بِرَايَاتِهِ^(٣) الْاِثْنَتَيْنِ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ عَلَى وَسَطِ مَرَّاكُشٍ وَدِيَارِهَا إِلَى بَابِ فَاَسٍ مُسْتَقْبِلًا طَرِيقَ الْأَنْدَلُسِ، فَتَمَادَى مَشِيهُ إِلَى سَبْتَةِ وَعَبَرَ الْبَحْرَ فِي قِطْعَتَيْنِ إِلَى طَرِيفٍ ثُمَّ سَارَ إِلَى مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْحُفَظُ وَالْأَجْنَادُ وَالْأَشْيَاخُ مِنْهَا وَالْأَعْيَانُ وَالتَّقَوُّهُ وَدَخَلُوا مَعَهُ مَسْرُورِينَ لِقُدُومِهِ، فَوَجَدُوهُ فَوْقَهُ سَلَامَةً، وَدَخَلَ إِشْبِيلِيَّةَ فِي رَجَبٍ مِنْ عَامِ أَحَدٍ وَسِتِينَ الْمَذْكُورِ. وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ وَصُولِهِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ سَافَرَ مَعَ الْحُفَظِ الْوَاصِلِينَ مَعَهُ إِلَى قُرْبَةِ لِلْقَاءِ السَّيِّدِ الْأَسْنَى أَبِي سَعِيدِهَا وَالسَّلَامِ، فَوَصَلَ إِلَيْهِ وَأَقَامَ عِنْدَهُ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ تَحْتَ بَرٍّ وَإِكْرَامٍ، وَرَحَلَ^(٤) إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ، وَضْرِبَتْ جُمْلَةُ ذَمِيمَةٍ مِنْ نَصَارَى شَنْتَرِينَ عَلَى جِهَةِ إِشْبِيلِيَّةَ،

(١) المن بالإمامة ٣٠١ فما بعدها.

(٢) المن بالإمامة ٣٠٢-٣٠٤.

(٣) هكذا في النسخ كافة، وهو جائز، ولو قال: «برايته» لكان أحسن.

(٤) في م: «ووصل».

فخرج في اتباعهم عسكرُ إشبيلية، فأدركوهم وأنقذوا الغنائم منهم وهزموهم وساقوا من سببهم مئة فارس وجملة أعلاج، وعُرف الأمير أبو يعقوب بهذا الفتح فشكر اجتهاده وجهاده. وأقام على شغله منفرداً بأشغال إشبيلية وأنظارها إلى أن وصل السيد أبو إبراهيم حسباً أذكره.

وولي السيد أبو إبراهيم ابن الخليفة عبد المؤمن إشبيلية^(١)، فكان وصوله إليها وقدومه عليها في ذي الحجة من سنة إحدى وستين، وكان [أمر]^(٢) في هذه الأيام للسيد أبي سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن بالارتحال عن قرطبة والمشي إلى الحضرة، فخرج مُبادراً للأمر الذي أمر به، وخطر على إشبيلية في الثامن من ذي القعدة، والتقى بأخيه أبي إبراهيم بقصر مصمودة، وخرج الشيخ الحافظ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم للقاء السيد أبي إبراهيم، فالتقى به في جزيرة طريف وانصرف في صحبته إلى إشبيلية وقد وصل له الأمر أن يُقيم معه شيخاً له على ما كان يشتغل به فيها، وشغل العسكرية على يديه والأمور كلها راجعةً إليه، والسيد المذكور يختص به غاية الاختصاص ويشتمل عليه بالود والإخلاص، إلى أن وصله الأمر بولاية غرناطة.

وفي سنة اثنتين وستين وخمس مئة: وصل الأمر إلى السيد أبي سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن بولاية غرناطة في شعبان العام، فنظر في الحركة إليها من إشبيلية في أول رمضان، وأقام بغرناطة والياً مُعدداً مجتهداً إلى جمادى الأولى من عام أربعة وستين على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى. ونهض بالاستدعاء هو وجميع الولاة بالأندلس والسيدان: أبو إبراهيم وأبو إسحاق صاحب إشبيلية وقرطبة إلى حضرة مراكش، وأقام بها بقية عام أربعة وستين على ما سيأتي ذكره. ونهض وأصهر إلى السيد الأعلى أبي جعفر على ابنته. وتمادت إقامته بمراكش إلى أول شهر ذي القعدة من عام خمسة وستين، وسافر في صحبته السيد أبو حفص غازياً معه إلى ابن مُردنيش بمُرسية وجميع شرق الأندلس، ثم بعثه السيد المذكور إلى مدينة بسطة^(٣) بعسكرٍ موفور،

(١) في م: «من إشبيلية».

(٢) بياض في النسخ، وهي مستفادة من المتن بالإمامة ٣٠٤.

(٣) في ك: «قسطة».

فَفَتَحَهَا اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، وَانْصَرَفَ إِلَى السَّيِّدِ ظَافِرًا، وَأَقَامَ مَعَهُ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ إِلَى أَنْ
 انْصَرَفَ السَّيِّدُ الْمَذْكُورُ وَانْصَرَفَ بِانْصِرَافِهِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا فِي حَضْرَةِ الْخَلِيفَةِ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي يَعْقُوبَ، كَمَا جَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِينَ وَغَرْنَاطَةَ فِي
 هَذِهِ الْمَدَّةِ كُلِّهَا تَحْتَ حُكْمِهِ وَبَيْدِهِ، وَفِيهَا رَجُلُهُ وَعِيَالُهُ، وَحِينَ اسْتَقَرَّ بِهِ بِإِشْبِيلِيَّةَ
 نَهَضَ السَّيِّدُ أَبُو سَعِيدٍ إِلَى غَرْنَاطَةَ وَالْيَا عَلَيْهَا بِالْأَمْرِ عَوَضَهُ، وَوَصَلَهُ رَجُلُهُ
 وَعِيَالُهُ مِنْهَا إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ، ثُمَّ قَدَّمَهُ أَبُو يَعْقُوبَ عَلَى تَمْيِيزِ الْحُقُوظِ أَجْمَعَ فِي أَوَّلِ رَبِيعِ
 الْأَوَّلِ عَامَ سَبْعَةِ وَسِتِينَ، وَحَضَرَ الْحَضْرَةَ^(١) الْكُبْرَى مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِلَادِ الرُّومِ،
 وَحَضَرَ غَزْوَةَ الطَّاعِيَةِ أَبِي بَرْدَعٍ^(٢) الْمُسَمَّى^(٣) [بِسَانَ مَنُوشَ]^(٤) وَنَابَ فِي هَذِهِ الْغَزَوَاتِ
 السَّمَنَابَ الْحَمِيدَ، ثُمَّ لَازَمَهُ الْإِعْتِلَالُ نَحْوَ سَنَةِ وَنِصْفٍ، فَتَوَقَّى فِي السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ
 لِرَمَضَانَ مِنْ عَامِ تِسْعَةِ وَسِتِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ وَثَلَاثُونَ سَنَةً. رَجَعَ
 الْخَبَرُ^(٥).

ذَكَرَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى كَتَبِ الْأَمِيرِ أَبِي يَعْقُوبَ الْعَلَامَةَ بِخَطِّ يَدِهِ^(٦)

ثُمَّ وَقَعَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَلَامَةَ بِيَدِهِ، الَّتِي هِيَ: «الْحَمْدُ
 لِلَّهِ وَحْدَهُ»، وَتَنْفُذَ الْأَوَامِرَ الْعَلِيَّةَ عَلَى أَمْرِهِ وَحْدَهُ، فَلَمَّا كُمِّلَ ذَلِكَ أَمَرَ بِكَتَبِ رِسَالَةٍ
 إِلَى جَمِيعِ بِلَادِهِ بِأَمْرٍ فِيهَا بِالْعَدْلِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَكَتَبَ بِهَا أَوَّلًا إِلَى أَخِيهِ السَّيِّدِ أَبِي
 سَعِيدٍ، وَكَانَ بِقَرْطَبَةَ، فِي الثَّلَاثِ مِنْ رَمَضَانَ الْمَعْظَمِ مِنْ عَامِ أَحَدِ وَسِتِينَ، وَأَمَرَ أَنْ
 يُكْتَبَ مِنْهَا نُسْخًا إِلَى الْبِلَادِ، فَوَصَلَتْ نُسْخَةٌ مِنْهَا إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ، وَهِيَ أَوَّلُ أَوَامِرِ الْعَلِيَّةِ
 مِنْ إِنْشَاءِ الْكَاتِبِ أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ عِيَّاشٍ، أَمَرَ فِيهَا بِالْعَدْلِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

(١) هَكَذَا فِي النُّسخِ كَافَةً، وَفِي الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ: «وَحَضَرَ الْغَزْوَةَ الْكُبْرَى مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى وَبَذَةِ
 بِلَادِ النَّصَارَى».

(٢) فِي م: «الْبَرْدَعُ» وَلَا نَدْرِي مِنْ أَيْنَ اتَّوَا بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ.

(٣) فِي م: «الْمَسْنُ» وَهُوَ تَحْرِيفٌ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنَ النُّسخِ كَافَةً وَالْمَنْ بِالْإِمَامَةِ ٣٠٨.

(٤) زِيَادَةُ مَتَعَيَّنَةٍ مِنَ الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ.

(٥) الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ ٣٠٧-٣٠٩.

(٦) الْمَنْ بِالْإِمَامَةِ ٣١٢ فَمَا بَعْدَهَا.

وفي هذه السنة: وهي سنة اثنتين وستين: تحرّكت في جبال غُمارة وغيرها فتنةٌ بضلال جُهاال من البربر مُفسدين ناعقين بالفتنة، وأعظمهم في جبال غُمارة المتصلة بسبّته، فإنه نَعَقَ فيها مُفسدٌ غويٌّ اسمه سَبْعُ بن منغداد^(١)، فإنه شَقَّ عصا الطاعة وفارَقَ الجماعة، وقَطَعَ الطُّرُق^(٢) وفرَّقَ الفُرُق^(٣)، وسبَا الرِّفاق، وأدخَلَ في قلوب القاطنين بقصر كُتامة وتلك الجهات الرُّوعَ والفرع، وتفاقم أمره وتعاضم شره، وامتنع في جبل الكواكب، واستفحل فيه بالإذاية وتمادي الغواية في بَشَر كثير من قوله: هم من عَدَم الفهم كسائمة البُهم، صَحِبَتهم الجهالة واستهوتهم الضلالة، وفشا ضُرهم وساء أثرهم. فاتفق أمر^(٤) الموَحِّدين أن يحسِموا شرَّ هؤلاء المارقين، فنظروا في تجهيزِ عسكر، ووجَّه أبو سعيد يَحْلُفُ بن الحُسين إلى بلادِ صُنْهاجَة من جهة القلعة، وقد كان الشيخُ المرحومُ أبو حفص تقدّم قبله بمن كان معه في جهة أخرى، فلما عَظُم شرُّ هذا الشقيِّ سَبْعُ بن منغداد أهلكه الله بحركة الأمير إليه^(٥).

ذكرُ حركة الأمير أبي يعقوب ابن الخليفة عبد المؤمن رحمهما الله

ومقتلِ سَبْعُ بن منغداد المذكور^(٦)

لَمَّا عَظُم أمرُ هذا الشقيِّ تحرَّك إليه الخليفة: بنفسه وعساكره وأخيه أبي حفص وأبي سعيد، ونهَضُوا إلى جبل غُمارة فنازلوا فيها الشقيَّ الغويَّ في أعلاها، وأحاطوا على أعدائهم في دُراها وسَبَّوهم واستأصلوهم وأجلَّوهم وغزَّوهم غزواً شافياً، وفتح الله لهم أرضهم، وملَّكهم عقارهم وعرضهم، وقتلوا الشقيَّ المذكور، واتَّصل لهم الفتح في جبال^(٧) غُمارة وصُنْهاجَة بالمناب، وكان الانصرافُ من الجميع

(١) في المن بالإمامة ٣١٨: «منغداد» أينما ورد، والمؤلف ينقل منه. ووقع في م: «منغداد» وهو تحريف تأتى من سوء القراءة.

(٢) في م: «الطريق»، وهو تحريف.

(٣) الضبط من ق، حيث جَوَّد الضمة على الراء.

(٤) في ك، م: «رأي».

(٥) المن بالإمامة ٣١٨-٣٢٠.

(٦) سقط من م.

(٧) في م: «جبل» وما أثبتناه من النسخ.

بالنَّجْحِ وَحُسْنِ الانْقِلَابِ^(١). وَلَمَّا كَانَ الْإِيَابُ مِنْ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْمَذْكُورَةِ أَمَرَ الْأَمِيرُ أَبُو يَعْقُوبَ بِإِعْلَامِ الْفَتْحِ الشَّامِلِ وَمَقْتَلِ الشَّقِيِّ وَصَلْبِهِ.

وَلَمَّا انْصَرَفَ الْأَمِيرُ أَبُو يَعْقُوبَ مِنْ فَتْحِ جِبَالِ غُمَارَةَ غَالِبًا مَنْصُورًا إِلَى حَضْرَةِ مَرَّاكُشَ، أُنْشِدَهُ الشُّعْرَاءُ يُهْنُوْنَهُ بِاسْتِيلَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ، فَقَالَ أَبُو عُمَرَ^(٢) بَنُ حَرْبُونَ مِنْ قَصِيدَةٍ^(٣) [مِنْ الْكَامِلِ]:

وَنُصِرْتُمْ نَصَرَ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ	بَلَّغَتْ بِكُمْ حُجُجَ الْكِتَابِ الْمُنْزَلِ
لَوْ أَنَّ صُبْحًا رَامَهَا لَمْ تَنْجَلِ	وَجَلَوْتُمْ غَمَرَاتِ كُلِّ دُجْنَةٍ
تَرْقَى بِهَا قَدَمُ الصَّبَا وَالشَّمَالِ	فَرَقِيتُمْ مِنْهَا مَرَاقِي لَمْ تَكُنْ
خَرَّتْ لَصَعْقَتِهَا مَنَاكِبُ يَذْبُلِ	وَوُطِئْتُمْ جِبَلَ الْكَوَاكِبِ وَطَاءَ
مِنْ غُرَّةِ الْمَلِكِ الْأَجَلِّ الْأَفْضَلِ	وَالْتَاجُ نَوْرُ اللَّهِ يُشْرِقُ فَوْقَهُ
وَالْعَقْلُ لَوِ زُقُوهُ أَمْنَعُ مَعْقِلِ	فَتَبَرَّاتِ تِلْكَ الْمَاعِقِلُ مِنْهُمْ
مَا لَامَرِي عَنْ أَمْرِهِ مِنْ مَعْدِلِ	مَا غَرَّهْمُ بِخَلِيفَةِ اللَّهِ الَّذِي
تَاهَتْ بِهِمْ فِي حَوَزِ لَيْلِ أَيْلِ	ضَرَبَ الشَّقَاءُ وَجُوهُمْهُمُ بِضَلَالَةٍ
وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِلْمُسْتَعْجِلِ	وَاسْتَعْجَلُوا أَمَرَ إِلَهِ [فَجَاءَهُمْ] ^(٤)
لِمُطَوَّقَاتِ الْأَيْكِ صَيْدَ الْأَجْدَلِ	عَجَبًا لَهَا مِنْ فِتْنَةٍ قَدْ سَوَّلَتْ
أَنْ يَقْبَلُوا عَفْوَ الصَّفُوحِ الْمَفْصَلِ	فَسَطَّتْ بِهِمْ كَفُّ الرَّدَى لَمَّا أَبَوْا
يَهْوِي إِلَى دَرْكِ الْجَحِيمِ الْأَسْفَلِ	وَعَدَا غَوِيَّتُهُمْ بِرَأْسِ مُنِيفَةٍ
وَسَقَّتْهُ أَنْوَاءُ السَّحَابِ الْهَاطِلِ	رَضِيَ إِلَهُ عَنْ الْإِمَامِ الْمُجْتَبَى

(١) زاد ناشرو (م) بعد هذا: «وسعيد الإياب» وليس في النسخ، وهي عبارة وردت في المنّ بالإمامة ٣٢٠.

(٢) في النسخ: «عمرو» وهو خطأ.

(٣) القصيدة بتمامها في المنّ بالإمامة ٣٣٦-٣٤١ وهي أطول مما هنا.

(٤) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة.

أَلْقَى لِسَيِّدِنَا الْخَلِيفَةِ عَهْدَهُ
 وَقَضَى لِنَجْلِهِمُ الْكَرِيمِ بِحِفْظِهَا
 فَالآنَ قَدْ هَدَاتُ وَقَرَّرَ قَرَارُهَا
 قَرَّرْتُ بِهِ عَيْنُ الْخِلَافَةِ إِذْ رَأَتْ
 إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنْ تَأَخَّرَ عَصْرُهُ
 شَرُّهُ الشَّبَابِ وَدَوْلَةٌ قَدْ أَقْبَلَتْ
 مَلِكٌ تَسُحُّ عَلَى الْوَرَى بَرَكَاتُهُ
 هُنَيْتَ مَوْلَانَا أَبَا يَعْقُوبَ مَا
 قُلْدَتْ حَيْدَ الْمُلْكِ مِنْهُ تَيْمَةً
 قَدْ جَاءَتِ الدُّنْيَا إِلَيْكَ بِوَفْدِهَا
 وَالْحَضْرَةُ الْعِلْيَاءُ يَرْقُبُ طَرْفُهَا
 حُصِرَ اللِّسَانُ وَتَاهُ فِي أَوْصَافِكُمْ
 فَزَعَّ الْهُمَامَ إِلَى الْحَسَامِ الْمَفْصَلِ^(١)
 حَتَّى إِلَى الْيَوْمِ الْعِمَّاسِ^(٢) الْأَهْوَلِ
 عِنْدَ التَّقِيِّ الزَّاهِدِ الْمُتَبَتَّلِ
 قِسْطَاسَهَا يَبِيدُ الْإِمَامُ الْأَعْدِلِ
 فَقَدْ احْتَوَى خَلْقَ الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
 يَا حُسْنَهُ مِنْ مُقْبِلٍ فِي مُقْبَلِ
 فَتَعُمُّ سَائِلُهَا وَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ
 خُوِّلَتْ مِنْ فَتْحٍ أَغْرَّ مُحْجَلِ
 مَا أَنْ يَبِيَّتَ لَهَا بَلِيلُ الْأَوْجَلِ
 وَاسْتَقْبَلْتُكَ بِوَجْهِهَا الْمُتَهَلَّلِ
 مِنْكُمْ سَنَا الْبَدْرِ الْمُنِيرِ الْأَكْمَلِ
 فَاِلَيْكُمْوهَا^(٣) عُذْرَةُ الْمُتَجَمَّلِ

وفي هذه السنة بعد غزوة جبال غُمارة: كان الشَّيْخُ أَبُو سَعِيدٍ يَحْلِفُ قَدْ تَوَجَّهَ بعسكر من الموحِّدين إلى جهة المرتدين من صُنْهَاجَةَ، وكان الشَّيْخُ أَبُو حَفْصٍ الْهَتَّائِيُّ بَمَنْ مَعَهُ مِنْ عَسَاكِرِ الْمُوَحِّدِينَ بِجِهَةِ أُخْرَى مِنْ بِلَادِ صُنْهَاجَةَ الْمَذْكُورِينَ، وَرَسَمَ لَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا وُدُّعَا عَلَيْهِ، فَتَهَضُّوا وَاجْتَمَعُوا وَجَدُّوا فِي غَزْوِهِمْ وَسَعَدُوا، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ جِبَالَ غُمَارَةَ وَاتَّصَلَ خَبَرُ هَذَا الْفَتْحِ بِصُنْهَاجَةَ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجِبَالِ، سَقَطَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَرَغَبُوا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَطَارَحُوا عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ، فَقَبِلَ أَبُو حَفْصٍ رَغْبَتَهُمْ وَأَعْلَمَ الْأَمِيرَ بِذَلِكَ فَصَفَّحَ عَنْهُمْ، فَحِينَ انْصَرَفَ الْأَمِيرُ أَبُو يَعْقُوبَ مِنْ

(١) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «المقصل» ولعله الصواب.

(٢) «اليوم العِمَّاس»، كسحاب، أي: الشديد الحرب (القاموس).

(٣) لم يبق من هذه اللفظة في النسخ غير الفاء والألف من أولها ثم الهاء والألف من آخرها، واستفدناها من المنّ بالإمامة ٣٤١.

عُمارة انصرف الشيخ أبو حفص وأبو سعيد بمن كان معهما من العساكر وأعلموا بما اتفق من الطوع وما كان من الظفر فقال أبو عمر بن حربون^(١) من قصيدة^(٢) [من الكامل]:

وَجَدَ النَّسِيمُ ثَنَاءَكُمْ فَتَعَطَّرَا	وَرَأَى الْوَشِيحُ مِضَاءَكُمْ فَتَفَطَّرَا
وَتَبَسَّمْتُ أَيَّامَكُمْ عَنْ أَنْعَمِ	سَمِعَ الْغَمَامُ بِذِكْرِهَا فَاسْتَعْبَرَا
وَجَرَى لَهَا فَلَكَ السَّعَادَةُ بِالَّتِي	حَمَيْتَ عَلَى كَسْرِي وَقَلَّتْ قَيْصَرَا
فَالدِّينُ وَالْدُنْيَا مَعًا قَدْ رَدَّيَا	بِرِذَائِهِ الْفَارُوقَ وَالْإِسْكَندَرَا
جَمَعَ إِلَهُ بِهِ [الْوَرَى فِي وَاحِدٍ	فَتَبَارَكَ الرَّحْمَنُ مَاذَا قَدَّرَا] ^(٣)
وَأَتَى بِهِ الزَّمَنُ الْأَخِيرُ مَقَدَّمَا	فَكَأَنَّمَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ تَقَهَّقَرَا
مَلِكٌ تَضَعُضَعَتِ الْمُلُوكُ لِبَاسِهِ	وَعَدَالَهُ الزَّمَنُ الْعَنُودُ مَسَخَّرَا
أَبْشِرْ فَكُلُّ صَبَاحٍ يَوْمٍ إِنَّمَا	يَأْتِيكَ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ مَبْشَرَا
وَأَصْبَحَ لَذِكْرِ الْيُوسُفِيَّةِ إِنَّمَا	مَنَعْتَ مَغَانِي الشَّعْبِ مِنْ أَنْ تُذْكَرَا
جَلَّتْ عُلاَكُمْ أَنْ يُحَاطَ بِوَصْفِهَا	حَتَّى تَسَاوَى مَنْ أَطَالَ وَقَصَّرَا

وفي هذه السنة: تحرَّك السيّد الأعلى أبو حفص بعسكر من الموحدّين إلى غزو المنافقين المرتدّين، فسَهَّلَ اللهُ لَهُ وفتَحَ عليه وانصرف منصوراً ظافراً^(٤).

وفي هذه الغزوة: أمر السيّد أبو حفص أبا عمر ابن حربون أن يصنع قصيدة شعرٍ على لسانه يتشوق فيها إلى أخيه أبي يعقوب، فقال أبو عمر المذكور في ذلك^(٥) [من الوافر]:

سَلامٌ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْهُمَّامُ عَلَى نَادِيكَ دَامَ لَكَ السَّلامُ

(١) في النسخ كافة: «أبو بكر بن حزمون»، وفي المنّ بالإمامة: «أبو عمر بن حربون»، ولعله هو الصواب، إذ لا نعرف من الشعراء من يكنى أبا بكر ومن يعرف بابن حزمون.

(٢) القصيدة في المنّ بالإمامة في ثلاثة وأربعين بيتاً (ص ٣٤٢-٣٤٧).

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة ٣٤٣.

(٤) المنّ بالإمامة ٣٤٧.

(٥) القصيدة في المنّ بالإمامة في ستة وثلاثين بيتاً (ص ٣٥٠-٣٥٤).

ولا زالت لك الأيام سلماً
فأنت إمام هذا الخلق طُراً
برأيك تكشف الغمائم عنهم
ولو لا دولة أيدتموها
ولا هطلت على الأرض الغواصي
سهرت الليل في طلب المعالي
إلى قوله (١):

يطول بنا الزمان فكل يوم
فتبسم عنكم هذي الليالي
يُمِرُّ ولا نراكم فهو عام
كما ابتسمت عن الزهر الكمام

أخبر أبو مروان عبد الملك بن محمد، قال (٢): حَدَّثَنِي مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَ الْخَلِيفَةِ أَبِي يَعْقُوبَ قَالَ: لَمَّا أُنْشِدَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ الْمَعْلُونَةُ عَنْ صَفَاءِ الضَّمَائِرِ، وَخُلُوصِ الْإِخَاءِ فِي السَّرَائِرِ، مِنَ السَّيِّدِ أَبِي حَفْصٍ إِلَى حَضْرَةِ أَخِيهِ، رَأَيْنَا وَجْهَهُ قَدْ انْشَرَحَ وَتَهَلَّلَ سُرُورًا وَبِشْرًا، وَتَحَيَّلْنَا لِنُورِهِ بَدْرًا، فَقَامَ كُلُّ مَنْ حَضَرَ الْمَجْلِسَ فَبَايَعَهُ وَدَعَا لَهُ بِأَجْزَلِ الْعَطَاءِ لِقَائِهَا وَانْصَرَفَ السَّيِّدُ أَبُو حَفْصٍ ظَافِرًا.

وفي سنة ثلاث وستين وخمسة مئة: تَسَمَّى الْخَلِيفَةُ أَبُو يَعْقُوبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَجُدِّدَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ، أَجْمَعَ الْمُوَحِّدُونَ عَلَى تَجْدِيدِهَا فَجُدِّدَتْ بِخُلُوصِ الضَّمَائِرِ وَطَيْبِ السَّرَائِرِ، وَنَفَذَ الْأَمْرُ بِذَلِكَ إِلَى السَّيِّدِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِإِشْبِيلِيَّةَ مُعَلِّمًا بِتَجْدِيدِ الْبَيْعَةِ وَالْإِسْمِيَّةِ الْإِمَامِيَّةِ، فَأَخَذَتِ الْبَيْعَةُ لَهُ بِإِشْبِيلِيَّةَ وَسَائِرِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ طَاعَتِهِ كَمَدِينَةِ: قُرْطُبَةَ وَغَرْنَاطَةَ وَمَالْقَةَ وَغَرْبَ الْأَنْدَلُسِ، وَكُتِبَتِ الْبَيْعَاتُ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ وَبُعِثَتْ إِلَى حَضْرَةِ مَرَّاكُشَ.

(١) سقط شبه الجملة من م.

(٢) المن بالإمامة ٣٥٤.

(٣) المن بالإمامة ٣٥٤ فيما بعدها.

ولمّا^(١) كُمِلت هذه البَيِّعات، وسَرَت البشائرُ في البلاد، وتيمَّن بارتباطهم بالأندلس والعدوة، فجميع العباد، عفا أمير المؤمنين عن جميع المسجونين، وخطَّ البقايا عن العمال الخائفين، وأمنَّهم من الخوف^(٢) فيما تقيَّد عليهم من الدواوين، فزاد الانبساطُ والنشاطُ عند الناس بفضلِهِ وصَفْحِهِ وعدلِهِ، فنَمَت الأرزاق وعُمِرَت الأسواق، وزادت المخازنُ وفُورًا، ودُرَّت الخيراتُ على الناس دُرورًا، وابتنوا بمراكش الديار العتيقة، واغترسوا خارجها أينع حديقة، واتصل فضله في جميع العدوة: الغرّية والأندلس، واجتمع الحبُّ له في جميع القلوب والأنفس، فمدحه الشعراء وأطنبوا، فأجرَل لهم العطاء فوق ما رغبوا، فمن ذلك قولُ أبي عمرو بن حربون^(٣) من قصيدة^(٤) [من الكامل]:

جاءتك تسحبُ ذيلها للموعِدِ	زهراء طالعةٌ بسعدِ الأسعدِ
فاصدعُ أمير المؤمنين بدعوةٍ	لم تترك صمًّا لسمع السجلمدِ
يُهني الخلافةَ أن لبستَ رداءها	وقعدت منها اليومَ أشرفَ مقعدِ
ومن ارتقى في سلّم التقوى رأى	زهر الكواكب بالحضيض الأوهِدِ
ألقت أزمتهَا إلى من همُّهُ	في مُرهفٍ أو مُصحفٍ أو مسجدِ
علقتَه ميمونَ النقيبة زاهدًا	لم يشتغل بددٍ ولا هو من ددِ
انظر إليه فإن غرّة وجهه	تجلو الصدى عن قلب كلِّ موحدِ
فأقام قيامَ السماوات العلى	عن شأن قوامٍ له متهجّدِ

(١) المن بالإمامة ٣٦٣ فما بعدها.

(٢) وضع ناشرو (م) عنوانًا من المنّ بالإمامة من غير إشارة إليه، بل قالوا في تعليق لهم: إنّ العنوان سقط من بعض النسخ دون بعض، وهو لا وجود له في النسخ الخطية كافة، بل أدهى من ذلك أنهم تركوا النصّ الذي أجمعت عليه المخطوطات وراحوا ينقلون من المنّ بالإمامة، وهو أمر في (تحقيقهم) غريب! ومن ثم لم نعد نرى فائدة في تتبع المخالفات الكثيرة الواقعة في هذا النصّ، وما قدمنا فيه كفاية لكلّ ذي بصر واطّلاع، والله الموفق للصواب، إليه المرجع والمآب.

(٣) وقع في ر ٣: «حزمون»، وهو تحريف.

(٤) القصيدة في المنّ بالإمامة ٣٦٥-٣٦٩ ومنه ينقل المؤلف.

الحَقُّ حَقُّكَ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ
 إِنَّ الَّذِي قَدْ قُتِمَتْ تَنْصُرُ دِينَهُ
 اللَّهُ مُشْهَدٌ بِبَيْعَةٍ بَوَّعَتْهَا
 إِنَّ الشَّرِيعَةَ أُيِّدَتْ أَرْكَائُهَا
 يَجْلُو خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ بِفِطْنَةٍ
 عَمَرَتْ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِحُبِّهِ
 فَاسْلَمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِأُمَّةٍ
 أَمَّتْهَا أَهْوَالُ كُلِّ مَخُوفَةٍ
 لَوْلَا مَقَامُكَ زُلْزِلَتْ زُلْزَالُهَا
 لَوْلَا الَّذِي بَسَطَ الْإِلَهُ بِفَضْلِهِ
 حَطَّ الْأَنَامُ إِلَى ذُرَاكَ وَأَصْبَحُوا
 صَفَتْ النُّفُوسُ إِلَيْكَ حَتَّى أَتَمَّهَا
 غَارَتْ مَعْطَرَةُ الثَّنَاءِ وَأُنْجِدَتْ

وَاسْتَشْهَدَ الْبَيْضَ الصَّوَارِمَ تَشْهَدُ
 أَعْطَاكَ مِيرَاثَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
 فَالذِّينُ وَالْدُنْيَا بِذَاكَ الْمَشْهَدِ
 بِمَوْفَقٍ لِلصَّالِحَاتِ مَوْيَدٍ
 قَدْ أَنْبَأَتْهُ الْيَوْمَ عَمَّا فِي الْغَدِ
 وَاسْتَمْسَكُوا بِعُرَى الْمُهِنِّ^(١) الْمَحْصَدِ
 مَا سَرَّتْهَا^(٢) إِذْ سُسِّتْهَا بِمُصَرِّدٍ
 شَرَّدَنَ سِرْبَ الْأَمْنِ كُلَّ مَشَرِّدٍ
 وَتَضَعُضَتْ صُمٌّ^(٣) الْهَضَابِ الصُّخْدِ
 فِي الْأَرْضِ مِنْ سُلْطَانِهِمْ لَمْ يُعْهَدِ^(٤)
 مِنْ ظِلِّ عَدْلِكَ فِي النَّعِيمِ الْأَمْرَدِ^(٥)
 لَوْ سُمَّتْهَا الْأَغْمَارُ^(٦) لَمْ تَتَرَدَّدِ
 أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْمُعِينِ الْمُنْجِدِ^(٧)

- (١) في م: «المتين» وهو الذي في المطبوع من المتن بالإمامة، وما أثبتناه من النسخ كافة وهو الأولى.
 (٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المتن بالإمامة: «شرها».
 (٣) في ق، ك: «لهم»، وبها يحصل الإقواء في البيت، وما أثبتناه من ر، وفي المتن بالإمامة: «شم»، ولعل «صم» أفضل هنا من «شم» للفظ «تضعضت».
 (٤) في المتن بالإمامة: «من سلطانكم لم يُعبد».
 (٥) في م: «الأفرد» وهو تحريف، وفي المتن بالإمامة: «الأبرد».
 (٦) في م، والمتن بالإمامة: «الأعمار»، وما أثبتناه من النسخ، وهو الصواب.
 (٧) جاء العجز في م: «فرمت إليك بمتهم وبمنجد»، وهو منقول من المتن بالإمامة ٣٦٨، وقد ترك (المحققون) النسخ الخطية التي اتفقت على ما أثبتنا وراحوا ينقلون من مصدر آخر غيرها، بل علّقوا بقولهم: «في ط: أهلاً وسهلاً بالأمر المنجد، ولا معنى له ولا ارتباط بما قبله»، وهي قراءة سقيمة، إذ لا وجود للفظ الأمير في جميع النسخ الخطية. نعم، جاء في واحدة منها: «المغير»، ولعله تحريف من «المعين».

فَاهَنْأُ بَرَضَوَانِيَّةٍ مِيْمُونَةٍ
فَهِيَ الْمُعَدَّةُ لِلْمَعَادِ وَرِيْبِهِ
وَالِيَكْهَآ تَبْقَى (٣) رِضَاكَ ذَخِيْرَةً
لَمْ تَنْتَهِجْ سَنَنَ الْمَدِيْحِ وَإِنَّمَا
أَخَذْتَ بِأَطْرَافِ الثَّنَاءِ وَلَمْ تُطِيقْ
أَنْبَاءَ فَضْلِكَ لَا يَقَامُ بِحَقِّهَا

رَمَتْ الْأَعَادِي بِالنَّعِيْمِ (١) الْمُقْعِدِ
وَهِيَ الْعَتَادُ (٢) بِحَسْمِ دَاءِ الْمُعْتَدِي
سَنَدًا أَلُوذُ بِهِ طُوَالَ الْمَسْنَدِ
قَامَتْ بِفَرْضٍ فِي عُلَاكَ مُؤَكِّدِ
إِحْصَاءٍ أَوْصَافِ الْجَمِيْعِ الْمَفْرَدِ
وَلَوْ أَنَّهَا كُتِبَتْ بِذَوْبِ الْعَسْجَدِ

وَأَمَرَ أَنْ يَكْتُبَ الصُّنَاعُ فِي سَفِيهِ: «لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» فَكُتِبَ فِيهِ ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ حَرْبُونَ مُرْتَجِلًا فِيهِ عَلَى لِسَانِ السِّيفِ [مَنْ مَجْزُوءَ الرَّمْلِ]:

أَنَا إِنْ جَرَّدْتُ يَوْمًا كُنْتُ بِالنَّصْرِ ضَمِينًا (٤)
لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنِ — ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (٥)

وَلَمَّا (٦) كُمِلَ الْبَشْرُ الْعَامَّ، وَالْيُسْرُ التَّامَّ، بِتَجْدِيدِ الْبَيْعَةِ الْمِيْمُونَةِ، أَمَرَ أَبُو يَعْقُوبَ بِبَرَكَةٍ عَامَّةٍ لْجَمِيْعِ الْمُوَحِّدِينَ وَالْعَرَبِ الْقَاطِنِينَ، وَالْأَجْنَادِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ بِحَضْرَةِ مَرَّاكُشَ إِيْضَالًا لِلْعَفْوِ الَّذِي تَقَدَّمَ وَإِفْضَالًا، فَفَعَّذَ أَمْرُهُ إِلَى السَّادَاتِ إِخْوَتِهِ بِالْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِيَّةِ بِالْإِنْعَامِ بِالْبَرَكَةِ. فَعَمَّ النَّاسَ فَضْلُهُ وَرِفْدُهُ، وَاسْتَوَلَى بِهَذَا الْإِنْعَامِ الْمُبَارَكِ سَعْدُهُ، وَنَمَتِ الْجَبَايَاُ وَالْخَرَاجَاتُ، وَعَزَمَتِ النُّفُوسُ عَلَى الْغَزْوِ فِي الْحَضَرِ وَالْبَدْوِ، وَاتَّصَلَتِ الْقَطِيعَةُ (٧) بِالْبَيْعَةِ وَالْأَمَانِ.

(١) هكذا في النسخ كافة، وغيرها ناشرو (م) إلى: «بالمقيم» اعتمادًا على ما جاء في المنّ بالإمامة.

(٢) في م: «المعاد»، ولا ندرى من أين أتوا بها، فالذي في المنّ بالإمامة كما أثبتنا أيضًا.

(٣) في م، والمنّ بالإمامة: «تبغي»، وما أثبتناه من النسخ كافة.

(٤) في م، والمنّ بالإمامة: «قمينا».

(٥) المنّ بالإمامة ٣٧٠-٣٧١.

(٦) النص من المنّ بالإمامة ٣٧١-٣٧٢.

(٧) هكذا في جميع النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «الغبطة» وهي الأصحّ.

وقدّم أمير المؤمنين أبو يعقوب في هذه السنة أخاه السيّد أبا إسحاق إلى قرطبة والياً عليها، فوصل بعسكر ضخم من الموحدّين إليها، واتفق الرأي المبارك على النظر السعيد والاهتبال الحميد، بالتوجّه إلى جزيرة الأندلس حماها الله، بصرف عنان الغزو إلى أعدائها على قُرْبهم وبُعْدهم من أرجائها، وخاطب الخليفة بهذا الرأي المتّفق عليه، بعد استخارة الله تعالى لديه، إلى أهل الأندلس بالنظر في الاستعداد لذلك برسم الجهاد.

وفي تاريخ وُصُول هذه الرّسالة^(١) إلى والي غرناطة المذكور، خرّجت من جهة وادي آش جُمْلَةٌ ذَمِيمَةٌ من خيل جراندّه^(٢) من المحاربين، وأصحابهم النّصارى الكافرين، أهلكهم الله تعالى، فأسروا ليلتهم ونهارهم حتى وصلوا نظر مدينة رُنْدَه كلاًها الله تعالى، فعنموا بعضه واكتسحوا سائمته وماشيته، وعلم بذلك الشيخ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم بغرناطة، فحزم في أمرهم وفي حَسْم شرّهم، وبعث في اتّباعهم ودفاعهم عسكراً كبيراً، فالتقى بالأشقياء وهم بالغنائم منصرفون إلى وادي آش، مجتمعين، فحين عاينوا عسكر الموحدّين أووا إلى جبل شاهق، فحمل الموحدّون أنجدهم الله على الكافرين حملة صادقة طاردوهم فيها من أوّل صلاة الظهر إلى أن هبّت عليهم ريح النّصر، خلال وقت العصر، وولى الكافرون أدبارهم وهزموهم في أعلى الجبل المذكور، وأزعجهم فيه حتى تردّوا من حافاته، وتكسّرت أعضاؤهم، وتمزّقت أجسادهم^(٣)، واستولى الموحدّون عليهم بالقتل والأسر والسبي، وأنفذوا الغنائم، وحازوا أسلّابهم ودوابهم، وسبّوا من أعلاج النّصارى ثلاثة وخمسين عِلْجاً استاقوهم إلى غرناطة، فضربت أعناقهم، وكان فتحاً جسيماً، فعرف به أبو عبد الله بن أبي إبراهيم إلى أمير المؤمنين أبي يعقوب رحمه الله، فجأوبه على ذلك بالشكر الحفيل والثناء الجميل، ومن قول أبي عمرو بن حربون من قصيدة طويلة^(٤) [من الطويل]:

(١) نص الرسالة في المن بالإمامة ٣٧٣-٣٧٤، والمؤلف ينقل منه ص ٣٧٤ فما بعدها.

(٢) هو Giraldo .

(٣) في م: «أجسامهم».

(٤) القصيدة في المن بالإمامة ٤٠٨-٤١٢.

أليس من الآيات أن بتَّ وادعَا
وما هو إلا أن دعا بشعاركم
بحلفكم الميمون أضحى مؤيِّداً
ورثتم عن المَهديّ نوراً وحكمةً
فلا زالتِ الآمالُ من كلِّ معشِرٍ
ولا زلتمْ تلقَوْنَ في كلِّ شارقٍ
وقيصُرُ قد أَمسى لأمرِك خادما
فجدَل مَنْ قد كان قرناً مُقاوما
على كلِّ مَنْ عاداك بالبسطِ قائما
بما اختارك الرَّحمنُ للناس حاكما
تحتُ إليك الواخِداثِ الرّواسِما
بشيراً عليكم بالفتوحاتِ قادما

وفي هذه السنة: استدعى العربَ وخاطبهم برسالة وقصيدة يحرضهم فيها على الجهاد ويستدعيهم إلى الغزو، وعلى الاستعداد، ويصفهم فيها بما هم فيه من الزّعامه والشّهامة، ويستدنيهم غاية استثناء.

وفي هذه السنة: شَغِب قومٌ من البربرِ المنافقين في جبل تاسررت، وحين صَحَّ خبرُ تشغييهم وعنادهم عسكرَ إليهم السيّد أبو حفص بجَمْع وافر من الموحّدين، فغزاهم وأجلاهم عن ذلك الجبل وقتلهم فيه شرّ مقتل، واستأصلهم سبباً ونفياً، ولم يدع في حيّهم حيّاً، وانصرف فقال ابنُ حَرْبون من قصيدة طويلة^(١) [من المتقارب]:

بِئْسَ نِكْمٌ نَجَحَ الْمَطْلُبُ
وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ عَنْ نُورِكُمْ
تَرَكْتُمْ دِيَارَهُمْ^(٢) بَلَقَعَا
وَلَا غُرُو أَنْ صَالَ لَيْثُ الشَّرَى
فَمَزَقْتُمْ شَمْلَهُمْ فِي الْبِلَادِ
فِيْهِنِي الْخِلَافَةُ أَنْ أَصْبَحَتْ
وَأَعْطَى مِقَادَتَهُ الْمُصْعَبُ
فَلَمْ يَبْقَ فِي أَفْقٍ غِيْهَبُ
فَتَنَدُبُ مَنْ جَاءَهَا يَنْدُبُ
فَرَاغَ مَخَافَتِهِ الثَّلَبُ
كَأَنَّهُمْ^(٣) جَمْلٌ أَجْرَبُ
بِصَارِمِ سَيْفِكُمْ تَضْرَبُ

(١) القصيدة في المن بالإمامة ٣٧٩-٣٨٢.

(٢) في ك: «دياركم»، وهو تحريف.

(٣) في المن بالإمامة: «فقلّهم».

ووصل إلى الخليفة أبي يعقوب فتح وقعة كانت على المخالفين المرتدين بالمغرب، وأمر أن يبدأ الشعراء فيها بالحمد لله على طريق الكناية، فقال ابن حربون من قصيدة^(١) [من البسيط]:

الحمد لله مُدني شاسع الأملِ	وناظم الشمل في سلك من الجدَلِ
ثم الصلاة مع التسليم يشفعها	على الرسول الذي استوفى مدى الرسلِ
على الذي تَمَّتْ أحكام ملته	مكارمًا لم تكن في سالف المللِ
ومن رضاه عن المَهدي أحفله	كما هدى بسناه أرشد السبلِ
ثم الدعاء لمولانا وسيّدنا	خليفة الله عبد المؤمن بن علي
ولالإمام أبي يعقوب شَبَّههم	ومن تَقَيَّلهم في القول والعملِ
ملكٌ تظلُّ ملوك الأرض تتبعه	مستبشرين بأن عُدوا من الخولِ
وقائعًا حدقت فيها القنائمُ قَلًا	بلا جفونٍ وأجفانًا بلا مقلِ
فإن عَمُوا عن سبيل الرُّشد وَيَحهم في المهابة الدُّولِ ^(٢)
شَرُوا ^(٣) بعاقبة الإنعام عاقبة	نفوسهم ^(٤) بين سهل الأرض والجلِ
فأصبحوا عبرة تبدو لمعتبرٍ	مجدلين بما راموه من جدَلِ

وفي هذه السنة: لارَمَ الموحدون حصارَ طَبِيرةَ حتى افتتحوها، وقد كان الأمير أبو يعقوب أيام إمارته بإشبيلية نازلها مرّتين فعصت عليه وامتنعت بمن فيها لديه، حتى فتحها الله في خلافته عقب شهر ذي القعدة، وكان فيها أصناف من أهل الشرّ ينهبون أموال المسلمين فسرّ أمير المؤمنين بانقطاع نفاقها الطائل

(١) القصيدة في المن بالإمامة ٣٨٣-٣٨٧ والمؤلف يختار منه دائماً.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المن بالإمامة جاء العجز: «يا ضلّ من ضلّ في مهديّة الدول».

(٣) في المن بالإمامة: «سروا».

(٤) في المن بالإمامة: «تنوسهم».

السَّنين، إذ كان فيها من أول عام ستة وأربعينَ إلى آخر هذه السنة، وهي ثلاث وستون^(١).

وفي هذه السنة: وصلَ فِرْنَانْدُ النِّصْرَانِيَّ صِهْرُ أَذْفُونَش^(٢) صاحب طُلَيْطَلَةَ فَتَحَهَا اللهُ إلى إِشْبِيلِيَّةَ حَرَسَهَا اللهُ مَعَ إِخْوَتِهِ رَاغِبًا أَنْ يَكُونَ خَدِيمًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُنَابِذًا لِشِيعَةِ الْكَافِرِينَ، فَسَارَ مِنْهَا مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى حَضْرَةِ مَرَّاكُشَ مَهْدَهَا اللهُ وَبَقِيَ فِيهَا خَمْسَةَ أَشْهُرٍ تَحْتَ إِنْعَامٍ وَامْتِنَانٍ، وَعَطَاءٍ جَزِيلٍ وَإِسْكَانٍ، حَتَّى كَادَ أَنْ يُسَلِّمَ وَعَاهَدَ فِي نُصْحِ الْخَلِيفَةِ بِالْخِدْمَةِ الْمُجَدَّةِ، فَانْصَرَفَ تَحْتَ هَذَا الْإِحْسَانِ وَالصُّلْحِ التَّامِ، وَأَمَرَ بِإِثْبَاتِ إِخْوَتِهِ وَأَصْحَابِهِ مَعَ الْمُوَحِّدِينَ فِي كُلِّ شَهْرٍ، فَكَانَ ذَلِكَ، وَبَايَعَهُ بِالصُّلْحِ صِهْرُهُ الْبِيُوجُ بْنُ أَذْفُونَشَ صَاحِبَ السَّبْطَاطِ^(٣)، وَرَغِبَ فِي الْمُهَادَنَةِ وَأَنْ يَكُونَ يَدًا وَاحِدَةً مَعَ الْمُوَحِّدِينَ وَعَوْنًا لَهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا أَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى^(٤).

ذَكَرُ غَدْرِ الْعِلْجِ جِرَانْدَهُ الْجَلِّيَّيَّ أَخْزَاهُ اللهُ

لبعض بلاد غرب الأندلس وحُصُونِهَا^(٥)

كَانَ هَذَا الْكَلْبُ جِرَانْدَهُ صَاحِبَ جُرَّاءٍ وَنَجْدَةٍ، فَلَمَّا عَايَنَ ابْنُ الرَّنْكَ نَجْدَتَهُ وَتَقَيَّظَهُ لَغَدْرِ الْبِلَادِ وَالْحُصُونِ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ بَرَجَالَهُ، وَسَلَّطَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ الْكَلْبُ يَتَسَلَّلُ فِي اللَّيَالِي الْمَطْرَةِ الْحَالِكَةِ الْمُظْلَمَةِ وَقَدْ أَعَدَّ الْآلَاتِ مِنَ السَّلَالِيمِ الَّتِي تَعْلُو سُورَ الْمَدِينَةِ الَّتِي يَرُومُ، فَإِذَا نَامَ السَّامِرُ الْمُسْلِمُ فِي بُرْجِ الْمَدِينَةِ أَلْقَى تِلْكَ السَّلَالِيمَ إِلَى جَانِبِ الْبُرْجِ وَرَقًا عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ أَوَّلًا وَيَقْبِضُ عَلَى السَّامِرِ وَيُهْدِدُهُ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَكَلَّمْ عَلَى عَادَتِكَ لئلاَّ يَشْعَرَ النَّاسُ بِنَا، فَإِذَا اسْتَوْفَى طُلُوعَ جُحْلَتِهِ الرَّومِيَّةِ فِي أَعْلَى سُورِ الْمَدِينَةِ صَاحُوا صَيْحَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً مُنْكَرَةً، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ وَقَتَلُوا مَنْ

(١) المن بالإمامة ٣٨٧-٣٨٨. ووقع في النسخ: «ثلاث سنين»، وهو تحريف لا ريب فيه، لذلك أصلحناه من المن بالإمامة.

(٢) هو الفونسو السابع.

(٣) في ك: «السفاط»، وهو تحريف.

(٤) المن بالإمامة ٣٩٠-٣٩٥.

(٥) المن بالإمامة ٣٩٥-٣٩٧.

وجَدُوهُ وَأَخَذُوا مَنْ فِيهَا سَبِيًّا وَفِيًّا، فَغَدَرَ جَرَانْدَهُ الْعِلْجُ الْمَذْكُورُ لَعْنَهُ اللَّهُ أَوَّلًا مِنْ غَدْرَاتِهِ مَدِينَةَ تَرْجَالَةَ سَنَةَ سِتِّينَ، ثُمَّ مَدِينَةَ يَابُرَةَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ، وَبَاعَهَا مِنَ النَّصَارَى، ثُمَّ غَدَرَ مَدِينَةَ قَاصِرِشَ فِي صَفَرِ سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِّينَ، ثُمَّ غَدَرَ حِصْنَ مُتْنَانَجِشَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنَ السَّنَةِ، ثُمَّ غَدَرَ حِصْنَ شِيرَةَ فِي جُمَادَى أَيْضًا مِنَ السَّنَةِ، ثُمَّ غَدَرَ حِصْنَ جَلْمَانِيَةَ: عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ بَطْلَيْوُسَ وَسَكَنَهُ بِجُمْلَتِهِ الذَّمِيمَةِ يُفَاتِنُ مِنْهُ بَطْلَيْوُسَ وَيُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ فِيهَا حَتَّى مَكَّنَ اللَّهُ سَيْفَ الْخَلِيفَةِ مِنْهُ.

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ فِي أَوَّلِهَا: هَدَأَتِ الْفِتْنُ فِي الْمَغْرِبِ وَصَلَحَتِ الْبُلْدَانُ وَارْتَفَعَتِ الْحُرُوبُ، وَرَخُصَّتِ الْأَسْعَارُ وَدَانَتْ الْأَوْتَارُ، وَانْقَطَعَتْ فِتْنَةُ [الضَّلَالِ الْجُهَّالِ أَهْلِ الْجِبَالِ، وَتَابُوا وَأَنَابُوا، وَأ^(١) دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَعَايَنُوا الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مِنْ لَطَائِفِ اللَّهِ بَنَصْرِهِ الْمُبِينِ وَوُصُولِ النَّصَارَى رَاغِبِينَ فِي الصَّلَاحِ وَالْخِدْمَةِ صَاغِرِينَ طَائِعِينَ. وَذَلِكَ لِمَا صَفَّتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَشَارِبُ هَذِهِ الْجِبَالِ مِنَ الْفِتَنِ نَظَرُ فِي تَوْجِيهِ الْعَسَاكِرِ.

ذِكْرُ غَيْرَةِ الْخَلِيفَةِ أَبِي يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِلدِّينِ بِتَجْهِيزِ

عَسَاكِرِ الْمُوَحِّدِينَ وَبَعْثِهِمْ لِحِمَايَةِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ^(٢)

قَالَ الرَّاوِيَةُ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَرَّدَ^(٣) نَظْرَهُ لَغَرْبِ^(٤) الْأَنْدَلُسِ وَنُصْرَتِهَا وَحِمَايَتِهَا، وَقَصَّدَ الْعَمَلَ فِي ذَلِكَ بَنِيَّةَ الْجِهَادِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِشْفَاقًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَدِفَاعًا عَنِ الدِّينِ حِينَ رَأَى الْعَدُوَّ قَدْ فَعَرَ عَلَيْهَا فِتْمًا، وَأَسَالَ الدَّمُوعَ أَهْلُهَا دَمًّا. فَنَظَرَ فِي عَسْكَرِ صَخْمٍ مَبَارَكٍ شَهِمَ اخْتَارَهُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَوَجَّهَهُ صُحْبَةَ الشَّيْخِ الْمَرْحُومِ أَبِي حَفْصِ عَمَرَ بْنِ يَحْيَى إِلَى قُرْطُبَةَ تَقْدِيمَةً مِنْهُ لِمَا أَمَّلَهُ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَوَازِ الْمُوَحِّدِينَ مَعَهُ، فَكَانَ هَذَا الْجَيْشُ أَيْمَنَ جَيْشٍ، أَظْهَرَ عَلَى قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنَ الرُّوعِ أَعْظَمَ طِيْشٍ، وَتَيَمَّنَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ بِوُصُولِهِ وَحُلُولِهِ، وَكَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ رِسَالَةً كَرِيمَةً مَعْرِفَةً عَنْهُ بِوَعْدِ نَصْرِهِ وَنَظَرِهِ الْعَزِيزِ وَأَمْرِهِ.

(١) مَا بَيْنَ الْحَاصِرَتَيْنِ بَيَاضٌ فِي النُّسخِ اسْتَفْدَنَاهُ مِنَ الْمَنِّ بِالْإِمَامَةِ ٣٩٧.

(٢) الْمَنِّ بِالْإِمَامَةِ ٣٩٧ فَمَا بَعْدَهَا وَمِنْهُ يَنْقُلُ الْمُؤَلِّفُ دَائِمًا.

(٣) فِي م: «أَجَد» مُحَرَّفَةٌ.

(٤) فِي الْمَنِّ بِالْإِمَامَةِ: «لِغُوث».

قال مؤلفه: أخبر أبو مروان بن محمد ابن صاحب الصلاة، قال^(١): حدثني أبو محمد سدرای بن وزیر، قال: كان السبب في تعجيل حركة الشيخ المرحوم أبي حفص إلى الأندلس بالعسكر من مراكش ووصول الخبر بعذر اللعين جراندّه الجليقي مدينة بطليوس وتملك ابن الرنك الغادر صاحب قلمرية^(٢) لها وحصار الموحدین الذين بها في قصبتها مع حافظهم أبي علي عمر بن تيمصليت^(٣)، وذلك في شهر رجب الفرد من عام أربعة المؤرخ وأتهم في ضيقة من الحصار وتحت ضغط من الكفار، فأمر الخليفة أبو يعقوب بضرب الطبول والخروج، وركب من فورهِ فخرج من مراكش ونزل وادي تنسيفت عازماً على الغزو إلى الأندلس، فأقام به ثلاثة أيام على هذه النية، فاجتمع رأي الموحدین أن يتقدم أبو حفص المذكور بالعسكر. وخاطب أهل الأندلس برسالة كريمة من إنشاء أبي الحسن ابن عیاش شرح فيها الأحوال المزعجة عن الآمال، فكان أبو حفص على ما ذكرناه وكانت حركته في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وستين، وهو تاريخ الكتب المذكور.

وكان من یمن هذا العسكر أنه لما وصل إلى إشبيلية ضحبة أبي حفص بینما هو عازم على الحركة لدفاع العدو الغادر ابن الرنك لعنه الله عن مدينة بطليوس وحماية الموحدین المحصورین بقصبتها، وهو قد أعد واستعد، وإذا البشير قد وصل معلماً بأن البيوج بن أذفونش المعروف بالسليطن صاحب مدينة السبطاط وأبله وليون وسمورة، قد وصل بخيله ورجله حامياً للمسلمین دافعاً لضيقة الكافرين عن مدينة بطليوس طاعة منه إلى الخليفة، وقيل: إنه لما وصل إلى مقربة من بطليوس وجّه منها رسوله إلى الحافظ أبي علي عمر بن تيمصليت المحصور بالقصبة مع الموحدین وأهل المدينة الأندلسیین يقول لهم: اثبتوا فإني واصل إليكم لدفاع عدوكم عنكم، وانظروا في معاونتي كيف أدخل إليكم بنقب الحائط باباً في قصبة بطليوس من جهة خفية، فلما تحققوا وصول البيوج المذكور ومناشأة الحرب بينه وبين ابن الرنك فتحوا ذلك

(١) المن بالإمامة ٣٩٨.

(٢) معجم البلدان ٤ / ٣٩١.

(٣) في المن بالإمامة: «تمصليت».

النَّعْبَ وَخَرَجُوا بِجَمْعِهِمْ مِنْهُ إِلَى بَابٍ قَرِيبٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ [وَفَتَحُوهُ] ^(١) وَأَدْخَلُوا مِنْهُ الْعَسْكَرَ الْمَذْكُورَ فَتَقَاتَلُوا بِدَاخِلِ الْمَدِينَةِ مَعَ أَصْحَابِ ابْنِ الرَّنَكِ وَالْمُوَحِّدُونَ الْمُحْصُورُونَ يُعِينُونَ أَصْحَابَ الْبُيُوجِ وَهُمْ قَدْ سَوَّوْا الصُّفُوفَ وَلَبَسُوا الدَّرْعَ، فَرَأَى ابْنُ الرَّنَكِ مِنْ تَصْمِيمِ الْمُوَحِّدِينَ وَأَصْحَابِهِمْ فِي قَصْدِهِمْ وَالْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ وَأَصْحَابُ الْبُيُوجِ يَجِدُّونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَسْكَرِ ابْنِ الرَّنَكِ حَتَّى انْهَزَمَ وَفَرَّ ابْنُ الرَّنَكِ مَهْزُومًا، فَلَمَّا أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنْ بَابِ بَطْلَيْوُسَ وَهُوَ مَزْعُوجٌ، وَفِي شِدَائِدِ الْحَرْبِ مَدْرُوجٌ، كَانَ عَمُودُ بَابِ الْمَدِينَةِ مَمْدُودًا، أَعَدَّهُ اللَّهُ مِنْ جُنْدِهِ مَعْدُودًا، فَانْصَغَطَ اللَّعِينُ ابْنُ الرَّنَكِ فِي الْخُرُوجِ، فَكَسَرَ عَمُودُ الْبَابِ فِخْذَهُ الْيَمْنَى، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَاحْتَمَلَهُ أَصْحَابُهُ، فَاتَّبَعَهُ قَوَادُ الْبُيُوجِ الْمَذْكُورَ وَاسْتَاقَوْهُ أَسِيرًا إِلَيْهِ، فَقَيَّدَهُ فِي الْحَدِيدِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَطْلَقَهُ بِرَغْبَةِ النَّصَارَى لَهُ وَسَرَّحَهُ إِلَى بَلَدِهِ مَهْزُومًا ذَمِيمًا، وَلَمْ يَرْكَبْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ لَعْنَهُ اللَّهُ، وَفَرَّ جِرَانْدُهُ الْجَلِيقِيُّ إِلَى مَوْضِعِهِ حَتَّى مَكَّنَ اللَّهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَفَتَحَ اللَّهُ مَدِينَةَ بَطْلَيْوُسَ، وَوَفَّى الْبُيُوجُ مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَى بَعْدَ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ، وَكَانَ خُرُوجُ النَّصَارَى عَنْهَا فِي شَعْبَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُؤَرَّخِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ. وَانْصَرَفَ الْبُيُوجُ بْنُ أَدْفُونُشَ إِلَى بِلَادِهِ سَالِمًا بِأَجْنَادِهِ مَوْصُوفًا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى بِالْوَفَاءِ وَالْإِنْحِيَاشِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الْعَزِيزِ وَالْوَلَاءِ، وَأَلْقَى اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ الرَّنَكِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَالْفِتْنَةَ الْمُتَّصِلَةَ الشَّنْعَاءَ، وَأَوْرَثَهَا الْإِخْوَةَ مِنْهُمْ وَالْأَبْنَاءَ.

وَكَتَبَ الشَّيْخُ أَبُو حَفْصٍ بَوَصَّفَ هَذَا الْفَتْحَ الْإِلَهِيَّ وَالنَّصْرَ الْمُتَنَاهِيَّ، فَسَرَّ بِذَلِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَشَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا عَلَى لُطْفِهِ وَصُنْعِهِ، فَامْتَدَحَهُ الشُّعْرَاءُ عَلَى ذَلِكَ الصَّنْعِ الْأَجْمَلِ وَاللُّطْفِ الْأَكْمَلِ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْجُرَّائِيُّ مِنْ قَصِيدَةٍ [مِنْ الْكَامِلِ]:

نَظَرْتُ بِكُلِّ سَعَادَةٍ مَقْرُونُ	نَالْتُ بِهِ الدُّنْيَا الْمُنَى وَالْدِّينُ
تَقْدِيمُ مَنْ شَهِدَ الْوُجُودُ بِأَنَّهُ	مَا زَالَ بِالتَّقْدِيمِ فِيهِ قَمِينُ
عَلَّقُ ثَمِينُ زِينَتِ الدُّنْيَا بِهِ	وَأَفَاهُ عِلْقُ الْمُلْكِ وَهُوَ ثَمِينُ
تَغْزَوُ الْمَهَابَةُ عَنْهُ كُلَّ مُعَانِدٍ	وَلَوْ أَنَّهُ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الصَّيْنُ

وَتَشَبُّ حَيْثُ تَوَجَّهْتَ عَزَمَاتُهُ
 إِنْ أَصْبَحَتْ وَهِيَ الْبَرَامِكُ أُمَّةٌ
 مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ
 دَامَتْ لَهُمْ فِي الْفَخْرِ كُلِّ قَبِيلَةٍ
 وَكَفَاهُمْ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ مَفْخَرًا
 مَلِكٌ إِذَا اضْطَرَبَ الزَّمَانُ مَخَافَةً
 أَلْقَى عَلَى أَهْلِ الضَّلَالَةِ كُلِّكَ لَا
 وَجَرَى إِلَى الْأَمَدِ الَّذِي لَمْ يُجِرِهِ
 عُذْرًا أَبَا يَعْقُوبَ إِنْ عَلَاكُمْ
 لَا يَبْلُغُ الْمَشُورُ بَعْضَ مَاثِرٍ
 كَمْ مِدْحَةٍ لَكَ بَعْدَهَا مَذْخُورَةٌ
 لَوْ لَمْ يَسُدْ إِلَّا نَظِيرُكَ لَمْ يَحْزُرْ
 قَدْ كَانَ مَا قَدْ قَلْتَ يُرْقَبُ حِينُهُ
 مَا^(١) زَالَ أَمْرُكُمْ الَّذِي هُوَ عَصْمَةٌ

حَرْبًا كَمَا وَصَفَتْ لَنَا صِفَيْنُ
 ظُلُمًا فَإِنَّ حَسَامَهُ هَارُونُ
 أَبَدًا تَصُولُ ظُبَاتُهَا وَتَصُونُ
 مِنْ شَأْنِهَا أَنْ لَا تَكُونَ تَدِينُ
 مَعْنَى الْوُجُودِ وَسُرُّهَا الْمَكْنُونُ
 لَمْ يُغْنِهِ التَّسْكِينُ وَالتَّأْمِينُ
 فَلَهُمْ أَيْلٌ تَحْتَهُ وَأَنْبِيُنُ
 مَلِكٌ وَلَمْ تَصْعَدْ إِلَيْهِ ظَنُونُ
 قَدْ أَفْنَتِ الْأَمْدَاحَ وَهِيَ فَنُونُ
 صَانَتْ لَكَ الْعَلِيَا وَلَا الْمُوزُونُ
 تَزِنُ الْمَدَائِحَ كُلَّهَا وَتَزِينُ
 فِيهِ الْأَمِينَ مَدَى وَلَا الْمَأْمُونُ
 حَتَّى أَتَى وَلِكُلِّ شَيْءٍ حِينُ
 وَالْعِزُّ لَا يَعْدُوهُ وَالتَّمَكِينُ

وقال أبو عمر ابنُ حَرْبُون^(٢) من قصيدة طويلة^(٣) ثُبَّتْ^(٤) في موضع غير هذا أولها [من الطويل]:

بَسْعَدِكَ أَضْحَى الدِّينُ جَذْلَانِ بِاسْمَا
 أَلَا إِنَّهَا فِيمَا وَعَدْتَ لَأَيَّةُ
 بُرَاهِينُ صِدْقِ مَا تَزَالُ وَلَمْ تَزَلْ

وَبِاسْمِكَ أَمْسَى الشَّرْكُ لِلشَّرْكِ هَادِمَا
 يَدِينُ بِهَا مَنْ كَانَ بِاللَّهِ عَالِمَا
 ثُبَّتْ يَقْظَانَا وَتُوقِظُ نَائِمَا

(١) في ك: «وما»، وبه ينكسر الوزن.

(٢) في النسخ: «أبو بكر بن حربون»، تحريف.

(٣) المن بالإمامة ٤٠٧ فما بعدها، وفيها أن القصيدة لأبي عمر بن حربون.

(٤) في ك: «أثبتت».

ذكرُ حركة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى من إشبيلية إلى قرطبة
بعد قسبة بطليوس بما وصل معه مُتدبًا في معونة السيد

أبي إسحاق ابن الخليفة على جهاد المحاربين

قال الراوي^(١): لَمَّا وَصَلَ أَبُو حَفْصَ إِلَى قُرْطُبَةَ زَادَتْ بِهِ فَلَاحًا وَنَجَاحًا
وَاعْتِبَاطًا وَصَلَاحًا، وَرَوَّعَ اللَّهُ قُلُوبَ الْمُحَارِبِينَ، وَقَدَحَ فِي نَفُوسِهِمْ^(٢) مِنْ زِنَادِ الْغَلْبَةِ
عَلَيْهِمْ قَدَاحًا، وَتَجَلَّى لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هُمُشِكٍ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مِنْ نُورِ الْهُدَى مَا أَسْرَجَ لَهُ
مُصْبَاحًا، وَأَبْصَرَ بِهِ التَّوْحِيدَ ضُرَاحًا، وَوَحَّدَ ابْنُ هُمُشِكٍ الْمَذْكُورَ، وَكَانَتْ قَدْ نَشَأَتْ
الْفِتْنَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِهْرِهِ مُحَمَّدَ بْنَ سَعْدِ بْنِ مُرْدَنْشٍ وَالْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ سِرًّا وَإِعْلَانًا،
وَخَافَهُ ابْنُ هُمُشِكٍ عَلَى نَفْسِهِ، فَانْقَطَعَ مِنْ مُوَاصَلَتِهِ وَزِيَارَتِهِ أَزْمَانًا، وَزَادَهُ رُوعًا وَفَزَعًا
قَتْلُهُ لَوْزِيرِيهِ ابْنِي الْجَذَعِ وَبَنَاهُمَا فِي الْخَرِيطِ بِمَرَأَى مِنْهُ، وَقَتْلُهُ لِابْنِ صَاحِبِ الصَّلَاةِ
الْغَرْنَاطِيِّ^(٣) وَغَيْرِهِ بِالْجُوعِ، وَكَانَتْ ابْنَةُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هُمُشِكٍ زَوْجَتَهُ، فَطَلَّقَهَا ابْنُ
مُردنیش فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ وَطَرَدَهَا إِلَى أَبِيهَا مُهَانَةً، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطَارَحَ ابْنُ هُمُشِكٍ عَلَى الشَّيْخِ
أَبِي حَفْصٍ فِي الطَّاعَةِ وَالتَّوْبَةِ، وَأَنْ يَصْدُقَ مَتَابَهُ بِظُهُورِ النَّصِيحِ مِنْهُ بِتَمَكِينِ الْمُوَحِّدِينَ
مِنْ بِلَادِهِ بِأَوْفَى وَدٍّ وَطَاعَةٍ وَمَحَبَّةٍ، فَوَصَلَ قُرْطُبَةَ فِي رَمَضَانَ، فَقَبِلَ أَحْسَنَ الْقَبُولِ
وَرَحَّبَ بِهِ وَأُنِيلَ كُلَّ الْمَأْمُولِ، وَكَتَبَ إِلَى الْخَلِيفَةِ مُعَلِّمًا بِمَتَابِهِ، فَجَاوَبَهُ بِتَقْرِيبِهِ
وَاسْتِجْلَابِهِ، وَاتَّصَلَتِ الْبِلَادُ الَّتِي كَانَتْ بِيَدِهِ بِبِلَادِ الْمُوَحِّدِينَ، وَأَمِنَتْ مِنَ الْفِتْنَةِ الطَّرِيقُ
وَالرَّفَاقُ، وَارْتَفَعَ فِي تِلْكَ النُّوَاحِي الْمَرْقُ وَالنَّفَاقِ. وَعِنْدَمَا اتَّصَلَ تَوْحِيدُ ابْنِ هُمُشِكٍ
بِمُحَمَّدِ بْنِ مُرْدَنْشٍ أَمِيرِهِ سَقَطَ فِي يَدِهِ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ سَاعِدَهُ قَدْ كُسِرَ مِنْ عَضْدِهِ، فَحَمَلَتْهُ
الْأَنْفَةُ وَالْعَجَلَةُ أَنْ يَأْمُرَ قُودَاهُ وَأَجْنَادَهُ أَنْ يُفَاتِنُوا بِلَادَ ابْنِ هُمُشِكٍ وَيُجَارِبُوهُمْ وَيُضَيِّقُوا
عَلَيْهِمْ، فَامْتَثَلُوا ذَلِكَ، فَدَامَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ كَامِلَةٍ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمْ
الشَّحْنَاءُ عَلَى الْإِسْتِدَامَةِ، وَأَلْقَى اللَّهُ بَيْنَهُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَزَلِ
ابْنُ هُمُشِكٍ يَسْتَغِيثُ بِالْمُوَحِّدِينَ مِنْ عَدُوِّهِ وَيَسْتَنْصِرُ بِهِمْ عَلَيْهِ وَيَسْتَصْرِخُ بِهِمْ إِلَى غَزْوِهِ.

(١) المن بالإمامة ٤١٢ فما بعدها ومنه ينقل.

(٢) في ق: «قلوبهم».

(٣) أبو عبد الله ابن صاحب الصلاة الغرناطي هذا ممن أجاز لأبي محمد عبد الله بن باديس
اليحصبي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ (التكملة لابن الأبار ٩٨/٣).

وفي هذه السنة مدة إقامة أبي حفص بقرطبة: توجه ابنه أبو يحيى والياً على بطليوس، و[اشتغل]^(١) الخليفة بحفر بئر في داخل قصبتها يسير إليها ماء الوادي استعداداً لئلا يخاف من المنازلات، فسار إليها في سنة جملة موفورة من الموحدين والأجناد الأندلسيين واستوطنها، وأنس أهلها وسكنها، وجد في حفر البئر المذكور وجلب إليها الماء، فتحصنت القصبه وقويت بها النفوس آمنة.

وفي مدة إقامته فيها: دارت بينه وبين جرائده النصرائي حروب صبر فيها أبو يحيى واستبد بدفاع اللعين، ودام على جهاده شهوراً إلى أن احتال العليج في خدعة من الحرب صنعها وأوقعها، واستدعى جملة ذميمة من النصاري أهل شنترين، ووصل بهم إلى موضع كمنهم فيه، ومشى هو في جملة المعلومه له، وأغار على جهة بطليوس فركب الحافظ^(٢) أبو يحيى وأصحابه والأجناد معه مسرعين في اتباعه، وفر أمامهم العليج مظهرًا الروع، وطلب النجاة في إسرعه حتى وصل موضع الكمين، فخرج على المسلمين فأسروا جماعة منهم إلى أن قدى أكثرهم بماله. وبعد هذا انصرف عن بطليوس^(٣).

وفي هذه السنة: استدعى أمير المؤمنين أبو يعقوب أخويه السيدين: أبا إبراهيم الوالي بإشبيلية وأبا إسحاق الوالي بقرطبة، واستدعى معهما الشيخ أبا عبد الله بن أبي إبراهيم الوالي بغرناطة مع حافظهم وعمال البلاد ليصلوا إلى حضرة مراکش، فأسرعوا إلى استدعائه وتحركوا من الأندلس في جمادى الأولى من السنة المؤرخة، وأقاموا بالحضرة إلى أول سنة خمس وستين، وانصرف السيّدان المذكوران وصحبتهما أخوهما أبو علي الحسن والياً على سبتة، وأقام الحافظ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم بالحضرة، وبقيت غرناطة تحت حكمه حتى جاز صُحبة السيّد أبي حفص على ما يأتي^(٤).

وفي سنة خمس وستين وخمس مئة، في أول صفر منها: ولّى أمير المؤمنين أخاه أبا علي الحسن بمدينة سبتة وأنظارها وجميع أقطارها وجبال غمارة، فتحرك إليها من

(١) بياض في النسخ.

(٢) سقطت من ق.

(٣) المن بالإمامة ٤١٧-٤١٩.

(٤) المن بالإمامة ٤١٩-٤٢٠.

الحضرة، وانصرف السيّدان الأجلّان معه: أخوه أبو إبراهيم إلى إشبيلية، وأبو إسحاق إلى قرطبة على أوّلها^(١).

وفي هذه السنة: خرج العدو النّصرانيّ القمطُ نوّه من طليطلة بعسكره الذّميم وأغار على رُنْدَة وجبالها وفحص الجزيرة الخضراء وجبالها أيضاً، حتى وصل البحر وقتل المسلمين في تلك الأقطار وأسّرهم فيها واكتسح سائمتهم.

وفيها: حدث زلزلٌ عظيمةٌ عند طلوع الشّمس وعند زوالها في جمادى الأولى في بعض بلاد الأندلس، فكان الرائي يرى الحيطان تضطرب وتميل إلى الأرض ثم ترتفع وترجع إلى حالها بلطف الله تعالى، وتهدمت من ذلك ديارٌ كثيرة وصوامعُ مساجد بمدينة قرطبة وغرناطة وإشبيلية.

وفي هذه السنة في رجب: زاد ضعفُ مدينة بطليوس من عدم القوت، فنزل الروم عليها وقطعوا جميع المرافق الداخلة إليها، فنظر إليها الموحدون الذين كانوا بإشبيلية في مبرة موفورة من الطّعام والآلات والمحلّات لتحمّل إليها، فاجتمع في ذلك نحو خمسة آلاف دابة موفورة بما ذكر، وتقدّم عليها الحافظ أبو يحيى زكريا بن عليّ بعسكر إشبيلية فوصل بالميرة المذكورة والعسكر إلى مقرّبة من بطليوس فخرج عليهم اللّعينُ جراندّه بأهل سنّتين وغيرهم فانهزم المسلمون وقتلوا وأسروا وانتهبت الميرة وذهبت [بكلّيّتها]^(٢)، وذلك في السادس والعشرين من شعبان، وفي هذا اليوم استشهد الحافظ المذكور. ووصل الخبر إلى أبي حفص بقرطبة وإلى الموحدين بإشبيلية، فساءهم ذلك وعرفوا به الحضرة^(٣).

وفي هذه السنة: ألحّ ابن مُردنّيش بالفتنة على بلاد ابن هُمّشك واستكفى عليه بعسكره الشرقيّ وحلفائه النّصارى، فاستغاث ابن هُمّشك بالموحدّين وكثّر صُراخه وشكا حاله وأوجاله، وكتب بذلك الشّيخُ أبو حفص إلى الحضرة مُعيناً لابن هُمّشك بكتابه ومصدّقاً له فيما استغاث به من عدوّه، فاجتمع الرأي أن يتقدّم إليه السيّد أبو

(١) المن بالإمامة ٤٢٠-٤٢١.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المن بالإمامة ٤٢٣.

(٣) المن بالإمامة ٤٢٢-٤٢٣.

حفص من مَرَّاكش بعسكر لغزو ابن مُردنِش وحلفائه النَّصارى الذين كانوا معه
أهلكهم الله تعالى^(١).

ذكرُ حركة السيّد أبي حفص ابن الخليفة عبد المؤمن

لغزو ابن مُردنِش وحصارِه حتى فَتَحَ أَكْثَرَ بِلادِهِ^(٢)

فخرج السيّد المذكورُ من حضرة مَرَّاكش في أوّل ذي القعدة من سنة خمس وستين
وخمس مئة مُسارعًا لنَصْر جزيرة الأندلس، وصَحِبَه في هذه الغزوة أخوه أبو سعيد
وجماعةٌ من أبناء أشياخ الجماعة وأهل خمسين واختَصَّ من الصَّنْف الأندلسيّ أبا
محمد سِدراي بن وزير وأخاه أبا الحَسَن وأشياخًا فرسانًا من الأجناد الساكنين بمَرَّاكش
من الأندلس، انتخبهم واستَصْرَحَهم لمعرفتهم بالحروب في بلادهم ومذاكرتهم في
مشاورتهم، فنَهَضَ السيّد بعساكره وجيوشه^(٣) والسَّعْدُ أَمَامَهُ يَقْدُمُ أَعْلَامَهُ، حتى
أجاز البحرَ ووصلَ إشبيليةَ في آخر عام خمسة وستين، فأراح بها للنظر في الأمور إلى
أن وصلَ الشيخُ أبو حفص من قُرْطُبَة وصَحِبَه إبراهيمُ ابن هُمُشك بأصحابه المتخصّصين
به، واجتمع خيرٌ مجتمَعَ وأحسنَ مرأى ومَسْمَع، وتشاوروا في الرأي أن يتوجّه السيّد
أبو سعيد أولًا إلى مدينة بَطْلَيْوس.

وفي سنة ست وستين وخمس مئة: توجّه السيّد أبو سعيد إلى بَطْلَيْوس لإحياء
رَسْمِهَا بعدَ مَحَاتِهَا، وإخراج النَّصارى عن جَنَابَتِهَا، بعسكر من الموحّدين ومن أهل
الأندلس والعرب، فوصلها في أيمن طالع، وكان من^(٤) الاتفاق الحَسَن أن وافَقَ
وصُولُهُ خروجَ البيوج بن أذفُونَش السُّلَيْطِن بعسكره قاصدًا بَطْلَيْوسَ لِيَسْتَرْجِعَهَا
للمسلمينَ لَمَّا رأى عدوّهُ ابنَ الرَّنك قد قاربَ التغلبَ عليها بإلحاح جرائدُهُ على
أسوارِها، وصَحَّ خروجُهُ عند^(٥) السيّد وأنه قد وصل بعسكره إلى الفَحْص المعروف

(١) المن بالإمامة ٤٢٤.

(٢) المن بالإمامة ٤٢٤ فيما بعدها.

(٣) سقطت من ق.

(٤) سقط من ق.

(٥) في ق: «عن».

بالزَّلَاقَة، على مقرَّبَة بَطْلِيُوس، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ السَّيِّدُ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ وَزِيرٍ وَأَبَا الْعَلَاءِ ابْنَ عَزْرُونَ وَأَشْيَاخَ الْأَجْنَادِ الْعُقَلَاءِ الْأَلْبَاءِ لِلْقَائِمِ وَاسْتَفْهَامِهِ عَنْ خُرُوجِهِ، وَهَلْ (١) هُوَ (٢) بَاقٍ عَلَى الصُّلْحِ الْمَرْبُوطِ مَعَهُ أَمْ لَا؟ فَوَصَّلُوا إِلَيْهِ فَرَحَّبَ بِهِمْ وَقَالَ: إِنَّمَا خَرَجْتُ لِحِمَايَةِ بَطْلِيُوسَ وَإِمْسَاكِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَشَكَرُوهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَرَّضُوا عَلَيْهِ تَجْدِيدَ الصُّلْحِ، فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ حَتَّى كَمُلَ الْغَرَضُ الْمُرَادُ، وَاتَّصَلَ الْعَهْدُ وَالسَّدَادُ، وَانصَرَفَ الْبَيْبُوجُ بِعَسَاكِرِهِ إِلَى بِلَادِهِ، وَكَانَ تَسِيرًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى. وَتَحَرَّكَ السَّيِّدُ مِنْ مَوْضِعِ اجْتِمَاعِهِ بِالْبَيْبُوجِ وَصُلِحَ إِلَى حِصْنِ جَلْمَانِيَّةِ (٣) فَافْتَتَحَهُ عَنُوءٌ وَهَدَمَهُ وَانصَرَفَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ (٤).

ذَكَرُ تَغْلِبِ السَّيِّدِ أَبِي حَفْصِ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ رَحِمَهُ اللَّهُ

عَلَى بِلَادِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ مُرْدَنِشٍ (٥)

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: تَحَرَّكَ السَّيِّدُ أَبُو حَفْصٍ مِنْ إِشْبِيلِيَّةٍ إِلَى ابْنِ مُرْدَنِشٍ، وَذَلِكَ بَعْدَ انصِرَافِ أَخِيهِ أَبِي سَعِيدٍ مِنْ مَدِينَةِ بَطْلِيُوسَ، عَلَى السَّيْرِ الَّذِي صَنَعَ اللَّهُ لَهُ، وَلَمَّا اجْتَمَعَ السَّيِّدُ أَبُو حَفْصٍ مَعَ أَخِيهِ أَعَادُوا نِيَّتَهُمَا عَلَى غَزْوِ عَدُوِّهِمْ ابْنِ مُرْدَنِشٍ، فَتَحَرَّكُوا مِنْ إِشْبِيلِيَّةٍ إِلَى قُرْطَبَةٍ، وَصَحِبَهُمْ ابْنُ هَمْشُكٍ، وَذَلِكَ فِي رَجَبٍ، فَلَمَّا وَصَلُوا قُرْطَبَةَ أَقَامُوا بِهَا أَيَّامًا ثُمَّ رَحَلُوا عَنْهَا، فَأَوَّلُ مَدِينَةٍ نَازَلُوهَا: مَدِينَةُ قَيْجَاطِهِ (٦)، فَافْتَتَحُوهَا بَعْدَ قِتَالٍ وَنِزَالٍ، ثُمَّ أَقْلَعُوا مِنْهَا مُغِيرِينَ عَلَى بَسَائِطِ بِلَادِ ابْنِ مُرْدَنِشٍ فِي طَرِيقِهِمْ مُسْتَصْحِينَ الظَّفَرَ فِي عَدُوِّهِمْ حَتَّى وَصَلُوا مَدِينَةَ مُرْسِيَّةَ فَنَزَلُوهَا وَتَغْلَبُوا عَلَى حِصْنِ الْفَرَجِ الَّذِي كَانَ مُتَنَزَّهَ ابْنِ مُرْدَنِشٍ، وَاسْتَبَاحُوا الرِّيَاضَاتِ وَالْبَسَاتِينَ وَمَا اتَّصَلَ بِهَا (٧) مِنَ الْبَسَائِطِ

(١) سَقَطَتِ الْوَاوُ مِنْ ق.

(٢) سَقَطَتِ مِنْ ق.

(٣) لَهُ ذِكْرٌ فِي الْمَغْرِبِ لِابْنِ سَعِيدٍ ٣٧٨ / ١.

(٤) الْمُنْ بِالْإِمَامَةِ ٤٢٥ - ٤٢٧.

(٥) الْمُنْ بِالْإِمَامَةِ ٤٢٧ فَمَا بَعْدَ.

(٦) الرُّوَضُ الْمُعْطَارُ ٤٨٨.

(٧) سَقَطَتِ مِنْ ق.

والقرى، وابن هَمْشَك يَدُلُّ الموحِّدين على عَوَراتِ عدوِّهم وعدوِّه ويُنيكه في رَوَاحِه
وغدوِّه، وظَهَرَت الغَلْبَةُ على ابن مُردَنيش وعلى عسكرِه بالحِصار، وفَشَا الحَوَرُ في
أَحلافِه الكُفَّار، وكلُّ من استدعى من النصارى أفردوه وأسلموه وأخلفوا وعده،
واستَقَلُّوا رِفْدَه، فلم يَصِلْ إليه منهم إلا نحوُ أربع مئة فارس، فوجَّههم إلى مدينة
لُورَقَة لضَبِطَ قَصَبَتِها مع قائِدِه ابن عيسى، فَضَبَطَها وحِصْنُها، فَلَمَّا طالت هذه النازِلَةُ
ودخل الخُلُلُ في حال ابن مُردَنيش واعتَلَّتْ نَفْسُه بالفِكر والمَرَض، ورأى الناسُ
أنَّ حالَه قد حالت وزالت، قامتِ العامَّةُ من أهل مدينة لورقة بدعوة الموحِّدين،
فاحتَصَنَ مَنْ كان بها من رجال ابن مُردَنيش والِنصارى بقَصَبَتِها ووثقوا بِمَنْعَتِها،
فخاطب أهل لورقة السيِّدَ أبا حفص يُعَلِّمُونَه بقيامِهم بدعوة الموحِّدين ويستصرِخونَه
بنصرِه لهم على عدوِّهم، فأقْلَعَ السيِّدُ عن مُرْسِيَّةٍ قاصِدًا لهم، فاحتَلَّ بمدينة لورقة
ومَلَكْها واستوطنَ أرباضَها وبسائطَها، وبقيت القَصَبَةُ بِمَنْ فيها وعليها القائدُ ابن
عيسى، فكان من قضاء الله أنْ خَرَجَت سَرِيَّةٌ من مَحَلَّةِ الموحِّدين للغزوِ في بسائطِها،
واتَّفَقَ لهم أنْ أَخَذُوا مُحَمَّدًا ابنَ القائدِ ابن عيسى واستاقوه إلى السيِّدِ فَأَمَرَ أنْ يُحْمَلَ
إلى أبيه بِقُرب من القَصَبَةِ عِساه يَتَخَلَّى عن القَصَبَةِ، فامْتَنَعَ من الإجابة إلى ذلك، وطال
الحِصارُ على القَصَبَةِ حتى نَفَدَ لهم القُوت وتَغَلَّبوا على ابن عيسى بالقول والكلام
حتى أذعنَ لهم في رأيهم، فنَزَلَ ابنُ عيسى المذكورُ عن القَصَبَةِ مع النصارى وأصحابِه
وأخْلَوْها، ودخلَها الموحِّدون، ودَفَعَ الابنُ إلى أبيه وَرَجَعَا إلى ابن مُردَنيش بِمُرْسِيَّة،
وانصَرَفَ الرومُ إلى بلادِهِم طالِبِينَ النجاةَ بأنفسِهِم، وانصَرَفَ أبو حفص والموحِّدون
بِمَحَلَّتِهِم لحِصار مُرْسِيَّة واستَوَلَوْا على ما جاورَها من البلاد.

ولمَّا انصَرَفَ السيِّدُ المذكورُ من فتح لورقة إلى حِصار مُرْسِيَّة، طاع له أهل (١)
حِصْنِ أَلَش (٢)، ووصلوا إليه، ثم وصل أهلُ الحصون المجاورين لهم، ثم افْتَتَحَتْ
مدينة بَسْطَة، ودخلت في طاعة الموحِّدين وأَمِنَ أهلُها، واتَّصل عند أهل الشرق هذا
الفتح وهذا الأمانُ والصَّفح، فبادروا بالطاعة والدخول في حِزب الجماعة. ولم يَزَلْ

(١) في م: «جهل»، ولا معنى لها.

(٢) Elche وينظر عنه الروض المعطار ٣٠، وفي المن بالإمامة: أَلَج بالجيم.

ابن مُردنِش في حصارٍ في عُقر داره، ونكباتٍ تترادفُ عليه من انقلابٍ إخوانه وأصهاره، وتحوّلهم عن طاعته وهو مكمودٌ مفنود، قد أسلمه القريبُ والبعيد، وظهر له من أخيه يوسفَ التقصير، وتحقق منه الانحرافُ والميلُ للموحدّين، فزادت كبده أَلَمًا، واتصلت نفسه سَقَمًا، فلازمته العلةُ المُزمنة ومنها كانت مَنيته.

وقام بالمريّة محمد بن مُردنِش المعروفُ بصاحبِ البسيط ابنُ عمِّ صاحبِ مُرسيةٍ وصهره على أخته بدعوةِ الموحدّين، وأعانه على قيامه محمد بن هلال^(١) صاحبُه، وتقبّضا على الوالي بها من قبلِ صاحبِ مُرسيةٍ، وخاطبوا بذلك السيّد أبا حفص، فوجّه إليهم عسكريًا من الموحدّين مُعينًا لهم، واتصل الخبرُ بابنِ مُردنِش بِمُرسيةٍ، فأمرَ بقتلِ أخته وقتلِ بنيه منها، وأمرَ الموكلَ بعذابِ الناس أن يَحْمِلَهُم إلى البحيرة، وكانت متصلةً بالبحر، فأدخلهم في قاربٍ منها ودخلَ معهم فيه وغرقهم في البحيرة على أشنع حالٍ وأقبح مقال، واختلَّ ذهنُ ابنِ مُردنِش في إثرِ ذلك، وقُلَّ عَوْنُهُ من الله ومن الناس هنالك، وعاد صُبْحُهُ كالليلِ الحالك، وفرغَ من إذايته جميعُ قرايته، وسائرُ أهله وشيعته.

وعند اتصالِ هذا الفتح والنَّجح واليُمن الشامل، والجهاد المتواصل، جاز الخليفةُ أبو يعقوبَ إلى جزيرة الأندلس في السابع والعشرينَ لرمضانَ من سنة ستٍّ وستينَ المؤرّخة، ووصلَ إشبيليةَ في اليوم الثاني عشرَ لشوّال.

اختصارُ الخبرِ عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوبَ بن عبد المؤمن

من حضرة مَرَّاكُش وجوّاره إلى الأندلس^(٢)

لَمَّا تقدّم أخوه أبو حفص بالعسكر [المؤيّد]^(٣) إلى الأندلس، كان هو مريضًا بمَرَّاكُش، وكان معَ مرضه وضعفه ونيتُه في الجهاد، والنظر في مصالح العباد، فاستدعى العربَ من إفريقية، وقَدّم لهذه الغزوة الحافلة الصّدقات وفعلَ الحِيرات، ولم يزل ينظر في

(١) له ذكر في الحلة السيرة ٢/ ٢٦٨.

(٢) المن بالإمامة ٤٣٤ فما بعدها.

(٣) بياض في النسخ، وما أثبتناه من المن بالإمامة ٤٣٤.

الغزوة التي وَعَدَ بها الموحِّدين معَ شِدَّةِ مَرَضِهِ وطُولِهِ، فَإِنَّ مَرَضَهُ كانَ منَ أوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ، وَ[اسْتَقْلَلَ وَ] ^(١) خَرَجَ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فِي السَّادِسِ عَشَرَ لَرَبِيعِ الأوَّلِ منَ عامِ سِتَّةٍ وَسِتِّينَ، فَكَانَتْ عِلَّتُهُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا وَخَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، لَكِنَّهُ كانَ يَدْخُلُ إِلَيْهِ وَزِيرُهُ أَبُو العُلَى إِدْرِيسُ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ جَامِعٍ يُعَلِّمُهُ بِالْمُخَاطَبَاتِ الوَاصِلَةِ، وَالأَخْبَارِ المُسَلِّيَةِ السَّارَةِ المُتْجَمِلَةِ، وَإِذَا وَصَلَتْ مَسَرَّةٌ [شَرَحَ لَهُ مَا اتَّصَلَ] ^(٢) بِجَمَالِهِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ يَقَعُ مِنْهُ السَّكُوتُ عَلَيْهِ، حَتَّى وَصَلَتْ مُخَاطَبَةٌ مِنَ السَّيِّدِ أَبِي حَفْصٍ أَخِيهِ فِي مَعْنَى الغَزْوِ فَعَرَفَهُ بِهَا وَأَمَرَهُ بِالْجَوَابِ عَلَيْهَا وَاسْتَدْعَاءِ العَرَبِ مِنَ إِفْرِيقِيَّةٍ، وَخَاطَبَهُمْ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ مِنْ قَوْلِ ابْنِ طُفَيْلٍ، وَهِيَ ^(٣) [مِنَ الطَّوِيلِ]:

أَقِيمُوا صُدُورَ الْخَيْلِ نَحْوَ الْمَغَارِبِ	لِغَزْوِ الْأَعَادِي وَاقْتِنَاءِ الرِّغَائِبِ
وَأَذْكُوا الْمَذَاكِي الْغَادِيَاتِ عَلَى الْعِدَى	وَقَدْ عَرَضْتَ لِلْحَرْبِ جُرْدُ السِّلاهِبِ
فَلَا تُقْتَنَى الْأُمَالُ إِلَّا مِنَ الْقَنَاءِ	وَلَا تُكْتَبُ الْعُلْيَا بِغَيْرِ الْكِتَائِبِ
وَلَا يَبْلُغُ الْغَايَاتِ إِلَّا مَصْمُومٌ	عَلَى الْجَدِّ رَكَّابٌ ظُهُورَ الْمَصَاعِبِ
يَرَى غَمْرَةَ الْهَيْجَاءِ أَعَذَبَ مَشْرِبٍ	وَإِنْ أَعَرَضْتَ زُرْقًا جِهَامُ الْمَشَارِبِ
وَمَا الْفَخْرُ إِلَّا مَكْسَبًا مِنْ حُسَامِهِ	وَيُعْرِضُ عِزًّا عَنْ جَمِيعِ الْمَكَاسِبِ
أَلَا فَابْعَثُوهَا هَمَّةً عَرَبِيَّةً	تُحَفُّ [بِأَطْرَافِ الْقَنَاءِ] ^(٤) وَالْقَوَاضِبِ
أَفْرَسَانِ قَيْسٍ مِنْ هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ	وَمَا جَمَعَتْ مِنْ طَاعِنٍ وَمُضَارِبِ
لَكُمْ قَبَّةٌ لِلْمَجْدِ شُدُّوا عِمَادَهَا	بِطَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
دَعُونَاكُمْ نَبْغِي خِلَاصَ جَمِيعِكُمْ	دَعَاءَ بَرِيٍّ مِنْ جَمِيعِ الشَّوَاغِبِ
نَرِيدُ لَكُمْ مَا نَبْغِي لِنَفُوسِنَا	وَنُؤَثِّرُكُمْ زُلْفَى بِأَعْلَى الْمَرَاتِبِ

(١) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المتن بالإمامة ٤٣٤.

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ، وهو مستفاد من المتن بالإمامة ٤٣٦.

(٣) القصيدة بتمامها في المتن بالإمامة ٤٣٧-٤٤١ ومنه ينقل المؤلف دائمًا.

(٤) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ مستفاد من المتن بالإمامة.

فلا تزهدوا في نَيْلِ حَظِّكُمْ الذي
 بكم نُصِرَ الإسلامُ بدءاً فنَصْرُهُ
 فقوموا بما قامت أوائلُكم به
 ومن ذا الذي يَسْمُو لِيُبْلَغَ شَأْوَكُمْ
 نَصْحَنَاكُمْ والنُّصْحُ في الدِّينِ واجبٌ
 وأنتم على التخصيص أجدر من بنى
 فإنكم قيسٌ وفرسانُ ربنا
 خذوا حذرَكُمْ فالأمرُ جدٌّ وإنما
 وقد فاز بالتقديم منكم معاشرُ
 تحثُّ بهم نحوَ البدارِ إلى العدى
 فصاروا إلى الداعي سراعاً كأثمهم
 فخصُّوا من التكريم والبرِّ بالذي
 فنالوا محلَّ السَّبْقِ فانفَسَحَتْ [لهم
 وقد شاهدوا من حُرمة الأمر ما قضى
 وقد كان من أقوالكم ما علمتم
 وليس خطيبُ الصَّدق من قال فالهدى
 وما خُلِقَ الأعرابُ إخلافُ موعِدٍ

لكم فيه فوزٌ من جميع المطالبِ
 عليكم وهذا عَوْدُهُ جدٌّ واجبٌ^(١)
 ولا تُغفلوا إحياءَ تلك المناقبِ
 إذا كنتم فوقَ النُّجومِ الثواقِبِ
 بما لكم فيه صلاحُ العواقِبِ
 بذروته بيتاً رفيعَ الذوائِبِ
 على الأرض من قيسٍ بغيرِ مُغالبِ
 يكونُ بقدرِ الجَدِّ قدرُ المناصبِ
 بما قدّموه من جميع المذاهبِ
 عِتَاقُ جوادٍ^(٢) أو عِتَاقُ نجائبِ
 قدامُ [تلقَى الفوزَ من]^(٣) رَمي ضاربِ
 يكونُ جديراً بالوليِّ المُصَاقِبِ
 رياضُ^(٤) [الأمانِ سائحاتِ المراتبِ
 لهم بأمانٍ من جميع النوائِبِ
 فإن كان [فعلٌ]^(٥) فالرجاء غيرُ خائبِ
 ولكن فعلَ الحرِّ أصدقُ خاطِبِ
 ولكن صدقَ الوعدِ خُلُقُ الأعرابِ

(١) في هذا البيت إقواء.

(٢) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «جواد»، وهو أجود.

(٣) بياض في النسخ مستدرَك من المنّ بالإمامة.

(٤) بياض في النسخ مستفاد من المنّ بالإمامة.

(٥) بياض في النسخ مستفاد من المنّ بالإمامة.

سِيَعْلُمُ مَنْ أَوْقَى وَمَنْ خَانَ عَهْدَهُ
وَمَنْ كَانَ مِنْ آتِ إِلَيْنَا وَذَاهِبٍ
وَتَظْهَرُ أَحْوَالُ يَرُوقُ سَمَاعُهَا
فِيرَغَبُ فِي أَمْثَالِهَا كُلُّ رَاغِبٍ
وَأَنَّ الْعَرَبَ تَأْخَرُوا قَلِيلًا، فَاخْطَبَهُمْ بِقَصِيدَةٍ مِنْ قَوْلِ ابْنِ عِيَّاشٍ يَسْتَعْجِلُهُمْ،
وهي ^(١) [من الطويل]:

أَقِيمُوا إِلَى الْعِلْيَاءِ عَوَجَ الرِّوَا حِلْ
وَقَوْمُوا النَّصْرَ السِّدِينَ قِيَمَةَ ثَائِرٍ
وَأَسْرُوا بَنِي قَيْسٍ إِلَى تَيْلٍ غَايَةٍ
تَعَالَوْا فَقَدْ شُدَّتْ إِلَى الْغَزْوِ نِيَّةٌ
هِيَ الْغَزْوَةُ الْغَرَاءُ وَالْمَوْعِدُ الَّذِي
فَطِيرُوا إِلَيْهَا يَا هَلَالَ بَنَ عَامِرٍ
وَلَا تُخْدَعُوا مِنْ حَظِّكُمْ بِإِجَابَةٍ
فَمَا هُمْنَا إِلَّا صَلاَحُ جَمِيعِكُمْ
وَتَسْوِغُكُمْ نَعْمَى تَرِفُ ظِلَالُهَا
فَلَا تَتَوَانَوْا فَالْبِدَارُ غَنِيمَةٌ
وَقُودُوا إِلَى الْهِجَاءِ جُرَدَ الصَّوَاعِلِ ^(٢)
وُشِدُّوا عَلَى الْأَعْدَاءِ شِدَّةَ صَائِلٍ
مَنْ الْمَجْدُ تُجْنَى عِنْدَ بَرْدِ الْأَصَائِلِ
عَوَاقِبُهَا مَقْصُورَةٌ بِالْأَوَائِلِ
تَنْجَزُ فِي أَفْقِ الْهُدَى بِدَلَائِلِ
ثِقَالًا خِفَافًا بَيْنَ خَافٍ وَنَاعِلِ
تُبَوِّئُكُمْ فِي الْمَجْدِ أَسْنَى الْمَنَازِلِ
وَتَسْرِحُكُمْ فِي ظِلِّ أَخْضَرَ هَاطِلِ
عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلِ
وَلِلْمُدْلِجِ السَّارِيِّ صَفَاءُ الْمَنَاهِلِ

ولمَّا ^(٣) وَصَلَتْ إِلَى الْعَرَبِ هَاتَانِ الْقَصِيدَتَانِ وَأَوْضَحُوا قِرَاءَتَهُمَا وَتَبَيَّنَتْ لَهُمْ
مَعَانِيَهُمَا وَفَصَاحَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا مِنَ التَّحْرِيزِ عَلَى جِهَادِ الْكُفَّارِ، أَجَابُوا إِلَى الطَّاعَةِ
بِأَجَلِ الْبِدَارِ، وَوَصَلُوا بِجَمْعِهِمْ إِلَى السَّيِّدِ الْأَسْنَى أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ
بِجَايَةِ فَتَحْرَكُ مَعَهُمْ إِلَى مَرَّائِشٍ، وَوَصَلَ أَيْضًا الْعُمَالُ وَالْأُمَنَاءُ: أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْوَاحِدِ ^(٤)

(١) القصيدة في المن بالإمامة ٤٤١-٤٤٣، وهي في المعجب ٢٩٤-٢٩٥ منسوبة إلى الخليفة نفسه.

(٢) هكذا في النسخ، والجرد الصواعل: السيوف المنجردة الطويلة، ووقعت الكلمة في المعجب والمن بالإمامة: «الصواهل»، وما هنا أحسن.

(٣) ينقل المؤلف من المن بالإمامة ٤٤٣ فما بعدها.

(٤) في المن بالإمامة: «عبد الوهاب».

صاحبُ تونس وأنظارها، وأبو زكريّا يحيى الهتاتيان، ومعهما النعمان وغيره، هؤلاء العرب والخليل والأموال، ولما وصلوا تلمسان صحبهم السيّد أبو عمران موسى ابنُ الخليفة أيضًا بما عنده من العساكر والأموال والعَمال، وكان عددُ الخيل الواصلة من إفريقية أربعة آلاف فرس ومئة وخمسون حملاً من المال الصامت، وكان الذي وصل من تلمسان ونظرها ألف فرس وخمسون حملاً من المال الصامت. وبلغ الخبرُ السارُّ بوصول السيدين والعرب، وكان [أمير المؤمنين]^(١) أبو يعقوب قد استقلّ فتمكن سروره واستقلاله، وخرج إلى المسجد الجامع يوم الجمعة الثامن عشر لربيع الآخر، وخطب أبو محمد المالقِي الخطبة المعلومّة فاستبشّر الناسُ وشكروا الله على [شفائه]^(٢)، وبعد ذلك بيومين دخل عليه أشياخُ الموحّدين وطلبةُ الحضرة وسلّموا عليه ودعوا له وهنّوه على عافيته، وخطب الفقيه القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف^(٣) خطبةً بليغةً في معنى الشكر لله والدعاء [بالنصر والتأييد لأمير المؤمنين]^(٤)، وتلاه الفقيه أبو محمد المالقِي بمثل ذلك، ثم أمر بعد ذلك بالصدقة والحنان، والإنعام والإحسان، وأمر رحمه الله لكل واحد من الخُدّام بما أمّله من الإنعام، فجزاه الله من خليفة خيراً.

ونفد الأمرُ بقاء السيدين والعرب الوافدين من إفريقية بالتبريز الكامل ضحوة يوم السبت الثاني لشهر ربيع الآخر من السنة، فخرج أمير المؤمنين للقائهم وخرجت معه الجيوشُ والعساكر في زينتهم، وفي ساقته على قُرْب أخوه أبو عبد الله المخلوع، وإلى جانب أبي عبد الله المذكور سائر الإخوة الصغار، وأمام العسكرية ستة عشر علماً كباراً من البنود المذهّبة. فلما وصل الفحص العريض فوق باب الشريعة والطبول قاصفة والجيوش متكاثفة أمر بضرب قُبّة ونزل بها مع إخوته وبنيه، ونزلت العساكرُ الواصلة من العرب مع أهل إفريقية والسيدين المذكورين أشار إليهم أن تحمِل العساكرُ الوافدة والبارزة بعضها على بعض جرّياً ولعباً وفرحاً وطرباً، ورأى النظارة فيهم عجباً،

(١) بياض في النسخ.

(٢) بياض في النسخ.

(٣) ترجمته في التكملة الأبارية (٧٦٢)، وتاريخ الإسلام ٥٠٩/١٢.

(٤) بياض في النسخ.

وأمر الوافدين بالنزول والسلام، وتقدّم الأخوان السيّدان أبو زكريّا وأبو عمران ثم أشياخ الموحدّين ثم أشياخ العرب، ثم أمرهم بالانصراف إلى المدينة والعرب إلى مضرب محلّتهم.

ولما كان اليوم الثاني من البروز المذكور بايعة أشياخ العرب وعامتهم، وأخذ العهد عليهم، وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى البحيرة [لمعنى إطعامهم] (١) والترحيب بالمأمهم بعد صلاة يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الآخر من السنة، فأطعم العرب وغيرهم مدة خمسة عشر يومًا يدخل كلّ يوم في البحيرة أكثر من ثلاثة آلاف رجل وقد صنع ما تقدّمت به العادة، وهو نهر من رُبّ ممزوج بالماء، كلما أكلت طائفة سلّمت على الخليفة ونهضت إلى ساقية الرُبّ تشرب وتطرب، ورأى الناس في هذا الإطعام ما لم يُر قطّ من الإكرام والاهتمام.

ولما كان في آخر الأيام المذكورة حدث بين صبيان الموحدّين وبين أتباع العرب الوافدين نزاعٌ ودفاع بهوشة وقعت بين الفريقين أدّت إلى اختطاف ثياب الناس في الطريق من كلّ فريق، فمات فيها بعض العبيد، فعُتِب العرب بسبب جرأتهم على سوء الأدب، ثم إنهم تطارحوا على العفو من قبيح ما جنّوا أتباعهم وعبيدهم وأشياعهم واعتذروا من فعل من لا خلاق له، فقبل منهم عذرهم وأمر بجري إطعامهم والتماذي على إكرامهم مدة أيام، ثم أمر بتمييزهم وتمييز الموحدّين وغيرهم.

ولما كان يوم الأحد الثامن من جمادى الأولى أمر بتمييز العرب الوافدين ومن وصل معهم وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره بدار الحَجَر بداخل حضرته، وأمروا أن يدخلوا كلّ يوم بعدد معلوم من القبيل المأمور به، وكان الذي ابتدأ أول يوم قبيلة زغبة، فتمادى التمييز خمسة عشر يومًا، ولما كان غرة جمادى الآخرة ميّز الموحدّون على عدد قبائلهم وتسمية منازلهم وتمادى تمييزهم خمسة عشر يومًا أيضًا، ثم أمر بإخراج البركة للعرب الوافدين ولجميع عساكره الموحدّين.

وكان خروجه من مراكش يوم السبت الرابع من شهر رجب الفرد من سنة ستّ وستين على باب دكالة في أحسن هيئة وتعبئة وقد قدّم أمامه مصحف عثمان بن

(١) بياض في النسخ.

عفان رضي الله عنه على جمل [مرتفع] ^(١) عليه قبة حمراء لتصونه وهو منظم بالجواهر والياقوت الأحمر والأصفر، فسار على أحسن هيئة وتعبئة والعساكر وراءه قد ملأوا الأرض بالطول والعرض، حتى وصل رباط الفتح فميز بها العساكر والجيش، فاجتمع في عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس، وفي عسكر العرب عشرة آلاف فارس دون الموطوعة والناس، وكان أكثر الجيش مع السيد الوزير أبي حفص بالأندلس محاصراً ابن مُردنيش. واتصل سير أمير المؤمنين حتى وصل قصر مضمودة، وابتدأت العساكر بالإجازة في أول شهر رمضان، وأجاز البحر هو مع خاصته في السابع والعشرين منه، فتلقاه أشياخ إشبيلية وأهل الأندلس بجزيرة طريف.

ثم تحرك إلى إشبيلية فوصلها يوم الجمعة الثاني عشر من شوال بالتبريز الحفيل، وخرج الناس إليه من الإسراع بما دل على حسن طاعتهم أدل دليل، فأقام بها عشرة أيام، ثم رحل إلى قرطبة فوصلها في غرة ذي القعدة ووجه عسكراً منها إلى طليطلة، وقدم عليه ابن يفرجين ^(٢) وأشياخا من الموحدين، وانصرف إلى قرطبة فعيد بها عيد الأضحى، فخرج يوم العيد على عادته إلى الصلاة وصلى به الخطيب أبو محمد المالقي، وانصرف إلى دار الإمارة، وجلس في اليوم الثاني في مجلس قصره للسلام عليه والتهنئة إليه، وأدخل الوزير أبو العلى ابن جامع من تقدمت عادته بالدخول من أشياخ الموحدين الكبراء وطلبة الحضر والقضاة والفقهاء والولاة ^(٣) والأولياء، ودخل معهم الشعراء والأدباء بما صاغوه من أشعارهم في المديح والتهنئة، فقام أبو محمد عبد الله بن محمد الشلبي فأنشد ^(٤) [من الكامل]:

شرف الخلافة أن ملكت زمامها وغدوت من عقب الإمام أمامها
طبع الإله لها حساماً صارماً يحمي جوانبها فكنت حسامها

(١) بياض في النسخ.

(٢) هكذا في النسخ، بآاء آخر الحروف في أوله، وفي المن بالإمامة ٤٨٤: «تفريجين»، وهو أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن تفريجين.

(٣) لم يبق من هذه اللفظة إلا الألف واللام والواو من أولها والتاء المربوطة من آخرها.

(٤) القصيدة في المن بالإمامة ٤٩١-٤٩٦، وما ذكره المؤلف هو قسم منها.

ورأت عُداةُ الله أن حِمَامَها
فعلى رماحك أن تشقَّ صدورَها
وعلى جيوشك أن تدوِّخَ أرضَها
وعلى الخلافة أن تلوذَ بسيدِّ
قِسْطاس عدل لا يميلُ فإن رأى
يَظفي الحروبَ إذا توهَّجَ جمرُها
وإذا أسودَّ الحرب هاجَ غرامُها
ما البأسُ إلا ما تَضَمَّنَ سيفُها
ما السعدُ إلا ما تنالُ وفودُها
فاهناً أميرَ المؤمنين بدعوةٍ
وتكفَّلَ الرحمنُ نصرةَ مُلكِكُم
وأقام الخليفةُ أبو يعقوبَ [بقرطبةَ إلى آخر ذي الحجة من السنة] ^(٥)، وانصرف
إلى إشبيلية.

ولمَّا دَخَلَ إشبيليةَ على الهيئة المعلومة [من السرور والتبريز الذي] ^(٦) لم يرَ الناسُ
مثله بالأندلس في الحديث والقديم، امتدحه الشعراءُ بما جَزَلَ لهم العطاء، فمنهم:
أبو العباس بن سيد، والجراوي، وغيرُهما، فقال أبو العباس الجراويُّ من قصيدة
طويلة يمدحه فيها ويذكر ابنَ مُردنيسَ [من الوافر]:

حلَّلتَ من العلى أسمى ذُرَاهَا وجارَيْتَ النجومَ إلى مَدَاهَا

(١) في ك: «عرصات» محرّفة.

(٢) سقط هذا البيت برمته من ق.

(٣) في المنّ بالإمامة: «خُدَامُها» وما أثبتناه من النسخ وهو الأجود، والطومة: الميتة.

(٤) بياض في النسخ.

(٥) بياض في النسخ.

(٦) بياض في النسخ.

وَوَالَيْتَ السَّمَاحَ فَقَدْ تَنَاهَتْ
 وَجُودُكَ نِعْمَةٌ لِلَّهِ عَمَّتْ
 أَرَى ذَاكَ الزَّمَانَ وَشَاءَ إِلَّا
 وَصَلْتَ وَصَلْتَ فَلَا مَوَاهُ تُجْرِي
 وَعُذْرُ الشَّمْسِ لَوْ حَسَدَتْكَ بَادٍ
 تَنَالُ الْمَارِقِينَ بِكُلِّ أَرْضٍ
 لَقَدْ أَخْزَى الزَّمَانُ عَلَى النَّصَارَى
 وَأَنْصَفَ بَعْضَهَا الْإِسْلَامُ مِنْهَا
 خُطُوبٌ أَذْهَلَتْ عَلَى ابْنِ سَعْدٍ
 وَقَدْ كَانَتْ تُشَدُّ بِهَا قِوَاهُ
 يَرُدُّدُ آهَ مَنْ أَسْفَى وَحُزْنَ
 وَهَلْ يَبْقَى وَقَدْ فَغَرْتَ إِلَيْهِ
 لَقَدْ وَلَّى عَنِ الْخَيْرِ اخْتِيَارًا
 وَآثَرَ مَعْشَرًا ضَلُّوا سَبِيلًا

أَمَانٍ لِلْعُفَاةِ وَمَا تَنَاهَا
 وَجُودُكَ نِعْمَةٌ أُخْرَى سَوَاهَا
 تُقَارَنَ فِي الْأُمُورِ وَلَا تُضَاهَى
 وَغُلِبَ الْأَسَدُ تُحَذَّرُ فِي شَرَاهَا
 لِأَنَّ سَنَّاكَ أَشْهَرُ مِنْ سَنَاهَا
 وَلَا طَارَتْ وَلَا نَقَلَتْ خُطَاهَا
 بِوِطْءٍ مُؤَيَّدٍ صَدَعَتْ صَفَاهَا
 وَأَدْرَكَ فِي الْعُقُوبَةِ مَتْنَاهَا
 وَذَادَتْ عَنْ لَوْاحِظِهِ كَرَاهَا
 فَمَا لَعَبَتْ قِوَاهُ وَلَا قِوَاهَا
 وَمَا تُنْجِي مِنَ الْعَمَرَاتِ آهَا
 مَنِيَّتُهُ الْمَرِيحَةُ مِنْهُ فَاهَا
 وَوَالِيَ السَّلَاتِ وَالْعُزَى سَفَاهَا
 فَمَا عَرَفُوا النَّبِيَّ وَلَا الْإِلَهَا

وقال أيضًا من قصيدة أولها [من الكامل]:

ضَرَبْتَ عَلَيْكَ لَوَاءَهَا الْعِلْيَاءُ
 وَقَضَى الَّذِي أَعْطَاكَ سَعْدًا مَقْبِلًا
 مَا شَكَ ذُو النِّظَرِ الصَّحِيحَ وَلَا امْتَرَى
 الْأَمْرُ أَمْرُ اللَّهِ لَيْسَ يَضُرُّهُ
 وَالْحَقُّ أَبْلَجُ وَالْمُعَانَدُ عَيْنُهُ

وَتَحَيَّرْتَ فِي وَصْفِكَ الشُّعْرَاءُ^(١)
 إِلَّا يَفَارِقُ حَاسِدِيكَ شِقَاءُ
 أَنَّ الْوَرَى أَرْضٌ وَأَنْتَ سَمَاءُ
 مَا حَاوَلْتَ مِنْ كَيْدِهِ الْأَعْدَاءُ
 عَمِيَاءُ عَنْهُ وَأَذُنُّهُ صَمَاءُ

(١) سقط هذا البيت من ك.

لو كانت الجوزاء من أعدائه
سأل إذا ركَد الدُّجى وتحيرت
يَهدي وَيَهدي منعماً ومعلماً
أوفى بما ترك النبي محمد
وجلى الحقائق للورى
أولِيَّ عهدِ المؤمنين وَمَن به
العيدُ أولى أن أهنيه بكم
أنتم سنا الدنيا فلو لا أنتم
ما فارقت آفاقها الظلماء

وعندما احتل أمير المؤمنين بإشبيلية عزّل ابن المعلم عاملها وأمر بمحاسناته والوقوف على عمله، وقدّم على عملها ابن جلداسن.

وفي سنة سبع وستين وخمس مئة: وصل السيّد أبو حفص من غزاته المذكورة إلى إشبيلية منصوراً على أعدائه، واجتمع بالخليفة بها على سرور كامل وظهور حافل وبروز لم يُعهد في الأزمان الأوائل، وذلك في شهر محرم من هذه السنة^(٢).

وفي هذه السنة: كملت القنطرة بإشبيلية، فظهر له فيها من الأجر الجزيل والآخر الجميل ما لم يتقدّم مثله قبله لأمير من الأمراء الخلائف ولا لملك من أهل الطوائف^(٣).

وفي هذه السنة: أمر ببناء قصوره المعروفة بالبحيرة خارج باب جهور من إشبيلية، وكان قد وصل مع السيّد أبي حفص أعيان وفُرسان راغبين في التوبة والبيعة، فالتزموها على أتم حقوقها، وأمر لهم بظواهر بتحرير أموالهم وتقرير آمالهم، فتسامع أهل الشرق بها فعمل معهم فجاءوا عند ذلك أفواجا، أفراداً وأزواجاً، حتى انفرد صاحبهم ابن سعد، وتمادى به فكره إلى القبر واللحد^(٤).

(١) بياض في النسخ.

(٢) المن بالإمامة ٤٩٦.

(٣) المن بالإمامة ٤٩٦.

(٤) المن بالإمامة ٤٩٨ فيما بعدها.

ذكر العلة التي لازمت ابن مُردنِش إلى أن توفي^(١)

لما طال الحصارُ على محمد بن سعد بن مُردنِش وقَلَّ من أصحابه عونه، اختلَّ ذهنه، وأوقع بوزيره ابني الجذع وفيّاهما وبناهما في حائط بموضع يراهما حتى ماتا جوعاً، وكذلك فعَلَ بابين صاحب الصلاة الغرناطيّ: عدَّبه وجعلَه في بُرج دون طعام ولا ماء حتى أكلَ ثيابه التي كانت عليه، فلاجل ذلك أفرده أخوه وأصهاره ومن ظنَّ أنهم أنصاره. وكان أخوه أبو الحجاج بادر إلى الطاعة والدخول في حزب الجماعة، فلما تحقَّق محمد طاعة أخيه زاد عليه الذبول، وفسد عقله بالذهول، فاشتدَّت عِلَّتُه وحضرت منيته، فتوفي في رجب من السنة، فانقرضت أيامه وبادرَ إلى الطاعة قُوَّاده، وخاطَبَ ابنُه هلالٌ مُبادراً بالطاعة والدخول مع الجماعة، فقَبِلَ أحسنَ قَبول وأخذ في الحركة والوصول، ونهض أبو حفص إلى مُرسيّة لثقفها وتأنيس أهلها عند طاعة هلال بن مُردنِش صاحبها.

ذكر طاعة هلال بن مُردنِش بعد موت أبيه

ووصوله إلى حضرة الخليفة أبي يعقوب بإشبيلية^(٢)

وذلك أنه لما مات محمد بن سعد بن مُردنِش بادرَ ابنُه هلالٌ بالوصول إلى الخليفة بعد استقرار أبي حفص بمُرسية، وكان وُصُوله بجميع إخوته وأصحاب أبيه من قُوَّاده وكُبراء أجناده عَقِبَ شعبان من السنة، فخرج إليه السيّد أبو زكريّا وأخوه أبو إبراهيم أخوا الخليفة مع جماعة من الموحّدين، ودخل في صُحبَتهم إلى مجلس الخليفة قر [ب صلاة المغرب]^(٣) من يوم وُصُوله، فطَلَعَ في الحين هلالٌ رمضان فسَلَّمَ على الخليفة وبايَعَه فقال [أبو موسى عيسى بن عمران]^(٤): يا سيّدنا، طَلَعَ علينا في هذه الليلة هلالان: هلالٌ شهر رمضان وهلالٌ هذا، فتبسّم لذلك الخليفة، وانصرف هلالٌ مع أصحابه فأنزل في قصر ابن عباد وأنزل أصحابه في الدار المتصلة [به]^(٥)

(١) المن بالإمامة ٥٠٥ فما بعدها.

(٢) المن بالإمامة ٥٠٧ فما بعدها.

(٣) بياض في النسخ.

(٤) بياض في النسخ.

(٥) بياض في النسخ.

وقد أعدت لهم الفُرش والمطاعم والمشارب، وأفهموا أنهم الأقارب والأصحاب، ورَحَّبَت بهم المملكة والدولة.

وفي هذه السنة: أَمَرَ أبو يعقوب الخليفةُ بابتداءِ بناء الجامع بإشبيلية، وكان يتطلَّع على بنائه بنفسه، فكانت مدةُ بنائه ثلاثة أعوامٍ آخرها عامٌ واحد وسبعين، وأما بناء صومعة الجامع، فلا صومعةٌ تعدُّها في مساجد الأندلس تَظهر للعين على مرحلة من إشبيلية، أَمَرَ ببناؤها هذا الخليفةُ في عام ثمانين، وكان تمامها على يد ابنه المنصور على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى^(١).

ذكرُ غزوة الخليفة أبي يعقوب إلى مدينة وبدة^(٢)

وهي الأولى من غزواته وما كان فيها من الأحداث

كان خروجه من إشبيلية في الحادي عشر من شوال من سنة سبع وستين، ووصل إلى وبدة ونازلها يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة، فكانت له فيها حربٌ يطول ذكرها بعد ما فتح في طريقه المعقل الأشهب حصن بلج القشيري وحصن «الكرس».

ولما كان يوم الأحد الثاني والعشرين من الشهر المذكور هبَّت ريحٌ عاصف ممزَّت أكثر الأخبية، وكان تقدَّم أيضًا ريح أكثر من هذا ومزَّت أكثر من هذا، ثم جادت بمطر وابل، وكان زمن الحرِّ، فكان للروم في ذلك سقيٌّ وإملاء، شربوا منه ومواشيهم.

ولما كان يوم الاثنين عزم الأمير أبو يعقوب على قتالهم في سورهم، وأن يجتهد الناس في ذلك بنهاية مقدورهم، فركب وركبت العساكر كالبحر الزاخر لا أول لها ولا آخر، فجاء المطر الوابل وجادت السماء بهتان هائل، ففرع الناس وتعجَّبوا ورغبوا في التوبة إلى الله تعالى وانقلبوا وعجزوا عن القتال على كثرة العَدَدِ والعُدَّة، والعزم على شدة الصبر والجلد، وانصرف الأمير والناس أجمع، فقام فيهم الشيخ أبو محمد ابن عمر خطيبًا باللسان العربي تارةً وباللسان البربري أخرى يُعرِّفهم بما أوجب الله عليهم من

(١) المن بالإمامة ٥٠٩ فما بعدها.

(٢) هو Huete حصن قديم في مقاطعة كونكة، ينظر الحلل السندسية ١/ ٤٠٤.

الجهاد ويقول لهم: قد كنتم بمرأكش تقولون: لو كنا غزونا لجاهدنا واجتهدنا، فلما حصرتم قَصَرْتُمْ وَجَبْتُمْ وَخُتِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وما نصحتهم، فبكى الناس عند ذلك وتابوا.

فلما أصبح الصُّباح من يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة تكلم بعض الناس بالرحيل، وضرب الطبل الكبير إشعاراً للناس بذلك، فكان القيامة قد قامت، فمن رجل حائر لا يدري ما يصنع وآخر حازم قد أخذ بما يسمع. وعندما عاين النصارى أهلكهم الله حركة الناس وإقلاهم عنهم خرجوا في الحين بخيلهم ورجلهم ووصلوا إلى الوادي الذي كانوا قد منعوا الشرب منه من يوم حصارهم، واشتغلوا مع الناس بالقتال واشتعلت في البيوت والدروب النيران، وصار الناس في حرب وانزعاج إلى الرحيل، [ولا أخ يسأل]^(١) عن أخيه من حال الذهول. ووصل الروم إلى السوق فوجدوا فيه الضعفاء والمرضى، [والتحم القتال بين النصارى]^(٢) والمسلمين، وأمر الأمير بجميع العساكر بالوقوف حتى تُرفع الأُخية فُرفعت وتقدّمت، [وبقيت قبته واقفة على حالها]^(٣) حتى رُفِعَ جميع الناس، ثم أمر بضرب الطبل والحركة والناس على ترتيبهم والنصارى يقربون ثم يهربون إلى حين نزول المحلة، ثم تمادى مئى العسكر بعد ذلك حتى وصل إلى مُرسية فدخلها يوم الخميس من ذي الحجة من السنة^(٤).

وفي سنة ثمان وستين وخمس مئة في أول يوم منه: رغب أكثر الموحدين والعساكر في السراح إلى بلادهم وأوطانهم عند ضيقة مُرسية بهم وغلاء السعر فيها بسببهم، فأذن لهم في ذلك، وارتحل أكثرهم، وأقام أشياخهم وكبرائهم، ودامت الإقامة بمُرسية حتى أهل شهر صفر وخرجت البركة إلى الموحدين والمرتزين، وأحضر الخليفة هلال بن مُردنيس وإخوته وعمه، وأنسهم وأولاهم كل مُستحسن سهل، ووعدهم من بشره وسيره ما لم يبلغه مع المأمون الحسن بن سهل، وأشار إليهم أنهم سيكونون من جملة أهله، وأمرهم بالارتحال معه إلى حضرته، فأخذوا في النظر

(١) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المن بالإمامة ٥٤١.

(٢) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المن بالإمامة ٥٤١.

(٣) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المن بالإمامة ٥٤١.

(٤) المن بالإمامة ٥٢٣ فيما بعدها.

لذلك والعزم إلى هنالك، وأمر العمّ أبا الحجاج يوسف بن مُردنِش ببلنسية وأنظارها، وعند ذلك أخذ في الانصراف.

وفي أول ربيع الأوّل تحرّك منها وأجاز على غرناطة وترك فيها أخاه أبا سعيد، ووصل إشبيلية في الثاني عشر لربيع الأوّل، ووصل معه أبو حفص ومجملّة الموحدّين ووجوه دولته وسائر إخوته، فخرج أهل إشبيلية إلى لقائه ومعهم شيخهم أبو بكر ابنُ الجُدّ، ودخل إشبيلية أوفرّ دخول، وعند وصوله أمر ببناء الجامع المذكور، وبيناء البُحيرة والقصور^(١).

وفي هذه السنة المؤرّخة: وصل وفدُ أهل القيرون وفقهاء تونس وإفريقية إلى مدينة إشبيلية، فرحب بهم أمير المؤمنين أبو يعقوب وأنزلهم وأكرمهم حتى انصرفوا^(٢). وفي شعبان من هذه السنة^(٣): خرج من مدينة أبلّة القومُ المسنُّ الضالُّ المعروف بالأحذب، مديرُ الحرب في الفتنة على المسلمين بالأندلس، فكم من فتنة له في الإسلام في شتّى الغارات شرقًا وغربًا بجموع الكفّرة إخوته يصلُّ بهم إلى طريف والخضراء، ويسقي المسلمين كأسًا مرًّا، إلى أن أذن الله بهلاكه وفناء شِرذمته أهل أبلّة في هذا التاريخ. فخرج من أبلّة يريدُ نظر إشبيلية على ما عهد في زمانه وحالة طغيانه، ووصل بجمعه إلى الوادي الكبير وجازّه على جهة إستجّة مارًا بها على تلك الجهات كلّها، فعنم فيها نحو خمسين ألف رأس من الغنم، ومن البقر نحو ألفي رأس، وأسر خلقًا من المسلمين، وأجاز غنائمه وأسراه مكتوفين مُستغيثين. وكان الأمير أبو يعقوب قد تقدّم عنده خبرُ هذا الطاغية وخروجه، فأمر عساكره بالتأهب إليه، فلمّا كان ما ذكرته عنه خرج إليه العسكر من إشبيلية مع السيّدَيْن الأخوين: أبي زكريّا وأبي سعيد، فجَدّوا في اتّباعه مُسرّعين، وصفت نفوس المسلمين، فلمّا كان صبيحة يوم الأربعاء التاسع عشر لشعبان تأخّر النصارى عن شيخهم الضالّ عن الرّحيل من موضع مبيّتهم، وذلك بمقرّبة من قلعة ربّاح، فتأهبّ الناس بأجمعهم

(١) المن بالإمامة ٥٥٣-٥٥٦.

(٢) المن بالإمامة ٥٥٦.

(٣) المؤلّف ينقل من المن بالإمامة ٥٥٧ فما بعدها على عادته.

والعدو الكافر يظنُّ أن لا مُقارَع له ولا مُدافع، فاستعجل الكافر حين ذلك بالرحيل، وقد تراءى الجمعان بكلِّ فجٍّ وميل، فسَلَّ الله عليهم سيفه، و[حَلَّ]^(١) في قلوبهم منه رُوعه وخوفه، فانحازوا إلى جبل شاهق واعتقدوا أنه منجاهم ولم يعلموا أن [بها]^(٢) حادثتهم ومثواهم، فانصَمَّ عساكرُ المسلمين إليهم، وصعدوا الجبل غلبةً عليهم، فابتدأوا معهم في ذلك الجبل الوعر في طعنٍ وضرب، ومُقارعةٍ وحرب، فهزم الله المشركين، ووصل المسلمون إلى اللعين الأحذب فقتلوه واحتزوا رأسه، وقتلوا جميعَ مَنْ كان معه، ولم يَنْجُ من جمعه إلا القليل، وأُنقذَ الأسرى من المسلمين بأجمعهم والغنائم كُلُّها، وانصرفت إلى أربابها وامتلات أيدي الموحدين من الدروع والحيل والِبغال، ونالوا في ذلك الجهادَ المبرور، الغنيمة والأجور، وجمعت رؤوسُ النَّصارى معَ رأسِ الأحذب المذكور، ومُحِلَّت إلى إشبيلية، فضرِبَت الطَّبُولُ على ذلك، ووصل وَصَفُ مَقتله في كتابٍ من الخليفة أبي يعقوبَ إلى أخيه السيِّد أبي عمران، فكانت إحدى المَسَرَّات وباكورةَ الفتوحات.

وكان هذا السيِّد أبو عمرانَ من أولاد الخلفاء النُجباء الطُّلبة الأُدباء، والخُطباءِ الشُّعراء، وجرتَ بيْنه وبينَ قاضي مَرَّاكش حَجَّاج بن يوسف في هذه المدة مُحاطبةٌ شُهدَ له فيها بالسَّبق حتى كَلِفَ بها جميعُ أهلِ العصر، وذلك أنه أصابه ضَعْفُ فَعَابٍ عن الموحدين ثلاثةَ أيام، فكَتَبَ إليه القاضي بَيِّنَ من الشعر يَشوِّقُ فيهما إليه، وهما [من الوافر]:

يَغِيبُ البدرُ يومًا ثم يبدو وأنتَ تَغِيبُ عن عيني ثلاثًا
لئن بَلَغْتَ ثلاثًا لا أراكُم فلستُ بِمُدركٍ يومَ الثلاثا

فجاءَ به في الحين وما رَوَى، ولا بَيَّضَ قِرطاسًا ولا سَوَى [من الوافر]:

أَتَتْنَا مِنْكُمْ دُرٌّ فَحَلَّتْ مَحَلًّا أَوْجَبَتْ مِنَّا انْبِعَاثًا
ولو لا العُدْرُ من سببٍ قوِيٍّ لَسِرْنَا نَحْوَكُمْ حَتْمًا حِثًّا
ولكنَّا نَسِيرُ بِحَالٍ وَدٍّ إِلَيْكُمْ مُصْبِحًا يَوْمَ الثَّلَاثَا

(١) بياض في النسخ.

(٢) بياض في النسخ.

وفي مدة إقامته بحضرة مَرَاكُشَ أميرًا تَوَالَى القَحْطُ وامْتَنَعَ الغَيْثُ مدةَ شهرَيْنِ،
ثم مَنَّ اللهُ بِالْغَيْثِ وتَدَارَكَ سَبْحَانَهُ بِالْعَوْتُ، فقال [من المتقارب]:

وغيثٌ همى فوق مَن الرُّبَى فشبهته جُودَ أهل السيادة
أتانا على رغبةٍ فإنتنى وقد بلغ الكلُّ منّا مُرادَه

ومن شعره أيضًا وكتبَ به إلى أخيه السيّد الأسنى أبي زكريّا يحيى ابن الخليفة
الذي كان صاحبَ بِجَايةٍ، وهو [من البسيط]:

مَنْ ساد وهو صغيرٌ كيف تحسبه يُبقيه ربِّي إذا ما كان في الكبرِ
ومن يقولُ أميرُ المؤمنينَ أبي فتلكمُ الغايةَ القصوى لمفتخرِ
أضحتْ بِجَايةٌ في التمثيلِ هالتهُ وظلَّ يطلُّعُ فيها مُشبهُ القمرِ
بدرٌ بلا كُلفٍ، درٌ بلا صَدَفٍ ماءٌ بلا كدرٍ نارٌ بلا شرِّ

ومن الشعراء المُجِيدِينَ من أحفاد أمير المؤمنين عبد المؤمن: السيّد أبو الرّبيع بن
أبي عبد الله بن عبد المؤمن، له أشعار كثيرة موجودة تدلُّ على حَدِّهِ (١)... الفقيه رحمه
الله وَعَفَا عَنْهُ.

وفي هذه السنة: غَدَرَ النَّصَارَى أَهْلَكَهُمُ اللهُ مَدِينَةَ بَاجَةَ، وَاتَّفَقَ غَدْرُهَا مِنْ
الْبُرْجِ الْمُسْتَقْبَلِ بِبَابِ قَصَبَتِهَا الْمَسْمُومَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا بِبُرْجِ الْحَمَامِ، وَذَلِكَ لِتَضْيِيعِ عُمَرَ بْنِ
سُحْنُونَ لَهَا، وَإِهْمَالِهِ أَمْرَهَا وَحَالَهَا، وَقَلَّةِ جَدِّهِ عَلَى السُّنَّارِ، وَأَكْلِهِ مَوَاسِئِهِمُ الْمَرْتَبَةَ لَهُمْ
عَلَى سُكْنَاهُمْ فِي أَبْرَاجِ الْقَصَبَةِ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْبُرْجُ (٢) الْمَذْكُورُ فِيهِ سَامِرٌ يَأْخُذُ فِي
الْليْلَةِ عَلَى سَمَرِهِ قِيرَاطًا مِنْ قِطْعٍ، فَأَخَذَهُ لَهُ وَتَرَكَ الْبُرْجَ مُضَاعًا دُونَ سَامِرٍ، فَوَصَلَ
النَّصَارَى إِلَى السُّورِ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَهُمْ يَتَسَلَّلُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ، فَلَمْ يَشْعُرْ
أَحَدٌ بِهِمْ مِنَ السُّنَّارِ إِلَى أَنْ جَعَلُوا السَّلَالَمْ فِي لَصْقِ الْبُرْجِ الْمَذْكُورِ، فَصَاحُوا بِأَعْلَى
أَصْوَاتِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، فَاسْتَيْقَظَ الطَّالِبُ عُمَرُ بْنُ سُحْنُونَ مِنْ سَكْرَتِهِ فَوَصَلَ إِلَى بَابِ

(١) بياض في النسخ بقدر كلمتين.

(٢) من هنا إلى قوله: «البرج» مرة أخرى سقط كله من ك، لقفز نظر الناسخ من هذا اللفظ إلى مثيله.

القَصْبَةُ فوجد النَّصَارَى قد تَمَلَّكوه وفتحوه وأدخلوا عسكرهم في القَصْبَةِ المذكورة، فتردَّى من أعلى البُرج إلى المدينة فأرًا بنفسه، ثم تدلَّى من سُور المدينة إلى الفَخْص، وفرَّ إلى مَرَبَلَة على قدميه، واتصل الصَّيَّاحُ وَصَجِيحُ الرُّوم بالقَصْبَةِ والمدينة، ففرَّ الناسُ على وجوههم من أبوابه فقتلوا في الأبواب، وأُسرُوا في كُلِّ جَنَاب، وأُسرَ عِيَالُ الطالب المُضَيِّعُ وبَنُوهُ وأخذ ماله وعِيَالُ القاضي ابن زرقاج وَجُمْلَةُ من أصحابه ومن نساء البلد إلَّا من استعجل بالخروج، واستشهد فيها عند باب الجامع^(١) الفقيه أبو جعفر بن إسماعيل ابن صاحب الصلاة^(٢)، وعاقب الله تعالى كُلَّ من بَغَى فيها وسعى في شهادة الزور وشهد بها، واجتمع عند النَّصَارَى فيها من المال شيءٌ كثير، وحلَّ بأهلها مصابٌ كبير، وكانت مدينةً باجَّةً من المُدن القديمة البناء وأسوارها قد قامت وارتفعت في الهواء، ثم هدمها الإمام عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعد هزيمة العلاء بن مُغيث.

ذكر سبب غدر النَّصَارَى مدينةً باجَّةً

وذلك أنه لما كان خَلْعُ سِدْرَاي بن وزير عن باجَّةً وجميع بلاد غَرْب الأندلس، وليَ بعده مدينةً باجَّةً حُفَاطٌ من الموحِّدين، فنظر كُلُّ واحد منهم بحسب اجتهاده، وكان أشبههم عُمر بن تيمصليت التينمليُّ، فحدث مدةً مقامه بها بين أعيانها وسفاليها نزاعٌ واختلاف بها طُبِعوا عليه في القديم والحديث من الماء والهواء، فطالبَ بعضهم بعضًا وأظهروا لهم عداوةً وبُغْضًا، أدَّى ذلك إلى إمساك بعض أشياخهم بإشبيلية، وعزل ابن تيمصليت المذكور، المتحرِّي عن تلك الأمور، ووليَ عليهم طالبٌ بَرَبْرِيٌّ سخيْفُ العقل اسمه عُمر بن سُحنون، وكان قصيرَ القامة صغيرَ الهامة كَوْسَجًا أعرج لا يفهم ولا يفهم، فدخلها في أشأم طالع وأعظم محنة لسامع، واتصل به سفالها فقرَّبهم لنفسه وأدناهم من محلِّ أنسه، فنزا التباغُضُ بين عامتها وخاصتها بذلك السبب، وتقاطعوا في المُواصلة والنَّسب، فقال في ذلك أبو بكر بن حُبَيْش وخرج فأرًا منها بنفسه [من الكامل]:

(١) في م: «البرج»، وما هنا يعضده ما في التكملة لابن الأبار (١٧٦).

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إسماعيل ابن صاحب الصلاة، قال ابن الأبار: «استشهد عند باب الجامع في غدر العدو بلده، وذلك ليلة السبت الثاني والعشرين لذي حجة سنة سبع وخمسين وخمس مئة» (التكملة، الترجمة ١٧٦).

إن الفِرَارَ غنيمَةً من باجَةٍ فاعْمَلْ.....^(١) ذمِيلَ الأَيْنِقِ
 واحْمَدُ لِفَرْقَتِهَا لثَلَا تَهْلِكَا ^(٢) عَنْ قَلْبِ التَّقِي
 وَإِذَا رَجَوْتَ لَهْمَهَا فَرَجًا^(٣) ^(٤) بِالْعَقُوقِ الأَبْلَقِ
 هِيَهَاتِ لَا فَرْجٌ لَدِيهَا يُرْتَجَى وَلئنْ حَذَرْتَ بِهَا الخُطُوبَ فاقْلِقِ
 إِنَّ الغَرِيبَ إِلَى الغَرِيبِ مَنَعَصٌ أَيُودِ لَهَا الرِّزَايَا مَا بَقِيَ^(٥)

واستخلصَ عُمَرُ بن سُحُنُونَ المذكورُ وزيرًا لنفسِهِ وسميرًا لأنسِهِ رجلًا بدويًا
 من سِفَالِ بَاجَةٍ فَجَرَّاهُ عَلَى سَفْكِ الدَّمَاءِ وَأَخَذَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَضَرَبَهُمُ بِالسِّيَاطِ
 عَلَى أَقْلِ الأَشْيَاءِ، وَأَعَانَ مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ قَاضِيُ البَلَدِ عُمَرُ بن زُرْقَاجٍ، وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ
 الحِرْكَهَ والطَّيْشِ، فَصَوَّبَ لَهُ إِذَايَةُ النَّاسِ بِالظُّلْمِ والبَطْشِ، وَانْضَافَ إِلَى هَذَا القَاضِي
 قَوْمٌ أَرَادُوا مِنْ شُهُودِ الزُّورِ، يَشْهَدُونَ لَهُ بِغَرَضِهِ السَّيِّئِ المَغْرُورِ، فَكَانُوا يَعْقِدُونَ
 العُقُودَ بالكُذْبِ وَالْمَينِ، وَيُثَبِّتُ الحَقُوقَ البَوَاطِلَ بِشَهَادَةِ وَغَدَيْنِ، وَيَخَاطَبُ بِذَلِكَ
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ: إِنَّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَخَاطَبُ المُنَافِقِينَ، لَوْلَا عَدْلُ الخَلِيفَةِ رَحِمَهُ اللهُ.

ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ بن سُحُنُونَ المذكورَ اسْتَبَدَّ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي تِلْكَ الأُمُورِ، وَأَخَذَ
 بِرَأْيِ الفُجَّارِ، وَالسُّفْلَةِ الأَشْرَارِ، وَقَتَلَ الفَقِيهَ الفَاضِلَ أَبَا جَعْفَرٍ ابْنَ الأنصاريِّ ظَلَمًا
 وَعُدُوَانًا، وَقَتَلَ مَعَهُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ البَلَدِ سَهْوَةً وَخِذْلَانًا، وَعَقَدَ عُقُودَ زُورٍ فِي أَمْرِهِ
 أَنَّهُ أَرَادَ القِيَامَ وَخَلَعَ الإِمَامَ، وَوَصَلَتِ العُقُودُ المُدَلَّسَةُ إِلَى الخَلِيفَةِ بِأَشْبِيلِيَّةٍ، وَكَانَ قَدْ
 وَصَلَ إِلَى الخَلِيفَةِ قَرَابَةُ الفَقِيهِ ابْنَ الأنصاريِّ المَظْلُومِ، فَسَأَلَ الخَلِيفَةُ الفَقِيهَ أَبَا بَكْرَ ابْنَ الجَدِّ
 عَنْ أَهْلِ بَاجَةٍ وَأَحْوَالِهِمْ فَعَرَّفَهُ بِمَا عَلِمَ مِنْ أَفْعَالِهِمْ وَبِرَأْيِ ابْنَ الأنصاريِّ المذكورِ فِيْمَا نُسِبَ
 إِلَيْهِ، وَقَالَ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الَّذِي رُفِعَ عَلَيْهِ، وَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ فِي تَبْرِئَةِ أَهْلِ بَاجَةٍ بِحِدْثِهِ

(١) بياض في النسخ.

(٢) بياض في النسخ.

(٣) هكذا في النسخ ولا يستقيم به الوزن.

(٤) بياض في النسخ.

(٥) هكذا العجز في النسخ، ولا يستقيم عروضًا.

عند الله مدَّخَرًا، ويلقاه به مطهَّرًا، وفي أثر هذا المجلس وصل أهل الصَّدق والحق فسئلوا عن ذلك فأكذبوا القاضي وشهوده، فعفا عنهم الإمام، وارتفع الباطل والسمام.

ورفع أبو محمد ابنُ وزير بعد ذلك رَفْعًا إلى الخليفة وقال: إن لي بباجةً أصهارًا وهم بنو صاحب الصلاة وبنو الأنصاري، ورغب أن يأذن لهم في الخروج عن باجة إلى إشبيلية، فخرجوا عنها بما خفف من أموالهم وأحوالهم ودخلوا إشبيلية يوم الخميس الخامس وعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وستين وخمس مئة، فلم تدم الحال إلا ستة أشهر وسبعة أيام، وعاقب الله ابن سُحنون المذكور، والقاضي وشهود الزور، وكان غَدْرُها في محرَّم من عام ثمانية وستين.

ولمَّا اتَّصل خبرُ غَدْرِها بأمر المؤمنين قال له سِدراي بنُ وزير: بيعت باجةً بغيراط، فقال له: ما معنى هذا؟ فوصف له حال ابن سُحنون وكيف أخذ أجرة السامر في البرج وما كان من فعله، فأمر أمير المؤمنين بقتله، ففر فلم يوجَد ولم يُمْت حتَّى عاقبه الله بالجذام.

ولمَّا أخذ ابنُ الرنك اللعينُ باجةً ودخلها عاينَ كبرها وأنها لا يمكنُ امتناعها لاتساعها، فأحلاها وحرَّقها وهدم سُورها وأسر أهلها إلى أن أنقذهم الله من الأسر بالفداء ومشى كثيرٌ إلى مراكش وغيرها يطلبون من^(١) الناس، فوجدوا عندهم الحنان بالعطاء والإيناس، فأنجبروا بعد تفرُّقهم أيدي سبًا، وبعد أن أورتتهم الحوادث وصبًا.

وفي سنة تسع وستين وخمس مئة: كان وصولُ العِلج الطاغي جراندُه الذي غَدَرَ مدينةَ باجةً وغَدَرَ الحصون والمُدن وأفقر المعمورَ والمسكون، وكان قائد ابن الرنك وصاحب جيوشه، فوصل [مع أصحابا]^(٢) به الأدلاء إلى إشبيلية حضرة الخليفة [سامعًا طائعًا ليكون عبدًا خديمًا، ولينكي إخوته النصارى بما يكونُ تصديقًا له عند الخليفة]^(٣) وتقديماً، فقبل منه القول وأنزله وأمر له بالإحسان والكرامات،

(١) سقط من ك.

(٢) بياض في النسخ.

(٣) ما بين الحاصرتين ليس في النسخ الأربع التي بين أيدينا، استدركناها من م.

فساء وُصُولُهُ ابْنَ الرَّنَكِ صَاحِبَ قَلَمِيَّةٍ لَعَنَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَزَلْ يُرْسَلُ إِلَيْهِ سَرًّا فِي أَنْ يَتَحَيَّلَ فِي الْإِرْتِدَادِ وَالْعَدْرِ وَالْمَكْرِ، فَظَهَرَ بَعْدَ أَشْهُرٍ عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَتَقَبَّضَ عَلَيْهِ هُنَاكَ، وَمَكَّنَ اللَّهُ مِنْهُ أَعَزَّ تَمَكِينَ، وَقَيَّدَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فِي الْحَدِيدِ، فَسَّرَ بِذَلِكَ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَبُعْثُوا بِجُمْلَتِهِمْ إِلَى سِجْلِمَاسَةَ فَأَقَامُوا بِهَا تَحْتَ سَجَنٍ وَتَرْقِيبٍ، وَنَكَالٍ مُرِيبٍ، ثُمَّ هَمَّتْ نَفْسُهُ فِيهَا بِالْفِرَارِ لِيَجُوزَ مِنْ أَحَدِ الْمَرَاسِي فَظَهَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقُتِلَ وَحُزَّ رَأْسُهُ، وَانْكَفَى عَنِ الْإِسْلَامِ بِأَسْأَفِهِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي أَوَّلِ شَهْرِ صَفَرٍ: خَرَجَ الْخَلِيفَةُ أَبُو يَعْقُوبَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ بِجَيْشِهِ وَنَزَلَ بِحِصْنِ الْقَلْعَةِ وَهُوَ خَرَابٌ مَهْدُومٌ مِنْذُ إِمَارَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأُمَوِيِّ، هَدَمَهُ بِسَبَبِ ثَوْرَةِ ابْنِ حَجَّاجٍ فِيهِ عَلَيْهِ، وَمَلَكَ مِنْهُ إِشْبِيلِيَّةَ وَقَرْمُونَةَ، فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ أَبُو يَعْقُوبَ بِنَائِهِ وَعِمَارَتِهِ نَظْرًا^(١) وَصَلَاحًا لِفَحْصِ إِشْبِيلِيَّةَ فَصَلَحَتْ إِشْبِيلِيَّةَ بِنَائِهِ وَعِمَارَتِهِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: وَصَلَ ابْنُ مِثْنَى مُشْرِفُ تُونِسَ وَالْقَيْرَوَانِ بِأَمْوَالٍ خَرَاكِجِهِمَا.

وَفِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَخَمْسٍ مِئَةً: أَمَرَ أَبُو يَعْقُوبَ بِغَزْوِ الْبُيُوجِ بْنِ أَذْفُونَسَ، وَكَانَ قَدْ بَادَرَ بِالْصُّلْحِ وَطَلَبَ الْإِسْتِعَانَةَ بِعَسْكَرِ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَمْطِ نَوْنُهُ صَاحِبَ طُلَيْطَلَةَ، فَأُعِينَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ ظَهَرَ جَدُّهُ وَكَمَّلَ عَهْدُهُ فِي حِمَايَةِ بَطْلَيْوَسَ وَإِنْقَاذِهَا مِنْ يَدِ ابْنِ الرَّنَكِ الْغَادِرِ لَهَا، وَذَكَرَ أَنَّهُ أَنْفَقَ عَلَى عَسْكَرِهِ فِي ذَلِكَ مَا لَا كَثِيرًا، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ هَدِيَّةً فِيهَا مِئَتٌ مِنْظُومٌ بِالْجَوْهَرِ وَحَمَلَهَا لَهُ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ جَامِعٍ وَابْنُ غُرُونٍ وَأَبُو زَكْرِيَّا الْكُومِيُّ فَقَبِلَ الْهَدِيَّةَ بِأَوْقَى السَّرُورِ، وَأَبْهَتَهُ مَا عَايَنَهُ فِيهَا تَمَّا لَمْ يَعْهَدْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَبَعَثَ مَعَهُمْ أَرْسَالَهُ بِهَدِيَّتِهِ وَشَهُودًا عَلَيْهِ بِاسْتِمْرَارِ الصُّلْحِ، وَتَمَادَتْ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُ إِلَى آخِرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِينَ، فَكَثَّتْ وَنَقَضَ الْعَهْدَ وَكَفَرَ بِالنِّعْمَةِ فَعَاقَبَهُ اللَّهُ سَرِيعًا بِالنِّقْمَةِ، فَظَنَرَ الْأَمِيرُ أَبُو يَعْقُوبَ فِي غَزْوِهِ فِي عَقْرِ دَارِهِ وَمُنَازَلَةِ جِهَاتِهِ وَأَقْطَارِهِ، فَكَتَبَ إِلَى الْعَرَبِ وَالْأَجْنَادِ بِالْوُصُولِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ وَالتَّأَهُبِ لِلْغَزْوِ، فَوَصَلُوا بِجَمْعِهِمْ وَحَشُودِهِمْ، فَتَجَهَّزَ السَّيِّدُ أَبُو حَفْصٍ لِلتَّهَوُّضِ إِلَيْهِ بِالْعَسَاكِرِ عَوَضًا مِنْ أَخِيهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَخَرَجَ أَبُو حَفْصٍ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ فِي الثَّالِثِ مِنْ صَفَرٍ إِلَى

(١) مِنْ هُنَا إِلَى آخِرِ الْفَقْرَةِ سَقَطَ مِنْ ك.

الغادر البيوج بمدينة السبطاط قاعدته، فغزاه وافتتح قنطرة السيف وناضوش في خبر طويل. فقال الشعراء في ذلك وأطنبوا، فمنهم: أبو العباس الجراوي قال من قصيدة أولها [من الكامل]:

عن امرِكم يتصرَّفُ [الثقلان] ^(١)	وبنصرِكم يتعاقبُ المَلَوَانِ
وبما يسوءُ عدوكم ويسرُّكم	تتحركُ الأفلاكُ في الدَّوَرَانِ
جاهدتم في الله حقَّ جهاده	ونضمتُ لحماية الإيمانِ
وتركتُم أرضَ العدى وقلوبهم	في غاية الرَّجَفَانِ والخَفَقَانِ
وغزاهمُ الدِّينُ الحنيفيُّ الذي	كُتبَ الظهورُ له على الأديانِ
كتبَ الإلهُ لكم فتوحًا في العدى	هذا لها وسواه كالعُنوانِ
هذا مقامُ المصطفى يا فوزَ مَنْ	حازَ النِّيبَةَ فيه عن حَسَانِ
من يعرفُ الرَّحْمَنَ حقًا يعترفُ	بحقوقه لخليفة الرَّحْمَنِ

وله أيضًا من قصيدة أولها [من الطويل]:

بسيِّفك صال الدِّينُ في الشرق والغربِ	ودارت على الأعداءِ دائرةُ الحربِ
وأذعنَ ناءٍ واستقام مُعانِدٌ	ولان قيادًا كلُّ ممتنع صَعْبِ

وعندما يسر الله هذا الفتح لأمير المؤمنين في هذه السنة على يد أخيه السيّد أبي حفص وهزم النصارى في عُقر دارهم حتى أنجَحُوا تحت جدارهم، رَغِبَ ابن الرَّنك اللّعين، في الصُّلح من أمير المؤمنين، وكان أمير المؤمنين قد عَلِمَ قَدَمَ باجّة وأنها قاعدةُ العُرب وبما جرى فيها من النوائب والكُرب، فنظر بنور الله في إسكانها وإسكان الحصون المجاورة لها، فأمرَ بإنفاذ الكُتُب إلى جميع بلادِه في استدعاء أهل باجّة ووصولهم إلى حضرته إشبيلية، فأزعجوا منها ووصلوا إلى إشبيلية، واجتمعوا بها، وأعلمَ أمير المؤمنين بوصولهم فأمرَ بدخولهم عليه.

(١) ما بين الحاصرتين ليس من النسخ التي بين أيدينا ولا يستقيم المعنى ولا الوزن من غيرها.

اختصارُ الخبر عن دخول أهل باجّة مجلس أمير المؤمنين أبي يعقوب وما دار بينهم من الكلام

كان دخولهم إليه يوم السبت السابع لربيع الآخر سنة سبعين وخمس مئة، وقد احتفل في حضور الوجوه من إخوته السادات، ووجوه أشياخ الموحّدين وملوك الأندلسيين من بني غُرُون، وبني مُردنيش، وبني هَمْشُك، ووجوه طلبة الحضَر، منهم: أبو محمد المالقي وأبو بكر ابن الجَدّ وأبو موسى بن عمران، وكان الوزير الكبير أبو العلي إدريس بن أبي إسحاق بن جامع يُعرّف باسم من دخل من أعيان باجّة ويشرفهم، فلما دخلوا وسلّموا بها وجب عليهم، نظر أمير المؤمنين إليهم وقال: كيف حالكم؟ فقالوا: تحت خيرات وأمن وبركات في أيام سيّدنا أمير المؤمنين، وخطب أحدهم خطبة بليغة أبدع فيها غاية الإبداع وأبهج بها القلوب والأسماع، فلما أكملها تبسّم أمير المؤمنين فقال للقاضي: أحسنت أيّها الطالب الخطيب، ثم قال أمير المؤمنين: تمثّلون إن شاء الله إلى بلدكم وتسكنونها بعد نظرنا لكم في زوال رُوعكم والثّام صدّعكم، ويرجعُ جُنْدُ أهل بلدتكم ورعيّتها، وأهل تلك الحصون المجاورة لكم للاستيطان بها كما كنتم، وتبيّعكم إثر هذا بقبيل من الموحّدين المُنجدين بفُرسانيهم ورجالهم يسكنون معكم بأولادهم وعيالهم، فقالوا: سمعنا وأطعنا يا سيّدنا ومولانا، وذكروا مصالحهم كلّها قليلها وكثيرها، فأنعم عليهم بما سألوه وانصرفوا شاكرين بعدما ولّى عليهم حافظاً أبا بكر ابن وزير.

اختصارُ الخبر برجوع أهل باجّة إلى بلدهم

تقدّم الحافظ أبو عليّ ابن تيمصليت بالخروج إلى شلب وجميع الغرب، فحشد الرجال وأعطى الأموال في الخامس لربيع الآخر من السنة، ثم خرج أبو بكر ابن وزير من بعده في السادس من الشهر المذكور بجميع الجُنْد والفرسان، وخرج أهل باجّة في الحادي والعشرين من الشهر المذكور ووصلوا باجّة يوم الخميس غرة جمادى الأولى، فعانوا منها الدمار وأنكروا الأوطان والديار، كما قال لبيد^(١) [من الخفيف]:

ذهبت عامرٌ فلم يبقَ منها برياض الأعرافِ إلا الدّيارُ
وكذاك الزّمانُ يذهبُ بالنّا سِ وتبقى الطّلُولُ والآثارُ

(١) ينظر معجم البلدان لياقوت ٨٦/٣.

بل والله تهَدَّمت بتداول الأيام وعدوانها، وتفرَّق أهلها وسكَّانها، وتحكَّم الكفرة في أوطانها.

وعند دخولهم إليها مشى كلُّ واحد منهم إلى داره وموضع قراره، فأبصروا ما يَشِيبُ له الوليدُ أسفًا ويَبكي عليه الجُمادُ لَهْفًا، قد حُرِّقَ منها الدور ومُزَّقَ المعمور، ونَزَلَ الناسُ في قَصَبَتِها على ما كانت عليه من هَدمِ سُورِها وخَرابِها، وكانت جُمَلُهم يومَ خَرابِها نحوَ مئتي رجلٍ بين شيوخ وشُبان ورجالٍ وفُرسان، فكثُرَ عليهم الرُّوعُ، وبُهِتَ الجُمُعُ فَصَنَعُوا بابًا في الحينِ للقَصْبةِ من جهةِ المدينة، وبَنَوْا البابَ الذي من جهةِ الفَحْصِ، وسَكَنُوا في القَصْبةِ المذكورةِ، ونقلَ كلُّ واحدٍ منهم خَشَبَ دارِهِ وجَعَلَهُ معه بالقَصْبةِ، وخاطَبُوا الخليفةَ بدخولهم فجاءَهم بما أَرْضاهم.

ولَمَّا كان يومُ الأربعاءِ السابعِ من جُمادى الأولى من سنةِ سبعينَ المؤرَّخةِ، وصَلَ عمرُ بنُ تيمصليطٍ من شِلْبَ وغيرِها بخمسةِ مئةِ رجلٍ من الحشْدِ والبَنائينَ، واستاقوا أوقاتَهم في شهرٍ كاملٍ وجميعَ ما يُحتاجُ إليه من آلةِ البناءِ، واتَّصلَ العملُ والاجتهادُ في بناءِ السُّورِ إلى آخرِ الشهرِ المذكورِ، وعاد ابنُ تيمصليطٍ أيضًا إلى شِلْبَ وبلادِ الغُربِ برِسمِ حَشْدٍ آخَرَ للبناءِ، وتِمَادَى العملُ في البناءِ المذكورِ إلى شهرِ رمضانَ المُعَظَّمِ وقد كُمِّلَ سورُ القَصْبةِ، وشُرعَ في بناءِ سورِ المدينةِ على كِبَرِهِ وخَرابِهِ، ووصلَ الأمرُ بوُصولِ الحافظِ ابنِ تيمصليطٍ إلى الحضرةِ العَلِيَّةِ فوصلَها أوَّلَ ليلةٍ من شِوَالٍ، فدخَلَ إلى الخليفةِ وأعلَمَهُ بما صنَعَ، فشَكَرَ له مِنابَهُ وأَجَزَلَ ثوابَهُ.

ثم حَدَّثَ بينَ أهلِ باجَّةَ وبينَ أبي بكرِ ابنِ وزيرِ مُطالباتٍ وشَهواتٍ فعَقَدَ عقودًا على أعيانِها بشهادةِ أهلِ الزُّورِ، والأراذلِ وأهلِ الفجورِ، فرَمَى بها القاضي في وجوهِهم ونَجَّهَهم فيما ادَّعَوْهُ بأفواههم. ثم إنَّ أعيانَ باجَّةَ رَفَعُوا إلى حضرةِ أميرِ المؤمنينِ بأحوالِهِم وما هم عليه مع ابنِ وزيرٍ من سُوءِ السِّياسةِ والتدبيرِ، فأَمَرَ بِعَزْلِهِ عنهم ووَلَّى عليهم أبا عليٍّ عُمَرَ بنَ تيمصليطٍ، فاتَّصلتِ الغِبْطَةُ بباجَّةَ وتمكَّنَ الناسُ بِقَصَبَتِها وفي ديارِها الحديثةِ البُنيانَ، وتَبَايَعَ الناسُ أَرْضَها بينهم في خارجِها وداخلِها، وحرَثُوا الأَرْضَ وعَمَرُوها وبَنَوْا الحِوانِيَتَ والرِّباعَ، ورُفِعَت إلى دارِ الأشرافِ بِاشييلِيَّةِ الأَزِمَةُ بأعشارِها وكِرَاءِ رَباعِها، وسُرَّ أميرُ المؤمنينِ بذلك.

وَتَمَادَى سُكْنَى بَاجَةَ عَلَى مَا ذَكَرْتُهُ إِلَى أَنْ رَحَلَ الْخَلِيفَةُ عَنِ الْأَنْدَلُسِ وَتَرَكَ الْيَا عَلَى إِشْبِيلَةَ أَخَاهُ أَبَا عَلِيٍّ الْحَسَنَ، فَمَشَى النَّظْرُ عَلَى بَعْضِ مَا تَقَدَّمَ إِلَى أَنْ نَكَثَ الْعَهْدَ اللَّعِينُ ابْنُ الرَّنَكِ وَخَرَجَ بِجَمْعِهِ إِلَى بَاجَةَ وَنَارَ لَهَا عَامَ ثَلَاثَةِ وَسَبْعِينَ، وَبَقِيَ عَلَيْهَا أَيَّامًا وَأَفْسَدَ زُرُوعَهَا حَتَّى كَادَ أَنْ يَغْلِبَ عَلَيْهَا. ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهَا وَوَصَلَ إِلَى جِهَةِ إِشْبِيلَةَ وَدَخَلَ قَرْيَةَ طَرِيَانَةَ، وَتَغَلَّبَ وَحَرَّقَ الْقَطَائِعَ فِي وَادِي إِشْبِيلَةَ، وَانْصَرَفَ فَوَجَدَ بَاجَةَ الْبَائِسَةَ قَدْ أَفْقَرَهَا أَهْلُهَا وَخَرَجُوا مِنْهَا بِأَوْلَادِهِمْ وَعِيَالِهِمْ وَتَفَرَّقَتْ جَمِيعُ أُمُوهَا وَفَرُّوا عَلَى وَجُوهِهِمْ إِلَى مَرْتَلَةَ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ مُحَرَّمٍ مِنْ عَامٍ أَرْبَعَةَ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ.

وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عَمَرَ بْنَ تَيْمَصْلِيَّتٍ وَالْيَا بَاجَةَ خَرَجَ مِنْهَا بِجُنْدِهَا وَفَرَسَانِهَا وَصَحْبِهِ عَلِيُّ بْنُ وَزِيرٍ مِنْ حِصْنِ شِيرَةِ^(١)، وَأَغَارُوا عَلَى فَحْصِ قَصْرِ أَبِي دَانِسٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ جَمْعٌ مِنَ النَّصَارَى فَتَقَاتَلُوا مَعَهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي الْقِتَالِ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَتْ عَلَيْهِمْ جُمْلَةُ مِنْ نَصَارَى أَهْلِ شَنْتَرِينَ فِي فَحْصِ الْقَصْرِ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ فَانْهَزَمَ ابْنُ تَيْمَصْلِيَّتٍ وَابْنُ وَزِيرٍ، وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى أَهْلِ بَاجَةَ فَفَرُّوا أَجْمَعِينَ، وَأَسِرَ ابْنُ تَيْمَصْلِيَّتٍ وَابْنُ وَزِيرٍ وَبَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنَ الرِّجَالِ وَالْفُرْسَانِ وَقُتِلَ الْبَاقُونَ.

أَخْبَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ وَزِيرٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ نَفُوذُ الْقَضَاءِ عَلَيَّ وَعَلَى ابْنِ تَيْمَصْلِيَّتٍ حَمَلْنَا ابْنُ الرَّنَكِ لَعْنَهُ اللَّهُ إِلَى قَلَمَرِيَّةَ، فَعُمِلَ لَنَا تَبْرِيزٌ عَظِيمٌ وَأُكِلْنَا، فَأَمَّا ابْنُ تَيْمَصْلِيَّتٍ فَجَعَلَ فِي عُنُقِهِ سِلْسِلَةً مِنْ حَدِيدٍ، وَعَذَّبَهُ حَتَّى مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَأَمَّا أَنَا فَقَدَانِي مِنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ دِينَارٍ حَشْمِيَّةٍ.

رَجُعُ الْخَبَرِ: فِي هَذِهِ السَّنَةِ تَعَرَّسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَابَتَةُ ابْنِ مُرْدَنِيَشٍ، وَكَانَ ابْتِنَاؤُهُ بِهَا لَيْلَةَ السَّبْتِ الْخَامِسَ لِرَبِيعِ الْأَوَّلِ، أَخْبَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ: وَجَّهَ إِلَيْهَا أَلْفَ دِينَارٍ عَيْنًا وَقَالَ: إِنَّمَا وَجَّهْتُ لَهَا هَذَا الْعَدَدَ تَأْنِيْسًا، وَإِنَّمَا الصَّدَاقُ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ خَمْسُونَ دِينَارًا. وَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مَعَ نِسَائِهَا وَخَدَمِهَا أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَرَكَةٌ كَبِيرَةٌ وَوَهَبَ لِلزَّوْجَةِ جَمِيعَ مَا أَهْدَى إِلَيْهِ إِخْوَتُهَا عِنْدَ فَتْحِهِ لِمُرْسِيَّةَ مِنَ الْكُوسَى وَالْحُلِيِّ وَالْخَدَمِ، وَزَادَهَا مِنْ عِنْدِهِ مَا أَبْهَتَهَا. وَهَمَّ مَنْ وَصَلَ مَعَهَا مِنَ النِّسَاءِ بِالْدَّخُولِ مَعَهَا، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: تَدْخُلُ الْمُبَارَكَةُ مُنْفَرَدَةً، فَدَخَلَتْ وَقَبِلَتْ يَدَهُ، فَدَعَا لَهَا بِخَيْرٍ وَجَامَعَهَا.

(١) هي مدينة Senpa التي في البرتغال.

فَاتَّفَقَ لِبْنِي مُرْدَنِشَ بِهَا سَعْدٌ مَا اتَّفَقَ لِأَحَدٍ مِنْ ثَوَارِ الْأَنْدَلُسِ، فَأَتَاهُمْ أَخْرَجُوا عَمَّا كَانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ صَارُوا أَحْمَاءَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا غَرِيبٌ وَشَيْءٌ عَجِيبٌ.

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: أَمَرَ الْخَلِيفَةُ أَبُو يَعْقُوبَ بِنَكْبَةَ مُحَمَّدَ بْنَ عَيْسَى مَشْرِفَ إِشْبِيلِيَّةَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ وَتَوَلَّى تَثْقِيفَ حَالِهِ وَمَالِهِ لِلْمَخْزَنِ يَلُولُ بْنُ جَلْدَاسَنَ، وَاسْتَصَفَى مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ وَالْعَقَارِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَأَسْوَى الْعِقَابِ، حَتَّى ضَرَبَ نَفْسَهُ بِسِكِّينٍ كَانَ فِي يَدِهِ فَلَمْ يَمُتْ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ عَذَّبَ وَضُرِبَ حَتَّى مَاتَ، فَلُفَّ فِي حَصِيرٍ وَرُبِطَ فِي وَسْطِهِ حَبْلٌ وَرُمِيَ بِهِ فِي وَادِي إِشْبِيلِيَّةَ فَقَذَفَهُ الْوَادِي بَعْدَ أَيَّامٍ فِي بَابِ إِشْبِيلِيَّةَ فَأَصْبَحَ عِبْرَةً لِأُولَى الْأَلْبَابِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ.

ذَكَرُ حَرَكَةَ الْخَلِيفَةِ أَبِي يَعْقُوبَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ

مَنْصَرِفًا عَنِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى حَضْرَةِ مَرَّاكُشَ

كَانَتْ حَرَكَتُهُ يَوْمَ الْخَمِيسِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ، وَقِيلَ: فِي شَعْبَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُؤَرَّخِ، وَدَخَلَ فِي غُرَابٍ فِي الْوَادِي مِنْ مَرَسَى طَلِيظَةَ وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَشْيَاخِ إِشْبِيلِيَّةَ وَلَا رَأَوْهُ لَاسْتَعْجَالِهِ، وَكَانَ قَدْ جَازَ الْبَحْرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فِي الرَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ سِتَّةٍ وَسِتِينَ، وَوَصَلَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَوَّالٍ وَرَحَلَ مِنْهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ الْمَذْكُورِ، فَكَانَ طَوْلَ إِقَامَتِهِ بِالْأَنْدَلُسِ أَرْبَعَةَ أَعْوَامٍ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَنِصْفٌ. وَلَمَّا كَانَ سَفَرُهُ إِلَى الْحَضْرَةِ فِي الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ خَرَجَ جَمِيعُ الْمُوَحِّدُونَ فِي اتِّبَاعِهِ بَعِيَالَهُمْ وَأَبْنَائَهُمْ، وَكَذَلِكَ بَنُو مُرْدَنِشَ وَبَنُو هُمُشَكَ وَالْعُمَّالُ وَالْكُتَّابُ وَغَيْرُهُمْ، وَجَازَ الْأَمِيرُ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَحْرَ إِلَى طَنْجَةَ وَتَرَبَّصَ بِهَا مُنْتَظِرًا لِلنَّاسِ حَتَّى اسْتَوْفَوْا عَلَيْهِ، وَكَانَ دَخُولُهُ مَرَّاكُشَ فِي مُتَنَصِّفِ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ مِنَ السَّنَةِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَهِيَ سَنَةُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ: نَزَلَ الْوَبَاءُ وَالطَّاعُونُ بِمَدِينَةِ مَرَّاكُشَ فِي أَوَّلِ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ، وَلَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَزْمَةِ قَبْلَهُ، انْتَهَى عَدَدُ الْأَمْوَاتِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةً إِلَى مِائَةٍ وَتِسْعِينَ شَخْصًا وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ النَّاسَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حَمْلَهُمْ إِلَى الْجَامِعِ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ أَنْ يُصَلَّى عَلَيْهِمْ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ رِفْقًا بِالنَّاسِ فِي ذَلِكَ.

فأول من مات من الأشراف السادات: السيّد أبو عمران ابنُ الخليفة عبد المؤمن، ثم أخوه أبو سعيد، ثم أخوهما أبو عبد الله، ثم أخوهم أبو زكريّا الذي كان صاحبَ بَجَاية. ومن أشياخ الموحّدين: أبو سعيد يُخْلَفُ بنُ الحُسَيْن، وكان الشيخ أبو حَفْص بن يحيى الهَتَاتِي بِقُرْطُبَة فخرج منها مسافرًا إلى الحضرة العليّة مرّاكش فمات في الطريق ودُفن بِرباط الفَتْح من سَلَا، واتّصل رُوعُ الناس بالحضرة المذكورة حتى كاد لم يخرج منها أحدٌ ولا يدخلها أحد، وكلُّ من خرج منها فارًّا بنفسه مات في الطريق، ومَرِض الخليفة أبو يعقوب وأخوه أبو حَفْص مَرَضًا طويلًا حتى كاد أن يُرَجَفَ بهما ثم استقلّا بعد ذلك، وأمّا ما كان في دُورهم وقصورهم من الحَدَم والعبيد وغيرهم فأخبر أبو مروان ابنُ صاحبِ الصّلاة قال: حدّثني الشيخ الحافظ أبو بكر ابنُ الجَدّ قال: حدّثني السيّد أبو عليّ الحَسَنُ ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله، أنه كان يموتُ في كلِّ يوم في دورهم ثلاثون شخصًا حتى فَنِي أكثر من كان في قصورهم ودُورهم، ودام هذا الطاعونُ بقيّة سنة إحدى وسبعين ونصف سنة اثنتين وسبعين، وذلك مدةً سنةً كاملة.

وفي هذه السنة: مات القاضي أبو يوسف حَجَّاج بن يوسف بمَرّاكش، وكان فريدَ زمانه في الفَضْل والزُّهد والعدل، وكان له باعٌ واسع في الأدب. وكذلك الكاتب أبو الحَكَم بن هردوش^(١) المالقِي وأخوه المشرف أبو الحَسَن، وكان من الطلبة الجِلّة. وكذلك توفّي الكاتب أبو الحَسَن عليّ بن زيد الإشبيلي^(٢) ومشرف غَرْنَاطَة أبو عَمْرُو ابن أفلح وجملة من أعيان الطلبة والموحّدين، رحمهم الله تعالى.

(١) هكذا جاء، وفي تكملة ابن الأبار: «هرودس»، قال: «إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الكاتب، سكن مالقة، وأصله من وادي آش، يكنى أبا الحكم ويعرف بابن هرودس... وتوفي أول سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة» (التكملة، الترجمة ٣٩٦).

(٢) لعله هو الذي ذكره ابن الأبار في التكملة، فقال: «علي بن زيد الأنصاري من أهل إشبيلية، يكنى أبا الحسن. له رواية، وأجاز له أبو طاهر السلفي وجماعة معه منهم أبو بكر بن خير سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة» (الترجمة ٢٧٣٤) ولم يعرف وفاته، ولخص ابن عبد الملك ترجمته في الذيل ١٨٠/٣.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة: خرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من مراكش مع الموحدين في الرابع من شهر ذي القعدة برسم الغزو لصنهاجة القبلة، وترك بها أخاه أبا حفص واليًا عليها وأميرًا على الناس، فلما وصل رباط هسكورة أمر الناس ببناء بيوت ودور للسكنى ورجع إلى مراكش بخاصته، وقدم على العسكر المقيم بها ابنه السيد أبا يوسف وجعل شيخه أبا عبد الله بن يوسف بن وانودين، فكان دخوله مراكش في الحادي والعشرين لذي القعدة، وبعد ذلك أذن جبل صنهاجة بالطاعة وانصرف جميع الأجناد.

ومما وقع من الأحداث بالأندلس في هذه السنة: وذلك لما عزم أمير المؤمنين أبو يعقوب على الانصراف من الأندلس إلى حضرته المراكشية، ترك على قرطبة أخاه الحسين، وعلى إشبيلية أخاه أبا الحسن، فالتزما في ذلك الحد الألزم، ومشيًا في الثغور نظرهما الأقدم، وعندما تحقق العليج الغادر نونه صاحب طليطلة ظهير أذفونش أخزاه الله رحلة الخليفة أبي يعقوب عن الأندلس^(١)، نقض العهد ورفض السلم والعقد، فخرج بجمعه الذميم ونازل مدينة كونكة^(٢)، فاستغاث أهلها بأمر المؤمنين، وكان الناس من ضعف المراض والطاعون على الحركة لا يقدرّون، فوصل الأمر إلى السيدين المذكورين يؤكد عليهما أن يتحرّكا لغزو جهات طليطلة وطبيرة^(٣) لعل العدو يقلع عن كونكة المذكورة.

فخرج عسكر قرطبة مع السيد أبي الحسن يوم الاثنين السادس من شوال، وأغار على جهة^(٤) طليطلة وانصرف سالمًا غانمًا، وخرج بعسكر إشبيلية السيد أبو علي الحسين في أربعة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل إلى جهة طبيرة وفتح حصنًا

(١) قوله: «عن الأندلس» سقط من ق.

(٢) هكذا تكتب، وتكتب بالقاف أيضًا، وهي كاف أعجمية.

(٣) هكذا في النسخ جميعًا، ولعله يقصد: طبيرة، إذ هي من أعمال طليطلة (معجم البلدان ٤/ ٣٧)،

والملاحظ أن صاحب الروض المعطار شك فيها إذا كانت طبيرة هي طبيرة (ص ٣٨٧)،

وذكر الإدريسي أن طبيرة: قرية على مقربة من الساحل بالبرتغال Tavira (ص ١٧٩)، ومن ثم

فالأصوب أنها: طبيرة.

(٤) سقطت من ق.

على ضفة الوادي إشبيلية من طَبِيرة^(١)، فسبى جميع مَنْ وَجَدَ فيها من النساء والصبيان وقتل الرجال، وكان قد حَلَفَ أن يجوزَ واديَ باجة^(٢) نكايَةً للنصارى أهلكهم اللهُ فَبَرَّ بيمينه، وجازه في قارب كان قد استأقَه من إشبيلية على الظَّهر لهذا المعنى، ثم إنه أَقْلَعَ بمَحَلَّتِهِ مُغِيرًا على ضفة وادي باجة^(٣) ثم انصرف إلى إشبيلية بالغنائم والأسرى سالمًا غانمًا.

ثم خَرَجَ بعدَ ذلك اللَّعِينُ صاحبُ السبْطاط الملقَّب بالسيبوجَ بِجَمْعِهِ الذِّمِيمِ فجازَ في إغارته واديَ إشبيلية ووصلَ إلى نَظَرِ أَرَكُش وشَرِيش، فخرَجَ إليه عسكرُ المسلمين من إشبيلية فَتَبِعَهُمْ فَلَحِقَ جُمْلَةُ من أهل طَبِيرة النَّصارى مُنْصَرِفِينَ إلى بلادهم^(٤) فما شَعَرُوا حتَّى أَحْدَقَ بِهِم عسكرُ الموحِّدين فقتلوا فيها أَجْمَعِينَ وَأَنْقَذَتِ الغنائمُ التي كانت بأيديهم من البقر والغنم وثمانينَ عِلْجًا من أدِلَّائِهِمْ، فَرحَلَ العسكرُ المذكور [إلى]^(٥) إشبيلية بالتبريز إليهم والعلامات والطبول والنظارة من العامة مسرورين، فَصَفَّتِ الأَعْلَاجُ بَيْنَ يَدَيِ السَّيِّدِ أَبِي عَلِيٍّ الحُسَيْنِ ابنِ أميرِ المؤمنين ثم أَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِهِمْ فقتلوا أَجْمَعِينَ بِمَحْضَرِ الموحِّدين، وبقي السَّيِّدانِ ببلدَيْهِمَا ظَاهِرَيْنِ ظَافِرَيْنِ في حركتهما إلى أن استدعاهما الخليفةُ أَبُو يَعْقوبَ.

وفي سنة ثلاثٍ وسبعينَ وخمسَ مئة: كان استدعاءُ أميرِ المؤمنين أَبِي يَعْقوبَ أَخَوَيْهِ: أبا عَلِيٍّ الحُسَيْنِ وأبا الحَسَنِ عَلِيًّا إلى حضرته مَرَّاكُش، وكان خروجهما من إشبيلية يومَ الثلاثاء الثامن من شهرِ رمضانَ المعظَّم، ومَشَى في صُحْبَتِهِمَا أَبُو داودَ ملول ابن جلداسن لِيَتَبَيَّنَ أَعْمَالَ إشبيلية، وصَحِبَهُمَا أَبُو عَلِيٍّ بن عَرُونَ وَجُمْلَةُ من أشياخ الموحِّدين الإشبيليين، وَجَدُوا في السَّيْرِ إلى أنْ وَصَلَا حَضْرَةَ مَرَّاكُشَ وَعَيَّدَا فيها عيدَ الفطر مع أخيهما وأقاما معه بحضرة مراكش شهر شوال وذا القعدة وذا الحجة في

(١) هكذا في النسخ، وهو نص مضطرب، فلعل المقصود وادي تاجة، حيث تقع عليه طلبيرة.

(٢) هكذا في النسخ ولعل الصواب «تاجه».

(٣) كذلك.

(٤) في ك: «بلادهم».

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة متعينة.

المفاوضة في مصالح المسلمين ومحاربة أعداء الله الكافرين، وأمرهما بالانصراف إلى بلديهما: قُرْبَةُ وإشبيلية، فوصلا إليهما في شهر محرم من عام أربعة وسبعين وخمس مئة.

وفي هذه السنة، وهي سنة ثلاث وسبعين: كانت السطوة بالوزراء والعَمَّال الخدماء، فمنهم: ابن جامع وبنوه وغيرهم، وكان لهم في الوزارة خمس عشرة سنة، وأقاموا بمدينة ماردة مغربيين مهجورين ستة أعوام إلى أن مات أبو يعقوب في غزوة شنترين. ثم لما استخلف أبو يوسف عفا عنهم وعن سواهم، ومن انتقم منه أبو عبد الله محمد ابن المعلم، وكان مشرف إشبيلية، انتقدت عليه أخبار شنيعة وأحوال فظيعة، فأمر بسجنه وأخذ ما بيده، فلم يبق له سبَد ولا لَبَد^(١)، وتفرقت جميع أحواله شذر مذر، وضربت بعد حنة عظيمة عنقه رحمه الله. وكذلك ابن فاخر مشرف سجلماسة وأبو الحسن علي بن حنون، رحمهم الله تعالى.

وفي سنة أربع وسبعين وخمس مئة: بعث الخليفة أبو يعقوب ابني أخيه أبي الحسن إلى بلاد الأندلس، فولّي أبو زيد غرناطة، وولّي أبو محمد عبد الله مالقة.

وفيها: توفي أبو علي الحسين ابن الخليفة عبد المؤمن، وكان الوالي على إشبيلية.

وفيها: كانت وفاة أبي العباس ابن الخليفة عبد المؤمن بمدينة سجلماسة، وكان واليًا عليها.

وفيها: توفي أبو علي ابن غرون، والقاضي أبو القاسم فضيل، وأبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضرة بمراكش، وكان من أهل العلم والدين والحفظ لحديث رسول الله ﷺ ولم يزل عند الخليفة أبي محمد عبد المؤمن في حُظوة مكينة، وكذلك عند الخليفة أبي يعقوب، وكان يرفع له المسائل ويتناول توصيل الوسائل ويرفع أشعار الشعراء وإخراج الجزاء وتقدم للخطابة والصلاة بأمير المؤمنين، وإذا وصل كتاب فتح أو غيره قرأه، إلى غير ذلك، وكان له أدب غصّ وشعر في الزهد ومكفرات، ولم يزل في عزّ وتمكين إلى أن توفي رحمه الله.

وفي هذه السنة: كان سيل كثير بوادي إشبيلية خرج على جنبات طرقاته.

(١) أي: ماله قليل ولا كثير.

وفيهما كثر طلبُ العدوِّ ابنِ الرِّنك في البرِّ والبحر، فدوَّخ بعضُ القرى في الشَّرَف وغيره، فنظر الخليفةُ في بَعَث ابنه أبي إسحاق واليًّا على إشبيلية في عسكر ضخم.

وفي سنة خمس وسبعين وخمس مئة: اشتدَّت فتنةُ النَّصارى في البرِّ والبحر، فولى أميرُ المؤمنين غانم^(١) بن مُردنيش على الأسطول بسبَّته، فعبرَ البحرَ أولاً غازياً مدينةَ أشبونة فتغلَّب فيها على قطعتين من قطائع الرُّوم وانصرف إلى سبَّته، ثم عبرت بعد ذلك جُملةُ ذميمةٍ من الشَّياطين إلى شلطيّش^(٢) فتغلَّبوا عليها وأسروا فيها من المسلمين خلقاً كثيراً وفكَّ الله أسرَهم بالفداء منهم.

وفيهما: كانت وفاةُ السيِّد أبي حفص ابن الخليفة عبد المؤمن في ربيع الأول، وهو الذي كرَّر غزواته في المنافقين حتى أدَّعَنوا طائعين، وأنقَذ الثَّغورَ من أيدي الكافرين.

وفيهما: ارتحل السيِّد أبو عليِّ الحُسين ابن الخليفة عن قُرْبَة بجميع أهله وولده ورجاله، ثم تبعه أبناءُ أخيه المتوفَّى أبي حفص وساروا بأجمعهم إلى مدينة مراكش، وكان اجتماعهم بها ممَّا جدَّد الأُنس وأبهج النَّفس، ثم سألهم عن أحوال الأندلس فأخبروه أنَّ صاحبَ طُلَيْطَلَة أظهرَ نَقْضَ الصُّلح وبالغَ في الغارة والقُبْح، فغار أميرُ المؤمنين لذلك وجمعَ أشياخَ الموَحِّدين فأعلَمَهم بهذا الخبر، فغاروا لغيرته وتألَّموا من شُغلِّ بالِه وفكرته، وأخذوا في الاستعداد وخلص نيَّتَهم في الجهاد، ونظرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ في استجلاب العرب من إفريقيَّة وعزَم على الغزو إلى مدينة قَفْصَة لأنَّ يحسِمَ علَّها ويسدَّ خلَّها.

ذكرُ حركة الخليفة إلى إفريقيَّة

وغزوته إلى مدينة قَفْصَة^(٣)

قال الراويةُ الثَّقَّة: كان خروجه من مراكش يومَ الخميس خامسَ عشرَ من شوال من سنة خمس وسبعين وخمس مئة، وذكرَ ابنُ صاحب الصلاة قال: حدَّثني أبو الحسن الهَوْزَنِيُّ أنَّه كان يُعطي في البركة لعساكره في غزوته إلى قَفْصَة ألفَ ألفِ دينار،

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٧.

(٢) وقع في بعض النسخ: «سلطين»، وهو تحريف، وينظر معجم البلدان ٣/ ٣٥٩.

(٣) ينظر كامل ابن الأثير ١١/ ٤٦٧-٤٦٨، والمعجب ٣٢٥، والاستقصا ٢/ ١٥٢.

تَمَادَى ذَلِكَ مَدَّةَ غَزْوَتِهِ إِلَى أَنْ انصَرَفَ، سَوَى الْعُلُوفَاتِ وَالْمَوَاسَاتِ وَالْمَرَافِقِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ، وَكَتَبَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الطَّلَبَةِ الَّذِينَ بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ مَعْرِفًا لَهُمْ بِغَزْوَتِهِ وَحَرَكَتِهِ، فَلَمَّا عَيَّدَ عِيدَ الْأَضْحَى مِنَ السَّنَةِ حَضَّ عَلَى الْبِدَارِ إِلَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ، وَالسُّلُوكِ فِي الْأَكَامِ وَالْمِهَادِ، وَقَدَّمَ ابْنَهُ الْمَنْصُورَ أَبَا يَوْسُفَ، فَوَصَلَ تِلْمِسانَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ.

وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ فِي أَوَّلِهَا: اسْتُكْمِلَتِ الْعَسَاكِرُ الْمُوحِدِيَّةُ بِتِلْمِسانَ، وَعَبَّأَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ جِيُوشَهُ بِأَحْسَنِ التَّعْبِيَةِ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ بِرَسْمِ الْغَزْوِ إِلَى قَفْصَةِ وَبِلَادِ الْقَيْرُوانِ، حَتَّى وَصَلَ بِجَايَةِ، فَلَمَّا احْتَلَّهَا تَحَقَّقَ عِنْدَهُ أَنَّ ابْنَ الْمَنْتَصِرِ يَحْرِضُ الْعَرَبَ عَلَى الْفِتْنَةِ وَأَنَّهُ يُوَاصِلُ الْمَمْتَنِعَ بِقَفْصَةِ وَيُؤَالِيهِ عَلَى الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ وَدَخِلَتْ دَاوْرُهُ فَوُجِدَ فِيهَا مَخَاطِبَاتُ الْعَرَبِ إِلَيْهِ بِجَوَابِهِ بِمَا يَشْهَدُ عَلَيْهِ وَيَحَقِّقُ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، فَأَخَذَ مَا كَانَ بِيَدِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَسَارَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بِجَايَةِ حَتَّى كَانَ بِقُرْبٍ مِنْ قَفْصَةِ وَصَلَ إِلَيْهِ جَمِيعُ أَشْيَاخِ الْعَرَبِ مِنْ قَبِيلِ رِيَّاحِ الْبِدَارِ وَالْمَسَارِعَةِ إِلَى الطَّاعَةِ طَالِبِينَ الْأَمَانَ فِي دُورِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، فَأَسْعَفُوا فِيمَا طَلَبُوا، وَأَسْعَدُوا عَلَى مَا فِيهِ رَغَبُوا، وَنَازَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو يَعْقُوبَ قَفْصَةَ مُحَاصِرًا، وَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُهُم بِالْمَنْجَنِيْقِ وَغَيْرِهِ إِلَى أَنْ رَغَبُوا فِي الْعَفْوِ فَأَعْفُوا، وَافْتَتَحَتْ قَفْصَةُ وَأَسْكَنَهَا بِعَسْكَرٍ مِنَ الْمُوحِدِينَ وَنَزَلَ عَنْهَا الشَّقِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالطَّوِيلِ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ سِتَّةٍ وَسَبْعِينَ.

وَلَمَّا افْتَتَحَهَا رَحَلَ عَنْهَا إِلَى تُونُسَ وَخَاطَبَ أَهْلَ حَضْرَةِ مَرَّاكُشَ وَأَهْلَ الْأَنْدَلُسِ وَبَعَثَ مَعَ الرِّسَالَةِ بِقَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا [مِنْ الطَّوِيلِ]:

وَلَمَّا انْقَضَى الْفَتْحُ الَّذِي كَانَ يُرْتَجَى	وَأَصْبَحَ حَزْبُ اللَّهِ أَغْلَبَ غَالِبٍ
وَأَنْجَزْنَا وَعْدُ مِنَ اللَّهِ صَادِقُ	كَفَيْلُ بِإِبْطَالِ الظُّنُونِ الْكَوَاذِبِ
وَهَبُّوا كَمَا هَبَّ النَّسِيمُ إِذَا سَرَى	وَلَمْ يَتْرُكُوا بِالْشَّرْقِ عِلْقَةَ آيِبِ
يَغْصُ بِهِمْ عَرُضُ الْفِيَا فِي وَطُولِهَا	وَقَدْ زَاخَمُوا الْآفَاقَ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
كَأَنَّ بِسَيْطِ الْأَرْضِ حَلْقَةَ خَائِمِ	بِهِمْ وَيَعْمُ الْبَحْرُ بَعْضُ الْمَذَانِبِ

وَمَدَّ عَلَى رَغْمِ الصَّغَارِ لِسْلِمِنَا
يُصْرِّحُ بِالرُّغْبَى وَبَيْنَ ضُلُوعِهِ
وَعَى مِنْ لِسَانِ الْحَالِ أَفْصَحَ خُطْبَةً
وَأَصْبَحَ مَنَحُوتِ الْفُؤَادِ يَحُثُّهُ
فَأُسْعِفَ وَالْمَطْلُوبُ مَا لَا يَظُنُّهُ
أَشْرَنَا بِأَعْنَاقِ الْجِيَادِ إِلَيْكُمْ
إِلَى بُقْعَةٍ قَدِ يَمُنُّ اللَّهُ فَضْلَهَا
سَنَطْوِي إِلَيْهَا بِالذَّمِيلِ مَرَّاحَلًا

يَدِيهِ عَظِيمُ الرُّومِ فِي حَالِ رَاغِبٍ
تَنْفُسُ مَذْعُورٍ وَزَفْرَةُ رَاهِبٍ
وَمَا صَمَتَتْ عَنْهُ فِصَاحُ الْقَوَاضِبِ
إِلَى الْمَقْصِدِ الْمَطْلُوبِ صُورَةُ طَالِبٍ
وَاللَّهُ سِرٌّ فِي هُدُونِ الْمُحَارِبِ
وَعُجْنَا عَلَيْكُمْ مِنْ صُدُورِ الرِّكَائِبِ
بِمَنْ حَلَّ فِيهَا مِنْ إِمَامٍ وَصَاحِبٍ
وَنَثْنِي إِلَيْهَا الْعَزْمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

وهي طويلة من قول الكاتب المتطبَّب أبي بكر ابن طُفَيْل الوادي آشي، وعظيم
الروم الذي ذُكر فيها هو صاحبُ صِقْلِيَّةَ والجزائر الشرقية.

ولمَّا وَصَلَ هَذَا الشَّعْرُ فِي طَيِّ الرِّسَالَةِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةَ اسْتَبَشَرَ
النَّاسُ بِمَا يَسَّرَ اللَّهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْفَتْحِ وَكَرِيمِ النُّجْحِ، وَقَابَلَتْ مِنْهَا الْعَيُونُ لَذِيذَ
الْوَسْنِ وَالْكَرَى، وَاجْتَمَعَتْ أَشْيَاخُ إِشْبِيلِيَّةَ بِرِسْمِ التَّهْنِيَةِ لِلسَّيِّدِ أَبِي إِسْحَاقَ فَهَنُوهُ
عَلَى ذَلِكَ، وَقَامَ ابْنُ الْجَدِّ خُطِيبًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنشَدَ أَبُو مَرْوَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحَمَّدٍ فِي
الْمَعْنَى قَصِيدَةً أَوَّلُهَا [مِنَ الْكَامِلِ]:

فَتَحَّ يَفُوتُ مَدَارِكُ الْأَوْهَامِ
صَدَعُ الدُّجَى صَدْعُ الرَّدَاءِ بَنُورِهِ
خَيْرُ الْبَشَائِرِ صُوِّغَتْ حَمْلَ الْمُنَى
وَأَفَتْ كَمَا ابْتَسَمَ الْأَمَانُ لَخَائِفِ
لَمَّا طَوَى طَيِّ السَّجَلِ مِشَارِقًا
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي فِي ظِلِّهِ
وَسَطًا وَجَادًا وَمَا تَبَاطَأَ شَاوُهُ
وَيُعْجِزُ الْإِحْصَاءَ بِالْأَقْلَامِ
فَأَرَى الْغُوَاةَ تَقْضِي الْأَحْلَامِ
بِقِفُولِ خَيْرِ خَلِيفَةِ وَإِمَامِ
وَانْهَلَّ إِثْرُ الْمَحَلِّ سَكْبُ غَمَامِ
أَمَّ الْمَغَارِبَ نَاصِرُ الْإِسْلَامِ
أَمِنْ الْمَرْوُوعِ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ
أَسْدُ الْعَرِينِ وَلَا الْعَمَامِ الْهَامِي

وَجَرَى عَلَى نَهْجِ الْخِلَافَةِ تَابِعًا آثَارَهَا فِي النِّقْضِ وَالْإِبْرَامِ
هَنَاتْنَا نَعْمَى تَجِلُّ عَنِ الْمُئْنَى قَدْرًا وَقِسْمًا لَيْسَ كَالْأَقْسَامِ

ولَمَّا أَنْفَذَ الْخَلِيفَةُ أَبُو يَعْقُوبَ عَسَاكِرَ الْعَرَبِ إِلَى الْعَرَبِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي رِسَالَتِهِ
الَّتِي بَعَثَهَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ، أَخَذَ قَافِلًا مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ إِلَى مَرَّاكُشَ وَتَرَكَ مُسْتَنَابًا عَلَى إِفْرِيقِيَّةَ
أَخَاهُ أَبَا عَلِيٍّ الْحَسَنَ بِمَدِينَةِ تُونُسَ، وَوَلَّى أَخَاهُ أَبَا مُوسَى بَجَايَةَ وَأَنْظَارَهَا، وَحِينَئِذٍ أَخَذَ
فِي الْإِنْصِرَافِ وَالْقُفُولِ إِلَى حَضْرَتِهِ، وَكَانَ وَصُولُهُ إِلَى فَاسَ فِي شَهْرِ صَفَرٍ مِنْ عَامِ
سَبْعَةِ وَسَبْعِينَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَهِيَ سَنَةُ سِتٍّ وَسَبْعِينَ: أُسِرَ غَانِمُ بْنُ مُرْدَنْيَشَ قَائِدُ الْأُسْطُولِ
بِسَبْتَةِ وَأَخُوهُ أَبُو الْعَلَى وَجُمْلَةُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَاسْتُشْهِدَ بَاقِي إِخْوَتِهِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَاحْتَوَى النَّصَارَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْقَطَائِعِ وَعَلَى مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ، وَانْصَرَفُوا إِلَى أُشْبُونَةَ، وَذَلِكَ فِي مَتَصِفٍ مُحَرَّمٍ، فَتَقَاطَعَ غَانِمٌ بِهَالٍ عَظِيمٍ وَكَتَبَ
لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَوْضِعِ اعْتِقَالِهِ بِوَصْفِ أَسْرِهِ وَسُوءِ حَالِهِ، فَوَصَلَ كِتَابُهُ إِلَى تِلْمَسَانَ فِي
أَوَّلِ صَفَرٍ، فَأَمَرَ فِي الْحَيْنِ لِأَبِي الْقَمَرِ هَلَالِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُرْدَنْيَشَ أَخِي غَانِمٍ أَنْ يَنْصَرِفَ
إِلَى حَضْرَةِ مَرَّاكُشَ لِيَنْظُرَ فِي فِدَاءِ أَخِيهِ، وَأَمَرَ بِإِنْشَاءِ الْأُسْطُولِ بِإِشْبِيلِيَّةَ، فَلَمَّا وَصَلَ أَبُو
الْقَمَرِ إِلَى مَرَّاكُشَ حَضَرَ الْمَالُ وَبَعَثَ بِهِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ، فَانْصَرَفَ الْفِكَاكُ بِهِ وَدَفَعَهُ إِلَى الْعَدُوِّ،
وَانْطَلَقَ غَانِمُ الْمَذْكُورُ مِنَ الْأَسْرِ وَأَخُوهُ وَمَنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ.

ثُمَّ كَثُرَ كَلْبُ الْعَدُوِّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ فِي الْبَحْرِ، وَكَانَ النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ طُلَيْطَلَةَ
وَشَنْتَرِينَ طَوَّلَ مَدَّةَ مَغِيبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَلْحُوا عَلَى جِهَاتِ الْأَنْدَلُسِ بِالنَّكَايَةِ
وَشَنَّ الْغَارَاتِ عَلَى الْقُرْبِ وَالْبَعْدِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا وَصَلَتِ الْبَشَائِرُ بِوَفَادَةِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ نَشِطَتِ النُّفُوسُ لَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْكَفَّارِ، فَأَبْلَوْا فِيهِمْ بِلَاءً مِمَّنْ أَخَذَ بِالثَّارِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: تَوَفَّى أَبُو يَعْقُوبَ ابْنُ بَخِيْتِ بَغْرَنَاطَةَ، وَالْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ
ابْنُ الْقَاضِي عِيَاضَ، وَأَبُو الْحَسَنِ ابْنُ يَرْبُوعَ قَاضِي مَالَقَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسٍ مِئَةٍ: وَصَلَ الْبَشِيرُ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ بِوُصُولِ الْخَلِيفَةِ
إِلَى حَضْرَتِهِ، فَمَشَى السَّيِّدُ أَبُو إِسْحَاقَ مِنْهَا لِلِقَاءِ أَبِيهِ وَتَهْنِئَتِهِ وَمَشَى صُحْبَتَهُ ابْنُ وَانُودِينَ

وغيره من الموحدّين وأشياخ إشبيلية، وعندما علّم أشياء قُرطبة وغرناطة ومُرسيّة بيدار أهل إشبيلية أخذوا في المَشْيِ إليه والوفود عليه، فوصلوا مع السيّد أبي عبد الرحمن يعقوب بن عبد المؤمن الوالي على مُرسيّة، ثم إنّ هذا الوفد المذكور أقام بمراكش إلى أوّل شهر ذي القعدة ثم انصرفوا إلى بلادهم.

وفي هذه السنة: عسكر أبو عبد الله محمد بن وانودين الهنتاتي بجميع الموحدّين من أهل إشبيلية وجميع مَن كان فيها من الأجناد، وحشد أهل الحصون من الحيل والرّماة، وخرج من إشبيلية في غاية من الاستعداد، فغنم المسلمون جميع ما وجدوه بخارج يابرة من الغنم والبقر، ونازلهم في يوم عاشوراء، وأمر بقطع ثمارها وأشجارها وكرومها وإعفاء رؤومها، وابن وانودين يقدّم المسلمين كالليث الضاري، ويستعين في جهاده بالخالق الباري - والكفرة أهلكهم الله قد أنجحروا خلف سورهم أنجحار الثعالب العاوية إذا سمعت زئير الأسود العادية - ولقد كان يومًا في خبائه نائمًا في القائلة والمسلمون يُغيرون في كلّ جهة، فخرجت النصارى من يابرة في حين غفلة، فاستيقظ من نومه، وركب من قوره، فهزمهم أجمعين حتى تساقطوا في حفير السور رجالًا دون دواب، فأخذت دوابهم وأسلابهم وقتل منهم خلق كثير ولم يخرج منهم بعد ذلك قليل ولا كثير. وأقام ابن وانودين عليها يومين وانصرف عنها بالعسكر فصبّحوا حصنًا آخر للنصارى يُسمّى حصن فنج^(١) فساء صباحهم ولم يستيقظوا من سكرتهم إلا والليل قد أحاط بهم من كلّ جانب فتغلّب على الحصن، وفتحته ومنحه الله من المغنم ما منحه فسبى من النساء أربع مئة بين كبيرة وصغيرة، ومن الرّجال مئة وعشرين وقتل منهم خلقًا كثيرًا، ودخل إشبيلية في داخل المُحرّم في تبريز وحفل عظيم، وباع السبي بها فكثّر عند الناس الخدم، وامتدت النعم.

وفي هذه السنة: كانت وقعة أيضًا على النصارى في البحر، وذلك أنّ قائد سبّته عبد الله بن جامع، وهو المُوَلَّى عليها، حين أُسر غانم بن مُردنيش، خرج منها بالأسطول، وخرج القائد أبو العباس الصّقيّ من إشبيلية بأساطيلها، واجتمعوا جميعًا

(١) هكذا في النسخ كافة وقد ترسم «بنج» لأن أصلها باء أعجمية P، ونبه هويسى ميرندا إلى أن الصواب فيه قليج.

بجزيرة قَادِسَ وقد استكملوا أربعين قطعةً، فنهضوا منها بجمعهم إلى جهة شَلْب، فالتقوا بأسطول أهل أُشْبُونَةَ بالموضع الذي أُسِر فيه غانمُ بن مُردْنِش في البحر، وعكس فيه في مُنتَصَفِ حَرَمٍ من العام الفارط فالتقوا الآن في الخامس عشر من حَرَمٍ أيضًا، وهذا من أغرب الأشياء، فنَصَرَ اللهُ المسلمين في هذا اليوم نصرًا مؤزَّرًا وقتل من النَّصارى كثيرًا وأسر منهم نحو الألف وثمان مئة، ولم يمت فيه من المسلمين^(١) إلا رجلٌ واحد وأُخذت لهم من القطائع نحو العشرين مع أسلابهم وأسلحتهم واقتسموا الغنيمة من الأسرى وغيرهم وانصرفوا ظاهرين ظافرين إلى موضعهم، وبادر القائدان المذكوران: ابنُ جامع والصَّقِيُّ بغنيمتيهما من الأسرى إلى أمير المؤمنين فأعطى منهم البعض في فداء غانم من مُردْنِش وضربت أعناقُ الباقين.

وألحَّت خيلُ النَّصارى أهلكهم الله من أهل شَنْتَرِينَ بالضرب على بعض بلاد المسلمين بالشَّرَف وغيره، فخرج إليهم عسكرُ المسلمين من إشبيلية فتقاتلوا قتالًا شديدًا، وقتل فيه من النَّصارى نحو مئة وسبعين، ثم خرج كمينهم فانهزم المسلمون واستشهد منهم جماعة. ثم توالَّت خيلُ طُلَيْطَلَةَ بالضرب على إِسْتِجَةَ وَجْهَةً قُرْطَبَةَ فخطب بذلك الخليفة بالحضرة.

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة: وقَعَت بالأندلس أحداثٌ قبيحة، فمن ذلك: أنَّ خيلَ النَّصارى من جهة شَنْتَرِينَ وإشْبُونَةَ وصلوا إلى قرية شُلُوقَةَ^(٢) من الشَّرَف، ففَضَرُوا عليها في ألفِ فارس وألفِ راجِلٍ وقتلوا مَنْ وَجَدُوا من المسلمين وأسروا وغَنِمُوا وأغاروا على حصن القَصْرِ وغيره، وانصرف هذا العدو دَمَرَهُ اللهُ على طريق لُبْلَةِ موفورون، والمسلمون بين أيديهم مأسورون.

وحادثٌ أيضًا، وهو خروجُ الطاغية العدو أذْفُونُش الصَّغِيرُ أهلكه اللهُ إلى بلادِ المسلمين بجمعِهِ الذَّمِيمِ زاعِمًا أنه يحتوي على الأندلس، ووصلَ وَقَدْ إلى إشبيلية من قُرْطَبَةَ يَعْرِفُونَ أنَّ الطاغية أذْفُونُش ابنُ شانجَةَ ملك قَشْتَالَةَ وَطُلَيْطَلَةَ قد وصل بجموعِهِ لحصارِ قُرْطَبَةَ، فارتفع السَّعْرُ بها ارتفاعًا عظيمًا، ثم ترادف الخبرُ بنزوله

(١) قوله: «من المسلمين» سقط من ك.

(٢) معجم البلدان ٣/ ٣٥٩.

عليها وانتقاله بعساكره الدّميمة إليها في الرابع من صَفَر، فنزَلَ بمقرّبة منها وشَنَّ غاراته إلى جهة مألّقة ورُنْدَة وغَرْناطة، فغلا السعْرُ لذلك وعظُمَت الضّيقة، ونظرَ ابنُ وأنودين في توجيه الموحدّين لضبط البلاد المجاورة لإشبيلية وشدّها بالرّجال، ودَفَعوا بعضَ صَرَرِ النّصارى بفحص قَرْمُونَة وأبو عبد الله ابنُ وأنودين شديد العزم والحزم في النّظر حول إشبيلية وخيلُ العدوِّ تَجُولُ يمينًا وشمالًا في اكتساح وتدمير. ثم نازَلَ إستِجَة ولازَمَها حتى نَقَبَ سُورَها وكاد يتغلَّبُ عليها، وكان حافظُها أبو محمد ابنُ طاع الله الكومِي^(١)، فثَبَّتَهُ اللهُ فيها وثَبَّتَ أقدامَ المسلمين. ولَمَّا كان يومُ الخميس الثالث عشرَ لَصَفَرٍ أَقْلَعَ من إستِجَة يريدُ إشبيلية، فأقام العدوُّ في فسادٍ وتدمير، وفي خلال ذلك دخلَ حصنًا من عَمَلِ رُنْدَة بغدْرٍ يهوديٍّ دَهَمَ على عوراته، وأخذوا فيه أَلْفَ نَسَمَة وأربع مئة ما بينَ رجلٍ وامرأة، وأحرقوا الزَّرُوعَ بنظر الجزيرة ورُنْدَة حتّى اجتمع عندهم من المغنم من كلّ قُطْرٍ وجهة ما لا يُحِيطُ به الوَصْف.

وحادثٌ أيضًا، وهو تغلُّبُ العدوِّ على حصن شنتفيلة^(٢) والمنار على ما كان عليه من الامتناع والارتفاع، فطَمِعَ العدوُّ في غيره، وقال لأقماطه حين أخذ شنتفيلة: الآنَ أَخْذُ قُرْطُبَة وإشبيلية، وكان تغلُّبُه عليها في السابع عشرَ من صَفَر، فأَسْرَ فيه من الرّجال والنساء سبع مئة ففداهم أهلُ إشبيلية بألْفَيْنِ وسبع مئة دينار وخمسة وسبعين دينارًا ذهبًا، دَفَعَ منها ابنُ زُهر من ماله مئة دينار عَيْنًا والباقي جَمَعَهُ الناسُ بالمسجد.

وحادثٌ مَرُوعٌ أيضًا، وهو تحصينُ العدوِّ بشتفيلة وإسكانها بالنّصارى وجَلْبُ الأقوات إليها وتقويتُها بالعُدَد والآلات، فلمَّا أكْمَلَ مُرادَه أَسْكَنَ فيها خمس مئة فارس وألْفَ راجِلٍ وعاهدَهم على حمايتهم وإعانتهم، وأقْلَعَ لعنه الله إلى بلاده في الثالث عشرَ لشهر ربيع الأول من السنة، وكان تدوينُه أَقْطَارَ الأندلس خمسة وأربعين يومًا. ولَمَّا مُحَقَّقُ انصرافِ العدوِّ إلى بلاده اجتمع رأيُ الموحدّين على مُنازلة شنتفيلة ودَفَعَ دائها العُضال.

(١) اسمه عبد الله، وينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٢، والاستقصا ٢/ ٢١٧.

(٢) وتكتب «شت فيلة» كما في معجم البلدان ٣/ ٣٦٧.

ذكرُ مُنازلة شتيفيلة التي غدرها اللّعينُ في هذه السنة

فاستنفر السيّد أبو إسحاق ابنُ الخليفة أبي يعقوبَ صاحبُ إشبيلية جميعَ الأجنادِ والحشود من بلادِ الأندلس برسمِ الجهاد، فوصلوا أجمعين، فتحرّك من إشبيلية غرّة ربيع الآخر من سنة ثمانٍ المؤرّخة، واتفق في هذا اليوم فتحُ استبشّر الناسُ به، وذلك أنّ أكثرَ النّصارى الذين كانوا بشتيفيلة خرجوا منها وأغاروا على بعض الجِهاد، فخرج المسلمون في اتباعهم من قَرْمُونَة وغيرها فالتقوا معهم وهزموهم وقتلوا منهم سبعينَ فارسًا وأسروا آخرينَ واستاقوهم مكبولينَ إلى السيّد أبي إسحاق، فضرب أعناقهم في الطريق.

ولما وصلتِ العساكرُ إلى شتيفيلة أحدقوا بها من كلّ جانب، فضاحت حالُ الكفّرة وعدموا الشّعيرَ لعلّف دوابهم فعلفوها القمحَ فمات أكثرُها، فأقام المسلمون عليهم ستّة وأربعينَ يومًا، فلما كان السادسُ لجمادى الأولى وصل الخبرُ أنّ أذقُونش خرج من طليطلة قاصدًا لنصرِ إخوته الملعونين، فأقْلَعَ السيّدُ والموحدون وانصرفوا إلى إشبيلية، ثم وصل العدوُّ بعد أربعة أيام من إقلاع المسلمين، فخرج إليه من شتيفيلة إخوته الكفّرة فميّزهم فلم يجدْ من الخمس مئة فارس إلا خمسينَ فارسًا ومات الباقون بالقتلِ والوباءِ وعلّف القمحَ للدواب، ولم يجدْ من الرجال إلا ست مئة من ألف، فأمرَ لهم بالرحيل عنها والإخلاء منها في الخامس عشرَ لجمادى الأولى من السنة.

اختصارُ الخبر عن حركة الخليفة أبي يعقوبَ إلى بلاد السّوس

لقطع المنافقين عن المعدن

وذلك أنه لما صحَّ عند أمير المؤمنين أنّ المعدن الذي بجبل السّوس على مقربة من بلاد هرغة قد أُخرج منه شيءٌ لم يُعهد في قديم الزّمان ولا سلّه قطُّ أهل ذلك المكان، وظهر أهل هذا الجبل بما تحصّل في أيديهم منه واعتصّبوه لأنفسهم دونَ حقّ منه للخليفة، فعسّكر في أوّل صفر من سنة ثمانٍ وسبعينَ وخمس مئة وخرج من حضرة مرّاكش لتحصينه وتحصيله، فوصل إلى المعدن المذكور، فنظر الخليفة في بناء حصن عليه وأسكنه بالأجناد واستعدّ لتحصينه غاية الاستعداد. فلما أكمل غرضه أقْلَعَ بمحلاته

عنه وسلك على مسالك المَهْدِيّ وزار قبره وقبر أبيه عبد المؤمن وأظهر الإيجاش إليهما وأسكب عبراته عليهما، وأمر وفود الأندلس أن يسيروا من مراكش إلى زيارتهما.

قال أبو مروان عبد الملك بن محمد في تاريخه: وكنت في وفد إشبيلية، فزرت القبرين المكرمين بتينمل مع أبي بكر بن زهر وأبي الوليد بن رشد، وأمر طلبة^(١) الحضر أن يَرْتُوها ويذكروا غرّ فضائلها ومآثرهما، فقال الناس في ذلك وأطنبوا، فحبّاهم عليه بالعطاء الكثير، فمن ذلك قول أبي مروان بن خالد [من الطويل]:

مَجَارِي عِيُونِ الْمُسْلِمِينَ تَسِيلُ	دَمًا وَنَجِيعًا وَالدُمُوعُ هُمُولُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ عَمَّ صَرْفُهُ	فَفِي كُلِّ دَارٍ آتَةٌ وَعَوِيلُ
وَإِنْ طَالَ فِي الدُّنْيَا مَقَامٌ لِأَمْرٍ	فَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ رَحِيلُ
فِيَا رَوْضَةَ الْمَهْدِيِّ حَلِّ بِكِ الْهُدَى	وَسِرِّ مَعَ الْأَيَّامِ لَيْسَ يَحُولُ
أَحَقًّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِمَامُنَا	مَحَا الْقَمَرَ الدِّينِيَّ مِنْهُ أَفُولُ
أَحَقًّا مَضَى الْمَنُصُورُ وَاخْتَارَ رَبَّهُ	فَلَيْسَ مِنْدَى الْأَيَّامِ مِنْهُ قُفُولُ
مَضَى بَعْدَ مَا أَحْيَا الْأَنَامَ بِهَدْيِهِ	وَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَهُوَ كَفِيلُ
وَطَهَّرَ دِينَ اللَّهِ مِنْ دَنَسٍ بِهِ	وَأَظْهَرَ هَدْيًا جَاءَ فِيهِ رَسُولُ
أَقَامَ بِأَعْلَى تَيْسَمَالَ وَإِنَّمَا	إِلَى جَانِبِ الْمَهْدِيِّ مِنْهُ نَزُولُ
هُمَا فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ فِي صَفْوَةِ الرِّضَى	مَقِيلُهُمَا عِنْدَ الْإِلَهِ مَقِيلُ
مَعَ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْأَنَامِ مُحَمَّدٍ	وِظْلُهُمَا عِنْدَ الْإِلَهِ ظَلِيلُ
فَطُوبَى لَأَرْضٍ حَلَّ فِيهَا إِمَامُهُ	وَلِلَّهِ مَهْدِيٌّ بِهَا وَخَلِيلُ
وَيَا عَجَبًا لِلْقَبْرِ كَيْفَ أُحْلُهُ	وَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا إِلَيْهِ حُلُولُ
فَحَقُّ لَأَهْلِ الدِّينِ سَكْبُ دُمُوعِهِمْ	وَحَقُّ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ تُكُودُ
فَتَبْكِي عَلَيْهِ الْخَيْلُ فِي حَالَةِ الْوَعَى	إِذَا كَانَ ضَرْبُ الْبَكَاءِ صَهِيلُ

(١) في ك: «بطلبة».

وَيَبْكِيهِ أَهْلُ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ دَائِمًا
كَأَنَّ الْغَوَانِي الْبَاكِيَاتِ حَمَائِمُ
لَئِنْ كَانَ أَصْلُ الْحَقِّ فِي التُّرْبِ قَدْ ذَوَى
فَأَلْقَى إِلَى خَيْرِ الْخُلَائِفِ عَهْدَهُ
إِلَى مَنْ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَكْثَرُ مَذْهَبٍ
إِلَى شَبْهِهِ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ وَالرَّضَى
هُوَ الطَّاهِرُ الصَّوَامُ كُلَّ زَمَانِهِ
فَلَا زَالَ مَنْصُورًا بِأَمْرِ مُظَفَّرٍ

وَتَنْذُبُهُمْ شُبَّانُهُمْ وَكَهُولُ
يُهَيِّجُهَا عِنْدَ الْعَشِيِّ هَدِيلُ
فَإِنَّ لَفَرْعِ الْحَقِّ مِنْهُ أَصُولُ
أَجَلٌ بَيْنَهُ وَهُوَ مِنْهُ سَلِيلُ
وَكُلُّ كَثِيرٍ فِي عُلاَةٍ قَلِيلُ
لَهُ الْخُلَفَاءُ الْكَافِحُونَ قَيْلُ
رُؤُوفٌ بِحَالَاتِ الْأَنَامِ مُقِيلُ
وَأَسْيَافُهُ فِي الْكَافِرِينَ تَصُولُ

وأما الرابطان اللتان بقرب الغار الذي في جبل إيجليز حيث كان المهدى رضي الله عنه، فالواحدة^(١) منهما تُسمَّى: رابطة وانسري، والأخرى: رابطة الغار، فكان الناس يأخذون التراب منها فيتبركون به ويجعلونه على المرضى. ولما انقضت هذه الزيارة انصرف الخليفة إلى مراكش وانصرف الناس معه.

وفي مدة هذه الحركة المباركة، كان خروج الطاغية أذفونش، لعنه الله كما تقدّم ذكره، إلى نظر قرطبة وإشبيلية، وأحدث فيهما من العيث ما أحدث، فرأى الخليفة أن ينظر للموحدين بالأندلس بتقوية عزيمتهم وإعمال جدّهم وحزمهم وأمرهم بالصبر، فيسّر الله سبحانه حديث شتفيلة على ما ذكرنا، ونظر ابن وأنودين الآن في الغزو على ما أذكره.

ذكر غزوة ابن وأنودين إلى طليّة^(٢)

ونظر أبو عبد الله ابن وأنودين في الجهاد، فاشتغل بحشد الأجناد، فاجتمعوا بإشبيلية على أكمل المراد، فتحرك بالعسكر في الثامن لجُمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين ومعه الموحّدون وأشياخ الأندلس، وسلك بهم على طريق قرطبة، ثم ترك طريقها

(١) يعني: الأولى، أو إحداهما.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٤. وفيه: «طليّة»، وأثبتنا ما في النسخ، وسبق أن علّقنا على هذا الأمر، فالمراد: طليّة.

وسلَّك على غير طريق، حتَّى خَرَجَ إلى حِصْنِ بَثَّةَ^(١) المنسوب لابن سعيد الحَير، ولَمَّا وَصَلَ إليه مَيَّزَ العسْكَرَ عليه فَأَلْفَى فِيهِمْ عَدَدًا وَافِرًا فَسَرَّهْ ذَلِكَ، وَتَشَاوَرَ مَعَ الْأَشْيَاحِ فَاتَّفَقَ رَأْيُ الْجَمِيعِ أَنْ يَضْرِبُوا عَلَى مَدِينَةِ طَبِيرَةَ، فَتَحَرَّكَ بِالْجَمِيعِ الْمَذْكُورِ مِنْ حِصْنِ بَثَّةَ وَسَارَ سِيرًا مُرْتَفِقًا بِالنَّاسِ مَدَّةً مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ بِالضُّبَابِ وَالْغَيْمِ حَتَّى خَفِيَ عَلَى النَّصَارَى وَصُولُهُ، فَلَمَّا كَانَ بِمَقَرَّةٍ مِنْهَا التَّقَوُّ بِسَرِيَّةٍ مِنَ النَّصَارَى نَحْوَ مِنْ عَشْرِينَ فَارِسًا فَأَحْدَقُوا بِهِمْ وَأَخَذُوهُمْ إِلَّا دَلِيلَهُمْ، فَإِنَّهُ فَرَّ، وَلَمَّا قُرِبَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ وَادِي تَاجِهَ^(٢) لَمْ يَجِدُوا مَغْنَمًا^(٣)، فَعَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ الْفَارَّ قَدْ أُعْلِمَ بِخَبَرِهِمْ وَكَشَفَ عَنْ أَثَرِهِمْ فَأَزْعَجُوا فِي السَّيْرِ إِلَى قُرْبِ طَبِيرَةَ فَأَغَارُوا عَلَى مَا وَجَدُوا مِنَ الْمَغْنَمِ فِي فَحْصِهَا وَسَارُوا عَلَى تَعْبِيَّةٍ وَتَرْتِيبٍ وَحَقَّقَ عَلَى عَبْدَةِ الصَّلِيبِ حَتَّى وَصَلُوا طَبِيرَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي مُتَنَصِّفِ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنَ السَّنَةِ الْمَوْرُخَةِ.

وَفِي غَدِهِ كَانَتْ الْغَزْوَةُ فِي الْكُفْرَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَنَزَلَ الْمُسْلِمُونَ فِي رَبْوَةٍ مُرْتَفَعَةٍ مُجَاوِرَةٍ لِلْمَدِينَةِ بِنَحْوِ مِيلٍ وَضَرَبُوا أَخْيَتَهُمْ وَنَشَرُوا أَلْوِيَتَهُمْ وَبَاتُوا بِهَا لَيْلَتَهُمْ أَحْسَنَ مَبِيتٍ، فَأَنْكَرَ النَّصَارَى مَا عَايَنُوهُ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ وَالشُّبُوتِ لَدَيْهِمْ، وَكَانُوا مِنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً لَمْ يَرَوْا مُسْلِمًا فِي تِلْكَ الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ كَانَ مَأْسُورًا عَنْدهُمْ، فَحَشَدُوا جَمِيعَ مَنْ فِي بِلَدِهِمْ وَبَعَثُوا عَنْ أَهْلِ الْحِصُونِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمْ، وَاجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ وَخَرَجُوا إِلَى الرَّبْوَةِ الْمَذْكُورَةِ، فَقَلَّلَهُمُ اللَّهُ فِي أَعْيُنِهِمْ وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ أَقْلَعُوا مُنْصَرِفِينَ بَعْدَ مَا امْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَغَانِمِ وَالْأَسْرَى، فَجَدَّ الْكُفْرَةُ فِي أَتْبَاعِهِمْ، وَعَزَمُوا عَلَى مُقَاتَلَتِهِمْ وَدَفَاعِهِمْ، إِلَى أَنْ اتَّبَعُوهُمْ نَحْوَ ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ وَلَمْ يَبْقَ فِي طَبِيرَةَ شَيْخٌ وَلَا صَبِيٌّ إِلَّا خَرَجَ، وَمَعَهُمُ الْقِسْيَسُ يُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَيَضْمَنُ لَهُمُ الظَّفَرَ، وَابْنُ وَأَنْوَدِينَ يَقْدُمُ أَصْحَابَهُ وَيَعْظُمُهُمْ بِمَا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ عَلَى الْجِهَادِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَاوِلُ مَعَ النَّصَارَى الْمُقَاتِلَةَ وَيَقْطَعُ الْأَرْضَ بَاعًا بَاعًا لِيَخْرُجَ مِنْ قُرْبِ بِلَادِهِمْ، إِلَى أَنْ أَشْرَفُوا عَلَى جَبَلٍ يَسْتُرُهُمْ فَنَزَلَ الْعَسْكَرُ وَرَاءَهُ وَقَالَ لَهُمْ: هَذَا مَوْضِعُ الْحَرْبِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،

(١) فِي ك: «بَثَّة».

(٢) فِي النُّسَخِ: «بَاجَةَ» وَهُوَ تَصْحِيفٌ ظَاهِرٌ.

(٣) فِي ك: «غَنَمًا»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

واعلموا يا إخواننا أن أرضكم بعيدة وأن الفرار يُدخل النار فتبثتوا ينصركم الله، فتوَادَعِ الناسَ وعَزَمُوا على الجهاد، فتقدَّم أبو عبد الله ابنُ وأنودين والمسلمون معه للدِّفاع فحملوا على الكفرة حملةً أهلكهم الله فيها فانهمزوا وولَّوا أَدبارهم وقطَعَ اللهُ آثارهم، ومات منهم في الموضع المذكور أزيد من عشرة آلاف بين فارس وراجل وقتل فيها من اليهود نحو الألف، وامتلات أيدي المسلمين من أسلابهم ودوابهم.

ودخل ابنُ وأنودين والمسلمون إلى إشبيلية شاكرين مسرورين بما فتح الله عليهم، وعُرِفَ أميرُ المؤمنين بصورة هذا الفتح فسُرَّ به غاية السُّرور، وخاطَبَ بذلك ابنُ وأنودين وقال في خطابه له: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، فبقي أبو عبد الله من ذلك في وجَلٍ وتحت كَسَلٍ. وتغيَّرَ الخليفةُ على السيِّد أبي إسحاق في كونه لم يحضُر تلك الغزوة التي نُسبت لابن وأنودين وهو من ^(١) جملة قُوَّاده، وعاقَبَ كلَّ مَنْ تخلف عن الأجناد وهَجَرَ، وحُرِّمَ من العطاء حتى تاب واستغفر.

بعض أخبار يوسف بن وأنودين الهتائي

وما كان لابنه محمد من المآثر

وذلك أنه لم يتقدَّم أحدٌ من الموحِّدين بالدخول في هذا الأمر وهو أميرٌ على قبيلة إلا أبا يعقوب يوسف بن وأنودين، فإنه وصل معسكرًا في قبيلته ومن طاوَّعه من إخوانه الهتائيين فضحَّم به التوحيد وعظَّم به التمهيد، وهو الذي استاق قبيلة جزولة وجلبهم وأدناهم لهذا الأمر العالي وقرَّبهم، وكان عند الخليفة أمير المؤمنين من كبار أهل خمسين، ونشأ أبو عبد الله هذا أحسنَ منشأً على الطَّهارة الدِّينية وتلاوة كتاب الله تعالى مع العقائد المَهديَّة وعَرَضَ «الموطَّأ» في المجلس السامي بمحضر أمير المؤمنين عبد المؤمن وعليه الناس، وقرَّبه كثيرًا مع صِغَر سنِّه فزادت نِجَابَتُهُ وعلَّتْ مكانته، وقَدَّمه قائدًا على العسكر، وأصحبَه مع نفسه في الغزوات والحركات، وحضَّر معه فتح بجاية والمَهديَّة وسائر الفتوحات، وكان بطلاً شجاعًا ذا نَجْدَةٍ وشَهِامة،

(١) وقع سقط كبير في ق، ك، ر٣، ب من هنا إلى قوله في العنوان الثاني «الحافلة الاستعداد»، وهو عنوان الخبر المبتدئ بقوله: «اختصار الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوب من مراكش إلى غزوته الحافلة الاستعداد... إلخ».

وله الوقائع المشهورة والمشاهد المذكورة، من ذلك: مع عسكر ابن مُردنيش وأهل شرق الأندلس، وحرَّبه معهم في سنة سبعين، وهزيمته أيضًا للنصارى أهل سُنتَرين، وفتحُه لحِصن بنج وسببُه أهله، وهزيمته أيضًا للنصارى الذين أغاروا على حصن برجانة وقرْمونة، وتوصيله الميرة العظيمة إلى مدينة بطليوس، ومواقفه لأذفونش في اليوم المشهور في حصن الغلال، وتغلُّب المسلمين من الفرسان والرَّجال على أخبية محلة الطاغية أذفونش لعنه الله، وإنقاذهم الأسرى والمغانم من أيدي النصارى، وإقلاع أذفونش بالليل من ذلك الموضع فارًّا أمامه، إلى غير ذلك من مناقبه. ثم بعد ذلك عدا عليه الزمان وطولب وأدب بسكناه حصن غافق: من ثغور الأندلس، ثم بعد ذلك استقرَّ بتونس على ما يأتي.

وفي هذه السنة، وهي سنة ثمان^(١) وسبعين: غلَّت الأسعار بمرّاكش والأندلس، واعتلَّ الخليفة فوفدت عليه الأطباء من الأندلس للمعالجة إلى أن وجد الراحة فامتدحه الشعراء، وعمَّهم منه النِّيل والإعطاء، فمنهم: أبو العباس بن عبد السلام، قال من قصيدة يمدحه ويهنيئ برثه [من الوافر]:

ستمليك أرض مصر والعراقا	وتجري نحوك الأمم استباقا
إذا لم يتفق رأيي ورأيي	أفادا في محبتك اتفاقا
صفا لك كل قلب غير صاف	ورزح عن ضمائر النفاقا
وحقكم وحققكم عظيم	لقد حسن الزمان بكم وراقا
وقد بلغ الوجود بكم مناه	وقد أمنت عصا الدين انشاقا
تبادرت الفتوح إليه تجري	غرائبها وتستبق استباقا
أمير المؤمنين ومن عليه	سنا الإسلام يأتلق اتلاقا
ويا ملكا أحنَّت كل أرض	إلى أرض أقام بها اشتياقا
يحنُّ إليك يوم غير آت	ويشكو الذاهب الماضي الفراقا

(١) في م: «ثلاث» ولا يستقيم.

شكوت فأثى قلب غير شاكٍ وأثى العيش لم يمرر مذاقا
ولولا عطفة الإبلال كنا بنار الوجد نحترق احتراقا

وقال أيضًا يمدحه ويهنيه بالعيد [من المحدث]:

شملت ببقائكم النعم	وسمت برجائكم الهمم
وهمت ديم من راحتكم	هيهات تساجلها الديم
وعنت لعزائكم عرب	تشقى بصوارمها العجم
أسد تنقاد الأسد لها	بهم تنقاد لها البهم
حمدت شيم الأيام بكم	ولكم ذمت منها الشيم
بهرت أنوار خلافتكم	وسماء العلم بها علم
فرأى من ليس له بصر	ووعى من كان به صم
وأناف المجد على رحل	وأثى بغرائب الكرم
أعيا البلغاء مقامكم	ولو أن مقالهم حك
العيد أحق بهنئة	فله بكم فخر عم
دمت والكل يلود بكم	من صرف الدهر ويعتصم

وفي هذه السنة: توفي قاضي الجماعة بمراكش أبو موسى بن عمران في الخامس وعشرين لشعبان، وكان فريد زمانه دينًا وعلماً وأدباً، فمن قوله عند وفاته رحمه الله تعالى [من الكامل]:

دع ذكر دار قصدها أن تخربا	واعمل لدار ملكتها لن يذها
فالله مولانا يصون جميعكم	لا أرتجي أرباً سواه ومطلبا
وهو الكفيل برحمتي وسعادتي	هذا وإن كنت المسيء المذنباً

وفي اليوم الذي توفي فيه أبو موسى بن عمران ولي مكانه القضاء أبو العباس ابن

مضاء.

وفي سنة تسع وسبعين وخمس مئة: أمر الخليفة أبو يعقوب رحمه الله بتوسعة مدينة مراكش وهدم سورها الأول وإقامة سورٍ آخر.

ذكر السبب في توسعة مراكش حرسها الله

وذلك لما دانت لأمر المؤمنين المغرب والأندلس وإفريقية وملك ملوكها، وهتك شركها وشريكها، واجتمع في طاعته جميع أهل العدوتين طرًا، إلى أحواز طرابلس برًا وبحرًا، أنجلى الناس إلى مراكش من كل مكان، وتفاخروا في سكنها بحسب القدرة منهم والإمكان، فصارت أوسع البلاد معاشًا وأكثرها خلقًا وأربحها تجارة، فضاقت بالناس، فلم يجدوا موضعًا للبناء ولا محلاً للسكنى، وكان الأمير أبو يعقوب أمر القبائل هسكورة وصنهاجة أن يرتحلوا من بلادهم إلى سكنها بأهلهم وبنيتهم فامتثلوا ذلك ووصلوا ولم يجدوا حيث ينزلون، فشكوا ضيقتهم وحيرتهم فنظر أمير المؤمنين في ذلك، فركب السيد المنصور ابنه أول يوم ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحددين وعرفاء البتائين ينظرون تحت نظره حيث يكون هذا الاتساع، والأمير المطاع، فاتفق رأيهم على زيادة مدينة متصلة من جهة القبلة، فرجعوا إلى الخليفة وأعلموه بذلك، فرأى رأيهم وأمضى سعيهم، وأمر العبيد والرجال بهدم السور القديم بجهة باب الشريعة، وكان الابتداء في بناء الأساس المذكور صبيحة يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر من السنة المؤرخة، واتصل بناء السور المذكور وبناء باب الشريعة مدة من أربعين يومًا حتى كُمل، وجاء على ما قُدر فيه وأُمل.

وفي هذه السنة: كان الحادث الواصل من إفريقية إلى السيد أبي الحسن ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله، كان بينه وبين العرب بني سليم حرب بمقربة من قابس، وأن الموحددين لما دامت الحرب بينهم أمروا لفرسانهم أهل الرايات أن ينتقلوا من موضعهم ويأووا إلى الجبل المسمى هنالك بجبل كسرى يقفوا فيه ويمتنعوا من العرب في نواحيه، فظن الناس في العسكر أن ذلك الانتقال عن انهماك فتركوا أثقالهم وانكسروا مهزومين دون قتال ومالوا عن السيد، فلجأ إلى الجبل المذكور بمن معه ولم يجدوا فيه ماءً فعطشوا عطشًا شديدًا فدفعوا على العرب دفعة واحدة فأحرق العرب بهم وتقبضوا على السيد وعلى أصحابه.

وحين وصل هذا الحادثُ اشتغل بالُ الخليفة وخاطره، وغار بذلك غيرةٌ عليه بها بادية وحاضره، وبعث عن الموحدين وأعلمهم بالخبر، واتفق الجميع على غزو بني سليم وجهادهم وأخذ الثأر منهم. وكان ورودُ الخبر بذلك في العاشر من جمادى الأولى من سنة تسع المذكورة. ثم بعد ذلك بأيام، وصل الخبرُ السائر بالإعلام، عن إطلاق السيّد من أيدي العرب بمال أعطاهم في نفسه وأصحابه، وأنه وصل إلى تونس في الثاني من ربيع الآخر، فانبسطت النفوس، وأضحكت الأيامُ بعد العبوس.

وفي هذه السنة: خرج التّصارى إلى بعض حصون المسلمين فقطّعوا كرومها وأشجارها وحرّقوا زروعها وخرّبوا ديارها، فبادر أهلها وأشاؤها إلى حضرة مرّاكش متضرّعين إلى الله تعالى في نظر الخليفة لهم، ووصّفوا إليه أحوالهم وما نالهم من ضرّ العدو، فأمر الموحدين بإشبيلية أن يحملوا إليهم الميرة من الطعام والآلات وغير ذلك، ووعدوا بالنصر على أعدائهم وطبّ داءهم، فانصرفوا عنه راضين إلى إشبيلية، وعندما وصلوا إليها استظّهروا بالأمر على الموحدين، فجهّزوا أربعة آلاف دابة بالميرة أوصلها إليهم أبو عبد الله ابنُ وأثودين بعسكر من الموحدين والأجناد إلى بلدتهم، فحيّوا بعد مماتهم ونشروا بعد وفاتهم.

وفيها: كانت السّطوة بأبي زكريّا ابن حَيّون شيخ كومية وبابنه عليّ الذي كان مشرف تلمّسان وغيره، وكان كلّ يوم يُخرجُ مكبولا للحساب على عمله، ثم أُخرج ابنُ حَيّون المذكورُ منفيّا من الحضرة إلى بَطْلَيْس، وبقي عليّ ابنه في السّجن إلى خروج أمير المؤمنين في غزوته إلى شنترين.

وفيها: هربَ من مرّاكش عليّ بن محمد بن رزين المعروف بالجزيري، وكان على مذهب الخوارج الأزارقة في تكفير جميع المسلمين، واجتمع إليه قومٌ من البربر يقرؤون عليه مذهبه، فأغواهم، وشاع خبره ومذهبه، وسأذكرُ مقتله في أيام المنصور إن شاء الله.

وفي هذه السنة: توفيَ بمرّاكش أبو بكر محمد بن عليّ الحصارُ الإشيليّ.

وفيها: توفيَ بسبّنة القاضي أبو عبد الله ابنُ الحدّاد والمشرفُ بإفريقية ابنُ مثنّى.

وفيها: أمرَ أمير المؤمنين أبو يعقوبَ بتميز الموحدين والعرب والقبائل للغزو، وذلك في يوم السبت الخامس لجمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين وخمس مئة.

اختصارُ الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوب من مراكش
إلى غزواته^(١) الحافلة الاستعداد، الكاملة الحشود والأجناد
وما اندرج فيها من سطوته بالعمال، وما حدث فيها
من الخطوب والأهوال، وهي آخر غزواته رحمه الله تعالى بمنه

ابتدأ بتمييز القبائل والأجناد في الخامس من شهر جمادى الآخرة كما ذكرته،
فميزهم قبلاً بعد قبيل، وأمر بعمل عشرة مجانيق فصنعت ورمى الرجال بالحجارة
قدامه، والسعد يعلو خلفه وأمامه، وذلك التبريز بالبحيرة بخارج مراكش والناس
ينظرون في ذلك كل يوم. دام هذا الحال شهر جمادى كله.

وفي شهر رجب: ارتحل الخليفة عن البحيرة المذكورة إلى قصره بمراكش ودخل
على الباب الجديد باب الشريعة، وهو أول دخوله عليه، وتقدم أمامه على قدميه ابنه
أبو يوسف المنصور^(٢) وجميع البنين، وأقام بقصره يفكر في أمر الغزو وشأنه.

وكان السيد أبو يوسف ابن الخليفة عبد المؤمن والياً على مرسية فوصل إلى
حضرة مراكش في شهر رجب ووصل معه جماعة من أعيانها، فلم يؤمر بالدخول
على أخيه أمير المؤمنين لما وصله عنه وصح عنه، ثم أمره بعد ذلك بالدخول مع
السادات والموحدين.

وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من شعبان المكرم: ولّى أمير المؤمنين أبو
يعقوب يوسف بنه الأربعة قواعد بلاد الأندلس، صرّف أبا إسحاق إلى إشبيلية
والياً عليها كما كان أولاً، وولّى أبا يحيى قرطبة برغبة أبي الوليد ابن رشد، وولّى أبا
زيد الحرضاني غرناطة، وولّى أبا عبد الله مدينة مرسية، وأمرهم بالحركة إليها مقدّمة
لحركته الحافلة^(٣) وولّى قضاء إشبيلية أبا المكارم ابن الحسين المصري وعزل قاضيها
أحمد بن محمد الحوفي، وولّى أبا الوليد ابن رشد قضاء قرطبة، وولّى أبا عبد الله ابن

(١) إلى هنا ينتهي السقط الطويل.

(٢) سقط من ك.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٤.

الصقر قضاء غَرْناطَة، وأمر لجميع الموحدين المعيّنين للسفر مع السادات المسمّين بالكُشوة والزّاد على مرّاتهم وأقدارهم. وتحرك الجميع إلى الأندلس في السابع والعشرين من شعبان بعد ما أمروا بالرفق، والجري على سنن الحق.

وكانت قسمة السّلاح والخيل في الخامس عشر من شهر رمضان، فحضر الموحدون والعرب والمتجنّدون، فقسمها على قدر طبقاتهم، وأمر لطلبة الحضرة بأربعة وعشرين فرساً، وأعطى خبَاء لكلّ عشرة من الفرسان، وتمادى هذا الإنعام والإحسان إلى شوال.

وفي الحادي والعشرين منه: أخرج البركة لجميع العساكر من الفرسان والرّجال. وفي يوم السبت الخامس والعشرين لشوال المذكور: أمر الناس بالحركة، فصلّى أمير المؤمنين صلاة الصّبح وقرأ الحزب على العادة، واجتمع الناس على ما أمروا ووعدوا، وركب أمير المؤمنين على عادة ركوبه من السّكينة والوقار، والهيئة له في الإعلان والإسرار، ودعا الناس له بالتأييد والنّصر على جميع الكفار، وقد تقدّم أمامه علّمه الأبيض مع الرّجالة على العادة من الترتيب ومعه مصحف عثمان بن عفّان رضي الله عنه على جمل أبيض مرتفع وعليه كِلَّة^(١) حمراء تصوّته، وهو مرصّع بنفسج الجوّهر والياقوت، ويليه مصحف المهدّي على بغل، وبنيه مع إخوته السّادات خلفه، وعليه رايات مختلفة الألوان، وكان خروجه على باب دكّالة: من أبواب مرّاكش، وأمر بإخراج عليّ بن حيّون الكوميّ، فأخرج مصفّداً في الحديد وعليه رُقباء يجرسونه في اللّيل والنهار، فلما كان يتجطين تحيّل على رُقبائه^(٢) وسقاهم الخمر وأسكّرهم وكسّر حديدَه وفرّ على فرس أعطاه له أحد بني عمّه، وأُعلم أمير المؤمنين بخبره فأمر بضرب رقاب الرّقباء الذي كانوا يجرسونه وسجن من اتّهم.

(١) ستر رقيق مثقّب يتوقّى به من البعوض وغيره، وهو مستعمل إلى اليوم في العامية العراقية

بهذا المعنى، والمقصود هنا: الغطاء الذي يحفظ هذا المصحف على شكل قبة، ولذلك جاء في

بعض النسخ: «قبة» بدلاً من «كِلَّة».

(٢) في ك، ق، ر، ٣، ب: «تجمل على رفقائه».

ثم إنه أقلع أمير المؤمنين من هذا المنزل إلى أن وصل إلى رباط الفتح سلا، فدخلها يوم الاثنين الثالث عشر من ذي القعدة، وكان دخوله فيها من أغرب الهيئات وأتم الآلات، ونزل بمدينة المهدية التي تقدم ذكرها.

ولما كان يوم الاثنين الموفي عشرين من ذي القعدة وصل أبو محمد بن أبي إسحاق بن جامع من بلاد إفريقية والقيروان، بجُملة من الفُرسان، فدخل على أمير المؤمنين، وأقام يسأله عن الأحوال، ويستفهمه عن أحوال العرب المنافقين الجُهال، فعرفه أن إفريقية في نهاية العافية وأن العرب قد سمِعوا بالحركة المباركة ففرُّوا بأهلهم^(١) فلا يُتقى بأسهم ولا يُفارقهم نكسهم.

ثم أمر الخليفة بعد ذلك بإجماع شيوخ الموحدین وشيوخ العرب والقواد بالحضور، فحضر الجميع، وخرج إليهم ابنه السيد أبو يوسف المنصور وشيوخ الموحدین، وقالوا لجميع من حضر: إن سيدنا أمير المؤمنين يقول لكم: أنتم قد وصلتم واجتمعتم، وهو يستشيركم في هذه الحركة: إما لإفريقية وإما للأندلس، فليتكلم كل واحد منكم بمراده، فقالوا بلسان واحد: ليس أملنا إلا في غزو الكفار بجزيرة الأندلس. وأعلم أمير المؤمنين بما وقع من كلام، فقال: الحمد لله على نعمه الكاملة وآلائه الشاملة.

وقد كان الخبر وصل بأيام أن العدو الغادر نكث العهد وحل العقد ونازل بعض حصون الإسلام، فزادت غبطة المسلمين في جهاد الكافرين، وعزموا على ذلك بنية صادقة، وعزيمة بالله واثقة، وتقدمت العساكر للجواز على القنطرة ببحر سلا في الثامن والعشرين لذي القعدة، وجاز أمير المؤمنين في الموفي ثلاثين منه، وتمادى مشيه إلى مدينة مكناسة فوصلها في السادس لذي الحجة، وعيّد عيد الأضحى في بحيرته الكبرى، ورحل منها في الحادي عشر لذي الحجة ووصل مدينة فاس يوم الأربعاء الثالث عشر من الشهر المذكور، فنزل بالبحيرة وارتاح بها ثلاثة أيام يستفهم الأحوال ويختبر العمال، فكان من الإيقاع بهم ما أذكره إن شاء الله تعالى.

(١) في ب: «بأولادهم».

سَطْوَةُ الْخَلِيفَةِ أَبِي يَعْقُوبَ بِعُمَالِ مَدِينَةِ فَاسَ وَأَنْظَارِهَا

ولَمَّا كَانَ يَوْمُ السَّبْتِ الثَّالِثَ عَشَرَ لَذِي الْحِجَّةِ أَوْقَعَ بَعْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ يَحْيَى الْمَشْرِفِ بِمَدِينَةِ فَاسَ لِمَا صَحَّ عَنْهُ مِنْ خِيَانَتِهِ، وَحَمَلِهِ عَلَى الرِّعْيَةِ وَإِذَايَتِهِ، فَأَلْحَقَهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَالْحَقُّ بِهِ فِي هَذِهِ السَّطْوَةِ وَالْعِقَابِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْجَيَّانِيَّ الْجَاهِلَ قَدَّرَ نَفْسِهِ، وَقَبَضَ فِي الْحَيْنِ عَلَى دُورِهِمْ أَجْمَعَ فِي كُلِّ بَلَدٍ وَمَكَانٍ، وَأَكْبَلَهُمْ وَسَجَنَهُمْ فِي مَوْضِعِ أَلِيمِ النَّكَالِ، ثُمَّ قَبَضَ عَلَى سَائِرِ الْعُمَالِ وَكَانَ عَدَدُهُمْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامِلًا أَوْهُمْ: مَشْرِفُ فَاسَ الْمَذْكُورُ وَخَازِنُهُ عَلَى الْمَالِ الذَّهَبِيِّ وَخَازِنُهُ أَيْضًا عَلَى الطَّعَامِ الطَّرْسُوقِيُّ^(١) وَابْنُ عَاصِمٍ مَشْرِفُ مَكْنَسَاةٍ وَابْنُ هُودٍ عَامِلُهَا وَابْنُ عُمَرَ صَاحِبُ الْمَدِينَةِ بِهَا وَالْمَشْرِفُ بَرِبَاطُ تَازَا وَعَلِيُّ بْنُ مَرْزُبِنٍ صَاحِبُ مَلَكِيَّةٍ وَقَاضِي الْمَعْدِنِ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ، فَاسْتَأْصَلَ أَمْوَالَهُمْ وَرَدَّ لِلْمَخْزَنِ ضِيَاعَهُمْ وَرِبَاعَهُمْ وَتَرَكَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ دَارًا وَاحِدَةً، وَكَانَ الَّذِي قَاطَعُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يُعْطَوْهُ وَيُدْفَعُوهُ أَرْبَعُ مِائَةِ دِينَارٍ وَسِتِينَ أَلْفًا يُقَسِّطُونَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَشَهِدَ الْعَدُوُّ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ^(٢) عَلَيْهِمُ الرُّقَبَاءَ حَتَّى دَفَعُوا الْمَالَ الْمَذْكُورَ.

ولَمَّا كَانَ يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ أَمَرَ الْخَلِيفَةُ بِتَقْدِيمِ قَبِيلِ هَنْتَانَةَ وَتَيْنَمَلٍ وَحَرَكَتِهِمْ مِنْ فَاسَ إِلَى قَصْرِ الْمَجَازِ بِرَسْمِ الْجَوَازِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَكَانَ شَيْوُخُ الْعَرَبِ بِجَمِيعِ قَبَائِلِهِمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى الْمَهْدِيَّةِ بِرِبَاطِ الْفَتْحِ سَلَا أَيَّامَ إِقَامَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا، فَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالْكُسُوفِ الْعَجِيْبَةِ وَالْبَرَكَاتِ الْجَزِيلَةِ، وَاشْتَرَطُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَحْضُرُوا لِهَذِهِ الْغَزْوَةِ فِي مِائَةِ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ، وَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ ابْنَهُ أَبَا حَفْصٍ بِالْمَشْيِ إِلَيْهِمْ وَالتَّقْدِيمِ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يَحْضُرَ مَعَهُمُ الْجَوَازُ لِبَرِّ الْأَنْدَلُسِ، فَخَرَجَ مِنْ فَاسَ فِي الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَقَدَّمَ أَيْضًا عَلَى بَعْضِ قَبَائِلِ الْمُوَحِّدِينَ بَعْضَ السَّادَاتِ لِيَتَقَدَّمُوا إِلَى الْجَوَازِ، وَكَتَبَ إِلَى مَنْ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ الْوُلَاةِ أَنْ يَكُونُوا عَلَى هَيْئَةٍ لِلْجِهَادِ، وَأَنْ يَسْتَعِدُّوا لِهَذَا الْجَمْعِ الْحَفِيلِ غَايَةَ الْإِسْتِعْدَادِ.

(١) فِي ك: «الطَّرْهَوَقِيُّ»، وَسَقَطَتِ اللَّفْظَةُ مِنْ ب.

(٢) فِي ك: «فَعْمَلٌ».

ثم كانت سنة ثمانين وخمس مئة: ففي يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرم تحرَّك الخليفة أبو يعقوب من مدينة فاس على الهيئة المذكورة إلى أن وصل مدينة سبتة فأقام بها شهر المحرم، ثم عبَّر البحر يوم الخميس الخامس لصفر فحلَّ بجبل الفتح، ثم سار من جبل الفتح إلى الجزيرة الخضراء إلى أن برز بعساكره على إشبيلية في يوم الجمعة الثالث عشر لصفر، وخرج جميع أهل إشبيلية إلى لقائه والتبرُّك برؤيته، فمن تواضعه وشرَّفه واعتنائه بالعلم أنه لما أبصر ابن الجُدِّ رحمه الله وهو يسرع في مشيه ليُسَلِّم عليه ترَجَّل عن فرسه وتلاقيا فترامى ابن الجُدِّ على يد أمير المؤمنين وقبلها ومسح بها وجهه وقال: الحمد لله الذي جمَّعني بك يا حبيبي وحبيب الناس، فبسم الخليفة من قوله، وهذا من تواضعه وفضله^(١).

قال أبو مروان ابنُ صاحب الصلاة: وكنت حاضراً في يوم هذا اللقاء، فسَلَّمْتُ عليه، مع مَنْ تقدَّم من الطلبة إليه، وتزاحم الناس للسلام، فلم أقوله على الكلام، ونزل رضي الله عنه داخل البحيرة التي له بخارج باب قرمونة، فلما كان في اليوم الثاني أمر بإخراج السَّلاح والعُدَد وأمر بتمييز العساكر والعُدَد، وقسم عليهم جميع الأسلحة المذكورة وقسم ألف فرس من العتاق الجياد على أشياخ الموحِّدين والعرب والأجناد، وتلاحقت هذه الأيام عساكر أهل الأندلس من أقطارهم وأمصارهم، وآتى القائد أبو العباس الصَّقَّليُّ بأجفان غزوانيات وآلات للحرب مُعدَّات.

وفي هذه السنة^(٢)، في التاسع عشر لصفر: نكل الخليفة أبو يعقوب بأبي عبد الله ابن وأنودين، وسبب ذلك أنه لما وصل إلى حضرته إشبيلية كان ابن وأنودين أصابه شيء من المَرَض فلم يقدِر على الخروج للقاء فُضِرَب فيه عند الخليفة وقيل عنه ما كان وما لم يكن، فأمر بخروجه أسوأ خروج، فخرج وقعد يومين فأمر أن يمشي إلى غافق ليسكنها على وجه التغريب والتأديب، فنهض هو وأبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبي...^(٣) لتخلُّفه عن المبيت بالمحلة ليلتين، فكانا خليلين ابتلياً ببلتين.

(١) ينقل المؤلف من كتاب «المن بالإمامة» على عادته، ولم يصل إلينا هذا القسم منه، والخبر باختلاف في المعجب ٣٣٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٥، والاستقصا ٢/ ١٥٤.

(٢) قوله: «وفي هذه السنة» سقط من ك.

(٣) بياض في النسخ.

وأقام أمير المؤمنين بإشبيلية على ما ذكرته من تنفيذ الأوامر والنظر فيما يصلح له ولجميع العساكر، إلى أن تحرك غازيًا إلى مدينة سنترين صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين لصفر على ما عهد في حركاته وترتيب هيئاته، وتمادى المشي من منزل إلى منزل إلى حصن العرجة، فوصله يوم الجمعة الرابع لربيع الأول، ورحل منها وقد استكملت عليه العساكر من كل أفق وقد تزيا الجميع بأحسن الزي وتبخروا في المشي وتوشحوا بالسيف والهندية والدرق اللمطية والقسي الخطية، وسالوا في بطاح الأرض بتبريز يسطر الكفار حتى وصلوا مدينة بطلئوس، فأمر بالنزول عليها وميز العساكر وأمرهم بلباس السلاح فامثلوا ذلك وجددوا ما نقصهم من الزاد، وكان إدريس بن جامع مغربًا مع بنيه بإردة وابن حيون الكومي كذلك ببطلئوس، فرغبوا من الخليفة أن يأذن لهم في حضور هذه الغزوة فأذن لهم في الحين ومشوا في جملة المجاهدين.

ورحل يوم الخميس العاشر لربيع الأول من بطلئوس، ولما وصل إلى وادي تاجه أمر الموحدون أن يتقدموا حتى يقفوا على باب سنترين، ونهض معهم السيد أبو إسحاق الوالي على إشبيلية حتى وقفوا على باب سنترين يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول إلى وقت الظهر ولم يشتغل أحد بقتال ولا رمي ببال، إنما كان الغرض في رؤية أسوارها وفهم حال كفارها، ونزل أمير المؤمنين بجميع عساكره بالجبل المطل على سنترين القريب إليها، وأمر العساكر أن يبرزوا على الكفار فتأهبوا للتبريز والمجالد والدفاع، ثم وقفوا على بابها والكفار أهلها قد انجحروا داخلها بجموعهم وحشودهم وقد ملئت قلوبهم دُعرًا وحسرة، وأمير المؤمنين يأمر الناس بالتكبير والتهليل وقد ضربت له القبة الحمراء، وهم فرحون مستبشرون والخيرات كثيرة بكل جهة ومكان، واتسع الناس في أقواتهم، ووصل مد الشعير اثني عشر مئدًا بدرهم، والقمح خمسة عشر مئدًا بدرهم.

قال أبو مروان ابن صاحب الصلاة: لقد رأيت في هذا اليوم ثورًا بيد عربي باعه بدرهم واحد، وقد اشتريت مع أصحابي بقرة سمينه بثلاثة دراهم، وامتلات المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم.

وانحصر الكفار في هذا اليوم حصراً شديداً حتى لم يخرج أحد منهم، وهُدم رُبُضهم المتصل بالسور وأوقدت النيران فيه، وطَمِع الناس في دخول المدينة، وأمر النجارين بعمل السلايليم، وبات الناس أحسن مبيت في ليلة الجمعة الثامن عشر لربيع الأول.

ولما صلى الناس الصُّبح يوم الجمعة المذكورة أمر الناس بالتأهب لقتال الكفار في الأسوار، فتقاتلوا حيناً حتى تمكَّنوا من الرُبُض المذكور، ومن خرج من جيش التصارى هُزم، حتى كانوا يترجلون عن خيولهم ويطلعون إخوانهم بالحبال من أعلى سور القُصبة، وعان الكفار في هذا اليوم ما أذهلهم وهالهم، وقرت أعين الإسلام بما نالهم، وهُدمت الكنستان اللتان بالمدينة البرانية وخربت دُورها وأقفر معمرُها. والله دُرُّ الرجل الصالح محمد بن إبراهيم حيث يدعو على شنترين في عِلته التي توفي منها فقال [من الكامل]:

يا شَنْتَرِينَ ولا أنادي سامعاً	أَلَقْتُ عَلَيْكَ بلاءها الأقدارُ
ورُميت عند دعائنا بحوادثٍ	تَذُرُ الدِّيارَ وما بها ديارُ
وتبدلت فيك العِمارةُ وخُشَّةٌ	والأمنُ خوفٌ والغنى إقتارُ
وتعبَّثت بجهاثها أعداؤها	ومَحَا محاسنها البلى والقارُ
حتى أقول بنغمةٍ يا بلدةً	«لا أنتِ أنتِ ولا الدِّيارُ ديارُ»

ورحم الله قائلها، فلو كان حياً لرأى دعوة قد أُجيبَت في هذا اليوم.

وبات الناس ليلة السبت على الحالة المرغوبة من الأمل في فتح شَنْتَرين خربها الله. وفي صبيحة يوم السبت تأهب الناس للقتال، ودام القتال بينهم إلى يوم الاثنين الحادي والعشرين لربيع الأول^(١)، فكانت بين المسلمين والتصارى حروبٌ وخطوب، فأمر الخليفة في هذا اليوم أن يرفع الناس أيديهم عن القتال، وكان قد أمرهم أن يرحلوا من منزلهم وينزلوا في منزل آخر فتعجب الناس من هذا الرأي في الانتقال والارتحال، وتعطلت في النفوس جميع الآمال، وظهر الخلل في جميع الأحوال.

(١) في ك، ب: «الآخر» ولا يصح.

وَكَبَا بَابِن الْخَلِيفَةِ أَبِي إِسْحَاقَ فَرَسُهُ وَاعْتَلَّتْ قَدَمُهُ وَتَوَرَّمت فِي الْحِينِ، وَكَانَ يَتَصَرَّفُ فِي أَوَامِرِ أَبِيهِ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَيُحْمَلُ عَلَى الْأَعْنَاقِ. وَحَدَّثَ فِي هَذَا الْيَوْمِ عَلَى عَسْكَرِ أَهْلِ مُرْسِيَّةَ حَدَّثَ مُرَوِّعٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا لِلْإِغَارَةِ فِي بَسَائِطِ النَّصَارَى، فَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَهَزَمُوهُمْ بَعْدَ حُرُوبٍ شَدِيدَةٍ، وَوَصَلُوا لِلْمَحَلَّةِ مَهْزُومِينَ مَقْلُولِينَ، وَأَخَذَتْ مِنْ دَوَابِّ الْمُسْلِمِينَ خَمْسُونَ دَابَّةً خَرَجَتْ بِرَسْمِ الْعَلَفِ، وَبَاتَ النَّاسُ فِي الْمَحَلَّةِ عَلَى حَذَرٍ، وَمِنَ الْوَجَلِ فِي أَلَمٍ وَضَرَرٍ.

وَحَدَّثَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ حَدَّثَ أَبْهَتَ الْعُقُولِ، وَأَذْهَلَ غَايَةَ الذُّهُولِ، وَذَلِكَ أَنَّ خَطِيبَ الْجَمَاعَةِ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي بِالْخَلِيفَةِ الْجُمُعَةَ فِي حَضْرَتِهِ وَفِي غَزْوَتِهِ هَذِهِ اخْتَلَّ عَقْلُهُ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ شِدَّةَ الْحَرْبِ، فَكَبَّ فَرَسَهُ وَدَخَلَ فِي عَسْكَرِ النَّصَارَى مُسْتَجِيرًا بِهِمْ! فَيَا لَهُ مِنْ حَدَثٍ مُبْكَ فِي الْإِسْلَامِ، مُنْكَ لِلْأَنَامِ، وَنَقِصَةٍ فِي الدِّينِ، وَوَقْعَةٍ بِصَنْفِهِ مِنْ أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى أَرْضِ الصِّينِ، وَعِنْدَ وَصُولِهِ إِلَيْهِمْ عَرَفُوهُ وَفَهِمُوا مَذْهَبَهُ فَاتَّهَمُوهُ وَقَتَلُوهُ، وَاسْتُشْهِدَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ الْمُوحِّدِينَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَشْيَاخِ رُؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ قِتَالٌ وَنِزَالٌ يَطُولُ شَرُّهُ وَوَصْفُهُ، إِلَى أَنْ اعْتَلَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَأَمَرَ بِالرَّحِيلِ عَلَى مَا أَصَفُهُ.

إيضاح الخبر عن وفاة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن عبد المؤمن

فِي غَزْوَتِهِ هَذِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١)

قَالَ أَبُو الْحَجَّاجِ يَوْسُفُ بْنُ عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَمَّا قَصَدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ الَّتِي تَوَقَّيَ فِيهَا إِلَى عَدُوِّ الْغَرْبِ ابْنَ الرَّنْكَ اللَّعِينِ، لِسُوءِ مُجَاوَرَتِهِ وَشِدَّةِ إِضْرَارِهِ بِالْمُسْلِمِينَ، عَزَمَ عَلَى قَصْدِ مَدِينَةِ شَنْتَرِينَ أَمَدٌ بِلَادِ ابْنِ الرَّنْكَ سَوْرًا، وَأَكْثَرَهَا حُبُورًا، وَأَكْثَرَ بِلَادِهِ أَجْنَادًا، وَأَقْوَاهُمْ اسْتِعْدَادًا، فَبَرَزَ عَلَيْهِمْ تَبْرِيزًا أَذْهَلَ حُلُومَ الْكَافِرِينَ، وَفَتَّ أَفْنَدَةَ الدَّائِنِينَ مِنْهُمْ وَالْقَاصِينَ، فِي أُمَمٍ لَا تُحْصَى، وَلَا تُكَاثَرُ بِالرَّمْلِ وَلَا الْحَصَى، وَالْبِلَدُ، حُسْنُ عِمَارَتِهِ وَالتَّفَافِ أَشْجَارِهِ وَاتِّصَالُ جَنَاتِهِ وَإِبْنَاعُ ثَمَرَاتِهِ، لَيْسَ لَهُ مَسْلُكٌ إِلَّا مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْأَغْصَانِ، وَفِي أَثْنَاءِ مُنْعَرَجَاتِ مَا أَحْدَقَ بِهِ مِنْ اشْتَبَاكِ الْكُرُومِ وَالتَّفَافِ

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ١١/٥٠٥، والمعجب ٣٣٤-٣٣٥.

الغِيطَان، فكانت أشخاصُ الفرسانِ عندَ رؤيتهم تتوارى بالظلال، ويسرُّ ظهورَ حُسْنِ هيئتها فروعُ الأشجارِ وأسنمةُ الجبال، فأمرَ الخليفةُ الجيشَ: خيلاً ورجلاً وبعضاً وكلاً بنشرِ بيض تلك الرايات، التي كانت قد أُعدَّت لهم تلك الأوقات، وكان القصدُ محاصرتها وإظهارَ القدرة في مُضايقتها.

قال يوسف بن عُمر: فلما استراثت من جهاتها الأنباء، وطال لغير طائل الثواء، عزمَ أميرُ المؤمنين على الارتحال، وترويح الجيوش والنفوس من السَّامة والكلال، فأمرَ بالرحيل ليلاً فاضطرب إقلاعُ الناس اضطراباً شنيعاً وكثر الضَّجيجُ واختلاطُ الأصوات، وتهوَّلت المحلات، وأخذ العمومُ على شتى المسالك، فلا ترى سميعاً ولا مُطيعاً. وقد كان ثقاتُ الخليفة يطوفون أوَّلَ الليل على الرؤوس والجموع، وأوعزوا إليهم ترتيبَ التحرك وكيفية القُلوع، وأن يكونَ كُلُّ قبيل من جهتهم ثابتين مُرصدين، حتَّى ترحلَ الحُمولةُ والأثقال، وتتخلَّص إلى السَّعة من المضائق والأحوال، فلم يوقِفْ عندَ معاقِد هذا الاعتزام، وثَّبر ما عُقد من ذلك النظام، ولم يهتدَ لشيءٍ من هذه الأحكام، وتوهمَ الناسُ أن الأميرَ قد أفلَحَ سَحَرًا واحتاطَ لإجازة النهر مُبكرًا، فبادروا للتقدُّم وما تهيَّأوا عواقبَ التحكُّم. ولما اتَّضحَ الفجرُ وانقشع الظلام، ولم تصحَّ أضغاثُ تلك الأحلام، وبطلتِ الظُّنونُ والأوهام بمضاربِ الأمير في منزله ولم يَقْوِضْ لها طُنْبٌ ولا أوتاد ولا خُلع من مركزه عماد، فبُهِتَ مَنْ بُهِت، وحَمِدَ رأيَه مَنْ لَزِمَ الصبرَ وثبت، فركبَ الخليفةُ وليس بساقته إلا القليلُ غيرَ مستعدين ولا شاكين، أكثرهم في ثياب السَّلم وكما أفاقوا من سَكْرِ النِّومِ فالتأمَ من كُلِّ صنف من الناس مَنْ حَضَرَ، وأقبلَ مَنْ سَمِعَ طبلَ الإقلاع، وتبصَّر، وانحدَرُ الأميرُ من هذا المنزل وبقي ابنُه المنصورُ في الموضع المذكور يُرتَّبُ مَنْ يُظَاهِرُ الرُّومَ عندَ ظهورِهِم ويقاومُ رَدْعَهُم وما تدلَّوا به من جرورِهِم، وهو يُمَدُّ الحاضرين بشهامته ويقوِّمهم بصرامته، وانحفرَ المنصورُ باللَّحاقِ بأبيه وقد توالَتْ منه عليه الرُّسلُ واستوحشَ من تأخُّره، ووجدَ إشفاقَ الأبِ على بنيهِ. وعندما تنفَّسَ تخفُّقَ الكفار، ووجدوا السَّيْلَ إلى التفلُّتِ من الأوكار، تسرَّبوا بين تلك الأشجار، وانحدروا من جنبات الأوعار كالسَّباعِ الجِيعاء، فحافوا على ما تطرَّف من الحُمولة، وانتهزوا الفرصةَ في أولئك الفرسانِ والأتباع.

واستشهد في أثناء هذا الموقف جُملة من أعيان الموحّدين ورؤساء الأندلسيين وبعض بني مُردنيش والخطيبُ ابنُ المالقي.

قال يوسفُ بنُ عمر المؤرّخ: حضرتُ يومَ هذا الإقلاعَ وليله، فما رأيته في تاريخ تقدّم قبله، ولا يحضّرُ واصفٌ هو له.

ولما عرّف الخليفةُ بَدْئُ الرّوم من ساقته واجترأهم على الافتراس بأكناف ساحته، أمرَ بضرب الطُّبول وإشراع الألوية في النُّصول، فأقبلوا لأصواتِ الطُّبول مُهطعين، ودفعَ مَنْ كان بجناحي الساقة على مَنْ وُجدوا مِنَ الرّوم مُنْبَسطين، وغادروهم في مَصارعهم مُجْدَلين، وحانَ لهم شرُّ يوم ما ظنُّوا أنه يَحِين، وأخذ ثارُ الشُّهداء في الحين، ونزلَ أميرُ المؤمنينَ بُعدُة الوادي، وقد بدّت من جَرَحِه البوادي، وأمرَ بتفرُّق الجموع ورجوع كلِّ واحدٍ منهم إلى قَبِيلِه مِنَ العموم، واستقبلَ موسطةَ البلاد، وأباح فيها مبالغةَ الفساد، وأمرَ بتخريب ما وُجد من المباني وتغيير المياه واستئصال الأشجار وانتهاكِ الرُّروع وتَحْرِيق كلِّ ما يُمكنُ تغييرُه وإزالةُ عَيْنِه بالنار، وتَمَادَى المشيُّ على هذا النّحو إلى حصن طرش، فأقام بَدْرةَ جبلِه وأمرَ بِشَنِّ الغارات عليه وتقسيم السرايا على الجَنَباتِ إلى جَلَبِ الأقوات، وأمرَ السيّدَ أبا زيد ابنَ الأخ أبي حَفْص على مُعْظَمِ البُعوث، فاستاق مِنَ الغنائم ما وَقَفَ العجزُ عن سَوْقِها ووصلوا والخليفةُ مُلتزِمُ الفراش، وكان له أيامٌ لم يَخْرُجْ لأحد، ثُمَّ أمرَ بالرحيل وخرج على مطيته مُضْطَجِعًا على فراشه وتَمَادَى القفولُ وَضَعْفُهُ يَتَزَايِدُ والأطباءُ حاضرون وابنُ زُهر وابنُ مُقْبِل وابنُ قاسم مُلازِمونَ له حتّى جاوزوا واديَ تاجِه وَضَعْفُ عن الجلوس على الدابة، فصنع له سريرٌ ورواقٌ عليه يَحْجُبُه من الهواء. والحَدَمَةُ مُطِيفونَ به يَتَفَقَّدونَه فيما يَحْتَاجُ إليه من صلاح شأْنِه، فذُكر أنه تَفَقَّدَ بعدَ أُمَيال فوُجد قد توفّي رحمه الله، وذلك في الثامنَ عشرَ لربيع الآخر من سنة ثمانينَ وخمس مئة.

بعض أخباره على الجُملة وسيرِه رحمه الله تعالى

قال ابنُ صاحب الصّلاة: كان أبو يعقوبَ فاضلاً كاملاً عدلاً ورِعاً جَزْلاً، حافظاً للقرآن بِشَرَحِه وناسخِه ومنسوخِه، عالماً بحديث رسول الله ﷺ حَسَنِه وصحيحِه، متفنّناً في العلوم الشرعيّة والأصوليّة، وكان صادقاً رأيَه للموحّدين بالمواساة في كلِّ

شهر، وبالبركاتِ مدى الدهر، وكان راغبًا في العِمارة مُثابِرًا على الجهاد مُشيحًا للعدل مُقسطًا فيه، أصلَحَ العُدوةَ وأَمَنَّاها وأنَسَ شاردَها وسَكَنَها، وَخَصَّ جزيرةَ الأندلس ببعوثه لها فقمَعوا عاصِيها وافتَرعوا بالفتح قاصِيها، وأَحَسَّنَ لأجنادِها وأَمَدَّهُم بِالْحَيْلِ لَغَزْوِ الكُفَّارِ بَائِسِينَ من أعدائها.

ولَمَّا عُمِدَتِ البيعةُ له بإجماع وإصفاق في سنة ثلاث وستين تحرَّكَ غازيًا بعسكرِهِ الضَّخْمِ الشَّهْمِ مُرادِفًا لأخِيهِ أَبِي حَفْصٍ، وهو الذي مَصَّرَ إشبيليةَ وأَمَرَ ببناء سُورِها من جهة الوادي من ماله بعدَ هَدمِ السَّيْلِ له الخارجِ عن جَنَبَاتِها وجِهَاتِها عامَ أربعة وستين.

ولَمَّا استقرَّ بِإشبيليةَ في عام ستة وستين عَقَدَ جَسْرًا على وادِيها بالقنطرة العظيمة المؤسَّسة لعبور الناس عليها من أهلِها وأهلِ الشَّرَفِ إليها وإِجازة العساكر للغزو عليها، وسَبَّلَها للمسلمينَ للعبورِ في مصالحِهم دونَ قبالةٍ ولا إجارةٍ عمالة، وجَلَبَ الماءَ في الساقية لمَشْرَبِ أهلِها وابتَنَى فيها الجامعَ الكبيرَ لاَتِّساعِ الناسِ فيه، فكمُكِّلَ في مدَّةٍ قليلةٍ من الأعوامِ على عِظَمِهِ وَسَعَةِ جُرْمِهِ، وابتَنَى الصَّومعةَ إلى نصفِها، وابتَنَى الزَّلَاقَ لأبوابِ إشبيليةَ من جهة الوادي احتياطًا من السَّيْلِ الخارجِ عليها، وابتَنَى قَصَبَتِها البرَّانيَّةَ والداخليةَ، وأسكَنَ الثُّغورَ القِفْرةَ، وابتَنَى جميعَ أسوارِها وأعادها للإسلام بعدَ إقْفارِها، وفَدَى من الأسرِ مَنْ وُجِدَ عِنْدَ الرُّومِ من أهلِها، وفَدَى عَلِيَّ بنَ وزيرٍ وغانمَ بنَ مُردُنِش بِمالٍ كثيرٍ، وغَزَا الكُفْرَةَ ببعوثِهِ وعساكرِهِ المؤيَّدةَ بَرًّا وبحرًا، وأذاقَهُم عيشًا مرًّا، انتهى كلامُهُ.

وقال غيره: مات على ظهرِ دابَّتِهِ على طريقِ يابُرةَ، افتَقَدَهُ مَنْ كان يَحْدُمُهُ فوجَدَهُ ميتًا، وقيل: إنَّ سببَ وفاته كان من سَهْمٍ أصابه وهو في خِباتِهِ على شَتَرَيْنِ من قوسِ اللُّوَلَبِ، ذَكَرَ ذلك بعضُ المؤرِّخينَ، منهم: أبو الحُسَيْنِ بنُ أَبِي مُحَمَّدٍ الشَّرِيشِيِّ وغيرُهُ. وكانت بيعتُهُ بِرباطِ الفتحِ حيثُ تَوَفَّى والدُهُ أبو مُحَمَّدٍ عبدُ المؤمنِ، ووافَقَتِ بيعتُهُ انقراضَ الدَّولةِ العبَّيدِيَّةِ بالْمَشْرِقِ، فكانت خِلافَتُهُ اثْنينِ وعشرينَ عامًا وعشرةَ أشهرَ وعشرةَ أيامَ، أوَّلُها يومُ الثلاثاءِ ثامنُ جُمادى الآخِرَةِ سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وخمسَ مئةَ، وآخِرُها يومُ السبتِ ثامنَ عَشَرَ ربيعِ الآخِرِ سنةَ ثمانينَ، فكان عُمُرُهُ سَبْعًا وأربعينَ سنةَ،

وكان مولده بتينمل سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة، وكانت أمه بنت القاضي أبي عمران، وقيل: إنه صلى عليه ابنه أبو يوسف مع أصحابه وأشياخ الموحدين.

وكان يوم حركته هذه الغزاة التي توفي فيها قد حدث له فيها حدث غريب من الفأل عندما خرج بالعلم الأبيض على باب القصبة انكسر له الرمح بالراية نصفين، فتماذى الخروج بالرايات الباقيات، ولما وصل إلى باب دكالة عند طلوع الشمس وإذا بمناد ينادي على جنازة وهو يقول: الصلاة على الغريب، فكره ذلك وتفاءل به وقطب له وجهه.

وكان عدد أولاده ثمانية عشر ولدًا ذكورًا، أسماؤهم: يعقوب المنصور، وإسحاق شقيقه، ويحيى، وإبراهيم، وعبد العزيز، وإدريس، وأبو بكر، وعبد الله، وأحمد، ويحيى الصغير، ومحمد، وعمر، وعبد الواحد، وعبد الحق، وإسحاق، وطلحة، وعبد الرحمن. وقاد له الجيوش من إخوته أخوه أبو حفص وأخوه أبو سعيد وأخوه أبو علي الحسن، وأخوه أبو زكريا صاحب بجاية.

وكان حاجبه أبو حفص شقيقه.

وزرأوه: إدريس بن إبراهيم ابن جامع إلى أن أوقع به آخر أيامه، ثم أبو بكر بن يوسف الكومي بين يدي ابنه أبي يوسف.

قضاؤه: حجاج بن يوسف وأبو موسى عيسى بن عمران وأبو جعفر بن مضاء، وكان وزيره في أيام إمارته، وعيسى بن مخلوف.

كُتِبَ في أيام خلافته: أبو الحسن ابن عيَّاش القرطبي، وسبب اتصاله به أنه لما كانت الفتنة المثلثية المهلكة للطائفة القرطبية، خرج ابن عيَّاش هذا في جملة من خرج منها وفر عنها ورحل إلى إشبيلية فقرَّبه أبو بكر المرادي شيخ كتاب بيت الإشراف، ثم انتقل لكتابة السيد أبي حفص وسار معه إلى تلمسان، ولم يزل في صحبته وكتابته إلى أن كان الإيقاع بأبي جعفر ابن عطية، فاستدعاه الخليفة إلى حضرته وأمره بكتابته، وكانت وفاته عام ثمانية وستين. وكتب له أيضًا أبو العباس طاهر المعروف بابن محسوة.

تمت أخباره.

ذكرُ بيعة أمير المؤمنينَ يعقوبَ المنصور وخلافته

وضخامة دولته ومهابة سَطوته رحمه الله^(١)

نَسَبُهُ: هو يعقوبُ بن يوسفَ بن عبد المؤمن، وتقدَّم^(٢) نسبُ عبد المؤمن.
مولدُهُ: في العَشرِ الأواخر^(٣) من ذي الحِجَّةِ سنةً أربع وخمسينَ وخمس مئة،
فكان عُمُرُهُ إحدى وأربعينَ سنةً وشهرينَ وأيامًا قلائل.
وكانت خلافته أربعَ عشرةَ سنةً وأحدَ عشرَ شهرًا وأربعةَ أيام^(٤). وكان بينَ بيعة
العامَّةِ إياه وبينَ وفاة أبيه تأخُّرٌ بسببِ كُتْمِ الوفاة.

صِفَتُهُ: كان مربوعًا آدمَ اللَّونِ ضَخَمَ الهامة بوفرة إلى شَحْمَةٍ أُذُنِيهِ أُعِينَ حَتَّى
لا يَرى مَنْ كان في عَصِرِهِ أَمْلَحَ عَيْنًا مِنْهُ، وكان أَشَمَّ وَسَطَ اللَّحْيَةِ قد غَلَبَ الشَّيْبُ
على مُقَدِّمِهَا، وكان معتدلَ الجسمِ متناسِبَ الأَعْضاءِ سَبَطَ الأَناملَ، بليغَ اللِّسانِ حاضِرَ
الجوابِ، مُشْرِفًا على أَجزاءِ مَمْلَكَتِهِ في القُربِ والبُعدِ، وكان شجاعًا مُقَدِّمًا عَظِيمَ
الصَّرِيمةِ على أعدائه لا تَضِيعُ عِنْدَهُ فَضِيلَةُ أَحَدٍ مِنْ رِجالِهِ ولا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ
أَحْوالِ رَعِيَّتِهِ^(٥) ولا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ على مُخادَعَتِهِ. وكان يَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَيُدْنِي بِمَجالسِهِمْ
وَيَسْتَدْنِيهِمْ مِنْ أَقاصِي طاعته.

وُزَرَاؤُهُ: اسْتَوَزَّرَ أَخاهُ أَبا عبد الله ثم أَبا عليَّ عُمَرَ بْنَ أَبِي زَيْدِ الْهَنْتَاقِيِّ ثم أَبا
يَحْيَى بْنَ أَبِي مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي حَفْصَ ثم أَبا زَيْدَ بْنَ يَوْجَانَ. وَحَجَبَهُ فَضِيلٌ وَعَنْبَرٌ فَتَيَاهُ^(٦).

(١) الكامل لابن الأثير ٥٠٥/١١، والمعجب ٣٣٦ فما بعدها، وتاريخ الإسلام ١٠٥١/١٢ -

١٠٦٤ وهي ترجمة رائقة، وتاريخ ابن خلدون ٣٢٥/٦، والاستقصا ١٥٨/٢ فما بعدها.

(٢) في م: «وقد تقدم»، وما أثبتناه من النسخ.

(٣) في م: «الآخرة»، وما أثبتناه من النسخ.

(٤) في المعجب مدة ولايته ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأيامًا. قلنا: ولا يصح.

(٥) في ب: «الرعية».

(٦) ينظر المعجب ٣٣٧-٣٣٨ وفيه تفصيل.

قُضِيَتْ: أبو العباس بن مضاء، ثم أبو عبد الله بن مروان، ثم أبو القاسم بن بَقِيٍّ^(١).
 كُتِبَتْ: أبو الفضل بن أبي الطاهر، ثم أبو عبد الله بن عِيَّاش، وأبو الحسن الهَوْزَنِيُّ
 على المَحَابِي وَدِيَوَانِ العسْكَرِيَّة، ثم أبو محمد ابنُ الكَاتِب، ثم أبو محمد الكَبَاشِي^(٢).
 نَقُشُ خَاتَمِهِ: أميرُ المؤمنين ابنُ أمير المؤمنين ابنِ أمير المؤمنين. وكانت بيعته أولاً
 بعدَ وفاة أبيه يومَ الأحد التاسعَ عَشَرَ لربيعِ الآخر سنة ثمانين.

اختصارُ الخبر عن بيعته رحمه الله تعالى

لَمَّا تَوَفَّى والدُهُ كما تقدَّمَ ذكرُهُ أَخْفِيَ خبرُهُ ومَشَتْ الدَابَّةُ به على حَالِهَا حتَّى
 كَانَ النَزُولُ بِالْمَنْزَلِ فَضَرَبَتْ أَخْبِيَّتَهُ على جَرْيِ عَادَتِهِ وَأَحْدَقَ الحَدَمَةُ وَالْفَتِيَانُ به على
 عَادَتِهِمْ فِي سُكُونِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ، فَلَمَّا تَمَهَّدَ النَزُولُ وَتَكَامَلَ النَّاسُ بِالْوُصُولِ بَعَثَ
 السَّيِّدُ أَبُو زَيْدٍ مِنْ حِينِهِ عَنْ بَعْضِ الْبَنِينَ الْأَكْبَارِ وَوُجُوهِ الْمُوحِدِينَ وَالْأَشْيَاحِ الْمَزَاوِرِ
 وَذَكَرَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ مُبَايَعَةَ الْأَمِيرِ أَبِي يَوْسُفَ، وَعَايَنُوا الْأَمِيرَ أَبَا يَعْقُوبَ مَسْجِيَّ
 بَيْنَهُمْ فَبَايَعُوهُ مِنْ وَقْتِ الزَّوَالِ إِلَى عَشِيَّةِ الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ، وَأَضْرَبَ عَنْ تَعْرِيفِ مَنْ أَتَاهُمْ
 فِي صَفَائِهِ وَشُكِّ فِي وَفَائِهِ. وَتَمَادَى الْمَشْيُ بَعْدَ هَذَا وَالْمَطِيَّةُ عَلَى حَالِهَا يَظْهَرُ
 الْاِعْتِنَاءُ بِهَا وَتَنْزِلُ الْمَضَارِبِ وَالْأَلْوِيَّةِ عَلَى حَالِهَا، وَكُنِمَ مَوْتُهُ عَنِ الْإِشَاعَةِ وَالتَّصْرِيحِ،
 وَكُنِّنَ وَصَلِيٌّ عَلَيْهِ، وَأُدْرَجَ فِي تَابُوتٍ وَتُقَدَّمُ بِهِ إِلَى إِشْبِيلِيَّة، وَلَمَّا كَانَ الْوُصُولُ إِلَى
 إِشْبِيلِيَّةِ رَوَّحَ أَبُو يَوْسُفَ يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى تَلَاَحَقَتْ النَّاسُ وَتَكَامَلَتْ
 الْمَحَلَّاتُ وَاسْتَوْفَتْ جَمِيعُ الْعَرَبِ وَسَائِرُ أَصْنَافِ الْجِيُوشِ، وَاتَّسَقَ الْجَمِيعُ بِإِشْبِيلِيَّةِ
 وَأَكْنَافِهَا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ غُرَّةُ جُمَادَى الْأُولَى نَدَبَ النَّاسَ عَلَى الْخُصُوصِ وَالْعُمُومِ
 لِلْمُبَايَعَةِ، وَحَضَرَ مِنْ يَجِبُ حُضُورُهُ وَمَنْ وَسِعَتْهُ الْقَصَبَةُ، فِي الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ وَفِي يَوْمِ
 السَّبْتِ بَعْدَهُ، عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، فَأَفَاضَ عَلَى قَرَابَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ غَامَرَ الْإِحْسَانِ وَخَصَّ
 السَّيِّدَ أَبَا زَيْدٍ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دُونَ أَهْلِ بَيْتِهِ لِتَقْدُّمِهِ لِحُدُودِهِ^(٣).

(١) المعجب ٣٣٩ وفيه تفصيل.

(٢) المعجب ٣٣٨-٣٣٩ وفيه تفصيل.

(٣) المعجب ٣٤٠.

ذكر حركة المنصور من إشبيلية إلى الحضرة وما نفذ

من أوامره العلية إلى يوم جوازه إلى العدو

لما كملت أشغال جزيرة الأندلس وعم أخذ البيعة قاصيها ودانيها، أمر يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى بحضور أشياخ الموحدين والعرب وشيوخ الوفود من كل بلد، وصرح بالحركة وانقضاء الغزو والتأهب لسمع نقر طبل الرحيل^(١)، فخرج أهل المجلس وعرفوا العموم، وكتب لسائر البلاد والقبائل من المجاهدين والمسافرين، وقدم القائد أبا العباس الصقلي إلى طريف في ثلاث عشرة قطعة، وتقدمت قطعتان بالأثقال إلى رباط الفتح بسلا، وأمر جميع الناس من أهل الأندلس من كل طبقة أن يهبطوا إلى بحيرة الوادي^(٢) فأسحروا في اليوم المذكور في أمم لا يحصى عددهم ولا ينقطع مددهم، وزينت قطعة بإزاء قبة الجلوس على شاطئ النهر وكمل سلام الجميع، وقدم المصحف الكريم، ودخل ضحى اليوم المذكور وقد أعد له آفراك، فنزل بقرية طريانة وتمادى مشي العساكر معه إلى شريش وأقلع منها يوم الثلاثاء، وتلاقى على مدينة ابن السليم بالسيد أبي زكريا ابن السيد أبي حفص قادما من تلمسان مع أعيان زغبة ومن انضاف إليهم من العرب وفي صحبته سبع مئة فرس معونة لأهل الأندلس، وكان قد ترك منها مئتين بطنجة حسبا أمر له به. ثم أسرى المنصور ليلة الجمعة من عين الشمس فأصبح بحجر الإبل وقد انضم بشاطئ البحر الأسطول، وقامت التهليل^(٣) والطبول، فراق المنظر وراع المخبر، ونزل الدار المباركة بالشرية والسعد مصاحب والهواء موافق، فشحت من ساعتها الأجفان بالأثقال وشدت الرحال، وأسفر عن حسن وجهه اليمن والإقبال.

ولما كان يوم السبت السابع لجمادى الآخرة من سنة ثمانين المؤرخة جلس بمضرب الساقة لمودعة أهل الأندلس ووداعه الولاء بها من إخوته الذين كان قدمهم...

(١) ليست في ب.

(٢) في ب: «البحيرة التي بالوادي».

(٣) في ق، ر، ٣: «التأليل»، ولا معنى لها. والتهليل هي الهتافات أو التسيبحات. معجم دوزي

وإسحاق وأبو يحيى وأبو زيد، ودخل البحر ضحى اليوم المذكور، وقُدِّم مصحفُ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه بأروابه على مهْلهم إلى قصر مصمودة، فأقام به بقيةَ يومِ الجمعة حتى استوفى الجوازَ الجميعُ، حتى جناح السلامة^(١).

ولما استقرَّ برباط الفتح تسمَّى بأمير المؤمنين وكتبَ إلى بلاد الأندلس بذلك، إذ كانت كُتبه تنفَّذُ مذبُوع من الأمير يعقوب، وتلقَّى به هناك أبو عبد الله بن واجاج مع وفود العرب وأهل فاس ومكناسة وعماهما، وآخر إبراهيم بن إسماعيل عن عمل فاس، وأمر سائر العمال بالوصول إلى الحضرة، ودُفن أمير المؤمنين أبو يعقوب بالرباط المذكور بدار الخليفة.

ولما وصل الناسُ إلى مرَّاكش أقبلوا على التودُّع من نصَّيهم، والانغماس في راحتهم، وتبسَّطوا بالإدلال، واتَّصل الإغبابُ عن ملازمة الأشغال، فأنكر الخليفة تلك الأحوال، وأخذ في تسمير ما انسحب من الأذيال، ورفع ذلك المنكر والإهمال.

اختصارُ الخبر عن تورُّع المنصور في قطع المناكر وبسط العدل ومباشرة الأحكام لتحقيق شرائع الإسلام

لما رأى التساوي في الانهالك والاغترار، وسمع المجاهرة بالاستهتار، والتنافس في الشَّهوات ونفاق سُوق الغانيات الملهيات، تنكَّر وغَضِبَ في الله لذلك النكير، وأضربَ عن القالِ والقالِ، وجعل الإنذارَ والإعذار مكانَ السيفِ الصَّقيلِ، فأمرَ بإراقة المسكرات وقطعها، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها، وأنفَذَ المُخاطباتِ بذلك إلى كافةِ ولايته بالأمصار، فأريقَ منها في البلاد ما يُساوي أموالاً جمَّة، وضمَّنت الكتبُ النافذةُ بذلك فصولاً في بسط العدل والتأكيد على العمال والولاية بتأنيس الرعيَّة وتوخي رضاهم في اقتضاء حقوقهم وكف أيدي الظالمين عنهم وإباحة جواز البحر إلى المشتكين والمتظلمين، فانبسطت الآمال وحسنت الأحوال وتوالَّت له الأدعيةُ الجميلة.

(١) قوله: «الجميع حتى جناح السلامة» ليس في ب.

وفي إراقة الخمر يقول ابنُ بُجَيْرٍ [من الطويل]:

رضيعٌ تُدِيّ العلمَ طالَ رِضاؤه	لها وهي ليست تستطيعُ فصالَه
إذا شئتَ تدري في العلومَ مقامَه	فَسَلْ عن دقيق العلمِ واسمَعْ مقالَه
أقامَ حدودَ الله في كلِّ موطنٍ	وأعَمَل فيهِ رعيَه واهتبالَه
فأنهَلَ بطنَ الأرضِ منه وعلَّه	وقد مُنِعت أيدي الوري أن تنالَه
وبدَّد منه كلَّ ما فيه شُبُهه	ولم يُبقِ إلا حُلُوَه وحلالَه
إمامٌ جميعُ الخيرِ بعضُ صفاتِه	فلا خيرَ إلا وهو ممَّا أنالَه
يؤمُّمُه من سَدَدِ الله قصدَه	وأنجَحَ مسعاَه وأنعمَ بالَه
ويسبقُ بالجودِ السؤالَ لأنه	يَرى وجهَ راجيهِ فيأبى ابتدالَه

ذكرُ جلوسه للأحكام بنفسه

كان ابتداءُ جلوسه غرّةَ رَجَبِ سنة ثمانينَ المذكورة في المسجد الجامع المجاور لَقَصْرِ الحَجَرِ أيامًا من صلاة الضُّحَى إلى قُرْب الزَّوالِ، مع تأنيس الخصوم لاستدعاء ما لديهم من الأموال، فارتاع الأعيان من حضور ذلك المقام، لِمَا فيه من هجوم خَجَلٍ وضيقِ مجالِ المقال، وتطَرَّق إليهم السُّفال، وأغرَموهم جُملةَ أموال، وكلُّ من ادَّعى شيئًا بشُبُهه أو دَعَوَى صُولِحَ بما يُرضيه دفعًا للبلوى. قال يوسفُ بن عمر: ولقد حَضَرْتُ لأناس من السُّوقَةِ والتُّجَّارِ ادَّعَوْا على السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ، فمنهم من قال: أَهْدَيْتُ له فرسًا وآخرُ جاريةً وشَتَّى دَعَاوَى، فكلُّ أرضاه ووفَّى له ما ادَّعاه، فلَمَّا كَثُرَ تراخُمُ الغَوغاءِ، وَقَلَّتْ فوائدُ الحُصَمَاءِ - وكانوا يقصِدُونَ إلى مجلس في أدنى المطالب، وربَّما كانوا يقصِدُونَ رُؤيةَ السُّلطانِ لا للوُصُولِ لِحَقِّ واجبٍ - فَقَطَعَ العامة ذلك الجلوس، بعد ما توطَّأت به بعدَ شماسِها النفوس.

وفي أيام الجلوس للأحكام وصل إلى الحضرة مئة وخمسون من أسارى الرُّوم كان قد أَسَرَهُم القائدُ الصَّقْلِيُّ حين عكس أجفانهم بساحل بحر إشبيلية، فأمر المنصورُ بغزو جميعهم. ثم أمرَ بقطع لباس الغالي من الحرير، والاجتزاء منه بالرَّسم

الرقيق الصَّغير، ومنَعَ النساءَ من الطَّرْز الحَفِيل، وأَمَرَ بالاكتفاء منه بالسَّادَج القليل، وأَمَرَ بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب، فبيعت منه ذخائر لا تُحصى بأثمانٍ لم تُوفَ ولم تُستَقْصَ، ثم أَمَرَ أصحاب الشرطة بقطع المُلهين والقَبْض على مَنْ شُهِر من المغنِّين، فثَقَّف من وُجد منهم بكلِّ مكان، فغيَّروا هيئاتهم وتفرَّقوا على الأوطان، وبارت سُوقُ القِيان، وزُهد كلُّ الزهد في هذا الشأن.

ذَكَرَ اخْتِطَاطِ حَوْمَةِ الصَّالِحَةِ وَإِدْخَالِهَا فِي الْحَضْرَةِ الْعَالِيَةِ

ولَمَّا اسْتَوَفَتْ هِمَّتُهُ وجوهَ المحاسن وضروبَ الفضائل، وفخمت المملكة وأَمَّهَا كُلُّ قاصِد وسائل، ضاقت عنها مساكنُ سَلَفِهِ بقصر الحَجَر، فَأَمَرَ باخْتِطَاطِ الصَّالِحَةِ، وَحَشِدَ لَهَا العُرَفَاءَ والصُّنَاعَ، وَكُلَّ مَنْ شُهِرَ بِالِإِتْقَانِ والأَطْبَاعِ، وَحَدِثَ مَسَاكِنُهَا بالتكسير، وأَرْضِيَ بالتعويض مَنْ كانَ لَهُ بِهَا شَيْءٌ صَغِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ، وَقَسِمَتْ مَسَاكِنُهَا، وَعَيِّنَتْ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ المَنَافِعِ أَوْضَاعُهَا وَأَمَاكِنُهَا، وَجُمِعَتْ لَهَا الآلَاتُ، وَخَوِطَ بِإِمْدَادِهَا الجِهَاتُ، وَرَتَّبَ لِإِسْغَالِهَا مِنْ حَقَّازِهَا^(١) وَحِفَاطِهَا وَعُرْفَائِهَا وَنُظَّارِهَا، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِمْ وَأَكَّدَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُنْشِئُوا شَيْئًا مِنَ البُيَانِ إِلَّا فَوْقَ الغَايَةِ مِنَ الوَثَاقَةِ وَالِإِتْقَانِ، فَأَقْبَلُوا عَلَى العَمَلِ مِنْ غَيْرِ مَكَلٍّ وَلَا كَلَلٍ مُوَاصِلِينَ مَسَاءَهُمْ بِصَبَاحِهِمْ، وَمُؤَالِينَ غَدَوَهُمْ بِرَوَاحِهِمْ، حَتَّى كُمِلَتْ عَلَى أَحْسَنِ المِهْنَاتِ وَفَوْقَ مَا أَمَلَّ فِيهَا مِنَ الإِرَادَاتِ، فَصَارَتْ بِهَا حَضْرَةٌ مَرَّاكُشٍ مَصْرَ الأَمْصَارِ وَغَايَةً فِي الفَخَامَةِ وَارْتِفَاعِ المِقْدَارِ.

وَبَيْنَمَا النَّاسُ وَادِعُونَ فِي ظِلِّ الأَمَانِ، نَائِمُونَ مَلَأَ الأَجْفَانِ، إِذْ طَرَأَ خَبْرٌ بِجَايَةِ وَمَا دَارَ فِيهَا مِنَ النِّكَايَةِ.

ثُمَّ كَانَتْ سَنَةٌ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ، فَفِيهَا: كَانَ دُخُولُ ابْنِ غَانِيَةِ^(٢) مَعَ المِيَارِقَةِ مَدِينَةَ بِجَايَةِ، وَتَحَرُّكَ السَّيِّدِ أَبِي زَيْدِ ابْنِ عَمِّ الخَلِيفَةِ المَنْصُورِ بِالجِيُوشِ مِنْ حَضْرَتِهِ مَرَّاكُشٍ وَرَجُوعُهَا لَهُ عَلَى أَحْسَنِ حَالَاتِهَا وَمَا انْدَرَجَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مِنَ الحَوَادِثِ وَالمِحَنِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(١) جمع حافر، وهو الشرطي عند أهل الأندلس، ينظر معجم دوزي ٣/ ٢٤٢ من الطبعة الفرنسية.

(٢) هو علي بن إسحاق المعروف بابن غانية (المعجب ٣٤٥).

اختصارُ الخبر عن دخول ابنِ غانيةٍ بِجَايةٍ^(١)

كان أبو يعقوبَ رحمه الله وَجَّهَ القائدَ أبا الحَسَنَ عليَّ بنَ الدبرتير إلى جزيرة مَيُورقة بعدَ هلاكِ إِسحاق بنِ غانيةٍ^(٢) لِيَعْرِضَ الطاعةَ على مَنْ بها من بني إِسحاقَ المذكور، وليَقْدِمَ الإِعْذارَ والإِنْذار، على جَزْيِ العادة فيمَنْ خَالَفَ الجماعةَ من الثَّوار، فركبَ أبو الحَسَنَ المذكورُ ظَهَرَ البحرِ من سَبْتَةِ على ما اقْتَضَتْهُ صَرِيْمَتُهُ من الجَدِّ، وَلَمَّا وَصَلَهَا وَسَّعَ نَزْلَهُ وأَكْرَمَ في الظاهرِ مَثْواه، ووَصَلَ بالدَّوامِ على الخَيْرِ قُواه، وقد أَضْمَرُوا ما كانوا بَنَوْا عليه [من نِيَّةِ خروا]^(٣) جِهَهُم وَغَدَرِهِم، وبَدَأَ من مَحاولَتِهِم ما لم يَخْفَ على أبي الحَسَنَ في سِرِّهِم وَجَهَرِهِم، وكانَ عِنْدَ حُلُولِهِ بِساحَتِهِم واشتغالِهِ بِمجادِلَتِهِم، بَعَثُوا إلى مراكِبِهِ مَنْ أَنزَلَهَا من الرُّكَّابِ والعمائرِ البحريَّةِ، وطلَّعَ فيها العمائرَ المَيُورقيَّةِ، وَجَرَّدوها إلى دارِ عُدَدِهِم، فلم يَكُنْ لأبي الحَسَنَ مَحِيدٌ عن الاستسلام، والصبرِ على ما فَجَأَهُ مِنَ الآلامِ.

وتمادى إِمساكُهُم للقائدِ المذكورِ ومُطاولَتُهُم له ومُواعِدَتُهُ حتى اتَّصلَ بِهِم وفاءُ أميرِ المؤمنينَ أبي يعقوبَ، فَتَحَرَّكَ أَحلامُهُم الضَّعيفَةُ إلى التَّدبيرِ الذَّمِيمِ، واستَهْواهُم تَسْوِيلُ شيطانِهِم الرَّجِيمِ، وأغواهُم غَوِيَّتُهُم المَرِيدِ، وضالُّهُم الرُّومِيُّ رَشِيدٌ، فاعتَقَلُوا أبا الحَسَنَ في دارِ إِنْزالِهِ، ووَكَّلُوا به من الحَرَسِ والرُّقَباءِ ما أَمِنُوا به من مَكْرِهِ واحتِيالِهِ، وَخَرَجَ المذكورُ رَشِيدٌ بِقِطائِعِهِم إلى بِجَايةٍ، وقد بَلَغُوا مِنْ احتفالِهِم الغايةَ، وَظَلُّوا الهُدْنَةَ في تلكِ البلادِ ممدودِ، وماءُ العافيةِ بها مَسْكُوبٌ ومورودِ، والعيشُ كالأَحلامِ والدُّنيا تَحِيَّةٌ وسلامٌ، فوصلَ الأعداءُ إلى بِحَرِّها، وَقَدَّمُوا زُورَقًا إلى حَرِيمِ أسوارِها، واستَوَقَّعُوا بالاستِفْهامِ من جَلِيَّةِ أخبارِها، فَأَشْرَفَ عَلَيْهِم من أهلِ البلدِ مَنْ سألَهُم عن شأنِهِم، وما أَضْطَرَّ لَهُم إلى الهُجُومِ من غيرِ اسْتِئْذانِهِم، فَأَخْبَرُوا أَنَّهُم غُزاةٌ يَطْلُبُونَ مَرافِقَ السواحلِ، وَهُمْ بَيْنَ مُخادَعٍ ومُخاتَلٍ.

(١) الكامل لابن الأثير ٥٠٧-٥٠٨، والمعجب ٣٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣٢٥.

(٢) المعجب ٣٤٤.

(٣) ما بين الحاصرتين فراغ في النسخ.

وكان السيّد أبو موسى قد حلّها من إفريقيّة مجتازاً بها مع أصحابه، والسيّد أبو الربيع على مقرّبة منها راحلاً إلى الحضرة، والكلُّ من هؤلاء غيرُ مستعدين، وعلى بُعدٍ من الفتنة منذ سنين، وأقبل العدوُّ من الغد على تعبئة واستعداد، وتأهب وامتداد، قد تكفّنوا في ضروب أسلحتهم، وتعلّقوا من الغربان بصدورهم وأجنحتهم، وانضمّوا إلى السواحل والأسوار انضمام الطير إلى الأوكار، وجنّحوا إلى إحدى الجهات، بأسرارٍ تقدّمت قبل من المُكاتبات، فتدكّل لهم قومٌ من السوقة والفُسّاق وأسروا إليهم بعورات البلد وغفلة أهله وقلّة المُقاتلة من أهل النجدة به، فقويت بذلك آمالهم وامتدّت أطماعهم، وهبّط لمحاربتهم أخلاطٌ من الناس من غير قائد يجمعهم، كُشف من العُدّة، كُسالى من الضّعف والوَحدة.

وقد كان في البلد من أرباب الأمر ما لو شاء الله لمنعوهم من الاستيلاء، ولا مُدافعة مع محتوم القضاء. وعندما اجتمعت تلك المُقاتلة في البرّ، ورأت القطع كالْمُضربة عنهم، والمُبدية النّهب منهم، ثم أوجفت إليهم إيجافاً، وتساوت في احتماء المُقاذف والإسراع نحوهم ثقلاً وخفافاً، وأرسلوا عليهم سحاباً من القسيّ العاقرة، وحراباً كالمنيا الماطرة، فشقتهم عن آخرهم وتفرّقوا كالفرّاش المبيّث لا ينظرُ أولهم إلى آخرهم، فمدّ الأعداء مطالع الطرائد وولايتهما، وخرج الفرسان مستلّمين كأنّ اللّجّة كانت طريقها، وحين تكاملت أعدادُ خيلهم ورجلهم، وارتفع ما أوجسوا في نفوسهم من خيفتهم ووجلهم، طلّعوا إلى ثلَم السُّور قاصدين، بتجسّيس تقدّم من أولئك الفاسقين، فسَهّلوا بالحديد توغّرهم، ورأوا في الحين تيسّرهم، فاستولوا على البلد بأسره، وقبضوا على السيّد أبي موسى وذويه وأهله، وثُقف من يتعيّن من الخدّمة والموَحّدين، وصيّروا في ديار مُرّقين.

وكان دخولُ البلد في التاسع عشر لصفّر من سنة إحدى وثمانين وخمس مئة، وترك يحيى بنُ غانية^(١) أخاه، بالبلد مع رَشيد الرُّوميّ مولاه، وخرج من فوره ليلحق بالسيّد أبي الربيع، فالتقى معه بموضع يُعرَفُ بياميلول، فانخرلت العربُ إلى العدو وانطوت إلى حربه، ورجعت معه على السيّد وحربه، فخلع عن محلّته، واستولى

العدو على ما كان فيها من أمواله وعياله وثقلته، ووجه بالجميع إلى بجاية لنظر رشيد وثقافته، وانهمز السيد أبو الربيع واستشهد بعض رجاله، وتخلّى إلى الجزائر فوجدّها غير حصينة، فانحدر منها إلى تلمسان واستقرّ بها مع السيد أبي الحسن فريداً من جُنْدِه، عارياً إلا من أدبه ومجده.

واقفَى الشقي آثاره، فأخذ الجزائر وقدم عليها يحيى ابن أخيه طلحة، وانتهى إلى مليانة فأخذها وقدم عليها يدر ابن عائشة، ووقف بها فنكص على عقبيه ورأى أنّ الذي حصل له فوق قدره ومطلبه، فرجع إلى بجاية، ووقف مع مسجدّها الجامع وأخذ الناس بمبايعته والدخول تحت طاعته، ونشر رايته السوداء، وانحشر إليه الغوغاء، فبايعه من اقتاده الشقاء بأزمته، وتوقف من توكل على الله وأخذ بسنته، ثم أخذ ما أخذ من مخازن بجاية من المال والثياب والعُدَد وكسا أوباش العرب ومن انضاف إليهم ولاذ به من أتباعه، وصمّ جمعه من أولئك الأخطا المولفين، وترك ببجاية أخاه يحيى ورشيّداً، وتحرك إلى قسنطينة ونازلها في جمع من المؤلفة لا يحصى عدّيدُه، وعنّها كان تفريقه وتبيدُه.

قال أبو الحجاج يوسف بن عمر: أخبرني القاضي أبو عبد الله بن إبراهيم، قال: لما أقيمت رايته المذكورة بإزاء المنبر اشتغلوا عنها بما كانوا فيه من النظر، خرّت على وجهها، واندقّ من القناة قائمها، فتفاهل الناس بإنذارها، بقصر مدّته وزوال دولته.

ذكر حركة السيّد أبي زيد إلى بجاية^(١)

ولما وصلت هذه الكائنة إلى حضرة مراكش على كفيّتها، وبيان ما انطوت عليه النفوس في موالاة العدو من خُبث سرائرها ونفاقها وفساد طويّتها، فاهتز المنصور اهتزاز أمثاله، وصبر صبر المتوكل على صالح أعماله، وشرع في تكثيف كتائبه وتكثيف عماله^(٢)، وانتقاء رجاله وشجعانه وأبطاله، وأباح التمكن من الآلات، وأعطى

(١) تاريخ ابن خلدون ٣٢٧/٦، والاستقصا ١٦٠/٢.

(٢) قوله: «وتكثيف عماله» ليس في ب، ق.

الجزيل من البركات، وأمر^(١) السيّد أبا زيد ابن السيّد أبي حفص على الجيوش، وفوّض إليه التفويض التام، فخرج في أعداد وافرة، وجُموع وعُدَد متكاثرة.

وتحرّكت الأساطيل من سبّنة على احتفال من أشكالها وانتقاء من قُودها ورجالها، وعليها أبو محمد بن أبي إسحاق بن جامع وأبو محمد بن عطّوش الكُومي والقائد أبو العباس الصّقليّ ومن دُوهم من الرؤساء الأعيان، والأنجاد الشُّجعان، والكلُّ تحت رعي الشّيخ أبي محمد ابن جامع وإلى نظره وتحت ما يراه من نهيه وأمره، ومشى^(٢) الجميع على تواعد من تضافر البرّ والبحر، وتلاقي الفريقين على الفتح والنصر، فارتجّت الأرض برّاً وبحراً، وملأت الأنباء مسامع الخافقين خبالاً ودُعرًا.

ووصل الموحّدون بمحلّتهم إلى مدينة فاس، فأمسكهم بها ترادّف الأمطار، وتعذّر الطريق بالوخل ومدود الأنهار، حتّى صحت السماء وجفت الأنواء، ورحل السيّد من فاس وتدرّج بالجيش إلى تلمسان، والسيّد أبو الحسن ابن السيّد أبي حفص واليها، وقد شيّد أسوارها وشدّ بالرجال أنظارها، والسيّد أبو الربيع قد استقرّ بها من هزيمته، مُستوحش النفس كاسف البال، حليف أفكار وأوجال، يتنسّم ريح النصر، ويستوهب الدعاء في استنقاذ أهله من قبضة الأسر.

وخيل يدر ابن عائشة صاحب مليانة تضرب إلى مازونة ونواحيها، وقد أضرَم نار الفتنة في بطون تلك الجبال وأعاليتها، فأخذ الناس من تلمسان أهبّتهم، واستوفوا منها أقواتهم وأزودتهم.

وقد كان أبو يوسف المنصورُ أتبع أمراء الجيوش: البرّية والبحرية كتباً لأهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصّفح والإحسان، ولما دنت من البلاد دسّوا بالكتب جواسيسها دخلوا بها ليلاً إلى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن، فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمّنوا غوائل العذاب، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الأبواب، وثبوا على من كان عندهم من الأعداء، وأرصدوا لفرارهم بالمضائق

(١) في ق: «وأمدّ» ولا معنى لها.

(٢) من هنا إلى قوله: «برّاً وبحراً» سقط كله من ب.

وقُبِضَ على أكثرهم بتلك المَخَانِق، وسَبَقَتِ الأساطيلُ ففَتَحَتِ الجزائرَ قَبْلَ وُصُولِ أهلِ البَرِّ، وَضُرِبَتِ الطَّبُولُ في يومٍ واحدٍ على فَتْحِ الجزائرِ وَمِلْيَانَةِ، وَقُبِضَ على يَحْيَى صاحبِ الجزائرِ وَحواشيه، وَأَتْبَاعِهِ وَغَوَاشِيهِ.

وكان يدر ابنُ عائِشَةَ صاحبُ مِلْيَانَةَ قد أَسْرَى منها فاقْتَنَى أهلُها أَثَرَهُ، فَلَحِقَ بالقرية المعروفة بِأُمِّ العلوِّ وعُرِضَ عليه النزولُ على وَجْهِ التضييفِ، ثم قُبِضَ عليه بأطرافِ النهارِ بعدَ مُعارَكَةِ ومُحاربةٍ، وسِيقَ جَمْعُهُم مُصَفَّدِينَ، وأَمَرَ السَيِّدُ أبو زيدٍ على وادي شلفِ بَعَزُو الباقينَ، وتقدَّمَ القائدُ أبو العباسِ الصَّقِيلِيُّ بقطعةٍ واحدةٍ معَ بعضِ أهلِ البلدِ ودَسُّوا لهم كُتُبًا بما وراءهم من الأسطولِ والجِوشِ الواصلةِ، فلَمَّا وَصَلَتِ الأسطولُ^(١) إلى بِجَايَةِ ضَجَّتِ العامةُ وفتحت الأبوابَ، ودخلتِ عمائرُ الأساطيلِ فانتَهَبَتْ كثيرًا من البلدِ، فتلاقى الحالُ الشيخُ أبو محمدِ ابنُ جامعٍ بالاشتدادِ والاجتهادِ، ووضعَ السَّيْفَ على مَنْ عَثِرَ عليه من أهلِ الاعتداءِ والفسادِ، فحَمِيَتْ نارُ الالتهابِ وسَكَنَ العمومُ عما كانوا فيه من الانتهابِ، وخرجَ السَيِّدُ أبو موسى وَمَنْ كان معه من الموحِّدين تحتَ الثَّقَافِ، وخرجَ يَحْيَى بنُ غَانِيَةٍ في عَدَدٍ قليلٍ عن بِجَايَةِ ولَحِقَ بِأَخِيهِ بِقُسْنُطِينَةَ وَهُوَ مُحَاصِرُهَا، وقد كان بَلَغَ أهلُها من الحصارِ، إلى حالِ مُؤَذِّنَةٍ بالدَّمَارِ، وانتهَوْا من الجَهدِ والتضييقِ إلى ما أَعْصَهُم بالرَّيْقِ، وضاقَ بهم من كُلِّ طريقٍ، فجاءهم من الفَرَجِ والتنفيسِ ما وجدوا بركته في الحينِ، واللهُ معَ الصابرينَ.

وعندَ وُصُولِ ابنِ غَانِيَةٍ أَضْرَمَ النَّيرانَ في الآلاتِ المنصوبة عليها، وتركَ الأعداءَ أَثْقَالَهُمْ وكُرَاعَهُمْ من غيرِ اختيارٍ، وخابَ سعيُّهم وما بنَوْا عليه من التأميلِ، وتفرَّقوا أيديَ سِبْإٍ بِكُلِّ سَبِيلٍ.

ووصلَ السَيِّدُ أبو زيدٌ بالمَحَلَّاتِ إلى منزلٍ تيكَلاتٍ بعدَ إقْلَاعِ العدوِّ عن قُسْنُطِينَةَ بثلاثةِ أيامٍ، فوَقَعَ الاتِّفاقَ، وتلاقى الإجماعُ والإصفاقُ، مِمَّنْ تَعَيَّنَ من أشياخِ الموحِّدينَ، وحَضَرَ تلكَ الحركةَ من أهلِ البصائرِ والدِّينِ، وأجمَعَ رأيهم على الترويحِ

(١) كذا في النسخ، والمراد: وصلت سفن الأسطول.

بالمجلس المذكور رَيْثَمَا يُجَرِّدُ النَّاسُ أَثْقَالَهُمْ وَيَجِدُّونَ أَزْوِدَتَهُمْ وَيَتَأَهَّبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ الْأَعْدَاءِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، فَأَقَامُوا بِهِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ وَثَانِيَهُ، وَلِحَقِّ طَلَبَةِ بِيْجَايَةِ وَوُجُوهُ أَهْلِهَا صُحْبَةِ السَّيِّدِ أَبِي مُوسَى فَتَهَانُوا بِالسَّلَامَةِ، وَشَكَرُوا اللَّهَ عَلَى مَا خَوَّلَهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ السَّابِغَةِ وَالْكَرَامَةِ، وَاتَّصَلَ سَلَامُهُمْ بِوَدَاعِهِمْ وَانْصَرَفُوا عَلَى أَدْرَاجِهِمْ.

وَسِيقَ كُلُّ مَنْ قُبِضَ عَلَيْهِ بِبِيْجَايَةِ وَنَظَرَهَا تَمَنُّ مُيِّزٍ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ، وَقُبِضَ عَلَيْهِ تَمَنُّ جَارٍ مِنْ مَيُورَقَةٍ مِنَ الْمُتَجَنِّدِينَ، فَأَمَّنَ مَنْ جَازَ مِنْ مَيُورَقَةٍ مِنَ الْأَجْنَادِ، وَقُتِلَ كُلُّ مَنْ نَزَعَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَأَظْهَرَ نَفْسَهُ فِي الْإِرْتِدَادِ، وَوَزِعَ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ كُلِّ مَا كَانَ بَدَارَ الشَّقِيِّ مِنَ الْإِمَاءِ، احْتِيَاظًا لِضِيَاعِهِمْ بِطُولِ الثَّوَاءِ.

وَرَحَلَ الْمُوَحِّدُونَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ فِي اتِّبَاعِ الْأَعْدَاءِ يَتَقَصَّوْنَ أَنْبَاءَهُ وَيَقْفُونَ آثَارَهُ، وَيَطُوُّونَ عَلَيْهِ الْمَرَاحِلَ، وَيَعْصُوْنَ عَلَى قُوَّتِهِ الْأَنَامِلَ، وَالْعَدُوُّ قَدْ أَلْقَى أَعْبَاءَهُ وَخَفَّفَ رَحْلَهُ وَفَرَّقَ رَجْلَهُ وَشَمَّرَ لِلْفِرَارِ ذَيْلَهُ، وَاتَّخَذَ اللَّيْلَ جَهْلًا، وَإِنْ رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا، فَتَعَدَّرَ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ لِحَاقِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ مَحَاقُهُ، لَكثَافَةِ الْجَيْشِ وَاتِّسَاعِ أَثْقَالِهِ، وَأَنْ لَا يَحِيدَ عَنْ رَحِيلِ الْإِنْسَانِ بِمِرَافِقِهِ وَجَمَالِهِ، فَرَجَعَ الْجَمِيعُ إِلَى بِيْجَايَةِ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ لَمْ يَكْتَحِلُوا تَحْتَ جِدَارِ بَمْنَامٍ، وَلَا بَرَحُوا عَنْ الْإِسْرَاجِ وَالْإِلْجَامِ، وَالْجَيْشُ وَافَرَ الْعُدَّةَ ظَاهِرُ الصَّلَاحِ، غَيْرُ مَفْلُولٍ وَلَا مَقْصُوصٍ الْجَنَاحِ.

وَعُرِّفَ الْمَنْصُورُ أَبُو يُوسُفَ بِتَسْيِيرِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْأُسْطُولِ فِي فَتْحِ بِيْجَايَةِ، فَهَنَى بِالْخَضِرَةِ بِمَرَّكَشٍ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ فِي ذَلِكَ [مِنْ الطَّوِيلِ]:

لَوَاؤُكَ مَنْصُورٌ وَسَعْدُكَ غَالِبٌ	وَحَزْبُكَ لِلْأَعْدَاءِ عَنْكَ مُحَارِبٌ
لَقَدْ تَكَلَّمْتُ أُمُّ الْمُنَاوِي وَغُرَّرْتُ	مَبَادِيٍّ مِنْ أَحْوَالِهِ وَعَوَاقِبُ
سَمًا لَا سِتْرَاقِ السَّمْعِ مِنْ وَهْدَاتِهِ	وَدُونَ سَمَاءِ الْمُلْكِ شُهْبٌ ثَوَاقِبُ
تَلَاقَى عَلَيْهِ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ تَرْتَمِي	سَفِينٌ إِلَى اسْتِصَالِهِ وَكَتَائِبُ
غَرِيقٌ بِغَرَقَى مِثْلِهِ مَتَمَسِّكٌ	وَمَوْجُ الْمَنَآيَا مِثْلَهُمْ مَتَرَكَبُ
هُوتَ بِهِمُ الْأَطْعَامُ فِي هُوَةِ الرَّدَى	وَعَرَّتَهُمْ جَهْلًا بُرُوقُ خَوَالِبُ

أَطَاعُوا غَوِيًّا لَمْ تَقِيْدُهُ شِرْعَةٌ
مَغِيْبٌ وَجْهِ الرَّأْيِ وَالْوَجْهَ حَائِزٌ
دَعَاهُمْ إِلَى آجَالِهِمْ فَتَهَا فَتَوْا
تَصَامَمَ عَنْ وَعْظِ الزَّمَانِ بِقَلْبِهِ
تَحَيَّلَ أَنَّ النَّاصِرِيَّةَ دَارُهُ
وَفِي الْغَيْبِ مِنْ إِنْجَادِ طَائِفَةِ الْهُدَى
هُوَ الْأَمْرُ أَمْرُ اللَّهِ لَيْسَ يَفْوُتُهُ
وَمَا هَارِبٌ مِنْهُ وَلَوْ بَلَغَ السُّهَى
بَنَاصِرِهَا الْمَنْصُورَ تَاهَتْ خِلَافَةُ
إِمَامٍ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الْخَلْقِ بَاهِرٌ
مَنَاقِبُهُ مِثْلُ الْكَوَاكِبِ كَثْرَةً
لَهُ نَسَبَةٌ قَيْسِيَّةٌ قُدْسِيَّةٌ
هِيَ الدَّوْحَةُ الشَّمَاءُ فِي الْأَرْضِ أَصْلُهَا
حَقِيقٌ بِمِيرَاثِ النَّبَوَّةِ وَالْهُدَى
يَقِيْمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَعِدَكُمْ

وَلَمْ تُرِهِ وَجْهَ الصَّوَابِ التَّجَارِبُ
يَرَى حَاضِرًا فِي أَمْرِهِ وَهُوَ غَائِبٌ
كَمَا جَمَعَ الْأَعْوَادَ لِلنَّارِ حَاطِبٌ
وَأَعْرَضَ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى وَهُوَ لَاحِبٌ
يُطَاعُنُ عَنْ سَاحَاتِهَا وَيُضَارِبُ
وَنَصْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ غَرَائِبُ
مُنَاوٍ وَلَا يَنْأَى عَلَيْهِ مُنَاصِبُ
بَنَاجٍ وَهَلْ يَنْجُو مِنْ اللَّهِ هَارِبُ
تُنَاسِبُهُ فِي حُسْنِهِ وَيُنَاسِبُ
وَمَرْتَبَةٌ تَنْحَطُّ عَنْهَا الْمَرَاتِبُ
وَنُورًا أَلَا اللَّهُ تِلْكَ الْمَنَاقِبُ
تُقَرُّ لَهَا بِالْمَعْلُوَاتِ الْمُنَاسِبُ
وَقَدْ زَاخَمَتْ مِنْهَا السَّمَاءُ الذَّوَاتِبُ
وَلَا عَجَبٌ إِنَّ الْمَزَايَا مَوَاهِبُ
تُهَزُّ قَنَا مِنْهُ وَتَنْصِي قَوَاضِبُ

ذَكَرَ اسْتِقْرَارَ السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ بِبِجَايَةِ وَمَا جَرَى مَدَّةَ إِقَامَتِهِ بِهَا

مِنْ الْأَحْدَاثِ إِلَى حِينَ انْفِصَالِهِ

لَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بِبِجَايَةِ وَأَقْطَارِهَا، وَخَفَّ قَطِينُهَا وَعُمَارُهَا، وَانْتَهَبَتْ زُرُوعُهَا
وَعَلَاثُهَا، وَقَلَّتْ خَيْرَاتُهَا وَعُدِمَتْ مَرَافِقُهَا وَأَقْوَاتُهَا، وَأَلَمَ بِالرَّعِيَةِ الْحَيْفُ، وَتَقَسَّمَ هِمُّ
الْجُلَاءِ وَالسَّيْفِ، اعْتَصَمَ مَنْ نَجَا مِنْهُمْ بِقُنُنِ الْجِبَالِ وَالْأَوْعَارِ، وَاحْتَمَى مَنْ رَكَنَ
مِنْهُمْ إِلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بِالْجَوَارِ، فَأَقْفَرَتْ مِنْ بِجَايَةِ بِسَائِطُهَا، وَقَلَّتْ مَادَّتُهَا، وَعَلَتْ
أَسْعَارُهَا، وَتَعَذَّرَتِ الْجَبَايَةُ، وَجَاوَزَ تَقْتِيرُهَا النَّهَايَةَ، فَتَسَلَّلَ مِنَ الْقَبَائِلِ خِيَلًا وَرَجُلًا

معظم سوادهم، وتسربوا مع الأيام فرارًا من الإعدام إلى أقطارهم وبلادهم، ولم يبق إلا من يُعرف بعينه واسمه، ولا ساع له الرحيل عن قومه، وكل من كان يصل إلى الحضرة يلقي في جانب السيد الأقوال الخبيثة، والأحوال السيئة الرثيثة، فأوغر صدر أمير المؤمنين على السيد المذكور، وصرفه صبره وثقاه عن معاقبته، فخاطبه معاتبًا على ما قيل فيه وزور، وبسط له من العدل والمحض ما خفف على ما نُقل عنه وصور.

فأقام السيد على هذه الحال والمجاعة تشدد والوباء يزيد حتى عمّ الموتان، وبطرت معيشتها الرخم والعُقبان، وانحصر المسلوبون والمغنمون إلى البلد في أمم لا يُحصى عديدهم ولا يُنادى من الإقتار وليدهم، وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زُمًّا أمواتًا ذكورًا وإناثًا.

وانفصل الأسطول إلى المغرب وساءت حال المنافقين، ووصل غزي الصنهاجي من قبل الشقي ابن غانية بجُملة من جُنده ووَفَّر من عُدِّه، فحصر مدينة أشير وتغلَّب عليها وقتل حافظها، فاقتضى نظر من ببجاية توجية أبي حفص عمر ابن السيد المذكور بجماعة من الموحدّين وأبي الظفر ابن مُردنّيش بمن كان معه من الأجناد، فالتقوا بغزي وأصحابه ودار بينهم أمّض القتال، وتسنّموا لهم ظهور الجبال، فترجّل العسكرُ بجمليتهم، واقتحم عليهم في منعتهم، وأوقعوا بهم أيّ إيقاع، وانزعج فلهم إلى أطراف تلك البقاع.

وأُسرع برأس غزي إلى بجاية أيّما إسرار، واستولى أبو الظفر ابن مُردنّيش على منازلهم وحريمهم وحواشيهم ومواشيهم وسباها، وانصرف من غزاته وجعل ذلك الغنم زاده وثوابه، وشغّب عبد الله بمكان غزي أخيه، فاستهواه القاضي أبو العباس ابن الخطيب واستنزّله فُصلب ببجاية بإزاء رأس أخيه^(١).

وفي هذه السنة: قُتل ابنا القائد ابن حملة، وكان تغريب بني حمّدون عن بجاية إلى سلا وجبرهم على بيع أموالهم وديارهم بثمن بنّس^(٢).

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

وفيها: قُتِلَ بَعْضُ مَنْ شَارَكَ فِي تِلْكَ الْفِتْنَةِ مِنْ أَهْلِ بَجَايَةِ مَن خَلَعَ طَاعَةَ الْمَنْصُورِ وَلَزِمَ خِدْمَةَ ابْنِ غَانِيَةٍ.

وفيها: قُتِلَ رَشِيدُ الرُّومِيِّ وَنَزَارُ ابْنِ الزَّمِيلِيِّ الْحَكِيمِ.

وفيها: حُمِلَ عَلَى بَقِيَّةِ بَنِي الْقَائِدِ وَأَصْهَارِهِمْ وَذَوِيهِمْ فِي بَيْعِ أَمْلَاكِهِمْ وَدِيَارِهِمْ، وَكَانَ أَهْلُ الْبَلَدِ بَعَقِبَ فِتْنَةٍ مُبِيرَةٍ وَجَائِحَةٍ مِنَ الْمَجَاعَةِ مُغِيرَةٍ، فَبِيعَتْ بَشْمَنُ بَخْسٍ أَكْثَرُهُ غَيْرُ مَقْبُوضٍ، وَخَرَجُوا عَلَى وَجْهِهِمْ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مُنْطَوٍ عَلَى فَوَادٍ مَرْضُوضٍ وَجَمَعَ مَفْضُوضٍ، وَاسْتَقَرَّ جَمِيعُهُمْ بِمَدِينَةِ سَلَا حَائِرِينَ، وَبِأَثْوَابِ الضَّيْعَةِ مُشْتَمِلِينَ.

وبعدَ هذا وَصَلَ إِلَى السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ كِتَابٌ كَرِيمٌ بِبَسْطِ نَفْسِهِ، وَاسْتِرْجَاعِ نَافِرِ أَنْسِهِ، وَتَزْوِيرِ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَقُدُومِهِ عَلَى الْخَلِيفَةِ بِكُلِّ مَا أَلْفَ وَعَهْدَ مِنَ الْأَثَرَةِ، وَقَدِمَ عَلَى الْبَلَدِ السَّيِّدُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بَعْدَ تَأْخُرِهِ عَلَى الْوِزَارَةِ، وَانْصَرَفَ السَّيِّدُ فِي جِمْرَةِ الشِّتَاءِ وَصَدَقَ الْأَنْوَاءُ. وَوَصَلَ السَّيِّدُ بِمَنْ مَعَهُ عَلَى مَشَقَّةٍ مِنَ الْأَهْوَاءِ إِلَى الْحَضَرَةِ، فَلَقِيَ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَكْرَمَ مَا وَعَدَهُ، وَالْبَرَّ الَّذِي أَلْفَهُ مِنْهُ وَتَعَوَّدَهُ.

وَلَمْ تَزَلْ هِمَّةُ الْمَنْصُورِ تَتَّبِعُ جُزْئِيَّاتِ الْمَمْلَكَةِ بِالتَّفْخِيمِ، وَيُجِيلُ النَّظَرَ فِيهَا بَقِيَّ مِنْهَا لِلتَّكْمِيلِ وَالتَّتِمِيمِ، فَرَأَى أَنَّ الدِّينَارَ الْقَدِيمَ يَصْغُرُ عَنْ مَرَأَى مَا ظَهَرَ بِالْمَمْلَكَةِ مِنَ الْمَنَازِعِ الْعَالِيَةِ، وَأَنَّ جِرْمَهُ يَقِلُّ عَمَّا عَارَضَهُ مِنَ الْمَنَاطِرِ الْفَخْمَةِ الْجَارِيَةِ، فَعَظَّمَ جِرْمَهُ وَرَفَعَ قَدْرَهُ بِالتَّضْعِيفِ وَسَوَمِهِ، فَجَاءَ مِنَ النَّتَائِجِ الْمُلُوكِيَّةِ وَالْإِخْتِرَاعَاتِ السَّرِّيَّةِ، جَامِعًا بَيْنَ الضَّخَامَةِ وَالنَّمَاءِ، وَالطَّيِّبِ وَشَرَفِ الْإِنْتِهَاءِ. فَتَكَلَّمْتُ فِي ذَلِكَ الشُّعْرَاءُ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْجُرَّائِيُّ مِنْ قَصِيدَةٍ [مِنْ الْبَسِيطِ]:

بَجِدِّ عَزَمِكَ نَالَ الدِّينُ مَا طَلَبَا	وَأَحْجَمَ الشَّرْكَ عَنْ إِقْدَامِهِ رَهْبَا
وَأَيَقَنْتَ مَلَّةَ الْإِسْلَامِ أَنَّ لَهَا	بَكَ الظُّهُورَ عَلَى الْإِعْدَاءِ وَالْغَلْبَا
وَأَنَّ كُلَّ بَعِيدٍ عِنْدَهَا كَثْبٌ	وَلَوْ تَطَالَبَ فِي أَفْلَاكِهَا الشُّهُبَا
وَأَنَّ أَمْرَكَ مُسْتَوَلٍ عَلَى أَمَدٍ	مِنَ السَّعَادَةِ فَاتِ الْعُجْمِ وَالْعَرَبَا
إِنَّ الْخِلَافَةَ نَالَتْ مِنْ مُحَاسِنِكُمْ	أَوْفَى الْحُظُوظِ فَأَبَدَتْ مِنْظَرًا عَجَبَا
أَعْلَى الْمَرَاتِبِ مِنْ بَعْدِ النَّبَوَّةِ قَدْ	حَبَا بِهَا اللَّهُ أَعْلَى الْخَلْقِ وَانْتَحَبَا

سَيَنْظِمُ السَّعْدُ مَصْرًا فِي مَمَالِكِهِ
إِلَى الْعِرَاقِ إِلَى أَقْصَى الْحِجَازِ إِلَى
هُوَ الَّذِي كَانَتْ الدُّنْيَا تُؤَمِّلُهُ
هَلْ ابْنُ إِسْحَاقَ إِلَّا كَالَّذِينَ جَرَوْا
عَنْ شَرِّ مَنْقَلَبٍ مُجَلَّى عَوَاقِبُهُ
رَاقَ النَّضَارُ عَيُونَ النَّاضِرِينَ وَقَدْ
قَدْ جَازَ فِي وَصْفِهَا فِي كَفِّ ذَاكَ وَذَا
نَدَاكَ عَمَّ بَنِي الدُّنْيَا وَالْبَسْهُمْ
خَلِيفَةَ اللَّهِ رُحَمَاكُمْ لِمَغْتَرِبِ

حَتَّى تَدُوَّخَ مِنْهَا خَيْلُهُ حَلَبًا
أَقْصَى خِرَاسَانَ يَتَلَوُ جَيْشُهُ الرُّعْبَا
وَكُلُّ عَصْرٍ لَهُ مَا زَالَ مُرْتَقِبَا
إِلَى مِصَارِعِهِمْ مِنْ قَبْلِهِ خَبِيَا
وَقَلَّ مَا حَمِدَ الْمَغْرُورُ مَنْقَلَبَا
غَدَا اسْمُكَ الْمَعْتَلَى أَعْلَاهُ مُكْتَتَبَا
أَنَّ النُّجُومَ اسْتَحَالَتْ لِلرُّورَى ذَهَابَا^(١)
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ أَثْوَابَ الْغِنَى الْقُشْبَا
نَاءٌ وَمَا إِنَّ نَأَى دَارًا وَلَا اغْتَرَبَا

وفي هذه السنة: كان استبدادُ القائد أبي الحسن ابن الدبرتير بقَصْبة مَيُورقة وتغلُّبُه عليها وتبُعُه بالقتل مَنْ وَجَدَ بِهَا مِنْ لَمْتُونَةٍ وَحَوَاشِي زَنَاتِهِ، وَتَمْلُكُهُ لِأَحْوَالِهِمْ وَدِيَارِهِمْ وَأُمُورِهِمْ.

ذِكْرُ تَغْلِبِ الْقَائِدِ أَبِي الْحَسَنِ عَلَى قَصْبَةِ مَيُورْقَةِ الْمَذْكُورَةِ

قَدْ تَقَدَّمَ خَبْرُ وَصُولِهِ إِلَيْهَا وَتَثْقِيفِ ابْنِ غَانِيَةٍ لَهُ عِنْدَ عَزْمِهِ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى بَجَايَةِ وَاسْتِيلَائِهِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا خَلَتْ الْجَزِيرَةُ مِنْهُمْ وَخَرَجَ مَعَهُ شَوْكَةُ أَجْنَادِهِمْ وَرِجَالِهِمْ وَأَنْجَادِهِمْ، خَلَا لِأَبِي الْحَسَنِ الْمَذْكُورِ وَجْهُ نَظَرِهِ، وَأَمَكَّتْهُ الْفُرْصَةُ فِي إِعْمَالِ الْحِيلَةِ فِي تَخْلُصِهِ مِنْ ثِقَافِهِ وَتَبْصُرِهِ، وَكَانَ الْأَعْلَاجُ جَلَّ حَاشِيَتِهِمْ وَنَاشِئَتِهِمْ وَالْمُتَطَلِّعِينَ عَلَى أَسْرَارِهِمْ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى أَدْيَانِهِمْ يَرُومُونَ الْإِنْتِقَالَ إِلَى أَوْطَانِهِمْ، فَاسْتَمَالَهُمُ الْقَائِدُ الْمَذْكُورُ مَدَّةَ اعْتِقَالِهِ اسْتِمَالًا مُوَالِيًّا، أَخَذَ بِعَقُولِهِمْ وَاسْتَهْوَاهُمْ، وَبَسَطَ لَهُمْ فِي الْمَوَاعِيدِ وَمَنَاهِمِ، وَعَهْدَ إِلَيْهِمْ عِنْدَ تَمْكِينِهِ مِنْ مُرَادِهِ، وَإِعَانَتِهِمْ لَهُ عَلَى مَا يَرُومُهُ مِنْ اسْتِيلَائِهِ وَاسْتَبْدَادِهِ، أَنْ يُجَهِّزَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَيُحْلِيَ سَبِيلَهُمْ بِأَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ.

(١) هكذا في النسخ التي بين أيدينا، وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

ولمّا تمّ له تدبيره، وتحصّل له من خلوصهم ما تيقّنه ضميره، وعدوه بأنّ ذلك يكون في جُمعة عند افتراق الناس إلى طهارتهم واشتغالهم بالتأهب لقرص صلاتهم، فوصلوا الميعاد وخرجوا معه من قورهم وغلقوا أبواب القسبة وتعلّقوا بالأسوار، وفتحوا بيوت الأسلحة وأخذوا منها فوق المقدار، وأحالوا على رجال القسبة من لمتونة ومسوفة وحواشيهم واستأصلوهم بالقتل إلى آخرهم، فما اجتمع أهل البلد إلا وقد أعزل داؤهم وأعيا دواؤهم، وغلب الاستيلاء على القسبة فانحسر إليهم أهل البلد والجزيرة ونصبوا عليهم المجانيق والآلات، وأحاطوا بقتال القسبة من كلّ الجهات، فكلّموا سدّدوا إليهم سهامًا، وأرسلوا عليهم حجارة أو أشرعوا لهم سنانًا، رفع أبو الحسن على السور شخصًا من ذرية إسحاق بن غانية يُعارض به ويتقي السهام والأحجار، وأكثر ما كان يعمل ذلك بأنّ عليّ ابن غانية وأبنائه وخاصّته وإخوانه، فكان أهل البلد يكفّون عن القتال ويرغبون في الاستنزال، وتمادت الممانعة أيامًا، وصرفوا بينهم في أثناء ذلك اليوم عهدًا مؤكّدة وأيمانًا.

وكان أبو عبد الله بن إسحاق بن غانية تحصّن بأقصى الجزيرة من سجن إخوته، على ما كان أراده من الخروج من الجزيرة إلى الأمر وتقديم هجرته، فوصلت المصالحة والمهادنة بين أهل البلد وبين القائد أبي الحسن على وصول أبي عبد الله وارتباطه معه ونزوله وتخلّيه عن البلد له، فسيق أبو عبد الله المذكور، فنزل أبو الحسن له بعد ما استصفى كلّ ما أراد من ديارهم وما قدّوا به أنفسهم من ذخائرهم، وسرح كلّ من كان بالبلد من الروم المجنّدين والمتملّكين بأموالهم وأهلهم وأولادهم، وجّهز جميع ما وعدهم إلى بلادهم. وخرج أبو الحسن المذكور ولحق بالحضرة مع أبي عبد الله بن إسحاق مُبادرًا بالطاعة، فبلغ من الكرامة أمّله ورأى من الإحسان فوق ما أمّله، وبقيت الجزيرة في حكم الموحدّين، والخطبة باسم المنصور أمير المؤمنين، حتّى يقع نظره فيمن يوجّه إليها واليًا عليها.

وفي أثناء النظر لها ركب عبد الله بن غانية من إفريقية إلى صقلية، وأعين منها بجفن تجهّز فيه إلى ميورقة، وانضمّ إلى بعض قرى في أطرافها وخدع بعض الرعية

بأستالتها واستلطافها، فخرج عندهم وأعانوه بدواب ورجال، وسار إلى البلد فدخله بتلطف واحتيال.

ولم يزل علي بن إسحاق بعد إقلاعه من قُسْنطينة وخَلَّعه عن البلاد التي كان أخذها وانقطاعه بأطراف طرابلس وما وراءها يَأْلَفُ دُؤْبَانَ الْعَرَبِ وأوباشهم، ويستميلهم وفراشهم، ويُناهشُ الأطرافَ الْقَصِيَّةَ، وينتهزُ بَسْرِيَّةَ وبغير سَرِيَّةَ، والشيخُ أَبُو مُحَمَّدِ ابْنُ واسجور بمدينة تونس مُطِلٌّ عليه إطلالُ الْعُقَابِ الكامن والأسدِ الهاصر، والمنصورُ بحضرته يَسْتَقْرئُ أخبارَه، ويتربَّصُ به الدوائر التي أحلَّها به فحَسَمَتِ عِلَّله، ومَحَتِ آثارَه.

وفي سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة تَحَرَّكَ المنصورُ إلى قَفْصَةِ،

وذكرُ ما كان فيها من الأنباء والحوادث

لَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ المذكورة وتَوَالَتِ على الحضرة الأنبا الشَّيْخَةِ بتضييق الميَّارِقة على بلاد الجريد، وتغلُّبهم على ما تَطَرَّفَ منها في الثَّغْرِ الْأَقْصَى والشَّأْوِ البعيد، شَرَعَ في الحركة إليها، وألْقَى كُلُّكُلٍ^(١) التَّصْمِيمَ عليها، واستنْفَرَ الْقَبَائِلَ من البسائط والجلال، وكاثَرَتْ بها أَعْدَادُ الْحَصْبَاءِ والرَّمال.

وفي هذه الحركة اختَرَعَ افراك المَعَدَّ لنزوله في غاية الحُسْنِ والجمال، وقَدَّمَ الارتقاء إلى تينمل لزيارة قبرِ المَهْدِيِّ على جَرِي عوائد سَلَفِهِ في تيمُّنهم بتقدِيمِهِ، وقضاء حَقِّهِ وتعظيمِهِ.

وشرع في أثناء زيارة قبرِ إمامِهِ في نَظَرِ مصالح البلاد، فشَدَّها بِالوُلاةِ والأجناد، ثم جاء عيدُ الْفِطْرِ بعد هذه الزيارة، فلَمَّا قَضَى فَرَضَ الصَّلَاةِ، خَرَجَ مِنْ مَرَاكُشَ فِي الثَّالِثِ مِنْ شَوَّالٍ، واستَخْلَفَ على مَرَاكُشَ السَّيِّدَ أَبَا الْحَسَنِ شَيْخَ بَنِي الْعَمِّ وكَبِيرَهُمْ، وجَعَلَ لَهُ النَظَرَ في تَتْمِيمِ ما بَقِيَ مِنْ بِنَاءِ الصَّالِحَةِ، ووَكَّلَهَا إلى إِمْعَالِ خَاطِرِهِ والاستبدادِ بِرَأْيِهِ ودقيقِ نَظَرِهِ، وتَمَادَى المَشْيُ بعدَ الخُروجِ مِنَ الحَضْرَةِ مِنْ غَيْرِ تَرْوِيحٍ إلى رِبَاطِ الْفَتْحِ، فَجَدَّدَ الْعَزْمَ بِهَا وَقَدَّمَ مَا يَجِبُ مِنَ الْمَخَاطَبَاتِ وَوَدَّعَ مَنْ كَانَ حَاضِرًا مِنْ أَهْلِ

(١) في ق، ر٣: «كلل».

الأندلس وجهات الحضرة من الولاية، فقالت الشعراء في ذلك الوداع، فقال أبو بكر بن مجبر^(١) [من الكامل]:

لَيْتَ الْحَوَادِثَ عَنْ عَيَانِي تَغْفُلُ فَأُشَاهِدَ الْفَتْحَ الَّذِي يُسْتَقْبَلُ

وأضرب المنصور عن استصحاب عرب المغرب وتجنيدهم في حركته تلك إلا بعضاً من أشياخ رياح كبنى زيان رعيًا لقدّم هجرتهم، وتيقنًا بنصيحتهم، وأكّد على سائر العمال الذين بالمنازل وأمّهات الطرقات بتبليغ المكاتبات ووضوح المخاطبات بإصلاح المسالك وتوطئة السبل وتمهيدها، ونصب الجسور في أماكنها وإعداد الأوقات وترغيدها، وتيسير المرافق وتوفير العلوّفات، وأن لا عُذر لهم فيما يحتاج إليه الجيش من الموجودات. وكان الناس يمشون كأنهم في أحسن مساكنهم، ويتنقلون من الترفه والتمتع بما لم يعهدوه في معاشهم ولا اقتدروا عليه في أماكنهم.

ولما وصل المنصور إلى مدينة فاس رَوّح بها أيامًا عديدة، وبرهة من الزمان مديدة، لكونها قاعدة المغرب وأمّ القرى، وعاملها إذ ذاك أبو موسى بن وامازين^(٢)، فأقام الناس بها في تضييف خرق العوائد، يتنافس الرعايا في ذلك على الأعياد، يأتون بجفان تحمل الواحدة منها عدّة من الرجال، عليها عدّة جزر يأكل منها جوع فلا يأتون لها على انتهاء، فجدد الناس بها أزودتهم، وتفقدوا أسلحتهم وعدتهم، وبساط العدل مبسوط، ونظام الأحكام حيث ما حلّ الإمام مُحْكَمٌ مربوط.

فرُفِعَ إلى المنصور أنّ أبا القاسم ابن الملجوم بنى غرفة في داره يُشرف منها على بعض جيرانه، وجعلها متنزّها له ولإخوانه، فأمر بوقوف أهل البصر عليها، فلم تُشرف إلا على صحن حَمَامٍ وسطح بعض أقوام، فأمر المنصور بهدمها وتغيير رَسْمِهَا، وتتبع بالعدل قضايا العباد، ومضى البحث عن المتظلمين بكلّ منزل وبكلّ واد، ووقع الرحيل بعد هذا الاجتهاد والنظر في الاستعداد.

(١) في م: «محمد»، وهو تحريف، وهو شاعر مشهور، سيأتي الكثير من قصائده.

(٢) هكذا مجوّد في النسخ كافة.

ولمّا كان النزول برباط تازى التفت المنصور إلى ساقته فرأى أكثر القرابة من الإخوة والعمومة قد اضطفوا واختصوا بلباس الغفائر الزبيبة والبرانس المسكية، فأنكر عليهم ملازمة ذلك الزي، لكونه من زي الخليفة في حالتي ركوبه وجلسه في كل موطن، فجمعهم السيّد أبو زيد، إذ كان أقربهم إلى الخليفتين: أبي يعقوب وأبي يوسف بالإيثار والتقديم، والمؤمر عليهم في الحديث والقديم، فجمعهم وذكرهم بعوائد الأمر والمحافظة على آدابه وأن يتجنبوا أفعال الخليفة المختصة به، فلم يعد أحد منهم بعد ذلك للباس تلك الألوان، المختصة بالسُلطان.

وتمادى السير، واليسر يسهل كل عسير ولطف الله يدي كل قصي ويئيل كل خطير. ولمّا أطلّ الموحدون على أرض قسنطينة وما اتصل بها من الصحراء، تبادر الأشقياء من الميارقة والأغزاز، وتآلفوا وضمّوا جموعهم الذميمة وتحزّبوا واستهوا شزيمة من سليم لصوصاً وأوباشاً وكلاباً هراشاً، فبرزوا بفضاء القيروان، وتراءت طلائعهم للعيان، فعزم المنصور على الهجوم عليهم قبل تمكّن استعدادهم وأخذهم في تدبيرهم ومراهم، فتفاوض مع أشياخ المجلس والوزراء، وبرزت نتائج الآراء، فصوب الجلوس بتونس وأن يُجدد منها العزم للأعداء، فاتصل المشي إليها وروح الناس بها، والعدو أثناء ذلك قد أخذ أهبته، وشدّ للشر حوبته، وتراخى تهيبه ورؤعه، وقويت شوكتة وجمعه.

وفي هذه السنة: توفي أبو الحجاج ابن مُردنيس بمدينة بلنسية.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة: كانت وقعة عمرة، وكيفيّة الخدعة فيها على الموحدين وانهزامهم وقتلهم واستيلاء ابن غانية على خيلهم ورجلهم، على ما أذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وقعة عمرة وهزيمة الموحدين

وذلك أنه لما وضع الناس بمدينة تونس أثقالهم وأخذوا من البلد منازلهم ورتّبوا لمن نصبوا من الخيل والحشم مؤنّتهم ولوازمهم، أمر أبو يوسف المنصور السيّد أبا يوسف بن أبي حفص على عسكر الموحدين، وخرج من تونس في جمع حفيل،

وجيش من كل قبيل، فقصّدا إلى العدو بجملتهم وأثقالهم حتى أشرفوا على أرضه، فرموا بنافلة العزم وفرّضه^(١)، ولما كان ليلة البيات، وعولوا على اللقاء والثبات، أسحروا من الغد كما كانوا بجملتهم ومحولتهم وأثقالهم، وذلك يوم الجمعة منتصف ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين المذكورة.

ولما تراءى الجمعان، وتقاسما مساحة الميدان، وكاد يتنازل الفريقان، تشتت الآراء، وكثر التواكل والالتواء، وأعجل الناس عن استعدادهم... ولم يمكنوا من مرادهم، وأسروا وساروا على ريقهم، معظم طريقهم، معين غير شاكين، والحمولة ناحية منهم موسقة بأثقالهم لم يخط بها حزام، ولم يرخ لراحلة منها زمام، وعموم القبائل قد وقفوا بالأطراف بحيث لا تطيش لهم السهام، وناسب الأغراز القتال، وحيت حفاظ الرجال، فدفع القائد أبو الحسن ابن الدبرير بجملته، وأهل الجدد والثقة من شيعته، فغشيه وأصحابه سحائب سهام، أكبّت منهم جماعة لوجوهم كسقوط الأنعام، وقبض على أبي الحسن بعد إرجاله عن مركوبه وضرع أصحابه من مطعون ومضروب، واقتفى أثره أبو علي ابن يومور^(٢) بحشد العرب وهم غير محاربين، ولا بالنجدة مرتسمين، فنكلوا لأول حملة عن دفاعه، وخلّوا بينه وبين أعدائه، ولم يصبروا على ارتجاعه، فقبض عليه وقد أثخنه الجراح.

وكشفت الحرب عن ساقها وكثر الضجيج والصراخ، والتحم نسج الفريقين، واستحرّ القتل بين الفئتين^(٣)، وحمي الوطيس وجهدت النفوس، وفلّ الحسام وكلّ السنان، وأصابت جملة من الأعيان، وعظم الكرب وتخاذلت جموع العوام، ودنا الليل وغشي وحش الظلام، وانضمت الأطناب على قلب الساقة، وخرج الاحتمال عن وسع الطاقة، وكانت تغشاهم سحائب السهام كسحاب الغمام، وهم في مثل الحلقة من الازدحام، وفي ليل بهيم من ظلم القتام^(٤)، يتوقعون المنايا من كل الجهات،

(١) في ق، ر، ٣، ب: «نافلة العزم وفرضها»، وما أثبتناه هو الأصوب.

(٢) في الروض المعطار ٤١٤: «يومور».

(٣) في ب: «الفريقين».

(٤) في ر: «القتال».

ويتدافعون على مثل ظَهَرِ الْقُنُذ من قَصَدَ الْقَنَا وأشلاءِ الأموات، فحِتَيْدِ الْقَى اليقين من صبر الناس بيد التسليم، وأفَلَتُوا من غَمَرَاتِ السَّمُون، وفي حُنِينِ أُسُوةٍ للمسلمين^(١).

وأخذ السيّد وأصحابه في الفرار على كلّ طريق، وسرّوا ليلتهم بكلّ فجّ عميق، واشتغل العدوّ بالسلب والنهب، فلم يُقدِّموا على الاتّباع، ولا أَمِنُوا غوائلَ الأرباع، وبقيّ بالمُعترَك أكثرُ الرّجاله ممّن لم يُقدِرْ على الفرار من جريح وظمّان، وانضمّوا إلى قفصةٍ ودخلوا البلدَ وغصّت بهم سِكَكُه، فتغافل عنهم قراقش وأصحابه وخليّ سبيلهم، فنادى عليهم ابنُ غانيةٍ وأشاعَ بمُخادعةِ الاستدعاء، وورّى لهم بإظهار وجهِ الاعتناء، فاجتمع جميعهم بنفوس سليمة، فأمر عليهم ابنُ غانيةٍ فقتلوا أجمعين.

وجلس ابنُ غانيةٍ بخِباءِ الساقّةِ المأخوذ للسيّد أبي حفص وجمع أثاثِ المنهزمين وأسلابِ الموحّدين وقسمها على شيعته، واغترّ بخيالاتِ الدّهر وخُدعته، وكان أبو الحسَن ابنُ الدبرتير قد حصّل في أسِرِ العدوِّ وطَمِعَ في النّجاةِ والفوز، وسَقَطَ الخبرُ إلى ابنِ غانيةٍ المذكور فبعثَ عن الذين ارتبطَ معهم على إفلاته فأعطاهم مالاً على أن يَغْدروه، فأسلموه إليه وخائوا فيما كانوا وعدوه، ولما مثّل بين يديه أمرَ بتعذيبه نفعه الله بشهادته، وكذلك أبو عليّ ابنُ يُمُور قتله وعلّقه على بابِ قفصةٍ، وفُقِدَ في هذه الحركة كثيرٌ من أعيان الموحّدين وأشياخهم وأتباعهم، وأصبح من بقيَ منهم يومَ الواقعة حيث هوى به عنائه وزمائه، وطاوعته نهضةٌ جواده واعتزائه، وضلّوا بأقطارِ توئس وهم طُلحاءٌ موكوعون، وإلى الوُصولِ إلى البلدِ راهبون، وبادرَ إلى توئس سرعانُ المنهزمةٍ وأكثرُ عبيدِ الخدّمة.

وكثُرَ التحدّثُ وفشتِ الأنباء، وكثُرَ بالمنصور قلقه وطار^(٢) أرقه، وحرّضَ الناسَ على تجديد نيّتهم وضاعفَ لهم جَبَرَ ما تَلَفَ في حربهم من أسلحتهم، فاهتزّت الجيوشُ من كلّ مكان، وترادفَ عليهم الإفضالُ والإحسان، فتضاعفت الأعداد وتوالَت الأمداد، وخرج من توئس بجيشه لياشِرَ الحرب بنفسه.

(١) الروض المعطار ٤١٤-٤١٥.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وقد قال صاحب القاموس: «وطال، كطار».

ذكر حركة المنصور أبي يوسف من مدينة تونس لحرب الميارقة
والعرب وأشياهم^(١) والأغزاز وأتباعهم وهزيمة يوم الحمة عليهم
وما ظهر في ذلك اليوم من جزالته وصرامته واستفتاحه ما غُصِبَ
له من البلاد في التاسع من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة

وذاك أنه لما جرى على الموحدين ما جرى بفتح عمرة من نظر قفصة على ما
تقدم من اختصار خبره، وإيراد أثره، لم يلبث المنصور بعد الكائنة بتونس إلا ريشا
استنفر عساكره وميز رجاله واستوفى أشغاله، وتحرك من تونس في صدر رجب فنفر
الناس خفافاً وثقالاً، وترادف الوصول خيلاً ورجالاً، وهال منظر العساكر بانتظام
الساحات، وتقدم روعها إلى كل الجهات، والعدو في أثناء ذلك يحشد حشوده،
ويجمع من كل سحيق جنوده، حتى صلبت شوكته، وثقلت على البلاد وطأته.

ولما انتهى المشي إلى مدينة القيروان، ونوافح الفتح تهب من كل مكان، قدم
المنصور الإعذار والإنذار، فخطب الأعداء بعرض الدخول في الطاعة، والانضواء
إلى حزب الجماعة، فلم يرعوا سماعاً لهذه المخاطبة، ولا أظهروا لها حيلة إنابة ولا مجاوبة.

ولما وصل المنصور إلى مدينة القيروان تشوق إلى رؤية ما أبقت منها حوادث
صروف الأزمان، فوصل المدينة ونظر إليها والحوادث قد أخلقت جذتها ومحت بهجتها،
فاخترق سككها يلتفت تعجباً واعتباراً، ويتأوه تفكراً وتذكّراً، حتى انتهى إلى
الجامع العتيق البناء، الأنيق الصنعة في كل الأجزاء، فنظر إليه وقد طمس التقادم مرآه،
ومحا الجديدان نورَه وضياه، فطير إلى شرق الأندلس، بنسج كُساه، والاستعجال في
توجيه فرشه وحلاه.

ثم استمر المشي أياماً حتى تراءى الجمعان، وتلاقى من الطلائع سرعان، وكاد
يتميز العيان بالعيان، فنزل الناس على فرسخين من الحمة والعدو بأكنافها لم يرع له
سرب ولا هالة من النزول قرب، فانحفر الناس تلك الليلة في الاجتماع والوصول،

(١) في ر ٣، ق: «لحرب الميارقة الأغزاز وأتباعهم والعرب وأشياهم».

وَصَرَّبَ الْفَسَاطِيطَ وَالْأَبْنِيَةَ مَوْضُوعًا بِمَوْصُولٍ، وَأَمَرَ الْمَنْصُورَ مِنَ الْغَدِّ بِالْإِقْلَاعِ
وَالنَّدَاءِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَأَنْ يَلْتَمَسَ النَّاسُ أَسْلِحَتَهُمْ وَيَأْخُذُوا لِلْقَاءِ
الْعَدُوِّ أَهْبَتَهُمْ.

فاجتمع أشياخ مملكته، ونُصَحَاءُ خِدْمَتِهِ وَأَرْبَابُ دَوْلَتِهِ، وعرضوا عليه فداءه
بنفوسهم وصوته عن مشاهدة الحرب ببذل مُهَجِهِمْ وَأَنْ يُقِيمَ بِالْمَحَلَّةِ سَنَدًا وراء
ظهورهم يلجأون إليه ويأوون لديه، فكلُّ مَنْ أَخَذَ مَعَهُ فِي ذَلِكَ زَجْرَهُ، وَسَفَّهُ رَأْيَهُ
وَضَعْفَ نَظَرِهِ.

وقدَّم على القبائل أشياخ قرابته وأشداء عشيرته، وتجلَّى بين يدي جيشه ومشى
المَزَاوِرَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ ومشى إثرهم^(١) على ما أحكم من النظام، - ومن طلب الأعداء
بالجِدِّ والسَّعْدِ لم يبعُدْ عليه مَرَامٌ - والأعداء متشوفون، ولأول نبأ مُصِيخُونَ، وقد
نَسَجَ الضَّبَابُ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَلَى الْأَرْضِ كَثِيفَ شَبَاكِهِ، وحال بين الناظر وبين ما يروم
من إدراكه.

ولما خَرَقَ شَرُوقُ الشَّمْسِ جَيْبَ الضَّبَابِ، وتراءت^(٢) بحورُ الجيوش يركبُ
المَوْجَ فيها ودَعَّ المَوْجُ^(٣) وَيَقْفُو الْعُبَابُ مِنْهَا أَثَرَ الْعُبَابِ، نَفَخَ فِي وَجْهِهِ الْأَعْدَاءُ
طَمَعُهُمْ، وأكذبتهم ظنُّوهُمْ، ورمَوْا أَثْقَالَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ، وَصَفَّقُوا لِلْفِرَارِ أَجْنَحَتَهُمْ،
والتحق المتقدمون بأواخرهم، فاستأصلوهم في معركٍ واحدٍ عن آخرهم، وسبق من
قُبِضَ فِي الْمَعْرَكِ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَقُتِلَ بَيْنَ يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ، وَأَفْلَتَ قَرَاقُشُ
الْغَزِيِّ وَابْنُ غَانِيَةٍ تَحْتَ غَسَقِ الضَّبَابِ وَبَيْنَ نَابِ السَّنَانِ وَحَدِّ الدُّبَابِ، وَقُبِضَ بِسَاقَتِهِ
عَلَى أَعْلَاجٍ مِنْ حَاشِيَتِهِ وَخَاصَّةِ خِدْمَتِهِ، وَالْمَنْصُورُ عَلَى أَثَرِهِمْ مِنْ غَيْرِ عَجَلٍ، وَالرُّؤُوسُ
تُدَاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَرُّوْسِ الْحَنْظَلِ، وَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ الظُّهْرِ وَالنَّاسُ عَلَى سُورِهِمْ، لَمْ يَبْرَحُوا
مِنْ حِينَ خُرُوجِهِمْ، وَصَلَّى النَّاسُ مُتَمِّمِينَ غَيْرَ مُقْصِّرِينَ، وَنُصِبَتِ الْقَبَّةُ الْحُمْرَاءُ مَدَّةً

(١) فِي ق: «آثَارِهِمْ» وَلَهَا وَجْهٌ، إِذْ هِيَ مَنْصُوبَةٌ عَلَى نَزْعِ الْخَافِضِ.

(٢) مِنْ هُنَا إِلَى قَوْلِهِ: «نَفَخَ فِي وَجْهِهِ الْأَعْدَاءُ» سَقَطَ مِنْ ر ٣، ق.

(٣) أَي: الْمَوْجُ بَعْدَ الْمَوْجِ.

الصَّلَاةَ فَدَخَلَهَا الْمَنْصُورُ وَخَرَجَ بِثِيَابِ السَّلَامِ وَشِعَارِ الْأَمْنِ، فَهَنَّى بِالْفَتْحِ وَمَا تيسَّرَ مِنَ النَّجْحِ، وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، وَصَلَّى مَنْ صَلَّى نَارَهَا.

وَأَمَرَ الْمَنْصُورُ بِالرُّكُوبِ، وَأَغَدَّ السَّيْرَ إِلَى جِهَةِ قَابِسَ، فَغَشِيَ اللَّيْلُ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهَا وَبَاتَ النَّاسُ آمِنِينَ، وَبُهِزَّ النَّصْرُ وَالْعَافِيَةُ مَرْتَدِينَ، وَبِالْأَثْقَالِ وَالْحُمُولَةِ بِمَوْضِعِ النُّزُولِ بِالْأَمْسِ، وَأَنْفَذَ الْمَنْصُورُ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَى قَابِسَ جُحْلَةً مِنْ خَيْلٍ وَرِجَالٍ وَرُمَاهُ وَأَبْطَالٍ يَحْرُسُونَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ عَنِ الْفِرَارِ، وَيَطُوفُونَ بِهَا إِلَى حِينَ لُحُوقِ الْعَسَاكِرِ مَعَ طُلُوعِ النَّهَارِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، بَعْدَ هَذِهِ الْوَقْعَةِ: فَتَحَ الْمَنْصُورُ بِلَادَ الْجَرِيدِ بِأَسْرِهَا، وَقَضَى التَّطَوَّافَ عَلَيْهَا قُطْرًا بَعْدَ قُطْرٍ، وَمَا كَانَ عَلَى أَرْبَابِهَا الْبَلَدِيِّينَ الْقُدَمَاءِ، مِنَ الْإِبْقَاءِ وَاسْتِصْصَالِ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ شَيْعِ الْأَشْقِيَاءِ، وَالْقَبْضِ عَلَى الَّذِينَ بِهَا مِنَ الْأَغْزَاوِ، وَإِسْبَاغِ الْعَفْوِ عَلَيْهِمْ وَتَصْيِيرِهِمْ فِي جُحْلَةِ الْأَجْنَادِ، وَمَا تَحَلَّلَ هَذِهِ الْأَحْوَالُ مِنَ الْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ وَالِاتِّفَاقَاتِ الْبَدِيعَةِ فِي مَدَّةِ هَذَا التَّطَوَّافِ وَالْمُحَاصِرَةِ، إِلَى انْقِضَاءِ الْإِيَّامِ إِلَى تَوَسُّعِهَا، وَذَلِكَ فِي شَوَّالٍ مِنَ الْعَامِ.

وَأَكْثَرَتِ الشَّعْرَاءُ فِي هَذَا الْفَتْحِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُجَبَّرٍ فِي فَتْحِ يَوْمِ الْحِمَةِ [مَنْ الْوَافِرُ]:

طَلَّعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ	أَسْأَلُكُمْ لِمَنْ جِيشٌ لَهَا
كَمَا يَتَحَمَّلُ الزَّهَرَ الْكُفَامُ	أَتَتْ كُتُبُ الْبَشَائِرِ عَنْهُ تَرَى
أَيُّجِبُّ نَفْحَةَ الْبَدْرِ الْخِتَامُ	تَنْمُ وَلَمْ تُقَضَّ وَلَا عَجِيبُ
فَلْأَيَّامٍ عَنْهُمْ ابْتِسَامُ	كَأَنَّ النَّصْرَ أَضْحَكَهَا ثَغُورًا
لَهُمْ بِالْأَيَّامِ وَالْأَيَّامِ قِوَامُ	وَيَا لِلنَّاسِ يُرْغَبُ عَنْ أَنْسِ
كِتَابُ اللَّهِ يَتَّبِعُهُ الْإِمَامُ	أَمَامَهُمْ إِذَا سَلَكَوا سَبِيلًا
وَيَتَّبِعُهُ فَيَتَّبِعُهُ الْأَنْبَاءُ	يُصَاحِبُهُ فَيَصْحَبُهُ الْأَمَانِ
إِذَا قُلْنَا هُوَ الْمَلِكُ الْهَيْمَامُ	هُوَ الْمَلِكُ الْكَرِيمُ وَمَا أَصْبَنَا

فَسَلِّ مَا حَلَّ بِالْأَعْدَاءِ مِنْهُ
لَقَدْ بَرَزْتَ إِلَى هَوْنِ الْمَنَاسِيكِ
وَمَا أَغْنَتْ قِسِيَّ الْغَزِّ عَنْهَا
غَدَوْا فَوْقَ الْجِيَادِ وَهُمْ شَخُوصُ
هُوَ الْأَمْرُ الرَّضَى طُوبَى لِنَفْسٍ
حَيَاةُ الدِّينِ دَوْلَتُهُ فِدَامَتْ
سَلَامُ اللَّهِ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدٍ

وَكَيْفَ اسْتَوْصَلَ الدَّاءُ الْعِقَامُ
وَجَوْهٌ كَانَ يَحْجُبُهَا اللَّثَامُ
فَلَيْسَتْ تَدْفَعُ الْقَدَرَ السَّهَامُ
وَأَمْسُوا بِالصَّعِيدِ وَهُمْ رِمَامُ
يَكُونُ لَهَا بِعَصْمَتِهِ اعْتِصَامُ
لَأَمْرٍ قَدْ أُتِيحَ لَهُ الدَّوَامُ
عَلَيْهِ وَحَسْبُ مَنْ نَزَلَ السَّلَامُ

وقال أيضًا يمدحه ويذكر هزيمة ابن غانية والأغزاز من قصيدة [من البسيط]:

عَدُوَّكُمْ بِخَطُوبِ الدَّهْرِ مَقْصُودُ
رَأَى الشَّقَاءَ ابْنَ إِسْحَاقٍ أَحَقَّ بِهِ
وَكَيْفَ يَحْظِي بِدُنْيَا أَوْ بآخِرَةٍ
أَمَا دَرَى لَا دَرَى عُقْبَى عِدَائِكُمْ
أَلْقَى السَّلَاحَ وَوَلَّى يَبْتَغِي أَمْدًا
مَا مَرَّ يَوْمًا بِبَابِ ظَنِّهِ سَبِيًّا
وَهَبْهُ عَاشَ أَلَيْسَ الْمَوْتُ أَهْوَنَ مِنْ
أَنْحَى الزَّمَانُ عَلَى الْأَغْزَازِ وَاجْتَهَدْتَ
أَنْتُمْ سَلِيمَانُ فِي الْمُلْكِ الْعَظِيمِ وَفِي
قَدْ أَهْجَ الدِّينَ وَالْدُنْيَا مَقَامُكُمْ
جَارَى مَنَاقِبِكُمْ شِعْرِي فَقْصَرْ عَنْ
مَنْ لَيْسَ مَعْتَقِدًا إِيجَابَ طَاعَتِكُمْ
رِضَاكُمْ الدِّينُ وَالْدُنْيَا وَعَدْلُكُمْ
دَمْتُمْ حَيَاةً مَدَى الدُّنْيَا وَدَامَ لَكُمْ

وَأَمْرُكُمْ بِاتِّصَالِ النَّصْرِ مَوْعُودُ
مَنْ السِّيَادَةِ وَالْمَجْدُودِ مُحَدُودُ
مُحَالٌّ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ مَطْرُودُ
كُلُّ بَحْدٍ حَسَامِ الْحَقِّ مُحْصُودُ
يُنْجِيهِ وَهُوَ مَرْوَعُ الْقَلْبِ مَوْدُودُ
إِلَى التَّخْلُصِ إِلَّا وَهُوَ مَسْدُودُ
عِيشٌ يُجَالِطُهُ هَمٌّ وَتَنْكِيدُ
فِي قَطْعِ دَابِرِهِمْ أَحْدَاثُهُ السُّودُ
طُولُ التَّهَجُّدِ فِي الْمَحْرَابِ دَاوُودُ
وَكَيْفَ لَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ مَحْمُودُ
بَلُوغُ أَدْنَى مَدَاها وَهُوَ مَجْهُودُ
فَلَيْسَ يُغْنِيهِ إِيْمَانٌ وَتَوْحِيدُ
ظِلٌّ ظَلِيلٌ عَلَى الْأَيَّامِ مَمْدُودُ
نَصْرٌ وَفَتْحٌ وَتَمْكِينٌ وَتَأْيِيدُ

وفي هذه السنة: حاصر المنصور أبو يوسف قفصة وفتحها في شعبان من السنة، وذلك أنه لما فرغ من التبريز عليها والاستطلاع لها لديها نزل بمحلاته عليها حيث نزل أبوه في محاصرته أيضا لها، ولم يعرض أولا لقاتلها [حتى] ^(١) انحل قفل من أقفالها.

فلما استوسقت المواد بالوصول من البلاد، وكملت العُدَد بالضرب والاستعداد، وحرّك ما لجؤا فيه وأظهروه من العصيان والارتداد قلوب الجهاد، حول المنصور أماكنه، ونقل مساكنه، ونُصبت له هناك بمقرّبة من البلد مُرتقبة من الخشب يُشرف منها على مواضع القتال، وعلى المتصرّفين في الأشغال ^(٢).

ثم قُسمت على البلد جميع المجانيق والآلات، وأحاطت بهم من كلّ الجهات، ودام عليهم حرّج القتال والنكال، يأخذهم باليمين والشمال، وضمّ من المجانيق أرفعها أثقالاً، وأشدّها خدمةً ورجالاً، وجعلت سُموث أحجارها على السور حتى أعادته هباءً منبثاً ^(٣)، وصيّرت مع ستارته السفلى قاعاً صَفْصَفًا مُجْتَثًا، وأقيم بُرج على سبع طباق، مُزاحماً بذروته مراقبي السبع الطباق، فشحن بالرّماة والآلات، رجال بصفوف الأسلحة والرايات، تُحرّك بالهمز ولطيف الرّكز، فانساب انسياب الحية الرّقطاء، ومرّ على سمته مرّ الحباب على صفحة الماء، من غير توغر ولا تغور ولا التواء، ونفخ بداخله البوقات وصكّت الطبول، وقام بأقطار المحلة التكيير والتهليل، ودنا من السور حتى أطلّ على جفن المدينة إطلال الأهوام، وتحكّم من أهلها بسوء الانتقام، وكمل ردّم الحفير المقابل لثلم السور حتى ساوى وجه الأرض وصار مهيعاً للبلد، بحيث لا يمتنع فارساً ولا راجلاً، ولا خارجاً ولا داخلاً.

ولما كان من الغد من وقوف البرج المذكور أخذ الموحدون أسلحتهم وأبرموا عزمتهم، وأعدّوا للقتال أهبّتهم، وصعدوا على الرّدْم للبلد قاصدين إلى الثلم، وكان المسلك صعب المرتقى لما تراكم في صدره من ردّم الأسوار وسحيق ما قدّفت به

(١) ما بين الحاصرتين زيادة مقتضاة.

(٢) ذكر المراكشي استرجاع قفصة في خبر قصير (المعجب ٣٤٩-٣٥٠).

(٣) في ق، ر، ٣، ب: «منثورًا»، وما أثبتناه أوفق للسجع.

المجانق من جميع الأحجار، فزَلَّتْ فيه الأقدام، ولم يتمكَّنْ بَوَحْلِهِ عليهم الاقتحام،
وكمَّنْ لهم رَجَالُهُ الأشقياء مع معارج الرُّدوم، ودَرَّقُوا ببقايا السُّور واستكَّنُوا للوثوب
والهجوم، فهَبُّوا عليهم من مكامن الأحجار، واستغاثوا بما كان من ارتفاعهم من
ذلك الانحدار، فواقفُوهم بعِظَمِ النهار، وانصَرَفَ الموَحِّدون ليجدِّدوا لهم من الغدِ
عَزْمَةً تذهبُ بمواقفتهم وتكُتُّ أولاهم على أخراهم.

ولمَّا رَأَوْا أَنَّ البلدَ مكسوح، وَأَنَّ دَمَ مَنْ فيه مسفوح، تفاوَضَ المَلَأُ منهم بقيَّةَ
يومهم في إعمال رسالتهم والاحتيا لِنِجاتهم، وكيفية التوصل لحياتهم، فراجعوا
بصائرهم، وظهَّروا بالنِّدم سرائرهم، فأجمعوا على توجيه أعيان البلد وأربابه وأهل
الحلِّ والعقد من كلِّ فريق من أصحابه. فلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ وسَكَنَ ما بالمحلَّة من تموج
الحركات، وأمنوا من انبساط العامة عليهم وامتدادهم إليهم بالاستطالات، خرجوا
من ثُلَمِ السُّور بعدَ الإذن إليهم في الوُصول، والإباحة لهم بالهبوط والنزول،
فوصلوا بمقرَّبة من خِباء الساقية بعدَ ما تحقَّقوه على ما تقدَّم ذكره.

وجلسَ المنصورُ لتنفيذ رسالتهم والنظر فيما يكون من إجابتهم، فبعَثَ في
وجوه القرابة وأهل المَشُورة والمناصحة، وتكلَّموا في شروطهم ورَغِبُوا في تميم
رُبُوطهم، فلم يُسْتَعْفُوا في تأمين المَيُورقيين والأوباش المنضافين، فعاد القَفْصِيُّونَ
المذكورون إلى بلدِهم في ذلك الأمان، ونفَذَ لهم التوقيع على تأمين الأغزاز في أنفسهم
وما مَلَكَتْ أيماهم وتأمين أهل البلد في أنفسهم خاصَّةً وأملاكهم، ويأتي مَنْ كان في
البلد من الحشود ينزلون على الحُكْم، فقنعوا بهذا الالتزام وما أشار الخليفة من الأحكام،
وصدَّرَ لهم من ذلك النظام، ورَأَوْا أَنَّ ذلك نعمةٌ عليهم بعدما كانوا في قَبْضة الهلاك
ولَهَوَاتِ الحِمَام، وانفصلوا بعدَ هَذهِ من اللَّيْلِ إلى أصحابهم بعدما رَغِبُوا في ترويح
القتال عنهم تلك اللَّيلة تطمينًا لنفوسهم وتصديقًا لِمَا عقَّده من أمانهم، فسكَّنت
تلك اللَّيلة اضطرابَ الحركات، وباتَ الناسُ ملءَ عيونهم من السَّنات، بأبدانٍ رائحات
وأنفاس خافتات.

ولمَّا كانت من الغدِ لم يبقَ بالبلد من الشَّيخ الهرم إلى الغلام المحتلم من
غزِّيٍّ ومَيُورقيٍّ، وبلدِّيٍّ وأجنبيٍّ، إلا وبادروا بالسلام مُسرعين، وعلى شقاءٍ أو نعيمٍ

مُقَدِّمِينَ، وَحِينَ كُمِّلَ اسْتِيفَاؤُهُمْ، وَلَمْ تَبَقْ بِالْبَلَدِ مَا ظَهَرَ إِلَّا نِسَاؤُهُمْ، وَهُمْ وَقُوفٌ يَهْلُلُونَ وَيَكْبُرُونَ، وَلَسِمَا يَكُونُ مِنْ حَالِ رَجَالِهِمْ مَرْتَقِينَ^(١)، ثُمَّ مُيزَ كُلُّ صَنْفٍ مِنْ صَنْفِهِ وَعُزِّلَ مِنْهُمْ جَمِيعُ الْبَلَدِيِّينَ، وَعُرِّفُوا بِمَا شَمِلَهُمْ مِنَ الْعَفْوِ وَالْجُودِ الْمُعِينِ، وَنَجَوْا مِنْهُ مِنَ الْهَلَاكِ الْمُبِيرِ وَالْعَذَابِ الْمُبِينِ، وَخُلِّيَ سَبِيلُهُمْ، وَسَابَقُوا إِلَى بِلَدِهِمْ يُعْلَنُونَ بِدَعَائِهِمْ وَيَتَضَرَّعُونَ بِشُكْرِهِمْ، وَعُزِّلَ أَشْتَاتُ الْجُنُودِ وَأَصْنَافُ الْحَشُودِ الْغَوَّاءِ وَمَنْ نَزَلَ عَلَى الْحُكْمِ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ حُكْمُ الشَّقَاوَةِ وَتَقَفُوا فِي الْبُرْجِ الْمُقَامِ الْمَذْكُورِ، وَقَدْ حَانَ لَهُمُ الْحَيْنُ الْمَقْدُورُ، وَانْصَرَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْجُمْهُورُ.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاةِ ظَهْرِ الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ جَلَسَ فِي الْمَرْقَبَةِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا الْمَسَمَّاةِ بِاللَّدَيْدَبَانِ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِ الْمُتَقَفِينَ^(٢)، وَأَمَرَ بِذَبْحِهِمْ أَجْمَعِينَ، فَكَانُوا يُسَاقُونَ إِلَى مَصَارِعِهِمْ زُمَرًا زُمَرًا وَيُكَبُّونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَجُنُوبِهِمْ وَظُهُورِهِمْ، وَيُدْئَى بَابُنْ شَقِيهِمْ، ذَبَحَهُ أَبُو يَحْيَى الْوَزِيرُ، حَتَّى إِذَا أَتَى الدَّبِيحَ عَلَى آخِرِهِمْ جُعِلَ مِنْ خَنْدَقِهِمْ وَخَفِيرِهِمْ بَقِيعَ قُبُورِهِمْ، وَأَهْلُ الْبَلَدِ يَنْظُرُونَ إِلَى مَصَارِعِهِمْ، وَتَمَكَّنَ الْحَدِيدُ فِي أَوْدَاجِهِمْ وَأَخَادِعِهِمْ، فَنَهَكَتِ الْجَهَّةُ مِنْ دَفْنِ جِيْفَتِهِمْ، وَثَقُلَتْ مِنْ وَخْشَةِ جَثَّتِهِمْ، فَحَوَّلَ الْمَنْصُورُ مُضَارِبَهُ، وَرَحَلَ إِلَى الْبَقْعَةِ الَّتِي نَزَلَهَا أَوَّلًا، وَقَسَمَ سَوْرَ قَفْصَةٍ عَلَى جَمِيعِ مَنْ بِالْمَحَلَّةِ فَتَوَزَّعَ الْجُمْهُورُ مِنْ كُلِّ قَبِيلٍ، فَأُعِيدَ فِي يَوْمَيْنِ هَبَاءٌ مُنْبَتًا، وَأُضْرِمَتِ النَّارُ فِي جَمِيعِ الْمَجَانِيقِ وَالْآلَاتِ، وَرَحَلَ النَّاسُ عَنْهَا، وَبَقِيَتْ سُودَاءُ كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ، وَكَدْيَارٍ عَادٍ بَعْدَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ، وَطَالَمَا كَانَتْ جَنَّةٌ تُزْهِرُ.

وَدَخَلَ الْمَنْصُورُ تَوُسَّ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ، فَوَصَلَتْ الْوُفُودُ مُهْنِيَّةً، وَأَكْثَرَتِ الشَّعْرَاءُ فِي ذَلِكَ. قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْجُرَّائِيُّ يَمْدَحُهُمْ وَيَذْكُرُ فَتَحَ مَدِينَةَ قَفْصَةِ [مِنْ الْكَامِلِ]:

فَتَحْ يُطَاوِلُ فَتَحَهُ الْأَحْقَابَا	خَضَعَتْ لَهُ فِرْقُ الضَّلَالِ رِقَابَا
وَاسْتَشْعَرَ الْمُرَّاقُ مِنْهُ مَخَافَةً	مَلَكَتْ عَلَيْهِمْ جِيئَةً وَذَهَابَا

(١) هَكَذَا فِي النُّسخِ، وَالْجَادَةُ: «مَرْتَقِبُونَ»، وَالَّذِي أُلْجَأَ إِلَى ذَلِكَ هُوَ ضَرُورَةُ السَّجْعِ.

(٢) فِي ق، ر، ب: «الْمُنَاقِقِينَ».

وَعَذَابُهُ مَا قَدْ صَفَا مِنْ عَيْشِهِمْ
لِلَّهِ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ فَإِنَّهُ
شَرَفَ الزَّمَانَ بِأَنْ تَكُونَ أَبَالُهُ
وَسِعَ الْمَوْلَى وَالْمُعَادَى حُكْمُهُ
وُسْمَ ابْنِ إِسْحَاقَ عَلَى خُرُطُومِهِ
طَمَحَ الشَّقَاءُ بِأَهْلِ قَفْصَةٍ وَارْتَقَى
وَأَبَى لَهُمْ إِصْرَارُهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
لَمْ يَغْنِ عَنْهُمْ إِذْ أَتَاهُمْ مِنْ عَلِيٍّ
طَلَبَتْهُمْ تَحْتَ التَّرَابِ وَفَوْقَهَا
نَالَتْهُمْ رُحْمَى الْخَلِيفَةِ بَعْدَمَا
آيَاتُ نَصْرِيَّاتٍ كُلُّهَا
وَسَعَادَةٌ عَجَبٌ تَهْدِي قَوَى الْعِدَا
خَصَّتْ إِمَامًا لِلْبَرِيَّةِ مُجْتَبَى
مَلِكٌ عَلَيْهِ مَسْحَةٌ مَلَكِيَّةٌ
بَهَجُوا عَلَى الْأَبْصَارِ بِهِجَةَ يَوْسُفَ
مَدَحُ الْإِمَامِ عِبَادَةٌ نَرْجُو بِهَا
مَا سَافَرَتْ أَذْهَانُنَا فِي مَدْحِهِ
لَمْ يَدْرِ حَقَّ مَقَامِهِ مَنْ لَا يَرَى

كَدَرًا وَمَا فِيهِ الْحَلَاوَةُ صَابَا
أَحْيَا النَفُوسَ وَتَمَّمَ الْأَرْبَابَا
مَا... إِنْ... إِنْ حَابَا
فِي كُلِّ أَرْضٍ رَحْمَةً وَعَذَابَا
خَزِيًّا يَنَالُ حَدِيثَهُ الْأَحْقَابَا
بِهِمْ شَوَاهِقَ صَعْبَةٍ وَعُقَابَا
رَأَوْا الْعَذَابَ إِنْابَةً وَمَتَابَا
أَنْ يَجْرُسُوا الْأَسْوَارَ وَالْأَبْوَابَا
آجَالُهُمْ فَتَوَلَّجُوا الْأَسْرَابَا
نَادَى الرَّدَى بِنَفْسِهِمْ وَأَهَابَا
بَهَرَتْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَلْبَابَا
هَذَا وَتَقَصُّ مِنْهُمْ الْأَصْلَابَا
بَرًّا تَقِيًّا خَاشِعًا أَوَّابَا
لَيْسَ الزَّمَانُ جَمَالَهَا جَلْبَابَا
وَيُضِيءُ دَاوُودُ بِهِ الْمَحْرَابَا
عَزَّ الْحَيَاةُ وَأَنْ نَفُوزَ مَابَا
إِلَّا وَكَانَ لَهَا الْقُصُورُ إِيَابَا
مِنْ دُونِ حَقِّ مَقَامِهِ الْإِطْنَابَا^(١)

وفي هذه السنة: كان استقرار المنصور بتونس بعد إيابه من حركة الحمة وقفصة وغيرهما وما طرأ مدة إقامته بها من الحوادث الشاردة والأنباء الواردة وتقديم السيد أبي زيد على إفريقية وحركة المنصور إلى المهدية وانفصاله منها إلى المغرب بعد ربط

(١) وقع في النسخة (ب) تقديم وتأخير في النصوص، ثم عاد بعد هذا الأمر متسقا.

أشغال البلاد وتأنيس مَنْ بها من العباد، وذلك أنه عَرَّفَ الناسَ بعدَ أيام بأن يكونوا للحركة مستعدين ولم يَعْينْ لها زماناً^(١) ولا خَصَّصَ للوجهة مكاناً، وشرع في أشغال الحركة وأحوالِها، وتثقيف البلاد والفحص عن أعمالِها، وتقديم حُكَّامها وعُمَّالِها.

وفي هذه السنة، وهي سنة ثلاثٍ وثمانينَ المذكورة: كانت حركة القائد أبي العباس الصَّقْلِيَّ بالأساطيل المنصورة وهجموا على يابسة ودخلوها واستولوا عليها وقبضوا فيها على ابن نجاح القائد المايورقي الذي هَرَبَ عن ابن غانية للموحددين ثم نكثَ عليهم، وقد كان خدعَ أهلَ يابسة ودخلها.

وفي هذه السنة: كان استيلاءُ يوسف بن أيوبَ على ما كان بيد الروم من بلاد الشام وغلبته على بيت المقدس وصرفه للمسلمين وضبطه على ما كان به من النصارى حتى فادّوه بعشرة دنانير للذكر وخمسة للأُنثى وتركهم له جميع ما كان عندهم من الأسلحة وتأمينهم في أموالهم وأنفسهم على تأدية هذه الضريبة من العدى^(٢).

وفي سنة أربع وثمانين وخمس مئة: تحرَّك المنصورُ من تونس إلى المَهْدِيَّة في المحرَّم وقد عزم على الإياب إلى المغرب، فقدَّم المخاطبات والرسائل تتضمنُ تنميمَ الحركة الشرقية والاعتناء بالبلاد المغربية والأندلسية، وأقام المنصورُ بالمَهْدِيَّة ريثما رَبطَ أشغال العرب إلى قوانين يوقِفُ عليها، وتحرَّك المنصورُ من المَهْدِيَّة على مُواصلة من التأويب والسرى آيَّاباً على طريق تاهرت لا يعرج على معقل ولا يتلوَّم في منزل، والعباسُ بن عطية الزناتي يطوي له المراحل ويتقي له المنازل، حتَّى أطلَّ على تلمسان في مدةٍ قريبة من الزمان، مع راحلة العساكر وتيسر المرافق بكلِّ مكان.

ولما وصل المنصورُ إليها وقدم عليها، وكان قد تقرر عنده مدة مغيبه في غزاته هذه تواترُ الأنباء وأحوالُ كلِّ مَنْ تردَّد في بيعته واستهواه الشيطانُ في نكث عقيدته والترحُّج عن طاعته، وأعوذُ بالله من عمى البصائر، وتتبُّع الحسد المؤدِّي إلى هلاك الرجال الأكابر وتلف العشائر.

(١) في ب: «زماناً»، وما أثبتناه أوفق للسجعة.

(٢) تنظر التفاصيل في الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٢٩-٥٥٨، وتاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٨٣هـ.

نكبة السيّد أبي إسحاق بن عبد المؤمن

كان ابتداء سَطْوَةِ المنصور في أَوَيْتِهِ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ بِبَعْضِ قَرَابَتِهِ الْحَاسِدِينَ لِبَيْعَتِهِ، فَأَوَّلُ مَنْ تَلَقَّاهُ بِتِلْكَ السَّيِّدِ أَبُو إِسْحَاقَ أَحَدُ الْأَعْمَامِ، وَمَنْ كَانَ غَمْرًا بِالْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ، وَكَانَ تَأَخَّرُهُ بِهَذَا الْقَطْرِ لَاعْتِلَالِ لَزِمِهِ، فَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَطْعَنُ فِي آرَاءِ الْمَنْصُورِ فِي تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَيُضَعِّفُهَا بِحُجَجٍ ضَعِيفَةٍ سَخِيفَةٍ، فَجَاءَ لِيَسْلَمَ عَلَيْهِ وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَسَأَلَ أَبُو إِسْحَاقَ الْخَلِيفَةَ عَنْ حَالِهِ، وَكَيْفِيَّةِ كَوْنِهِ فِي حُلُولِهِ وَارْتِحَالِهِ، فَقَالَ لَهُ: حَالُنَا عَلَى مَا يَسُرُّ الْمُسْلِمِينَ وَيَسُوءُ الْحَاسِدِينَ. ثُمَّ أَمَرَ بِقِيَامِهِ فَأَخْرَجَ عَلَى وَجْهِهِ وَطُرِدَتْ دَابَّةُ مَرْكُوبِهِ وَمَشَى عَلَى قَدَمَيْهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَالْعَامَةُ تَطَأُ أَثْوَابَهُ، وَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا وَتَوَفَّى.

نكبة أبي حفص الملقب بالرّشيد والي مُرْسِيَّة وأبي الرّبيع والي تاذلا

وما وَرَدَ عَلَى الْمَنْصُورِ مِنْ قَتْلِهِمَا وَكَيْفِيَّةِ مَقْتَلِهِمَا^(١)

لَمَّا جَرَى بِفَحْصِ عِمْرَةٍ مَا جَرَى مِنْ قَتْلِ الْمُوحِدِينَ، وَصَرَخَ الشَّيْطَانُ بِظُهُورِ الْمَارِقِينَ، خَبِثَتْ سَرَائِرُ الْحَاسِدِينَ، وَبَدَأَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مَا أَصَرُّوا عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ عَلَى تَرَاحِي السُّنَنِ، وَفَشَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّكْبَانِ شَنِيعُ الْكَلَامِ وَسَرَى ذَلِكَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ. فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ الْكَرَّةَ عَلَى الْأَشْقِيَاءِ، وَاجْتَثَّ الْفَتْحُ أَصْلَهُمْ مِنْ جَمِيعِ مَا كَانُوا أَخَذُوهُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَاتِ وَالْأَنْحَاءِ، اسْتَحَالَتِ الْأَضْغَاثُ، وَسَكَنَتِ الزَّعَازِعُ وَالْأَحْدَاثُ، وَقَدْ كَانَتْ الْأَنْبَاءُ تَصِلُ إِلَى تُونِسَ فَيَطْوِي لِلْأَعْدَاءِ عَلَيْهَا كَشْحَ الْحَلِيمِ، وَيُعِدُّهَا لِيَوْمٍ عَظِيمٍ.

فَكَانَ مَنْ وَصَلَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْحَالِ، وَتَمَوَّجَ تِلْكَ الْأَهْوَالِ: الْعَامِلُ ابْنُ اللَّحَافِ، مَنْشِئُ الْإِرْجَافِ، وَمُسَعِّرُ الشَّتَاتِ وَالْخِلَافِ. فَذَكَرَ عَنِ الرَّشِيدِ أَشْيَاءَ تُنَافِرُ التَّوْفِيقَ وَالرَّشَادَ، وَتُحَرِّكُ لِمَنْكَرِهَا الْجَمَادَ، وَتُتَبِّجُ الْخِلَافَ وَالْإِرْتِدَادَ، وَتُصَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعَ، وَلَا يُمْكِنُ مَدَافَعَةُ قُبْحِهَا الْمُدَافِعَ، وَأَنَّهُ مُذْ أَشْهُرٍ يُضْمَرُ حَيْلُهُ وَيَقْطَعُ بِالْإِرْجَافِ الشَّنِيعَةِ لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ، وَأَنَّ الْوَاصِلِينَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ تَحَدَّثُوا بِمُؤَالَاتِهِ أَذْفُونُشَ وَمُحَالَفَتِهِ مَعَهُ بِأَكْيَدِ الْمَخَاطَبَاتِ وَالْمَكَاتِبَاتِ عَلَى التَّعَاوُضِ فِي النِّفَاقِ، وَالتَّآكُفِ عَلَى ذَلِكَ وَالْإِتِّفَاقِ.

(١) المعجب ٣٥٢ فما بعدها.

وكان هذا الرَّشِيدُ قد استَوَلَى على الناس بضروب العُدوان، وتسبَّب إلى أخذ أموال التُّجَّار وإذاية الحيران وغالبَ العُمال على بيوت الأموال، وكلَّفهم المُوَن الثَّقَال، ثم قَبَضَ على ابن رَجاء مُشرف مُرْسِيَّة وثَقَّفه وطلَّب منه إحضارَ تقييدات المَجابي وأزِمَتِها المجتمع فيها بجُمَلَتِها، فعَجَزَ الرجلُ عن تكليف المُحال، وما لا يُستطاعُ من الأعمال، فَضَرَبَهُ بالسَّوط حتى قَتَلَهُ رحمه الله. وفَرَّ ابنُ سُلَيْمَانَ إلى بَلَنْسِيَّة، وكان صاحبَ العَمَلِ بِمُرْسِيَّة، وكذلك الكاتبُ حَكَمَ بن محمد فارَقَه فِرارًا بحياتِه وطمعًا في نَجَاتِه، فخاطَبَه الرَّشِيدُ يريهِ الرَّغْبَةَ فيه، وَيَعِدُّهُ وَيُرْجِيهِ، فتحرَّك الحائِثُ يَسْعَى برجلِه إلى أَجَلِه منقادًا إلى ما زَوَّرَ له من أَمَلِه، وقد دَسَّ الرَّشِيدُ إلى أَحَدِ حُفَاطِه أن يُنْزِلَه عنده، ويَطْشُ به ويودَعَه ليلًا في مَلْحَدِه، فامتثلَ الفاجرُ أَمْرَه، وقَتَلَه ولم يَمُهَلِّه، وانكشفت أحوالُ الرَّشِيدِ للناس فأوقعته غَدْرَاتُه، وأوبقته سيئاتُه^(١).

وفي أثناء هذه الأحوال وصله من الحضرة الاستدعاء، وارتفع عن أهل الأندلس البلاء، وارتحل فشيَّعه الناس بقبیح الثناء.

وتقرَّر أيضًا عن ابن أبي الرَّبيع صاحب تادلا عمَّ المنصور ما كان تسبَّب فيه من كشف رأسِه في النَّفاق وخَلْعِه للطاعة ومُجاهرتِه بالشَّقَّاق، وارتهانِه في مُحاطباتِه لمن جاورَه من القِبائِل على إجابَتِه والارتباط معه على ذلك الاتفاق، فسَوَّفه تسويفَ المستهزئين، ورأوا أنه من الضالِّين الهالكين، ثم مشى السَّيِّدُ أبو زكريَّا في سَرِيَّة وافرة فأحاط بجهاَتِه، وأخذ بِمُخَنَّقِه على المألوف من عَزَماتِه.

ولمَّا لم يجد سُلَيْمَانَ المذكورُ إلى متنفِّسٍ سبيلًا، ولم يرَ من الإعانة كثيرًا ولا قليلًا، ألْقَى بيد الاستسلام، وهَدَمَ ما بَنَى عليه من أَضْغاثِ تلك الأحلام، وبقي غريقًا في وَرْطَتِه، نادِمًا على ما فَرَطَ من فعلتِه الذميمة وغَلَطَتِه، فأذَكَّت عليه عيونُ الرُّقَباء، وأكَّد عليه في القدوم واللقاء، فسار يُقَدِّمُ رَجُلًا ويؤخِّرُ أخرى حتى لَحِقَ بالمَحَلَّة المنصورة، حاصلاً في قَبْضَةٍ ما جَنَاه من النوائِبِ المحذورة. ولمَّا وصل الرَّشِيدُ أيضًا من مُرْسِيَّة أمرَ بنزوله منفردًا في نَفَرٍ من خاصَّتِه وخدمَتِه، ثم قَبَضَ عليه وعلى أبي الرَّبيع المذكور، وتحمَّلَتِها الثَّقَات إلى رِباط الفتح خيلًا ورَجُلًا، وصارا تحت الثَّقاف والإشراف حتى أتاها اليقين.

(١) سقطت من ب.

ذِكْرُ مَوْتِ السَّيِّدِينَ الْمَذْكُورِينَ

ولَمَّا وَصَلَ الْمَنْصُورُ حَضْرَةَ مَرَّأَتَيْهِ وَتَمَهَّدَ نَزْوُلُهُ، وَقَفَلَ كُلُّ مَنْ كَانَ يُنْتَظَرُ قَفْوُلُهُ، وَتَفَرَّغَ مِنْ سَلَامِ الْقَاطِنِينَ، وَمِنْ تَضْيِيفِ الْوَارِدِينَ، اجْتَمَعَ بِالسَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ الْمُسْتَخْلَفِ بِمَرَّأَتَيْهِ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، فَبَايَعَهُمْ عَنْ أَحْوَالِ أَوْلَئِكَ الْمَنَافِقِينَ، فَقَرَّرَ لَدَيْهِ مِنْ خَبِيثِ^(١) أَقْوَالِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ أَفْعَالِهِمْ مَا أَوْجَبَ عِنْدَهُ شَرْعًا سَفْكَ دِمَائِهِمْ، بِنِفَاقِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، فَلَمَّا أَوْضَحَ ذَلِكَ عِنْدَ الْمَنْصُورِ خَاطَبَ عِثَانَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْكُومِيَّ صَاحِبَ قَصَبَةِ رِبَاطِ الْفَتْحِ أَنْ يُعْفِيَ آثَارَهُمْ وَيَصِيرَهُمْ فِي الْهَالِكِينَ، فَقَدَّمَهَا فَضْرَبَ رِقَابَهُمَا عِفاً لَلَّهِ عَنْهُمَا، وَقَتَلَ فِي نَكْبَتِهِمَا مِنْ مُحَقِّقِ^(٢) اشْتِرَاكِهِ فِي الْمَعْصِيَةِ مَعَهُمَا، وَوَرَدَ الشَّاعِرُ الْمُحْسَنُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُجَبَّرٍ فِي جُمْلَةِ الْوَافِدِينَ لِلتَّهْنِئَةِ بِهَذَا الْقَوْلِ السَّعِيدِ فَقَالَ [مِنْ الرَّمْلِ]:

بَعْلَاكُمْ وَهُوَ حَسْبُ الْمَطْنِبِ	عَرَفَ الْمَشْرِقُ فَضْلَ الْمَغْرِبِ
فَسَحَّ الدَّهْرُ لَهُ حَتَّى رَأَى	سِيرَ ابْنٍ وَأَبٍ بَعْدَ أَبٍ
فِرْعَاهَا بِفَوَادٍ فَطْنِ	وَتَلَاهَا بِلِسَانٍ مُعَرِّبِ
قَدْ لَعَمْرِي أَبْصَرَ النُّورَ الَّذِي	مَذَبَّأَ أَعْشَى عَيُونَ النَّوْبِ
وَرَأَى مَا لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُهُ	فَهُوَ مَشْغُولٌ بِطُولِ الْعَجَبِ
أَيُّهَا الْمَنْصُورُ إِنَّ الدِّينَ قَدْ	حَلَّ مِنْ عَزِّكَ أَعْلَى الرُّتَبِ
هُوَ أَمْرُ اللَّهِ فِي أَيْدِيكُمْ	فَاجْزِبُوا الْأَرْضَ بِهِ تَنْجِزِ
رُفِعَتْ قَبْطُهُ مَضْرُوبَةً	مَا لَهَا غَيْرَكُمْ مِنْ طُنْبِ
عَارِضٌ أَبْدَى بُرُوقًا جَمَّةً	وَهُوَ لَمْ يَأْتِ بِبَرْقِ خُلْبِ
يَقْتَضُونَ الْوَعْدَ بِالنَّصْرِ لَكُمْ	وَهُوَ قَدْ خُطَّ لَكُمْ فِي الْكُتُبِ
غَيْرَ أَنَّ السَّعْيَ مَحْمُودٌ وَلَا	يَقْطَعُ السَّيْفُ إِذَا لَمْ يَضْرِبِ

(١) سقطت من ب.

(٢) الضبط من ب.

من يكنْ مطلبُهُ نصرَ الهُدَى نالَ عندَ اللهِ نَجَحَ المَطْلَبِ
 قد تَلاقَى اللهُ إفريقيَّةً وهى نَهَبٌ في يَدَيِ مُنْتَهَبِ
 أنتمُ أحييْتُمُ الدِّينَ وقد ماتَ فيها موتَ مَنْ لم يُعْقَبِ
 أحجَمَ الأعداءَ عنكمُ رهبةً مَنْ رأى الموتَ عيانًا يرهبِ
 اهتُيَ يا حضرةَ القُدُسِ فقد رُحِتَ في ثوبِ البهاءِ المعجِبِ
 يالها من أوبةٍ محمودةٍ سَقَتِ الدهرَ حياءَ الطربِ

ولما تفرَّغ المنصورُ من بعد الحُلُول بحضرة مَرَّاكش من حركته وبلغَ المرغوبَ في أعدائه والمطلوبَ من أمنيته، نَظَرَ في إنجاز ما وَعَدَ به في مُحاطباته، وضمَّنَه في مُكاتباته، من مصالح البلاد الغربيَّة، وإعانة الثُغور الأندلسيَّة، فاستعدَّ لذلك كُلَّهُ بعدَ الفراغ من نَصَبِهِ، وبلوغِ الغاية من أَرَبِهِ، بقيَّة سنة أربع وثمانين المذكورة.

وفي سنة خمس وثمانين وخمس مئة: قَدِمَ السَّيِّدُ أَبُو الحَسَنِ ابْنُ العَمِّ أَبِي حفص على تِلْمَسان، ومكَّنَ يَدَهُ في المخازن بوجوه الإمكان، وقَدِمَ على إشبيليةَ أَبُو حفص يعقوبُ ابنُ العَمِّ أَبِي حفص لتمهيدِها لمثل هذه الحركات، وأطلقَ المُخاطبات بالتأكيد على العُملِ في صَرْب الآلات، وما تحتاجُ إليه الجيوشُ من العُدَد والأقوات، ثم أَشْبَعَ في الجبال القِبْلِيَّة والبلاد الغربيَّة النداءَ بالجهاد من غير تكليف على حُكْم التطوُّع وتأتَّى الإرادات، فترادفت الأُممُ من الجبال والبسائط طامعينَ متطوِّعين، وأتتْ أناسٌ كثيرةٌ من حَبَش غانية وعمره الصَّحارى مبادرين، فاجتمع بالحضرة، من الأحمر والأسود وشَتَّى اللغات من الحشود والمطوَّعة وعموم الأعراب من الجنود من معدودٍ وغير معدود، ما ضاقَ بهم رَحِيْبُ الفضاء، وتكاثَرَ عن العدِّ والإحصاء.

والعدوُّ بالأندلس في أثناء ذلك يَشُنُّ الغارات، ويُبَالِغُ في النكايات، حتَّى أخذَ بمخنقِ غَرْب الأندلس بَرًّا وبحرًّا، واستعانَ بقراقير^(١) الإفَرنج فأذاقَ المسلمينَ ضَرًّا.

(١) في ق، ر، ب: «قراقر» والمحمفوظ ما أثبتناه إذ هو جمع القرقور: وهي السفينة الطويلة العظيمة، كما في معجمات اللغة، وستأتي على الوجه بعد قليل.

وفي هذه السنة: كانت غلبة ابن الرنك اللعين على قاعدة شلب وإخراج أهلها عنها إلى أن فتحها المنصور عنوة وجبرها للإسلام بحد الحسام^(١). وكان من موافقة قدر الله وصول جملة من القراقير^(٢) الرومية مجتازين على عادتهم إلى بيت المقدس مذ انتزع من أهل ملتهم فيصلون أبداً في كل سنة إليه ليزيلوا عن أعناقهم بزعمهم عهداً في أديانهم ويخرجوا عن عهد ما شرط عليهم ونفذ إليهم مع رهبانهم، فعقلت الأنواء القراقير^(٣) المذكورة بجهة الأشبونة، فألقى الكافر ابن الرنك مادة لعونه على كفره، وجيشاً مسيراً لِمَا دبره من ختلِه وغدره، ووجد منهم قبولاً لجهاد المسلمين، فأحدقوا بشلب من كل الجهات، وبألغوا في حصارها إلى أن تملكوها وأخرجوا أهلها عن...^(٤) بعد إشرافهم على الهلاك من الظم والجوع وعدم المجوع، وكان حافظها حينئذ عيسى بن أبي حفص بن علي لم تحنكه التجارب ولا ابتلي بسد الثغور، فاستولى عليه الجزع ولقه الهلع ودخل في غمار المؤمنين، وسلموا في أنفسهم وأخرجوا مسلوبين، واستأصل العدو حصناً من نظرها يُعرف بالبور، وأتى القتل على كل من كان فيه من صغير أو كبير وإنات وذكور، نفَعهم الله بشهادتهم يوم النشور.

وفي هذه السنة: كانت وقعة حصن المنار^(٥) وتغلب أذفونش عليه، وذلك أن أذفونش قصمه الله بث سراياه على أكثر بلاد المسلمين فضربت على قطر قرطبة، ومال جل شوكتهم على جهة إشبيلية فتهرجت أقطارها وأقلعت بسائطها وأغوارها، ووصلوا إلى قرى الوادي واكتسحوا ما اتصل بتلك البوادي، وأسرع الرعاة إلى إشبيلية يستصرون بالغوث، فخرج جميع عسكر إشبيلية من غير أهبة وبادروا إلى مُصادمة العدو وقد تراءى الجمعان من غير تعبٍ تحفظ نظامهم، ولا أهبة ترتب خواصهم وعوامهم، وقد انتشروا كالسائمة بتلك البسائط والفُحوص، واختلط منهم العموم بالخصوص، ولم يتذكروا فضل المقاتلين في سبيل الله كأنهم ببيان مرصوص.

(١) الكامل لابن الأثير ٢/ ٥٧-٥٨.

(٢) ينظر الهامش في الصفحة السابقة.

(٣) هنا جاءت على الوجه.

(٤) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٥) الروض المعطار ٢٠٢.

ولمّا رأى العدو أمرهم بددًا، وأنّهم لم يملكوا من غيهم رشدًا، أضربوا عمّا حصل بأيديهم من غنائمهم ومواشيهم وصعدوا على ربوة أشرفوا منها على عورات المسلمين، وعلموا المتقدمين منهم والمتأخرين، فأخذوا عزّمهم ولبسوا لأمتهم على ما كان من ضعف عددهم، وبُعد مددهم، وانصبّوا على نشرهم كقطعة ليل، أو كجلمود حطّه السيل من عل، ووالوا عليهم الكرّ والإقدام، وأشرعوا فيهم السنان والحسام، فتخاذلت جموع الناس أجمعين وولّوا للحين منهزمين، وأوى بعض الفلّ إلى دفء حصن المنار، فخرج عليهم صغار الولدان وعقائل النسوان، يضربون في وجوههم بكلّ عار، ويثلبونهم بقيح الفرار، وقد كان حضرها أعيان الموحّدين، ووجوه الأجناد الأندلسيين، واستولى العدو على من ضمّه المعتزك من أسير وقتيل، وكثير من السلب وقليل، وانقلب بغنيمة باردة، وفائدة يا لها عندهم فائدة.

ووصلت سرية المغيرة إلى حريم البحائر بشرف إشبيلية، وخرج السيّد أبو حفص صاحب إشبيلية في جملة خيل فلم يجاوز سور باب الفرج، وخيل العدو مع حيطان البحائر يُدلّون دلال الآمنين، ويعبثون كما يشتهون، فعادت الأندلس في تهاوش واختلاط، والناس من الشدائد والضيقة في مثل سم الخياط.

وكان نزول ابن الرنك اللعين على شلب في ربيع الآخر من السنة المؤرخة، وحاصرها بقيّة ربيع الآخر ومُجَادَى الأولى والآخرة وتسعة عشر يومًا من رجب، ودخلها يوم الاثنين الموفى عشرين منه.

وفي مُجَادَى الأولى من السنة: خرج أذفونش ملك قشتالة إلى أمّ غزالة^(١)، فنازلها وخَلَّتْ قبل وصوله إليها. وفي أوائل مُجَادَى الآخرة ألقع عنها ونزل ربيّنة ودخلها عنوة وقتل فيها كلّ من اعترضه وأسر الباقي وسبى كلّ من كان بها، وتمادى إلى قلعة جابر إلى حصن شلير^(٢) وانصرف إلى طليطلة، وذلك في مُجَادَى الآخرة من السنة، فأقلق المنصور ما وصله من هذه الأنباء، وانحفز في الحركة لدفع هذه الأدواء.

(١) معجم البلدان ١/ ٢٥٤ والضبط منه.

(٢) معجم البلدان ٣/ ٣٦٠ والضبط منه.

ذكر حركة المنصور الأولى إلى الأندلس من حركاته

وما ظهر فيها من قدرته وغلبته

كان خروجه من مراكش في الرابع عشر من شهر ذي الحجة من السنة المؤرخة،
فأنفذ المخابرات إلى إشبيلية وإلى سائر الجهات، فتضمن التيسير باستقبال جيوش
تلك البلاد وانحفازاها لنصر أهلها على عدوهم، وكشف ما هم فيه من الأوصاب
الشداد، وتمادى السير إلى رباط الفتح، فتلوّم به نحو الأربعين يوماً حتى استوفت
الحشود، وكملت أعداد القبائل والجنود، وتمّ في كلّ جهة من البلاد النظر المحمود.
وفي سنة ستّ وثمانين وخمس مئة: تحرّك المنصور من رباط الفتح في أواخر
محرم، وتمادى السير إلى قصر مصمودة، وجدّد منها المخابرات إلى إشبيلية
تتضمن قربه الميمون إليهم، ووفوده في أقرب وقت عليهم، وفي أثناء هذا بدّر
من بواكر الفتوحات تعكيس أجفان الروم فقتل منهم خلق وأسر آخرون فهنيئ
بذلك المنصور، وامتدحه الشعراء، فمنهم ابن مجبّر، فإنه قال من قصيدة طويلة
أولها [من الطويل]:

دلائل فتح كان يذخرها الدهر	فلما أردت الغزو أبرزها النصر
فها هي منذ جدت ركابك تنبري	سراعاً فمن أفراحها الشفع والوتر
فدونكها منسوقة فلشدّ ما	تسابق فيها نحوك البر والبحر
هو الفتح يا مولاي ما فيه مريّة	ولا ليليالي في تعذّره عُذر

ومنها [من الطويل]:

أفي الصبح شكّ إنه لمصبح	وقد غاضت الظلماء وانفجر الفجر
أتك أسارى الروم وهي أقلها	فمن فضلات القتل ينتجع الأسر
وما كان قبل اليوم سهلاً مرأها	ولكن علا الإسلام ما تضع الكفر
وما زلت تدنو كل يوم مسافة	إليهم ويهوي في نفوسهم الذعر

ومنها [من الطويل]:

لقد كان في الأحوال عُسْرُ فكلِّها دنوتَ استمرَّ اليُسْرُ فارتفع العُسْرُ
لعمري لقد سنَّى بك الله غزوةً قد افترَّ عن ثغْرِ السرور لها الثغرُ

ومنها [من الطويل]:

إلى عَزَوَاتٍ من قريب تتابعتُ ففي كلِّ قطرٍ من سحائبها قُطرُ
لقد أيقنتُ هذي الجزيرة أنها سيَجْبُرُها مَنْ لا يُهاضُ له جبرُ
لئن كان ماتَ الأَمْنُ في جنباتها فقُربُ أمير المؤمنين له نُشْرُ

وتربَّص المنصورُ بقصر مصمودةً وقَدَّم بين يديه الجيوشَ للجَواز، فكان ابتداءها في الخامسَ عشرَ من ربيع الآخر من السنة المؤرَّخة. ولَمَّا انحفَزَ الناسُ في جَوازِهِم تحرَّك المنصورُ من قصر المَجاز وركبَ البحرَ ضُحى يوم الأحد الثالث والعشرين لربيع، ورَوَّح بطَريفَ رَيْثِها استنفَذَ الجَواز، ووصلَ بعضُ وفود البلاد المجاورة للبحر للسلام، وضَجُّوا بالتشكِّي بالوُلاة والحُكَّام، ورفعوا فيهم شنيعَ الأَرفاع بما لا تَسعُه شرائعُ الإسلام، فأضربَ المنصورُ عن شنيع ذلك الكلام، وقال: إِنما نبدأُ بَغزوِ المفترِّين والمشغِّين من أطراف الأنام، ثم عَلبه ثِقاه، فأضربَ عَمَّا كان نَواه، وأمرَ بطردِهِم وعصرِهِم تحتَ الوعيد، وإن لم يتوبوا عن أعراض المسلمين فالموتُ أَقربُ لهم من جبل الوريد^(١).

وتحرَّك المنصورُ من طَريف غُرَّة جُمادى الأولى، وتَمادى مَشْيُهُ إلى ظاهرِ أركش، فودَعَ الناسَ منها وركبَ إلى قُرْطُبة نَهجَ السبيل، وعَرَّجَ عن نَظرِ إشبيلية بالرحيل، وأخذَ بتجديد العَزم للحرب وتقديم الحَزم، وأمرَ السَيِّدَ يعقوبَ ابنَ العَمِّ الأكبرَ أبي حفص بالحركة من إشبيلية بعساكرِهِ من أَجنادِها وأَعرابِها وما انضَوَى من أَهل البوادي من غَرناطَة والحُشودِ والمَطوَّعة إلى آخِرِها وَمَن تأخَّرَ من صُنْهاجَة وهسكورة من كلِّ الجهات والمجاهدين من سائرِ الأَشتات. فتحرَّك هذا السَيِّدُ وجميعُ مَنْ ذَكَرَ من

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/٣٢٩.

هذه العساكر بعد انتظام السابق منهم بالآخر غرة جمادى الأولى، وتمادى مشيهم حتى نزلوا بظاهر شلب.

وفي آخر الشهر المذكور وصلت الأساطيل إليهم فالتأم غزاة الرجال: البرية والبحرية، ونصبت المجانيق والآلات الحربية، ودنا من السور الحماة والكهامة، واضطروهم من التضيق، إلى ما أغصهم بالرقيق، وبقيت تحت الحصار ينشر عليها القتال تارة ويطوي أخرى.

ولما كان وداع الناس من منزل أركش على ما تقدم ذكره وأحصر خبره، تمادى مشي المنصور أمير المؤمنين إلى قرطبة، فنزل بالقصر الذي كان الأخ أبو يحيى تائق في بنائه، ومشى أثناء ذلك للزهاء بنية الاعتبار بآثار القرون الزاهية والأمم السالفة، فأمر بقلع الصورة التي كانت على بابها، وكان من الاتفاق أن هبت ريح عاصف بأصيل ذلك اليوم أثرت في خباء الساقية بعض التأثير وقطعت في طنبه كالقطع اليسير، فأرجف جهال من عوام قرطبة أن ذلك بسبب صورة الزهاء وأنها كانت طلسمًا لِمَا ارتدعها من الأشياء، واتصل ذلك بالمنصور فجعله من علوم أهل قرطبة القديم ومن غبايتهم^(١) وتقليدهم الذميم، وأخذ في مهتمات الجهاد، وما يليق بالحال الحاضرة من التأهب والاجتهاد، فصرف إرسال أذفونش إلى بلادهم، ووجه السيد أبا زكريا ابن أبي حفص إلى إشبيلية بمن تحت نظره من العرب وزناته وأهل تلمسان ومن انضاف إليهم وأوى لديهم وأمره بالتجهز من إشبيلية رفقا ونظرا سديدا للتمكين من الأزواد، وأمره باللاحاق به والاجتماع مع إخوته بعد ما حد له ما حد من الاستعداد. ثم إن المنصور حقق تمييز الجيوش المسترزقة، ومن افترق من الأعداد الواصلة من بر العدو أخذوا باقيهم المسمى بالبركة، وأمر بسوق الرايات وعقدها، وخرج من حينه والنصر والسعد محالفان له في حالتي حركته وسكونه، فقال أبو بكر ابن مجبر من قصيدة [من البسيط]:

بُشْرَايَ هَذَا لَوَاءٌ قَلَّ مَا عَقِدَا إِلَّا وَمَدَّ لَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ يَدَا
وَأَقْبَلَ النَّصْرُ لَا يَعْدُو مَنَاحِيَهُ فَحَيْثُ مَا قَصَدَتْ أَرْبَابُهُ قَصَدَا

(١) في م: «غبايتهم» ولا معنى لها.

واستقبلته تباشيرُ الفتوح فقد كادت تكونُ على أكنافه كبدا
وقربَ الفلكِ الدَّوَارُ بُغِيَّتُهُ فلو تناول بعضُ الشُّهْبِ ما بَعُدا
إمامُ جيشٍ أرادَ اللهُ نُصْرَتُهُ فأرْسَلَ المَلَأَ الأعلى له مددا
إني لأحْكُمُ بالنَّصرِ العزيزِ له وإن سكتُ فإنَّ الوحيَ قد شَهِدا

فوصلَ السيِّدُ أبو زكريَّا إلى إشبيلية وتلوَّم بها رَيْثُها تَمَمَّ أشغاله وخفف أثقاله
ورتب أدلته ورجاله، وتحرك منها فجَدَّ سيره حتى لحق بالمنصور حيث أمر، وذلك
بوادي تاجه وبه تلاقت العساكر والأعداد، وتكاملت الحشود والأمداد.

اختصارُ الخبر عن فتح طرُش^(١) ومُحاصرة

حصن المنار والإقلاع عنه

وتحرك المنصورُ من الوادي المذكور قاصداً إلى حصن طرُش، فنشر عليه مُمَضُّ
القتال، واشتدَّ على مَنْ فيها مضايقةُ النَّكال، وغلب عليهم انقطاعُ الآمال، ولما رأوا
أنفسهم في قبضة الهلاك وأن قيامَ المسلمين عنهم عَيْنُ المُحال، ألقوا بيد الاستسلام
وبَسَطُوا رغبَتَهم في الأمان، وأن يَنْفَسَ عنهم رَيْثُها يَصِلُونَ إلى طاعيتهم ابن الرنك في
الاستئذان، فتوجَّه قائدُهم مع صُحبة وجوه العرب فوصلَهم إلى مَأْمَنِهِم.

ورحل المنصورُ بعد فتح هذا الحصن إلى حصن طمان، فسلك فيه ذلك المسلك
من الحصار، وأخذته الجيوش بالتضييق عليه من كلِّ النواحي والأقطار، ووافَت
رسلُ ابن الرنك راغباً في السَّلم وعَقْدِهِ، ومتلطفاً فيما تعجَّله من رَبْطِهِ وشدِّه، فأمرَ
المنصورُ بترويح القتال عن الحصن المذكور، رَيْثُها ينعقدُ هذا السَّلمُ وتنضبطُ تلك
الأمور، وكان المنصورُ عَزَمَ في هذه الغزاة أن يدوِّخ بلادَ ابن الرنك ويتهيأ فيها إلى
أقطار قلمرية فُوعك، وتمادى وَعَكُّه، ورأى جيشه قد أثر فيه الغلاء ونَهَكَه، فأخذ
إلى إشبيلية قافلاً، وكتبَ إلى جميع مَنْ كان بالعساكر بِشَلْبِ بالإقلاع منها عاجلاً،
وتمادى المشي والأسعارُ ترتفع، والموادُّ من جهة البلاد تنقطع، حتى كان الوصولُ إلى

(١) معجم البلدان ٢٩/٤ والضبط منه.

إشبيلية في الحادي عشر لجُمادى الآخرة من السنة. وفي يوم هذا الوصول نَزَلَ على إشبيلية في غاية الحُفْل، وركبَ السُّودانُ على النُّجُبِ البيضِ بأيديهم الدَّرَقُ وعلى رؤوسهم طَرايِرُ الطيلقان الشديد الحُمرة وصدورُ النُّجُبِ منظومةٌ بجلالِجِلَ على شكل السَّفَرَجَل، والأغرازُ بضروب الحُلَل، فظَهَرَ مَرَأَى تَحَارُّ فِيهِ الأبصار وتذهُلُ الخواطر والأفكار، والمُلْكُ لله الواحد القَهَّار. وكانت مدَّةُ هذه الغيَّة ثلاثة وأربعين يومًا، ووصل المنصورُ على أتمِّ الأمور.

ذكرُ وصول المنصور لإشبيلية وما طرَأ من الأنباء مدَّة هذا الاستقرار

ومشَى فيها من الحوادث والأخبار

ولما استقرَّ المنصورُ بهذا القرار، وخرج من ذلك الوَعَك خروجَ البدر من السَّرار، أخذ في الفحص عن شؤونِ الناس وأحوالهم وكيفية كونهم مع ولاتهم وعُمالهم، فاستبرئت السُّجون، وقُتِلَ كُلُّ مستوجبِ القتل فيها منذ سنين، بعدَ عَرْضِ أزميتهم على أمير المؤمنين، واشتدَّ في قطع المَنَابر والمُلهين، وأمرَ بالقبض على ابن سنان لِمَا رُفِعَ عنه في وَقْعَةِ المنار أنه أولُ مَنْ بادَرَ بالفِرار، وأنَّ الحَوَر حَمَلَهُ على النزول عن فَرَسِهِ واللياذ بالأوعار، والتعلُّق بأهدابِ الأشجار، وأعوذُ بالله من التماؤ في أوقات الإدبار، فأمرَ المنصورُ إذ ذاك باستصفاءِ أحواله وضمِّ أمواله. وفي هذه السنة ظهر الغوي الشقي علي الجزيري.

ذكرُ قيام الثائر الجزيري

وصل خبره وأمره إلى المنصور بإشبيلية في رَجَب، بظهوره بحضرة مَرَّاكُش وانتشارِ الإرجاف به ببرِّ العدوَّة، وكان هذا اللَّعين في أوليَّته يتعلَّق بأذيال الطَّلَب ويلهَجُ منه بحِفْظِ المتشابهات وما يؤوِّلُ منه إلى الروايات، فأمرَ الخليفة بطرده، فمشَى ملفوظًا يتغرَّب ويتجوَّل في الأقطار، ويسعى في الفساد بالتكتم والاستتار، ويلتمسُ أبدًا جُهالاً من العوامِّ يُحَادِثُهُمْ وَيُطَابِقُهُمْ وَيُلايِسُهُمْ وَيُرَافِقُهُمْ، إلى أنَّ ظَهَرَ بِمَرَّاكُش الخبيث، وشنَّعت عنه الأحاديث، فأمرَ السيِّد أبو الحسن بن أبي حفص بالبحث عليه في أقطار المدينة، فاخْتَفَى وخرج فارًّا بنفسه، لا يَعْرِفُ يومه من أمسه، ثمَّ ظَهَرَ أيضًا

بمدينة فاس، وامْتَرَج بأوباشٍ مِنَ الناس، فَسَقَطَ الخَبْرُ عِنْدَ واليها ابن وَمَازِير فَلَفَّهْم
بَغْبَارِهِمْ وَقَبَضَ عَلَى مَنْ عَثَرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ عِنْدَ انْتِشَارِ أَخْبَارِهِمْ فَاسْتَأْصَلَهُمْ قَتْلًا وَنَفْيًا،
وَأَفْلَتَ اللَّعِينُ وَلَاذَ بَأَوْعَارِ تِلْكَ السَّوَا حِل، وَانْغَمَسَ فِيهَا انْغِمَاسَ اللَّصِّ الْخَاتِل، ثُمَّ
تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ بِأَنَّهُ جَازَ إِلَى الْأَنْدَلُس، فَأَمَرَ الْمَنْصُورُ بِالْكَتْبِ إِلَى جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِصِفَتِهِ
وَأَمَارَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، وَاسْتَقَرَّتِ الْكَتُبُ بِيَدِ الْحُكَّامِ وَالْعُمَلِ، وَالتَّصَرَّفِينَ فِي الْأَشْغَالِ،
وَقَدْ كَانَ ذِكْرُ عَنْهُ أَنَّهُ يَتَصَوَّرُ فِي صُورَةِ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ مِثْلَ الْحَمِيرِ وَالْكَلابِ
وَالسَّنَانِيرِ، وَأُلْقِيَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ مَا نُسِيَ بِهِ أَخْبَارُ أَبِي دُلَامَةِ الْكَذَّابِ
فَصَحَّ عِنْدَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْعَوَامِّ تَصْحِيحُ ذَلِكَ الْكَلَامِ، وَكَانُوا مَتَى رَأَوْا سِنُورًا مُنْكَرًا
فِي مَنَازِلِهِمْ لَمْ يَشْكُوهَا أَنَّهُ الْجَزِيرِيُّ طَالِبًا لِلَاخْتِفَاءِ وَالْفِرَارِ، فَيَتَلَقَّوْنَ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ
الَّذِي يَرُونَهُ حَيْثُ كَانَ بِالْإِنْكَارِ.

وَتَمَادَى النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا إِلَى أَنْ قِيلَ: عَثَرَ عَلَيْهِ بِمَالِقَةَ وَعَلَى أَوْبَاشٍ مِنْ
سِفْلَةِ الْأَسْوَاقِ فَمُلِئَتْ مِنْهُمْ الشُّجُونُ، وَفِيهِمْ أَخُو الْفَاجِرِ الْمَلْعُونِ، وَأَمَرَ الْمَنْصُورُ
بَسَوْقِهِمْ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ، فَذَكَرَ أَنَّ هَذَا الثَّائِرَ كَانَ فِي جُمْلَةِ الْمَسْجُونِينَ، وَأَنَّ الْقَاضِيَّ
الْمَعْرُوفَ بِالْوَانِي أَطْلَقَهُ بِرِشْوَةِ أَوْلَئِكَ الْمَفْسِدِينَ، فَقَتَلَ جَمِيعَهُمْ وَكَانُوا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ
رَجُلًا، وَأَمَرَ عَلَى الْقَاضِي فَضْرَبَ بِالسَّيَاطِ عَلَى عِدَدِ الدَّنَائِيرِ الَّتِي تَصَيَّرَتْ مِنْ قَبْلُ
الْعَيْنِ إِلَيْهِ فَهَلَكَ الْمَذْكُورُ قَبْلَ إِكْمَالِهَا وَلِحَقِّ بِالْآخِرَةِ وَأَعْمَالِهَا، وَقُتِلَ بِسَبَبِ هَذَا الْعَيْنِ
خَلُقَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ الْبَحْثُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَجَعَلَ الرُّقْبَاءُ يَتَصَفَّحُونَ
الصِّفَاتِ بِالْعِيَانِ، حَتَّى قُبِضَ عَلَيْهِ بِنَظَرِ مُرْسِيَّةٍ وَسِيقَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ فَأُخْرِجَ إِلَى مَوْضِعِ
جُلُوسِ الْمُوَحِّدِينَ وَطِيفَ بِهِ عَلَى جُمُوعِ الْحَاضِرِينَ، فَأَكْذَبَ نَفْسَهُ فِيهَا نُسَبَ إِلَيْهِ وَفِيهَا
كَانَ يَدَّعِي وَيُحْضُّ عَلَيْهِ، فَصَحَّ خِذْلَانَهُ وَتَمَّ حِرْمَانَهُ، ثُمَّ عُدَّ بَعْدَ هَذَا وَصُلِبَ
وَقُطِعَ بِهِ أَرْجَافُ الْمَفْسِدِينَ، وَامْتَدَّحَهُ الشُّعْرَاءُ فَقَالَ الْجُرَّاءِيُّ يَمْدَحُ الْمَنْصُورَ وَيَذْكُرُ
الثَّائِرَ الْمَذْكُورَ الْمَعْرُوفَ بِالْجَزِيرِيِّ مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ [مِنْ الْبَسِيطِ]:

قَضَى لَكَ اللَّهُ بِالتَّأْيِيدِ وَالظَّفَرِ وَبِالسَّعَادَةِ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدْرِ
آثَرَتْ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ الْمَسِيرِ عَلَى طِيبِ الْمَقَامِ وَبِعَتْ النُّومَ بِالسَّهْرِ

مُظَفَّرٌ مَا لَمَغُرورِ يَطالِبُهُ
جَدَّ الْجَزِيرِيِّ فِي إِتْلَافِ مُهْجَتِهِ
نَارٌ مِنَ الْفِتْنَةِ الْعَمِيَاءِ أَطْفَأَهَا
مَا زَالَ إِبْلِيسُ فِي الْأَقْطَارِ يوقِدُهَا
زَادَ الشَّقِيَّ عَلَى الْخُفَّاشِ مُشَبِّهَهُ
جَارَى إِلَى سَقَرِ أَصْحَابِهِ فَهَوَّوْا
إِنَّ الَّذِي اتَّخَذَ الْأَهْوَاءَ آلِهَةً
وَالْوَعْظُ فِي النَّاسِ مَقْبُولٌ وَمَطْرَحٌ
وَقَالَ أَيْضًا [مِنَ الْبَسِيطِ]:

فِي الْأَرْضِ مِنْ مَلْجَأٍ عَنْهُ وَلَا وَزَرَ
حَتَّى تَوَرَّطَ فِي وَرْدٍ بِلَا صَدْرِ
سَعَدُ الْإِمَامِ وَحْدُ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
وَتَرْتَمِي مِنْ بَرَارِ الْخَلْقِ بِالشَّرِّ
ضَعْفَ الْبَصِيرَةِ إِذَا سَاوَاهُ فِي الْبَصْرِ
فِيهَا سِرَاعًا وَأَوْفَاهُمْ عَلَى الْأَثَرِ
عَلَى الضَّلَالِ مُصَرٌّ غَيْرُ مُزْدَجِرٍ
كَالْخَطِّ فِي الْمَاءِ أَوْ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ

إِنْ نَدَّ خَوْفًا فَنَفِي أَجْبُولَةٍ يَقَعُ
فَمَا لَهُ فِي سَوَى التَّسْلِيمِ مَتَفَعُ
وَلَا بَغِيرِ انْقِيَادٍ مِنْهُ تَمْتَنَعُ
فَأَحْجَمُوا مِنْ وَرَاءِ الدَّرْبِ وَانْقَمَعُوا
تَسْقِيهِمْ جُرْعًا مِنْ بَعْدِهَا جُرْعُ
وَكُلُّ مَمْتَنَعٍ طَوْعًا لَكُمْ تَبَعُ
فَتَلْتَقِي فِي نَوَاحِيهِ وَتَجْتَمِعُ
فَمَا تَحْسُنُهُ الْأَصْحَابُ وَالشَّيْعُ
يُبْدِي وَمَنْ فَهَمَهُ عِنْدَ الْوَرَى يَضْعُ
مَا حِيلَتِي وَبَلَوْغُ النِّجْمِ مَمْتَنَعُ

مَا فِي الْحَيَاةِ لِمَنْ نَاوَأَكُمْ طَمَعُ
عَنْ كُلِّ قَوْسٍ ضُرُوفُ الدَّهْرِ تَرْشُقُهُ
مَا لِلْعُدَاةِ بِمَا أَعْدَدَتْهُ قَبْلُ
غَزَاهُمْ الرَّعْبُ فِي جَيْشٍ بِلَا لَجَبٍ
دَارَتْ عَلَيْهِمْ كَوْوُسُ الذِّلِّ مُتْرَعَةً
كُلُّ الْمَالِكِ مُلْكٌ خَالِصٌ لَكُمْ
وَالْبَحْرُ تَعْتَمِدُ الْأَنْهَارُ مَوْضِعَهُ
وَالشَّعْرُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ حَسَنًا
مَنْ رَامَ وَصَفَكَ مُسْتَوْفٍ فَغَفَلْتُهُ
أَضَحَتْ عَلَاكَ مَكَانَ النِّجْمِ عَنْ مَدْحِي

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: وَصَلَ ابْنُ مُنْقِذِ رُسُولًا عَنْ صَاحِبِ الشَّامِ وَالْدِّيَّارِ الْمَصْرِيَّةِ
يُوسُفَ بْنِ أَيُوبَ الْمَلَقَّبِ بِصَلَاحِ الدِّينِ، وَكَانَ وَصُولُهُ أَوَّلًا إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ.

وفي رَجَبِ الْفَرْد: وَصَلَ إِلَى الْمَنْصُورِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَاطَبَاتُ السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ مِنْ
إِفْرِيقِيَّةَ وَالسَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ مِنْ بَجَايَةِ بَوْصُولِ الْمَذْكُورِ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ، وَمَا قَابَلُوهُ بِهِ
مِنَ السَّيِّئَةِ وَتَوَطُّةِ الْمِهَادِ، وَالتَّعْرِيفِ مِنْهُمْ بِكِتْمَانِهِ لِسَبَبِ وَصُولِهِ.

وَلَمَّا جَاءَ فِيهِ مِنْ أَشْغَالِهِ، فَرُوجَعَ السَّادَاتُ بِالشُّكْرِ عَلَى مَا قَابَلُوهُ بِهِ مِنْ
الْإِكْرَامِ، وَأَنْ لَا يُبْحَثَ عَنْهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْاسْتِفْهَامِ، ثُمَّ قَدِّمَتْ الْمُخَاطَبَاتُ إِلَى مَنْ بِالْمَغْرِبِ
مِنَ الْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ، بِالتَّوَسُّعِ لَهُ فِي نَزْلِهِ وَالْإِحْتِفَالِ بِهِ، وَأَنْ يَسْتَقَرَّ بِمَدِينَةِ فَاسٍ، فَأَقَامَ بِهَا
إِلَى أَنْ انْقَضَتْ حَرَكَةُ الْمَنْصُورِ، فَاسْتَدْعَى الرَّسُولَ الْمَذْكُورَ، فَوَصَلَ إِلَيْهِ، وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ،
وَحَلَا بِهِ عَلَى اخْتِصَاصٍ وَانْفِرَادٍ، وَأَمَرَ قَبْلَ دُخُولِهِ بِقَصْدِهِ إِلَى الْمَرَادِ، فَتَلَقَّى الْجَوَابَ مِنْ
الْمَنْصُورِ مَجْمَلًا، وَأُحِيلَ عَلَى مَا يَوْضَحُهُ لَهُ الْوُزَرَاءُ مَفْسَّرًا وَمَكْمَلًا، وَلَمَّا دَنَا إِيَابُهُ،
وَحَصَلَ عَلَى مَا تَمَكَّنَ جَوَابُهُ، أُفِيضَ عَلَيْهِ مِنَ النَّوَالِ الْغَمْرِ وَالْإِحْسَانِ، وَضُرُوبِ مِنَ
النَّعْمِ السَّابِغَةِ وَالْإِمْتِنَانِ، وَقُوِلَتْ هَدَايَاهُ مِنَ الْعَوَظِ فِي نَفَاسَةِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَثْنَانِ،
وَانْصَرَفَ إِلَى بِلَادِهِ وَقَدْ رَأَى وَوَعَى فِي طَرِيقِهِ وَفِي مَدَّةِ إِقَامَتِهِ مَا عَلِمَ أَنَّ بِالْمَغْرِبِ
مُلُوكَ الْإِسْلَامِ وَمَقَرَّ الْإِيمَانِ.

وفي سنة سبعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: تَأَهَّبَ الْمَنْصُورُ لِحَرَكَةِ شِلْبٍ، وَعَزَمَ عَلَى
غَزْوِ بِلَادِ الْغَرْبِ^(١)، ثُمَّ جَدَّدَ الْمَنْصُورُ عَزْمَهُ وَقَدَّمَ حَزْمَهُ بَعْدَمَا سَقَطَتْ جِهْرَةُ الْمَصِيفِ
وَتَمَكَّنَ فَصْلُ الْخَرِيفِ، شَرَعَ فِي التَّأَهُّبِ لِلْحَرَكَاتِ وَالنَّظَرِ فِي الْآلَاتِ، وَانْضَمَّتْ مَا
تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنَازِلُ الْبِلَادِ، مِنَ الْعُدَدِ الْحَرَبِيَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَلَمَّا اسْتَوْفَى بِالْعَمَلِ تَكْمِلَةَ
الْآلَاتِ، وَانْضَمَّتِ الْحَشُودُ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ، تَحَرَّكَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ غُرَّةَ رَبِيعِ الْآخِرِ عَلَى
حَالَةٍ مِنَ الْاسْتِقْدَارِ، وَهَيْئَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الْاسْتِظْهَارِ، وَتَرْتِيبٍ رَاقٍ لَمْ يَدُونْ مِثْلُهُ فِي
عَيُونِ الْأَخْبَارِ، آيَةً لِلْأَفْكَارِ وَنُزْهَةً لِلْأَبْصَارِ.

وَتَمَادَى الْمَشْيُ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ عَلَى الْإِحْكَامِ الْعَجِيبِ، وَالضَّبْطِ لِأَحْوَالِ الْعَسَاكِرِ
وَحُسْنِ النِّظَامِ وَالتَّرْتِيبِ، حَتَّى كَانَ الْخُلُولُ عَلَى قَصْرِ أَبِي دَانِسٍ وَتَقَسَّمَتِ الْحَشُودُ
وَتَرْتَبَّتِ الْجُنُودُ، وَأَهْلُ الْخِدْمَةِ مِنَ الْعَبِيدِ يَرْدُمُونَ خَنْدَقَ الْمَدِينَةِ مِنْ جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ،

(١) ينظر الروض المعطار ٣٤٣، والاستقصا ١٨٤/٢.

وطوائف من المقاتلة الأنجاد قد زحفوا إلى السور يستعذبون طعم المنايا، ويبيعون من الله أنفسهم بالرزايا.

ولما عاين المنصور صبر المسلمين على القتال، وقد كثرت فيهم الجراحات بالحجارة والنبال، رَوَّحَ القتالَ ثلاثة أيام، وقصد تجديد الفكر والاعتزام، وانتظار ما كان أعدّه لذلك المقام، إلى أن وصلت الأجفان البحرية بالعدد الحربية، وقد تسابقت لدخول الوادي بتيسير تعجز العقول عن تكييفه، ويُسكَّرُ القديرُ سبحانه على إحكامه وتصريفه، فبُهِتَ الذي كفر، وسُقِطَ في أيدي المشركين من كلِّ مَنْ ألقى السمع وأبصر، فنُصِبَت في يوم وليلة أربعة عشر منجنيقًا، إذ كانت معدّة بعد الفراغ من عملها، فأحدق منها بالبلد منايا زاحفة وصواعق قاصفة.

ولما كان الخامس عشر لجمادى الأولى، أمر الجيش بأسره بأخذ الأسلحة ونشر القتال عليهم من كل الجهات، ورَمَى المجانيق مرة واحدة على مرّ الأوقات، فاشتد القتال، وتضاعف عليهم النكال، ولما رأوا أنفسهم في لهوات المنون، وأنهم مع ما لديهم من أهل ومال في بحر الفوات مغرقون، تطارحوا كالفراش على الأسوار، ورضوا بالفرار من الرّمضاء إلى النار، ونزلوا على الحكم مُستسلمين لائذين بما للخليفة من الإجمال والإفضال، وهبطوا من البلد صاغرين، وانسلخوا عنه أجمعين، فأودعوا بطون الجوار المنشآت، وضجكت لمناجاتهم كتبُ البشارات، ومُهلوا إلى إشبيلية فكانوا عنوان الفتوحات.

وشرع المنصور في النظر في أمور الحصن وأحواله، وصلاح ما ظهر من اختلاله، وثقله بأنجاد رجاله، ورسم لسكانه رسومًا: مُشَاهرةً ومُساهةً في مخازن إشبيلية وسبته على الاستمرار والدوام، والتيسير والتّمام، وقَدَّمَ على الحصن المذكور ابن وزير.

ثم رحل عنه ونزل حصن قلالة^(١)، وهو من القلاع السامية الارتفاع، الغربية الارتفاع والانتفاع، لا يتمكّن لمنازلته جيش، ولا يحسُنُ بغيره بمجاورته عيش، وقد ملأه الكافر ابن الرّنك بأنجاد رجاله وكُماة أبطاله، ولما رأوا من جنود الله ما لا

(١) في الروض المعطار ٣٤٣: «بلالة» Palmella.

قَبْلَ لَهِم بِهِ أَلْقُوا بِيدِ الْاِسْتِسْلَامِ صَاغِرِينَ، وَأَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْ جَفْنِ الْحَصَنِ مَجْرَدِينَ، فَأَسْعَفَهُمُ الْمَنْصُورُ وَقَبْلَ رَغْبَتِهِمْ لِمَكَانِ انْقِيَادِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَسُمِّ الرُّعْبُ قَدْ تَغْلَغَلَ صَمِيمٌ أَكْبَادِهِمْ، وَأَتَى النَّهْبُ عَلَى مَا كَانَ فِي الْحَصَنِ مِنْ أَثَاثٍ وَأَقْوَاتٍ وَأَسْلِحَةٍ وَآلَاتٍ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَنْصُورُ بِهِدْمِهِ، وَإِزَالَةَ عَيْنِهِ وَرَسْمِهِ، فَصَبَّحَهُ مِنَ الْجَيْشِ قِبَائِلُ الْعَبِيدِ، سُودَاءُ مُقْفَرَةٍ كَظْهَرِ الْبَيْدِ، يُنْكِرُهَا الْعِيَانُ، وَتَعْمُرُهَا الْغُرَبَانُ. ثُمَّ اسْتَمَرَ الْقَصْدُ إِلَى حَصَنِ الْمَعْدِنِ فَفَتَحَهُ وَأَمَرَ بِهِدْمِهِ وَتَعْفِيَةَ رَسْمِهِ، فَاسْتَوْصَلَ بِالتَّخْرِيبِ وَالذَّمَارِ، وَمَضَتْ بِهِجَتُهُ وَرَوْنَقُهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

ثُمَّ كَانَ الْإِقْلَاعُ وَالْمَسِيرُ، وَاسْتِخَارَةُ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، إِلَى مَدِينَةِ شَلْبِ، فَكَانَ الْوَصُولُ إِلَيْهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ الثَّانِي مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، فَأَحْدَقَتْ الْمَحَلَاتُ بِأَكْنَافِهَا، وَأَخَذَتْ بِفَرْجِهَا وَأَطْرَافِهَا، حَتَّى لَا يَتَنَفَّسُونَ إِلَّا مِنَ الْهَوَاءِ، وَلَا يَصُلُّ إِلَيْهِمْ مِنْ مِلَّتِهِمْ طَارِقٌ مِنَ الْأَنْبَاءِ، فَسُوِّتَ خَنَادِقُهُمْ بِالرُّدُومِ، وَقُرِعَتْ أَسْوَارُهُمْ بِالرُّجُومِ، وَالبَلَاءُ يَطْرُقُهُمْ بِالصَّوَاغِقِ سَحَابُهُ، وَيُرَاوِحُهُمْ وَيُغَادِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَنِيَا عَذَابُهُ.

وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ سَهَا الْكَفَّارُ مَعَ الصَّبَاحِ عَنْ الْاِحْتِرَاسِ وَالْاِنْهَالِ، وَاطْمَأَنَّنُوا أَنَّ ذَلِكَ الْوَقْتُ لَيْسَ مِنْ أَوْقَاتِ الْقِتَالِ، وَالْمُسْلِمُونَ يَرْقُبُونَ خُدْعَ الْحَرْبِ ارْتِقَابَ هَلَالِ شَوَّالٍ، فَتَحَسَّسَ بِغَفْلَتِهِمْ وَبِمَا كَانُوا فِيهِ مِنْ سَهْوِهِمْ وَتَوَمَّتِهِمْ دَلِيلٌ مِنَ الْأَدْلَاءِ، فَتَسَلَّلَ حَتَّى وَثَبَ فِي ثَلَمِ السُّورِ، وَشَدَّ ظَهْرَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الذُّكُورِ، وَرَفَعُوا بِهِ الرِّيَاطَ، وَصُكَّتِ الطُّبُولُ وَمَلَأَ الْجَوَّ ضَجِيجُ التَّكْبِيرِ وَالصَّيْحَاتِ، فَلَمْ يَسْتَيْقِظِ الْكَافِرُونَ إِلَّا وَهُمْ فِي قَبْضَةِ الْمَنُونِ بَيْنَ مَطْعُونٍ وَمَضْرُوبٍ، وَلَا وَقَفُوا إِلَّا فِي نَجِيعٍ مِنْ دِمَائِهِمْ مَصْبُوبٍ، فَبَادَرُوا يُنَادُونَ بِشِعَارِ الْأَمَانِ، فَضُرِبَ لَهُمْ أَجْلُ عَشْرَةِ أَيَّامٍ، فَانْقَلَبُوا وَقَدْ أَجَازَ لَهُمْ طَاغِيَتُهُمْ طَلَبَ الْأَمَانِ، وَشَكَرَ لَهُمْ ثُبُوتَهُمْ عَلَى عَظِيمِ الْامْتِحَانِ، وَخَرَجُوا مِنْ قَصْبَةِ شَلْبِ يَوْمَ الْخَمِيسِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ لَجُمَادَى الْآخِرَةِ، وَرَحَلَ الْمَنْصُورُ عَنْ شَلْبِ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ، وَوَصَلَ إِشْبِيلِيَّةَ فِي الرَّابِعِ لِرَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ، فَاَنْقَضَتْ هَذِهِ الْغَزَاةُ الْكَرِيمَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ.

ذكر حركة المنصور من الأندلس إلى مراكش بعد انقضاء غزاته

على مرغوبه وما أظهره الله تعالى من نصره والظفر بمطلوبه

ولما أكمل المنصور غزاته المشهورة وفتح ما فتح من بلاد ابن الرنك اللعين وألقت له ملوك الروم بيد الاستسلام، وارتبطت مهادنتهم على عز كلمة الإسلام، ورُتبت أشغال البلاد، وسدت الثغور بثقات القواد ووجوه الأجناد، وقدم بعض القرابة في أمهات البلاد، وفوض إليهم النظر فيما يروونه من مصالحها والأخذ في ذلك بالحزم والاجتهاد، واستوفى ذلك على ما يمكن من النظر السديد في بقية رجب الفرد وشعبان المكرم من السنة، ووعد الناس بالمؤادة ببُحيرة الوادي أول يوم من رمضان، وعند كمال مؤادة الناس رحل من إشبيلية، وتماذى المشي إلى البحر، وكان الجواز بنصف الشهر المذكور، واستمر مشيه أياماً إلى حضرته، وبعد وصوله إليها وتمهد استقراره من أوبته أنشده الشعراء، فقال الجراوي [من المقارب]:

إيابُ الإمام حياة الأمم	توالى السورُ به وانتظم
وجاد به الأرض صوبُ الحيا	وجلّى الظلام به بدرٌ تم
فشكراً لخيّل وفلكٍ دنت	بمُستأصل الظلم ماحي الظلم
إذا حلّ في بلدةٍ أمرعت	فطاب جناها وفاح المِشم
وقام بأقطارها عدلُ	وصوبٌ نداءُ مقام الدِّيم
إذا الخطبُ جيّش نحوَ الورى	تصدى له عزْمُه فانهمز
سل الدهر عن بطشه بالعدى	تُجب من وراء الدُّورب العجم
فتوح عظام حباها الزمان	لذي همم دوهمن الهمم
نصحتكم يا ملوك الزمان	نصيحة من ليس بالنتهم
أنيبوا إليه ولو ذوا به	تفوزوا وألقوا إليه السلم

وبعد هذا الوصول إلى الحضرة وعك المنصور الوعك المُفضي إلى طول الدنف، المُشرف به لولا لطف الله على التلّف، فاحتاط بحسن بقيته للمسلمين، ونظر نظر أمثاله

للدُّنْيَا والدِّينِ، فَعَقَدَ الْبَيْعَةَ لِابْنِهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَى مَا رَأَاهُ مِنَ السَّدَادِ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ مَعْرَفًا إِلَى مَنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ الْقَرَابَةِ فِي أُمَمَاتِ الْبِلَادِ، كَالسَّيِّدِ أَبِي زَيْدِ ابْنِ السَّيِّدِ أَبِي حَفْصِ يَافَرْيَقِيَّةَ، وَالسَّيِّدِ أَبِي يَحْيَى ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِإِشْبِيلِيَّةَ، فَبَادَرُوا إِلَى مَا نَدَّبُوا إِلَيْهِ مِنْ تَوْجِيهِ عَهْدِهِمْ، وَدَخَلُوا تَحْتَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ رِبْوَطِهِمْ وَعَقُودِهِمْ، ثُمَّ بَعَثَ عَنْهُ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ فَسَبَقَ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ لِقَرَبِ بِلَادِهِمْ، وَتَأْتِي الْإِسْرَاعُ لَهُمْ عَلَى مُرَادِهِمْ.

وَوَصَلَ صُحْبَةَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ يَوْسُفُ بْنُ الْفَخَّارِ الْيَهُودِيُّ رَسُولًا عَنْ مَلِكِ قَشْتَالَةَ فِي تَثْبِيتِ الْمَهَادَنَةِ، فَأَلْفَوْا الْمَنْصُورَ قَدْ مَنَّ اللَّهُ بِاسْتِقْلَالِهِ، وَتَبَيَّنَ النُّجْحُ مِنْ اسْتِبْلَالِهِ، فَامْتَدَحَهُ الشُّعْرَاءُ بِالتَّهْنِئَةِ عَلَى بُرْئِهِ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ يَمْدَحُهُ وَيَهْنِّئُهُ [مِنْ الْبَسِيطِ]:

بُرِّءُ الْإِمَامِ حَيَاةُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ	عَمَّ السَّرُورُ بِهِ وَانْثَالَتِ النِّعَمُ
شَكَاهُ فَلَا مُقْلَةً إِلَّا أَضَرَّ بِهَا	سُهِدَ وَلَا قَلْبَ إِلَّا شَفَّهَ أَلَمُ
تَجَهَّمَ الدَّهْرُ لَمَّا أَنْ شَكَاهُ وَبَدَا	بُرْئُهُ وَهُوَ طَلَّقَ الْوَجْهَ مَبْتَسِمُ
صَحَّتْ بِصِحَّتِهِ الْأَمَالُ وَانْتَعَشَتْ	وَزَاخَتْ زُخْلًا فِي أَفْقِهِ الْهَمَمُ
أَفَاضَ عَدْلًا عَلَى الدُّنْيَا وَالْبَسَاسِ	نُورًا فَلَمْ يَبْقَ لَا ظُلْمٌ وَلَا ظُلَمُ
وَبَثَّ فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ هُدًى وَنَدًى	فَلَيْسَ يَوْجَدُ لَا جَهْلٌ وَلَا عَدَمُ
لَوْ لَا سِيَاسَتُهُ مَا كَانَ مَلْتَمَسًا	شَعْتُ وَلَا كَانَتْ الْأَسْبَابُ تَنْتَظِمُ
وَاللَّهُ يُخْتَصُّ أَقْوَامًا بِرَحْمَتِهِ	تَجْرِي بِحُكْمَتِهِ الْأَرْزَاقُ وَالْقِسَمُ
حَاطَ إِلَهُهُ لِنَصْرِ الدِّينِ مَهْجَتُهُ	وَعُوفِيَتْ تِلْكَ الْأَخْلَاقُ وَالشَّيْمُ

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: انْفَصَلَتْ الْوُفُودُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ عَنِ الْحَضَرَةِ، وَوَصَلَ السَّيِّدُ أَبُو زَيْدٍ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ بِهَدِيَّةٍ جَلِيلَةٍ فِيهَا التَّحْفُ الْمُلُوكِيَّةُ وَالْأَلْفَافُ السُّلْطَانِيَّةُ، وَصَحْبُهُ مَنْ كَانَ أَمَرَ بِوُفَادَتِهِ مِنْ عَرَبِ سُلَيْمٍ وَرِيَّاحٍ فِي جَمَاعَةٍ وَافِرَةٍ مِنْ أَعْيَانِهِمْ وَوُجُوهِ أَنْجَادِهِمْ، وَلَقِيَ الْجَمِيعُ الْمَنْصُورَ يَوْمَ خُرُوجِهِ مِنْ مَرَّاكُشَ بِمَنْزِلِ تَانَسِيفَتْ^(١)

(١) الروض المعطار ١٢٧.

في الحركة المقصود بها جهة فاس، فمَشَى الجميعُ واستَوْفُوا سلامَهم، وأَمَرَ بَقِيَّةَ النهار بدخولهم مَرَاكُشَ وإكرامهم، ولُيَعَيْنُوا أَمكانَ الخليفة واستبصارهم في قدرة الأمر وعظيم ما بها من الآثار والبناء، فأقاموا بها ثمانية أيام وانحفزوا لِاحِقِينَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وناشرين شُكْرَهُ بما يُبْقِي ذَكَرَهُ مع الدَّهْورِ والسَّنِينَ.

ورحَلَ الخليفةُ إلى رِباط الفتح ومنها إلى مدينة فاس، وفي أثناء الإقامة بفاسَ قَدَّمَ النَظَرَ في أَشغالِ إفريقيةَ وما يَجِبُ لها من الاعتناء والتقديم، وإعمال الفكر في قطع دائها الجسيم، فَصَرَفَ كُلَّ مَنْ وَصَلَ مع السَيِّدِ أَبِي زَيْدٍ مع العَرَبِ: السُّلَيْمِيِّينَ والرَّيَاحِيِّينَ، ورُقِّهوا بضروب الإنعام، وأُدْخِلُوا تحت شروط الالتزام، ووُعِدُوا بمقابلة البرِّ على وفائهم والإكرام، وانقلب هذا الوفدُ الإفريقيُّ على غاية ما أَمَل، وأضعاف ما طَلَبَ وسأل.

ثم تَمَكَّنَتْ صحته، واستقامت راحته، فترَوَّحَ إلى رِباط الفتح فاغْتَبَطَ بِسُكْنَاهِ وعَزَمَ على الانتقال الكُلِّيِّ إليه، فأَمَرَ بتجديد القَصْبَةِ المَسْمُوءَةِ بِالْمَهْدِيَّةِ المُشَبَّهَةِ بِمَهْدِيَّةِ بَنِي عُبَيْدٍ بِإفريقيةَ لِإحاطة البحر بها من جميع جهاتها.

ولما قامت شخوصُ مَبَانِيها وتصورت هيئاتُها، رَتَّبَ قوانينَ أَشغالِها. ورحَلَ إلى مَرَاكُشَ في منتصفِ العام المذكور، وأقام بِمَرَاكُشَ جاريًا على حَزْمِهِ، آخِذًا بِتصميمه وعَزْمِهِ في تثقيف البلاد وتجديد العدد والاستعداد.

وفي هذه المدة: وصلتُ أرسالُ ملوك الرُّومِ في تجديد عهد المسلمين والمُهادنة، فاشتَطُّوا في شروطهم وابتغوا الزيادةَ على عوائدهم في عَقْدِ رُبُوطِهِم، وأنفَ المنصورُ لِقُولِهِم وخلا بأهل العَزْمِ والمَشُورَةِ في أحوالهم، وحَمَّلَهُم على الصَّريمة في العَزْمِ على غزو بلادهم في عُقر دارهم، وأزعَجَ مَنْ كان بِمَرَاكُشَ من أرسال الرُّومِ دونَ غَرَضٍ مَقْضِيٍّ لَهُم، وانحفزَ النَظَرُ في أسبابِ الحركة.

ثم كانت سنة تسع وثمانين وخمس مئة، ففيها: أَمَرَ المنصورُ باختطاطِ منزل بخارج إشبيلية يكونُ برَّسَمِ نزول المجاهدين، ورهبةً في نفوس الكافرين، وأَمَرَ أَنْ يكونَ بتاج الشَّرَفِ لِيَأْخُذَ بِمَخْنَقِ بَحْرِها وَيكونَ كالطالع بين سَحْرِها ونَحْرِها، فقامت في أدنى مدَّةِ أَشْخاصِ الأسوار، ومثلت مواضعُ الدِّيارِ، وكُمِّلَ القصرُ الكبير

بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من البطاح والأنظار، إلى مُتَهَيَّ نَظَرِ الأبصار، وكان بناؤه ذلك كله من أضخم ما عُمِلَ وفوق ما أُمل، والمنصورُ بالحضرة يتشوّف إلى أنبائه ويُوَالِي السُّؤالَ عَمَّا يَتَزَيَّدُ في بنائه، حتَّى بَرَّحَ به الشَّوْقُ إلى التَّشْفِي من صفاته، وإلى معاينة كَيْفِيَةِ الوَضْعِ ببياته، فوجَّه عن الناظر فيه فوصل إليه وعَرَفَه بكيفيته، فزاد شوق المنصور له وسَمَّاه بحصن الفَرَج^(١). ولقد كان قبله بنظر إشبيلية حصنٌ يسمَّى بهذا الاسم، قال صالح بن سيّد: وفي سنة اثنتين وسبعين وأربع مئة جدّد المعتمدُ على الله حصنَ الفَرَجِ.

وفي هذه السنة: كان ظهورُ الأشلِّ ببلد الزّاب، وذلك أنّ هذا الأشلَّ قام ببلد الزّاب ودعا لنفسه واجتمع له شِرْذِمَةٌ من العَرَبِ، وبإيعه كثيرٌ من أهل تلك الجهات والتأَمَّ عليه أشتاتٌ من الناس من الجبال المجاورة له ومن كلّ صنف من الغوغاء والسّفلة والغرباء، فاستعجل أمره واشتعل جُمره، وشاع في تلك البلاد ذكره، وكان يُلقبى لأصحابه بالغايات لزعمه من الحداث وضروب غير معقولة من الهديان، بأنه موعودٌ بأمره، وأنّ الأراجيز نصّت على خبره.

وتوالّت على المنصور أنبأؤه، وكثُر في تلك البلاد ضرّره واعتداؤه، فخطب السيّد أبو زكريّا صاحبُ بجاية بالتوصّل في كل حال إليه، والاحتياط بكلّ وجه يسعُه الإمكانُ عليه، فعقد السيّد عسكرَ بجاية وجهاتها وخرج مُتَحَسِّسًا لأخباره ومتقصّيًا لآثاره.

واجتمعت أخلاطٌ من عَرَبِ تلك الجهات ومُنافقيها، وهمّوا بمحاربة السيّد أبي زكريّا وأكله، وطمِعوا في انتهاب عسكره وفلّه، وهو يُداريهم بحزامته وشهامته، ويصوّل عليهم بنجدته وصرامته، وقلِقَ مَنْ كان معه من الموحّدين والأجناد، فتعب من التوغّل في تلك الصّحارى والبلاد، ودسّ السيّد أثناء ذلك عيونًا يتجسّسون أخبارَ الأشلِّ المذكور ومكانَ استقراره، ومن استند من أنجاد القبائل في جواره، ففترّقوا في تلك الجهات وضرب لهم بالإياب إلى ميقات، وبقي مع مجموع العَرَبِ يُراوّدُهم في التمكين من الأشلِّ المذكور ويعدّهم بالثواب على ذلك مع الأجر المذخور، وهم يحلّون له أمره ويُنكرون كونه، وقد طمِعوا في أكل عسكره والغدر به وكشف

(١) المعجب ٣٦٩-٣٧٠.

وجوهم في محاربتة، والناس قد وجدوا في أنفسهم خيفة منهم وتوقعوا غدرهم المذكور عنهم.

وفي أثناء ذلك قفلت ثقات السيد الموجهون بخبر الأشل وتعين مكانه، وبصفته والوقوف على عيانه، وكيف يختص أحد الرسل حتى توصل إليه وهو في مجلسه، على هيئته من لبس ثياب فاخرة، معتم بعمامة خضراء وسيف محلى موضوع بين يديه، وقد طاف به قوم من شيعته وهو يحدثهم بلسان حضري.

ولما استوفى السيد ما نص الرسل من أخباره، وعلم موضع استقراره، أعمل الحيلة في ذلك، وجمع بعض العرب وقال لهم: قد امتثلنا ما أمرنا به من البحث عن هذا الشقي، والاجتهاد في التقصي عن موضعه الحقيقي، وقد أبلينا عذرا في ذلك، وشهادتكم كافية إن احتج إليها هنالك، وقد ظهر من قبائلكم جوع وافرة، ووجوه في النجاسة ظاهرة، لو علم الأمير بمكانكم، ل زاد في إحسانكم، واستجلب كثيرا من أعيانكم، ولكن نحن قد شرعنا في الإياب، وسرعة الانقلاب. فمن وصلنا منكم عرفنا بمكانه، ونبئنا عن عظيم شأنه، فأظهروا على هذا الكلام شكره وأعظموه قدره، وهم قد نؤوا غدره، فأخذ السيد بالحزم، ووعد جميعهم للحضور للرحلة معه من الغد.

ولما جن الليل أسرى السيد ليلته حتى أصبح على مقربة من قلعة بني حماد من عمل بجاية، ثم أغد السير حتى دخل القلعة بجمليته، وسائر محلاته، وأصبح العرب نادمين على فواته طامعين في إنجاز ما مَنّاهم به من عدايته.

وبعد استقرار السيد بالقلعة وأخذ مأمنه من عاديته، وبعد عسكره من غارتهم، خاطب أعيانهم، ووجوه أنجادهم، والمترعين من أولادهم، لإنجاز وعده لهم على رعيهم في إرادتهم.

ولما وصلوا إلى القلعة احتفل في إطعامهم، فلما تمكّنوا أغلقت أبواب المدينة وقبض على جماعة من أولادهم واعتقلوا بالحديد، ثم جمع السيد آباءهم وعشائرهم وأقسم لهم بالأيان المغلظة أنه لا يحل وثاقهم إلا بإحضار الأشل أو رأسه أو تحمل رؤوسهم مكان رأس المذكور، إلى أمير المؤمنين المنصور، فقالت العرب: ما نسلّم جازنا ولا نغدر دخیلنا ولو أتى القتل على جميعنا، ومضوا لسيلهم، فقام نساء العرب

المذكورين من أمهات الأولاد المسجونين وقالوا لآباء أبنائهم وعشائهم: أَيْقَلْ أبنائنا برجل منافق ذي حيل سارق؟ تَبَّ لِمَا رَأَيْتُمُوهُ وَبُئْسَ مَا فَعَلْتُمُوهُ، وَطَرَدُوا آبَاءَهُمْ مِنْ بَيْوتِهِمْ، فَاخْتَلَفَتِ الْقَبَائِلُ عَلَى الْأَشْلِ وَأَرَادَ الْفِرَارَ فَهَجَمَتْ طَائِفَةٌ مِنْ عَشَائِرِ الْمُتَفَقِّينَ عَلَيْهِ وَعَلَى وَزِيرِهِ وَأَسْرَوْا بِهِ حَتَّى أَوْصَلُوهُ إِلَى الْقَلْعَةِ، فَأَحْسَنَ السَّيِّدُ إِلَى الْوَاصِلِينَ بِهِ وَأَخْلَى سَبِيلَ الْمُعْتَقَلِينَ مِنْ أَجْلِهِ وَضَرَبَ عُنُقَهُ وَعُنُقَ صَاحِبِهِ وَاحْتَمَلَ رَأْسَهُ إِلَى بَجَايَةِ فَعَلَّقَ عَلَى بَابِهَا مَعَ ذِرَاعِهِ وَعَضُدِهِ وَطَهَّرَتْ تِلْكَ النُّوَاحِي مِنْ عَادِيَتِهِ، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي خَلِيقَتِهِ.

وفي سنة تسعين وخمس مئة: وَرَدَ عَلَى الْمَنْصُورِ مَخَاطِبَاتُ الشَّيْخِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ أَبِي حَفْصٍ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ بِاسْتِفْحَالِ الْعَدُوِّ بِهَا وَانْبِسَاطِ الْعَرَبِ مَعَهُ وَفَسَادِهَا، فَانْحَفَرَ فِي الْحَرَكَةِ إِلَى رِبَاطِ الْفَتْحِ مَصْمَمًا عَلَى قَصْدِ إِفْرِيقِيَّةَ، وَقَوَّى الرَّأْيَ وَالتَّأَهُبَ إِلَى الْعُودِ إِلَيْهَا وَالْقُدُومَ عَلَيْهَا، وَوَجَّهَ مِنْ رِبَاطِ الْفَتْحِ عَنْ وُلاَةِ الْأَنْدَلُسِ لِيُوَادِعُوا عَلَى أَشْغَالِهِمْ وَكَافَّةِ أَعْمَالِهِمْ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ وَقَدْ انْصَرَمَتْ مَدَّةُ صَلَاحِ مَلِكٍ قُشْتَالَةَ فَبَعَثَ الْمَذْكُورُ اللَّعِينَ إِلَى جَمِيعِ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاوِرَةِ لَهُ لِيُنْذِرَهُمْ وَيُحَذِّرَهُمْ، وَقَدْ كَانَ وَجَّهَ رُسُلَهُ إِلَى عَقْدِ الْمَهَادَنَةِ، وَأَظْهَرَ بَعْدَهُ الْمَكِيدَةَ، فَأَعَقَبَهُ اللَّهُ سُوءَ عَذْرِهِ وَأَحَاقَ بِهِ وَبَالَ أَمْرِهِ نُكْرًا.

وَاعْتَرَى الْكَافِرُ وَتَأَنَسَ بِإِسَاعَةِ الْحَرَكَةِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ، فَجَمَعَ اللَّعِينُ أَنْجَادَهُ وَأَقْمَاطَهُ وَقَوَّادَهُ، وَضَرَبَ لَهُمْ مِيقَاتًا ارْتَبَطُوا عَلَيْهِ فِي شَنَّ الْغَارَاتِ، فَضَرَبُوا بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَعَمَّتِ الْفُرْقَةُ الْعَادِيَةُ الْوَاصِلَةُ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ جَمِيعَ جِهَاتِهَا، وَانْتَشَرَتْ عَلَى أَنْظَارِهَا وَجَنَابَتِهَا، فَوَرَدَتْ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ الشَّنِيعَةُ وَالْأَحْوَالُ الْفَظِيحَةُ عَلَى الْمَنْصُورِ وَهُوَ عَلَى قَدَمِ الْحَرَكَةِ فَأَنْفَذَ وُلاَةَ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَوَازِهِ إِلَى عُدُودِ سَلَا وَتَصْمِيمِهِ عَلَى طَرِيقِ الشَّرْقِ، وَوَصَلَ مَكْنَسَةً وَأَخْبَارُ عَيْثِ الْعَدُوِّ فِي الْأَنْدَلُسِ تَشْنُعٌ، وَمُخَاطَبَاتُ أَهْلِ ثُغُورِهَا تُجْمَعُ، فَأَمَرَ الْمَنْصُورُ وُلاَةَ إِفْرِيقِيَّةَ بِمَدُودِ الْأَمْوَالِ وَكُتُبِهِ الْكَافِيَةِ عَنِ الْكُتَائِبِ وَالْأَبْطَالِ، وَصَرَفَ وَجْهَ الْحَرَكَةِ مِنْ مَكْنَسَةٍ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، فَاهْتَزَّتِ الْجِبَالُ وَتِلْكَ الْجِهَاتُ وَنَشِطَ النَّاسُ وَقَوَّى حِرْصُهُمْ عَلَى الْغَزْوِ لِقُرْبِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَتَأَيُّ الْمُؤَنِّ بِهَا وَالْأَقْوَاتِ.

وفي سنة إحدى وتسعين وخمس مئة: كان إجازة أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور البحر إلى الأندلس، وذلك في يوم الخميس المؤني عشرين من جمادى الآخرة، ولما دنا من البحر تسابق سراع الناس بالجواز إلى لقائه من المتشوفين والمستبشرين.

اختصار الخبر: من يوم إجازة أمير المؤمنين المنصور

إلى يوم خروجه من إشبيلية إلى غزاته^(١)

كان إجازة البحر في اليوم المذكور، وروح بطريف يومًا واحدًا، وواصل المشي من طريف، ولقيه والي إشبيلية مع وجوه الناس من أهلها، ثم قفا متقدمًا برسم إعداد ديار النزول، وما يجب النظر فيه للوصول. ولما وصل المنصور إلى إشبيلية نزل بظاهر بحيرة باب^(٢) جهور، فخرج الملاء من أهل البلد إليه، برسم السلام عليه، من الصبي المحتلم إلى الشيخ الهرم، وعص بهم الفضاء وضاق بهم المتسع، ثم أمر الشيخ أبو بكر ابن زهر ومن كان يستعين به من أشياخ البلد لتنفيذ البراءات في الديار المنزلة، ثم أذن بعد الظهر بالدخول للسادات والمتغيب من سائر الطبقات، وذلك يوم الخميس السابع والعشرين من السنة، وركب من الغد ومشى إلى حصن الفرج فأعجب بصورة وصفه واحتفال بنائه، ورجع من حينه فمشى إلى الجامع الكبير، وخطب الخطيب أبو علي ابن حجاج بسورة (ق)، وهي أول جمعة قرئ بها في الأندلس من السنة.

ثم خرج يوم السبت وأمر بالتميز فركب جميع العساكر بالعدد الكاملة والزي الفاخر. ولما كملت مراكبهم واستوفى بالانتظام راجلهم وراكبهم، ركب المنصور ومشى مع الكتاب والوزراء ومن حضر من القرابة والأبناء، وطاف عليهم في مواضعهم صفًا صفًا وقبيلًا قبيلًا، وشكر استيفاءهم واستعدادهم شكرًا جزيلاً، وخرجت المرببات والبركات، وانتفرت الحشود المعتادة، وسائر الجيوش المنقادة.

(١) في ب: «غزواته»، وما أثبتناه من النسخ الأخرى.

(٢) سقطت الكلمة من ب.

ذِكْرُ غَزْوَةِ الْمَنْصُورِ وَالتَّأَهُبِ لِلْعُدُوِّ يَوْمَ الْفَتْحِ الْمَشْهُورِ بِمَوْضِعِ الْأَرْكِ^(١) الْمَذْكُورِ وَوَصْفُ الْحَالِ فِي الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ^(٢)

وذلك أنه لما استوفى المنصور من أشغاله ما أمّله، وأتمّ في كلّ غرض من مآهبه ومقاصد عمله، خرج لهذه الغزوة الميمونة بالأرك صبيحة يوم الخميس الحادي عشر من رجب من سنة إحدى المذكورة، وتمّادى مسيره على طريق النهر الأعظم، ووصل قرطبة يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر المذكور، وروح ثلاثاً، وخرج يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه، فصرّبت سرية خيل من النصارى على قلعة رباح وما جاورها ليتجسسوا الأخبار، فخرج إليهم من كان بالحصن فاقتفوا آثار أعداء الله والتحقوا بهم، فكانوا عندهم كأكلة جائع أو شربة ظمآن، وتركوهم بتلك البطاح ولائم للنسور والعقبان، فكانت هذه السرية باكورة الفتح وثمّفته، وتمّادى المشي وفي كلّ يوم بشارة ومسرّة من أنبائهم ورؤعهم تترى، وأحاديث من ارتكاسهم وانتكاسهم تتلى وتقرأ، إلى أن تراءى الجمعان، وتظاهرت النيران، ووقع العيان بالعيان.

ولما نزل المنصور بهذا المنزل الذي أطلّ منه على جموع الكافرين ومحلاتهم، وعوّل على غزوهم من الغد ومصارعتهم، وتوكل على الحيّ الذي قضى بهلاكهم وإماتتهم، أمر باجتماع الملأ من الناس من كلّ فريق، فأجابوا مهطعين على كلّ طريق.

فلما كملت جموعهم واستقرّت بهم مجالسهم، قام في صدرهم الوزير أبو يحيى بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وقال بصوت مسميع لكلّ من حضر: يقول لكم أمير المؤمنين: اغفروا له، فإنّ هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا الله نيّاتكم، فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم، وما جرى إليه من حسن معاملتهم، ثم قال الجميع: من خليفة الله نطلب العفو والغفران، ويؤمن نيّته وصدق طويّته نرجو الخير من الرحمن، وقام أبو عليّ القاضي ابن حجاج وخطب خطبة

(١) الروض المطّار ٢٧.

(٢) ينظر عن وقعة الأرك: الكامل لابن الأثير ١٢/١١٣، والمعجب ٣٥٨، وتاريخ ابن خلدون ٣٢٩/٦-٣٣٠، والاستقصا ٢/١٨٩.

بليغةً في التحريض على الجهاد وفضله، والتنبيه على مكانه وقدره، ومدَّ القول في ذلك بما وسَّعه من بيانه. وانفصل الناس وقد تنوّرت بصائرهم، وخلّصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم واعتزّامهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم، وأمرهم الوزير بلباس أسلحتهم والاستعداد من الغدو والبكور للقاء عدوهم، فتركوا بالمحلة الحاملة والأثقال، ومشى جميع العساكر على مهلتهم ودنّوا حتى صاروا من العدو بأوضح مرأى، وكانوا منه قاب قوسين أو أدنى، وأخذوا مراكزهم وقدموا رجالهم وترتّبوا بالصفوف ووقفوا كالبنيان المرصوص، والمنصور مع أهل بيته ومن جرت عادته من القبائل بالالتزام ساقته من وراء الجميع يشدّ ظهورهم، ويرى ويسمع شهودهم وحضورهم.

ولما رأى الكفار ما دهمهم من جنود الله تعالى لم يكن لهم بدٌّ من الإبلاء والمدافعة، فهبطوا من مركزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسرابًا تتلو أسرابًا وأمواجًا تعقب أمواجًا، ليس إلا الصهيل والضجيج، والحديد على وقع الفجيج، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قومٌ من المطوعة وأخلط من الشوكة والرجرجة، فصعد غبارهم إلى الجو، فقال المنصور لخاصته ومن طاف به: جدّدوا نياتكم وأحضروا قلوبكم، ثم تحرّك وحده وترك ساقته على حالها وسار منفردًا من خاصته مقدّمًا بشهامته ونجدته، ومرّ على الصفوف والقبائل وألقى إليهم بنفسه كلامًا وجيزًا في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته.

ولما وقعت أعين الناس عليه ورأوا عظيم ما وصل إليه، حَيَّت نفوسهم وتحركت هممهم، فحمل كل قبيل على من يليه، ودفع كل موكب على من يقابله من العدو ويلتقيه، وانضمت على الكفار الأطناب، وسدّت عليهم الأبواب، فلم يجد أحدٌ منهم حيث يُعرج، ولا وجدوا بابًا للخلاص يُفرّج، فالتحم الجمعان، واعترك الفريقان، وحمي الوطيس، والتفت الأقدام والرؤوس، واستعجمت الأصوات وارتفع التمييز والالتفات، وخلع الكفار عن مراكزهم، ونسخ الله ما أراهم من اغترارهم فولّوا الأدبار، وشملهم الإدبار، وركبهم السيف، وتقسمهم النهب والحيف، من ضحى يوم الأربعاء التاسع من شعبان إلى الزوال، فانتهبت محلة اللعين على الفور، فلم يُلَف لمضاربها

ولا لشيء من أثنائها خبرٌ على اتساعها وكثرة كُراعِها وحافرِها، والله الحمدُ والشكر، وأجلَّت الحربُ عن حصيد من القتلى كالزَّرع المحصود والصَّخر^(١) المنضود، كايينَ على الوجوه غير سُجود، ومُستلقينَ على الجنوب دون هُجود، وكما يُحشرونَ يومَ النُّشور إذا بُعِثَ ما في القبور، مسافةً فَرَسَخ في فَرَسَخ لا يكفيهم حدٌّ، ولا يحصُرهم عدٌّ.

قال يوسفُ بنُ عُمرَ الكاتبُ في تاريخه: كان عددُ القتلى في هذه الغزاة زهاءَ ثلاثين ألفاً عبرةً للناظرين وآيةً للسائلين، قال: واستشهد من المسلمين نحوُ الخمس مئة، وأفلتَ أذفونُشُ اللَّعين تحتَ حدِّ السَّنان واجتارَ على طُلَيْطَلَة لا يَعْرِجُ على مكان في نحو عشرين فارساً قد اتَّخذوا اللَّيلَ جَمَلاً، وإن رأوا غيرَ شيء ظنُّوه رجلاً، واعتصم معظمُ الفلِّ وكلُّ مَنْ نجا من المعترك بحِصن الأرك، فأحدقَ بهم المسلمون حتى أشرَفوا على الهلاك، فصالحَ عليهم بيطره بن فراندس اللَّعين المُوالي للمسلمين بفداء عددهم أُسارى من المسلمين وإخراجهم من دار الحرب، وبلغَ عددُ حُصراء الأرك المذكورين خمسةَ آلاف شخص بين صغيرٍ وكبيرٍ ذكراً وأنثى، فأسعَفَ في ذلك المنصورُ إشفاقاً وحرصاً على استنقاذِ أُسارى المسلمين، وأخذت منهم رهائنُ وجَّهَ بهم إلى إشبيلية ثم إلى رِباط الفتح وسَرَّحَ الجميعَ منهم، فكانت أعظمَ مكائد الكافرين وخُدَعَ المشركين.

وكان الناسُ يضربونَ الأمثالَ بوقعة الزَّلَاقَة ويُعظِّمونَ أمرَها، ولا يذكرونَ غيرَها، وفُجِعَ أكثرُ المسلمين من أهل الأندلس في الزَّلَاقَة لأنَّ الحربَ دارت عليهم فيها على ابن عباد وأهل الأندلس من قَبْلَ الفجر إلى أوَّلِ الزَّوال، لأنَّ لَمْتُونَةً خافوا منَ الامتراج بأهل الأندلس لكلام قيل أُلقيَ إليهم في حقِّ ابن عباد، فنزلوا على نحو المِليْن من مُسلمي الأندلس.

وعَدَرَ أذفونُشُ اللَّعين وتحركَ في اللَّيل وقَصَدَ محمَّلةَ ابن عبادَ فاتى القتلُ على المسلمين حتى ضُحى النهار، ويوسفُ بن تاشفينَ بمنزله لم يتحرك حتى وجَّهَ إليه المعتمدُ كاتبه أبا بكر ابن القصيرة يُعرِّفُه بهلاك المسلمين، فحينئذٍ تحركَ إلى محمَّلة أذفونُش فأضرَمَها ناراً وقتلَ كلَّ من كان بها، وأضرَمَ الناسُ في أبنيته وساقِيته وهَبَطَ في ظهره وهو يقتحمُ مع

(١) من هنا إلى قوله: «وكما يحشرون» سقط من ب.

أهل الأندلس، واستحيا ابن عباد وهو مُثخنٌ بالجراح، وانضمت على أذفونش الأطراف وأعيد في مثل الحلقة، وخدم السيف فيهم حتى وقع الليل.

وقيل: إنه كان في ستين ألفاً بين فارس وراجل، وذلك في يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربع مئة، ولم ينج أذفونش إلا في ثلاثة عشر فارساً، وكان لما أخذ طليطلة في سنة ثمان وسبعين وأربع مئة اشتدَّ أمْلُه وعَزَمَ على الهبوط إلى قرطبة، حين رأى منامة الفيل وجسرٌ بذلك على المُلَاقاة فأخزاه الله وأهلكه ومن كان معه، فكانت غزوةُ الزلاقة مقسومةً الثُكل مكدرةً الصفر. وجاءت هذه الواقعةُ هنيئةً الموقع عامةً المسرة، كأكلة جائع أو شربة عطاش، فأنست كل فتحة بالأندلس تقدّمها، وبقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها.

ولما كان هذا الفتح الجليل أخذَ رحمه الله قافلاً إلى إشبيلية والنصر يتهلل فوق جبينه، والظفر يضحك مع شماله ويمينه، فدخلها يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان المكرم سنة إحدى وتسعين وخمس مئة.

ذكر استقرار المنصور بإشبيلية من حركة غزوة الأرك وبعض ما كان

من الأحداث مدة إقامته بها إلى يوم خروجه عنها إلى حركة الجوف

ولما وصل المنصورُ إشبيلية ووصل وفودٌ من سائر بلاده ومُنتهى طاعته بالتهاني من النظم والنثر، فقال المنصور: الفتح أعظم من الإطباب في وصفه، وأمر الكاتب أبا الفضل ابن أبي الطاهر وأكد عليه أن يوجزَ الكتب في هذا الفتح غاية الإيجاز ولا يسلك في العبارة عنه مسلك شيء مما تقدّم من أوصاف الفتوحات، وأن ينحو فيه منحى كتب الصحابة رضي الله عنهم في فتوحاتهم، فخطب على ما أمر به وطوى بساط الشعر، ولم يُحفظ عن الشعراء فيه مقالٌ إلا الكاتب الأريب الشاعر المُجيد أبا العباس الجراوي، فإنه قال فأحسن ولم تصل إليه [من الطويل]:

هو الفتحُ أعياء وصفه النظم والنثر وعمّت جميع المسلمين به البُشرى
وأنجد في الدنيا وغار حديثه فراقّت به حسناً وطابت به نُشراً

تَمَيَّزَ بِالْأَحْجَالِ وَالْغُرَرِ الَّتِي
لَقَدْ أوردَ الْأَذْفُونُشُ شِيعَتَهُ الرَّدَى
حَكَى فَعَلَ إِبْلِيسَ بِأَصْحَابِهِ الْأُلَى
أَطَارَتْهُ شَدَاتٌ تَوَلَّى أَمَامَهَا
رَأَى الْمَوْتَ لِلْأَبْطَالِ حَوْلَيْهِ يَنْتَقِي
وَقَدْ أوردَتْهُ الْمَوْتَ طَعْنَةً ثَائِرٍ
وَلَمْ يَبْقَ مَنْ أَفْنَى الزَّمَانُ حَمَاتُهُ
أُلُوفٌ غَدَتِ مَأْهُولَةٌ بِهِمُ الْفَلَا
وَدَارَتْ رَحَى الْهَيْجَا عَلَيْهِمْ فَأَصْبَحُوا
يَطِيرُ بِأَشْلَاءٍ لَهُمْ كُلُّ قَشْعِمٍ
فَكَيْفَ رَأَى الْمَغْتَرُّ عَقْبَى اغْتِرَارِهِ
وَكَانَ يَرَى أَقْطَارَ أَنْدَلَسٍ لَهُ
فَسَلَّاهُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ عَنِ الْمُنَى
إِذَا عَزَلَتْهُ الرُّومُ كَانَتْ نَجَاتُهُ
فَتَعَسَّالَهُ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا مُنَى
يُؤْمِنُ الْإِمَامُ الصَّالِحُ الْمُصْلِحُ الرِّضَى
فَلَا زَالَ بِالنَّصْرِ الْإِلَهِيِّ يَقْتَضِي

أَقْلُ سَنَاها يَبْهَرُ الشَّمْسَ وَالْيَدْرَا
وَسَاقَهُمْ جَهْلًا إِلَى الْبَطْشَةِ الْكُبْرَى
تَبْرَأَ مِنْهُمْ حِينَ أوردَهُمْ بَدْرَا
شَرِيدًا وَأَنْسَتْهُ التَّعَاطُفُ وَالْكَفْرَا
فَطَارَ إِلَى أَقْصَى مَصَارِعِهِ ذُعْرَا
وَأِنْ لَمْ يَفَارِقْ مِنْ شَقَاوَتِهِ الْعُمْرَا
وَجَرَّعَهُ مِنْ فَقْدِ أَنْصَارِهِ صَبْرَا
وَأَمَسَتْ خِلَاءٌ مِنْهُمْ دَوْرَهُمْ قَفْرَا
هَشِيمًا طَحِينًا فِي مَهَبِّ الصَّبَا يُذْرَى
فَمَا شَتَّتَ مِنْ نَسْرٍ غَدَا بَطْنُهُ قَبْرَا
وَكَيْفَ رَأَى الْغَدَّارُ فِي غِيَةِ الْغَدْرَا
مَتَى يَرْزَمَ لَمْ يَخْطِئْ بِأَسْهُمِهِ قُطْرَا
فَمَا يَرْتَجِي مِمَّا تَمَلَّكَه شَبْرَا
وَقَدْ أَحْدَقَتْ جَهْرُ الْمَنَايَا بِهِ غَدْرَا
وَكَسَّرَ لَهُ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا جَبْرَا
نَضَى سَيْفَهُ الْإِسْلَامُ فَاسْتَأْصَلَ الْكُفْرَا
بَشَائِرُ تُحْصِي قَبْلَ إِحْصَائِهَا الْقَطْرَا

وَانْبَسَطَ الْمَنْصُورُ^(١) انْبَسَاطَ مَنْ بَلَغَ آمَالَهُ وَشَفَى نَفْسَهُ وَاسْتَأْصَلَ أَعْدَاءَهُ،
وَتَوَسَّعَ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَأَكَّدَ الْعَزْمَ فِي بِنَاءِ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ وَتَتْمِيمِ مَنَارِهِ،
وَسَرَّحَ الْجُمُوعَ وَالْقَبَائِلَ وَالْأَجْنَادَ وَنَبَّهَهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونُوا عَلَى أَهْبَةِ وَاسْتَعْدَادٍ لِمُعَاوَدَةِ
الْجِهَادِ، وَتَفَرَّغَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ لِلْمَذَاكِرَةِ وَالْمَنَاظَرَةِ.

(١) سقطت من ب.

وفي سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة: انتقل المنصورُ إلى حصن الفَرَج بتاج الشَّرَف، وكُمِّلَ غَرْسُ البُحيرة المَحْدَثة تحتَه، وأَمَرَ بِعَمَلِ نَواعيرَ على شَطِّ النهرِ تحتَ الحصنِ لتكونَ تَمِيمًا لِحُسْنِهِ وَجَمالِهِ. وفي أَثناء ذلك انصَرَمَت مَدَةُ الشَّتاء، وأُطْلِلَ زَمَنُ الحَرِكةِ لِمُعَاوَدَةِ جِهَادِ الأَعْداء، واستنْفَرَ العَموماً مِنَ القَبائلِ مِنَ مَنازِلِها المَعلومة لِتَرويحِها، وعُرِّفوا بِالاستعدادِ لَتَمييزِ الجُمُوعِ وَتَصحِيحِها، ووَصَلَ الجَميعُ وَميَّزَتِ الجيُوشُ فَانضَمَّت أَطرافُ الأَشغال، وانصَرَمَ شَهرُ آذارَ وَنيسان، وَحُصِدَ الزَّرْعُ بِكُلِّ مَكان، وَحَسُنَ إلى الغَزوِ التَّرحال.

ذَكَرُ غَزْوَةِ المَنصُورِ المَعروُفَةِ بِسَنَةِ طُلَيْطَلَةَ^(١)

ولَمَّا أَكَمَلَ المَنصُورُ أَشغالَهُ وَحَشَدَ جُنُودَهُ وَميَّزَ رِجالَهُ، تَفاوَضَ مَعَ مَن يَجبُ مِنَ أَهلِ البَصائرِ بِالْحُرُوبِ مَن حَيْثُ يَكُونُ الدَّخُولُ إلى الكافِرِ أَذْفُونشُ فِي صَمِيمِ أَكبادِهِ، وَاسْتِصالِ الباقِي مِنَ طارِفِهِ وَتَلادِهِ، فَوَقَعَ النَظَرُ على تَقديمِ بِلادِ الجُوفِ وَتَأَميلِ اسْتِرجاعِ ما كانَ غَلَبَ عَلَيهِ اللَّعِينُ مِنَ بِلادِ المُسْلِمينَ، فَكانَتِ حَرَكَتُهُ مِنَ إِشْبيلِيَّةَ إلى هَذِهِ الغَزاةِ المَذكُورَةِ يَومَ الاثْنينِ مَنصَفَ رَجَبِ الفَرْدِ سَنَةِ اثْنينِ وَتَسعينِ المُؤرَّخَةِ وَالسَّعْدُ يَمهَدُ بَينَ يَدَيهِ مَناهِجَ التيسيرِ، وَيَفْتَحُ لَه كَلَّ مُبْهَمٍ وَيَقْرُبُ كُلَّ عَسير.

وَقَدَّمَ إلى حِصنِ مَنتانجَشَ جِماعَةً مِنَ الأَندَلُسيِّينَ وَهُوَ مِنَ المَعاقلِ الشاهِقَةِ الارتفاعِ، المَشهُورَةِ بِالتَوَعُّرِ وَالامْتِناعِ، فَأَحاطَت بِهَ الجِماعَةُ المَذكُورَةِ، وَنَشَرُوا عَلَيهِ الحَرْبَ^(٢) يَومَهُمَ ذَلِكَ، وَلَمَّا كانَ مِنَ الغَدِ وَصَلَ المَنصُورُ إلى الحِصنِ المَذكُورِ، فَعَندَما عاينَ الأَعلامَ جِيوشَهُ المَنصُورَةَ، وَجُمُوعَهُ المَظفَرَةَ المَذكُورَةَ، أَلقُوا بِيدِ الاستِسلامِ وَاعْتَلقُوا بِحَبْلِ الإِمامِ، فَأُسْعِفُوا فِيما سألُوهُ مِنَ الأَمانِ، وَأَمَرَ القائِدَ أبا عَبْدِ اللَّهِ بَنَ صَناديدَ^(٣) بِتَوصيلِهِم إلى حَيْثُ يَأْمَنُونَ مِنَ أُنحائِهِم، وَعَندَما سارَ بِهِم فَرَسَخًا مِنَ المَحَلَّةِ غَشِيَهُم أَوْباشُ مِنَ العَرَبِ فَوَضَعُوا فِيهِم الحَديدَ وَاسْتَأصَلُوهُم قَتلاً إلى آخِرِهِم وَسَبَّوْا

(١) الكامل لابن الأثير ١١٥/١٢.

(٢) سقطت من ب.

(٣) له ذكر في الاستقصا ١٨٧/٢.

ما كان معهم من النساء والذرّية، فغضب أمير المؤمنين لاجترأ أولئك الأزدلين وجهلهم بعهود المسلمين، فسجن منهم من عثر عليه، وجمع النساء والذرّية وأوصلهم القائد المذكور إلى أوائل بلادهم، وخلت أيضًا مدينة تَرْجَالَة^(١) دون مُنازلة، وهبت ريح الفتح في تلك الكور المأخوذة والأقطار، وبلغ الرعب فيهم ما لا تبلغه سُمُر الأسل وييض الشفار، وأتى عليهم الاستئصال والجلأ بالاضطرار، وقنعوا من السلامة بالفرار.

واضطكت في هذه الحصون المذكورة دعوة الإسلام، وتعوّضت في أسبوع واحد من ملة الكفر بشريعة محمد عليه السلام. وتمادى العمل في الاستئصال والتخريب على هذا الترتيب، إلى مدينة طليّرة أكبر قواعد طليّلة وأسرأها، وأعظمها منعة وأعلاها، فأمر المنصور باستئصالها، وألحقت من التخريب والانتهاك بأمثالها.

ومرّ كالسيل الجاري والبحر الزاخر حتى حلّ بساحة طليّلة فساء صباح المنذرين، فبرز عليها تبريزًا أذهل عقول الكافرين، ولم يعهد ظهوره عليها في مدة الملوك المتقدمين، وتقسّمت الجيوش على جناباتها، وشنت الغارات على سائر جهاتها، وأقام عليها أسبوعًا وأذفونش اللعين بأطراف بلاده يتأوّه تأوّه المفوّد، ما تنقضي عبراته، ولا تتم زفرائه.

ولما قضت نفس المنصور من هذه الوجهة أوطارها، وطوى هذه الأقاليم طيّ السجل ومحى آثارها، ووفى حقوق الجهاد حقّها وادّخارها، أخذ في القفول والإياب، وسرعة الرجعة وحسن الانقلاب، منصور الأعلام، ناصر الإسلام، فقال أبو العباس الجراوي من قصيدة طويلة أولها [من مخلع البسيط]:

قد أصليت نارها العداة	وأنجزت فيهم العداة
وعمهم بالدمار يوم	تقصر عن وصفه الرواة
في مشهد لا تزال تُتلى	آيائه وهي بينات
فتح مفاتيحه المواضي	والعزّات المؤيدات

(١) الروض المعطار ١٣٣، وفي معجم البلدان: «ترجيلة».

رَدَّتْ جَمَى الْفَنَشِ مُسْتَبَاحًا	بَيْضٌ مِنَ الْهِنْدِ مُرْهَفَاتُ
ذَلُّوا الْأَمْرَ الْإِلَهَ قَسْرًا	وَهُمْ أُولُو نَجْدَةٍ أَبَاءُ
وَعَرَّقَتْ جَمْعَهُمْ بِحَارًا	أُمُوجُهَا الْخَيْلُ وَالْكُيَّاهُ
رَأَوْا الْحَزْبَ الْإِلَهَ صَبْرًا	وَالْمَوْتُ حَفَّتْ بِهِ الْجِهَاتُ
فَحَاوَلُوا مِنْهُمْ انْفِلَاتًا ^(١)	وَلَيْسَ لِلْخَائِنِ انْفِلَاتُ
فَلَا تَسْلُ عَنْ بَنَاتِ مَاءٍ	إِنْ صَرَصَتْ حَوْلَهَا الْبُرَاةُ

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين وخمس مئة: استقرَّ المنصورُ بحضرة إشيلية لتفقد أشغاله، وتكشّفه عن خُدائمه وعُمّاله، وعهدُ الخروج عنها إلى الغزاة الثالثة، وذلك أنه لما وصلَ المنصورُ من هذه الغزاة الثانية وتدويع البلدان، وكَمَلَ التّضْيِيفَ للجيش والإحسان، تفرّغ لتفقد أشغاله وعُمّاله، وربّما كان قد أُشْعِرَ بتفريط ومُدَاهَنَةِ فَأَمَرَ بالكشفِ عن الأشغال والبحث عن دقائق الأعمال، فبدأ بمُحَاسَبَةِ أَبِي سُلَيْمَانَ دَاوُدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وتأخيرِهِ، وكان أميرُ المؤمنين المنصورُ قد رُمِيَ له في طريق الغزو بشعير في المذكور [من الطويل]:

تَنَبَّهَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِحَادِثٍ	فَأَنْتَ إِمَامُ الْعَدْلِ فِينَا وَقُدُوتُهُ
بِلَادُكَ لَا تَرْجُو سِوَاكَ لِنَظَرَةٍ	وَدَاوُدُ قَدْ أَفْنَى الْبِلَادَ وَإِخْوَتُهُ

ذِكْرُ نَكْبَةِ دَاوُدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ

فَأَبْرَزَ لِمَحَاسِبَتِهِ أَبَا مُحَمَّدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى وَأَبَا عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ الْكَاتِبِ، وَقَدْ كَانَ تَحْتَ نَظَرِهِمَا مِنْ كُتَابِ الْجِهَاتِ نَحْوَ خَمْسِينَ كَاتِبًا، فَأَقَامُوا فِي نَسْخٍ وَتَقْيِيدٍ وَتَبْيِضٍ وَتَسْوِيدٍ، وَإِكْبَابٍ عَلَى بَحْثٍ وَتَقْيِيدٍ، وَتَصْدِيقٍ بَعْضٍ وَتَكْذِيبٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ يَسْأَلُ الْمَنْصُورُ عَنْ كَيْفِيَّةِ الْأَشْغَالِ، وَعَمَّا يُبْرِزُهُ الْحَقُّ مِنْ وَجْهِ الْأَعْمَالِ، وَتَمَادَى الْعَمَلُ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ مَدَّةً مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ حَتَّى تَمَحَّضَتِ الْأَعْمَالُ، وَثَبَتَ الْحَقُّ وَارْتَفَعَ الْمَحَالُ، وَبُسِطَ لِأَبِي سُلَيْمَانَ وَجْهُ الْعُذْرِ وَأُبِيحَ لَهُ إِثْبَاتُ مَا شَاءَ فِي عَمَلِهِ بِمَا يَصَحُّ فِي كُلِّ

(١) في ب: «انقلابًا»، وهو بمعنى.

الأحوال، فتعيّن عليه بعد الرفق والألطف، والتمشية على طريق الإنصاف، جملة من المال في خاصّته ومئة وخمسون ألفاً أو نحوها في عمله، فاستُصِفَتْ أحواله وأمواله، ولم يُكشَفْ له سِرٌّ ولا امْتَحَنَ أهله ولا عياله، حتى عُفِيَ عنه.

وفي هذه المدة أيضاً حُوسِبَ أبو عليٍّ عُمرُ بن أيوبَ على ما كان تحت نظره وفي اختزانه من أموال النّفقات والموقفِ عنده من سائر المرتّبات، فوقّفَ عليه مالٌ جسيم واستُفهِمَ عنه فلم يوجَدْ له جواب، فُضِّمَ ديونُه وجُمعَ أطرافُه وجُمعَ نحوُ الخمسةِ عشرَ ألفَ دينار فقُبِضَتْ منه وطُلبَ باستيفاءِ الباقي فعَجَزَ عنه فاعتُقِلَ مع أبي سليمان حتى تدارَكَهما عفوُ أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة: قُلِدَ أبو زيد بن يُوجان^(١) أشغال البرّين من الأعمال العليّة والأشغال السُّلطانية والوزارة وما يتعلّق بها من أشغال الموحّدين ومُلازمة الخدمة، فاستقلَّ بذلك كلّ استقلالاً ظهرَ به صلاحُ الأحوال وترتيبُ الأشغال وتوفيرُ المَجابي واجتماعُ الأموال، وقَدَّمَ أبا القاسم ابن نُصيرَ على الإشراف على عملِ إشبيلية.

وفي هذه السنة: قُدِّمَ يوسفُ بن عُمرَ الكاتب المؤرّخ بعدَ انسلاخه عن خدمة السادات بني السيّد أبي حفص بن عبد المؤمن لتصيير ما كان يشتغلُ لهم به وينطوي عليه وعلى المستخلص بالشرف ومدينة لبلة وعلى السّهام المنزوعة من أيدي الناس، وتقييد ما يراه من مصالحها.

ذكرُ حركة المنصور إلى الغزاة الثالثة وهي آخرُ غزواته

من عمره وآخرُ جهاد استوفى فيه عظيمُ أجره

ولمّا استوفى بإشبيلية من أشغاله وانجَلَتْ عَمْرُهُ الشتاء وتمكّن فصلُ الربيع، عيّن الخليفة شهرَ الوجهة وصرّح بالحركة، فترادفَ الناس بالوصول من البلاد، واستوفتِ العساكرُ والأجناد، حتّى ضاقَ بإشبيلية متسّعُها وعجّزت عن تحمّل المُؤن والأعباء، فُضِرِبَ طبلُ الرّحيل، ونفّرَ كافّة الناس من كلّ قبيل، فكان خُروجُ المنصور

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يُوجان الهنتاتي (المعجب ٣٨٨).

من إشبيلية صُحى يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر...^(١) من السنة، فنزل بالكُرْم
أخذًا على طريق قُرْطُبَة، وكانت سنة خِصب، فمَشَى الناسُ في أطيَب عَيْشٍ حتى
كان الوصول إلى قُرْطُبَة، فدخلها المنصورُ للاستيطان، وقَسَمَ الجيوشَ لانتجاع الخِصب
حيث كان ريثًا يقرُب أوانُ التحطُّم^(٢)، وتمكين وجود الأقوات في بلاد الروم.

وفي هذه السنة: نُكِب القاضي أبو الوليد ابن رُشد الحفيد^(٣)، وذلك أنه كان
نشأ بينه وبين أهل قُرْطُبَة قديمًا وخِشَّة أحدثتها أسباب المحاسدة، فانتدب الطالبون
لِسعي أشياء عليه في تواليه تأولوا الخروج فيها عن سَنن الشريعة وإيثاره فيها لحُكم
الطبيعة، وحشروا منها ألفاظًا عديدة، وفُصُولًا ربَّما كانت غير سديدة، فجمعت في
أوراق، وقيل: إن بعضها أُلْفِي بخطه، ومَشَى الرافعون إلى مَرَاكش سنة إحدى وتسعين،
فشُغل عن الوقوف عليها والالتفات إليها لِمَا كان الحالُ بسبيله من الاستعداد، والنظر
في مَهَمَّات الجهاد، فنكص الطالبون على أعقابهم، وقنعوا بسرعة إياهم.

ولمَّا كان هذا التلُّوم من المنصور بقُرْطُبَة وامتدَّ بها أمدُ الإقامة وأنس الناس
لمجالس المذاكرة، تجددت للطالِبين آمالهم، وقوي تألُّفهم واسترسالهم، فأدلوأ بتلك
الألْقِيَات، وأوضحوا ما احتجَّونه من شَنِيع الهَفَوَات، الماحية لأبي الوليد كثيرًا من
الحسنات، فلَمَّا نُظِرَتْ وتوؤلت خرجت بما دَلَّت عليه أسوأ مخرج، وأعربت عن سُوء
كُلِّ منهج، فلم يمكن المنصور عند اتفاق الطلبة إلا المدافعة عن شريعة الإسلام،
والقصد لسنة الرسول عليه السلام، فأمر المنصور بحبس أبي الوليد، وتفرَّق تلاميذه
أيدي سبا، وطلبوا نفقًا في الأرض أو سُلَّمًا في السماء، وبعد ذلك غفر لأبي الوليد واستدعي
إلى الحضرة وتوفي بها.

ولمَّا بلغ المنصور بقُرْطُبَة مراده، وأحكم تدبيره وأكمل استعدادَه، تحرَّك رحمه
الله على أيمن الأقدار، ومساعدة من خدمة الليل والنهار، وأخذ على طريق طَلَبِيرة

(١) بياض في النسخ بقدر كلمة.

(٢) التحطم: يباس المزروعات بحيث تصبح جاهزة للحصاد.

(٣) تنظر نكته في المعجب ٣٨٤-٣٨٥ وتاريخ الإسلام ١٢/١٠٦٠-١٠٦١، وهي مذكورة في

مصادر ترجمته، وينظر سير أعلام النبلاء ٢١/٣٠٧ بتحقيقنا.

وقد كان أذفونش اللعين، عند إشراف المنصور على بلاده بعساكر المسلمين، قدّم
رُسُلَه في طلب المُهادنة والاستسلام، والوقوف عند الأمر العليّ والالتزام، فنظر المنصور
بنور التوفيق والرشاد ألاّ يُخلّ ما انعقد عليه العزم من صريمة الغزو والجهاد، فأصرّف
رُسُلَه من غير جواب، إلا انتظار سنان وصارم قضاب.

وتماذى المشي على هذا الأسلوب، وعلى ما أمّل من المرغوب، حتّى كان الإمام
بطليّطة فعشيها أعظم ممّا تقدّم من الانتهاك والانتهاج، بالاستئصال والإتلاف
والإذهاب، ثم اتّصلت الأنباء أنّ الكافر البرّشلونيّ أمدّ أذفونش برجاله وأبطاله،
وهم بحصن مجرّيط يقدّمون ويؤخّرون، ويخوضون فيما لا يفعلون، فقصد المنصور
إليهم وصمّم نحوهم تصميم الواثق بالعليّ الكبير رجاء أن تزلّ أقدامهم، وعسى أن
يجرّكهم حمائمهم، وعندما أشرف المسلمون على الحصن المذكور، وأحدقوا به إحداق
الهلالات بالبدور، وأكثروا التهليل والتكبير والتعظيم للعليّ الكبير، فكادت تنصدع
لصيححتهم أكباد الصخور، ويهترّ لصككتها رميم أهل القبور، فعند ذلك انصدعت جموع
أذفونش وأسلمه أحلافه وجعل يتعلّق بجباله، لحرقه وأوجاله.

ولمّا بلغ المنصور على حصن مجرّيط فوق ما أمّل من القصد، وضعضعت
صكّة وطئه قاسيات القلوب ومزقت فلّ الكافرين من الحشود والجنود، وعلم الكافر
أنه لا يملك من أمره فتيلًا، ولا يحاول في كشف ما أنزل الله سبحانه متصرّفًا ولا
تحويلًا، استقبل المنصور بحركته وجه الشرق فأخذ من حصن مجرّيط على وادي الحجارة
في منازل وربوع، وأشجار وزروع، فمشى العمل فيها على ما تقدّم من الترتيب في
الاستئصال والتخريب.

ولمّا حلّت العساكر بساحتها وانبسطوا على جنباتها، تسابق بعض الناس إلى
البلد، وقد كان الكافر شحّنها بجملة رجاله وكُمّاته، وأهل الثقة عنده من حمّاته،
فخرجوا إلى الطائشة من أتباع المحلّة وسوادهم، فظهروا عليهم في طرادهم، حتّى توالى
السابقون فأكبّوهم على أذقانهم وأوردوهم بين قتيل وجريح في أنقايهم وأكنافيهم.

ولمّا كان من الغد أخذ الناس أهبتهم للتبريز، ووقفوا عليهم بالقبائل على
مراتب التمييز، فبهت الكافر من ذلك الملاء الحضور، ويئسوا من السلامة كما يئس الكفار

من أصحاب القبور، فروَّح بالوادي المذكور ريثما خاطب البلاد وبشَّر بكيفية هذه الغزوة جميع العباد، ثم رحل حتَّى وصل قُرْبَة فحتم الجهاد بالحضور بجامع قُرْبَة لَحْتَم كتاب الله ليلة سبع وعشرين لرمضان، ثم رحل منها ودخل إشبيلية صَدَرَ شَوَّال^(١) من العام. ولَمَّا استقرَّ المنصورُ بإشبيلية بعد هذه الغزوة الثالثة أخذ في تجديد أعمال البرِّ وبت الصَّدقات في السرِّ، وأكَّد النظر في تنمِيم ما بقي بالجامع المكرَّم من الأطراف وإكمال فحل المنار، وانتقل إلى حصن الفرج بقيَّة فصل المَصِيف فتَهادى سُكناه به ورأى حُسْنَ إشرافه واعتلائه ورقَّة هوائه، ثم انتقل منه إلى مدينة إشبيلية وبين يَدَيْه أكثرُ أهل الدولة وجماء القَرابة، ولم يُقَمَّ بعد هذا الانتقال إلَّا نحو أربعين يومًا ثم تحرَّك إلى حضرته.

ثم كانت سنة أربع وتسعين وخمس مئة، ففيها: تحرَّك المنصورُ من الأندلس إلى برِّ العُدوة، وهي كانت آخرَ حركاته رحمه الله.

ولَمَّا رأت ملوك الروم أنَّ بلادها ورجالها قد أتى عليها الاستئصال والاصطلام، وأنَّ لا نَجاة لها إلَّا الرغبة في الاستسلام، وجَّهوا أرسالهم في طلب الصُّلح على ما عهد من شروط الأحكام، فأسَعِفُوا فيه على حُكم شريعة الإسلام^(٢).

ثم شرع في تنقيف البلاد، وشدَّها بثقات الأنجاد، وقَدَّم عليها الوُلاة والعُمال، فقَدَّم على إشبيلية أبا زيد ابن الخليفة، وعلى بطليوس وجهاتها السيِّد أبا الربيع بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وعلى الغرب أبا عبد الله ابن السيِّد أبي حفص بن عبد المؤمن، وقَدَّم على المَجابي في تلك البلاد، وأمرهم بالنصيحة والاجتهاد، وكان خروجه من إشبيلية في العَشر الوُسَط من جُمادى الأولى وجَوازُه غُرَّة جُمادى الأخرى، وأخذ على طريق فاس وروَّح بها نحوَ عشرين يومًا، واستمرَّت حركته إلى الحضرة مَرَّاكش.

وفي هذه السنة: شَرِكَ أبو مروان الباجيُّ مع أبي الحَكَم بن حَجَّاج رحمه الله في الخُطبة.

(١) في ب: «شعبان»، وهو غلطٌ بَيِّن.

(٢) الكامل لابن الأثير ١١٦/١٢.

وفي سنة خمس وتسعين وخمس مئة: أَمَرَ المنصورُ بإعذار الأطفال بمَرَآكش، وأن يُجعل في يد كل واحد منهم دينارٌ من الذهب ودرهمٌ من الفضة وحبّةٌ من الفاكهة الخضراء ليستغل بها الطفل عن ألمه، ويُصرفُ الدينارُ في مداواته، فكان يذهبُ في ذلك كله فوق الألف ألف ما بين ذهبٍ وفضّة، فكان هذا من مكارمه التي لم يسبقه أحدٌ إليها من الملوك المتقدّمين.

ومن فضائله المشهورة في الوجود: ما أَمَرَ به من شكلة اليهود، وذلك أنهم كانوا قد علّوا على زيّ المسلمين وتشبّهوا في ملابسهم بعيثهم وشاركوا الناس في الظاهر من أحوالهم، فلا يتميّزون من عباد الله المؤمنين، فجعل لهم صفةً كحدادٍ تُكلى المسلمين: أردانٌ قُمصهم طول ذراعٍ في عرض ذراعٍ زُرَق وبرانيسُ زُرَق وقلانسُ زُرَق، وذلك في سنة خمس وتسعين المؤرّخة^(١).

ولما اتّصل الخبرُ بابن نغزالة اللّعين عمل أرجوزته التي أولها [من الرجز]:
لُبْسُ ذا الأزرق ليس فيه خساراً فافهموا يا قوم هذي الإشارة
يذكرُ فيها بُدْأً ونُكْتاً من الحِذْثان، ويتعرّضُ فيها للتفاؤل والتطير بهذا الأزرق للسلطان.

وفي أثناء ذلك وُِعِكَ المنصورُ وعَكَه الذي توفّي منه رحمه الله، وربّما قال اللّعينُ اليهوديُّ أرجوزته بعد وفاة المنصور، وهو الصّحيح.

بعض أخبار أمير المؤمنين المنصور على الجملة

ووصيته وما ذكر الناس في موته

كان رحمه الله فاضلاً^(٢) عاقلاً، حازماً عازماً، لا تأخذه في الله لومة لائم، متواضعاً لله مجاهدًا في سبيل الله، وذكر عنه أنه لما قتل أخويه بمدينة سلا رأى بعد ذلك أباه في منامه وهما عن يمينه وشماله فقال له: يا يعقوب، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ * ثُمَّ إِنَّكُمْ

(١) المعجب ٣٨٣.

(٢) سقطت من ب.

يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ ﴿[الزمر: ٣٠-٣١]، وذكر أبو عبد الله بن هاودوش في تأليفه، أن أبا العباس الجراوي قال للمنصور لما ذكر أن أخاه كان طامعاً في ولاية إمرة المؤمنين وأن قومًا كانوا يحدثونه ويؤملون ذلك له، فقال أبو العباس: يا سيدنا، قد كان عبدكم، يعني نفسه، قد أنشدكم على جهة التفاؤل لكم بذلك قصيدة أولها [من الكامل]:

الدَّهْرُ مَنَّا فِي مَدِيحِكَ أَفْصَحُ فَعَلَى مَا يُتَعَبُ نَفْسَهُ مِنْ يَمَدْحِ
أَنْتَ الْمَرْشُوحُ لِلَّتِي لَا فَوْقَهَا إِنَّ الْعَظِيمَ لِمِثْلِهَا يَتَرَشَّحُ

فقال له: صدقت، كذلك كان، وأمر له بصلة جزلة في ذلك اليوم.

وأشد أبو عبد الله بن هاودوش أبياتاً لنفسه قالها في ابن قاسم حين ورد على المنصور، فلم يُقَمَّ أكثر من جُمعة إلا وقُبِضَ المنصورُ رحمه الله تعالى، وهي [من الطويل]:

إِذَا أَهْمَلَ الدَّهْرُ الْفَتَى كَانَ جَدُّهُ لِيَنْجُوَ مِمَّا نَالَهُ غَيْرُ عَاصِمِ
وَمَنْ كَابَرَ الدَّهْرَ اسْتَعَدَّ إِلَى الَّذِي يَجِيءُ بِهِ لِلْحَيْنِ شَوْمُ ابْنِ قَاسِمِ
أَتَى زَائِرًا دَارَ الْإِمَامِ كَأَنَّمَا زِيَارَتُهُ وَالرُّزْءُ ضَرْبَةٌ لَازِمِ
أَنَاهَا فَأَلْفَاهَا دِيَارَ مَسْرَةٍ فغَادَرَهَا الْمَشْؤُومُ دَارَ مَاتِمِ

أخبرني الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح، قال: حدثني الفقيه أبو محمد عبد الرزاق بن عمر الساكن بموضع أبي خراش، أن جدّه أبا عمر كان من طلبة يعقوب المنصور، وحضر معه غزوة الأرك، قال: لما رجع المنصور من تلك الغزوة ونزل بإيجليز، استدعى أشياخ المصامدة، فقال لهم: لمن كان هذا الموضع الذي بُنيت فيه مراكش؟ فقالوا له: نصفه لهيلانة ونصفه لزميرة، قال: فاطلبوا لي أصحابه، فأتوه بأقوام، فأعطاهم ثمنه وحينئذ دخل مراكش.

ولما وعك رحمه الله الوعك الذي توفي منه من اختلاف أهوية الأقاليم - فقد كان بارزاً لهواجرها وأمطارها أزمنة متوالية، فخاف على نفسه القوات، وعلم أن الكل إلى الممات - أمر بإحضار شيوخ الموحدين ووجوه أهل بيته من صغارهم وكبارهم والأعيان

من أهل خَدَمَتِهِ، ودَخَلَ الجميعُ إليه في مجلسِ مَرَضِهِ بِحَوْمَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِي اخْتَطَّهَا لِنَفْسِهِ
ولغيرِهِ، فأَخَذَ يُذَكِّرُهُم بِعَوَائِدِ الأَمْرِ وَفَضَائِلِ جَمَاعَتِهِ، وَيُؤَكِّدُ عَلَيْهِمُ التَّزَامَ مَا كَانُوا
عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَالْعَمَلَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّتِهِ، وَالْوَفَاءَ بِعَهْدِهِ وَمَوَاقِفِهِ،
وَأَبْلَغَ فِي الوَصِيَّةِ وَالتَّوْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِقُدْرَةِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ، وَمَا شَابَهُ
ذَلِكَ مِنَ الوَصَايَا النَّافِعَةِ فِي حَقِّ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَالْقِيَامِ بِالأَمْرِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُخْلَصُ فِي
الأُولَى وَالأُخْرَى، وَأُورِدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ مَا لَمْ تُورِدْهُ عَلَى الرِّوْيَةِ الْخُطْبَاءُ
وَلَا بَلَغَتْ كُنْهَهُ الأُدْبَاءُ، حَتَّى أَجْهَشَ الْحَاضِرُونَ بِالْبُكَاءِ، وَكَادَتْ تَنْفَطِرُ لَوْصَايَاهُ
أَكْبَادُ الأَوْلِيَاءِ، وَلَمْ يَتْرُكْ ذَا فَضِيلَةٍ مِنْ رِجَالِهِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ إِلَّا أَشَارَ إِلَيْهِ، وَلَا
صَاحِبَ مَزِيَّةٍ إِلَّا نَبَّهَ عَلَيْهِ، وَانْفَصَلَ هَذَا الْمَجْلِسُ وَقُلُوبُ مَنْ حَضَرَ قَدْ مُلَّتْ خَشَوْعًا
وَوَفَاءً، وَحَمَايَةً وَإِبْقَاءً.

وَهَا أَنَا أَذْكَرُ وَصِيَّتَهُ عَلَى نَحْوِ مَا وَقَعَتْ وَصَحَّحَهَا قِرَابَتُهُ وَالْمُؤَرِّخُونَ لِدَوْلَتِهِ،
وَهِيَ هَذِهِ، لَمَّا أَمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِدُخُولِ أَشْيَاخِ الْمُؤَحِّدِينَ عَلَيْهِ وَاسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَجْلِسُ،
سَكَنَ بَعْضُ سُكُونٍ وَشَخَّصَ بِبَصَرِهِ فِي النَّاسِ وَعَيْنَاهُ قَدْ تَغَرَّغَتْ بِالْدَّمْعِ، فَسَأَلَ النَّاسَ
عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ رَحِمَكُمُ اللَّهُ، إِنَّ هَذِهِ الْعِلَلُ وَالْأَمْرَاضُ قَدْ
تَوَالَتْ عَلَيْنَا وَهَدَّتْ قُورَانَا وَهَتَكَتْ جَوَارِحَنَا، وَأَظُنُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ أَنَّ هَذِهِ الْعِلَّةَ آخِرُ
عَهْدِنَا بِهَذِهِ الدُّنْيَا، وَأَنَّهَا الْقَاضِيَةُ عَلَيْنَا، فَانْظُرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ وَأَعَانِكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ مَنْ
تَقَدَّمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ، فَخَنَقَتْ النَّاسَ الْعَبْرَةُ وَتَشَاغَلُوا بِالْبُكَاءِ،
فَتَكَلَّمَ الشَّيْخُ أَبُو مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الشَّيْخِ أَبِي حَفْصِ بْنِ عَلِيٍّ وَقَالَ: كَأَنَّكُمْ يَا أُمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ يَا سَيِّدَنَا تُخْرِسُنَا بِهَذَا الْقَوْلِ: أَبَعْدَ قَوْلِ قَوْلَانِ، أَوْ فَعَلَ فَعْلَانِ؟ أَأَنْتُمْ أُمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ،
فَإِنْ تُوفِّقْتُمْ فَلِى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْجَمِيعُ صَائِرُونَ وَمُنْقَلِبُونَ إِلَى مَا تَصِيرُونَ إِلَيْهِ، وَكُنْتُمْ
قَلْدُمُونَا عَهْدَكُمْ الْكَرِيمَ لِسَيِّدِنَا الأَمِيرِ الأَجَلِّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِيْنِكُمْ، وَمَا رَبَطْنَاهُ فِي حَيَاتِكُمْ
فَنَحْنُ بَاقُونَ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تَلْحَقَ نَفُوسُنَا بِنَفُوسِكُمْ، وَهُوَ خَلِيفَتُكُمْ عَلَيْنَا بَعْدَكُمْ.

وَلَمَّا فَتَحَ الْكَلَامَ الشَّيْخُ أَبُو مُوسَى وَجَدَ الْحَاضِرُونَ لِلْكَلامِ فَصْلًا، فَتَكَلَّمَ كُلُّ
وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ وَسْعِهِ فِي الْكَلَامِ وَمَعْرِفَتِهِ فِي الْخُطَابِ، فَقَالَ لَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُلُّ مَا

ذَكَّرْتُمْ سَمِعْنَا، وَلَكِنْ مَا شَغَلَ نَفُوسَنَا شَيْءٌ سِوَى صِغَرِ سَنَةٍ، وَاللَّهُ مَا خَفِيَ وَلِلنَّاسِ مَا ظَهَرَ، وَإِذَا وافَقْتُمْ عَلَى مَا ذَكَّرْتُمْ فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِالْيَمَنِ وَالْإِقْبَالِ وَالتَّوْفِيقِ فِيمَا أَدْعَيْتُمْ وَعَلَيْهِ عَوَّلْتُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُكُمْ وَيُعِينُهُ بِكُمْ لَا رَبَّ سِوَاهُ، وَإِذَا كَانَ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا تَتْرُكُوهُ لِرَأْيِهِ حَتَّى يَتَنَبَّهُ وَيُظْهَرَ وَيَكْمُلَ عَقْلُهُ وَيَفْعَلَ اللَّهُ بَعْدَ هَذَا مَا يَشَاءُ. ثُمَّ التَفَتَ إِلَى السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ وَأَخِيهِ السَّيِّدِ أَبِي زَيْدِ ابْنِي السَّيِّدِ أَبِي حَفْصٍ وَقَالَ: إِنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ لَحَيْرٌ هَذِهِ الْبَيْتَةِ، كُنَّا قَدَّمْنَاهُمَا عَلَى إِخْوَانِنَا وَعَلَى بِلَادِنَا فَلْيَكُونَا عَلَى مَا عَهَدْنَاهُمَا عَلَيْهِ وَمَا رَبَطْنَا لَهُمَا فِي حَيَاتِنَا.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهَؤُلَاءِ الطَّلَبَةُ، يَعْنِي السَّادَاتِ، إِنَّ أَمَكَنَكُمْ أَلَّا تَصْرَفُوا أَحَدًا مِنْهُمْ فَهُوَ الْأَحَقُّ لَهُمْ وَلَكُمْ، وَإِنْ أَحْوَجَتْكُمْ الضَّرُورَةُ إِلَى تَصْرِيفِهِمْ فَإِيَّاكُمْ وَالطَّبْلَ، وَإِيَّاكُمْ وَالطَّبْلَ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُحِفُّ الْأَدِمَةَ وَيَحُولُ الْعُقُولَ، ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهَؤُلَاءِ الْأَشْيَاخُ، يَعْنِي أَبَا زَكَرِيَّا وَأَبَا مُحَمَّدَ عَبْدَ الْوَاحِدِ، لَا تَتَخَيَّلُوا أَنَّ دُخُولَهُمْ عَلَيْنَا وَخُرُوجَهُمْ مِنْ عِنْدِنَا كَانَ غَايَتُهُ هَذَا الْيَوْمَ، فَإِنَّا لَهَذَا الْوَقْتُ أَدْخَرْنَاهُمَا، فَلْيَكُونَا شَيْخِي مُحَمَّدَ وَعَوْنًا لَهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْخَيْرِ، وَلَا يَصْدُرُ أَمْرٌ إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِمَا وَرَأْيِهِمَا.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذَا الرَّجُلُ أَبُو الْغَمَرِ هُوَ مِنْ عُقَلَاءِ النَّاسِ وَأَتَمِّهِمْ صَيَانَةً وَعِفَافًا، وَقَدْ انْقَطَعَ إِلَيْنَا وَعَوَّلَ عَلَيْنَا، فَلْتَكُونُوا لَهُ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا، وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ الْغَائِبُ عَنَّا الْحَاضِرُ فِي نَفُوسِنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، غَرَضُنَا فِيهِ أَنْ تُجَرِّوهُ عَلَى السَّنَنِ الَّذِي أَجْرَيْنَاهُ، وَتَحْفَظُوا جَانِبَهُ وَتَوْفُوهُ حَقَّ انْقِطَاعِهِ إِلَيْنَا حَتَّى يَظْهَرَ عَلَيْهِ بَرَكَةُ انْحِيَاثِهِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفْرِيطَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفْرِيطَ فِي هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ أَطْرَقَ سَاعَةٌ وَعَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ دُمُوعًا، وَقَالَ: أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَبِالْأَيْتَامِ وَالْيَتِيمَةِ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدَ عَبْدَ الْوَاحِدِ: يَا سَيِّدُنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ الْأَيْتَامِ وَالْيَتِيمَةِ؟ قَالَ: الْيَتِيمَةُ جَزِيرَةُ الْأَنْدَلُسِ، وَالْأَيْتَامُ سُكَّانُهَا الْمُسْلِمُونَ. وَإِيَّاكُمْ وَالْغَفْلَةَ فِيمَا يَصْلُحُ بِهَا مِنْ تَشْيِيدِ أَسْوَارِهَا وَحِمَايَةِ ثُغُورِهَا وَتَرْبِيَةِ أَجْنَادِهَا وَتَوْفِيرِ رِغْيَتِهَا، وَلِتَعْلَمُوا، أَعَزَّكُمْ اللَّهُ، أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفُوسِنَا أَعْظَمُ مِنْ هُمَاهَا، وَنَحْنُ الْآنَ قَدْ اسْتَوْدَعْنَاهَا اللَّهُ تَعَالَى وَحُسْنُ نَظَرِكُمْ فِيهَا، فَانظُرُوا أَمِنْ الْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُوا الشَّرَائِعَ عَلَى مِنْهَاجِهَا.

ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاء الأغزاز أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها، فاتركوها على ما رتبنا وربطنا؛ لأنّ الموحدّين لهم سهام يرجعون إليها، وليس للأغزاز سهام. ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاء العرب تُدارونهم وتلاطفونهم وتحسّنوا إليهم، ومن وفّد عليكم منهم تعطونه وتحسّنون^(١) إليه غاية الإحسان وتشغلونهم بالحركات ولا تتركونهم للعطلة والراحات.

ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاء الطلبة - يعني طلبة الحضر - تجعلون لهم موضعاً يكونون بخاصّتهم يشتغلون فيه بالمذاكرة حتى يشبّ محمدٌ ويكمل عقله بعقولهم. ثم قال رضي الله عنه: وهذا الرجل، أبو القاسم ابن بقي، كنّا قدّمناه على القضاء لعلّنا بعافه وطهارته ولضعف مؤوّنته وقلة طمعه، فلتركوه على أمره حتى يقضي الله ما يشاء.

ثم قال رضي الله عنه: وهذا عبد الرحمن بن يوجان، كنّا قد أشغلناه بأشغالنا وصرفناه في أعمالنا، فوالله ما رأينا في شُغله وخدمته ما يغيّر نفوسنا عليه، ولا ظهر لنا منه طمع، ولم تكن عادة غيره، كذلك، فلتركوه على شُغله حتى ينفذ أمر الله. وذكر رضي الله عنه قبائل الموحدّين قبيلًا بعد قبيل، وأوصى بهم قبيلًا بعد قبيل، وبمزاورتهم، ثم حوّل وجهه^(٢) إلى الحكّام والأشياخ وقال لهم: ثرانا نذهب عنكم إلى دار البقاء ونترُككم في دار الفناء، وقد أزلنا من أعناقنا وجعلنا في أعناقكم هذه القلادة نُطلبُكم بها بين يدي الله تعالى، فانظروا من المسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها وأمّشوا أوامر الله سبحانه وسنة نبيه محمد ﷺ على ما يجب، وإياكم والباطل، وإياكم والباطل، والله تعالى يُعينكم ويُعينُ بكم ويُلهمكم لِمَا فيه صلاحُكم، ثم دَعَا للناس، وخرج الموحدّون عنه، فلم يره أحدٌ بعد ذلك اليوم رحمة الله تعالى عليه.

(١) في ب: «تعطوه، وتحسّنوا»، واحتساب «من» هنا موصولة أفضل، لرفعه الأفعال المضارعة بعده.

(٢) سقطت من ب.

حَدَّثَنِي الشَّيْخُ أَبُو الْوَفَاءِ عَدَلٌ^(١)، قَالَ: حَدَّثَنِي السَّيِّدُ أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ السَّيِّدِ أَبِي مُوسَى ابْنُ الْمَنْصُورِ، قَالَ: خَرَجَ سَيِّدُنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى رِيَاضِ الْكَبِيرِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ جَمِيعُ أَوْلَادِهِ الْكَبِيرِ مِنْهُمْ وَالصَّغِيرِ، وَهُمْ فِي نَحْوِ خَمْسَةِ عَشَرَ وَلَدًا، فَنَظَرَ نَظْرَةً إِلَيْهِمْ ثُمَّ التَفَتَ مِرَارًا يُكْرِرُهُ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ قَالَ لَهُمْ وَلَمَنْ حَضَرَ مَعَهُمْ: رَأَيْتُمُ الْبَارِحَةَ فِي مَنَامِي سَيِّدَنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي وَهُوَ فِي هَيْئَتِي وَعَلَى شِبْهِ صُورَتِي هَذِهِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا مَعَكُمْ وَأَوْلَادُهُ مَعَهُ كُلُّهُمْ كَمَا أَنْتُمْ أَوْلَادِي مَعِي، وَكَلَّمَنِي كَيْفَ أَكَلَّمَكُمُ فَقَالَ لِي: يَا يَعْقُوبُ، لَمْ تَقْتُلْ أَخَاكَ وَعَمَّكَ؟ فَمَا كُنْتَ...^(٢) عَلِيٍّ مِرَارًا، كَأَنَّهُ يُعَيِّنُنِي عِتَابًا، ثُمَّ قَالَ لِي: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣﴾، ثُمَّ بَكَى الْمَنْصُورُ حَتَّى بَلَغَتْ دُمُوعُهُ لَحْيَتَهُ، وَلَمَّا...^(٣) يَوْمَ بَعَثَ عَجَائِزَ كَنَّ عِنْدَهُ صَالِحَاتٍ مَقْرَبَاتٍ إِلَى أُمِّ أَخِيهِ وَإِلَى أُمِّ عَمِّهِ - وَقِيلَ: إِلَى زَوْجَةٍ...^(٤) أُمٌّ...^(٥) وَزَوْجَتَهُ، بِذِكْرِ الْعَجَائِزِ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا بِالْإِعْتِذَارِ فِي شَأْنِ ابْنَيْهَا، أَوْ زَوْجَتِهَا،...^(٦) وَحَشَمَهَا أَنْ يَنَالُوا مِنْهَا وَيُنْكَلُوا بِهَا، فَتَرَكَهَا الْعَجَائِزُ وَلَمْ يَرَوْهَا وَتَوَجَّهُوا إِلَى أُمِّ السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ أَخِي الْمَنْصُورِ، فَعِنْدَمَا سَمِعَتْ بِهَا أَدَخَلَتْهَا عَلَيْهَا فَسَلَّمُوا عَلَيْهَا فَأَكْرَمَتْهُمْ وَسَأَلَتْهُمْ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَبْلَغُوها سَلَامَهُ وَعَرَّفُوها بِكَلَامِهِ وَأَنَّهُ يَرَغِبُ مِنْهَا أَنْ تَجْعَلَهُ فِي حِلٍّ مِنْ دَمِ ابْنَيْهَا، فَذَكَرَتْ خَيْرًا وَقَالَتْ: إِنْ كَانَ ابْنِي فَهُوَ أَخُوهُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا عَمِلَ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ مِنِّي، وَقَدْ وَهَبْتُ لَهُ مَالِي فِي دَمِهِ وَغَفَرْتُ لَهُ.

وَلَمَّا وَصَلَ الْعَجَائِزُ إِلَى الْمَنْصُورِ عَرَّفُوهُ بِكَلَامِهَا فَشَكَرَهَا، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَنْ أَفْجَعَنَّاهَا فِي ابْنَيْهَا لَنَرَيْنَهَا الْأَمَلَ فِي أَحْيَاهَا، ثُمَّ وَلَّى أَخَاهَا وَلايَةَ فَاسَ وَأَعْمَالَهَا وَالنَّظَرَ فِي

(١) الضبط من ب، ق.

(٢) بياض في النسخ بقدر أربع كلمات.

(٣) بياض في النسخ قدر نصف سطر.

(٤) بياض في النسخ قدر كلمتين.

(٥) بياض في النسخ قدر كلمة.

(٦) بياض في النسخ قدر كلمتين، لعلها: «وأمرت خدمها».

أشغالها، وبعد ذلك أخره عنها ونقله إلى ولاية مالقة فبقي والياً على مالقة مدة من ثلاثين سنة؛ لأن المنصور أوصى عليه ابنه الناصر وأمره أن يوصي عليه لبنيه، فما عُزل عن تلك الولاية ولا انتقل عن مالقة إلى أن توفي بها رحمه الله تعالى.

وذكروا - والله أعلم - أنه من وقت تلك الرؤيا التي رآها المنصور، قام بنفسه أن يختلَع عن المُلْك ويبقى يعبدُ الله حتى يموت، فقدم ابنه الناصر وأوصى وصاياه وغاب، وأخبر الناس بموته والله أعلم بحقيقة أمره.

وأما ما ذكر عنه من قتل أخيه وعمه فقد تَصَطَّرُ الملوك إلى هذا: المأمون عبد الله العباسي: قتل أخاه محمداً الأمين، المعتز: قتل أخاه، عبد الله بن محمد الأموي: قتل أخويه، ابن طولون صاحب مصر قتل أخاه، ابن حمدان: قتل أخاه، إبراهيم بن زيادة الله: قتل جميع إخوته، صاحب خراسان نصر بن أحمد: قتل أخاه، إبراهيم بن حجاج صاحب إشبيلية: قتل أخاه محمداً، عباد بن محمد: قتل أخاه عبد الله ثم قتل ابنه إسماعيل الملقب بالمنصور وكان خليفته المرشح لمكانه، سليمان بن عبد الملك: قتل ابنه سرّاً، عبد الله بن محمد الأموي بالأندلس: قتل ابنه: المطرف ومحمداً، عبد الرحمن الناصر الأموي: قتل ابنه عبد الله بسعاية الحكم ولده الآخر ذبحه يوم عيد الأضحى، المنصور بن أبي عامر: قتل ولده عبد الله، أبو جعفر المنصور: قتل عمه عبد الله بن علي، المعتضد العباسي: غرق عمه أبا عيسى، المعتضد المذكور: قتل عمه الآخر المعتمد ف قيل: سمّه وقيل: بل فتح فاه عند رقادِه فأفرغ في حلقه رصاصاً مُذاباً، عبد الله بن الموفق: قتل ابن عمه المكتفي، الحكم الرضي قتل عمه سليمان - عبد الرحمن الناصر قتل عمه العاصي، يحيى بن علي بن حمود: قتل [ابن] ^(١) أخيه إدريس، زيادة الله بن الأغلب: قتل جميع أعمامه، المنصور بن أبي عامر: قتل ابن عمه عسكلاجة وقتل أخاه وقتل ابنه، وغير هؤلاء.

وسياسات الملوك لا تُعرَضُ للامتحان ولا تحتلُّ التمحيص وال...

(١) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق؛ لأنه ابن عمه لا عمه، كما هو معروف.

...^(١) الخبر لوفاة المنصور وما ذكر فيها

قيل: توفي، رحمه الله، ليلة الجمعة الثاني عشر لربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمس مئة^(٢) ودُفن بمجلس سُكناه^(٣) حضرة مراكش ثم نُقِلَ منها إلى تينمل بعد ترتيب القراء عليه يومًا كاملاً، فتصدّعت لفقده الجُمادات، وتفتّرت لمُصابه القلوب القاسيات، وكذب [الكافة]^(٤) من العامة بوفاته وصارت تصرّخ حيث سارت بحياته، فأوَّنةً يجعلونه مُرابطاً ببلاد الأندلس^(٥) على استكثام، وتارةً يُثبتونه حاجاً إلى بيت الله الحرام، تمسّكاً بحبّه...^(٦) لقدره، واتباعاً لهوى النفس في التلذُّذ بذكره.

أخبرني الحاجُّ ابنُ مَرِينَة قال: أخبرني بعضُ المشاركة في بلادهم أنّ قبرَ المنصور ملكِ المغرب في بلاد الشام^(٧)، وكانت ولا ريبَ ولا اختلاف أنّ المنصورَ رحمه الله، كان رجلاً صالحاً عالماً فاضلاً، وثبَّتَ عند قرايته وأهل بيته أنّ قبره بتينمل، وقال بعضهم: إنه هو الذي أخرجه المليانيُّ من قبره وزعم أنه المَهديُّ، وذلك في سنة أربع وسبعين وست مئة، وهذا ما بلغنا من وفاته. تَمَّت أخباره.

(١) بياض في النسخ قدر كلمة.

(٢) اختلف في وفاته، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أنه توفي في غرة صفر (المعجب ٣٨٥)، وذكر النويري أن وفاته كانت في سابع عشر ربيع الآخر (نهاية الأرب ٣٣٨/٢٤). أما ابن الأثير فذكر أن وفاته في ثامن عشر ربيع الآخر، وقيل: جهادى الأولى (الكامل ١٢/١٤٥).

(٣) من هنا إلى قوله: «وتفتّرت» سقط من ق، ب.

(٤) ما بين الحاصرتين فراغ في ق، ب.

(٥) قوله: «مرابطاً ببلاد الأندلس» فراغ في ق، ب.

(٦) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

(٧) قال ابن خلكان: «ثم حكى لي جمع كبير في سنة ثمانين وست مئة بأن بالقرب من المجدل البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يُعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين» (وفيات الأعيان ١٠/٧)، وقال الذهبي بعد نقله لهذا الخبر: قلت: الأصح موته بالمغرب (تاريخ الإسلام ١٢/١٠٦٤).

ذِكْرُ بَيْعَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ النَّاصِرِ لِلدِّينِ اللَّهِ وَصَحَّامَةِ دَوْلَتِهِ وَمَهَابَةِ سَطْوَتِهِ

نَسَبُهُ: هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن.

بُويعَ بَيْعَةَ الْعَامَّةِ بَعْدَ أَسْبُوعٍ مِنْ وَفَاةِ أَبِيهِ، وَذَلِكَ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَتَسْعِينَ، وَاسْتَوْسَقَتْ لَهُ الْخِلَافَةُ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ، وَقَدْ كَانَ بُويعَ فِي خِلَافَةِ أَبِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، فَكَانَتْ خِلَافَتُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا أَوَّلُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ لِرَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وَتَسْعِينَ الْمَذْكُورَةِ، وَآخِرُهَا يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ الْعَاشِرِ لَشَعْبَانَ الْمَكْرَمِ سَنَةِ عَشْرِ وَسِتِّ مِائَةٍ (١).

وَلَمَّا اسْتَوْسَقَتْ الْقِبَائِلُ بِالْقُدُومِ لِلْمَبَايَعَةِ، وَبَلَغَتْ وَاجِبَهَا مِنَ الْمِبَادَرَةِ وَالْمَسَارَعَةِ، وَكُمُلَ الْوَارِدُونَ وَالْوَفُودُ بِالْوُصُولِ، وَقَضِيَ مِنْ تَمْشِيَةِ السِّيَاسَةِ وَتَهْدِيقِ الْمَمْلَكَةِ وَتَطْيِيبِ النُّفُوسِ كُلِّ مَأْمُولٍ، وَوَصَلَتْ الْبَيْعَاتُ مِنَ الْبِلَادِ، وَخَرَجَتْ الْبَرَكَاتُ لِلْمُوحَّدِينَ وَالْأَجْنَادِ، أَنْشَدَتِ الشُّعْرَاءُ فِي التَّهْنِئَةِ بِتَجْدِيدِ الْبَيْعَةِ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْجُرَّائِيُّ مِنْ قَصِيدَةٍ [مِنَ الْكَامِلِ]:

لَهَجَتْ بِذِكْرِكَ أَلْسُنُ الْمُدَّاحِ	وَسَمَتْ بِذِكْرِكَ رُتَبُهُ الْأُمْدَاحِ
أَزْرَى نَدَاكَ بِكُلِّ بَحْرِ زَاخِرٍ	هَبَّتْ عَلَيْهِ عَوَاصِفُ الْأُرُوحِ
بِمُحَمَّدٍ وَزَرَ الْوَرَى وَبِمَاهِمِ	فِي كُلِّ يَوْمٍ نَدَى وَيَوْمِ كِفَاحِ
فَرَعٌ سِيحْكِي أَصْلَهُ وَلَقَدْ حَكَى	بِمَقَاصِدٍ قَدْ سُدِّدَتْ وَسِلَاحِ
تَأْيَبَى الْخِلَافَةُ مِنْ سِوَى أَكْفَائِهَا	وَالْجَدُّ غَيْرُ مُقَابِلٍ بِمُزَاجِ
غَشِيَتْ بِنُورِكُمْ الْبِلَادُ فَمَنْ بِهَا	أَغْنَى عَنِ الْإِصْبَاحِ وَالْمَصْبَاحِ
سَكَنْتَ بِبَيْعَتِهِ الْقُلُوبُ وَلَمْ تَزَلْ	تَهْفُو مِنَ الْإِشْفَاقِ دُونَ جَنَاحِ

(١) المعجب ٣٨٦، ونهاية الأرب ٣٣٩/٢٤، وتاريخ الإسلام ٢٥٠/١٣، وتاريخ ابن خلدون

عَمَّ السُّرُورُ بِهَا الْبَسِيطَةَ كُلَّهَا كَالصُّبْحِ فَاصَّرَ عَلَى رُبَى وَبِطَاحِ
لَا زِلْتَ لِلْأَعْيَادِ تَمْنَحُ بِهِجَةً يُعْيِي سَنَاها أَعْيُنَ اللَّمَّاحِ
مُسْتَوْفِيًا مَدَدًا إِلَى مَدَدِهَا رَبِّدًا طِوَالِ لَا تُعَدُّ فِسَاحِ
مُتَسَرِّبًا بِالسَّعْدِ مَتَشَحًّا بِهِ مُسْتَفْتَحًا بِالْوَاحِدِ الْفَتَّاحِ

وقال أيضًا في هذه البيعة من قصيدة طويلة منها [من الكامل]:

صَنَعَ جَمِيلٌ جَلَّ عَنْ أَنْ يُوصَفَا^(١) يُوْجِدُ بِهِ كَمَا لَا وَاكْتَفَا
ومنها:

هِيَ بَيْعَةٌ أَحْيَا إِلَهٌ بِهَا الْوَرَى وَحَمَى بِهَا دِينَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
سَبَقَتْ قُلُوبُ الْخَلْقِ أَيْدِيَهُمْ بِهَا وَرَجَا زَمَانُهُمْ بِهَا أَنْ يُسْعِفَا
كُلُّ يُمْدُودِ الضَّرَاعَةِ رَاغِبًا فِي نَيْلِهَا مُسْتَرْحِمًا مُسْتَعِظَا
جَمَعَتْ صِلَاحَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا مَعًا وَغَدَا بِهَا شَمْلُ الْعُلَا مَتَأَلَّفَا
مَا مِنْ تَقِيٍّ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَقَدْ سُرَّتْ لَهُ نَفْسًا وَهَزَّتْ مُعْطَفَا
لَبَّى مُنَادِيهَا بِقَلْبٍ مُخْلِصٍ مُتَبَرِّكًا بِحُضُورِهَا مُسْتَشْرِفَا
أَنْسَتْ مَا آثَرُهُ مَا آثَرَ يَعْرُبٍ وَسَمَتْ بِقَيْسٍ فِي الْعِلَاءِ وَخِنْدِفَا
فُتَّ الْمَدَائِحُ فَالْبَلِيغُ مَقْصَرٌّ وَلَوْ أَنَّهُ نَظَّمَ الْكَوَاكِبَ أَحْرَفَا
لَا زِلْتَ بِالْمَلَأِ الْعَلِيِّ مُؤَيَّدًا وَلِصَّرَفِ دَهْرِكَ كَيْفَ شَتَّ مُصَرَّفَا

وَأَسْتَوَزَّرَ أَبَا زَيْدَ بْنَ يُوْجَانَ وَشَرَعَ فِي مَصَالِحِ الْبِلَادِ، وَمَا يَجِبُ مِنَ النَّظَرِ الصَّالِحِ
لِحِمَايَةِ الْعِبَادِ^(٢)، فَقَدَّمَ السَّيِّدَ أَبَا زَيْدَ الْحَسَنِ ابْنَ السَّيِّدِ أَبِي حَفْصٍ عَلَى بِجَايَةِ وَجْهَاتِهَا

(١) لم يبق في النسخ الخطية من الكلمة سوى الياء والواو، والبيت على كل الأحوال غير موزون
لنقص فيه واختلال.

(٢) المعجب ٣٨٧.

وسائر أنظارها وأقطارها، وأمدّه بالرجال وبَسَطَ يده على الأموال، وقَدَّمَ أخاه السيّد أبا محمد بن المنصور على إشبيلية وأخر عنها السيّد أبا زيد ابن الخليفة.

وفي سنة ست وتسعين في أولها: توالّت عليه الأنباء من إفريقية بإجحاف العدوّ بأطرافها وانبساط العرب على بساطها، والتّامها مع مَنْ بها من الأشقياء وتغلّبهم على بعض معاقليها، فتحرّك إليه السيّد أبو الحسن ابن السيّد أبي حفص من بجاية في عسكر مشتّت الآراء عديم النّصحاء، قليل أهل الغناء، ملفّق من أعراب حثالة أطماع، وكلاب جِياع، وبقايا مكر وخداع، فنزل بظاهر قُسْنطينة وترك مضاربته مشتملة على حشيشها، خاوية على عروشها، والعدوّ قد عَرَفَ من جهة العرب بواطن أحوالها، وأرصد كمائنّه عن يمين السيّد وشماله.

وعندما تراءى الجمعان، وتقارب الفريقان، نكص أوباش العرب عن السيّد وما كان من خذلانهم على أعقابهم وكروا كالمهزمين إلى محلة السيّد لأخذ المال والأثاث على زعمهم، فأخفق مسعاهم، وخائهم ظنّهم الكدوب ورجاهم، وخسروا دُنياهم وأخراهم، وعند انخزال العرب المذكورين عن السيّد وما كان من خذلانهم وغدرهم وعدوانهم، ثبّت السيّد مع أهل الحفيظة من جماعة الموحّدين وأبلّوا بلاء أمثالهم الصّابرين، حتى تلاحقت كرائنُ الأعداء فصار السيّد وأصحابه بين أنياب المَنُون وأخذتهم كمائنّه بالشمال واليمين، فلم يجد أكفأ مدافعتهم ولا أعواناً لمصادرهم، فاستسلموا إلى الانحدار، منهم على مُدافعة ومنهم مَنْ بادر بالفرار، وانجرت الهزيمة على الموحّدين أميالاً وفقدوا فيها رجالاً وأموالاً، وانسلخ السيّد أبو الحسن من غمارة الهزيمة ووصل إلى حصن قُسْنطينة مع اللّيل عاريّاً من كلّ شيء، واتصل بالناصر ما كان... ^(١) هذه المعركة واستيلاء العدو على تلك الجهة، فوقّع النظر على تجديد وال لإفريقية ^(٢).

وفي هذه السنة: أنفذ الناصر لدين الله السيّد أبا زيد إلى تونس واليا عليها مع جماعة من الموحّدين والأجناد ليتلافى بالإمساك أرماق أهلها، ويسدّ ما وقع من خللها، ويُداوي ما أمكن من عللها، فخرج من مراكش وأعدّ السير حتى وصلها على طريق

(١) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣١.

الساحل ودخلها تحت غَرَر من انتشار العدوَّ بجَنَابتها فلم يَغْنَ بها غَناء، ولا رَفَعَ عن أهلها عناء، وأَنَسَ العدوُّ بضعفه وقلة دفاعه، واتَّصل عمَلُه بأطماعه. وتمَلَّك الغويُّ حصنَ المَهْدِيَّة، واتَّصل بأحواز قُسْنُطِينَة، واستفحل ضرُّه وقوي شرُّه، واشتعل بتلك البلاد جَهْرُه.

وتَوالت هذه الأنباء على حضرة الناصر واتَّسعت بذلك الأراجيفُ وشُنعت الزَّخاريف، فتَجَرَّد للنظر وأَبْرَمَ العَزَمَ وقَدَّمَ الحَزَمَ في إصراخ تلك الجهات وإمدادها بعسكر وافرِ الأعداد، شامل الاستعداد، فتقدَّم لتمهيد ما بها من التغلغل والاضطراب، والإشراف على ما ينظر بِجَايَة من أوباش الأعراب، وأَمَرَ على هذا الجيش الوزير ابن يُوْجَّان فخرَج معتمداً على حُسن عقيدته، ومُسْتنداً لله تعالى وكريم عادته، واستقرَّر بتِلْمَسان، ثم تدرَّج إلى بِجَايَة ثم إلى قُسْنُطِينَة ثم عاد إلى تِلْمَسان فوصله الأمرُ بالنظر في أعمالها وجميع أشغالها، ثم وصله الأمرُ بالانتقال إلى فاسَ لِعَمالِتها وأقام بها إلى أن مَشَى في خِدْمَة الناصر إلى إفريقية.

وفي سنة سبع وتسعين وخمس مئة: عزَل الناصرُ لدين الله أخاه عن إشبيلية ثم بعد ذلك فَهَم عنه الرَّغْبَة في ولايتها فأسَعَفَه في رغبته.

وفيها: كان السَّيْلُ الشَّيْع بوادي إشبيلية هلك فيه أُمَّمٌ لا يحصيهم إلا الله، وذلك بجَفْنِ إشبيلية وبكُلِّ من كان بصفتي الوادي من قُرْطُبَة إلى جزيرة قادس. وقيل: إن الذي ذهب من دور إشبيلية بهذا السيل ستة آلاف دار، وذكر التجارُ الواصلون من غرب الأندلس أنهم عثروا بالرمال الكبار على سبع مئة شخص من العَرَقِي، قال ذلك يوسُف بن عُمَر في تاريخه، وقال الراوي: إن هذا السَّيْلُ بإشبيلية تقدَّمته سيول كثيرة حتى قال الشاعر [من السريع]:

لله حمصٌ أيما بلدةٍ لو أننا نأمنُ ثعبانها
طاف بها والريُّ روحٌ له فابتلع الأرض وسكانها

وفي سنة ثمان وتسعين وخمس مئة: تحرَّكت أنباءُ الثائر الجُرُوليِّ المعروف بأبي قَصَبَة واتَّصل ببلاد السُّوس وشاع أمرُه وسرى شرُّه وتأجَّج جَهْرُه، فتحرَّك الناصرُ لدين الله

إلى رَجْرَاجَةٍ وَنَظَرَ فِي أَمْرِهِ وَأَنْفَذَ عَسْكَرًا بَرَسْمَهُ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ بِسُوءِ مَكْرِهِ فَهَزَمَ عَسْكَرَهُ وَحُزَّ رَأْسُهُ وَسِيقَ إِلَى الْحَضْرَةِ، وَكَانَ أَبُو قَصَبَةَ هَذَا لَمَّا وَصَلَتْهُ الْعَسَاكِرُ إِلَى الشُّوسِ وَأَخَذَتْهُ بِالشَّمَالِ وَالْيَمِينِ، وَقَفَّ وَقُوفًا لَمْ يُذَكَّرْ عَنْ شَيْبٍ^(١) بَنَ يَزِيدَ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ حَتَّى طَحَنَتْهُ وَأَصْحَابُهُ بَطْشَةً الْمُوَحِّدِينَ فَقُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَرُفِعَ رَأْسُ أَبِي قَصَبَةَ فِي عَصَا^(٢). وَالتَّحَقَّ بِهَذَا الْفَتْحِ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ بِمُوَافَقَةِ الْأَحْكَامِ فَتَحَ مَيُورَقَةَ.

ذَكَرَ فَتْحَ مَيُورَقَةَ ثَانِيَةً وَأَخَذَهَا مِنْ يَدِ ابْنِ غَانِيَةٍ

وَذَكَرَ مَنْ وَلِيَهَا مِنْ لَمْتُونَةٍ وَمَسُوفَةٍ

كَانَ دُخُولُ النَّصَارَى مَيُورَقَةَ عَلَى نَاصِرِ الدَّوْلَةِ مُبَشِّرَ الصِّقْلِيِّ مَوْلَى ابْنِ مُجَاهِدٍ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِ مِائَةٍ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَهَا الْمُرَابِطُونَ وَدَخَلَهَا وَأَنُودِيْنُ بْنُ سِيرٍ مِنْ قَبْلِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلِيِّ بْنِ يُوْسُفَ بْنِ تَاشْفِينَ، فَبَقِيَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ وَلِيَهَا مِنْ بَعْدِهِ أَبُو بَكْرُ بْنُ تَكْرُطَاتٍ، ثُمَّ وَلِيَهَا مِنْ بَعْدِهِ بَايُورُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَقَامَتْ عَلَيْهِ الرِّعْيَةُ وَقَتْلُوهُ. ثُمَّ وَلِيَهَا أَبُو بَكْرُ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ وَرْقَا فَمَاتَ بِهَا، ثُمَّ وَلِيَهَا مُحَمَّدُ بْنُ غَانِيَةِ الْمَسُوفِيِّ حَتَّى مَاتَ بِهَا مَقْتُولًا، ثُمَّ وَلِيَهَا ابْنُهُ إِسْحَاقُ فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوَّلَهَا سَنَةُ خَمْسِينَ وَآخِرَهَا سَنَةُ ثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ، ثُمَّ وَلِيَهَا عَلِيُّ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ غَانِيَةٍ وَخَرَجَ عَنْهَا، ثُمَّ وَلِيَهَا عَبْدُ اللَّهِ أَخُوهُ إِلَى أَنْ مَاتَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَهِيَ سَنَةُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ.

رَجَعَ الْخَبَرُ: كَانَ هَذَا الثَّائِرُ بِإِفْرِيقِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ مُحَمَّدَ ابْنِ غَانِيَةِ الْمَسُوفِيِّ قَدْ اغْتَرَّ بِهَا اتَّفَقَ لَهُ فِي أَوْقَاتٍ وَحَرَكَاتٍ مِنْ مُوَافَقَةِ أَقْدَارٍ وَأَغَالِيطِ الزَّمَانِ مِنْ مَشْيِهِ إِلَى صِقْلِيَّةٍ وَدُخُولِهِ مِنْهَا إِلَى مَيُورَقَةَ بَعْدَ خُرُوجِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ وَالْقَائِدِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ الدَّبْرِتِيرِ عَنْهَا وَافْتِرَاصِهِ الْجَزَائِرَ وَدُخُولِهِ إِيَّاهَا وَتَيْلَهُ كُلَّ الْمُسْتَنَالِ مِنْهَا وَفَلَّهُ لِلشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا بِسَاحِلِ مَيُورَقَةَ، فَأَنَسَ بِمَا كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُقَدَّرَةِ وَالْإِتِّفَاقَاتِ الْمُتَصَوَّرَةِ.

(١) شَيْبُ بْنُ يَزِيدَ أَحَدُ فَرَسَانَ الْخَوَارِجِ الْأَشْدَاءِ (يَنْظُرُ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ ٨٢٠/٢، وَسِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ١٤٦/٤).

(٢) يَنْظُرُ الْمُعْجَبُ ٣٩٥ حَيْثُ ذَكَرَهُ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ.

ولمّا تمكّن فصل الشتاء وارتجّ البحرُ ومُنِع ركوبُهُ، وتعدّر على كل متصرّف فيه مطلوبُهُ، تحرّك ابنُ غانية المذكور في أسطوله إلى جزيرة يابسة ليكيدها بفرضه، ويُجرّيها على ما تقدّم له من تلصّصه، فلم يصرف أهلها بالاً لما أمّل لديهم، ولا أرعوا سمعاً لندائه إليهم، وظفر ابن ميمون له بطريدتين فأصرمهما ناراً، ورجع ابنُ غانية خائب الوجهة، ثم جدّد حالاً ولجّ ضلّالاً، ونازل منورقة والأنواء قد صدقت بأمطارها، ومنعت عن التصرّف حتى الطير في أوكارها، وحاصرها اللعين حتى لجأ أهلها إلى أكل السمّية وضعفوا عن كلّ مدافعة وحماية وأسلموا له البلد وتملّكه وثقفه وترك فيه رجلاً منهم يُعرف بابن نجاح^(١)، ولمّا حقّت الأنواء وحسن الهواء أسرى إليه السيّد أبو العلى في أسطول سبّته، وصبّحهم فساء صباحهم وبطّش بهم الأسطول قبل التّمام أحوالهم وترتيب قتالهم، فدخل البلد عنوة وقبض على ابن نجاح وصيّر مع أصحابه إلى الحضرة فهلك بها.

وأكثرت الشعراء في هذا الفتح، فقال الجراوي من قصيدة طويلة أولها [من الطويل]:

لك النصر حزبٌ والمقاديرُ أعوانُ	فحسبُ أعاديك انقيادٌ وإذعانُ
فبعداً وسحقاً لابن إسحاق إنه	مُطيعٌ لأحلام الكرى وهو يقظانُ
سواءٌ لديه من غباوة طبعه	هلاكٌ ومنجاةٌ وربحٌ وخسرانُ
فمن حيث رام العزّ جاءته ذلّة	ومن حيث رام الخطّ لاقاه حرمانُ
وهل هو إلا من أناس تهافتوا	فراشاً على أسنانكم وهي نيرانُ
عصوا دعوة المهدي وهي سفينة	فأغرقهم طغيانهم وهو طوفانُ
لقد ألبس الله الخلافة بهجة	بملك به يزهى الوجودُ ويزدانُ
سعودك من يرتاب فيها وللورى	عليها دليل كل يوم وبرهانُ

(١) هو الزبير بن نجاح كما في المعجب ٣٩٧.

وقال أيضًا يهنئه بفتح ميّورقة المذكورة [من الكامل]:

شاءَ الإلهُ حمايةَ الإسلامِ	فأعزَّ نُصرتهُ بخيرِ إمامِ
بسميَّ خيرِ الخلقِ والنورِ الذي	كفلتِ بدايتهُ إلى الإتمامِ
جُمِعتِ ببيعتِهِ القلوبُ على الرضى	واستبشّرتِ بمنالِ كلِّ مرامِ
وسرى السرورُ بها وصار مُواصلاً	للجدِّ في الإنجادِ والإتهامِ
واعتَزَّ دينُ محمدٍ بمؤيِّدِ	ماضي العزائمِ للشريعةِ حامِ
لولا انتظامُ أمورِنَا بوجودِهِ	لغدتِ مبددةً بغيرِ نظامِ
أضحَتْ خلافتُهُ السعيدةُ للورى	وزرّاً من الأعداءِ والأعلامِ
ذخرَ الزمانُ من الفتوحِ غرائباً	لزمانِهِ المتهلّلِ بالبسامِ
لا مثلَ فتحِ ميورقةٍ فهو الذي	أهدى السّرورَ لمُنجدٍ وتَهمِ
مطلّت به الأيامُ حتى استنجِزَتْ	بسِنانِ خطيٍّ وحدِّ حسامِ
وبعزْمةٍ منصورةٍ وعصايةٍ	مشهورةٍ التصميمِ والإقدامِ
جَمَحَ ابنُ غانيةٍ فكفَّ جماحُهُ	يومٌ أدارَ عليه كأسَ حِمامِ
ناهيكَ من يومٍ أغرَّ محجَّلِ	متميّزٍ عن سائرِ الأيامِ
وعظّت بمصرِعه الحوادثُ عَنوةً	ناهيكَ من وَعْظٍ بغيرِ كلامِ
فليُهنئِ الدُّنيا وجودَ خليفةٍ	جَزَلَ المواهبِ سابغِ الإنعامِ
تُغنيه عن قَوَدِ الجيوشِ سعادةً	تقتادُ ماشاءت بغيرِ زمامِ
نيطتِ أمورُ الخلقِ عنه بحازمِ	متكفّلٍ بالنقضِ والإبرامِ
سامٍ إلى الرُّتبِ التي لا فوقَها	نَجَلَ الأكابرِ من سلالةِ سامِ
وَرِثَ الخلافةَ عن خلائِفَ كلُّهم	عَلِمُ الهدى الهادي إلى العلامِ

لِيسْتَ بِهِ الدُّنْيَا جَمَالًا كُنْهَهُ
فَكَأَنَّهَا دَارُ السَّلَامِ نَعِيمُهَا
يَا عَصْمَةَ الدُّنْيَا نَدَاءُ مُؤَمِّلٍ
فَارَقْتَ مَا قَدْ كُنْتَ فِيهِ كَأَنَّهُ
فَعَسَى أَرَى وَجْهَ الرُّضَى فَلطال ما
بِالطَّبْعِ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَهَلْ غَنَى
لَا زَالَ سَعْدُكَ مَسْعَدًا مَتَصَرِّفًا
أَعْيَا عَلَى الْأَفْكَارِ وَالْأَوْهَامِ
مَتَابَّدٌ وَدُخُولُهَا بِسَلَامِ
صَبْحًا يُرَوِّحُهُ مِنَ الْأَيَّامِ
طَيْفٌ رَأَتْهُ الْعَيْنُ فِي الْأَحْلَامِ
أَمَلْتُ رُؤْيَاهُ مَعَ الْأَعْوَامِ
يُلْفَى عَنْ الْأَرْوَاحِ لِلْأَجْسَامِ
فِي مَا تَرِيدُ تَصَرِّفَ الْخُدَامِ

وقال أيضًا يمدحُه ويذكرُ فتحَ منُورَةٍ في التاريخ المذكور [من الطويل]:

أَطَاعَكَ صَرْفُ الدَّهْرِ فِي مُهْجِ الْعِدَا
بَعَثْتَ أَمَامَ الْجَيْشِ جَيْشَ مَهَابَةٍ
سَعُودُكَ نَبْلٌ لَوْ قَصَدَتْ بِهَا السُّهَى
تَرَكْتَ بَقَايَا السَّيْفِ خَلْفَ حِصَارِهِ
جَرَى بِهِمُ الْإِمَهَالُ شَأْوًا مَغْرَبًا
هُوَ الْفَتْحُ أَعْيَا مِنْ أَطَالِ مَرَجْرًا
قَضَى اللَّهُ أَنْ يَحْظِيَ بِهِ أَسْعَدُ الْوَرَى
وَأَصْدَرَ عَمَّا شِئْتَ فِيهِمْ وَأُورِدَا
أَقَامَهُمْ فِي كُلِّ أَرْضٍ وَأَقْعِدَا
لَكَانَ عَلَى بُعْدِ الْمَسَافَةِ مَقْصِدَا
رَمَادًا تَهَادَثَهُ الْعَوَاصِفُ رَمِدَا
وَأَعَمَّتَهُمْ عَنْ رُشْدِهِمْ فَسْحَةُ الْمَدَى
وَفَاتَ مَدَاهُ مِنْ أَطَالِ مَقْصِدَا
فَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا

وفي هذه السنة، وهي سنة تسع وتسعين: وصلت الأنبياء بالفتنة المشتعلة بأكثر جهات إفريقية وكثر عن العرب إشاعة المكروه والمُجَاهِرَةُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، فَأَنِفَ النَّاصِرُ مِنْ سَمَاعِهَا وَإِسَاعَتِهَا فَخَرَجَ مِنْ مَرَاكُشَ فِي الرَّابِعِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ وَتَمَادَى مَشْيُهُ إِلَى مَدِينَةِ فَاسٍ، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ يَعْقُدُ مَصَالِحَ الْبِلَادِ وَمَا يَجِبُ مِنْ حِمَايَةِ الْعِبَادِ، وَتَأْمِينَ الطُّرُقَاتِ وَحَسْمِ عِلَلِ الْمَفْسِدِينَ بِهَا مِنَ الْأَشْتَاتِ.

وفي أثناء ذلك تجدد ما تقدم من ظهور استطالة العرب على الأطراف، وجورهم على ما والا هم من النواحي والأكناف، فجهز إليهم عسكريًا من الموحدِين وشوكة من

أنجاد المجاهدين، وقَصَدُوا إلى موضع اجتماعهم وقرارة سُلطانهم، فتقدّمت لهم الرّماة، ودُفِعَ عليهم الحِمْيَا، فكانت على هلاكهم أنجد مُعين وأجدّ نصير فأغزوا جميعاً بموضع قرارهم، وجَرى السيفُ على آثارهم.

وفي سنة ست مئة: استقرّ الناصرُ بحضرته وأراح من حركته، فنظَر في تفقُّد بلاده والإشراف على جُزئيات مملكته، فنَفَذت أوامره السُلطانية إلى سائر الأقطار الأندلسية بالحفز الأكيد على عمّالها بالنظر في الآلات الحربية.

قال يوشفُ الكاتب: ففي شهر المحرم وصل الأمرُ إلى إشبيلية بضرب الآلات وشراء الدروع المُحكّمة، وفي ربيع الأول وُلِّيَ إشبيلية السيّد أبو إسحاق ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب وأُخِرَ عنها أبو عبد الله بن أبي يحيى وقُدِّم على بَسْطَة ووُلِّيَ أيضاً السيّد أبو محمد عبد الواحد ابن أبي يعقوب مدينة شلب وبلاد غُرب الأندلس. وفيها وُلِّيَ أبو عبد الله بن عبد السلام الكُومِيّ قيادة أسطول سبّته وأمر له بما كان يأخذه أبو محمد بن طاع الله، ووُلِّيَ أبو يحيى بن أبي سنان مدينة بطليق وجهاتها، وأمر بالحفز في حياطتها ورفع مُلتماتها، ووصل إبراهيم ابن الفخار وزير أذفونش ملك قشتالة الخاص برسالته في رُبوطة المُهادنة والمصالحة.

وفي هذه السّنة: كانت سطوة الناصر بعُرب المغرب واستئصالهم وقتلهم، وغُرب بعض أشياخهم إلى الأندلس.

وفيها: أمر بابتداء بناء الرّصيف بمدينة مراكش.

وفيها: كان الهُرجُ ببلاد إفريقية وما والاها من بلاد الجريد، وتملك ابن غانية حصونها وأنظارها وتغلّب على أقطارها ومحاصرته مدينة تونس ودخوله إياها عنوة على ما سيأتي.

وفي سنة إحدى وست مئة: تحرّك الناصرُ إلى بلاد إفريقية على هيئة شاحخة من البهائم والظهور^(١). كان خروجه من مراكش على الهيئة المذكورة في العشر الوُسط من جمادى الآخرة، فعند وصوله إلى رباط الفتح اتّصل به ما كان بإشبيلية من فتور الأحكام

(١) ينظر المعجب ٣٩٧-٣٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣٣٢، والاستقصا ٢/٢١٤.

وتبسط حواشي السيد أبي إسحاق بالظالم وإغضائه لهم وتغافله عنهم، ومشى ذلك على السنة الخواص والعوام، فنفذ الأمر بتأخير السيد المذكور عن إشبيلية وتقديم السيد أبي موسى ابن الخليفة.

ورحل الناصر من رباط الفتح وتمادى المشي والبشائر تتوالى وتطرد، وأنباء العدو تستحيل وتبعد. ولما أشرف الناصر على بلاد إفريقية تحاذلت حشود ابن غانية فشمّر أذباله عن أمهات الأقطار، ورأى أن لا معقل له سوى الفرار، فأخلى الأشقياء مدينة تونس لأول وهلة دون قتال ولا محاربة ولا نزال، ودخلها أبو إسحاق صاحب الأسطول، إذ كان تقدم إليها فأكب في الحين عليها فأنس أهلها وسكن نافرها وثقف ما يجب تثقيفه فيها، وعرف الناصر بدخولها وهروب الأشقياء منها، فوجه الناصر لأشغالها وضّم أعمالها داود بن أبي داود مع جماعة من الموحدّين.

ولما وصل الموحدّون المذكورون تونس خرج أبو يحيى بالأسطول ولحق بالمهدية نفذ له الأمر بذلك، واقتفى الناصر أثر الأشقياء، وأزعجهم إلى أطراف الصحراء. ولما أيقنوا بالتصميم إليهم، وآلا معرج إلا عليهم، انزعج ابن غانية بجملته ومن معه من أتباعه وشرذمته وحصن حصن المهدية وشدها بأنجاد رجاله وشحنها بالعدد الحربية وترك بها أثقاله ورحل إلى نواحي بلاد الجريد متمسكاً بطمعه مغترّاً بخياله، والناصر لدين الله جامع بين استفتاح البلاد واقتفاء أثره ومُسْتَقِرٌّ لأخباره بقيّة سنة إحدى وست مئة.

وفي سنة اثنتين وست مئة: في شهر محرم نزل الناصر بجهة سفاقس وهو على صريمته في استرجاع البلاد، وتسديد ما أورثها الأعداء من الجلاء والفساد، وتمادى التبّع لتلك الأقطار، وتأنيس المستوحش من أهلها من جور أولئك الفجار، وانزعاج^(١) ابن غانية بجملته عن ذلك^(٢) الإقليم، وطهر أرضها من أثره الذميم، وقد كان القائد أبو يحيى نازل المهدية بمجموعه وانتشروا ببساططها، والأشقياء قد نزلوا بساحتهم يُعملون الحيلة في افتراسهم، إلى أن خرجوا عليهم خروج الحيات من أجحارهم فأوقعوا

(١) في ب: «وانزعج».

(٢) في ب: «تلك».

بهم في تلك البسائط، فاستشهد من الغزاة جماعة ولاذ أكثرهم بالبحر، واكسح الأشقياء ما وجدوا من أسلحتهم وعدتهم ورفعوا رؤوسهم في شُرُفات الحصن، واتصل هذا النبأ بأمير المؤمنين الناصر فتحرك إلى المهدية.

ذكرُ مُنازلة الناصرِ مدينةَ المهديةِ

ولما قضى الناصرُ من وجهته غرضه ومذهبه خفف ركبته إلى المهدية ومُنازلتها والتصميم على فتحها وحسم عِلَّتِها، فنزلت المحلاتُ عليها من جهاتها، واستوفت بالوصول إمداد تلك الجهات، وأخذ الناسُ بحظوظهم من أكنافها على ضيقها، وربطوا مضاربهم في تلك المسافات، وشرع الناصرُ في إقامة العُدَد والآلات على جهة الجِدِّ والاجتهاد، فقامت في أيسر مدّة على أوفرِ عُدّة، ورَتَّب لها من الخدَمَة مَنْ يقومُ بخدمتها ويستقلُّ بحراستها، والأشقياءُ قد تَطَمَّعوا طيِّبَ الفرصة ولذيذَ الخُدعة والموحدون بتكاثر أعدادهم توقّفوا عن مُدافعتهم وجِلادِهِم، واستوطنوا السُّكون والقرار، وأبعدوا أن يجترئ عليهم مارد في ذلك المضمار، وربّما انبعثت الأشقياءُ أثناء ذلك إلى المَجَانيق والآلات انبعاث الطير من الأوكار، فأضرَموها نارًا، فكان ذلك إغراءً بالتشديد في مُحاربتهم وحميًّا للنفوس على قتالهم ومجالدتهم، فاشتدَّ عَزْمُ الناصرِ لدين الله على جَبْرِ الآلات وإقامة أضعافها، فَجَبُرَتِ المَجَانيقُ والأكبُشُ والسَّلايِمُ على أضعاف ما كانت، وتضاعفَ العذابُ بتضعيفها على المهدية، وأقيمت خلالها أبراجٌ ساميةُ المراقب، مُشْرِفةٌ على ظاهر الحصن وباطنه إشرافَ النجوم الثواقب، مُنذِرةٌ برُوعتها لِمَا صادَمَتَهُ بحُلُولِ المصائب، وتكاملت أعدادُ الحشود، واستنفرَ مَنْ بالجهات من أهل الطاعة والجنود، وعُمِّرَتِ الآلاتُ بأنجاد الرجال، وطال المقام، وقوي الالتزام، وص...^(١) والأشقياءُ قد قَسَت قلوبُهُم عن الانقياد، وصمَّت آذانُهُم عن...^(٢) [وفي] أثناء هذه المحاصرة وامتداد هذه المدارعة، تحرَّك للأشقياء...^(٣) المؤدّية إلى مصارع آجالِهِم،

(١) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٢) كذلك.

(٣) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

وأرادوا تقوية نفوس المحصورين...^(١) لهم فالتفوا وتوافقوا مع أخلاط من سليم المرتدين من رياح... ومن الم...^(٢) وأتباعهم - ووافقهم غويهم على الارتحال بقضهم وقضيضهم، وخفهم...^(٣) وكراهم إلى موضع يكون قتالهم وحرهم بين حريمهم ليكون دفاعهم أحمى عن الحريم ولا يؤلون^(٤) عنهم، وجروا في ذلك على سنن الجاهلية الجهلاء، وعلى ما كانت عليه حرب [داحس والغبراء]^(٥)، أسبابا أحكمها الباري تعالى لأرزاق الموحدين، ونصرا أدخره لأمر المؤمنين، ووصل الخائبون أحوار قابس على هذا الاعتزام، ووصلت هذه الأنباء للناصر لدين الله، فأمر بتجهيز عسكر كثيف يقطع سواد المحلات يكون مقتنيا لآثارها، وأهل الغناء والإقدام من حماها وأنصارها^(٦).

ذكر ابتداء ظهور أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهتاتي^(٧)

لما أمر الناصر بتجهيز هذا العسكر قدم عليه أمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص لمكان غنائه وصحة دينه وحسن يقينه، وتهيأ الموحدون قدره ومسارعتهم إلى بره، فخرج من ظاهر المهدية على هيئة رائقة من الاقتدار، وجد حاكم بمساعدة الأقدار، والعدو بأقطار قابس قد تكاملت أعداده، واستوفت حشوده وأمداده، وجاءوا بخفهم وأثقالهم، والنفيس من أثاثهم وأموالهم، وعقلوا الإبل بأوقارها، وأوقفوا الطعائن بكرائهم بإزائها، وجعلوها كالتماثيل يقاتلون دونهما وكالحصون يلجأون إليها. ولما رأى الموحدون ما مثلوه من الإشكال، وراعوه من الاحتفال، وأن ذلك من خدع حروب القتال، المطمعة لعقول الرجال، سار الموحدون إليهم على تعبئة

(١) كذلك.

(٢) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٣) كذلك.

(٤) في النسخ: «ولا يو» فأكملنا اللفظة على ما قدرنا.

(٥) فراغ في النسخ، ولعل ما بين الحاصرتين هو المراد.

(٦) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٣٣، والاستقصا ٢/٢١٥.

(٧) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٣٤، والاستقصا ٢/٢١٥ فما بعدها.

وَصَدَقُوا عَلَيْهِمُ الدَّفَاعَ، وَكَشَفَتْ الْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا الْقِنَاعَ، وَدَارَتْ زُبُونًا عَمِيَاءَ بَيْنَ
الْفَرِيقَيْنِ، فَأَجَلَّتْ عَنْ انْسِلَاخِ الْأَعْدَاءِ عَنْ مُحَلَّتِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَسَائِرِ حُمُولَتِهِمْ
وَأَمْتَعَتْهُمْ وَأَثْقَالَهُمْ، وَرَكِبَ السَّيْفُ أَدْبَارَهُمْ إِلَى الْأَصِيلِ، وَغَادَرَهُمْ وَلَائِمٌ لِلطَّيْرِ بِكُلِّ
سَبِيلٍ. وَاسْتَوَلَى الْمُوَحَّدُونَ عَلَى تِلْكَ الْأَمْوَالِ الْفَاحِشَةِ وَالْأَحْوَالِ الضَّخْمَةِ الْوَاسِعَةِ،
وَامْتَلَأَتْ أَيْدِي الْجَمَاعَةِ مِنْ سَوَادِ الْمُحَلَّةِ مِنَ الْغَنَاءِ وَالْوِطَاءِ وَمَا غَصَبُوهُ وَسَلَبُوهُ مِنْ
أَحْوَاзِ أَطْرَابُلُسَ إِلَى أَنْظَارٍ بِجَايَةِ مَنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً.

وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْوَاحِدِ بَسِيحُهُ وَنَفْلُهُ وَخَيْلُهُ، وَكَثِيرُ الْمَغْنَمِ وَقُلُّهُ،
مَنْصُورَ الْأَعْلَامِ، مُظْفَرًا فِي كُلِّ قَصْدٍ وَمَرَامٍ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَايَةُ سُودَاءَ مِنْ زِيِّ الْمَسُودَةِ
مَرْفُوعَةً لِلْأَبْصَارِ، وَرَتَّبَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى صَفُوفٍ، وَتَأَهَّبَ لِلتَّبَرِيزِ...^(١) بِهِمْ عَلَى الْمَهْدِيَّةِ
عَلَى مَرَأَى مِنْ حُصْرَائِهَا، وَاضْطَكَّتِ الطُّبُولُ وَبَلَغَ [الْغَايَةَ]^(٢) وَالسُّوْلُ، فَأَكْثَرَتْ
الشَّعْرَاءُ فِي هَذِهِ الْوَقِيعَةِ، فَقَالَ [أَبُو عَمْرٍو وَزِيرٌ]^(٣) بَنُ خَالِدِ اللَّحْمِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ
أَوْهَاهُ [مِنْ الطَّوِيلِ]:

... عُرِيَ الْمُلْكُ وَالِدَيْنِ	أَصَاخَتْ لَهَا مِنْ بَعْدِهَا أُذُنُ الصَّيْنِ
... سَلَامُهَا كَمَا لَهَا	تَرَائِبٌ مِّنَّا مِنْكُمْ غَيْرَ مَمْنُونِ
فَكَيْفَ بِمِصْرٍ وَالْعِرَاقِ وَعِنْدَهَا	حَدِيثٌ مِّنْ اسْتِثْلَاكِكُمْ غَيْرُ مَظْنُونِ
وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَعَيَّنَ مَوْقِفٌ	يَقْدُمُ مَا أَخْرَجْتُمُوهُ إِلَى حِينِ
وَتُطَوَّى بِأَيْدِيكُمْ تِلَادٌ عَرِيضَةٌ	غَدَتِ نَشْرًا مَا بَيْنَ غَاوٍ وَمُفْتُونِ

ومنها:

وَأَنْتُمْ بِالْعَدْلِ وَخَشَةِ تَوْسٍ	وَأَمْنْتُمْ مِنْ خَوْفِهَا أَيَّ تَأْمِينِ
وَأَلْبَسْتُمْ أَرْضَ الْجَرِيدِ مَلَابِسًا	بِهَا جَرَدَتْ ثُوبَ الْمَدْلَةِ وَالْهُوْنِ

(١) بياض في النسخ قدر ثلاث كلمات.

(٢) بياض في النسخ قدر كلمة، ولعل ما أثبتناه بين الحاصرتين هو المراد.

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه مما سيأتي بعد قليل.

وَأَقْبَسْتُمْ نَارَ الْهُدَى خَلْفَ قَابِيسٍ وَغَبْتُمْ فَسَلَّهْمُ حُورِيَّاتِهَا الْعَيْنِ^(١)
وَأَبْرَقَ مِنْكُمْ عَارِضٌ نَحْوَ بَرْقَةٍ إِذَا صَابَ لَمْ يَخْصُصْ مَكَانًا بِتَعْيِينِ
وَيَا طِيبَ مَا أَهْدَتْهُ مَهْدِيَّةُ الْمُنَى لَكُمْ مِنْ سَلَامٍ دُونَهُ مَسْكُ دَارِينِ
وَوَالَيْتُمْ الْأَيَّامَ فَاَنْقَادَ صَعْبُهَا عَلَى شِدَّةٍ مِنْ حُكْمِكُمْ أَوْ عَلَى لِينِ^(٢)
فَدَامَ لَهُ فُخْرٌ بِحُسْنِ صِفَاتِهِ عَلَى كُلِّ مَنْصُورٍ سِوَاكُمْ وَمَأْمُونِ

وَكَمَّلَ التَّبْرِيزَ بِالْغَنَائِمِ، وَفَرَّغَ مِنْ تَضْيِيفِ الْمُقِيمِ وَالْقَادِمِ، وَمَنْ بَدَاخِلَ الْمَدِينَةِ
يَتَجَلَّدُونَ عَلَى اسْتِئْصَالِ الْبَلَاءِ، وَيُيَدُونَ التَّهَاوْنَ بِالْهَلَاكِ مِنْهُمْ وَالْمَاضِي وَقَدْ يَتَسَوَّاهُ
طُولُ الْبَقَاءِ، وَيُسَرِّحُونَ بِالْكَذِبِ فِي كُلِّ مَا يَسْمَعُونَ فِي حَقِّ طَاغِيَتِهِمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ، لَا
يَمْلِكُونَ حَرْبًا وَلَا قِتَالًا، وَلَا يَزِدَادُونَ مَعَ الشَّدَّةِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ إِلَّا صَبْرًا وَاحْتِمَالًا،
وَالْمُوَحَّدُونَ قَدْ هَجَرُوا لَذَاتِهِمْ، وَامْتَنَعُوا مِنْ سِنَاتِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّ ابْتِدَالَ نَفْسِهِمْ وَطِيبَ
مَمَاتِهِمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ زِيَادَةٌ فِي حَيَاتِهِمْ، وَرَأَوْا أَلَّا مَحَالَةً لَهُمْ وَلَا رَاحَةً عَنْ هَذَا الْحَصَارِ
وَالِاتِّزَامِ، وَأَنَّ رَحِيلَهُمْ عَنِ الْحِصْنِ مِنْ غَيْرِ اسْتِفْتَاكِهِ وَأَخْذِهِ مُحَالٌ وَحَرَامٌ.

وَأَمَرَ النَّاصِرُ لَدِينِ اللَّهِ بِجَمِيعِ الْأَلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ مِنَ الْمَجَانِيْقِ وَغَيْرِهَا عَلَى جَانِبِ
وَاحِدٍ مِنَ السُّورِ، وَأَمَالَ الْحَفَظَ وَالْعَمَلَ عَلَى الْجَانِبِ الْمَذْكُورِ. وَلَمَّا تَحَقَّقُوا هَزِيمَةَ أَنْصَارِهِمْ،
وَرَأَوْا تَهْدُمَ أَسْوَارَهُمْ، وَأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى قَبْضَةِ الْهَلَاكِ وَالْحَيْفِ، أَوْ رَاجِعُونَ إِلَى التَّزْوَلِ
عَلَى حُكْمِ السَّيْفِ، نَادَوْا بِشَعَارِ الْأَمَانِ، وَرَغِبُوا فِي الْإِبْقَاءِ عَلَيْهِمْ وَالْامْتِنَانِ، فَاسْعِفَتْ
رَغْبَتُهُمْ، وَنَزَلَ الْحَاجُّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ ذَوِيهِ وَأَشْيَاعِهِ وَبَنِيهِ عَلَى مَا اشْتَرَطَ مِنَ الْإِقْتِرَاحِ، وَأَنَّ
يَتْرَكَ سَبِيلَهُ إِلَى السَّرَاحِ، وَذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ التَّاسِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى مِنَ السَّنَةِ.

وَدَخَلَ الْمُوَحَّدُونَ الْمَهْدِيَّةَ، وَكَمَّلَ مَا كَانَ مِنْ فَتْحِ هَذَا الْقَطْرِ الشَّرِيفِ، وَالْمَعْقِلِ
السَّامِيِّ الْمُئِنِّفِ، فَتَحَ جَمِيعَ إِفْرِيقِيَّةٍ وَمَا اتَّصَلَ بِهَا وَانْصَافَ إِلَيْهَا مِنْ بِلَادِ الْجَرِيدِ وَغَيْرِهَا،
وَتَمَهَّدَ اسْتِيطَانُ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ التَّقْلُعِ وَالتَّشْرِيدِ، وَانْحَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الضَّنْكِ

(١) هكذا في النسخ، وقد وضع النساخ فوق لفظة: «فسلهم» من العجز حرف طاء، والبيت

مضطرب غير موزون.

(٢) سقط البيت بجملته من «م».

الشديد، وأكثرت الشعراء في هذا الفتح، فقال أبو عمرو وزير^(١) بن خالد من قصيدة طويلة [من الكامل]:

غِيثُ العباد وعصمةُ المستسلمِ	هذا أميرُ المؤمنينَ محمدٌ
في قادة من قومِه كالأنجمِ	قد قادها كالليل دُهمَ كتائبِ
بكمال بدرٍ في السماءِ متمِّمِ	زانوا سماءَ المعلّواتِ وزائنهمِ
كالبحر في أمواجه إذ يرتقي	يُيدي بها البرَّ العريض تدافعاً
زهراً تفتح مشرقاً في مُظلمِ	وتخالها رَوْضاً بدت أعلامُها
يبقى بها داعٍ لملكٍ مجسمِ	بُشراك سيّدنا بملك الأرض لا
واستقبلتكَ وجوهها بتبسمِ	قد قابلتكَ أكفُّها بضراعةٍ
وغدا صريحُ الفتح غيرُ مُجَمِّمِ ^(٢)	وتغلّلت بلقائكم آمالُها
حيّيتُم منها بأكرم أكرمِ	هذي مباديه الكريمة قدّمت
داما لكم في غبطة وتنعمِ	وبكم بهاء الدين والدنيا معاً

وأقام الناصر على حصن المَهديّ ريثما رتبَ أحواله وربطَ أشغاله، ورحل في المؤفي من جمادى الثانية من السنة، فاستقرَّ بمدينة تونس غرةَ رجبِ الفرد من العام المؤرخ.

اختصارُ الخبر عن استقرار الناصر بمدينة تونس

بعد هذه الأوبة إلى حين قُفوله منها وانفصاله

لما وصل الناصر إلى تونس واستقرَّ بها، أمر بتضييف المسافرين، فهنّوه على أوّيته القاطنون، وصرف الحشود إلى مواضعها وأماكن مَصيفها ومرَبعها ليستريحوا من نَصَبهم وتعبهم، وتودّع الناصر إذ ذاك تودّع من استأصل الأعداء، واستنفر الأولياء،

(١) في ب: «يزيد»، محرف.

(٢) في ب: «مجسم».

واسترجع البلاد وأمن السبل وحقق الدماء، فكان استقراره وإقامته بها بقية سنة اثنتين وست مئة وأكثر سنة ثلاث وست مئة.

وفي سنة ثلاث وست مئة: شرع الناصر في تفقد البلاد، وأسهم الداني والقاصي منها من النظر الموفق ما تستقيم به أحوالها من الصلاح والسداد، ثم صرف نظره إلى إفريقية وقصد إزعاج الأشقياء من أطرافها، وتهديد ما بقي من تعلقليها وخلافها، وأمر بتجهيز عسكري كثيف قدم عليه السيد^(١) أبا إسحاق بن المنصور، فخرج من تونس^(٢) في شهر صفر من العام، وصاروا يضربون في أرض تلك الأقاليم غرباً وشرقاً، ويتقصون آثار المفسدين بها قطراً قطراً وأفقا أفقا، حتى دواخوا ما وراء طرابلس واستأصلوا بني دمر ومطماطة وما والاها، ووقفوا على آخر جبال نفوسة وجاوزوا حد عمرانها المحدود، وشارفوا أرض سويقة بني مكود، يقدمهم النصر والتأييد إلى كل سبيل، ويسبقهم النجاح والتيسير إلى كل معرّس ومقيل، يتفياون مطارح الظلال، تحت تنعم بالغدو والآصال، لم يعرض لهم منازع ولا اجترأ عليهم عدو، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

وبعد إياب هذا البعث واستقراره، وقضاء المرغوب من أوطاره، أضمر الناصر الحركة إلى المغرب في نفسه، ولم يحل النظر لها في الباطن من فكره وحسّه، وأمر بإشاعة الاستقرار بتونس، والنظر في اتخاذ المحارث والاتساع في المزارع، وأشغل باله بالنظر فيمن يولي إفريقية^(٣).

ذكر ولاية أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص إفريقية

فلما فرغ الناصر من جميع الأشغال نظر فيمن يولي على جميع إفريقية، ويقوم بأعبائها ويقاوم بنجدته ومهابته الطاري عليها، فشر كيناته وعجم أعوادها، وأجال بصيرته في سائر قبائل الموحدّين، وعرض عليها واحداً بعد واحد أنجادها وخيارها وأجوادها، فأجمع فكره وأوقف نظره الموفق وذكره على شيخ الموحدّين وأكبر أنجاد جماعتهم أجمعين

(١) سقط من ب.

(٢) العبارة في ب: «قدم عليه أبا إسحاق بن المنصور من تونس فخرج».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٤.

أبي^(١) محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، فأصَفَقَ على هذا النَّظَرِ السَّديدَ العقلاء والألباب، وأعان عليه الصُّلحاء، فبُسِطَ يده على ما شاء، وأُبيحَ له في الجيش الانتقاء، وسَدَّ ظهره بتسريب الأموال والخيل والرجال، فاستقرَّ على حالة فخمة مَقْضي لها بالاستيلاء والظهور، والظفر الدائم مع توالي الدهور.

ذكرُ حركة الناصر من تونس حَرَسَها الله إلى بلاد المغرب

وتحرَّك الناصرُ لدين الله قافلاً إلى بلاد المغرب بعد قضاء هذه الأوطار، وتخليد ما لها من كريم الآثار، في السابع من شوال العام، ونَزَلَ بمقرَّبة من باجَّة في التاسع منه، وتَمَادَى المشي إلى تِلْمَسَانَ فاستقرَّ بها في ذي الحجة، فنَفَذَ الأمرُ منها إلى عامل قُرْطُبة وعامل غرناطة وعامل بَسْطَة وعامل إشبيلية والمريّة ومُرْسِيّة بالنظر في الأشغال وإحضار الرجال والتنبيه على التأهب، والنظر في الأعمال، وروَّح الناصرُ ريثما قَضَى السَّنة في أيام النَّحر من شهر ذي الحجة ثم رَحَلَ عن^(٢) تِلْمَسَانَ.

وفي سنة أربع وست مئة، ففي صدر المحرم منها: نَزَلَ ظاهرَ مدينة فاس.

وفيها: تجددَ النظرُ في أشغال العُمَّال، ووقَّعَ البحثُ عَمَّا إلى نظرهم من الأعمال، وازدهمت على باب الخليفة قبائلُ من أقطارِ المدينة وأخلاقُ من الناس مُشْتَكِينَ بعامل فاس، وكان أبا^(٣) الحَسَن ابن أبي بكر، وبعامل مِكناسة أبي الربيع ابن أبي عمران، فَنَكَبَا جميعاً واستُصْفِي ما وُجِدَ لهما من أحوال وأثاث وأموال، وبقيَ كل واحدٍ منهما محبوباً في بلد عمله، وتجددَ الخطابُ إلى عُمَّال الأندلس المذكورين قَبْلَ هذا بنصٍّ ما أمروا به أولاً. ورحل الناصرُ من مدينة فاس ونَزَلَ مِكناسة في صَفَر، فوَعِكَ وَعَكَا اقتضى الإقامة بمِكناسة بقيَّةَ صَفَر.

وفشأ خبرُ هذا الوَعِكَ ببلاد الأندلس فتوجَّعت قلوبُ المُخْلِصين لمرَض أمير المؤمنين، إلى أن طَلَعَ البشيرُ بما مَنَّ اللهُ تعالى به من استقلاله، وحلَّ برِباط الفتح في

(١) في م: «أبا» ولا يستقيم.

(٢) في ب: «على تلمسان».

(٣) في م: «أبو» ولا يستقيم، وأصلها: «وكان العامل أبا الحسن»، فهو خبر كان.

ربيع الأول، ثم رحل منه فلم يتلوّم^(١) في منزل ولا آوى إلى معقل والعافية في كل يوم
 تُردُّ عليه، حتّى دخل مَرَاكُشَ وافر الصّحة شديد القوة، فقال أبو العباس الجراوي
 يمدّحه ويهنّئه [من الخفيف]:

أطلعَ الدهرُ منك بدرًا مُنيرا ملأَ السبعةَ الأقاليمَ نُورا
 وأتانا الزّمانُ منك كمالًا لم تُشاهدْ له العصورُ نظيرا
 أوّلُ أنت في التّقْدُمِ والسّببِ قِ وإن كنتَ في الزّمانِ أخيرا
 ملأَ اللهُ كلَّ قلبٍ وعَيْنٍ نظرةً من كمالِكم وسرورا
 ومنها [من الخفيف]:

أين منك الملوکُ عَزَمًا وحَزَمًا ونَدَى فائِضًا وخيرًا وخيرا
 كنتَ في الغيْبِ للخلافةِ أهلاً وخليقًا بَنِيها وجَدِيرا
 شاءَ إسعادنا الإلهُ تعالى يومَ تفويضِهِ إليك الأمورا
 إنّما أنت رحمةُ اللهِ عَمَّت ساكني الأرضِ مُنجِدًا ومُغيرا
 أوجَدَ اللهُ منك للدينِ عزًّا ومُعِينًا وناصِرًا وظَهيرا
 ومنها [من الخفيف]:

يا إمامَ الهدى ملأتَ جَمالًا وجالًا عيوننا والصُّدورا
 كلُّ نُورٍ للشمسِ والبدرِ يبدو أنتَ أصلٌ له ومنك استُعيرا
 دُمّتَ للدينِ عصمةً ومَلاذًا ولإعدائِهِ مُبِيدًا مُبيرا

وقال أبو عبد الله ابن يَحْلَفَتَنَ الفازازي^(٢) [من البسيط]:

شمسُ الضُّحى من سنا مرآةٍ يَقتَبِسُ فأَيُّ قَصدٍ عليك اليومَ يَلتَبِسُ

(١) في ب: «ينزل».

(٢) في ب: «الفازاي»، خطأ.

وقال الجراوي من قصيدة طويلة أولها [من الوافر]:

أضاء لنا بغررتك الزمان وألبسنا تغلبك الأمان
وجاءتنا المني متواليات على نسق كما انتظم الجمان

وقال أيضًا من قصيدة طويلة أولها [من البسيط]:

شدَّ الإله بكُم للدين أركاننا وأذعنت لكم الأيام إذعانا
وارتاض كل جموح^(١) في عنانكم من بعد ما أعجز الرواض أزمانا

وقال مرتجلًا أيضًا في مجلسه [من الكامل]:

كانت من الشمس الصعاب فراضها عزم فرض الراسيات ودللا
لبست جدادًا من دُخان حريقها^(٢) لما تخرم جمعها واستؤصلا

ولما قضى الناصر لدين الله من الاستراحة من نصب الأسفار ما قضاه، وأمضى أثناء ذلك من الأوامر والأحكام ما أمضاه، شرع في الإشراف على الوجوه السلطانية والأشغال العملية، فقدم أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد^(٣) على إشراف البرين، وضم الأعمال وتفقد الأشغال، ونظر في وصول العمال إلى الحضرة بأعمالهم وكتبهم المقيدين لأشغالهم، فبادر من عين الوصول لما أمر به، ووصلوا مستعدين على ما جد به، فشرع في تصفح بعضها تصفحًا لم يقصد فيه إلى تحقيق، ولا سلك فيه نهج الطريق، ووصل في جملة من وصل من مشتغلي^(٤) الأندلس: يوسف بن عمر الكاتب المؤرخ لدولة المنصور رحمه الله، وكان بإشبيلية ينظر في بعض الأشغال المخزنية والسهام السلطانية، فأول ما صرّف بأبي الحسن بن واجاج عن ولاية إشبيلية إلى ولاية مرسية، وأمر لمحمد بن عبد الله بالهبوط إلى إشبيلية رجاء أن يكون أشد من أبي الحسن شكيمة

(١) في ق، ب: «جموع» ولا معنى لها.

(٢) في ب: «خريقها»، ولها وجه.

(٣) الذي في تاريخ ابن خلدون هو عبد العزيز بن أبي زيد الهنتاتي (تاريخه ٦ / ٣٣٤)، نسبه إلى جده.

(٤) في م: «مشتغلين» ولا تستقيم.

في امتحان يوسف بن عمر الكاتب، وأشدَّ نكايَةً في جانبه، وكان أوَّل من قُلِّدَ النَّظَرُ في أعماله لم يَزَلْ متعطِّشًا للإيقاع به وحاشدًا للأسباب التي يَعْلَمُ أنها تَقْدَحُ عندَ الخليفة في جانبه، فجعل يرتادُ الأنبياءَ مَنْ يَصِلُ إلى الحضرةِ مِنْ باغٍ يبغي شيئًا عليه من سِفلةِ الأسواقِ أو خَوْنَةِ العَمالِ الفارَّينَ بالحقوقِ المُرتَبَةِ عليهم أو المؤدِّبينَ على ما اقترَفوه وجَنَّوه، تَوَخَّذُ منهم الأرقام، وتُقَبَّلُ منهم الأقوالُ التي تجري مجرى الأحلام، وتَشْنَعُ وتَقَامُ مقامَ اليقين، ومَشَى ذلك كُلُّه، فوصل ودُكِرَ.

ومَّا قال فيه من يُغري به [من الكامل]:

يا رابعَ الخُلفاءِ أنتَ الأوَّلُ	والكلُّ منكم في الفضيلةِ أكملُ
أَمِنَ السَّوِيَّةِ أَنَّ عدلكَ مشرقُ	والظُّلُمُ عندي منه ليلُ أيلُ
ويدا ^(١) ابنَ عَمْرٍو أصبحتَ لعلِّيَّةِ	ترمي بيتَ المالِ بئسَ المعتلُّ
وله أمورٌ ليس يُمكنُ شرحُها	أنتَ الحسامُ لها وهذا المَفْصَلُ

قال يوسف بن عمر المذكورُ عن نفسه: لَمَّا وَصَلْتُ إلى موضعٍ تيقطين لقيني أحدُ ثقاتِ الأميرِ بِجُمْلَةٍ من خَيْلٍ وَرَجُلٍ، وأُحِيطَ بي وبكلِّ مَنْ كان معي من كلِّ الجهات، وقِيَدَ جميعُ ما وصلَ من الأحمالِ للسلطان، وقِيَدَ ما كان لي رجاءُ أن يكونَ فيها شيءٌ يُنكرُ عليَّ من أسبابِ تدلُّ على مُصانعةٍ أو مالٍ أو غير ذلك ممَّا يُخالفُ ما هو بسبيلي، وأخذ ما وُجد لي، وثَقِفَ ما كان بيدي وما رَكِبَ عليه عيالي من أوعية وكتب وظروف وغير ذلك، ووصلتُ مترقبًا بذلك كُلَّهُ إلى دارِ الأشراف، وبقيتُ محبوسًا بها، ولمَّا كان ثالثُ وُصُولي أَحْضَرَ الشُّهودَ وفتحت الشُّدودَ، وكتبَتِ الشُّهُودُ ذلك كُلَّهُ مفسَّرًا، وعَرِضَ على المقامِ الإماميُّ، فنظَرَ بنورِ الله وما جُبِلَ عليه من العَدْلِ والامتنان، وطبيعةِ الفضلِ والإحسان، فأمرَ بِصَرْفِ ذلك كُلِّهِ عليَّ وإسلامِهِ إليَّ، وذلك بسببِ تأليفِهِ الذي أُلِّفَ في محاسنِ والدِهِ المنصورِ.

وفي سنة خمس وست مئة: وصلتُ كُتُبَ السَّيِّدِ أَبِي الحَسَنِ واليِ تِلْمَسَانَ بِثَقَلِ مَرَضِهِ وتوالي اعتلالُهُ وخوفِ ضَيَاعِ ما لديه من الأشغال، واضطرابِ قبائلِ زَنَاتِهِ واختلافِهِم

(١) كذا في النسخ بالثنية، والجادة الإفراد.

وَقَطَعَهُمُ السَّبِيلَ، وَقَطَعَ الرَّفَاقَ، عَنِ الضَّرْبِ فِي الْآفَاقِ، فَأُعْفِيَ عَنْ وَلَايَةِ الْبَلَدِ، وَأُذِنَ لَهُ فِي الْوُصُولِ، وَعُومِلَ بِالْبِرِّ الْمَوْصُولِ.

ذِكْرُ وَلَايَةِ السَّيِّدِ أَبِي عِمْرَانَ مَدِينَةِ تِلْمَسَانَ وَحَرَكَتِهِ مِنْهَا

لِحَرْبِ ابْنِ غَانِيَةٍ وَهَزِيمَةِ عَسْكَرِهِ وَمَقْتَلِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ

فَرَحَلَ مِنْ تِلْمَسَانَ بَمَنْ مَعَهُ مِنْ عَسْكَرِهِ وَخَدَمَتِهِ وَشُهُودِهِ وَقَاضِيهِ وَأَكْبَرِ ثِقَاتِهِ، وَمَشَوْا عَنْ رَحْلِهِمْ آمِنِينَ غَيْرَ مُحْتَرِسِينَ، وَالْمُتَجَسِّسُونَ مِنْ زَنَاتِهِ الْمُسْتَوِطُونَ بِتِلْكَ الْجِهَاتِ لَا يَرْقُبُونَ فِي مَوْءٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، وَلَا يَرْعَوْنَ شَرِيعَةً وَلَا ذِمَّةً، فَتَسَلَّلُوا إِلَى ابْنِ غَانِيَةٍ وَقَوْمِهِ وَأَطْلَعُوهُمْ عَلَى عَوَارِثِ الْعَسْكَرِ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنْ إِضَاعَةِ الْحَزْمِ وَقَلَّةِ الْحَذَرِ، وَتَسَابَقُوا إِلَى السَّيِّدِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى... (١) وَيُبْعِدُونَ لَهُ نَوَاحِيَ الْعَدُوِّ وَيُهَوِّنُونَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَيَحْدُرُونَهُ إِلَى جِهَتِهِ، وَتَارَةً يَحْضِرُونَهُ عَلَى لِقَائِهِ وَالزَّحْفِ لَهُ، فَتَحَيَّرَ السَّيِّدُ بُرْهَةً ثُمَّ تَأَهَّبَ بَعْضُ تَأَهَّبَ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا قَبْلَ أَنْ يَلْتَمَّ جَمْعُهُ وَتَكْمُلَ تَعَبُّثُهُ وَيَأْخُذَ أَهْبَتَهُ وَيَسْتَحْذِرَ عُدَّتَهُ، إِذْ غَشِيَتْهُ أَسْرَابُ الْعَدُوِّ كَالْجُرَادِ الْمُنْتَشِرِ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ سَاقَاتُ ابْنِ غَانِيَةٍ، وَكَانَ لَهُ كَالْمُنْتَظَرِ، فَثَبَّتَ السَّيِّدُ مَعَ مَنْ كَانَ فِي مَوْكِبِهِ مِنْ خَاصَّتِهِ، وَمَضَتْ الْهَزِيمَةُ عَلَى جَنَاحِي سَاقَتِهِ، وَاضْطَلَمَتْهُمْ الْعَرَبُ قَتْلًا وَأَسْرًا، وَفَرَّ مَنْ أَفْلَتَتْهُ الرِّمَاحُ خِيَالًا وَذُعْرًا، وَاسْتَشْهَدَ السَّيِّدُ أَبُو عِمْرَانَ مَعَ مَنْ صَبَرَ مَعَهُ مِنْ خَاصَّتِهِ، وَصَارُوا إِلَى فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأُسِرَ بَعْضُ بَنِيهِ وَالْكَاتِبُ أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ عِيَّاشٍ (٢) مَعَهُمْ وَبَعْضُ طَلَبَةِ تِلْمَسَانَ.

وَاسْتَوَى الْعَدُوُّ عَلَى الْمَحَلَّةِ وَأَثْقَالِهَا وَخَيْلِهَا وَبِغَالِهَا وَسَائِرِ أَحْوَالِهَا، وَتَبَسَّطَتْ جُمُوعُهُ عَلَى تِلْكَ الْجِهَاتِ، وَعَاثُوا بِهَا عَيْثَ السَّبَاعِ الضَّارِيَاتِ، فَارْتَاعَ أَهْلُ تِلْمَسَانَ وَغَلَقُوا أَبْوَابَ الْمَدِينَةِ وَأَذْهَلَهُمْ فَجْأَةً هَذَا الْأَمْرَ بِرُوعَتِهِ، وَوَقَفَ كُلُّ قَبِيلٍ مِنْ جِهَاتِ الْبَلَدِ بِرَبُوتِهِ مَانِعًا عَنْ حَوْزَتِهِ، وَأَرْسَلَتِ الْعَرَبُ فِي تِلْكَ النَوَاحِي جُمُوعَهَا، وَأَخَذُوا يَنْتَهَكُونَ عِمْرَانَهَا وَيَنْتَهَبُونَ زُرُوعَهَا، وَدَامَتْ عَلَى قُطْرِ تِلْمَسَانَ مَضَرَّتُهُمْ وَبَلَغَتْ الْمُخَنَّقَ

(١) وَقَعَ فِي ق، ر٣، ب نقص استمر إلى قوله: «وتوهم الأعداء هزيمة أصحابهم» بعد ثلاث صفحات.

(٢) هُوَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عِيَّاشِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عِيَّاشٍ، كَمَا فِي الْمَعْجَبِ ٣٩١.

نَكَايَتُهُمْ وَإِذَاتُهُمْ، فَأَسْرَعَ السَّيِّدُ أَبُو زَكَرِيَّا مِنْ فَاَسَ إِلَيْهَا وَسَكَنَ ضَجَّتَهَا وَوُطَّأَ نَفُوسَ أَهْلِهَا وَهُوَ رَوَّعَتَهَا.

وَوَصَلَتِ النَّاصِرَ كَيْفِيَّةُ هَذِهِ الْوَقِيعَةِ، فَتَأَلَّمَ لِمُضَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَشْجَاهُ فَقَدْ رَجَالَهُ الْأَقْرَبِينَ، فَأَمَرَ بِتَجْهِيزِ عَسْكَرٍ وَافِرٍ مِنْ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالْيَسَارِ وَالْقُوَّةِ، وَقَوَّاهُمْ بِالْأَزْوَدَةِ الْوَاسِعَةِ فَأَمَدَّهُمْ بِالْعُدَدِ الْفَاخِرَةِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ الْوَزِيرَ أَبَا زَيْدَ ابْنَ يُوجَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(١).

ذَكَرُوا وَلَايَةَ أَبِي زَيْدِ ابْنِ يُوجَانَ مَدِينَةَ تِلْمُسَانَ

لَمَّا كَمُلْتَ أَشْغَالُ وَجْهَتِهِ، وَعَزَمَ عَلَى حَرَكَتِهِ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْحَضْرَةِ، صَبَحَ الْجَيْشُ بَابَ السُّلْطَانِ عَلَى سُرُوجِهِمْ، عَلَى الْمَعْتَادِ مِنْ رُتَبَتِهِمْ فِي خُرُوجِهِمْ، وَدَخَلَ الشَّيْخُ أَبُو زَيْدٍ لِمُوَادَعَةِ الْخَلِيفَةِ وَمَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ وَصَايَاهُ وَأَوَامِرِهِ. فَلَمَّا اسْتَوْفَى ذَلِكَ مِنْ خَلِيفَتِهِ وَأَرَادَ الْإِنْفَصَالَ عَنْ مُوَادَعَتِهِ، تَرَامَى عَلَيْهِ فِي اسْتِوْهَابِ عَفْوِ الْعُمَالِ، وَبَثَّ الْغُفْرَانَ لَهُمْ فِي الْعَاجِلِ وَالْمَالِ، فَوَجَدَ النَّاصِرَ مَنِسَبَ النَّفْسِ لِقَبُولِ مَا أَلْقَى لَهُ مِنْ شَرَحِ الصَّدْرِ لِلْعَفْوِ سَرِيعِ الْإِسْتِمَالِ عَلَيْهِ، فَأَمَرَ فِي الْحَيْنِ بِسَرَّاحِهِمْ وَحَلَّاهُمْ مِنْ مَوْضِعِ اعْتِقَالِهِمْ.

وَسَقَطَ الْخَبْرُ فِي أَقْطَارِ الْمَدِينَةِ عَلَى قِبَائِلِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَأَوْلِيَائِهِمْ، فَبَادَرُوا إِلَى بَابِ السُّلْطَانِ وَغَضَّتْ بِهِمُ الْأَبْوَابُ وَالرَّحَابُ، فَكَانَ خُرُوجُ ابْنِ يُوجَانَ مِنْ مُوَادَعَةِ النَّاصِرِ وَرُكُوبِهِ مَعَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مَعْتَقَلِهِمْ وَسَرَّاحِهِمْ، وَنَهَضَ ابْنُ يُوجَانَ بِعَسْكَرِهِ وَقَدْ حَفَّ بِهِ جَمِيعُهُمْ مُشِيعِينَ لَهُ بِأَدْعِيَةٍ مُؤَكَّدَةٍ، وَأَصْوَاتٍ مُرَدَّدَةٍ، فَكَانَ يَوْمَ سُرُورٍ، يَبْقَى ذِكْرُهُ إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ.

وَوَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ وَمَنْ كَانَ بَهَا مِنَ الْمَعْتَقَلِينَ عَلَى غَايَةِ الْيَأْسِ مِنَ الرَّجَاءِ لَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ وَالْإِلْتَوَاءِ، فَكَانَ وَضُوءُ الْبَشِيرِ أَجْرَى إِلَيْهِمْ مِنْ فَرْجِ أَيُّوبَ، وَالذُّؤْمُونُ فِي نَفُوسِهِمْ مِنْ قَمِيصِ يَعْقُوبَ، فَازْدَحَمَتْ بِيَابُ الْمَعْتَقَلِينَ جُمُوعٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَصْفَقُوا بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

ووصل ابنُ يوجانَ إلى تِلْمَسَانَ منصورَ الرايات مَقْضِيَّ الأُمْنِيَّاتِ، فَقَدِمَتْ إلى العدوِّ مَهَابَتُهُ وَغَشِيَّتْهُ كَاللَّيْلِ رَوْعَتُهُ، وَانْسَلَخَ عَنْ أَقْطَارِ تَاهَرَتْ وَمَا وَالِاهَا وَانزَعَجَ إِلَى جِهَةِ طَرَابُلُسَ فَلَاذَ بَصَحْرَائِهَا فَأَمَّنَ النَّاسَ بِجِهَةِ تِلْمَسَانَ وَتِلْكَ الْأَقْطَارُ^(١).

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: قَدَّمَ النَّاصِرُ بَعْضَ الْوَلَاةِ عَلَى أَعْمَالِهِ وَأَخَّرَ آخَرِينَ عَنْ أَشْغَالِهِ، فَأَخَّرَ أَبَا يَحْيَى بْنَ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ^(٢) عَنِ الْوِزَارَةِ وَالزَّمَهُ فِي دَارِهِ، وَقَدَّمَ لِلْوِزَارَةِ أَبَا سَعِيدَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ جَامِعٍ^(٣).

وَبَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ تَرْتِيبِ مَا رَتَّبَ لِحَدَمَتِهِ وَوُزَرَائِهِ جَدَّدَ نَظَرَهُ فِي أُمُورِ الْبِلَادِ، وَمَا يَجِبُ لَهَا مِنَ التَّفَقُّدِ بِالصَّلَاحِ وَالسَّدَادِ، فَقَدَّمَ بِإِشْبِيلِيَّةِ أَخَاهُ السَّيِّدَ أَبَا إِسْحَاقَ، وَقَدَّمَ أَخَاهُ السَّيِّدَ أَبَا مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدَ الْبَشْرَقِ الْأَنْدَلُسِيِّ وَمَعَهُ الْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَذْكُورُ، فَحُسِّنَتْ بِهِمَا الْبِلَادُ وَسَكَنَتْ ظِلَّ عَدْلِهِمَا الْعِبَادُ.

وَبَعْدَ وَصُولِ هَذَا السَّيِّدِ أَبِي مُحَمَّدٍ إِلَى مُرْسِيَّةٍ وَتَمَكَّنَ اسْتِقْرَارِهِ، وَتَعَرَّفَهُ كَيْفِيَّةَ أَحْوَالِ الْبِلَادِ وَأَنْظَارِهِ، أَنْهَضَ أَبَا يَحْيَى إِلَى بَلَنْسِيَّةٍ وَثَقَّفَ أَشْغَالَهَا وَأَصْلَحَ أَحْوَالَهَا، وَقَدَّمَ الْكَاتِبِينَ النَّبِيَّيْنَ: أَبَا مُحَمَّدَ الْحَسَنَ وَأَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنَ مَنِيْعٍ، وَكِلَاهُمَا فِيهَا أَنْفَرَدَا بِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ وَصَنْعَةِ الْإِنْشَاءِ وَالْدِّيَوَانِ فَرَسًا رَهَانًا وَمَالِكًا رَايَةَ الْإِتْقَانِ وَالْبَيَانِ، وَاقْتَصَرَ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى كَتَبِ التَّوْقِيعَاتِ وَالظُّهَائِرِ، وَكُلُّ مَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ وَقَوْعُ الْعَلَامَةِ مِنْ وَجْهِ الْأَوَامِرِ، وَأَنْفَرَدَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَنِيْعٍ بِدِيَوَانِ الْعَسْكَرِ وَمَا أَنْصَافَ إِلَيْهِ مِنَ التَّنْفِيزَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَتَقْيِيدِ الْحِزْيَاتِ الْعَامَّةِ فِي أَنْوَاعِ النِّفَقَاتِ.

وَفِيهَا: وَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ بِتَأْخُرِ الْقَاضِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَاجِيٍّ وَوَلَايَةِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ (كَذَا) قَضَاءِ إِشْبِيلِيَّةٍ.

وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِّ مِائَةٍ: هَزَمَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي حَفْصٍ صَاحِبُ إِفْرِيقِيَّةٍ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْمَيَارِقَةِ مَعَ ابْنِ غَانِيَّةٍ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْمُخَالِفِينَ وَاسْتَوَلَى عَلَى جَمِيعِ مَحَلَّتِهِمْ عَلَى مَا يَأْتِي.

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥ باختصار.

(٢) هو محمد بن علي بن أبي عمران.

(٣) المعجب ٣٨٩.

ذكر السبب في حركة أبي محمد بن أبي حفص إلى ابن غانية

قد تقدّم ما كان من انتهاء ابن غانية من الفرصة في عسكر تلمسان وأنه حمّله الاغترار وأزعجته الأقدار على الحركة إلى جوار إفريقية ومُعَاوِدَة حَرْبِهَا وَخَيَّلَتْ لَهُمْ ظَنُوتُهُمْ أَنَّ الْبِلَادَ قَدْ تَقَلَّقَتْ بِسَمَاعِ تِلْكَ الْوَقْعَةِ وَسَرَى فِيهِمْ أَثَرُ تِلْكَ الرُّوعَةِ وَأَنَّ الشَّيْخَ أَبَا مُحَمَّدٍ صَاحِبَ إِفْرِيقِيَّةٍ ضَجِرَ بِجَمْعِهِمْ وَسَرَى إِلَى رِجَالِهِ نَفْسُ رُوعِهِ، وَالشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ لَمْ يُجَلِّ نَفْسَهُ عَنْ اسْتِعْدَادٍ وَاعْتِزَامٍ، وَلَا عَطَّلَ رِكَابَهُ عَنْ إِسْرَاجٍ وَإِلْجَامٍ، وَأَنَّ الْمَيَارِقَةَ تَأَلَّفَتْ لَهُمْ مِنْ سَوَادِ الْعَرَبِ جَمْعُ جَمَّةٍ وَضَلَّالٍ، وَفُرْسَانٌ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ وَرِجَالٍ، فَاتُّوا عَلَى تَعَبَةٍ مَهُولَةٍ رَتَّبُوهَا عَلَى تَدْبِيرِهِمْ، وَخَيَّلُوهَا مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ عَلَى تَقْدِيرِهِمْ، خَلَطُوا إِبْلَهُمْ وَحُولَتَهُمْ وَأَثْقَالَهُمْ، وَقَرَنُوا بِهَا هَوَادِجَهُمْ وَرَحَالَهُمْ، وَتَمَثَّلُوا بِالْبَسِيطِ كَالْجَبَلِ الشَّاهِقِ وَالهَيْكَلِ الْبَاسِقِ.

فَزَحَفَ إِلَيْهِمُ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْوَاحِدِ وَالْمُوَحِّدُونَ وَمِنْ انْضَافٍ إِلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ وَالْجُمُوعِ وَقَدْ لَبَسُوا قُلُوبَهُمْ فَوْقَ الدَّرُوعِ، فَتَقَابَلَ الْجُمُعَانِ، وَالتَحَمَّ الْفَرِيقَانِ، وَشَدَّ عَرَبُ الْأَشْقِيَاءِ عَلَى يَسَارِ طَاقَةِ الْمُوَحِّدِينَ، فَانْكَشَفَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْأَغْزَازِ وَبَعْضُ الْأَعْرَابِ وَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ مِنْهَزِمِينَ، وَتَبَّتِ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ بِمَرْكَزِهِ بِقَلْبِ السَّاقَةِ مَعَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْحِفَازِ الصَّابِرِينَ^(١)، وَتَوَهَّمَ الْأَعْدَاءُ هَزِيمَةَ أَصْحَابِهِمْ فَسَوَّوْا لِلْفِرَارِ أَجْنَحَتَهُمْ وَسَرَّحُوا إِلَى كُلِّ سَحِيقٍ أَعْتَتَهُمْ، وَتَخَلَّفُوا عَلَى أَهَالِيهِمْ وَحُولَتِهِمْ، فَأَوْقَعَ فِيهِمُ السَّيْفُ حَذَّهَ وَأَعْمَلَ فِيهِمْ مَا أَمْضَاهُ الْكِتَابُ وَحَذَّهَ، وَاسْتَوَى الْمُوَحِّدُونَ عَلَى جَمِيعِ مُحَلَّةِ الضَّالِّينَ بِحَشْمِهَا وَأَثْقَالِهَا وَخَفَّهَا وَسَائِرِ أَحْوَالِهَا.

وَانْصَرَفَ أَبُو مُحَمَّدٍ وَرَايَاتُهُ تَضَحَكُ فِي وَجْهِهِ الرِّمَاحِ، وَجِيَادُهُ تَتَسَابَقُ بَيْنَ مَرَّاحٍ وَارْتِيَاحٍ، وَكَانَ مَعْظَمُ مَنْ هَلَكَ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ وَجْهُهُ رِيَّاحٌ وَأَنْجَادُهَا وَرُؤْسَاؤُهَا الْمُسْغَبَةُ وَأَجْوَادُهَا، وَرَغْدُ إِفْرِيقِ إِفْرِيقِيَّةٍ وَدِيَارِهَا وَجَمِيعَ جِهَاتِهَا وَأَنْظَارِهَا مَا سَبَى وَكَسَحَ مِنْ غَنَائِمِهِمْ وَحَيَوَانِهِمْ وَأَثَائِهِمْ وَخَدَمِهِمْ، وَأَتَتْ هَذِهِ الْوَقْعَةُ عَلَى أَشْتَاتِ الْمُفْسِدِينَ وَلَمْ تَلْمَحْ لَهُمْ بَعْدُ بَارِقَةٌ وَلَا تَلُوحُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ^(٢).

(١) إلى هنا ينتهي السقط في ق، ر، ب.

(٢) هو باختصار في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

ووصل البشير إلى الحضرة المراكشية بهذه البشارة، وقُرئت بجامعها الكتبُ السارة، وجلس الناصر للتهنئات وأُقيمت على الواصلين بالنبا سوانغ البركات، وقالت الشعراء في ذلك، فقال أبو عبد الله ابنُ يَحْلَفَتْنِ الفازازي من قصيدة^(١) [من الكامل]:

هذي الفتوحُ تفتّحت أزهارها	وتدفقت ملء الملاء أنهارها
وتأرججت نَفحاتها وتبرّجت	صفحاتها وتبلّجت أنوارها
وأئتت بشائرها إليك سوافرا	عن أوجهٍ يا حبّذا إسفارها
تطوي المراحل لا يُفترّ ليلها	شوقاً إليك ولا يغبُ نهارها
إنّ الدنا مهضوبةٌ آذانها	لسماعها مرفوعةٌ أبصارها ^(٢)
شهدت بسعدك في الورى وتمحضت	سنداً ومثنى عندهم آثارها
ما زلت تُعنى بالديانة جاهداً	ومجاهداً حتّى استقلّ منارها
واعتز جانبها وأيد ركنها	واشتدّ ساعدها وأدرك ثارها
ظننت لشقوتها بأنك نازح	تنأى عليك إذا سمعت ديارها
فرميتها بكتائبٍ ملمومة	كالليل لكنّ النجوم شفارها
لم يُنجِ ناجيها غداة أفلها	إلاّ الفرائ وأين عنك فراها
تركت رؤوس رؤوسها مبثوثة	وطفت على بحرٍ به أشفارها
ومضى الشقي وقد تلبس روعه	يَضفُو عليه دُلُها وصغارها
عصفت رياح جنودكم برياحه	فهفت جوانحها وخفّ مطارها

ومنها:

مولاي وصفك ليس يحوي كُنْهه	خطبُ المدائح لا ولا أشعارها
لكنّ نهايتها وإن طال المدى	في عجزها وقصارها أقصارها

(١) في ب: «من قصيدة أولها»، ولفظة «أولها» لا معنى لها ولم ترد في النسخ الأخرى.

(٢) سقط هذا البيت من ق، ر، ٣، ب.

لا زال للإسلام يُمنك باقيا
وصفت ليوسف نجلك الزاكي الرضى
صفو الأئمة لبها مرجوها
حتى يقلده الخليفة عقدها
وبقيت أقصى مدة مقضية
في عزة موصولة وسعادة
مالاح برق في متون غمامة
وترنمت في أيكة أطيارها
وعداك باق شوؤها وبوارها
أيامه وتباعدت أكرارها
مرهوبها مأمولها مختارها
ويرى عليه تاجها وسوارها
أوطارها مرضية أطوارها
لا تنقضي أبد الدنا أعصارها
وترنمت في أيكة أطيارها

وفي سنة سبع وست مئة: وصل سير بن إسحاق ابن غانية إلى حضرة مراکش وكان متبرئا من نفاق إخوته منطويا على حزب الأمير وفتيته، فخرج مع إخوته في حركتهم إلى تلمسان، فلما استوثق من بعدهم عن مقره وأمن غائلتهم في اقتفاء أثره، وكان الشيخ أبو محمد عبد الواحد قد خرج إلى التطوف بأقطار إفريقيا على عادته فأسرى سير حتى التحق به بجملته بعد ما عرفه بخبره وقصته، فلما وصل سير إليه أكرم مثواه ووسع نزله وقواه واستأذن له في الوصول إلى الحضرة فأذن له فيه، فبلغ مقصوده ومرغوبه^(١).

وفي هذه السنة: قدم الناصر على جزيرة ميورقة أبا يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران وآخر عنها السيد أبا عبد الله بن أبي حفص.

وفيها: قدم السيد أبا عبد الله بن أبي حفص المذكور على بلنسية ثانية.

وفيها: قدم على مرسية أبا عمران بن ياسين الهتائي وآخر عنها أبا الحسن بن واجاج وتوجه إلى مراکش.

وفيها: أخر الناصر لدين الله أبا محمد بن حوط الله^(٢) عن قضاء مرسية، وقدم عليها قاضيا أبا الحسن القسطلي ثانية، وقدم ابن حوط الله على قضاء قرطبة، وأخر عنها

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥ باختصار.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الأنصاري المالقي (المرقة العليا ١١٢).

أبو عليّ بن أبي محمد المالقيّ واستُدعي إلى الحضرة، وقُدّم بها على طَلَبَةِ الحَضَر خُطّة أبيه وإخوته.

وفيها: قُدّم أبو إبراهيم ابن يَغْمُور^(١) على قضاء بَلَنْسِيَة.

وفيها: قُدّم الشَّيْخُ أبو محمد بن أبي حفص صاحبُ إفريقيّة أبا سُلَيْمَانَ داودَ بن أبي داود على عَمَلِ تَوَزَّرَ وجهاتها من بلاد الجريد، وقُدّم أخاه ابن أبي داود على قابِسَ وجهاتها.

وفيها: قُدّم القائدُ أبو عبد الله بن عيسى المُرسِيّ على قيادة شَلَب.

وفيها: قُدّم أبو الجيش مُحارِبٌ على التقديم إلى أرسال ملوك الروم والاشتغال بإنزالهم وتضييفهم والترجمة عنهم، وأُخِّرَ عن ذلك ابنُ عوبيل.

وفيها: قُدّم السيّد أبو زيد على كُورة جَيّان وأُخِّرَ عن سِجِلْمَاسَة، وعن جَيّان: أبو موسى بن أبي حفص.

وفيها: صُرف السيّد أبو إسحاق ابن المنصور عن إشبيلية بعد استعفائه عنها.

وفيها: نُقل عن غرناطة السيّد إبراهيم ابن الخليفة أبي يعقوب إلى إشبيلية، وقُدّم على غرناطة: أبو عبد الله بن أبي يحيى بن أبي حفص، وفي هذه الولايات أخبارٌ يطولُ ذكرُها أضربنا عنها.

وفي هذه السنة: كان مهلكُ ابن عَطِيَّة الزَّناي، بعثَ إليه ابنُ يُوْجَّان صاحبُ تِلْمُسان من اغتاله في وَطَنِهِ وأتاه من مَأْمِنِهِ.

وفيها: استولى العدوُّ البرجلونيُّ على حُصُونٍ مِنْ نَظَرِ بَلَنْسِيَة وغلبَ عليها بينَ حصارٍ وقتالٍ، ونَزَلَ له أكثرُ أهلها على الأمان فمنهم منِ احتمَلَه إلى بلده ومنهم من وصل إلى بلاد الأندلس.

وفيها: تحرَّك السيّد أبو العلي الكبير قائدُ أساطيل البرّين إلى بلاد بَرَشْلُونَة بجميع أجفان العُدوة والأندلس على معاندة ومُنافسة من أهل البلاد في الاحتفال، وتمكَّن من العُدَد الوافرة والأموال، فكانت أحسنَ حركةٍ للمسلمين وأوحشَ فجيعيةً وأعمَّ وقيعيةً

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن يغمور الجابري (التكملة الأبارية، الترجمة ٥١٧).

جَرت على الغزاة البحرِيِّين، وأوقعَ حَسْرَةً كانت بقلوبِ الكافرين، وفي إثر تلك المفسدة كان استيلاءُ البرجلونيِّ على حصُون بَلَنْسِيَةِ في هذه السنة المؤرَّخة.

وفي هذه السنة: وصَلَت الأنباءُ إلى الحضرة بتغليب المسلمينَ على كثيرٍ ممَّا في أيدي الرُّوم من معاقل صِقلِيَّة ووصولِ أعيانهم ووجوههم إلى مدينة تونُس إلى الشَّيخ أبي محمد بن أبي حفص، وإطلاقِ الخطبة في بلادهم بالدعوة المَهْدِيَّة الموحَّديَّة، وإنكارهم ما سواها من المقصورة على العباسية.

وفيها: تحرَّك وأغار أبو محمد عبد الواحد على المنافقينَ والمُفسدينَ من قبائل سُلَيْم، واستاقَ أشياخهم بأموالهم واسترهنهم بتونُس في حَسْم ما يَبْتُوْنُهُ من فسادهم وفي التبرِّيِّ ممَّا يُوالونَ به ابنَ غانية من مُضايقتهم وإمدادهم، فشَرَّد بحبس هؤلاء الأشرار مَن خَلَفَهم، وضَرَبَ محمدُ بن عبد السلام حافِظَ أطرابُلُس على أنظارِ نَفُوسَةٍ وسَلَبَ قَصْرًا أَلْفِي فيه أثنائًا وأسبابًا وأثقالًا للمارقينَ المنافقين، فتهذَّنت في هذه المدة جهاتُ إفريقيَّة وسكَن رُوعُها والتأمَ تشعُّبُها وصدَّعُها.

وفي هذه السنة: كان الحريقُ الشائعُ الضَّرَر الجاري بَقَيْساريَّة مَرَّاكُش وما اتَّصل بها، وذلك ليلةَ الخميس الثالثَ عَشَرَ لِحُمادى الأولى والناسُ كما أوُوا إلى مُضاجعهم وسكَنُوا إلى هدوئهم وهُجوعهم، فتمكَّنت النارُ بِيابس العيدانِ وشُفوف الثياب، وأسُرعت كالشَّهاب في سُقْف الأسواق، فما هَبَّ الأقربونَ إليهم من نَوْمهم ولا تلافاهُم الصَّريخ من قومهم إلا وقد شَبَّ لَهْبُها بينَ الآفاق وعلَّتْ ضجَّتُه المدينةَ وهتكت العامةُ بها والاهما من الدروبِ المُقَفَّلَة.

واتَّصل الصُّراخُ والضَّجيجُ بالناصر لدين الله فخرَجَ مسرعًا من قصره وتخطَّى إلى الصُّعود بصُومعة الجامع المتصل به، فعاینَ أمرًا لا مردَّ له ولا حيلةً لمحتال إلا التسليمُ للكبير المتعال. واقتَحَمَت النارُ سِفْلَةَ الغوغاء وضُروبُ الغُرباء فسَلَبُوا بعضَ ما أَلْفَوْه ممَّا سَلِمَ من الحريق وتسلَّلُوا به على كُلِّ طريق، وأمدَّ النارُ احتدامَ الهواء وموافقةً زمنِ الصَّيف، فما طَلَعَ الصَّبَاحُ وبقي من أمتعة مَرَّاكُش ذُبالةٌ مصباح.

وأمرَ الناصرُ بالبحث على مَن وُجِدَ بشيء يُذَكِّرُ عليه من أمتعة التُّجَّار، وعُثِرَ عليه بالتجسُّس والاختبار، فلقَطَ من أخلاطِ الناس قومٌ قلائل، ومن بعض المتعلِّقين بالقبائل، فقتلوا عن آخرهم، وبقيَ البحثُ على سائرهم.

وذهبَ في هذه الكائنة للتجار الواردينَ والقاطنينَ والقاصينَ والدَّانينَ من الأموال الجسيمة ما لا يُحصَى، وافتقرَ فيها أُمَّةٌ من ذوي اليَسَارِ وأصبحوا يتكفّفونَ النَّاسَ حَيَارَى على الأقطار، وأكّد الناصرُ في جَبْرِ هذه الأسواق وإقامتها وإعادتها إلى ما كانت عليه من أحسن هياتها، فإنها كانت كالمرأة في وَجْه القصر تُضيءُ به من أكنافه، وكالورْدِ العَذْب والمادّة لتأتي مُؤَنه وجميع لُباناته.

وفي هذه السنة: وصلَ إلى الناصر جماعةٌ من وجوه بلاد شرق الأندلس معرّضينَ بآثارِ العدوِّ البرشَلونيِّ في بلادهم وانتهاكه لطارفهم وتلاذهم، فقويَ عزمُ الناصر على نُصْرِهِم والحركة إليهم وإلى غيرهم، فشرَعَ في توطئة ما يُحتاجُ إليه بما تقومُ به الحركاتُ الثَّقَال، والتكشُّفُ عَمَّا أحدثته الولاةُ والعَمال، وخوطبت عُمالُ قُرطبة وإشبيلية بتجديد العساكر السُلطانيات، وقُدِّمَ بعضُ الحُدَمة لتوطئة السُّبُل وإعداد العُلوفات والتضييفات، وذلك في جميع المراحل والمناهل على العادة الجارية قبلَ ذلك.

ذكرُ حركة أمير المؤمنينَ الناصر إلى الأندلس

لَمَّا رَتَّبَ الأشغالَ وسهَّلَ أمرَها، خرجَ من مَرَاكُشَ يومَ السَّبتِ المُوفى عشرينَ من شهر شعبانَ المكرَّم، وتَمَادَى مَشْيُهُ إلى رِباط الفتح في كَنَفِ السلامة والنُّجح، فتلوَّم بها ريشًا أكملَ مُهَمَّاتِ الأشغال، وأجرى أُمُورَه على أصلح الأحوال، ونفَّذَ ما يجبُ تنفيذه من شُغل البرّينَ على ما رآه واختاره من الاستيفاء والكمال، وانصرفَ شهرٌ آذار وقُرْبَ نَيْسان وطابَ الزَّمان، وحسُنَ التَّرحالُ والنُّزولُ بكلِّ مكان.

تحرَّكَ من رِباط الفتح يومَ الاثنين الثامنَ عشرَ^(١) من شَوّال، ونفَّذَ من المنزل المعروف بِمَرْجِ الحمام المُخاطباتِ إلى الأندلس بتحريض المسلمينَ على الجهاد، والتفرُّغ لِمَا يجبُ من التَّأهّب والاستعداد، فامْتَثَلَ ولاةُ الأندلس ما أُمروا به وأعدّوا الوظائفَ التي عُرِفوا بها وامتَحَضُوا النصيحةَ وأعملوا الجِدَّ فيما كانوا بسبيلِهِ.

وتَمَادَتِ الحركةُ إلى قصرِ كُتامة والأسعارُ قائمةُ النَّفاق، والبلادُ قد تَضَيَّقَتْ في كُلِّ ما يُؤوَلُ إلى الارتفاق.

(١) في ق، ر، ب: «الثامن» ولا يصح؛ لأنه كان يوم الجمعة، والثامن عشر هو يوم الاثنين.

وسبب سَطَوته بعماله في هذه السنة: أن لقي الناس في هذه الحركة من تنوع
المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا
علموه في أسفارهم القاصيات، ولا عارضهم مثلها فيما ترددوا فيه من زمن الفتن
المُبيرات، والناصر يُترَبِّص بانتقال المراحل لِثِقَلِ الحالات، ويُغْضِي عما سَمِعَ من
الهُتَوَاتِ إلى أن استقبل المنازل التي كانت تستمدُّ منها الرفاق وتحتبُّ منها الحقائق،
ويُدْخِرُ منها الأزودة المقيم والذاهب، فألفاها وقد جَفَّ مَعِينُها وخَفَّ بتوالي
العدوان قَطينُها، ولم يبقَ منها لمخازن السلطان الوافرة أثر ولا يتضح لخازنها دليلٌ
ولا نظر.

واستوى على عموم المحلة الإقتار، وبلغَ منهم مبلغَ الهزيمة المُيرة الإضرار،
وجاوزَ الحدَّ بالناس وُسْعَ الاحتمال، ووقفَ لهم العَجزُ عن إدراك الحيلة في معاشهم
على غاية الاضمحلال، وأحفظَ الناصر ما رأى من هذا الإهمال وشدة إغفال المكلَّفين
بالأعمال، فبسَطَ السَّطوةَ على مَنْ كان منهم بمدارج الضَّرر أجمعين، وأوقعَ العقابَ
منهم بالمُسْتَهْزِئِينَ، وأنفذَ أمرَه إلى الشَّيخ أبي محمد ابن أبي علي بن مُثَنَّى صاحبِ
الأعمال المَخزَنية والمفوض إليه الأشغال العمليَّة إلى القَبْضِ على عامل فاس،
وهو: عبدُ الحقِّ بن أبي داود، أكبرَ عُماله عنده والأخصَّين، وألطفهم منزلةً كان لديه
في كلِّ حين، فترَوَّحَ بعدَ وُصوله إلى المدينة ثلاثاً ليُبَيِّثَ في نفوس المشتغلين الطَّمَأينَةَ
والأمان وليُصلِحَ ظنونهم في وُصول أبي محمد إليهم في ذلك الأوان، ثم فُجِئَ عبدُ
الحقِّ بالقَبْضِ عليه بدارِ الأشراف وأرسلَ إلى منزله مَنْ ألحقَه بالثِّقاف وبألغَ في
استصفاء أحواله، وتبسيط اليدِ بالقَبْضِ على كافَّة أصحابه وعُماله، ونفَّذَ الكُتُبَ إلى
سائر الجهات بثَّقيفٍ مَنْ خَدَمَ في مُدَّتِه وغَمَسَ يده في أشغاله، فغَشِيَهُم الامتحان،
بكلِّ قُطْرٍ^(١) شاسع ومكان.

ولما وصل الناصرُ إلى قصر كُتامة كما تقدَّم، كان إنذارُه يتضاعفُ ويزداد لمخالفة
المعتاد، وتغيُّره يتأكَّد لِمَا أشرَفَ عليه من الإهمال والفساد، وكان عاملُ القصرِ المذكورِ

(١) سقطت من ب.

محمد بن يحيى بن تاكغت المَسُوفِي عامل سَبْتَة، وقد طابَقَت أحوالُه أحوالَ أمثاله، فقبِضَ عليه وعلى أصحابه، ووُجِّهوا مصفِّدينَ لرئيس الأعمال بفاس، وكان الناصرُ في هذه الحركة يَقْصُرُ المراحلَ ويتلوَّمُ بالمنازلَ لِيَخِفَّ الناسُ من ساحلِ المَجاز.

وحُشِرَت المَراكِبُ من سائر السواحل إلى ساحله، فانتَهَضَ للجَواز وتوالى الانحفاز، فوصل إليه والجيشُ قد جاز معظمه ولم يبقَ إلا أَقلُّه، فروحَ بالقصر بقيَّةَ ذي القعدة ريثما جازت ساقته وأثقَّاله، وحاشيته ورجاله، وركبَ السُفنَ يومَ الاثنين أولَ يومٍ من ذي حجة من السَّنة المذكورة^(١)، ورَحَلَ يومَ السَّبت إلى فَجِّ إبراهيم، وتمادى مَشْيُه حتَّى وصلَ إلى فَجِّ إشبيلية وحلَّ بقصور بُحيرة باب جَهْور يومَ الاثنين منتَصِفَ ذي حجة من السنة المذكورة. ولَمَّا استقرَّ الناصرُ بمدينة إشبيلية أمرَ بدخول الجيش على طبقاتهم وترتيب جماعتهم، واستقرَّ الجميعُ بمدينة إشبيلية آخرَ هذه السنة.

وفي سنة ثمان وست مئة: أمرَ الناصرُ لدين الله باستنفار الحشود الأندلسية وبعمَل الآلاتِ الحربية وبالْحَفْزِ على أهل الكُور والجهات في الحضور بما لديهم من وظائف الغزاة ووصولهم مع مَنْ لهم من المشتغلين والوُلاة، حتَّى اتَّسَقَ نظامهم وتَقَوَّى اعتزامهم. ولَمَّا استَوَفَّت العساكرُ من سائر البلاد واستكملت الحشود والأمداد، شرعَ الناصرُ في التأهب للحركة برسم الغزو والجهاد، فتحركَ من إشبيلية في أحسن زِيٍّ وهيئة، وقدرةٍ واستعداد، بعساكرَ وافرة من الموحِّدين والعَرَب والأجناد وغيرهم من المُقاتلة والأنجاد، فتَمدى مَشْيُه على نية غزو الكفار وحماية الدِّمار، فقصدَ قلعة شلبطرة^(٢) وفتحها وأخذها، بعدَ قتالٍ شديدٍ وانتزعها، وهو حصنٌ عظيمٌ نفعه شديدٌ أذاهُ وضُرُّه، وكتبَ بفتحِه إلى البلاد بتاريخ ثاني شهر ربيع الآخر من هذه السنة المؤرَّخة^(٣).

(١) قوله: «من السنة المذكورة» سقط من ب.

(٢) الروض المعطار ٣٤٤.

(٣) المعجب ٣٩٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

فصلٌ من الرسالة التي وجهها الناصر لدين الله

مُعَلِّمًا بفتح حصن شلبطرة من إنشاء ابن عيَّاش

وإلى هذا وفَّقكم الله وأوزعكم شكرُ نعماءه، فإنَّ النصرانيَّةَ لَمَّا طال بالقتال عهدُها، وكاد ينسى وطءُ الخيولِ غورُها ونَجْدُها، وأنَّ السَّلم الذي كان بينَ الموحِّدين وبينَ صاحبِ قشتالةَ حان أن ينقضيَ أجلُه وحُدُّه، بلغَ إلينا أنَّها هَمَّت بأنَّ توقد نارَ الحرب التي كم أحرَقها وقْدُه، وكان الموحِّدون بعد فُقوهم من الشَّرق لا يزالونَ على النِّيَّة للغزو والجهادِ في سبيلِ الله بالأعرابِ ومَن يليهم قاصيهم ودانيهم، فأَتَتْ منهم أُمٌّ لا يَعْلَمُهم إلَّا اللهُ ولا يُحْصِيهم، وجاءوا كأَمواجِ البحارِ في جيوش لا يُطْلُ على مصباحِها الساري، واللهُ مُجَازِيهِم بتظافُرِهِم وتَوَاصِيهِم، وكان أئمةُ الكُفَّار الذين لا أَيَّانَ لهم ولا إيمانَ، ولا حُجَّةَ على ما يدَّعونه ولا بُرْهانَ، قد وافاهم من رومةَ رُسُولُ إلهِهِم الأَرْضِيِّ الذي له يَسْجُدون وإياه يعْبُدون يأْمُرُ باتِّفاقِهِم، وخَلَعَ بَعْضُهُم ما بقيَ من شروطِ الموحِّدين في أعناقِهِم، ومَن نَكثَ فَإِنَّها يَنْكُثُ على نَفْسِهِ، وشَرَطُ الله أَوْثَقُ، وسيفُ الخليفة أَمْضَى وأَصْدَقُ، فبينما هم يَجْرُونَ بالخِلاءِ، وَيَجْرُونَ فُضُولَ الخِلاءِ، وَيُدْبِرُونَ ما لا يَتَمُّ، وَيُرِيدُونَ ما لا يَعِصِمُ من أمرِ الله ولا يَرُمُّ، إذ سَمِعُوا بإِجازَتنا التي كانوا يَرَوْنَهَا بَعِيدًا ويراها اللهُ قَرِيبًا، وحلُولنا بالأنْدلس التي نَصَرَ اللهُ بها الدِّينَ الحَنِيفَ نازِحَ الدارِ غَرِيبًا، فرأَوْا أنَّ الحربَ قد كَشَفَتْ لهم عن ساقِها، وأَجَلَبَتْ لهم من آفاقِها.

ولمَّا كان صاحبُ قشتالةَ أَقْرَبَ مَن تَعَيَّنَتْ حَرْبُهُ دارًا، وأكثرَهُم مَّا اسْتَطَاعَ نَكايَةً وإِضرارًا، كان أوَّلَ مَن نَوَيْنَا ووجِبَ تَقْدِيمُ حَرْبِهِ عَلَيْنَا، وإن كُنَّا لَمْ نَحُلْ بالأنْدلس إلَّا وفصلَ الغزو قد ذهب جُلُّه، ولم يبقَ إلَّا أَقْلُهُ، ذلُّكُمْ مَّا لَقِيَ النَّاسُ في طَرِيقِهِم من المطرِ المتدارِكِ، والوَحْلِ المُقَيَّدِ للأخامصِ والسَّنابِكِ، والسَّيُولِ الحارقةِ بكلِّ أرضٍ جَلَدَ، أَنهارًا تَرْمِي غَوَارِبُها الغديرَ بالزَّبَدِ، حتَّى ذهب بالجسورِ، وامْتَنَعَ أَكْثَرُها من العبورِ، وفي النِّيَّة من العَزْمِ أَثناءَ هذه المحاولاتِ والأُمُورِ، ما لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ العَلِيمُ بذاتِ الصُّدُورِ، ولكنَّ وفَّقكم اللهُ مَعَ ضِيقِ الآناءِ، وكونِ الفصلِ لم تَبَقْ مِنْهُ إلَّا صِبابَةٌ كَصِبابَةِ الإِناءِ، رَأَيْنَا أَنَّ لا نُخْلِي العامَ من غزوِ يَذُلِّ الكافِرِينَ في أَرْجائِهِم، ويَجِدُّ عَهْدَهُم بالسَّيفِ الذي لم يَجِفَّ بَعْدُ من دَمائِهِم.

وكان المعقل المعروف بشلبطرة قد عُلقت به حبال الصُلبان، وتألَّم ببقائه وسطُ البلاد قلبُ الإيمان، قد جعلته النصرانية إلى كلِّ غياية جَنَاحًا، وأعدته لأبواب المدائن مفتاحًا، تُهانُ شعائرُ الله في سَنامِهِ وبَطْحائه، ودينُ الحقِّ عن يمينه وشماله وأمامه وورائه، تعتقده الكفارُ حَجَّها وجهادها، وتخدمه ملوكها ورُهبانها وبلدانها، وتُسَرِّبُ إليه درهمها ودينارها، وتزعمُ أنه يعصمُ دارها ويحطُّ أوزارها.

ومن الاتفاق أنَّ الموحِّدين كانوا قد جعلوه في غزوة من الغزوات مُعَرَّجَ ركايبهم ومستوقَفَ إيايهم، وما عسى أن يبلغ العزمُ وهم بسببِ انقلابهم وقد قصَّوا من الغزو مُهمَّتَهم فأقلَّعوا عنه لَصْرِبٍ من النظر، وأملَّوه إلى حين وكلِّ شيءٍ بحُكم القضاء والقدر، فازدادت فيه فتنة الكفار، ولولا عادتهم في التشيُّد مدى الأعصار لاستغنوا فيه بمجرَّد الوهم عن السَّلاح والأسوار.

وما علِمَ القومُ أنَّ أمرَ الله في مَزِيد، وأنَّ سعده من جديدٍ إلى جديد، وأنَّهم يُنارَلون في وقتٍ تكذبُ فيه ظنونهم وترى ما لم تعهده عيونهم، فاستخرنا الله في مُنازلته، وشرَّعنا في الضرورة من أسبابِ محاولته، وقلنا: هو يمينُ صاحب قُشَّالة إن قُطعت قُصْد منه هذا الدليل، ومَظِنَّته عن غَيرته إن لم يتحرَّك لها فقد قام على ضَعْفِهِ أدلُّ دليل.

ثم إنَّا قدَّمنا إليه الأعرابَ رَعِيلاً فرعيلاً وأطلقناهم عليه قبيلًا فقبيلاً، وظهَر في سيطه زهاءُ أربع مئة فارس فقتلوهم تقتيلاً، ثم إنَّا تحرَّكنا على الأثر في جيوشنا فقبلَ النزولِ من السُّروج، ووضع المهنْد والوشيج، حيَّاهم الناسُ بكلِّ ضَرْبٍ وجميع، وموتٍ وحيٍّ سريع، وملَّكوا عليهم أرباضهم، وكانت من الذروة إلى البطحاء، وأضرَموها نارًا من جميع الأنحاء. ثم أمرنا بالمجانيق فزحف بها إليه تقذِفُ حجارة كالجبال عليه، وأنشئَ عليهم سحابٌ مكفَّهٌ من النَّبال تتكسَّرُ منه النَّصالُ على النَّصال، فمَن نجا من الحجارة أمثال الجبال، لم يَنْجُ من السَّهام أمثال الغمام المُشَّال.

والسرايا مع الأيام تحوس طليطلة وأحوازها، والرُّعبُ يملأ أطراف البلاد وأحوازها، والنصرانية قد ضاقت على الرَّحْبِ ساحتها، وودَّت لو يكونُ في الموت راحتها.

فخرج أهل المعقل المذكور وفارقوه لمن له عقبى الدار، وعلى أثرهم طهر الله المعقل من الأقدار، وبدل الله فيه الناقوس بالأذان، وعادت الكنيسة مسجداً على تقوى من الله ورضوان، ورأى المسلمون قرة عين لم يروا مثلها منذ أزمان، وخلصت القلعة للموحدين في التاريخ المذكور قبل.

وفي سنة تسع وست مئة: شاع الخبر بالأندلس عند أشياخ الموحدين بمهلك المستغلبين المعتقلين بفاس: والى مدينة سبتة ووالى مدينة فاس، ووصل ابن مثنى الأمر بقتلها في أواخر السنة الفارطة، وقيل: إن مقتلها كان في أواخر ذي الحجة، وقيل: في أوائل محرم من هذه السنة، فأخرج المذكورون يوم الجمعة بعد الصلاة بحضور الآلاف من الناس، فضربت أعناقها صبراً، عبرة للمعتبرين وذكرى للغافلين.

وفي هذه السنة: كانت وقعة العقاب^(١) التي كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن، وذلك أن أمير المؤمنين الناصر قصد بلاد العدو أذفونش اللعين في جيش عظيم من المسلمين، فاستعد له الطاغية وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفون، فالتقى الجمعان بالموضع المعروف بالعقاب، فكان الظهور أولاً للمسلمين، على أن الموحدين لم يجدوا في تلك الغزوة ولا نصحوا فيها لأجل نكبة أميرهم الناصر لأشياخهم، وقتله واستئصاله لهم على يد المفوض ذلك إليه ابن مثنى، فلما ورد على أذفونش البرشلوني أخزاهما الله تعالى بثلاثة آلاف فارس ولت جموع المسلمين، فمشت الهزيمة عليهم وثبت الناصر لدين الله ثبوتاً كاد يردي به ويمكن العدو منه، حتى وصلت رماحهم إليه، ثم انحاز راجعاً فسلم، وذلك يوم الاثنين الثامن من صفر من السنة^(٢)، فذكروا أن بعض الناس كان يقول: مدها قل لابن المثنى يردها، يعنون بذلك صاحب الأشغال الذي نكب أشياخ الموحدين، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وكتب الناصر بالاعتذار عن هذه الواقعة إلى الحضرة وغيرها أذكر هنا منها بعض فصول:

(١) بكسر العين، كما في الروض المعطار ٤١٦.

(٢) ينظر عن وقعة العقاب: المعجب ٤٠١-٤٠٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥-٣٣٦،

والاستقصا ٢/ ٢٢٠-٢٢٥.

فصلٌ من ذلك، وهي من إنشاء ابن عيَّاش رحمه الله

وإلى هذا - وفَّقكم الله وأعانكم على ما يحبه ويرضاه - فإنَّ صاحبَ قِشَالَةٍ لَمَّا كان في العام السالف قد ضَعُف عن الانتصار، وكاد يَحْفَى في بلاده حتَّى عن الأبصار، رأى أن يَضْرَعَ للملوكِ أهلَ مِلَّتِهِ ضِراعةَ الأَسِيفِ، ويُصانِعَهُم على مَعُونَتِهِ بالتالد والطَّرِيفِ، ويَسْتَرِحَّهُم عسى أن يجدَ عندهم رِقَّةَ القويِّ على الضَّعيفِ، فَبَثَّ القِسيِّينَ والرُّهبانَ من بُرْتَقالٍ إلى القُسطنطينية العُظمى، يُنادونَ في البلاد من البحر الرومِيِّ إلى البحر الأخضر: عَوْنًا غوثًا ورُحْمَى رُحْمَى، فجاءه عُبَادُ الصَّليبِ من كلِّ فَجٍّ عميق، ومكانٍ سَحِيق، وأقبلوا إليه إقبالَ اللَّيْلِ والنَّهارِ، من رؤوس الجبال وأسياف البحار، فكان أوْلَهُمْ سَبَقًا^(١) الإفرنجُ المتوغَّلونَ في الشرق والشَّمال، ثم تابَعَهُم البرجلونيُّ بما عنده من العُدَد والرجال. وكان صاحبُ نبرةٍ متعلِّقًا من الموحِّدين بِذِمَام، ومنقادًا إليهم أَبَدًا في أَسْمَحِ زِمَام، فسَخِطَ عليه صاحبُ رُومَةٍ إن لم يكنْ لقومه مُعسِكِرًا ولسوادِ أهلِ مِلَّتِهِ مَكْثَرًا، فلحقَّ بتلك الجموع مُرْهَجًا، وتوسَّطَ بحرَّهُم السُّزُبُ مُلْجَجًا، كلُّ ينادي الصَّليب، ونحن ننادي بالسميع المُجيب، وكنا لَمَّا تحرَّكنا بالموحِّدين، ومَن مَعَهُم من سائر المسلمين، رأينا أنَّ الأُمَّةَ قد جَدَّ جَدُّها، وأرهَفَ في ذاتِ الله حَدُّها، وعَلِمنا أنَّ الأُمَّةَ التي ليس لها في الأرض نَظير، والعصاةُ التي وَلِيَّها اللهُ وجِبْرِيلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعدَ ذلك ظَهِير، حَزَبُ اللهِ الذي شَرَّفَ به منقطعُ التراب، وأعزَّ به الدِّينُ الغريبُ في زمانِ الوَحْدَةِ والاعتِراب، فسألنا الله أن يوفِّقنا إلى الرِّشاد، وأن يحملنا على جادةِ صلاحِ العباد، وضرَّعنا إليه في الإلهام، لِمَا فيه الخَيْرُ والخِيرةُ للإسلام.

ووصلنا إلى ظاهر جَيَّان وأَقَمْنَا هنالك أيامًا ننتظرُ عبورَ الوادي الكبير، إذ كان قد طَمَّ تَيَّارُهُ، وأمدَّتْهُ من كلِّ شِمالٍ ويمينِ آثارُهُ، مع ما كنا فيه من النَّظرِ في رعايةِ الأصلح، والمحافظةِ على رأسِ المالِ الذي هو التجرُّ الأربح، والكُفَّار طَوَّلَ هذا يَثْأَلُونَ على طُلَيْطَلَةَ انشِالِ الجِرادِ في الكثرةِ والإفساد، وصاحبُ قِشَالَةٍ يتودَّدُ إليهم بالصَّبْرِ على انتسافِ بلاده، ويتجدَّدُ إلى تابِعِهِمْ ومتبوعِهِمْ بأموالِ رعيَّتِهِ وأجنادِهِ، ونحن نعلِّمُ على القطعِ واليقينِ، أنه جَمْعٌ لا يَتَأَتَّى للكُفَّارِ إلَّا بعدَ المِئِنَّةِ من السِّنِّينَ.

(١) في ق: «فكان أسبقهم».

فحين نَصَبَ الوادي الكبير زَحَفْنَا بالجيوش وتحَرَّكت جماهيرُ الكُفْرِ فأرهبوا مَنْ كان في طريقهم من حصونِ الثَّغْرِ، ثم إنَّ الفَتَتَيْنِ قُضِيَ بتلاقيهما في الموضع المعروف بالمرشة، فكان بينَ المسلمينَ وبينَ أعدائهم يومٌ ذو كواكبَ نازعت في المواكبِ الموابك، وموقفٌ نرجو أن يراه اللهُ لنا وأن يَقْبَلَ فيه عملنا، اشتدَّ فيه الكِفاحُ، وأُرْخِصَتْ فيه الأرواحُ، لكنَّ أرادَ اللهُ أن يُمَحِّصَ المؤمنينَ وَيَلْوِ فِيهِ الكافرينَ، فكانت عاقبةُ اليومِ على الخصُوصِ لأهل الصُّلبانِ، والعاقبةُ المطلقةُ هي لأهل الإسلام والإيمان.

وتعاجَزَ الفريقانِ والمسلمونَ عزيزةً جوانبُهم، محروسةً بقُدرةِ اللهِ كتائبُهم، لم تُصِبِ الحربُ منهم أحدًا، ولا نَقَصَتْ لهم عددًا، وهي الحروبُ قَضَى اللهُ أن تكونَ سِجَالًا، وأن يجعلَ اللهُ فيها لكلِّ قومٍ مجالًا، كذلك كانت في زمنِ النبي ﷺ والوحي غُضُّ نَصِيرٍ، وجبريلُ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأرضِ في كُلِّ وقتٍ سفيرٍ، وكذلك كانت في زمنِ الخُلَفاءِ^(١) رضيَ اللهُ عنهم، كُلُّ ذلك لِيَعْلَمَ الشَّاكِرُ والصَّابِرُ منهم.

وإذا كانت، وفَقَّكم اللهُ، الجيوشُ موفورةً والراياتُ منشورةً، والعزائمُ باقيةً وكفَاياتُ اللهِ واقيةً، فلا تَهِنُوا، فَإِنَّا لَا نَهِنُ، وانتظروا الكَرَّةَ على الكُفَّارِ، والإمدادَ عليهم بجُندِ اللهِ الذين هم خيرُ الأنصارِ، فما كان اللهُ لِيَتْرَكَ المؤمنينَ حَتَّى يَأْخُذَ أعداءُهم أَخْذًا وَبِيلًا، ولن يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سَبِيلًا.

وعرَّفناكم لتكونَ عندكم هذه الواقعةُ على وجهِها، والنازلةُ على كُنْهها، ولتعلموا أَنَّهُ لم يُدْرَ للموحِّدين قَتِيلٌ، ولا أَصِيبَ منهم كثيرٌ ولا قليلٌ، والسلام. وَكُتِبَ أَوَاخِرَ صَفَرٍ سنةَ تسعٍ وست مئةٍ.

وفي سنةَ عَشْرٍ وست مئةٍ: توفِّيَ أبو عبد الله الناصرُ رحمه اللهُ، وذلك أَنَّهُ لَمَّا كانت هذه الواقعةُ الشَّنِيعَةُ أَخَذَ في الجَوَازِ إلى العُدوةِ واستقرَّ بحضرتِهِ المَرَاكِشِيَّةِ، لم تكنْ له بعدَ ذلك حَرَكَةٌ منها إلى أن توفِّيَ بها يومَ الثلاثاءِ العاشرِ لشعبانِ المَكْرَمِ من السنةِ المؤرَّخَةِ، وَذُكِرَ أَنَّ بَعْضَ وُزَرَاءِهِ أَغْرَوْا بِهِ مِنْ سَمِّهِ لأنهم خافوا منه أن يقتلَهم فيها جنوهُ معه جزاءً على قبيحِ فعلِهِم، واللهُ العالمُ بحقيقةِ ذلك^(٢).

(١) في ق، ب: «الصَّحابة».

(٢) خبر وفاته في المعجب ٤٠٣ وغيره.

ذكر دولة المستنصر بالله ونُبت من أخباره^(١)

نسبه: هو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن.
بُوع يوم الأربعاء الحادي عشر لشعبان من السنة، وسنة عشرة أعوام أو نحوها^(٢)،
ولقب المستنصر بالله، وتوفي سنة عشرين، فكانت دولته نحو عشرة أعوام، وكان أبوه
قد أوصى عليه بعض أشياخ الموحدون بحضرته فتغلبوا عليه في أيام دولته، فلم تكن له
حركة تُشهر ولا غزوة تُذكر لكن أيامه كانت هادئة ليس فيها مُفاتنة.
وولي أعمامه وقرابته البلاد الغربية والأندلسية بعدما وصلته البيعات من كل
الجهات.

وكانت وفاته يوم السبت الثاني عشر لذي الحجة سنة عشرين وست مئة، فكانت
خلافته على ما حققه ابن رُشيق وغيره عشر سنين وأربعة أشهر ويومين.
وفي سنة إحدى عشرة وست مئة: ولي المستنصر بالله على مدينة فاس السيد أبا
إبراهيم إسحاق الملقب بالأمير الظاهر ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، ونقله من
غُرناطة إليها، وهو أبو المرتضى رحمه الله تعالى، وولي على إشبيلية وجهاتها السيد أبا
إسحاق بن أبي يوسف يعقوب المنصور، وهو السيد أبو إسحاق الأحول.

وفي سنة اثنتي عشرة وست مئة: قام دعي ببلاد جزولة يدعي في مذهبه بدواعي
المُحال، وتبعه ناس كثيرة من الضلال والجُهل، وذكر لهم بزعمه أنه فاطمي، وشاع
الخبر عنه في البلاد أنه عبيدي من ذرية عبيد الله الشيعي، والموحدون في ذلك يعلمون
ثقة بالله تعالى أن ماله مأل أمثاله من كل من ادعى دعواه ونحى في الباطل منحاها، إلى أن
مكن الله منه فقتل وعُلّق رأسه على باب فاس حرسها الله تعالى^(٣).

(١) المعجب ٤٠٤، ونهاية الأرب للنويري ٣٤٣/٢٤-٣٤٤، وتاريخ الإسلام للذهبي
٦٢٦-٦٢٤/١٣.

(٢) هكذا في النسخ، وهو غلط بين صوابه ستة عشر عامًا، لأنه ولد سنة ٥٩٤ هـ، وتولى الأمر
سنة ٦١٠ هـ وتوفي سنة ٦٢٠، كما في مصادر ترجمته.

(٣) المعجب ٤١٠.

وفي هذه السنة المؤرخة: وصل إبراهيمُ ابن الفَخَّار^(١) الإسلامي وزيرُ ملك قشتالة رسولاً من عنده في شأن عَقْد السَّلم، فأنعمَ المستنصرُ بالله بذلك ووجَّه كتابين اثنين، أحدهما: إلى السيِّد أبي الربيع صاحب جَيَّان، والثاني: للشيخ أبي العباس بن أبي حفص والي قرطبة، ومقتضاهما عَقْد السَّلم والمُوادة مع ملك قشتالة أخزاه الله على جميع بلاد الموحِّدين بالأندلس على الشُّروط التي حدُّوها والعهود التي عقَّدوها، فالتزم اليهوديُّ لعنه الله ما لُزم، وأنعمَ بما عُقد من الأمر وأبرم، فصلحت البلادُ الأندلسية في هذه السنة من جهة المُهادنة ووليها كُبراء السادة وأشياخُ الموحِّدين وأميرهم يوسف المستنصرُ بالله بحضرته مقيم، وأوامره نافذة في بلاده وأيام دولته، وليست له حركةٌ تُشهر ولا غزوةٌ غزاها بنفسه فتذكر، ولم أتعرف له خبراً في أيام دولته إلا ما كان من ظهور بني مَرين أعزَّهم الله.

وفي سنة ثلاث عشرة وست مئة: وصل عسكريٌّ من بني مَرين إلى جهة مدينة فاس، فخرج إليهم واليها السيِّد أبو إبراهيم بمن كان معه من الأجناد بفاس، فهزَّمه بنو مَرين وقبضوه واحتملوه معهم إلى أن عرَّفوه فأطلقوه، فتأكَّدت بينهم مودةٌ إثر ذلك، وسمِّي هذا العامُ بمدينة فاس عامَ المشغلة؛ لأنَّ الناس جرَّدوا في تلك الهزيمة ودخلوا مستترين بالمشغلة^(٢).

وكان ابتداء ظهور بني مَرين أعزَّهم الله تعالى في سنة عشرٍ وست مئة بعد مولد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقِّ رحمه الله تعالى بسنة واحدة، وكان دخولهم إلى بلاد الغرب سنة إحدى وست مئة، وسأذكر إن شاء الله بعض مآثرهم ومفاخرهم في أيام مُدَّتِهِم وأعوام دولتهم إن شاء الله تعالى.

ولم أتحقَّق خبراً أذكره في سنة أربع عشرة وخمس عشرة.

وفي سنة ستِّ عشرة وست مئة: كان المحلُّ العظيم، والمجاعة التي شكَّاهها الظاعنُ والمقيم، وتناهى الحالُّ في مَزِيد السَّعر إلى ما لا نهاية له، وكان ابتداء الحال فيه في السنتين

(١) ترجمته في المغرب لابن سعيد ٢/ ٢٣، ونفح الطيب ٢/ ٣٥٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.

المتقدمتين لهذه السنة المؤرخة، وأما السنة^(١) الفارطة عنها فكانت قبائل المصامدة تسميها سنة وقليل.

وكان للمستنصر بالله في هذه السنة فعلٌ جميلٌ وخيرٌ جليل، وذلك أنه لما علم ما حلَّ بالمسلمين في بلاده من المجاهدة في غلاء السَّعر والشَّدة أمر بفتح المخازن المعدَّة لاختزان الطعام، ففتحت للعامة وفرقت عليهم، فذكر أنها كانت بثمانٍ للأقوياء، وبغير ثمنٍ للضعفاء، وبالجُملة فإنه صدَّق منها شيئاً كثيراً وأعطى من الأموال عطاءً جزيلاً فحسنت أحوال الناس بذلك.

وفي سنة سبع عشرة وست مئة، في أوائلها: اشتدَّت الحال في تناهي غلاء الأسعار بالبلاد الغربيَّة والأندلسيَّة إلى أن فرَّج اللهُ سبحانه عن المسلمين بالرَّخاء والعافية^(٢).

وفيها: أمر أميرُ الموحِّدين المستنصرُ بالله يوسفُ ابنُ الناصر بالكتِّب إلى البلاد الغربيَّة والأندلسيَّة بأخذ الناس بإقامة الدِّين والحفْز في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حدَّا في ذلك ما فعله جدُّه عبدُ المؤمن في الرِّسالة التي أنشأها له أبو جعفر ابنُ عطية وبعثَ منها نُسْخاً إلى قواعدِ بلاده، وكذلك أيضاً فعله خليفته يوسفُ أمرُ بإنشاء رسالةٍ أخرى في معنى ذلك.

فصلٌ منها

وإلى هذا وصل اللهُ توفيقكم، فقد علمتم أنَّ الدِّينَ هو الأساسُ الوثيقُ والبناءُ العتيقُ، والفُسطاطُ المضروبُ، والعَلَمُ المنسوبُ، والتَّجَرُّ الذي لا يَبُورُ، والطريقُ الذي لا يَجُورُ، من استمسكَ به فقد استمسكَ بالعروة الوثقى، ومن تحصَّنَ به فقد تحصَّنَ بالمعقلِ الأحصنِ الأرقى.

فإذا وقفتُم على كتابنا هذا فجدِّدوا للناس به الذِّكْرَ، وعرفوهم أنَّ الدُّنيا مَطيَّةُ الدارِ الآخري، وحضُّوهم على العملِ الصالح، والتَّجَرُّ الرابع، عسى أن يجعلَهُم اللهُ تعالى في الدارين من الذين لهم البُشرى، وبُثُّوا في جهاتكم كلَّها الأمرُ بالمعروف والنهي عن

(١) قوله: «المؤرخة، وأما السنة» سقط من ق.

(٢) سقطت من ب.

المنكر تطهّر من الأرجاس وتتنقّ الحواضر والبوادي من الأدناس، وتسلم القلوب والجوارح من الوسواس الخناس، واستحفظوا الكافة صلواتهم، فإنها الكتاب الموقوف على المؤمنين، وخذوهم باعتياد المساجد، فإنها الشاهد الأزكى بشهادة خاتم النبيين وسيّد المرسلين، واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والأسواق، فإنه الخير المألوف والشعار المعروف والرّسم الذي عليه العمل، والعهد الذي لا يجب فيه التغيّر والحلّ، وتتبعوا شعائر الدّين كلّها بالإقامة، ولا يعرض لكم في الأمر بها والحضّ عليها عارض سامة، وتحولوا الناس على الدوام بالوصايا النافعة، والمواعظ الجامعة، وأعلموهم أنه قد جاء في الأثر: إذا أصلح المرء جوانبه أصلح الله برأيه^(١). فليصلح الناس سرائرهم، وليخلصوا ضمائرهم، وليوقنوا بأنهم مسؤولون، وأنهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

ونحن قد قلّدنا الله قلادة نعلم لوازمها، ونحفظ مراسمها، ومن جملتها: التذكير بالدّين، فهو الشافع الذي يقبل، والوسيلة التي لا تضاع ولا تهمل.

فاعلموا أعزكم الله هذا المقصود علمًا، وكونوا في القيام به لا تخالفون يقظة ولا نومًا، وللناس عليكم ما نأمركم به من العدل التام، والإنصاف العام، وكفّ الأيدي، وقبضها عن التعدي. وهذا خطاب قد أرشدنا فيه إلى مناهج سيّية، وحضضنا فيه على أمور ضرورية، وأتينا فيه بما يجب البدار إليه، وخير العمل ما دووم عليه، والله معيّنكم، والسلام عليكم. وكتب في عاشر ربيع الأول سنة سبع عشرة وست مئة.

وفي سنة ثمان عشرة وست مئة: تجددت المهادنة والمصالحة بين ولاة الأندلس من السادات والموحدين، بأمر أمير المؤمنين المستنصر بالله، وبين النصارى دمرهم الله، وكتب الوزير أبو يحيى زكريّا بن أبي زكريّا للملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليطلة كتابًا من إنشاء ابن عيّاش مخبرها بالسلم الذي انعقد بينه وبين رسولهم أخزاهم الله أجمعين.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ١٧/٢، وأبو داود في الزهد أيضًا (٢٠٣٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء من حديث أبي البخري سعيد بن فيروز عن سلمان. وأبو البخري وإن كان من الثقات الأثبات لكنه كان كثير الإرسال يروي عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يسمع من كبير أحد منهم، فما كان من حديثه سماعًا فهو حسن، وما كان معنعنًا فهو ضعيف، وقد عنعنه في هذا الحديث. ينظر تحرير التقريب ٤١/٢.

فصلٌ من ذلك

وقد انقلب إليكم رسولاً منكم بما تتعرفونه في السلم المنعقد، النير شهابه المتقد، بين الموحدين وبينكم، بالمخاطبة الكريمة التي حملها إليكم وحمل نحوكم من الإتحاف ما يُبلغكم على يديه، الذي هو عنوان المُخالصة وثمرَةُ المُواصلَة، وكلُّ ما يكون من هذا بيننا وبينكم ينبغي أن يكون متقبلاً، وعلى أحسن المتأولات متأولاً إن شاء الله، وأنتم بحول الله تقفون عند حدود السلم وتحافظون عليها وتعاقبون كلَّ من همَّ بإذابة المسلمين، فإنّ الوفاء شعارُ الملوك، وعليهم فيه يجبُ السُّلوك. وكتب سادسَ رمضان سنة ثمانٍ عشرة وست مئة.

وفي سنة تسع عشرة وست مئة: قدّم أميرُ المؤمنينَ المستنصر بالله أبا محمد ابن المنصور، وهو العادل، على مُرسيةٍ وأخره عن ولايةِ غرناطة.

وفي سنة عشرين وست مئة: كانت وفاةُ المستنصر بالله بمرآكش يوم السبت الثاني عشرَ لذي الحجة من عام عشرين المذكور^(١). وفي أيامه كان ابتداءُ ظهور بني مَرين أعزَّهم الله، فضربوا على مدينة فاس، وكانوا في نحو أربع مئة فارس، فخرج للقائهم وحرَّهم واليها السيّد أبو إبراهيم والدُ المرتضى فهزموا جمعه وأسروه عندهم ثلاثة أيام، ثم أطلقوه وبعثوا به إلى فاس مع بعض عجائزهم مكرماً معظماً بعدما سلبوا كلَّ من كان خرج معهم إليهم من ثيابهم وأخذوا دوابهم وبألغوا في تجريدهم حتّى كانوا يَسْتُرُونَ عوراتهم بالمشغلة، فسمّي ذلك العامُ عامَ المشغلة، وهو عام ثلاث عشرة وست مئة، فلم يزل السيّد المذكور يُواليهم بالإكرام والبرِّ والاحترام ويعطيهم ويُرضيهم في كلِّ عام، ويقرَّبهم ويُدنيهم من هذا العام إلى عام سبعة عشرَ حين ظهور الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق^(٢)، فإنه استبدَّ برأيه دون غيره إلا ما كان من مراسلات بينهما ومُهادنات إلى آخر دولة المستنصر بالله في عام عشرين.

(١) المعجب ٤١٠-٤١١، ونهاية الأرب ٣٤٥/٢٤.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/٣٩٧ و٧/٢٢٣ فيها بعدها.

وفي أيام المستنصر بالله وصَلَّ القاضي أبو محمد عبد الله بن عبد الحق^(١) من إشبيلية إلى مَرَاكُش حَرَسَهَا اللهُ بِاسْتِدْعَائِهِ إِيَّاهُ واعتنائه به ولم يَزَلْ عنده وعند مَنْ وَلِيَّ بعده من خُلَفَاءِ بني عبد المؤمن مَكْرَمًا مَعْظَمًا إلى أن تَوَفَّى رحمه اللهُ تعالى. ولم تكن للمستنصر بالله حركة ولا غزوة ولا خَرَج من حضرته إلا للمدينة تينمل على العادة في التبرُّك بالمَهْدِي، فما وَقَفَتْ له على خَيْرٍ أَذْكُرُهُ إلا ما رَأَيْتُ في بعض الرسائل والله يُؤْتِي مُلْكَهُ من يشاء.

ذِكْرُ بَيْعَةِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْمَخْلُوعِ^(٢)

هو عبدُ الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، بُويعَ بمدينة مَرَاكُش يومَ الأحد الثالثَ عَشَرَ لذي حِجَّةٍ من سنة عشرينَ وست مئة، وخُلِعَ يومَ السَّبتِ المُوفِي عشرينَ لشعبانَ وخُنِقَ بعدَ ثلاثة أيام من خَلْعِهِ، وذلك يومَ الاثنين الثاني والعشرين لشعبانَ المَكْرَم من سنة إحدى وعشرينَ وست مئة، فكانت مدَّةُ خلافتِهِ بِمَرَاكُش ثمانية أشهر وتسعة أيام، وخَالَفَ عليه^(٣) عبدُ اللهِ^(٤) ابنُ أخيه يعقوبَ المنصورَ الملقَّبَ بالعدل بِمُرْسِيَّةٍ ونازَعَهُ في اسمِ الخلافة بعدَ شهرينِ اثنين من بيعتِهِ إلى أن خُلِعَ وتَخَلَّصَ الأمرُ للعدلِ بِالْعُدُوَّتَيْنِ بعدَ ستة أشهر من استبداده، أولُها يومَ الثلاثاء الثالثَ عَشَرَ من صَفَرٍ من سنة عشرين، وأَخَرُها يومَ السَّبتِ آخِرَ دولة أبي محمد لكونه دَخَلَ عليه القَصْرُ في هذا اليوم بِمَرَاكُش وفي يوم الأحد بعده أَشْهَدَ على نفسه بِالخُلْعِ وتَوَفَّى ليلة^(٥) الأربعاء الخامس والعشرين لشعبانَ من عام إحدى وعشرينَ وست مئة^(٦).

وفي سنة إحدى وعشرينَ وست مئة: قام أبو محمد العدل بِمُرْسِيَّةٍ وبويعَ بها، وطَاعَتْ له بعضُ بلاد الأندلس، وناب إليه بعضُ الموحِّدين، وبقي آخرونَ^(٧) إلى أن

(١) ترجمته في التكملة الأبارية (٢٢٠٣)، وتاريخ الإسلام ٨٣٣/١٢.

(٢) المعجب ٤١١، ونهاية الأرب ٢٤/٣٤٥، وتاريخ الإسلام ١٣/٦٧٤.

(٣) شبه الجملة ليس في ق، ك.

(٤) المعجب ٤١٦، وتاريخ الإسلام ١٣/٧٦٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣٣٩.

(٥) في ق: «يوم»، وما أثبتناه من النسخ الأخرى.

(٦) المعجب ٤١١، وتاريخ الإسلام ١٣/٦٧٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/٣٣٨.

(٧) في ق: «الآخرون».

خَلَّصَ الْأَمْرَ لَهُ وَوَصَلَتْهُ بَيْعَةُ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ مَرَّاكُشَ، وَكَتَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَادِلُ مِنْ مُرْسِيَّةَ، إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ ابْنِ السَّيِّدِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ السَّيِّدِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْبَيَّاسِيِّ حِينَ انْخِلَاعِهِ عَنْ دَعْوَةِ ابْنِ أَخِي جَدِّهِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَدُخُولِهِ تَحْتَ دَعْوَةِ الْعَادِلِ، كِتَابًا بِالشُّكْرِ وَالِاعْتِنَاءِ، وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْوَاحِدِ حِينَ خَلَعَهُ الْمُوَحِّدُونَ فِي سَنِّ الشَّيْخُوخَةِ فَنَسَخَ الْخُلْعَ أَمْرَهُ قَبْلَ التَّمَكُّنِ فَعُدَّ فِي الْأَوَامِرِ الْمَنْسُوخَةِ، فَمَا كَانَ إِلَّا الْقَتْلُ حَتَّى تَحَوَّلَتْ إِلَى غَيْرِهِ أَجْنَادُهُ وَمَوَاكِبُهُ.

ذِكْرُ دَوْلَةِ الْعَادِلِ ابْنِ الْمَنْصُورِ ابْنِ الْخَلِيفَةِ يَوْسُفَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ

بُوعَ بِمُرْسِيَّةَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ الثَّلَاثَ عَشَرَ لَصَفَرٍ مِنْ عَامٍ أَحَدٍ وَعَشْرِينَ وَسِتْ مِئَةَ، وَتَوَفَّى يَوْمَ السَّبْتِ الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ لَشَوَّالِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ، فَكَانَتْ دَوْلَتُهُ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ وَتِسْعَةَ أَيَّامٍ، مِنْهَا إِلَى أَنْ خُلِعَ أَبُو مُحَمَّدٌ عَبْدُ الْوَاحِدِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَتِسْعَةَ أَيَّامٍ، وَلَمَّا أَصْفَقَ النَّاسُ عَلَى بَيْعَةِ الْعَادِلِ بِمُرْسِيَّةَ تَوَجَّهَ مِنْهَا إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ، وَكَانَ أَخُوهُ أَبُو الْعُلَى الْمَأْمُونُ^(١) وَالْيَا عَلَى قُرْطُبَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ الْبَيَّاسِيُّ وَالْيَا عَلَى إِشْبِيلِيَّةَ، فَبَايَعَاهُ^(٢) بِهَا، وَاجْتَمَعَ ثَلَاثَتُهُمْ فِيهَا، وَبِهَا وَصَلَهُ الْبَيْعَاتُ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ مَا عَدَا بَلَنْسِيَّةَ وَدَانِيَّةَ وَشَاطِئَةَ وَجَزِيرَةَ شُقْرٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِلَى نَظَرِ السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ أَخِي الْبَيَّاسِيِّ الْمَذْكُورِ وَأَخِي أَبِي دَبُّوسَ، ثُمَّ وَصَلَهُ بِإِشْبِيلِيَّةَ بَيْعَةُ أَهْلِ مَرَّاكُشَ وَبِلَادِ الْغَرْبِ. وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْعَادِلُ بِمَرَّاكُشَ وَلَّى أَخَاهُ أَبَا الْعُلَى مَدِينَةَ إِشْبِيلِيَّةَ وَوَلَّى الْبَيَّاسِيَّ قُرْطُبَةَ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ وَسِتْ مِئَةَ^(٣).

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ وَسِتْ مِئَةَ: اسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ وَالْأَحْوَالُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَادِلِ بِمَدِينَةِ مَرَّاكُشَ، فَأَقَرَّ عُمَالَهُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَخُدَّامَهُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ فِي أُمُورِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَجَمِيعَ أَشْغَالِهِمْ فِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِيَّةِ، وَكَتَبَ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَى الْحَضَرَةِ لِلْأَنْدَلُسِ:

(١) لَيْسَتْ فِي ق، ك.

(٢) فِي ق: «فَبَايَعَهُ».

(٣) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٦/ ٣٣٩.

فصل من ذلك

وأن تعلموا رضي الله عنكم أن الموحدين أعزهم الله لم يزالوا يتعرفون في أوبيتهم هذه من التيسير والتسهيل، واستصحاب الصنع الجميل، ما قرب لهم كل قاصي، وذلك لهم كل عاصي، ويسر كل عسير وجبر كل كسير، إنجازاً منه سبحانه للمواعيد الصادقة، وصلة لأسباب العناية اللاحقة، تنال عليهم الخيرات انثيالاً، وتوافيهم المسرات بكرة وأصالاً، وتتلقاهم وفود الموحدين من كل جهة أرسالاً يتسابقون إلى لقائهم تسابق الطير إلى الأوكار، ويتبارون في حفظ ما أخذ عليهم من الوفاء بما التزموه من العقود تباري السراة الأحرار، وها هم بحمد الله قد انتظم شملهم واتصل حبلمهم واجتمعت أهواؤهم واتفقت على إعزاز كلمة الحق آراؤهم، وحلوا بدار الموحدين ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين، حيث الجموع وافرة، والأعداد متكاثرة، وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة، وذلك حلول استدعاء واستنفار، لا حلول إقامة واستقرار، عازمين على الجهاد والله تعالى يمضي عزائمهم، ويجبرهم على جميل معتقداتهم على جهاد أعداء الله الكفار، فاعلموا وفقكم الله ذلكم والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم.

وفي سنة ثلاث وعشرين وست مئة: قام عبد الله البياسي بالأندلس، وكان العادل ولآه قرطبة، فخلع دعوة العادل وخرج عن طاعة الموحدين واستعان بالنصارى عليهم ودلهم على عورات تلك البلاد، وأدخلهم قيجاطة وغيرها من بلاد المسلمين، فتملكوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا الحرير والأولاد. ثم دخل بهم حصن باجة ولوشة وغيرهما من الحصون الإسلامية. وذكر عن هذا البياسي أمور شنيعة، منها: أنه دخل في دين النصرانية وكان شيخاً مسناً فنسأل الله العافية وحسن العاقبة^(١).

ثم نزل البياسي المذكور لعنه الله على إشبيلية محاصراً لها وأبو العلى أخو العادل فيها محاصراً بها، فخرج إليه بعسكر المسلمين فهزمه الله مع من كان معه من الكافرين في الخامس والعشرين لصفر من السنة المؤرخة، وكتب أبو^(٢) العلى إلى أخيه العادل من إشبيلية يخبره بهزيمة البياسي، فمن ذلك:

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

(٢) سقطت من ق، ك.

الحضرة الإمامية الظاهرة العلية، مقام الفضل الباهر، ومقر العدل المشتهر في البادي والحاضر، حضرة سيّدنا الخليفة الإمام العادل أمير المؤمنين ابن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين أدام الله لها اتصال البشائر وخلّد في صحف الليالي والأيام ما لا يزال يجدّه برحمته لها من قهر المنافر ونصر المظاهر. عبداً الباذل في خدمتها العلية نفسه ونفائسه، وفي الذبّ عن خلافتها السعيدة وإمامتها الحميدة راجله وفارسه، المشمّر عن ساعد جدّه في مقارعة الصّادّين عن قصده، بهمة في العمل المبرور منافسة، وعزيمة من النصر الموعد غير آيسة، لما أحلّه الله من الملمات بعدوّه البائس وطائفته البائسة، عبداً إدريس، سلامٌ كريم على المقام الإمامي ورحمة الله وبركاته، وبعد حمد الله الذي أبى إلا أن يُنمّ نوره، ويصلّ الخليفة العادل الفاضل اعتلاءه وظهوره، والصلاة على سيّدنا محمد رسوله المصطفى الكريم ذي الدعوة المنجزة والوسيلة المذكورة، وسيّد الأولين والآخرين، صفوة الصفوة وخيرة الخيرة، فكتب العبد المسترق شخصه وفؤاده، المستحق بغمر الأيادي والفضل المتهادي جدّه واجتهاده، كتب الله للمقام العالي من أنباء المسار ما يقرن به التواتر، ويرتفع به التشاجر من إشبيلية.

ومنها: ولما كان يوم كتابه نزل العدو المذكور فكانت بيننا وبينه موافقات غلب فيها باطله، ونحي بعون الله أمله، وهو قصمه الله يُحاول الانتهاض ويروم الاحتمال وبناءه^(١) قد مال، فولى أمام حزب الله الموحدين ما ابتلع ريقاً ولا وجه إلى غير الفرار طريقاً، تكتنف السهام أذنيه وتسبق الشفار إليه، وتكاد عقيب النيايا الواقعة على جزعائه وجرحائه تقع عليه، فكم خلف خلفه من قتيل مضرج بدمه وجريح عض بنان ندمه، أردته مواعيده الكاذبة وتمويهاته العائدة عليهم وعليه بسوء العاقبة، وتبعتهم أجناد الله إلى مضاربة فالفوها حرماً مصفقة بالرياح، لا بل خلقاً ممزقة بالرياح، فدأخلها جزعاً وخللاً فرعاً، وأوى إلى ربوة ليست ذات قرار ولا معين، واستمسك بعروة لا تثبت مع شمال ولا يمين، وكانت الشمس قد وجبت وأسحبت، والظلمة قد أزفت وأزلقت، فمحت الأشخاص من النواظر، وعمت تلك الربوة على الأقدام والحوافر، ولولا سواد الليل خامره السنان المؤلل، وغادره بالأثلاث لحماً لا يُظلل.

(١) في ب، ق، ك: «وبقاؤه»، ولا معنى لها.

ومنها: وإنَّ المحنة بهذا البائس قد بلغت مداها، وانقَبَضَتْ بعدَ البَسْطِ يداها، وانتهى إلى غايةٍ لا يتعدّاها، والحمدُ لله الذي أدلَّ للخلافة العادلة أحدَ عُداها، وأنصَفَها من مُنازِعِها بأدائها، فكافَرُ النِّعم تستحيلُ عليه نِقَمًا، وحاجِبُ الشمس ضوءَها حافظًا بينَ ظلامٍ وعمى، والموحدون عازمونَ على اتِّباع هذا العدوِّ إلى أن يدعوه عَقِيرًا أو يَسْتَبْلُوهُ^(١) أسيرًا إن شاء اللهُ تعالى. وكتبَ في ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وست مئة.

وكتبَ أيضًا أبو العلي لأخيه العادل يُخبرُه برجوع بلد طليطلة إليه^(٢) وانتزاعها من يدِ البَيَّاسيِّ المذكور بعدما هزَمه.

وفي هذه السَّنة: رجع أهلُ حصن القَصْرِ إلى والي إشبيلية أبي العلي وخرجوا عن طاعة البَيَّاسيِّ الذي حَيَّ اللهُ أثره عندَ جَوْلته الخائبة ودعوته الكاذبة، قد استمال جُملةً من حُصون الشَّرَف أتباعًا خَفَّتْ أحلامُهم وما رَجَحَتْ، وخَفِيت عنهم سبيلُ الحقِّ فما وَصَحَتْ، وتلقَّوه تلقِّي البدار، وتطارحوا عليه تطارحَ الفراش على النار، وإذا أراد اللهُ بقوم سُوءًا أعمى بصائرهم^(٣)، وطوى على كُفْرِ النِّعم سرائرهم، وكان لِمَا فَتَحَ أبو العلي حصنَ القَصْرِ المذكور واستمرَّ فتحُه لغيره من حصون الشَّرَف ولم يبقَ للبَيَّاسيِّ منها إلا الأقل.

وفي هذه السَّنة: قامتِ العامَّةُ من أهل قُرطُبة على البَيَّاسيِّ المذكور وقتلوه وبَعَثُوا برأسه إلى إشبيلية فبعثه السيّد أبو العلي إلى حضرة مرّاكش إلى العادل، وكتبَ عن أمير المؤمنين العادل جوابًا لأخيه أبي العلي بعدما وَرَدَ إليه كتابُه مع رأس البَيَّاسيِّ يتضمَّنُ تقديم أخيه أبي العلي المذكور^(٤) على قُرطُبة مضافةً له لإشبيلية.

وفي سنة أربع وعشرين وست مئة: خالفت عَرَبُ الخَلَطِ على العادل، فجهَّزَ إليهم عسكراً فهِزَمَتْهُ الخَلَطُ، وكان أوَّلَ جيش جهَّزه العادل من عساكر الموحدين^(٥).

(١) أي: يبقوه، مأخوذ من الثبل، بالضم والتحريك، وهو البقية في أسفل الإناء وغيره، كما في معجمات اللغة.

(٢) شبه الجملة سقط من ق.

(٣) في ق، ك: «أبصارهم» وما أثبتناه أوفق للسجع.

(٤) سقطت من ق.

(٥) الاستقصا ٢/ ٢٣٢.

وفيها: قام بعضُ أشياخ الموحّدين على العادل بمدينة مَرَاكُش حَرَسَهَا اللهُ، ثم بعد ذلك قتلوه، وكان السببُ في قتل العادل على ما ذَكَرَهُ بعضُ العارفينَ بذلك أَنَّ الموحّدين استعدّوا لقتال الخلط وهسكورة، ووصلت الحِصصُ من جباهم برسم قتالهم، فاستأذنوا في ورودهم إليه وقدمهم عليه، فوعدهم ليوم الخميس الآتي، ثم بعد ذلك بلغهم عنه ما أعاظهم من القول الدميم لهم، فبينما العادلُ قاعدٌ في القبة مع كُبراء الدولة، إذ أقبلوا قاصدين إليه، فعندما عاينهم وفهم الشرَّ منهم، قام عن^(١) مجلسه ودخل القصر، فاتبعوه ودخلوا عليه مسرعين لقتله، فتعرّض لهم بعضُ الفتيان فقتلوا أحدهم وقتلوا للعادل ابناً صغيراً، واختفى العادلُ حينئذٍ، ثم بعد ذلك ظفروا به وقتلوه وكتبوا بيعتهم لأخيه أبي العلي المأمون وبعثوا^(٢) بها إليه، ثم نكثوا إثر ذلك عليه^(٣).

وفي هذه السنة: قام بإشبيلية أبو العلي المأمون ودعا لنفسه وخلع طاعة أخيه لتغلب الموحّدين عليه، وبويع بها في الثاني لشهر شوال على ما أذكر بعد إن شاء الله تعالى^(٤). وكان من أول تخلّص الأمر للعادل إلى أن دعا أخوه^(٥) لنفسه مُنازَعًا له ثلاثة أعوام وشهر واحد وعشرة أيام، أولها الثاني والعشرون لشعبان من سنة إحدى وعشرين، وأخرها مفتتح شوال لكون أبي العلي بويع في الثاني منه ودخل القصر على العادل بمَرَاكُش، وقيل: في الثاني والعشرين منه، فكانت مدة تنازعها عشرين يومًا، وكان دخول الموحّدين عليه القصر وقبضهم عليه غدوة يوم الأربعاء الثاني والعشرين المذكور، وقتلوه بعد أربعة عشر يومًا من خلعه وعزموا على بيعه أخيه أبي العلي. وقيل: إنهم بايعوه بكتبتهم له ثم ندّموا على ذلك ونكثوا عليه لكونهم خلّعوا عمّه ثم قتلوه ثم قبضوا على أخيه العادل وقتلوه وقدموا ابن أخيه يحيى وتركوا أبا العلي لحوّفهم منه من فعلهم بعمّه وأخيه إلى أن أمكنه الله منهم.

(١) من هنا إلى قوله: «بعضُ الفتيان» سقط كلّ من م، والسقط والتحريف والتصحيف فيها كثير، وقد أضربنا عن تتبّع ذلك في تعليقاتنا لكثرة، كما نوّهنا إلى ذلك قبل.

(٢) من هنا إلى قوله: «ودعا لنفسه» في الفقرة الآتية سقط من ب، ق، ك.

(٣) ينظر هلاك العادل في المعجب ٤١٦، وتاريخ ابن خلدون ٣٣٩/٦.

(٤) المعجب ٤١٦.

(٥) في النسخ: «أخاه» ولا يصح نحوًا.

ذكرُ بيعة يحيى ابن الناصر^(١)

بُيْعَ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ الثَّانِي والعشرين لشَوَّالِ عَلَى الرَّوَايَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَتَوَفَّى يَوْمَ الأَحَدِ مَنْسَلَخَ شَوَّالِ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتْ مِئَةٍ، فَكَانَتْ دَوْلَتُهُ تِسْعَةَ أَعْوَامٍ وَتِسْعَةَ أَيَّامٍ أَوَّلُهَا يَوْمُ الأَرْبَعَاءِ الْمَذْكُورِ، مِنْهَا مِنْ أَوَّلِ بَيْعَتِهِ إِثْرَ الْقَبْضِ عَلَى الْعَادِلِ إِلَى أَوَّلِ دَوْلَةِ الرَّشِيدِ إِلَى وَفَاةِ^(٢) الْمُبَايَعِ لَهُ بَعْدَ أَخِيهِ أَبِي الْعُلَى خَمْسَةَ أَعْوَامٍ وَشَهْرَانِ اثْنَانِ، وَمِنْهَا مِنْ أَوَّلِ دَوْلَةِ الرَّشِيدِ إِلَى وَفَاةِ أَبِي زَكَرِيَّا الْمَذْكُورِ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ، أَوَّلُهَا يَوْمُ الأَحَدِ مُفْتَتِحَ شَوَّالِ وَآخِرُهَا يَوْمُ الأَحَدِ أَيْضًا مَنْسَلَخَ شَوَّالِ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتْ مِئَةٍ، وَهُوَ يَوْمُ وَفَاةِ أَبِي زَكَرِيَّا عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ مَعَ بَعْضِ أَخْبَارِهِ فِي دَوْلَةِ الرَّشِيدِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَكَانَتْ دَوْلَةُ يَحْيَى نَكِدَةً كُلُّهَا لَمْ يَسْتَقَرَّ لَهُ الأَمْرُ إِلَّا نَحْوَ سِتِّينَ، فَلَمَّا وَصَلَ عَمُّهُ أَبُو الْعُلَى هَزَمَهُ وَفَرَّ أَمَامَهُ وَسَارَ يَخْوَضُ فِي الْبِلَادِ مَعَ بَعْضِ الْمُوَحِّدِينَ إِلَى أَنْ تَحَرَّكَ أَبُو الْعُلَى إِلَى سَبْتَةِ وَحَاصَرَهَا، وَدَخَلَ يَحْيَى مَرَاكُشَ أَيْضًا ثَانِيَةً، ثُمَّ سَمِعَ عَنْ وَصُولِ عَمِّهِ فَخَرَجَ مِنْهَا وَتَبِعَهُ الرَّشِيدُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ فَهَزَمَهُ، وَدَخَلَ الرَّشِيدُ مَرَاكُشَ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَّ الرَّشِيدُ هَارِبًا أَمَامَ الْخَلِيطِ وَهَسْكَورَةَ، وَدَخَلَهَا أَيْضًا أَبُو زَكَرِيَّا مَعَهُمْ إِلَى أَنْ جَدَّدَ الرَّشِيدُ حَرَكَتَهُ مِنْ سِجْلِمَاسَةَ وَالْغَرْبِ وَوَصَلَ مَرَاكُشَ فَهَزَمَهُ وَفَرَّ أَمَامَهُ، فَمَا زَالَ بَعْدَ ذَلِكَ يَخْوَضُ فِي الْبِلَادِ إِلَى أَنْ غَدَرَهُ بَعْضُ عَرَبِ الْمَعْقِلِ وَبَعَثُوا رَأْسَهُ إِلَى الرَّشِيدِ فِي أَوَائِلِ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ عَامِ ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ حَسَبَ مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذكرُ بيعة أَبِي الْعُلَى الْمَأْمُونِ وَمَدَّتِهِ

وبعض أخباره مع الموحِّدين في دولته^(٣)

هُوَ أَبُو الْعُلَى^(٤) إِدْرِيسُ بْنُ أَبِي يَوْسُفَ يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ يَوْسُفَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، بُيْعَ بِأَشْبِيلِيَّةَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ثَانِي شَهْرِ شَوَّالِ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ وَسِتْ مِئَةٍ،

(١) المعجب ٤١٦.

(٢) قوله: «إلى وفاة» سقط من ب، ق، ك.

(٣) المعجب ٤١٦، وتاريخ الإسلام ٨٧٦/١٣، والإحاطة ١٤٧/١، وتاريخ ابن خلدون ٣٤٠/٦، والاستقصا ٢٣٦/٢.

(٤) الكنية مجودة بخط الذهبي في تاريخ الإسلام، ووقع في بعض المصادر: «العلاء» وهو خطأ.

وتوفي يوم السبت منسَلَخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرين وست مئة، فكانت دولته خمسة أعوام وثلاثة أشهر، منها، من أول تنازعه مع أخيه العادل إلى يوم دخول القصر عليه بمراكش وبيعة أبي زكريا بن الناصر، عشرون يومًا، ومنها من أول دولة أبي زكريا إلى يوم وفاة المأمون المذكور خمسة أعوام وشهرانِ اثنان وتسعة أيام، أولها يوم الأربعاء الثاني والعشرين لشوال من سنة أربع وعشرين المؤرخة، وآخرها يوم السبت منسَلَخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرين وست مئة، فكانت دولة المأمون مزدهمة كلُّها مع العادل ومع أبي زكريا.

وسبب بيعة أبي العلي المأمون بإشبيلية أنه لما قام أخوه العادل بمريسية ودعا لنفسه بها وبُويع فيها وخلع الموحدون عمه عبد الواحد بمراكش وبعثوا إليه بيعتهم واستقامت له الأمور، تحركت نفس أخيه أبي العلي المذكور لطلب الإمرة والخلافة، فما زال يشغل نفسه بذلك ويستميل نفوس الموحدين المستوطنين هنالك.

وكان معه بإشبيلية المذكورة جملة من وجوه الموحدين وأشياخهم، فلم يمكنه إظهار ذلك لهم؛ لأنه لا يعلم ما يصدر له منهم ولا يعلم ما في نفوسهم له من القبول على مراده أو الإضراب عنه، فأخذ في ذلك مع القاضي أبي الوليد بن أبي الأصبح بن حجاج، وذلك في شهر رمضان المعظم من عام أربعة وعشرين المذكور، وأمره أن ينشئ^(١) خطبة بليغة، فذكرها يوم عيد الفطر، وكان قريبًا من هذا التدبير ليستروح في ذلك لذكره وليعلم ما في نفوس الموحدين من أمره، فشرع القاضي في إنشاء الخطبة المذكورة وخطب يوم العيد، وكان مساقه لها أن بدأ بخلق السموات والأرض ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم ذكر ما معنى الخليفة، إلى أن ذكر المهدي ثم ذكر عبد المؤمن إلى أن وصل لذكر العادل، فأخذ فيه مأخذًا حسنًا وتسلل منه بلطف وتسبب لذكر أخيه أبي العلي، ورفق وعرض، ثم أخذ بعد ذلك بأن أشار بالتصريح لذكره والتلويح بالقيام بأمره، ومع ذلك كان الخطيب المذكور وأبو العلي في غاية من الخوف والحذر، إذ لم يكن علم أحد بذلك غيرهما ولا دبّر ذلك الأمر أحدٌ معهما.

(١) من هنا إلى قوله: «لذكره» سقط من ب.

ولقد عرّفني من أثقُّ به أنه شاهدَ رِعدة الخطيب في وقوفه، بحيث أنه كان قريباً من السقوط إلى الأرض، وكلُّ ذلك من شدة الخوف من عاقبة الأمر.

فلما كان ثاني يوم الفطر حضر في مجلس أبي العلى أشياخ الموحّدين وأشياخ إشبيلية أجمعين، ووقعَ ذكرُ الخطبة وإجادتها، وأمر القاضي الخطيب بإعادتها ليسمّعها مَنْ لم يعلم القصْد بها، فأعاد الدعاء للخلفاء، فلما وصل لذكر أبي العلى أطنب فيه، فقام الحاضرون بجمعهم إليه وأخذوا بيده وأقعدوه مقعد الخلافة وبايعوه.

ولما اتّصل ذلك بالموحّدين بمَرَّاكش فَعَلُوا ما فَعَلُوهُ مَعَ العادل بعدما كتبوا إليه وعولوا في الخلافة عليه، ثم نَدِمُوا وقَدَّمُوا ابنَ أخيه كما تقدّم ذكره، فهاجت نفسه لذلك واتّقدت جهرته لهم هنالك، فبقِيَ بإشبيلية يحاولُ أمره، ليأخذَ منهم ثأره، إلى أن كان ذلك على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

أبناءؤه: أبو محمد عبد الواحد وعبد العزيز وعثمان وأبو الحسن عليّ. بناته: أمة العزيز وصفية وعائشة ونجمة وفتحونة؛ وأمّهات الذكور والإناث روميّات وسريّات. وُزراؤه: أبو زكريّا ابنُ أبي الغمر وغيره.

وكتبَ له جملةٌ من الكتاب منهم: أبو زكريّا الفازازيّ وابنُ عميرة، وأبو الحسن الرُّعَيْنِيّ، وأبو عبد الله بنُ عيَّاش، وأبو العبَّاس بنِ عمران، وغيرُ هؤلاء من الكتاب. ولما بويع أبو العلى المأمونُ بإشبيلية طاعت له بعضُ بلاد الأندلس وبايعه بها السيّد أبو زيد صاحبُ بِلَنَسِيَّة وكتبوا يبعثهم إليه.

وفي سنة خمس وعشرين وست مئة: كان ابتداء ظهور أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجُذامي^(١) بشرق الأندلس على ما أذكره، وذلك أنّ السبب في ابتداء ظهوره ونُجح أموره في رجب من هذه السنة المؤرّخة هو القائدُ الغشتيّ، وكان هذا الغشتيّ رجلاً حواسّاً^(٢) وتحت يده جماعةٌ كبيرة من أراذل الناس السّفلة الخسّاس، وصاروا له أعواناً وجُسساً، فكان يقطعُ بهم الطُرُقَات في تلك النواحي والجهات، كأثمهم

(١) المغرب لابن سعيد ٢/ ٢٥١، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠، والإحاطة ٢/ ١٢٨.

(٢) أي: لصاً.

مُغَاوِرُونَ فِيهَا لِلرُّومِ الْمَجَاوِرِينَ إِلَيْهَا، حَتَّى اشْتَدَّ ضَرَرُهُ هُنَالِكَ بِالْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَلِحَقِّ أَذَاهِ الْمُسْلِمِينَ الْمُرْتَدِّينَ فِي طُرُقَاتِهِمْ لَتِجَارَاتِهِمْ. وَكَانَ هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ رَجُلًا مِنْ أَصْنَافِ الْجُنْدِ بِمُرْسِيَّةَ وَغَيْرِهَا لَكِنَّهُ كَانَ لِأَسْلَافِهِ الْقُدَمَاءِ تَقَدُّمٌ مُلْكٌ تِلْكَ الْبِلَادِ الشَّرْقِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيَّةَ تَقَلَّدُوا حُكْمَهَا قَدِيمًا وَأَمْرَهَا، فَقِيلَ: إِنَّ بَعْضَ الْمُنْجِمِينَ كَانَ يَقُولُ لِبَعْضِ أُمَرَاءِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ: إِنَّ قَائِمًا يَقُومُ عَلَيْكُمْ بِتِلْكَ الْبِلَادِ يَكُونُ مِنْ صِنْفِ الْأَجْنَادِ اسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ، فَتَقْتُلُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ شَخْصًا بِجَيَّانٍ يُسَمَّى بِذَلِكَ الْاسْمِ، وَظَنُّوا امْتِحَاءً^(١) ذَلِكَ الرَّسْمِ، فَوَقَعَ فِي النَفُوسِ مِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ إِلَى أَنْ خَرَجَ ابْنُ يَوْسُفَ هَذَا مِنْ مُرْسِيَّةَ إِلَى مَرَّاكُشَ فِي خِدْمَةٍ بِمُخَاطَبَةِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ فَوْصَلَ بِالْمُخَاطَبَةِ إِلَيْهَا وَاسْمُهُ مَكْتُوبٌ فِيهَا، فَصُرِفَ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ مَرَّاكُشَ إِلَى بِلَادِهِ فَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يُعْطَ كِتَابًا وَلَا جَوَابًا وَإِنَّمَا خَرَجَ فَارًّا بِنَفْسِهِ خَائِفًا عَلَى رَأْسِهِ.

فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ لِقِيَهُ شَخْصٌ مِنْجَمٍ يَدَّعِي ذَلِكَ الْعِلْمَ بِزَعْمِهِ وَيَحْكُمُ بِمَا يَرَاهُ فِي نَجْمِهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِحُكْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي سَبَقَ فِي عِلْمِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَنْتَ هُوَ سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَانْجُبْ بِرَأْسِكَ، فَإِنِّي رَأَيْتُ فِيكَ عَلَامَةَ الْمُلْكِ وَتَصْيِيرَهُ إِلَيْكَ، وَأَنَا أَذْلكُ عَلَى مَنْ يَقِيمُ لَكَ مُلْكَكَ وَأَشِيرُ بِهِ عَلَيْكَ، فَانْهَضَ الْآنَ إِلَى الْمَقْدَمِ الْغَشْتِيِّ، وَمَعَهُ يَقُومُ أَمْرُكَ وَحَالُكَ، وَتَكُونُ جَمَاعَتُهُ خُدَّامَكَ وَرِجَالُكَ، فَانْهَضَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ الْمَذْكُورُ إِلَى تِلْكَ الْجَمَاعَةِ وَمَقَدَّمِهَا الْغَشْتِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ^(٢).

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ وَقَصَّ خَبْرَهُ عَلَيْهِ سَرَّ الْغَشْتِيُّ بِذَلِكَ سُرُورًا عَظِيمًا، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ هَذَا عَلَى فَرَسٍ ذَكَرٍ أَشْهَبَ، وَبِهِ اسْتَدَلَّ الْمُخْبِرُ لَهُ فِيمَا زَعَمَ مِنْ عِلْمِهِ، وَذَلِكَ مِنَ الْعَجَبِ، فَكَانَ هَذَا الْحِصَانُ عِنْدَ ابْنِ هُودَ ذَا شَأْنٍ وَعِزَّةٍ، فَقَالَ الْمَقْدَمُ لَابْنِ هُودَ: مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَلَامٌ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ حَتَّى نَخْرُجُوا مَعَكَ لِلْمَغَاوِرَةِ وَنَجْتَمِعُوا عَلَيْكَ وَنَنْسُوا خُرُوجَنَا إِلَيْكَ، فَخَرَجُوا عَلَى سَعْدِهِ إِلَى جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ الرُّومِ فَانْتَسَحَوْا مَا فِيهَا

(١) فِي ك: «محو»، وَهُوَ بِمَعْنَى.

(٢) تَنْظُرُ الْإِحَاطَةَ ٢/١٢٨.

من البقر والأسرى، وكان قد انضاف إلى ابن هود أناس آخرون اتبعوه ثم زادوا إثر تلك الوجهة طائفة أخرى وانضافوا جميعاً مع طائفة الغشتي فنهضوا إلى موضع يُعرف بالصخيرات^(١): بمقربة من مُرسية، فبايعوه هنالك، فتسامع الناس بذلك فبادروا إليه خفافاً وثقالاً فرساناً ورجالاً، لعلمهم بما وقع بين الموحدين وأمرائهم من خلعهم لمخلوعهم وقتلهم لعادلهم الذي كان والي مُرسية. ثم ولي بعده مُرسية السيد أبو العباس بن أبي موسى بن عبد المؤمن، وهو الذي خرج عليه ابن هود في هذه السنة فخرج إليه بعسكر من مُرسية فهزمه، ثم خرج إليه والي بكنسية السيد أبو زيد فهزمه واستولى على محلته، وعاد إلى مُرسية فزحف بجمعه إليها براية سوداء يدعي أنه قائم بدعوة بني العباس، فبايعه فيها لفيء الناس، ونبدوا طاعة الموحدين وارتفع عنهم بذلك الشك والالتباس، وشاع ذكر ابن هود في الأندلس وأقطارها، إلى أن ملك البلاد وجدد الأجناد، وعاهد لصاحبه الغشتي أنه إن ملك مُلك البلاد الأندلسية أن يُعطيه القيادة البحرية، فكان ذلك كما عاهدته وواعده، فلما ملك إشبيلية أعطاه قيادة أساطيلها والنظر في أحوالها، إلى أن طاعت له سبته فأعطاه إياها قيادة وعملاً تنويهاً به، فلما علا سعده وكمل، قام عليه أهل سبته وأرادوا قتله، ففر أمامهم وخفي أثره إلى أن تحقق بعد ذلك خبره، فقيل: إنه دخل في زورق صغير ليهرب فيه إلى الأندلس أمام أهل سبته، فحُمِل في أيدي العدو أسيراً فحُمِل إلى جبهة غرب الأندلس ودام في الأسر أعواماً كثيرة وشهوراً، ولو علموا أنه الغشتي لقتلوه أو طلبوا منه مالاً كثيراً، لأنه كان قد أضر بهم في البحر وله فيهم جملة غزوات قتلهم فيها واستأصلهم، وشاع ذكره في الآفاق حتى ضرب به المثل لزعامته وشهامته، وخرج من الأندلس في شيخوخته، وله أخبار يطول ذكرها، ومات برباط أسفي رحمه الله تعالى.

رَجَعَ الخبر إلى ابن هود^(٢).

(١) الروض المعطار ٣٥٥ وفيه: الضخور.

(٢) الإحاطة ١٢٩/٢.

ذكرُ بعض أخبار الدولة الهُودِيَّة المُتوَكِّلِيَّة

وقيامها بالدعوة العباسيَّة في البلاد الأندلسيَّة

بُويَع ابنُ هود بِمُرْسِيَّة غُرَّةَ رَمَضَانَ المعظَّم من سنة خمس وعشرين المؤرَّخة، وتسمَّى بِأَمِيرِ المُسلمين ومِعزَّ الدِّين، وتلقَّب بالمتوَكِّل على الله، وقام بدعوة الخليفة أبي جعفرٍ المنتصر بالله^(١)، فسماه مجاهد الدِّين سيفَ أميرِ المؤمنين عبدَ الله المتوَكِّل عليه أميرُ المُسلمين، وهكذا كان يُكتَبُ عن ابن هود في أوائل كتبه، علامته: توَكَّلْتُ على الله الواحد القهار، وعلامةُ أخيه أبي النُّجا: وثقْتُ بالله وحده. وكان لسائر إخوته علاماتٌ في كتبهم وألقابٍ يمتازون بها في رعيَّتهم، فسُمِّي أبو النُّجا سالمٌ عمادُ الدولة، وأبو الحسن عَضدُ الدولة، وأبو إسحاق شَرَفُ الدولة، فكان يُكتَبُ عنهم: من الأميرِ فلان. وتوفيَّ المتوَكِّلُ على الله في سنة خمس وثلاثين، فكانت دولته عشرة أعوام أو نحوها، قتله ابنُ الرميميِّ بقصر المرنه، قيل: بالسُّم وقيل: بِمِخْدَةٍ، وذكرَ الناسُ في سبب قتله أقوالاً، وسأذكرُ بعض أخباره على مرور السنين^(٢).

وفي هذه السنة، وهي سنة خمس وعشرين: تحرَّك المأمونُ بعساكره من مدينة إشبيلية إلى مُقاتلة ابن هود، فالتقيا فهزمَ المأمونُ لابن هود أشنعَ انهزام وكتبَ إلى أهل إشبيلية بِشرح الأحوال لهم فيها والإعلام، وامتدحت المأمونَ أبا العُلى جماعةٌ من الشعراء، فقابلَهم بأجزلِ العطاء على هذه الهزيمة وغيرها، فمنهم: الكاتبُ أبو زيد عبدُ الرَّحمن الجُرُّولي، قال يمدِّحه في قصيدة طويلة منها [من الكامل]:

كلُّ يقولُ ونَصْرُكم مأمونُ	والِيُمنُ منه على الفتوح ضمينُ
في كلِّ محمَدةٍ على المأمونِ عب	بِالله زاد أبو العُلى المأمونُ
معنى الخلافة سرُّها مختارُها	مأمونُها ميمونُها الميمونُ
نصرُ الإمام أبي العُلى جارٍ على	حُكم القضاء وإنه لَمكينُ
الله أيدُ أمره وقضى له	بالظفر بالأعداء وهو جَنينُ

(١) هكذا لقَّبه، وهو المستنصر بالله، أبو جعفر منصور بن محمد بن أحمد.

(٢) الإحاطة ١٣٢/٢.

نَطَقَ الزَّمَانُ بِهِ وَقَالَ مُحَقِّقًا
رَفَعَتْ لَهُ أَيْدِي السَّعُودِ مَبَانِيًا
قَامَتْ عَلَى أُسُسِ الْهُدَايَةِ فَاعْتَلَتْ
وَسَمَاوَهَا النَّصْرُ الْعَزِيزُ وَأَرْضُهَا
أَضْوَاءُ أَسْرَارِ الْخِلَافَةِ كُلِّهَا
اهْنَأُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبَا الْعُلَى

إِذَا ذَاكَ أَمْرُ اللَّهِ فَهُوَ مُبِينٌ
مَنْ فَوْقَهَا حِصْنٌ عَلَيْهِ حَصِينٌ
وَمَنَارُهَا لِلْمُتَقَدِّمِينَ^(١) الدِّينُ
تَقْوَى الْإِلَهِ وَإِنَّهُ لَمُعِينٌ
بِيَدِ الْخَلِيفَةِ حَبْلُهُنَّ مَتِينٌ
اهْنَأُ فَأَمْرُكَ فِي الْعُلَى مَكْنُونٌ

ومنها: الكاتب أبو جعفر ابن الكاتب أبي عبد الله بن عيَّاش، قال من قصيدة أولها [من الطويل]:

فَوَادِي بِأَمْدَاحِ الْخَلِيفَةِ هَيَّانُ
عَلَوْتُ وَمَقْصُودِي الْإِمَامُ أَبُو الْعُلَى
قَصِدْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَدْحِهِ
هُوَ الْمَلِكُ الْمَأْمُونُ لِلَّهِ دُرُّهُ
فَمَا الْأَصْلُ إِلَّا لِلنَّبِوَةِ يَنْتَمِي
فَطَاعَتُهُ فَرَضٌ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ
بَقِيَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَوْيِدًا
وَلَا زَالَ أَمْرُ اللَّهِ يَقْصِدُ أَمْرَكُمْ

فَفِيهِ اعْتِزَازٌ وَالتَّغَزُّلُ إِذْعَانُ
وَفِي مَنْ أَيْادِيهِ عَلَى الْمَدْحِ سُلْطَانُ
فَأَمْدَاحُهُ لِلْمَرْءِ يُمْنٌ وَإِيمَانُ
نَمَاهُ إِلَى بَيْتِ النَّبِوَةِ عَدْنَانُ
وَمَنْ طِيبَ ذَاكَ الْأَصْلُ تَنْعَمُ أَغْصَانُ
وَعَصِيَّانُهُ لَا شَكَّ لِلَّهِ عَصِيَانُ
فَإِنَّكَ رُوحٌ وَالْبَرِّيَّةُ أَبْدَانُ
وَيَجْرُسُهُ طَرْفٌ مِنَ النَّصْرِ يَقْظَانُ

ومنها: أبو الحسن علي بن الفضل، قال من قصيدة طويلة يمدحُه [من مجزوء الرمل]:

مَلِكُ الْعُلِيَّاءِ إِمَامٌ مَالِكُ دُنْيَا وَدِينَا

(١) كذا في النسخ، ولا يقوم للعجز وزن على البحر الكامل، بحر هذه القصيدة، بهذه الكلمة، وقد جعلها ناشرو (م): «للمتقين».

وَأَتَى الْجَامِعَ زُهْدًا	مَعَ جَمْعِ الزَّاهِدِينَ ^(١)
عَقَدُوا الرِّايَاتِ فِيهِ	عَقَدَ عَزَمَ مُحِيطِينَ
وَالَهُ النَّاسُ يَقْضِي	لَهُمُ الْفَتْحَ الْمُبِينَا
أَيُّهَا الْمَأْمُونُ صَمَّمْ	تَضَطَّلِيهِمْ أَجْمَعِينَا
وَجَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا	بِجَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ

ومنهم: أَبُو أُمَيَّةَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ سَعْدِ السُّعُودِ بْنِ عُفَيْرٍ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوْهَا [مِنَ الْكَامِلِ]:

حَسْبُ الْإِمَامَةِ أَنَّكَ الْمَأْمُونُ	لَا قَاكَ طَالَعُ سَعْدِكَ الْمَيْمُونُ
حَسَمْتَ خِلَافَتَكَ الْخِلَافَ كَمَا بَدَا	بَسَنَّاكَ نَوْرُ الْحَقِّ فَهُوَ مُبِينُ
فَعَسَاكَ عَيْسَى تَنْجِلِي بِكَ فِتْنَةً	دَجَّالُهَا بِسَفَالَةٍ مَفْتُونُ
سَيَرَى مُطِيعُ هَوَاهُ كَيْفَ يَخُونُ مَنْ	رُوحُ الْإِلَهِ عَلَى حِمَاهُ أَمِينُ
لَكِنْ أَمَرَ اللَّهُ فِيهِمْ وَالَّذِي	أَرْجَاهُ مِنْ مِيعَادِهِ سَجَّينُ
مَنْ رَامَ يَا مَأْمُونُ كَيْدَكَ إِنَّمَا	كَادَ الْإِلَهِ وَذَاكَ كَيْفَ يَكُونُ
يَا ابْنَ الْخِلَائِفِ يَا خَلِيفَتَنَا الَّذِي	نَسَقُ الْفَتْوحَ بِسَعْدِهِ مَضْمُونُ
يُهْنِيكَ بَلْ يُهْنِي الْأَنَامَ بِشَائِرُ	يُصْغِي الْعِرَاقُ لَذِكْرِهَا وَالصَّيْنُ
وَدَعَاؤُنَا عِنْدَ الْأَصَائِلِ وَالضُّحَى	كَلَّا تُكَ عَيْنُ اللَّهِ يَا مَأْمُونُ

وَلَمْ تَزَلِ الشُّعْرَاءُ تَمْدَحُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، فَيَقَابِلُهُمُ بِالْبَذْلِ لَا بِالْمَقْتِ.

وَلَمَّا صَدَرَ أَبُو الْعُلَى الْمَأْمُونُ مِنْ حَرَكَتِهِ بَعْدَ مَقَابِلَةِ ابْنِ هُودٍ وَهَزِيمَتِهِ وَاسْتَقَرَّ بِإِشْبِيلِيَّةَ حَضْرَتِهِ، وَصَلَتْهُ بَعْضُ الْبَيْعَاتِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَوَصَلَتْهُ بَيْعَةُ هَلَالِ بْنِ مُقَدَّمِ الْخُلَطِيِّ وَأَنَّهُ تَحْتَ طَاعَتِهِ وَدَاخِلٌ فِي سَلَكِهِ وَجَمَاعَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ يَحْيَى وَلَوْ سَقَاهُ بِكَأْسٍ

(١) سَقَطَ قَوْلُهُ: «جَمْعٌ» مِنْ كُ، وَالْعَجْزُ مَكْسُورٌ بِهَا أَوْ بِدُونِهَا، وَلَعَلَّ مَا يَرْمِ الْوِزْنَ أَنْ يَقُولَ: «مَعَ جَمِيعِ الزَّاهِدِينَ».

الْمَحْيَا، فَكَتَبَ لَهُ أَبُو زَيْدٍ الْفَازَاذِيُّ عَنْ إِذْنِ الْمَأْمُونِ شِعْرًا يَشْكُرُهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَيَعِدُّهُ فِيهِ بِأَقْصَى أَمَلِهِ، وَهُوَ [مِنْ الْبَسِيطِ]:

الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ مَنْسُوبَانِ لِلْعَرَبِ	بِالسَّمَهْرِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ الْقَضْبِ
وَالْحَرْبُ تَبَعْتُ مِنْهَا كُلَّ مَعْتَرِكٍ	حَفَائِظًا تَتْرُكُ الْأَعْدَاءَ فِي حَرْبِ
حَازُوا الْوَفَاءَ إِلَى الْإِقْدَامِ وَانْتَسَبُوا	إِلَى خِلَالِ الْمَعَالِي كُلِّ مُتَسَبِّ
تَجَشَّتْ جُشْمٌ نَصَرَ الْمَعِدَّةَ لَهَا	أَسْنَى الْجَوَائِزِ مِنْ مَالٍ وَمِنْ نَشَبِ
وَجَاءَتِ الْخِلَاطُ الْمَشْكُورُ مَقْدَمُهَا	كَالْأُسْدِ تَبْدُو عَلَيْهَا سَوْرَةُ الْغَضَبِ
خَفُّوا إِلَى نَصْرِ حَزْبِ اللَّهِ وَاحْتَفَلُوا	فِي عَسْكَرِ صَخْبٍ أَوْ جَحْفَلٍ لَجِبِ
كَتَائِبُ ضَاقَتْ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ بِهَا	فِي ظِلِّ أَلْوِيَةِ مَنْشُورَةِ الْعَذَبِ
فَمِنْ صَوَارِمَ مِثْلَ النَّارِ فِي صُعْدِ	وَمِنْ سَوَابِقَ مِثْلَ الْمَاءِ فِي صَبَبِ
بَحْرٍ عَلَى الْبَرِّ مَرْتَجٌّ غَوَارِبُهُ	مِنْ فَوْقِهِ قَطَعَ الرِّيَّاتِ كَالسُّحْبِ
شَوَاهِدُ صَدَقَتْ فِيهِمْ مَخَايِلُهَا	بِمَا لَهُمْ مِنْ صَمِيمِ الدِّينِ وَالْحَسَبِ
تَذَكَّرُوا مِنْ الْمَنْصُورِ فَاعْتَرَفُوا	لِنَجْلِهِ بَعْدَ كَرَّاتٍ مِنَ الْحَقْبِ
وَالْفَضْلُ يَبْدُو عَلَى الْأَحْرَارِ رَوْنُقه	وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى الْبَاقِي مِنَ الْحَقْبِ ^(١)
أَمَّا هَلَالٌ فَقَدْ أَوْقَى بِذِمَّتِهِ	وَفَاءَ رَاعٍ لِحَقِّ الدِّينِ وَالْأَدَبِ
رَأَى الْخِلَافَةَ حَلَّتْ غَيْرَ مَوْضِعِهَا	فَأَدْرَكَتْهُ عَلَيْهَا غَيْرَةُ الْعَرَبِ
وَقَالَ لَا سِلْمَ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهَا	مِنْ ظُلْمٍ مُسْتَلَبٍ أَوْ جَوْرٍ مَغْتَصِبِ
وَسَلَّمَ الْأَمْرَ لِلأَوَّلَى الْأَحَقُّ بِهِ	بِالرَّغْمِ مِنْ أَنْفِ أَهْلِ الْغَدْرِ وَالْكَذِبِ
وَأَفْتِ مَصْرَحَةً بِالْوُدِّ بَيْعَتُهُ	طَلِيعَةً بِجَزِيلِ النَّصْرِ وَالْغَلَبِ
جَمْعًا لِفَضْلَيْنِ يَلْقَى الْحُسَيْنِينَ بِهِ	نَصْرَ الْكَتَائِبِ فِي الْهَيْجَاءِ وَالْكَتَبِ

(١) سقط البيت كله من ك.

صَبْرًا أَبَا النِّجْمِ صَبْرًا إِنَّهَا ظَلَمٌ
وَدُمَّ عَلَى حَالَةٍ تُجْنَى عَوَاقِبُهَا
فَعِنْدَ ذَلِكَ إِشَارٌ وَمَرْتَبَةٌ
وَسَوْفَ تَلْقَى بَعُونَ اللَّهِ مَأْتِرَةً

تُجَلَى وَتُحَى بِفَضْلِ اللَّهِ عَنْ كَثَبٍ
أَذْكَى مِنَ الْمَسْكِ فِي أَحْلَى مِنَ الضَّرْبِ^(١)
تَنْحَطُّ عَنْهَا مَزَايَا سَائِرِ الرُّتَبِ
تَحْطَى بِرَاحَتِهَا مِنْ سَائِرِ التَّعَبِ

ولمَّا تَحَصَّلَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ بِيَدِ يَحْيَى بْنِ النَّاصِرِ، وَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ التَّحْمِيدِ
لِهَلَالِ بْنِ مَقْدَمِ الْخُلَطِيِّ، أَمَرَ الْأُسْتَاذَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ الصَّفَّارِ الْمَعْرُوفَ بِالْبِرْنَامَجِ، أَنْ
يَجَاوِبَهُ عَلَيْهَا وَيَنْهَجَ فِي هَلَالٍ غَيْرِ تِلْكَ الْمَنَاهِجِ، فَقَالَ الْأُسْتَاذُ [مِنْ الْبَسِيطِ]:

نَسَبَتْ شَرَّ عَبِيدِ الْعُجَمِ لِلْعَرَبِ
أَصِخْ لَتَسْمَعَ أَنْسَابَ الَّذِينَ هُمْ
كَانَتْ عَبِيدُ الْعَصَا لِلْقُرْمَطِيِّ فَإِذَا
حَلَّتْ مُحَلَّاةً بِتَرَاءٍ فَقَدْ رَحَلَتْ
خَانَتْهُمْ الْخَيْلُ رَيْعَانَ الشَّيْءِ لَهَا
لَوْ أَعْلِمْتَ وَائِلُ يَوْمًا بَدْعَوْتَهَا
وَنِيَطُ الْخُلَطُ الرَّدَى بِهِمْ نَسَبًا
فَإِنْ تَكُنْ فِي الْوَعَى مِنْ طُلْحَةٍ سَلِمْتَ
وَلَيْسَ مِنْ رَهَبٍ يُنْجِيهِمْ هَرْبُ
أَمَّا هَلَالٌ فَقَدْ حَاقَ الْمَحَاقُ بِهِ
حَلَّ الْحُضِيضِ سَقُوطًا وَهُوَ مُحْتَرَقُ
وَعَرَّهْ خُلَبٌ مِنْ شَاعِرٍ مَلِيقِ
وُظِلَّ مِنْ رُتَبِ الْعُلِيَا عَلَى عِدَةٍ
وَصَارَ يَطْمَعُ فِي مَالٍ وَفِي نَشَبٍ

جَهْلًا بِفَضْلِ رَسُولِ اللَّهِ وَالنَّسَبِ
شَعَارُكُمْ فِي الْخُطُوبِ السُّودِ وَالنُّوبِ
وَإِذَا الْمَوْفَقُ لَازَتْ مِنْهُ بِالسَّهَرِ
عَنْهَا بَنُو جُشَمٍ مِنْ مَائِهَا الْأَشْبِ
فَلَمْ تَضُرَّهَا وَجَدَتْ بَعْدُ فِي الطَّلَبِ
فِيهَا لَمَّا شَرِبْتَ مَاءً مِنَ الْغَضَبِ
كَأَنَّهَا الْقَبَسُ الصَّيْفِيُّ بِالذَّنْبِ
فَذَا الْمَوْفَقُ وَصَفًا لَيْسَ بِاللَّقَبِ
مَا يَبْعُدُوا يَقْرُبُوا لِلْحَيْنِ وَالشَّجَبِ
لَاقَى الْوَبَالَيْنِ مِنْ حَرْبٍ وَمِنْ حَرَبِ
تَحْتَ الشُّعَاعِ بِشُهِبِ الْهِنْدِ لَا الشُّهْبِ
فَنَالَ صَاعِقَةً لَا وَكَفَ السُّحْبِ
فَالرُّبُّ يَعْلُوهُ مَا يَرْقَى عَلَى الرُّتَبِ
وَصَارَ مَتَشَبِّبًا فِي بَرَثَنِ النَّشَبِ

(١) الضرب، بسكون الراء: العسل الأبيض، وبالتحريك أشهر، كما في معجمات اللغة.

فَقُلْ لَهُ لَوْ أَرَادَ الْخَيْرَ فَازَ بِهِ
لَمَّا أَوْتُ عَاصِمٌ لِلدِّينِ وَاعْتَصَمْتُ
فَإِنْ يَكُنْ مَهْتَدٍ مِنْهَا بِكُمْ فَكَمَا
وَمَنْ عَصَا مِنْكُمْ فَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ
وَالْحَقُّ شَمْسٌ سَنَاهَا لَيْسَ يَحْجُبُهُ
يَحْيَى خَلِيفَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَنْ
نَالَ الْخِلَافَةَ عَنْ خَيْرٍ وَعَنْ خَيْرٍ
اخْتَارَهُ اللَّهُ فَاخْتَارَتْهُ صَفْوَتُهُ
لَمْ يَذْخُرُوا نُصَحَهُمُ لِلدِّينِ وَاجْتَهَدُوا
لَيْسَتْ بِنَكْثٍ وَلَا كُتْبٍ قَدْ اخْتَلَفَتْ
لَمْ يَنْتَصِرْ بِالنَّصَارَى وَالْبُغَاةَ عَلَى الْإِسْلَامِ
خَلِيفَةُ مُرْتَضَى أَنْصَارُ دَوْلَتِهِ
طَعَنُ الصُّدُورِ وَضَرْبُ الْهَامِ عِنْدَهُمْ
قُبْحُ الْوَعَى عِنْدَهُمْ حُسْنُ وَرَاحَتِهِمْ
وَحَرٌّ جَانِحِهَا بَرْدُ الْعَشِيَّةِ فِي
أَيَّامِ إِمَامِ الْهُدَى إِنَّ الْبِلَادَ لَكُمْ
وَإِنْ يُجَادِلُكَ فِي الْمَنْصُورِ ذُو جَدَلٍ
وَإِنْ يَقُلْ أَنَا عَمٌّ فَالْجَوَابُ لَهُ
وَهَلْ يُمْتُ بِشَيْءٍ لَا تُمْتُ بِهِ
إِذَا عَصَاكَ مَطِيعٌ لَيْسَ مُتَنَفِعًا
وَيُرْتَجَى الْعَفْوُ لِلْعَاصِي بِطَاعَتِكُمْ

الصَّيْفِ ضَيَّعَتْ جَهْلًا حَافِلَ الْحَلَبِ
بِحَبْلِهِ نَالَتْ الدُّنْيَا بِلَا نَصَبٍ
تُلْقَى خِلَالِ رِمَادٍ قِطْعَةُ الذَّهَبِ
يُمْسِي وَيُصْبِحُ مَعْدُودًا مِنَ النَّهَبِ
وَإِنْ تَرَكَمُ غَيْمُ الزُّورِ وَالْكَذِبِ
يَجْهَلُهُ يُعَلِّمُهُ حِطُّ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ
مُحَقِّقٍ وَبَارِثٍ عَنْ أَخٍ وَأَبٍ
مِنَ الْبَرِيَّةِ أَهْلُ الدِّينِ وَالْحَسَبِ
مَا كَانَ عَنْ رَهَبٍ مِنْهُمْ وَلَا رَغَبٍ
وَلَا كِتَابٍ أَهْلُ الْبَغْيِ وَالصُّلْبِ
مُطَهَّرِينَ مِنَ الْأَدْنَسِ وَالرَّيْبِ
أَنْصَارُ أَمْرِ الْهُدَى الْبَاقِي عَلَى الْحَقِّ
مَاءُ الْحَيَاةِ شَبِيبًا قَدْ شُجَّ بِالضَّرْبِ
مَا نَالَهُمْ فِي اعْتِلَاءِ الدِّينِ مِنْ تَعَبٍ
رَوْضُ عَلِيلٍ نَسِيمًا غِيبٌ مَنْسَكِبٍ
شَرْقًا وَغَرْبًا فَنَائِيهَا كَمَقْتَرِبٍ
فَنَجُلُ نُوحٍ تَوَى فِي قِسْمَةِ الْعَطَبِ
عَمُّ النَّبِيِّ بِلَا شَكٍّ أَبُولَهَبِ
بَلْ زِدَتْ فَخْرًا، مَلَأَتْ الدَّلْوُ لِلْكَرْبِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالطَّاعَاتِ وَالْقُرْبِ
فَإِنَّهَا سَبَبٌ نَاهِيكَ مِنْ سَبَبِ

أَيْمَنُحُ الْمَرْءُ وَالْقَهَّارُ يَمْنَعُهُ وَيُوَهِّبُ الْمَرْءُ وَالْوَهَّابُ لَمْ يَهَبِ
فَدُمْتُ لِلدِّينِ تَحْمِيهِ وَتَحْفَظُهُ مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَعَادٍ عَابِدِ الصُّلْبِ

وَكَتَبَ يَحْيَى ابْنُ النَّاصِرِ حِينَ ذَلِكَ يَسْتَجْلِبُ النَّاسَ لَطَاعَتِهِ وَيُرْغِبُهُمْ فِي حَزْبِهِ
وَجَمَاعَتِهِ مِنْ إِنْشَاءِ كَاتِبِهِ أَبِي الْحَسَنِ السَّرْقُسْطِيِّ، وَذَلِكَ بَعْدَ الصَّدَرِ:

وَالَّذِي نَوْصِيكُمْ^(١) بِهِ تَقْوَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ
أُمُورَ الرِّعْيَةِ لَا بَدَّ لَهَا مِنْ حَافِظٍ يَحْفَظُهَا وَيُرَاعِي حَقَّ اللَّهِ فِيهَا وَيَجْهَدُ فِي صَلَاحِ أَحْوَالِهَا
وَتَلَافِيهَا، فَإِنَّهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِسُلْطَانٍ يَزَعُ، وَعَامِلٍ يَسُوسُ وَيُرَدِّعُ، بِهَذَا يَكُونُ قِيَامُ
الْعَالِمِ، وَيَتَصَيَّفُ الْمَظْلُومُ مِنَ الظَّالِمِ، وَبِهِ تَكُونُ الدَّعَةُ وَالْأَمَانُ، وَقَدْ جَاءَ فِي الشَّرْعِ:
«يَزَعُ اللَّهُ بِالْسلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقِرَآنِ».

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْقِلَادَةُ لَمْ تَزَلْ مِنْ لَدُنْ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ تَنْتَقِلُ مِنْ يَدِ إِمَامٍ إِلَى نَجَلِهِ،
وَكَانَ الْأَمْرُ مِنْ مُسْتَحْقِّهِ وَفِي أَهْلِهِ، إِلَى أَنْ بَلَغَ الْأَمْرُ إِلَى الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالنَّاسِ
فِي أَمْنَةٍ وَفِي تَهْدِينَ، وَلَوْ أَجَلَّهُ الْأَجَلَ، وَسَاعَدَهُ الْأَمَلُ، لِأَلْقَى هَذِهِ الْقِلَادَةَ إِلَيْنَا، وَتَلَا
قَوْلَ سَمِيئَةَ: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠]، إِلَّا أَنَّ الْأُمُورَ
اخْتَلَّتْ اخْتِلَالًا، وَاكْتَسَتْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ وَصَحَّةٍ وَهَنًا وَاعْتِلَالًا، وَاسْتَرْسَلَ الشَّرُّ وَأَهْلُهُ
اسْتَرْسَلُوا، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كَادَتْ قَوَاعِدُ هَذَا الْأَمْرِ الْمَهْدِيِّ لَوْلَا تَدَارُكُ اللَّهِ أَنْ تَتَزَعَزَعَ،
وَمَبَانِيهِ الْوَثِيقَةُ أَنْ تَتَضَعَّضَ، فَتَلْفَاهُ الْأَشْيَاخُ وَالْجِلَّةُ بِمَا شَدَّ أَرْكَانَهُ، وَأَسَّسَ بُنْيَانَهُ،
وَأَعْطَاهُ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ كَيْدِ كَائِدِهِ أَمَانَةً. وَاقْتَضَى نَظَرُهُمْ بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذَا الْأَمْرِ
الْمُؤَسَّسِ عَلَى التَّقْوَى بُنْيَانَهُ، وَبَعْدَ شَحْذِ الْعِزَائِمِ، وَالطَّيْرَانِ إِلَى الْحَقِّ بِعَمَلِ خِفَاقِ الْخَوَافِي
وَالْقَوَادِمِ، تَحْمِيلَنَا هَذِهِ الْأَمَانَةَ الْعُظْمَى، وَالْقِلَادَةَ الْجُسْمَى، فَأَعْطَوْنَا صَفْقَةً أَيْدِيهِمْ، وَعَقَدُوا
بِيعَتَنَا بِنْيَاتِهِمُ الصَّادِقَةَ وَأَيْمَانَهُمْ، حَرَصًا مِنْهُمْ عَلَى لَمِّ شَعَثِ الْمُسْلِمِينَ، وَعِنَايَةً بِأُمُورِ الدُّنْيَا
وَالدِّينِ، وَرَدْعًا لِمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْفِتْنَةَ أَمَكَّتْ وَصُولا، وَأَنَّ الْاِعْتِدَاءَ أَوْجَدَ إِلَى الْاِعْتِدَاءِ
سَبِيلًا، وَمَا عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ مُحْرَسُ الْجَانِبِ، وَمُحْرُوبَ الْمَجَانِبِ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ مَقْدُوفٌ

(١) فِي لِكَ: «يُوصِيكُمْ».

من سماء سعادة هذه الدعوة بشهابٍ ثاقب، وأنّ الدولَ تدوى وتُبلّ، ويُعترىها ما يعترى الأبدانَ من الأدواءِ ثم تستقلّ.

ونحن قد أخذنا رايةَ هذا الأمر باليمين، وتلقيناها تلقى الحازمين، فكونوا من ذلك على بينةٍ ويقين، واعلموا أنّ الله قد جاءكم بمن يسهّر في مصالحكم وأنتم نائمون، ويقوم بما يعودُ الأصلاحَ عليكم وأنتم قاعدون، ويقضي لقاصيكم ودانيكم بالدعة والهدون. فاستقبلوا زمناً جديداً، وتفيتوا ظلّ الدعة مديداً، واعلموا أننا نستقبل المسلمين بنظرٍ يزيدنا محبةً لهم، ويعرفهم ما لنا من الرفق والحنو عليهم، فإنّ مقصودنا في الأمة جميل، ورأينا في تأليف موجبات الاستئصال أصيل، فنحن نصفح عن الجانب، ونحلّ قيدَ الجاني، ونصرف عن الوعيد إلى الوعد، ونؤثّر العفو على المؤاخذه والقرب على البعد، فكونوا على صحّة من أنّ الأحقاد قد ذهبت رؤومها، وزالت من الأجياد وسومها، وأنّ الناس معنا في زمن شبّ واقتبل، وأنّ الأمل بفضل الله مُدرك الأمل، فادخلوا وفّقكم الله فيما دخل فيه الجمهور، وابتعوا بيبعتكم بعد أخذها وثيقة الأساس، مُحكمة الأمراس، في طاعة سَعْد ويُمْن إلى حضرة الموحّدين، والله المُنجدُ المُعين.

وقد عَرَفناكم بما انعقد علينا من الموحّدين ومن إليهم من المسلمين، فتيّموا، ودعونا الله في الحيرة والإنجاد والعون فأمنوا. اللهمّ إنك قلّدتنا أمور المسلمين، وارتضيتنا للنظر في مصالح الدين، واخترتنا للملة الحنيفية خُدماء، وأسبغت علينا النعماء، فاجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولما سمع أبو العلى بذلك كلّهُ أفلقته مُبايعة يحيى ابن الناصر، ونكث الناكث عليه من الموحّدين وغدرُ الغادر، فنظر في الجواز لبرّ العدو، وعمر بذلك باطنه رواحه وغُدوّه، فحشد الحشود وزمّم الجنود، وجمع نحو خمس مئة فارس من الروم، لِمَا كان يبغي من الحركة ويروم، فلما علِم بذلك ابنُ هود قرع الطبول ونشّر البنود، وقويت شوكتُه وتألّفت شِرذمته، وأطاعته بعضُ تلك الأماكن، وتحركت أرياحه السواكن، والمأمون إذ ذاك لم يشغل فكره إلا بما عمّر، ولا انهلّ سحابُ بأسه ولا انهمر، فركب طرفه، وعمّض طرفه، وأمر بالرحيل فرحل في سنة خمس وعشرين وست مئة.

وفي سنة ستٍّ وعشرينٍ وست مئة: استقرَّ أبو العُلى بحضرة^(١) مَرَّاكُش، ولَمَّا وُصِّل إليها ونَزَلَ عليها خَرَجَ إليه ابنُ أخيه يحيى بن الناصر بِمَنْ كان معه من العَرَبِ والمُوحِّدين وسائر الجُنُودِ والحشود، وَضُرِبَتْ قَبْطَةُ الحَمراءِ على جِبلِ إيجليز واستعدَّ لمُقابَلَتِهِ ومحارِبَتِهِ، وكان المأمُونُ قد وُصِّلَ من الأندلس بنحو خمس مئة فارس من الرُّومِ وبِمَنْ كان معه من العَرَبِ والمُوحِّدين والجُنُودِ والحشود، فَقَصَدَ الرُّومُ إلى القَبْطَةِ الحَمراءِ فمَزَقُوهَا ووقَعَتِ الهزيمةُ على عساكرِ يحيى بن الناصر وهَرَبَ فارًّا بِنَفْسِهِ، لا يَعْلَمُ يَوْمَهُ من أَمْسِهِ، وهَزَمَهُ عَمُّهُ هزيمةٌ عظيمةٌ قَتَلَ فِيهَا من المُوحِّدين وأتباعِهِم ومن العَرَبِ وأشْيائِهِم أَمَّا لا تُحْصى، ولا تُكَاثَرُ بِالْحَصَى، وأَمَرَ بِتَعلِيقِ رؤُوسِهِم مع كُلِّ شِرافَةٍ من سُورِ مَرَّاكُش حَرَسَها اللهُ تَعَالَى حَتَّى مَلَأَتْ الرُّؤُوسُ أَكْثَرَ شِرافاتِ السُّورِ، وَفَرَّ بِيَحْيَى بنُ الناصرِ يَتَعلَقُ بِالْجِبالِ الشَّواهِقِ مع كُلِّ مُنافِقٍ إلى أنِ اسْتَقَرَّ مع المُوحِّدين في جِبالِهِم، وتَعَذَّرَتْ عَلَيْهِم جَمِيعُ أُمُورِهِم وأَحْوالِهِم.

واستقرَّ أبو العُلى المأمُونُ بِحَضْرَتِهِ وَنَظَرَ في أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ وأَخَذَ في ذَلِكَ معَ خَاصَّتِهِ وأَربابِ دَوْلَتِهِ، فأوَّلُ ما شَرَعَ فِيهِ وَبَنَى مَلَأَ فِيهِ: مَسْأَلَةُ النَّاكِثِينَ عَلَيْهِ من المُوحِّدين الهِتَّائِيِّينَ وَالتَّنَمِلِيِّينَ بَعْدَ تَأْمِينِهِم وَالنَّدَاءِ عَلَيْهِم بِذَلِكَ بِمَرَّاكُش، فَخَرَجَ مَنْ كانَ فِيهَا من المُوحِّدين إِلَيْهِ وَطَلَعُوا بِالسَّلامِ عَلَيْهِ. فَأَجْمَعَ على مَسْأَلَتِهِم بَعْضُ الفُقهاءِ، وَعَرَّفَهُم بِتَوَجِيهِ مُبايَعَتِهِم إِلَيْهِ ثُمَّ ما كانَ من خَدِيعَتِهِم وَنَكْثِهِم عَلَيْهِ، وَقَالَ لِلْفقيهِ القَاضِي المَكِيدِيِّ: ما تَقُولُ يا فقيهُ في قومٍ بايَعُوا شَخْصًا ثُمَّ نَكَثُوا عَلَيْهِ وَخَلَعُوهُ ثُمَّ قَتَلُوهُ، ثُمَّ بايَعُوا شَخْصًا آخَرَ فَنَكَثُوا عَلَيْهِ وَقَتَلُوهُ، ثُمَّ بَعَثُوا يَبِيعَتَهُم هَذِهِ إِلَيَّ، ثُمَّ نَكَثُوا أَيضًا عَلَيَّ؟ فَقَالَ لَهُ القَاضِي: وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ أَجْمَعِينَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَرَأَ سورَةَ المَنافِقِينَ إلى قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المَنافِقُونَ: ١١]، فَأَمَرَ أَبُو العُلى المأمُونُ بِضَرْبِ رِقَابِهِم فَقُتِلَ مِنْهُمْ في ذَلِكَ اليَومِ نَحْوَ مِئَةِ شَخْصٍ من أَعْيَانِهِم، وَخُرِقَ لَهُم حَفِيرٌ كَبِيرٌ خَارِجُ بابِ السَّادَةِ وَدُفِنُوا هُنَاكَ، وَوَقَعَ البَحْثُ وَالتَّطَلُّبُ على مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ بِمَرَّاكُش فَمَنْ حَصَلَ سُلُوكُ بِهِ تِلْكَ المَسالِكَ حَتَّى أَخَذَ بَعْضُ أَصاغِرِهِم من مُحاضِرِهِم وَقَتَلُوا عَنْ آخِرِهِم^(٢).

(١) في ب: «بمدينة».

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٧-٢٣٩.

ومن قول أبي العلى المأمون في قتلهم عفا الله عنهم [من الكامل]:

أهل الحَرابة والفسادِ من الورى	يُعزُونَ في التشبيه للذُّكارِ
ففساده فيه الصِّلَاحُ لغيره	بالقطع والتعليق في الأشجارِ
ذُكَّارُهم ذكرى إذا ما أبصروا	فوق الجُدوع وفي ذرى الأسوارِ
لو عمَّ حِلْمُ الله كافَّةَ خَلْقِه	ما كان أكثرهم من أهل النارِ

ومن كتبه بخطَّ يده رسالة لأهل أندو جر يزجرهم عما فعلوه من القبيح ويُصرِّح بقتلهم إن لم ينتهوا أيَّ تصريح، فمن ذلك بعد الخطبة والصدْر:

إلى الجماعة والكافة من فلانة، وقاهم الله عثراتِ الألسنة وأرشدهم إلى نحو السيئة بالحسنة، أما بعد، فإنه وصل من قبلكم كتابٌ جدَّد لكم أسهم الانتقاد، ورماكم من العناد بالداهية والنَّاد، أتعذرون من المُحال بضعف الحال، وبقلَّة الرجال، فألحقكم برَبات الحِجال؟ كَأنا لا نعرفُ مناحي أقوالكم، ولا نَعلمُ بتقبُّلكم في أحوالكم، لا جَرَمَ مغرارًا أنكم سمِعتم بالعدوِّ قَصَمه الله، وقصَّده ذلك الموضعَ عَصَمه الله، فطاشت قلوبكم خَوْراً، وعاد صَفْوَكم كدراً، وشَمَمْتُم رِيحَ الموتِ ورْدًا وصدْرًا، وظننتم أنكم أُحيطَ بكم من كلِّ الجوانب، وأن الفضاء قد غُصَّ بالتفافِ القنا واصطفافِ المقانب^(١)، ورأيتم غيرَ شيءٍ فحسبتموه طلائعَ الكتائب. تَبَّاً لِهَمَمِكم المُنحطَّة، وشيَمِكم الراضية بأدونِ خُطَّة، حين تُدبَّتُم إلى حماية إخوانكم، والذبُّ بالكلمة من مقتضى أيمانكم، نَسَقْتُم الأقوالَ وهي مكذوبة، ولَفَقْتُم الأعذارَ وهي بالباطل مَشُوبة، لقد آنَ لكم أن تَمُدُّوا ذيلَ الحرمانِ إلى مغازلِ النسوان، وما لكم ولصَهواتِ الخيول، وإنَّما على الغانجاتِ جَرُّ الدِّيول، أ تُظهرون العنادَ تصريحاً وتلويحاً، وتظنُّون أنكم إذا تفرَّقْتُم لا نجمعُ لكم شتاتاً ولا نُدني منكم نِزوحاً؟ أين المفرُّ وأمرُ الله يُدرِكُكم، وطلبنا الحثيثُ لا يترُكُكم؟ فأميطوا هذه التَّرعةَ النَّفاقيةَ عن خواطِرِكم قبلَ أن نمحو بالسِّيفِ أقوالكم وأفعالكم، ونستبدلَ قومًا غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالكم، ونحن نُقسِمُ بالله،

(١) جمع مقنب، وهي الخيل والفرسان.

لَوْ اعْتَسَفْتُمْ كُلَّ يَدَاءِ سَمَلَقٍ^(١)، واعتصمتم بأمنع معقل وأحفل فيلق، ما وَثِنَا عنكم زمانًا، ولا ثِنِينَا عن استئصال العزم عنكم عِنَانًا، فلا يُعَرِّتْكُمْ الإمهال أيها الجهَّال، ولا يعودنَّكم الاجتراء إلا لنَبْذِكُم بالعراء، وأدواء الأهواء بالسيف تنحسم.

[من البسيط]:

إِذَا رَأَيْتُمْ يُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنُّوْنَ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمٌ
فإن كفاكم صريرُ الأَقلام، وإلا جفاكم صريرُ الحسام، والسَّلامُ على من استقام،
ورحمة الله وبركاته.

وكتبَ أيضًا أبو العلي المأمونُ بخطِّ يده إلى بلاده كلَّها بزوال اسم المَهْدِيِّ من السَّكة والخُطبة، وذلك أنه لما قتل الموحِّدين أمرَ بقطع ذكرِ إمامهم المَهْدِيِّ من الخُطبة في جميع بلاده ومحا اسمه من المُخاطبات ومن النَّقش في السَّكة، وقطع النَّداء بعد الصَّلَاة والنداء عليها بتاصليت الإسلام، وهي إقامة الصَّلَاة باللسان البربري، وكذلك سؤدوت وناردي، وأصبح والله الحمد وما أشبه ذلك مما كان العملُ عليه من أوَّل دولة الموحِّدين إلى هذه السنة المؤرَّخة^(٢).

وهذه هي الرسالةُ المذكورة: من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، إلى الطَّلَبة والأعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين أوزعهم الله شُكْرَ أنعمِهِ الجِسَام، ولا أعدَمهم طلاقَةً أوجُه الأيَّام الوِسَام. وإنا كتبناه إليكم، كتبَ الله لكم عملاً منقادًا، وسعدًا وقادًا، وخاطرًا سليماً، لا يزالُ على الطاعة قائماً مقيماً، من مرَّاكش كالأها الله تعالى، وللحقِّ لسانٌ ساطع، وحسامٌ قاطع، وقضاءٌ لا يُردُّ، وبابٌ لا يُسدُّ، وظلالٌ على الآفاق لَمَحُو النِّفاق يُعَدُّ. والذي نُوصيكم به تقوى الله والاستعانةُ به والتوكُّلُ عليه، ولِتَعْلَمُوا أَنَّا نَبْذِنُ الباطلَ وأظهرنا الحقَّ، وأن لا مهديَّ إلا عيسى ابنُ مريم، وما سُمِّيَ مهديًّا إلا أنه تكلمَ في المهدي، وتلك بدعةٌ قد أزلناها، والله يُعيننا على القِلادة التي تقلدناها، وقد أزلنا لفظَ العصمة عمن لا تثبَّت له عصمة، فلذلك أزلنا

(١) السملق، كجعفر، القاع الصفصف، كما في القاموس المحيط.

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٨.

عنه رَسَمَهُ، فَتَسْقُطُ وَتُبَّتْ وَتُمَحَّى وَلَا تُثَبَّتْ، وَقَدْ كَانَ سَيِّدُنَا الْمَنْصُورُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَمَّ أَنْ يَصْدَعَ بِمَا بِهِ الْآنَ صَدْعَنَا، وَأَنْ يَرْقَعَ لِلْأُمَّةِ الْخَرَقَ الَّذِي رَقَعْنَا، فَلَمْ يُسَاعِدْهُ لَذَلِكَ أَمَلُهُ، وَلَا أَجَلُهُ إِلَيْهِ أَجَلُهُ، فَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ بِصِدْقِ نِيَّةٍ وَخَالِصِ طَوِيَّةٍ. وَإِذَا كَانَتِ الْعَصْمَةُ لَمْ تُثَبَّتْ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ لِلصَّحَابَةِ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ لَمْ يَدْرِ بِأَيِّ يَدٍ يَأْخُذُ كِتَابَهُ، أَفْ هُمْ! قَدْ صَلُّوا وَأَصَلُّوا، وَلِذَلِكَ وَلَّوْا وَذَلُّوا، مَا تَكُونُ لَهُمُ الْحُجَّةُ عَلَى تِلْكَ الْمَحَجَّةِ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ أَنَّا قَدْ تَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ تَبَرُّوْا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَنَعُوذُ بِكَ يَا جَبَّارُ مِنْ فَعْلِهِمُ الرَّثِيبِ، وَأَمْرِهِمُ الْحَبِيثِ، إِنَّهُمْ فِي الْمَعْتَدِ مِنَ الْكَفَّارِ، وَإِنَّا فِيهِمْ كَمَا قَالَ نَبِيُّكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَاسْتَقَامَ.

وَامْتَدَحَتْهُ الشُّعْرَاءُ حِينَ ذَلِكَ بِمَا يَتَنَسَّمُ نَدًّا وَمِسْكًا، وَتَجَعَّلَهُ بِعَقْدِ نَحْرِكَ سِلْكًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْكَاتِبُ الْأَجَلُ أَبُو الْحَسَنِ الرَّعَيْنِيُّ قَالَ يَمْدَحُهُ [مِنْ الطَّوِيلِ]:

تَتِيهِ ^(١) بِكَ الدُّنْيَا وَيَزْهَوُ بِكَ الْمُلْكُ	وَيُعْزَى إِلَيْكَ الْفَضْلُ وَالدِّينُ وَالنُّسْكُ
وَتَتَّقُ الْأَمْدَاحُ فِيكَ تَتَابَعًا	يَبَاهِرُ أَوْصَافٍ كَمَا انْتَضَمَ السِّلْكُ
وَتَشْهَدُ أَمْلَاكَ الزَّمَانِ إِذَا رَأَوْا	سَنَاكَ الَّذِي يَجْلُو الدُّجَا أَنَّكَ الْمَلِكُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ سَبَقْتَ وَقَصَّرُوا	وَأَذْجَلَتْ إِذْ بَاتُوا وَحَقَّقْتَ إِذْ شَكُّوا
أَنَالَ بِكَ الْإِسْلَامُ أَقْصَى مَرَادِهِ	وَقَدْ سَعِدَ التَّوْحِيدُ إِذْ شَقِيَ الشَّرْكُ
وَأَظْهَرَكَ الْجَدُّ السَّعِيدُ عَلَى الْعِدَا	فَكَانَ لَكَ الْمَنْجَى وَكَانَ لَهَا الْهَلْكُ
أَيَا ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبَا الْعُلَى	أَصْخَ سَمِعَ إِحْسَانِ لِعَبْدِكَ إِذْ يَشْكُو

ومنها:

وَأَرْجُو لَدَى مَوْلَايَ لِمَحَّةٍ رَحْمَةً فَإِنْعَامُهُ يَنْمُو وَإِحْسَانُهُ يَزْكُو

(١) وقع في النسخ: ق، ك، ب، ٣ بياض قدر أربع صفحات، والظاهر أنه كان كذلك في الأصل المتسخ منه، وقد استدرك في ٣ بخط مغاير، وسنشير إلى موضع نهاية البياض.

وقال محمد بن إبراهيم الذرة يمدح أيضًا أبا العليّ المأمون [من الطويل]:

ألا وضح التحقيق وارتفع الشكُّ بأنك ملك لا يقاس به ملكُ
جبينك إصباح وكفك مُزنَةٌ وبأسك طوفانٌ ورايتك الفلكُ
ويمناك مَحْيَا للأنام ورحمةٌ إذا حاقَ من محلّ الزمان بهم هلكُ
تُنيل من الأفراس ما بان عتقه وتُعطي من الإبريز ما أخلص السبكُ
فأنتم أمير المؤمنين بعدكم تعزّز دينُ الله وارتفع الشكُّ

وقال آخر في هذا المعنى [من الطويل]:

لك الله من ملكٍ إلى ملكٍ يُعزى يحوِّط العلى حفظًا ويكنفها حرزًا
سما واحدًا من جانيه إلى العلى فلا يعتزي جمعٌ إليها ولا يُعزى
بعثت ثناءً في نظامك عاطراً هزرت له من عطف مجدك ما اهتزًا
إذا كنتم لي ساعدًا أنا كفُّهُ فيا ليت شعري بالفضيلة من يُجزى
وأنتم بني المنصور أولى بخطّة هي المملك إذ طررتم مجدها طرزا
إلا إنّما في كلّ حال لك العلى فدم يا أباهَا تكسبُ المجد والعزا
فأنت لها ما دمت في الأرض إنّما نراك عليها من نوائبها حرزا

وإنّ أمداحه لكثيرَةٌ جدًّا لا أُحصى لها عددًا والكفاية منها ما ذكرته، ولا اختصار
الكتب اختصرته.

وفي هذه السنة، وهي سنة ستّ وعشرين: قوّي أمرُ الأمير أبي عبد الله محمد بن
يوسف بن هود بالأندلس، فأول من طاع له من بلادها أهلُ مُرسية، فخرج إليه المأمونُ
في السنة الفارِطة كما تقدّم فقابله وقاتله فوقعت الهزيمة على ابن هود، وبعد انصراف
المأمون عنه إلى إشبيلية قام بدعوته ابنُ الرّميمي^(١) بمدينة الحرّية، ثم طاعت له غرناطة
ومالقة، فضّعف المأمون عن مصادمته لِمَا كان قد أهمّه من أمر الموحّدين بمراكش، فلمّا

(١) هو عبد الله بن محمد المعروف بابن الرميمي (المعجب ٢٧٩).

استقرَّ المأمونُ بمَرَّاكُش واشتغل فيها بما اشتغل اتَّقد نارُ الفتنة بالأندلس واشتعل وطاعتُ لابن هودٍ أكثرُ بلادها ورؤسائها وأنجادها، وخَلَعُوا طاعةَ الموحدِينَ عنها وقتلُوهم في كلِّ بلد منها وأجلُّوهم واستأصلُوهم إلَّا مَنْ سَتَرَهُ اللهُ منهم وأخفاه في ذلك الوقتِ عنهم.

واجتمع أهلُ إشبيلية في يوم الخميس ثاني عيد الأضحى من هذه السنة بموضع يُعرفُ بالنَّخيل، فتكاثَّر فيه القالُ والقليل، إلى أن خَلَعُوا طاعةَ الدَّولةِ الموحَّدية والتزموا طاعةَ الدَّولةِ الهُودِيَّةِ، وكتبَ عنهم أبو بكر ابنُ البناء كتابًا يُعلِّمُهُ بذلك، وأنَّ اللهَ أرشدَهُم إلى أقوم المسالك، فجاءَ بهم على ذلك أخو المتوكِّل على الله وهو أبو الحسن عَضُد الدَّولة مهنَّتًا لهم على اجتماعهم على الطاعة، ودخولهم في حزبِ الجماعة، وعلى قيامهم بالدَّعوة العباسية وخَلَعَهُم للدَّولةِ الموحَّدية وبما لهم عند أخيه من الأثرة والتقديم، والبرِّ والتكريم، وذلك بتاريخ السابع عشرَ لذي الحجة من السنة المؤرَّخة.

وفي هذه السنة: فارق زِيَانُ^(١) بن مُردنِش السيِّدَ أبا زيدَ البياسيَّ وقاطعَه وضَبَطَ بلدَه بِلَنسِيَّة، ولحقَّ السيِّدُ المذكورُ بالنَّصارى وانقطعَ إليهم حتى ماتَ فيهم، وأمَّا أخوه عبدُ الله فكان من أمرِه ما تقدَّم ممَّا هو مشهورٌ مذكور نسألُ اللهَ العافية وحُسنَ العاقبة.

ومن الاتفاق الغريب أنَّ نَصْرَانِيَّيْنِ وَصَلَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَمِدٍ قَرِيبٍ، أعني للسيِّد أبي زيد، فقالا له: نراك تصلُّ إلينا وتدخلُ في ديننا، فكرِهَ ما قالاه وقتلَها صبرًا، فلم يكنْ بعدَ ذلك إلَّا قليلًا ولحقَّ بالنَّصارى مرتدًّا وفارقَ أهلَه وولَدَه واستوطنَ بينهم، ثم سَقَطَ من أعْيُنِهِم فرفضوه واطَّرحُوهُ ولم يعيشْ بعدَ ذلك إلَّا يسيرًا ومات.

وفي سنة سبع وعشرين وست مئة: تحرَّك المتوكِّل على الله ابنُ هود بجيوش عظيمة من المسلمين إلى غزو أعداء الله الكافرين، فالتقى مع عساكر الرُّوم على مارِدة، فدفعَ فيهم بنفسه بنجْدته وعزَمه، ثم انهرَم إلى ساقته فوجد قد ولَّوا منهزمينَ هنالك من أجل ذلك، وكان من طبعه ملولًا عَجولًا، وكانت هذه الغزوةُ أوَّلَ غزواتِه وأضخمها فلم يُنصِرْ فيها^(٢).

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٦-٢١٨.

(٢) الإحاطة ٢/ ١٣٠.

وفي هذه السنة: كانت المِقابلةُ بينَ يحيى ابنِ الناصر والمأمونِ بمقرُبَةٍ من مَرَّاكُشَ في يومِ السَّبْتِ الخامس والعشرينَ لشهرِ ربيعِ الأوَّل، فانْهَزَمَ يحيى وفَرَّ إلى الجبلِ وقَبَضَ المأمونُ على قاضيه أبي محمد ابنِ عبدِ الحَقِّ ودَفَعَهُ إلى هلالِ بنِ مَقْدَمِ الخُلَاطِيٍّ وحَبَسَهُ حتى افْتُدِيَ مِنْهُ بِخَمْسَةِ آلَافِ دِينَارٍ، وقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ^(١).

وفي شهرِ رَمَضانَ المَعْظَمِ مِنْهَا: خَرَجَ المأمونُ مِنْ مَرَّاكُشَ وَهَزَمَ يحيى ابنَ الناصرِ والمُوحِّدِينَ بِفَحْصٍ وَانْزَرَزَتْ إلى لُجَاغَةٍ، فَقَتَلَ المأمونُ في تلكِ الهَزِيمَةِ مِنْ أَهْلِ الجبالِ أَعْدَادًا كَثِيرَةً، وَعَلَّقَ على سُورِ مَرَّاكُشَ مِنْ رُؤُوسِهِمْ نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلَافِ رَأْسٍ، وَكَانَ زَمَنَ القَيْظِ فَشَكَا النَّاسُ رِوَاثِحَهَا لِلْمَأْمُونِ فَجَاوَبَ مَنْ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ بِأَنْ قَالَ: إِنَّ هَامَاتِ الْمُحَارِبِينَ هِيَ أَحْرَازُ لَهِمْ وَرِوَاثِحُهَا عِطْرَةٌ عِنْدَ الْمُحِبِّينَ مُنْتَنَةٌ عِنْدَ الْمُبْغِضِينَ. وَكَتَبَ المأمونُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَغْيِيرِ سَيْرِ المُوحِّدِينَ حَسَبًا تَقَدَّمَ^(٢).

تَلْخِصُ الْخَبَرِ بِابْتِدَاءِ الدَّوْلَةِ المُوَحَّدِيَةِ الحَفْصِيَّةِ

وَاسْتِيلَاءِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا عَلَى تُونُسَ وَتِلْكَ الْبِلَادِ الْإِفْرِيقِيَّةِ

وهو: أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى ابْنُ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصِ عُمَرَ بْنِ يَحْيَى الْهَنْتَاتِيّ. وَذَلِكَ لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ ابْنِ غَانِيَّةٍ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ مَا كَانَ وَتَغْلِبِهِ عَلَيْهَا، اسْتَطَالَتْ أَيْدِي الْمُعْتَدِينَ وَالْمُفْسِدِينَ فِيهَا بِكُلِّ مَكَانٍ، وَاسْتِيلَاةُ عَلَى بِلَادِ الْجَرِيدِ وَأَقْطَارِهَا وَعَلَى تُونُسَ وَأَنْظَارِهَا، وَدَخُولِهِ إِيَّاهَا عَنُوءَةً وَأَخَذَهُ لِلْسَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ صَاحِبِ تُونُسَ مَعَ ابْنِهِ أُسَيْرِينَ وَحَبَسَهُمَا فِي ثِقَافِهِ أَشْهُرًا وَأَيَّامًا، وَكَانَ مَدَّةُ تَغْلِبِ ابْنِ غَانِيَّةٍ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَإِقَامَتِهِ فِيهَا بِالْعَيْثِ وَالْفَسَادِ نَحْوَ عَشْرِينَ سَنَةً، إِلَى أَنْ وَصَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ النَّاصِرُ إِلَيْهَا وَاسْتَوَلَى بِعَسَاكِرِهِ عَلَيْهَا، فَفَرَّ ابْنُ غَانِيَّةٍ أَمَامَهُ مِنْ تُونُسَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا حَرْبٍ وَلَا نِزَالٍ، فَبَعَثَ النَّاصِرُ لَهَا مَنْ هَدَّنَ أَهْلَهَا وَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَهْدِيَّةِ فَحَصَرَهَا، وَكَانَ ابْنُ غَانِيَّةٍ قَدْ شَحَنَهَا بِالرَّمَادِ وَالرَّجَالِ، وَالْعُدَدِ وَالْأَمْوَالِ.

(١) وقيل: إن فداءه كان ستة آلاف دينار (الاستقصا ٢/ ٢٣٧-٢٣٩).

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٩-٢٤٠.

وفي أثناء تلك الأحوال والفتن والأهوال، أَلَفَ ابنُ غانِيَة أَخْلَاطًا من الأعراب ووافَقهم على الارتحال معه بالأهل والوَلَدَ والمالِ والعيال، ثَقَّةً منه أَنَّهُم لا يُوَلُّونَ الأدبار، وأنَّ الهزيمةَ عليهم عار، فَقَدَّمَ الناصرُ الشَّيْخَ أبا محمد عبدَ الواحد على عسكرٍ كبير من حُماة الموحِّدين وأنجَدَهم مَن تَخَيَّرَ من رؤسائهم وكبارهم، فخرج بالعسكر من ظاهرِ المَهْدِيَّة، باعتقادٍ صادقٍ الطَّوِيَّة، وكان ابنُ غانِيَة بأحوازِ قَابِس قد تكاملت أمدادُه، واستَوَفَت عليه أعدادُه، ووصلوا إليه بخيلهم ورَجُلهم، فقصدَ أبو محمد إليهم ودفعَ بِجُمْلَتِهِ عليهم، وأجَلَّت الحربُ عن انسلاخِ العَرَب عن أموالِهم وأثقالِهم، واستولَى^(١) عسكرُ الموحِّدين على رجالِهم وكُرَاعِهم بعدَ قَتْل مَنْ قُتِل وأسرَ من أُسر منهم وحتَل، وقَتَلَ أبو محمد عبدَ الواحد بالعسكر إلى الناصر منصورًا ظافرًا، فكان ذلك ابتداءَ السُّعود لبني أبي حَفْص في تلك البلاد وإنجازَ القَدَر لهم بِمُلْك إفريقيةَ إلى الآن، وذلك في آخرِ سنة اثنتين وست مئة^(٢).

فلَمَّا كان في آخرِ سنة ثلاث وست مئة حينَ أخذَ الناصرُ في القُفُول من تلك البلاد، وأعمَلَ نظره فيما يُحتاجُ إليه من الصِّلاح والسِّداد، وأجالَ بصره وبصيرته فيمن يَسْتَخْلِفُه فيها من كبارِ الموحِّدين وأنجَدَها، فأجمَعَ نظره على تقديمِ أبي محمد عبد الواحد لعلِّمه بأنَّه يقومُ بأعبائها، ويقاومُ بِنَجْدَتِهِ ومَهَابَتِهِ جميعَ أَعْدَائِها، فَقَدَّمَهُ عليها تقديمًا لم يُعْهَدَ في الولاياتِ قبلَه مثله، وأسندَ أمرَ إفريقيةَ كُلِّها إليه، واعتمدَ في صلاحِها وسدادِها وصِلاحِ حالِ أهلِها بِالجُمْلَةِ عليه، وأباحَ له التَّخْيِيرَ في قبائلِ الموحِّدين وغيرهم مَنْ يريدُ البقاءَ معه من أولادِ الموحِّدين وأنجَدَهم، فاخترَ جُمْلَةً كبيرةً من أولادِهِم وأجوادِهِم، فصارَ تحتَ يَدِهِ جُمُوعٌ وافرة، وجيوشٌ مُتكاثرة، فاستقرَّ بتونس في حالة فَخْمَةٍ وولايةِ ضَخْمَةٍ اقترَنَ بها السَّعد، وانتجَزَ لها بالفتوح الوعد^(٣).

ثم أيضًا ما كان من تغلُّبه على عسكر ابن غانِيَة في سنة خمس وست مئة واستيلائه على جميع ما كان بِمَحَلَّتِهِ وقَتْلِهِ لأكثرِ أصحابِهِ وجُمْلَتِهِ وتشتُّتِ شَرِذِمَتِهِ. ثم ما كان أيضًا

(١) إلى هنا ينتهي البياض الواقع في النسخ: ق، ك، ب، ر، ٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٦٠.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٦٠، والاستقصا ٢/ ٢١٦.

من خروجه بعسكر من تونس مع الموحدين، وبغارته معهم على المعتدين والمفسدين، ثم خروجه أيضًا من تونس مع الموحدين بعسكره الجرار حين حمل ابن غانية الاغترار، وأزعجته الأقدار إلى بعض أحواز إفريقية ومعاودة حربها والانحدار إلى عمرانها وقربها.

وكان ابن غانية قد أُلّف من العرب جُوعًا جَمّة فزحف إليهم أبو محمد والموحدون فتقابل الجمعان والتحم الفريقان، فانهزم بعض الموحدين والأغزاز والمتجندين، وثبت أبو محمد بمركزه في قلب ساقته مع مَنْ كان معه من الصابرين بنجدته وشجاعته، ورجع على الأعداء وأوقع فيهم السيف، واستولى الموحدون على أثقالهم، وانصرف أبو محمد إلى تونس سالمًا غانمًا، وبقي يتطوّف على تلك البلاد في كل سنة على عادته إلى أن توفي أبو عبد الله الناصر عام عشرة، وبُويع ابنه المستنصر فتلکًا عن توجيه المبايعة إليه من تونس، فساءت ظنون السادة وبعض الموحدين في ذلك عليه، ثم وصلت بيعته بعد ذلك إلى الحضرة المرّاكشية فتخالفت الظنون في الشيء المظنون، وكان كاتبه النُخيلي الكاتب الجليل، ونال معه بتونس من الخير العميم الجزيل، إلى أن نكبه أبو العلي الكبير واستصَفَى أمواله وأحواله وأعطى كاتبه الفتى جميع ذلك.

ولما توطدت المملكة للمستنصر ابن الناصر، وتمهدت له البلاد البادي منها والحاضر، من البلاد الغربية والأندلسية والإفريقية، فقدم أعمامه وبنو أعمامه السادات وبعثهم لقواعد البلاد وُلّاة، وقدم عمّ أبيه أبا العلي الكبير على مدينة تونس ليستوطن قصبته ويكون أميرها وأن يتفقد أحوالها وأمورها، وكان ذا نظر سديد، ورأي مبارك رشيد، وهو الذي بنى بإشيلية حين وليها بُرج الذهب، وبنى بسبته بابها الجديد، فلما وصل إلى تونس في الأجفان^(١)، واستقرّ بقصبتها مع مَنْ كان معه من الأهل والولد والخدام والأعوان، وبقي الشيخ أبو محمد على أعماله، ناظرًا في أشغاله وعُمّاله، لكنّه على ما ذكر ضاقت بوصول السيّد أحواله، وأول ما فعل السيّد من أفعاله أنه بعث إلى مرّاكش ببعض أولاده وهما: أبو زكريّا وأبو عبد الله يتصرّفان بين يدي الخليفة المستنصر بالله في ولاياته وأعماله، فولّاهما البلاد، وظهرَ منهما في ذلك الجِدُّ والاجتهاد.

(١) قوله: «في الأجفان» سقط من ق.

فلما توفيَّ الشَّيْخُ أبو محمد عبدُ الواحد بتونس آخرَ دولة المستنصر، تقدَّم ولده عبدُ الله على عمالِهِ تلك البلاد الإفريقيَّة تحتَ نظرِ السيِّد أبي العلي المذكور، من غير استبدادٍ منه بالأُمور، إلى أن توفيَّ أبو العلي ووليَّ ابنُه أبو زيد الملقَّب بالأُسمر، على عادة أبيه في الأحوال، وأبو محمد عبدُ الله بن أبي محمد عبد الواحد ناظرٌ في الأشغال وجابي الأموال.

وقيل: إنَّ وفاةَ أبي العلي كانت بجزيرة مَيُورقة. واستمرَّ حالُ أبي محمد عبد الله بتونس على أشغاله وأعماله إلى سنة سبع وعشرين، فكان من أمره ما أذكره، وذلك أنه لما بُويِعَ بإشبيلية أبو العلي المأمونُ نكثوا عليه الموحدون بمراكش وبايعوا يحيى ابنَ الناصر، فكان أبو العلي الكبيرُ عمَّ أبي العلي المأمون وأخا أبي محمد المخلوع وعمَّ العادل المقتول، والمأمونُ عمَّ يحيى ابن الناصر.

فلما وصل المأمونُ إلى مراكش وأخذ ثارَ عمِّه وأخيه وقتلَ مَنْ قتلَ من الموحِّدين فيها وبسببها وبسببِ نكثهم عليه ومُبايعتهم لابن أخيه وقامتِ الفتَنُ بينهم كما تقدَّم، وكان المأمونُ تركَ ابنَ عمِّه السيِّد أبا الرِّبيع بقرطبة، فقتلَ بها حين خالفَ عليه أهلُ الأندلس وقتلوا الموحِّدين، وكان بعثَ السيِّد أبا عمران ابنَ عمِّه أبي عبد الله الحرصني إلى بجاية مع أبي عبد الله اللُّحياني وهو ابنُ أبي محمد ابن أبي حفص، وتوجَّه أخوه أبو زكريَّا بنُ أبي محمد المذكورُ إلى تونس.

فلما استقرَّ بها قراره، وتعرَّف الموحِّدون ما كان من قتل إخوانهم بمراكش وعرفهم أبو زكريَّا بنُ أبي محمد عبد الواحد بذلك كلِّه، وراودَ أخاه عبدَ الله المذكورَ على خلع بني عبد المؤمن والاستبداد بالأمرِ دونهم والاحتواء على مُلك إفريقيا، فأبى له من ذلك وامتنع كلَّ الامتناع، وأطال في ذلك الكلام معه ومع بعض الموحِّدين حتى صكَّته الأذان والأسماع في تلك البقاع والأسقاع، فأمره أخوه أن لا يخرجَ من داره، حيث كان استقراره، فاغتاظَ لذلك وعظَّم عليه وزاد نِفارَه، ودبَّر في خروجه من تونس وفراره، فخرج من تونس إلى قابس واجتمع مع ابن بَكِّي شيخها ومُدبِّر أمرها، فأقبلَ عليه حينَ وُصوله إليه وشاركه في أحواله، وعظَّم شأنه بما يحبُّ عليه من التعظيم، وكرَّم مثواه، ووافقَه على مطلبه ومُناه، إلى أن كان من أمره ما أذكره.

وفي سنة سبع وعشرين وست مئة: كان استيلاء الأمير أبي زكريّا على بلاد إفريقية^(١)، وذلك لما استقرّ بمدينة قابس وشرع مع ابن بَكِّي في الرأي والتدبير، خاطبه الموحدون من تونس، الصغیر منهم والكبير، بالسمع والطاعة إليه، وباجتماع كلمتهم عليه، ووافقوه على ذلك إذا خرج أخوه عبد الله من تونس برسم الحركة إلى جهة القيروان، فلما خرجوا معه ونزلت محلّته بظاهر تونس، طلبوا منه عادتهم التي هي البركة والإحسان، فتلكأ لهم في ذلك، والأمير أبو زكريّا بمن كان معه بمقرّبة من هنالك، وأخوه عبد الله مُستأمنٌ في خبائه، مؤمّنٌ من أعدائه، فبادروا إليه للخبا، ورّموه بالحجارة حتى أيقن بالهلاك والفناء، ففرّ أمامهم أسوأ فرار، لا يستقرُّ به موطنٌ قرار، فعفّوا عن قتله بسبب أخيه وأهله إلى أن قُتل بمراكش على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

فقد الأمير أبو زكريّا من حينه مقعد الأمراء، وبايعه أشياخ الموحدين الكبراء، ورحل إلى تونس فبُيع بها بيعة الخلفاء العظماء، وأعدّ الكتاب والوزراء، وأنفد الكتب للبلدان، ولكل جهة ومكان، فوصلته البيعات، من كلّ الجهات، وطاعت له جميع تلك البلاد، واستقامت الأحوال على أكمل البُغية والمراد، وكتب علامته بخطّ يده «الشكر لله وحده»، وأبقى اسم الإمام المَهديّ في الخطب وغيرها، وسير الموحدين بأسرها، وقبض على السيّد الذي كان بقصبة تونس فانقضّى أمره وانقطع خبره، وكان قبض أهل بجاية على السيّد أبي زكريّا عمران، وطلّعوه في أحد الأجفان فغرق في البحر، ووصل أبو عبد الله اللّحياني إلى تونس، فكان بها مع أخيه عظيم القدر، في النهي والأمر.

ولما وصل خبر هؤلاء السيّدَيْن إلى مراكش قُتل فيها أخو الأمير أبي زكريّا عبد الله، وكان حين وصل إليها مكرّماً معظّماً، لكن جرّت عليه الأقدار، بمشيئة الله الذي لا يقف تحت قهره الاختيار، واستبدّ أخوه في تلك البلاد، غاية الاستبداد، وتلقاه أهلها مسارعين للطاعة بأحسن قبول، ونُشرت عليه الألوية وقرع الطبول، وبلغه الله البُغية والمأمول، إلى أن توفّي في سنة ست وأربعين، فكانت مدّته نحواً من عشرين سنة.

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤١، والاستقصا ٢/ ٢١٨.

وخَالَفَ على المأمون أخوه السيّد أبو موسى بسبّته، ودَعَا لنفسه فيها وبإيعة أهلها، وتسمّى بالمؤيّد إلى أن حصّره فيها أخوه المأمون على ما يأتي ذكره في سنة تسع وعشرين، فخاف منه وفرّ إلى الأندلس، ودخل في دعوة ابن هُود وباع أهل سبّته حينئذ لابن هود، فوجّه إليهم والياً قائده الغشتي فبقي بها أشهراً وأخرج أهلها وباعوا الحاجّ أبا العباس أحمد بن محمد اليانشتي وخلعوا طاعة ابن هود، فاستبدّ الحاجّ أبو العباس المذكور فيها وتسمّى بالموفق بالله، وكان من أكابر الثّجار وذوي المروعة واليسار، وذلك في سنة ثلاثين وست مئة.

وفي سنة تسع وعشرين وست مئة: كان وصول أرسال الخليفة العباسيّ المستنصر^(١) بالله من بغداد إلى ابن هُود المتوكّل على الله، وكتب له كتاباً يأمره فيه بإقامة الدّين والاجتهاد في أمور الجهاد، وسماه مجاهد الدّين سيف أمير المؤمنين، فمن ذلك فصول منه بعد الاستفتاح والصّدر والخطبة والدّعاء: والحمد لله الذي اختار من هذه الدّولة العباسيّة الشّماء، والشّجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السّماء، إماماً للمسلمين، وخليفة الله تعالى في الأرضين، والمفترض طاعته على الخلق أجمعين، سيّدنا ومولانا أبا^(٢) جعفر المستنصر^(٣) بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين. ثم قال: ولما انتهى إلى علومه الشريفة ما هو عليه مجاهد الدّين محمد بن يوسف بن هُود من سلوك سنن الطاعة المؤسّس بُنيانها على تقوى من الله ورضوان، والتزم شروط الولاء الذي هو علامة متانة الدّين وكمال الإيثار، اقتضت آراؤه الشريفة المقدّسة النبويّة الإماميّة، الطاهرة الزكيّة، المكرّمة المعظّمة، المستنصرة بالله زادها الله جلالاً متألّق الأنوار، وشرفاً رفيع المنار، واقتداراً يفوق حدّه حدود^(٤) الآفاق والأقطار، أن يُقلّد أمر جزيرة

(١) في النسخ: «المستظهر» وهو خطأ محض، فإنه منصور بن محمد الظاهر وقد بويع له في رجب سنة ٦٢٣ هـ، وتوفي سنة ٦٤٠ هـ (تاريخ الإسلام ١٤ / ٣٣٠).

(٢) في النسخ: «أبو» ولا يصح.

(٣) في النسخ: «المستظهر»، وهو خطأ بين.

(٤) قوله: «حد حدود» سقط من ق، ك، ب.

الأندلس وما يجري معها من الولايات إلى البلاد، وُسُوغُهُ ما يفتتحه من ممالك أهل الشُّرك والعناد، تقليدًا صحيحًا شرعيًا، وتشريفًا صريحًا إماميًا، وقد أَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأوامرَ تهدي إلى سبيل الرِّشاد، وتُحْطِيه بِرَضَى الله الذي هو نِعَم الذخائر يوم يقومُ الأَشهاد، أَمَرَهُ أَنْ يَتَدَرَّعَ شِعَارَ التَّقْوَى الذي هو خيرُ لباس، ويستشعرَ خِفَّتَهُ التي يجعلُ لها كما قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تُورَا يَعْمَى بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وأَمَرَهُ أَنْ يجعلَ كتابَ الله تعالى منارًا يرجعُ إليه في كُلِّ المشكلات، ومُصباحًا يَسْتَضِيءُ بِمَراشِدِهِ في الأحكام الشرعيَّة المُشبهات، وأَمَرَهُ أَنْ يعملَ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ في مصادرِ أمورِهِ وموارِدِهِ، وبإِجماعِ المسلمين في جميعِ مناحيه ومقاصدِهِ، وأَمَرَهُ بِمُجالسةِ الفقهاء والعلماء والفضلاء، وأَمَرَهُ أَنْ يُحَسِّنَ السَّيرَ في رعيَّتِهِ، وَيُسَكِّنَهُمْ أَرْحَبَ كَنَفٍ مِنْ حُنُوِّهِ وَشَفَقَتِهِ، ويساويَ بَيْنَهُمْ في مجالسِ نظَرِهِ وحُكومتِهِ، وأَمَرَهُ أَنْ يقتديَ في جميعِ أمورِهِ بما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ في مجاهدةِ الكافرينَ المشرِكينَ ما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَفْنِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، فليكنُ مجاهدُ الدِّينِ بهذه المَراشِدِ مُقتديًا، ولَمناهجِ أوامِرِها المطاعة مُقتفيًا، فَإِنَّهُ إِذَا اتَّبَعَ هُدَاها، وَامْتَثَلَ مَراسِمَها واحْتِذاها، وَتَمَسَّكَ بِعَصَمِ طَاعَةِ مَنْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْخَلَائِقِ اعْتِقَادَ مَفْرُوضِ طَاعَتِهِ، وَطَوَّقَ أَعْنَاقَهُم بِالتَّزَامِ شُرُوطِ مَوالاتِهِمْ وَعُبوديَّةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلانا خَلِيفَةِ اللهِ فِي أَرْضِهِ، والقائمِ بِسُنَنِ دِينِهِ وفرضِهِ: أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُورِ المَسْتَنْصَرِ^(١) باللهِ أميرِ المؤمنين، فَازَتْ قِداحُهُ، وَتَضَاعَفَتْ مِنْ أَقْسامِ السَّعَادَةِ مَتَاجِرُهُ وَأَرْباحُهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ ذَوِي الدِّينَانِ المَتِينَةِ أَحْكَمُ الْأَوَاصِرِ وَأَوْثَقُ الْعُرَى، وَالذَّخْرُ النَّافِعُ الَّذِي يَجِدُهُ كُلُّ مُوفِقٍ مَسْعُودٍ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْخَصَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] والسلام.

وَكُتِبَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاسِطِ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ تِسْعٍ وَعَشْرِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ - وَقِيلَ: بَلْ كَانَ فِي السَّنَةِ الَّتِي قَبْلَها - خَتَامُهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَامُهُ، عُنْوَانُهُ: إِلَى مُجَاهِدِ الدِّينِ وَأَشْرَفِ الْأَمْراءِ، تاجِ الْخَوَاصِّ الْأَمِيرِ الْأَسْفَهْصَلارِ الْكَبِيرِ الْأَجَلِّ، الْمُرَابِطِ الْمُشَاغِرِ الْغَازِي، مُجَاهِدِ الدِّينِ، جَمالِ الْأَنامِ، نَجْمِ الدَّوْلَةِ، عَزَّ الْمِلَّةُ،

(١) في النسخ: «المستظهر»، وهو خطأ ظاهر.

مُعِينِ الْأُمَّةِ، فَخَرَّ الْمُلُوكَ، قَامَعَ الْمُشْرِكِينَ، مَذَلَّ الْخَوَارِجَ وَالمُتَمَرِّدِينَ، زَعِيمَ الْجِيُوشِ، أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ يُوْسُفَ بْنَ هُوْدَ سَيْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَلَمَّا صَدَرَ كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَبَّاسِيِّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ لَابْنِ هُوْدَ، قُرِئَ بِمُصَلَّى غَرْنَاطَةِ الْقَدِيمِ، وَكَانَتْ الرَّايَةُ السُّودَاءُ يَزَاءُ الْمَنْبَرِ وَابْنُ هُوْدَ قَائِمٌ، وَزِيَّةُ السُّودَاءِ فِي نَخْوَةٍ بَنِي الْعَبَّاسِ يَتَبَخَّرُ^(١)، وَمَا قُرِئَ مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا يَسِيرُ أُسْطَارٌ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا قَدْ خَرَجُوا لِلْإِسْتِسْقَاءِ وَالْإِسْتِمطارِ، وَأَمَرَ ابْنُ هُوْدَ أَنْ يُكْتَبَ عَنْهُ فِي كُتُبِهِ لِلْبِلَادِ: مِنْ مُجَاهِدِ الدِّينِ سَيْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ اللَّهِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدَ بْنَ يُوْسُفَ بْنَ هُوْدَ.

وَلَمَّا اسْتَقَامَتْ لَابْنِ هُوْدَ أَحْوَالُهُ، وَسَاعَدَتْهُ أَمَانِيَّتُهُ وَأَمَالُهُ، وَلَّى الْعَهْدَ لِابْنِهِ أَبِي بَكْرٍ وَلَقَّبَهُ بِالْوَاتِقِ بِاللَّهِ، فَوَفَدَتْ عَلَيْهِ الْبَيْعَاتُ مِنْ كُلِّ الْبِلَادِ مِنْ جَزِيرَةِ شَقْرِ إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضِرَاءِ، مَوْزَخَةً بِعَامِ تِسْعَةٍ وَعَشْرِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: قَامَتِ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ إِشْبِيلِيَّةٍ عَلَى عِمَادِ الدَّوْلَةِ أَبِي النَّجَاءِ سَالِمِ بْنِ هُوْدِ الْوَالِي عَلَى إِشْبِيلِيَّةٍ وَأَنْظَارِهَا مِنْ قَبْلِ أَخِيهِ الْمُتَوَكِّلِ، فَأَخْرَجُوهُ مِنْ إِشْبِيلِيَّةٍ، وَبَقِيَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ يَرْجِعُونَ فِيهِ لِأَمْرِ الْبَاجِيِّ وَرَأْيِهِ، وَكَانُوا أَرَادُوا مَبَايَعَتَهُ فَاِمْتَنَعَ لَهُمْ إِلَى أَنْ وَصَلَتْهُ بَيْعَةُ قَرْمُونَةَ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ بَعْدَ هَذِهِ فَقَبِلَهَا، وَحِينَئِذٍ مَدَّ يَدَهُ إِلَى مُبَايَعَةِ أَهْلِ إِشْبِيلِيَّةٍ فَبَايَعُوهُ وَبَقِيَ أَمِيرَهُمْ بِهَا^(٢) إِلَى أَنْ قُتِلَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ^(٣).

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: كَانَتْ ابْتِدَاءُ ظُهُورِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ يُوْسُفَ بْنِ الْأَحْمَرِ^(٤) بِرِّ الْأَنْدَلُسِ، بُويعَ بِأَرْجُونَةَ وَهِيَ بَلَدُهُ، إِذْ كَانَ فِيهَا مَنْشَأُهُ وَمَوْلَدُهُ. وَكَانَ بَطَلًا شَجَاعًا، فَأَوْرَثَهُ ذَلِكَ سَمًى وَارْتِفَاعًا، وَكَانَ هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوْسُفَ مُطَابِقًا لِابْنِ هُوْدَ فِي اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ، مَفَارِقًا لَهُ فِي اللَّقَبِ، فَهَذَا لَقْبُهُ: الْغَالِبُ بِاللَّهِ، وَذَلِكَ: الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ،

(١) فِي ق، ك: «يَتَبَخَّرُونَ».

(٢) سَقَطَ شَبْهُ الْجُمْلَةِ مِنْ ق.

(٣) تَارِيخُ ابْنِ خُلْدُونِ ٢١٧/٤.

(٤) تَارِيخُ الْإِسْلَامِ ٢٥٣/١٥، وَالْوَافِي بِالْوَفَايَاتِ ٢٥٥/٥.

وابنُ هود خرج على الموحدين وابنُ الأحمر خرج على ابن هود، وما أكثر ما أثر فيه اشتهاؤُ أبيه الأحمر، فاستعمله في كل شيء، وعليه في الشهرة والعلامة اقتصر، ركب عليه وكتب فيه وتزيًا به في اللباس، كتزيي ابن هود بالسواد لقيامه بدعوة بني العباس^(١).

ومن أرجونة ملك ابنُ الأحمر جيان، وبُويع له بها سنة ثلاثين، واشتهر ظهوره في كل مكان، ولقد جاء بها على قدر، فقبلته وعلى حمايتها اقتدر، وأي عيش لمن بجيان يطيب، وعهدُ جارِها أبدًا بأخذِ النصارى لها كجلسة خطيب؟ ومن جيان ملك قرطبة، ولا أعرف كيف كان ذلك، ولكنه أسلك أهلها أضيّق المسالك، فعاجلوه بالإخراج كارهاً، فخرج وقد ركب من حزمه فارهاً، وهو من جأشه في أعظم جيش، والمسلمون بتلك الجزيرة من شدة الاضطراب وكثرة الفتن في أعظم طيش، وأخرجَه أيضًا أهل إشبيلية وأنكروا أمره، لِمَا عَدَرَ الباجي وقتله، وسأذكرُ بعض أخباره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة المؤرخة: حاصر بعض القبائل مكناسة الزيتون، فعرف بذلك أهلها أبا العلى المأمون، برسالة من إنشاء ابن عبدون، فنسّق فيها الحال نسقًا، وأعلمه أنهم في أمرٍ صيرَ صُبْحهم غسقًا.

فصلٌ منها

فالعيّدُ أيّدكم الله هالكون لا محالة، وحياتهم في حيز الاستحالة، إلّا أن يتدارك الله تعالى بلطفه، ويتلافى الجميع بجزيل عطفه. ومعروفٌ أنّ هذا القطر حمّاه الله قفْلُ الغرب، والبلادُ معتمدةٌ عليه اعتماد الحسام على الضرب، فإغاثته واجبة، وحمايته حاجبة، فالعجل العجل! قبل بلوغ الأجل، والغياث الغياث! قبل تمكّن الفساد والإعباث. وله شعرٌ في المعنى طويل، فمنه [من الطويل]:

إمام الهدى سمعًا لدعوة شاك ثوى بين هلاكٍ رهين هلاك
وأوشك أن يغتال مكناسة الردى وتبكي على من تحتويه بواكي

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٢١٧/٤.

أحاطت بها الأعداء من كلِّ جانبٍ فقد قَعَدَت منها بكلِّ شِراكٍ
وقد زارها من أهل زَرْهونَ هَوْنُها وبَثُّوا لها التَّطليقَ بعدَ مِلاكٍ
وأبناءً فازازَ لها مُستَفزَّةٌ فها هي تشكو كلَّ أروعِ شاكٍ

وكتبَ معها: رَفَعَ هذه الشَّكوى إلى المكانِ الإماميِّ الأعلى - أدام اللهُ أيامَه، ونَصَرَ
أُلوِيَّتَه وأعلامَه - عَبيدُه المستجِرونَ بعَدْلِه، أَهلُ مِكناسَةٍ تَلاقَى اللهُ بِرحمته تَلاَفُها، وتَدَارَكَ
بُلطِفِه قُطَّانَها وأَلافَها، مُستَصِرِّحِينَ جِلالَه، مُستَرَقِّينَ إقبالَه، فالعبيدُ في حُكْمِ القَواتِ
وعَدَدِ الأَمواتِ، وعدلُ المَقامِ الأعلى كَفيلاً بتَدَارُكِ أَرماقِهم، وحَلَّهم من وَثاقِهم. كُتِبَ
في شَهرِ كَذا من عامِ تَسةَ وعَشرينَ وسَنةَ مئةَ.

وفي هذه السَنةَ وهي سَنةُ تَسةَ وعَشرينَ وسَنةَ مئةَ: كانت وفاءُ أبي العُلى المَأمونِ
رَحِمَهُ اللهُ في آخِرِها، وذلك أَنه لَمَّا تَوالتَ عليه أَخبارُ تلكَ الجَهاثِ الغَريبَةِ، وما فَعَلَتَه
بِمِكناسَةٍ تلكَ القَبائِلُ الفَازازِيَّةُ والمِكلاتيَّةُ من حِصارِهم إِلِها، ونزولِهم عَلِها، وما
فَعَلَه أَيْضاً أَهلُ سَبْتَةٍ من خِلافِهم إِلِيه وذَمُّهم في كُلِّ وَقتٍ عَلِيه، شَرَعَ في حَركةِ تلكَ
البَلاَدِ، بِرَسمِ حَسَمٍ ما فِيها مِنَ الضَّرَرِ والفسادِ، فَخَرَجَ مِنْ مَرَّاكِشَ بعِساكِرَ وافِرَةٍ،
وجيوشَ مُتَكَاثِرَةٍ، بَعْدَما تَيَقَّنَ أَنَّ يَحْيىَ بَنَ الناصِرِ، لَم يَبَقَ لَهُ وَلِيٌّ ولا ناصِرٌ، وَأَنه أَخَذَ في
الفرارِ، فلا يَسْتَقِرُّ لَهُ قَرارٌ، وَأَنَّ الموحِّدينَ تَرَكوهُ واستَقَرَّوا بِجِبالِهم، والذِينَ كانوا مَعَهُ
مِنْ فُرسانِهم ورجالِهم، وَأَنه قد تَوَجَّهَ إلى جَهةِ دَرُعةَ وَسِجِلْماسَةٍ.

وحيثَ تَوَجَّهَ المَأمونُ بعِساكِره إلى جَهةِ مِكناسَةٍ، وَلَمَّا قَرَّبَ مِنْها، هَرَبَتِ تلكَ
القَبائِلُ المَذكُورَةُ عَنها، فاستَمَرَّ مَشيُه إلى مَدِينَةِ سَبْتَةٍ فَحاصَرَها مِنْ جَهةِ البَرِّ، وَأَكثُرُ
عَيشِهم إِنما هُوَ مِنْ جَهةِ البَحْرِ، فَكانوا في نِعمةٍ شامِلَةٍ، لَم يَرِدُوا مَواردَ الحَربِ ولا نالَهم
ولا هالَهم تَضَيُّقُ المَأمونِ ولا حِصارُه، وَإِنْ تَكَاثَرَتِ أَعدادُه وَأَنصارُه، وَقَد نَصَبَ
عَليها ثَلاثَ مَنجَنِقاتٍ تَرمي كُلَّ يَومٍ عَدَّةَ أَحجارٍ، فَمَّا ثَلَمَتِ شَيتاً مِنَ السُّورِ، ولا
هَدَمَتِ داراً مِنَ الدُّورِ، فَأقامَ عَلِها ثَلاثَةَ أَشْهرٍ مُتَوالِيَةٍ، وَأَهلُها في بَلَدِهم كَما كانوا
في الأَيامِ الخالِيَةِ، لَم يَعدَمُوا فِيها طَعاماً ولا إِداماً، وَلو حاصَرَهم كَذلكَ أَعواماً، إلى أَنَّ

وصَلَهُ خَبْرٌ أَقْلَقَهُ، وَأَسْهَرَ جَفْنَهُ وَأَرْقَهُ، فَأَحْرَقَ الْمَجَانِيقَ وَأَشْعَلَ فِي مَحَلَّةِ السُّوقِ نَارًا، وَأَقْلَعَ عَنْهَا اضْطِرَارًا لَا اخْتِيَارًا، وَهُوَ أَنَّ يَحْيَى بْنَ النَّاصِرِ دَخَلَ مَرَّاكُشَ عَنُودَ فَقَتَلَ فِيهَا وَسْبَى، وَأَحْرَقَ الْكَنِيسَةَ وَأَوْرَثَ أَهْلَهَا وَصَبًّا، فَجَدَّ فِي السَّيْرِ لِلِقَاءِ يَحْيَى لِيُعِدِمَهُ بِزَعْمِهِ الْمَحْيَا، وَبَلَغَ حَرْقُ الْكَنِيسَةِ لِلنَّصَارَى أَجْنَادِهِ، وَكَانُوا عُمِدَتَهُ فِي إِصْدَارِهِ وَإِيرَادِهِ، فَتَشَتَّتَ أَهْوَالُهُمْ، وَتَكَاثَرَتْ أَوْجَالُهُمْ، فَزَادُوا وَنَقَصُوا وَعَزَمُوا عَلَى مِقَابِلَةِ يَحْيَى وَحَرَصُوا، وَأَقْسَمَ الْمَأْمُونُ أَنْ يُطْلِقَهُمْ عَلَى الْبَلَدِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى يَتَصِفُوا، وَلَا يَتَأَخَّرُوا عَمَّا يَشْفِي صُدُورَهُمْ وَلَا يَتَوَقَّفُوا. فَلَمَّا وَصَلَ الْمَأْمُونُ مَعَ أَجْنَادِهِ إِلَى وَادِي أُمِّ الرَّبِيعِ جُرِّعَ كَأْسُ الْمَنِيَّةِ قَبْلَ بُلُوغِ الْأُمْنِيَّةِ، فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ الْخَائِفُونَ مِنَ الرُّومِ سَلْسَبِيلًا، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا^(١).

وَلَمَّا تَوَقَّى الْمَأْمُونُ كَتَمَتْ زَوْجَتُهُ حَبَابَةَ الرُّومِيَّةِ أُمُّ الرَّشِيدِ وَفَاتَهُ إِلَّا مِنْ الْقَوَادِ، وَأُظْهِرَتْ أَنَّهُ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ إِلَى جَمِيعِ الْأَجْنَادِ، وَكَانَتْ أُمُّ الرَّشِيدِ رُومِيَّةً، فَأَوَّلُ مَنْ عَرَفَتْ بِمَوْتِهِ قَوَادُ الرُّومِ، ثُمَّ عَرَفَتْ أَشْيَاخَ الْخُلَطِّ وَبَعْضَ الْقَرَابَةِ وَالْخَاصَّةِ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ مَكْتُومًا عَنِ الْعُمُومِ، فَأَجْمَعُوا عَلَى بَيْعَةِ ابْنِهَا عَبْدِ الْوَاحِدِ الرَّشِيدِ بَيْعَةً خَاصَّةً لَا عَامَّةً، وَذَلِكَ ثَانِي يَوْمٍ وَفَاةَ أَبِيهِ وَهُوَ يَوْمُ الْأَحَدِ مَفْتَتَحُ شَهْرِ مُحَرَّمٍ مِنْ عَامِ ثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ.

وَشَاعَ الْخَبْرُ فِي الْمَحَلَّةِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَرِيضٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْكَبَ عَلَى مَرْكُوبٍ مُسَرَّجٍ، ثُمَّ أَدْخَلُوهُ فِي تَابُوتٍ وَجُعِلَ فِي هَوْدَجٍ وَالْجِيُوشُ أَمَامَهُ وَخَلْفَهُ وَقَدْ تَأَهَّبُوا لِلِقَاءِ يَحْيَى، وَكَتَمَ الْقَوَادُ حَقْفَهُ وَأَعْدُّوا السَّيْرَ إِلَى أَنْ وَصَلُوا حَضْرَةَ مَرَّاكُشَ، فَخَرَجَ مِنْهَا يَحْيَى بِجِيُوشِ الْمُوَحِّدِينَ وَبِمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْمُتَجَنِّدِينَ، فَالْتَقَى الْجَمْعَانِ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمْ كَأْسُ الْحَرْبِ وَالطَّعَانِ، فَانْجَلَتْ عَنْ هَزِيمَةِ يَحْيَى ابْنِ النَّاصِرِ، وَقَتْلَ أَكْثَرِ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَدَخَلَ الرَّشِيدُ حَضْرَةَ مَرَّاكُشَ سَالِمًا ظَافِرًا، وَوَلَّى يَحْيَى بْنُ النَّاصِرِ مَنَهْزِمًا خَاسِرًا، وَسُأُوذَ كَيْفِيَّةَ دَخُولِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٢).

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤١-٣٤٢، والاستقصا ٢٤٠-٢٤١.

(٢) الإحاطة ١/ ٤١٧.

ذكرُ بيعةِ الرّشيد وخلافته وما جرى من الأحداث

والأخبار في دولته^(١)

نسبه: هو أبو محمد عبد الواحد بن أبي العلي إدريس المأمون ابن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن. أمه: أمّ ولد رومية تسمى حبابة.

أبنائه: محمد وعثمان درجاً، ولمحمد هذا أبناء في وفاته بمدينة فاس وهو في كفالة عمّه أبي الحسن السعيد، وذلك في عام اثنين وأربعين وست مئة.

إخوته أشقاؤه: أمّة العزيز، وهي الحرّة عزّونة^(٢)، وغير أشقائه: أبو الحسن السعيد وأمّه أيضاً أمّ ولد، وعبد الله وعبد العزيز أبناء طيف أمّ ولد أيضاً، ولهذا عبد العزيز نبأ ظريف في جنائته الشنعاء وقتل بسبته في عام سبعة^(٣) وأربعين وست مئة، وعثمان أمّه ظريف، أيضاً أمّ ولد، وصفية أمها أمّ ولد، وعائشة كذلك ونجمة أمها أيضاً رومية، وفتحونة أمها أمّ ولد.

صفته: أزهر اللون أشقر، كث اللحية، حسن القد، في وجهه يسير نمش. عمره: أربع وعشرون سنة.

دولته: عشرة أعوام ونحو أربعة أشهر.

وفاته: يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة من عام أربعين وست مئة.

وزرائه: السيّد أبو محمد عبد الله بن أبي سعد بن المنصور، وأبو زكريّا بن أبي الغمر، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الجفيسي، وأبو محمد عبد الله بن أبي زكريّا، وأبو علي السيّد ابن أبي محمد عبد العزيز ثم أبو عبد الله الجفيسي المذكور مرة ثانية بعد تأخير له.

(١) المعجب ٤١٧، وتاريخ الإسلام ٣٢٤/١٤، والوافي بالوفيات ٢٥٠/١٩، وتاريخ ابن خلدون ٣٤٢/٦.

(٢) الضبط من ق.

(٣) سقطت من ق.

أصحابُ أشغاله: عبد الرحمن بن عمر بن وبن الخير القَبَائِلِيّ، ثم انضاف ذلك
للسيّد أبي محمد الوزير الكبير عند استيلائه على المملكة، ثم أبو موسى بن عَطُوش بعد
وفاة أخيه.

كُتَابُهُ: أبو زكريّا الفازازي، وأبو عبد الله القَبَاجِيّ، وأبو عبد الله الحُسَيْنُ ابن أبي
عَشْرَة، وأبو عبد الله الفازازي، وأبو عبد الله بن سُلَيْمَان، وأبو العلا ابنُ حَسَّان، وأبو
المُطَرِّف ابن عُمَيْرَة، وأبو الحسن الرُّعَيْنِيّ، وأبو القاسم القَبَاجِيّ، وأبو عبد الله
التَّلْمَسَانِيّ^(١). وهؤلاء الكُتَّابُ الذين ذَكَرْنَا منهم مَنْ كَتَبَ قَبْلَهُ لأبيه المأمون ومنهم مَنْ
أضافه الرَّشِيدُ إليهم، ومنهم أبناءُ كَتَبُوا يَسِيرًا، ومنهم مَنْ مُدَّتْ لَهُ الحَيَاةُ إلى انقضاءِ مدّةِ
الرَّشِيدِ.

مُشارفُهُ في حضرته: أبو محمد سعدُ المَكْنِيّ بأبي البركات، ثم أبو إسحاق
السَّبْتِيّ، ثم أبو عبد الله بن طَرَاوَة، ثم أبو العباس بن هشام، ثم أبو عبد الله بن أبي
البركات.

حاجبُهُ: أبو الفضل مباركُ التَّكْرَوْتِيّ.

أصحابُ شُرْطَتِهِ: أبو موسى بن عَطُوش قبل اشتغاله، ثم أبو محمد بن مأكسن،
ثم أبو زكريّا بن عَطُوش، ثم أبو الحَجَّاج بن مَلِيح، ثم عاصمُ الهسكوري، ثم أبو
الحسن أزلماط.

وكانت مُبايعتُهُ خاصّةً لا عامّةً ثانيَ يومِ وفاة أبيه كما تقدّم ذكرُهُ، وهو يومُ الأحد
مُنْسَلَخٍ^(٢) عام تسعة وعشرين وست مئة.

وفي سنة ثلاثين وست مئة: كان استقبالُ الرَّشِيدِ مَرَاكُشَ حَرَسَهَا الله، لَمَّا أَنَاَحَ
اللهُ النَّصْرَ على يحيى ابن الناصر أمير المؤمنين وعلى طوائفِ الموحّدين وعَرَبِ سُفْيَان،

(١) وقع النص في ق، ك، ب كما يأتي: كتابه: أبو زكريّا الفازازي، وأبو عبد الله بن سُلَيْمَان، وأبو
العلی بن حَسَّان، وأبو المطرّف بن عميرة، وأبو الحسن الرعيني، وأبو القاسم القَبَاجِيّ، وأبو
عبد الله التلمساني. والقَبَاجِيّ قيّده ابن عبد الملك في الذيل والتكملة بضمّ القاف ولكنه لم
يُشر إلى تشديد الباء، وهو مجوّد في النسخ الخطية من البيان (الذيل ٤ / ٢٥٩ الترجمة: ٦٨٩).

(٢) في ق، ك، ب: «مفتّح» ولا يصح.

وكان شيخهم يومئذ جرْمُونُ بن عيسى، وانتُهِبَ له من الأموال والذخائر ما لا يُحِيطُ به حَصْرٌ ولا حساب، وفَرَّتْ أعداؤه خاسرينَ مهزومينَ، واستقبلَ مَرَاكُشَ وكان واليها السيّد أبو الفضل جعفرُ ابن السيّد أبي سعيد ابن الخليفةَيْن أميرَي المؤمنينَ قَدَمه عليها أهلُها^(١)، فإتّهم تَرَكَهُم المَقْدَمَ عليها من قَبْلِ يحيى، وهو أبو سعيد بن وأنودين بغيرِ وإٍ ولا ناظر، فاختاروا السيّد أبا الفضل لشيأخِتهِ ودينه، وكان يجلسُ في حانوتٍ للشهود بإزاء باب القصر، وكانت سِيرُته في الناس حَسَنَةً وفي تسديدِ أحوالهم، ضَبَطَ ذلك بكلِّ مستجاد من العمل ومُلاحِظَةٍ للمصالح من غيرِ خَلَلٍ، فكَتَبَ عَقْدًا شَهِدَ له فيه جمهورُ الناس من الطلبة والأمناء يتضمّنُ أنّ تقديمه لم يكن باختياره، وأنه أكره عليه، واجتمعَ الجُمهورُ على تقديمه لمصلحةِ الوقت لئلا تمتدَّ أيدي الناس إلى آخَرينَ، كلُّ ذلك احتياطٌ مما يَتَوَقَّعُ من أمير المؤمنين المأمون، فكفاه الله ما كان يَحْشَاهُ^(٢).

ولما دنا الرّشيدُ إلى مدينة مَرَاكُشَ كَتَبَ لأهلها ظَهِيرًا بتأمينِ كافّتهم والعفو عن عامّتهم وعمّن كان معهم من الموحّدين، ورفعَ عنهم المَغَارِمَ وجَدَّدَ لهم أحوالاً سَنِيَّةً وأمالاً رَضِيَّةً، ووَجَّهَ بهذا الظَّهير الفقيه القاضي أبا محمد عبد الحقّ في أناس معه، فلما دنوا من السُّور أنكرَ الناسُ صُورَهم فاستعدُّوا لهم وظنُّوهم مقدِّمةً لجيش المأمون، وازدحم الناسُ في السُّور لقتالهم، فإتّهم كانوا ثابتينَ على قتال المأمون مُلازمينَ طاعةَ يحيى بن الناصر^(٣) لِمَا كانوا تحقّقوا من الذي عَزَمَت عليه النصارى من استئصالهم وفَيْئَتهم، فتعرَّضَ أبو محمد عبد الحقّ لهم فما أنكرَوه، وتكلّمَ مع بعض الطلبة والأمناء من جهة باب السّادة فحَمِدُوهُ وشكّروهُ، ولم يكن عند أهل مَرَاكُشَ خبرٌ بموتِ المأمون وولاية ابنه الرّشيد ولا بهزيمة يحيى ابن الناصر بعدَ حلوله من المُلْك في قصر مَشِيد، فبيّنَ لهم الفقيه أبو محمد عبد الحقّ كيفيّة ذلك وشرّحه لهم وعَرَّفَهُم بِالظَّفَرِ والنَّعم عليهم، فوثّقوا بقوله وسكّنت إليه نفوسُهم واطمأنّت الخواطر، وهبَّ عليهم من المِسْرة ريحٌ عاطر،

(١) سقطت من ق.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

(٣) من هنا إلى قوله: «يحيى ابن الناصر» الآتي بعد أسطر قفز ناسخ الأصل الذي نسخ منه نساخ ق، ك، ب، ٣ فسقط من هذه النسخ ما بينها.

وارتفع عن الناس الالتباس، بعدما كانوا في أمر جلّ عن القياس، وأعلنوا بالسّمع والطاعة والدّخول في حزب الجماعة لخليفَتهم الرّشيد أمير المؤمنين، وأضحوا به مسرورين ومنه آمنين، وأذنوا للفقهاء أبي محمد ومن معه بالدّخول للبلد فدخلوا من باب النّصر جميعاً، وتوجّه هو ومن معه مع السيّد أبي الفضل ووجوه البلد سريعاً، حتّى وصلوا دار الخليفة^(١)، فأدار عليهم من السرور رحيقهُ وسُلافهُ، وقرئ الظّهير الكريم على الناس فسروا بمقتضاه، ولا أحد منهم إلّا قرّ عينه به وارتضاه، وكتبوا لخليفَتهم بسْمعهم وطاعتهم، وعاد أبو محمد وأصحابه ذا محيّا طلق، وتوجّه معهم من كُبراء أهل مراكش من أراد التوسّل بالسّبْق.

ولما قدّم الفقيه القاضي على الرّشيد، وعرفه بما كان من أمره الحميد، تلقاه من البرّ بأحفله، ومن الاعتناء بأتمّه وأكملّه، ولما كان المأمون اتفق مع النّصارى بما اتفق، انحلّ ذلك الأمر المنتظم بوفاته وافترق، وقيل: إنّ أمّ الرّشيد حباّبة، أرزتهم بهال بعد المأمون فحادوا عن سبيل الحرب وأغلّقوا بابهُ، وسلّم الله المسلمين من الرّوم، فقد كانت تبغي إحقاقهم وتروم، ودخل الرّشيد مراكش والنّصر يخدمه، والسعد يصحبه ويلزمه.

دخول أمير المؤمنين الرّشيد مراكش حرّسها الله

ودخل أمير المؤمنين الرّشيد مدينة مراكش منتصف شهر محرّم من سنة ثلاثين كما تقدّم ذكره، واستقرّ بها واطمأنت نفوس المسلمين، وتجددت الأحوال والآمال، واستقلّ بالملك أيّ استقلال، وحسّم العلل، ورفع الداء والحلل، وعادت البلد في أسنى حلّى وأبهى حلل، وكان ألقى البلد قد استولت عليها أيدي العرب، واستطالت بكلّ نوع من العبث والفساد والخراب، عند دخول يحيى إليها، وجمع حشمه وعربيه عليها، ووصل في خدمة الرّشيد من العرب الخلط شيء كبير، واستقرّ جميعهم بالجهات والأنحاء وكلّ عين قريّر، وامتلاّت أيديهم من أموال عرب سُفَيان ومواشيهم، وسروا بما أفاء الله عليهم من الظفر بأعاديهم، ووصل مع الرّشيد عمّه السيّد أبو محمد سعد، وهو به كثير البرّ والاعتناء، فكتب له ظهائر برباع وكثير من العقار، ولم يُبد له إلا التعرّز والوقار، وكان قد ترك

(١) في ك: «الخلافة».

أبو محمد سعدٌ أولاده بقصر عبد الكريم مع جماعة من خاصّته تحت كفالة أبي زكريّا بن عطّوش، ثم توجه عنهم عند استقراره بمراكش أمناً من أحواله، مُبلغاً جميع أمانيه وآماله.

وفي أثناء ذلك ورد على السيّد أبي محمد سعد كتابٌ من يحيى بن الناصر وهو يُعْتَبُه في عدوله عن بيعته إلى بيعة ابن عمّه بألفاظٍ لا يليقُ ذكرها، فإنّ كاتبه أقذع فيها، وجاءه بالكتاب رَقاصٌ فاعتقله ورفّع الكتاب إلى أمير المؤمنين الرّشيد وفاءً بعهد طاعته وحقّ خدمته.

وكان السيّد أبو محمد سعد إذا وصل إلى دار الخليفة يقعد في القبة التي يجلس فيها الرّشيد أمير المؤمنين تكريماً لجانبه وتوقيراً، فنهض على عادته واجتمع مع الرّشيد وبعض خاصّته، وتفاوض معه في كتّب جواب يحيى بن الناصر، فوقّع النظر أن يكتّب له بأشنع ممّا كتّب، وكان كاتبُ أبي محمد سعد لم يحضر، وهو أبو القاسم ابن عمران، فأمر أبا عبد الله التّلمساني أن يكتّب له، وكان صغير السن، فكتّب، وكان في أول الكتاب المذكور بعد البسملة والتّصلية: من سعد ابن الخلفاء الراشدين إلى السيّ النّظر القاصر، الذي لم يصرف الله له من التوفيق والتّسديد لمحةً باصر، يحيى بن الناصر، سلامٌ على من خالف عقله وحالف جهله، ورحمة الله وبركاته، ثم نحا هذا المنحى إلى آخر الكتاب.

ولما استقرّ الرّشيد بحضرته، واجتمع الناس على طاعته، وصلّته البيعات من كلّ الجهات، وتجددت البشائر والمسرات، فمن ذلك: بيعةٌ من بعض القبائل مختصرة:

بيعةٌ مختصرةٌ لأبي محمد عبد الواحد الرّشيد أمير المؤمنين

الحمد لله الذي شيّد بالإمامة أركان الإسلام، وحفظ بها دين محمد عليه السّلام، وجعل طاعة من استحقّها، وأدّى حقّها، من فروض الأعيان، ونظّم بتقليد بيعة من اختاره لخلافته في أرضه، وارتضاه لإقامة سُنّته وفرضه، عقود الاعتقاد وتسمّم به شرائط الإيمان، والصّلاة على سيّدنا محمد رسوله المبعوث لخير أمة في خير زمان، وعلى آله الطيّين وصحّابته الأكرمين والتابعين لهم بإحسان، والرّضى عن الخلفاء الراشدين الذين كانوا يقضون بالحقّ وبه يعدلون في الأسرار والإعلان، اللهم ارض عن خليفتك في براياك، الكفيل عدله بإقامة دينك القيم ورعاية رعاياك، الإمام المؤيّد المبارك الأسعد

أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَاحِدِ ابْنِ سَيِّدِنَا الْخَلِيفَةِ الْإِمَامِ الْمَأْمُونِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي الْعَلَى ابْنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ كَمَا انتَخَبْتَهُ مِنْ خَيْرِ نَصَابٍ، وَأَعَدَّتْ بِهِ الدَّوْلَةَ الْمَأْمُونِيَّةَ إِلَى عُتُقَانِ الشَّبَابِ، وَجَمَعْتَ بَعْدَ ذَلِكَ ضُرُوبَ الْأَشْيَاءِ كَمَا جَمَعْتَ بِفَضْلِهِ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ، وَحَسَمْتَ بِحُسَامِهِ مَوَادَّ الشَّرِّ وَالْأَرْثَابِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ^(١) كَلِمَتَهُ الْعُلْيَا، وَامْنَحْهُ مِنْ قِسْمِ السَّعَادَةِ وَالنَّعْمِ الْمُسْتَزَادَةِ مَا يَجْمَعُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَتِي الْآخِرَةِ وَالْدُّنْيَا، إِنَّكَ^(٢) كَفِيلٌ بِكُلِّ خَيْرٍ جَمِيلٍ.

وبعد، فهذا ما أجمع عليه الكافة من بني فلان، خصوصهم وعمومهم، من عقد بيعتهم الموطدة الأركان، المؤسس بنيائهما على تقوى من الله ورضوان، لسيّدنا الخليفة الإمام^(٣) أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين، أعلى الله كعبه، ونصر حزبه، أبرموا عقدها، والتزموا عهدها، وقلدوا أعناقهم أمانتها، وتكفلوا حياطتها وصيانتها، واعتصموا بمثن حبيلها، واهتدوا بيمن سبلها، وأوجبوا بها على أنفسهم طاعته، واعتقدوا بعقدها موالاته ومشايعته، وفاءوا إلى فتيته المباركة، والتزموا مواصلة من واصله ومشاركة من تاركه، سرورا بسعد أيامه، وشكرا لجزيل إحسانه وإنعامه، وامثالا لماضي أوامره ولحكم أحكامه، طائعين غير مكرهين، بارعين غير نازعين، بضامير خالصة، وعزائم ماضية غير ناكسة، يوالون من والاه، ويعادون من عاداه، ويوادون من واداه، وفاء بعهدته وميثاقه، وابتغاء لمرضايته ووفاقه، مبايعة موثقة الأحكام، سنية الأحكام، أعطوا عليها صفقة أيمانهم وأكد أليانهم، واعتقدوا الوفاء بها والتمسك بسببها بصفاء من سرائرهم، وخلوص من نياتهم وضاميرهم، وأشهدوا الله تعالى وملائكته على أنفسهم بذلك، وهم بحدوده عالمون ﴿وَمَنْ يَبْعَدْ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقيدوا بذلك شهادتهم في شهر محرم سنة ثلاثين وست مئة.

وفي صدر سنة ثلاثين المذكورة: وصل ابن قاريط الهسكوري من جبلة بمن معه من أولاد أمير المؤمنين المأمون رحمه الله، فوصل السيّد أبو الحسن المعتضد بالله وإخوته

(١) سقطت من ق. والعبارة في ك: «فاجعل اللهم كلمته».

(٢) في ق، ك: «إنه».

(٣) سقطت من ق.

إلى أخيهام الرشيد، وكان هذا أبو الحسن تركه أبوه بإشبيلية فقيم عليه فيها ثم أخرجهم أهلها فحصل عند عمه بسبته.

وفي هذه السنة: بايع أهل إشبيلية للباغي وأهل قرطبة لابن الأحمر، وعقد ابن هود السلم مع العدو بسبب اشتغاله بمحاربتهم على أن يعطي ابن هود لأذفونش ألف دينار في كل يوم^(١).

وفيها: أخذ العدو قسبة مدينة أبدة أعادها الله للإسلام.

اختصار الخبر عن وصول ابن وقاريط وسببه وذكر ما تعلق به من الأخبار به

كان ابن وقاريط هذا عازماً ألا يعود إلى المأمون ولا يَدْخُلَ يده بوجه من الوجوه لحوف خامر عقله منه، إلى أن وصل الرشيد بوسيلة من استصحبه من إخوته أولاد المأمون، فانبسط خاطره بعض انبساط، وقام من الكسل إلى النشاط، ومال بكليته إلى جانب السيد أبي محمد سعد عم الرشيد، وصار في الظاهر يخدمه، فثبت به تلك المدة قدمه، وكان ابن وقاريط أيضاً مُعْتَبِئاً بالفقيه أبي إسحاق ابن الحَجَر غُرّة مصره، ونادرة عصره، العلم والأدب والطب يُعزى إليه، فما زال مشتملاً عليه، وكان الفقيه أبو إسحاق خفيفاً على النفوس تملّ قلوب الملوك لداعيته، وحسن حديثه ودرأيته، واحتوائه على أخبار الدول وإحاطته، وكان للسيد أبي محمد سعد به اعتناء كثير أيضاً ويخلو معه في أكثر أوقاته، فكان أبو إسحاق المذكور يؤكّد الوصلة بين السيد أبي محمد سعد وبين ابن وقاريط، ووثق ذلك كما يجب وكما أراد في حق صاحبه، وعمل في ذلك ما زاد اشتماله نفس ابن وقاريط عليه. ثم استقامت الأحوال في هذه السنة على السكون والدعة وابن وقاريط مصر صُحبة مسعود الخلطي ومتودّد له ومستكثر به، إلى أن حصل على مقصوده من مضافاته، وتم له التدبير في مولاته، وهو في الظاهر متمسك بالسيد أبي محمد سعد، فلما كمل مراده فيها سعى سعيًا آخر في الأمور، وتحرك لأشياء كان لها ساكنًا، وربما

(١) في ق، ك، ب: «عام» ولا يصح.

كانت مُعاوناتٍ في الباطن في تأخير السيّد أبي محمد عن الوزارة لأُمورٍ قُدّرت، ثم مَرَضَ أبو محمد سَعْدٌ وانفرد بالوزارة للرّشيد أبو زكريّا ابنُ أبي الغمُر، وقَدَّمَ ابنَ وِين الحَئيرَ على الأشغال، ووافَتِ المنيّةُ أبا محمد سَعْدًا ولا بدَّ من وقوع الآجال^(١).

ذِكْرُ وفاة السيّد أبي محمد سَعْدٍ وَحِمَامِهِ

وحضور أبي محمد الرّشيد لدفنهِ وبني أعمامهِ

لَمَّا وافتِ المنيّةُ أبا محمد دُفِنَ بدارِهِ في دُويْرَةٍ منها تُسمّى دارَ العُقبان في أحدِ أسطواناتِها، وحَضَرَ جنازَتَهُ أميرُ المؤمنين الرّشيدُ وأعمامُهُ وإخوَتُهُ وأبناؤُهُ، وقَعَدُوا على القبرِ حتّى كُمِلَ بناؤُهُ، وتكلّمَ الناسُ في موته بما اللهُ يَعْلَمُ حقيقَتَهُ، فهو الذي يَعْلَمُ السِّرَّ ودقيقَتَهُ.

ذِكْرُ السَّبَبِ فِي انْتِزاعِ ابنِ وقارِيطَ وعِنادِهِ

لَمَّا تَوَقَّيْ أبو محمد سَعْدٌ رَحِمَهُ اللهُ اختَلَّ على ابنِ وقارِيطَ أحدُ عاقدَيْتِهِ واضطَرَبَ، وهَجَسَتْ في نَفْسِهِ الظَّنُونُ الكاذِبَةُ وكَثُرَتِ الأوهامُ، ومالَ في كُلِّ وادٍ وهام، فلم يَقْدِرْ على القيامِ بالحضرة، وصارَ ذا شُحوبٍ وكانَ ذا نَضْرَةٍ، وطَلَبَ مطالبَ شَنِيعَةٍ أَسْعَفَ فيها منها محاشاةَ هسكورة، وأنَّ يُنْعَمَ عليه بِمَجَبِي هزرجَةٍ وأَعْماتٍ وَرِيكة، فكتبَ له بذلكَ ظهائِرَ، ولم يَزِدْ مَعَ ذلكَ إلّا تَنافُرًا، وألْقَى يَدَهُ على هاتَيْنِ الجَهِتَيْنِ، وكانَ في لَظَى وهو ما بينَ جَنَّتَيْنِ، فخرَجَ ذاتَ يومٍ يَريدُ تَفَقُّدَ إخوانِهِ، وإصلاحَ أمرِهِ وشأنِهِ، فكانَ آخرَ العَهدِ به وبِعيانِهِ، وعندَ انفصالِ ابنِ وقارِيطَ وعِنادِهِ، أخذَ ابنُ وِين الحَئيرَ في اللّحاقِ به لاسْتِصلاحِهِ واستِردادِهِ، فأعَوَزَ الداءُ الدِواءَ، وتمكَّنتِ في نَفْسِهِ الشَّحناءُ، وكانَ هذا آخرَ سَنَةِ ثلاثينَ.

وفي سَنَةِ إِحدى وثلاثينَ وسِت مئة: استقرَّت أحوالُ الرّشيدِ، وهو يَعالجُ الأُمورَ وينظرُ الرأْيَ السَّديدَ، وعادَ ابنُ عَمِّهِ أبو محمد إلى الوزارة وأقرَّ عَمالَهُ على أَعْمالِهِم، وخَدَّامَهُ على طَبَقَاتِهِم وأحوالِهِم، وأظْهَرَ ابنُ وقارِيطَ عِنادَهُ وارْتدادَهُ، وأعلنَ بِطاعةِ يَحْيَى وَاتَّبَعَ

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

مراده، وأَصَرَ على الفساد، والْعَبَثُ في البلاد، ثم توجَّه نحوَ يحيى وهو ببلادِ مزالة، ففَرَنَ به أمانِيَّه وآماله، ولَمَّا عَلِمَ الموَحِّدُونَ مَيْلَ يحيى إلى ابن وقارِيطَ واغترارَه بمشايعَتِه وإِصْغائِه إِلَيْه، نَبَذَه أَكْثَرُهُم بالعراء، واطَّرَحُوا عَهْدَ الوفاء.

حركة الرّشيد إلى تادِلا

وفي هذه السنة: شَرَعَ الرَّشِيدُ في حركتِه لبلاد هسكورة وما والاها، وأبدى حالة الحَزْمَ وأجلاها، وتحَرَّك في جُھُوع جنودِه وحاشيتِه، وخَلَفَ على حضرته واليَا صِهْرَه السَّيِّدَ أبا العُلى إدريس، فَضَبَطَ البلدَ وأحسَنَ السَّيرَةَ في العامَّة وأهل التدريس، وبأشَرِ الأمور بنفسِه، وطلَعَ بيدِرِ الفضل وشمسِه، وكان يَسْكُنُ بزوجتِه ابنة المأمون بدار من ديار القَصْرِ، وكان جلوسُه غُدُوًّا وَعَشِيًّا في مَرْبَعَةِ الدار للنهي والأمر، وسكَّنتِ الأحوالُ بهذه الحركة، وانقطع الإرجافُ وارتفع الفساد، واستمرَّتِ الحالُ على هذا قَدْرَ شهرٍ أو أزيد، ثم توارَدَتِ الأخبارُ بانقطاع يحيى وَمَنْ مَعَه بابن وقارِيطَ وجموعِه، وأنهمُ استنفَروا هسكورةَ القَبِيلَةَ ومزَالَه وجلاوة وَمَنْ في هذه الجبال من خيل ورجُلٍ لقصودِ مَرَاكُش والحُصُولِ عليها، فهاجَتِ النفوسُ واضطربتِ الأحوالُ، وكانت بالقصرِ الحُرَّةُ أُمُّ الرَّشِيدِ، فهاها هذا الأمرُ الشديد، واشتَدَّ السَّيِّدُ أبو العُلى في الضُّبْطِ والترتيبِ للأمر، والمباشرة لقليلها، وكثيرها بينَ الجُمُهور، وتوجَّهتْ كُتُبُ الحُرَّةِ لابنِها تَسْتَعِظُفُهُ وتَسْتَحِثُّهُ لتدارِكِ الحالِ قَبْلَ انخراقِ الفتنِ وتعدُّرِ الرَّتقِ، ففَنَى عِناَنَه بعَزْمٍ صادق، وقصَدَ بلادَ هزرجة، وكان المروُرُ إِلَيْها حينَ قفولِه على بلاد هسكورة، فأعاد في طريقه الإيقاعَ بهم والتخريبَ لبلادِهِم، وانسحابِ الجيوشِ على طارِفِهِم وتلاذِهِم، ولَمَّا أَحَسَّ أبو زكريّا يحيى بنُ الناصرِ وأشياعُه بحَزْمِهِ، وقُدومِه بصادقِ عَزْمِهِ، لجَأُوا إلى جبلٍ يُعرَفُ هنالك، واستنفَروا تابعَهُم ومتبوعَهُم، وجمَعُوا جموعَهُم، واستعدُّوا للقتالِ، وأخذوا أَهْبَةَ النَّزالِ، والرَّشِيدُ يتقدَّمُ له النصر، وتبدو له تحايُلُ الظَّفَرِ، لِمَا تَبَيَّنَ له انكماشُ أعدائِه بالجبلِ المشارِ إِلَيْه، وتعويلُهُم حقيقَةً عليه، وجيوشُ الرَّشِيدِ في استعداد، وقوَّةُ بالله تعالى واستنجاد^(١).

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

هزيمة الرّشيد ليحيى ومَن معه على هزرجة

ولمّا دنا الرّشيدُ من يحيى ومَن معه حملَ عليهم فلم يلبثوا أن ولّوا الأدبار، ولاذوا بالفرار، واعتصموا بشواهي تلك الجبال ومضائق تلك الأوعار، وتركوا محلاتهم بمواضعها، وأسلموا جميع ما فيها، وكان توجُّههم في هذه الهزيمة نحو بلاد القبلة، حليفهم الحُसार، وشعارهم الذُّل والصَّغار.

وخيمَ أميرُ المؤمنين الرّشيدُ في موضع الفتح ومستقرّ النّجح، ليأخذَ بحظٍّ من الراحة، والشّكرِ لِنِعَمِ الله المتاحّة، وليعودَ أهلُ العسكر إلى النّظر في مصالحهم وأمورهم وتجديد ما يحتاجون إليه من مقابلة عدوّهم، واتّسعت بما حصلوا عليه أحوالهم وانبسطت آمالهم، كلُّ ذلك بمشيئة الله الواحد، ومصائبُ قوم عند قوم فوائد^(١).

إياب الرّشيد لحضرته سالماً بجميع عسكريّته

واستقبلَ أميرُ المؤمنين الرّشيدُ حضرته والسَّعدُ جديداً، والنّصرُ في كلّ ظعن ومقام يزيد، فتلّقه أهلها بالتهنئة والسرور، وكان له في يوم دخوله احتفالٌ مشهور، شُفيت به الصّدور، واستقامت الأحوال والأمور، واستمرت العافية للمسلمين واستشعروا ما أراد شارّد قومهم لتقديراتٍ قدّروها، وأمورٍ توقَّعوها، فإنّهم أجمعت بهم زلازل الدّاخلين عليهم مرّات، فما كان منهم صغيرٌ ولا كبيرٌ إلّا وهو يتقطّع حَسرات، فكانت الهدنة عامّةً متصلةً، والعافية مستمرةً مشتملةً، والله سبحانه المَن والفضل، والقوة والحول^(٢).

وفي هذه السّنة: وصل الزّعيمُ غنصالُه أخو شائعُه بعد فتكةٍ فتكها عند جزيرة قادس وأسرَ جميعَ مَنْ فيها بعد قتل ذريع لأهلها، وذلك أنه لمّا استقبلَ من بلادِه اجتاز على جزيرة قادس وأعمل الحيلة في الإيقاع بأهلها والغدر بهم، فأمكنه الحال من كمال مكرِه وتماز غدرِه، فغدر الجزيرة ومَن فيها من المسلمين، واستباح كلّ مَنْ بها، واستاق من أهلها جماعةً إلى رباط أسفي فانتدب المسلمون لافتكاكهم بالفداء، فلم يبقَ بأيدي الروم أحدٌ من المسلمين.

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢-٣٤٣.

وهذه الفتكة الشنعاء كانت سبباً لحراب جزيرة قادس، حتى لم يبق لها رسم، واستمرّ خلاؤها إلى حين تملك النصارى مدينة إشبيلية وسائر بلاد الأندلس إلا أقلها فملكوا قادس وغيرها.

وصول بعض الموحدّين إلى الحضرة

وفي هذه السنة: كان وصول أبي عثمان سعيد بن زكريّا الجدميويّ مُبادراً من صنفه الموحدّين. وسبب ذلك أنه تردّد إلى جهة جدميوة بعض تجّار النصارى في منافعهم ومتاجرهم، وربّما اجتمع أبو عثمان بشخص روميّ خاصّ بالروميّ جوان كيس، وكان وكيل شانجه زعيم النصارى، وصار الشخص يُتحفّه بتحف من مراكش قصداً في تيسير أموره في تجارته وغيرها، فأظهر أبو عثمان للروميّ ما ازداد به حرصاً إلى خدمته، فشرح حاله وفعله لموجّه الوكيل المشار إليه، فتحرّكت نفسه إلى مضافه أبي عثمان والتودّد له وتوجيه رسله إليه بأشياء غير واحدة، واستمرّ الحال على هذا مدة، فاطمأن الوكيل من أبي عثمان وقدم عليه ليجتمع معه ويُشاهد شخصه ويؤفّيه من برّه وقصده لهما أولاً من ظهر الغيب بعدما استأذن الوكيل المذكور لضيّفه وأسعفه في مطلبه، وأمره بإبلاغه سلامه، وأنّ حوائجه عنده مقضية.

ولما وفد على أبي عثمان تلقاه بأحسن القبول والترحيب، وأحلّه من اعتناؤه بالمحلّ الخصب، وأقبل كلّ واحد على صاحبه يعده ويمنيه، ويؤكد غرضه الجميل فيه، فأجزّل له أبو عثمان أجزّل إحسان، وفاوضه في الدخول في الطاعة على عهد من شانجه، وسعى منه في حقّه ووثق بوفائه، فأظهر له الوكيل المذكور، من الفرح بذلك والسرور، والضمان لكمال هذا المقصود، ما سكّن له أبو عثمان وجعله معوّلاً فيما رامه من السبق إلى الطاعة ليكون له الشرف بذلك والمزية على إخوانه الموحدّين، وقد كانوا في أثناء هذا الحال تقلّصت من يحيى أموالهم وانقطعت منه أطماعهم لاستحواذ ابن وقاريط عليه، وهو عدوهم الأكبر الساعي في تفريق جماعتهم وانتساخ دولتهم، ثم عاد الوكيل الروميّ إلى زعيمه وقصّ عليه ما جرى بينه وبين أبي عثمان وأطنب عليه. وكان شانجه المذكور ذا عقل ورأي وإدارات مصلحية، فجرد في خدمة أبي عثمان

عن ساعده، وتولاها بأحسن مساعيه ومقاصده، ورفع القضية على وجهها، وأوضح المصلحة فيها، وأشار بقبوله وإجابته، وإسعافه في وفادته، ليقندي بفعله سواء، ويهتدي بهديه من جاوره ووالاه، فألقى عند الخليفة الرشيد قبولاً، وخيراً في حقه مبدولاً، وقد كانت النفوس متشوّفة إلى استجلاب عصابة التوحيد، وإيصال القريب منهم والبعيد، فكتب لأبي عثمان عهداً وثيقاً، وأراه وجهاً طليقاً، ونصب له من المسرة والمبرة منهجاً وطريقاً.

ولما كمل^(١) هذا المرام وتيسر، توجه الزعيم المذكور له وما تأخر، فشرّ أبو عثمان بوفود ذلك عليه وقدمه، وأيقن بتكميل أمله وتتميمه، ووجه من ساعته معرفاً بوفادته معلناً بإخلاصه وطاعته، ثم لم يلبث إلا مقدار ما استعدّ للوفادة، واستقبل الحسنى وزيادة، وأخذ في الوصول بإخوانه وأقاربه، ومن اتبعه في الحال من قبيله بجميع مضاربه، وخرج للقاء الزعيم المذكور، ووصل معه إلى الدار المكرمة فتلقى بالاعتناء والاهتمام، على أوفى التكميل والإتمام، وتلقى من الخليفة الرشيد من جميل الوعد وطلاقة البشر وجزيل البر والخير ما أعاد انتعاشه، وأذهب إحاشه، وانفصل إلى ما أعد له من أنواع القرى، وانبسط آماله أيّ انبساط، وانتقل من الكسل إلى النشاط، وظفر هو ومن وقد^(٢) معه بإنعام الخليفة وإحسانه، والفوز بعطفه وحنانه، واستبشر الناس بعودة الموحدين إلى الطاعة أيّ استبشار، وعظمت في نفوسهم هذه المنّة التي استشعروا بها أيّ استشعار، وصار أبو عثمان يغدو إلى الخليفة ويروح، وأدلة المسرة المستقرّة في خلدّه تبدو عليه وتلوح، وهو في أثناء ذلك يدبر مصالحه ويستوضح الأحوال، ويختبر الرجال، واشتغل بمهاداته جميع الحُدّام، وتوالى الفرخ والبسط ودام، وتمّت له الإرادة على اختياره، وجرى طليقاً في مجال السعد ومضاربه، وتراخت له المدة، وساعدته الأيام المعدّة، إلى أن جرى عليه القدر المحتوم ووافاه، ولا يسلم منه أحد وإن طال مداه.

(١) سقطت من ق.

(٢) سقطت من ق، ك.

محاولة أبي عثمان سعيد بن زكريّا الجدمي

في استجلاب الموحدين إلى حضرة أمير المؤمنين

لَمَّا اسْتَقَرَّتْ حَالُ أَبِي عُثْمَانَ وَتَصَوَّرَ لَهُ مَرَادُهُ مِنْ اصْطِنَاعِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَاسْتِعْمَالِ مَا يَتَحَبَّبُ بِهِ إِلَيْهِمْ، وَاسْتِمَالِ نَفُوسِهِمْ بِنَدَى يَدِهِ وَسِمَاحَتِهِ وَإِعَانَتِهِ لَهُمْ بِمَعْرِفِهِ وَإِهَابَتِهِ، تَهْيَأًا لَهُ الْوَلُوجُ فِي الْأُمُورِ وَالْمَفَاوِضَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي عَلَيْهَا النَّجَاحُ يَدُورُ، صَنَعَ مَعَ الْمُوَحِّدِينَ وَالْإِعْتِقَادَ بِأَوْيَتِهِمْ إِلَى طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ، وَأَخَذَ فِي التَّحَدُّثِ مَعَ مَنْ يَثْقُ بِهِ وَيَرْكَنُ إِلَى حُسْنِ رَأْيِهِ لِيَكْشِفَ عَنِ الْبُوَاطِنِ فِي حَقِّ الْمُوَحِّدِينَ، وَيَسْتَوْضِحَ فِيهِمْ بِالْخَيْرِ الْيَقِينِ، فَانْجَلَتْ عَنْهُ غُمَاءُ الْإِلْتِبَاسِ، وَلَاحَ لَهُ مِنْ إِضْطِحَاحِ أَصْحَابِهِ مَا أَزْدَادَ بِهِ الْإِيْنَانَ، فَسَلَكَ فِي تَقْرِيرِ أَحْوَالِهِمْ وَتَقْرِيبِ مَرَامِهِمْ مَسْلَكًا أَوْرَدَهُ مُورِدَ الْقَبُولِ، وَأَتَحَفَّهُ بِالْمُرَادِ وَالْمَأْمُولِ، فَحَسُنَتْ فِي شَأْنِهِمْ مَأْخُذُهُ، وَتَلَقَّى الْإِسْعَافَ الْمَطْلُوقَ فِي إِبَاحَةِ الْعَفْوِ عَنْهُمْ وَوُضُوعِهِمْ إِلَى عَوَائِدِهِمْ وَرَدِّ قَوَانِينِهِمْ وَإِجْرَائِهِمْ فِي الْأَحْوَالِ إِلَى مَعْتَادِهِمْ، فَخَاطَبَهُمْ وَقَرَّرَ عَنْدَهُمْ مَا هَاجَتْ بِهِ نَفُوسُهُمْ، وَمَالَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى الدَّخُولِ فِي الطَّاعَةِ وَالْإِتِّصَافِ بِاتِّبَاعِ الْجَمَاعَةِ، وَشَاعَ الْخَبَرُ بِذَلِكَ فِي الْحَوَاضِرِ وَالْبُوَادِي، وَسَارَ بِهَذِهِ الْمَسْرَةِ الرَّائِحُ وَالْغَادِي، وَعِنْدَ ذَلِكَ ارْتَفَعَ الْحَرْجُ عَنْهُمْ، وَاسْتَعْمَلَ الْإِغْضَاءَ عَمَّنْ يَشَاءُ التَّوَدُّدَ^(١) مِنْهُمْ.

وفي هذه السنة: وَصَلَتِ الْهَدِيَّةُ الْعَبَّاسِيَّةُ لَابْنَ هُودَ.

وفيها: رَجَعَتْ قُرْطُبَةُ لَابْنَ هُودَ بَعْدَمَا أُخْرِجُوا مِنْهَا ابْنُ الْأَحْمَرِ.

وفيها: وَقَعَتِ الْمَقَابِلَةُ بَيْنَ ابْنِ الْأَحْمَرِ وَابْنِ هُودَ فَهَزَمَهُ ابْنُ الْأَحْمَرِ^(٢).

وفي سنة اثنتين وثلاثين وست مئة: اسْتَمَرَّتِ الْأَحْوَالُ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْهَدَنَةِ، وَاسْتَقَرَّتْ أُمُورُ ابْنِ وَقَارِيطَ عَلَى غُلُوبِهِ وَسَرَايَا فَسَادِهِ تَسْرِي إِلَى الْخُلْطِ، وَشِيْخُهِمْ وَشَوْكُهُمْ فِي هَذَا الْوَقْتِ أَحَدُ شَوْكَةِ، وَالْإِمْلَاءُ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ يَزِيدُهُمْ طُغْيَانًا وَكُفْرًا بِنِعْمَتِهِ وَجُحُودًا لِآلَائِهِ، وَاسْتِصْلَاحًا لِلْبِلَادِ، وَتَسْلُطًا عَلَى الْعِبَادِ، لِيَقِيمَ عَلَيْهِمْ حِجَّتَهُ فِي

(١) فِي ك: «التردد».

(٢) الْإِسْتِقْصَا ٢/٣٣٦.

أَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً، وَشَيَّخَهُمْ إِذْ ذَاكَ مَسْعُودٌ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ إِغْضَاءَ الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ مِنْ هُنَاتِهِ وَصَبْرِهِ عَلَى غُصَصِ عَتُوِّهِ مِنْ وَهْنٍ وَضَعْفٍ يَظُنُّ أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْهُ وَعَزَمَتْهُ مَتِيقَةٌ تَتَزَيَّدُ لَهُ وَقَوْعًا فِي شَرِّكَ الرَّدَى، وَحُصُولًا فِي يَدِ الْبَطْشِ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى، وَالْخَلِيفَةُ يَتَلَقَّاهُ بِبَشَرِهِ، وَيُعَامِلُهُ بِبِرِّهِ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِمَا فِي طَيِّ ذَلِكَ مِنَ الْمَسَالِكِ، وَلَمْ يَعْلَمْ إِشَارَةَ الْمُتَنَبِّي فِي ذَلِكَ [مِنَ الْبَسِيطِ]:

إِذَا رَأَيْتَ يُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ يَتَسَمُّ
وَلَقَدْ كَانَ لَهُ وَكَيْلٌ يَسْمَى مُوسَى الْكَافِرَ، وَكَانَ مِنَ الْفُجُورِ بِحَيْثُ لَا يُجَارَى، وَكَانَتْ لَهُ اسْتِطَالَةٌ بِلِسَانِهِ عَلَى خُدَّامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَجَالِهِ وَصِيبَانِهِ، لَا يَنْهَاهُ دِينٌ وَلَا فَضْلٌ، وَلَا يَمْنَعُهُ حَيَاءٌ وَلَا عَقْلٌ، وَحَصَلَتْ فِي نَفُوسِ جَمِيعِهِمْ أُمُورٌ مُزْعِجَةٌ لَا تُطْفِئُ لَوَاعِجُهَا وَلَا تَحْمُدُ جَرَائِئُهَا، وَكَانَ رَجُلٌ آخَرُ كَاتِبَ مَسْعُودًا الْخُلَاطِي ذُو جَهْلٍ وَعَتُوٍّ، وَزِيَادَةٍ فِي الْفَسَادِ وَنَمُوٍّ.

وَلَمَّا سَرَتْ سُمُومُ ابْنِ وَقَارِيطَ إِلَى الْعَدُوِّ الْخُلَاطِيِّ بِأَنْوَاعِ فُسَادِهِ، وَتَحَكَّمَ فِيهِ دَاءُ عِنَادِهِ، أَظْهَرَ الْعَرَبِيُّ تَجَبُّنًا وَتَثَاقُلًا عَنِ الْوِفَادَةِ عَلَى عَادَتِهِ تَحَرُّفٌ عَنِ الطَّاعَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَحَقٌّ لِمَنِ اغْتَرَّ مِثْلُ غُرُورِهِ أَنْ يَخْتَلَّ عَقْلُهُ، فَإِنَّ الْأَرْضَ كَادَتْ أَنْ تَهْتَرَّ لَوَطْأَتِهِ، وَالْجِبَالَ تَمِيدُ لَسَطَوَتِهِ، فَإِنَّ إِخْوَانَهُ الْخُلَاطَ كَانُوا أَزِيدَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْفُرْسَانِ وَمَعَهُمْ مِنَ الْأَتْبَاعِ الْمُنْقَادِينَ وَالْحَشُودِ مِثْلَهُمْ، وَأَمَّا رَجُلُهُمْ فَالْجَرَادُ الْمُنْتَشِرُ لَا يَحْصِي عَدْدَهُمْ إِلَّا خَالِقُهُمُ الَّذِي أَبَادَهُمْ بِقُدْرَتِهِ، وَمَا مِنْهُمْ فَارِسٌ إِلَّا لَهُ جَمَلَةٌ مِنَ الْحَيْلِ وَأَعْدَادٌ مِنْ كَامِلِ السَّلَاحِ عَلَى أَنْوَاعِهِ، وَأَمَّا الثِّيَابُ وَالْمَالُ الْعَيْنُ وَالْأَنْيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْإِبِلِ وَالْمَوَاشِي شَيْءٌ يَقِفُ دُونَ حَضْرِهِ الْأَوْهَامِ، وَتَكِلُّ عَنْهُ الْخَوَاطِرُ وَالْأَفْهَامُ، وَلَقَدْ نَظَرَ صُعْلُوكٌ مِنْهُمْ مِنْ فُتَاكِهْمُ الْمَشَاهِيرِ وَقَدْ خَامَرَتْهُ أَرْحَمِيَّةٌ إِلَى الْبَحْرِ، فَامْتَطَى جَوَادَهُ، وَأَخَذَ سِلَاحَهُ، وَقَصَدَ الْبَحْرَ، فَدَفَعَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: إِنْ كَانَتْ لَكَ يَا بَحْرُ طَاقَةٌ فَبَارِزْنِي، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا الْإِغْتِرَارِ، وَأَمَّا الْفَتَكُ بِالْأَحْرَارِ الْأَبْكَارِ^(١) وَاسْتَرْقَأَ الْعَبِيدَ الْأَحْرَارَ فَأَمَرَ شَائِعٌ وَحُكْمٌ وَاقِعٌ، مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ عَنْهُمْ وَلَا وَازِعٍ.

(١) سَقَطَتْ مِنْ ق، ك.

وعند تناهيهم وانتهائهم إلى هذه الغايات من الاستكبار في الأرض والبغي فيها
بغير الحق دنا دمارهم وحن إدمارهم وأمسى سلكهم نثيراً ورسمهم محيلاً، ﴿سُنَّةُ
اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّةُ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وفي أثناء ذلك كله اشتغل الرشيد باستجلاب الموحدين وبسط آمالهم واستمالة
قاصيهم ودانيهم، واستدعائهم للفوز برأيه الجميل فيهم، فوردت مخاطبتهم بشكر نعمة
الله عليهم بالانصواء إليه والدخول في طاعته، ولأبي عثمان سعيد بن زكريا الجدميوي
في هذا أثر محمود وسعي مشكور، وما زال في أوقاته دائماً على كل ما فيه استصلاحهم
إلى أن توقدت عزائمهم على أن يقدوا على حضرة الخلافة ودار الإمامة مراكش، وأخذوا
لذلك أهبتهم، واستدعوا من كل جبل شاهق إخوتهم، وانتدب للوصول معهم موسى
ابن أمير المؤمنين الناصر أخو يحيى وكبيره سنًا، فإنه كان في هذا الجانب عازماً على الطاعة
والاتصال بالجماعة.

وانتهى الموحدون المذكورون إلى شجاعتهم فيما أمرهم، وشاع خبرهم واتصل
ذلك بمسعود ابن حميدان شيخ الخلط فشمخ بأنفه، وأنف من انتظام الموحدين في تلك
الطاعة وكان ذلك سبب حثفه، واختلجت في صدره أمور توقعها، فرأى حسم العلة بقطع
ما بين أمير المؤمنين وبينهم، وتمكن أسباب القطيعة بقتلهم، فعين لذلك جمعا من عربيه
الخلط وبعثهم للقبض على جميعهم والفتك بهم، فسبق إليهم سابق الاعتناء الرباني وسابق
الخبر الذي أنقذهم من هوات المنيّة، فرجعوا من هنالك إلى جبلهم سالمين، واستقرؤا به
بعد الرُوع والدُّعر آمينين.

ولما اتصل هذا النبأ الفطيع بأمر المؤمنين الرشيد توقدت عزماته وهاجت وثباته،
وعلم أن أموره تتعذر بمخالفة الخلطي له في إرادته، فأسهر في الحيلة أجفانه، وهجر
مضاجعه وأوطانه، وساهم وزراؤه وأهل مشورته في تلافي الأمور قبل التفاقم وحسم
العِلل قبل تمكينها، فأبرزت الحيلة وجه المكيدة بعد التفاوض أياماً، وانتبّهت لهم أعين
المصلحة بعد أن كانت نياماً، واجتمع الرأي الذي أحكمه الترجيح، وأسفر لهم عن
وجه أمر نجيح، إعمال حركة السيد أبي محمد الوزير الكبير بالجند كله، واستدعاء الخلطي
والبطش به، فإنه كان تحوُّف من القبض عليه تحوُّل الجيش بالحضرة، فلما استحكّم التدبير

لذلك شَرَعَ فيه بعد استخارة الله سبحانه، ولَمَّا كُمِّلَ هذا التدبير في الحركة المذكورة بالجيش شَرَعَ فيها السيّد أبو محمد الوزير المذكور على غاية التأهب والاستعداد، وتحرك السيّد بمن معه من الأجناد، إلى حاحة برسم جبايتها وحياطتها، ولم يبق من الجند أحد، وتحرك معه والد المُشرف أبي البركات خاصّة الرّشيد إظهاراً للاعتناء بهذه الحركة.

ذكر استدعاء مسعود بن حميدان الخُلطيّ

إلى حضرة مراكش واستدناؤه لحينه وحته

ولَمَّا توجّه الوزير المذكور بالجيش إلى حاحة، شَرَعَ أمير المؤمنين الرّشيد في التوجيه عن مسعود الخُلطيّ، فأجاب بعد لأيّ إلى الوصول، وهو يظنّ أنّ قد خلا له الجوّ ولم يبق له ما يرّوّه، وأنّ سعده موصول، فعزم على الوفاة بعد أن قال له أحد خاصّته: أجِبْ هذا المسكين الذي استدعاك، فإنه أراد الاستظهار بعلاك، ولم يعلم أنّه صائرٌ إلى رداه، وأنّ حتفه حان وقرب مداه، ولَمَّا وصل إلى الحضرة وبحره يزخر، وأسودّ خلطه تزار، تُلقّي بالبرّ والقرى الواسع، ودان له كلّ أرب شاسع، وصار يتردّد إلى باب الخليفة في جموعه، وتظهر حركات في النفوس لأولّ طلوعه، وكان بالحضرة معاوية عمّ عمر بن وقاريط يظهر الإنابة والتبرؤ من ابن أخيه وفعله، والقدح عليه في جميع أمره، فلَمَّا وصل الخُلطيّ صار يعلن بمودّته وموالاته فزاد اغترار معاوية بما تسنّى له منه.

وهذه الأخبار تردّ على الخليفة الرّشيد ويأتيه بها من خواصّ رجاله من يوضّحها على وجهها، فأعدّها لها عدتها وأخذ لها بالاحتياط والعزم، وقد كان معاوية أعدّ طعاماً كثيراً في دار ابن تلاتيماس بالصّالحة من الحضرة ليصل مسعود الخُلطيّ إليه برسم المحالفة والمصافحة، وعين لذلك يوماً أصبح في بُكرته الطعام مُعدّاً حاضراً، وكان لقدم الخُلطيّ عليه مُرتقباً ناظراً، وأحضر من وجوه إخوانه من يثقُ به، فلَمَّا كان في صُبح اليوم المذكور أشخص أمير المؤمنين الرّشيد صاحب شُرطته في ذلك الوقت، وهو الشيخ أبو محمد بن ماكسين، وأمره بالنّهوض بأعوانه إلى دار معاوية والقَبْض عليه وتوصيله إلى دار الأشراف حتى ينفذ فيه حكمه، وقد كان العربيُّ بدار الخلافة يقضي أشغاله بها ويتوجّه

مع إخوانه لدار المسكوري معاوية، فتوجه أبو محمد بن مأكسن لما أمر به، وكان في نفسه خور، فوصل إلى الدار التي بها معاوية واضطرب، وما اتصل به إلا بعد حين، وقد كاد أن يفلت، وفي أثناء ذلك استبطئ فوجه^(١) عن الشيخ أبي موسى بن عطوش ليتدارك هذا الهم وينفذ ما أمر به قبل انفصال الخلطي من دار الخلافة توقيًا من أن يلقاه فينزع ويعضده، فتوجه الشيخ أبو موسى مع جماعة من كومية إخوانه وغيرهم، ولقي أبا محمد بن مأكسن ومعه معاوية على رمكة له من عتاق الخيل شهيرة السبق، فحين عاينه الشيخ أبو موسى أشار على من معه بإنزاله والمبالغة في تعنيفه، وعملت عيائمه في عنقه، وأوصله إلى دار الأشراف. ونما الخبر في الحال إلى الرشيد، فنقد أمره بضرب عنقه، وذلك وقت الضحى، فرويت الأرض من دمه، واستراحت النفوس من ألمه. وسمع مسعود الخبر فلم يرعه، وقال: أفسد الشيخ أبو موسى غداء الخلط وطعامهم، وألزمه القيام بهم في ذلك الوقت، فقام خير قيام بما أرضاهم وأرضاه فيهم، ومضى معاوية كأمس الغابر، والطلل الدائر^(٢).

مهلك مسعود بن حميدان وكيفيته قتله مع قومه في ذلك الميدان^(٣)

لما استحكمت الرشيد التدبير المتقدم ذكره، ووصل مسعود المذكور، فإوَّض أهل مشورته في كيفية القبض عليه، وتم له القصد في ذلك بما أشار إليه، وعين الرشيد يومًا لذلك وأعدَّ بالقصة برياض الحزب يحيى بن عبد الرحيم رضيع والده ومعه من الفتيان أعدادًا أهلوا لقتال مسعود بن حميدان ونجالده، وجعل معهم أيضًا من العبيد الجنَّان أعدادًا كثرًا في مواضع خفية عن الأبصار، وعين صاحب الشرطة أبو محمد ابن مأكسن للجلوس بأعوانه وحرسه بمربعة أهل الدار لإصلاح البائين اللذين عليهما، أحدهما: باب الرحبة الكبرى والثاني: رحبة القباب، واستعد لهذا كله بما اقتضته الحال، وعرف الذين برياض الحزب بأن يهاشي بعضهم العربي إذا دخل مُستدعى وحده على

(١) في ق، ك، ب: «موجه»، ولا معنى لها.

(٢) ينظر الاستقصا ٢/٢٤٣.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٣، والاستقصا ٢/٢٤٣.

العادة للمُثول بين يدي الخليفة الرشيد إلى موضع محدودٍ يكتَفُونَه فيه عن يمينٍ وشمالٍ ويَخْرُجُ الباقيون من جَنَانَيْنِ وغيرهم من مواضع مَكَامِهِمْ لاسْتِصَالِهِ والبَطْش به، فلَمَّا وَقَرَّ في النفوس ذلك أَشْعَرَ النَّاسُ بِقَعُودِ أمير المؤمنين، وَخَرَجَ الإِذْنُ لمَسْعُودِ بن حميدان بالدَّخُولِ إلى السُّلْطَانِ، فقام من موضع جلوسه ومعه جماعةٌ من إخوانه أبطالٍ رجالٍ يَسْحَبُونَ الزَّهْو، ويستعملونَ في مسيرهم معه الهُزَاءَ واللَّهْو، ولَمَّا أَفْضَوْا إلى باب الرِّيَاض المذكور حيث التَّرتيبُ المشارُ إليه، نَفَذَ له الأمرُ بأن لا يَدْخُلَ معه سواه، فتردَّدَ في ذلك متلوِّماً وقال: إنه لا يَدْخُلُ إلَّا مع أصحابه ولا يَتَجَهَّ له أن يُفَارِقَهُمْ، وتوقَّفَ هنالك عن الإجابة إلَّا إن كان مع عُصْبَتِهِ، فقليل له: إِنَّكَ تَعْلَمُ العادةَ في أن لا يَدْخُلَ أَحَدٌ لأوَّلِ وَهْلَةٍ إلَّا بعدَ استئذان، ولا بدَّ من سلامهم بعدَ حُلُولِهِ بالمجلس واستئذانهم على ذلك بِحُكْمِ العادة الجارية، وبعدَ لأي أنفَذَ أصحابه مع جانبي الباب ودخلَ وحده، وسُدَّ في ظهره، فظَهَرَ له ابنُ عبد الرحيم في نَفَرٍ قليلٍ يمشونَ معه، فلَمَّا كان متوسِّطاً بالمكان المحدود لِإِلْقَاءِ اليَدِ فيه والْفَتْكِ به بَصُرَ بِجُمْلَةٍ من الجَنَانَيْنِ العبيد وغيرهم وأَحَسَّ بالبُشْرَ وبُئْسَايَةِ ابن عبد الرحيم وغيره له على غيرِ عادة، ثم ألقى المَلَأُ المذكورونَ أيديهم فيه وانخرطَ ابنُ عبد الرحيم في سيفه والعَرَبِيُّ في أيدي الناس ويده سَكِينٌ في ذراعِهِ، فراعَهُ ما رأى، ورأى الموتَ قد فَعَرَ نَحْوَهُ فاه، واستقبلَهُ من جهاتِهِ كُلِّهَا رَدَاه، فانتَفَضَ من أيديهم كما يَتَنَفَضُ العُقَابُ، وظَهَرَ منه للذين اكتَفَوْهُ ما اضْطَرَّوا له أَشَدَّ الاضطراب، فأفَلَّتْ من أيديهم، وَضَرَبَهُ ابنُ عبد الرحيم بالسَّيْفِ فلم يُصِبْهُ إلَّا بِذُبَابِهَا، ثم خَرَّ على وجهه صَريعاً دَهْشاً قَدِ اسْتَوَلَى عليه الجُرْعُ، وخامَرَهُ إفراطُ الفَزَعِ، وظَهَرَ من عَدَمِ الانتفاع به في ذلك المحلِّ الشَّنيعِ وقلةِ الاصطناع ما لم يكن فيه مقدِّراً بحال، ثم جَذَبَ العَرَبِيُّ سَكِينَتَهُ وقصَدَ البابَ الذي دَخَلَ منه، ولو أراد قَتْلَ ابن عبد الرحيم لَمَا مَنَعَهُ منه مانع، ولكنَّ حَمَاهُ الأَجَلَ في بقاءه، واشتغل العَرَبِيُّ بالنَّجاةِ بِنَفْسِهِ والإفلات من الشَّرْكِ الذي كان يَتَخَبَّطُ في مَهاوِيهِ.

ولَمَّا استقبلَ البابَ أعلنَ بصوته لِيَسْمَعَ مَنْ وراءَ الباب، فكلُّ مَنْ كان داخلَ البابِ قَرَّ أَمَامَهُ هَيْبَةً وَفَرَقاً، ففَتَحَ البابَ، وَخَرَجَ إلى جماعَتِهِ في زِيِّ المحاربِ الذابِّ عن

نفسه، فأشهرُوا حديدَهُم وصاروا برجلٍ واحدٍ وقد وَسَطُوا بينهم شيخَهُم وقصدوا بابَ الرَّحبةِ الكبرى ليُخْرِجُوا مِنْ هُنَالِكَ، فَاتَّبَعَهُمْ فِي مَدَى هَذِهِ الرَّحبةِ كُلُّ مَنْ كَانَ مُحْتَفِيًا بِالرِّيَاضِ وَهُمْ يَشْتَدُونَ فِي أَعْقَابِهِمْ، فَعَايَنَهُمْ كُلُّ مَنْ كَانَ فِي الرَّحبةِ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالْكِتَابِ وَالْخَدَمَةِ وَالْبُوعَدِيِّينَ، فَتَحَقَّقُوا أَنَّ الْعَرَبَ هُمُ الْمَطْلُوبُونَ، فَانْجَحَرَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي بَيُوتِ هُنَالِكَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا بَعْضُ الْبُوعَدِيِّينَ، وَالَّذِينَ فِي أَعْقَابِ الْعَرَبِ مِنَ فِتْيَانٍ وَغَيْرِهِمْ، يَنَادُونَهُمْ بِأَخْذِهِمْ مِنْ أَمَامِهِمْ^(١)، فَكَانَ مِنَ الْبُوعَدِيِّينَ^(٢) فِي ذَلِكَ عَنَاءٌ وَانْتِهَاضٌ، إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَشَدُّ قِتَالًا وَبَاسًا وَهُمْ يَشْتَدُونَ نَحْوَ الْبَابِ الْكَبِيرِ الَّذِي يُفْضِي بِالْخَارِجِ إِلَى مَرْبَعَةِ أَهْلِ الدَّارِ، فَأَلْفَوْهُ مَسْدُودًا فِي وَجُوهِهِمْ، فَأَعْطَوْا بَعْضُهُمْ لِقِتَالِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ لِكَسْرِ الْأَعْمَدَةِ وَفَتْحِ الْبَابِ، وَاسْتَصْعَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مَدَّةً لَوْثَاقَةِ الْبَابِ وَأَعْمَدَتِهِ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ تَسَوَّرَ الْبُوعَدِيُّونَ مِنْ جِهَةِ طَرِيقِ بَابِ الْقَرَابَةِ عَلَى الْجُدُرَاتِ وَاسْتَعَلُّوا عَلَى الْعَرَبِ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَالْأَمْرُ يَشْتَدُّ، وَالنَّفُوسُ مِنْ إِفْلَاتِهِمْ تُضَرِّمُ نَارًا، ثُمَّ تَبَسَّرَ لِلْعَرَبِ فَتَحُ ذَلِكَ الْبَابِ عَلَى فِخَامَتِهِ، وَقَدْ نِيلَ مِنْهُمْ النَّيْلُ الشَّدِيدُ وَدُونَهُ جُمْلَةُ أَبْوَابٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَا لِغَيْرِهِمْ، فَأَفْضَوْا إِلَى مَرْبَعَةِ أَهْلِ الدَّارِ وَبِهَا أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ مَآكِسِينَ بِأَعْوَانِهِ عَلَى مَقْتَضَى التَّرْتِيبِ الْأَوَّلِ، فَفَرَّ هُوَ وَأَعْوَانُهُ إِلَى جِهَةِ وَلَيْسَ لَهُمْ وَرْدٌ وَلَا صَدْرٌ، وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ، قَدْ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ لِإِفْرَاطِ الْخَوَرِ، وَانْجَحَرَ ابْنُ مَآكِسِينَ فِي تِلْكَ السَّقَائِفِ وَاسْتَتَرَ، وَهُوَ يَشَاهِدُ الْحَمَلَاتِ وَيُعَايِنُ الْمَنَايَا كَيْفَ تَحْتَرِمُ النَّفُوسَ وَتَحْتَطِفُ الْأَرْوَاحَ، فَلَمَّا أَفْضَتِ الْعَرَبُ إِلَى الْبَابِ الثَّانِي، وَهُوَ الَّذِي يُفْضِي بِالْخَارِجِ مِنْهُ إِلَى رَحْبَةِ الْقَبَابِ، أَلْفَوْهُ أَيْضًا مَسْدُودًا فِي وَجُوهِهِمْ، وَخَالَطَهُمْ فِي تِلْكَ الْمَرْبَعَةِ مَنْ كَانَ يُقَاتِلُهُمْ مِنْ بَابِ الرِّيَاضِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ وَالْبُوعَدِيُّونَ وَغَيْرُهُمْ قَدْ تَسَوَّرُوا الْجُدُرَانَ وَهُمْ يُقَاتِلُونَهُمْ مِنَ السَّقْفِ بِالْحِجَارَةِ، فَلَمَّا عَايَنَ الْعَرَبُ مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ وَأَيَقَنُوا بِالْهَلَاكِ وَأَنَّهُ لَا نَجَاةَ وَلَا فِرَارَ تَوَسَّطُوا شَيْخَهُمْ وَصَارُوا يَمُوتُونَ دُونَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَكَانَ هُوَ آخِرَهُمْ قِتَالًا.

(١) قوله: «من أمامهم» سقط من ق.

(٢) في ق، ك: «العدويين».

وعند ذلك آتت العقول وقد شردت، وعادت النفوس وقد كادت أن تزهق أو زهقت، والمُنَادِي ينادي بقطع رأس العربيِّ المذكور فُتُطِعَ مِنْ قَوْرِهِ وحُمِلَ إلى أمير المؤمنين وهو بباب الحِزْب فشَكَرَ الله تعالى على ما تَمَّ له من صُنْعِهِ الجميل، بالشُّكر العريض الطويل.

وفي أثناء انفلاتِ العربيِّ من الرِّياض حيثُ كان ابتداءً أَخَذَهُ فَخِيفٌ من خروجه وإفلاته، ولو أخره الأجلُ وأمهله وأهمله الخروجَ على باب القَرَّاقِين لتوصَّلَ إلى مرغوبه، ولكنَّ قضاءَ الله تعالى لا يُرَدُّ بأُسْه عن القومِ المُجرمين. فبعثَ أميرُ المؤمنينَ إلى كنيسةِ النَّصارى ليستصرِّخَ مَنْ فيها على قِلَّتِهِمْ^(١) من مُجَارِهِم وضُعْفائِهِم وأولي الأعدارِ منهم، وكان المتوجَّهَ إليهم عُنْبَرُ الذي أَفْضَتْ إليه الحِجَابَةُ بعدَ سنين.

قال الفقيهُ الكاتبُ أبو عبد الله التِّلْمَسَانِي رحمه الله: ولقد كنتُ في أحد المساجد بالقشَّاشِينَ للقراءة هنالك، فدخَلَ ناسٌ أَخْبَرُوا بالقضيةِ على غير وجهها، فخرجَ جميعُ مَنْ كان به، فليقيتُ بسوقَ البرْدَعِيِّينَ الفتى المذكورَ وهو على فرس حالي الرِّكَّاب أَشْهَبَ اللَّونِ مِنْ خَيْلِ الخليفة، وليس على الفتى رداءٌ ولا في قدميه إلا جِلْدُهَا، وكان المطرُ في ذلك اليوم، وفيما قبله من الأيام، متواليًا شديدًا لا يفتُرُ، والأزِقَّةُ والسَّكْكُ قد غُصَّتْ بالناس، وهو قد أطلقَ عِنانَ فرسه ووراءه نحوُ ثلاثينَ من فُرسانِ النَّصارى ومُجَارِهِم وهو يستحِثُّهم والطَّيْنُ قد علاه حتَّى لا يَتَيَّنُ لونُ فرسه ولا لونُ ثيابه وقد تشوَّهَ بما تلوَّثَ به لا يُلَوِّي على أحد، ثم قصَدَ بابَ القَرَّاقِينِ بَمَنْ مَعَهُ فَأَلْفَوْا العربيَّ وأصحابه في مَصَارِعِهِمْ وأَبْرَزَهُمُ القَتْلُ إلى مضاجِعِهِمْ، فعندَ ذلك أعطى الرَّشيدُ لجميعِ الناسِ بركةً شاملةً واسعةً، وأمرَ بِإِلْقَاءِ اليدِ فيمَنْ كان بالبلدِ من الخُلَطِّ وفي خَيْلِ الطائفةِ الهالكةِ ومَتَاعِهَا وأَثَائِهَا، وطِيفَ بِجُثَّتِهَا في المدينة، فاستبشَّرَ الناسُ ووقعَ الإيناسُ.

وقد كانت الأراجيفُ قد تنوَّعت في فنون من التشيع والتبشيع، فارتفعَ بذلك في الوقتِ السَّهْرَجُ، وأقبلَ الفتحُ وجاءَ الفرجُ، وحسِبَ الرَّشيدُ ذلك فتَحًّا عَظِيمًا لا تُحِيطُ به الأفكارُ، ولا يأتي بمثله اللَّيْلُ والنَّهارُ، وغنمُ تفتخرُ به أيامُ دولتهِ على الأعصارِ،

(١) في ق، ك: «قتلهم»، ولا معنى لها.

وتسمو به حضرته تيهًا على جميع الأمصار، وحُقَّ لذلك أن يكون، فإنَّ الأمور قد كانت أخذت في الاختلال، وتعطلت المجابي وساءت الأحوال، فافتحم بهذه العزمة ما كان في آخرها جميل العاقبة وإن كان قد ارتكب خطرًا كبيرًا من الأخطار، ولكنه اقتدى بقول البغدادي [من الوافر]:

سأعطي النفس ما طلبت فإمّا تهون فتحمل البلوى وإمّا
ولله تعالى القدرة وبه النصرة.

توجيه الرشيد عن وزيره وجيشه من حاجة

ولما فرغ من هذه الغزوة في أعدائه، واحتوائه على أمليه في ذلك واستيلائه، أنفذ فرسانًا ثقات كفاة أنجادًا بمكتوب منه بخطه لم يطلع عليه أحدٌ إلا وزيره السيد أبو محمد، وأغلق أبواب البلد ليخفي خبر الهالكين ويتأخر علمه عن جموعهم وقبائلهم توقيًا من اتصال ذلك بهم، فيأتون على الوزير المذكور وجيشه، وحدًا للفرسان حدًا يصلون فيه بكتابه، وحذرهم من تجاوزه، وجشمهم الجهد في احتماله، فلم يسعهم إلا هلاك نفوسهم دون ما حذرهم منه، فاتوا من ذلك بالعجب، ووردوا على السيد أبي محمد بالأمر، فعند وقوفه عليه أخذ في الرحيل يستقبل الحضرة، وقد كانت عنده مقدمات ذلك لاطلاعه على خفيات الأمور ومضمر التدبير ومواقيت المحاولات وتردد المخاطبات عليه مع الساعات ظاهرها في الأشغال وباطنها وجه آخر، فما كان إلا انقضاء أربعة أيام من مهلك مسعود، وكان وصول السيد والجيش، فعظم الاستبشار بذلك، وانتظم ما كان يخاف انتشاره، وأنست النفوس بالعافية، فاستمرت الحال في ذلك على الكمال ببلوغ الأماني والآمال.

وعند تمام هذه الأغراض الخطيرة وكمال المحاولات الكبيرة، شرع الرشيد أمير المؤمنين في توجيهه عن الموحدنين، فتيسر له من ذلك ما كان قد استصعب عليه بمخالفة العربي وانحرافه عن جميل رأيه في هذا المرام الذي قصد به الائتلاف، ورفع الشتات والاختلاف، ونفذت كُتبه لهم ولسائر البلاد بهذا الفتح الجسيم والصنع الكريم، فأخذ الموحدون في الوفادة عليه وهم يحسبون أن ذلك كله بسببهم ومن شدة بره بهم.

ذكر وصول جملة من الموحدين إلى حضرة الرشيد

وإعادة ما أزاله أبوه المأمون من ذكر المهدي

ولما أخذ الموحدون في الوصول وبنوا عليه وعلى المثول بين يدي الرشيد قدموا شخصين منهم، وهما: أبو بكر بن يعزى التينملي ومحمد بن يريجن^(١) الهتاتي رسول أبي علي بن عزوز، وابن يعزى رسول يوسف بن علي بن يوسف ومن معه من أهل تينمل، فتلقيا ببراً واعتناء، وأعيدا إلى موجههما باستدعائهم، فكان ذلك، وخرج الناس إلى لقائهم وعانوا ما طال به عهدهم، وتمكن في نفوس الناس من الفرح بهم ما لا تكيل عن شرحه الأقلام والأفهام، وعان الموحدون المذكورون من أميرهم الرشيد براً واسعاً وخيراً متتابعاً، وأنزلوا خير إنزال، وتلقوا بما شاءوا وأملوا من احتفال واهتبال.

وكانت لهم شروط قبل دخولهم وهي إعادة ذكر اسم الإمام المهدي في الخطبة واسمه في المخاطبات ونقشه في السكة من الذهب والفضة، وإعادة الدعاء بعد الصلاة والنداء عليها بتاصيلت الإسلام، وهي إقامة الصلوات وما أشبه هذا مثل: سودوت وناردي^(٢)، وأصبح والله الحمد، فهذا كله كان العمل عليه في جميع دولة الموحدين إلى أن جاء المأمون من الأندلس، فكان ما كان من تغيير تلك المعالم الفاسدة والرُسوم، فاستمر ابنه الرشيد على رسم أبيه، وجرى على قانونه، فلما كان من الموحدين انتداب إلى الطاعة اشترطوا إعادة ما وقع النص عليه فأسعفوا فيه، وسمعت موجبات وصولهم وانتظامهم.

ولما احتلوا منازلهم وبقوا بها أياماً ولم يعد شيئاً من تلك العوائد، ساءت ظنوتهم، وكانوا في أمر مريب من توقع القطع بهم فيما هو عُمدهم التي عليها يعتمدون وبهديها يهتدون، ولما خبر تأثرهم وتحديثهم بذلك إلى الرشيد أميرهم، فسكن نفوسهم وجدد تأنيسهم بإعادة تلك العادة وإجرائها على القوانين المعلومة المستقيمة، فيالله! ماذا بلغ من سرورهم وما كانوا فيه من الارتياح عند سماعهم وانطلاق ألسنتهم بالدعاء إلى الله تعالى

(١) في تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٣: «يوزيكن».

(٢) في ق: ك: «باردي».

في نَصْر خليفَتهم وتأييده، وإِعلاء أمره وتجديده، وشَمَلت الأفرأح الكبير منهم والصغير، وعمَّ الجدُّ الحاضر والبادي، وعند ذلك تمهّدت قواعدُ الموحدّين، وتبيّنا القصدَ الجميلَ فيهم وأشاعوه عند قاصيهم ودانيهم، وبولغَ في إدنائهم وتكريمهم، وأحلَّ أشيائهم محلَّ أشيائِ الموحدّين على قَدَم الزّمان، واستبشّروا بنعمة من الله ورضوان.

واستقرَّ الموحدّون بحضرة الخلافة في أحسن مستقرٍّ، ووفدَ على أثرهم أبو محمد ابنُ أبي زكريّا، فلقِيَ برًّا جزيلاً، واعتناءً حفيلاً، وصُرِفَت على جميعِ الموحدّين ديارُهم وعقارُهم وأملاكُهم وسهائِهم، فعادوا إلى أحسنِ عادة، واستشعروا النموَّ في أحوالهم والزيادة.

ولما ساعَ للرّشيد مقصدهُ في هلاكِ عدوّه ووصولِ جيشه معَ وزيره أبي محمد من حاجة، وانقادَ له أكثرُ الموحدّين ودخلوا في إيالته، وأعلّنا في بلادهم بطاعته، أخذَ في استصلاحِ الأمور، وسدَّ الثُّغور، وحَسَمَ الأدواءَ قبلَ إعيائها وانخراقِ الفتقِ عليه منها، وشرعَ في ذلك بوجهٍ توفّرت عليها دواعي رجاله وطائفته^(١).

ذَكَرُ فِتْنَةِ الخُلُطِّ وَعِنَادِهِمْ وَحِصَارِهِمْ مَرَّاكُشَ وَفِرَارِ الرّشِيدِ

منها أُمَامَتُهُمْ ودخولُهُم إليها معَ يحيى بنِ الناصر

لَمَّا نُمِيَ إلى الخُلُطِّ خبرُ شيخِهِم وإخوانِهِم، جالوا في أنواعِ الفساد، وأظهروا الشَّقَاقَ والعِنَادَ، وخاطبوا شيخَ الضَّلَالِ، ورأسَ الفجورِ والضَّلَالِ ابنَ وقارِيطَ المتفَنِّ في الفتن، الناشئَ في المكائِدِ على قديمِ الزّمن، واستكثّروا بمُدَارَاتِهِ وآرائِهِ، ولم يَجِدُوا مُعِينًا إِلَّا الاستمدادَ به، فَأَجَابَهُمْ إلى مطلوبِهِم، وأقبلَ على مساعدَتِهِم وإسعافِهِم، وقد كانَ في هذه المُدَّةِ السالفة مُتَنَزِّيًا مُوَالِيًا ليحيى مُشْتَغَلًا بتجديدِ طَلَلِ دَارِسَ، أَخْتَى عَلَيْهِ الذي أَخْتَى على بُد، يَحْضُمُهُم على الإِعلانِ بدعوة يحيى والاستنادِ إلى بيعَتِهِ والذَّبِّ عنه والانصواءِ إليه، وَوَجَدَ ابنُ وقارِيطَ بذلك ما كانتِ الأيَّامُ تُقَصِّرُ عنه عنده من مرادِهِ، فانتعَشَ وقد كانَ أَشْفَقَ لا نَقْطاعَ الأملِ من تجديدِ مُحَالِ يَروُمِهِ ورَسْمِ يَقيمِهِ، فانتدبَ الخُلُطَّ لمساعدَتِهِ وأتباعَ رأيِهِ والاقتداءَ به، وَوَجَّهُوا أرسالَهُم وَكُتُبَهُم بذلك ليحيى بنِ الناصر،

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣.

وَقَدَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَعْقَدَ أُمُورِهِمْ وَإِحْكَامَ رُبُوبَتِهِمْ بِحَيِّ بْنِ هَلَالٍ بْنِ حَمِيدَانَ، وَأَضَرَّموا لِلْفِتْنَةِ^(١) نَارًا وَأَظْهَرُوا الْخِلَافَ وَالْعِنَادَ، وَاشْتَغَلُّوا بِتَخْرِيبِ الْقِبَائِلِ وَفَسَادِ الْبِلَادِ، وَحَشَدُوا حَشُودَهُمْ وَاجْتَمَعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَقَجٍّ، وَاسْتَقْبَلُوا الْحَضْرَةَ مُعَلِّينَ بِطَلَبِ ثَأْرِهِمْ، فَأَحْدَقُوا بِجَنَابَتِهَا، وَخَيَّمُوا بِأَحْوَازِهَا وَجِهَاتِهَا، وَشَرَّعُوا فِي تَدْمِيرِ الْبَحَائِرِ وَقَطْعِ مِيَاهِهَا وَشَجَرَاتِهَا، وَقَدْ خَلَّتْ أَمَامَهُمُ الْمَجَاشِرُ وَالْقُرَى إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ مِنَ الرَّعِيَةِ، فَإِنَّهُ اسْتَقَرَّ بِمَكَانِهِ، وَعَظَّمَهُمْ انْتِقَامُهُمْ وَعَيْثُهُمْ فِي الْحَوْزِ، فَضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ عَلَى النَّاسِ لَانْقِطَاعِ الْمُرَافِقِ وَالْمَوَادِّ، وَارْتَفَعَتِ الْأَسْعَارُ وَعُدِمَتِ الْأَقْوَاتُ، وَقَلَّ كُلُّ مَرْفَقٍ وَأَعْوَزَ وَجَدَانٌ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ مِنَ الْحَطَبِ وَالتَّبْنِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْخَضِرِ وَمَا يُجْلَبُّ مِنَ الْبُودَادِيِّ، وَاقْشَعَرَّتِ الْجُلُودُ مِنْ هَوْلِ الْمَكَابِدَةِ فِي طَلَبِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحِنِطَةِ، وَبَلَغَتْ مَبْلَغًا لَا عَهْدَ بِمِثْلِهِ حَتَّى انْتَهَى الرَّبْعُ الْوَاحِدُ مِنَ الدَّقِيقِ اللَّطِيفِ الْفَاسِدِ إِلَى ثَلَاثَةِ دَنَانِيرٍ، وَالنَّاسُ فِي أَزْدِحَامٍ عَلَى مَنْ يَشْعُرُونَ عِنْدَهُ زِنَةَ الْحَرْدَلَةِ مِنْهُ أَوْ مِنْ سِوَاهِ، وَمَا أَهْمَهُمْ إِلَّا إِقَامَةُ الْأَوْدِ بِمَا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْحِنِطَةِ، وَتَمَامُ الشَّرْحِ لِهَذِهِ الْمَجَاعَةِ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ خُرُوجِ الرَّشِيدِ^(٢).

ذِكْرُ فِرَارِ الرَّشِيدِ مِنْ حَضْرَتِهِ أَمَامِ الْخُلُطِّ

وَلَمَّا انْتَهَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ الْمَشْرُوحِ بَعْضُهَا، وَضَاقَ عَلَى الْخَلِيفَةِ مَجَالُ النَّظَرِ وَتَقَلَّصَتْ أَحْوَالُهُ وَأَحْوَالُ أَجْنَادِهِ وَحَاشِيَتِهِ، أَخَذَ فِي الْحَرَكَةِ لِيَضْرِبَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَالْأَجْنَادُ تَفَنَّى فِي هَذِهِ الشَّدَةِ وَتَنَثَّلَ عَلَى أَعْدَائِهِ الْخُلُطُّ، فَاتَّخَذُوهَا سَبَبَ الْإِنْتِقَامِ، وَانْتَهَزُوهَا فُرْصَةً فِي الْوُصُولِ بِجُمْوعِهِمُ الْكَثِيفَةِ الْمَتْرَاكِمَةِ تَرَاكُمَ السَّحَابِ، فَأَنْفَ زَعِيمُ النَّصَارِيِّ حَيْثُ نَزِدَ غَنَصَالُهُ مِنَ الْإِنْحِصَارِ لِلْعَرَبِ، فَجَمَعَ جُمُوعَهُ وَرَتَّبَ أُمُورَهُ وَتَأَهَّبَ لِلْقَائِمِ بِخَارِجِ الْحَضْرَةِ، وَاسْتَعَدَّ لَذَلِكَ بِأَقْصَى مَا فِي إِمْكَانِهِ مِنَ الْعُدَّةِ، وَخَرَجَ مَعَهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَقَصَدُوا نَحْوَ وَادِي تَانِسِيفْتِ^(٣) حَيْثُ كَانَ جُمُوعُ الْخُلُطِّ وَخِيَمَتُهُمْ، فَلَمَّا

(١) فِي ق، ك: «وَأَضَرَّموا الْفِتْنَةَ».

(٢) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونٍ ٦/٣٤٣، وَالْإِسْتِقْصَا ٢/٢٤٣.

(٣) الرُّوضُ الْمُعْطَارُ ١٢٧.

أَحَسَّ الْعَرَبُ بِهِمْ تَدَاعَوْا إِلَى قِتَالِهِمْ وَأَقْبَلُوا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ بِفُرْسَانِهِمْ وَرَجَالِهِمْ، وَاجْتَمَعُوا فِي أُمِّ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا بَارِئُ النَّسَمِ سُبْحَانَهُ، فَكَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ يَوْمٌ عَصِيبٌ، وَاحْتَدَمَ الْقِتَالُ طَوِيلًا وَأَمْدَادُ الْخُلُطِ تَتَزَايِدُ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بَعِيدًا نَادَاهُ صَرِيحُهُمْ فَأَتَى مِنْ وَقْتِهِ وَرَأَتْ النَّصَارَى مَوْقِعًا شَنِيعًا، وَوَرَدُوا مِنْ عَدَمِ الرَّأْيِ فِي حَرْبِهِمْ مَوْرِدًا فَظِيْعًا، وَكَانَ فِيهِمْ عَبْدُ الصَّمَدِ بْنِ يَلُولَانَ الْهَسْكَوْرِيُّ الَّذِي كَانَ يُضَاهِي ابْنَ وَقَارِيطَ وَيُكَابِرُهُ، وَكَانَ مِنْ شُجْعَانَ الْفُرْسَانِ، فِي نَفَرٍ يَسِيرُ مِنْ إِخْوَانِهِ.

وَلَمَّا عَايَنَ الْجُنْدُ الْخَارِجُ مِنْ مَرَاكُشَ ذَلِكَ الْأَمْرِ نَظَرُوا طَرِيقًا لِيَلْتَمِسُوا مِنْهُ سَبِيلًا، فَلَمْ يَرَوْا أَوْقَى جُنَّةً مِنْ قَنْطَرَةٍ تَانَسِيفَتْ، فَاقْتَحَمُوا عَلَيْهَا وَمَنْ مَعَهُمْ، وَضَاقَ هُنَاكَ مَجَالُهُمْ، وَتَسَابَقَ بَعْضُ الْخُلُطِ إِلَى طَرَفِهِ الْأَدْنَى لِيَمْنَعُوهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ، فَكَانَ هُنَاكَ خُطْبٌ شَنِيعٌ وَرَحَى الْحَرْبِ تَدَوَّرُ عَلَى زُعَمَاءَ مِنْ فُرْسَانِ النَّصَارَى، فَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِيهِمْ وَعُدِمَ مِنْهُمْ عَدَدٌ، ثُمَّ حَمَلُوا حَمَلَةً صَادِقَةً عَلَى الَّذِينَ أَمْسَكُوا عَلَيْهِمْ طَرَفَ الْقَنْطَرَةِ وَاللَّيْلُ قَدْ انْسَدَلَ ظِلَاظُهُ، فَخَرَجُوا مِنَ الْقَنْطَرَةِ وَسَمُّ الْخِيَاطِ أَفْسَحُ مِنْهَا مَجَالًا، وَسَتَرَهُمُ اللَّيْلُ بِجَلْبَابِهِ وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ لَيْلًا مِنْهَزِمِينَ خَامِدِينَ.

وَبَاتَ النَّاسُ فِي اضْطِرَابٍ لَمَّا عَايَنُوا مِنْ سُوءِ الْحَالِ وَانْقِلَابِ الْأَجْنَادِ، وَقَدْ قُتِلَ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنْ زُعَمَائِهِمْ، وَعُدِمَ أَكْثَرُهُمْ فِي هَذِهِ الْكَائِنَةِ بِسِلَاحِهِمْ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَمْوُجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَارْتَفَعَتِ الْهَيْبَةُ مِنَ السُّلْطَانِ وَجُنْدِهِ، وَعُدِمَتِ الْأَقْوَاتُ الْبَتَّةَ، وَكَادَ النَّاسُ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْعَرَبُ الْخُلُطُ فِي خَفْضٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَالزَّرْعُ عِنْدَهُمْ يُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ، فَامْتَدَّوا بِالْفَسَادِ، وَاسْتَدْرَجُوا بِوُضُولِهِمْ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَأَيَقَنُوا أَنَّهُمْ آمِنُونَ مِنْ خُرُوجِ الْجَيْشِ لَهُمْ ثَانِيَةً لَقَتْلِهِمْ أَبْطَاهُمُ وَاسْتِيْلَانَهُمْ عَلَى أَسْلِحَتِهِمْ وَجَمِيعِ مَا كَانَ لَهُمْ، وَالْأَحْوَالُ تَزِيدُ ضِيقًا بِكُلِّ وَجْهٍ وَلَا مَدَدَ يُرْتَقَبُ وَلَا فَرَجَ إِلَّا مِنْ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ يُنْتَظَرُ.

وَلَقَدْ وَصَلَ الْخُلُطُ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ إِلَى الْحَضْرَةِ مِنْ جِهَةِ الْقِبْلَةِ وَتَرَكُوا الْمُصَلَّى فِي الْأَعْيَادِ وَرَاءَهُمْ، وَاقْتَرَبُوا مِنَ السُّورِ فِي أُمِّ لَا تُحْصَى، فَخَرَجَ الْعَسْكَرُ كُلُّهُ حَيْثُ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ سَطْرًا وَاحِدًا مِنْ غَرْبِيِّ الصَّهْرِيحِ الَّذِي بَيْنَ بَابِ النَّصْرِ وَبَابِ الشَّرِيعَةِ

إلى مَقْرُبَةٍ من موضع مَبِيعِ البَقَرِ والغَنَمِ، فعَايَنَ النَّاسُ مِنْ قَتْلِهِمْ مَا رَاعَهُمْ وَأَضْعَفَ قُوَاهُمْ وَأَوْهَنَ نَفُوسَهُمْ، وَرَبَّمَا انْضَافَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الصَّفِّ عَبْدُ الصَّمَدِ الْمَسْكُورِيُّ وَإِخْوَانُهُ، وَالنَّاسُ عَلَى الْأَسْوَارِ لَا يَنْطِقُونَ^(١)، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَالُ فِي هَذَا الْيَوْمِ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْ اصْطِفَافٍ خَاصَّةٍ دُونَ قِتَالٍ إِلَى الْعَصْرِ، وَانْفَصَلَ الْخُلَطُّ مِنْ هُنَاكَ، وَدَخَلَتِ الْأَجْنَادُ إِلَى الْبَلَدِ، وَمَا مَرَّ يَوْمٌ إِلَّا وَلَهُ شَأْنٌ مِنَ الشَّدَّةِ وَعَدَمِ الْأَقْوَاتِ.

فَلَمَّا انْتَهَتِ الْأُمُورُ إِلَى أَبْعَدِ غَايَةٍ تَمُرُّ بِالْأَوْهَامِ مِنَ الْإِخْتِلَالِ، تَوَقَّعَتِ الْمَحَاصِرَةُ حَقِيقَةً، وَانْتَظَمَ الْخُلَطُّ بَابِنَ وَقَارِيطَ وَأَشْيَاعِهِ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ وَاشْتَدَّ الْحَالُ، فَاقْتَضَتْ الْمَصْلَحَةُ النَّظَرَ فِي وَجْهِ يَكُونُ فِيهِ مَخْرَجٌ إِلَى الْفَرَجِ، وَحَصَرَ لَذَلِكَ الْمُوَحَّدُونَ وَغَيْرُهُمْ، وَانْبَعَثَتِ الْخَوَاطِرُ بِهَا فِيهَا، وَأَعْمَلَتِ الْأَفْكَارُ فِي أَسْبَابِ النَّجَاةِ وَدَوَاعِيهَا، وَتَفَاوَضَتِ الْأَقْوَالُ وَتَرَجَّحَتِ الْآرَاءُ، وَاسْتَمَدَّ الْكَبِيرُ مِنَ الصَّغِيرِ، وَنَظَرُوا فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ، فَرَأَى الْجُمْهُورُ أَنَّ الْخُرُوجَ أَحَقُّ وَأَوْلَى، قَالُوا: إِنَّمَا نَحْيَا بِخُرُوجِنَا فَتَكُونُ لَنَا الْكِرَّةُ أَوْ نَمُوتُ فَنَسْتَرِيحُ، وَأَثَرُوا قَوْلَ الْقَائِلِ [مِنْ الْخَفِيفِ]:

عَشْ عَزِيزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا عَلَى هَذَا الرَّأْيِ النَّاجِحِ وَالْقَصْدِ الصَّالِحِ، تَفَاوَضُوا فِي جِهَةٍ يَقْصِدُونَهَا وَنَاحِيَةٍ يَعْتَمِدُونَهَا، فَانْتَدَبَ لَهُمُ الْمُوَحَّدُونَ وَقَالُوا: إِنَّ الْمَوْطَأَ مَا إِلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ وَقَدْ أَحْدَقْتَ بِهِ الْأَعْدَاءَ، وَهَذِهِ بِلَادُنَا تُنْجِيكُمْ، وَنَحْنُ بَأَنْفُسِنَا وَإِخْوَانِنَا نَقْدِيكُمْ وَنَقِيكُمْ، وَجِبَالُنَا الْمَتَّسِعَةُ تَحْمِلُكُمْ دَهْرًا وَتُؤْوِيكُمْ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ بَعْرَصَاتِهَا وَشَوَاهِقَهَا وَأَمْتُمْ مِنَ الْمَكَارِهِ وَبَوَائِقِهَا، وَأَتَيْتُمُ الْأُمُورَ مِنْ وَجُوهِهَا وَطَرَائِقِهَا، وَتَوَسَّعْتُمْ فِي مَعْرِفَةِ الْأَحْوَالِ وَحَقَائِقِهَا، وَكُنْتُمْ قَدْ مَلَكَتُمْ قِيَادَ آرَائِكُمْ، وَأَمْتُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ حَتَّى مِنْ عَدُوِّكُمْ الَّذِي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَأْتَى لَكُمْ الْمَرَادُ، وَتَأْتِي الْأَيَّامُ بِالْمُوَافَقَةِ وَالْإِسْعَادِ. وَلَمَّا قَرَرُوا ذَلِكَ اسْتَبَشَرَ الرَّشِيدُ وَمَنْ مَعَهُ بِمَقَالِهِمْ، وَرَكَنُوا إِلَى رَأْيِهِمْ وَاسْتَخَارُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَرَكَةِ مَعَهُمْ إِلَى جِهَةِ الْجَبَلِ لَارْتِقَابِ الْفَرَجِ الْمُؤَمَّلِ وَالنَّصْرِ الْمَنْزَلِ، وَأَخَذَ الرَّشِيدُ

(١) فِي ق، ك: «يَنْظُرُونَ».

ورجال دولته والموحدون في حركتهم، وخفف الناس أثقالهم ببيع ما لا يحتاجون إليه، وعند ذلك ظهرت الحنطة في البلد مما باعه المتحرِّكون، ولقد كان عندهم منها ما تتمشى به أحوال الناس مدة طويلة، ولكنَّ حبَّ النفس منعهم عن إخراجه والتمسك به.

وشاع في الناس خبرُ الحركة والأبوابُ مُغلقةٌ إلا أحدها عند الضرورة يُفتح، وانتعش الناس بظهور الزرع بعض أيام، وبالبيع والشراء ومعاملة المتحرِّكين فيما يحتاجون إليه، ولم يتهياً لهم الخروج من الحضرة حتى بُعدت العرب يسيراً عنها^(١).

ذكر السبب في بُعد العرب عن الحضرة

وتهيؤ الخروج منها للرَّشيد بجملته وأجناده

لما عزم الرَّشيدُ على خروجه من حضرته، توقع أن تجلب العرب عليه بخيلهم ورجلهم فلا يجد وصولاً إلى الجبل ولا غيره، فأجمع رجاله على أن يبعث رقاصين يكتب مُفتعلة تتضمنُ نصرة الرَّشيد على أعدائه الخُلَط، كأثم وصلوا بها من عند جرمون شيخ عرب سُفيان، وبطاعتهم له وحرصهم على الاتصال به والدخول في سلطانه، وأجزلوا العطية للرقاصين وأمروهم بالانتماء إلى جهة معينة ثم يأتون منها قاصدين الحضرة مارين على الخُلَط متعرِّضين لهم لكي يأخذوهم ويستعجلوا أخبارهم ويأخذوا كتبهم ويستفهموهم عن مآثمهم ومثوَّجهم فيخبروهم بأنهم قاصدون الحضرة من عند عدوهم جرمون، وأنه مُستقبلهم بعرب سُفيان أعدائهم، وأنهم تركوه على وادي أم ربيع. ثم كمل لهم هذا الغرض، وجرت به الإرادة على أحسن ما قُدر فيها، وأن الرقاصين عمدوا بالكتب ناحية الخُلَط فأخذوهم وكتبهم وألحوا عليهم حتى أقرؤا لهم بأنهم أرسل جرمون، فأجمعوا على أن يقصدوه وقد كانوا في أمن من جهته بأنه لا يقاومهم ولا يستطيع كفاحهم، ولكنهم لما وقفوا على الكتب واستخبروا الرقاصين، ظنوا أن الأمر حق، واقتضت المصلحة عندهم أن يُبددوا جمعهم قبل انتظامهم بالرَّشيد واجتماعهم به، فأخذوا في الحركة نحو وادي أم ربيع^(٢).

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٣ باختصار.

(٢) الروض المعطار ٦٠٥.

ذِكْرُ كَيْفِيَّةِ خُرُوجِ الرَّشِيدِ مِنْ حَضْرَتِهِ بِجَمِيعِ جُنْدِهِ

لَمَّا أَحَسَّ الرَّشِيدُ بُعْدَ الْعَرَبِ الْخُلُطَ وَالْهَسَاكَةَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ عَنْ مَرَاكُشَ، خَرَجَ قَاصِدًا إِلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ لَمَّا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ عَيْنَ يَوْمًا لَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي صُبْحِهِ اشْتَغَلَ بِالتَّجَهُّزِ، وَاشْتَغَلَتْ خُدَامُهُ بِحَرَكَتِهِمْ وَأَثْقَالِهِمْ وَعِيَالَهُمْ وَلَمْ يَتْرُكُوا لَأَنْفُسِهِمْ بِمَدِينَةِ مَرَاكُشَ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا وَلَا جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا، وَكَانَ اجْتِمَاعُ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ خَارِجَ الْبَلَدِ لَمْ يَبْعُدُوا عَنْ سُورِهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَجَلَسَ الرَّشِيدُ بَقَبْتِهِ مَعَ خَاصَّتِهِ، وَكُلُّ مَا يُخْصُهُ مِنْ أَثْقَالٍ وَأَحْمَالٍ وَحَشَمٍ وَعِيَالٍ قَدْ اشْتَغَلَ بِهِ الْمَوَكَّلُونَ، فَلَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ إِلَّا فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ النَّهَارِ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى كُلُّ وَاحِدٍ خِدْمَتَهُ أَشْعَرَ بِذَلِكَ، وَأَدْنَى إِلَيْهِ فَرْسُهُ وَالْقُلُوبُ تَخْشَعُ وَالْعُيُونُ تَدْمَعُ وَالْأَصْوَاتُ بِالْدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ تَرْتَفِعُ بِنَصْرِهِ، وَالْأَلْسِنَةُ نَاطِقَةٌ بِشُكْرِهِ. وَتَقْدَمُ لِلْخُرُوجِ عَلَى بَابِ الْكُحْلِ وَوَرَاءَهُ أَثْقَالُهُ وَعِيَالُهُ، وَكَانَ عِذَارُهُ لَمْ يُسْتَكْمَلْ فِي خَدِّهِ وَالدَّمُوعُ بَادِيَةٌ فِي عَيْنَيْهِ، وَالنَّهَارُ بِهَذِهِ الْمَصِيبَةِ حَالِكٌ، وَوَقَفَ خَارِجَ الْبَابِ لِلدُّعَاءِ عَلَى الْعَادَةِ هُنَالِكَ، وَالنَّاسُ يُؤْمِنُونَ عَلَى الدُّعَاءِ، وَيَرْجُونَ الْإِجَابَةَ مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ.

وَاسْتَخْلَفَ إِذْ ذَاكَ عَلَى مَرَاكُشَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ زَكْرِيَّا. وَقَصَدَ الرَّشِيدُ نَحْوَ الْمُصَلَّى مُتَوَجِّهًا لَجِهَةِ الْجَبَلِ فَسَدَّ بَابُ الْكُحْلِ وَسَائِرُ الْأَبْوَابِ، وَتَمَشَّى النَّاسُ مَعَهُ بِعِيَالِهِمْ وَأَثْقَالِهِمْ فِي السَّاقَةِ، وَانْسَدَلَ عَلَيْهِ حِجَابُ الْإِعْتِنَاءِ الرَّبَّانِيِّ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَنَزَلَتِ الْمَحَلَّةُ بِمَقْرُبَةٍ مِنْ أَغْمَاتٍ، وَاسْتَشْعَرُوا مِنْ أَطَافِ اللَّهِ تَعَالَى مَا اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى كُلِّ فَتْحٍ آتٍ، وَمَنْ كَانَ تَلَوَّمَ مُتَأَخِّرًا عَنْ وَقْتِ خُرُوجِهِ وَأَخَذَ فِي اتِّبَاعِهِ لِحَقِّهِ بِالْعَرَبِ فَاسْتَأْصَلُوهُ وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ: أَبُو زَيْدٍ الْمَكَادِيُّ قَاضِي الْجَمَاعَةِ وَابْنُهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ، فَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِنَّهُ خَرَجَ سَبْقًا عَلَى فَرَسِهِ إِلَى نَحْوِ الْمَدِينَةِ وَنَجَا، وَأَمَّا الشَّيْخُ فَلَمْ يُبْقِ الْعَرَبُ لَهُ وَلَا لِعِيَالِهِ مَا يَسْتُرُهُمْ فَضْلًا عَنْ سِوَاهُ، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّهُ الْقَاضِي لَقَتَلُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ جَهَلُوهُ فَتَرَكَوهُ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَقَصَدَ عَلَى حَالَتِهِ تِلْكَ الْمَحَلَّةَ فَأَعَانَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ بِهَا بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَحَسُنَتْ حَالُهُ بِذَلِكَ.

وَأَقَامَ الرَّشِيدُ بِمَحَلَّتِهِ هُنَالِكَ ^(١) يَوْمًا، فَاتَّصَلَ بِالْعَرَبِ خَبْرُ خُرُوجِهِ مِنْ حَضْرَتِهِ، فَجَاءُوا مُتَحَسِّرِينَ يَتَلَهَّفُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ، فَضَيَّقُوا عَلَى مَحَلَّتِهِ أَشَدَّ تَضْيِيقٍ، وَبَالَغُوا فِي

(١) فِي ق، ك، ب: «وَأَقَامَ الرَّشِيدُ هُنَالِكَ بِمَحَلَّتِهِ»، وَهِيَ بِمَعْنَى.

قتاله بكلّ مضيق وفَجٍّ عميق، فاجتمع أهلُ مَشُورَتِهِ على الرّحيل من هنالك ليلاً إلى أغمات برسم التحصّن بها، ومنها يكونُ طريقُهم حيث يَمَمُّوا، فلَمَّا أَرخَى اللَّيْلُ عليهم سُرَادِقَهُ اغتنموا فرصةً وأقلعوا من حينهم إلى أغمات المذكورة، فلقوا من المشاقِّ في تلك الأوعارِ والمضائق ومجاري المياه والتفافِ الأشجارِ وازدحامِ الناسِ والدوابِّ وشدةِ الخوفِ وامتدادِ أيدي بعضٍ إلى بعضٍ ما لا يوصَفُ، وما اتّصل الناسُ بالبلدِ إلّا مع الصُّبحِ وقد أخذ منهمُ التعبُ والمشقةُ ما أشرَفوا منه على الهلاكِ.

ولمّا كان من الغدِ أقبلَ الخَلَطُ في الجموعِ الوافرةِ والأعدادِ المتكاثرةِ وهم يظنونُ أنّهم ظفروا بمطلوبهم وحصلوا على أربهم، فألفوا الأثرَ بَلَقَعًا ولم يجدوا لهم موضعًا، فشَقَّ ذلك عليهم وكَبُرَ في نفوسهم وأقبلوا يتلاومونَ على تركهم ثأرهم وأنّ لم يُقيموا عليهم مُخِمينَ ليلهم ونهارهم، ثم إنهم ^(١) لم يلبثوا إلّا ساعةَ لومهم لأنفسهم وأخذوا في التضييقِ على أغماتِ والانتهاؤِ إلى سُورِها، وأقاموا لها مُحاصِرِينَ يَوْمَيْنِ لم يجد أحدٌ فيها شيئًا يبتاعه، واحتججَ إلى طعام برسم زادٍ لدارِ الخليفة الرّشيد، فتطوَّفَ خاصّته المُشرفُ أبو البركات على الأسواقِ ثم على أهل الدّيارِ ثم اقتحَمَ بعضُها فلم يجتمعَ له إلّا قَدْرُ تسعينَ مُدًّا من قمح. فلم يمكنِ الاستقرارُ هنالك على الجُوعِ، فأجمعوا أمرهم على الخُروجِ إلى جهة تالقت، ومنها يصعدونَ الجبلَ مأمنهم من عدوهم، فكان ذلك، وعميت أخبارهم عن عدوهم، وطَبَعَ اللهُ تعالى على قلوبهم وسَمِعَهم فما أحسّوا بالخروجِ إلّا بعدَ حُصولِ الناسِ بأطرافِ الجبلِ.

وهناك استأذنَ شيخُ تينملَ أبو يعقوبَ يوسفَ بنَ عليّ بن يوسفَ على التوجّهِ بالجُنْدِ إلى جهة ویرجان: من أعمال مدينة تينمل، للقبضِ هنالك على السيّد المعروف بأبي حافة ^(٢)، وهو أبو إبراهيم ابنُ أبي حفص، فأسعَفَه الرّشيدُ إلى التوجّهِ لذلك بالجُنْدِ، وكان السيّد المذكورُ من أشياخ يحيى ومن الذين يتولّونَ الذبَّ عنه بلسانه وقلبه ويده، فلَمَّا توجّهَ أبو يعقوبَ بالجُنْدِ لم يبقَ بمحلة الرّشيد أحدٌ منهم.

(١) سقطت من ك.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٤: «حافة».

وشاع الخبرُ عندَ العربِ فاجتمعوا بقضهم وقضيضهم وكبيرهم وصغيرهم
وجردوا العزمَ على المصادمة والمكافحة لينالوا ما يُحومونَ عليه واللهُ تعالى يُذهبُ
كيدهم ويُحيبُ سعيهم، ثم أقبلوا نحوَ المحلة وليس لها مانعٌ ولا دافع، ولجأ الناسُ إلى
التوَعُّرِ في مكانٍ ضيقٍ وقد اشتدَّت أحوالهم وانقطعت آمالهم وبعضهم ينظرُ إلى بعض،
والأمرُ يؤوُلُ بالتقديرِ وقرائنِ الأحوالِ إلى اختلالِ ونَقْضِ، فبينما هم كذلك وعدوُّهم
فيهم طامع، وبرقُ رعوده لامع، وعذابه بالقوم لولا دفاعُ الله واقع، إذ أقبلتْ مقدّماتُ
لجيشهم كأنها العقُبان، وترادفَ العسكرُ من كلِّ جهةٍ ومكان، فعاد التَّرحُّ فَرَحًا،
وجرَّرت أذيالُ المسرَّةِ مَرَحًا، فعندما عاينَ الخُلُطُ تكاملَ الجيش من تلك الفُجوج،
أيقنوا بخسارٍ وفساد، لِمَا ظنَّوا أنه عائدٌ بنُجْحٍ وسداد، ثم انقلبوا من هنالك ناكِصين،
وولَّوا على أدبارهم خاسرين، واستمرَّ الرِّشيدُ على مسيرٍ في الجبلِ وأشياخِ الموحدِينَ
يأتونَ بالمرفاق والتضييف ويوسعونَ على الناسِ في علوفاتهم، وأظهروا كلَّ جميلٍ من
طوبياتهم، وتقدَّموا بين يدي خليفتهم في بلادهم وطُرقاتهم، ولم يثنِ عَنَّا عن موضع
يُعرفُ بأذار^(١): من بلادِ هَرَّغَة^(٢)، وكان مخزنَ مالٍ وذخائرَ لأبي إسحاق بن أمغار،
ولم يكنْ ألقى بيدَ الانقياد أنفةً ممَّا كان بينه وبينَ يوسفَ بن عليِّ التينملي، وكان في
ذلك التاريخ مؤازرًا ليحيى ومُشايعًا له في جملة من الموحدِينَ كانوا تَمَسَّكوا به ولم
يُخلُّوا بشيء من خدمته وطاعته، فضبطَ حصنَ أذار الحاجُّ أبو محمد ابنُ الشيخ، وكان
تركه عمُّه أبو إسحاق به فقام خيرَ قيام بمنعه فحاصره الرِّشيدُ فيه واستمرَّ القتالُ
عليه إلى أن ألقى بيده وطلبَ أمانًا فخرجَ منه، وكان في الحصنِ إذ ذاك أبو زيد بنُ
عبد الكريم الجدميوي، وهو شابُّ يقرأ، وكان أبو إسحاق بنُ أمغار خاله، ثم إنَّ
الرِّشيدَ ومن معه من الموحدِينَ استقبلوا بلادَ القبلَة وقالوا: هذه سِجِلْهَمَة أمامنا، وبها
تتمُّ آمالنا وتتسعُ أحوالنا، وننسى ما كابَدناه من الأهوال، ونستجدُّ عزماً ونظراً في
المقارعة والنزال، وإذا ملكناها ملكنا كلَّ البلاد، ويتيسَّرُ لنا فيما نرؤمه المراد، وكان بها

(١) الضبط من ق.

(٢) هذا الحصن جود تقييده ناسخ ق، فشدَّ الدال.

أَرْقَمُ بْنُ يَحْيَى بْنِ شُجَاعِ بْنِ مُرْدَنْشٍ، فَسَمِعَ بِقَصْدِ الرَّشِيدِ إِلَيْهِ فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ وَهَاجَتْ خَوَاطِرُهُ وَلَمْ يَرِ أَنْجَحَ رَأْيًا مِنْ قِتَالِهِ، فَتَرَبَّ لَذَلِكَ وَأَخَذَ لَهُ أَهْبَتَهُ وَبَالَغَ فِي حَسْمِ كُلِّ عِلَّةٍ وَأَحْسَنَ لِرَجَالِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّصَارَى يُعَوِّلُ عَلَيْهِمْ وَيَسْكُنُ إِلَيْهِمْ، فَوَسَّعَ لَهُمُ الْعِطَاءَ وَأَقَامَ بَبْلِدَهُ مَتَمِنًّا بِهِ، وَالرَّشِيدُ يَطْوِي إِلَيْهِ السَّمَارِحَ وَزَاعِجُ الاضْطِرَارِ يَسْتَحِثُّهُ. فَلَمَّا نَزَلَ بِخَارِجِ سِجْلِمَاسَةَ وَهُوَ يَظُنُّ خَيْرًا بَمَنْ فِيهَا ظَهَرَ لَهُ مِنْ أَحْوَالِ ابْنِ مُرْدَنْشٍ مَا دَلَّهُ عَلَى شِقَاقِهِ وَعِنادِهِ، فَاشْتَدَّتِ الْحَالُ عَلَى الْجُنْدِ وَعَلَى كَافَّةِ أَهْلِ الْمَحَلَّةِ، وَلَمْ يَجِدُوا مَرْفَقًا وَلَا عِلْفًا وَلَا قُوَّتًا، وَهُمْ فِي صَحْرَاءٍ فَغَرَّتْ فَاهَا إِنْ زَلَّتْ بِهِمُ الْأَقْدَامُ أَوْ أَثَرُوا الْإِحْجَامَ عَلَى الْإِقْدَامِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ شَرَعُوا فِي الْمُنَازَلَةِ وَأَخَذُوا فِي الْمُقَاتَلَةِ، وَعَيْنَ أَرْقَمُ بْنُ مُرْدَنْشٍ قَرِيبَهُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي النَّجْمِ لِقِتَالِ الرَّشِيدِ، فَأَظْهَرَ فِي ذَلِكَ عَنَاءً وَبَلَاءً، وَحَجَزَ اللَّيْلَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَالنَّاسُ مِنْ عُدْمِ الْأَقْوَاتِ فِي اضْطِرَامٍ، وَمِنْ غَلَبَةِ الْيَأْسِ عَلَيْهَا فِي اسْتِعَارٍ وَاحْتِدَامٍ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَلَا قُوَّةَ فِي خِבَاءٍ أَحَدٍ مِنْهُمْ، حَتَّى أَنْ الصُّغَارَ مِنَ الْأَوْلَادِ كَانُوا يَبْكُونَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَمَا يَجِدُ آبَاؤُهُمْ مَا يُسَكِّتُونَهُمْ بِهِ.

ثُمَّ إِنَّ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا بِالْبَلَدِ مَعَ أَرْقَمِ بْنِ مُرْدَنْشٍ مَالَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَى إِغَاثَةِ إِخْوَانِهِمْ، وَعَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَّجُهُ إِلَّا بِالْغَلَبَةِ عَلَى شَيْطَانِهِمْ، فَفَتَحُوا الْبَابَ مُعْلِنِينَ بِالطَّاعَةِ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَرْقَمُ نَبَأٌ مِنْهُمْ، فَجَاءَهُ الْخَبِيرُ بِذَلِكَ^(١)، فَتَدَارَكَ أَمْرَهُ بِطَلْبِ الْأَمَانِ فَأُثِنَ، وَدَخَلَ النَّاسُ سِجْلِمَاسَةَ وَقَدْ كَادَ الْجُوعُ أَنْ يُبِيدَهُمْ فَحَصَلُوا فِي خَفْضٍ مِنَ الْعَيْشِ وَبِلَدٍ خَصِيبٍ، مَتَّسِعِ الْخَيْرَاتِ رَحِيبٍ، فَاسْتَقَامَ الْحَالُ، وَاسْتَقَرَّ النَّاسُ فِي دَعَةٍ وَأَمْنٍ وَصَلَحَتِ الْأَحْوَالُ، وَبَهَا بَقِيَ إِلَى أَنْ جَدَّدَ حَرَكَتَهُ إِلَى مَرَّاكُشَ عَلَى مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

رَجَعَ الْخَبِيرُ إِلَى أَحْوَالِ مَرَّاكُشَ بَعْدَ حَرَكَةِ الرَّشِيدِ مِنْهَا وَإِقْبَالَ الْخُلَاطِ إِلَيْهَا^(٢).

(١) فِي ق: «فَجَاءَ الْخَبِيرُ بِذَلِكَ».

(٢) تَارِيخُ ابْنِ خُلْدُونِ ٦/٣٤٣-٣٤٤.

ذكرُ المجاعةِ التي كانت بمراكش عَصَمَ اللهُ المسلمينَ من مثلِها

لَمَّا تَوَجَّهَ الرَّشِيدُ فِي حَرَكَتِهِ الْمَذْكُورَةِ وَخَرَجَ أَمَامَ الْخُلُطِ مِنَ الْحَضْرَةِ^(١)، تَخَيَّرَ النَّاسُ وَكَثُرَ فِيهِمُ الرَّهَجُ، وَعَظُمَتْ عَلَيْهِمُ الْمَصِيبَةُ بِإِسْلَامِهِمْ وَعُدْمُ الْأَقْوَاتِ وَالْمَرَافِقِ، وَلَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ سَبْدٌ وَلَا لَبْدٌ وَلَا طَارِفٌ وَلَا تَالِدٌ وَلَا ذَخِيرَةٌ وَلَا مَالٌ وَلَا عَقَارٌ، وَاسْتَوَلَتْ الْمَجَاعَةُ عَلَى جُمْهُورِ النَّاسِ وَرَأَوْا مَحْنًا يُسْتَعَاذُ بِاللَّهِ مِنْهَا، وَانْتَهَى الْمُدُّ الْوَاحِدُ مِنَ الْقَمْحِ الْفَحْصِيِّ إِلَى سَبْعَةِ دَرَاهِمٍ كِبَارًا^(٢) مِنْ طَبْعٍ... السَّكَّةِ، وَأَمَّا الدَّرَاهِمُ الْفَضَّةُ فَكَانَ يُصْرَفُ فِي نِصْفِ دَرَاهِمٍ، وَكَانَ هَذَا عُرْفًا بَيْنَ السُّوقَةِ بِالسَّبْعَةِ الدَّرَاهِمِ السَّكَّةِ، إِنَّمَا تُخْرَجُ مِنْ مِثْلِيٍّ عَدِيدِهَا، وَأَمَّا أَسْوَاقُ الْمَدِينَةِ فِي هَذِهِ الْمَجَاعَةِ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا مَا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ بَوَاجِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَالْحَوَانِثُ مُغْلَقَةٌ وَمَا بَقِيَ بِهَا مَنْ يَلْبَسُ ثَوْبًا يُسَاوِي عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ إِلَّا الْأَطْمَارُ الْمُتَغَيِّرَةُ الْخَلِيقَةُ، وَتَغَيَّرَتِ الصُّورُ الْجَمِيلَةُ، وَتَنَكَّرَتِ الدُّنْيَا بِاسْتِيلَاءِ الْمَجَاعَةِ، وَإِذَا ظَهَرَ فِي السُّوقِ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ شَيْءٌ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ يُحَسِّرُ النَّاسَ عَلَيْهِ وَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ يَنْظُرُونَ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا الْكُفَاءُ الَّذِينَ لَهُمْ تَجَلُّدٌ عَلَى الْاِقْتِحَامِ وَصَبْرٌ، ثُمَّ لَا يَعْدَمُ الَّذِي يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ أَنْ يَجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْعَشْرُونَ وَأَكْثَرُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ حَتَّى يَنْتَزِعُوهُ مِنْهُ قَهْرًا، وَأَمَّا شَيْخٌ أَوْ عَجُوزٌ أَوْ طِفْلٌ أَوْ ضَعِيفٌ فَإِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى شَيْءٍ، وَلَا عَلَى لُقْمَةٍ مِنْهُ، وَسَائِرُ الْأَيَّامِ إِنَّمَا يَظْهَرُ فِي الْأَسْوَاقِ مَا يَكْرَرُ طَحْنُهُ مِنْ فَيْتُورِ الزَّيْتُونِ وَغَيْرِهِ، فَهُوَ كَانَ غِذَاءَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ كَثِيرًا بِالْبُوَادِي الْخَالِيَةِ فَتَجْتَلِبُهُ الضُّعَفَاءُ وَيَقْتَاتُونَ مِنْهُ وَيَبِيعُونَ فَضْلَاتِهِمْ، وَكَذَلِكَ النَّارِنْجُ كَانَ مَوْجُودًا كَثِيرًا، فَصَارَ النَّاسُ يَمِيلُونَ إِلَى شِرَائِهِ وَمَا يَدْرُونَ حَامِضًا هُوَ أَمْ حُلُومًا مِنْ سُوءٍ مَا حَلَّ بِهِمْ، وَكَانَ يُبَاعُ فِي الْأَسْوَاقِ خُبْزٌ يُعْمَلُ مِنْ تَابُودَا^(٣) الَّتِي تَنْبُتُ فِي الصَّهَارِيحِ وَفِي الْأَنْهَارِ وَالسُّوَاقِي، وَهُوَ شَبَهُ مِنَ الْقَصَبِ، سُمِّ مِنَ السُّمُومِ يُتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا جَفَّ وَيُطْحَنُ كَمَا تُطْحَنُ الْحِنْطَةُ وَيُعْمَلُ مِنْهُ خُبْزٌ يُحْمِلُ لِمَنْ يَرَاهُ إِذَا التَّمَسَّ شَيْئًا مِنْهُ بِاسْتِعْمَالِهِ وَمَذَاقِهِ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا.

(١) شبه الجملة ليس في ق.

(٢) من هنا إلى قوله: «وكان هذا» سقط من ق، ك، ب، ر٣.

(٣) لفظة مستعملة في البوادي الشالية إلى الآن.

ومن جُملة ما اقْتَاتَ النَّاسُ به في ذلك الوقت: عَصَائِدُ تُصْنَعُ من نُورِ الْحَرَوْبِ، وما عدا هذا ليس له وجودُ البتَّة، حتى لقد هَلَكْتَ أُمَّمٌ لَا تُحْصَى وَأَبْوَابُ الْبَلَدِ كُلِّهَا مُعْلَقَةٌ وَالْمُصَايِفَةُ قَدْ قَرُبَ أَوَائِهَا، وَكَانَتْ طَيِّبَةُ الزَّرْعِ جَدًّا، وَظَهَرَ فِي الزَّرْعِ بَاكُورٌ لَوْ وَجَدَهُ النَّاسُ لِأَغْنَاهُمْ، وَلَكِنْ حَالَتْ بَيْنَهُم وَبَيْنَهُ الْعُرْبَانُ وَالْعَسَاكِرُ.

ولَمَّا انْتَهَتْ هَذِهِ الشَّدَّةُ بِالنَّاسِ إِلَى كُلِّ غَايَةٍ، نَزَلَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ الشَّدِيدُ الْبَاسُ، فَاشْتَدَّ الْحَصَارُ، وَتَمَتَّى النَّاسُ الْإِسَارَ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَمَا لِلنَّاسِ غَيْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَاصِرٍ، وَأَحْدَقَ الْعَرَبُ بِالْبَلَدِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَمَكَانٍ، وَكَانَ مَعْظَمُهُمْ وَزَعِيمُهُمْ مِنْ جِهَةِ الْقِبْلَةِ عِنْدَ الْمُصَلَّى وَحَيْثُ سَوَّقُ الدَّوَابِّ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ أَهْلَ^(١) السُّورِ مُدَاوِلَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ.

قال أبو عبد الله التِّلْمِسَانِي: وَلَقَدْ عَايَنْتُ مِنْ بُرْجٍ مَرْتَفِعٍ بِيَابَ دَارِ الْأَشْرَافِ، وَلَيْسَ فِي أَبْرَاجِ الْقَصَبَةِ أَعْلَى مِنْهُ، قِتَالَ الْعَرَبِ مَعَ أَهْلِ السُّورِ، فَكَانَتْ الرِّجَالُ مِنَ الْعَرَبِ يَقِفُونَ عَلَى الْقَنْطَرَةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِتُوفِ الْمَطْرَحِ وَيَرْمُونَ حِجَارَةً عَلَى بُرْجِ بَابِ الشَّرِيعَةِ^(٢)، فَمَا يَمُرُّ مَارًّا بِالرَّصِيفِ وَتَنْتَهِي حِجَارَتُهُمْ إِلَى فُنْدُقِ الشُّكْرِ هُنَاكَ وَإِلَى الْمَرِّ الْمُرُورِ عَلَيْهِ بِيَابِ نَفِيسٍ، وَهَذِهِ مَسَافَةٌ لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا شِدَّةُ السَّاعِدِ، وَلَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَرْمُونَ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السُّورِ، فَمَا كَانَتْ تَنْتَهِي بِوَجْهِهِ إِلَّا لِلسُّتَارَةِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي ضَعْفٍ أَنْهَكَ الْقُوَى وَأَخْلَلَ بِالْعِظَامِ وَالْعَرَبُ فِي قُوَّةٍ وَخَفْضٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَالْفَحْصُ وَزَرْعُهُ فِي حُكْمِهِمْ، وَهُمْ يُخَوِّفُونَ وَيُهْدِدُونَ.

وَاسْتَمَرَّتِ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ، فَكَانَ الضُّعَفَاءُ يُخْرِجُونَ عَلَى الْأَبْوَابِ، فَإِنَّ الْبَلَدَ ضَاقَ بِهِمْ فَأَثَرُوا الْفِرَارَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ بِالْبَلَدِ إِلَّا الْأَقْلُ مِمَّنْ لَا يَسْتَطِيعُ خُرُوجًا، وَبَقِيَتْ هَذِهِ الْحَالُ مَدَّةً وَالْخُلَاطُ وَحُشُودُهُمْ يَسْتَحِثُّونَ يَحْيَى وَأَشْيَاعَهُ. فَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ السَّيِّدُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ بْنُ أَبِي حَافَةَ فَتَزَلَّ بِمَقْرَبَةٍ مِنَ الْبَلَدِ، وَعَايَنَ النَّاسَ مِنْ نَزْوِلِهِ هُنَاكَ مَا رَاعَاهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ فِي النَّاسِ قُوَّةٌ لِحِمَايَةِ بِلَدِهِمْ، فَهَالَتْ نَفُوسُ النَّاسِ إِلَى السَّيِّدِ الْمَذْكُورِ لَعَلَّهُ يَمْنَعُهُمْ مِنْ عَبَثِ الْعَرَبِ فِيهِمْ، ثُمَّ تَسَوَّرَ السُّورَ وَتَمَكَّنَ مِنَ الْبَلَدِ، وَقَرَّ الْوَالِي أَبُو مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) في ق: «الشريعة»، وليس بشيء.

زكريا ومعه يحيى بن عبد الرحيم، فإنه كان الرشيد تركه على من كان تخلّفه بالقصر من خدام وإخوة صغار، وكان فراؤهما من سرب باب الصالحة، وتوجّها نحو تاماروت: من بلاد هتتاتة، واستقرا في أمن هنالك إلى أن عادا بعودة الرشيد إلى حضرته على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح مراکش حرّسها الله تعالى ليحيى ابن الناصر

على يد السيّد المذكور عبد الله بن أبي حافة

لما نزل السيّد، كما تقدّم ذكره، بباب الشريعة^(١)، سكنت إليه نفوس الناس ليحييهم من عبث العرب وفتكهم، وقد كانوا تأخروا في ذلك الوقت عنها يسيراً، فتمكّن السيّد من البلد ووجه كتبه بذلك ليحيى وضبط البلد واكتسح لنفسه كثيراً، وأخذ من وجوه البلد وتجاره ما أراد، واصطّعه الناس خوفاً على أنفسهم وأموالهم، وكان له ولد اسمه عمر تسبّب لناس بأشياء استولى بها على كثير من أموالهم، وكان أثره في ذلك شنيعاً، وما كان لأبيه مطيعاً في الكفّ عن الناس مع طمع أيضاً كان في والده توصّل به هو وابنه إلى ما راما. وفي أثناء هذه الحال وجد الناس سبيلاً إلى الزرع الأخضر، فخرج لحصده الضعفاء وأكثر الناس منه في البلد، فانتعشوا وعادت إليهم أرواح الحياة، والله الأمر من قبل ومن بعد. وقتل السيّد هنالك شخصاً علجاً في الأصل كان من خاصّة الرشيد، وكان طالب بقتله صبراً، ثم اتّصلت الأخبار بوصول يحيى وابن وقاريط والحلّط، ووصول جماعة من الموحّدين مستقبليين المدينة الخائف أهلها، فاشتغلت الحواطر من الذين يعلمون عواقب الأمور ومارسوا الفتن والأهوال في الدخول عليهم مرّات، ومرّ آخرون ممن هو من جانب يحيى ومن قوم لا يعقلون من السوق الذين يأخذون أموال الناس ويدخلون الديار ويقتحمون على أهل المروءات ويحملون العرب إلى قوم لهم اشتهاً بهال، أو بين أحد منهم وبينهم على متاع قليل تنافس، فيدرك أمله في الإيقاع به والنيل منه [من الطويل]:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

(١) في ق: «الشرقية».

ذِكْرُ وَصُولِ يَحْيَى ابْنِ النَّاصِرِ لِمَرَاكُشٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْخُلَطَّاءِ وَهَسْكَوْرَةٍ مَعَ ابْنِ وَقَارِيطَ

لَمَّا وَصَلَ يَحْيَى إِلَى مَرَاكُشٍ وَاحْتَلَّ بِهَا، وَصَلَ مَعَهُ أَشْيَاخُ الْعَرَبِ وَعَامَّتُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ وَصَغِيرُهُمْ وَاسْتَوَلُوا عَلَى كُلِّ سُوقٍ وَجَهَةٍ، وَاقْتَحَمُوا الدِّيَارَ وَوَالُوا الْإِضْرَارَ، وَاخْتَارُوا مِنَ الدِّيَارِ مَا شَاءُوا فَأَخَذُوهُ وَلَا مَانَعَ يَمْنَعُهُمْ وَلَا زَاجَرَ يَزْجُرُهُمْ، وَوَصَلَ أَبُو إِسْحَاقَ ابْنُ الشَّيْخِ، وَكَانَ كَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّ رَوْنَقَ الْوِزَارَةِ قَدْ دَثَرَ وَدَرَسَ وَتَغَيَّرَ، وَكَانَ أَيْضًا وَزِيرًا لَهُ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ وَأَنُودِينَ وَأَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّا بْنُ يَجْلِدَ. وَوَصَلَ ابْنُ وَقَارِيطَ فِي أَشْيَاغِهِ وَنَزَلَ دَارَ أَبِي سَعِيدِ بْنِ جَامِعٍ، وَنَزَلَ عَلَيَّ بْنُ هَلَالٍ فِي جَمِيعِ دِيَارِ دَارِ^(١) نَفِيسٍ هُوَ وَإِخْوَانُهُ، وَاقْتَسَمُوا الدِّيَارَ وَالْقُصُورَ الْعَجَبِيَّةَ الَّتِي لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِنَظَائِرِهَا وَلَا بِأَمْثَالِهَا، وَبَعْدَ أَيَّامٍ انْقَبَضَتِ الْأَيْدِي عَلَى امْتِدَادٍ وَكُفَّتْ أَكْفُ الْفُسَادِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُوَحِّدِينَ كَبِيرُ أَثَرٍ فِي هَذَا الْوَقْتِ، فَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ ابْنُ الشَّيْخِ فَلَمْ يَكُنْ هُمَّهُ قَبْلَ احْتِلَالِ يَحْيَى بِأَيَّامٍ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ إِلَّا فِي الْقَبْضِ عَلَى مَنْ بَقِيَ فِي الْقَصْرِ مِنْ أَوْلَادِ الْمَأْمُونِ لِيُمَسِّكَهُمْ فِيمَا أَخَذَتْهُ الْأَيْدِي وَانْهَبَتْهُ، وَاحْتَمَلَ إِلَى الْجَبَلِ مَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ فِي يَدِهِ، ثُمَّ لَحِقَ بِمَوْضِعِهِ لَغْلَبَةُ الْعَرَبِ وَابْنِ وَقَارِيطَ عَلَى يَحْيَى، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ إِذَا جَلَسَ^(٢) فِي الْقُبَّةِ الْمَعْرُوفَةِ لَجُلُوسِ الْعُلَمَاءِ مَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا وَهُوَ يَقْتَحِمُ عَلَيْهِ فِيهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَمَا كَانَ جُلُوسُ عَامَّتِهِمْ مَدَّةَ إِقَامَتِهِ بِالْقُبَّةِ إِلَّا بِمَقْرَبَةٍ مِنْهُ فِي الرَّحْبَةِ الْكَبِيرِ، وَتَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ كُلُّهَا.

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ التَّارِيخِ: أَطْلَقَ ابْنُ وَقَارِيطَ ذُؤَابَةً مِنْ عِمَامَتِهِ يَقُولُ لَهُ النَّاسُ: الْفِشْتَالُ. قَالَ الْكَاتِبُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ التَّلْمِيسَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَقَدْ عَايَنْتُ عِمَامَةَ ابْنِ وَقَارِيطَ وَطَرَفُهَا مَعَ رُكْبَتِهِ، وَفِيهِ مِنَ التِّيهِ وَالزَّهْوِ وَالْعُجْبِ وَالْإِغْتِرَارِ مَا لَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَقَدْ تَحَصَّلَ لَهُ كُلُّ مَطْلُوبٍ مِنْ حُلُولِ يَحْيَى مَرَاكُشٍ وَاحْتَوَائِهِ عَلَى سُلْطَانِهِ وَلَعِبِهِ بِعُقُولِ الْعَرَبِ كَيْفَ شَاءَ وَاسْتِيلَاةِهِ عَلَى الْقَبَائِلِ وَالْبِلَادِ، وَتَوَجُّهِهِ رَجَالِهِ إِلَى كُلِّ جَهَةٍ عَنِ الْأَمْوَالِ، وَإِقْبَالِ الرِّضَى عَلَيْهِ بِالمُسَاعَدَةِ، فَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ لَا يَفْسُدُ وَلَا يَنْقُضِي وَالْأَقْدَارُ مِنْهُ تَضَحَّكَ وَالْأَيَّامُ تَأْتِي بِكَبِيرٍ عَادَتِهَا مِنَ الْكَسْرِ لِكُلِّ جَبَّارٍ عِنْدَ مَنْ الْإِمْلَاءُ لَهُ وَالْإِمْهَالُ.

(١) سقطت من ق.

(٢) في ق: «حتى إنه إذا جلس»، وفي ك: «حتى إذا جلس».

ولمّا حَالَتْ أحوالُ الموحّدين المذكورين وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ فِي قَبْضَةِ ابنِ وقارِيطَ أَخَذُوا فِي التَّكَاسُلِ عَنِ الخِدْمَةِ وَالتَّنَاقُلِ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ صَدْرًا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ، حَتَّى اضْطُرَّ بِحَيِّى إِلَى تَقْدِيمِ الحَسَنِ ابْنِ السَّيِّدِ أَبِي عَلِيٍّ بَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ السَّيِّدِ أَبِي خَفْصٍ وَزَيْرًا، فَاسْتَمَرَّ فِي الْوِزَارَةِ يَسِيرًا، ثُمَّ أَصَابَهُ مَرَضٌ شَدِيدٌ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَى أَخِيهِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ الْأَصْغَرَ، وَكَانَ مُخَالِطًا لِبَعْضِ الطَّلَبَةِ وَمُلاَبِسًا لَهُمْ، فَقَامَ مَقَامَ أَخِيهِ فِي التَّصَرُّفِ لِيَحْيَى، وَنَفَقَتْ سُوقُهُ وَتَغَيَّرَ زِيَّهِ الَّذِي كَانَ يُعَرَفُ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا وَحُمَّ جِهَامُهُ، وَأَخُوهُ الحَسَنُ عَلَى أَثَرِهِ، وَبَقِيَتْ الْأَحْوَالُ عَلَى هَرَجٍ وَشُكُونٍ تَارَةً سَلَامًا وَتَارَةً هَيْجًا، وَكَانَ الْمُتَوَلَّى عَلَى بَاطِنِ يَحْيَى وَالْحَاجِبَ لَهُ وَالنَّاطِرَ عَلَيْهِ وَالْكَافِلَ لِأُمُورِهِ وَالضَّابِطَ لِنَفَقَاتِهِ وَالْمَرْجُوعَ إِلَيْهِ فِي مَصَالِحِهِ وَدَارِهِ وَحَرَمِهِ وَمَمْلَكَتِهِ عَلَى تَقْلُصِهَا: فَتَى اسْمُهُ بِلَالٌ يُكْنَى أَبَا حَمَامَةَ، وَكَانَ شَيْخًا مُتَطَلِّبًا قَرَأَ فِي زَمَنِ^(١) شَبِيبَتِهِ، وَكَانَ مُتَوَقِّدًا الْخَاطِرَ مُتَنَمِّسًا^(٢)، وَعَلَيْهِ كَانَتْ تُدَوَّرُ أحوالُ يَحْيَى إِلَى أَنْ صَارَ يَكْتُبُ بِخَطِّ مَشْرِقِيَّ الْعَلَامَةِ فِي ظَهَائِرِ التِّي هِيَ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَمَّا غَيْرُهُ قَبْلَ هَذِهِ الْمُدَّةِ فَلَا يَرْتَابُ فِي أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ الْعَلَامَةَ عَوَضًا مِنْهُ، حَتَّى لَقَدْ قِيلَ عَنْ امْرَأَةٍ: إِنَّمَا كَانَتْ تَكْتُبُهَا فَإِنَّ يَحْيَى كَانَ فِي يَدِهِ الْيَمْنَى شَلْلٌ، وَكَانَ هَذَا يَظْهَرُ فِيهِ، فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَرْفَعُ بِهِ طِنَابَ بَرْنُوسِهِ وَلَا يُمَسِّكُ قَضِيْبًا بِيَدِهِ عَلَى عَادَةِ الْخُلَفَاءِ، وَلَقَدْ كَانَتْ مَسَائِلُ النَّاسِ بَرَعَاتِهِمْ يُرْفَعُ إِلَيْهِ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى وَكُلُّهَا يَكْتُبُ عَلَيْهِ الْفَتَى أَبُو حَمَامَةَ بِلَالٌ الْمَذْكُورُ بِمَا شَاءَ وَمَا أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِهِ وَيَدِهِ، وَذَلِكَ بِمِدَادِ يَمِيلُ إِلَى الْبَيَاضِ وَبِقَلَمِ رَقِيقٍ وَبَيْنَ الْحُرُوفِ فُسْحَةٌ فَيُعِيدُ يَحْيَى عَلَى تِلْكَ الْحُرُوفِ بِخَطِّ ضَعِيفٍ، وَرَبَّمَا نَسِيَ بَعْضَ تِلْكَ التَّوَاقِعِ فَلَا يَمُرُّ عَلَيْهَا بِشَيْءٍ إِلَى أَنْ أَطَّلَعَ الْفَتَى عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الشَّنِيعِ فَسَتَرَهُ، وَصَارَ يَكْتُبُ التَّوَاقِعَ بِالْمِدَادِ الْأَحْمَرِ الْمَعْرُوفِ لِلْخُلَفَاءِ.

وَلَقَدْ اضْطُرَّ بِحَيِّى حِينَ دَخَوْلِهِ الْقَصْرَ إِلَى مَا يُنْفَقُهُ، فَوَجَّهَ فِي ذَلِكَ لِابْنِ وقارِيطَ وَالْعَرَبِ فَافْتَرَشُوا لِحَالَهُ وَشَرَعُوا فِي تَوْزِيعِ الْمَالِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى هَسْكَوْرَةٍ، ثُمَّ لَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ الْمُحَاوَلُ وَبَقِيَ عَلَى اضْطِرَارِهِ وَاحْتِيَاجِهِ وَتَقْلُصِ مَا دَتَهُ، ثُمَّ تَسَلَّلَ الْمُوَحِّدُونَ الَّذِينَ كَانُوا بِمَرَآكَشٍ وَتَوَصَّلُوا بِذَلِكَ إِلَى أَسْبَابٍ دَبَّرُوهَا وَتَوَصَّلُوا بِهَا إِلَى غَايَةِ مَرْغُوبِهِمْ.

(١) سَقَطَتْ مِنْ ك.

(٢) الْمُتَنَمِّسُ: الْخَاذِقُ، كَالنَّامُوسِ. (قَامُوسٌ).

وأوقع إذ ذاك الفتى بلالَ بعليّ ابن الناصر أخي يحيى، وقال ليحيى: إنه عازم على الفرار كما فَرَّتْ إخوانه: موسى وزكريا ليلحقَ بهما عند الرّشيد، فاقْتَضَى نظرُه القبضَ عليه، فبعَثَ عنه غلامًا من عبيد البحارين الفُتّاك الفُجّار، فتوجّه الغلامُ إليه مع جماعة من أشباهه، فلم يُلْفِه بداره وألفاه بحَمَام يُعرَفُ بحَمَام الفَهْمِيّ، ووافقه خارجًا ليركب دابّته فاحتمله مرقبًا إلى الدار المَكْرِية وثُقِفَ ليلته هناك، وكان فتى صغير السنّ نحيف الجسم أصفر اللون. وشاع الخبرُ تلك الليلة عند الناس، ورَقَّتْ له النفوس لسكونه وعقله وأنه لم يصدُرْ عنه ما كان يصدُرُ عن أحد من إخوانه ولا غيرهم، فتطارَحَ الناسُ على العرب في شأنه ليسلمه. ثم جلس يحيى في اليوم الثاني لتلك الليلة على عادته بقبّته، فدخل عليه العربُ وابنُ وقاريط، ودخل من الخلط شيخُ علي السنّ رفيع القدر عند إخوانه مُطاعًا فيهم، فشفع عند يحيى في أخيه وأتى بكلام حسن في استعطافه عليه ورعى وجهه وأخوته فلم يعطف عليه ولا رَقَّ له لهما وقرّ في نفسه من طريق حاجبه ومدبره، وقرأ العربيّ المذكورُ في ذلك المجلس في أثناء كلامه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية [الحجرات: ٦]، فلما انقضى المجلس أمرَ بقتله، فقتل رحمه الله صبرًا، فكانت في القلوب منه فجعة. وأمّا ابنُ وقاريط وغيره فلم يكن هُمّه إنكارًا لذلك، فإن مراده كان إبادة العالم عساه أن ينفرد وحده بالدنيا، ولا بقاء إلا لله سبحانه.

وكان دخول يحيى مراكش في آخر سنة اثنتين المذكورة، وأقام بها إلى صدرِ من عام ثلاثة وثلاثين وست مئة، والرّشيد في هذه المدة بسجلماسة وقبلها ببلاد القبلة، وبسجلماسة أقام هو أيضًا صدرًا من عام ثلاثة وثلاثين المذكور، وكان ابنُ وقاريط في هذه المدة كلّها يصطنع العرب الخلط ويصافيههم ويستميل نفوسهم ويتحبّب إليهم ويخالفهم على أنه واحدٌ منهم لا يخالفهم ولا يفارقهم في حركة ولا سكون، فتهيأ له بذلك مراده وتمكّن مما شاء وقَدَّمَ وأخّر ونهى وأمر، ولم يكن^(١) عنده وعند العرب ليحيى مما يعولون عليه وزدّ ولا صدر، واتخذ العرب ليكونوا له وُزراء وركنًا، ويكون هو مدبرًا لأموالهم وقائمًا على أحوالهم، فإنهم كانوا في قوّة لم يظنّ أحدٌ أنهم سيبدون لكثرة

(١) سقطت من ك.

جَمُوعِهِمْ وَقُوَّةَ نَفُوسِهِمْ وَحِدَّةَ شَوْكَتِهِمْ، فَمَا كَانَ بِلَادَ الْمَغْرِبِ أَقْصَاهَا وَأَذْنَاهَا مَنِ يُقَاوِمُهُمْ، فَتَمَهَّدَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَخَافَهُمُ الْقَبَائِلُ حَتَّى جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا كَانُوا يُوْعَدُونَ.
وَلَسَّ حَالَفَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَوَثِّقَتْ بِهِ نَفْسُهُ، رَفَضَ بِلَادَهُ وَهَجَرَ إِخْوَانَهُ وَانْقَطَعَ إِلَى الْعَرَبِ، إِلَّا أَنَّ أُمُورَ جَمِيعِهِمْ كَانَتْ فِي إِدْبَارٍ وَخَسَارٍ، إِلَى أَنْ شَرَعُوا فِي الْحَرَكَةِ مِنْ مَرَاكُشٍ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ بِحَرَكَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدِ مِنْ سِجِلْمَاسَةَ فِي عَامِ ثَلَاثَةِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ عَلَى مَا يَأْتِي.

بَعْضُ أَخْبَارِ الْأَنْدَلُسِ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَهِيَ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ: كَانَ تَوَجُّهُ الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ يُونُسَ بْنِ نَصْرِ إِلَى مَدِينَةِ إشبيلية، فَدَخَلَهَا بِحِيلَةٍ دَبَّرَهَا وَعَمَلَهَا وَقَتْلَ شَيْخِهَا^(١) الْبَاجِيَّ غَدْرًا وَمَكْرًا، وَحَصَلَ فِي الْقَصْبَةِ فَسَكَنَهَا شَهْرًا، فَاجْتَمَعَ أَهْلُ إشبيلية فِي لَيْلَةٍ عَيَّنُوهَا لِاجْتِمَاعِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَيْهِ بِأَجْمَعِهِمْ فَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْقَصْبَةِ وَأَذَاقُوهُ نِكَالًا وَشَرًّا وَطَرَدُوهُ بِالْجُمْلَةِ حَتَّى رَحَلَ عَنْهُمْ، وَجَدَّدُوا لِلْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ يُونُسَ بْنِ هُودٍ بَيْعَةً أُخْرَى، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ أَخَاهُ أَبَا النَّجَّاءِ سَالِمًا وَالْيَا عَلَيْهِمْ كَمَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ.
وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: حَاصَرَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ بْنِ هُودٍ مَدِينَةَ لَبْلَةَ، وَكَانَتْ لِلْإِسْلَامِ، وَثَارَ عَلَيْهِ بِهَا قَائِدُهَا ابْنُ مُحْفُوظٍ، فَطَالَ مَقَامُهُ عَلَيْهَا وَضَيَّقَ بِأَهْلِهَا وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، فَرَحَلَ عَنْهَا وَلَمْ يَعدْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَيْهَا.

ذِكْرُ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى فِي هَذِهِ السَّنَةِ

لَمَّا اتَّصَلَ بَابِنِ هُودٍ خُرُوجُ الطَّاعِيَةِ أَذْفُونُشَ الْأَحُولِ مَلِكِ قَسْتَالَةَ بِعَسَاكِرِهِ الذَّمِيمَةِ إِلَيْهِ، وَصَحَّ عِنْدَهُ أَنَّهُ مَا عَزَمَ فِي حَرَكَتِهِ إِلَّا عَلَيْهِ، أَقْلَعَ عَنْ حِصَارِ لَبْلَةَ بِجُنْدِهِ وَعَادَ بِهِمْ إِلَى بِلَادِهِ، فَوَصَلَهُ رُسُلُ أَذْفُونُشَ، فَعَقَدَ مَعَهُ الصُّلْحَ لِمُدَّةٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَبِضَ مِنْهَا خَمْسِينَ أَلْفًا مَعْجَلَةً وَبَاقِي الْعَدَدِ عَلَى الْأَعْوَامِ الْمَذْكُورَةِ مُقَسَّطَةً مُؤَجَّلَةً. وَحِينَئِذٍ انْصَرَفَ أَذْفُونُشَ إِلَى بِلَادِهِ صَادِرًا، وَبَقِيَ ابْنُ مُحْفُوظٍ

(١) فِي ق، ك، ب: «شَيْخِهِمْ».

لابن هود مُنَافِراً، ووزَّع ابنُ هود المالَ المُتَّفَقَ عليه معَ أَذْفُونُشَ على البلاد الأندلسيَّة الإسلاميَّة، ثم فَسَد الصِّلُحُ بعدَ سنةٍ واحدة.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وست مئة: كان دُخُولُ النَّصارى مدينةَ قُرْطُبَةَ أعادها اللهُ للإسلام: نَزَلَ أَذْفُونُشُ أخزاه الله بعساكره الذميمة على مدينة قُرْطُبَةَ فحاصَرها وضَيَّقَ عليها، وأقْبَلَتْ نحوَه الحُشُودُ من البلاد القاصية والدانية، إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها، وهذا من أجل مُصابٍ وأعْظَمِهِ، ولكنَّ الرِّضى بما قَدَّرَه اللهُ وأَحْكَمَ، إذ هي أُمُّ المدائن، وقرَّةُ عَيْنِ الوارِدِ والقاطِنِ، فلقد حَلَّ بالأندلس من الرُّوم ما يَلِينُ له القاسي، وتنهدُ له الجبالُ الرُّواسي، ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

وكان أوَّلَ ما أخذ العدوُ قَصَمَه اللهُ شَرَقِيَّها، ثم لازَمَها حتَّى استَوَلَى عليها في الثالث والعشرين لشَوَّال من السَّنة، فكان بينَ الحادثِ في طُلَيْطَلَةَ والحادثِ في قُرْطُبَةَ مئة سنة وستٍّ وخمسون سنة^(١).

رَجَعَ الخَبَرُ إلى أمورِ الرَّشيدِ وأحوالِهِ وكيفيَّةِ قفولِهِ من سِجِلْماسَةَ وانتقالِهِ

وفي هذه السَّنة: شاع الخبرُ بحركة أميرِ المؤمنينَ الرَّشيدِ من سِجِلْماسَةَ وقُصُودِهِ إلى مَرَّاكُش، ومُحاطَبَتِهِ إلى جرمونَ بنِ عيسى وإلى عَرَبِ سُفْيَانٍ وَمَنْ والاهُم واستنصارِهِ بهم على أعداءِ جميعِهِم الخُلَطَّ، فكانت بمرَّاكُش أهوالٌ، واضطربت بها أحوالٌ، وشرَّعَ يحیی في حركته منها بجموع الخُلَطَّ وَمَنْ بقيَ معه من خُدَّامِهِ، وكان نزولُهُ بالمخالص وخروجهُ إليه من غير احتفال، وخيمَ هنالك أيامًا، واستعدَّ هو ورجالُهُ وحاشيتهُ لها والأخبارُ تَرَدُّ باستقبالِ أميرِ المؤمنينَ الرَّشيدِ والتَّمامِ معَ جرمونَ وسُفْيَانٍ وعزْمِهِم على المُصادمةِ والمُكافحةِ. فتحرَّكَ يحیی ابنُ الناصرِ ومعه ابنُ وقارِيطَ وهسكورةُ والخُلَطَّ، وبَحَرُهم زَاخِرٌ ومَوْجُهُم مُتلاطِمٌ وافرٌ، فَقَصَدُوا أنْجِذامَ^(٢) ولهم صولةٌ على الأيَّامِ، وتصريحٌ بأن لا غالبَ لهم من الأنامِ، فإنَّهم كانوا في قوَّةٍ عظيمةٍ وشِدَّةٍ لا تُرامَ^(٣).

(١) تاريخ ابن خلدون ٢١٧/٤.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وستأتي بعد قليل برسم: «أوجدام»، ولم نقف عليها.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٣٤٤/٦، والاستقصا ٢٤٤/٢.

ذكرُ مقابلةِ الرّشيدِ ليحيى ابن الناصر

وانهزام يحيى مع الخُلَطّ وجميع أنصاره

لَمَّا قَطَعَ أميرُ المؤمنين الرّشيدُ واديَّ أُمّ ربيع، استقبلَهُم للحرب بالعزم والحزم فآلقاهم بمكانهم بأوجدام، فكان بينهم وبينه قتالٌ شديد، وصبرَ الفريقانِ صبراً يَذُوبُ له الحديد، ثم كانت الحربُ آخرَ النهارِ سجالاً، ولم يُجَلِّ للخُلَطّ فيه مجالاً، وعاد كلُّ فريقٍ إلى مخيمه، فهاجَت هنالك نفوسُ الشُّجعان، والتفتَ مقدّماتُ الفريقينِ وطلّعتُهُم بذلك المكان، والظهورُ في تلكِ المواطنِ للرّشيدِ ويحيى في إنكارٍ وقد بدا له ما لم يكن يُحتسب، وبدتْ منه أحوالُ المُضطرب، لم يستقرَّ على حالٍ ولم يزلْ حليفَ أوجال، في كلِّ يومٍ بين الفريقينِ جَلادٌ وجِدال، فلَمَّا انقَضَت عَشْرَةُ أيامٍ منَ اليومِ الأولِ الذي كانت فيه الخُلَطّ بصورةِ المنهزم، تجددَ للقاءِ الأقرانِ شوقُ الفريقينِ، وانبعثتِ النفوسُ لهيجاءِ طال العهدُ بها تُصمُّ المسمعينِ وتُعمي العينينِ، وكان بينهم من القتالِ ما يشيبُ له الولدان، وشبَّت الحربُ نارها بكلِّ جهةٍ ومكان، وصافحت الصِّفاحُ أبطالُ الشُّجعان، وتكسَّرت في النُّحورِ والصُّدورِ الذُّوابلُ والسُّنان.

فبينما هم كذلك والحربُ بينَ الفريقينِ تضطربُ، والمنايا للنفوسِ تحترمُ، إذ قصدَ النّصارى أقوى جهةٍ من جهاتِ العدوِّ فدفعوا عليه دَفْعَةً شَنِيعَةً قَتَلُوا فيها خَلْقاً كثيراً، فولّوا الخُلَطّ وأميرُهُم أدبارَهُم، وآثروا على الثباتِ فرارَهُم، فاتَّبَعَهُم الأجنادُ يقتلونَ ويأسرونَ، وأخرجوهم قَهْراً عن كلِّ ما كانوا يَمْلِكُون، وأسلموا مُهْجَتَهُم وأبناءَهُم وأموالَهُم ونساءَهُم، وما انشؤا عن فرارِ متّصلٍ ليلاً ولا نهاراً، وخَرَجُوا عن كلِّ نعمةٍ كانت بأيديهِم اضطراباً، وحصلَ أميرُ المؤمنين وأجنادُهُ وعَرَبُهُ على أشياءٍ لا يُحِيطُ بها الوُصفُ، ولو أتى كلُّ آتٍ في هذا بما عسى أن يأتي من الشرحِ لكان مُقْصِراً، وعن مدى البلاغةِ في شرحِ هذا النّبأِ العظيمِ متأخراً، وفَرَّ الخُلَطّ على وجوهِهِم خاسرينَ ولم يُفْلِتُوا إلّا بما خَفَّ من أهلِهِم وأولادِهِم، وتركوا جميعَ طارِفِهِم وتالِدِهِم. فسبحانَ الذي أخذَهُم أخذَةً رابيةً، وأوقعَ بهم ما لم يُبَقِّ لهم من باقية. وأقام الرّشيدُ بتلكِ المعالمِ الفسيحةِ الأرجاءِ المتسعةِ النِّعماءِ والنَّصرُ يَكُنُّهُ من جميعِ أكنافِهِ وأرجاءِهِ، والفتحُ العظيمُ الجسيمُ يُبَشِّرُهُ بما يستقبلُهُ من الفُتوحِ الدالّةِ على فَضْلِ اللهِ تعالى واعتنائه.

وانبسطت بهذا الصنع الكريم نفوس المسلمين، وانقبضت أي^(١) انقباض نفوس الأعداء الخاسرين، ووثقوا بارتفاع الفتن التي غيرت آثارهم، وأعدت ليلاً نهارهم، وأعدمتهم دهرًا مرافقهم وأسعارهم.

وقد كان الخلط استولوا على البلاد والرعية وما كان في جهة من الجهات كلها عاملًا لأمر المؤمنين ولا مُشغَلٌ بمَجْبِي من المَجابي، حتى انطمس رَسْمُ الخراج بالكُلِّية وتعتلَّ بكلِّ مكان، ودعت لهذه العلة ضرورة الاحتياج في أوقات تقدّمت هذا إلى توظيف مال، وتعيّنت رجالٌ لشدة الحاجة وتبيين أحوال الأجناد، وافتقارهم إلى إقامة الأود الذي عليه الاعتماد.

ولما كانوا دخلوا مع أمير المؤمنين المأمون بلغوا من الترفه والقوة والظهور والحصول على الأموال والذخائر ونفيس الوطاء والغطاء ما هو شائع في العالم ذكره، فافتضى نظر الرشيد أن يُقدّم عملاً على البلاد التي كان الخلط أشدَّ استيلاءً عليها، وهي: صنّهاجة تأسفرت ودكالة ورجراجة، فتخير من كفاة رجاله وخيار عماله من ارتضاه ووثق بكفائيته في ضمّ الرعية، وطلبها بالواجبات واستخراج ما كان بأيدي الخلط أعدائه، فكان في ذلك ما لا يُحيط به الأوهام، وأشغَل طلبه عن طلب الجباية في ذلك الأوان، والله تعالى وحده الإحاطة.

وكانت إقامته لذلك أيامًا حتى كمل عمله في هذا المهم من إنفاذ عماله للبلاد وترتيب منازل عرب سُفَيان وتحسين أحوالهم بمُساعدتهم في جميع ما تحصل بأيديهم، وقد كانوا في ضيق من العيش فاتسعت أحوالهم وتجددت آمالهم وكثرت جموعهم وانضاف إليهم كثيرٌ من الأصناف التي كانت من إمداد الخلط، وامتلات الأرض بهم وهم فرحون بما آتاهم الله تعالى، مستبشرون، متيّمون بخليفتهم وله داعون.

وأخذ أمير المؤمنين الرشيد في الوصول إلى حضرته ودار خلافته، فبادر الناس باللقاء وأعلنوا له بالدعاء، وكان لدخوله يومٌ شهير وحفلٌ عظيمٌ خطير، وحلّ بقصره في عزّة سامية، وسعادة بركاتها نامية، قد بلغ أمله في الأخذ بثارهِ، وعاد إلى وطن طال العهد بالخلول بقراره، فأغضى عن كلِّ أحد وصفح وعفا وأحسن وسمح.

(١) في ق، ك: «إلى» ولا تتجّه.

واستمرت هُدنة البلاد، وعافية العباد، وانحسرت دواعي الفساد وأسباب العناد، وعادت الرعية إلى الطاعة والوصول إلى المشتغلين وأداء الواجبات، وعمرت المدارس، وارتفعت عن الأمة أمور من المظالم التي كانت العرب يتنوعون فيها، ومطرت البلاد مطراً استشعر الناس به الانتعاش، وحرثوا بنسبة الوقت وعدم الزرع، فإنه كان في صدر هذه المدة من صدر عام ثلاثة وثلاثين معدوماً، وما كان سبب وجدانه إلا استخراج ما كان للخلط مخزوناً في الحضرة وحوزها وجهاتها.

ووصل في هذه السنة جماعة من الموحدين وأشياخهم، وأنسوا بطاعة أمير المؤمنين، وقد كان ترك أبا يعقوب يوسف بن علي بن يوسف والياً بسجلماسة، وأقام الشيخ أبو علي ابن الشيخ أبي محمد عبد العزيز وإخوانهم هنالك برسم الأوبة إلى بلادهم، وتوجه موسى ابن الناصر أمير المؤمنين إلى درعة، ولم يتحرك من سجلماسة أحد من صنف الموحدين مع أمير المؤمنين، فأما أبو يعقوب يوسف بن علي فإنه لما ثار بمقربة من سجلماسة شخص من صنهاجة ما زال يضايقه حتى اقتحمها عليه برأي من أهلها ومساعدة له، فقتل واليها من قبل الرشيد ودُفن في فرناج الحمام، وفر الموحدون من هنالك ولحقوا ببلادهم، وقتل بدرعة موسى ابن الناصر. ولما وصل الموحدون إلى الرشيد وتمكنوا من بلادهم وسهائهم وأملأهم وبان صلاحهم، اقتضت الحال إعمال الحركة إلى الغرب في طلب يحيى والخلط، وقد كان الخلط لما انهمروا أخذوا في تدبير مصالحهم وأجمعوا أمرهم على نظر المصلحة في نكت بيعة يحيى ورفضه، وما زالوا يتحيلون في إخراجهم من بين أظهرهم إلى أن وصله بعض عرب المعقل فأوى إليهم طريداً شريداً لا يملك نقيراً ولا فتيلاً، فبقي عندهم يتردد بينهم إلى أن جرى عليه حكم الله السابق في علمه فقتل على ما يأتي ذكره.

ولما تشاور عرب الخلط في مصالحهم وأجمعوا رأيهم على أمر لا بد لهم من إثباته، ندبهم ابن وقاريط بفجوره وغدره، وزين لهم قبيح رأيه، وحضهم على الاستنصار بآبن هود داعي الأندلس والاستصراخ به ليمددهم بعسكر من عنده ويكونوا من حزيه وجنده، ويقوموا في هذه البلاد بخدمته ويعلنوا بطاعته، فاستصوب العرب رأيه واستجادوا سعيه، وأخذوا في تعيين من يتوجه بكتبهم إليه، فانتدب ابن وقاريط إلى التوجه بنفسه

مَعَ أَحَدِ أَوْلَادِ هَلَالٍ وَجَمَاعَةٍ مِنْ وَجْهِ الْخُلُطِّ، فَكُلُّهُمْ شَكَرُوا بِدَارِهِ، وَأَظْهَرُوا بَرَّهُ وَإِثَارَهُ، وَابْنُ وَقَارِيطَ بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَكْرِ الَّذِي لَا يُدْرِكُ فِيهِ مَدَاهُ، إِنَّمَا اشْتَغَلَ بِالْتِمَهِيدِ لِنَفْسِهِ، وَالنَّجَاةِ بِرَأْسِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِرُّ فِي الْغَرْبِ وَلَا يُمْكِنُهُ اسْتِيطَانُ بِلَادِهِ بِمَقْرَبَةٍ مِنْ دَارِ الْأَمْرِ، فَيَكُونُ نِصْبُ الْعَيْنِ، فَاخْتَارَ الْبَعْدَ وَالْانْقِطَاعَ فِي جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ عَلَى صُورَةِ طَلَبِ الْاِقْتِصَادِ وَالْاِسْتِمْدَادِ مِنْ ابْنِ هُودٍ، فَتَمَّ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ تَدْبِيرُهُ، فَتَوَجَّهَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْخُلُطِّ وَاتَّصَلَ بِابْنِ هُودٍ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ إِقْبَالًا عَظِيمًا وَأَعْطَاهُمْ^(١) وَأَنْزَلَهُمْ، وَاسْتَمَرَّتْ إِقَامَتُهُمْ هُنَاكَ إِلَى أَمَدِ الْقَبْضِ عَلَى ابْنِ وَقَارِيطَ فِي عَامِ خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ عَلَى مَا يُذَكَّرُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَبَقِيَ الْعَرَبُ الْخُلُطُّ فِي اخْتِلَالٍ وَاضْطِرَابِ أَحْوَالٍ وَمُلَاقَاةِ أَهْوَالٍ إِلَى أَنْ تَحْرَكَ الرَّشِيدُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى الْغَرْبِ فَفَرَّوْا أَمَامَهُ وَهَابُوا قُدُومَهُ وَإِقْدَامَهُ، فَافْتَرَقُوا فِي الْبِلَادِ وَتَفَرَّقُوا فِي الْقِبَالِ عِبْرَةً لِمَنْ يَتَعَبَّرُ وَعِظَةً لِمَنْ دَجَرَ.

ذَكَرُ حَرَكَةِ الرَّشِيدِ إِلَى الْغَرْبِ وَهِيَ الْأُولَى

لَمَّا اجْتَمَعَ رَأْيُهُ عَلَى الْحَرَكَةِ إِلَى الْغَرْبِ، بِذَلِكَ الْعَطَاءِ الْوَاسِعِ لِلْأَجْنَادِ، وَأَمَرَ الْمُوحِّدِينَ أَنْ يُعِينُوا لَهُ حِصَّةً مِنْهُمْ عَلَى قِبَائِلِهِمْ، فَكَتَبُوا لَهُ بَعْضًا مِنْهُمْ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْوُصُولِ لِمَرَاكُشٍ، فَأَعْطَاهُمْ بَرَكَاتٍ وَأَزُودَةً وَأَحْسَنَ لِأَشْيَاحِهِمْ إِحْسَانًا كَثِيرًا، وَاسْتَعَدَّ لَهُذِهِ الْحَرَكَةَ اسْتِعْدَادًا ضَخْمًا، وَاسْتَقْبَلَهُمْ اسْتِقْبَالًا فَحْمًا، وَأَظْهَرَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعُدَّةِ وَالْأَخْبِيَةِ مَا يَرُوقُ مِنْظَرُهُ، وَتَرَكَ بِحَضْرَتِهِ وَالْيَا الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ ابْنَ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِرَسْمِ الْقِيَادَةِ وَصَاحِبُ الْأَشْغَالِ بِهَا: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ يَوْسُفَ التِّنِيمَلِيِّ وَقَاضِي الْجَمَاعَةِ: أَبُو زَيْدٍ الْمَكَادِيُّ، وَصَاحِبُ الشُّرْطَةِ حَيْتَنُذِ: يَوْسُفُ بْنُ عَثْمَانَ الْهَتْنَاتِيَّ^(٢)، فَلَمْ يُقْصِرِ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي ضَبْطِ الْمَدِينَةِ وَحِيَاطَتِهَا وَمُبَاشَرَةِ أُمُورِهَا وَاسْتَقْلَالِ بَذَلِكَ اسْتِقْلَالًا مِثْلَهُ ذَاتًا وَمَنْصِبًا، وَالنَّاسُ فِي دَعَاةٍ وَسُكُونٍ وَالسُّبُلُ آمِنَةٌ وَالْخَيْرَاتُ آتِيَةٌ وَالنَّفُوسُ وَادَعَاةٌ مَطْمَئِنَّةٌ.

(١) سقطت هذه الكلمة من ق، ك.

(٢) سقطت من ق، ك.

واستقبل الرشيد الغرب وكل تيسير يُيسره وكل صنْع جميل يأتيه ويُبادره، تتلقاه البلاد والقبائل، وتحميه القنا والقبائل، فقصد مدينة فاس فخيّم بها مُقيماً، وحلّ منها جنةً ونعيماً، ونفوس أهلها شائعةً إلى لقائه، وقلوبهم مجبولةً على حبه، وجوانحهم مُنطويةً على طاعته، لا تلقى إلا داعياً بنصره، وضارعاً في إعلاء ذكره، ووافق وصولة قرب الصائفة والبلاد تقشعرّ الجلود من ارتفاع السعر بها، فانجلت تلك الغماء على عهد قريب وأمد يسير.

ولما ألقى بفاس عصا التسيار، واستقرّ بعَرَصاتها القرار، ولم يكن بُدّ من النظر للأجناد، وطلب المجابي التي في البلاد، نظر في الوجوه التي يكمل بها هذا المراد، ورَجَّح من الأقوال ما فيه مخيلة الإسعاد، فاقتضى العزم، واستجدّ الحزم، ورأى أن الذي يشفي النفوس من صدى غلتها ويريح عاجلاً من علتها، تقديم من له قول مُطاع، وقوة واضطلاع، وحكم يُتلقى بالامثال، وأمر يرد فلا يردُّ بتأول واعتلال. واستمرت المفاوضات في ذلك وفي النفس ما قد تخلص ترجيحه من الاقتصار بهذا الخطب الكبير على وزيره السيّد أبي محمد، ثم خرج له بمقصوده، وألقى له بجميع عهوده، وحمله^(١) هذه الأمانة بحسن ظنه فيه وتقديره، وتصديق ما هجس في خاطره في حال تدبيره.

ذكر حركة السيّد أبي محمد إلى غماره

ومقتل يحيى ابن الناصر رحمه الله تعالى

توجه السيّد أبو محمد ابن السيّد أبي سعيد ابن الخليفة المنصور، وتوجه معه جميع الجند من المسلمين والنصارى، واستخلف على الوزارة الشيخ أبا موسى بن عطّوش، وأقام الأشياخ من الموحّدين بحضرة فاس، وتوجه مع الشيخ أبي محمد مشتغلاً له الشيخ أبو زكريّا ابن عطّوش ومقيّد أشغاله أبو العباس ابن هشام من خواصّ العمال ونُبّهائهم، وجببت القبائل الغمارية والفازازية جباية عظيمة حصل الأجناد منها على مالٍ عظيم وكل مُشتغل كذلك.

(١) في ق، ك: «وحملته».

وفي أثناء هذه الحركة سيق إلى حضرة فاس رأس يحيى ابن الناصر أمير المؤمنين، وكان لما انهزم مع الخُلَط صار إلى العرب في عدّة قليلة ثم رَفَضوه وتَرَكوه وتشاءموا باتباعه، فَقَذَفَتْ به الأيام إلى بعض عَرَبِ المَعْقِل، فأَوَى إليهم فاحتَوَوْا عليه ووَعَدُوهُ بِنَصْرَتِهِ، وطلبوا منه ظهائر بإعطاء ما لا يملك، وتَبَسَّطُوا في المطالب طَمَاعِيَّةً في أن تعود له الدُّنيا المُدْبِرَةُ عنه، فَحَمَلَهُ سُوءُ النَّظَرِ على التوقف في تلك المطالب، فامتَلَأَتْ صُدُورُ ناسٍ منهم غَيْظًا عليه، فانتَدَبَ شَخْصٌ لَغَدْرِهِ وَقَتْلِهِ، فلَمَّا كان يومٌ من أيام رحيله اغتاله شيطانٌ منهم فَخَرَّ صَرِيْعًا، ودُفِنَ في قلعةٍ في فَحْص يُعْرَفُ بِفَحْصِ الزَّادِ، وهو بين وادي أبي حُلُو ومَخَاضِ النِّسَاءِ، وهذه المواضعُ بينَ مدينةِ فاس ورباط تازا، ويُعْرَفُ الْفَحْصُ المذكورُ أيضًا بمَقْتَلَةِ عامر، وهذا عامرٌ هو: ابنُ صغير، من المَعْقِل، قُتِلَ هنالك في فتنة.

ولمَّا سيق رأسه إلى حضرة فاس وَجَّهَ به الرَّشِيدُ إلى مَرَاكُشٍ في زِقِّ عَسَلٍ وصل به إلى مَرَاكُشَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن محمد الْفَكَاكِ المعروفُ بابن التُّرْجَمَانِ، ولم يكن أبو محمد المذكور يُعْرَفُ قديمًا سوى بِالْفَكَاكِ لِقَبًّا، ولمَّا وَرَدَ بذلك وبكُتِبَ الخليفة الرَّشِيدُ على الشَّيْخِ أَبِي محمد عبد العزيز المَقْدَمِ على مَرَاكُشِ جَمَعَ النَّاسَ على طبقاتهم ومَرَاتِبِهِمْ وقرأ عليهم الْكِتَابَ الْإِمَامِيَّ والرَّأْسَ في طَسْتٍ، ثم أَمَرَ بتعليقه على باب الشَّرِيعَةِ: من أَبْوَابِ مَرَاكُشِ، فسَبَحَانَ مَنْ لَا يَحْوُلُ سُلْطَانُهُ وَلَا يُرَدُّ حُكْمُهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ شَأْنُهُ! فلقد كان لهذا الرَّجُلِ في الدُّنْيَا مِنَ التَّغْلَبِ وَالتَّمَلُّكِ وَالتَّخَلِّيِّ ما لَا يُحِيطُ به الْأَفْكَارُ، ولله سَبْحَانَهُ الْقُوَّةُ وَالْإِقْتِدَارُ.

وفي أثناء ذلك وَرَدَ الْأَمْرُ من حضرة فاس على الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ المذكور بِقَتْلِ^(١) حَسَنَ بن زَيْدِ الْعَاصِمِيِّ وفائد بن عامر، وهؤلاءِ كَانَ الْقَبْضُ عليهم بِسَعَايَةِ أَبِي الْحَسَنِ جَرْمُونِ رَئِيسِ الْعَرَبِ وَشَيْخِهِمْ، وَالْأَخْوَانِ الْمَذْكُورِينَ: فائِدٌ وَقَائِدٌ، من رُؤَسَاءِ الْعَرَبِ بَنِي جَابِرٍ، وَأَمَّا الْعَاصِمِيُّ فَرِئِيسُ إِخْوَانِهِ وَهُمْ شَوْكَةُ سُفْيَانٍ وَلَهُمُ الرِّيَاسَةُ فِي الْقَدِيمِ، وَلَكِنَّهَا انْتَقَلَتْ إِلَى قُرَّةٍ لِانْتِقَالِ الرِّيَاسَةِ إِلَى جَرْمُونٍ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ.

(١) في ق، لك: «القتال»، ويأتي بعد قليل ما يعضد اختيارنا.

ولمَّا وَرَدَ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ الْأَمْرُ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ، وَكَانُوا مُعْتَقَلِينَ فِي مَخْزِنٍ هُوَ سِجْنٌ أَمْثَلُهُم بِالرَّحْبَةِ الْكُبْرَى مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ، فَأُخْرِجَ عِشْيَ الْيَوْمِ الَّذِي وَرَدَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِيهِ بَضْرِبَ أَعْنَاقِ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ بِإِزَاءِ قَوْسٍ يَجْلِسُ فِيهِ الْوُزَرَاءُ لِلْخِلَافَةِ، وَأَدْخَلُوا شَهْوَدًا عَيْنَهُمْ قَتْلَى، وَكَتَبَ عَقْدًا بِإِنْفَازِ مَا أُمِرَ بِهِ وَوَجَّهَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدِ^(١).

وَفِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَمَرَ الرَّشِيدُ لِلشَّيْخِ أَبِي مُوسَى مُسْتَخْلَفَ الْوَزِيرِ السَّيِّدِ أَبِي مُحَمَّدٍ سَعْدٍ بِاسْتِدْعَاءِ أَشْيَاحِ الْمُوَحِّدِينَ لِيَأْخُذَ مَعَهُمْ فِي رَدٍّ مَا تَصَيَّرَ إِلَى رِحَالِهِمْ وَذَوِيهِمْ مِنْ خَيْلٍ الْمَعْقِلِ الَّذِينَ كَانُوا وَقَدُوا عَلَى الْحُضْرَةِ وَاعْتَدَوْا عَلَى دَوَابِّ النَّاسِ وَانْتَهَبُوهَا بِخَارِجِ فَاسٍ، فَوَصَلَ إِلَيْهَا الْأَشْيَاحُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ إِلَّا أَبَا إِسْحَاقَ ابْنَ الشَّيْخِ لِأَنَّهُ أَدْرَكَتْهُ تَغَلُّظُهَا عَنْ إِجَابَتِهِ وَتَكَلَّمَ بِقَدْحٍ فِيهِ وَاسْتَحْقَرَهُ لِكُونِهِ مِنْ عَامَّةِ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ كَوْمِيَّةٍ، وَهُوَ مِنْ صَبْيَانِ أَهْلِ الْجَمَاعَةِ مِنْ هَرِغَةٍ.

وَلَمَّا نُصِبَ الْخَبْرُ إِلَى الرَّشِيدِ بِتَوْقُفِ ابْنِ أَمْغَارَ الْمَذْكُورِ عَنِ الْوُصُولِ لِلْوَزِيرِ نَفَذَ أَمْرَهُ بِسَجْنِ أَشْيَاحِ الْمُوَحِّدِينَ بِمَوْضِعِ جُلُوسِهِمْ، ثُمَّ عَطَفَتْهُ الرَّحْمَةُ عَلَيْهِمْ فَسَرَّحَهُمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، فَعَرَّفَهُمْ - فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ - بِبَطْشِهِ وَسَطْوَتِهِ وَبِإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَعَلَى أَثَرِ ذَلِكَ عَادَ الْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ مِنْ غَمَارَةِ بِالْجَيْشِ الْكَثِيفِ وَالْمَالِ الْوَاسِعِ.

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ عَادَ الرَّشِيدُ إِلَى حَضْرَتِهِ مَرَّاتٍ كَثُورٍ أُمُّ الْقُرَى بِهَذَا الْإِقْلِيمِ وَمَحَلُّ الْخُلَفَاءِ وَدَارِهِمْ، وَوَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْحُضْرَةِ عَلَى اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ مَدِينَةِ فَاسٍ، وَكَانَ لِهَذَا الْيَوْمِ شَأْنٌ مَشْهُورٌ، وَذَكَرٌ مَعْرُوفٌ فِي الْآفَاقِ مَثُورٌ، وَعَادَتْ الْأَحْوَالُ كُلُّهَا إِلَى نِظَامِهَا وَقَوَانِينِهَا، وَاسْتَقَامَتِ الْأَيَّامُ، وَشَفِيَ الْإِمَامُ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى قَوَاعِدِ الْبِلَادِ كُلِّهَا رَجَالَهُ وَعُمَلَاهُ، وَكَانَ دَخُولُهُ إِلَى مَرَّاتٍ كَثُورٍ فِي صَدْرِ عَامٍ أَرْبَعَةٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ بَعْدَمَا قَدَّمَ عَلَى الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ طَائِفَةً مِنْ قَرَابَتِهِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: كَانَ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ وَأَنْوَدِينَ مُقَدِّمًا عَلَى دَرَعَةٍ، وَكَانَ السَّيِّدُ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِسِجْلِمَاسَةَ، تَحَيَّلَ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ حَصَلَ بِهَا بَعْدَ تَمَكُّنِ أَشْرَارٍ فِيهَا عِنْدَ

(١) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٦ / ٣٤٤ بِاخْتِصَارٍ.

الفتنة الناشئة بها إثر خروج الرّشيد منها وقتل أبي يعقوب يوسف بن عليّ بها، وقد تقدّم شرح ذلك، فما زال الشيخ أبو محمد يتحيّل وينظرُ وجوه التمكن منها إلى أن انتَهَزَ فُرْصَةً فيها ودخلها الشيخ أبو محمد بن وانودين، وخرج عنها السيّد أبو محمد المذكور، ولقد كانت له فيها آثارٌ سلك فيها مسالك الخلفاء في أمورٍ يطول ذكرها وقام بالدعوة الرّشيدية بها أبو محمد بن وانودين.

وفي سنة أربع وثلاثين وست مئة: عمّر الموحدون بلادهم ومجاشرهم، وضمّوا شركاءهم وأقبلوا على أشغالهم وصّلاح أحوالهم في خدمة بواديهم وإطلاق سواقيهم، واتّسعت أحوالهم وتوفّرت آماهم، وقَدّم منهم حُفَظًا على الجهات وظهّرت أمورهم بادية الصّلاح دالّة على النّجاح، وترتيب أمورهم أيّ ترتيب، وجرت الأحوال كلّها على الاستقامة: أحوال البعيد منهم والقريب.

وفي هذه السّنة: كانت حركة الرّشيد إلى حضرة فاس أيضًا، ولما اتّصل بها وأقام وصلّته أرسل بني مَرين، فقام بها خير قيام، وصيّفهم بخارج فاس، ووصلّهم بإحسان كثير وكُسُواتٍ فاخرة، ولم يكن له كبير أثر في المغرب في هذا العام، وكانت الجباية بنسبتها إلى ما كان في العام الفارط قليلة، واستخلف على مراكش في هذه السّنة الشيخ أبا محمد ابن الشيخ بن أبي إبراهيم وعامله عليها أبو يعقوب يوسف الهنتائي.

وفي هذه السّنة: توفي الكاتب الجليل أبو عبد الله محمد بن أبي عشرة السلاوي رحمه الله تعالى، ودُفن بفاس.

وفيها: كان الغلاء المُفرط الذي انتهى فيه الرُّبْع الواحد من الدّقيق إلى سبعة وثلاثين درهماً، ولكنّ الناس كانت أحوالهم تُقاوم هذا الغلاء، فإنّ السّلع كلّها نفقت أسواقها ودَرت أرزاقها، وكان الدرهم الواحد أفضله عشرون درهماً أو نحو ذلك، والمردُّ هكذا في كلّ سوق، فما كان أحدٌ من التّجار ولا من السّوقة يُبالي بتضاعف نفقته مع جزيل الفائدة العائدة عليه في تجارته، وأرباب الدولة قد امتلأت أيديهم بالخير الكثير، وكلّ نفس مستعدّة للحرث إذا أفاء الله تعالى على العباد بنعمته وأعانهم بوابل رحمته، فإنه مفتاح الأرزاق والسبب الموصّل إلى الخير، واستمرت حركة الرّشيد بقيّة هذه السّنة المؤرّخة.

رَجْعُ الخبر إلى بعض أخبار الأندلس

وفي هذه السنة: امتدت آمال المتوكل على الله ابن هود في سلطنته بالأندلس، وكتب إلى ولاة البلاد يأمرهم بالاجتهاد في مصالح العباد، أذكر منها هنا بعض فصولها لكثرة فروعها وأصولها، فمنها بعد البسملة والصلاة والدعاء:

فصول من ذلك^(١)

أما بعد، حمدًا لله الذي أوضح للحق سبيلًا، ومدّ ظل رحمته على الخلق ظليلاً، وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلاً، ونزل الأحكام على قدر المصالح تنزيلاً، ونصب على معلم الهدى علماً لمن اقتدى ودليلاً، وألهم إلى ما يرضاه عملاً ومعقداً وقيلاً، وصلواته الطيبة وبركاته الصيبة على سيد العالمين وخاتم النبيين محمد رسوله الذي فضله بخلته واصطفاه تفضيلاً، وبعثه بالحنيفية السمحة فينبها تبييناً وفصلها تفصيلاً، ورتبها كما أمره ربه إباحةً ونذباً وتحريماً وتحليلاً، حتى ثبتت سنة الله فلن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم به عليه السلام نصاً وتأويلاً، وأبقوا من سيرهم الفاضلة وأحكامهم العادلة أثراً للمقتفين جيلاً، ومآثر تسبح الأفهام والأقلام في مجاريها سبحاً طويلاً^(٢)، وأمضوا عزائمهم فيما نسخ^(٣) لهم بالحق باطلاً وبالهدى تضليلاً، ورضوان الله يتوالى على خليفته وحامل أمانته^(٤) الذي كمل الله به^(٥) موجبات الإمامة تكميلاً، وأنا له من هدي النبوة أفضل ما كان للهداة مئيلاً، سيدنا ومولانا الإمام المستنصر^(٦) بالله

(١) أوردتها المقرئ في نفح الطيب ٧/ ٤٠٧ فما بعدها.

(٢) في نفح الطيب: «أساساً للمقتفين جليلاً، ومآثر للمقتفين تسبح الأفهام والأقلام في بحارها سبحاً طويلاً».

(٣) في النفح: «تنسخ».

(٤) بعد هذا في النفح: «إلى خليفته».

(٥) في النفح: «له».

(٦) في م: «المستظهر»، وفي النفح: «المتنصر» وكله تحريف صوابه ما أثبتناه، وهو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله الخليفة العباسي المشهور الذي تولى بعد الظاهر سنة ٦٢٣ هـ وتوفي سنة ٦٤٠ هـ كما هو مشهور في ترجمته.

أبي^(١) جعفر المنصور أمير المؤمنين، المُتَبَوِّئ من راحة^(٢) الشَّرَف والجلالة [محلاً شريفاً]^(٣) جليلاً، والمنتخب من بُحْبُوحَةِ بَيْتِ الرِّسَالَةِ الذي وَجَدَ الوحيَ عنده مُعَرَّسًا ومَقِيلًا، والدَّعَاءُ لِدِيَوَانِهِ العَزِيزِ النُّبَوِيِّ^(٤) بِنَصْرِ يَأْتِي لِإِمْدَادِهِ بِمَدَدِ المَلَائِكَةِ قَبِيلًا، وَفَتَحَ يَأْتِي الإِيْمَانِ مِنَ الظُّهُورِ بَغِيَّةً وَتَأْمِيلًا.

ومنها^(٥): فَأَوَّلُ مَا نُوصِيكُمْ بِهِ وَأَنْفُسَنَا: تَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ وَخَشْيَتُهُ فِي كُلِّ حَالٍ، وَمِرَاقِبَةُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عِنْدَ كُلِّ انْتِحَاءٍ وَانْتِحَالٍ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ الَّتِي حَدَّهَا وَأَرْصَدَهَا بِإِزَاءِ مَوْجِبَاتِهِ وَأَعْدَّهَا، فَإِنَّهُ لَا يَتَعَدَّاهَا إِلَّا مَنْ رَامَ تَعْفِيَةَ رَسْمِهَا وَطَمَسَهُ، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، وَالْمَحَافِظَةُ عَلَى مَا تُتَحَفَّظُ بِهِ الشَّرِيعَةُ، وَالْمَلَا حِظَةُ لِمَا تَضُمُّ الرِّعَايَا بِهِ حَوَازَةُ الْحَيَاةِ الْمُنِيعَةِ، وَالْمُثَابَرَةُ عَلَى مَا تُكْفَى بِهِ أَكْفُ الْعِثْمَانِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى الْإِثْمَانِ^(٦) بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ وَالِاقْتِدَاءِ، وَالطَّرِيقَةُ السَّمْلِيَّةُ، وَأَيَّاتُ اللَّهِ الَّتِي تُتَلَّى، وَهَدَايَتُهُ الَّتِي لِأَبْصَارِ الْبَصَائِرِ تُجَلَّى، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ وَالْأَخْذُ بِالرَّفْقِ وَالْإِنْجَاحِ^(٧)، وَتَوَخُّي الْحَقِّ الَّذِي هُوَ أَوْضَحُ انْبِلَاجًا مِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ^(٨)، وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاءَةُ، وَالْمَذَاهِبُ الْمُسْتَحْسَنَاتِ^(٩)، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الدِّمَاءِ، فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَا يُقْصَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى اسْتِحْلَالِهَا إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: كَفَرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ، أَوْ زَنَّا بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتَلَ الْمُسْلِمَ لِأَخِيهِ، وَقَدْ قَالَ مَالِكُ الْحَلَقِ وَالْأَمْرِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فَتَبَتُّوا فِيهَا فَأَمَرُهَا جَلِيلٌ، وَتَحْرِيمُهَا لَا يَدْخُلُهُ تَحْلِيلٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ: «أَبُو» لَا تَسْتَقِيمُ نَحْوًا.

(٢) فِي النَّفْحِ: «سَاحَةٌ»، وَهُوَ الْأَوْجُهُ.

(٣) زِيَادَةُ مُتَعَيِّنَةٍ مِنَ النَّفْحِ.

(٤) فِي النَّفْحِ: «وَالدَّعَاءُ لَهُ مِنْ لَدُنِ الْعَزِيزِ الْقَوِيِّ»، وَمَا هُنَا أَحْسَنُ.

(٥) النَّفْحُ ٧/٤٠٩.

(٦) فِي النَّفْحِ: «الْإِهْتِمَامُ»، وَمَا هُنَا أَوْجُهُ.

(٧) فِي م: «الْإِسْجَاحُ»، وَمَا هُنَا يَعْضُدُهُ مَا فِي النَّفْحِ.

(٨) فِي النَّفْحِ: «الْإِصْبَاحُ»، وَهُوَ الْأَوَّلَى لِلْسَّجْعَةِ.

(٩) بَعْدَ هَذَا فِي النَّفْحِ: «وَالْأُمُورُ الْبَيِّنَاتُ».

ومنها^(١): وَمَا نَأْمُرُكُمْ بِهِ: أَنْ تَبْحَثُوا عَلَى الْعَمَالِ، وَلَا تُشْغَلُوا^(٢) مِنْهُمْ إِلَّا الْحَسَنَ
الطريقة المَرْضِيَّةَ الأَعْمَالِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ جَارِيًّا عَلَى الْقَوَانِينِ المَرْعِيَّةِ، نَاصِحًا لِبَيْتِ
الْمَالِ رَافِقًا بِالرَّعِيَّةِ، وَكَانَ فِي أَمَانَتِهِ حَائِدًا عَنِ الْجَادَةِ السَّوِيَّةِ، قَائِلًا كَمَا قَالَ قَبْلَهُ ابْنُ اللَّتْبِيَّةِ^(٣)،
فَلْيُعَوِّضْ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَلْيُدْفَعْ عَنِ الْجَانِبَيْنِ ضَيْرُهُ، فَإِنَّهُ مَا كَانَتْ الْخِيَانَةُ فِي بَشَرٍ^(٤) قَطُّ إِلَّا
أَهْلَكَتْهُ، وَمَا وُضِعَتْ فِي شَيْءٍ طَبِيعَةٌ سُوءٌ إِلَّا مَلَكَتْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مَالُ اللَّهِ تُرْزَقُ^(٥) مِنْهُ الْحُمَاةُ، وَبِهِ
تُسَدُّ الثُّغُورُ المَهْمَاتِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُخْتَارَ لَهُ مُحْتَاطٌ فِي اقْتِضَائِهِ وَقَبْضِهِ، حَافِظٌ لِدِينِهِ وَمَرْوَعَةٌ فِي
كُلِّهِ وَبَعْضِهِ، فَخُذُوا فِي انْتِقَاءِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ الْمُسَمَّيْنَ، وَاطْلُبُوا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الْمُتَصَرِّفِينَ
وَالْمَوْلَيْنِ، وَاجْمَعُوا مِنْ الْجَاهِدِ الْحَمِيدِ وَالْقَصْدِ وَالْاعْتِدَادِ: الْأَثَرُ وَالْعَيْنَ، وَأَنْصِفُوا مِنْهُمْ إِنْ
تَظَلَّمْتُمْ مَظْلَمًا، وَاشْفَعُوا شَكْوَى كُلِّ مُشْتَكٍ وَأَلَمَ كُلِّ مُتَأَلِّمٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ حُرْمَةَ الْأَمْوَالِ بِحُرْمَةِ
الدِّمَاءِ لَاحِقَةٌ، وَأَنَّ إِحْدَى الْقَضِيَّتَيْنِ لِلْآخَرَى مَسَاوِيَةٌ وَمُسَاوِقَةٌ، وَمِنْ أَكْبَرِ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ
وَأَعْظَمُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «حُرْمَةُ مَالِ الْمُسْلِمِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ». وَلَكِنْ النَّاسُ فِي الْحَقِّ سَوَاءٌ لَا
مُحَابَاةَ وَلَا مُفَاضَلَةَ، وَلَا مُجَاوِزَةَ فِي تَغْلِيْبِ قَوِيٍّ عَلَى ضَعِيفٍ وَلَا مُحَاوَلَةَ، وَلَا يُوَازِحُ أَحَدٌ
بِجَرِيمَةٍ^(٦) أَحَدًا، وَلَا يَجْنِي وَلَدٌ عَلَى وَالِدٍ وَلَا وَلَدٌ عَلَى وَلَدٍ، وَكُتِبَ لِلَّهِ أَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ وَأَحْرَى،
يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وَإِذَا^(٧) وَصَلَكُمْ كِتَابُنَا هَذَا فَقُصُّوهُ عَلَى النَّاسِ مُفَصَّلًا وَمُجْمَلًا، وَأَظْهِرُوا لَهُمْ

(١) نفح الطيب ٤١١/٧.

(٢) في النفح: «تولوا».

(٣) إشارة إلى حديث أبي حميد الساعدي، قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بني
سليم يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالكم وهذا هدية، فقال رسول الله ﷺ:
«فهلا جلست في بيت أبيك وأملك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً...» الحديث في البخاري
(٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢)، وقد وقعت العبارة في م: «قابلاً لما قبل» وهو تصحيف جد
ظاهر، وما أثبتناه يعضده ما في نفح الطيب.

(٤) في النفح: «في شيء».

(٥) في ك: «الذي ترتزق».

(٦) في النفح: «بجريمة».

(٧) لو قال هنا «ومنها» لكان أحسن، فما بين ما تقدم وهنا كلام كثير، وينظر النفح ٤١٤/٧.

مَضَامِينَهُ قَوْلًا وَعَمَلًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يُدِيمُ عِلَاءَكُمْ وَيُصِلُ إِعَادَتَكُمْ فِي كُلِّ مُحَمَّدة وَإِبْدَاءِكُمْ، وَيُجْزِلُ حَظوظَكُمْ مِنَ السَّعَادَةِ وَأَنْصِبَاءِكُمْ بِمَنْه وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ، وَالسَّلَامُ. وَكُتِبَ فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ لِحُمَادَى الْأُولَى عَامَ أَرْبَعَةٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتْ مِئَةٍ.

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتْ مِئَةٍ: تَوَفَّى الْأَمِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوْسُفَ بْنِ هُوْدَ، كَانَ مَقْتُلُهُ عَلَى يَدِ عَامِلِهِ ابْنِ الرَّمِيمِيِّ^(١) الْوَالِي مِنْ قَبْلِهِ عَلَى مَدِينَةِ السَّمَرِيةِ فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ لِحُمَادَى الْأُولَى، فَكَانَتْ دَوْلَتُهُ تِسْعَةَ أَعْوَامٍ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَأَيَّامًا. وَسَبَبُ ذَلِكَ: أَنَّهُ كَانَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ عَاهِدَ زَوْجَتِهِ أَلَا يَتَّخِذَ عَلَيْهَا امْرَأَةً طَوْلَ عُمُرِهِ، فَلَمَّا مَلَكَ الْبِلَادَ الْأَنْدَلُسِيَّةَ وَعَظُمَ فِيهَا أَمْرُهُ، حَصَلَتْ بِيَدِهِ رُومِيَّةٌ مِنْ أَبْنَاءِ زُعَمَائِهِمْ وَمِنْ أَجْمَلِ نِسَائِهِمْ، وَقَدْ كَانَ عَاهِدَ زَوْجَتِهِ أَلَا يَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا وَلَا يَسُوقَ رُومِيَّةً إِلَيْهَا، فَأَوْدَعَهَا عِنْدَ ابْنِ الرَّمِيمِيِّ صَاحِبِ السَّمَرِيةِ، فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَنِيَّةِ، فَاسْتَحْسَنَ ابْنُ الرَّمِيمِيِّ الرُّومِيَّةَ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهَا وَضَبَطَهَا لِنَفْسِهِ، وَذَبَرَ وَجْهَ الْحِيلَةِ فِي الْخِلَاصِ مِنْ ذَلِكَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ إِنَّ^(٢) ابْنَ هُوْدَ سَمِعَ بِخَبَرِ رُومِيَّةِ فَاسْتَعْمَلَ حَرَكَتَهُ إِلَى السَّمَرِيةِ عَلَى عَادَتِهِ لِيَنْظُرَ مِنْهَا فِي أُمُورِ الْقَائِمِ عَلَيْهِ بِغَرْنَاطَةِ، وَهُوَ الْأَمِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوْسُفَ بْنِ نَصْرٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ مَلَكَهَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ.

وَلَمَّا وَصَلَ ابْنُ هُوْدَ إِلَى السَّمَرِيةِ بِمَحَلَّتِهِ، نَزَلَ خَارِجَهَا، فَدَبَّرَ ابْنُ الرَّمِيمِيِّ فِي أَمْرِهِ وَعَمِلَ عَلَى أَنْ يَخْلَفَ عَلَيْهِ لِيَدْخُلَ مَعَهُ إِلَى دَارِهِ لِيَقُومَ بِحَقِّهِ فِيهَا خَيْرَ قِيَامٍ، وَلِيَخْلُوَ بِرُومِيَّةِ بَعْضَ أَيَّامٍ، فَدَخَلَ ابْنُ هُوْدَ مَعَهُ فَعَرَّفَهُ بِأَنَّ الرُّومِيَّةَ فِي الْحَمَامِ، وَلَمَّا جَنَّ الظَّلَامُ عَلَيْهِ أَدْخَلَ أَرْبَعَةً مِنَ الرِّجَالِ إِلَيْهِ فَقَتَلُوهُ مَطْفِيًّا، وَبَقِيَ أَمْرُهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ خَفِيًّا^(٣).

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَسْطِيُّ: كَانَ ابْنُ هُوْدَ مِنْ أَسْلَمِ الْمُلُوكِ صَدْرًا، وَغَلَبَ عَلَيْهِ فِي أَكْثَرِ بِلَادِهِ مَنْ جَعَلَهُ فِي أَهْلِهَا صَدْرًا، فَبِالسَّمَرِيةِ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّمِيمِيُّ الْمَدْعُوُّ بِذِي الْوِزَارَتَيْنِ، قَضَى عَلَيْهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ بِمِخْدَتَيْنِ أَعَدَّهُمَا عَلَى أَنْفِهِ وَفِيهِ، وَأَرَاهُ بِالْغَدِ كَأَنَّهُ مَاتَ فَجَاءَةً وَلَا أَثَرَ فِيهِ، وَبِالْقَةِ: عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ زَنْوْنٍ، أَضَرَّ بِهَا حَتَّى الضَّبِّ وَالنَّوْنِ، وَبِغَرْنَاطَةِ: عُتْبَةُ بْنُ يَحْيَى

(١) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَحْيَى الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الرَّمِيمِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ، وَيَنْظُرُ الْمَغْرِبُ لِابْنِ سَعِيدٍ ٢/١٩٩.

(٢) سَقَطَ هَذَا الْحَرْفُ مِنْ ق، ك.

(٣) تَارِيخُ ابْنِ خُلْدُونٍ ٤/٢١٧.

السَّعِيلِيُّ الْخَطِيبُ عَلَى ابْنِ الْأَحْمَرِ بِالسَّوِيَّ، وَمِنْ أَجْلِهِ أَخْرَجَ مِنْهَا شَمْسَهَا فِي الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ، عَلَى مَقْتَضَى لَا يَتَطَّحُ فِيهَا عَنَزَانِ، الْعَالِمَ الْعَلَمَ سَهْلَ بَنِ مَالِكٍ، وَنَفَاهُ إِلَى مُرْسِيَّةٍ فِي اللَّيْلِ الْحَالِكِ، وَاتَّزَّ هَوَاهُ عَلَى حِلْمِهِ، وَاتَّزَّ فِيهِ عَلَى خِلَافِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ، وَبَضْرَبَ الْجَيَانِيَّ وَلَمْ يَجْنِ، وَبَتَرَكَهُ مَنَسِيًّا فِي السَّجْنِ، حَتَّى أَغَاطَ أَمْرُهُ أَهْلَ غَرْنَاطَةَ وَأَضْجَرَ، فَتَهَيَّأَ مُحَمَّدٌ وَأَبُو مُحَمَّدٍ ابْنَا خَلْفِ ابْنِ وَلَجَرٍ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ النَّجْدَةِ، وَتَوَاعَدُوا أَنْ يُصَبِّحُوا عَلَى بَابِ الْقَصْبَةِ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَهُمْ بِسُيُوفِهِمْ مَشْهُورَةٌ، وَمَا ارْتَفَعَ الضُّحَى إِلَّا وَهُمْ فِي الْقُصُورِ يَعْجُونَ، وَأَفْلَتَ حَافِظُهَا الْبَغِيلُ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي هُودٍ، وَقُتِلَ عُتْبَةُ وَآلِيهَا، وَوَجَّهُوا ابْنَ الْأَحْمَرِ لِيَصِلَ إِلَيْهَا.

ذِكْرُ وَصُولِ الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَحْمَرِ إِلَى غَرْنَاطَةَ وَاسْتِيلَائِهِ عَلَيْهَا

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا جَرَى بِغَرْنَاطَةَ مِنْ قَتْلِ وَآلِيهَا عُتْبَةُ بْنُ يَحْيَى مَا جَرَى، أَجْمَعَ أَهْلُهَا عَلَى خَلْعِ ابْنِ هُودٍ وَبَيْعَةِ ابْنِ نَصْرٍ، فَأَنْشَأَ الْبَيْعَةَ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ الرَّعِينِيُّ وَأَبْدَعَ فِيهَا كَتَبَ وَأَنْشَأَ، وَوَجَّهَهَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ الْكَاتِبِ وَأَبِي جَعْفَرٍ النَّمَزُولِيِّ^(١)، وَذَلِكَ فِي الْعَشْرِ الْأَخْرَ لِرَمَضَانَ الْمَعْظَمِ، فَأَقْبَلَ ابْنُ الْأَحْمَرِ إِلَى غَرْنَاطَةَ وَمَا زِيَّهُ بِفَاخِرٍ، وَنَزَلَ بِخَارِجِ غَرْنَاطَةَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنَ الْغَدِ غَدَوًا، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ غَيْرُ ذَلِكَ، فَدَخَلَهَا مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ يَوْمَ نَزُولِهِ. قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَسْطِيُّ: فَعَايَنْتُهُ يَوْمَ دُخُولِهِ بِشَايَةِ^(٢) مُطَّلَعَةً، أَكْتَافُهَا مَقْطُوعَةٌ. وَعِنْدَمَا نَزَلَ بِبَابِ جَامِعِ الْقَصْبَةِ وَحَلَّهُ، وَكَانَ مُؤَذِّنُ الْمَغْرَبِ فِي الْحَيْعَلَةِ وَالْإِمَامُ بِهِ أَبُو الْمَجْدِ الْمُرَادِيُّ، فَغَابَ، فَدَفَعَ الْأَشْيَاخُ السُّلْطَانَ إِلَى الْمِحْرَابِ، فَصَلَّى بِهِمْ عَلَى هَيْئَةِ سَفَرِهِ، بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿الْآيَةُ﴾ وَ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿الْآيَةُ﴾، وَهُوَ بِسُيُوفِهِ مَقْلَدٌ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى قَصْرِ بَادِيَسَ ابْنِ حَبُوسٍ وَالشَّمْعُ بَيْنَ الْأَبْوَابِ يَتَّقَدُ، فَدَخَلَ فِي خَاصَّتِهِ كَأَنَّهُ الْعَرُوسُ فِي مِشْيَتِهِ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ أَنَّ ابْنَ هُودٍ أَعَجَلَتْهُ الْمَمِيَّةُ بَعْدَ وَصُولِهِ إِلَى الْمَرِيَّةِ، وَأَنَّ ابْنَ الرِّمِيَّ قَاتَلَهُ قَامَ بِهَا وَضَبَطَهَا لِنَفْسِهِ، فَزَخَفَ إِلَيْهِ الْأَمِيرُ ابْنُ الْأَحْمَرِ مِنْ غَرْنَاطَةَ فَحَاصَرَهُ فِيهَا حَتَّى ضَاقَتْ حَالُهُ، وَانْقَطَعَتْ آمَالُهُ، فَخَرَجَ مِنْهَا وَدَخَلَ فِي

(١) فِي ك: «وَأَبِي حَفْصٍ».

(٢) هُوَ لِبَاسٌ حَرْبِيٌّ مَحْشُوٌّ بِالْقَطْنِ لَوَقَايَةِ الْمَحَارِبِ (مَعْجَمُ دَوْزِي).

مركب في البحر بأهله وماله، واستقر بمدينة تونس تحت كف الأمير أبي زكريا، وملك أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر مدينة المريّة في هذه السنة، هذا ما ذكره البسّطي.

ذكر مبايعة أبي بكر محمد بن محمد بن يوسف بن هود^(١)

وذلك أنه لما بلغ الخبر إلى مرسية بموت المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود بالمريّة، وشاع ذلك في تلك البلاد الشرقية، اجتمع أهل مرسية على مبايعة ولده إذ كان وليّ عهده، وتسمّى في الخلافة بالواثق بالله، وطاعت له تلك الجهات، فما قام بأمور ولا قعد، ولا صدر فيها ولا ورد، فعافته النفوس، وشمخت عن طاعته الرؤوس، فأقام كذلك سبعة أشهر وخلعوه وقدموا فقيهم^(٢) عزيز بن خطاب وبايعوه، وذلك في السنة الآتية بعد هذه.

وفي هذه السنة: بايع أهل إشبيلية أمير المؤمنين الرشيد في شوال منها بعدما قدموا على أنفسهم واليًا السيد أبا عبد الله ابن السيد أبي عمران، فإنه كان مدة ابن هود بإشبيلية مع أخويه: أبي زيد وأبي موسى، وذلك من حين أويّتهم في كفالة أمهم من بجاية بعد أن استشهد فيها والدهم في الدولة المأمونية حين قيام أبي زكريا بن أبي حفص الهتائي ببلاد إفريقية واستيلائه عليها.

ووصل إلى الحضرة المراكشية وقد أهل إشبيلية، ورُفِضت بها الدولة الهودية وعادت إليها الدولة الموحدية، وكان لأبي عمرو ابن الجدّ أثر كبير في تقديم السيد عليهم، فولاه الرشيد من غير استبداد بنقض ولا تدبير، وإنما كان الأمر لابن الجدّ المذكور الذي أخذ بالحزم والعزم في تلك الأمور، لينال باستبداده غاية مراده، فأخرج بني حجاج اللّخميين الإشبيليين عن إشبيلية إلى سبتة.

وكان أهل سبتة أيضًا قد خلعوا دعوة الموحدين في سنة ثلاثين كما تقدّم ذكره، وقدّموا على أنفسهم شيخًا من أشياخهم وهو الحاج أبو العباس اليانشتي، فقام بأمرهم خير قيام إلى هذه الأيام، فهجست في نفوسهم هواجس الاستبصار، لما أحسوا بوصول

(١) في ق: «أبي بكر محمد بن يوسف بن هود»، وك: «أبي بكر بن يوسف بن هود».

(٢) سقطت من ق، ك.

الأجفان بالوفد والبيعة من إشبيلية إلى الرشيد، فاتفقوا على عودتهم وتجديد بيعتهم له في هذه السنة، وكان وصول الوفد من إشبيلية إلى مرسى مازيغان في جفنين كبيرين من أسطول إشبيلية، ووصل معهم أصناف من الناس، فلما وصلوا حضرة مراكش وقدموا على الرشيد، كان لقدمهم شأن عظيم ونالوا به التفضيل والتكريم، وامتلات النفوس مسرة بانتظام الدعوة بالعدوتين، وشاع الخبر بما كان في سبته أيضًا، وقرئت البيعة الإشبيلية وأنشدت الأشعار، وكثر الفرح والاستبشار، وخطب الخطباء وأفصح الأدباء النثر والنظم، وعمت المسرة نفوس الوافدين وأنزلوا منازل الترحيب والتقريب ووردوا موارد الإحسان، وضيقوا بأنواع التضييف على مراتبهم ومنازلهم، وفرشت الديار لهم، والبر يجمعهم ويشملهم، وقد كان الناس طال عهدهم بهذا الفتح الأندلسي الذي تصغر عنه الفتوحات، فشملت المسرات كبيرهم وصغيرهم، ولم يبق سوق من الأسواق إلا جمع أهلها للتزاهات، وابتاعوا رؤوس البقر والغنم والفواكه، وخرجوا إلى بحائر الحضرة، وذلك على ترتيب الأسواق وأهل الصنائع، وجاء الخبر بقبض أهل إشبيلية على ابن وقاريط المُنْتَرِي إليهم حسبما تقدم ذكره، قصد بذلك أهل إشبيلية إظهار خدمتهم وتكفير ما كان من خروجهم عن الدعوة وتقرير حبهم في الطاعة التي قادهم إليها الاستبصار والاهتداء، فكان أخذ ابن وقاريط من الفتح الذي أرى على فتح إشبيلية، لعداوته القديمة وفتنته التي كان فيها كل الإمعان، وكان أخذ^(١) عمر^(٢) بن وقاريط في سنة أربع وثلاثين حين كان بإشبيلية.

خبر غدر ابن وقاريط لمدينة سلا في هذه السنة

ولقد كان عمر بن وقاريط في سنة أربع وثلاثين حين كان بإشبيلية مع ابن هود والرشيد إذ ذاك بفاس، وصهره الفقيه المكرم أبو العلي سلا مع زوجه الحرّة فاطمة بنت أمير المؤمنين المأمون أخت الرشيد، فلاحت لابن وقاريط فرصة في الهجوم على سلا وأخذ السيد أبي العلي وزوجه الحرّة فاطمة، والاستحواذ على البلد من رباط الفتح، وقرب

(١) سقطت من ق، ك.

(٢) في ق، م: «عمرو»، وهو تحريف، وينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤... إلخ.

هذا المَرامُ البعيدَ في نفس ابن هُود، وطلَبَ منه إعانتَه بجَفْنَيْنِ مُعدَّينَ ليدخُلَ بهما واديَ سَلاَ ويتمكَّنَ بَمَنٍ مَعَهُ مِنَ الغَزَاةِ مِنْ مُرادِهِ، لعلِّمَهُ بخَلَاءِ البلدَيْنِ مِنْ صِنْفِ الأجنادِ وخصوصاً رِبَاطَ الفتح، حيثُ القَصْبَةُ العَظِيمَةُ واستقرارُ الوالي، فأعانَهُ ابنُ هُودَ بما أَرَادَ وأَمَدَّهُ بما شاء، فَقَصَدَ ابنُ وقارِيطَ سَلاَ، وتَصَوَّرَ لَهُ بَعْضُ مرادِهِ، وحَصَلَ في الوادي، وكادَ أَنْ يَمْلِكَ رِبَاطَ الفتح، ولو مَلَكَه لَحَصَلَ على مَعْقِلِ الدُّنْيَا ارتفاعاً وَوِثاقَةً وَمَنَعَةً، فاشتَدَّ النَّاسُ إِلَيْهِ وتكاثَرُوا مِنَ البلدَيْنِ عليه إلى أَنْ اضْطُرَّ إلى الخُروجِ عَنِ الحِلْقِ^(١) والتخَلِّيِ عَنِ البلدَيْنِ وقد أَثَّرَ بَعْضُ التأثيرِ.

فلَمَّا سَمِعَ الرَّشِيدُ هذا الخَبَرَ وطارتِ إِلَيْهِ طَيَّاراتُ الاستعجالِ به، قامَ وَقَعَدَ، وَعَيَّنَ مِنْ فِتْيَانِهِ وَخَاصَّتِهِ وَعُلُوِّجِهِ وَبَعْضَ رِجَالِهِ أَعْدَادًا لَتَدَارُكُ رِبَاطَ الفتح لِإِيصالِ أُخْتِهِ وَأُمِّهِ إِلَيْهِ فِي جَزَعٍ شَدِيدٍ وَأَمْرٍ كَبِيرٍ، فَيَسِّرَ اللهُ مَقْصِدَهُمْ بِتَوَجُّهِ الحُرَّةِ فَاطِمَةَ إِلَى فاس، فَكَانَ هَذَا السَّبَبُ الحَدِيثُ عَهْدُهُ مِنْ أَشَدِّ الأُمُورِ عَلَى ابنِ وَقَارِيطَ حِينَ أَخَذَهُ، فَعَظُمَتِ المَسْرَّةُ بِالقَبْضِ عَلَيْهِ لِلانْتِقَامِ مِنْهُ، وَكَانَ فِي هَذَا كُلِّهِ مِنَ التَّيسِيرِ مَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عَنَايَةِ اللهِ تَعَالَى وَمَا أَرَادَ مِنَ المُسْلِمِينَ مِنَ الحَيَرِ وَالاتِّصَالِ وَالانْتِظَامِ، فَكُلُّ^(٢) ذَلِكَ يَسِيرٌ فِي قُدْرَتِهِ، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

وبَعْدَ أَيَّامٍ وَصَلَتْ^(٣) بَيْعَةُ أَهْلِ سَبْتَةَ^(٤) أَيْضًا، وَصَلَ بِهَا وَجُوهُ أَهْلِ سَبْتَةَ وَأَعْيَانُهُمْ لِمَدِينَةِ مَرَاكُشَ لِلرَّشِيدِ، فَتَكَامَلَتِ المَسَرَّاتُ^(٥) وَتَرَادَفَتِ الفَتُوحَاتُ، وَقَبَضَ أَهْلُ سَبْتَةَ عَلَى اليَانِشَتِيِّ وَابْنِهِ، وَأَدْخَلَ أَهْلُ سَبْتَةَ السَّيِّدَ أَبَا العَبَّاسِ ابْنَ السَّيِّدِ أَبِي سَعِيدٍ، وَكَانَ مَعَ ابْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي يَالُولَ بِأَحْوَازِ غُمَارَةَ وَوَصَلَ مَعَ ابْنِ أَبِي يَالُولَ، وَأَدْخَلَ البَلَدَ أَيْضًا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَسْعُودِ الكُومِيِّ، وَأَعْلَنَ أَهْلُهَا بِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ.

(١) فِي ق، ك: «الحلق».

(٢) فِي ق، ك: «فكان».

(٣) فِي ق، ك: «حصلت».

(٤) مِنْ هُنَا إِلَى قَوْلِهِ: «وَأَعْيَانُهُمْ» سَقَطَ مِنْ ق.

(٥) فِي ق، ك: «المسرة».

ولمّا وصل وفدُ سَبْتَةَ بالبيعة، استُحضر كافةُ الناسَ لقراءتها، وتكلّم الناسُ على طبقاتهم في علومهم وآدابهم وأشعارهم، وكان أيضًا من الاعتناء بهؤلاء الوافدين ما حقّق رجاءهم ووسّع آماهم، واجتمعت الوفودُ من أهل إشبيلية وسَبْتَةَ وغُمارة البحر من البلدَيْن، ووافقوا الصَّيفَ بمَرَّأَش ومزاجها الانحراف وهوأوها رديءٌ بكثرة الأمطار من الجذب الذي كان تقدّم أعوامًا، فكثرت الرُّطوبةُ وحدث الوباء، فتغيّرت أحوالُ أهلها فضلًا عمّن سواهم لا سيّما أهل البحر، فنزل الوباءُ بهم وقتل منهم عددًا كثيرًا، ومَرِضَ الأشياخُ الوافدون كلّهم من أهل سَبْتَةَ وإشبيلية، فأوسعَ لهم الرّشيدُ في العطاء، وربّما زادَ في المال والكسَى على عشرين ألفًا من الدنانير، واشتدّ المَرَضُ على الأشياخ حتى لَقِدَ فَرّ من السَّبْتِيِّينَ البَطْرَنِيُّ شيخُ سَبْتَةَ ونظائرُه خوفَ الموت، فماتوا في الطريق بمقرّبة من الحضرة، ولم يرجعْ من غزاة البلدَيْن العُشْرُ الواحد، فكان ذلك عبرةً للمعتبرين وعِظَةً للمزدجّرين.

ذُكِرَ القَبْضُ على عُمَرَ بن وقاريطَ المذكور

وحملُه من إشبيلية إلى أزمور

ولمّا انقَضَت هذه المحاولاتُ وانتظمتِ المسرّات، وعادتِ الأجوبةُ بشكر المقاصد، وسعادةِ المصادرِ والموارد، سيق ابنُ وقاريطَ من إشبيلية في قطعة، وكان أكبرَ أسبابِ القَبْضِ عليه: أبو عبد الله المومنانّي^(١) من أهل فاس، من الفقهاء الأذكياء الذين لهم أخبارٌ وأحوال، وكان بإشبيلية وله خدمةٌ للدولة المأمونية بها، فتحركَ من إشبيلية إلى تحريض أهلها على توجيهِه، وأنهم ما يُتَحَفُّونَ بِتُحْفَةٍ أطرفَ منها، ووصلتِ القطعةُ بابن وقاريطَ إلى أزمورَ فقبَضَهُ الشَّيْخُ أبو زكريّا ابن عَطُوشِ المشتغلُ هنالك، وكان قبلَه

(١) هو محمد بن عيسى بن مع النصر بن إبراهيم بن دوناس، أبو عبد الله، نزل بعض سلفه بني مومنان من حوز فندلاوة فنسب إليه، وسيأتي بعد قليل تلفه مع أبي حفص، وله ترجمة في أعلام مالقة (٥١)، والتكملة لابن الأبار (١٧٤٨)، وصلة ابن الزبير ٣/ الترجمة (٢٣)، والذيل لابن عبد الملك ٢٤٩/٥، والمستملح للذهبي (٣٥٣)، وتاريخ الإسلام، له ٣٠٣/١٤، وابن القاضي في جذوة الاقتباس ٢٥١/١ وغيرها.

بأزمور الشيخ أبو محمد بن ماكسِن، ولكنه وُجِّه إلى سَبْتَةِ وديوانها وأعمالها عند وصول بيعتها لِقَدَم له في الخدمة ووسائل كان بها مبرورًا محفوظًا.

وكان بأزمور جماعة من الخُلَطّ مساجِن، منهم: عليُّ بن هلال ووشاحُ بن هلال وجماعة من أعيانهم قَبَضَ عليهم أميرُ المؤمنين عند قُفُوله من فاس في صَدْر هذه السَّنة على أنهم مَراهن، واشتغلَ بالتحيل على سائرهم والقَبْض عليهم، فإنهم ضاقت ببغيّتهم الأرض فلجأوا إلى عفوه، ولكنه عَزَمَ على استصفائهم فألحقَ ابنَ وقاريطَ بهم وبَنَى عليه في موضع سجنهم وسَجَنَه بيت صغير ليس له فيه تَرَحُّجٌ من مكانه، واستوثق منه الحديد الثقيل وبقي هنالك أيامًا.

وفي أثناء هذه السَّنة استجلبَ أميرُ المؤمنين الخُلَطّ وأنسَهم وبَسَطَ آمالهم واستدناهم وأنزلهم بتانسيقت، فكان بذلك مخيمهم إلى أن أحكَمَ التدبيرَ في أخذهم، فلما عَزَمَ على ذلك وأمضى رأيَه فيهم استدعى أشياخهم عن آخرهم، وسَجَنَهم، ووجهَ الأجنادَ إلى دواويرهم فأتوا على ما فيها وما بقي لهم مالٌ ولا نفس، وامتلأت أيدي الأجنادِ والناس من أموالهم، وسيقَ النساءُ والدُّرِّيَّة إلى حضرة مَرَاكُش فامتلأت منهم الأسواقُ والسُّكَّك من كلِّ^(١) عذراء ما تجاوزت قَطُّ خَدْرَها وما كان في ذلك من الشَّناعة ما رَقَّت النفوسُ به إليهم، وتساوت الحُرَّةُ العربيَّة الصَّرِيحَة والأُمَّةُ في العبوديَّة، ثم نادى المُنادي بأن لا يُمَدَّ يَدٌ إلى امرأةٍ ولا طفلٍ ولا صغير، وحُشِرَ النساءُ والدُّرِّيَّةُ بدار الأشراف، فضاقت عليهم وامتلأت رِحابُ الجامع، وتعطفَ الناسُ عليهم وأحسنوا إليهم، وأذنَ لأعدائهم من سُفيانَ وبني جابرٍ في سِتْرِ بناتِ الخُلَطّ كبيرهم وصغيرهم، وهذه من أكبرِ النِّكايات وأعظمِ المُصيبات^(٢).

ذكرُ مقتل عُمرَ بن وقاريطَ رحمه الله تعالى

ولما فَعَلَ أميرُ المؤمنين الرَّشيدُ ما فَعَلَ بالعَرَب، أَمَرَ بِقَتْلِ مَنْ في أزمورَ من أشياخهم، وأن يُعَجَّلَ بأمساخهم، فحُزَّت رؤوسهم، وفُقدت نفوسهم، وحُمِلت جملَةٌ

(١) سقطت من ك.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

الرؤوس في خُرُج على جَمل ورُكِبَ عليها ابنُ وقارِيطَ عَوْضَ فرسٍ وسَرَج، وحُمِلَ إلى مَرَاكُشَ على هذه الحالة، فوصل إليها وقد قَرَّبَ اللهُ إلى الأخرى ارتحالَه، فبقيَ ساعةً بخارج المدينة والناس ينظرونَ إليه، ويصُوبونَ اللَّعنةَ عليه، ثم أُدْخِلَ إلى السَّجَنِ فبقيَ به أيامًا، ثم أَمَرَ الرَّشِيدُ بقتله وتعليقه على باب الشريعة أحد أبواب مَرَاكُش، فسبحانَ مَنْ لا يَفْنَى دَوائُهُ! فلقد كان ليثًا يزأر، وبحرًا يزخر، فَجَرَعَ كأسَ حِمَامِهِ، ورَمَاهُ الدَّهْرُ بسهامِهِ، فتوطدت للرَّشيدِ المملكةُ وترادفت المسرات، وأتته من كلِّ جهة البشارات، بما شاء اللهُ من الفتح وأراه من النُّجَح، وكانت هذه السَّنة سنة خِصب وخيرات وتتابع مسرات، انتهى القمحُ بِمَرَاكُشَ إلى ثلاثة أمدادٍ حَفْصِيَّة بدرهم، وتنافسَ الناسُ في شراء الأسباب والثياب، حتَّى لقد بيعت شُقَّةٌ بثمانينَ دينارًا من هذه الدراهم، وذلك لا تساع الأحوال والآمال، فقد كان الناسُ تَوَالَتَ عليهم أمورٌ وأحوالٌ يطولُ أمرُها ويثقلُ ذكرُها، ولكنَّ اللهَ سبحانه مَنْ بالفضل وامتدادِهِ، واللهُ لطيفٌ بعبادِهِ (١).

وفي سنة ستٍّ وثلاثينَ وست مئة: وصلت بيعةُ أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر للخليفة الرَّشيد، وكان يذكُرُ اسمَه في كُتُبِهِ ويدعو له في حُطْبِهِ، فقَنِعَ منه بذلك، وبقيَ على هذه الحالة إلى سنة أربعينَ حين وفاة الرَّشيد. وولَّى الرَّشِيدُ على سَبْتَةِ أبا عليَّ بنَ خلاص، فكان ذا وفاءٍ وإخلاص (٢).

وفي هذه السنة: ثار ببلادِ السُّوسِ ثائرٌ يُدعى بابن ياجوجي، في حصن تيونين، واستدعى الناسَ إليه فأجابه كثيرٌ منهم، فسمعت به عَرَبُ المَعْقِلِ فأقبلوا إليه وطلبوا منه الاجتماعَ به ووعدوه بالنَّصر والإعانة على ما أخذ فيه، فخاف من الخروج إليهم واستدعاهم ليجتمعوا به في الحصن المذكور، وكان صاحب البلاد السُّوسِيَّة أبو محمد ابن أبي زكريَّا بن أبي إبراهيم، فما زال يبدُلُ العطاءَ عليه إلى أن اغتاله جُزولِيٌّ بدسيسةٍ إليه، وذلك أنه لما دخل عَرَبُ المَعْقِلِ إلى الحصن نَعَقَ ناعقٌ بأنه يريدُ بإدخالِهِم التغلُّبَ على الحصن والتمكُّنَ من أهله وإخراجِهِم منه، فتقدَّم إليه شيخٌ من جُزولةٍ وضرَبَهُ فقتَلَهُ

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

فَسَمِعَ بِمَصْرَعِهِ هَلَالٌ فَرَعَبَ نَاسًا فِي قَطْعِ يَدِ الثَّائِرِ الْمُقْتُولِ، فَقَطَعَ لَهُ وَاحْتَمَلَهُ سَرِيعًا إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي زَكَرِيَّا وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَضْرِبَتِ الطُّبُولُ عَلَى قَتْلِهِ، فَتَحَرَّكَ خَاطِرُ أَهْلِهِ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ غَيْرُ مُلْتَفِتٍ، فَقَطَعَ رَأْسَهُ الْجُرُؤِيُّ قَاتِلَهُ وَجَعَلَهُ فِي قَفَّةٍ وَتَوَجَّهَ بِهِ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ إِلَى مَرَّاكُشَ، وَلَمْ يَمَرَّ هَذَا الْفَرِيقُ عَلَى تَارُودَانَاتٍ لِقَدِيمِ عِصْيَانِهِمْ وَوَقَدُوا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدِ فَهَنَّاوَهُ بِقَتْلِهِ. فَتُنْظِمَتِ الْأَشْعَارُ وَقُرِعَتِ الطُّبُولُ وَعَمَّ السُّرُورُ، وَعُلِّقَ رَأْسُهُ عَلَى بَابِ الشَّرِيعَةِ مَعَ رُؤُوسِ الثَّوَارِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُمْ، وَاسْتَدْعَى الرَّشِيدُ الْقَفَّةَ الَّتِي سَبَقَ فِيهَا رَأْسُ الشَّقِيَّ الْمَذْكُورِ، فَأَخْرَجَهَا مَمْلُوءَةً دِرَاهِمَ لِسَائِقِهِ جَزَاءً وَثَوَابًا، وَانْصَرَفُوا بِخَيْرٍ كَثِيرٍ وَاسِعٍ، فَإِنَّ الدِّرَاهِمَ لَمْ تَكُنْ فِي أَوْعِيَةٍ، إِنَّمَا صُبَّتْ فِي الْقَفَّةِ الْمَذْكُورَةِ صَبًّا.

وَالْحَدِيثُ شَجُونٌ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْحِصْنَ عَلَى قَدِيمِ الزَّمَانِ مَجْبُولٌ مَنْ فِيهِ مِنْ أَهْلِهِ عَلَى الشَّقَاقِ وَالْإِرْتِدَادِ، وَقَدْ كَانَ فِي الْفَتْحِ الْأَوَّلِ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ مَا اشْتَهَرَ خَبْرُهُ، فَإِنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِ زَمَانًا وَهُمْ عَلَى طُغْيَانِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ، وَلَفَتْحِهِ خَبْرٌ مَشْهُورٌ ذَكَرَهُ الْبَيْدُقُ وَغَيْرُهُ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ مُخَيِّمٌ كُلُّ مَنْ فِي نَفْسِهِ شِقَاقٌ أَوْ نِفَاقٌ. وَفِيهِ خَرَجَ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ الْمَشْهُورُ بِأَبِي قَصَبَةَ، وَكَانَ مُوَلَّعًا بِالسَّحَرِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ أَحَدٌ فِي حَالِ ثَوْرَتِهِ إِلَّا اسْتَقَرَّ بِهَذِهِ الْبِلَادِ فِي قِتَالِهِ، وَلَقَتْلَهُ بَعْدَ الْمُدَّةِ الطَّائِلَةِ نَبَأٌ مَعْرُوفٌ، وَعُلِّقَ رَأْسُهُ عَلَى بَابِ الشَّرِيعَةِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ التَّارِيخِ: وَصَلَ مَرَّاكُشَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ الرَّحِيمِ ابْنُ الْفَرَسِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ، فَفَقِيهُ عَالِمٌ، ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَرَّاكُشِيُّ فِي «التَّكْمِلَةِ وَالذَّلِيلِ» لَهُ، وَلَكِنْ جَرَى عَلَيْهِ الْقَدَرُ الَّذِي لَا يُرَدُّ وَتَرَكَ النَّاسَ حَيْثُذِ الرِّوَايَةِ وَالْأَخْذَ عَنْهُ، فَكَانَ يَمُرُّ عَلَى رَأْسِ أَبِي قَصَبَةَ وَهُوَ مَعْلُوقٌ فَيَنْدُبُهُ وَيَتَحَسَّرُ عَلَيْهِ، ثُمَّ حَمَلَتْهُ الْأَقْدَارُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الشُّوسِيَّةِ، فَثَارَ فِي هَذَا الْحِصْنِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَامْتَنَعَ بِهِ وَأَعَانَهُ أَهْلُهُ بِأَمْوَالِهِمْ، فَأَعْمَلَتِ الْحِيلَةُ أَيْضًا فِي حَسْمِ عِلَّتِهِ إِلَى أَنْ اغْتِيلَ وَقُتِلَ، فَسَبَقَ رَأْسُهُ وَعُلِّقَ بِإِزَاءِ رَأْسِ أَبِي قَصَبَةَ، وَفِي هَذِهِ عِبْرَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى نَفُوذِ إِرَادَةِ اللَّهِ بِإِلْهَامِ ابْنِ فَرَسٍ لِلْوُقُوفِ عَلَى رَأْسِ أَبِي قَصَبَةَ وَإِدَامَةِ النَّظَرِ إِلَيْهِ إِلَى أَنْ جَمَعَتِ الْقُدْرَةُ بَيْنَهُمَا. فَشَأْنُ هَذَا الْحِصْنِ فِي الضَّلَالِ وَالْإِرْتِدَادِ قَدِيمٌ وَحَدِيثٌ، وَسَيَأْتِي بَعْضُ خَبَرِهِ أَيْضًا وَخَبَرِ عَلِيِّ بْنِ يَدَرَ فِي أَوَاخِرِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وفي هذه السنة: نازَلَ العدوُّ مِلِكُ أرغونَ مدينةَ بَلَنْسِيَّةَ، وكان صاحبها زَيَانُ بن مُردُنِش^(١)، ثم وصلت الأجفانُ من توئس بالإغاثة لأهل بَلَنْسِيَّةَ، فوجدوهم محصورين، فكتبوا بذلك للأمير أبي زكريا رابعَ محرَّم من عام ستة وثلاثين وست مئة.

وفي ذلك اليوم بعينه: بايعَ أهلُ مُرْسِيَّةَ لابنَ خَطَّابٍ وتلقَّبَ بضياءِ السُّنَّةِ، وكان فقيهاً عالماً. وكان وصل من توئس في الأساطيل المذكورة أبو يحيى ابنُ الشهيد الهتتاني بمالٍ ناضٍ ليدفعه لأبي جميل، فلم يجد مَنْ يقبضه منه لكون أبي جميل^(٢) كان محصوراً، فرجعت الأساطيلُ المذكورة في الثاني عشر من محرَّم من السنة، وتركوا ما سوى المال الناض من الأطعمة والأسلحة وغير ذلك بدانية.

وفي هذه السنة، في يوم الجمعة السابع عشر من صفر: خرج أبو جميل زَيَانُ بن مُردُنِش من بَلَنْسِيَّةَ بجمهور المسلمين، واستولى العدوُّ عليها ودخلها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وحدث مَنْ شاهد حصارها أن القمح كان يُباعُ بها ستة أواق بدرهم والشعيرُ اثنتا عشرة^(٣) أوقية بدرهم، ولما أخذ المسلمون في الخروج منها بيعَ الدقيقُ بها أحد عشر رطلاً بدرهم، ووقع الصلحُ على دانيةٍ قليلة إلى مدة من خمسة أعوام، وقيل: سبعة أعوام.

وفيهما: ركبَ أبو عبد الله بنُ الأحمر من غرناطة إلى موضع الحمرَاء وأجالَ فيها نظره وخطَّ أساسَ الحصن وجعل فيه مَنْ حفَّره، وما تمتَّ السنة إلا والحصنُ مشيِّدُ البناء حصينه، وقد جاءه من ماء الوادي برفع سدٍّ وحفر ساقية معينه.

وفيهما: وفدَ على^(٤) ابنُ الأحمر وجوهُ أهل مالقة يبيعَتهم إليه، فقدموا بها غرناطة عليه، وكانت البيعة من إنشاء ابن عسكر^(٥)، وكان في العلم والأدب مشهوراً يُذكر،

(١) ينظر نفح الطيب ١/ ٣٠١ و ٢/ ٥٩٠ و ٣/ ٤٨٨.

(٢) في م: «ابن جميل»، وهو تحريف، و«أبو جميل» هي كنية زيان، كما سيصرح به المؤلف بعد سطرين!

(٣) في م: «اثنا عشر»، وهو تحريف.

(٤) في م: «علي»، وهو تحريف.

(٥) هو محمد بن علي بن عبيد الله الخضر بن هارون الغساني المعروف بابن عسكر المتوفى في هذه السنة، وهي سنة ٦٣٦ هـ وترجمته في أدباء مالقة (٥٠) وهي ترجمة راقية، والتكملة لابن الأبار (١٦٨١)، والمغرب لابن سعيد ١/ ٤٣١، والذيل لابن عبد الملك ٤/ ٤٩٢ وتعليقنا عليها.

فَقَلَّدَهُ ابْنُ الْأَحْمَرِ قِضَاءَ مَالِقَةَ، وَسِيقَ إِلَيْهِ وَإِلَيْهَا ابْنُ زَيْتُونٍ أَشَرَّ سَوْقٍ، فَأَذَاقَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَمْرَ ذَوْقٍ، وَكَانَ قَدَّمَهُ عَلَيْهَا ابْنُ هُودٍ، ثُمَّ أُعِيدَ إِلَيْهَا بَعْدَ عَذَابِهِ وَنَكَالِهِ فَسُجِنَ بِهَا وَاسْتُصْفِيَتْ أَحْوَالُهُ فَذَبَحَ نَفْسَهُ فِي سِجْنِهِ نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَحَنُهَا، وَأَوَّلَ مُشْرِفٍ قَتَلَهُ فِي حِمَارِهِ إِثْرُ بَنَائِهِ: أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَرُوسٍ مُشْرِفَ الْمَرْيَةِ، ضَرَبَهُ بِالسَّيَاطِ حَتَّى وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ، وَذَلِكَ تَحْتَ الْأَصْبَحِيَّةِ، وَكَمَ مِنْ مُشْرِفٍ قُتِلَ بَعْدَهُ لَمْ يُحَرِّكْهُ لِلإِبْقَاءِ عَلَيْهِ رِيحُ الْأَرْحِيَّةِ، عَفَا اللَّهُ عَنْهُ^(١) وَعَنْ جَمِيعِهِمْ بِمَنَّةٍ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ مُنْسَلَخَ رَجَبِ الْفَرْدِ: رَفَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْأَبَارِ قَصِيدَتَهُ السَّيْنِيَّةَ الَّتِي أَوَّلُهَا [مِنْ الْبَسِيطِ]:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسَا

رَفَعَهَا إِلَى حَضْرَةِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا يَسْتَصْرِخُهُ فِيهَا لِنُصْرَةِ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِفُ سُوءَ الْأَمْرِ بِهَا^(٢).

اِخْتِصَارُ الْخَبَرِ عَنْ كَيْفِيَّةِ رُومِ جَنُودِ

الَّذِينَ رَامُوا دُخُولَ مَدِينَةِ سَبْتَةِ عَنُودِ

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا وَصَلُوا إِلَى سَبْتَةِ فِي مَرَاكِبِهِمْ بَرَسُمَ مُحَاوَلَاتِ تِجَارَتِهِمْ، فَاجْتَمَعَ مِنْهُمْ فِي دِيَوَانِهَا وَرَبَضُهَا عَدَدٌ كَثِيرٌ، فَرَامُوا التَّغْلُبَ عَلَيْهَا بِتَحْيِيلَاتِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ، فَخَيَّبَ اللَّهُ سَعْيَهُمْ فِيهَا رَامُوهُ مِنَ التَّحْيِيلَاتِ، وَأَكْذَبَتْهُمْ نَفُوسُهُمْ بِمَا خَيَّلَتْ لَهُمْ مِنَ التَّحْيِيلَاتِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ صَاحِبُهَا الْحَاجُّ أَبُو الْعَبَّاسِ الْيَاسَنِيُّ كَتَبَ إِلَى الْقَبَائِلِ السَّاكِنَةِ عَلَيْهَا، وَالرَّاجِعَةِ فِي الْحُكْمِ إِلَيْهَا، فَعَرَّفَهُمْ بِتِلْكَ الْأُمُورِ، وَأَمَرَهُمْ بِالْوُضُوءِ إِلَيْهِ، وَالْقُدُومِ بِجُمْلَتِهِمْ عَلَيْهِ، فِي يَوْمٍ مَعَيَّنٍ مَعْلُومٍ، وَهَذَا الْأَمْرُ عِنْدَهُ مِنَ الْجُمْهُورِ مَكْتُومٌ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ خَرَجَ لِلِقَائِهِمْ أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ الْيَاسَنِيِّ فَأَلْفَاهُمْ فِي جُمُوعٍ لَا يُسْتَطَاعُ إِحْصَاؤُهُمْ.

(١) قوله: «عنا و» سقط من ق، ك.

(٢) تنظر مقدمتنا للتكملة الأبارية.

وعند خروج ولد صاحب سبته إليهم، فهم النصارى أن الدائرة عليهم، فأبرموا أمرهم طامعين فيما أملوه، وزحفوا بجمعهم إلى الباب لعلهم يملكونه^(١)، فبينما هم بمقربة من الباب يحاولون إليه المسير، إذ لم يبق بينهم وبينه إلا شيء يسير، إذ أقبلت عليهم عساكر البربر داخلين على الباب، فكسروهم وقتل كل واحد منهم من قتل من الرُّوم وما صبر ولا دبر، فقتل النصارى في ذلك اليوم قتلاً ذريعاً وقُطِّعوا تقطيعاً، وتحكمت السيوف والرماح من كل مفرق لهم ونحر، ومن سَلِم من القتل رمى بنفسه عائماً إلى الأجفان في البحر، وانتهت أموالهم التي في فنادقهم أي انتهاب، والتهبت النار في سلعهم وسلاحهم كل التهاب، واحتوت البربر والسوقة وغزاة البحر وغيرهم على جميع ما كان في الفنادق من أسباغهم، وما خلص للنيران من أموالهم، وأخذت كل يد ما ملكت من أي شيء وجدت أو عليه سلكت، وعلم من كان في تلك المراكب من أهل ملتهم أن النية قد نركت بجملتهم فأخذوا في الإقلاق من مرسى سبته يُنادون: الفرار الفرار! فلما وصلوا إلى إخوانهم أعلموهم بقصتهم وشأنهم، فاجتمعوا في نحو مئة مركب ويمموا سبته لحصارها، والمبالغة في إضرارها، فلما وصلوا إليها نصبوا المجانيق عليها فنصرها الله وعصمها منهم، ثم وقع الصلح بينهم على أن يُعطي أهل سبته للرُّوم مالاً معلوماً من جُملة ما مضى لهم، فدفعه لهم اليانشتي من مال المخزن، وأقلعوا عنهم وأراح الله بفضلهم منهم.

وكان عامُ جنوة عند أهل سبته مشهوراً، وفي تواريخهم مذكوراً، وكان ذلك عام ثلاثة وثلاثين وست مئة، وقيل: في سنة ست وثلاثين^(٢).

وفي هذه السنة، في يوم الجمعة السادس عشر لشهر رمضان المعظم: دخل الأمير أبو جميل مُرسية على رضى من أهلها، وخطب بها للأمير أبي زكريا صاحب تونس، وقبض على عزيز بن خطاب وقتله ليلة الثلاثاء المؤفي عشرين من شهر رمضان المعظم المذكور، وانتظمت البلاد الشرقية^(٣) ببر الأندلس للأمير أبي زكريا: من جزيرة شقر إلى مُرسية.

(١) هكذا في الأصل، والجادة: «يملكونه».

(٢) ينظر الاستقصا ٢/ ٢٤٤.

(٣) في ق، ك: «المشرقية».

وفي سنة سبع وثلاثين وست مئة: كان الغلاء المُفْرِط والمَجَاعَةُ العَظِيمَةُ بمدينة سَبْتَةَ، حَتَّى عُدِمَ فِيهَا الطَّعَامُ بِالْكُلِّيَّةِ فِي هَذَا الْعَامِ، وَكَانُوا يَسْمُونَهُ بِعَامِ سَبْعَةٍ، وَهُوَ مَشْهُورٌ عِنْدَهُمْ يَتِمَثَّلُونَ بِهِ بَيْنَهُمْ، وَمِنْ هَذَا الْعَامِ صَارَ أَهْلُ سَبْتَةَ يَخْتَرِنُونَ الطَّعَامَ فِي الْمَطَامِيرِ فِي كُلِّ عَامٍ حَيْطَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْمَجَاعَةِ الَّتِي لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهَا فِي الْأَعْوَامِ الْفَارِطَةِ قَبْلُهَا عَصَمَنَا اللَّهُ مِنْ مِثْلِهَا بِفَضْلِهِ. وَكَانَتْ أَكْثَرُ بِلَادِ الْغَرْبِ غَالِيَةً الْأَسْعَارُ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْفَتَنِ وَقَلَّةِ الْأَمْطَارِ، فِي تِلْكَ الْأَقْطَارِ، وَبِسَبَبِ عُدْمِ الْحِمَاةِ وَالْأَنْصَارِ، لِتِلْكَ الْجِهَاتِ وَالْأَمْصَارِ، فَقَدْ كَانَ أَهْلُ تِلْكَ الْبِلَادِ اشْتَعَلَتْ بِالْفَتَنِ نَارُهُمْ وَقَلَّتْ حِمَاتُهُمْ وَأَنْصَارُهُمْ، حَتَّى اشْتَدَّتْ حَالُهُمْ وَتَكَاثَرَتْ أَوْجَاهُهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانَ بَيْنَ أُمَرَاءِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ الْحُرُوبِ وَالْوَقَائِعِ، وَالْفَتَنِ وَالزَّعَازِعِ، وَاشْتَغَالِهِمْ عَنْهُمْ بِأُمُورِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ فِي حَضَرَتِهِمُ الْمَرَاكِشِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ الْمَأْمُونِيَّةِ فِي أَوَائِلِ الدَّوْلَةِ الرَّشِيدِيَّةِ، فَكَثُرَ الْغَلَاءُ وَالْجَلَاءُ فِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ أَجْلِ التَّفَاقُ وَاخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ فِي السَّنِينَ الْمَاضِيَةِ، حَتَّى انْقَطَعَ السَّبِيلُ وَعُدِمَ فِيهِ الدَّلِيلُ.

وَكَانَ أَشَدَّ ضَرَرًا فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ عَلَى النَّاسِ، عَرَبُ رِيَّاحٍ بِالْإِخْتِلَاسِ وَالْإِفْتِرَاسِ، لَا سِيَّمَا بِأَحْوَازِ مَكْنَسَةِ وَفَاسَ، وَتَقَدَّمَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ زَنَاتِهِ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ، وَنَشَأَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي مَرِينِ عَدَاوَةٌ كَبِيرَةٌ، فَكَانُوا يُجَارِبُونَهُمْ وَيُقَاتِلُونَهُمْ بِجَهَةِ الْقَصْرِ، وَشِيخُهُمْ إِذْ ذَاكَ عَثْمَانُ بْنُ نَصْرٍ، إِلَى أَنْ ظَفِرَ بِهِمْ بَنُو مَرِينِ وَهَضَوْا إِلَيْهِمْ سَرِيعًا، وَقَتْلُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا، وَاسْتَوَلَوْا عَلَى دَوَاوِيرِ عَرَبِ رِيَّاحٍ وَاكْتَسَحُوا مَا كَانَ بَهَا مِنْ دَوَابٍّ وَأَسْبَابٍ وَأَثَاثٍ وَسِلَاحٍ، وَفَرَّقُوهُمْ أَيْدِي سَبَا، وَلَمْ يَتْرُكُوا لَهُمْ سَبْدًا وَلَا لَبْدًا وَلَا سَبِيًّا، وَأَوْقَعُوا فِيهِمْ سُيُوفَهُمْ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حُتُوفَهُمْ. وَانْصَرَفَ عَثْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ وَإِخْوَتُهُ وَعَشِيرَتُهُ وَجِيَادُهُمْ تَسَابِقُ فِي مَرَاحٍ وَارْتِيَاحٍ، وَوُجُوهُهُمْ تَهَلَّلُ تَهَلَّلُ الْإِصْبَاحِ. وَلَمْ يَزَالُوا فِي بِلَادِ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ، وَبِأَعْدَائِهِمْ ظَافِرِينَ، وَكَانُوا فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالْأَهْوَالِ، خِيَوْهُمْ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ رَائِحَةٌ غَادِيَةٌ تَسْتَأْصِلُ مَا أَلْفَتْهُ بَسِيُوفِهَا مِنَ الْمُعْتَدِينَ عَلَى كُلِّ حَاضِرَةٍ وَبَادِيَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا نَوَّرَ اللَّهُ بِصَائِرِ بَنِي عَبْدِ الْحَقِّ وَبَنِي حَمَامَةَ، وَأَنْجَزَ لَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ، فَأَخْلَصُوا لِلَّهِ نِيَّاتَهُمُ الَّتِي هِيَ رَأْسُ أَعْمَالِهِمْ، وَنَوَّوْا لِلْمُسْلِمِينَ خَيْرًا فِي أَعْمَالِهِمْ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ

امريء ما نَوَى»، فما قَدَّمُوا عملاً من الأعمال قبل تمهيد تلك البلاد، والضرب على أيدي أهل الضرر والفساد، فأَمَّنُوا السُّبُلَ وسَدُّوا الخُلُلَ، فَاتَّسَعَتْ أحوالهم وانبَسَطَتْ آمالهم، فصار أهل تلك البلاد يُعْظِمُونَهم غاية الإعظام، ويعاملونهم بالبرِّ والإكرام، ويُعْطُونَهم ما لا معلوماً في العام، فكانتِ السُّبُلُ آمنةً، والحاضرةُ والباديةُ هادئةً، ونفوسُ أهلها بالعافية ساكنة، إلى أن وصل ابنُ وانودينَ والياً على تلك البلاد، فأشعلَ نارَ الفتنة بعدَ الإخمد، وأشغَلَ باله بالقتال معهم والجِلاذ.

اختصارُ الخبرِ بولاية أبي محمد عبد الله بن وانودينَ بلادَ الغرب، وما كان يُطوِّلُ مقامه بها من الحَرْبِ

وذلك أنَّ هذا عبدَ الله بن وانودينَ كان من خيارِ الموحدِين، وكان تركُّه الناصرَ لدين الله بتونسَ مع الشيخ أبي محمد بن أبي حفص في جُملة مَنْ تَرَكَ معه من أولادِ الموحدِين وهو إذا ذاك في حالِ الشَّيْبَةِ إلى أن توفِّي أبو محمد عبد الواحد المذكور، وتبدَّلت الأحوالُ والأمورُ، ووصل إلى مَرَاكُشَ ونَزَلَ بدارِه بالسَّبْتِين، وقَعَدَ مع إخوانِه الهَنْتَاتِين، ثم جُعِلَ مع الوقافِين، ثم نُقِلَ إلى مزورة العزِّ، ثم نُقِلَ إلى الوزارة، فاستَوَزَرَه أميرُ الموحدِين المعتصمُ بدين الله أبو زكريَّا يحيى ابن الناصر، وكان جاره بالسَّبْتِينَ الكاتبُ الجليل أبو الحسن السَّرْقُسْطِي، فعَرَفَه به واسكَبَه أبو زكريَّا المذكورُ فحَضَرَ معه في تلك الأحوال التي كانت بينه وبينَ عمِّه المأمون، وتلك الأمور، وتزوَّج ابنُ وانودينَ السَّيِّدَةَ بنت يوسف المستنصر بالله، فسادَ بسببِها وزاد حُظُوَّةُها إلى ما كان من حُظُوته ومكانته، فدخلَ مع يحيى مَرَاكُشَ ثلاثَ مرَّاتٍ بالحروب، ورحلَ معه منها^(١) كذلك بالهزيمة والهروب، واستقرَّ بجبله مرَّاراً، وفَرَّ إليه فراراً، معتصماً بالله وبه موطنًا وقراراً، ثم نَظَرَ بنظره السَّديد، وبادرَ بنفسه إلى خدمة الرَّشيد، فولَّاه بلادَ دَرَعَةِ سَنَةِ اثنتين وثلاثين، وأعطاه الأجناد، فظَهَرَت خِدْمَتُهُ في تلك البلاد، وحاوَلَ محاولةً عظيمةً في أمرِ السَّيِّدِ القائم بسجلماسة أبي محمد عبد العزيز حتَّى أخرجَه منها بعدما ثارَ فيها وجندُ الأجناد وألَّفَ

(١) العبارة في ق، ك: «ودخل معه فيها».

من العرب أعداد^(١)، ودخل ابن وانودين إليها فولاه الرّشيد عليها إلى أن وصل منها إلى مراكش في سنة أربع وثلاثين.

فلما كان في أواخر سنة خمس وثلاثين، حين^(٢) استقامت الأحوال للإمارة الرّشيدية، وطاعت له سبته وطنجة، ولّاه الرّشيد البلاد الغربية وجعل له النظر فيها والتفقد لأحوالها ولأموار ولاتها وعمّالها، وولاه قبائل غمارة كلّها سهلها وجبلها، فخرج من مراكش بعسكر كبير من الموحدّين وجُموع من المتجنّدين وحصص من العرب وغيرهم، وفوض له الرّشيد النظر في أحوال تلك البلاد وفي إصلاح حالهم وأمرهم، وأعطاه طبولاً وعلامات، وكتب له بخطّ يده في جملة أوراق بعد البسملة علامات لينفذ بها الأوامر ويكتب لمن شاء الظّهائر، وارتهن أن يستجلب عرب إفريقية، فكتب لهم عنه بأشعار وعدة رسائل، وكان كاتبه الفقيه الجليل أبو الحسن السرقسطي، وكان عنده معظماً مبروراً مكرماً مشكوراً، وتوجّه صحبته واليا على سبته أبو علي ابن خلاص البلسني وعلى دار الصناعة، بها، أبو زكريّا بن مزاحم الكومي، فوصل بالمحلة إليها ونزل أياماً عليها، ثم رحل إلى بلاد غمارة لينظر في أعمالها وأشغالها، فنفرت منه بعض قبائلها وتحصّنت في موانع جبالها، وكان مع بعض تلك القبائل الغماريين قد طاعوا للأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحقّ ودخلوا في حرمة بني مرّين وتحت طاعتهم وانقادوا لهم للمغرم وغيره^(٣).

وكان الرّشيد أعطى لابن وانودين جملة أحمال بالكُسا الشرقية البديعة من كلّ نوع برسم الإعطاء لبني عبد الحقّ ولأشياخ بني مرّين وللمن يجب إعطاؤه، فلما وصل ابن وانودين إلى مقربة من بلادهم أشغل نفسه بقتالهم وجلادهم، فأول فعل فعله معهم أنه وصل إلى مقربة من مواضعهم ليطلب الفارين من غمارة، فوقع النزاع في ذلك، وعامل بني عبد الحقّ بمعاملة غير صالحة، وحاول أمرهم بمحاولة غير ناجحة، ووافقهم على أشياء لم يف لهم بها، فكانت الحرب بينه وبينهم بسببها على ما أذكره بحول الله تعالى،

(١) كذا في الأصل، والجادة: «أعداداً».

(٢) سقط الظرف من ق، ك.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

وذلك أنه لما خرج ابنُ وانودينَ على بني مَرينَ الطريقَ فيما كانوا توافقوا عليه وأغاروا على محلته وقتلوا جملة كبيرة من أجناده وجملته، فتشتت حاله وتكاثرت أوجاله، ووصل الخبرُ إلى الرَّشيد بحالهم وأمرهم، فاغتاظ لذلك عليه وأمره بالسُّكنى في تلك البلاد، فسكنها وهو كئيبُ القلبِ والفؤاد.

وفي هذه السنة، وهي سنة سبع وثلاثين وست مئة: استشهد الأميرُ عثمانُ بن عبد الحقِّ رحمه الله تعالى، قيل: إنَّ علجاً من أعلامه غدره وضربه ضربةً بخنجر قطع به أوداجه فمات من حينه وهرب العِلجُ إلى ابن وانودينَ فعرفه بالأمر فأعطاه وأرضاه، وقيل: إنَّ ابنَ وانودينَ هو الذي حرَّضه على ذلك واتفق معه عليه ثم صرَّفه ابنُ وانودينَ بعد ذلك من عنده، فلم يعلمَ بعد ذلك صحة خبر^(١).

ولما توفيَّ هذا الأميرُ أبو سعيد كتبَ ابنُ وانودينَ مُعلِّماً بخبره الرَّشيدَ، وبعثَ إليه كاتبه أبا الحسن السَّرْقُسطيَّ، وما كان عنده أكبرُ منه ليعرفه بالحال مشافهةً وليُنوبَ في شَرْح ذلك عنه.

وتقدَّم الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن عبد الحقِّ على قبائل بني مَرينَ ومن انضافَ إليهم من زَناتة وبني ورا وغيرهم، فأطاعوه وطاعوه، غير أنَّ بني عسكرٍ خالفت بني حَمَامَةَ في الانقياد التام، فكثرت بينهم الشَّحناء وحَقَنوا الدَّمَاء، واغترَّ ابن وانودينَ بمُنافرتهم وطَمِعَ فيهم لأجل مُعاقرتهم، وذلك أنه لما اتَّصل به ما كان بين بني حَمَامَةَ وبني عسكرٍ من المُكابرة والمُظاهرة والمُنافسة والمُنافرة، استخلصَ بني عسكرٍ لنفسه استخلاصاً وأخلصَ لهم نيتَه فيما زعمَ إخلاصاً، واستعطفَهم واستلطَفَهم، ووعدَهم بأموال يُعطِيهم، وأحوال تُرضِيهم، على أن يُقابلَ بهم إخوانهم، ويَطْرُقَ بهم أوطانهم، فارتبطَ معهم على ذلك ارتباطاً ونَهَضَ معهم إلى مقابلة بني عبد الحقِّ وبني حَمَامَةَ، فألفاهم بمقرَّبة من سلفات، فقابلَهم في تلك الجهات، فوسَّعَ بنو حَمَامَةَ وَمَن كان معهم إلى مواضعهم بعدَ مقابلة ومقاتلة وفَقِدَ مَن فُقِدَ من الفريقين، وعاد ابنُ وانودينَ معَ الموَحِّدين وبني عسكرٍ، وكان غرضُ بني مَرينَ أن يتبعَهم ابنُ وانودينَ بَمَن معه

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/٢٢٦.

ليكنموا لهم فيتمكنوا منهم، فتركهم ورحل معهم ونزل بظاهر مكناسة فالزَمَ أهلها وظائفاً^(١) وتكالفاً، وابتلاهم بأنواع من المغارم والملازم، ثم رحل ابنُ وانودين بمحلته إلى مدينة فاس ليؤيِّ للعسكريين ما لهم فيها، فأغرَمَ بالتعيين جُملةً من الناس، ثم عادَ أيضاً إلى جهة مكناسة الزيتون، فنزل بمقرُبة من زرهون، ففرَّ أهلُ تلك الجهات أمامه وتركوا مواضعهم ورُبوعهم وأسلموا للنَّهب مواشيهم وزروعهم.

ذكرُ هزيمة بني مَرين لابن وانودين وعسكرِ الموحدِين

وذلك أنه لما اشتغل بفاس ومكناسة بما اشتغل من المظالم، وفعلَ بأهلها ما فعل من تأدية المغارم، اجتمع بنو مَرين ومن انضاف إليهم من زَناتة وغيرهم على أميرهم أبي معرّف محمد بن عبد الحق ورحلوا معه بجملتهم، ونزلوا بمقرُبة من مكناسة بمحلّتهم، إلى أن وقعت شَوافُهُم في أجنادِ الروم وقائدهم اللعين فقتلوهم أجمعين، إلّا مَنْ قَرَّ منهم بعد قتل قائدهم الزعيم، أبي صُرْبَة الذميم، ووصل فلهم المُنهزم إلى ابن وانودين، فعرفوه بقتل قائدهم فتفجّع عليه وعلى مَنْ قُتل من جماعته التي كانوا تحت يده، وكان قد بعثهم لتلك الجهات يحرسونها ويتفقدونها، وقيل: إن قاتل أبي صُرْبَة هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عبد الحق، وكان موضع نزول بني مَرين أعزَّهم الله بمحلّتهم على نحو ثمانية أميال من مكناسة، فدبّر ابنُ وانودين وجه الحيلة في الوصول إليهم والهجوم في ذلك الموضع عليهم مع بعض أناس من ناسه، فأسرَعَ فيما دبّر وشرع، فنهض مُسرِعاً مع العسكريين والموحدِين والعرب والمتجنّدين، فتأهّب بنو عبد الحق وبنو مَرين لقتالهم، واستعدّوا لحربهم ونزالهم، فلما اضطُفَّت الصّفان، واجتمعت الجمعان، للضرب والطعان، دُفِعت الأجنادُ في خيل بني حَمامة لتقديرهم أن بني عسكر والعرب يُدفعون معهم عليهم، فأسلمهم بنو عسكر إليهم، فصدّق لبني حَمامة الدفاع، وكشفت الحربُ القناع، فتحكّموا فيهم بالأسنة والمُشرِفة كيف شاءوا وكما أرادوا، وقتلوا من الموحدِين وغيرهم جُملةً كبيرة، وأكثرُ من قُتل في المعركة أجنادُ النصارى، الذين خلصوا من القتل مع أبي صُرْبَة وانهزموا، ثم الآن للقتال عادوا، فأهلكهم الله وبادوا، ووقعت

(١) هكذا في الأصل مع أن الجادة «وظائف» لأنها ممنوعة من الصرف.

الهزيمة على ابن وانودين ومن بقي معه من الموحدّين، وتفرّق جميع أهل العسكر، من العرب وبني عسكر، ودخل ابن وانودين إلى مكناسة مطروداً إليها، ووصل بنو مَرين إلى محلّته فاستولوا عليها واحتووا على جميع ما كان بها من دوابّ وأسباب وأخية وأمتعة وغير ذلك من الأشياء الخفاف والثقال، ولم يتركوا لأحد فيها ما يساوي العقل، ثم خرج ابن وانودين من مكناسة في الليل مع جملة من الخيل ومع ابنه أبي زكريّا يحيى، فقصد إلى قصر عبد الكريم حيث كان أولاده وعياله، فانحصر فيه مع أهله ورجاله، وكان معه أيضاً محصوراً في القصر، أبو عثمان سعيد بن نصر^(١).

وكانت مدة إقامة ابن وانودين في الغرب في ولايته فيه سنتين اثنتين أو نحو ذلك، وكان ولادة أهل تلك البلاد وعمّالهم مخاطبون الرّشيد ويشرّحون له أمورهم معه وأحوالهم حتّى أسندوا عنه أنه يقوم في تلك البلاد الغربيّة لِمَا ظهر له فيها من الاستعداد والاستعداد وأنه يفعل مثل ما فعل أبو زكريّا الحفصيّ في البلاد الإفريقيّة. وقيل: إنّ الرّشيد اتّهمه بذلك؛ لأنه كان يترك عياله بعض الأشهر بسبّة مُستوطنين، وكان بينه وبين عرب إفريقيّة مكاتبات كان الرّشيد أمر له بها، فما كان من أحد يُخفيها، فلما قيل له: إنّ الرّشيد صدّق ما قيل له عليه وما كُتب فيه إليه، خرج من القصر في نحو خمسين فارساً مع رجاله وبنيه وعياله آخذاً على طريق المعدن قاصداً إلى جباله فتبعه بعض خيل من بني مَرين فحاربهم وتخلّص منهم، فما زال يُجدّ السير ليله ونهاره، إلى أن وصل جبله، وحينئذ استقرّ قراره.

فزاد بنو مَرين بهزيمته وبما كان من استيلائهم على محلّته في الغرب علواً وظهوراً، إذ ما زالوا فيه ظاهرين وبأعدائهم ظافرين، واستولى أيضاً بنو مَرين بعد تلك الكائنة على ما كان بجهة القصر من عرب رياح إثر تلك الهزيمة، وغنموهم غنيمة عظيمة. والأمير المعظم أبو معروف ابن عبد الحقّ انقاد له جميع القبائل المَرينيّة وبعض الغمّاريّة وبعض القبائل المَغربيّة، فكان بنو مَرين يَجُولون في تلك البلاد ولا مدافع لهم لقتال ولا جِلاّد، ثم كانت بينهم وبين الرّشيد مُهادنات ومُراسلات. وأمّا ابن وانودين فبقي في جبله حتّى برئت ساحته ممّا ذُكر عنه وقيل العذر منه وعاد إلى مراكش مكرّماً معظماً، وسأذكر أخباره في دولة الإمارة المُعتصديّة.

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٦.

وفي هذه السنة، وهي سنة سبع وثلاثين، في أوائل ربيع الآخر منها: وصل الأسطول من تونس إلى مرسى قرطاجنة، وصل فيها وفود أهل شرق الأندلس المتوجهون بالبيعات، وصادف وُصولها اضطراب الأمور على الأمير أبي جميل زيان بن مُردنيش والألسنة قائلة والخواطر جائلة، فسكن بعض التسكين وهدن بعض التهدين، ووصلت المخاطبة من الأمير أبي زكريا إلى مرسية وشاطبة وأوريولة ولورقة وجزيرة سُقر وفيها ذكر ولاية الأمير أبي جميل على شرق الأندلس، وتواريحها: عاشر صفر من سنة سبع المذكورة^(١).

وفي السابع عشر لجُمادى الأولى من السنة: خرج أبو جميل زيان من مرسية لِمَا استشعر من أهلها الميل منهم إلى بهاء الدولة ابن هود، ودخلها ابن هود مجاولاً ابن عصام^(٢) صاحب أوريولة. وكان لِمَا قام أهل مرسية على سلطانهم ابن خطاب ونكثوا عليه وقتلوه خاطبوا الأمير أبا زكريا صاحب تونس وكتبوا له ببيعتهم.

وفي هذه السنة، وهي سنة سبع وثلاثين: كانت مبايعة الأمير أبي عبد الله ابن الأحمر للرّشيد، وأخذ البيعة له على أهل غرناطة ومالقة وجيان وسائر البلاد التي كانت تحت طاعته، فوصلته المُخاطبات الرّشيدية بالشكر له على مُبادرته^(٣).

وفي سنة ثمان وثلاثين وست مئة: توسعت الأحوال وامتدت الآمال، ونزلت الأمطار في تلك الأقطار، وظهّرت الخيرات في كل الجهات، وحرثت البلاد، وأفاض الله على عباده خيره المعتاد، وذهب ما كان من بقايا الجوع وأمن المروع، ورخصت الأسعار وبُنيت الدّيار، فإتّها كانت قد خربت ودثرت بالأزمة آثارها، وامتحت من بعض الجهات رسومها وقرارها، لا سيما بمرّاكش، فقد كانت خربت بكثرة الدّخلات ديارها، فصارت في هذه السنة عامرة مبنية الدور، وأمير المؤمنين بها في دعة وسرور، وخراج موفور، وكانت البلاد الغربيّة أيضاً قد كُحّدت نيرانها، إلى أن وصل جميع بني عسكر إلى مكناسة ونواحيها على ما أذكره.

(١) تاريخ ابن خلدون ٢١٥/٤.

(٢) في ك: «عاصم».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢١٧/٤.

وفي هذه السنة: وصل إلى مكناسة وجهاتها كافة بني عسكر، مُستمدّين من عرب المعقل أعظم عسكر، فأحدّقوا بها من كلّ ناحية، وخيَّوهم عليها رائحةً وغادية، وذلك بسبب فتنة كانت بينهم وبين بني حمّامة، أولى التقدّم^(١) عليهم والزّعامه، وكان أهل مكناسة قد وثّقوا منهم، لِمَا كان يصدر لهم من الخير عنهم، من الصّدق والوفاء، والاحترام لتلك الجهات والأنحاء، وقد كانوا وافقوهم بِمالٍ معلوم في العام يُعطونهم عليها، فوصل الآن العسكريّون إليها، فضاّق أهلها بهم ذرْعاً، وتيقّنوا استئصال أموالهم زَرْعاً وَضَرْعاً، فبعثوا إليهم علماءهم وصلحاءهم، راغبين في كفّ عاديتهم عن أنحائهم، فما قبلوا لهم رغبة، ولا استشعروا من الله سبحانه فيهم مخافةً ولا رهبةً، بل ألزموهم أربعة آلاف دينار خفارة، وكلّ منهم سرّد سِنانه وجرّد شِفاره، ولولا والي مكناسة الذي أخذهم بالإرادة لأضرمّت نيرانهم، وتوالى اضطراؤهم، وقوي بتلك الجهات شيطانهم، لكن بنو حمّامة بوفائهم وصفائهم عظم سلطانهم.

وفي سنة تسع وثلاثين وست مئة: قوي أمر الأمير محمد بن يوسف بن نصر ببرّ الأندلس، وطاعت له أيضاً بعض بلادها، وانقاد له أكثر رؤسائها وأنجاديها، فقويت شوكتها، ولكنه يُظهر أنه تحت طاعة الرّشيد ومن ولايته، وأنه المجدّد للدولة الموحّدية بالأندلس، وذلك من كفايته ودهائه ونباهته، وكان وافر العقل والذهاء، ففنع منه الرّشيد بذكره إيّاه في الخطب والدّعاء.

ولمّا توفّي الرّشيد في السنة الآتية بعد هذه المؤرّخة وولّي السعيد، قطع دعوته وباع أبا زكريّا بن أبي حفص بتونس، وتوجّه ببيعته التونسية أبو بكر ابن عيّاش شيخ مالقة وأبو جعفر التنزولي، وبعث إليه الأمير أبو زكريّا أموالاً كثيرة برسم أن يستعين بها المسلمون على الجهاد، وكان قد انتقلت حالته بعُرناطة عمّا كانت عليه، فلم يقف على عين ما وجّه الحفصيّ إليه، وقويت عماره غرناطة، فأراد أن يكبر جامعها ويزيد فيه، فحلّف للقاضي محمد بن عيّاض أنّ مال صاحب تونس باق، إشارة إلى التوفية، وكان يكتب بخطّ يده المعبّاي، ولا يسرق في الإنفاق ولا يُحاي.

(١) في ق، ك: «التقديم».

وفي هذه السنة: كان مقتل السيد أبي حفص مع المومنانى بمراكش^(١)، وذلك أن الخليفة الرشيد كان قد ولّاه ولاية عظيمة وأمره بالخروج بالعسكر إلى جهة هسكورة وغيرها، وكان المومنانى من أجل الكتاب وله مرتبة عند الرشيد وحظوة، يأمر له في المواسم والأعياد بجزيل الخير والإحسان، وكان ينظر بزعمه في علم الحدّثان^(٢)، فحدثه نفسه الكاذبة بما آل أمره فيه إلى السيف وسوء العاقبة، فمن جرمانه وفجور حدّثانه: أنه كتب براءة بخط يده يُهنئ فيها السيّد أبا حفص بولايته، وأنها إن شاء الله ابتداءً لخلافة تكون، أو كلام يدلّ على هذا، وأمر رسوله أن يدفع تلك البراءة بباب السّراجين القديم الذي كان بمقرّبة من جامع الكتّيبين من سور الحجر، فغلط الرسول المذكور ودفع البراءة المذكورة بباب السّراجين الذي هو الآن يُعرف بباب القرائين، فأخذها القائد أبو المسك ودفعها من حينه للرشيد، فكان في الحين مشغولاً فلم يقرأها ولم ينظر إليها، وظنّ أنه يطلب منه عادته معه في المواسم، وكان ذلك ليلة سبع وعشرين من رمضان، وقد بعث له العادة فاستشغله ولم يُعرج على بطاقته، فلما وصله رسوله وأخبره أنه دفعها بذلك الباب قامت قيامته واستعجلته مبيته، فكتب براءة ثانية يستعذر له ويستعطفه فيها، فلما وصلت إلى الرشيد قرأها وعلم ما فيها، فطلب البراءة الأولى، فلما قرأها أمر بقتل المومنانى البائس والسيد أبي حفص من حينها، فذكر أن السيّد المذكور حين استدعاه الموكل به خرج إليه في درّاعة فطلّعه بها إلى القصبة ولم يمهلّه يرجع إلى داره ليلبس ثيابه، فعند وصوله كان آخر العهد به، وكذلك المومنانى حين مُهل أمر الزّمانة أن يضربوه بالمياجم على الرأس، فكان ذلك والله يقى ويعصم بمنه، ولم أتحقّق تاريخ هذه المسألة هل كانت في هذه السنة أو في التي قبلها^(٣).

(١) تفاصيل ذلك في الذيل لابن عبد الملك ٢٥٠/٥-٢٥١ وتعليقنا هناك.

(٢) الحدّثان، كهذيان: مصطلح يستعمل على معنى التنبؤ بالمستقبل يتنبأه العراف أو الفلكي أو الكاهن، كما في معجمات اللغة.

(٣) في أعلام مالقة: «ووصل مالقة خبر موته في أوائل ذي قعدة عام ثمانية وثلاثين وست مئة» (الترجمة ٥١).

وفي سنة أربعين وست مئة: توفي الرشيد رحمه الله، وذلك أنه لما استقامت الأحوال للرشيد، بعدما جدد دولة الموحدين ووصله منهم القريب والبعيد، وأجلى جميع الخلط إلى السُّوس، وتهذنت النفوس، وتمهدت البلاد، واشتغل الناس بمراكش في الرياضات بالنزاهات، استعمل الرشيد سُكناه برياض تدفق وبنى حوله سقائف للموحدين والمشتغلين والوقافين والرُقَاب والحُجَاب، وأمر ببناء الديار هنالك للمقرين من خدمته وأرباب دولته، فلما قدر الله بحين وفاته وانقضاء مدة حياته دخل في زورق في الصَّهريج في الرياض الكبير المذكور مع بعض جواريه برسم التنزه، فانقلب بهم الزورق، فقيل: إنه مات من حينه، وقيل: إنه طلع منه محمومًا فنقل إلى قصره، وذلك في يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة المؤرخة، وبعد ثلاثة أيام توفي.

وأخبرني أيضًا بوفاته أبو عمران ابن تيجا، قال: أخبرني أبو وكيل ميمون بن سعادة حاجبه قال: حضرت لوفاة سيدنا الرشيد، وذلك أنه دخل في الزورق في الصَّهريج برسم التفريح في ليلة باردة، فأصابته فيها نزلة عظيمة، وكان على راحة معتما بعمامة فلما أزالها حُم من حينه فأخرج من الزورق ورفع إلى قصره فانقضى أمده في يوم الجمعة العاشر لجمادى الأولى من سنة أربعين المذكورة^(١).

ذكرُ بيعة أبي الحسن المعتضد بالله المدعو بالسعيد ونُبذ من أخباره^(٢)

هو: أبو الحسن علي بن أبي العلى إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور ابن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

بُويع يوم وفاة أخيه في العاشر لجمادى الآخرة، وتوفي يوم الثلاثاء مُنسلخ صفر من عام ستة وأربعين، فكانت خلافته خمسة أعوام وثمانية أشهر وخمسين يومًا. ولقب لقبين^(٣): المعتضد والسعيد.

وُزارؤه: أبو زكريا ابن عطّوش، والسيد أبو إسحاق ابن السيد أبي إبراهيم.

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٤.

(٢) ترجمته في تاريخ الإسلام ١٤/ ٥٥٢، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٩.

(٣) في م: «لقبان» ولا تستقيم.

وكتب له: أبو الحسن الرُّعَيْنِي، وأبو عبد الله التِّلْمَسَانِي.

ومن خواصه: أبو محمد العراقي والقيجاطي وأبو زيد ابن البقة ناظر في أشغاله وأحواله.

ولما اجتمع أهل العقد والحل من أشياخ الموحدین يتفاوضون في تقديم من يجب تقديمه للخلافة من بعد الرشيد، واجتمع أيضا السادة من بني عبد المؤمن في بيت القرابة وفي جملتهم السيد أبو الحسن المذكور، وكان أسمر اللون ذا سطوة ومهابة، فلم يذكره أحد منهم، فأراد بعضهم تقديم ولد الرشيد كما قدم أبوه صغيرا، وقال آخرون: قد أعيننا من تقدم الصبيان علينا، يعنون يوسف المستنصر ويحيى أخاه^(١) والرشيد، وكان أبو الحسن المذكور في أثناء ذلك في قلق عظيم من ذلك حتى قال لمن قال: لئن لم يبرموا هذا الأمر ولا أبرموه بغير اختيارهم، فقل: إن أبا محمد عبد الله بن وانودين ترك مفاوضة أشياخ الموحدین وقام إلى السيد أبي الحسن فأخذ بيده وأقعداه في موضع قعود الخلفاء أسلافه، وبايعه ابن وانودين المذكور، ثم تابعت بيعة القرابة والموحدین إليه، وبعد ذلك استوفت البيعات عليه.

ولما أفعدته الخلافة في محلها وزينته بحلها وحليها، قبض على جملة من الموحدین أهل ربطها وحلها، الكارهين لخلافته، الخائفين من سطوته ومهابته، فسجنهم وأغرهم أموالا، وحبس أم الرشيد وأغرهم مالا، وضرب ابن سعادة شيخ العيد في أيام الرشيد نحو ألف سوط على كلام قاله في جانبه قبل ذلك ووصله، فلم يقدر الله بموته في ذلك الحال، وقيل: إنه على ما ذكر قال: لا بد أجعله يمشي قدام أخيه بأوصال.

وكان جُلَّ عرب السعيد عرب الخلط استخلصهم لنفسه، وقرَّبهم بعدما استدعاهم من الشوس وغيره وجلبهم، وكان له من أجناد النصارى الذين جلب أبوه جمع كبير، وتركهم بمرآكش في كنيساتهم وناقوسهم وأمضى ذلك لهم.

وخالف عليه بسبته أبو علي ابن خلاص البكسي، وبايع للأمير أبي زكريا الحفصي، وخالف عليه بسبته عبد الله بن زكريا الهزرجي، وكتب بيعته للأمير أبي زكريا المذكور،

(١) في م: «أخيه» ولا تستقيم.

فأطلق يده هنالك على جميع الأمور، ففَضَرَبَ السَّكَّكَ الأَمِيرِيَّةَ السَّجْلَاسِيَّةَ، وأعطى المالَ للعُربانَ، فأَتَتْهُ من كُلِّ مكانٍ، وسأذْكَرُ خبرَه في موضِعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وسببُ نفاق عبد الله بن زكريّا الهَزْرَجِيّ على السَّعيد أنه كان واليًّا على سِجْلَاسَةِ من قِبَلِ الرَّشِيدِ، فبَلَغَ السَّعيدَ عنه حينَ وفاة أخيه أنه قال: كيف أَبَايُعُ أسودَ حَبَشِيًّا؟ فَسَرَّها السَّعيدُ في نَفْسِه إلى أنْ خاطَبَه عبدُ اللهِ المذكورُ بِخِطابِه يَسْتَغْفِرُه فيه ويُبْدي له خِلافَ ما ذُكِرَ عنه أنه خَرَجَ على فيه، فكان الجوابُ على ظَهرِ الكتاب: قد وَعَتْها أُذُنٌ واعيَّة، وخَرَجَ في توقيعه للكتاب: فَلْيُمَزَّقْ كتابُه تَمْزيقًا وَيُبعَثْ به إليه سَريعًا، فَلَمَّا وَصَلَ ذلك إلى ابن زكريّا حِينَئِذٍ خَطَبَ للأُمير ابن زكريّا كما ذَكَرْتُهُ^(١).

وفي هذه السنة: بَعَثَ أبو يحيى يَغْمَراسَنَ بِجُمْلَةٍ من الفُرسان إلى أبي الحَسَنِ السَّعيدِ بَهِدِيَّةٍ من عِنْدِه فيها جُمْلَةٌ من الخُيولِ العِتاقِ، وفي جُمْلَةٍ من الدَّرَقِ، وعَاهَدَه على قتالِ بني مَرينَ وأنْ يأخُذَهم بِعِساكَرِهِم من الجانِبَيْنِ، فأبى اللهُ ذلك بل مَكَّنَ لَهُم في الأرضِ، وأَهْلَهُم لِإِقامَةِ السُّنَّةِ والْفَرَضِ، وكان الأُميرُ أبو زكريّا لَمَّا سَمِعَ بِموتِ الرَّشِيدِ وتَقديمِ السَّعيدِ ومُخالَفةِ مَنْ خالَفَ عليه وبِالْهَدِيَّةِ التي بَعَثَ يَغْمَراسَنَ إليه، طَمِعَ في بِلادِ الغُربِ فأخَذَ في الحِركةِ إلى تِلِمَسَانَ على ما أذْكَرُه إن شاء اللهُ تعالى.

اختصارُ الخَبَرِ عن حِركةِ الأُميرِ أبي زكريّا إلى تِلِمَسَانَ

لمُحاربةِ يَغْمَراسَنَ بنِ زَيَّانَ وَفَتْحِه إِيَّاهَا حينَ وَصُولِه إليها

ثم تَقديمُه لِيَغْمَراسَنَ بَعْدَ ذلكَ عليها

وذلكَ أنه لَمَّا اتَّصَلَ بالأُميرِ أبي زكريّا بتوُسِّ مُصالِحَةِ السَّعيدِ مَعَ أبي يحيى يَغْمَراسَنَ صاحِبِ تِلِمَسَانَ، خافَ أنْ يَصالِحَ أيضًا للأُميرِ أبي يحيى بن عبدِ الحَقِّ ويتحرَّكَ مَعَهُم إلى بِلادِ إفريقيَّة. وكان السَّعيدُ بَزَعامَتِه وشَهادَتِه يُحَدِّثُ نَفْسَه وناسَه بِذلكَ، فأخَذَ الأُميرُ أبو زكريّا بِالْعَزْمِ والحَزْمِ وَجَمَعَ الأَجنادَ وحَشَدَ الأَحْشادَ واستَوَفَّتْ عليه العُربانُ من كُلِّ جَهِةٍ ومكانٍ مِنَ أَقاصِي بِلادِ إفريقيَّة، فوَصَلَهَ مِنْها كُلُّ قاصٍ ودانٍ، وخَرَجَ من توُسِّ بِجِوشِ وافرةٍ وَجُوعٍ عَظِيمَةٍ مُتكاثِرَةٍ في أواخرِ سَنَةِ أربَعينَ المُؤرَّخَةِ.

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٦.

وذكر أنه اجتمع في تلك المحلة المنصورة من الرماة الأندلسيين والإفريقيين والغربيين ما نيف على عشرة آلاف بين فرسان ورجال يرمون كلهم بالنبال، وكانت محلة العرب مقسمة كل أمير بمحلته وجماعته ومجلته يرحلون قومًا بعد قوم ويومًا بعد يوم لأجل قلة الماء في تلك الجهات والأنحاء، وتنادى المشي هكذا إلى أن وصل إلى تلمسان بعساكر كالطوفان، فلما وصل إليها ونزل بمحلاته عليها أمر لكل من يرمي بالنبال، أن يذيق أهلها بالرمي أشد وبأل، فلم يخرج أحد إليهم من أهل تلمسان لقتال ولا غيره من إدار وإقبال، من كثرة النبل^(١) المرسلة عليهم الوايلة إليهم، حتى لقد قيل: إن فروجًا حصل فيه جولة من النبال، فلقد كانت مثل سحاب الأمطار، ولم يطل عليهم ذلك الحصار إلا ثمانية أيام وما اشتد فيها القتال والرمي بالنبال إلا يوم واحد من تلك الأيام تأهب الناس فيه بجمعهم ولبسوا دروعهم، فكانت تلك الدروع، كالشمس في الشروق واللموع.

ويغمراسن إذ ذاك محصور في المدينة يبصر من داخلها لأهل المحلة وخيلها ورجلها، وكان يظن أن لا منازع له ولا من يقف قبله إلى أن رأى ما لا طاقة له به من كثرة المحلات النازلة عليه الواصلة^(٢) برسم القتال عليه فدبر في نفسه حيلة يعملها، فعملها لما دبرها. وذلك أنه خرج من تلمسان مع أهله وعياله وبعض خيله ورجاله، وشق ما بين تلك الجموع والعساكر، وفعل في ذلك بزعامته وشهامته فعلة ما يقدر أحد أن يفعلها، وذكر عنه أنه ترك بتلمسان امرأة له فعاد بسببها إليها وأخرجها منها بنفسه على بغلة، وقيل: إنه أردفها وخرج بها.

ولما سمع الأمير أبو زكريا عن خروجه من تلمسان عفا عن أهلها ودخلها واستولى عليها، ودخلوا ثقاته وأرباب دولته إليها، فأقام الأمير أبو زكريا بمحلته على تلمسان على ما ذكر سبعة عشر يومًا إلى أن رأى أبا يحيى يغمراسن مع جماعة كبيرة من إخوانه في أعلى الجبل فقال: هؤلاء نسور على صخور، ولما تفاوض مع أشياخ الموحد

(١) في ق: «النبال».

(٢) سقطت من ق.

بعد ذلك في شخص يولييه تلمسان ويتركه أميراً هناك إلى أن وقع رأيهُ على تقديم صاحبها عليها ورجوعه مع إخوانه إليها ليكون سداً بين البلاد الإفريقية والغربية، فولاه الأمير أبو زكرياً مدينة تلمسان وأقطارها وجميع أنظارها، فعاد يعمّر أسن إلى تلمسان مع بني عبد الوادي إخوانه وحكم تلك البلاد كلها وعمرها وسهلها بعد معاهدة ومعاقدة مع الأمير أبي زكرياً وشروط مشروطة ورُبوطة مربوطة، وعاد الأمير أبو زكرياً إلى بلاده مع عساكره وأجناده وحصل بمدينة تونس حضرته بعد ثلاثة أشهر أو نحوها في حركته إلى حين أوّيته، فلما شاع خبر هذا الفتح بادروا ببيعتهم بعض بلاد الأندلس وسبّته ودخلوا في طاعته.

وفي سنة إحدى وأربعين وست مئة: قتل السعيد السيد عزوزاً زوج أخته عزونة، وهي كانت سبباً في تجرعه كأس مؤونه، فذكر عنها أنها وجدت عنده براءة أوقفت عليها أخاها فشكرها على ذلك وأرضاهما، ولم يعلم أحد ما كان فيها غيرها وأخوها، فلما وقف على البراءة المذكورة أمرها بردها إلى الموضع الذي فيه أصابتهما، فما علم زوجها أنها رأتها، ثم أمر بعد ذلك بثقافه بدار الإمارة، فلم يعلم أحد أي وقت لقي حمامه.

ومن أخبار عبد الله بن زكرياً الهزرجي النائر بسجلماسة

لما استبدّ فيها بأمره وانقاد له أهل تلك الجهات والأنحاء، ووصلته العرب من جهة الصحراء، وقوّض له الأمور في تلك الجهات الأمير أبو زكرياً الحفصي الهنتائي وأطمعه في استمداه بأموال وزيادة، ودعا له في الخطبة بسجلماسة المذكورة، فلما شاعت في البلاد أخباره ونفاقه، وصحّ عند السعيد والموحدين خلافه وشقاقه، هجست نفوس بعض الموحدين للفرار إليه والقُدوم عليه لأجل خوفهم الشديد من سطوة السعيد، القريب منهم والبعيد، فلما ظهر لأبي زيد عبد الرحمن بن أبي زكرياً الجدميوي ولأخيه أبي عثمان ما ظهر لهما من تغرّ السلطان السعيد عليهما، أشار عليه أبو زيد، أعني على أخيه أبي عثمان، بالفرار من مراكش والانتقال، وقال له أشياء كانت خفية عنه، فما سُمع له مقال، فتوافق أبو زيد المذكور مع ابن واجاج وأبي سعيد العود الرطب الهنتائي على الفرار من مراكش إلى سجلماسة وتواعدوا ليوم معلوم، ووافق أبو زيد لقاعد مع

جماعة من الروم، وكان السعيدُ شرعاً في الحركة إلى بلاد الغرب برسم حرب بني مرين وكانت محلته على تانسيفت^(١).

فلما خرج السعيد من مراكش إلى محله برسم حركته قبض هنالك على سعيد بن زكريا واعتقله، وإلى مدينة فاس حمله، وفيها قتله بعدما استصفى بمراكش جميع أمواله وأحواله^(٢)، وفر أخوه أبو زيد مع أصحابه وأخذوا طريق درعة، فخرج عليهم في طريقهم بنو يعز^(٣) وأكلوهم بتعجيل وسرعة، ولم يتركوا لهم سبياً من الأسباب، لا دواب ولا سلاحاً ولا قماشاً إلا ما سترهم من الأثواب، ثم قر ثلاثتهم من بني يعز ومعهم دابة واحدة يتداولونها وجماعة من النصاري، فتوجهوا بالليل خياري، فصلوا الطريق وجهلوه، وقعدوا ذات يوم في موضع وصلوا إليه فنزلوه، فبينما هم كذلك ليس فيهم من كثرة الخوف والجرع من يفهم ولا يعقل، إذ أقبلت عليهم جموع من عرب المعقل، فبادر إليهم أبو زيد بن زكريا بالسلام، فردوا عليه ووقع بينهم الكلام، فقال لهم: يا معشر العرب، قد بلغتكم الأرب، احسونا في عشرة آلاف دينار نؤدوها، وفي أقرب وقت إليكم نعدوها، وكان غرض العرب في الروم يقتلونهم ولا يتركونهم، حتى سمعوا كلام أبي زيد، فيما ارتبط معهم واشترط لهم من المال، فحملوهم إلى خيامهم وبالعوا في إطعامهم وإكرامهم، وقالوا بلسان حالهم: هذه غنيمة باردة، وأمنية علينا واردة، وكانوا وافقوهم على ثلاثة أيام عدداً. فلما نفذ الأمد، وطلبوا أبا زيد فيما به وعد، فقال لهم: إيتوني بشقف أو عظم، فأتوه بكيف بعير كتب فيه لخازن المال بسجله اسم اليهودي المسمى بابن شلوخة أن يدفع لحامل الأحرف إليه عشرة آلاف دينار من الدنانير العشرية السجله اسم ساعة وقوفه عليها، وكتب عبد الرحمن بن زكريا.

فلما وصل العربي بالبراءة إلى سجله اسم سأل عن اليهودي المذكور فعرف له فدفع له البراءة، وقال له: أعطني ما فيها قبل أن تتمها بالقراءة، فقال له: نعم، أهلاً وسهلاً

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

(٣) الضبط من ق.

بك يا أبا العَرَب، وتوجَّه معه إلى صاحبِ سِجِلْهَامَسةَ فعرَّفه بما طَلَب، فمَثَل بين يديه، وأخبره بما جاء فيه وإليه، فقَابَلَه بالإكرام وأمر له بالطَّعام، وقال لليهودي: أحضِرْ له مالَه، وبقيَ عبدُ الله بنُ زكريَّا يسأله ويختبرُ مقالَه، إلى أن قال له: أنا راجِلُ فلان ابنِ فلان، فقال له: ما يأخذُ المالَ إلَّا من يستحقُّه من أشياخِ العُربان، فصَرَفَه وراءَ شيوخه، وقصَّده أن يحضُّلوا في فُخوخه، فانصَرَفَ العَرَبِيُّ ووَصَلَهُم، وعَرَّفَهُم من القول بما عَرَّفَهُم، وقال لهم: إن أردتُم مالَكُم فتمشُّونَ إلى سِجِلْهَامَسةَ، فيها تَبْلُغونَ آمالَكُم، فتوجَّهوا لسِجِلْهَامَسةَ قاصدين، وعلى ابنِ زكريَّا وإردين، فعنَدَ وُصُولِهِم إليه وإقبالِهِم عليه، قال لهم: أخذتُم إخواننا وأجنادنا وكانوا قاصدين إلينا ووافدين علينا، لن تَبْرَحوا من هنا حتَّى يَصِلُوا إلينا^(١)، فما كان إلَّا أيامٌ قلائلَ حتَّى وَصَلُوا إليه فأكرمَهُم ورفعَ شأنَهُم ومكانَهُم حينَ وفَدُوا عليه، ثم توجَّهَ منهم أبو سعيد إلى تونسَ فتلَقَّاه أميرُها أبو زكريَّا بالبرِّ والتكريم، ونالَ عنده الخَيْرَ العميم، وبقيَ أبو زيد بسِجِلْهَامَسةَ إلى أن كان من أمرِه ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركةِ السَّعيدِ إلى سِجِلْهَامَسةَ وظَفَرِه بالثائرِ عليه فيها

عبدُ الله بنِ زكريَّا الهَزْرَجِيُّ

وذلك أنه لَمَّا تفاقَمَ حالُ ابنِ زكريَّا المذكورِ في تلكِ الجِهاَتِ ونفاقَه على السَّعيدِ وشقاقَه، وأظْهَرَ الخِلافَ والعِنادَ، وكتَبَ الكتائبَ وجنَّدَ الأجنادَ، تحرَّكَ السَّعيدُ إليه وخرَجَ من مَرَّاكُشَ باستعجالٍ وسرعةٍ، وأخذَ على طريقِ دَرْعَة، بعدما قدَّمَ خيلاً ورجلاً لسدِّ تلكِ المسالكِ، لئلا يَسْلُكُها سالكٌ، ويتعرَّفَ ابنُ زكريَّا بحركته، فيأخذَ في حالِ أهْبِيته. وكان عبدُ الله بنُ وانودينَ أمرَ إخوانه بني يعزَ بقطعِ الطَّرِيقِ هنالك، فما كان يَجُوزُه إلَّا مَنْ رَمَى بنفسِه في المهالكِ، وقدَّمَ السَّعيدُ مخاطباتَه إلى أشياخِ سِجِلْهَامَسةَ وظَهِيرًا كريمًا بالاعتناءِ التامِّ والتكريم، فأظْهَرَ جَدَّه ونُصَحَه أبو زيد بنُ أبي زكريَّا الجدميُّ في

(١) في ق، ك، ب: «لن تَبْرَحونَ من هنا حتَّى يَصِلونَ إلينا»، وقد كتبناها على الوجه، ومثل هذا كثير في هذا الكتاب ممَّا لم نشر إليه.

تلك الأمور، وحاول محاولة عظيمة مع قواد الروم في أمر ابن زكريا المذكور. فاستعمل النصارى شراً مع بعض العرب بإزاء باب القصة داخلاً وخارجاً ودخلوا في السلاح، وقام الضجيج في البلد والصياح، فعلم عبد الله المذكور أنها عليه أداره، فخرج على باب الغدر من القصة ودخلها أبو زيد الجدميوي مع أشياخ سجلماسة وشحنوها بالرماة والرجال الحماة، وخاطب أبو زيد السعيد معلماً بالحال، وأن الطالب للمحال، اضمحل حاله وحال، وتوغل في الأوحال، فشكر السعيد لأبي زيد خدمته ونصيحته، ونال عنده خيراً عظيماً وعفا عنه فيما جرى قبل ذلك منه.

وفي أثناء ذلك: قبض على عبد الله بن زكريا واستاقه بعض العرب إلى السعيد مصفداً في الحديد، فمثل بين يديه وقرر فعله عليه، فتكلم فيه أشياخ الموحدون إلى أميرهم، وذكره ما كان من وصية المهدي إمامهم على سلفه لعبد المؤمن وبنيه، وأن دماءهم حرام عليهم، ولو وصلوا بالضرر إليهم، فما سمع من مقالهم الذي قالوه، بل أمر عليه بالقتل^(١) فقتلوه، وحمل رأسه فعلق على باب الكحول، وقُرعت بسببه الطبول^(٢).

ورجع السعيد قبل وصوله إلى سجلماسة، ودخل مراكش مع خاصته وترك أهل محلكته وجملته يقفون على مهل إثره، ولم يعلم أحد من الحضر رجوعه وصدرة، لأنه دخل قصره على غير أهبة للقائه، ولا معرفة للناس بأنبائه، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وست مئة.

وفي سنة اثنتين وأربعين وست مئة: توفي الأمير أبو معروف محمد بن عبد الحق رحمه الله، فكانت إمارته نحو ستة أعوام، وتقدم بعده أخوه الأمير المعظم أبو يحيى بن عبد الحق، فبايعه القبائل الممرينية وبعض الزناتية وبنو ورا وغيرهم من القبائل الغربية، وانقادوا لأمره بالسمع والطاعة، وبايعوه وشايعوه بالقدرة منهم والاستطاعة، فعظم في الغرب وشاع فيه ذكره^(٣).

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٩٦.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٧/٢٢٧، والاستقصا ٣/١٠.

وفي هذه السّنة: تحرّك السّعيدُ من حضرة مَرَاكُش قاصداً البلادَ العَرَبِيَّةَ ومتفقداً لأشغالها وأعمالها ومستعدداً لحرب العساكر المَرِيَّةِ وقتالها، فتهاذى مشيهُ من حضرته على العادة المعهودة لأسلافه وأحلافه في مَراحِلِها المعلومة ومَنازِلها، إلى أن استقرَّ بمدينة فاسَ فتلّوم بها أياماً، فعزَلَ عن الأشغالِ أقواماً، ووَلَّى آخرينَ على أشغالِها، ونظَرَ في أمورِها وأحوالِها، إلى أن تخلّصت أشغالُها بكمالِها، وقيل: إنه قتلَ سعيدَ بن زكريّا فيها. وكان هذا أبو عثمان أحدَ أشياخ الموحّدين الكُبراء في طبقات الوُزراء، وقيل: إن قتلَه كان في السّنة الفارِطة قبلَ قتلِ عبد الله بن زكريّا، ورَحَلَ من فاسَ بعساكره الموحّدية إلى جهة المُمَرَّمَدِيَّة^(١)، فنزَلَ بمحلّته في أنحائها متعرّفاً لأحوال بني مَرِينَ ولأنبائها، فكانت بينه وبين الأمير أبي يحيى بن عبد الحقّ مُهادنةً وأرسال، في مصالح الأحوال، فعاد من ذلك المنزل من غير قتال، وقفلَ راحلاً إلى مَرَاكُش حرسها الله تعالى^(٢).

وفي هذه السّنة: أمرَ السّعيدُ بسجنَ أبي محمد ابن وانودينَ أحدِ أشياخ الموحّدين وعُظُمائها المتصرّفين في الولاياتِ الكِبار والأعمال، فأمرَ عليه واعتُقِلَ بأزمورَ بأعظم اعتقال، وسُجنَ معه أبو زكريّا بن مُزاحم وأبو زكريّا بن عَطّوش، فسُجنوا بها، وعُمِلَ عليهم عسرةً من الرّجال إلى أن كان من أمرهم ما أذكّره في السّنة الآتية إن شاء الله تعالى^(٣).

وفي سنة ثلاثٍ وأربعينَ وست مئة: صالحَ الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسف بن نَصْر مَلِك قشتالة أذفونشَ الأحوَلَ أخزاه الله تعالى على بلاد المسلمين التي تحت طاعته وفي جزبه وجماعته مدةً من عشرينَ سنة، وأعطاهم في هذا السّلم المذكور مدينةَ جَيّانَ وما والاها من الحصون والمعازل، وخرج منها كلُّ مسلم عاقل، وسكّن فيها آخرونَ مع النّصارى مُدجّنين^(٤)، وكان أهلُ إشبيلية لم يدخلوا في هذا السّلم المعقود، وكان

(١) الضبط من ق.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٦، والاستقصا ٢/٢٤٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٦.

(٤) في ق، ك: «مدخلين» ولها وجه، أي: داخلين في السّلم المعقود، على أن «مدجّنين» استعملت بكثرة في هذه الأعصر على المسلمين الذين عاشوا تحت سيطرة النّصارى يدفعون لهم ضريبة، كما في معجم دوزي وغيره.

أَيْضًا أَهْلُ شَرِيشَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي هَذَا الصُّلْحِ الْمُنْعَقِدِ فِي هَذَا الْعَامِ، لَكِنَّهُمْ صَالَحُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهَالٍ مَعْلُومٍ فِي الْعَامِ إِلَى أَنْ أُعْطَوْهُمُ الْقَصَبَةُ وَأَشْرَكُوا الْمَدِينَةَ مَعَهُمْ ثُمَّ أَخْرَجُوهُمْ مِنْهَا وَوَقَعَ النِّفَاقُ بَيْنَهُمْ عَلَى مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا أَهْلُ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ فَسَالَمُوهُمْ بِهَالٍ مَعْلُومٍ أَيْضًا، وَبَعْضُهُمْ تَدَجَّنُوا وَأَسْكَنُوا مَعَهُمُ الرُّومَ، وَكَانَ أَيْضًا أَهْلُ مُرْسِيَّةَ لَمَّا خَلَعُوا أَبَا بَكْرَ ابْنَ هُودٍ خَلِيفَتَهُمْ وَأَخْرَجُوهُ مِنْ مَدِينَتِهِمْ، بَادَرُوا إِلَى الرُّومِ الْمُجَاوِرِينَ إِلَيْهَا فَأَعْطَوْهُ حِصْنًا أَسْكَنُوهُ فِيهِ، فَكَانَ أَشَدَّ ضَرَرًا مِنَ الرُّومِ عَلَى أَهْلِ مُرْسِيَّةَ، حَتَّى نَزَلُوا بِمَحَلَّتِهِمْ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ دَخَلُوهَا عَلَى مَا اخْتَصَرَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَ اثْنَيْنِ وَسِتِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ حِينَ وَقَعَ النِّفَاقُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى فِي أَوَاخِرِ هَذَا الصُّلْحِ الْمُنْعَقِدِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ.

ذَكَرَ أَخْبَارَ ابْنِ وَانُودِينَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَحَالِهِ

وَفِرَارِهِ مِنَ السَّجْنِ بِأَزْمُورَ إِلَى جِبَالِهِ

وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا أَبَا مُحَمَّدَ ابْنَ وَانُودِينَ كَانَ مِنْ كِبَارِ الْمُوَحِّدِينَ، وَهُوَ الَّذِي قَدَّمَ السَّعِيدَ بِسَاعِدِ جِدِّهِ، وَأَقْعَدَهُ مَقْعَدَ أَبِيهِ وَجَدَّهُ، بَعْدَمَا جَرَّدَ بَعْضُهُمْ سَيْفَهُ مِنْ غِمْدِهِ، إِلَى أَنْ صَارَتِ الْخِلَافَةُ إِلَيْهِ، وَاجْتَمَعَتِ كَلِمَةُ الْمُوَحِّدِينَ عَلَيْهِ، فَبَدَّلَ أَيْضًا جِدَّهُ فِي تَوْفِيَةِ خِدْمَتِهِ وَتَبْلِيغِ نَصِيحَتِهِ، فَلَمَّا كَانَ فِي السَّنَةِ الْفَارِطَةِ سَطَا عَلَيْهِ السَّعِيدُ بِسَطْوَتِهِ، وَامْتَحَنَهُ بِأَعْظَمِ مُحِنتِهِ، وَغَرَبَهُ فِي أَزْمُورَ لِيَذُوقَ مَرَارَةَ غُرْبَتِهِ، وَفِرَاقَ أَهْلِهِ وَشِيعَتِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُ أَعْظَمَ نَكَالِهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَبَرَاءِ السَّبَبَ فِي اعْتِقَالِهِ، فَسَجَّنَهُ ابْنُ مَاكِينٍ بِدَوِيرَةٍ بِإِزَائِهِ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ عَشْرَةَ مِنْ رَجَالِهِ يَحْرُسُونَهُ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَيَتَسَمَّعُونَ مِنْ أَخْبَارِهِ وَمَقَالِهِ، وَكَانَ عَلَيْهِ كَبْلٌ ثَقِيلٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَحَرَّكَ مِنْ أَجَلِهِ لِثِقَلِهِ، فَدَبَّرَ وَجْهَ الْحِيلَةِ فِي أَمْرِهِ وَحَالِهِ، وَنَظَرَ فِي كَيْفِيَّةِ فِرَارِهِ إِلَى جِبَالِهِ، فَاسْتَخْلَصَ لِنَفْسِهِ شَخْصًا مِنْ أَوْلَثِكَ الْعَشْرَةِ الْمَعْيُنِينَ لِلْحَفْزِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الْإِنْعَامَ وَالْإِحْسَانَ، حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْهُمْ غَايَةَ الْإِمْكَانِ، وَكَانَ مَعَهُ بَتْلُكَ الدَّوِيرَةِ أَبُو زَكَرِيَّا ابْنُ مُزَاحِمٍ وَأَبُو زَكَرِيَّا ابْنُ عَطُوشٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي بَيْتِهِ.

وكان صاحب ابن وانودين الذي اتفق معه ليدبر الحيلة شخص يقال له: ابن المعلمة، يتصرف إليه. ثم إن ابن وانودين بلغه أن أبا الحسن يعلو يصل إلى أزمور، فخاف أن يكون وصوله برسم قتله أو حمله، فأعطى لابن المعلمة خمسين ديناراً عشرية فأعطى منها لصاحب له خمسها برسم أن ييسر له في الوادي لبطيرة ينتظره بها واشترى ببعضها جلاية، وكان عنده أخرى يلبسها، وأشاع لأصحابه أن يعلو ما يصل إلا بسراح ابن وانودين، وجعلهم يطلبون له البشارة فأعطاهم من الذنانير التي كانت عنده أكثرها ووعدهم بالإحسان إليهم والإنعام عليهم إذا من الله بسراحه، فاشتغلوا طول يومهم بالأكل والشرب واللهو والطرب إلى الليل، وكانت تلك الليلة مظلمة، والمتصرف فيها ابن المعلمة، وكان مفتاح بيت ابن وانودين بيده، وقد جعل فيه قلة خاوية وجلاية وعليه الجلاية الأخرى قد لبسها، وهو يدخل ويخرج في التصرف مرة بعد أخرى.

فلما نفذ لهم الزيت وغيره قال لهم: أنا أسوقه إليكم، فدخل البيت وألبس ابن وانودين الجلاية وأعطاه القلة، وقال له: اخرج سريعاً، فخرج عليهم في الظلام كأنه صاحبهم وأكثرهم رُقود، فخرج ابن المعلمة في أثره بجلايته وقلة أخرى وقال لهم: كنت نسيت آية الزيت فرجعت برسمها وخرجت ودخلت عليكم وأنتم رُقود كلكم، فكنت مجرباً لكم. وانصرف، فلحق بابن وانودين فأطلعته اللبطيرة وأجاز به الوادي صاحبه المتقدم ذكره، وسر الله ابن وانودين تلك الليلة، وفي غدها ظهر أمره، فخرج ابن عطوش من بيته فلم يجد أحداً، فعلم أن ابن وانودين قد هرب وعدا، فصاح على الناس فأخبرهم بخبره وأنبهم ما تعدى، فكان ذلك سبباً في خروجه وتيئه من أمره رشداً.

وقيل: إن بعض الصلحاء الأخيار نفع الله بهم أشاروا على ابن وانودين أن يتصدق بدينه ألف دينار، وحينئذ يشرع في الفرار.

ولما حصل ابن وانودين في ضفة الوادي مشى مع صاحبه، فكانا في بعض الطريق يرفعانه في أصلاهما من مكان إلى مكان، إلى أن أصبح الصباح وقد حصلوا في الأمان، ثم وصلوا إلى دواوير سفیان، فسألوا عن كانون، فقيل لهم: بالله لو كان ابن وانودين فما كان يخرج الآن إليه، فكيف أن يخرج إليكم أو يسلم عليكم؟ لعلمهم بمحبته في ابن وانودين وصحبته، فعرفوهم أنه هو المذكور، فخرج إليه كانون وسر به غاية السرور، وكان

بينهما مودةٌ عظيمةٌ وصحبةٌ قديمةٌ، فأكرمه وأعطاه في الحين مئةً وخمسين من الفرسان متخيرةً من عرب سُفَيان فتوجَّهوا معه إلى مَرَاكُش، فوصلها ليلاً وضربَ برُمُجِه في أحد أبوابها، وعَرَّفَ بنفسه للبواب الساكن على الباب وقال له: قل للسلطان ابن العنبر: ترى ابن وانودين وصل إلى جبله وقرَّ في أمنع مكان، فيعمل ما شاء من أعماله.

وحصل ابنُ وانودين مستقراً في جباله، بعدما خطرَ على لجاعةٍ وغيرها وعَرَّفَهم بأمره وحاله، وأنذر من في تلك الجهات والأوطية من إخوانه الهتاتيين ورجاله، وكان كانونٌ قد أعطاه فرساً لكونه من عِتاق خيله، وسلاحاً له ولصاحبيه في جملةٍ ما فَعَلَ من جميل فعله، فصرف ابنُ وانودين أيضاً أرساله بخير جزيل وبفعل جميل.

ولما وصل أبو الحسن يعلو إلى أزمُور ضربَ أرقابَ الرجال التسعة الحارسين له وعلَّق رؤوسهم على السور، وأمر السعيدَ بسراح ابن عَطُوش وابن مُزاحم وأحسن لابن عَطُوش واستوزَّره بعد ذلك.

وفي أثناء ذلك بعثَ السعيدُ لابن وانودين عشرةً من وجوه الموحدين مع خاصته مزوارَ الطلبة أبي محمد العراقي، فاجتمعوا معه بتامزاورت وبلغوا له ما أمرهم به السعيدُ من القول الحسن وبزوال ما كان في خاطره عليه، ونقلوا ذلك كله إليه، فشكرَ ابن وانودين على ذلك وطلبَ منه أن يكونَ سكناه هنالك، يعني في جباله، بأولاده وعياله، فأسعفه السعيدُ في مطلبه ومذهبه، وسكنَ بتيفنوتَ طولَ حياته إلى حين^(١) مماته.

ومن العجب العجيب والاتفاق الغريب أنه قتلَ السعيدَ وكانونَ وابن عَطُوش في يوم واحد، وورَّخ موتَ ابن وانودين فوجدَ موته قبلهم بيوم واحد، وكان غرضُ السعيد قتلهم الثلاثة فقتلَ السعيدُ وكان ثالثهم. وذكرَ بعضُ العارفين بأخبار السعيد وأمره، مثل: الشيخ الفقيه أبي عبد الله السَّرْقُسطي وغيره، أنه كان قد همَّ بقتل ابن وانودين مراراً فكان ينهأه عبد العزيز المُنْجَمُ سرّاً وجهاراً، فإنه كان ينظرُ في علمه ويقول: إنَّ يومك يكونُ بعدَ يومه، فكان ذلك كذلك. وكان مولدُ الفقيه أبي عبد الله السَّرْقُسطي بتيفنوتَ في عام أربعة وثلاثين وست مئة حين كان أبوه كاتباً ليحيى ابن الناصر ثم بعد ذلك لابن وانودين.

(١) سقطت من ق، ك.

اختصارُ الخبر عن حركة السَّعيد والموحِّدين

إلى قتال الأمير أبي يحيى وبني مَرين

وذلك أنه لما اتَّصل بأبي الحَسَن السَّعيد خلافُ كانونَ عليه واتَّفاهُ مع الأمير أبي يحيى أن يكونَ مسيرُهُما بكبيرِهما برسم القتالِ إليه، وأنَّ بني مَرين حَشَدُوا حشودًا كثيرةً في الغُرب برسم القتال معه والحرب، فخرَج السَّعيدُ من مدينة مَرَّاكش حضرته، على ما عَهد من هِيتِه بعدما أعطى للموحِّدين بَرَكاتِهِم، وللمتجنِّدين أُعطيَتِهِم على جَرِي عاديَتِهِم، وحَشَدَ حشودًا من العُربان من بني جابر والحُلُط وغيرِهِم من الفُرسان. ولما اجتمعَت الحشودُ عليه من كلِّ جهةٍ ومكان، تحرَّك بجيوشه وعساكره على العادة المعروفة لأسلافه الأمراء من بني عبد المؤمن وترتيب الأشياخ والوزراء والسادات الكُبراء، وكان وزيراه يومئذٍ: أبا زكريَّا ابنَ عَطُوش الكُومِيَّ والسَّيِّدَ أبا إسحاق ابنَ الأمير الطَّاهر أبي إبراهيم، وترك أخاه أبا زَيْد بنَ أبي إبراهيم بمَرَّاكش نائبًا عنه وعَوْضًا منه، وكان أخوهما ثالثُهما أبو حَفْص عُمَرُ الملقَّب حينَ خلافته المُرْتَضَى^(١) واليًّا على أغمات، وحَضَرَ معه في هذه الحركة كُتَّابُه الجَلَّة أبو الحَسَن الرُّعَيْنِيَّ وأبو زكريَّا الفَازَازِيَّ وأبو عبد الله التَّلِمْسَانِيَّ، ومزوارُ الطلبة أبو محمد العراقي، وأبو محمد القيحاوي^(٢).

وتماذى مُشِيَّ الجميع إلى تامَسْنا، والأميرُ المعظَّم أبو يحيى هنالك بمقرَّبة من واسنات، وبَنو مَرين أعزَّهم اللهُ قدِ اجتمعَت عليهم جموعٌ من بني راشِد الزَّنَاتِيَّين والوراويِّين والسُّفْيَانِيَّين، ونزلوا بجموعِهِم في تلك الجهاتِ والجَنَبات، واستعدَّوا للقتال مع السَّعيد والتَّزال، وتخيَّروا من فُرسانِهِم الأبطالِ مَنْ يَتَشَوَّفُ في تلك النواحي والأقطار، ويَطوِّفُ عليها لِسَماعِ الأخبار. فلما وصل السَّعيدُ بمَحَلَّتِهِ إلى تلك الجهاتِ بقُرب من واسنات، بادَرَ أكثرُ أهلِ العَسْكر للماءِ عندَ وُصُولِهِم لَشُرب دوائِهِم، فمنَعَهُم بنو مَرين من شُرْبِهِ فتجادَلُوا بالسُّيُوف والرِّماح عليه، والأميرُ أبو يحيى على رَبوَةٍ ناشَرُ أعلامه، والقتالُ على الماءِ بينَ الفريقَيْنِ أَمامَه، إذ دَفَعَ قائدُ الرُّومِ بجَهْلِهِ عليه، وأقبلَ جَمْعُه الذَّمِيمُ

(١) في ق، ك: «المُرْتَضَى».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٦-٣٤٧، والاستقصا ٢/٢٤٧.

إليه، فأَسْرَعَ بنو مَرِين إليهم، وانْقَضُوا عليهم، فقتلوا أَكْثَرَ جماعته الذميمة، ورفعت على مَنْ خَلَصَ مِنَ القتال (١) منهم الهزيمة، وأخذ بنو مَرِين علامهم، وفرَّ قائلهم المهزوم إلى مضارب السَّعيد فراراً أمامهم.

فلما اتَّصل الخبرُ بالسَّعيد، أمرَ بحضور القريب والبعيد، من الموحِّدين والعَرَب والأجناد، وأمرهم بالتأهَّب للقتال والجِلاَد، فقاتلوا قتالاً شديداً، وصَبَرَ الفريقان للضَّرب والطَّعان، إلى أن جُنَّ اللَّيْل وافتَرَق الجُمعان، وبعدَ ذلك حصلَ بيد الموحِّدين عبدٌ من عبيد بني مَرِين عارفاً (٢) بأمرهم وأحوالهم، فأرادوا أن يقتلوه، فقال لهم السَّعيد: اسألوه عن أمرهم وحالهم واعتقلوه، فإن صدق في مقالِه وإلا فبعدَ ذلك تقتلوه، فأحضر بين يدي السَّعيد، فقال: إنَّ الأميرَ أبا يحيى اجتمعَ مع أبي حديد، وخرجا عن المحلة بنحو ميلين اثنين، ف قيل: إنَّهما اتَّفقا على القتال في اليوم الفلاني خاصَّة ويفترقان، فلما كان صبيحةَ اليوم المذكور أمرَ السَّعيدُ بركوبِ الناسِ مستعدينَ للقتال، فركبوا وتأهبوا للجِلاَد معهم والنَّزال، وأمرهم السَّعيدُ أن يدفعوا بجُمليتهم دُفْعَةً واحدة فدفعوا، فحاربهم بنو مَرِين ومَنْ كان معهم ساعاتٍ من ذلك اليوم، ثم رَفَعُوا أيديهم عن القتال ووسَّعوا قاصدينَ إلى جهة العَرَب، وذلك خُدعةٌ من خُدع الحرب، فطمعَ فيهم السَّعيدُ لِمَا وَسَّعُوا أمامه.

ورجعَ كانوا إلى جهة مَرَّاكشَ ناشراً أعلامه، وتبعه عَرَبٌ سُفَيانَ بجموعهم، وتابِعهم ومتبوعهم، وتبع السَّعيدُ بني مَرِين وجَدَّ في اتِّباعهم، فما وقفوا إليه ولا عَرَّجوا عليه، إلى أن صَحَّ عنده أن كانوا كَرَّ راجعاً من السَّيِّدان مع إخوانه عَرَب سُفَيان، فخافَ أن يدخلَ مَرَّاكشَ كما دخلتها الخُلَطُّ قبل ذلك وأن على ذلك كان اتِّفاقه مع الأمير أبي يحيى واجتماعه. فأمرَ أهلَ محلَّته بإقلاعهم من هنالك ورحيله، وجَدَّ في اتِّباع كانوا يُقْفِي أثره على طريق مَرَّاكشَ إلى أن سَمِعَ خبره، ورجعَ إلى جهة دَكالة فلقية، وكان من أمره ما أذكرُه إن شاء الله تعالى.

(١) في ق، ك: «القتل».

(٢) هكذا في الأصل، والجادة: «عارف».

ذكر دخول كانون مدينة أزمور^(١)

وذلك أنه لما كَرَّ كانون بن جرمون راجعاً عن السَّعيد وتَرَكه مُستَغْرِقاً في الحروب مع بني مَرِين التي ليس لهم فيها نَظِيرٌ ولا قَريب، قَصَدَ إلى أزمور فأدخله عليُّ بن يَزيمر التامريُّ إليها فاستولى مع عَرَبه عليها، فاستطالت أيديهم فيها على بعض حَضَرها الغُرباء بأنواع الظُّلم والاعتداء، وأغرَمهم أموالاً وأغرَم اليهود الساكنين بها كذلك مالاً، واستأصلتهم العَرَبُ استصلاً، وكان واليها حِيثَذِ ابنُ معنصر الكُوميُّ، تَرَكه ابنُ مأكِسن عَوْضاً منه وناثِباً فيها عنه، فقد كان تَوَجَّه المذكورُ مع الشَّيخ أبي عبد الرَّحمن القاسم بن زكريَّا الهنائيِّ مع جُملة من بني هناءَ لِلقاء السَّعيد بالتضييفِ له إلى تامَسنا، ولو حَضَرَ القاسمُ بن زكريَّا بأزمور، لَمَّا كان أَحَدٌ يَحْجُرُ على شيءٍ من تلك الأُمور.

ولَمَّا اتَّصل بكانون خَبِرَ رجوع السَّعيد خَرَجَ من أزمور وقَصَدَ إلى جهة جَبَل الحديد وأخذ على دَكالة قاصداً إليه، فَسَمِعَ بخبره السَّعيد، فانقَضَ بعسكره عليه، وكان السَّعيدُ قَدَّرَ على ما ذُكِرَ أنه تَوَافَقَ مع ابنِ وانودين على دُخول مَرَّاكش، فَأَسْرَعَ في طلبِ كانون المذكور، حتَّى قطع في وجهه حين خَرَجَ من أزمور وأوَقَعَ السَّيفَ على مَنْ كان معه من العَرَب المُعْتَدِينَ والمُفْسِدِينَ، وَقَضَى فيهم أَرَبه ومطلبه، وفَرَّ كانونُ مع مَنْ خَلَصَ من عَرَبِهِ إلى الغرب^(٢).

ولَمَّا ظَفِرَ السَّعيدُ بالعَرَب المذكورين وقتلهم واستأصلهم، أَمَرَ بحَزْ رؤوسهم وبعَثَ بها إلى مَرَّاكش، فَعَلَّقُوا بها على السُّور، وتَوَجَّه بعسكره إلى أزمور، وقيل: إنه كان حَلَفَ أن يدخُلها بسيفه، وكان أهلُها في أمرٍ عَظِيمٍ من خوفه، فخرَجَ إليه الصُّلَحَاءُ نَفَعَ اللهُ بهم وأخبروه بأفعال العَرَب وأعمالهم، وبِمَنْ كان السببُ في دخولهم، فوَقَعَ البَحْثُ في كُلِّ الجِهاتِ على عليِّ بن يَزيمر، فقبِضَ عليه، ودخَلَ السَّعيدُ على يَمِينِهِ إلى أزمور، وسيفُهُ كما ذُكِرَ مشهور، وَعَفَا اللهُ عن أهلها فيما سَلَفَ إلَّا على الجاني ابنِ يَزيمر لأجل ما اقترَفَ، فسَيَّقَ إلى مَرَّاكش مصفداً في الحديد، فأَمَرَ فيها بقتله السَّعيد، بعدما عَاينَهُ القَريبُ والبعيد.

(١) ينظر عن أزمور: الروض المعطار ٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٣٤٧/٦، والاستقصا ٢٤٧/٢.

ولمّا وصل الأمير أبو يحيى إلى جهة مكناسة وتلك الجهات، من مقابلة السعيد على واسنات، ورايائه منصورة وجيوشه موفورة، قامت هوشة بمكناسة وقتل العامة واليها راجل السعيد، وقال بعضهم: هو جراز بكلام بني مَرين سَمّوه بأسماء العبيد، فخاف خاصتهم وخاطبوا الأمير أبا يحيى ووافقوه بأموال معلومة ليحول بينهم وبينه، وكان أهل الغرب مُرتقين لوصول الأمير أبي زكريّا من تونس، وبايعه أهل سبتة وطَنْجة، فاقتضى نظر قاضي مكناسة ابن عميرة أن يكتب إليه هذه البيعة^(١).

ذكر نصّ البيعة المكناسية لأمر الحضرة التونسيّة

الحمد لله العليّ الكبير، اللطيف الخبير، خالق الخلق غنياً عن المثال والنظير، ومقدّر الأشياء على ما اقتضته حكمته من التدبير، يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ولا اضطراب في الأمر ولا اضطراب في التقدير، مُكَوِّر الليل على النهار ومُكَوِّر النهار على الليل فتاهت العقول وفني المَقُول في الشاهد من أسباب التكوين والتكوير، وصلى الله على سيدنا ونبينا^(٢) محمد المبعوث بالكتاب المُنير، المنعوت بالبشير النذير، طلعَ بَدْرًا باهرَ الطالع هاديًا بنوره الساطع والأرجاء مُدْلَهَمَةً بالدياجير، والجاهلية في غلوائها من احتقار مَلَمّة الجور والاحتقار لذمة المُجير^(٣)، فَشَنَى^(٤) الخلق عن شرودهم، وسَفَرَيْنَ العباد ومعبودهم، فكان شَرَفُ السّفارة على قَدَر شَرَف السّفير، ومكانه عند الله كما اختاره من الرّفيق الأعلى حين^(٥) أتته رسالة التّخير، صلى الله عليه وعلى آله المتّخين من معدن التقديس والتّطهير، وأصحابه المهاجرين الفائزين بثواب صحبته بالمقام الشّهير والحظّ الجليل الخطير^(٦)، والأنصار الذين قاموا بنصرتهم عند عُدْم النصير، واستأثروا به حين رجع الناس بالشّاء والبعر، صلاةً تتوالى عليه وعليهم ما لاح الصّباح باهر

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

(٣) في ق، ك، ب: «الأجير»، ولا معنى لها.

(٤) في ق، ك، ب: «فنهى»، وهي بمعنى.

(٥) من هنا إلى قوله: «من معدن...» سقط من ق، ك.

(٦) عبارة ق، ك، ب: «صحبته بالخط الجزيل الخطير».

النباشير، ونَثَرَتِ الرِّياحُ جواهرَ الغُصنِ المَطرير، ورضي^(١) اللهُ عن المَهْدِيِّ المَعْلومِ
مجدِّدِ رَسْمِ الهداية، وقد كان على خَطرٍ من التَّغْيِيرِ، وعلى خَيْرَةٍ أوليائه وأصحابه الذين
استَعَمَرَهُمُ اللهُ أَرْضَهُ فَأَقَامُوا سُنَّةَ اللهِ وَفَرَضَهُ مَخْتَارِينَ مِنْ أَرْوَمِ الكَرَمِ والخير، متواصينَ
في إظهار أمر الله بغاية الجِدِّ ونهاية التَّشْمِيرِ، وَنَرَفَعُ الدَّعَاءَ فِي مَظَانِّ قَبُولِهِ، وَمَوَاقِفِ
الرَّجَاءِ فِي وَصُولِهِ، لَمَوْلَانَا الإمامِ الأعْظَمِ والمَلاذِ الأعْصَمِ الأميرِ الأَجَلِّ السَّهْمِ
الطاهرِ الأَسْعَدِ الأشرفِ الأعلى المؤيَّدِ المنصورِ ناصرِ الدِّينِ وكافلِ الإسلامِ والمسلمين أبي
زكريَّا ابنِ الشَّيْخِ المَعْظَمِ المقدَّسِ المَجاهِدِ الأَرْضِيِّ أبي مُحَمَّدِ عبدِ الواحدِ ابنِ أبي حَفْصٍ،
ولولِيَّ عَهْدِهِ الكَرِيمِ وسَلِيلِ مَجْدِهِ الصَّامِيعِ الأميرِ الأَجَلِّ السَّهْمِ المؤيَّدِ أبي يَحْيَى.

أما بعد، فإنَّ اللهَ سَبَّحَانَهُ خَلَقَ الخَلْقَ بِالْفِطَرِ والصُّورِ مُتَفَاوِتِينَ، وعلى عَرَضِ هذا
الأَدْنَى مُتَهافتين، وَجَعَلَ السُّنَّةَ الَّتِي أَعْلَى أَعْلَامُهَا، وَبَيَّنَّ أَكْرَمُ خَلْقِهِ^(٢) عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣)
أَحْكَامُهَا، لِأَمْرِ مَصَالِحِهِمْ نَازِمَةً، وعلى أَخْذِهِمُ بالتَّناصُفِ والتَّعاطُفِ قَائِمَةً، لَا يَصْلُحُ
النَّاسُ فَوْضَى^(٤)، وَلَا يَتْرُكُ الغَوَاةُ إِذَا أَهْمَلَهُمُ الْوَلَاةُ تَقَحُّمًا فِي الْبَاطِلِ وَخَوْضًا، وَمَنْ نَعِمَ
اللهُ عَلَى الرِّعْيَةِ هِدَايَةً رُعَايَتِهَا، وَاسْتِقَامَةً قَادِتِهَا إِلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ وَدُعَاتِهَا، وَأَنْ يَكُونَ أَهْلُ
الْفَضْلِ وَالْوَرَعِ بَطَانَتَهُمْ، وَيَتَوَلَّى الْأَخْيَارُ وَالصُّلَحَاءُ إِنْجَادَهُمْ وَإِعَانَتَهُمْ، فَبِهَذَا تَتِمُّ
النِّعْمَاءُ وَتَسْكُنُ الدَّهْمَاءُ، وَتُحَقَّقُنْ فِي أَهْبِهَا^(٥) الدِّمَاءُ، كَمَا أَنَّ ضِدَّ هَذِهِ الْحَالِ مُؤَذِّنٌ بِخَرَابِ
العِمْرَانِ وَتَسْلُطِ حَزْبِ^(٦) الشَّيْطَانِ، وَمَنْ السَّمَقُولُ الْمَقْبُولُ: «يَزِعُ اللهُ بِالْسلْطَانِ مَا لَا
يَزِعُ بِالْقُرْآنِ»، وَالْمَشَاهِدُ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ كَانَ قَدْ أَحَالَ^(٧) أَوْجُهَ الْأَيَّامِ وَأَشْمَتَ^(٨) الْكُفَرَ

(١) من هنا إلى قوله: «ونرفع الدعاء» سقط كله من ق، ك، ب.

(٢) سقط من ق، ك، ب.

(٣) سقط من ق، ك، ب.

(٤) عبارة ق، ك، ب: «لا يضاع الناس مرضى».

(٥) قوله: «في أهبها» سقط من ق، ك، ب.

(٦) سقط من ق، ك، ب.

(٧) في ق، ك، ب: «حال».

(٨) في ق، ك، ب: «واشتمل».

بأهل الإسلام، وما زال عدوُ الدِّين يَشْفِي منه صدره، ويُركِبُ أهله بما يتعاضمُ أحدنا ذكره، إلى أن انقَضَت بحمد الله مدَّةُ الإملاء، وأذن كسوفُ الأحوال بالانجلاء، فطلَعَ الفجرُ على الغرب من ثَنِيَّتِهِ، ورأى بعدَ الشكِّ بُرهانَ بُرْثِهِ من شَكِيَّتِهِ، يُنادي به الجِدُّ الذي استقال من عِثارِهِ، وخرجَ قمرُهُ من سِرارِهِ، قد أمكنتَ الفُرصةَ من يَتَدِرُّها من بلادِكَ، واصطَفَتَ ^(١) الحَلَبَةَ فأعدَّ لها المُقَرَّبَ ^(٢) من جِياذِكَ، وهذا موقفُ الخبرة قد بدا، وإِنما يفوزُ بالخصْل السَّباقِ إلى المدى.

ومِكناسَةُ هي التي وَلَجَت من هذا الباب، وأَسْرَجَت وَليلَ الحَظِّبِ مُرخِي الجِلبابِ، ورأتُ فُرجةَ الفُرصةِ فنَصَّت، وقِيدَ إليها في يدِ القهرِ ^(٣)، وأبرأها من عوارضِ الدَّهرِ فأقَصَّت ^(٤)، وعَلِمَ أهلُها أَنَّهُ لا يَصْلُحُ مَعَ ^(٥) التَّقْصِيرِ غَيْرَةً، ولا تُقْبَلُ بَعْدَ ^(٦) الفَتْحِ هَجْرَةً، وأنَّ دَعْوَةَ الإِمارةِ التي تُزَفُّ ^(٧) بناتُ الآمالِ بساحتِها، ويَحِفُّ ثباتُ الجِبالِ عِنْدَ رَجاحتِها، وهي الدَّعْوَةُ الواقعة، مواقعُ سُحبِها اللامعةُ ^(٨) في مطالعِ شُهبِها، المَبْنِيُّ على ضَرْبِ العِدا وقِسْمَةِ البأسِ والنَّدَى حسابُ كَتائِبِها وكتُبِها، هي مَطْمَحُ الهِمَمِ ومَرَقاها، ومَجْتَمَعُ الأمانِيِّ ومُلْتَقاها، والمَفْزَعُ من مَتَسَلِّطِ تَنْصُرِ البَيْضِ مِنْهُ صيدها، فتَوَدُّ أَنْ حُدَّها مِنْهُ سَقاها، وتَصْبُو ^(٩) لأنَّ تُصِيبَ مَصِيبَهُ بِأَسْعِدِها كما كان مَصِيبُ سَمِيَّها أَشَقاها، لا جَرَمَ أَنَّهُمْ خَلَعُوا طاعَتَهُ خَلَعَ النُّجَادِ، وضَرَبُوا بَيْنَهُم وبينَها بأوثقِ

(١) في ق، ك، ب: «واختطفت».

(٢) المقرب والمُقربة: الفرس التي تدنى وتقرب، وتكرم ولا تترك، كما في معجمات اللغة.

ووردت اللفظة في ق، ك: «المغرب» وليست بشيء.

(٣) في ك: «القصر».

(٤) في ق، ك، ب: «فاقتصت».

(٥) في ق: «لا يقصد على»، في ك، ب: «لا يقصد مع».

(٦) في ق، ك، ب: «ولا يقبل بهذا».

(٧) سقطت من ق، ك، ب.

(٨) من هنا إلى قوله: «مطمح الهمم» سقط كله من ق، ك، ب.

(٩) من هنا إلى قوله: «لا جرم» سقط من ق، ك، ب.

الأسداد، وولّوا وجوههم قبلةً ترُضاها عبادةُ الوفود ووفادةُ العباد، وأبصروا فجرَ الحقيقة وقد أذهبَ اللهُ بَحَيْطَ البَيَاضِ منه خَيْطَ السَّوَادِ، حيثُ مِياهُ الكرمِ مَفجَّرةٌ^(١) وجِبَاهُ الأُمَمِ مَعفَّرةٌ، وأعَاطُهم الرِّجالُ أمثلةً مَصغَّرةً وضراعُهم الأَغْيالُ في حَوْمَةٍ^(٢) النَّزَالِ حُمُرٌ مُسْتَنفِرةٌ.

وعندما أُخْرِجَ الحَقُّ^(٣) من تلك العُهْدَةِ، وتمَخَّضَ الرَّأيُ عن صَريحِ الرُّبْدَةِ، اتَّفَقَ منهمُ العُلَمَاءُ والصُّلَحَاءُ، والأَشْيَاخُ والأَعْيَانُ والنُّصَحَاءُ، ووجوهُ القَبَائِلِ والعَسَاكِرِ، وكَافَّةُ طَبَقَاتِ النَّاسِ مِنَ البَادِي والحَاضِرِ، على أنْ بَايعُوا الإمامَ الهَادِي الأَمِيرَ الأَجَلَّ أبا زَكَرِيَّا ابنَ الشَّيْخِ المَجاهِدِ أَبِي مُحَمَّدٍ عبدِ الواحِدِ ابنِ الشَّيْخِ المَعظَّمِ أَبِي حَفْصٍ بِيعةً رَفَعَتْ بِالْعَدْلِ مَعَالِمَهَا، ووضَعَتْ على التَّقْوَى قَوَاعِدَهَا، وصادَفَ وَقْتَ الحَاجَةِ بَيَانُهَا، وأُسِّسَ على تَقْوَى مِنَ اللَّهِ ورضوانِ بُنْيَانُهَا، ابْيَضَّتْ بِهَا وجوهُ المُنَى وكم تَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهَا، وطلَّعتْ لها شَمْسُ الهُدَايَةِ من مَشْرِقِهَا فَنَفَعَ النَّاسَ إِيْمَانُهَا، وَرَفَعَ البُؤْسَ قِرَائِنُهَا الأَسْعَدُ وزَمَانُهَا، أَعْطَوْا بِهَا صَفْقَةَ أَيْمَانِهِمْ مُبَادِرِينَ، وشكروا اللَّهَ على نِعْمَةِ القِيَامِ بِهَا وَسَيَجْزِي اللَّهَ الشَّاكِرِينَ، على السَّمْعِ والطَّاعَةِ، والارتِبَاطِ بِلُزُومِ الجَمَاعَةِ، والانْقِيَادِ لِلأَوَامِرِ والزَّوَاجِرِ بِمَبْلَغِ الوُسْعِ ومَجْهُودِ الاستِطَاعَةِ، في اليُسْرِ والعُسْرِ والقُلِّ والكُثْرِ، والسَّرِّاءِ والضَّرِّاءِ والشَّدَةِ والرَّخَاءِ، وعلى ما بَايَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَثْمَتَهُمْ، وَأَعْطَوْا بِهَا عن بَصِيرَةٍ ونَقَاءِ سَرِيرَةٍ عَهودَهُمْ وأَذْمَتَهُمْ، النِّيَّاتُ في الوَفَاءِ بِهَا صَادِقَةٌ، والأَلْسِنَةُ بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَيْهَا نَاطِقَةٌ، وَالظُّوَاهِرُ مَعَ البَوَاطِنِ في التَّزَامِ أَحْكَامُهَا والانْقِيَادِ بِزِمَامِهَا مُتَوَافِقَةٌ مُتَطَابِقَةٌ، طَوْقُهَا لَهمُ أَلْزَمُ من طَوْقِ الحِمَامِ، وَرَبِقَتُهَا مُنْعَقِدَةٌ في أَعْنَاقِهِمْ بِرَبْقَةِ الإسلامِ، وَبَعْدَ أَنْ أَبْرَزُوا عَمَلَهَا في أَهْىَ صُورِ الأَعْمَالِ، واستَوْفَوْا عَقْدَهَا بِشُرُوطِ الصَّحَةِ والكَمالِ، أَتَّبَعُوهَا بِأُخْرَى تَنْزَلُ مِنْهَا مَنْزِلَةُ السُّورَةِ مِنَ الفَاتِحَةِ، وتُبدِلُ على رَوْضِهَا التَّضْيِيرِ بنَوَاسِمِهَا النَافِحةِ، وَهِيَ البِيعةُ لِلأَمِيرِ أَبِي يَحْيَى، وَفَرَعَ الدَّوْحَةُ العُلْيَا، وَنَظَامُ أَمْرِ الدِّينِ

(١) في ق، ك، ب: «مفجَّرة».

(٢) في ق، ك، ب: «خدمة» وليس بشيء.

(٣) في ق، ك، ب: «الخلق».

والدنيا، نصر الله أعلامه، وأسعد أيامه، وأمضى في عدوه الماضين القاضين رأيه وحسامه، على سنة البيعة لولاية العهود، وما مضى العمل عليه في مثلها^(١) من مهمات الأمور ومبرمات العقود، وكلتا البيعتين أمضوها على أساليبها المرعية، وقوانينها الشرعية، بنيات كريمة وغيوب سليمة وبصائر وجدت منهم أمضى عزيمة^(٢)، أشهدوا عليها الله الذي قوله بالوفاء مرتبط بإيجابه، وأمره الذي لا تقوم السماء والأرض إلا به، وكفى بالله شهيداً، وكفى بالله عليماً، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. وكتب الملاء المذكورون بكل ما ذكر فوق هذا بخطوطهم شاهدين على أنفسهم بنصه كله، وعاقدين منه ما لا رخصة لأحد من الأحدين في حله، وذلك في يوم الجمعة الموفي عشرين لربيع الأول من سنة ثلاث وأربعين وست مئة.

ولما اتصل خبر أهل مكناسة بالسعيد وبما فعلوه من قتل عامله ومبايعتهم لصاحب تونس، شرع في الحركة إليهم بحق عظيم، ثم إن أهل مكناسة بعثوا صلحاءهم وعلماءهم راغبين في العفو الأتم، مستغفرين الله مما اقترفوا من الإثم، مقسمين أنهم لم يوافقوا قاضيهم على كتب تلك البيعة المذكورة، وخاطبه خاصتهم وعامتهم بمخاطبات يطلبون منه العفو والرضى، ويجرون السهو فيما سلف ومضى، وكتبوا مخاطبتهم ببيعتهم من إنشاء ابن عبدون، فقرئت عليه، فعفا عما ذكر من تلك الأمور.

تجديد بيعة أهل مكناسة للسعيد

من إنشاء ابن عبدون الكاتب المجدد

الحمد لله مقدر الأمور، ومصرف المقدور، ومخرج عباده من الظلمات إلى النور، عالم السرائر، ومنور البصائر، ورافع الدرجات وواضع الخطيات، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وسع كل عاصي حلمه، وأحاط بكل شيء علمه،

(١) قوله: «في مثلها» سقطت من ق، ك، ب.

(٢) قوله: «وبصائر وجدت منهم أمضى عزيمة» سقط من ق، ك، ب.

ونفذَ في كلِّ موجودٍ حُكْمَهُ، لا رادَّ لهما به حَكَمَ وأمر، ولا ناقضٌ لهما أَحَكَمَ وأمر، قدَّرَ الأشياءَ وأتقَنَ الإنشاءَ، وآتَى مُلْكَهُ مَنْ شاءَ، وأَسَّسَ بالإمامةِ مبانيَ الدِّيانةِ، ووصلَ بها للرَّعايا أسبابَ الرِّعايةِ، وأمدَّ من أهله لوراثَةِ مقامِهِ الأسمى، واختاره لأمانتِهِ العُظمى، بالإنجادِ والإعانة.

ومنها: بعدَ تَمَامِ الدَّعاءِ والصَّلاةِ والرَّضى، اللهمَّ ارْضَ عن خليفَتِكَ في عبادِكَ، المرتسمِ في ديوانِ أوليائِكَ وعبادِكَ، الإمامِ المؤيَّدِ، والحُسامِ المهنَّدِ، الأتقى الأطهرِ الأعلى، المعتضدِ باللهِ أميرِ المؤمنينِ أبي الحَسَنِ ابنِ سَيِّدِنَا الخليفةِ الإمامِ المأمونِ أميرِ المؤمنينِ ابنِ الخُلَفاءِ الرَّاشدينِ رَضَى يُبْلِغُهُ أَمَلُهُ في الدُّنيا والدِّينِ، وَيَحْكُمُ لدولتِهِ السَّعيدَةِ ومدَّتِهِ الحميدةِ بالتمهيدِ والتمكينِ، ويجعلُ كلمتَهُ الباقيةَ إلى يومِ الدِّينِ. اللهمَّ كما انتَقَيْتَهُ من أكرمِ جُرثومةٍ، وسدَّدتَهُ لإقامةِ حدودِ اللهِ المرسومةِ، فضاغِفِ اللهمَّ في قلوبِ رعاياه حُبَّهُ، وأَيِّدْ بالملائكةِ والرُّوحِ عِصابتَهُ وحزبَهُ.

ومنها: وَمَنْ ^(١) شُكِرَتْ في الخِدْمَةِ آثارُهُ، فحقيقٌ أَنْ تُغْفَرَ زَلَّتُهُ وتُمحى آثارُهُ، وأنَّ العبيدَ من أهلِ مِكناسَةٍ قدِ اجتمعوا ووقفوا موقفَ الاستكانةِ والمذلةِ، وقرعوا سنَّ النَّدمِ على ما صَدَرَ عنهم من زَلَّةٍ، واستشعروا لباسَ الإنابةِ، وبادروا لهذه الدَّولةِ المُعتصِميةِ بالإجابةِ، واتفقوا جميعاً على أنْ جَدَّدُوا بيعتَهُمْ لسيِّدِنَا ومَولانا الخليفةِ الإمامِ المعتضدِ باللهِ أميرِ المؤمنينِ أبي الحَسَنِ ابنِ الأئمَّةِ الرَّاشدينِ، أعلى اللهُ يَدَهُ، ونَصَرَهُ وأَيَّدَهُ، حسبما تقدَّم مُستوعبةُ الشُّروطِ، مستوفاةُ العقودِ والرُّبُوطِ، لم يَسْتثنُوا فيها فصلاً، ولا أغفلوا من عقودِها قرعاً ولا أصلاً، بنفوسٍ مغتبطَةٍ، ونياتٍ على الوفاءِ بما التزموه من عقودِها مرتبطةٍ، وأشهدوا اللهَ وملائكتَهُ على أنفُسِهِمْ بذلك وهم به عالمون، ﴿وَمَنْ يَبْعَدْ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقَيَّدُوا عليه شهادتَهُمْ في تاسعِ عَشَرَ شهرٍ ذي الحِجَّةِ من عامِ ثلاثةٍ وأربعينَ وستِ مئةٍ.

وفي هذه السنة: بايَعَ أهلُ إشبيليةَ وأهلُ سَبْتَةِ للأميرِ أبي زكريا، وبعثَ ابنُ خِلاصٍ صاحبُ سَبْتَةِ هديةً إليه معَ وَلَدِهِ في غرابٍ جديدٍ فغرقَ الغرابُ بها وبالوَلَدِ، ولم يخرجْ

(١) في ق، ك، ب: «وقد»، وما أثبتناه أوفق لقوله بعد «فحقيق».

منه أحد، وفيه كان الكاتبُ أبو إسحاق بن سَهْل، وبعثَ أهلُ إشبيليةَ بيعتهم مع بعض وزرائهم وكُبرائهم، وكان شيخنا إذ ذاك وصاحبها أبو عمرو ابن الجَدَّ^(١).

وفي سنة أربع وأربعين وست مئة: وصلت الأجنافُ التونسية إلى سَبْتَة وإشبيلية، فوصل واليًّا على سَبْتَة ابنُ الشهيد الهشّاق ومُشغلاً بها ابنُ أبي خالد البُلَنسي، ووصل إلى إشبيلية أبو فارس برسم أن يسكنَ قَصْبَتَهَا. وكتبَ الأميرُ أبو زكريّا إلى أهل إشبيلية هذه الرسالة التي أذكرُها هنا مُختصرةً، إن شاء الله تعالى:

فصلٌ من ذلك بعدَ الدُّعاءِ والصَّدَرِ

وإلى هذا وإلى الله من صنعه الجميل ما يُعْمُ مُرادكم ويعصمُ مرادكم، فإنه وقد فُدِّكم المبارك ببيعتكم التي أُسِّست على الرِّضوان قواعدها، وأجاب بكم إلينا داعي السعادة فلم تُبْطِ في إنجازِ الإجابة موعدها، وثوبَّ بكم إلى تفيؤِ الوارف من ظلِّها فلم تنبُ عن الإصغاءِ مواقعَ ندائه، وبسّرْتكم اليسرى لاقتفاءِ سُبُلها وبُشِّرَى لِمَن يسرته لاقتفائها واقتفارها، وبسّرته بحلولِ مَادَحٍ تلقته من رَحْبها وسُبُلها بسفور أهل السعادة وأسفارها، حيثُ النجاحُ للساعي أصدق رائد لا يكذبُ أهله، والإسجاحُ على كلِّ مَلَكَة عائدٌ بما لم يُعد فيه إلى الحسن سهله، والإفصاحُ بما يُجمِج عنه الانتصارُ لدين الله وسُنَّة نبيِّه عليه السلام، والإيضاحُ لمنهج الإدراع والاستشعار بكلِّ عزيمة ماضية في إعلاء شعار الإسلام.

ومنها: فقد مهَّدنا لكم من النَّظَرِ الصَّالح أوثرَ مهَاد، تنامون ملءَ الجُفون في ذُرَى الأمانِ ونامياً بأمنياتكم في أكنافِ الامتداد، وعقدنا لكم ذِمَّةَ استنصارٍ أُمِرَتْ بيدَ العَوْنِ الرِّبَّاني موامرها، وأقَرَّت من الإبرام والإقرار على ما تساوت فيه بواطنها وظواهرها، فلتوقن تلك الجَنَبَاتُ المكلوءة أن سَمَعْنَا بحول الله نصير، ولتشعرون من العزمات المنصورة لأية حالة حالية نصير، لا يبرحُ يرأبُ ثأى ثغوركُم ويرتقُ فتقها ويلمُ شعثها، ويدأبُ على سلكِ أموركم أسهل مسالك الانتظام وأوعثها، ويدراً عن أكنافكم كلَّ حادثة تُرغمُ فيها أنوفُ النوائب، ويحسُّمُ عنكم من كلِّ خطب مباعثه بأعجازِ كتبه

(١) تاريخ ابن خلدون ٣٤٧/٦.

أو ببدورِ كتاب، فَلتَقُوا بَنَصْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وإمداده والنَّظَرِ الصَّالِحِ الَّذِي لَا يَغْبُكُم تَعاقُّبُهُ، والاهتمام لَا يَبْرَحُ بِمَرَاصِدِهِ الَّذِي يُرَاعِي تَعَرُّفَ أَحْوَالِكُمْ وَيُرَاقِبُهُ، فَتَلْكُمُ الْقَاعِدَةُ مِنَّا بِالْمَحَلِّ الَّذِي لَمْ نُخْلِهِ مِنْ كُلِّ نَظَرٍ جَمِيلٍ يَوْجِدُهَا، اقْتِرَابِهَا وَانْضَوَائِهَا، وَيُسَعِّدُهَا بِالطَّاعَةِ الَّتِي سَلَكَتْ فِيهَا أَوْضَحَ سَبِيلٍ وَجَرَتْ مِنْ مَنَاهِجِ إِخْلَاصِهَا عَلَى سَوَائِهَا، فَشَايِعْتُمْ الْحَقَّ وَتَابَعْتُمْ أَنْصَارَهُ، وَدَافَعْتُمْ عَنْ حَوْزِهِ وَبَقَيْتُمْ عَلَى الْجَادَّةِ مَنَارَهُ، فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يُعِينُنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ يُزَلِّفُ لِمَرَاضِيهِ، وَيُجْزِلُ الْحِطَّ مِنْ ثَوَابِهِ وَيُؤَفِّرُهُ، وَيَشْفَعُ لَكُمْ مَوْتَنَفُ^(١) الْإِسْعَادِ بِهَاضِيهِ، وَيَنْصُرُ حَزْبَكُمْ الْمُفْلِحَ وَيُظْفِرُهُ، بِمَنَّةٍ وَيُمْنِهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ. كُتِبَ فِي الْعَاشِرِ لِمَحَرَّمٍ مِنْ عَامٍ أَرْبَعَةٌ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ.

وَلَمَّا قَقَلَ وَفَدَّ إِشْبِيلِيَّةَ مِنْ تَوْنُسَ بَعْدَمَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ أَبَا زَكَرِيَّا، وَجَّهَ مَعَهُمْ مُشْتَغَلًا وَعَامِلًا وَبَعْضَ رَجَالِهِ فَوَصَّلُوا بِجُمْلَةٍ مِنَ الْقَطَائِعِ إِلَى مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةَ فَاشْتَغَلُوا بِهَا لَا يَصْلُحُ مِنَ الْفُسَادِ، وَجَرَتْ لَهُمْ فِيهَا أُمُورٌ شَنِيعَاتٌ لَا يُمْكِنُ ذِكْرُهَا، فَأَخْرَجَهُمْ أَهْلُ إِشْبِيلِيَّةَ وَقَتَلُوا ابْنَ الْجَدِّ الَّذِي كَانَ سَبِيًّا فِي وَصُولِهِمْ إِلَيْهِمْ، وَلَمَّا قَتَلَ ابْنُ الْجَدِّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ قَتْلُهُ سَبَبًا فِي نَزُولِ النَّصَارَى مَدِينَةَ إِشْبِيلِيَّةَ؛ لِأَنَّ أَذْفُونُسَ اللَّعِينَ كَانَ مُصَافِيًا لِابْنِ الْجَدِّ وَمُصَاحِبًا لَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا مَاتَ فَسَدَ الصَّلْحُ بَيْنَهُمْ فَحَاصَرُوهُمْ.

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ: أَحْدَقَتِ النَّصَارَى بِمَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةَ وَحَاصَرُوهُمْ بَرًّا وَبَحْرًا، وَأَذَاقُوا أَهْلَهَا شَرًّا، وَكَانَ نَزْوُهُمْ عَلَيْهَا وَوُصُولُ جُمُوعِهِمْ إِلَيْهَا فِي شَهْرِ جُمَادَى الْأُولَى مِنَ الْعَامِ الْمَذْكُورِ، فَاشْتَدَّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ حَصَارُهَا، وَتَمَلَّاتْ مِنْهُمْ أَنْظَارُهَا وَأَقْطَارُهَا، وَأَخَذُوا خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ أَهْلِهَا وَاخْتَطَفُوا فِي الْأَجْفَانِ بَعْضَ أَطْفَالِهَا وَضَيَّقُوا بِهَا غَايَةَ التَّضْيِيقِ، وَرَمَوْا الْحِجَارَةَ بِالْمَنْجْنِيقِ، وَعَدِمُوا الْمُرَافِقَ كُلَّهَا قَلِيلَهَا وَجَلِيلَهَا إِلَّا مَا كَانَ فِي بَعْضِ دِيَارِ الْأَغْنِيَاءِ، فَإِتَّهَمَ كَانُوا يَحْتَاطُونَ فِي تِلْكَ الْأُمُورِ، مِثْلُ: الْفَقِيهِ الْقَاضِي ابْنِ مَنْظُورٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ فِي إِقْلَاعِ النَّصَارَى عَنِ الْمَدِينَةِ فَيَأْمُرُ النَّاسَ بِالْقِتَالِ وَالرَّمْيِ بِالنَّبَالِ، وَالنَّاسُ مَعَ ذَلِكَ حَيَارَى، يَمْشُونَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَمَاتَ بِالْجُوعِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَعَدِمَتِ الْأَطْعَمَةُ مِنَ الْقَمَحِ وَالشَّعِيرِ، وَأَكَلَ النَّاسُ الْجُلُودَ، وَفَنِيَتِ الْمُقَاتِلَةُ مِنَ الْعَامَةِ وَأَصْنَافُ الْجُنُودِ.

(١) وَقَعَ فِي بَعْضِ النُّسخِ: «مَوَاتِيقُ» وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ ق، ك، ب، وَهُوَ أَلْيَقُ.

ولمّا انتهى بإشبيلية شدّة الحصار، وعَدِموا الأنصارَ من الأمصار، وصاروا قَبْضَةً في يد أعداءِ الله الكفار، خاطبوا أميرَ المؤمنين المعتضدَ بالله السَّعيد وكافةَ المسلمين من أهل عُدوة الغرب يستصرخونهم ويُعرفونهم بما نالهم من الجُهد العظيم والكُرب الشديد الأليم، ويُرجونهم في نُصرتهم، ويَحْضُونهم على جهاد أعداءِ الله الكافرين، فَمِنْ ذلك قصيدةٌ يَرُقُّ لها القلبُ القاسي، وتَأْتُرُ لها الجبالُ الرواسي، وهي [من البسيط]:

ذَكَرُ الْقَصِيدَةِ الَّتِي نَظَمَهَا أَبُو مُوسَى هَارُونُ بْنُ هَارُونَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
يَرِثِي أَهْلَ إِشْبِيلِيَّةٍ وَيَصِفُ مَا نَالَهَا مِنَ الْكُرْبِ الشَّدَادِ
وَيُجَرِّضُ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا عَلَى الْجِهَادِ

يا حمصُ أَقْصَدِكِ المَقْدُورُ حِينَ رَمَى	لَمْ يَرَعْ فِيكَ الرَّدَى إِلَّا وَلَا ذِمًّا
جَرَتْ عَلَيْكَ يَدٌ لِلدَّهْرِ ظَالِمَةٌ	لَا يَعْدُلُ الدَّهْرُ فِي شَيْءٍ إِذَا حَكَمًا
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْحَادِثَاتِ إِذَا	هَمَّتْ بِكَ السَّوَاءُ لَا تُلْقِي لَكَ السَّلَامَ ^(١)
وَلَا تَوَهَّمْتُ ذَاكَ الْحُسْنَ يَطْمِسُهُ	رَيْبُ الزَّمَانِ وَيَكْسُو نُورَهُ الظُّلَمَا
قَدْ كَانَ حَسَنُكَ فَتَانَ الشَّبَابِ فَمُذْ	أَصِبتْ عَوَّضَتٍ مِنْهُ الْقُبْحَ وَالْهَرَمَا
يَا جَنَّةَ زَحْزَحْتَنَا عَنْ زَخَارِفِهَا	ذَنُوبُنَا فَلَزِمْنَا الْبَثَّ وَالنَّدَمَا
يَا سَائِلِي عَنْ مَصَابِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا	أَصِخُّ لَتَسْمَعَ أَمْرًا يورِثُ الصِّمَمَا
لَمَّا تَفَرَّقْتَ الْأَهْوَاءُ وَاضْطَرَمَّتْ	نَارُ الْبُغَاةِ فَقَامَتْ لِلرَّدَى عَلَمَا
وَنَوَزَعَ الْأَمْرُ أَهْلُوهُ وَقَامَ بِهِ	مَنْ لَمْ يَحْدِ قَدَمًا فِيهِ وَلَا قَدَمَا
ثَارَتْ حَفَائِظُ لِلثَّلِيثِ فابْتَدَرُوا	وَأَيَقُظُوا مِنْ سِنَاتِ الْغَفْلَةِ الْهِمَمَا
وَأَنْشَرُوا مِيتَ الْأَحْقَادِ بَيْنَهُمْ	وَلَوْ أَطَاعُوا لَعَمْرِي أَنْشَرُوا الرِّمَمَا
وَيَمَّمُوا حِمَصَ فِي جَمْعٍ يَضِيقُ بِهِ	ذِرْعُ الْفَضَاءِ فَسَوَى الْوَهْدَ وَالْأَكَمَا

(١) سقط هذا البيت من ق، ك، ب، ر، ٣.

فالبحر بالمنشآت ارتج من دُعرٍ
 واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم
 فكم أسارى غدت في القيد موثقة
 وكم صريع رضيع ظل مختطفًا
 يدعو الوليد أباه وهو في شغلٍ
 فكم ترى والها فيهم ووالهة
 لهفي عليهم وما لهفي بمغنية
 إنا إلى الله قد حل المصاب وما
 في كل حين ترى صرعى مجذلة
 وقد أحاطت بنا الأعداء فاغرة
 عادت سوارًا على سور المدينة قد
 عفت يد الشرك ما شاد الخلائف من
 من يبصر المنزل الأعلى يقل ولها
 أين القباب التي كانت محجبة
 تمضي العزائم والأقدار تسعدها
 وكم بطريانة أبقى الأسى ندبا
 يا حسنها غرُفًا للحسن جامعة
 كانت معاهد للذات نعرها
 أيام غص التصافي محض طاعتها
 كم ليلة قصرتها القاصرات فما
 سقى عشيتها الغرا التي انصرفت
 عيش تقضى وأبقى بعده أسفا

والبر بالمرهفات ارتعفاكتما
 جسر من الفلك لا تشكو به السأما
 تشكو من الذل أقدامًا لها حطما
 عن أمه فهو بالأموج قد فطما
 عن الجواب بدمع سال وانسجما
 لا يرجع الطرف إن حاورته الكلما
 عمن تبدل بعد النعمة النقمما
 من حيلة في الذي أمضى وما حتما
 وآخرين أسارى خطبهم عظمما
 أفواها تبتغي أرواحنا طعما
 أفناه عضا وكم من معصم قصما
 قصر ومن مصنع ضخم حكى إرما
 ما خط قط لذا أس ولا رُسما
 فيها الملوك تفيض الجود والكرما
 فلا ترد لها الأيام معتزما
 في القلب يبعث وجدا كلما كلما
 ما طاب قط لها إلا التعيم حمى
 فلا نراع إذا ما هاجم هجما
 ولا بُالي إذا ما لائم لوما
 تزال تستنطق الأوتار والنغما
 صوب الغمام إذا ما أسبل الديا
 كأن ما كان منه في الكرى حلما

يا عينُ فابكي على حمصٍ وقولي لها
فقد أصيبت بها الدُّنيا وساكنها
سَطًا بها الكُفْرُ إذ قَلَّ النّصيرُ بها
يا أهلَ وادي الحِمَا بالعدوة انتعشوا
ماذا يُبْطِئُكم عَنَّا وَحُوقَ لَكُمْ
وَحَقُّنا واجب فالدين يَجْمَعُنا
وقد دَعَوْنَا فَأَسْمَعْنَا على كَثْبٍ
فزعمُ أذفونشُ أَنَّ الحَصْرَ يَهْلِكُها
إن تنصرونا فإننا منشدونَ لَهُ
فتحُ الجزيرة مَآ سَنَ أولُكم
كونوا لها خَلْفًا منهم وإن نَفَذُوا
لا عذرَ في تركها للكفر مسلمةً
كم صارخ فزع كان الصّراخُ لَهُ
هل من مُجيب لداعينا فيركبنا
لم يبقَ فينا سوى الأنفاس خافِتةً
كم نستغيثُ ولا إنسانٌ ^(١) يُصرُخنا
وقد شَقِينَا وأَشَقِينَا وَحُوقَ لَنَا
يا حَسرةَ الدِّينِ والدُّنيا لأنْدَلَسِ
لم يبقَ للحقِّ في شَتَّى مطالعِها
يا نفسُ لا تذهبي للحادثات أَسَى

منك البكاءُ إذا ما تُرسلِيه دما
حقًّا وأصبح ركنُ الدِّينِ قد ثُلِمَا
فمن معزِّبها الإسلام ما سَلِمَا
هذا الذِّمَاءُ فقد أَشْفَى به سَقَمَا
أن تُبْصِرُوا دارَ قوم أصبحت رِمَا
مع الجوار الذي ما زال مُنْتَظِمَا
بما قد استنفَدَ القرطاسَ والقلمَا
والله يكذبُ ما رَوَى وما زَعَمَا
لا يُرْغِمُ اللهُ إِلَّا أنْفَ من رَغِمَا
فلتُشْتِوا للهُدى في أرضنا قَدَمَا
ولا تُبالوا أطلال العهد أم قَدَمَا
إنَّ الزمانَ وأنتم فيه ما عَقِمَا
قرعُ الظنابيب حتى لم يدعُ المَا
فلكَ النّجاة فبحرُ الحادثات طَمَا
فكلُّنا في وجود يشبهُ العَدَمَا
ونستطبُّ لداء طال ما حُسِمَا
بما به الكفرُ والإسلامُ قد نَعِمَا
مهما استطال بها التثليثُ واجترَمَا
نورٌ فأصبح ليلُ الكفرِ مرتكِمَا
وجاملي الصّبرِ وارضي بالذي قُسِمَا

(١) في ق، ك، ب: «أنصار».

وإن دهتك من الأحداث داهية
فالمفرغ الله والدخر العتاد أمية
نعم الملاذ ونعم الدخر قد ضمنت
من مبلغ أمره إني شقيت بما
خليفة الله لولا النأي عنك لما
وكنت كاشف كرب لا انكشاف له
وكنت تشفي صدور الأولياء فلا
أقسمت في حلفي بالله مجتهدا
ما السعد واليمن إلا خادمان لكم
فلا مبالاة بالأيام إن مطلكت
فاصدع بحقك إن الدهر ممتلئ

دهياء تترك وجه الدهر مبتسما
رؤ المؤمنين وحسبي في النجاة هما
نجاة من بهما في الحادث اعتصما
لقيت من جور دهر طال ما ظلما
أجزت بي لدهر كل ما حكما
وقمت دوني من الأعداء منتقما
عدو إلا بما يرضيه قد وقما
وحسب ذي حلف بر بما قسما
إن العظيم لمن فات (١) الوري عظما
فربما ضن قطر السحب ثم همى
فرب دهر عبوس (٢) عاد مبتسما

وفي سنة ست وأربعين وست مئة: كان استيلاء الطاغية أذفونش اللعين على مدينة
إشبيلية أعادها الله للإسلام، بعدما جرّعوا أهلها كأس الحما، من كثرة المجاعة وعدم
الطعام، فكل منهم في بحر المنايا غاص وعام، مما حل بهم من الأوجال والآلام، ما يطول
في وصفه وشرحه الكلام، ويُسْتَفدُ فيه القراطيس والأقلام، فسلموا لهم في المدينة
وخرج منها الخاص من أهلها والعام، وكان ذلك في يوم سبع وعشرين من شهر (٣)
رمضان المعظم من هذا العام، وكان نزول الطاغية عليها في شهر جمادى الأولى من العام
الفارط، فكان حصارهم لها مدة من عام وخمسة أشهر بعدما كانوا يجدونها قبل ذلك
بعام، وقد كانوا خاطبوا السعيد بمخاطبات ومكاتبات يحنّ لسماعها الجهاد، يستصرخونه
ويرغبونه في سبيل الجهاد، ويبنوا له أحوالهم، وتوغلهم في أحوالهم، وكان عازما بزعمه

(١) في ق، ك، ب: «مات».

(٢) في ق، ك، ب: «غيور».

(٣) سقط من ق، ك، ب.

على الحركة إلى البلاد الشرقية: التُّوسِيَّة والإفريقيَّة، التي لم يبلغ فيها ما أمَّله من الأُمْنِيَّة،
فما عرَّج على كُتُبهم ولا خطابهم، ولا رثى لحالهم ولما نَابهم وأصابهم، بل اشتغل بحركته
المذكورة، وعساكره الموفورة، التي كانت غير مؤيَّدة ولا منصورَة^(١).

اختصارُ الخبر عن حركة السَّعيد من حضرته المَرَّاكُشيَّة إلى جهة البلاد التِّلِمَسانيَّة وكيفيَّة مقتلِه بها وأكلِ محلَّتِه هنالك ونهبها

وذلك أنَّ هذا الأميرَ المعتضدَ أبا الحَسَنِ السَّعيدَ لم يزل يحدث نفسه من حينَ وَلِي
الخِلافة بعد أخيه أبي محمد الرَّشيد بالحركة إلى البلاد الإفريقيَّة، وكان أميرُها أبو زكريَّا
من حين دخوله تِلِمَسَانَ طَمَعَ في دخوله إلى البلاد الغربيَّة، ومن الاتفاق في الأمور أنَّ
وصلت هديَّةٌ إلى الرَّشيد من صاحبِ صِقْلِيَّة النادون، فوجده أرسله قد مات، وولِي
الخِلافة السَّعيد، فدفعوها إليه، ووَجَّه له السَّعيدُ أيضًا هديَّةً من عنده معَ إرساله وطلبَ
منه الإعانة بالأجفان الصِّقْلِيَّة إذا وصل إلى البلاد الإفريقيَّة، فكان ذلك مطلبه ومذهبه.
وكذلك كان الأميرُ أبو زكريَّا يؤمِّل الوصولَ إلى البلاد الغربيَّة في مذهبِه ومقاصدِه،
فماتا جميعًا في سنةٍ واحدة ولم يقضِ اللهُ لهما أَرْبًا، فيما أمَّلا وطلبَّا، فاستعدَّ السَّعيدُ لهذه
الحركة استعدادًا عظيمًا لم يُعْهَدْ له قبله فيما تحرَّك من الحركات مثله، فقد كان يستعدُّ لها
من حينَ وَلِي الإمارة إلى هذه السَّنة المؤرَّخة، فتحرَّك لها، فما وصلها ولا رآها، وكان له
منجَّمُ اسمُه عزَّوز بن عَمْرُون نَهاه عن هذه الحركة يومَ خروجه عن حضرته إليها.

وكان خروجه في غُرَّة شهر ذي حجة من سنة خمس الفارِطة عن السَّنة المؤرَّخة
إلى تانسيفت، فنزَلَ بمحلَّتِه عليها، وكان منجَّمُه يَرى في عِلْمِه ونَجْمِه هُمُراتٌ كثيرةٌ تدلُّ
على وقعةٍ كبيرة، وكان السَّعيدُ وصله كانونُ المَكْنِيَّ بأبي حديد، فنزَلَ بمحلَّة عَرَب
سُفَيان على تانسيفت في جملة مَنْ كان بها من العُرَبان، وكان السَّعيدُ وكانونُ يقال لهما:
الأحمران لكونهما كانا في لونهما أَسْمَرَيْن، وكان بينهما فيما تقدَّم منازعةٌ حين خالفَ
كانونُ المذكور عليه ثم عاد في هذه السَّنة إليه، واجتمع معَ السَّعيد بمحلَّتِه بتانسيفت

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٧.

من العَرَبِ عساكرُ وأمداد، ومن قبائل الموحِّدين والمتجنِّدين وعبيد المخزن آلاًفاً^(١) مؤلفة وأعداداً^(٢)، فأمرَ ببناء المصلّى وعيّد هنالك عيدَ الأضحى، وكثرت الدِّماءُ في المحلّة من الضّحايا، فقال المنجّم: هذه الحُمرةُ التي ظهّرت لك والمنايا، فانبسطت آماله وانشرحت للحركة حاله، وتحرك هناك في الخامس عشر من شهر ذي الحجة من عام خمسة وأربعين وست مئة، وفي تلك المحلّة في أيام العيد توفّي أبو زكريا الفازازي رحمه الله تعالى، وتوجّه السَّعيدُ بمحلاته وطُوبوله وعلاماته إلى أن استقرَّ برِباط تازا ومنها عقد صلّحه مع الأمير المعظّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ على أن يُعطيه حظّه حصّةً من بني مَرين يَحْدُمُونَ معه إلى بلاد إفريقيّة ويستعينُ بهم على أعدائه ويستأمنُ ممّن ترك منهم وراءه، فوقع الإصفاق والاتفاق أن يتوجّه معه جماعةُ بني عسكر؛ فتركوا المراهينَ منهم بتازا وساروا معه في جُملة العسكر، فلما وصل السَّعيدُ إلى مَقربة من تِلْمسان بعثَ إلى أبي يحيى يَغْمِراسنَ يأمرُه بلقائه، وبالدّخول تحت لوائه، فوصله جوابُه يُعرِّفه أنه تحت طاعته، وداخلٌ في جملة جماعته، غير أنه لا يصلُّ إليه ولا يلقاه، لأجل ما كان معه من بني مَرين أعدائه، لكن يبعثُ معه جُملةً وافرة من بني عبد الوادي إخوانه وجماعته يكونونَ تحت رايته، فأقسَمَ السَّعيدُ أنه إن لم يصلُ بنفسه إليه وإلا نزلَ بمحلّته عليه، فوقّعت بينهما منازعةٌ في ذلك ومُنافرة، انجلّت عن مُقاتلةٍ ومحاصرة، فرحل السَّعيدُ بمحلّته إلى جهته، فوسّع أُمَامَه، حين تحقّق إمامه، وطلّع إلى تاجردت جَبَلِه بعساكره وأهله، فلما حصل أبو يحيى يَغْمِراسنُ بجباله، مع خيَلِه ورجاله، بعثَ إلى السَّعيدِ أيضًا أرساله يطلبُ منه المُهادنةَ والمصالحة، فامتنع وقال: ليس إلا المكافحة، فتبعه بالطلّوع إلى تلك الجبال، التي ليست في مسالكها للحرب في الحيل مجال، وقد ضبطت تلك المضائق من بني عبد الوادي أنجادُ الرجال، فاجتمع أشياخُ الحُلُط في نحو ألف فارس مدّرعين، وتأخّروا عن الطلّوع معه مُتَمَنِّعينَ ومجتَمِعين، وقد كانوا أشاروا عليه بالرجوع حين رام الطلّوع، وقال له وزيرُه ابنُ عَطُوش مثل ذلك حين عاينَ تلك المضائق في المسالك ومنّعه فما امتنع، وبادَرَ

(١) هكذا في الأصل، والجادة: آلفاً.

(٢) هكذا في الأصل، والجادة: أعداداً.

لنفسه بالطلوع وما ارتجع، وقال له حين صَدَّه عن ذلك بكلامه: ادخل هنا إن أنت ظننت، وأشار له بإحدى أكمامه، فترجل الوزير وتقدم أمامه وقد جرد حسامه، فرمى بنفسه في المهالك، في مواضع لا يقدر أن يسلكها سالك، والسعيد يقفو أثره غاضباً، على بغله راكباً، وأمامه علمه المنصور، بل كان في الحين مهزوم ومكسور، وذلك أنه لما حصل في تلك المضائق وبين تلك الجبال الشواهي، أقبلت عليه خيل ورجال وانصببت عليه كالصواعق، فأول من مات: الوزير المذكور وصاحب العلم، وقتل السعيد في الحين وجرع كأس الحمام، وانهزم جيشه أعظم انهزام، وتفرقت عساكره كل التفرق، وتمزقت أحواله كل التمزيق، واستولى الخلل في محلته في أول الحال، مع بني عسكر ونهبوا فيها جملة أموال، وذلك قبل أن يصل بنو عبد الوادي إليها، وقيل: إنهم كانوا توافقوا مع الخلل عليها وباعوها منهم، هكذا ذكر عنهم، وتفرق أهل محلة السعيد أيدي سباً، وقد أكلتهم الأرض نهباً، ولا عاد منهم أحد إلا منهوباً مفلولاً مسلوباً، وكان مقتل السعيد يوم الثلاثاء مُسْلَخَ صَفَر من عام ستة وأربعين، عفا الله عنهم أجمعين.

وقتل كانون كان قبل السعيد بيوم، وقيل: في يوم واحد، وتقدم على العرب أخوه يعقوب بن جرمون، وبقي في خدمة المرتضى أياماً عديدة في المنزلة الرفيعة، فدخل بينه وبين ابن أخيه محمد بن كانون وشاة حتى قتله، وحكايته طويلة، فطلب أخواه: مسعود وعلي أخذ ثاره بالغرب فلم يمكنها ذلك، حتى احتالا عليه فرحلوا كلهم يوماً من الأيام واشتغل الناس بأخذ المنازل فطلبوا أخذ الثار ذلك اليوم لإمكانه إياهما لتفرق الناس للصيد والنزول، فانصرفا عن عمهما وبعدا عنه حتى رآياه نزل على بئر ليتوضأ، فجاءاه مُسرعين مع عبد لهما يسمى مُساعدًا وبعض رجاله، فتقدم مسعود أمامه لأنه كان يأمن غائلته ويعرف حلمه وصفحه، وكان قد خلع خفه الواحد ليتوضأ، فحمل عليه وقال: تأرك اليوم يا محمد، فقتلوه ودخلوا دحيلًا على العرب ألا يُعينوا عليهم، فغفروهم ومنعوههم، وتقدم بعد ذلك ولده عبد الرحمن فلم ينجح، ثم بعد ذلك عمه عبيد الله ثم مسعود، وذلك على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى^(١).

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٤٥٠-٤٥٣.

ذِكْرُ خِلافةِ أَبِي حَفْصِ الْمُرتَضَى رَحِمَهُ اللهُ (١)

نَسَبُهُ: هو أَبُو حَفْصِ عُمَرُ بْنُ السَّيِّدِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي يَعْقُوبَ يَوْسُفَ بْنِ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ.

مُدَّةُ خِلافَتِهِ: ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ وَاثْنَانِ وَعِشْرُونَ يَوْمًا أَوَّلُهَا يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ غُرَّةُ ربيعِ الْأَوَّلِ مِنْ عَامِ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ، وَآخِرُهَا يَوْمُ السَّبْتِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ لِمَحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِينَ، وَقُتِلَ بِدَكَّالَةٍ فِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ بَعْدَهُ.

وُزَرَؤُهُ: مِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَنْفِيَّيْنِ وَأَبُو زَيْدِ بْنِ عَزَّوَزٍ وَأَخُوهُ السَّيِّدُ أَبُو إِسْحَاقَ وَأَبُو زَيْدِ بْنِ بَخِيثِ التَّيْنَمَلِيِّ وَأَبُو زَيْدِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَدْمِيَّيْنِ وَأَبُو يَوْسُفَ بْنِ تَيْجَا الْجَدْمِيَّيْنِ وَأَبُو مُوسَى بْنِ عَزَّوَزِ الْهَنْتَايَّيْنِ وَأَبُو زَيْدِ بْنِ يَعْلُو الْكُومِيِّ وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنِ أَصْنَاجَ، وَلَمْ يَجْتَمِعُوا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ إِلَّا بَعْضُهُمْ، وَاخْتَارَ لَهُمْ لِمُصَاهَرَتِهِ أَبَا سَعِيدَ بْنَ تَيْجَا وَأَبَا مُوسَى بْنَ عَزَّوَزٍ فَأَعْطَاهُمْ بَنَاتِهِ.

كُتَابُهُ: أَبُو الْحَسَنِ الرَّعَيْنِيُّ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ التَّلْمِيسَانِيُّ وَغَيْرُهُمَا.
وَحُجَّابُهُ: الْقَائِدُ سَعْدٌ وَغَيْرُهُ.

صِفَتُهُ، عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ أَبُو عِمْرَانَ بْنَ تَيْجَا وَغَيْرُهُ: مُعْتَدِلٌ الْقَامَةِ سَاطِعُ الْبَيَاضِ عَالِي الْأَنْفِ أَسِيلُ الْخَدِّ الْحَى، أَشْيَبُ لَا يَخْضِبُ بِحِنَّاءٍ وَلَا غَيْرِهِ.

ذِكْرُ السَّبَبِ فِي بَيْعَتِهِ

لَمَّا تَحَرَّكَ الْخَلِيفَةُ السَّعِيدُ إِلَى تِلْمَسَانَ تَرَكَ أَبَا حَفْصِ الْمُرتَضَى وَالْيَا عَلَى مَدِينَةِ سَلَا بَعْدَمَا كَانَ عَلَى أَغْمَاتٍ وَالْيَا، وَتَرَكَ أَخَاهُ السَّيِّدَ أَبَا زَيْدٍ وَالْيَا عَلَى مَدِينَةِ مَرَّاكُشَ، وَكَانَ أَبُو حَفْصِ رَحِمَهُ اللهُ شَدِيدَ الْوَرَعِ قَلِيلَ الطَّمَعِ، فَلَمَّا وَصَلَ الْخَبْرُ إِلَى مَرَّاكُشَ بُوفاةَ السَّعِيدِ وَهَزِيمَةَ عَسَاكِرِهِ وَطَائِفَتِهِ وَنَهَبَ مَحَلَّتِهِ وَتَفَرَّقَ الْمُوَحِّدِينَ، اجْتَمَعَ السَّيِّدُ أَبُو زَيْدِ الْمَذْكُورُ مَعَ مَنْ حَضَرَ مِنْ أَشْيَاحِ الْمُوَحِّدِينَ يَتَفَاوَضُونَ فِي مَصَالِحِ الْأُمُورِ، فَأَرَادَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَقْدِمَ السَّيِّدَ أَبَا زَيْدِ الْمَذْكُورِ، فَامْتَنَعَ وَتَوَرَّعَ، وَأَرَادَ آخَرُونَ تَقْدِيمَ غَيْرِهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ،

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام ١١٩/١٥، وتاريخ ابن خلدون ٣٤٨/٦.

وكان في الوقت جماعة منهم حاضرون، فقام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجفيسي قائماً وقال: غَفَلْتُمْ يَا جَمَاعَةَ الْمُوحِّدِينَ عَنِ السَّيِّدِ التَّقِيِّ الْعَالِمِ الزَّكِيِّ أَبِي حَفْصٍ فِي رَغْبَتِكُمْ لَهُ فِي الْوَلَايَةِ عَلَيْكُمْ أَمْرُ الْخِلَافَةِ، وَتُبَايَعُونَهُ لَطَهَارَتِهِ وَصِيَانَتِهِ، فَضَجَّ الْمُوحِّدُونَ بِالتَّلْبِيَةِ سَمْعًا وَطَاعَةً مُغْتَبِطِينَ مُرْتَبِطِينَ طَائِعِينَ مُسْرِعِينَ، فَبَايَعَ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُوحِّدِينَ لِأَخِيهِ أَبِي زَيْدٍ نِيَابَةً عَنْ أَخِيهِ، وَتَوَقَّفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ عَنْ بَيْعَتِهِ حَتَّى ذَكَرَ شُرُوطًا أَوْجَبَتْ بَعْدَ ذَلِكَ قَتْلَهُ، وَكُتِبَتْ الْبَيْعَةُ لِأَبِي حَفْصٍ الْمُرْتَضَى بِمَرَاكُشَ، وَتَوَجَّهَ بِهَا الْحَاكِمُ ابْنُ أَصْلَمَاطَ فَلَقِيَ السَّيِّدَ أَبَا حَفْصٍ مُقْبِلًا مِنْ سَلَا مَعَ بَعْضِ الْمُوحِّدِينَ وَأَشْيَاخِ الْعَرَبِ بَتَامَسْنَا، فَعِنْدَ وَصُولِهِ إِلَيْهِ بَادَرَ لِمُبَايَعَتِهِ وَأَخْرَجَ بَيْعَةَ أَهْلِ مَرَاكُشَ، فَضُرِبَتْ خِباءٌ لاجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَى قِرَاءَةِ الْبَيْعَةِ الْمَذْكُورَةِ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُهَا، فَقُرِئَتِ الْبَيْعَةُ وَانْتَشَرَ أَمْرُهَا، وَبَايَعَهُ مَنْ حَضَرَ، فَمِنْ حِينِهِ نَهَى وَأَمَرَ، ثُمَّ وَصَلَهُ ابْنُ يُونُسَ فِي الطَّرِيقِ وَلَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِمَقَالِهِ، فَقَدَّمَهُ وَزِيرًا وَقَدَّمَ يَعْقُوبَ بْنَ كَانُونَ عَلَى عَرَبِ بَنِي جَابِرٍ وَأَقَرَّ لَهُ بِبِلَادِهِ عَلَى بُغْيَتِهِ وَمُرَادِهِ، وَكَانَ يَعْقُوبُ بْنُ جَرْمُونٍ قَدْ تَقَدَّمَ عَلَى عَرَبِ سُفْيَانَ كَمَا تَقَدَّمَ.

ثم استمرَّ مشيئه على هيئة المملكة بوزراء وأمراء من العرب وبعض المتجندين والقراة والحدّام، غير أنه لم يكن بطُبول ولا أعلام، فلما قُرب من حضرة مَرَاكُشَ خَرَجَ إِلَيْهِ أَشْيَاخُ الْمُوحِّدِينَ بِجِهَازَاتٍ جَمِيلَةٍ وَكُسَى حَفِيلَةٍ وَخِيُولٍ وَطُبُولٍ وَبُنُودٍ وَجُنُودٍ، فَتَزَلَّ بِمَوْضِعِهِ بِبُحِيرَةِ الطَّلَبَةِ وَرِيَاضِهَا الْمُخْتَصَّ بِهِ عَلَى الْقَدَمِ وَجَمِيعُ الْحَدَمَةِ وَاقِفِينَ^(١) عَلَى قَدَمٍ، حَتَّى^(٢) اسْتَوْفَتْ أَغْرَاضُهُ، وَدَخَلَ حَضْرَتَهُ فِي أَجْمَلِ زِيٍّ وَأَبْهَى حُلًى.

ولما استقرَّ المرتضى رحمه الله بحضرته واجتمع الناس على طاعته، والدخول في جماعته، نظر أشغاله وتفقد أحواله وعُمَالَهُ، فَأَمَرَ بِالْقَبْضِ عَلَى بَعْضِ خُدَّامِ السَّعِيدِ فَقُبِضَ عَلَى حَاجِبِهِ الْقَائِدِ أَبِي الْمُسْكَ وَعَلَى خَاصَّتِهِ أَبِي زَيْدِ ابْنِ الْبَقَّةِ، وَوَقَعَ الْبَحْثُ عَلَى غَيْرِهِمَا فَعُثِرَ عَلَى مَنْ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَحْنَتِهِ وَنَكْبَتِهِ، وَسَجَنَ الْحُرَّةَ عَزْوَنَةَ أُخْتَ السَّعِيدِ وَأَغْرَمَهَا مَالًا كَثِيرًا وَحَلِيًّا خَطِيرًا، ثُمَّ وَصَلَ السَّيِّدُ أَبُو إِسْحَاقَ أَخُو الْمُرْتَضَى مِنْ سِجْلِمَاسَةَ إِلَى

(١) هكذا في الأصل، والجمادة: «واقفون».

(٢) في ق، ك، ب: «ثم».

مَرَّ أَكْثَشَ، إِذْ كَانَ اسْتِقْرَاضُهُ بِهَا مِنْ بَعْدِ الْهَزِيمَةِ، بَعْدَمَا رَأَى فِي طَرِيقِهِ مَشَقَّةً عَظِيمَةً، فَأَكْرَمَهُ أَخُوهُ بِمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْإِكْرَامِ، وَعَظَّمَهُ غَايَةَ الْإِعْظَامِ، فَقَدْ كَانَ أَكْبَرَ سَنًا مِنْهُ فَوَجَبَ لَهُ عَلَيْهِ التَّكْرِيمُ وَالتَّعْظِيمُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْوِزَارَةِ وَالنَّظَرِ فِي الْأُمُورِ، وَأَمَرَ قَارِئَ الْعُشْرِ^(١) أَنْ يَقْرَأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَؤُلَاءِ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥-٣٢]. وَكَانَ ابْنُ يُونُسَ وَزِيرُهُ حِينَئِذٍ قَدْ قَالَ لِأَشْيَاحِ الْمُوَحِّدِينَ حِينَ شَرَعُوا فِي كَتَبِ الْبَيْعَةِ: تَشْتَرِطُوا عَلَى أَبِي حَفْصٍ أَلَّا يُقَدِّمَ أَخَاهُ وَزِيرًا، فَكَانَ ذَلِكَ وَغَيْرُهُ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ تَأْخِيرِ ابْنِ يُونُسَ عَنِ الْوِزَارَةِ، وَخُرُوجِهِ مِنْ دَارِ الْإِمَارَةِ، بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالْإِدَارَةِ، إِلَى حِينَ مَقْتَلِهِ عَلَى مَا أَذْكُرُهُ فِي مَوْضِعٍ خَبِيرِهِ وَأَمْرِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٢).

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَهِيَ سَنَةُ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ: اسْتَوْلَى الْأَمِيرُ الْمُعْظَمُ أَبُو يُحْيَى بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ عَلَى رِبَاطِ تَارَا، وَهُوَ أَوَّلُ فَتْحِ بَنِي عَبْدِ الْحَقِّ أَعَزَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَمَلُّكِ قَوَاعِدِ الْبُلْدَانِ، وَكَانَ فَتَحُهَا وَاسْتَيْلَاءُ بَنِي مَرِينَ عَلَيْهَا وَدُخُولُهُمْ إِلَيْهَا عَلَى يَدِ الْأَمِيرِ الْمُعْظَمِ الْأَعْلَى أَبِي يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ، فَهُوَ الَّذِي تَعَاهَدَ مَعَ أَهْلِهَا وَأَعْطَاهُمُ الْأَمْنَ وَالْأَمَانَ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمُ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ، وَذَلِكَ لِمَا تَوَجَّهَ السَّعِيدُ بِعَسَاكِرِهِ إِلَى جِهَةِ مَدِينَةِ تِلْمُسَانَ وَاسْتَعْمَلَ صُلْحًا مَعَ الْأَمِيرِ أَبِي يُحْيَى ابْنَ عَبْدِ الْحَقِّ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْإِعَانَةَ بِحِصَّةٍ مِنْ بَنِي مَرِينَ يَتَوَجَّهُونَ مَعَهُ تَحْتَ لَوَائِهِ لِيَسْتَعِينَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ بَنِي عَبْدِ الْوَادِي وَأَعْدَائِهِ، فَتَوَجَّهَ مَعَهُ جَمَاعَةُ بَنِي عَسْكَرٍ عَلَى مَا ذُكِرَ وَتَرَكُوا رِبَاطَ تَارَا مَرَاهَنَهُمْ، وَبَقِيَ بَنُو عَبْدِ الْحَقِّ مُسْتَوِطِنِينَ بِجِهَةِ بِلَادِ الرَّيْفِ حَيْثُ كَانَتْ مَوَاضِعُهُمْ وَمَسَاكِنُهُمْ، فَاسْتَأْمَنَ مِنْهُمْ السَّعِيدُ، وَانْصَرَفَ رَاحِلًا إِلَى تِلْمُسَانَ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَ يَغْمَرِاسَنَ بْنِ زَيَّانَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَكَانَ.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْأَمِيرِ أَبِي يُحْيَى الْخَبْرُ بِهَلَاكِهِ وَقَتْلِهِ وَتَبَدُّدِ أَحْوَالِهِ وَخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، وَأَكْلِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِمَحَلَّتِهِ وَتَبْدِيدِ أَمْوَالِ أَهْلِهِ وَجُمْلَتِهِ، وَتَفْرِيقِهِمْ وَتَمْزِيقِهِمْ حِينَ وَقَعَتْ

(١) سَقَطَتْ مِنْ ق، ك، ب.

(٢) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٦/٣٤٨، وَالْإِسْتِقْصَا ٢/٢٥٢-٢٥٣.

الهزيمة عليهم، رحل مع إخوانه بني عبد الحق وبني مَرين ومن انضاف إليهم وتعرض لهم بجموعه على شوارع الطريق، وقد فرق الله عسكر السعيد أي تفريق، فكانت لهم الغنيمة الباردة العظيمة الفائدة، من غير طعن ولا ضرب، ولا قتال ولا حرب، وهكذا جرت العوائد، مصائب قوم عند قوم فوائد، فكانوا يصلون إلى أيديهم قوماً بعد قوم ويوماً بعد يوم، فيأخذون أثقالهم ودوابهم، ويستأصلون أموالهم وأسبابهم، حتى امتلأت أيديهم من أموال الموحدين وأجنادهم، ووصل بنو عسكر أيضاً إلى بلادهم، فاجتمع بنو مَرين على أميرهم كبيرهم وتوجهوا إلى تازا حيث كان مراهن أولاد بني عسكر وغيرهم، فنزلوا بجموعهم عليها وأرسلوا أرسالهم إليها، وكان واليها السيد أبو علي أخو السيد أبي العلي إدريس الشهير بأبي دبوس، فبعث إليهم الرجل الصالح أبا علي سالمًا، وطلب الاجتماع بأبي يوسف، وكان به وبمذهبه عالماً، فاجتمع مع الأمير المعظم أبي يوسف وتعاهد معه على أنه لا سبيل أن يتعرض مَريني لتازي بمصرة، فارتحن الأمير أبو يوسف له في ذلك ووافق عليه فكان كذلك، وعاد إلى البلد أبو علي سالم، وخرج السيد منها بأهله سالم، ودخل بنو مَرين وبنو عبد الحق إليه، وبايعوا للأمير أبي يحيى واجتمعوا عليه، وطاع له قبائل تلك الجهات كلها، وبايعه أهل رباطها وحلها، ويسر الله فتح تازا لبني عبد الحق الكرام، على يد الأمير أبي يوسف بتيسير^(١) مُرام، فهو كان قفل البلاد الغربية فصار مفتاحها وأول فتوحها هذه الدولة المَرينية^(٢).

ولما استقر الأمير أبو يحيى برباط تازا قرع الطبول ونشر البُود وسارت إليه من كل الجهات أشياخ القبائل بالوفود والورود، وقد كان قبل ذلك أميراً على بني مَرين منذ أربعة أعوام، دون طُبول ولا أعلام، وكان قد وعد أخاه أبا يوسف أن يعطيه ذلك البلد، فلما يسر الله فتحه على يديه أنجز له فيما وعد، فكان رباط تازا بلد أبي يوسف من حينئذ، وقد كان أعطى للصالح عهده، فسلم له فيها أخوه أبو يحيى وتحرك بعساكره إلى مدينة فاس فنزلها، وبعد مدة أشهر من فتح تازا استولى عليها ودخلها في الثامن عشر

(١) سقط شبه الجملة من ق، ك، ب.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٨، والاستقصا ٢/٢٥٣.

لربيع الآخر من السنة، وطاعت له جميع أقطارها وأنظارها، وقدم عليها المسعود بن خربش الحشمي فاستوطن قصبتها مع جملته وأهله إلى أن كان ما كان فيها من حتفه وقتله على ما اختصره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.

اختصار الخبر عن وفاة أبي زكريا الحفصي^(١)

وذلك أنه لما اتصل به عن أبي الحسن السعيد أنه يروم الحركة إليه والقُدوم بعساكره إليه، قاصداً من حضرته المراكشية إلى تلك البلاد الإفريقية، خرج من حضرته التونسية في سنة سبع وأربعين قاصداً أيضاً إلى جهة البلاد الغربية، فقد كان يحدث نفسه بالورود عليها^(٢) والقُدوم بعساكره إليها، فتوجه بالعزم والحزم من حضرته في غاية الاستعداد، بعدما استوفت عليه الحشود من العرب والأمداد، وتألفت عليه آلاف من الأعداد، فقد كانت عرب تلك البلاد، انقادت له أعظم انقياد، فمادى مشيه بتلك العرب المتكاثرة إلى جهة بلد العُتاب وبها أصابه من الألم ما أصابه، ونابه منه ما نابه، وكان ولده الكبير أبو يحيى، قد عدم ببجاية المحيا، فزاد تألمه منه وارتبابه، وأضرب عن الحركة كل الإضراب، وصرف أكثر ما كان معه من الأعراب، وبقي بالجم بتلك الجهات، متلوّماً في السكون والحركات، وللظفر أوقات وللقدر تصرفات، إلى أن قدر الله عليه بعد ذلك بالمات، وذلك بعد نحو أربعة أشهر من موت ابنه أبي يحيى الفقيد، فخيّب الله ظنه وظن السعيد، وماتا في طريقهما ولم يبلغا أربهما، وقيل: إنه كان بين موت السعيد وموت الأمير أبي زكريا سنة واحدة وأشهر^(٣).

ومن الاتفاق الغريب أنه لما مات ببلد العُتاب كان أولاده بتونس، فأمر أن يُنادى على قبره: الصلاة على الغريب، وكان لهذا الأمير أبي زكريا من الأولاد الذكور أربعة، منهم: كبيرهم أبو يحيى الذي كان وليّ عهده توفي في حياته كما تقدّم ذكره، فلم يتمالك صبراً من بعده على فقده، فقد كان قدّر أنه وارث فخاره ومجده، وكان ولده أبو عبد الله

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٤٠٠.

(٢) في ق، ك، ب: «إليها».

(٣) في ق، ك، ب: «وشهراً».

وأخوه أبو حَفْصَ بَتُونُسَ وأُمُّهُمَا رُومِيَّةٌ وأخوهما أبو إِسْحَاقَ مَعَهَا وأُمُّهُ عَرَبِيَّةٌ رِيَّاحِيَّةٌ، فلم يَحْضُرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ وفاته، بل كُلُّ مِنْهُمْ غابَ عِنْدَ وفاته. وكان حِينَ تَوَقَّى وَلَدَهُ أَبُو يَحْيَى حَزَنَ عَلَيْهِ حُزْنًا شَدِيدًا، وَجَزَعَ عَلَى فَقْدِهِ إِلَى أَنْ صَارَ فِي أَثَرِهِ فَقِيدًا، فَوَجَّهَ لَهُ هَذَا الرِّثَاءَ فِيهِ [مِنَ الطَّوِيلِ]:

أَلَا جَاوِزٌ يَكِي لَفَقْدِ حَبِيبِهِ	فَلْيَا لِعَمْرِي قَدْ أَضَرَّ بِيَ الثَّكُلُ
لَقَدْ كَانَ لِي مَالٌ وَأَهْلٌ فَقَدْتُهُمْ	فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لَدَيَّ وَلَا أَهْلٌ
فَلَهْفَنِي لِقَوْمٍ فَرَّقَ الدَّهْرُ شَمْلَهُمْ	أَلَا رَاحَةً تُرَجَى فَيَنْتَظِمُ الشَّمْلُ
سَأَبْكِي وَأَبْكِي حَسْرَةً لِفِرَاقِهِمْ	بِكَاءٍ قَرِيحٍ لَا يَمَلُّ وَلَا يَسْلُو
وَأَنِّي لَا أَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَحُكْمِهِ	وَأَعْلَمُ رَبِّي أَنَّهُ حَاكِمٌ عَدْلُ

وكان الأميرُ أبو زكريَّا رحمه الله مَلِكًا مُطَاعًا وَبَطَلًا شَجَاعًا مُشَارِكًا فِي الْعِلْمِ لِلْعُلَمَاءِ، وَمَدِيرًا لِلْأُمُورِ بِالْمَعْرِفَةِ وَالذَّهَاءِ، مُطَابِقًا لِلْأُدْبَاءِ النَّبْهَاءِ، فَذَا فِي الْبَلَاغَةِ وَالْبَرَاةِ بَارِعَ النَّظْمِ وَالنَّشْرِ حَسَنَ الْأَلْفَاظِ فِي الْبُلْغَاءِ، كَثِيرَ الْأَدَبِ وَاللُّغَةِ فِي طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ، وَقَدْ أَثْبَتَتْ هَذِهِ الرَّسَالَةُ النَّبَوِيَّةُ لِيُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى فَضْلِهِ وَبَدِيعِ قَوْلِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ذَكَرَ الرَّسَالَةَ النَّبَوِيَّةَ الَّتِي أَنْشَأَهَا الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَّا

إِلَى الْخَضِرَةِ الشَّرِيفَةِ خَضِرَةِ الْبَرِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

إِلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَسَيِّدِ الْمُتَّبِعِينَ، الرَّؤُوفِ بِالْمُؤْمِنِينَ، الْمُؤَصِّلِ مِنْ سَبَبِهِ مَتِينٍ، الْأَخِذِ بِالْحُجْبِزِ عَنِ النَّارِ، الْبَانِي مِنْ طُرُقِ النَّجَاةِ أَرْفَعَ مَنَارٍ، الْعَاقِبِ الْحَاشِرِ الطَّائِفِ النَّاشِرِ، الْكَالِئِ الْحَافِظِ، الْمُعْرَضِ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي عَرْضِ الْحَائِطِ، الْمَنْعُوتِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، الْمُحَمِّيَّةِ ذُرَاهُ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجَّيْلٍ، مَطْلَعِ الْمَعْجَزَاتِ غُرًّا سَامِيَّةً كَبَنَاتِ بَخْرٍ، سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرٍ، الَّذِي نَبَذَ الدُّنْيَا وَفَلَّ شَبَابَهَا، وَشَدَّ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرَ وَلَوْ شَاءَ لَتَبَعَهُ ذَهَبًا وَفِضَّةً أَخْشَبَاهَا، فَصَالَ بِالشُّرْكِ وَسَطًا، وَجَعَلْنَا اللَّهُ بِهِ أُمَّةً وَسَطًا، ذُو^(١) الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ، الْمُتْلَقِ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، أَشَدَّ مَنْ رَامَى، وَأَسَدُّ النَّاسِ مَرَامَا،

(١) هَكَذَا فِي الْأَصْلِ، وَالْوَجْهُ: «ذِي».

وأصدعَ عندَ الألباسِ، وأشجعَ على حينِ يحمرُّ الباسُ، وأثبتَ والمقامُ دَحْضُ والموتُ عَضُّ، وأبرَّ من حملته ناقة، وأوفى من شدَّ إليه راحلُ شِناقِه، أزوَى من عَجَفاءٍ أمَّ معبدٍ، وتركُ نورَ الإسلامِ وهو معبدٌ، فجذعَ مَنْ خدعَ، وحنَّ إليه الجذعُ وختمَ به الأزلُ الجدعَ، النبيُّ لا كَذِب، محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب: من عبد الله يحیی بن عبد الواحد بن عمر، سلامٌ عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته.

وعلى أنور^(١) وأكرم خليلين في السَّمَحِيَا والممات، الثاني في الغار، المتعلق من التصديق بالسبب المغار، الثابت حين جَفَّ الرِّيْقُ والوريق، الهاجد وكلُّ نائمٍ وناظره أريق، والمؤنس في العريش يومَ النَفْخِ المهتدي حين جازَ هادي الطَّرِيق، فجعلها بينَ الفجر والبجر، الذي عَرِضَ عليه الإسلامُ فلم يتلَعَثْ، وسَقَر عنه وجهُ الإيَّان فلم يتنَقَّبَ بعدُ ولا تلثم، وشَرى الباقي فشار معسولَه، وأنفقَ مالَه فلم يتركْ لنفسِه إلا اللهَ ورسولَه، والمُعْضِي عن العاجلة وقد حَدَّثت إليه كلَّ التحديق، أبو^(٢) بكر عتيقُ الصَّدِيق.

وعلى مُحَلِّي الأعصار ومُجَلِّي الإعصار، ومُحْصِرُ الأمصار، مُبِيدُ العدوِّ الأزرقِ بِمُرَعَفَرِي الأُسود، وبنِي الأصفر بالكتائب السُّود، مُنْشِي عِثامِ الفتوح كَأَيْمِنِ الصَّوبِ على قَطَن، الذي لم يَرِ مَنْ يَفْري فَرِيَه حتَّى ضَرَبَ الناسَ بَعَطَن، الساعِي بغيرته على منازلِ عترته والليلُ بهيم، المُنْزَلُ القرآنُ بمُوافقتِه في أسرى بدرٍ والحِجابِ وتحريمِ الخمر ومقامِ إبراهيم، جُعِلَ الحقُّ على لسانِه، ونورُ المُحَدَّثِينَ في جَنانِه وإنسانِه، فُرِدَّ عن مُنافقةِ الخطاب، وأصْفَى خطابَ الإيَّان وأطاب، أبو^(٣) حفص الفاروقُ عمرُ بن الخطَّاب [من الطويل]:

سلامٌ كَعَرَفَ الرِّوَضَ باكرَه القَطْرُ	إذا ما خَطَا قُطْرٌ تَدَاوَلَ قُطْرُ
تَحِيَّةَ مَنْ قَدْ قَسَمَ الشَّوْقُ قَلْبَه	ففي طِيبَةِ شَطْرٍ وفي تَوْنُسٍ شَطْرُ
أطارت قِسيُّ الشَّوْقِ أَفلاذَ صدرِه	فلله ما أودَى به ذلك الأَطْرُ
كَأَنَّ النَّوَى لَمْ تُصْمِ غَيْرَ جَوَانِحِي	فوا كِبدي لو دَرَّ لي ذلك الشَّطْرُ

(١) بعد هذا في ق، ك، ب: «سمات بسمات نسبات».

(٢) هكذا في الأصل، والوجه: «أي».

(٣) هكذا في الأصل، والوجه: «أي».

وكلُّ يَزِفُ المجدُ آماله له
وما لي منه لا عروس ولا عطر
أيقعني يا خاتم الرسل خاتم
من البعد في قلبي له أبدا فطر
ومن لا يذذ بالعزم يقصر بعجزه
لقد بسق العيدان واتضع الفطر
ولو كنت مختارا للنفس منية
لما ناب في ترحالي الطرس والسطر
جيادي جيادي لا تصومي على عمى
أمالك إهلال بطيئة أو فطر
فكم ضامر نادى الغراب غرابه
ألا في سبيل الله ما غير الخطر
وكم سارب يسري لها سر باله
مخافة أن يضحى وسر باله فطر

تحية تواق وإن أنهضته آماله بهظته أعماله، أو دعاه باله عداه وباله، أو جذت عقائقه، جذت حقائقه، فهو ذو فؤاد منخوب من الحبوب، مقفر من العزائم إقفار ملحوب، نادى نادب على الأحيان، مؤمل خلوصه تخلص ثابت من لحيان، فلو سما به العزم، عن وهدة الأزم، لأظلمت التوبة، ونصحت ثوبه، ولو أعرق مطايه، لما أغرقت خطايه، فالراغب إذا طام ضام الإهضام، وشمخ عنه أنف الطنف، وثبت له أيد الريد.

وبعد، أيها المبعوث للعباد من أنفسهم، الأولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإننا ندعوك لتدفع عنا عائد هذا الخوض، إذ كنت فرطنا على الخوض، ونستشفع بك يوم المساق والكشف عن الساق، ونستجير بك من مناقشة الحساب يوم لا أنساب، وندرك بك هول العرض، يوم تبدل الأرض^(١) غير الأرض، أناديك بشرف ناديك وأياديك، لعل يسجلا من أياديك [من الطويل]:

مُعْفَر لَيْثُ الْغَيْثِ وَهُوَ مَزْعَفَرٌ
مَقْلَمُ أَظْفَارِ الشُّكُوكِ الْخَوَالِجِ
وَمُنْقَذٌ مَنْ قَدْ أَوْبَقَتْهُ ذُنُوبُهُ
وَلَوْ كَانَ يُمْلِهَنَّ مِنْ رَمْلِ عَالِجِ
إِلَى كَمْ يُصِيبُ السَّهْمُ غَيْرَ مَسْدَدٍ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُرَى غَيْرَ زَالِجِ
أَأْظْمَأُ وَالسَّقْيَا إِلَيْكَ دَوَالِحُ
تَطْلَعُ عَنْ غُرِّ سِوَارِ دَوَالِجِ

(١) سقطت من ق، ك، ب.

وإنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْفُوزِ قَاصِدٌ يُعَالِجُ أَسْبَابَ الشَّرِّ فَوْقَ عَالِجٍ
فَإِنْ خَلَجْتَ تِلْكَ الذَّنُوبُ فَلَا تَنْمُ لَعَلَّكَ تَنْجُو قَبْلَ إِضْلَالِ خَالِجٍ
وَتَنْسُبْنِي الْيَوْمَ لِلْعَجْزِ جَهْدَهَا وَمَا لِي مِنْ ذَنْبٍ سِوَى ذَنْبِ فَالِجٍ
أَلَا عَزْمَةٌ يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ تَنْهَرِي أَلَا نَهْضَةٌ تَعْتَادُنِي دُونَ خَالِجٍ
وَمِنْ بَعْدِ ذَاكَ الْعَدِيَّ صِدَا مُحْلِيَا فَأُلْقِي بَدَلُو بَيْنَ دَالٍ وَدَالِجٍ
لَقَدْ خَابَ قِدْحًا مِنْ تَأَخَّرِ قِدْحُهُ فَمَنْ لِي بِقِدْحٍ يَا مُحَمَّدُ فَالِجٍ

على أيَّ يا رسول الله لم أَلْ جُهْدًا في طاعتِكَ التي بها هَتَدِي، ولا أَغْفَلْتُ فَرِيضَةَ
جِهَادِ أَرْوَحٍ عَلَيْهِ وَأَغْنَدِي، فَمَتَى أَحَسَسْتُ نَبَأَ بَادَرْتُ إِلَيْهَا، فَقَدْ قَلَّتْ صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ:
«جِهَادُ يَوْمٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»، فَإِنْ تَأَخَّرْتُ عَنْ زِيَارَتِكَ إِقْدَامًا فَقَدْ أَعْمَلْتُ فِي
عَضْدِ سُنَّتِكَ أَفْدَامًا، وَإِنْ لَمْ أَتُبَّهِ، فَإِنِّي يَقِظٌ لِمَا جَنَّتْ أَنْتَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ أَرُدْ مِنْ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ،
فَإِنِّي بَانَ دِفَاعِي عَنْ شَرِيعَتِكَ بِكُلِّ ذَرِيعَةٍ، فِي بِلَادِ تَجَادُعِ أَفَاعِيهَا، وَيَصَمُّ وَاعِيهَا، وَلَا
يُجَابُ إِلَى شِقَاقٍ وَاخْتِلَاقٍ دَاعِيهَا، فَقَدْ صَارَتِ الْمَوَاسِطُ تَغَوَّرَ فِتْنَتُهَا وَتُنَجِدُ، وَتَرْكُعُ
فِيهَا الْمَوَاضِي إِلَى مُحَارِبِ السَّنَابِكِ وَتَسْجُدُ، وَقَدْ أَوَى كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ إِلَى ذِمَّةِ
الصَّلِيبِ، وَلَمْ يَأْخُذْ أَهْلُهَا مِنَ الرَّأْيِ وَالْأَنَاءَةِ بِنَصِيبٍ، فَوَقَفْتُ دُونَهَا لَا رَغْبَةً عَنْ مَهْوَى
أَفْتَدَةِ الْعِبَادِ، وَرَعَيْتُ هَدْوَهَا لَا تَثَاقُلًا عَنْ بَيْتِ سِوَاءِ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ، وَرَابَطْتُ
أَطْرَافَهَا لَا عَجْزًا عَنْ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَبَقِيتُ أَخْبِطُ فِي غَسَقِهَا وَإِنِّي لَفَقِيرٌ إِلَى نُورِ ذَلِكَ
الْفَتِيقِ، مَذْخَرًا ذَلِكَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ، مَجِيرَةً بِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ يُدْعَى الثُّبُورُ، وَيُبْعَثُ
مَنْ فِي الْقُبُورِ، ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِكَ وَحَالِي جَلَالِكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

* * *

ولما توفِّي الأمير أبو زكريا ببلد العُتَاب^(١) وبويع وَلَدُهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بِتَوْئُسٍ وَتَسَمَّى
بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ، وَكَانَ وَالِدُهُ يُدْعَى بِالْأَمِيرِ وَعُمَرُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِذْ ذَاكَ إِحْدَى
وَعِشْرُونَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا، وَتَوَفَّى سَنَةً أَرْبَعَ وَسَبْعِينَ، فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ فِي خِلَافَتِهِ سَبْعًا

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٢/٣٦٨ و ٦/٣٢ وهو من بلاد إفريقية.

وعشرين سنةً أو نحوها، وبعد سنة وأشهر من ولايته أراد بعض الموحدّين أن يخْلَعُوهُ واجْتَمَعُوا على عمّه أبي عبد الله اللّحيانيّ وبايَعُوهُ بيعةً الخاصّة وهو قاعدٌ في دارِهِ والموحدّون معه يتفاوَضُونَ في أمرِهِ، إلى أن دَخَلَ على المستنصرِ عِلْجُهُ ظافرُ الكبير وأعلّمَهُ بما وَقَعَ في دارِ عمّه من التدبير، فأمرَهُ باستدعاء بعض الفرسان، وحضر ابنُ أبي الحسين خاصّته، وأبي جميل^(١) زِيّان بن مُردنِش وغيره من رؤساء الأندلسيّين، واجتمع مَنْ كان في القَصْبة من أهل الدّخلة وخرجوا على باب الغدر ودخلوا على باب البلد السُّوالي لدار أبي عبد الله المذكور، فدخلوا عليه بعدمَا كان الأمرُ عندهم في المبايعة مشهوراً مذكوراً فقبَضُوا عليه وقتلوه وقتلوا كلَّ مَنْ كان حَضَرَ في تلك القضيّة، واجتمعت من رؤوس تلك الجماعة سبعٌ وأربعون رأساً وُحِيت إلى القَصْبة، وعَيْنَ المستنصرُ رأسَ عمّه فتأسّف عليه حينَ سيقَ إليه ثم أمرَ بدفْنِهِ وتعليق تلك الرؤوس على السُّور، فتمهّدت مملكته واستقامت له الأمور.

وفي سنة سبع وأربعين وست مئة: كان استيلاء الأمير أبي يحيى ابن عبد الحقّ على حضرة فاس بعد حصارها مدةً من السّنة الفارِطة وقتالِها، وكان لَهَا ملكها وملك أَقْطَارَ سهالِها وجبالِها وَلَى عليها السّعود^(٢) بن خَرِيش الحشَميّ، فاستوطنَ قَصْبَتَهَا بأهلِهِ ومالِهِ ووَلَدَهُ وعيالِهِ، وكان الأميرُ أبو يحيى تركَ معه فيها زوجَهُ التي اسمُها فَتَوْحَةُ بحشَمِها وخَدَمِها، وكان بفاسَ حينئذٍ نحوُ مئتي فارس من النّصارى الأجناد، كانوا قد وصلوا إليها في العام الفارِط حين موت السّعيد، فأقاموا بها مع قائدهم المسمّى شديد^(٣)، إلى أن انحصروا فيها وقتل منهم في القتال أعداد، وكان أهلُ فاسَ استعدّ بهم لقتال بني مَرِين أعزّهم اللهُ أيّ استعداد^(٤).

فلَمَّا دَخَلَ فاسَ الأميرُ أبو يحيى حَبَسَهُمْ وحَسَمَهُمْ من أجنادِهِ وتركهم فيها مع السّعود بن خَرِيش فجاهرَ القائدُ المذكور عليه بخلافِهِ وعِنادِهِ، وذلك أنّ هذا القائدُ

(١) يعني: باستدعاء أبي جميل، وإلا فلا تستقيم.

(٢) في م: «السعود»، وما أثبتناه يعضده ما في تاريخ ابن خلدون ٧ / ٢٣١.

(٣) هكذا في الأصل، والجادة: «شديدًا».

(٤) تاريخ ابن خلدون ٧ / ٢٣١.

استدَلَّ على السعود وصار يدخل الدارَ عليه ويتردَّدُ كلَّ حينٍ إليه، فاجتمع جماعةٌ من أشياخ البلد معه ووافقوه على أن يقتلوه، فدخل عليه يوماً فغدره وقتله، فلما اجتمعت على قتله أشياخُ فاس أهل رُبَطِه وحلّه، خاطبوا المرتضى مجدِّدينَ بيعتهم إليه، ومعتمدينَ في نصرتهم على الله تعالى وعليه، فخاطبهم وجاوبهم ووعدهم بإطلاله عليهم ووصوله برايته المنصورة وعساكره الموفورة إليهم، وقال لهم: كونوا مرتقينَ لرايتنا ومتأهبينَ لإطلائنا، فما أطلَّ عليهم ولا وصل إليهم، فبقوا في انتظاره نحوَ تسعة أشهر من حين قُتل المسعود، ينتظرونَ منه الورود، حتى ضاقت أحوالهم بالجوع والحصار، واشتدَّ أمرهم بطول الأضرار، فطلبوا العفوَ من الأمير أبي يحيى، فعفا عن عامتهم، وأغرم أموالاً لخاصتهم، وذلك أنه لما دخل إلى مدينة فاسَ جمعَ من أهلها ثلاثَ مئة رجلٍ من وجوه الناس، وأغرمهم في الخطأ ثلاثَ مئة ألف دينارٍ عَشْرِيَّة، وضربَ أرقابَ ستة أناسٍ من أعيانِ أشياخهم، وقيل: إنَّ ذلك كان في يوم الأحد السادس عشرَ لرجب من سنة سبع وأربعين وست مئة المذكورة^(١).

وفي هذه السنة، وهي سنة سبع وأربعين: قام بسبِّة الفقيه العالم، أبو القاسم ابنُ الفقيه العالم أبي العباس العزفي رحمه الله تعالى ليلة سبع وعشرين لرمضان، وكان المُعين له في ذلك والمدير له في الأمر هنالك القائدُ للبحر حَيْثُذ وهو أبو العباس الرنداحي، فقد كان بينهما مودةٌ عظيمة، وصُحبةٌ حديثة لا قديمة، وذلك من حينَ وُلِّي قيادةَ البحر، وكان له فيه على العُزاةِ النهي والأمر، وذلك أنه لما خالفت سبِّة على السعيد، ووصلها من تونس ابنُ أبي خالد وابنُ الشهيد، فاستوطنا قصبَتها وأضرَّ ابنُ أبي خالد بأهلها، وكان بينه وبين القائد المذكور تغيُّرٌ في بعض الأمور، وكان بسبِّة قائدُ الفحص شفافٌ المشهور، الذي كان السببُ مع قضاءِ الله تعالى في دخول النصارى مدينةَ إشبيلية، ووصلَ منها إلى سبِّة مع جُملة من الأجناد والقواد، فلما توفيَّ الأميرُ أبو زكريَّا في السنة الفارطة وتوفيَّ السعيد، وضاق أهل سبِّة غايةَ التضيق من جورِ ابن أبي خالد وتغافلِ ابن الشهيد، اجتمع القائدُ الرنداحيُّ مع الفقيه المعظم أبي القاسم العزفي فحرَّضه على القيام بأمرِ بلده وأن يُعينه على ذلك بعدَّه وعُدِّه، والتزم له أن يقوم بالأمر حتى يُخلَّصه،

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣١-٢٣٢.

فوافقه الفقيه على ذلك، وأمره بإنجازه في الليلة المذكورة، فاستعمل القائد المذكور طعامًا في داره وعرضه على بعض عمائر الأجفان من الرؤساء والقواد والرماة والغزاة، واستدعاهم لمنزله كأثما وليمة مشهورة، ولا علم أحد منهم بسرّه ولا كيفية أمره، فاشتغل الناس عنده بالسّماع والشّطّح في الدار، وهو مع ذلك لا يستقرّ له معهم قرار، وهو قد بعث زعماء رجاله بالليل بعدما كشف لهم عن الحال وأمرهم أن يسوقوا له رأس شقاف وفلان وفلان، فأول ابتدائهم بشقاف المذكور فاتهم صاحوا في داره وقالوا له: الوالي بعثنا إليك يريد أن يجتمع بك في بعض الأمور، فلما خرج إليهم قطعوا رأسه، وقتلوا كل من أمرهم بقتله، ورجعوا إليه آخر الليل فأعلموه بأنهم امسكوا كل ما أمرهم به.

فاجتمع مع الفقيه المعظم وعرفه بكل ما كان من الأمر وما فعله من قتل القواد والأجناد والأندلسيين وغيرهم، وأنه أمر رجاله بقتلهم فأخرجوهم بالحيلة من ديارهم وقتلوهم، فلما أعلمه بذلك تركه قاعدًا في أسطوانه بشمعة أمامه مع بعض إخوانه وخدامه وهو يتطأير خوفًا مما يتوقع من عاقبة الأمر، ورجع القائد إلى داره والعمائر بها يشطحون ويفرحون ولا يعرفون ما وقع، وهم لا يشعرون، فخرج بهم من داره وتقدم إلى القصبه بعدما ضرب النّفير، فاجتمع من عمائر الأجفان الكبير والصغير، وشاع الخبر عند أهل البلد، فخرج الشوقة والتجار، واجتمعوا أجمعين على القائد والفقيه بأسطوانه مرتقبًا^(١) لما يتزايد من الأخبار، ومتخوفًا^(٢) مما يتوقع من تصرف الأقدار، والرجال يسرون إليه مرة بعد أخرى، وأهل سبتة مجتمعون على قائدهم يطلبون رأس ابن أبي خالد دون غيره؛ لأنه كان أضرّ بهم بظلمه وجوره، وابن الشهيد معه خائف^(٣) أيضًا من حاله وعاقبة أمره، إلى أن صعد الرّجل على سور القصبه وظفروا بابن أبي خالد فقتلوه وقطعوا رأسه وعلقوه على السور، وأخرج ابن الشهيد المذكور ونفي إلى الأندلس في زورق إلى أن وصل بعد ذلك إلى تونس بشهور، واستبد أبو القاسم العزفي بملك سبتة وبقي بها مسرورًا، معظّمًا مبرورًا، ولم يزل أهل بلده يعظمونه بغاية الإعظام،

(١) في م: «مرتقب» ولا تستقيم.

(٢) في م: «متخوف» ولا تستقيم.

(٣) في م: «خائفًا» ولا تستقيم.

والتوقير لجانبه والاحترام، فهو من جَلَّةِ الفقهاء الأعلام، ومن مآثره العظام، قيامه بمولد النبي عليه السلام من هذا العام، فيُطعمُ فيه أهل بلده ألوان الطَّعام، ويؤثرُ على أولادهم ليلة يوم المولد السعيد بالصَّرف الجديد من جُملة الإحسانِ عليهم والإنعام، وذلك لأجل ما يُطلقون المحاضرَ والصَّنائعَ والحوانيتَ يمشونَ في الأزقة يُصلُّونَ على النبي عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمُّعُ المُسمِّعونَ لجميع أهل البلد مدحَ النبي عليه السلام، بالفَرَحِ والسَّرورِ والإطعامَ للخاصِّ والعام، جار ذلك على الدَّوام، في كلِّ عام من الأعوام، وتوفِّي رحمه الله عامَ سبعة وسبعين، فكانت مدَّته نحوَ ثلاثين سنةً على ما يأتي ذكره في صلة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى^(١).

وفي سنة ثمان وأربعين وست مئة: وقد على المرتضى بمراكش أبو عمران موسى بن زِيان الوُنْجاسي^(٢) من بني مَرِين، أحدُ الفُرسان الأعيان، أرسله إليه أخوه عليُّ بن زِيان، فأكرمه وعظَّمه، ثم انصرف عنه مقضيَّ المآرب، مرضيَّ المطالب والمذاهب، ثم وردَ عليه أبو الحَسَن عليُّ بن زِيان المذكور، وأخذ معه في بعض الأمور، فأكرمه غاية الإكرام، وأنعمَ عليه بجزيل الإنعام، وعيَّن له مالاً معلوماً في كلِّ عام، وكان قد وصلَ معه جُملةً من بني وَنْجاسن، فخرَّجَ لهم ما لهم على صُنْهاجَة في هذا العام، وسأله المرتضى عن أمور بني مَرِين وأحوالهم فهوَّنَ عليه الخروجَ إلى قتلهم، فأمره بالتقدُّم إلى سَلا، وكان واليها ابنُ أبي يَعْلَى ليكونَ معه هناك معَ مَنْ بها من الموحِّدين والأنجاد ليمنعوا بني مَرِين عبورَ الوادي إلى جهة تامَسْنا من تلك البلاد، وكان المرتضى نظَرَ في ضمِّ عساكره ودبَّر في أمره بنواهيهِ وأوامره، ووَجَّه إلى الأندلس برسم أن يصلِّه جمعٌ من النَّصارى ليركبهم معه ويكونوا له أعواناً وأنصاراً، فوصلوا إليه في هذه السنة^(٣).

وفي سنة تسع وأربعين وست مئة: تحرَّك المرتضى بعساكر الموحِّدين والأجناد، والعربِ والأحشاد، على ترتيبِ سَلَفِهِ المعتاد، من التَّأهَّب والاستعداد، والاستخارة لله

(١) تاريخ ابن خلدون ٤٠١/٦.

(٢) ويكتب «الونكاسي» أيضاً، كما في تاريخ ابن خلدون ٣٤٨/٦، وهي كاف أعجمية فيكتبها بعضهم جيماً وبعضهم كافاً وآخرون قافاً.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٣٤٨/٦، والاستقصا ٢٠٣/٢.

تعالى في تبليغ القصد والمُراد، وتقديم الزيارة، للأحداثِ بتينمَل على عادة سلفه بني عبد المؤمن، فأَمْضَى العَزَمَ في الابتداء صَدَرَ هذه الحركة بالزيارة المذكورة، والافتتاح منها بالأعمال المبرورة، والاهتداء بَمَنْ تقدَّمه فيها كانوا يعقدونه في بيت معاهدهم من الرايات المنصورة، فكان خروجه من حضرة مَرَّاكش في أوّل يوم من شهر رمضان المعظم إلى زيارة قبر إمامه، تبرُّكًا بلثَّم ثراه واستلامه، وتوسَّل هنالك بأكرم الوسائل، وتمثَّل في تعظيم ذلك المكان بقولِ القائل [من الطويل]:

نُعَظِّمُهُ أَنْ حَلَّ فِيهِ مَعْظَمٌ وَنُكْرِمُهُ أَنْ كَانَ مِثْوَى الْمَكَارِمِ
وَنَقْضِي حَقُوقًا لِلْهُدَى فِي زِيَارَةٍ تَقَدَّمَهَا أَوَّلَى الْحَقُوقِ اللَّوَاظِمِ

فلما فرغ من الزيارة على أكمل ما أمَّله وقصده، قفَل مستقبلاً إلى الحركة التي أمضى عليها عزمه وعقده، فرحل عن مَرَّاكش في الخامس من شهر رمضان من السنة المذكورة، في أَمَى زِيٍّ وأحسن صورة، بعدما استَوَهَب جميل الدُّعاء من الصُّلحاء، وتمادى مشيه على الهيئة الموصوفة والأهبة المعروفة إلى جهة سَلا، فتلَوَّم بها أيامًا قلائل، إلى أن تعرَّف أخبار بني مَرين وغيرهم ببراھين ودلائل، فعزَم على مقابلتهم ومقاتلتهم، فتحرك من سَلا بعساكر وافرة وجيوش متكاثرة من قبائل الموحدّين ومن أصناف المتجنّدين، فكان من أمره ما أذكّره إن شاء الله عزَّ وجلَّ.

اختصارُ الخبر بظهور الأمير أبي يحيى وبني مَرين

على عساكر المرتضى والموحدّين في الموضع المعروف بأمن ملولين

وذلك أنه لما بلغ الأمير أبا يحيى وبني عبد الحق أعزَّهم الله تعالى استقبال المرتضى بعساكره إليهم، اجتمع قبائل بني مَرين وبني ورا وبعض زَناتة والعرب ومن انضاف إليهم من قبائل الغرب، فرأى بنو عبد الحق بسديد رأيهم ونجح سعيهم أن يُخاطبوه ويكاتبوه، فخطَب الأمير أبو يحيى المرتضى طالبًا منه المهادنة والمُصالحة، فأراد المرتضى أن يُصالحهم ويُسامحهم لأنه كان مائلًا إلى الراحة وعدم التصرُّف، فأبى وزرأوه من ذلك وقالوا: لا يَصْلُحُ في إقليم واحد مَلِكُان، فرحل إلى لقاءهم بالحلِّ والترحال، وكانت الثَّقَلَةُ وأحمالُ المال، على نحو أربع مئة من البغال، على قول مَنْ قال: إنَّ بعضَها أحمالُ

بالمال وبعضها بالأثقال، إذ كان المال كله دراهم ليس فيها مثقال، وكانت الثقله فيها مضاربته وأسبابه وأفرأج المختص به، لسكنائه على عادة خلائفه وأسلافه في حركاتهم، وغير ذلك مما يندخر من أسباب الحركات لمهماتهم، وكانت أثقال الموحدین بالنسبة إلى ذلك المحال آلافاً من الجمال، وكانت محلّة كبيرة، واستعدّ المرتضى لهذه الحركة^(١) استعداداً عظيماً بطبول وعلامات كثيرة، فتمادى المشي على أحسن بهاء وأتمّه، وأعظم استعداداً وأعمّه، حتّى وصلت المحلّة الموحدية إلى مقرّبة من العساكر الممرينية، ونزلت بموضع أمن ملولين.

وكان الأمير أبو يحيى ابن عبد الحق قد استعدّ لقاتلهم وأعدّ بني مَرين لحربهم ونزالهم، فقصد عليّ بن زيان مع جماعته إلى جهة من جهتهم ودفع عليها وعليهم، ثم دفعت عساكر الموحدین من جهة أخرى بالقتال إليهم، فأعطى بنو مَرين لهم ظهورهم لأن يقفوا الموحدون آثارهم، فقد كانوا كمنوا لهم ودبروا أمورهم، وذلك خدعة من خدع الحروب، فتعرّف الموحدون أنهم كمنوا لهم في الخنادق فتوقفوا عن دفاعهم واتباعهم، فلم يتبع أحد لبني مَرين خيفة الكمين.

وقيل بعد ذلك: إن الأمير أبا يحيى كان توافّق في ذلك اليوم مع يعقوب بن جرمون فبقيت المحلّة بذلك الموضع ساكنة آمنة إلى أن استظهر يعقوب بن جرمون المذكور بكتاب وصله من قبل الأمير أبي يحيى ليوقف عليه المرتضى ويتكلّم معه في صلاح الأمور، فقنع منه بذلك المقال، وأمر في الحين^(٢) بالرحيل من ذلك الموضع والانتقال، وأقلع من غير عهد معهود ولا عقد معقود، وشاع في المحلّة من يعقوب بن جرمون ورجاله، انعقاد الصلح وكماله، وكان إقلاغ المحلّة من هنالك في ليلتهم حين ذلك فأصبحوا على ظهر راحلين وإلى مراكش قافلين، وأوقع الله الرعب في قلوبهم فرحلوا وتركوا بعض مضاربهم وأسبابهم وقفلوا جميعاً في الرّوع بالقلوب، وكان فيه لبني مَرين المقصود والمطلوب، وذلك بما وهبه الله لهم من القوة والشجاعة، والأخذ في الأمور بالعزم والحزم جهد الاستطاعة.

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) في ق، ك، ب: «الجيش».

ولَمَّا قَدَفَ اللهُ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُؤَحِّدِينَ وَأَجْنَادِهِمْ، وَرَحَلُوا قَافِلِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، تَفَرَّقَتْ جُمُوعُهُمْ وَخَارَتْ طِبَاعُهُمْ، فَتَبِعَتْهُمْ جِيُوشُ بَنِي مَرِّينَ وَجَدُّوا فِي أَتْبَاعِهِمْ، فَاسْتَوْلَوْا عَلَى جُمْلَةِ مَضَارِبِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ أَحْمَالِهِمْ وَأَثْقَالِهِمْ، وَأَخَذُوا بَغَالَ السُّلْطَانِ وَأَثْقَالَهُ، وَخَيْلَهُ الْمَقَادَةَ وَأَبْغَالَهُ، وَكَانَ بَعْضُ فُرْسَانِهِ وَرَجَالِهِ إِذَا ضَاقَ حَالُهُ يَرْتَجِلُ عَنْ فَرَسِهِ خَيْفَةً عَلَى رَأْسِهِ، وَمَنْ تَقَدَّمَ لَا يَشْتَغِلُ إِلَّا بِخَلَاصِ نَفْسِهِ، وَتَمَادَى مَشْيُهُمْ إِلَى أَزْمُورَ، وَكُؤُوسُ الْخَوْفِ عَلَيْهِمْ تَدُورُ، فَلَمَّا وَصَلَ الْمُرْتَضَى إِلَيْهَا وَنَزَلَ عَلَيْهَا جَدَّدَ حَرَكَتَهُ مِنْهَا، ثُمَّ رَحَلَ قَافِلًا إِلَى حَضْرَتِهِ، فَكَانَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْهَزِيمَةُ مِنْ غَيْرِ قِتَالِ هَزِيمَةٍ عَظِيمَةٍ، وَكَانَ الْوَزِيرُ الْقَائِمُ فِيهَا بِالتَّنْذِيرِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ إِلَى أَنْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا أَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى (١).

وَفِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ: أَخْرَجَ الْمُرْتَضَى وَزِيرَهُ ابْنَ يُونُسَ عَنْ وِزَارَتِهِ حِينَ وَصَلَ لَهُ مِنْهُ مَا أَوْجَبَ قَتْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحُسْنِ الْإِدَارَةِ، فَاسْتَوْطَنَ ابْنُ يُونُسَ تَامَصِلَحَتَ مَوْضِعِهِ، وَكَانَ يَدْخُلُ مَرَّاكُشَ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ، وَكَانَ يَدْخُلُ لِلْخَلِيفَةِ مَعَ الْمُؤَحِّدِينَ بِرَسْمِ السَّلَامِ لَكِنْ لَا بَدْلَ لَهُ أَنْ يُكَلِّمَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْكَلَامِ، وَاسْتَقَرَّ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ مَعَ أَوْلَادِهِ وَعِيَالِهِ وَخُدَّامِهِ وَرَجَالِهِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ رَجَالِهِ وَخُدَّامِهِ وَمِنْ قَبِيلَةِ بَنِي... (٢) عَلِيُّ بْنُ يَدَّرَ، فَهَرَبَ إِلَى السُّوسِ حِينَ غَزَى ابْنُ يُونُسَ عَنِ الْوِزَارَةِ وَاسْتَقَرَّ بِهِ، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يُونُسَ مِرَاسَلَاتٌ وَمُدَاخَلَاتٌ (٣).

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ: جَاهَرَ عَلِيُّ بْنُ يَدَّرَ بَعْنَادَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُرْتَضَى عَسْكَرًا مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ أَجْنَادِهِ فَحَارَبُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فَقَفَلُوا رَاحِلِينَ إِلَى مَرَّاكُشَ، وَكَانَ بَتَارُودَانَتُ أَحَدُ أَشْيَاحِ الْمُؤَحِّدِينَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ أَجْنَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى سَاكِنِينَ هُنَالِكَ.

وَفِيهَا: كَانَتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ اهْتَزَّتْ الْأَرْضُ بِهَا بَمَنْ عَلَيْهَا (٤).

(١) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٦/٣٤٨، وَالْإِسْتِصْقَا ٢/٢٥٣.

(٢) فَرَاغَ قَدْرَ كَلِمَةٍ.

(٣) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٦/٣٤٨.

(٤) تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٦/٣٤٨.

وفي هذه السنة: كانت كائنة أجناد النصارى الذين أرادوا أن يقوموا على الأمير أبي يحيى يَغمراسن ببلد تِلْمُسان، وذلك أنه لما أراد أبو يحيى يَغمراسنُ بنُ زِيان أن يظهر بما عنده من العساكر والأجناد على تَحِينٍ وَمَغْرَاوة وبني عبد الواد، فأمرَ بخروج أجناد المسلمين والنصارى مدرّعين، فخرجوا على باب القرمادين كلهم أجمعين، وكان قد اجتمع عنده بتلمسان على ما ذكره الثقات من أهلها نحو ألفين من الرجال والفرسان، وقال بعضهم: ثلاثة آلاف، ووقع بينهم في ذلك الخلاف. فلما خرج يَغمراسنُ برسم المميز من تلمسان واجتمع عليه الأنجاد من بني عبد الواد والأجناد والقواد، فوقف هناك بمقرّبة من موضع كان يُعرفُ بقصر الشعراء، ووقف تَحِينٌ وَمَغْرَاوة قريباً منه بحومة أخرى، ووقف أجناد المسلمين ناحية وأجناد الروم ناحية أخرى وقوفاً، قد عملوا صفوفاً صفوفاً، إلى أن كان آخرُ وقوفهم وصفوفهم، فأرادوا غدّر المسلمين، فعجل الله منوّتهم وحُتوفهم، وذلك أنه لما وقف أبو يحيى للمميز قدّم المسلمين وميّزهم، وإلى جانبه الأيمن جوّزهم، وأمرَ بميز الروم وكانوا مدرّعين مجتمعين، وكان^(١) المسلمون متفرّقين غير مجتمعين ولا مدرّعين، ولم يتأهبوا لقتال، ولا خطر لهم ذلك ببال، فلما شرع في تمييزهم وقف قوادهم أمامه وكانوا عشرة إلى أن ميّز أكثرهم فارساً بعد فارس وقائدهم الكبير المسمّى بدنجيل مجتهد في تمييزهم وتجويزهم واقفٌ بعلامه إلى أن أقبل إلى الأمير يَغمراسن وهو مدرّع بدرّعه مع جماعة من جمعه برسم لقائه له واجتماعه، فجاء يعانقه بذراعه، فأدخل رأسه تحت ذراعه، فهَمَز أبو يحيى فرسه، وأخرج من تحت ذراعه رأسه، بعدما ترك بيده عمامته وجدّ في اتباعه، حين افتراقه منه وانتزاعه، فدخل المخزي الكافر، الغادر الماكر^(٢)، في جملة أصحابه الروم، وحرّمه الله ما كان^(٣) من الغدر يروم، وقامت هوشة عظيمة في ذلك اليوم المعلوم، وعمل أبو يحيى المذكور إحرامه على عصاه وصاح في الناس: يا آل عبد الوادي غدرتم يا رناتة، إلى أن ميّزوا كلامه، فقد كان الناس أشاعوا أنه قُتل وذاق حِمَامَه، وكان في ذلك اليوم هولٌ يوم القيامة، وفرّ تَحِينٌ وَمَغْرَاوة حين رأوا

(١) من هنا إلى قوله: «ولا مدرّعين» سقط من ق، ك، ب.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

(٣) قوله: «ما كان» سقط من ق، ك، ب.

ذلك إلى أن وصلهم الخبر بكلامه وحياته فكروا راجعين، وتراجعت الناس إليه من كل مكان فحفوا به خلفه وأمامه، وانعقدت الساقة عليه حيثئذ بعساكره وطوله وأعلامه، وكان تجين ومغراوة قد قدروا حين قامت تلك الأهوال، والتحم بين المسلمين والروم القتال، أنها حيلة عليهم، حتى بعث أبو يحيى يغمراسن من أعلمه بالخبر إليهم، وكان ظن التصاري دمرهم الله أن الفتنة تقوم بينهم، فدبروا غدرهم ومكرهم سببا لحينهم، فلما اجتمعت الفرسان على أبي يحيى يغمراسن بن زيان، أمر بغلاق باب تلمسان، وأطلق أيدي الفرسان الأحرار على قتل الأعداء الكفار، فروى من دمائهم غللا السنة والشفار، واستأصلوهم بالقتل طول النهار، ولم يتأت للكفرة في ذلك اليوم الفرار، بل حصروهم في موضع وداروا عليهم دور السوار، وقتل الحضر في البلد عيالهم وأطفالهم الكبار منهم والصغار، واستأصلوهم بالقتل والنهب والسلب في دواخل الديار، واستغنى في ذلك بعضهم، ولم يبق من الكفرة في ذلك اليوم في داخل البلد وخارج ديار، واستشهد في ذلك اليوم جملة^(١) من المسلمين الفرسان أولهم أخو يغمراسن محمد بن زيان، وقتل كاتب أبي محمد ابن غالب عن غلط، ولم يقتل من الحضر إلا هو فقط^(٢).

وفي سنة اثنتين وخمسين وست مئة: تفاقم أمر علي بن يدر بالخلاف في بلاد السوس، وانقادت له بعض عرب الشبانات وبني حسان، واجتمع عليه أعداد من الفرسان، وطاع له بعض أهل تلك البلاد يغيرهم، وكان يعطي بعض العرب ويكرمهم، وكان العامل بتارودانت من قبل المرتضى، وهي كانت حاضرة تلك البلاد فيما تقدم ومضى، فخرج إليه في هذا العام عسكر من الموحدين، فوسع أمامهم حين قدموا عليه، ثم رجع بعد انفصالهم منها إلى حاله وتغريمه^(٣).

وكان بين المرتضى وبين الأمير أبي يحيى بن عبد الحق في هذه السنة مخاطبات ومجاوبات، فكان للموحدين في ذلك بعض التسكين والتهدين، وكان عازما على الحركة فأضرب عنها.

(١) في ق، ك، ب: «جماعة».

(٢) تاريخ ابن خلدون ١١٣/٧ وفيه أن هذا كان في سنة ٦٥٢ هـ.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٣٦٧/٦.

وفي هذه السنة: كان مقتلُ ابنِ يونسَ الذي كان وزيرًا للمرتضى قبلَ ذلك، وسببُ قتله على ما ذكرَ العارفونُ بأمره سوءُ معاملته معَ خليفته في أعماله، فأولُ فعل فعله أنه اشترطَ عليه شروطًا حينَ كُتبتَ البيعةُ، منها: ألاَّ يقدمَ أخاهَ وزيرًا، فكانَ هذا وأمثاله من ضَعْفِ عقله وتدبيره أن يتركَ السُّلطانَ أخاهَ ويُسندَ أمره إليه، فلمَّا وصلَ السيّدُ أبو إسحاقَ من سجلماسةَ بعدَ أشهرٍ من خلافة أخيه، قدّمه وزيره وأسندَ إليه أموره، فكانَ في كلِّ أمرٍ يُمضيه، وكانَ ابنُ يونسَ معه وزيرًا يقعدُ معه في جملة الوزراءِ والمؤخّدين الكُبراءِ، فكانَ السيّدُ يَحْتَبِرُ في كلِّ وقتٍ أفعاله وأعماله إلى أن قال يومًا في جملةِ مقالِهِ: فعَلَ المخلوْعُ كذا، وصَنَعَ المخلوْعُ كذا، وهو عمُّ السيّدِ المذكورِ وعمُّ الخليفة، فانزعَجَ السيّدُ لمقالِهِ وقال: خَلَعَ اللهُ عَيْنَ الذي خَلَعَهُ، وخرَجَ عن موضِعِهِ ذلكَ وكان سببًا لتأخيرهِ عن الوزارة.

ولقد قال يومًا بمحضَرِ خليفته المرتضى حينَ وَقَعَ ذكرُ سَكِينٍ مفلولٍ أخرجه من كُفّه مسلولًا وقال: والله ما خَرَجْتُ يومًا قطُّ إلا بهذا هكذا، وأشار به إليه، فتعجَّبَ الحاضرونَ من أمرِهِ وقام المرتضى في الحينِ مغضِبًا ودخلَ إلى قصرِهِ، فكانَ ذلكَ أيضًا مما انتَقَدَ عليه. وكانَ معَ ذلكَ المرتضى، يُعاملُهُ بالقبولِ والرّضى، إلى أن قيلَ عنه: إنه يُكَاتِبُ عليَّ بنَ يَدْرِ ويُراسلُهُ، ويشاركُهُ في بعضِ الأمورِ ويُداخلُهُ، ويكتفلُ له شراءَ السلاحِ وغيرها، وثبتَ عندَ السيّدِ أمرُها، إلى أن حصلتَ كُتُبُهُ بخطِّ يده لعلِّي بنِ يَدْرِ المذكورِ، يُعرَفُهُ فيها بالأحوالِ والأُمُورِ، فانكشَفَ سرُّه وحالُهُ، وأمرَ المرتضى باعتقالِهِ، فاعتقلَ بداخلِ القَصَبَةِ بدارِ الحُكَماءِ، وخرَجَ الحاكمُ بنُ أصلماطَ إلى موضِعِهِ برسمِ ثِقافِ مالِهِ وحالِهِ معَ الخَيْلِ والرّجالِ والأُمُناءِ، فاستاقَ إلى مَرَاكُشِ أولادِهِ فسُجِنُوا بها وعُمِلَ عليهم وعلى أبيهم جُمْلَةٌ من العُدُوِّينَ والرّقَباءِ، وخرَجَت من المرتضى بطاقةٌ بالتوقيعِ عليها فيها مَكْتُوبٌ جميعُ ما انتَقَدَ عليه، فحُمِلَت إليه ووقَفَ على ما فيها ورماها حينَ نظرَ إليها، وسيقت له الكُتُبُ التي بعَثَها لعلِّي بنِ يَدْرِ، فحَلَفَ بأيّانٍ مغلّظَةٍ أنه ما كتبَها، فما صُدِّقَ في أيّانِهِ ولا مقالِهِ، بل حَقَّقَ عليه جميعَ ما ذُكِرَ عنه، فأمرَ بقتله في موضعِ سِجْنِهِ واعتقالِهِ، وبقيَ أولادُهُ مسجونينَ في هذه السنة إلى أن أخرجوا بعدَ ذلك^(١).

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٦٧.

اختصارُ الخبر عن مقتل أشياخ الخُلَط

وذلك لما أراد الله بقتل السَّعيد في عام ستة وأربعين، وتفرَّق أهلُ عساكره أجمعين، كان أشياخُ الخُلَط أحدَ أسبابِ تلك الواقعة، ولهم فيها أخبارٌ شنيعة؛ لأنهم في أول الحال تأخروا عنه حينَ عَزَمَ على القتال واجتمعوا بجمْعهم حين سَمِعُوا بقتله ورجعوا محلَّته، فأكلوا وقتلوا، ونهبوا وسلبوا جُمْلته وأهل دِخلته وبعض أهله، وقبضوا على أخت السَّعيد الحرَّة نجمة زوجة الوزير السيِّد أبي إسحاق، واستولوا على مالها وحالها، وكان قد حصل بأيديهم في تلك الكائنة شيءٌ كثير من السقط العظيم الخطر الكبير القدر، فقد كان احتواؤهم على تلك المحلَّة واستيلاؤهم مع بني عسكر عليها قبل وصول بني عبد الوادي إليها. وقيل: إنهم كانوا متفقين معهم على بيعها منهم على ما ذُكر في ذلك عنهم، فحبسَ ذلك الفعل الذمِّم المنسوب إليهم، إلى أن احتيلَ بالحيلة بعد ذلك عليهم، فلما وصلوا إلى مراكش أذن لهم في الدخول إلى القصبَة حين وصولهم، وكان عبيدُ المخزن وبعض المتجنِّدين مستعدين لهم عند دخولهم، فأدخلوا لدار الكرامة برسم الإكرام والإنعام، فحاق بهم الانتقام بالقتل لهم والإعدام، وقيل: بالسُّم في الطعام فماتوا في الحين أجمعين، وكان عددهم سبعين^(١).

وفي أثناء ذلك اعتقل يعقوبُ بن محمد بن قَيْطُون الجابريُّ، فقد كان الشَّيطان استهواه لعصيان خدمة السُّلطان، وكان المرتضى رحمه الله أنعم عليه بجزيل الإنعام، وأعطاه بحوز مراكش الأملاك والأسهام، وأعطى يعقوبُ بن جرمون السُّفْيانيَّ مثل ذلك، فظهر منه النصُّ والاجتهاد، وظهر من ابن قَيْطُون البغي والفساد، فبعث المرتضى عسكراً إلى تامسنا مع أبي الحسن يعلى ليتشوفَ منها متزيِّدات الأخبار من البلاد الغربية وغيرها، وليتعرَّف أحوال العرب هنالك وأمرها، وليدبرَّ مع يعقوبَ بن جرمون في أمر يعقوبَ بن قَيْطُون كيف يكون القبض عليه، وينظرَ وجه الحيلة في ذلك إذا وصل إليه.

فلما وصل ابن قَيْطُون إلى أبي الحسن المذكور واجتمع معه في جملة أشياخ العرب وغيرهم، وتكلَّموا معه في حالهم وأمرهم، أخرج يعلى ليعقوبَ بن جرمون ظهيراً كريماً

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩.

بالتنويه له والتكريم، وقَدَّمه على جميع العرب بآثوه التقديم، فسُقِطَ في يد ابن قَيْطُون حين سَمِعَ التقديمَ والتعظيم، وتكلَّم بما معه من الكلام، وأراد الانفصال عنه بسلام، فتكلَّم يَعْلَى مع ابن جرمون سرًّا بما تكلَّم، ثم أَمَرَ بالقَبْض على المذكور وعلى وزيره ابن مُسلم، فأُكْبِلَا بِكَبْلَيْنِ ثَقِيلَيْنِ، وقَفَلَ أبو الحَسَنِ يَعْلَى إلى مَرَاكُش حَرَسَهَا اللهُ تعالى بهما معتقلان^(١).

وفي هذه السنة، وهي سنة اثنتين وخمسين: كان أبو عبد الله المستنصر بالله مستوطنًا بحضرته التَّوْنُسِيَّة قد طاعت له تلك البلاد الإفريقية وعمَّاله ورجاله بمدينة مليانة والجزائر وغيرها من تلك البلاد الراجعة الآن إلى تِلْمْسان، وكان لِيَغْمَاسَن في هذا العام وبعده بِحُوز تُونُس أَمْلَاكٌ وَأَسْهَامٌ، إِحْسَانٌ^(٢) عليه من المستنصر بالله وإنعام^(٣).

وفي هذه السنة: كان الأمير أبو عبد الله ابنُ الأحمر أميرُ البلاد الأَنْدَلُسِيَّة في غاية الهدنة مع أمير المِلَّة النَّصْرَانِيَّة أَذْفُونُش بسبب صلحهما المنعقد بينهما في سنة ثلاث وأربعين، فتوجَّه إليه في هذه السنة واجتمع معه بخارج مدينة إشبيلية بجمعه ووافقَه على ما كان وافقه عليه ودفع هديته إليه، وانصرف إلى غرناطة بعد موافقته إياه ورباطه معه، وما زال من هذا العام يجتمع معه في كلِّ عام أو في بعض الأعوام إلى أن أراد أن يغدره حين وصل إليه في عام اثنين وستين على ما يأتي ذكره في موضعه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة ثلاث وخمسين وست مئة: كان الأمير أبو يحيى بن عبد الحق مستقرًّا بمدينة فاس، وصلحت ببلاد الغرب أحوال الناس، وتهدأت الأحوال من الفتن والأهوال، وصار مُلْكُ تلك البلاد إليه، واجتمع جميع من فيها من القبائل عليه، فغصَّ المرتضى بأمره وحاله حين بلغه من خُدَّامه ورجاله جميع أموره وأحواله، وهونوا عليه تجديد الحركة إليه، فقدَّم المَوَاعِد، وأخَّر العزائم والمقاصد، وتأهب لها بالاستعداد والاستكثار من العُدَد والأعداد، والفرسان الأنجاد، من العرب والأجناد، برسم الاستقبال إلى تلك البلاد.

(١) هكذا في الأصل، والجادة: «معتقلين».

(٢) هكذا الأصل، والجادة: «إحسانًا» فهو مفعول لأجله.

(٣) كذلك، فالوجه: «إنعامًا».

ذكر حركة المرتضى إلى الغرب برسم القتال

مع بني مرين في تلك البلاد والحرب

وذلك أنه لما شرع المرتضى في الحركة إلى البلاد الغربية برسم مقابلة الأمير المعظم أبي يحيى ابن عبد الحق وقبائله الممرينية، خرج من مراكش مع خاصيته على عادته إلى مدينة تينمل بعد الاستخارة وتقديم النية في زيارة قبر إمامه، وعقده فيه لبنوده وأعلامه، استفتاحاً بعوائد أسلافه، واستنجاحاً بمقاصد أحلافه، بتسديد رأيه في مقاصده السنينة وسعيه، فلما كمل الزيارة تحرّك من مراكش في أبهى زيّ وأكمل صورة بما تأهب لهذه الحركة من استعداده، واستكثاره من عُدده وأعداده، وحشوده وأمداده، واجتمع من قبائل الموحدّين قبائل وافرة، وجموع من العرب متكاثرة، وتمادى مشي العساكر على المنازل المعلومة، والمراحل المعهودة المعروفة إلى جهة مدينة سلا، ومنها جدّد الحركة للقاء بني مرين والحروب معهم، وكانوا مستعدين للقاءه.

ذكر هزيمة المرتضى بموضع بني بهلول

وقفوله إلى مدينة مراكش مهزوم مفلول^(١)

ولما ورد المرتضى إلى تلك الجهات بعساكره وجنوده، وعربيه وحشوده، كان الأمير أبو يحيى ابن عبد الحق قد استعدّ أيضاً باستعداديه بقبائله الممرينية ومن انضاف إليهم من القبائل الغربية، وبجيايده وأنجاده، فتأهب لقتالهم ونزالهم بجموعه المتكاثرة وأجناده، فوقعت بينه وبين المرتضى رحمة الله مراسلات ومرادات في أحوالهما وأحوال المسلمين المتعلقين بهما، فلم يقدّر الله صلحاً بينهما إلى أن كانت مقاتلتها ومقابلتهما بموضع يُعرف ببني بهلول، فكان سيف أبي يحيى عليه بالنصر مسلواً، فالتقى الجمعان بالضرب والطعان، فنصر الله بني مرين على عساكر الموحدّين، فهزموهم وقتلوه واستأصلوهم أعظم استئصال، بعدما دام بينهم القتال، فلم يك إلا لمحّة لامح أو صيحة صائح، إلا وقد انهرمت جيوشهم المتكاثرة، وصارت بعد انتظامها متناثرة، واستولت بنو مرين

(١) هكذا الأصل، والجادة: «مهزوماً مفلولاً».

على أثقالِ عساكرِ الموحّدين وعلى مضاربِ المرتضى وجماعته، وعلى ما كان من الأطمعة وغيرِها في خزائنه، وعلى الأحمال والبغال والجمال، ومن الأموال ما تحالفت في كثرته الأقوال، فقليل: إنَّ جُمْلَةَ ما أُخِذَ له في تلك الحركة المذكورة والوقعة المشهورة من الدنانير الفِضِّيَّة العَشْرِيَّة سبعُ مئة ألفٍ مثقال، وأمّا من الحَيْلِ والبِغالِ فكثُرَ فيه المِقال، وكذلك من المضاربِ والأسباب، وأكثرُ الأثاثِ انتَهَبها المتَهَبون أيَّ انتهاب، فحصل بأيدي بني مَرينَ ومَن كان مَعَهُم من أَشْيائِهِم ومَتاعِهِم شيءٌ كثير، وكان أمرُ هذه الهزيمة أمرَ كبير^(١)، ليست كهزيمة أَمَن مَلُولين، التي خَرَجَ النَّاسُ منها من غيرِ كِسرةٍ مفلولين، بسوءِ التدبير من الوزير، والرأي الفاسدِ والتدبير، نسألُ اللهَ العافيةَ من الإِدار، وحُسنِ العاقبة في دارِ القرار.

وكانت هذه الهزيمة الشنيعة من بعض قبائل العرب، فقليل: إنَّهم اتَّفَقوا مع بني مَرينَ وباعُوا المحلَّةَ منهم، فلمَّا اضْطُطَّتِ الصَّفَّانِ ووقعت الحربُ بينَ الفريقين، أعطى العربُ ظهورَهُم منهزمين، فَبِعَهُم بنو مَرينَ، وانكسرت عساكرُ الموحّدين، فانْهَرَموا بِجُمْلَتِهِم أَجمعين، وفَرَّ المرتضى رحمه اللهُ بنفسِه، وقُتِلَ مَن قَدَّرَ اللهُ له بِحُلُولِ رَمْسِه، وقَصَدَ الفَازينَ مَعَ خليفَتِهِم مَدِينَةَ أَرْمُور، ومنها نَظَرَ في تجديدِ الأُمُور، فقد كانوا بنو مَرينَ حَمَلُوا ساقَتَهُ وعلامَتَهُ وطبُولَهُ، فَبَعَثَ إلى مَرَّاكُش، وكان تَرَكَ بها أبا سعيد بن تيجّا مَعَ مَن كان تَرَكَ بها من السّادة وأشياخِ الموحّدين، وأمرَهُم أن يَلْقَوْهُ بِطُبولٍ وعلاماتٍ بِرَسْمِ قُفُولِهِ إلى مَرَّاكُش ودخولِهِ، فَخَرَجُوا منها بِذلكَ للقاءهِ، وَحَمِدُوا اللهَ على سلامَتِهِ وبقائِهِ، فَلَقَوْهُ بِموضعٍ راط بِجَهَةِ دَكالةٍ بِالْحَيْلِ والبِغالِ والطَّبالةِ والبَنّادة، فانعقدت عليه السّاقَةُ هنالك، وتَمادى مَشْيُهُ إلى حَضْرَتِهِ كَذلكَ، فَدَخَلَهَا بِزِيَةِ المَعْلُوم، وَقَلْبُهُ مَمّا دَهاه مَكْلُوم، وَلَمّا حَصَلَ في حَضْرَتِهِ، واستقرَّ بِموضعٍ خِلافَتِهِ، حَمِدَ اللهُ تَعَالى على ما مَنَّ بِهِ عليه من سلامَتِهِ، وألْزَمَ نَفْسَهُ أَنه لا يَعودُ إلى حَرَكَةٍ أَبَدًا، فَمّا خَرَجَ بِحَرَكَةٍ بَعْدَها^(٢) حَتّى خَرَجَ فارًّا بِنَفْسِهِ وَحَصَلَ في شِراكِ الرّدى.

(١) هكذا الأصل، والجادة: «أمرًا كبيرًا».

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

ومَّا أُنْكَرَ عَلَيْهِ وَنُسِبَ مِنَ الْأَمْرِ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ: مَا أَخْبَرَنِي بِهِ أَبُو عِمْرَانَ بْنُ تَيْجَا أَنَّهُ قَالَ: كَتَبَ لَابْنَهُ مِنْ أَرْثُورَ حِينَ وَصَلَ إِلَيْهَا مِنْ كِسْرَةِ بَنِي بُهْلُولَ وَهُوَ مَهْزُومٌ مَفْلُولٌ، يُوصِيهِ أَنْ يَعْمَلَ لَهُ مِرْحَاضًا فِي حَمَامِ الْمَخَالِصِ، وَيَجِدَّ بِنَاءَ الْحَمَامِ وَيُزِيلَ مِنْهُ الرُّخَامَ لِأَجْلِ الزَّلْقِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، وَيَجِدَّدَ فِيهِ حَتَّى يَسْتَوْفِيَهُ لِيَجِدَّهُ خَالِصًا حِينَ يَبِيْتُ فِي الْمَخَالِصِ.

وَكَتَبَ لَهُ أَيْضًا أَنْ يَصْرِفَ لَهُ صَرْفًا مِنْ جُمْلَةِ أَرْطَالِ مِنَ الْفَضَّةِ بِرَسْمِ التَّفْرِيقِ عَلَى الْأَوْلَادِ وَالْأَصَاغِرِ وَخَدَمِ قَصْرِهِ، فَامْتَثَلَ فِي ذَلِكَ أَمْرَهُ، وَكَتَبَ أَيْضًا مِنْ حَضْرَتِهِ حِينَ وَصُولِهِ إِلَيْهَا وَقُدُومِهِ عَلَيْهَا إِلَى الْأَمِيرِ الْمُعْظَمِ أَبِي يَحْيَى ابْنِ عَبْدِ الْحَقِّ رَاغِبًا إِلَيْهِ أَنْ يَجْبُرَ عَلَيْهِ خَادِمًا كَانَتْ قَدْ أُخِذَتْ لَهُ حِينَ هَزِيمَتِهِ، وَاسْتِيلَاءِ بَنِي مَرِّينَ عَلَى مَحَلَّتِهِ، فَأَمَرَ الْأَمِيرُ أَبُو يَحْيَى بِالْبَحْثِ عَلَيْهَا فِي دَوَاوِيرِ الْعَرَبِ، وَرَنَاتِهِ وَغَيْرِهَا بِغَايَةِ الْبَحْثِ وَالطَّلَبِ، إِلَى أَنْ وَجَدَهَا فِي بَعْضِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَدَفَعَهَا لِلْوَاوِلِ إِلَيْهِ بِسَبِيلِهَا، وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ جَابِرٌ، فَقَبَضَهَا مِنْهُ مَقْضِي الْأَرْبِ، فِيمَا رَغِبَ وَطَلَبَ، فَتَوَجَّهَ بِهَا إِلَى الْفَقِيهِ الْمُعْظَمِ أَبِي الْقَاسِمِ الْعَزْفِيِّ صَاحِبِ سَبْتَةِ بِرَسْمِ مَآرَبٍ أَيْضًا يَسْتَقْضِيهَا لَهُ، فَقَضَاهَا، وَكَسَا الْخَادِمَ الْمَذْكُورَةَ بِكُسْوَةٍ عَظِيمَةٍ وَأَعْطَاهَا دَابَّةً وَأَكْرَمَهَا وَأَرْضَاهَا، وَصَرَفَهَا مَعَ مُوَصِّلِهَا إِلَيْهِ إِلَى أَنْ وَصَلَهَا لِسَيِّدِهَا الْمُرْتَضَى فَقَبِلَهَا وَارْتَضَاهَا، وَكَانَتْ حَاجَةً فِي نَفْسِهِ قَضَاهَا، فَوَلَدَتْ مِنْهُ الْأَوْلَادَ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْدَمَا رَأَاهَا مِنْ كُلِّ فَرِيقٍ مَنِ رَأَاهَا.

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ: شَرَعَ الْمُرْتَضَى فِي بِنَاءِ الدِّيَارِ لِأَوْلَادِهِ الْكِبَارِ، مِثْلَ: دَارِ الْعِرَائِشِ وَدَارِ الْبَلَارِ، وَمَا جَاوَزَهَا مِنَ الْقُصُورِ بِأَبِي دَانِسَ، وَبَنَى دَاخِلَ الْقَصْبَةِ دِيَارًا كَثِيرَةً، وَأَنْفَقَ فِيهَا أَمْوَالًا خَطِيرَةً، وَلَمْ يَزَلْ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ وَقَبْلَهَا وَبَعْدَهَا يَشْتَغِلُ بِالْبِنَاءِ وَالتَّسْدِيدِ وَالْإِصْلَاحِ، فَأَوَّلُ مَا ابْتَدَأَ بِنَاءَ جَامِعِ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ، وَآخِرُ بِنَاءٍ بَنَاهُ الْمَوْضِعُ الَّذِي سَمَّاهُ بِالْفَاتِحَةِ، الَّتِي كَانَتْ لِأُمُورِهِ غَيْرِ نَاجِحَةٍ.

وَكَانَتْ الْبِلَادُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ هَادِنَةً وَمُهْدَنَةً، أَمَّا الْمُرْتَضَى فَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَمِيرِ أَبِي يَحْيَى مُهَادِنَةً وَمُصَالِحَةً، فَتَهَدَّنَ الْمُوَحِّدُونَ فِي بِلَادِهِمُ وَالْمَرِينِيُّونَ كَذَلِكَ، وَأَمَّا ابْنُ الْأَحْمَرِ فَكَانَ فِي مُصَالِحَةٍ مَعَ الرُّومِ، لَكِنَّهُ فُجِعَ فِي مَوْتِ وَلَدِهِ وَلِيَّ عَهْدِهِ يَوْسُفَ. وَأَمَّا الْفَقِيهُ أَبُو الْقَاسِمِ الْعَزْفِيُّ فَاسْتَبَدَّ بِبِلَادِهِ، وَضَبَطَهَا لِنَفْسِهِ بِاشْتِدَادِهِ وَجِدَّةِ، فِي مُصَالِحِ أَهْلِهَا بِغَايَةِ جِدَّةٍ وَاجْتِهَادِهِ، فَلَبَّغَهُ اللَّهُ غَايَةَ قَصْدِهِ وَمُرَادِهِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَخَاطَبُ الْمُرْتَضَى فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ،

وَيُحِطُّ بِهَا يَجِبُ لَهُ مِنَ التَّخْطِيطَاتِ، وَالْبِرِّ وَالْكَرَامَاتِ، وَيُعْرِفُهُ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ الْمُتَزَيِّدَاتِ، وَكَانَ فِي أَوَّلِ حَالِهِ وَأَمْرِهِ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَبْعَثَ لَهُ شَخْصًا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ أَوْ سَيِّدًا مِنَ السَّادَاتِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ ابْنُ أَشْرَقِيٍّ فَأَخْرَجَهُ بَعْدَ أَشْهُرٍ وَكَتَبَ لِلْمُرْتَضَى بِهَا كَانَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَصَدَّقَ الْمُرْتَضَى فِي ذَلِكَ مَقَالَهُ، وَبَقِيَ الْفَقِيهُ مُسْتَبَدًّا بِأَحْوَالِهِ.

وَأَمَّا أَبُو الْحَجَّاجِ يَوْسُفُ بْنُ الْأَمِينِ فَاسْتَبَدَّ أَيْضًا بِطَنْجَةَ، وَقَدْ كَانَ تَرَكَهُ أَبُو الْفَضْلِ بِقَصَبَتِهَا مُقَدَّمًا عَلَى الزَّامِيِّينَ الْمُرْتَبِّينَ فِيهَا سَاكِنًا مِثْلَ أَمِينٍ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ طَنْجَةَ لَمَّا رَأَتْ أَنَّ الْمُرْتَضَى ضَعُفَتْ أَحْوَالُهُ عَنِ الْحَرَكَاتِ إِلَى تِلْكَ الْجِهَاتِ، وَقَوِيَتْ أَحْوَالُ بَنِي مَرَيْنَ فِيهَا بِالظُّهُورِ وَالْبَرَكَاتِ، فِي السُّكُونِ وَالْحَرَكَاتِ، دَخَلُوا تَحْتَ طَاعَةِ الْفَقِيهِ الْعَالِمِ أَبِي الْقَاسِمِ الْعَزَفِيِّ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ الْقَائِدَ أَبَا الْفَضْلِ الْعَبَّاسَ، وَكَانَ شَيْخًا مِنْ فُضَلَاءِ النَّاسِ، فَتَوَجَّهَ صُحْبَةً هَذَا يَوْسُفُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَمِينِ فِي جُمْلَةٍ مَنِ تَوَجَّهَ مَعَهُ إِلَيْهَا، فَقَدَّمَ أَبُو الْفَضْلِ الْمَذْكُورُ^(١) مِنْ سَبْتَةِ مَعَ جَمَاعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الرُّمَّةِ وَالرَّجَالِ عَلَيْهَا، فَاسْتَوْطَنَ مَدَّةً قَصَبَتِهَا ثُمَّ تَرَكَ فِيهَا ابْنَ الْأَمِينِ الْمَذْكُورَ عِوَضًا مِنْهُ وَنَائِبًا فِيهَا عَنْهُ، بِخِلَالِ مَا يُغْرَمُ بَعْضُ الْقِبَائِلِ الْعُمَارِيَةِ وَيَجْتَمِعُ بِالْفَقِيهِ بِسَبْتَةِ وَيَقْضِي أَشْغَالًا فِيهَا، وَيَعُودُ إِلَى طَنْجَةَ بَعْدَمَا يُخْلَصُ أَشْغَالُهُ كُلُّهَا وَيَسْتَوْفِيهَا، فَلَمَّا طَالَتْ غَيْبَةُ أَبِي الْفَضْلِ الْمَذْكُورِ عَنْهَا وَاسْتَأْنَسَ أَهْلُهَا بِابْنِ الْأَمِينِ الْمَذْكُورِ، وَقَدْ كَانَ بِسَبْتَةِ مُقَدَّمًا عَلَى جَمَاعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الرُّجَالِ، فَكَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ قَوْلِهِ وَيَرْجِعُونَ لِفَعْلِهِ، فَدَبَّرَ مَعَهُمْ أَنْ يَقَوْمَ بِطَنْجَةَ، فَوَافَقُوهُ عَلَى ذَلِكَ وَرَافَقُوهُ، فَقَامَ فِيهَا وَضَبَطَهَا لِنَفْسِهِ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ أَوْلَادُ الْأَمِيرِ أَبِي يَحْيَى وَأَدْخَلُوهُ فِي رَمْسِهِ فَقَتَلَهُمْ رَجَالُهُ مَعَ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ أَجْمَعِينَ عَلَى مَا يَأْتِي.

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ: بَعَثَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ الْمُرْتَضَى عَسْكَرًا مِنَ الْأَجْنَادِ وَالْمُوَحِّدِينَ قُدِّمَ عَلَيْهِ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَصْنَجٍ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى بِلَادِ الشُّوسِ لِيَنْظُرَ فِي مَصَالِحِهَا وَحَسْمِ عِلَلِهَا الطَّارِئَةِ عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْفُسَادِ وَالْخِلَافِ وَالْعِنَادِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا اسْتَوْطَنَ بَتَارُودَانَ مِنْهَا، وَكَانَ الْقَائِمُ بِتِلْكَ الْبِلَادِ عَلِيُّ بْنُ يَدَّرٍ قَدْ تَحَصَّنَ بَتِينُونِينَ مَعَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمَفْسِدِينَ وَالْمُعْتَدِينَ مِنَ الْعَرَبِ

(١) سقطت من ق، ك، ب.

وغيرهم، مدبرين في حالهم وأمرهم، فخرج إليه بالعسكر أصناج فقابله علي بن يدر وقاتله وقتل من الأجناد جملة كبيرة، وعاد ابن أصناج إلى مراكش وقد نقص من عسكره ناس كثير، وبقي ابن يدر في سويسه، بشديد بأسه فيه ودرويسه^(١).

وفي هذه السنة: ولى الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر ولاية عهده لأبي عبد الله ولده، وكان يسمى بالفقيه، وكان التقديم قبله لأخيه إلى أن توفي كما تقدم ذكره. وفي هذه السنة: استولى الأمير المعظم أبو يحيى بن عبد الحق على مدينة سجلماسة ودخلها وقبض على واليها حسبما يأتي ذكره مختصراً، وذلك أن والي سجلماسة في هذه السنة كان الشيخ أبا محمد عبد الحق الجفيسي، وكان رجلاً مقعداً، لكنه يركب على الدابة وينزل عنها برجال مستبدين لذلك وعبيد، وكان قدمه عليها المرتضى وأسند له أمرها وأمر درعة وغيرها، فاستوطن قصبتها مع من كان معه فيها من الخيل والرماة والرجال، فنظر بنظره وأمر بأمره في جميع الأشغال والأعمال، غير أنه كان يصرف المقال ويتصرف بالانتقال إن كان بالاستعجال فينقل على ظهور الرجال، وإن كان على مهل واستمهال فعلى الخيل والبغال.

وكان السبب في دخول الأمير أبي يحيى إليها واستيلائه في هذه السنة عليها رجل يقال له: محمد القطراني، كان أبوه شخصاً خيراً نائياً يبيع في زمن شببته وكهولته القطران، لكنه كان أبوه يعرف مقداره، ليس كابنه هذا الذي عدا طوره وطلب الثيارة، وكانت له نفس خبيثة غدارة، وذلك أنه كان عند ابن زجو^(٢) مقرباً من بين رجاله يصرّفه في أشغاله، ويفيض عليه من إحسانه ونواله، فصار أكبر خدامه ورجاله، فعرف أشياخ عرب المعقل وغيرهم، وأدخل نفسه معهم في جميع حالهم وأمرهم، وجعل مخدومه ابن زجو إذا وصلوا إليه يقبل عليهم، ويعطي العطاء الجزل إليهم، ويكرمهم بغاية إكرامه، وجزيل إحسانه لهم وإنعامه، حتى مالوا بكليتهم إليه، ونالوا الخير عند مخدومه

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩.

(٢) جاء رسم هذه الكلمة في ق، ك، ب: «زكوا»، وهي في أصلها كاف أعجمية، فتكتب بالجيم المصرية والكاف.

باعتمادهم عليه، فكانت أمورهم وأحوالهم تنقضي كلها على يديه، إلى أن حدث نفسه بالثيابة وبطلب الإمارة، فلم يتأت له ذلك إلا بالحيل والإدارة^(١).

فخاطب إلى الأمير المعظم أبي يحيى ابن عبد الحق، وفي طي مخاطبته إياه غير الحق، الذي هو محض الباطل، بتزيين الفجور والبواطل، لكن الأمير المذكور لما وصل خطابه إليه أخذ بالحزم والعزم، فكان جوابه قدومه بالعسكر إليه، بعدما قدم جملة من بني مَرين إليهم، كأثمهم إلى ابن زجو أرسالاً، فأدخلهم القطرائي عليه إعظاماً وإجلالاً، وكان معه حينئذ جملة خيلاً ورجالاً، فما استقرّ قرارهم مع ابن زجو المذكور، وتكلموا معه في بعض الأمور، إلّا والأمير أبو يحيى قد وصل إلى سجلماسة، فقبض القطرائي على ابن زجو مع من كان معه من ناسه، وأخرجه على باب الغدر إلى الأمير أبي يحيى، بعثه القطرائي إليه، وبقي بالقصة واجتمع جميع من كان فيها عليه، فلما وصل ابن زجو للأمير أبي يحيى ومثل بين يديه، بقي متعجباً من حاله وبطلانه، ومن حال القطرائي الغدار وخذلانه، فقال في جملة كلامه لفرسانه ورجاله: كيف يتولّى أمر البلاد والعباد عجوزةً مبطولة، تُرفع وتوضع على الأعناق منقولة؟

وكان القطرائي لما عزم على الغدر والمكر، عاهد الأمير أبا يحيى أن يتركه بسجلماسة والياً من قبله للنهي فيها والأمر، فوق له بالعهد وأنجز له في الوعد، وجعل معه شخصاً من بني مَرين يسكن في القصة مع جملة من الرجال والفرسان، لكن القطرائي أكثر منه^(٢) جملةً وعُصبة، وأمر الأمير أبو يحيى للقطرائي كما كان الوفاق معه أن يدفع له المال المختزن بالقصة، فدفعه له، واستصفى حال ابن زجو وماله. وتلوم الأمير أبو يحيى هنالك أياماً، وعاد إلى حضرة فاس بعدما ارتبط مع القطرائي المذكور، واشترط عليه بعض الأمور، وجعل معه ثقته يشاركه في التدبير، والقليل من أمره والكثير.

ولما وصل الأمير أبو يحيى إلى حضرته حبس ابن زجو في مال كان قاطعه به على نفسه خيفة أن يدخله في رُمسه، فبعث إلى أهله وأولاده وعياله لينظروا منه وليعرفوا للمرتضى بذلك وبأمره وحاله، فبلغه خبره وأمره وما كان فعل القطرائي وغيره، فاغتاظ

(١) يعني: الإدارة.

(٢) في ق، ك، ب: «منهم».

على ابن زجو وولده، ونسبه للتفريط حتى أخذ البلد من يده، فانحرف غاية الانحراف على هذا الأمر، وأقسم أنه لا يقديه من ذلك الأسر، إلا أن يقدي نفسه من ماله، فكتب ابن زجو إلى أهله وعياله، ليدبروا في أمره وحاله، فبعثوا إليه بعض ما كان عليه وأعطى حفيده رهينة في الباقي، وخرج من السجن يدبر فيه، وخلص ما كان بقي عليه، ووصل حفيده إليه^(١).

اختصار الخبر بقيام القطراني بسجله بالدعوة المرينية

ثم نكثه عليها وقيامه فيها لنفسه بالدعوة الموحدية

بعد خروجه عنها ونبذ من أحواله إلى أن مكن الله منه

وذلك أنه لما قام فيها بالدعوة المرينية كما تقدم ذكره، وخاطب الأمير أبي يحيى معلماً له بحاله وأنه يدخل في حزبه وطاعته، وغدر ابن زجو وأخرجته من القصة إليه، فاجتمع من كان بها من الأجناد والعرب عليه، وأسكن معه الأمير أبو يحيى في القصة من يشاركه في الأمور المخزنية، فقد كان الأمير المذكور تركه على حاله ناظراً في أشغاله مع خدامه ورجاله وجعل معه قائداً من أعيان بني مرين مع رجاله أيضاً وخدامه، والقطراني المذكور يتصرف في الأمور بين يديه ويعرف بجميعها إليه، حتى لا يخفى منها شيء عليه، واستمر ذلك الحال بقية هذه السنة المؤرخة، إلى أن اشتهر أمره وكبرت دائرته ومرحلته، وكثرت خياله وجملته، وبلغه الخبر في أثناء ذلك بوفاة الأمير أبي يحيى في السنة الآتية على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

فقام القطراني فيها بأمره ثائراً، وزحف القائد المريني مع من كان معه من خيل ورجال إليه غادراً يريد فيما زعم أن يقتله، فخلصه الله منه، وخرج من القصة برجاله وحياله وولده وأهله وانصرف إلى الحضرة العلية الفاسية، فوجد التنارع وقع بها بعد موت الأمير أبي يحيى بين ابنه وأخيه، وهو الذي جسّر القطراني على القيام بسجله حين وجد فترة لتراخيه، فطلب لنفسه الاستبداد، واستبد برأيه أي استبداد^(٢)، فوجد

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٩-٣٥٠.

(٢) عبارة ق، ك، ب: «واستعد برأيه أي استعداد».

الأجناد ووصلته من العرب الأمداد، وجاهر على أمراء الدولتين: الموحّدية والمريّنية بالخلاف والعناد، وخاطب للمرتضى معتذراً عن حاله في ابتداء أمره حين دخول بني مريّين إلى سجلماسة وحال ابن زجو معهم وغيره، وأنه قائم فيها بدعوته وداخل^(١) تحت طاعته، غير أنه اشترط عليه الاستبداد فيها، وأن يكون عاملها وواليها، فوصله من المرتضى خطابه الكريم، يقتضي البر والتكريم، وقدمه على تلك البلاد أعظم التقديم، وقدم له ذلك مقدمات يتعلّل بها، ويُجعل في الشّرك بسببها، وكان قد طلب له في جملة مطالبه أن يبعث له قاضياً من عنده، وأن يعينه بجمع كبير من جنده، فبعث إليه الفقيه أبا عمرو بن حجاج قاضياً، وكان في أمره حازماً ماضياً، وبعث سيّداً يسكن في القصبه من غير استبداد، وقائداً من النّصارى مع جملة وافرة من الأجناد، وأوصى المرتضى للقاضي المذكور ولقائد الروم مُشافهةً لأمر يكون عليه محفوظاً ومكتوماً.

فلما وصل العسكر إليها، أدخل القطرانيّ القاضي وأجناد النّصارى إليه، وصرف السيّد ومن كان معه من الموحّدين والمتجنّدين وامتنع لهم أن يدخلوا عليه، فانصرفوا جميعاً عنه، وقيل: إنهم تلوّموا في تلك الجهات إلى أن أمكن الله منه، وذلك أنه لما استقرّ القاضي الفقيه أبو عمرو بن حجاج بسجلماسة وحكم بين الناس بالشّرع، وكان فاضلاً بالطّبع، استمال محبة الناس كلّهم إليه، وأحال القطرانيّ في الأمور كلّها عليه، وتقرّب الروميّ للقطرانيّ المذكور، وتهايأ للقاضي ما رآه مع قائد الروم، وكان الروميّ المخزيّ من طبعه محاولاً للأموال مبرّماً، فدبر وجه الحيلة في قتل القطرانيّ، فصار يدخل إليه من غير مشورة عليه، إلى أن ظفّر به في بعض الأيام وقتله، وركب في جماعته ليورّي للناس^(٢) زعامته وشهامته فيما فعله، فقامت هوشة في البلد وقُبض على والد القطرانيّ فطلب العفو من القاضي، وقال: هو ليس لي بولّد، وذكر عنه ما كان له منه من العصيان، وما كان فيه من الجهل والطغيان، وأبان القاضي المذكور للناس ما خفي عنهم من تلك الأمور، وأن ما قتل الروميّ القطرانيّ إلاّ بأمر أمير المؤمنين المرتضى عقاباً على ما فعل من جميع فعله، وهو الذي أوجب أمره للقائد بقتله.

(١) في ق، ك، ب: «ودخل».

(٢) في ق، ك، ب: «الناس».

وركب القاضي في البلد مسدداً ومصرفاً، ورُفع رأس القطراني على رُمح فنودي عليه: هذا جزاء الغادر، متطوفاً أسواق البلد، وبقي أبوه خائفاً مرتقباً أن يقتل معه، فأمن الفقيه القاضي أبو عمرو روعه، وكتب إلى المرتضى يُعرفه ببراءة ساحته مما جناه ابنه، فعند وصوله إلى مراكش أمر بسجنه وعلق رأس ابنه على السور، واستقامت بسجلهاسة الأمور، وعاد الفقيه أبو عمرو بعد ذلك إلى مراكش فقدمه المرتضى على جميع أشغالها، فقام خير قيام بأحوالها، وكتب المرتضى بخبر القطراني إلى الفقيه أبي القاسم العزقي^(١).

وفي سنة ست وخمسين وست مئة: كانت وفاة الأمير المعظم أبي يحيى ابن عبد الحق رحمه الله، فكانت دولته من حين استيلائه على رباط تازي نحو عشرة أعوام، وكان قبل دخوله إليها واستيلائه عليها أميراً على القبائل المرينية وغيرها وقائماً بأمرها وحالها نحو أربعة أعوام، وذلك من حين وفاة أخيه الأمير أبي عبد الله محمد بن عبد الحق رحمه الله في سنة اثنتين وأربعين، وكانت أيضاً إمارته نحواً من ستة أعوام.

وأخبرني من أثق به عن وفاة هذا الأمير أبي يحيى وسببه أن أحد الصلحاء نفع الله بهم عَض بيده على إصبعه حين دله على ما ينفعه، فما قام من موضعه إلا وقد تألم إصبعه، فخرجت فيه حبة صغيرة، فما زالت تزيد وتكبر من حين أوصاه الصالح بوصيته، إلى أن قضى الله في هذه السنة بمنيته، وقيل: إن ذلك الرجل الصالح هو الحاج التاهرتي، حين اجتمع معه بسجلهاسة، وقيل غيره والله أعلم بحقيقة أمره.

وكان الأمير أبو يحيى رحمه الله فارساً شجاعاً لم يكن في زناته أشجع منه، وبذلك كان يزيد على يغمراسن بن زيان.

ولما توفي هذا الأمير أبو يحيى قام من بعده ولده الأكبر أبو علي عمر فبايعه بعض القبائل المرينية وتأخر عنه آخرون من وجوه أشياخ بني مرين، واتفقوا على تقديم عمه الأمير الأعلى أبي يوسف، وقالوا: هذا أحق بالتقديم، والتوقير له والتعظيم، لِمَا عَلِمُوا مِنْ دِينِهِ وَصَلَاحِهِ وَتُقَاهُ فِي الْحَدِيثِ وَالْقَدِيمِ، فَوَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ أَخِيهِ مُنَازَعَةٌ بَلْ مِقَارَعَةٌ عَلَى مَدِينَةِ فَاسَ إِلَى أَنْ اسْتَوْطَنَ الْأَمِيرُ أَبُو يَوْسُفَ رِبَاطَ تَازَى مَعَ نَاسِهِ

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩-٣٥٠، والاستقصا ٢/ ٢٥٥.

وأهله، فكان بنو مَرِين يَسِيرُونَ إليه يومًا بعدَ يومٍ وَيَقْدُونَ عليه قومًا بعدَ قومٍ، إلى أنِ اسْتَوْفَى عليه أَكْثَرُهُمْ فَقَصَدَ بِهِمْ إلى مدينةِ فَاسَ ودَخَلَهَا، وَخَرَجَ أَبُو عَلِيٍّ عُمَرُ إلى مَكْنَسَةِ، فَتَحَصَّنَ بِهَا أَشْهَرًا، وَكَانَ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي أَوْلَادِ بَنِي عَبْدِ الْحَقِّ كَبِيرًا عِنْدَهُمْ، فَمَا يَزَالُ يَحَاوِلُ أَمْرَ الْأَمِيرِ أَبِي عَلِيٍّ الْمَذْكُورِ، إلى أنِ انْقَادَ لِعَمِّهِ أَبِي يَوْسُفَ وَسَلَّمْ لَهُ فِي الْأُمُورِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ وَصَلَ مَعَهُ إِلَيْهِ حَتَّى بَايَعَهُ وَاجْتَمَعَتْ كَلِمَةُ بَنِي مَرِينَ عَلَيْهِ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ قَدَّرَ اللَّهُ بِمَوْتِهِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْمَوْرُخَةِ، وَقِيلَ: فِي أَوَائِلِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتْ مِائَةٍ^(١).

رَجَعَ الْخَبَرُ:

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَهِيَ سَنَةُ سِتٍّ وَخَمْسِينَ: بُويعَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرُ الدِّينِ أَبُو يَوْسُفَ يَعْقُوبُ^(٢) بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ وَصَلَ اللَّهُ أَيَّامَهُمْ وَنَصَرَ أَعْلَامَهُمْ.

فَكَانَتْ بَيْعَتُهُ أَوَّلًا بِرِبَاطِ تَارِىِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَطَاعَتْ لَهُ أَكْثَرُ الْبِلَادِ الْغَرِبِيَّةِ وَانْقَادَتْ لِحُكْمِهِ جَمِيعُ الْمَرِينِيَّةِ، فَاسْتَوَزَرَ مِنْهُمْ شَيْخَ بَنِي عَلِيٍّ أَبَا زَكَرِيَّا بْنَ حَازِمٍ وَشَيْخَ بَنِي عَسْكَرٍ أَبَا زَكَرِيَّا بْنَ أَبِي مَنْدِيلٍ، وَهُمَا أَوَّلُ وُزَرَاءِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ وَكُبَرَاءِهَا، وَكَبَّرَ مِنْهُمْ شَيْخُ كُلِّ قَبِيلٍ وَكَرَّمَهُ وَعَظَّمَهُ، فَكُلُّ بَدَلٍ جَدَّهُ وَجُهِدَهُ حِينَ قَرَبَهُ وَأَكْرَمَهُ وَعَظَّمَهُ.

وَاسْتَكْتَبَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنَ الْقَرَّاقِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ، ثُمَّ اسْتَكْتَبَ بَعْدَ ذَلِكَ جُمْلَةً مِنَ الْكُتَّابِ وَاسْتَوَزَرَ جُمْلَةً مِنَ الْوُزَرَاءِ، وَكَذَلِكَ أَوْلَاؤُهُ الْأُمَرَاءُ الْكُبَرَاءُ.

وَكَانَ اسْتِيلَاؤُهُ عَلَى الْحَضْرَةِ الْمَرَّاكِشِيَّةِ عَاشَرَ مُحَرَّمٍ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِينَ وَسِتْ مِائَةٍ، فَعَظُمَتْ مَمْلَكَتُهُ فِي الْبِلَادِ الْغَرِبِيَّةِ وَضَخُمَتْ دَوْلَتُهُ السَّعِيدَةُ الْمَرِينِيَّةُ، إِلَى أَنْ تَوَفَّى بِالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ وَهُوَ عَلَى قَدَمِ الْجِهَادِ بِالْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَسِتْ مِائَةٍ، فَكَانَتْ مَدَّةُ دَوْلَتِهِ ثَمَانِيًا وَعِشْرِينَ سَنَةً^(٣).

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتْ مِائَةٍ: رَحَلَ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ مِنْ بِلَادِ عَمِّهِ أَبِي يَوْسُفَ إِلَى جِهَةِ تَامَسُنَا بِرَسْمِ الْإِسْطِطَانِ بِهَا وَالشُّكْنَى، وَبَرَسَمَ الْمَرْعَى

(١) يَنْظُرُ تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٧/ ٢٣٤، وَالْإِسْتِقْصَا ٣/ ١٩.

(٢) بَقِيَ إِلَى سَنَةِ ٦٨٥ حَيْثُ تَوَفَّى الْمَحْرَمُ مِنْهَا (تَارِيخُ الْإِسْلَامِ ١٥/ ٥٦٣).

(٣) يَنْظُرُ تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ ٧/ ٢٣٤-٢٣٥.

والكَلَا، وقد أَضْمَرَ التَّغْلِبَ على سَلَا، فعَبَر الواديَ من مجازِ الرِّمَان، وذلك في إقبالِ الرِّمَان، واجْتَمَعَ عليه جُمْلَةٌ كَبِيرَةٌ من رِجَالِهِ وَخُدَّامِهِ، وَبَعْضٌ من بني أَعِمَامِهِ أَوْلَادُ بني عبدِ الحَقِّ أَعَزَّهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي عَلِيٍّ عُمَرُ بْنُ عَمَّةِ أَبِي يُحْيَى رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، فَنَزَلَ بِمَقْرُبَةٍ من غُبُولَةِ بَدْوَارِهِ، وَمَا زَالَ يُحَاوِلُ هُنَاكَ مَا أَضْمَرَهُ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَكَيْفَ يَكُونُ دُخُولُهُ إِلَى رِبَاطِ الْفَتْحِ مِنْ حِينَ نَزُولِهِ هُنَاكَ وَاسْتِقْرَارِهِ، إِلَى أَنْ دَخَلَ إِلَيْهَا وَاسْتَوَلَى بِكَيْدٍ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّ وَالِيَهَا السَّاكِنَ بِقَصْبَةِ رِبَاطِ الْفَتْحِ، هُوَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي يَعْلى الكُومِيّ، كَانَ قَدَّمَهُ عَلَى وَلايَتِهَا وَجَبَايَتِهَا الْمُرْتَضَى، وَأَمَرَهُ بِالْحَفْزِ عَلَيْهَا مِنْ طَارِقٍ يَطْرُقُ أَهْلَهَا، أَوْ حَادِثٍ يَحْدُثُ فِيهَا مِنْ أَهْلِهَا، خَوْفًا مِنْ أَنْ يُخَاطَبُوا الْأَمِيرَ أَبَا يُوسُفَ وَيَدْخُلُهَا، فَحَفَزَهَا غَايَةَ الْحَفْزِ، بِالسُّمَارِ فِي الْأَسْوَارِ وَبِمَا أَمَكَّنَهُ مِنَ الْحِرْزِ، وَعَمِلَ الْمَعَارِضَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعُدُوَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ وَجَعَلَ الرُّمَّةَ وَالرَّجَالَ يُحْرَسُونَهَا، وَلَا سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ يَفَارِقُونَهَا، فَمَا أَفَادَهُمْ حَفْزُهُمْ فِي نَهَارِهِمْ، وَلَا حِرْزُهُمْ لَيْلًا بِسُمَارِهِمْ.

ذَكَرُ فَتْحُ ^(١) رِبَاطِ الْفَتْحِ لِيَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ اللهِ

وَذَلِكَ لَمَّا أَرَادَ اللهُ بَفَتْحِ رِبَاطِ الْفَتْحِ وَعُدُوَّتِهَا سَلَا، بَعْدَمَا ضَبَطَهَا وَرَبَطَهَا ابْنُ أَبِي يَعْلى، أَرَادَ اللهُ بِتَعْجِيزِهِ وَضَعْفِهِ، فَطَرَفَهَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي، فِي جُمْلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْخَيْلِ وَالرَّجَالِ، فَقَصَّدَ إِلَى بَابِ سَلَا مَعَ مَنْ كَانَ مَعَهُ خَيْلًا وَرَجُلًا، فَقَصَّدَ بَعْضُ رِجَالِهِ عَلَى سَلَالِمَ اسْتَعْمَلُوهَا إِلَى السُّورِ فَمَلَكُوهُ، وَقَصَّدُوا إِلَى بُرْجِ الْبَابِ فَمَنْ وَجَدُوا فِيهِ أَهْلَكَوهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَمِنْهُمْ مَنْ رَمَى بِنَفْسِهِ فِي الْأَرْضِ مِنَ السُّورِ، فَاثْكَسَرُوا أَوْ هَلَكُوا فَكَانُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَمَكْسُورٍ، فَمَلَكَ رِجَالُ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَابَ الْمَذْكُورَ، فَكَسَرُوا أَقْفَالَهُ، وَدَخَلَ فِيهِ خَيْلُهُ وَرِجَالُهُ، فَصَعِدُوا عَلَى أَعْلَاهُ وَرَفَعُوا الْعَلَامَ، وَقَامَ الضَّجِيجُ فِي الْبَلَدِ، وَضَجَّتِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ إِلَى الْبَابِ فَوَجَدُوا الْعَلَامَ عَلَيْهِ، فَارْتَفَعَ الْإِشْكَالُ وَانْقَطَعَ الْكَلَامُ، وَعَادَ كُلُّ مَنْ وَصَلَ إِلَى مَوْضِعِهِ يَبْغِي النِّجَاةَ بِرَأْسِهِ وَالِاسْتِسْلَامَ، لِثَلَا يَصَلَ الْخَيْلُ إِلَيْهِمْ حِينَ يَدْخُلُونَ

(١) سقطت من ق، ك، ب.

البلد عليهم، فقد كانوا كَسَرُوا أَقْفَالَ البلد البراني وبقي الدَّخْلَانِيُّ يحاولون كَسْرَهُ أو حَلَّهُ، ففَرَّ النَّاسُ من هنالك حين رَأَوْا ذلك راجعين إلى ديارهم، واقتَحَمَ أَكْثَرُهُم الجَوَارَ إلى العُدوة الأخرى مواضع قرارهم، وتركوا سلاحهم وأثوابهم وعبروا الوادي بالعوَم، فَأَخَذَتْ أسلابهم، ودخل رجال أبي عبد الرحمن يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق وغيرهم في إثرهم، فسلبوا ونهبوا في ليلهم ذلك ونهارهم، ثم أمر الأمير المذكور بالكف عن الناس وعن أضرارهم، فتهذنت الأحوال والأمور، وخرج ابن أبي يعلى في جفن صغير من القَصْبة إلى أزمُور، ومَلَكَ يعقوب بن عبد الله مدينتي سَلا، وضَبَطَهَا لنفسه مضاهياً لعمه، وحدثته نفسه أموراً عنه غائبة، وأحوالاً كلها كاذبة خائبة على ما أصفه إن شاء الله تعالى.

وفي سنة ثمان وخمسين وست مئة: أراد يعقوب بن عبد الله أن يقوم على عمه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ويُخَالَفَ في سَلا عليه، وطَمِعَ أن يصير مُلْكُهُ فيما رَزَمَ^(١) إليه، فهدن أهل سَلا وأبدى لهم اعتقاده فيهم ووداده، ونفاقه على عمه وعِنَادَهُ، وضمَّ عليه عسكرياً من بني مَرِين وغيرهم من أجناده، وكتب إلى ملك قُشْتَالَةَ أن يبعث له بمئتين من الروم، يركبون ويسرون معه ويستعين بهم فيما يروم، ثم إنه اتهم أشياخ سَلا أنهم خاطبوا إلى عمه وكتبوه فخاف أنهم يُبايعون له ويقومون عليه، فطلبهم في المِيز فجازوا إليه إلى رباط الفتح فميزهم وأخذ سلاحهم منهم وجوزهم، وعادوا إلى عدوتهم دون شيء من السلاح، وكان تدييراً خالياً من السداد والصلاح، مع قضاء الله تعالى وقدره.

اختصار الخبر عن كائنة مدينة سَلا

الذي كُلُّ قلبٍ عن همِّها ما تسلى ولا سَلا^(٢)

وذلك لما بعث يعقوب بن عبد الله للنصارى أهلكتهم الله أن يصلوا إليه برسم أن يكونوا أجناده، كان منتظراً إليهم ومعتمداً عليهم لينال بهم مقصوده ومراده، ولما وصل إلى ملك قُشْتَالَةَ أهلكتهم الله كتاب يعقوب بن عبد الله أدركه الطمع في دخول

(١) قوله: «فيما رزم» سقط من ق، ك، ب.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٥-٢٣٦، والاستقصا ٣/ ٢١.

كَفَرَتْهُ إِلَيْهَا وَاسْتَيْلَئَهُمْ عَلَيْهَا، فَاشْتَغَلَ بِتَعْمِيرِ الْأَجْفَانِ فِي وَادِي إِشْبِيلِيَّةَ، وَلَا عِلْمَ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا مِنَ الْكَافِرِينَ إِلَى حَيْثُ يَتَوَجَّهُونَ مِنَ الْبُلْدَانِ، فَكَتَبَ الْفَقِيهُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْعَزْفِيُّ^(١) مِنْ سَبْتَةِ يَعْرِفُ بِخَبَرِ تِلْكَ الْعِمَارَةِ إِلَى كُلِّ جِهَةٍ مِنَ الْمَرَّاسِي وَمَكَانٍ، وَيُحَدِّثُ مِنْ غَدَرِهِمْ وَمَكْرِهِمْ كُلِّ إِنْسَانٍ، فَمَنْ قَدَّرَ ذَلِكَ وَظَهَرَتْ لَهُ الدَّلَائِلُ مِنْ أَهْلِ سَلَا وَالْقَبَائِلِ، خَرَجَ مِنْهَا قَبْلَ الْكَائِنَةِ بِأَيَّامِ قَلَائِلٍ، وَهُمْ قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ بِالْخُرُوجِ وَلَا صَدَقَ الْحَالِ، وَظَنَّ أَنَّهُ عَيْنُ الْمُحَالِ، قُتِلَ أَوْ أُسِرَ لِأَمْرِ قُدِرَ لَيْسَ لِأَحَدٍ عَنْهُ مَحِيدٌ وَلَا انْتِقَالٌ.

فَلَمَّا كَانَ فِي آخِرِ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمَعْظَمِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ ظَهَرَتْ فِي الْبَحْرِ قُرْقُورَةٌ بَعْدَ قُرْقُورَةٍ^(٢)، فَظَنَّ أَهْلُ سَلَا أَنَّهُمْ تُجَّارٌ، إِلَى أَنْ وَصَلُوا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ مِرَارًا، وَاجْتَمَعَتْ مِنْ

(١) هَكَذَا فِي النِّسْخِ كَافَّةً، وَقَالَ نَاشِرُو (م): «بَلْ أَبُو الْقَاسِمِ - كَمَا يَأْتِي - أَمَّا أَبُو الْعَبَّاسِ فَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ مَنْصُورُ بْنُ خَمِيسٍ الْأَنْمَرِي (كَذَا) مِنْ رِجَالِ الْقُرْنِ السَّادِسِ، وَهُوَ مِنْ شَيْوْخِ ابْنِ الْأَبَّارِ، وَيَسْتَبَعِدُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدْرَكَ هَذَا الْحَادِثَ، وَهُوَ صَاحِبُ «الدَّرِّ الْمُنْظَمِ».

قُلْنَا: هَكَذَا قَالُوا، وَفِي هَذَا الْقَوْلِ جُمْلَةٌ أَخْطَاءٌ، أَوَّلُهَا: أَنَّ مَنْصُورَ بْنَ خَمِيسٍ لَا يُعْرَفُ بِالْأَنْمَرِي، بَلْ هُوَ لَحْمِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْمَرِيَةِ، قَالَ ابْنُ الْأَبَّارِ فِي تَرْجُمَتِهِ: «مَنْصُورُ بْنُ خَمِيسَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ اللَّخْمِيِّ، مِنْ أَهْلِ الْمَرِيَةِ، يَكْنَى أَبُو الْقَاسِمِ وَأَبَا عَلِيٍّ، وَأَبُوهُ خَمِيسٌ يَكْنَى أَبُو جَمْعَةَ».

وِثَانِيهَا: أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَيْوْخِ ابْنِ الْأَبَّارِ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَصَرَّحَ ابْنُ الْأَبَّارِ فِي تَرْجُمَتِهِ بِذَلِكَ.

وِثَالِثُهَا وَهُوَ الْأَهَمُّ: أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا قَلْبُ الْأَمْرِ، فَجَعَلَ الشَّيْخُ تَلْمِيزًا وَالتَّلْمِيزُ شَيْخًا، فَأَبُو الْعَبَّاسِ الْعَزْفِيُّ هُوَ الَّذِي حَدَّثَ عَنْ مَنْصُورِ بْنِ خَمِيسٍ لَا الْعَكْسَ، قَالَ ابْنُ الْأَبَّارِ فِي تَرْجُمَةِ مَنْصُورِ الْمَذْكُورِ: «وَرَحَلَ حَاجًّا، فَتَزَلَّ الْإِسْكَانْدَرِيَّةُ، وَسَمِعَ مِنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَطِيَّةِ الدَّانِي سَنَةَ سِتٍّ وَتَسْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ. وَحَدَّثَ عَنْهُ فِي الْإِجَازَةِ أَبُو الْعَبَّاسِ الْعَزْفِيُّ وَغَيْرُهُ» (التَّكْمِلَةُ ٢/ التَّرْجُمَةُ ١٨٣٤ بِتَحْقِيقِنَا).

وَهَذَا النَّصُّ يَشِيرُ إِلَى أَنَّ مَنْصُورَ الْمَذْكُورَ تَوَفَّى بَعْدَ سَنَةِ ٥٩٦ هـ، وَعَادَةً مَا يُجِيزُ فِي أَوَاخِرِ عَمْرِهِ، فَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ مِنْ حَدَّثَ عَنْهُ فِي الْإِجَازَةِ قَدْ عَاشَ إِلَى نِهَايَةِ النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَبَعْدَهَا لِأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ يَكُونُ فِي سِنِّ الْكَهُولَةِ أَوْ الشَّيْخُوخَةِ.

(٢) فِي ق، لُك، ب: «مَرْقُورَةٌ» وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَاهُ، وَالْقُرْقُورَةُ، بوزن عصفورة: السَّفِينَةُ، وَجَمْعُهَا قَرَارِقُ، كَمَا تَرَدَّدَ عِنْدَ الْمُؤَلِّفِ بَعْدَ قَلِيلٍ.

الْقَرَارِ اثْنَتَا عَشْرَةَ وَمَرْكَبَانِ اثْنَانِ وَأَسَاطِيلُ وَشَلَالِيرُ^(١)، إِلَى أَنْ انْتَهَى عَدْدُ الْأَجْفَانِ سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ، وَكُلُّهُمْ مَمْلُوءٌ مِنَ الْكُفْرَةِ النَّصَارَى، فَبَقِيَ النَّاسُ فِي أَمْرِهِمْ حَيَارَى.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ثَانِي عِيدِ الْفِطْرِ أَظْهَرَ الْعَدُوُّ مَا أَضْمَرَ مِنَ الْغَدْرِ، فَدَخَلَتْ الْأَجْفَانُ الْغَزْوَانِيَّاتُ إِلَى الْوَادِي، بَعْدَمَا امْتَلَأَتْ بِالرُّمَاهُ وَالْبُعَاةِ الْأَعَادِي، وَكَانَتْ نَاحِيَةُ الْوَادِي لَيْسَ لَهَا سُورٌ، وَلَا يَتَأْتَّى لِأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مُحْصُورًا، فَهَبَطَ الْكُفْرَةُ مِنْ أَجْفَانِهِم وَالْمُسْلِمُونَ يُعَانِيهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَأَجْفَانِهِمْ، حَتَّى صَفَّقُوا صُفُوفَهُمْ، وَجَمَّعُوا جُوعَهُمْ، وَكُلُّهُمْ مَدَّرِعُونَ بِدُرُوعِهِمْ، وَالْمُسْلِمُونَ مُجْتَمِعُونَ غَيْرُ مُسَلَّحِينَ وَلَا مَدَّرِعِينَ، مُسْتَبْسِلِينَ لِلْقَضَاءِ وَقُوفًا صُفُوفًا صُفُوفًا، وَالنَّصَارَى يَزْحَفُونَ لَهُمْ وَجُوعُهُمْ مَرْتَبَةً وَصُفُوفُهُمْ، وَقَدَّمُوا أَمَامَهُمْ رُمَاتِهِمْ وَطُغَاتِهِمْ مُسْتَعِدِّينَ لِلْقِتَالِ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ مِنَ السَّلَاحِ وَلَا مِنَ النَّبَالِ، لَكِنْ بَعْضُ أَقْوَامٍ اغْتَنَمُوا الشَّهَادَةَ فَمَاتَ مِنْهُمْ أَعْدَادٌ، وَآخَرُونَ قَاتَلُوا بِالْقَصَبِ الْمُسْتَجَوْدَةِ، وَكَانَ بَهَا نَحْوُ عَشْرِينَ فَارِسًا فَقَاتَلُوا حَتَّى قُتِلُوا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَمَا صَبَرُوا صَبْرًا عَظِيمًا، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ تَرَاخَمَتِ الْخِلَائِقُ فِي الْخُرُوجِ عَلَى الْبَابِ، فَخَرَجَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ بِالْجُهْدِ الْعَظِيمِ، وَمَاتَ فِي الزَّحَامِ عَدَدٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَالنَّصَارَى مَعَ ذَلِكَ يَقْتُلُونَ مَنْ وَقَفَ إِلَيْهِمْ حَتَّى دَفَعُوا دَفْعَةً وَاحِدَةً عَلَيْهِمْ وَدَخَلُوا الْبِلَادَ بَعْدَمَا قَتَلُوا خَلْقًا كَثِيرًا، وَكَانَ مَوْقِفًا جَسِيًّا وَأَمْرًا كَبِيرًا، وَيَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَعْصُ يَدِيهِ عَلَى قَبِيحٍ مَا جَرَى، وَيَشَاهِدُ مَا تَسَبَّبَ فِيهِ فَعَلُهُ وَيَرَى، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَجُوزَ إِلَيْهِمْ، بَلْ يَنْظُرُهُمْ مِنْ قَصَبَتِهِ وَقَدْ حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ مَا قُدِّرَ عَلَيْهِمْ، فَبَقِيَ يَذُوبُ تَلْهُفًا، وَيَعْصُ بَنَانَهُ نَدْمًا وَتَأْسَفًا، حِينَ عَايَنَ مَا عَايَنَهُ مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِي أَحَاطَ بِأَهْلِ سَلَا.

وَلَمَّا دَخَلَ النَّصَارَى إِلَيْهَا، وَاسْتَوَلَوْا بِالْغَدْرِ عَلَيْهَا، قَتَلُوا مَنْ وَجَدُوا مِنَ الرِّجَالِ، وَأَسَرُوا النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ، وَحَصَرُواهُمْ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ مَأْسُورِينَ، وَفِي نَفْسِهِمْ مَقْهُورِينَ، فَكَانُوا يَعْبَثُونَ فِي النِّسَاءِ وَالْأَبْكَارِ، وَيَقْتُلُونَ الشُّيُوخَ وَالْعَجَائِزَ الْكِبَارَ، فَسَفَكُوا الدَّمَاءَ وَهَتَكُوا الْأَسْتَارَ، وَخَرَبُوا الْمَسَاجِدَ وَالْأَدْيَارَ، وَعَمَّرُوا بِالْثَّرَاسِ وَالْقِسِيِّ الْأَسْوَارَ. وَكَتَبَ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْفَقِيهِ أَبِي الْقَاسِمِ الْعَرَفِيِّ حِينَ وَقَعَ هَذَا الْأَمْرُ الْفَطِيحَ

(١) فِي ق، ك، ب: «سَلَالِير»، وَالشَلَالِيرُ مَفْرَدُهَا شَلِيرٌ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الزَّوَارِقِ (دُوزِي: شَلِر).

والتدبيرُ السيِّئُ الشَّنيعُ كتابًا يَشْكُرُهُ فِيهِ عَلَى مَا كَانَ يُحَذِّرُ مِنْ أَمْرِ النَّصَارَى، وَيَسْأَلُهُ أَنْ
يَسْتَشْعِرَ أُمُورَهُمْ لِيَحْذِرَ مِنْهَا اسْتِشْعَارًا.

فصولٌ من الرِّسالة التي وجَّهها المرتضى للفقيه

أبي القاسم العزفيّ حين كائنة مدينة سَلَا

وإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ أَحْمَدَ عَاقِبَةً وَأَجْمَلَهَا وَأَكْنَفَ كَلَاءَةً وَاكْلَأَهَا، وَأَنْ
تَعْلَمُوا أَنَّا نَعْتَدُّ بَوْلَانَكُمْ الْخَالِصَ، وَنَحْفَظُ مَا لَكُمْ وَلَسَلَفَكُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْخِصَائِصِ،
وَنَشْكُرُ نَصَائِحَكُمْ الَّتِي مَا زِلْتُمْ إِيَّاهَا تَبْدُلُونَ، وَخِدْمَتَكُمْ الَّتِي تُؤَالُونَ وَتَصِلُونَ، وَنَسْتَمِدُّ
مِنْكُمْ إِلَى الْعِلْمِ الَّذِي أَنْتُمْ لَهُ مُخْلِصُونَ، وَالِدِّينَ الَّذِي عَنْ سَنَنِهِ الْقَوِيمَ لَا تَعْدِلُونَ، وَاللَّهُ
يَتَوَلَّىكُمْ بِحِفْظِهِ وَصَوْنِهِ، وَيُجْزِلُ حَظَّكُمْ مِنْ إِنْجَادِهِ وَعَوْنِهِ.

وَقَدْ طَرَأَ فِي مَدِينَةِ سَلَا جَبَرَهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَاسْتَنْقَذَهَا مَا قَدْ اتَّصَلَ بِكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ
أَبَدًا مِنْهُ تَحْذَرُونَ، وَبِهِ لِعِلْمِكُمْ بِالْعَدُوِّ الْكَافِرِ تُنْذِرُونَ، وَلَكِنْ لَمْ تَزِدْ الْأَقْدَارُ لِمَنْ فِيهَا
إِلَّا انْهَالًا فِي الْإِضَاعَةِ وَإِذْهَالًا لِمَنْ حَلَّ فِي أَعْمَالِهِ السَّاعَةَ بَعْدَ السَّاعَةِ، حِينَ نَفَذَ
الْمَقْدُورَ، وَوَقَعَ الْمَحْذُورَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الَّذِي تَصِيرُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ
يُجْرِي دِينَهُ الْقَيِّمَ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ مَا عَوَّدَهُ، وَيَجْمَعُ أَيْدِيَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ اتَّخَذَ
إِلَيْهَا غَيْرَهُ وَعَبْدَهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يُكَافِي سَعْيَكُمْ عَلَى مَا عَرَفْتُمْ وَحَذَرْتُمْ لِأَهْلِ السَّوَابِقِ،
وَخَوْفَتُمْ مِنْ فَجْأَةِ الْعَدُوِّ الْمُخَاتَلِ، لِمَا ظَهَرَ مِنْ اسْتِعْدَادِهِ، وَنَبَهْتُمْ فِي ذَلِكَ أَقْصَى
مِبَالِغَةِ بَنِيَّتِكُمُ الصَّالِحَةِ الصَّرِيحَةِ، وَوَفَّيْتُمْ مِنْهُ أَوْجَبَ حَقٍّ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ مِنْ
النَّصِيحَةِ، لَكِنْ يَنْفُذُ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا ثَبَتَ فِي الْكُتُبِ مَسْطُورًا، فَلَمْ يَحْذِرِ التَّحْذِيرَ
مَحْذُورًا، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا، وَثَوَابُكُمْ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِيمَا مِنْ ذَلِكَ تَوَلَّيْتُمْ،
وَقَضَيْتُمْ بِهِ حَقَّ الْإِسْلَامِ وَأَدَيْتُمْ، وَإِنَّا لَنَشْكُرُ لَكُمْ ذَلِكَ، كَمَا رَأَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ مَنَابِكُمْ
وَشَكَرَ إِلَيْهِ انْتِدَابَكُمْ، فَمَا قَصَّرْتُمْ فِي عَمَلٍ سَدِيدٍ، وَلَا تَأَخَّرْتُمْ فِي الْجِدِّ وَالنُّصْحِ عَنْ شَأْنٍ
بَعِيدٍ، فَعَرَفُوا بِكُلِّ مَا تَعَرَّفُونَ مِنْ إِرَادَاتِ الْأَعْدَاءِ بَعْدَ، وَطَالِعُوا مِنْ مَحَاوِلَتِهِمُ الذَّمِيمَةَ مَا
نَتَأَهَّبُ لِدَفْعِهِ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَسْتَعِدُّ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَتَذَارَكُ بِمَعْهُودِ لُطْفِهِ وَمُعْتَادِهِ،
وَيَمُدُّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ بِنَصْرِهِ وَإِنْجَادِهِ، وَيُعِينُكُمْ عَلَى أَفْضَلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ صَوَابِ
الْعَمَلِ وَسَدَادِهِ بِمَنْتِهِ. وَكُتِبَ ثَالِثَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةٍ وَخَمْسِينَ وَسِتْ مِائَةٍ.

ذكر فتح سلا آمنها الله وانتزاعها من أيدي الروم

على يد أمير المسلمين أبي يوسف رحمه الله^(١)

وذلك أنه لما بلغ الأمير المعظم أبا يوسف خبر أهل سلا، واستيلاء النصارى عليها، بادَرَ بعساكره إليها، فحاصر الكفرة فيها أعظم حصار، واجتمع المسلمون عليها من البلاد الغربية^(٢) وما والاها من الأقطار، فكانوا يُقاتلونهم بالليل والنهار، بالنبال والأحجار، ودام القتال مدةً من ثلاثة عشر يومًا من شوال، إلى أن خرج منها الكفار بما حصل في أيديهم من المسلمين الصغار والكبار، وبما ألّفوه في المدينة من الأموال والأسباب والأمتعة ما لا يحصره حاصر ولا يصفه واصف، وذلك شيءٌ نَحَارُ فيه الأفكار والأقوال. وبطول مقامهم في تلك الأيام المذكورة، كان الطغاة الكفرة يُطْلَعُونَ المسلمين لأجفانهم، وما وجدوا بالمدينة من أحوالهم وأموالهم، وحيثُ أَسْرَعُوا للفرار، وتَقَحَّموا لَسَجِّ البحار، ولو أقاموا فيها بعض الأيام لأخذ المسلمون منهم بالثار، واقتحموها بالدخول عليهم وقتلوهما ما بين الجُدُرَات، ولكن الأمور تجري بحكم الأقدار، ولكن هَوْنُ هذا الخطب الذي استنفَرَ الأحلام، وزاد عن الجفون لذيذ المنام، خروج الطاغية منها وعودتها عن قريب للإسلام، فعادت للجفون لذيذ منامها وغمضها، وبعض الأشياء بالجملة أهون من بعضها، وملك الأمير أبو يوسف مدينتي سلا ورباط فتحها، وعود الله سبحانه المسلمين عوائده الجميلة حين فتحها، وكان فتحًا ميسرًا بالإضافة لما كان يتوقَّع من استيطان عبدة الأصنام بين ظهور الإسلام، ولو كان عامًا واحدًا من الأعوام.

وأما جليّة أمرها فإن العدو أهلكه الله لما كان قد نزل بجزيرة قادس كانت الأقوال تختلف في أي موضع يقصده، إلى أن كان من الأمر الفاجع والحدث الصّادع ما تقدّم ذكره وخبره وأمره، وكان في ذلك ما احتسبه الأمير أبو يوسف من مصالح المسلمين شغلًا، واكتنف بحراسة هذا الثغر قولاً منه وفعلًا، فأجمع من أخلاط الناس

(١) الاستقصا ٣/ ٢١، ٢٢.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

وأشتات القبائل المَرِيئَة وغيرها آلفاً من الأعداد يَسْتَنْهَضُهُم للجهادِ بالجدِّ الخالص في ذلك والاجتهاد، إلى أن مَنَّ الله تعالى بهذا الفَتْح للعباد، فُسِّرَ المسلمونَ به في جميع البلاد، وبصْنَع الله الذي لا كفايةَ لهم بِشُكْرِهِ، وأنسوا بعنايته الدافعة في صُدور العدوِّ ونَحْرِهِ، الرّادةِ عليه عاقبة كيدِهِ ومكرِهِ.

وذلك لما رأى العدوُّ أهلكه الله تكاثُرَ المسلمينَ على المدينة المذكورة وتواردَهم عليها مع الساعات وخلال الآناء والأوقات، ولا يَفْتَرُّ لهم ليلاً ونهاراً وروءً وإمام، ولا يَمِضي زمنٌ فردٌ إلا وفئامٌ تتبّعها فئام، أوقعَ الله تعالى الرُّعبَ في قلوبِهِم، وكان طلوعُ عشائر المسلمينَ إذْناً بهروهِم، فأصبحوا يومَ الأربعاء الرابع عشرَ من شوال المذكور وقد طَهَّرَ الله تعالى الأرضَ من إلحادِهِم، وركبوا لُجَّةَ البحرِ على أعوادِهِم، وأمرَ الله الرِّيحَ فلم تُساعدَهُم، فصارتِ الأمواجُ تُسري بهم يميناً وشمالاً، وجنوباً وشمالاً، ولانحفازِهِم إلى الفرار لم يتزوّدوا كثيراً من الماء، ولا قدّروا حُكْمَ قاضي السماء، فطال مقامُهُم في البحر ولا يُسيغونَ جُرعة، ولا يستطيعونَ إلى أهلِيهِم رَجعة، فصاروا يقصدونَ السواحل رجاءً في الظَّفَرِ بِمَنْهَلٍ يُعَلِّلُ غُلْلَهُم وَيُلْغُ نَهْلَهُم وَعَلْلَهُم، فكلّما يَمَمُوا جهةً تلقّاهم المسلمونَ رُجّالاً وفُرساناً يذودونَهُم ذِيادَ البعير الضالِّ، فيرجعونَ وحُرْقَهُم تتوهّج، وغُلْلُهُم تتأجّج، بل إنَّهُم في بعض تلك المواطنِ قصّدا فأقصّدهم الحتفُ والحيف، وتقسّمهم الرُّمْحُ والسِّيف، ففقدوا عدّة رجال، وتركوا دونَ مواردِ الماءِ جُملةَ حُماة وأبطال، ولقد وصلت منهم قُرْقورةٌ إلى جهة العرائش فراموا أخذَ الماءَ فعجزوا عنه، فحاولوا شراءه ببعضٍ من عندهم من الأسرى فأجيبوا إلى ذلك، وأظهر لهم الإسعافُ فيه هنالك، فاستنقذَ من أسرى المسلمينَ المذكورينَ ثلاثة وخمسونَ شخصاً أكثرَهُم نساءً وأطفال، وذكروا أن طاعيتَهُم القشتاليَّ عَزَمَ على تحريق رؤسائِهِم حنقاً عليهم لما أفتّوه، وأسفاً على ما حصل بأيديهِم فأفلتّوه، ولذلك طلبَ منهم جماعةٌ نحوَ عشرينَ شخصاً الأمانَ فأعطَوْه ونَهَضُوا إلى الأميرِ المعظّمِ المجاهدِ أبي يوسفَ بن عبد الحقِّ ليركنوا ويخدموه.

وأخبرَ أبو الحجاجِ يوسفُ ابن الأَمن أنه وجّه من ثِقَاتِهِ إلى الأندلس حينَ ذلك مَنْ وثقَ بِنَقلِهِ، واستندَ إلى فهمِهِ وعقلِهِ، ليتعرّف حقيقةَ الأخبارِ هنالك، ويعرّفَهُ بِجَلِيَّةِ

ذلك، فقال: إِنَّ الطاغية أهلكه الله كان قد أعدَّ جموعاً وافرة العُدَّة ظاهرة العُدَّة ليكونوا مدداً للكفرة المستولين على سلا، فعند وصول نبي الفتح الذي سدَّ دوتهم باب الرجاء، وضيَّق عليهم فسيح الأرجاء، كاد العدو تفيض نفسه، ويطويه أسفاً رمسه، فأقسم أيماناً كُفِّره كيُعاقِبَنَّ أشياعه الخاسرة، وليطبَّخَنَّ مقدَّمهم جوان غُرسية على فعلته الصادرة، فاتصل ذلك بجوان المذكور فقرَّ في ثلاثة قراقر إلى الأشبونة فبقي مُقيماً بها ولم يرجع إلى قادس حيث كانت تتجهَّز الأجفان المذكورة إلا نحو خمسة وعشرين جفناً وسائرهما تفرَّق أي تفرق، وتمزَّق شمله خوفاً من الطاغية أهلكه الله أي تمزيق.

وأهبط من أسرى المسلمين ثلاث مئة وثمانون شخصاً فداهم المسلمون من أهل شَريش وغيرهم طالبين الأجر من ربِّهم، إلى أن وصلوا بعد ذلك إلى بلدهم، وقيل: إنَّ جملة ما اجتمع بإشبيلية من أسرى أهل سلا نحو ثلاثة آلاف نفس بين ذكراً وأنثى صغيراً وكبيراً، أكثرهم أطفال صغار وعجائز وشيوخ كبار.

وبعث الأمير أبو يوسف رحمه الله تعالى أبا بكر بن يعلى في أواسط شهر ذي القعدة من العام المؤرخ برسم افتكاك الأسرى المذكورين، ففكَّ الله أسرهم على يديه وافتدى أكثرهم، وكان قد أسر في مجلتهم قاضي سلا أبو علي ابن عشرة ففداه الأمير أبو يوسف في جملة من فداهم، واستقذهم من أيدي أعاديهم، وكلَّ مأسور له أهل أو مال فدي من أسره ويسر الله له في أمره، وكلُّ فقير مُعسر سبَّب الله في صدقات المسلمين فافتكَّ من الأسر، إذ ليس بعد العسر إلا اليسر، وبقي عند الروم آخرون مأسورين من أهل سلا المذكورين وآخرون متلوفين لا يعلم لهم خبر، ولا وقع لهم على أثر، هل كانوا مقتولين أو محمولين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولما دخل الأمير العظيم أبو يوسف إلى مدينة سلا بعدما استولى عليها العدو وخرب ديارها ومساجدها أمر ببناء سُورها، وتجديد مساجدها المعظمة ودورها، فأول ما شرع من تلك الأمور في ابتداء بناء السور، فرفع الحجر بيده يوصله إليه برسم البناء المذكور، وفعل ذلك مراراً يبتغي الأجر والثواب عليه من الله سبحانه، فعندما عاينه جميع الطوائف الحاضرين من وجوه بني مَرين الزعماء إخوانه، ومن أشبات القبائل وأخلاط الناس، رفعوا الأحجار على كواهلهم من غير تأنٍّ في ذلك ولا اختلاس،

حتى رفعوا جميع ما كان من الحجر في المقابر والكدان، وحصل ذلك كله في بناء السور المذكور، وذلك في أيام قلائل^(١).

وحينئذ تفرق من هنالك من حضر من القبائل. ولقد بادَرَ إلى الأمير المعظم أبي يوسف جماعة من الصلحاء حين سمعوا أنه رفع الحجر بيده إلى ذلك البناء، مُسرِعِينَ إليه بالشُّكر والثناء، راغِبِينَ منه ألا يفعل ذلك، وقالوا: إِنَّ السُّلْطَانَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، فقال لهم: ما ابْتَغَيْتُ إِلَّا الْأَجْرَ والثَّوَابَ هنالك، فدَعَوْا له وَاَنْصَرَفُوا عنه شَاكِرِينَ، وبالثناء عليه ذَاكِرِينَ، فَاجْتَهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كَائِنَةِ سَلَا غَايَةَ الْاجْتِهَادِ، وَمَا زَالَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ بِالْغَزْوِ وَالْجِهَادِ، إِلَى أَنْ بَلَغَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ أَقْصَى الْمَرَادِ، فَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ إِخْوَانِهِ وَأَوْلَادِهِ الْفُرْسَانِ الْأَنْجَادِ، فَأَعَزَّ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْكَافِرِينَ، وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَلَغَ الْقَصْدَ وَالْمَرَادَ، وَمَاتَ عَلَى قَدَمِ الْجِهَادِ.

وقدَّمَ على مدينة سَلَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَنَزَارِيَّ^(٢)، وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْتَغَلَ فِيهَا بِالْبِنَاءِ وَالتَّسْدِيدِ، وَالْإِصْلَاحِ وَالتَّجْدِيدِ، فَامْتَثَلَ الْمَذْكُورُ أَمْرَهُ الرَّشِيدَ، فَجَدَّدَ وَسَدَّدَ وَبَنَى وَشَيَّدَ، فَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ خَرَبُوا الدِّيَارَ وَحَرَّقُواهَا بِالنَّارِ، وَأَشْعَلُوا فِي كُلِّ مَا وَجَدُوهُ فِي دِيَارِ الْمَدِينَةِ وَأَسْوَاقِهَا مِنَ الْأَثَاثِ وَالْأَسْبَابِ وَالْأَمْتِعةِ وَالْأَوْعِيَةِ وَالْفُرُشِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ السَّلْعِ قُطْنًا كَانَ أَوْ صُوفًا أَوْ كَتَانًا مِمَّا لَمْ يَتَأْتْ لَهُمْ حَمْلُهُ لِسُرْعَةِ فِرَارِهِمْ وَثِقَلِهِ، أَشْعَلُوا فِيهِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ النَّيرَانَ، فَكَانَتْ تَلْتَهَبُ فِيهَا بِكُلِّ مَكَانٍ، فَحَرَّقُوا وَمَزَقُوا وَنَهَبُوا وَسَلَبُوا، ثُمَّ فَرُّوا وَهَرَبُوا، وَتَرَكَوْهَا حِينَ خَرَجُوا مِنْهَا خَالِيَةً خَاوِيَةً، وَالنَّيْرَانُ تَشْتَغَلُ فِي أَسْوَاقِهَا وَدُورِهَا، وَبَعْضُ عِلَامَاتٍ مَرْفُوعَاتٍ عَلَى سُورِهَا، وَعَمِلُوا تَحْيِيلَاتٍ مَا بَيْنَ شَرَارِيفِ السُّورِ بِدَاخِلِهَا، وَأَقْلَعُوا فِي أَجْفَانِهِم بِاللَّيْلِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَمَا عَلِمَ أَحَدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ هَلْ كَانَتْ عَامِرَةً أَوْ خَالِيَةً، حَتَّى بَاعَ نَفْسَهُمْ مِنَ اللَّهِ بَعْضُ الْمُطَوَّعَةِ وَطَلَعُوا بِسَلَالِيمٍ عَمِلُوهَا إِلَى السُّورِ، وَحِينَئِذٍ تَبَيَّنَتْ لَهُمُ الْأُمُورُ. وَدَخَلَ الْأَمِيرُ أَبُو يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ الرَّابِعِ عَشَرَ لَشَوَّالٍ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةِ وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ.

(١) الاسقصاص ٢٢/٣.

(٢) في ق، ك، ب: «الفنزاري».

ووصلت في شهر ذي القعدة من هذا العام إلى نَظَر شَرِيش مئة فارس برسم إخلاء موضع القناطر وإخراج المسلمين منها ووصول الطاغية إليها، وقد اعتمدوها لسكنائهم، وعدّوها مَنَواهُم، وأُخْلِيت أيضًا ديارُ شَرِيش برسم الطاغية لما عزم عليه من الإقامة بها توغلًا في ضلاله، وإرصادًا لمواقع كيده واحتياله، وتجردًا لما أظهره ونطقت به شيعته من قصد ذلك الثغر في مستقبل حاله، على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

وأول من بادَرَ بوروده إلى الأمير أبي يوسف بمدينة سَلا في أشياخ قبائل المصامدة وكُبرائهم: شيخ بني تامردا الصنهاجي أبو فارس عبد العزيز بن بيورك، فأقبل إليه أبو يوسف بغاية إقباله، حين وردَ عليه بخيله ورجاله، فأنجح الله سعيه الحميد، ورأيه السديد، في مقاصده ومصادره وموارده، فولاه أبو يوسف المدينة المذكورة بعد هذه السنة المؤرخة، فاستقرَّ فيها بأولاده وعياله، وصاهرَ لطلحة وزير السلطان وابن خاله، ووصله بها بعض قبائله من إخوانه وخدامه، وعاد إلى المدينة المذكورة من أهلها ومن غيرها حين صلح حالها وأمرها. وقد كان الفقيه أبو القاسم العزفي رحمه الله يُجرّض على التفقد لتلك الأشياء واليقظ للأعداء، فلما وقع ما وقع كتب المرتضى له كتابًا بالشكر.

وفي هذه السنة، في يوم الثلاثاء الموفي عشرين من شهر محرم: أمر أبو عبد الله المُستنصر بالله صاحب تونس بقتل الكاتب الجليل أبي عبد الله ابن الأبار، ولا يعلم لأي شيء كان ذلك، ثم ندم على قتله بعد ذلك^(١).

وفي سنة تسع وخمسين وست مئة: كان من قضاء الله تعالى وقدره على أهل شَرِيش ما كان، من دخول الروم القصبة صلحًا معهم برسم السكنى بها والاستيطان، ثم استهوى الروم غويهم والشيطان، وأرادوا القيام فيها على المسلمين، فأخرجوهم منها خاسرين، واستعانوا عليهم بعسكر من بني مَرين، حين كان جواز محمد بن إدريس بن عبد الحق في سنة اثنتين وستين.

وفي هذه السنة: كان بين الفقيه أبي القاسم العزفي وبين الأمير أبي عبد الله ابن الأحمر شَنَانٌ وفتنةٌ وعداوةٌ في القلوب متمكنة، فأمر صاحب الأندلس القائد ظافرًا أن يخرج

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/٤١٨-٤١٩.

بالأجفان العزوانية فيضيّق على سبّته ويحاصرها، فاجتمعت ونزلت بالجزيرة الخضراء، فكانوا يدخلون مرسى سبّته مرة بعد أخرى ويضيّقون عليها ويقطعون المرافق الواصلة إليها، فأمر الفقيه العزفي القائد أبا العباس الرنداحي أن يعمر جميع أجفان سبّته كبارًا صغارًا، فعمرها وخرج بها إليهم، فكان الغالب عليه والظافر بها لديهم، فعكسهم ونكسهم وساقهم إلى سبّته ولم تفلت منهم إلا الأقل، وقُتل في جُملة من قُتل منهم القائد ظافر، وعلقت جثته في البحر على حَجَر السُودان وطيف برأسه سبّته ثم علّق، وبعد ذلك تهدّنت الأحوال وسكنت الأقوال، ويُسمّى هذا العام بسبّته عام ظافر.

ومن أخبار العرب الداخلين تحت طاعة الموحدّين

على الجُملة من غير سنة معيّنة

وذلك أن المرتضى رحمه الله تعالى قدّم يعقوب بن جرمون أميرًا على قبائل سُفيان كلّها ليقوم بأمرها قليلها وكثيرها، وكان يُضاهيه ابن أخيه في العقد والحلّ، فأمر عليه بالقتل، ثم إن إخوة المقتول من أولادِ كانوا أخذوا ثأرهم بعد سنين، دخلوا على عمّهم وأسقوه كأس السمّون، ورحلوا إلى بلاد بني مَرين ودخلوا تحت طاعتهم وفي حرمتهم كما تقدّم ذكره حين^(١) وفاة السعيد رحمه الله^(٢).

ولما وصل الخبر إلى المرتضى رحمه الله بقتل يعقوب بن جرمون المذكور، قدّم ولده عبد الرحمن على قبائل سُفيان، فاستوزر يوسف بن أورزج^(٣) ويعقوب بن علوان، وكان المذكور يستخفُّ بالأمر، ولما نزل في بعض الأيام على وادي تانسيقت بدوّاره خرج يومًا منه متنزّها على شاطئ الوادي، ليُبصر الرائح والغادي، فما استقرّ به هنالك القرار، إلا وقافلة قافلة بجُملة من التُّجار، فأمر عليها بالنهب والدمار، فاستولوا على ما أبقوه من المال والأثقال، ولم يعبأوا بمن سكّت ولا من قال، وكان في حال سُكر هنالك، فلما أفاق من سُكره وفات الأمر في ذلك، ورأى أن الجرّة عظيمة في قطع السُّبل والمسالك،

(١) في ق، ك، ب: «في».

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠، والاستقصا ٢/ ١٧٣.

(٣) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠: «وازرج».

أَخَذَ فِي الْحَيْنِ فِي فِرَارِهِ، وَرَحَلَ مِنْ هُنَالِكَ بَدْوَارِهِ، وَنَكَّتَ عَنِ الطَّاعَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ، وَدَخَلَ
تَحْتَ الطَّاعَةِ الْمَرْيَنِيَّةِ، وَخَسِرَ التُّجَّارُ جَمِيعَ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا قُدْرَ لَهُمْ فِي الْوَقْتِ إِلَّا بِسُطِّ
أَمَالِهِمْ^(١).

ثُمَّ بَعَثَ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ^(٢) بْنِ جَرْمُونٍ، فَوَصَلَ مَعَ إِخْوَانِهِ الْجَرَامِيَّةِ
الْمَعْرُوفِينَ بِأَوْلَادِ مَرِيَّةَ، وَكَانُوا فِي نَحْوِ مِائَةِ فَارَسٍ بَيْنَ وَلَدٍ وَحَفِيدٍ يُعَدُّونَ، بَلْ بَنِيَّ عَلَيْهَا
يَزِيدُونَ، وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْحَضْرَةِ الْمَرَّكُشِيَّةِ قَعَدَ لَهُمُ الْخَلِيفَةُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، وَقَدَّمَ
عَلَيْهِمْ وَعَلَى قِبَائِلِ سُفْيَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ الْمَكْنِيُّ بِأَبِي زِمَامٍ تَقْدِيمَ إِنْعَامٍ وَإِكْرَامٍ، لَكِنْ كَانَ
الْمَذْكُورُ عُبَيْدُ اللَّهِ غَيْرَ مُنْجَذٍ^(٣) فِي الْأُمُورِ، وَلَا فِي الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ، فَعَجَّلَ لَهُ بِالتَّأْخِيرِ
وَقَدَّمَ بَعْدَهُ عَلَى سُفْيَانَ مَسْعُودَ بْنِ كَانُونَ، فَصَلَحَتْ الْأَحْوَالُ عَلَى يَدَيْهِ، وَاسْتَقَامَتْ
الْأُمُورُ الرَّاجِعَةُ إِلَيْهِ^(٤).

ثُمَّ إِنَّ عَوَاجِ بْنَ هَلَالٍ أَحَدَ أُمَرَاءِ عَرَبِ الْخُلَاطِ وَعَظِيمِهِمْ وَزَعِيمِهِمْ عَادَ إِلَى
الْحَضْرَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ وَخَرَجَ عَنِ الدَّوْلَةِ الْمَرْيَنِيَّةِ، فَوَفَدَ عَلَى الْخَلِيفَةِ بِعَسْكَرٍ كَبِيرٍ مِنْ إِخْوَانِهِ،
فَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ جَزِيلَ إِحْسَانِهِ، وَأَمَرَ أَنْ يُقَامَ بِحَقِّهِمْ وَبِإِكْرَامِهِمْ، فَأُقِيمَ بِهِمْ خَيْرَ قِيَامٍ،
وَأُكْرِمُوا غَايَةَ الْإِكْرَامِ.

وَاتَّصَلَ خَبَرُ^(٥) كَرَامَتِهِمْ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْقُوبَ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ، فَخَاطَبَ يَعْتَذِرُ
فِي أَمْرِهِ وَيَرْغَبُ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ مِنَ الْخَلِيفَةِ الْمُرْتَضَى وَأَنْ يَعُودَ كَمَا كَانَ إِلَى خِدْمَتِهِ،
فَأَسْعَفَ فِي مَطْلَبِهِ وَبُغْيَتِهِ، وَوَفَدَ عَلَى الْحَضْرَةِ الْمَرَّكُشِيَّةِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ جُمْلَتِهِ، فَأُنْزِلَ عَلَى
عَادَتِهِ بِدَارِ الدَّالِيَّةِ، وَأُعْمِلَ الْكَلَامُ فِيمَا جَرَى مِنْهُ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ، فَعَجَّلَ بِاسْتِدْعَائِهِ،
وَدَخَلَ مَعَ وَزَرَائِهِ، فَعِنْدَ خُلُوعِهِ مَعَهُمْ تُقْفُوا بِدَارِ الْحُكْمَاءِ، فَحَصَلَ فِي الشَّرْكَ الَّذِي نَصَبَهُ
لَهُ مَنْ نَصَبَهُ، عَقُوبَةً مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ فَعْلِهِ فِي شَأْنِ مَنْ أَكَلَ مَالَهُ وَغَصَبَهُ، وَكَانَ

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠: «عبد الله».

(٣) المنجد: المحنك المجرب.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(٥) سقطت من ق، ك، ب.

عليُّ بن أبي علي الخُلَاطِي غار بوضول عواج إلى الحضرة، فزَرَ فيه كلَّ قبيح عند الخليفة، وكان المذكور عند المرتضى ثقةً وعدلاً يُرتضى، فجَدَّد الكلام في شأن عواج المذكور، وقال عنه: إنه ما وصل للحضرة إلا بالخداع للأمر والفجور، فأْمِهْل ولا أَهْمِل، بل أكرم وأنزل، حتَّى حصل عبدُ الرَّحْمَنِ بن يعقوب في الشَّرْك فَأَمَرَ عليه عليُّ ابن أبي عليِّ الخُلَاطِي المذكور الذي كان معه في الإمارة مشترِكًا، فقتل وقتل عبدُ الرَّحْمَنِ مع وزيره المذكورين وحُزَّت رؤوسُهم أجمعين، وعُلِّقوا على باب دكَّالة، وبقي أميرُ سُفْيَانَ مسعودُ بن كانونُ جرمون، وأميرُ بني جابر إسماعيلُ بن يعقوب بن قَيْطُون، وأميرُ الخُلَاطِ عليُّ بن أبي علي المذكور، فصَلَحَتْ بهم في ذلك الوقت الأمور^(١).

وفي هذه السنة: كانت هزيمةُ الموَحِّدين مع ابن وانودين في الموضع المعروف بأُمِّ الرجلين^(٢)، وذلك أنَّ أميرَ المسلمين أبا يوسفَ خرج من حضرته متوجِّهًا إلى بلاد تامَسْنَا برسم الرعي والكلا والتهدين لمن هنالك من عَرَبٍ وغيرهم، فبلغ الخبرُ المرتضى بمَرَاكُش بوضول عسكرِ بني مَرِين إلى بلاد تامَسْنَا، فَأَمَرَ في الحين بخروج العساكرِ الموَحِّدية والعربية والجُنْدِيَّة، وقَدَّمَ على الموَحِّدين والمتجنِّدين أبا زكريَّا يحيى بن وانودين، فرحَل بمَحَلَّتِهِ إلى مقرَّبة من وادي أُمِّ ربيع، وهنالك اجتمعَ الجُمُعان وأوقعَ الحربَ الفريقان، ثم صَدَرَتِ العساكرُ المَرِينِيَّةُ إلى جهة الوادي المذكور، فطَمِعَ الموَحِّدون في العلوِّ والظهور، فعجَّلَ ابنُ وانودينَ بالكُتُبِ بذلك، وما ظَهَرَ له من النَّصْرِ هنالك. ثم بعدَ ذلك رَجَعَتِ عساكرُ بني مَرِين على عساكرِ الموَحِّدين فهزَمَ موهمُ أجمعين وقتلوا منهم خَلْقًا بموضع أُمِّ الرجلين، وعاد ابنُ وانودينَ مع الموَحِّدين إلى مَرَاكُش مفلولينَ خاسرينَ بعدما كان المرتضى رحمه الله بكتِّبه في غاية السُّرور، ولكنْ تَحَدَّثُ من بعدِ الأمور أمور.

ولمَّا دَخَلَ ابنُ وانودينَ على الخليفة قال: العفو يا أميرَ المؤمنين، لِمَا غَدَرَ بنو جابر وانكسروا من ناحيتهم انكسر الناسُ بجملتهم، وكان أولُ مَنْ بَادَرَ وَفَرَ إلى المَرِينِيَّين عليُّ بن أبي علي الخُلَاطِي، ودَخَلَ تحت طاعة المقام اليوسُفي. ولمَّا وصلَ ابنُ وانودين تفاوَضَ في أمرِ الهزيمة الخليفة مع وزرائه وأشياخ الموَحِّدين، فأشار عليه ابنُ عَزَّوز أن

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٧، والاستقصا ٢/ ١٧٥.

يَخْرُجُ، وَكَانَ إِفْرَاجٌ قَدْ أَمَرَ بِهِ وَأَخْرَجَ. ثُمَّ إِنَّ ابْنَ بَجِيتَ قَالَ: بَشَسَ الرَّأْيُ يَا سَيِّدَنَا، بَشَسَ الرَّأْيُ الَّذِي أَشَارَ بِهِ عَلَيْكُمْ، وَذَكَرَ مِنْ أَمْرِ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ، فَعَلِمَ أَنَّ قَوْلَهُ قَوْلٌ مُحِبٌّ خَالِصٌ، وَأَمَرَ أَنْ يُدْخَلَ أَفْرَاكُ مِنَ الْمُخَالِصِ، فَأُدْخِلَتِ الْمَضَارِبُ وَأُضْرِبَ عَنِ الْحَرَكَةِ أَيُّ إِضْرَابٍ، وَأَمَرَ بِغَلْقِ أَبْوَابِ مَرَّاكُشَ مَا عَدَا ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ، وَقَامَتِ فِي النَّاسِ هُوْشَةٌ وَتَشْوِيشٌ، وَكَثُرَ الْقَالُ وَالْقِيلُ، إِلَى أَنْ وَصَلَ الْخَبْرَ بِأَنَّ بَنِي مَرِينَ صَادَرُونَ إِلَى بِلَادِهِمْ بِالرَّحِيلِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، بَعْدَ انْقِضَاءِ وَقْعَةِ أُمِّ الرُّجْلَيْنِ: خَرَجَ عَسْكَرٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَصْلِمَاطَ إِلَى بِلَادِ السُّوسِ، وَظَنُّهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ يَدَّرَ فِي قَبْضَتِهِ، وَكَانَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَظْفُرُ بِهِ عِنْدَ لِقَائِهِ لَهُ وَرُؤْيَتِهِ، وَكَانَتْ حَرَكَتُهُ فِي زَمَنِ الْخَرِيفِ وَحَرَكَةُ أُمِّ الرُّجْلَيْنِ فِي زَمَنِ الْمَصِيفِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَوَانُ الْحِصَادِ، وَإِذَا بِالْخَبْرِ وَصَلَ لِلْمُرْتَضَى بِالْوَقْعَةِ السُّوسِيَّةِ وَعَلِيٍّ بْنِ أَصْلِمَاطَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالْأَجْنَادِ، وَقُتِلَ فِي هَذِهِ الْكَائِنَةِ ابْنُ أَصْلِمَاطَ قَائِدُ الْعَسْكَرِ الْمَذْكُورِ الْمُدَّعِي بِالشَّهَامَةِ فِي الْأُمُورِ، فَعَظُمَتِ الْمَصِيبَةُ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ بِفَسَادِ مَحَلَّتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، وَوَقِيعَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ فِي أَقَلِّ مِنْ شَهْرَيْنِ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ الْإِدْبَارِ لِلدَّوْلَةِ الْمُوَحِّدِيَّةِ.

وَمِنْ الْإِتْفَاقِ الْغَرِيبِ أَنَّ ابْنَ أَصْلِمَاطَ قَالَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَمَدٍ قَرِيبٍ: تُرَى هَلْ يَرَى الْمَصْلُوبُ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا أَمْ لَا؟ وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ قُتِلَ وَصُلِبَ، فَمَا خَالَفَ قَوْلًا.

وَلَمَّا كَانَ مِنْ قَتْلِ ابْنِ أَصْلِمَاطَ وَهَزِيمَةِ عَسْكَرِهِ وَظُهُورِ ابْنِ يَدَّرَ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ، قَدَّمَ الْمُرْتَضَى عَلَى بِلَادِ السُّوسِ أَبَا زَيْدَ بْنَ بَخِيتَ أَحَدَ وُزَرَائِهِ وَأَجْلَدَ نَظَرَائِهِ، وَتَوَجَّهَ مَعَهُ قَائِدُ النَّصَارَى الْمَعْرُوفُ بِذِي اللَّبِّ بِجَمْعٍ وَافِرٍ مِنَ الرُّومِ إِلَى السُّوسِ، وَكَانَ كَمَا وَصَلَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، وَكَانَ قَائِدٌ آخَرُ قَدْ تَقَدَّمَ اسْمُهُ غَرَسِيَّةٌ بِجَمْعٍ آخَرَ مِنَ الرُّومِ، فَوَقَعَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ عَسْكَرِ الْمُوَحِّدِينَ وَعَسْكَرِ ابْنِ يَدَّرَ هُنَالِكَ، إِلَى أَنْ افْتَرَقَ الْجَمْعَانِ بَيْنَ قِتَالٍ كَثِيرٍ وَمَعَارِكٍ، وَكَانَ الْقَائِدُ ذُو اللَّبِّ الْمَخْزِيُّ مِتْكَاسَلًا فِيهَا وَقَعَ مِنَ الْحَرْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ لَيْسَ لَهُ نَهْضَةٌ وَلَا نَجْدَةٌ فِي ذَلِكَ إِلَّا يَطْلُبُ مَيَاوِمَتَهُ جَارِيَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَيْهِ، وَيَطْفِئُ بِكَلَامِهِ وَمَلَامِهِ إِذَا لَمْ تَصِلْ يَوْمًا إِلَيْهِ، وَكَانَ لِأَبِي زَيْدَ بْنِ بَخِيتَ أَمِيرُ الْعَسْكَرِ غَيْرُ سَامِعٍ لِأَمْرِهِ وَلَا عَارِفٍ بِقُدْرِهِ، فَكَتَبَ بِذَلِكَ كُلَّهُ لِلْخَلِيفَةِ وَعَرَّفَهُ بِحَالِهِ وَمَقَالِهِ، فَأَمَرَ فِي الْحَيْنِ بِوُصُولِهِ مِنَ السُّوسِ وَانْتِقَالِهِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا أَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وفي سنة إحدى وستين مئة: كان مقتل القائد ذي اللبب النصرائي، وذلك أنه لما أُمِرَ بالوصول إلى الحضرة المراكشية نظر المرتضى رحمه الله من يتولى قتله من أشياخ الدولة الموحدية، فوقع رأيُه على الشيخ أبي زيد بن أبي زكريا الجدميوي، فبعث عنه وأمره بقتل القائد المذكور إذا وصل من السُّوس إلى تاجنرت مجتازاً عليه، وأمر النصرائي أن يدفع إليه براءة بالإنزال والإكرام إذا وصل لموضع أبي زيد، فلما وصل المذكور بالبراءة المذكورة، ووقف عليها دبر وجه الحيلة على أحسن صورة، وكان من القدر المحتوم في هذا الأمر المكتوم أن وصل قائد الروم رمد العين، فطلب منه أن يُنزله في بعض الدور، فسهّل الله على أبي زيد المذكور ما كان ينبغي ويروم، فأنزله في داره عنده، واشترط عليه أن يكون وحده، فما أمكن إلا أن دخل مع ستة من الروم خدمته وبقي بالفحص جميع محلّته، فقام بهم أبو زيد وسقاهم وأكرمهم، فلما جنّ الليل حلّ بهم الويل، والقائد ساهر العين إلى أن جاءه الحين، فدخلت عليه سبعة من العبيد معدّون، وقتلوه مستعدّون، فأخذوهم واحداً واحداً، وقتل من كان ساهر العين منهم ومن كان راقداً، وأبو زيد المذكور مع جماعة من إخوانه وعبيده خلف الباب ناظرين، ولحنت الكفرة منتظرين، إلى أن تخلّص حالهم وربطت الحبال في أرجلهم وجعلوا في قعر بئر عميق.

وبعث أبو زيد في الحين لجميع أهل نفيس أن يُصبحوا عليه ويُقبلوا بسلاحهم إليه، فأصبحوا عليه كذلك، وكان قد جمع الساكنين هنالك، لئلا يقع بينه وبين الكفرة معارك، فلما أصبح دخل عليه التُّرْجُمَانُ الحكيم فوجد الجموع الواردة كالسحاب المتراكم، فبادر بسلامه على أبي زيد وكلامه، فوجهه أبو زيد وصاح عليه، وجهه بشتمه إليه، وقال له: قد فعلت معنا العار، حين جعلتنا أنزلنا القائد في الدار، فهذا هو قد هرب ولم نعلم حيث استقرّ به القرار، فكيف يكون أمرنا مع الخليفة وحالنا بسبب هذا الفرار؟ فعاد التُّرْجُمَانُ إلى جماعته النصاري الكُفّار فأعلمهم بهروب قائدهم من الدار، فدخل بعضهم في السلاح وقام العويل والصياح، وأيقنوا أن قائدهم قد مات، وأن الأمر فيه قد فات، فأخذوا في رحيلهم بصياحهم وعويلهم، ودعوا أهل تاجنرت للمرتضى، فلما دخلوا مرّ أكش علموا أن الأمر في قائدهم قد انقضى، وشكر الخليفة لأبي زيد المذكور، على ما فعل في تلك الأمور.

وفي هذه السنة: دخل الروم أبادهم الله مدينة كبلّة بعد حصار عظيم وأمر جسيم، وكان صاحبها ابن محفوظ لم يدخل في الصلح المنعقد بين ابن الأحمر والروم، بل قاطع على نفسه في العام بمال معلوم، يعطيه في بعض السنين، وفي بعضها يجاهد في سبيل رب العالمين، مع جماعته بزعامته وشهامته إلى أن حاصره الروم فيها في هذا العام، فلما اشتد حاله، وانقطعت آماله، أعطى البلد للنصارى وأخرج منها المسلمين أهلها، ودخلت الروم إليها، وقيل: بل كان ذلك في آخر السنة التي قبل هذه المؤرخة، ووصل ابن محفوظ إلى المرتضى مع جماعته، فكان بمرّاكش يركب معهم فيها في جملة الأجناد، كأحد رؤساء القواد، إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وفي سنة اثنتين وستين مئة: جاز الأمير أبو عبد الله محمد بن إدريس مع أخيه عامر وجملة من بني مرين الأكابر في نحو ثلاث مئة من الفرسان الأنجاد برسم الغزو والجهاد، وكان قد بقي من أمد الصلح المنعقد بين ابن الأحمر والروم بقية هذه السنة، فقد كان عقده معهم في سنة ثلاث وأربعين إلى عشرين سنة.

وكان السبب في هذا التفاف قبل تمام أمد الصلح أن الأمير أبا عبد الله ابن الأحمر توجه إلى إشبيلية برسم الاجتماع مع أذفونش ليجدد معه الصلح على ما يقع الاتفاق عليه، فلما وصل ابن الأحمر إلى إشبيلية نزل بخارجها بالصهرج الأحمر، وكان معه خمس مئة فارس من الفرسان الأنجاد والرؤساء والقواد، فخرج أذفونش إليه وحلف عليه أن يدخل إليها، فدخل ونزل بالعبادية منها، ودخل معه الرئيسان الزعيمان: ابنا أشقيلولة أبو محمد وأبو إسحاق، ونزلا معه في ذلك الزقاق مع من كان دخل معهم من الرجال والفرسان إلى ذلك المكان، وبقي سائرهم حيث نزلهم الأول. وحين دخول ابن الأحمر ونزوله، عمل النصارى على الزقاق الذي نزل فيه خشباً مسمرّة حين دخوله إليه وحصوله، وكانوا عملوها عليهم بالليل فأصبحت مسمرّة على الدروب تمنع جواز الخيل، فلما اتصل بالأمير المذكور ذلك الحال، خاف أن يتوغل في الأوحال، فدير على نفسه في الخروج والارتحال، حين عاين أسباب الحيلة عليه والغدر إليه، فخرج بجماعته، بما علم من زعامته، وأمر رجاله أن يكسروا ذلك الخشب المعمولة، وأخرج فحصل بمحلته مع جماعته وبني أشقيلولة، وأمر في الحين بالرحيل منصرفاً إلى بلاده مع قواده وأجناده، ثم

خَرَجَ أَذْفُونُشُ إِلَيْهِ وَحَلَفَ أَنَّهُ مَا عُمِلَتْ تِلْكَ الْإِطْرُنَكَاتُ^(١) إِلَّا احْتِيَاظًا مِنَ النَّصَارَى الشَّرَاقِ عَلَيْهِ، فَأَظْهَرَ لَهُ أَنَّهُ صَدَقَهُ، وَقَدْ عَلِمَ الْأَمْرَ وَحَقَّقَهُ، وَحَصَلَ مَا حَصَلَ فِي النُّفُوسِ، فَمَا نَفَعَتْ أَيْمَانُ الْغُمُوسِ؟ فَانصَرَفَ عَنْهُ دُونَ اتِّفَاقٍ وَلَا ارْتِبَاطٍ، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ وَقَعَ فِي الْأَنْدَلُسِ مَا وَقَعَ مِنَ النِّفَاقِ.

وَأَخْبَرَنِي مَن حَضَرَ ذَلِكَ الْوَقْتَ بِإِشْبِيلِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ أَنَّهُ مَا كَانَ فِيهَا مَعَ أَذْفُونُشُ مِنَ الْفُرْسَانِ إِلَّا أَقَلٌّ مِمَّا كَانَ مَعَ ابْنِ الْأَحْمَرِ هُنَالِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، وَحَلَفَ ابْنُ الْأَحْمَرِ بِأَيْمَانِهِ حِينَ ذَلِكَ، أَنَّهُ لَا يَرَاهُ أَبَدًا وَلَا يَلْقَاهُ إِلَّا فِي قِتَالٍ أَوْ جِلَادٍ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ ابْنِ السَّلِيمِ، بِقَلْبِ مُنْشَرِحٍ وَصَدْرِ سَلِيمٍ، فَإِنَّهُ كَانَ عَائِنَ هَلَاقِهِ ثُمَّ خَلَّصَهُ اللَّهُ وَسَلَّمَهُ، فَأَوْصَى أَهْلَهَا وَأَهْلَ تِلْكَ الْجِهَاتِ بِالتَّحْصُنِ وَالْإِحَاطَةِ، وَانصَرَفَ مُجْتَازًا عَلَيْهِمْ إِلَى غَرْنَاطَةِ، فَعَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ انْفَصَلَ مِنْ أَذْفُونُشُ مِنْ غَيْرِ اتِّفَاقٍ وَلَا ارْتِبَاطٍ، فَأَخَذُوا فِي التَّحْصُنِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَالْإِحَاطَةِ، وَأَخْرَجَ أَهْلُ شَرِيشَ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ فِي الْقَصْبَةِ سَاكِنِينَ، فَقَدْ كَانُوا سَكَنُوا بِهَا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَضَبَطُوا مَدِينَتَهُمْ وَقَصَبَتَهُمْ بَقِيَّةَ هَذِهِ السَّنَةِ، فَكَانُوا بِهَا هَادِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَايَعُوا ابْنَ الْأَحْمَرِ وَدَخَلُوا تَحْتَ طَاعَتِهِ، وَكَانَ اشْتَرَطَ عَلَى أَذْفُونُشُ اللَّعِينِ أَنَّهُ مَنْ يَدْخُلُ تَحْتَ طَاعَتِهِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُ فِي صُلْحِهِ، فَكَانَ بَقِيَّةَ هَذِهِ السَّنَةِ انصَرَامُهُ وَتَمَامُهُ.

وَكَانَ أَيْضًا أَهْلُ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ صَاخُوا الرُّومَ بِهَالٍ مَعْلُومٍ يَدْفَعُونَهُ لَهُمْ فِي كُلِّ عَامٍ، وَأَعْطَى أَهْلُ مُرْسِيَّةٍ قَصَبَتَهُمْ لِلرُّومِ الَّذِي هُوَ قَصْرُهُمْ، إِلَى أَنْ وَصَلَهُمُ الرُّومُ السَّاكِنُونَ فِيهِ بِأَذَاهُمْ وَضُرِّهِمْ، فَأَخْرَجُوهُمْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مِنْهُ بِالْقِتَالِ لَهُمْ وَالْحَضَرُ، وَسَمَّوْهُ عِنْدَهُمْ قِيَمَةَ الْقَصْرِ، فَقَامُوا عَلَى النَّصَارَى وَضَيَّقُوا بِالْحِصَارِ عَلَيْهِمْ، وَحِينَئِذٍ أَخْرَجُوهُمْ بَعْدَمَا أَلْقَوْا السَّلَاحَ عَلَيْهِمْ.

وَكَتَبَ أَهْلُ مُرْسِيَّةٍ إِلَى الْأَمِيرِ ابْنِ الْأَحْمَرِ بِيَعْتِهِمْ، فَبَعَثَ الرَّئِيسَ أَبَا مُحَمَّدٍ ابْنَ أَشْقِيلُولَةَ إِلَيْهِمْ وَالْيَا عَلَيْهِمْ فَرَحَفَ النَّصَارَى إِلَيْهَا، وَنَزَلُوا عَلَيْهَا، فَبَقِيَ الرَّئِيسُ فِيهَا

(١) ذَكَرَهَا دُوزِي فِي مَعْجَمِهِ ١/ ١٥٣، فَقَالَ: «إِطْرُنَكَة: ذَكَرَهَا مَعْجَمُ فُوكَ وَلَمْ يَفْسِّرْهَا». قُلْنَا: وَهِيَ مَفْسَّرَةٌ فِي هَذَا النَّصِّ الْمُتَقَدِّمِ، وَهِيَ مَا يَعْمَلُ عَلَى الْأَزَقَةِ مِنَ الْأَخْشَابِ الْمُسْتَمَرَّةِ لِمَنْعِ الْخَيْلِ مِنَ الْجَوَازِ.

محصورًا، وفي نفسه مقهورًا، فخرج منها بخيله ورجله فرارًا، فلم يجد أهل مُرْسِيَةَ بعده حُمَاةً ولا أنصارًا، فضاقت عليهم أحوالهم، بما أصابهم من العدو ونالهم، وطال عليهم حصارهم وعَدِمُوا حُمَاتِهِمْ وأنصارهم، فأعطوا مُرْسِيَةَ لِلنَّصَارَى وخرجوا منها بأمانٍ إلى الرِّشَاقَةِ، فسكنوا بها مدةً من عشرة أعوام إلى أن كان من أمرهم ما كان حين أخرجوهم في سنة ثلاث وسبعين، وغدروهم في الطريق أجمعين، وذلك بموضع يُعرفُ بوركال، فسبوا النساء والأطفال، وقتلوا جميع الرجال، وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح، فتحكّموا فيهم كيف شاءوا بالسُّيُوف والرِّماح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

ولما جازَ الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريس وأخوه عامرٌ ومَن كان معهم من الفُرسان الأنجاد، برسم الغزو كما ذكرنا والجهاد، كان الأميرُ أبو عبد الله ابنُ الأحمر استصرَّحَهم يُرغِبُهُمْ في ذلك، فوصلوا إليه فاستعدَّ لهم بظريف ضيافاتٍ وكراماتٍ حين جَوازِهِمْ، وأمرَ لهم بكلِّ ما يحتاجون لِجَهازِهِمْ، ثم استقَرُّوا بعدَ ذلك بِهالِقةٍ بقيَّةِ هذه السنة، وانتقلوا إلى شَرِيش في السَّنة التي بعدها، حين اشتعلت نارُ الحروب بعدَ حُمُودِها واقتدَحَ زَنْدُها، فنالت الغُزاةُ المذكورونَ في غزوها وجهادِها مُناها وقصَّدها، ودامت الحروبُ مدةً من ثلاثة أعوام من هذا العام، إلى أن عقدَ الصُّلحَ ولدُ الأميرِ ابنِ الأحمر بعدَ ذلك على ما يأتي ذكرُه إن شاء الله تعالى.

اختصارُ الخبر عن مقتلِ الأميرِ أبي يحيى وكيفيةِ أمرِهِم

وذلك أنَّ هؤلاءِ الأمراءَ: أبا مُطَهَّرَ وأبا سالمَ وأبا حديد، كان قد وصلَ معهم إلى طَنْجَةَ ثلاثٍ مئةِ فارسٍ من بني مَرِينَ وغيرِهِمْ، فخرج إليهم صاحبُ طَنْجَةَ ابنُ الأمين^(١)، وحلَفَ عليهم في الدَّخُولِ بِأعْظَمِ اليمين، فدخلوا معه، فأنزَلَهُم بِالْقَصْبَةِ وبألغ في إكرامِهِمْ وبرَّهِمْ، فطلبوا دخولَ الحِمَامِ فأجابَهُمْ، فلَمَّا حَلُّوا بِالْقَصْبَةِ غَدَرُوا ابنَ الأمين وجَرَّعُوهُ كَأْسَ الحِمَامِ، وكان قد قام بحَقُّهُم خيراً قياماً، واعتنى بهم وبرجالِهِم غايةَ الاعتناء التام، ودخلَ بعضُهُم إلى القَصْبَةِ والآخرونَ تفرَّقوا في البلد لقضاءِ حوائِجِهِمْ،

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٤٦-٢٤٧، والاستقصا ٣/ ٣٤، ووقع فيهما: «ابن الأمير»، والدليل

على صحة ما أثبتناه موافقته للسجعة التي بعده.

ثم إن رجال ابن الأمين المرتبين الذين كانوا تحت إحسانه وإنعامه اجتمعوا أجمعين، ودخلوا على من كان بالقصبة من بني مَرين ورجالهم فقتلوهم صبرًا وقعدوا بسلاحهم على أبواب القصبة واستدعوا من بقي منهم إلى القصبة، فظنوا أن استدعاءهم كان برسم الطعام والكرامة فيقتلون واحدًا بعد واحد إلى أن لم يبق منهم عيٌّ ولا أثر، ولا من يُخبر بخبر، إلا أن شخصًا واحدًا ذُكر أنه دخل في سرب وخرج بعد أيام على شاطئ البحر، فسليم من الطعن والضرب.

ولما كان من قتل بني مَرين وبني عبد الحق ما كان، خاف أهل طَنْجَة أن يُعاقبهم السلطان أشدَّ عقاب، ويُولجهم من القتل كل باب، فخطبوا صاحب سَبْتَة أبا القاسم العزقي، وبعث إليهم القطائع الغزوانية، وبعث إليهم القائد أبا القاسم الرنداحي وابن حمدان، فملكوا طَنْجَة وقبضوا على أولاد ابن الأمين ورجالهم واستاقوهم إلى سَبْتَة بأولادهم وعيالهم، وولي طَنْجَة ابن حمدان من قبل الفقيه، واستقرَّ بقصبتها وأعطى الحفَر في أبوابها، إلى أبي عبد الله ابن العَمَاد، وبعث إلى سَبْتَة بجماعة كبيرة من أعيان أهل طَنْجَة، ورجع حُكمها إلى صاحب سَبْتَة.

ولما كان هذا الحال الموصوف والنبأ المعروف، وصل خبره إلى أمير المسلمين أبي يوسف، فتحرك بعساكره إليها ونزل بمحلاته عليها، فقاتلوه من أعلى السور^(١)، فلم يقدِر لهم بأمر من الأمور^(٢).

ذكر مقابلة أمير المسلمين أبي يوسف للموحدين

ومقتل ولده عبد الله بالمخالص

وقيل: إن هذا كان في السنة الفارطة.

ولما تحرك أمير المسلمين رحمه الله من بلاد الغرب إلى مراكش برسم حصارها والتضييق عليها، نزل بمحلاته بظاهرها بمقربة من جبل إجليز، وكان القتال بين بني مَرين والموحدين بفحص المخالص، فانقبضت النفوس بمراكش وارتعدت الفرائص،

(١) في ق: «فقاتلوه على السور».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٤٧، والاستقصا ٣/ ٣٥.

وَعَلَّتْ الْأَسْعَارُ وَعَادَ كَاللَّيْلِ الْحَالِكُ النَّهَارُ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ تُوقِدُ نَارَهَا وَتَجِدُّ رُسُومَهَا، وَالْقَوَاضِبُ وَالْأَسِنَّةُ تَوْمُضُ بَرُوقَهَا وَتُطْلِعُ نَجُومَهَا، فَقَدَّرَ اللَّهُ بَوفاةَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، فَحَالَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحُرُوبِ، وَوَجَّهَ الْمُرْتَضَى إِثْرَ ذَلِكَ رَسُولَهُ يُعْزِيهِ فِي ابْنِهِ وَيُعْزِي فِي إِخْوَتِهِ، وَاسْتَلْطَفَهُمْ وَاسْتَرْضَاهُمْ وَاسْتَعْظَفَهُمْ ثُمَّ وَافَقَهُمْ عَلَى مَالٍ مَعْلُومٍ يَصِلُهُمْ فِي كُلِّ عَامٍ، فَرَحَلَ أَبُو يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَوَقَعَ بَيْنَهُمُ التَّرَاضِي وَالْإِنْعَامُ.

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِينَ وَسِتْ مِئَةٍ: كَانَ فِرَارُ السَّيِّدِ أَبِي الْعُلَى الْمَلَقَّبِ بِأَبِي دَبَّوسٍ مِنْ مَرَّاكُشَ، بِقَصْدِ السَّلْطَانِ أَبِي يُوسُفَ وَهُوَ بِحَضْرَةِ فَاسٍ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى حِصَارِ مَرَّاكُشَ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ اتَّفَقَ عَلَى ذَلِكَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ، فَعَجِبَ الْأَمِيرُ أَبُو يُوسُفَ مِنْ مَقَالِهِ وَاسْتَخَفَّ قَوْلَهُ وَاسْتَحَقَّرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ فِعَالِهِ، ثُمَّ أَعْطَاهُ خَمْسَةَ آلَافٍ دِينَارٍ وَطَبُولًا وَعَلَامَاتٍ، بَعْدَ أَنْ عَاهَدَهُ أَنْ يَكُونَ فِي خِدْمَتِهِ وَأَنْ يَقَاسِمَهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ الْمُتَمَنَّنَاتِ، وَانْصَرَفَ إِلَى مَرَّاكُشَ^(١).

ذَكَرُ فِرَارِ أَبِي دَبَّوسٍ مِنْ مَرَّاكُشِ الَّذِي كَانَ السَّبَبَ فِي دُخُولِهِ إِلَيْهَا وَاسْتِيلَائِهِ عَلَيْهَا وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَخُرُوجِ الْمُرْتَضَى لَهُ مِنْ قَصْرِهِ

كَانَ السَّبَبُ فِي فِرَارِهِ اهْتِصَامُ جَانِبِهِ فِي أَحْوَالِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مَنَعَ الْجَوَارَ عَلَى الْوُزَرَاءِ بِنِعَالِهِ، وَكَانَ ذَا هِمَّةٍ عَالِيَةٍ، فَأَمَرَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ عَوَائِدِهِ الْجَارِيَةِ، فَخَرَجَ لِبُحِيرَةِ يَطِي بِأَوْلَادِهِ وَعِيَالِهِ، وَقَدْ سَاءَتْهُ جَمِيعُ أَحْوَالِهِ، فَرَفَعَ إِلَى الْمُرْتَضَى يَعْرِفُهُ بِقَلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ تَعْرِيفًا، وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي تَطْهِيرِ أَوْلَادِهِ بِبُحِيرَةِ يَطِي لِيَكُونَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ خَفِيفًا، فَأَمَرَهُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ، فَعِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى الْبُحِيرَةِ الْمَذْكُورَةِ قَطَعَ أَوْلَادَهُ مِنْ حِينِهِ فِي لَيْلَتِهِ، وَنَظَرَ لِأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ، وَقَالَ: لَمَّا بَدَأَ التَّحْقِيرَ زَالَ التَّوْقِيرُ، وَاللَّهُ لَا ذَهَبَ فَرَارًا بِنَفْسِي، خِيفَةً عَلَى رَأْسِي، فَوَدَّعَهُمْ وَخَرَجَ مَعَ ابْنِ عَمِّهِ السَّيِّدِ أَبِي مُوسَى إِلَى فَاسٍ، وَبِهَا اسْتَقَرَّ، فَلَمَّا كَانَ فِي غَدِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي قَرَأَ فِيهَا وَعُدِمَ حُضُورُهُمَا بِالْقَصَبَةِ

(١) تَارِيخُ ابْنِ خُلْدُونٍ ٦/ ٣٥١، وَالْإِسْتِقْصَا ٢/ ٢٥٦.

لم يوقف على خبرهما، بل عُلِمَ تحقيقُ الفرار، ولم يُعَلَمَ حيث استقرَّ بهما القرار، فعند ذلك أمر المرتضى بثقاف ديارهما وأولادهما، وطلب^(١) كل من تعلق بأذيالهما.

ولما وصل السيّد أبو العلى إلى حضرة فاس انصرف منها مقضيّ المآرب، مرضي الأغراض والمطالب، بعد عهود مؤكّدة، وأيمانٍ كما تقدّم مرّدة، وكتب له أمير المسلمين أبو يوسف إلى عليّ بن أبي علي الخلّطي أن يُعيّنه بكل ما يحتاج إليه.

ولما خرج من فاس أبو دبّوس نشر علاماتِه وضرب طبوله، واجتمعت عليه أوباش عند قفوله، وتوجّه معهم بالعلامات والطبول، إلى حيث النزول، فضربت له^(٢) هناك خبأة، وقياطين كأحد السلاطين، ولما علّف قام في أوّل الليل ورحل مجدداً في السّير خوفاً أن يندم الأمير على ما فعل معه فيعقب عليه بالغدر، ووصل إلى عليّ الخلّطي فأسعد وأسعف، وأقام عنده بعض أيام ثم انصرف، وتوجّه إلى مسعود بن جلداسن الهسكوريّ فأعانه، ولم يمنع عنه إحسانه، وكان فراره من مراكش في العشر الوسط من شهر محرّم من عام ثلاثة وستين، واستقراره بالجبل عند ابن جلداسن المذكور في أواخر صفر من العام المذكور^(٣).

وفي هذه السنة: كان بالأندلس غلاءٌ مفرط أكثره ببالقة، فكان فيها المأكول غال وتبلّه عويص، وبيعت فيها الحاجة المثمّنة بالثمن الرّخيص، عصم الله من مثله بمنه.

وفي سنة أربع وستين وست مئة: تمكّن السيّد أبو العلى بجبل هسكورة، وأخبار ظهوره في كلّ مشهد مذكورة، والناس تردّ عليه في كلّ الأيام، فيعدهم بالإحسان والإنعام، ولما تحقّق ذلك المرتضى، تقلّب كأنه على جمر الغضا، واتهم شيخ عرب سفيان مسعود بن كانون أنه ينقضّ عهده ويرتكب الطغيان، فأمر باعتقاله بعد أن رادّده فيه من رادّده فلم يسمع من مقالِه، فبقي في السّجن معتقلاً إلى أن دخل أبو العلى مراكش فأطلقه وكرّمه ثم اقتضى نظر المرتضى أن يثقف شيخ بني جابر وقائد الروم، واتهم أن كلّ واحد منهما يروم الفرار.

(١) الضبط من ق.

(٢) ليست في ق، ك، ب.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٣٥١/٦، والاستقصا ٢٥٦/٢.

ولما استقرَّ أبو العُلى بالجبل مع الهسكوريِّ ورَدَ عليه حبيبُ بن يوسف الصَّوديِّ، فأعطاه ثلاثةً من الخيل الجياد، فقبله منه وشكره على ذلك وأبدى له جميل الاعتقاد، وطاعت له في هذه السَّنة هَزْرَجَةٌ وجميع قبائل هسكورة، وأحواله تَلُوحُ سَنِيَّةً مشكورة، ووصله في هذه السَّنة من قِبَل عَزَّوز بن يَبْرُوك هَدِيَّةٌ أيضًا، لكنَّه لم يصل بنفسه إليه ولا وَفَدَ عليه، بل من كان في خدمة الدَّولة السَّنيَّة المَرِيَّة، لكنَّه لأجل خروجه عن مُبايعة المرتضى وطاعته، أوجِبَ أن يُحاطَبَ هذا السيِّد ويُهَادِيَه ولم يدخل تحت مُبايعته. وَوَفَدَ على السيِّد أبي العُلى في الجبل جماعةٌ من المساحة والموحِّدين وجمعٌ كبيرٌ من المتجنِّدين، فعظمت شوكتُه في الجبل المذكور، وأصبح لديه جمعٌ مأمور، والمرتضى في قصره عن أمره غافل والحينُ عنه غير متغافل، وهبَّت عليه - نعوذُ بالله - ريحُ الإِدبار، وأقبلت الفُتوحُ على أبي العُلى بموافقة الأقدار، ومن المقادير أنَّ المرتضى لم يدعُ بحضرته جُنْدِيًّا إلا وَجَّهه لِرَجْرَاجَةٍ وحاجة، فعَدِمَ في ذلك سَدَادَه وصلاحه، وثَقِفَ كما تقدَّم شيوخ العرب، فلم يتأتَّ له بلوغُ الأرب، ومَرَّ جمعٌ كبيرٌ من عَرَب سُفَيان، مع شيخ من شيوخهم الأعيان، وكذلك ابنُ قَيْطُون ثائر، مع جمعٍ كبير من بني جابر، وقصدَ جَبَل أبي دَبُوس ليكونَ من أنصاره وحمايته، ودخل تحت طاعته، وكذلك جمعٌ من الرُّوم أخذوا له في الفِرار، مع القائد زُنَّار^(١)، فقوي أمرُ أبي دَبُوس بالجبل وزاد، وظهورُه في كلِّ يوم يزداد^(٢)، والموحِّدون في كلِّ وقت يكتبون إليه ويقدمون عليه، ويُخبرونه من أحوال المرتضى بالقليل والكثير، وأنَّ سِلَك مملكته نثير، ولقد قال له وزيرُه وصهرُه أبو موسى بن عَزَّوز: يا سيِّدنا رضي الله عنكم، حضرْتُكم المباركة خاليةً من الأجناد، والعدوُّ في الجبل قد ظهرَ أمرُه وزاد، فابعثوا لابن وأنودينَ وابن عَطُوش ليصلا إلى الحضرة، فنظَره بأقصى نظرة، وقال له: لا تُدخل نفسك في شيءٍ من ذلك، إلَّا أن كان وتنفقَ عليهم من مالِك، فيصلوا جميعًا من هنالك، فصمَّت أبو موسى الوزير، ثم قال لمن قال: صَرَبَ اللهُ القلَّةَ بالزَّبد، وكان أبو محمد بن رَجُوء^(٣) في قلتي عظيم من ذلك.

(١) الضبط من ق.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١.

(٣) الضبط من ق، ك. وقد اعتاد النساخ في مثل هذا أن يضعوا ألفًا بعد الواو، وليس بشيء.

ومن تدبيره أنه أَمَرَ بِقَتْلِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ قَيْطُونِ الْمَسْجُونِ، وقيل: بل مات مسموماً، فأورث في قلوب إخوته هموماً، فاغتاظ لموته أخوه ثائر، وكان في جَمْعٍ كبير من بني جابر، واغتاظ أيضاً علّوش بنُ كانون، وخاف أن يفُوتَ الأمرُ في أخيه مسعود المسجون، مثل ما فات في ابن قَيْطُون.

ولما استوفت على أبي دَبُوسٍ العساكر، واجتمعت عليه جميعُ الهساكر، طمع في فتح البلاد، وعزّم على الضرب والجلاد، فقصد إلى جهة أغمات، فخرج إليه من مراكش أبو زيد بنُ بجيت^(١) برسم حراسة أغمات وتلك الجهات، فانقضت عليه خيلُ أبي دَبُوسٍ فهزموه وقتلوا من كان معه، فكان أولُ الفتح ودليلُ النُجح، فقامت قيامة المرتضى من أجل ذلك، ولكن إذا أراد الله بالحين، صمّت الأذن وعميت العين^(٢). وكان بمراكش أقوامٌ يبحثون على الأخبار، ويكتبون المترايدات بالليل والنهار، والمرتضى لا يسمع قول قائل، ولا يعبأ بتلك الدلائل.

وخاطبَ أبا دَبُوسٍ شيخٌ من أشياخ الموحّدين، وقال له: إنّ البلدَ خالٍ من المتجنّدين، وحرّضه على النهوض، وأن يعومَ في بحر العزم ويخوض، قبل أن تصلها الأجناد، المتوجّهون لغرامة البلاد، فحلف علّوش شيخُ عرب سُفْيَانٍ لِيَسْبِقَنَّ إلى مراكش وليضربنَّ برُمحِه في باب الشريعة أحد أبوابها، ويقاتل كلَّ من يخرج إليه من أربابها.

فلما كان يومُ الجمعة الحادي والعشرين لشهر محرم وصل علّوش بن كانون السُفْيَانِيّ المذكور مع جماعة من العرب، برسم ما حلف عليه وله انتدب، والناس بمراكش في صلاة الجمعة، فقصد باب الشريعة وركّز فيه رحه، فقامت في البلد رهجة وصيحة، فخرج الناس من الجامع وطلّعوا إلى السور، فعابنوا علّوشاً المذكور وهو راجعٌ من الباب مع أشياعه، ولم يخرج أحدٌ من البلد لاتباعه، وبات الناس في تلك الليلة خائفين مترقبين، ولما يصدّر في أثناء ذلك متأهّين، فسأت حالهم، وترادفت أوجالهم، وأودعوا بالقيسارية أموالهم، والمرتضى غير متأهب لحرب، ولا مفكر في طعن ولا ضرب، فلما كان يوم السبت بعده طلع إلى القصبَة أرباب الدولة على العادة،

(١) في تاريخ ابن خلدون ٦ / ٣٥١: «أبو يزيد بن بكيت» والجيم في بكيت جيم مصرية.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦ / ٣٥١.

فخرج إليهم على عادته وسألهم عن تلك الحيل المغيرة إلى باب الشريعة، فأخبروه أنه علّوش المذكور، فما أطل ساعاً الجلوس، وقام بوجه عبّوس، بعد أن قال: تخرج المضارب في غد وتضرب بحومة المصلّى إن شاء الله تعالى.

كيفية دخول أبي العلى المدعوّ بأبي دبّوس مدينة مراكش^(١)

ولما كان يوم السبت أقبل إلى مراكش بمن معه من الحشود ووصله من الجنود، فتوجّه معهم قاصداً إلى باب أغمات أحد أبوابها، فأمر بتفقد الأسوار هل هي خالية من حراسها ورُقابها؟ فتطّلع أحدُهم على السور، فلم يجد شيئاً في تلك المسافة كلّها إلى الباب المذكور، فأعلم الناس بذلك، وحينئذٍ تعلّقت بعض رجال من هسكورة بالسور وطلّعوا على الباب من هنالك، ثم هبطت جماعة منهم إلى الباب فكسروا قفله، وهدموا الستارة التي كانت حوله، ودخل أبو العلى مراكش ونُصبت الراية عليه وأقبلت الحشود إليه، فما أوقفهم أحدٌ من أهل البلد، فبلغ الخبر المرتضى فوجّه ولده أبا عبد الله فركب على جواده، وليس معه أحدٌ من أجناده إلا نحو عشرة من العبيد وفارس واحد، فتوجّه إلى باب الصالحة فعان الحيل وسمع الطبل، فولى نحو القصبه خائفاً وجلاً، وإن رأى غير شيء ظنه رجلاً، وقد عان كثرة الرجل والحيل، وتركهم يميلون خلفه مثل السيل، وذلك بمقرّبة من باب الصالحة، فعان أحوال أبيه غير ناجحة ولا راجحة، ولما وصل إلى البوئية وجد فيها ابن يعلو وأحد الوزراء، فأخبره بما عان من دخول الأعداء، فسقط ابن يعلو إلى الأرض مغشياً عليه وفرّ راجله إلى أبي دبّوس قاصداً إليه، فأمر السيد أبو عبد الله بعلق البوئية وباب الطبول، وأذن لمن كان هنالك من الخدام بالدخول، فدخل معه أبو زيد بن يعلو الكومي وأبو موسى بن عزّوز الوزيران، وحضر معهما في الوقت أبو عبد الله المشرف ابن أبي البركات وأبو عبد الله التلمساني وابن عباد الأندلسي وموسى الحافز الهرغي والقائد سعد الحاجب.

ولما وصل أبو العلى مع من كان معه من الأجناد إلى البوئية وجدها مغلقة، وحينئذٍ حفز بعض الرجال الواصلين معه في حرم الجامع الكبير إلى أسراج الأول

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٢، والاستقصا ٢/ ٢٥٧ فما بعدها.

وَحَطُّوا^(١) فِيهِ وَكَسَرُوا قُفْلَ بَابِ^(٢) الْبُؤْيَةِ، وَحَيْثُ دَخَلَ أَبُو الْعُلَى مَعَ بَعْضِ مَنْ كَانَ مَعَهُ، فَعَرَّفَ السَّيِّدُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَالِدَهُ الْمُرْتَضَى بِمَا عَايَنَ، وَحَيْثُ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى التَّصْدِيقِ، فَركِبَ جَوَادَهُ إِلَى بَابِ الطَّبُولِ وَعَايَنَ ذَلِكَ بِالتَّحْقِيقِ، وَذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْأَبْوَابِ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى جَوَادِهِ، فَقَامَ اللَّهْبُ فِي فَوَادِهِ، فَطَلَبَ الْمَاءَ لِيَشْرَبَ مِنْهُ فَأُتِيَ بِإِنَاءٍ^(٣) فَشَرِبَ مِنْهُ وَشَرَبَ أَبُو دَبُّوسَ بَاقِيَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَغْرَبِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ مَلَكَيْنِ شَرِبَا فِي ذَلِكَ الْإِنَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، فَلَمَّا عَايَنَ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْمُرْتَضَى، سَلَّمَ الْأَمْرَ لِلْقَضَا، وَأَمَرَ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ أَنْ يَصْعَدَ عَلَى بُرْجِ الْبَابِ، فَصَعِدَ وَصَاحَ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ فِيهِ فَأَبْرَقَ وَأَرْعَدَ، وَكَانَ فِيهِ عِلْجٌ مَسْجُونٌ، فَعَايَنَهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ قَائِدِ الرُّومِ زَنَارَ، فَاخْتَطَفَهُ وَرَمَاهُ مِنْ أَعْلَى الْبُرْجِ فَسَقَطَ مَيِّتًا.

وَلَمَّا رَأَى أَبُو دَبُّوسُ سَقُوطَ الْعِلْجِ إِلَى الْأَرْضِ^(٤) مِنْ الْبُرْجِ قَدَّرَ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالرَّجَالِ، فَخَافَ مِنَ الرَّمْيِ عَلَيْهِ بِالنَّبَالِ، فَتَحَوَّلَ مِنْ أَمَامِ بَابِ الطَّبُولِ إِلَى حَوْمَةِ بَابِ الْكُحُولِ، فَوَجَدَهُ مَفْتُوحًا؛ لِأَنَّ أَبَا مُوسَى ابْنَ عَزُوزٍ حِينَ غَلَّقَتْ الْأَبْوَابُ بَقِيَ فِي أَسَارَاجَ، فَمِنْ خَوْفِهِ وَوَجَلِهِ أَمَرَ رَجَالَهُ أَنْ يَكْسِرُوا قُفْلَهُ فَكَسَرُوهُ وَفَرَّ مِنْهُ إِلَى جَبَلِهِ، فَسَرَّ أَبُو الْعُلَى مِنْ أَجْلِهِ، وَوَقَفَ أَمَامَهُ^(٥) مَعَ قَوْمٍ قَلَائِلَ مِنْ خَيْلِهِ وَرَجُلِهِ، وَتَفَرَّقَتْ عَنْهُ جُمُوعٌ هَسْكَورَةٌ وَدَخَلُوا الْقَيْسَارِيَّةَ وَنَهَبُوهَا أَيَّ انْتِهَابٍ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى جَمِيعِ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْأَمْتَعَةِ وَالْأَسْبَابِ، وَأَشْعَلُوا النَّارَ فِيهَا وَحَرَّقُوهَا، وَسَلَبُوا الْخَوَاتِجَ مِنَ الدِّيَارِ وَاسْتَاقُوهَا، وَبَقِيَ أَبُو دَبُّوسَ فِي أَسَارَاجِ الْأَوَّلِ يَوْمَ دَخُولِهِ مِنَ الظَّهْرِ إِلَى بَعْدِ الْعَصْرِ، ثُمَّ أَمَرَ بِفَتْحِ دَارِ الْأَشْرَافِ فَفُتِحَ وَنُقِبَ مِنْهَا إِلَى الْقَصْبَةِ، وَدَخَلَ الرَّجَالُ إِلَيْهَا مِنْ تِلْكَ الْأَنْقَابِ، وَحَصَلُوا مِنْهَا بِأَسَارَاجِ الْقَبَابِ.

وَكَانَ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ أَمَرَ بِإِطْلَاقِ غَرْسِيَا طَالِسَ مِنْ ثِقَافِهِ فَأُطْلِقَ وَأُزِيلَتْ عَنْهُ الْكُبُولُ، وَأَعْطَاهُ حِصَانًا وَدِرْقَةً، فَزَادَ وَنَقَصَ فِي كَلَامِهِ وَلَمْ يُفْهَمْ عَنْهُ مَا يَقُولُ، ثُمَّ اسْتَدَّ

(١) فِي ق: «وَحَصَلُوا».

(٢) لَيْسَتْ فِي ق، ك، ب.

(٣) سَقَطَتْ مِنْ ق، ك، ب.

(٤) شَبَّ الْجُمْلَةُ سَقَطَ مِنْ ق.

(٥) لَيْسَتْ فِي ق، ك، ب.

الأمر على المرتضى فوجد النصرائي غفلةً وفلته، فكان أول من صعد باب الطبول فوجد فيه أبا عبد الله بن زجو والنصرائي القطلاني^(١)، وبعد ذلك وصلهم المشرف ابن أبي البركات والكاتب التلمساني، وفيه كان اجتماعهم بعدما خارت طبائعهم فطلبوا العفو من أبي العلي فعفا عنهم وحلوا الباب فبايعوه، ودخل بعد صلاة العصر وبقي تلك الليلة لم يدخل القصر حتى صبح عنده هروب صاحبه وفراؤه، وحيث اطمأن واستقر به قراره.

كيفية فرار المرتضى من قصره، وما آل إليه أمره في آخر عمره^(٢)

ولما رأى المرتضى أموره غير ناجحة، توجه إلى بنيته التي سماها بالفاتحة، فقصد إلى بابها المسمى باب النحل، فأمر عليه بالحل، وكانت مفتحة عند وكيل القائد سعد الحاجب، وكان الوكيل غائباً في الوقت، وكان سعد المذكور يريد الرجوع عنه فوجد العذر بالمفتاح لأن يرجع ويحضرها فقبل ذلك منه، فانصرف ولم يعد إليه بعد ذلك، وبقي المرتضى ساعة كبيرة ينتظره، فلما صلى المغرب أمر بكسر باب النحل وخرج منه فاراً بنفسه، لا يعلم يومه من أمسه، وهو راكب على جواده، ومعه الوزيران المذكوران وبعض أولاده، فأخذ في التدبير مع وزيريه والفرار، إلى حيث يكون الاستقرار، فقال له أبو موسى ابن عوز: عسى يا سيدنا يكون استقرارك بالجبل عندنا وفيه يقع التدبير ووجه العمل، وذلك منه إليه أكبر الحيل؛ لأنه كان في اختياره، أن يصل إلى جبله وأهله ودياره، وكان بعض العرب قد نزلوا بواونزارت، فأخذ المرتضى مع أصحابه على تانششت وتوجهوا إلى بلد كيك، وفي نصف الليل وصلوه فاجتمع مع أبي بكر بن ياللتان النيمغري وبعض إخوانه، فحملوه إلى موضع أبي موسى بن عوز وأوصلوه، فلما وصل أبو موسى إلى قبيله وجد ابنه أبا سعيد قد سبق إليهم وعرفهم بالخبر قليلاً وكثيره، فقال له بعض قبيله: قد كتبنا لأبي دبوس بمبايعته والدخول في طاعته، فكيف يقيم هذا عندنا بعد ذلك؟ فامتنع أبو موسى من الرجوع إليه وبقي المرتضى رحمه الله واقفاً إلى أن تبين له الأمر، فتنقل هو وولده والوزير أبو يعلى الكومي، فمروا على دوار علي بن زجدار

(١) هذه القاف في أصلها كاف أعجمية.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٢، والاستقصا ٢/ ٢٥٨.

الونجاسني المَريني، وكان قد وصل برسم خدمته، فلم يقض الله له أن يراه في سُلطانه وحضرته، وكان المرتضى قد أذن له في الوصول إليه والقُدوم عليه، فأبى الله ذلك إلا ما قدّم من فراره، وأن يكون اجتماعه معه في دَوّاره.

فلما وصل مع أولاده إليه، بالغ في الإكرام والإقبال عليه، وصار يذكره ويصبرّه، فقال له المرتضى: يا أبا الحسن، أرَدنا أن تكون من أضيافنا فكنا نحن من أضيافك. فبكى ابن زكدار من كلامه، وتفجع لأمره وحاله، ورحل معه بجمعه إلى جدميوة، وكان فيها وزيره أبو زيد الجدميوي، فبعث إليه المرتضى أن يصله فمنعه ابن سعد الله فتوجه إلى شفشاوة، وكان له بها جملة كبيرة من البغال، فأعطاها لعلّي بن زكدار، وكتب إلى ابن وأئودين ليصله بالأجناد من حاحّة والقوّاد، فبقِيَ ينتظره إلى أن قيل له: قد جاز، وإن ابن عطّوش قد توجه أيضًا من رجّاجة بمن كان معه من الأجناد.

ولما بلغ إلى المرتضى رحمه الله خبر قوّاده، وأنهم توجهوا إلى مراكش، انقطع أمله وأمل أولاده، وبلغه أيضًا أن الكتب وصل ابن زكدار من أبي دبّوس بالتوكيد في الوصول إليه، فخاف المرتضى على نفسه أن يقبض عليه فتوجه مع أولاده والوزير المذكور إلى مدينة آزمُور، وقصد إلى عبد العزيز بن عطّوش الوالي من قبّله عليها الذي فداه من بني مَرينَ بهال كثير، ومن أجل ذلك توجه إليها.

ولما وصل إلى مدينة آزمُور قصد إلى قبر الشيخ الصالح المبارك أبي شُعيب نفع الله به برسم الدعاء والتبرُّك، وعند فراغه من الدعاء بعد صلاة المغرب قال: تنصرفوا^(١) إلى باب آزمُور، وتعرفوا بوصولنا البوّاب الذي في السور، ليعرف بذلك عبد العزيز المذكور، فقال له أبو زيد بن يعلو: يا سيّدنا، عبدُكم أعلمُ منكم بعبد العزيز وقلّة دينه وعَدَم وفائه، وعبدُكم يعرف حاله في قُبْح أعماله الدنيئة وأفعاله، فنخافُ يا سيّدنا عليكم من قُبْح فعله إليكم، فقال: حاشى لله أن يفعل ذلك معنا ونحن فديناه بأموالنا وقدّمناه على بلادنا، فلما سمع أبو زيد ذلك منه ودّعه وانصرف عنه وتركه منفردًا مع أولاده، وحيدًا من رعاياه وأجناده، فوصل أولاده إلى الباب المذكور، وكلّمهم البوّاب

من أعلى السُّور، فقال له أحدهم: تعرّف أبا فارس بوصول سيّدنا إليه، فتوجّه البوّاب ودخل عليه، فعرفه بذلك الخبر وأنّ الخليفة له منتظر، فبعث إلى أبي عبد الله بن القاسم من حينه إليه، فوجد البوّاب قاعدًا بين يديه، فأخبره أبو فارس بالقضية فأخذًا في التدبير، وبقيا متحيّرين في هذا الأمر الكبير، والمرضى رحمه الله خلف الباب ينتظر البوّاب بالجواب إلى نصف الليل، فانقطع أمله وانفصل صادرًا من هنالك، لا يعلم مسلّمًا من تلك المسالك، فبقي يتخبّط لا يعلم طريقًا، ولا يألّف خلاً ولا صديقًا، وأمّا ابن عطّوش فلم يجد له حيلة؛ لأنه قد كتب مع أشياخ صنّهاجة البيعة لأبي دبّوس وأنهم منتظمون في حزبه وجماعته.

وكان أبو دبّوس قد أمر بالبحث عليه في جميع طاعته، فوصل الجوزهر إلى أزمّور، برسم البحث على المذكور، فلمّا أصبح صباح تلك الليلة التي وصل فيها إليه، أخرج في طلبه جماعة من الخيّل والرّجال للقبض عليه، فخرج المذكورون والجوزهر معهم وبعض أشياخ صنّهاجة في طلبه، فوجدوه قد دخل في غار على شاطئ الوادي، خيفة أن يبصره الرائح والغادي، وذلك بمقربة من الموضع المعروف بورتوصوف، فقبضوا عليه وأكبلوه، وركبوه على زامل وحملوه، وركب أولاده على زوامل معتقلين، ونقفوهم في دؤيرة صغيرة بإزاء دار الوالي المذكور، فطلب من الوالي أبو الحسن القرطبي الذي كان مشرفًا بأزمّور أن يكون طعامه من عنده ما بقي هنالك متقفًا، فأبى له ذلك، وكتب ابن عطّوش إلى أبي دبّوس يعرفه بثقافته ليأمره بما يفعل به وبأولاده، فلمّا ورد كتابه عليه سرّ بذلك سرورًا عظيمًا، ولمّا تحقّق أبو العلى الواثق بالله ثقاف المرتضى بأزمّور وكتب له ابن عطّوش بكيفية حاله فيها واعتقاله، أمر وزيره أبا موسى أن يكتب له يسأله عن بيت مال المسلمين حيث هو ليُعلمه بذلك في جوابه إليه.

فكتب السيّد أبو موسى عن أمر أبي العلى الواثق بالله إلى أبي حفص المرتضى بهذا

النص:

اقتضى نظر سيّدنا ومولانا الخليفة الإمام الواثق بالله تعالى المعتمد عليه أمير المؤمنين أبي العلى ابن سيّدنا ومولانا الخليفة الإمام أبي عبد الله ابن سيّدنا أبي حفص ابن

سَيِّدِنَا الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَصَّرَهُ وَأَعَانَهُ وَظَفَّرَهُ، الْوُصُولَ إِلَى هُنَا بِرِسْمِ
الاجْتِمَاعِ بِكَ وَسُؤَالِكَ عَنِ الْمَالِ الَّذِي كَانَ بِيَدِكَ بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفَ مِنْ طُرُقٍ صَحِيحَةٍ
كَثْرَتَهُ وَأَنَّهُ مَالُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ تَزَلْ أَبَدًا تَنْتَمِي إِلَى الزَّهَادَةِ وَتَتَّصِفُ بِالْوَرَعِ، وَمَنْ يَكُونُ
كَذَلِكَ فَلَا يَلِيقُ بِهِ كَثَرُ الذَّهَبِ وَلَا الْفِضَّةِ حَتَّى يَدْفِنَهُ فِي الْأَرْضِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي
الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ مَا قَالِ، فَإِنْ كَانَ مَا بِيَدِكَ مَدْفُونًا فَعَرِّفْ حَيْثُ هُوَ أَوْ مَوْدَعًا
فَعَرِّفْ عِنْدَ مَنْ هُوَ، وَإِذَا أَقَرَّرْتَ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ يُرْجَى لَكَ عَفْوُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
الْخَلِيفَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِلَّا فَلَا تَلْمُ إِلَّا نَفْسَكَ وَأَنْتَ الْمَسْئُولُ عَنْهَا، وَأَنَا الْآنَ أَرْتَقِبُ جَوَابَكَ
لِنُطَالِعَ بِهِ الْبَابَ الْكَرِيمَ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى. وَكَتَبَ عِمْرَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ سَيِّدِنَا الْخَلِيفَةِ.

فَكَتَبَ الْمُرْتَضَى جَوَابَهُ بِخَطِّ يَدِهِ: حِفْظُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى وَأَبْقَاكُمْ رَحْمَةً لِلرَّحِمِ، وَاللَّهُ،
وَحَقُّ هَذَا الْمَقَامِ، مَا تُغَادِرُ - وَلَا نُرْضَاهُ لِحُشْرِي وَنُشْرِي أَنْ تُغَادِرَ - صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً،
فَالَّذِي كَانَ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ فِي بُيُوتٍ وَخَزَائِنَ بَلْ خَزَائِنَةٍ وَاحِدَةٍ وَزُجُجٍ صَنَادِيقَ وَالْحُلِيِّ
وَالْقَلَائِدِ مُتَفَرِّقَةً فَلَا أَعْرِفُ مَا وَجَدَ وَمَا لَمْ يَوْجَدْ وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ، اللَّهُ يُعَلِّمُ أَنِّي مَا دَفَنْتُهُ
وَلَا أَوْدَعْتُهُ، وَنَعْلَمُ مَا يَلْزَمُ عِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ، اللَّهُمَّ وَقْتُ وَصُولِ الْمَرِينِيِّ كَانَ الشَّيْءُ
كَثِيرًا حَتَّى خَرَجَ لَمَّا وَصَلَ الزَّعِيمُ ابْنُ سَجْنٍ بِمَعْرِفَةِ الْحَدَمَةِ كُلِّهِمْ وَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَا
نَقُولُ وَكِيلٌ. وَبِفَضْلِكُمْ يَا أَخِي وَبِحَقِّ الدَّمِ وَالرَّحِمِ، الْإِبْقَاءَ عَلَيَّ، وَاعْمَلُوا مَا يُجَازِيكُمْ
اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالسَّلَامُ يُخَصِّصُكُمْ وَالرَّحْمَةُ وَالْبَرَكَةُ.

وَكَتَبَ الْمُرْتَضَى أَيْضًا فِي بَطَاقَةٍ مَدْرَجَةٍ مَعَ كِتَابِهِ: يَا أَخِي حِفْظُكُمْ اللَّهُ، عَسَى
بِفَضْلِكُمْ تَتَلَطَّفُوا عِنْدَ مَقَامِ الرَّحْمَةِ وَغِيَاثِ الْأَرْمَةِ^(١) رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَبْقَاهُ رَحْمَةً
لِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَعِزَّةً لِلْإِسْلَامِ، فِي الَّذِي وَعَدْتُمْ مِنَ التَّأْمِينِ وَالْأَمَانِ وَالْإِبْقَاءِ مَعَ الْأَصَاغِرِ
وَالْأَحْفَادِ بَقِيَّةَ الْعُمُرِ، فَأَخُوكُمْ شَيْخٌ يَنْتَظِرُ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ وَكَثِيرُ الْعِلَلِ، فَبِاللَّهِ رَحْمَةً وَحَنَانًا
وَإِشْفَاقًا فِيمَا سَأَلْتُكُمْ، فَنَضْرَعُ لَكُمْ فِيهِ بِحُرْمَةِ مَوْلَانَا الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
تَسْلِيمًا، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يُبْقِي عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ، وَلَا يَنْسَى لَكُمْ هَذِهِ الْمَكْرُمَةَ، وَمَوْلَانَا الْمَقَامُ
الْأَرْحَمُ الْأَعْطَفُ، فَقَدْ عَمِلَ، فَاللَّهُ تَعَالَى يُجَازِيهِ بِفَضْلِهِ وَيُخَلِّدُ مُلْكَهُ آمِينَ آمِينَ.

(١) أي: الأصل والمنبت.

ولمّا وقّف أبو العُلى الواثق بالله على كتابه شَفِيقَ وَحَنٍّ عليه، وبعثَ السيّدَ أبا موسى عمرانَ معَ أبي سرحان بن كانون وجماعة من سُفيان برّسم توصيله إليه وتمثيله بينَ يديه، ثم بعد انفصالهم وقَعَ الرأي والتدبير في أن يُقتلَ قبلَ وصوله، فإنه لا يُعلمُ ما يكونُ عند قُدومه لحضرته على أجناده وخُدّامه، أشار عليه بذلك السيّد أبو زيد الأعرج؛ لأنّه قام في ذلك وقَعَدَ وانزعَجَ وحرَجَ، فكتبَ السيّد أبو العُلى إدريسُ براءةً بخطّ يده إلى السيّد أبي موسى المتوجّه لإيصاله إليه وحمله ودفعها لعمر بن أصلماط السنون تتضمّنُ قتلَ المرتضى في أيّ موضع يلقاه، فالتقاه بفرزغون، وثم جرّعه كأسَ المَنُون. وكان رحمه الله تعالى على بَغْلٍ مكبُولاً، وفي العماريّة محمولاً، وكذلك أولاده مكبولينَ على الدواب، وكلُّ واحد منهم بِنِقاب.

ولمّا وقّف السيّد عمرانُ على الكتب الواصل إليه أوقفَ أبا سرحان مسعودَ بن كانونَ عليه وأمرَ الرّجالَ أن يقفوا بالدابة التي كان عليها المرتضى هنالك بجانب، ودارت الخيلُ والرّجالُ عليه من كلّ جهة بخِلال ما يُحفرُ له القبر وينقضي فيه الأمر، وتقدّم بأولاده بعضُ الفرسان من ذلك المكان، وقد تبَيّن لهم من حَتَفٍ والِدِهِم وفَقَدِهِم إياه حينَ أُخِرَ عنهم كلّ التّيبان، ثم جُبِدَ البَغْلُ بالمرتضى رحمه الله إلى الموضع الذي قدّر الله عليه بالموت فيه، فأهبطَ عن الدابة وعابَنَ القبرَ الذي حُفِرَ له فقال للحاضرين: هذا هو قبرُنا؟ فقيل له: نعم يا سيّدنا، فقال: اتركوني أُصليّ ركعتين، فصلّاهما خفيفتين ثم تاهّب للموت وقال للواصل إليه بالسيف: أطفُؤُحْ هذا منك أو أمرُ أُمِرَتَ به؟ فقال له بالأمر، ثم استشهد واستشهد وقضى نحبه رحمه الله، وقبره الآن مشهورٌ بفرزغون، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، ودُفِنَ يومَ الثلاثاء الثاني والعشرين لصَفَرٍ من العام المؤرّخ بعد شهرٍ كامل من خروجه من قصره، رحمه الله وعَفَا عنه برحمته.

وكان الخليفة المرتضى رحمه الله يتوقّى شرَّ من اسمه إدريس؛ لأنّه كان في علمهم أنّ دولتهم على يدِ من اسمه إدريسُ تنقرضُ وتندرس، فلمّا وليَ الخلافةَ إدريسُ الملقَّبُ بالمأمون قتلَ أشياخَ الموحدّين وقطعَ دعوتهم وأزال اسمَ مهديّهم من سِكَّتِهِم وخُطَبَتِهِم، فقالوا: هذا هو إدريسُ المذكورُ الذي يَدُرُسُ دعوةَ التوحيد، ثم أعاد الدولة والدعوة ولده الرّشيد، فلمّا وليَ الخلافةَ أبو حفص المرتضى من بعد السّعيد، كان في أيام دولته

شخصُ اسمه إدريس من أولاد المنصور، يريدُ العلوَّ والظهور، فظنَّ أنه هو إدريسُ المذكور، فقيل: إنه قتله بالسُّم والله أعلم بخفِيَّاتِ الصُّدُور، وأمَّا إدريسُ هذا الملقَّبُ بأبي دَبُوس، فكان عنده أبدًا محقورًا، فأراد الله أن يُخرِجه على يده من قصره مفؤودًا مقهورًا، يسري ليله ويختفي نهاره، لا يأوي إلى معمر، إلى أن غلبه القَدَرُ المقدور، فكان من أمره ما ذُكِرَ رحمه الله.

وكان رحمه الله إمامًا عادلاً وملكًا فاضلاً، وفقيرًا عالمًا، وبالسُّنة والكتاب حاكمًا، لم تُعلَم له صَبُوءٌ في صباه ولا سَطُوءٌ تَتَّقِيها أعداءه، بل كان يأخذهم بإرادته، فكم له فيهم من قَتيل في أيام دولته. وكان أدبيًا عفيفًا شاعرًا ظريفًا، غير أنَّ شعره كان ضعيفًا. ووفَّقت له على سِفَرٍ مجلَّد من شعره بنظْمِهِ ونثره، فمن ذلك قوله في شهر ربيع [من الكامل]:

وافي ربيعٍ قد تعطَّرَ نفحُهُ	أذكى من المِسك العتيق نسيمًا
بولادة المختار أحمدَ قد بدا	يزهوبه فخْرًا وحاز عظيمًا
بُشرى بشهرٍ فيه مولده الذي	ملا الزَّمانَ علاؤه تعظيمًا
ضاءت به شرقُ البلاد وغربها	وتأنَّقت أرجاؤها تنعيمًا
فاعترَّ أمرُ الله يومَ طُلوعِهِ	وغَدابه دينُ الإله قويمًا
فاعرِف لهذا الشهرِ حقَّ قَدْرِهِ	فلقد غدا بينَ الشهورِ كريمًا
شهرٌ كريمٌ جاء فيه محمدٌ	صَلَّوا عليه وَسَلَّموا تسليما

ومن قوله في معنى الزهد [من المتقارب]:

ولمَّا مَضَى العُمُرُ إلا الأقلَّ	وحان لروحي فِراقُ الجَسَدِ
دَعَوْتُ إلهيَ مُستعطفًا	لِيُصَلِّحَ مِنِّي ما قد فَسَدَ
وَيُصَلِّحَ نَفْسي وأَخلاقَها	ويُذهِبَ عنها الرِّياءَ والحَسَدَ
فَسُوِّقُ الرِّياءَ بها نافقُ	وسُوِّقُ العَفافِ بها قد كَسَدَ

ومن قوله معتذراً عن لقبه [من الكامل]:

يَدْعُونَ عَبْدَكَ سَيِّدِي بِالْمَرْتَضَى هِيَهَاتِ أَيْنَ وَأَيْنَ مَنِّي الْمَرْتَضَى
مَالِي عَلَى مَا لَقَّبُوهُ قَدْرَةً إِلَّا بِمَا أَرْجُوهُ مِنْكَ مِنَ الرِّضَا

ولَمَّا رَدَّ وَلَدُ ابْنِ الصَّقَرِ عَلَى الْخُطِيبِ فِي خُطْبَتِهِ وَكَذَّبَهُ حِينَ فَاهَ بِعَصْمَةِ الْمَهْدِيِّ،
أَرَادَ الْمَرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْجُنَهُ وَلَا يَقْتُلَهُ عَلَى قَوْلِهِ، فَأَبَى الْأَشْيَاخُ وَالْوُزَرَاءُ إِلَّا وَقُوعَ
قَتْلِهِ إِلَى أَنْ غَلَبُوا عَلَيْهِ، فَالَ أَمْرُهُ إِلَى الْقَتْلِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ غَيْرُهُ، فَأَمَرُوا عَلَيْهِ
فَقَتَلُوهُ ظُلْمًا قَبَّحَهُمُ اللَّهُ. وَكَانَ يَقُومُ بِلَيْلَةِ الْمَوْلَدِ خَيْرَ قِيَامٍ وَيُقَيِّضُ فِيهِ الْخَيْرَ وَالْإِنْعَامَ، وَكَانَ
أَشَارَ لَهُ بِذَلِكَ الْفَقِيهُ^(١) أَبُو الْقَاسِمِ الْعَزَفِيُّ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَلَّفَ كِتَابَهُ «الدَّرُ الْمُنَظَّمُ فِي مَوْلِدِ النَّبِيِّ
الْمُعَظَّمِ» بَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ وَأَشَارَ بِذَلِكَ الرَّأْيِ عَلَيْهِ. وَكَانَ مُحِبًّا فِي مِطَالَعَةِ الْكُتُبِ وَتَوَالِيفِهَا
وَتَصَانِيفِهَا، فَالَّفَ لَهُ الْفَقِيهُ^(٢) أَبُو مُحَمَّدِ ابْنُ الْقَطَّانِ جُمْلَةً مِنَ الْكُتُبِ الْحَفِيلَةِ الْجَلِيلَةِ وَأَمَدَهُ
بِالدَّوَاوِينِ الْعَظِيمَةِ وَالْحَيَرَاتِ الْجَلِيلَةِ، فَمِنْهَا: «كِتَابُ نَظْمِ الْجَمَانِ وَوَاضِحِ الْبَيَانِ فِيمَا
سَلَفَ مِنْ أَخْبَارِ الزَّمَانِ»، وَ«كِتَابُ شِفَاءِ الْغُلَلِ فِي أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ»، وَ«كِتَابُ
الْأَحْكَامِ لِبَيَانِ آيَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وَ«كِتَابُ الْمَنَاجَاةِ»، وَ«كِتَابُ الْمَسْمُوعَاتِ»، فِيهِ قِصَائِدُ
مُتَخَيَّرَاتٍ فِيمَا يُحْصُ بِالْمَوْلَدِ الْكَرِيمِ وَشَهْرِ رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ غَيْرَ مُبَخَّتٍ فِي حَرَكَاتِهِ، يَخْرُجُ لِلْحَرَكَةِ مِنَ الْحَضْرَةِ بِالْعَسَاكِرِ
الصَّخْمَةِ وَالْأَعْدَادِ الْجَمَّةِ، فَمَا يَسْلَمُ فِيهَا مِنْ بُوسٍ وَلَا مِنْ يَوْمِ عَبُوسٍ، وَلَا تَحْدُثُ عَلَيْهِ
فِيهَا حَوَادِثُ وَخَطُوبٌ كَوَارِثَ حَتَّى يَجْفَلَ عَسْكَرُهُ بِالْهَرُوبِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا حُرُوبٍ،
وَطَوَّلَ ثِقَافَهُ بِأَزْمُورٍ يَرِثِي نَفْسَهُ وَيَكِي عَلَى فَقْدِ إِلْفِهِ وَطَوَّلَ مَحَبَّتَهُ وَغُرْبَتَهُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا
قَالَهُ [مِنَ الْبَسِيطِ]:

قَهْرُ الْمَنِيَّةِ تَحْتَ التُّرْبِ أَسْكَنَنِي وَمَا أَخَذْتُ مِنَ الدُّنْيَا سِوَى كَفَنٍ
فِيَا بُنَيَّ وَيَا إِلْفِي وَيَا سَكَنِي تَاللَّهِ لَوْ كَانَ لِي حُكْمٌ عَلَى زَمَنِ
يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ مَا فَارَقْتُكُمْ أَبَدًا

(١) لَيْسَتْ فِي ق، ك، ب.

(٢) لَيْسَتْ فِي ق، ك، ب.

تركتهم بين تشيتٍ ومجتمعٍ وبين بالكٍ من اللذات ممتنعٍ
ونسوةٌ بالفنا يكونَ من جزعٍ ألست من بعد عري أهون الخلعِ

وما مددت لهم يومَ الوداعِ يدا

أنا الغريبُ بأرضٍ ضاقَ مسلكُهُ مع البنينَ ولكن كنتُ أملكُهُ
ما كان ظنِّي صغيرَ القومِ أترُّكُهُ في حُجرِ مرضعةٍ يحبو فتمسكُهُ

بالرَّغمِ مني تركتُ المالَ والولدا

طمعتُ في الرُّوحِ أن يبقى معي فأبى لَمَّا تحقَّق أنَّ الأمرَ قد وجبا
ونالَ صَرفُ زماني كلَّ ما طلبا وصرتُ مستوحشًا من جملةِ الغربا

وعندَ قطعِ رجائي لم أجدُ أحدا

عينُ الزَّمانِ أصابَتني بنظرِها وأذهبتُ عِزِّي في طولِ مدَّتِها
عجبتُ من بُطئِها عني وسُرْعَتِها وكيف ما زَجَنِي تلوينُ صبغَتِها

في حينَ فارَقَ مني رُوحِي الجَسَدا

وأما أولادُه فثَقِفَهم أبو دَبُوسَ طولَ مدَّتِه إلى أن أخرجَهم الأميرُ أبو يوسفَ من
ثِقافِهم في عامِ ثمانية وستينَ إلَّا كبيرَهم أبا محمدَ عبدَ اللهِ، فإنَّ أبا دَبُوسَ قَتَلَه في السَّجَنِ
بمَسَلَّةٍ أدخَلَها تحتَ إبطِه ماتَ منها رَحِمُه اللهُ تَعَالَى، وَلَمَّا أخرجَهم أبو يوسفَ رَحِمَه اللهُ
من السَّجَنِ توجَّهوا إلى الأندلسِ وحصلوا عندَ الفُشْ بِإِشْبِيلِيَّةِ أعوامًا عديدةً، ثم انتقلوا
منها إلى غرناطة وحصلوا تحتَ طاعةِ أميرِها، وهم الآنُ بها في عافيةٍ بمُرْتَباتٍ شهريَّةٍ
يقبضونَها في كلِّ شهرٍ، وكبيرُهم أبو عبدَ اللهِ فيها معهم. وأما أخوهم أبو زيدَ فوصلَ
من الأندلسِ إلى السُّوسِ على حمارةٍ، فسَمَّته العوامُ (أبو) حمارةً، وذلكَ في عامِ أربعةٍ وثمانينَ
وست مئةً، وهو الآنُ بَقِيْدَ الحياةِ في جبلِ سَكْسَاوَةَ يعيشُ مِنَ النَّسَخِ، وأخوه محمدُ بَغَرِناطَةَ
في وقتنا هذا، وهو عامِ اثني عشرَ وسبع مئةً.

ذكرُ خلافةِ الواثق بالله^(١) أبي العلي ومدته

وبعض الأخبار في أيام دولته

نسبه: هو إدريس بن أبي عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن.

كنيته: أبو العلي، شهرته: أبو دبوس؛ لأنه كان ببلاد الأندلس في الجهاد وغيره لا يفارق الدبوس فاشتهر به، وتسمى من أسماء الخلفاء باسمين في نسق: الواثق بالله والمعتمد عليه.

صفته: أزرق العينين أشقر الرأس واللحية ساطع البياض مربوط القد، وكان شجاعاً فارساً عازماً حازماً.

أولاده: جماعة، منهم: عبد الواحد، بايعه بمراكش بعض القرابة والموحدين بعد موت أبيه.

إخوته: كانوا تسعة وهو عاشرهم، وهم المشهورون بالبياسيين.

وزرائه: السيد أبو زيد عبد الرحمن ابن السيد أبي عمران، وأخوه لأبيه السيد أبو موسى عمران بن أبي عمران، والمتقربون عنده من أشياخ الموحدين: أبو محمد بن زجو وأبو زيد بن عبد الكريم، ومن الحضرة: أبو الحسن المغربي.

وكتب له أبو الحسن الرعيني وأبو عبد الله التلمساني من كتاب الخلفاء قبله، وكتب له غيرهما.

مشرقه: أبو عبد الله بن أبي البركات، كما كان مع من تقدم قبله.

قاضيه: أبو إسحاق ابن القشاش.

وكانت دولته من حين استقراره بدار الخلافة مراكش حرسها الله تعالى عامين وأحد عشر شهراً وثمانية أيام أولها يوم السبت الثاني والعشرين لشهر محرم مفتتح خمس وستين على الرواية المتقدمة في دخول القصر على المرتضى واستيلائه على مراكش، وآخرها يوم الجمعة منسلخ شهر ذي الحجة من عام سبعة وستين وست مئة، وقيل:

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ١٥٣/١٥.

إِنَّ قَتْلَهُ كَانَ فِي مُحَرَّمٍ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةِ وَسْتَيْنَ، وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنْ فِرَارَهُ مِنْ مَرَائِشَ كَانَ فِي مُحَرَّمٍ، وَفَتَحَهُ لَهَا فِي مُحَرَّمٍ، وَقَتْلَهُ فِي مُحَرَّمٍ.

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْوَائِقُ بِحَضْرَةِ مَرَائِشَ وَقَرَّ الْمُرْتَضَى مِنْ بَابِ فَاتَحْتِهَا اشْتَمَلَ النَّاسُ عَلَى طَاعَتِهِ، وَتَوَارَدُوا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ عَلَى حَضْرَتِهِ، فَرَفَعَ عَنْهُمْ الْكُلْفَ وَالْمَحْدَثَاتِ بِالْبُؤَادِي وَالْحَوَاضِرِ، وَاقْتَصَرَ عَلَى الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا قَدِيمًا الْعَمَلُ الْمُتَوَاتِرُ، وَذَلِكَ مَعَ تَصَرُّفِ الْقَوَادِ، وَكَثْرَةِ الْمُؤَنِّ لِلْأَجْنَادِ، وَلَيْسَ بَيْتُ الْمَالِ مَالٌ وَلَا طَعَامٌ، فَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْاِحْتِيَاجُ الشَّدِيدُ وَالْإِعْدَامُ، إِلَّا صِبَابَةً مَعْرُوفَةً الْقَدْرَ قَلِيلَةً الْخَطَرَ، فَاقْتَصَرَ عَلَى ذَلِكَ الْقَدْرِ الْيَسِيرِ، وَأَوْسَعَ الْأَجْنَادَ الْعَطَاءَ لِلْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَعَمَّا عَنِ الْمَجْرِمِينَ وَصَفَحَ، وَبَذَلَ الْعَطَاءَ وَمَنَحَ، وَأَمَرَ بِالْقَبْضِ عَلَى بَعْضِ الْمُسْتَغْلِينَ فَأَغْرَمَهُمْ، وَقَدَّمَ بَعْضَهُمْ عَلَى الْأَشْغَالِ وَالْأَعْمَالِ وَأَكْرَمَهُمْ، وَسَرَّحَ الْأَبْوَابَ لِلدَّخْلِ وَالخَارِجِ دُونَ غُرْمِ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا فِي سِلَاحٍ وَلَا فِي زَرْعٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ يُغْرَمُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ مُدَدِ الْأَمْوَاءِ، وَكَمَا أَمَرَ بِرَفْعِ غُرْمِ الْأَبْوَابِ، كَذَلِكَ أَمَرَ بِرَفْعِ الْمَعُونَةِ فِي الرَّحَابِ، وَأَمَرَ بِحُلِّ بَابِ نَفْسِ وَبَابِ الْمَخْزَنِ وَبَابِ الْفَتْحِ الَّذِي دَخَلَتْ مِنْهُ مَرَائِشَ، وَهُوَ بَابُ أَغْمَاتٍ، فَسَمَّاهُ بَابَ الْفَتْحِ لِمَا فَتَحَ مِنْهُ مَرَائِشَ، وَعِنْدَ دُخُولِهِ إِلَيْهَا وَحُلُولِهِ بِهَا رَفَعَ إِلَيْهِ بَعْضَ الْكُتُبِ وَالطَّلَبَةِ أَشْعَارًا بِالْتَهْنَةِ وَالِاسْتِعْطَافِ، فَمِنْ قَوْلِ أَبِي الْحَسَنِ الرَّعِينِيِّ [مِنْ الْوَافِرِ]:

أَسِيدَنَا وَمَوْلَانَا وَالْأَوَّلَى	بَنَا وَخَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ فِينَا
وَضَلَّ اللَّهُ مَنْ يَأْوِي إِلَيْهِ	يُنَالُ أَمَانَهُ دُنْيَا وَدِينَا
أَتَيْتُكَ مُسْتَغِيثًا مُسْتَعِينًا	وَشَأْنُكَ أَنْ تُغِيثَ وَأَنْ تُعِينَا
فَإِنَّكَ رَحِمَةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ	تَعَارَفَهَا جَمِيعُ الْعَالَمِينَا
وَمَا لِي مُلْجَأٌ إِلَّا إِيَادُ	تَعَاهَدْنَا بِهَا حِينًا فَحِينَا
إِذَا مَا الْخَطْبُ أَعْضَلَ مِنْهُ دَاءٌ	وَكَانَ الْأَمْرُ يَقْطَعُ بِي الْوَتِينَا
رَجَوْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ	وَفَضْلَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَا

وَكَانَ الْوَائِقُ بِاللَّهِ يَوْمَ فَتَحَ مَرَائِشَ حِينَ حُلَّ لَهُ بَابُ الطُّبُولِ، وَبَايَعَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبَةِ وَالْمُسْتَغْلِينَ تَلْقَاهُمْ بِالْقَبُولِ، وَأَوَّلُ مَا قَدَّمَ: الدَّخُولُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ

تِيْمَنًا بِهِ وَشُكْرًا لِلَّهِ عَلَى جَمِيلِ مَوَاهِبِهِ، فَظَهَرَ عَلَيْهِ فِيهِ أَثَرُ الْخُشُوعِ، وَالتَّوَاضُّعِ لِلَّهِ وَالْخُضُوعِ، فَلَمَّا قَضَى حَقَّ الشُّكْرِ لِلَّهِ خَرَجَ مِنَ الْجَامِعِ وَرَكِبَ بِيَاهِهِ وَدَخَلَ الْقَصْرَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَوَقَفَ هُنَاكَ لَتَهْنِئَةِ النَّاسِ لَهُ وَلَثَمَ يَمِينَاهُ، وَذَلِكَ تَمَنُّ حَضَرَ فِي الْوَقْتِ مَعَهُ وَالَّذِينَ سَرَّحَهُمْ مِنَ السَّجْنِ كَمَسْعُودِ بْنِ كَانُونَ وَغَيْرِهِ، وَصَرَفَ النَّاسَ عَشِيَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَدْخُلِ الْقَصْرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. وَلَمَّا كَانَ فِي غَدِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ رَكِبَ بِنَفْسِهِ وَدَارَ فِي الْبَلَدِ لِرُدْعِ الْمَفْسِدِينَ وَالْمُعْتَدِينَ، وَأَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِ شَخْصَيْنِ، فَكَفَّتْ أَيْدِي التَّعَدِّيِّ عَنِ النَّاسِ.

وَبَعَثَ إِلَى الْأَمِيرِ الْأَجَلِّ أَبِي يَوْسُفَ أَرْسَالَهُ، وَشَرَحَ لَهُ أَحْوَالَهُ، وَقِيلَ: إِنَّهُ بَعَثَ لَهُ بَشِيءًا مِمَّا تَصَيَّرَ فِي مِلْكِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ السَّبَبَ مَعَ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مُلْكِهِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَفِ بِمَا وَعَدَهُ، وَلَا بِمَا عَلَيْهِ عَاهَدَهُ، فَتَحَرَّكَ إِلَيْهِ وَاسْتَقَرَّ بِلَادَ تَامَسْنَا، وَكَانَتِ الْمُخَاطَبَاتُ بَيْنَهُمَا كُلَّ حِينٍ وَالْمُرَادَاتُ.

وَكَانَ أَيْضًا بَيْنَ الْوَائِقِ بِاللَّهِ وَبَيْنَ ابْنِ جَلْدَاسَنَ وَخَشَةَ أَوْجَبَتِ الْحَرَكَةَ مِنْ مَرَّاكُشَ لِحَسِيمِ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَقَصَّدَ إِلَى هَسْكَورَةَ عَلَى مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: تَحَرَّكَ الْوَائِقُ بِاللَّهِ إِلَى هَسْكَورَةَ، كَانَتْ حَرَكَتُهُ يَوْمَ الْخَمِيسِ الْخَامِسِ لَشُعْبَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُؤَرَّخِ، وَكَانَ نَزْوُهُ يَوْمَ خُرُوجِهِ مِنْ مَرَّاكُشَ بِالْبُحِيرَةِ الشَّهِيرَةِ بِوَلْحَرْبِ، فَكَانَ قَالًا لَهُ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ طَوْلَ مُدَّتِهِ فِي هَوْلٍ وَحَرْبٍ، فَأَقَامَ بِهِ أَيَّامًا لِيُخَلِّصَ أَجْنَادَهُ مِنْ أَزُودَتِهِمْ وَمُرْتَبَاتِهِمْ، وَكَانَ الرِّحِيلُ مِنْ هَذَا الْمَنْزِلِ فِي الثَّانِي عَشَرَ لَشُعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ إِلَى الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِدَارِ الرَّمَاكِ: مِنْ بِلَادِ هَيْلَانَةَ وَبِمَقْرُبَةٍ مِنْهُ وَادِي أَغْمَاتٍ، وَكَذَلِكَ وَادِي الزَّاتِ، وَفِيهِ تَرْتَّبَ نَزْوُ الْعَرَبِ فِي مَرَجٍ يَأْزَاءُ الْمَحَلَّةِ عَلَى عَادَةِ التَّرْتِيبِ الْمَعْتَادِ، وَفِيهِ تَخَلَّصَتْ أُمُورُ الْأَجْنَادِ مِنْ أُعْطِيَاتِهِمْ بِرِسْمِ الزَّادِ.

وَفِي التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ شُعْبَانَ الْمَذْكُورِ نَزَلَتِ الْمَحَلَّةُ الْمَنْصُورَةُ بِمَوْضِعِ تَادَارَتِ^(١) مَعْطَاسَةَ، وَفِيهِ: وَصَلَ بَعْضُ أَشْيَاخِ قِبَاثِلِ هَسْكَورَةَ، وَكَانَ الشَّيْخُ الصَّالِحُ أَبُو الْعَبَّاسِ حُمَيْدِيُّ بْنُ مَخْلُوفِ الْمَهْكَورِيِّ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى الْأَمِيرِ الْأَجَلِّ أَبِي يَوْسُفَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِ

(١) مَجُودَةُ التَّقْيِيدِ فِي ق، ك.

الخليفة الواثق بالله أبي العلي في مطالب قد كان وصل فيها قبل إليه وشرط عليه، ثم وصل حميدي المذكور أيضا في هذا المنزل من قبل الأمير أبي يوسف، وعاد أيضا إليه من هذا المنزل بما وقع الاتفاق عليه.

وفي هذا المنزل كان تقديم الواثق بالله لأبي موسى بن عزوز على بلاد حاحة لتغريم جبايتها والنظر في أشغالها وأعمالها كما جرت عادته في ولايتها، وتوجه رسولا من قبل الخليفة الواثق بالله: أبو فارس عبد العزيز بن عطوش إلى أبي عثمان مسعود بن جلداسن المسكوري في مصالح ومهمات، ثم عاد من عنده المذكور بأمر وأحوال بلغها للخليفة مشافهة، وربما كان في ذلك من مسعود بعض العتب بالمناجهة، فعلم منه بعض الحق في كلامه، وأضرب عن مقاله وملامه، وتركه على حاله مقرا بالسمع والطاعة في جباله، ففتح منه بذلك ولم يطمع في نزوله من هنالك.

ثم شاع الخبر بمحلة الواثق بالله بانفصال بني مرين وإجازتهم وادي أم ربيع^(١)، وأتهم قد خامرهم من الجرع ما اقتحموا بسببه الوادي المذكور، حتى هلك فيه كثير من أموالهم، ورأوا أن النجاة بنفوسهم نهاية بغيتهم وأمالهم، فسر بذلك الموحدون وأتباعهم، وأشاع ذلك الخبر أشياعهم، حتى تملأت منه أسماعهم، وليس الأمر والله أعلم كذلك، وإنما كان انفصال السلطان أبي يوسف مع بني مرين من هنالك، بعهود ومواثق وهدية قبلها من الواثق، فلم يتم ذلك العهد المعهود، ولا العقد المعقود، إلى أن كان ما كان بينهم من الضرب والطعان، على ما سيأتي ذكر بعضه مختصرا إن شاء الله تعالى.

وفي الخامس والعشرين لشعبان من السنة: انتقلت المحلة من تادارت إلى الوجهة في الجهة الشرقية منها.

وفيها: عاد الشيخ الصالح المبارك أبو العباس حميدي المذكور بتصحيح الخبر بانصراف بني مرين إلى الغرب دون طعن ولا ضرب.

ولما تواترت الأخبار بانصراف بني مرين إلى بلادهم، وارتحالهم بأموالهم وأولادهم، وصل أبو فارس عبد العزيز بن عطوش من عند مسعود بن جلداسن بكل

(١) الروض المعطار ٦٠٥.

خير، وأنه تحت السَّمْع والطاعة، فاقتضى نظراً الواثق أن يتنحى عن بلاد هسكورة لئلا تلحقها معرة العَرَب بانتساف زروعها والاحتحام بالغارة عليها وأن يكون التوجه إلى جهة وادي الدَّيل ثم إلى وادي تانسيفت ليكون بمقربة من مراكش.

وكان السبب أيضاً في استعجال وصول الواثق بالله إلى مقربة من حضرته ما ذكر له عن عبد العزيز بن السَّعيد، مما أوجب حَتفه ومَنيته قبل أن يبلغ أمنيته.

ولما نزلت المحلة بموضع تاونزرت بموضع من مواضع تانسيفت، شرع الواثق بالله في التجهيز من هنالك عسكرياً لتغريم الجباية الحاحية والركراكية، وشرع في تجهيز العساكر الموحدية والعربية ليتحركوا معه إلى بلاد السُّوس لاستئصال شقيها وإبادة غويها علي بن يدر وإخوانه، فأصرف من هذا المنزل إلى دكالة عرب سُفيان، ولم يبق معهم إلا شيخهم أبا سرحان في حصّة من إخوانه، وتوجه الغير برسم تجديد حركاتهم، وبقي آخرون برسم أخذ أعطيّاتهم وبركاتهم.

ذكر القبض على ابن السَّعيد، وما جرى عليه من الخطب الشديد

قال المؤلف: أخبرني بعض العارفين بأمره أنه لما رأى ما تُصور لأبي العلي الواثق بالله من تصوير الخلافة إليه، وليس هو من بني المنصور، أنه أحق بها منه، ففهم بعض أصحابه ذلك عنه، فهوّنوا عليه الأمور، لينالوا معه العلو والظهور، واستكتم ذلك الأمر من بعضهم خيفة أن يظهر، كأبي الشرف عبد الرافع، وكان عنده أرفع من كل رافع، ومن ابن عبد القاهر، وكان عنده كالطبيب الماهر، لعلهم أنها لا يوافقانه على ذلك التدبير، ولا على ذلك الرأي الدبير، ومَن وافق على ذلك ابن بجيت وابن جلداسن وغيرهما، فبعث السيّد المذكور لابن جلداسن علي بن منصور بتهليل وبراءة بخط يده تتضمن العهد والنَّجاز في تلك الأمور، فتكلّم ابن منصور مع ابن عبد القاهر وأخبره بذلك، ولما رأى منه عدم الموافقة وخاف أن يُظهر الأمر بادر بإظهاره، وعرف الواثق بالله بأمور السيّد وأخبره، وكان علي بن منصور عند الواثق صادق القول، فعند وصوله إليه وقدمه بمغطاسة عليه، عرفه بذلك إثر سلامه ودفع له التهليل والبراءة، وتبرأ من تلك الأمور أتم براءة.

وَكَتَمَ الْوَائِقُ بِاللَّهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ عَنْ وُزَرَائِهِ وَأَرْبَابِ دَوْلَتِهِ إِلَى أَنْ وَصَلَ تَانَسِيفَتْ
بِمَقْرُبَةٍ مِنْ حَضْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْهَا السَّيِّدُ أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ السَّيِّدِ أَبِي عِمْرَانَ،
وَكَانَ وَالِيَهَا وَخَلِيفَتَهُ فِيهَا، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِهِ وَصِهرُهُ، فَعَرَفَهُ بِحَالِ السَّيِّدِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ
السَّعِيدِ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى الْقِيَامِ بِمَرَاكُشَ عَلَيْنَا، وَأَرَادَ أَنْ يَقْبِضَ
عَلَيْكَ وَيَعْجَلَ بِالْقَتْلِ إِلَيْكَ، وَأَنْتَ غَافِلٌ عَنْهُ هُنَالِكَ، لَيْسَ لَكَ خَبَرٌ بِذَلِكَ، فَذَمَّهُ غَايَةً
الذَّمِّ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَحْتَالَ عَلَيْهِ وَيَحْصِلَهُ حَتَّى يَأْخُذَهُ بِإِقْرَارِهِ، وَيَقَرَّرَ لَدَيْهِ مَا أَضْمَرَ مِنْ أَسْرَارِهِ،
وَحِينَئِذٍ يُكَبِّلُهُ وَيَقْتُلُهُ.

وَكَانَ السَّيِّدُ عَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنُ السَّعِيدِ لَا يَخْرُجُ مِنْ دَارِهِ، بَلْ يَقْعُدُ مَعَ إِخْوَانِهِ، وَرَجَالِهِ
وَأَخْدَانِهِ، فِي رَحْبَةٍ أُسْطُوَانِهِ، فَنَظَرَ السَّيِّدُ أَبُو زَيْدٍ فِي شَانِهِ، وَدَبَّرَ وَجْهَ الْحِيلَةِ فِي أَخْذِهِ مِنْ
غَيْرِ أَنْ يُعْلِمَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِهِ، خِيفَةً أَنْ يَشْعُرَ الْمَذْكُورُ وَيَفِرَّ، وَلَا يُعْلِمَ حَيْثُ يَسْتَقِرُّ،
فَأَخَذَ السَّيِّدُ يَنْظُرُ فِيمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِ النَّاسِ وَمَنْ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ اسْتَدْعَاهُ يَخْرُجُ
مِنْ حَيْثُ بِهِ إِلَيْهِ، وَكَانَ الشَّيْخُ الْفَقِيهَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّقَطِيُّ يَشْتَدُّ لَهُ فِي بَيْعِهِ وَشِرَاهُ، وَيَجْتَمِعُ
مَعَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّ وَقْتٍ وَيَرَاهُ، وَكَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ شَهَادَاتٌ فِي مَبِيعَاتٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ اشْتَغَلَ
بِبَيْعِ أُمْلَاكِهِ، كَأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِقُرْبِ هَلَاكِهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ السَّيِّدُ أَبُو زَيْدٍ الْفَقِيهَ أَبَا الْعَبَّاسِ الْمَذْكُورَ،
وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ، إِلَّا لِيَجْتَمَعَ مَعَهُ فِي مَصَالِحِهِ وَأُمُورِهِ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَبَعَثَ
عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِ السَّيِّدُ مِنْ دَارِهِ وَقَعَدَ مَعَهُ فِي رَحْبَتِهِ، أَقْبَلَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَبِي يَعْلَى،
وَهُوَ وَزِيرُ السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ، فَبَادَرَ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ وَقَالَ: يَا سَيِّدَنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ، السَّيِّدُ أَبُو
زَيْدٍ بَعَثَ عَبْدَكُمْ إِلَيْكُمْ وَأَكَّدَ عَلَيْكُمْ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ بِرَسْمِ الْاجْتِمَاعِ مَعَكُمْ فِيمَا يُخَصُّصُهُ
وَيُخَصُّصُكُمْ. فَطَلَبَ السَّيِّدُ عَبْدُ الْعَزِيزِ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى دَارِهِ لِيَأْخُذَ إِحْرَامَهُ وَعِمَّتَهُ وَيَخْرُجَ عَلَى
الْعَادَةِ بَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَذْكُورُ: يَا سَيِّدَنَا، هَذَا إِحْرَامُ عَبْدِكُمْ وَعِمَامَتُهُ، فَمَا قَبِلَ مِنْهُ عُدْرًا
حَتَّى قَدَّمَهُ أَمَامَهُ.

وَلَمَّا وَصَلَ الْمَذْكُورُ إِلَى السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ وَهُوَ مَعَ بَعْضِ أَشْيَاخِ الْمُوحِدِينَ، قَرَّرَ عَلَيْهِ
مَا فَعَلَ فَأَنْكَرَ، وَلَمَّا أَخْرَجَ إِلَيْهِ تَهْلِيلَهُ وَبِرَاءَتَهُ، تَغَيَّرَ وَتَحَيَّرَ وَدَهَشَ وَارْتَهَشَ، وَوَقَعَ
مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَصَحَّ الْخَبَرُ الْمُنْسُوبُ إِلَيْهِ، وَأُدْخِلَ فِي دُورَةِ هُنَالِكَ وَقُتِلَ كَمَا قُتِلَ ابْنُ
الْمُرْتَضَى بِمَسَلَّةٍ كَذَلِكَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مَاتَ مَسِيئًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

اختصارُ الخبر عن حركة الواثق بالله إلى السُّوس

ولمَّا تَخَلَّصَتْ أَشْغَالُهُ مِنْ حَضْرَتِهِ، رَحَلَ مِنْ تَانَسِيفَتْ عَلَى عَادَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَحِينَ وَصُولِهِ إِلَى تَامَزْ أَوْرَتْ^(١) نَزَلَ بِعَسْكَرِهِ^(٢) وَجَمَاعَتِهِ، وَهَنَالِكَ وَصَلَ كِتَابُ الْأَمِيرِ أَبِي يَحْيَى يَغْمَرِاسَنَ وَهَدِيَّتُهُ مَعَ رُسُلِهِ، وَشَاعَ الْخَبَرُ بِطَاعَتِهِ وَمُبَايَعَتِهِ، فَعَمَّ السُّرُورُ، وَانْشَرَحَتْ الصَّدُورُ، وَقُدِّرَ أَنَّهُ عُنوانُ الْفَتْحِ وَدَلِيلُ النُّجْحِ، وَقَالُوا: الْآنَ نَسْتَظْهَرُ عَلَى بَنِي مَرِينٍ، وَيَسْتَمُّ الصَّنْعُ الْجَمِيلُ لِلْخَلِيفَةِ وَالْمُوَحِّدِينَ.

ولمَّا حَضَرَ جَمِيعُ الْمُوَحِّدِينَ وَالْعَرَبَ فِي أَفْرَاكٍ بَيْنَ يَدَيْ خَلِيفَتِهِمْ، قُرِئَ الْكِتَابُ الْمَذْكُورُ عَلَيْهِمْ، وَعَمَّتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ، وَظَهَرَ بِهِ الْإِفْتِاحُ وَالْإِرْتِيَاحُ، وَانْطَلَقَتِ الْأَلْسِنَةُ بِالْذِّعَاءِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يُشَفِّعَ هَذَا الْفَتْحُ بِمِثْلِهِ، وَيُوَالِيَ لِلْمَقَامِ الْوَائِقِيِّ مَا عَوَّدَهُ مِنْ عَمِيمِ فَضْلِهِ. وَأَخَذَ النَّاسُ فِي التَّهْنِئَةِ لَهُ بِجُمْلَتِهِمْ، وَضُرِبَتِ الطَّبُولُ عَلَى ذَلِكَ.

وَمِنْ هَذَا الْمَنْزِلِ كَانَ انْفِصَالُ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ وَأَنْوَدِينَ لِيَتَوَجَّهَ مِنْهُ إِلَى بَنِي وَأَوْزَجِيَتِ الَّذِينَ بِلَادِ السُّوسِ لِيَسْتَنْفِرَهُمْ وَيَسْتَدْعِيَهُمْ لِلْخِدْمَةِ وَالْحَرَكَةِ مَعَ الْمَحَلَّةِ فِي اسْتِقْبَالِ عَلِيِّ بْنِ يَدَرَ السُّوسِيِّ، وَرَحَلَتْ الْمَحَلَّةُ مِنْ هَذَا الْمَنْزِلِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَتَمَادَى الْمَسِيرُ إِلَى مَسْكُورُطَنَ، وَهُوَ سَفْحُ الْجَبَلِ وَأَوَّلُ بَسِيطِ السُّوسِ، فَارْتَاخَتْ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِ النُّفُوسُ، وَذَهَبَ عَنْهَا مَا كَانَ قَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهَا مِنَ الْحَبَالِ وَمُلَاقَاةِ الْأَهْوَالِ، وَاسْتَبَشَّرُوا بِالْخُرُوجِ إِلَى هَذَا الْبَسِيطِ الْمَذْكُورِ، وَانْتَشَرُوا فِيهِ كَأَنَّهُمْ فِي يَوْمِ النَّشُورِ، وَبِهِ أَهْلٌ هَلَالٌ شَوَالٌ فَأَقَامَتِ الْمَحَلَّةُ غُرَّتَهُ هَنَالِكَ لِأَدَاءِ سُنَنِ عِيدِ الْفِطْرِ، وَتَوَجَّهَ قَاضِي الْمَحَلَّةِ وَخَطِيبُهَا أَبُو يَحْيَى ابْنُ عَبْدِ الْحَقِّ فِي يَوْمِ الْعِيدِ إِلَى مَوْضِعٍ فِي آخِرِ السُّوقِ يَصْلُحُ لِمَصَلَّى النَّاسِ فِيهِ.

فَلَمَّا كَانَ بُكْرَةُ الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ، رُتِبَتِ الْأُمُورُ، وَحَضَرَتِ الْكَافَّةُ مِنَ الْخَاصِّ وَالْجُمْهُورِ، وَوَصَلَ الْوَائِقُ بِاللَّهِ إِلَى قِبْلَةِ الْمُصَلَّى، وَكَانَ دُخُولُهُ إِلَيْهَا مِنْ بَابِ مَصْنُوعٍ مِنَ الْحَجَرِ بِإِزَاءِ الْمَحْرَابِ، فَتَقَدَّمَ الْخَطِيبُ أَبُو يَحْيَى، وَرَبَّمَا لَمْ تَجِرْ عَادَتُهُ بِذَلِكَ فِيمَا سَلَفَ، فَأَدْرَكَهُ

(١) الضبط من ق، ك.

(٢) في ق، ك، ب: «هسكورة».

الحَجَل، وكَبَّرَ أولاً ثم قرأ الفاتحة وسُورَةً من المِفْصَل، ثم كَبَّرَ بعدَ القيام ونَقَصَتْهُ تكبيرة، ولَمَّا فَرَّغَ من التَّكْبِيرِ نَسِيَ فاتحة الكتاب وابتدأ بقراءة ﴿وَالصُّحْحَى﴾، فَلَمَّا فَرَّغَ من الصَّلَاة خَرَجَ من المحراب يَخْطُبُ، فجلس إلى الأرض ثم قام فخطب فأدركه أيضاً وهم، وحُقَّ له، فَإِنَّ العيونَ إليه ناظرة والناسُ مُنْصِتُونَ سامعون، فَنَسِيَ أيضاً اسمَ الخليفة الأول عبد المؤمن وابتدأ بالخليفة أبي يعقوب، وربما جَرى في أثناء هذا كلامُ الإضراب عنه أولى. ولَمَّا كَمَلَتِ الخطبة وعاد الخليفةُ الواصل بالله إلى محلِّه ومقصده من القُبَّة الحمراء، دَخَلَ الناسُ بالتهنئة بالعيد السعيد، ثم دَخَلَ إلى أفراج، وأحضرت أنواعٌ من الأَطعمة للعرب وزناتة والفرح ظاهر والسروُرُ باهر.

ورحلت المحلة في الثاني من شوالٍ إلى منزل بني باداس، وهم إخوة الشقيِّ ابن يدر، وهذا الموضع على وادي الشَّوس، وهو على ستة أميال من حصن تيونين. واتسع الناسُ بهذا الوادي وسُرُّوا بطيب هوائه وكثرة مائه، والتفاف أشجاره، واتساع أقطاره، وألفى الناسُ به زرعاً كثيراً.

وأقامت المحلة بهذا المنزل الفسيح الأرجاء المعتدل الهواء ثلاثة أيام، ومنه نفذت الظواهر لقبائل جُزولة وغيرها، وذلك نحو أربعين ظهيراً، ومنها لبعض قبائل هذا البسيط، وإن كان به من الأمم والطوائف ما لا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خالقهم. وتضمَّنت الظواهرُ الإعلامَ بالعزم على الإقامة بالبلاد والاستيطان بها، واستئصال شقيِّها ابن يدر، وتأمين أرجائها وإعادة أحوالها إلى أحسن معهود.

وفي السادس من شوال: نزلت المحلة على بني تيزغت وأقامت به يوم السبت لإحكام الرأي بما فيه النجح، وكانت طائفة من الوافدين أشارت بقصد تورغت، فإنها ذات زرع وبمقربة من العدو، وطائفة أخرى أشارت بقصد تيزغت، فإن أكثر زرع هذا البسيط قد ارتفع إلى حصن بها، فاجتمع الرأي واقتضى النظرُ قَصْدَ تيزغت^(١) للاحتواء على زرعها والاستيلاء على جميع ما فيها، فخطب مشغلُ جنفيسة بقطع الماء عن أهل تيزغت وتسريبه إلى الجهة التي يكون حلولُ المحلة بها.

(١) من هنا إلى قوله: «وتسريبه» سقط كله من ق، ك، ب.

وفي الثامن من شوال: رحلت المحلة إلى بني مقر، وهو نصف المسافة من بني تارغت إلى تيزغت، وكان مروّرها على تارودانت الشهيرة ذات الحِيرات الكثيرة، لكنها استولى عليها الحراب من ابن يدر حتى صيرها كالقفر دَرَسًا وعَفَاءً، فإنه كان منها شَجِيّ الصدر، ولم يبق بها إلّا جامع الخطبة في قَصبة الحصن المذكور، وأمّا ما هو خارج عن الحصن فإن الدّيار باقية على حالها والمنازل لم يتغيّر شيءٌ من أشكالها، وجميع ذلك من الرّبض معمورٌ أهل^(١)، لم يخل شيءٌ من ذلك إلّا في أيام قريبة التاريخ قلائل، وعيّنت النّاس من هذا الحراب والمعتَمِر منظرًا عجيبًا، وشاهدت وضعًا حفيلاً وبلدًا خصبًا، وذلك أنّ ساقية كبيرة ارتفعت من وادي الشّوس إلى تارودانت وعليها العمارة والسكنى والرياضات، وكلُّ دار بإزائها رياض، وفيها من الأشجار أنواع، واتّصل هذا المجموع بعضه ببعض في بسيط معتدل الهواء فسيح الأرجاء، واسع الطُّرقات كثير الحِيرات، قد احتوت تلك الرياضات على أشجارٍ اختلّت ألوانها وحدائق ملتفة أغصانها، وماء في تلك الأنهار ينساب كأنه الكوثر، وناهيك من وادٍ ينعدُّ من مائه السُّكر، قد صفا زُلالًا، وزهت به هذه البلاد جمالًا. وحديث هذا الوادي في خصبه أكثر من أن يُحصى، فإنه كلّ روضة راتقة وبهجة فاتقة، ومن عجائبه أنه يجري من الشرق إلى الغرب، وليس في الأنهار من يجري هكذا سواه، فتركت المحلة على هذا الوادي الغريب شأنه العجيب أمره، فألفى النّاس زرعًا وخيرًا، واتّسعت بذلك أحوالهم، وتجددت باستقبال المسرات آمالهم.

وفي التاسع من شوال: رحلت المحلة منه إلى حصن تيزغت، وهذا الحصن كان لصنّهاجة تيزغت المذكور، فتغلّب عليه ابن يدر وأخرج أهله منه وأقطع ربيبه وابن عمّه حمدين، فاحتشد كل من يليه من القبائل الشّوسية وأهل طالعة الوادي، وكل من جاوره من البوادي، وهذا الحصن من الحصون الشهيرة الاتّساع وكثرة الوعر في مسالكه والارتفاع، وذلك أنه حصن في جبل، وهو من ثلاثة وجوه لا يُرام، والوجه الرابع فسيح إلا أنه فيه شعراء كثيفة وله ستارة، وله باب يقابل باب الحصن، وفيه قَصبة مرتفعة، وفي أسفل السّفح الفسيح في الشعراء المذكورة خندق، وفيه حفير كبير، وعلى الحفير

(١) سقطت من ق.

حائطٌ ممتنع، ودونَ هذا ثلاثة ديارٍ متَّصلةٌ ببعضها ببعض، وعليها سورٌ بشرافاتٍ في بعضها ودون هذه الدِّيار حائطٌ كبيرٌ دائرٌ من جَبَلٍ إلى جَبَلٍ يُخْرِجُ المقاتِلونَ الشقيُّونَ وراءَ هذا الحائط الذي يلي الحصن وأظهروا فيه قوَّتَهُم وعُدَّتَهُم وشوكتَهُم، فافتَحَهم عليهم اللَّمَطِيُّونَ وأخرَجوهم عن ذلك كُلِّهِ وقَتَلوا منهم جُملةً، فانجَلَّوا عن الدِّيار وتركوها وما فيها من ماشيةٍ وزَرْعٍ وأثاثٍ ولجَّأوا إلى الخندق والحفير الذي بإزائه والحائط الذي عليه، وكلُّ ذلك في أسفل سَفْحِ الجَبَلِ الذي عليه الحصن، فاحتوى الناسُ على أكثر ما في^(١) تلك الدِّيار، فلَمَّا كان بعدَ صلاةِ العصر، وأوانُ ارتقابِ النَّصر، جلسَ الخليفةُ الواثقُ بالله بالقبَّةِ الحمراء، وحَضَرَ لَدَيْهِ شيخُ العَرَبِ أبو سِرْحانَ وزَناتَةُ ووجوهُ الأجناد، وضُرِبَتِ الطُّبُولُ إشعارًا بالقتال، فلَمَّا أَخَذَ الناسُ في اجتماعِهِم وشرَعوا في بروزِهِم واحتفالِهِم، رَكِبَ الواثقُ بالله ورُفِعَتِ أعلامُهُ واجتَمَعَتِ الناسُ عليه، وقصدَ الحصنَ المذكورَ، وطافَ عليه من جميعِ نواحيه بجيوشِهِ وعساكرِهِ، واشتدَّ القتالُ في هذا العَشيِّ على الأشقياء، وعَايَنُوا ما هالَهُم وراعَهُم، واستمرَّ الحالُ على مُضايقتِهِم إلى آخرِ النَّهارِ.

وفي العاشر من شوال: تأهَّبَ الناسُ للمناضلة والمقاتلة، وركِبَ الخليفةُ الواثقُ بالله فرسَهُ القرطاسيَّ الغازيَ وقوتلت الأشقياءُ على الخَنْدَقِ، واستمرَّ الحالُ على قتالِهِم إلى الظهر، ثم وصلَ آخرُ النَّهارِ عبدُ الله بن محمد الجَنْفيسيُّ في جَمْعٍ كبيرٍ من إخوانِهِ، واستبَشَّرَ الناسُ بِقُدومِهِم عليهم.

وفي الحادي عَشَرَ من شَوَّال: أَحَسَّ الناسُ بفرارِ بعضِ الأشقياءِ فاحترَسُوهم طولَ ليلَتِهِم ولم يُفَلِّتْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وجلسَ الواثقُ بالله بُكْرَةَ اليومِ المذكورِ، ثم رَكِبَ الفرسَ الغازيَ ورُفِعَتِ الرايةُ، وتوجَّهَ إلى جهةِ الحصنِ على عادَتِهِ، فقوتلَ أشدَّ قتالٍ، واستمرَّ القتالُ إلى الظهر، ثُمَّ عادَ إلى معسكرِهِ.

وفي الثاني عَشَرَ مِنْهُ: شرَعَ أيضًا في الحركةِ إليهِم والنزولِ عليهم، ورأى أن تكونَ رايَتُهُ بإزاءِ الحصنِ من جهةِ غَرْبِهِ، ونزولَ لَمَطَةٍ بِرحائِلِهِم من جهةِ شَرْقِهِ، ونزولَ المَحَلَّةِ مَعَ العَرَبِ في قبْلَتِهِ، فركِبَ الواثقُ بالله ورَتَّبَ أجنادَهُ على هذه الهَيْئَةِ، فرأى الأشقياءُ

(١) سقطت من ق.

من عَزَمَاتِهِ ما هَالَهُمْ وَعَايَنُوا مِنَ الْجُنُودِ ما رَاعَهُمْ، واستمرَّتِ الحالُ على هذا الترتيبِ من بُكْرَةٍ إلى نصفِ النهار، ولم يركنْ فيها إلى راحة، بل يتردَّدُ إلى الموضعِ الواحدِ مرَّاتٍ، وبعدَ المحاولةِ في ترتيبِ النزولِ على الحصنِ عادَ إلى معسكرِهِ، واشتدَّ القتلُ على الحصنِ والحصارِ، ورأى أهلُهُ أنه لا نِجاةَ لَهُمْ ولا فِرارَ، ولا إقامةَ بجهةٍ ولا استقرارَ، وصاروا لَأَسْوَدَ هذهِ الجيوشِ ثُعالبَ، ولقد كانوا يظنُّونَ باغترارِهِمْ أَنَّهُمْ لا مناضِلَ لَهُمْ ولا مُغالِبَ، فلمَّا كانَ معَ الزَّوالِ زالَ عنهمُ سُرَادقُ الحِياةِ، وأيقنوا بالهَلَكَةِ ولا نِجاةَ، فوجَّهَ حَمْدُ بْنُ زَعِيمٍ الْأَشْقِيَاءَ إلى أَبِي الْحَسَنِ بْنِ زَجْدَارٍ نَصِيحَ الدَّوْلَةِ الْوَاقِئِيَّةِ في أَنْ يَتَلَفَّحَ قَضِيَّتَهُ، ويُظهِرَ لَهُ تَوْبَتَهُ، وَأَنَّهُ يَخْرُجُ على عَهْدٍ، ويخُدُّمُ خِدْمَةَ نُصْحٍ وَجَدَّ، وَأَنَّ ابْنَ يَدْرِ يَعُودُ إلى الطَّاعَةِ وَجَمِيعِ الْبِلَادِ السُّوسِيَّةِ وَمَنْ وَالِاهَا مِنْ أَصْنَافِ الْقَبَائِلِ الْقَبْلِيَّةِ، فلمَّا وَصَلَ أَبُو الْحَسَنِ بْنِ زَجْدَارٍ أَوْضَحَ عُذْرَهُ، وَبَيَّنَّ كَلَامَهُ إلى الْوَائِقِ بِاللَّهِ وَأَمْرَهُ، فَكَانَ جَوَابُهُ: تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ وَتُقْضَى رَغْبَتُهُ، بِشَرْطِ التَّعَجِيلِ في هذا الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ على الْبَدْيَةِ، بِالتَّخْلِي عَنْ الْحِصْنِ وَجَمِيعِ ما فِيهِ، فلمَّا عادَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَذْكُورُ، كانَ وَقْتُ الْعَصْرِ، فَقُضِيَتْ صَلَاتُهُ.

وكانَ الْقِتَالُ على هذا الْحِصْنِ عامًّا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَلَقِيَ الْأَشْقِيَاءُ مِنْهُمْ أَمْرًا شَدِيدًا لا يُطَاقُ، وَأَيَّقَنُوا بِالْحَالِ الَّتِي أَذِنَتْ لَهُمْ بِالْمَحَاقِ، فَانْهَزَمَ الْأَشْقِيَاءُ مِنْ جِهَةٍ لَمْ طَةً، واشتدَّ الْقِتَالُ مِنْ كُلِّ حَوْمَةٍ، واقْتَحَمَ النَّاسُ عَلَيْهِمُ الْحَفِيرَ وَالْخَنْدَقَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ الشَّنْعَاءَ، وَرَكِبَ الْوَائِقُ بِاللَّهِ فَرَسَهُ الْغَازِيَّ وَلَمْ يَقْتَضِ الْحَزْمُ عِنْدَهُ انْتِظَارَ رُكُوبِ وُزَرَاءِهِ وَخُدَّامِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَرْسَلَ عِنانَ فَرَسِهِ مَارًّا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، قاصِدًا نَحْوَ رَحَائِلِ زَنَاتَةٍ وَلَيْسَ مَعَهُ فَارَسٌ وَلَا راجِلٌ، وَبَعْدَ حِينَ تَدَارَكَهُ الْوُزَرَاءُ وَالْقَرَابَةُ وَالْأَجْنَادُ وَالْخُدَّامُ وَغَيْرُهُمْ، وَهُوَ قَدْ لَحِقَ بِمَوْضِعِ زَنَاتَةٍ يُحْضُّهُمْ على أَخْذِ الْجَبَلِ الَّذِي فِيهِ الْحِصْنُ واقْتِحَامِ خَنْدَقِهِ، فلمَّا ارْتَقَى أَوْلِيَاءُ الْأَمْرِ الْجَبَلَ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ تَوَقَّعَ نَارَ الْحَرْبِ الشَّدِيدِ، وَصَبَرَ الْأَشْقِيَاءُ صَبْرًا ما عَلَيْهِ مَزِيدٌ، وَالْحَرْبُ تَطَايُرُ شَرَارِهَا، وَتَتَرَامَى في مِيدَانِهَا أَبْطالُ الْفَرَسَانِ وَسَرَارِهَا^(١)، فلمَّا دَنَا اللَّيْلُ وامتدَّ سُرَادِقُهُ انْكَشَفَ الْحَالُ عَنْ هَزِيمَةِ الْأَشْقِيَاءَ، وَلَجَّأُوا إلى الْحِصْنِ، وَكَانُوا في خَارِجِهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَعِيَالِهِمْ، فَمَاتَ مِنْهُمْ في

(١) أي: أوسطها وأفضلها، كما في معجمات اللغة.

ذلك الوقت ما لا يُحاطُ بالحصر والإحصاء، من رجالٍ ونساء، وأولادٍ وبهائم، واستولى الناس على جميع ما كان بخارجِه.

ولما كُملَ الفتح، وأضاء بأنواره الدُّجى وكأنه الصُّبح، وبَدَتِ مَخَالِلُ النُّجج، رَتَّبَ المقامُ الواثقُ بالله على الحصن من كلِّ جهاته الأجنادَ لا حتراسِه واحتراسِ جميع ما فيه، ولما كُملَ هذا الترتيبُ على الحصن المذكور، وظَهَرَ النُّججُ في الأمور، عاد الواثقُ بالله إلى مَضارِبِه والسَّعدِ يُسائرُه والنَّصرُ يُؤازرُه، فهَنَأَ بعضُ الناس وأخذوا بيده عند باب أفراج، وتَرادَفَتِ البُشرى والابتهاج، بالبلاد الشُّوسية التي حصلت في سلكِ الانتظام بأهل الطاعة، واستولى الناس على ستارة الحصن في هذه الليلة وعلى كلِّ مَنْ كان فيها وما فيها، ثم على الحصن، والأصواتُ من جميع الطوائف ترتفع، وكلُّ جهة من جهة القوم لا تُردُّ يدًا ولا تمتنع، والضَّجيجُ قد علا حتى لقد صُمَّتْ منه الأذنان.

فلما رأى الشَّقِيُّ حَمْدِينَ أَنَّ المَنايا قد كَثُرَتْ عن أنبيائها، وعَايَنَ ما لا طاقةَ له به من تَمَكُّنِ أسبابِها، دَخَلَ دُخِيلاً على ابن زجدار وهو مع جماعة من إخوانه ونسائه، وأخذت في جُملة المأسورين أُخْتُ عليَّ بن يدر. فلما أشرق نورُ الفجر في الثالثِ عَشَرَ لَشَوَالِ جلس الواثقُ بالله في أُسطُوان أفراج، واستدعى وُزراءه في تدبير الأمور وإحكامِها، والنظرِ في مصالح الجمهورِ والثَّنامِها، وأمرَ بالكَتَبِ بهذا الفتح إلى الحضرة، وركبَ إلى الحضرة والفتحُ تَروُّقٌ عليه أنوارُه، والنَّصرُ قد ظَهَرَ آثارُه، ورُفِعَتِ الرَايةُ في أعلاه وكان مركزُها في دارِه، وأخذ من الحصن بطول الليل ما لا يُحيطُ به حصرٌ ولا تقدير، وقُتِلَ مَنْ كان فيه عددٌ كثير، وأكثرُ ذُخائرِ هذا الحصن تصيرت للمَريَينِ، وحصل في أيديهم حَمْدِينَ، فكان سبباً لِمَا استحوذوا عليه وانفردوا به، وطلبَ أبو الحَسَنُ بْنُ زجدار بإحضار حَمْدِينَ المأسورِ عنده، فتأكَّدت رغبته في تميم ما كان بدا من أمره من الفداء، فقد كان ارتَهَنَ في أداءِ سبعينَ ألفَ دينار، فاقْتَضَى نظْرُه أن أبقاه بيد أبي الحَسَنِ بن زجدار معتقلاً مصفداً في الحديد الثقيل، ورَتَّبَ عليه ثقةً من عبيد المخزن مع حافظٍ من الموَحِّدين، وأخذت أُخْتُ عليَّ بن يدر معتقلةً مأسورة، وأُلْفِيَ في الحصن جماعةً من عبيده قُتِلُوا صبراً، وعيِّنَ للإقامة في الحصن أحدَ القِراة لحياطته.

ورحلت المحلةُ ضُحى يوم السبت الرابعِ عَشَرَ لَشَوَالِ، واستقرَّت في المنزل الأول.

وفي الخامس عشر منه: كُتِبَ الكُتُبُ بهذا الفتح إلى البلاد، وبهلاكِ أهل الضلال والعناد، وفيه صَدَرَت مَخَاطَبَةٌ لأبي سِرْحان بن كانون والتوكيد عليه في حِرَاسَةِ البلاد من فساد العَرَب.

وفي عاشر شَوَّال: وَدَّعَ أَشْيَاخُ السَّاقِيَةِ الحَمْرَاءِ والوَافِدُونَ من بني وَاوْزَجِيَّتَ وغيرُهم وانصَرَفُوا بِحِفَظِهِمْ إلى بلادِهِم.

وفي الحادي والعشرين: رَحَلَتِ المَحَلَّةُ من المنزل المتقدِّم ذَكَرُهُ إلى بني داوودَ على وادي السُّوس.

وفيه: وَرَدَ الخَبْرُ بِوُصُولِ أَبِي زَكَرِيَّا بن وَأُنُودِينَ مَعَ الوَفْدِ الكبير من بني وَاوْزَجِيَّتَ، وَرَغِبَ في لِقَاءِ الوَافِدِينَ والاعتناء بِهِم لوفودِهِم وقوتِهِم وكثرة أَعْدَادِهِم ومُثَابَرَتِهِم لِعَلِيِّ بن يَدْرِ وَنَيْلِهِم مِنْهُ، فَأَقَامَتِ المَحَلَّةُ بهذا المنزل الثاني والعشرين مِنْهُ، وَخَرَجَ لِلِقَائِهِ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ أَنْصَارِ الدَّعْوَةِ الوائِقِيَةِ. وَوَصَلَ الوَافِدُونَ بِجُمْلَةٍ مِنَ الأَعْلَامِ الكبيرة والعُدَدِ الوافرة الكثيرة، وَلَقَدْ كَانَ في هذه العَلَامَاتِ مَا زَادَ عَلَى ثَلَاثِينَ ذَاتِ أَلْوَانٍ وَصَنَائِعَ مُخْتَلِفَةٍ، وَلَا يَرْتَابُ أَنَّهَا مِنَ الذَّخَائِرِ القَدِيمَةِ الَّتِي كَانَتْ بِدَارِ المُوَحِّدِينَ فِيمَا مَضَى مِنَ السِّنِّينَ، وَلَمَّا قَضَوْا فَرَضَ الاستسلام والسلام وَرَأَوْا البَقِيَّةَ الَّتِي سَمَحَتْ لَهُمْ بِهَا الأَيَّامُ، انصَرَفُوا إلى مَنَازِلِهِم.

وفي الثالث والعشرين مِنْهُ: نَزَلَتِ المَحَلَّةُ بِمَقْرُبَةٍ مِنْ تَارُودَانَتَ، وَرَكِبَ الوَائِقُونَ بِاللَّهِ إِلَى حِصْنِ تَارُودَانَتَ الَّذِي كَانَ قَاعِدَةَ البلاد السُّوسِيَّةِ وَدَارَ الوَلَاةِ وَمُسْتَقَرَّ أَمْرِهِمْ وَمَأْوَى كُلِّ غَرِيبٍ مِنَ التُّجَّارِ وَغَيْرِهِمْ.

ولَمَّا كَانَ انْتِزَاءُ الشَّقِيِّ ابْنِ يَدْرِ إِلَى الفِتْنَةِ لَمْ يَكُنْ أَهْمُ أُمُورِهِ إِلَّا تَحْرِيبُ هَذَا الحِصْنِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَحَلًّا لاسْتِقْرَارِ الأَجْنَادِ، وَمِنْهُ كَانَ اسْتِيْلَاءُ الوَلَاةِ عَلَى تِلْكَ البلادِ، فَلَمَّا عَصَفَتْ رِيحُ ابْنِ يَدْرِ فِي نِفَاقِهِ وَشِقَاقِهِ، لَمْ يَكُنْ أَمْلُهُ إِلَّا هَدْمُ هَذَا الحِصْنِ الَّذِي اتَّخَذَهُ خَلَفَاءُ المُوَحِّدِينَ مَعْقِلًا وَمَحَلًّا لَوُلاَتِهِمْ وَمَنْزِلًا، فَأَبَادَ آثَارَهُ، وَزَلَزَ قَوَاعِدَهُ وَأَزَالَ أَسْوَارَهُ وَاسْتَأْصَلَ جَمِيعَهُ وَهَدَمَ دِيَارَهُ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا جَاوَرَهُ مِنَ الدِّيَارِ وَالْإِمْلَاكِ الَّتِي بِخَارِجِهِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ مَسَاكِنَ الرَّعِيَةِ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ بِهَذِهِ البلادِ يُكَابِرُهُ وَيُعَانِدُهُ لَمْ يُبْقَ لَهُ اسْمًا، وَلَا لِدِيَارِهِ وَأَمْلَاكِه رَسْمًا.

ولقد بُني هذا الحصن مَرَّات، ووجه إليه الصُّنَاعُ من الحضرة، وعُمِلت عليه أبواب الحديد التي كانت بباب السَّرَاجِين من داخل مَرَّأَش، فمتى خلا من الأجناد انتَهَز ابنُ يَدَرَ الفُرْصَةَ إليه وحشد القبائل عليه، حتى صار طَلَلًا دَارِسًا، فطاف به الوثائق بالله وبجميع جهاته كلها وساحاته، ووقع التفاوض في إعادته، والشروع في تجديد رسمه وإقامته، ولو ساعده الزَّمان، لوقع التدبير في هذا الشأن.

وفي السابع والعشرين من شوال: بعث الوثائق بالله إلى مَرَّأَش عما يحتاج إليه من آلة الحرب الذي لم يزل عزمه عليه قائمًا، وكان عزم من تقدمه عنه نائمًا.

وفي غرة ذي القعدة: رحلت المحلة إلى حصن تيوينين الظالم أهله، المتأصل على النفاق وضعه، فلما انتهى الوثائق إليه رتب الجيوش عليه، وأهله مصرُّون على النفاق مُعلنون بالشقاق، قد أخذوا أهبتهم وأعدوا عدتهم، وأظهروا التعرض للقتال، وأبدوا صفحة المجاهرة بالعصيان، فاشتغل الناس عن قتالهم بطلب الماء وهو على ثمانية أميال، وبعد ذلك اشتغلوا بحفر الآبار، وظهert العيون بكل مكان.

وفي الثاني منه: قوتل أهل الحصن قتالًا شديدًا من كل جهة، وهو من الحصون المرتفعة المنيعه، وأصبح الأشقياء لهدم ما يلي السور من هذا العريض توقيًا من الصعود عليهم منه.

وهذا الحصن شأنه شهير، وأهله أولو قوة وأولو بأسٍ شديد، فكم أعيا الولاية داؤه، وأعوزَ بهذا الطلب جهد الإمكان دواؤه، وقد كان به من الخلق كثير من جميع البلدان، واجتمع به كل نائر وسارق ومُتَمَادٍ في الطُغيان.

وقد كان حمدين المعتقل تكلم مع بعض الناظرين عليه من حراسة بأنه يستميل نفوس هؤلاء الأشقياء إلى الطاعة، وقدَّر أن له أمرًا يستبصرون به ويرجعون إليه، فأجابوه بالردِّ والطردِّ والبُعد، إلا أنه وصله عن شخص بعده أنه يجتمع مع إخوانه ويرادُّهم، فعاد حمدين إلى حبسه واعتقاله.

وشاع الخبر في هذا اليوم بوصول علي بن يدر إلى جهة المحلة، فركب مسعود بن كانون مع إخوانه وأبو الحسن بن زجدار كذلك، وطلبوا أثر الأشقياء، وانقضوا عليهم كالعقبان من جو السماء.

وفي الثالث من ذي القعدة: وصل كتاب من مراكش من قبل واليها السيد أبي زيد بجواب فتح، ووصل معه كتاب أبي الحسن علي بن أبي علي الخُلَطيّ وبيعه للمقام الواثقيّ المُعتمديّ ودخوله في طاعته، فعظمت المسرة باجتماع الكلمة، وشملت النعمى لأهل المحلة، وبقي الحصن المذكور على حاله من النفاق والاستعصاء، وشرع الواثق في عمل المنجنقات برسم الأشقياء.

وفي الخامس من شهر ذي القعدة: بعث الواثق عن شيخ العرب ووجوههم، وعن أبي الحسن بن زجدار ووجوه من كان معه من زناتة ولمطة وبني واوزجيت وغيرهم، وأخذ معهم في التدبير في فتح الحصن، وجلس الواثق بالله بالقبة الحمراء، وجلس الناس على أصنافهم وطبقاتهم، فلما استقرّ بالناس مستقرّهم، قرئ الكتاب المتضمن ببيعة أبي الحسن الخُلَطيّ وضربت الطبول على ذلك.

وفي التاسع من شهر ذي قعدة: توجه الواقدون ببيعة أبي الحسن المذكور وإخوانه الخُلَط، وتوجه معهم أبو فارس بن المُعزّ الكفيف، إذ كان المقرب عند الواثق لفصاحته، فبعثه إليه برسم الاجتماع به وجماعته.

وفي الثالث عشر منه: تأهب الناس لقتال الأشقياء بما يجب من أهبتهم، وركب الواثق بالله ورُفعت الراية ورُمي حجرُ المنجنيق، فجاء إلى الحصن على تقدير وتحقيق، وأهل الحصن على ضلالهم لا يزعوون ولا يزدجرون، كما قال الشاعر [من الوافر]:

لقد نودوا فما سمعوا المنادي	ولا أصغوا إلى داعي الرّشاد
وجاءت نحوهم من كلّ أوب	جيوش ما تمل من الطّراد
ولكن الضلال بهم تمادى	فلجّوا في العتو وفي العناد

وفي شهر ذي حجة: حُفرت مطمورة لمبيت حَمدين؛ لأنّ الخبر شاع أنّ أشياع علي بن يدر عزموا على انتهاز الفرصة في استنقاذه ليلاً، وقد كان في كلّ ليلة يبيت في آلة من خشب مسرة على عنقه وإحدى يديه، مُضججاً على جنب واحد إلى الصّبح، زيادةً على تصفيده بالحديد الثقيل، وتبيت عليه رجالٌ يحرسونه، فكان ذلك الخبر زيادةً في امتحانه، نعوذ بالله تعالى.

وفي عيد الأضحى: صَلَّى بالناس أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ قَطْرَال، ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً مِنْ
إِنْشَاءِ الْبَدِيعِ بِهَرِّ بِسْمِهَا الْأَلْبَابَ، وَأَتَى مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ بِالْعَجَبِ الْعُجَابَ.

وفي الحادي والعشرين: وَصَلَتْ أَرْسَالُ ابْنِ يَدَرَ خَاضِعِينَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ
الْإِسْتِجَاءُ، وَرَغِبُوا فِي إِقَالَتِهِمْ وَالتَّجَاوُزِ عَنْ شَهْوَتِهِمْ، وَنَمَا خَبَرُهُمْ إِلَى الْوَائِقِ بِاللَّهِ
فَاسْتَحْضَرَهُمْ وَعَتَبَهُمْ، فَوَعَدُوا بِبَيْعَةِ ابْنِ يَدَرَ وَطَاعَتِهِ، وَأَنَّهُمْ يَعُودُونَ بِذَلِكَ وَيَرْجِعُونَ
إِلَى الْحَقِّ وَالتَّمَسُّكِ بِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، فَضَرَفُوا إِلَى صَاحِبِهِمْ بِمَا ذَكَرُوا مِنْ رَغْبَتِهِمْ.

وفي التاسع والعشرين منه: وَفَدَّ عَلَى الْوَائِقِ بِاللَّهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَعْقِلِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَعِيَالِهِمْ، وَخَرَجَ أَكْثَرُ الْعَسْكَرِ لِلْقَائِمِ صُحْبَةَ الْوَزِيرِ أَبِي مُوسَى، فَلَقِيَهُمْ وَقَدَّرْتُمَا
مَصَافَقَهُمْ وَقَدَّمُوا فُرْسَانَهُمْ بِعَلَامَاتٍ، وَوَرَاءَهُمْ هَوَاجُ حَسَنُوهَا بِأَنْوَاعِ الثِّيَابِ، وَنِسَاؤُهُمْ
قَدْ بَرَزْنَ فِيهَا ظَاهِرَاتٍ غَيْرَ مُحْتَجِبَاتٍ.

وفي أثناء تَوَجُّهِ السَّيِّدِ أَبِي مُوسَى لِهَذَا الْلِقَاءِ جَلَسَ الْوَائِقُ بِاللَّهِ بِالْقُبَّةِ الْحُمْرَاءِ، إِلَى أَنْ
جَاءَ الْوَافِدُونَ يَقْدُمُهُمْ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ شَيْخُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ أَبِي الطَّيِّبِ،
وَالسَّنُّ قَدْ أَزَالَتْ رَوْنَقَهُ، وَأَطْلَعَتْ كَالصَّبَاحِ مَفْرِقَهُ، وَلَكِنَّهُ مَتَجَلَّدٌ صَبُورٌ، حَنَّكَتُهُ
التَّجَارِبُ فِي الدَّهْوَرِ. وَتَلَقَّاهُ الْوَائِقُ بِمَا سَرَّهُ وَأَنَسَهُ، وَبَسَطَ خَاطِرَهُ وَنَفْسَهُ، وَأَعَادَ بَعْدَ
الذَّهَابِ حَسَنَهُ، وَنَزَّلَهُ فِي أَقْرَبِ الْمَوَاضِعِ وَأَحْظَاها، وَأَشْرَفِ الْمَنَازِلِ وَأَسْنَاهَا، ثُمَّ اسْتَدْنَى
الْوَافِدِينَ وَوَصَلُوا بِعَلَامَاتِهِمْ وَعَدَّدَهَا سَبْعَةً مِنَ الْحَرِيرِ الْمَخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ بِرُشُومٍ مِنْ
ذَهَبٍ، فَقَضَوْا آمَالَهُمْ مِنَ السَّلَامِ، وَانْصَرَفُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِي غَايَةِ الْإِكْرَامِ، وَأَخْرَجَ
الْمَعْتَقِلِينَ مِنْ أَعْتِقَالِهِمْ، وَعَايَنَهُمْ إِخْوَانَهُمْ، ثُمَّ رَدُّوا إِلَى مَحْبِسِهِمْ وَوَعَدُوا بِتَسْرِيحِهِمْ عِنْدَ
انْفِصَالِ الصُّلَحَاءِ الَّذِينَ تَطَوَّقُوا أَمَانَةَ الْبَيْعَةِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَضَرَبَتْ الطُّبُولُ إِشْعَارًا
بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ، وَأَجْزَلَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، فَعَمَّتِ الْمَسَرَّاتُ النُّفُوسَ جَمِيعًا، وَمَا قِيلَ
فِي ذَلِكَ [مِنْ الْبَسِيطِ]:

أَهْلًا وَسَهْلًا وَحَيَّا اللَّهُ مَنْ وَقَدَا	قَوْمًا أَرَادَتْ بِهِمْ أَيَّامُهُمْ رُشْدَا
كَانُوا كَمُوسَى أَتَى نَارًا لِيَقْبِسَهَا	بَأَهْلِهِ فَأَصَابَ النَّارَ نَوْرُ هُدَى
شَدُّوا الْمَطْيَى وَأَمَّمُوا طَائِعِينَ وَقَدَا	نَالُوا مِنَ الصَّفْحِ أَقْصَى غَايَةٍ وَمَدَى

وفي هذه السنة، وهي سنة خمس وستين وست مئة: صالح الأمير أبو عبد الله ابن الأحمر ملك النصرية أذفونش على يد ولده الأمير أبي عبد الله، وقيل: إن الصلح انعقد بينهما على نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين أعادها الله للإسلام، وقيل: إن أكثرها بغرب الأندلس، ومن جملة تلك البلاد: مدينة شريش والمدينة والقلعة وبجيرا وغير ذلك.

قال المؤلف سمح الله له: أخبرني من أثق به من بني مسلمة أن الفقيه أبا القاسم العزفي قال له عند خروجه من شريش أن جملة ما أعطى ابن الأحمر للفنش من المدين والحصون المسورة بما احتوت عليه من الأقاليم الواسعة، والأرجاء الفسيحة اليانعة، مئة وخمسة، صحح ذلك عندي العزفي رحمه الله. وقيل: إن أكثرها كان في شرق الأندلس، وفي غربها كان الأقل، أحدهم بلدكم شريش، وهذا شيء تعافه القلوب والأسماع، وتضطرب لفظاعته الأصقاع.

وقد رثى الأندلس كثير من الأدباء، فمن ذلك قول صالح بن شريف من قصيدة^(١) [من البسيط]:

لكل شيء إذا ماتم نقصان	فلا يغرب بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما تدري لها دؤل	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتماً كل سابعة	إذا نبت مشرفيات وخرسان ^(٢)
وينتضي كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكالييل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم	وأين ما ساسه في الملك ساسان
فخلفوا عبراً وأصبحوا خبراً	كما حكى عن خيال الطرف وسنان

(١) شبه الجملة سقط من ق.

(٢) سقط هذا البيت من ق، ك، ب.

فجائعُ الدَّهرِ أنواعٌ مُنَوَّعةٌ وبعضُها فوقَ بعضٍ وهى أشجانُ
 دَهَى الجزيرةِ خطبٌ لا عزاءَ لَهُ هوى له أُحَدُّ وانهدَّ ثهلانُ
 أصابها العينُ في الإسلامِ فامتُحت حتى خَلَّتْ مِنْهُ أَقْطَارُ وبلدانُ
 فَسَلَ بِلَنْسِيَّةٍ ما شَأْنُ مُرْسِيَّةٍ وأين قُرْطُبَةُ وأين جِيَّانُ
 وأين حمصٌ وما تحويه من نُزِهِ ونهرها العَذْبُ فياضٌ وملآنُ^(١)
 قواعدُ كُنْ أركانُ البلادِ وما عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
 تَبْكِي الحَنيفِيَّةَ البيضاءً من أَسفٍ كما بَكَتْ لِرُسُولِ اللَّهِ أَجْفانُ
 على بيوت من الإسلامِ عاطلةٌ كأنَّها لم تكنْ بالذِّكرِ تزدانُ
 صارت كَنائِسَ قد صال الضَّلالُ بها فليس إلا نواقيسُ وُصْلانُ

وفي الثامن والعشرين لمحرَّم: ركبَ الواثقُ بالله فرسه القِرطاسيّ وقد تأهب
 الناسُ للبروز وخرجوا للقائه من الحضرة بالطُّبول، وتوجَّه إليه العربُ من كلِّ مكان،
 فلقِيهم بأحسنِ القَبول، وكَسَا جَمَلَ المصحف الكريم بما جرت به العادةُ من الزَّينة
 الزَّيناء، ورُفِعَت الأعلامُ الصَّغارُ مع جوانبِ الغِشاءِ المحتوى عليه، وجُعِلَت قلائدُ من
 فضَّة في عُنُقِهِ قد أُعِدَّتْ لَهُ، والبُغْلُ أيضًا كُسيّ كذلك، وجُعِلَ عليه من الزَّينة مثلُ ذلك،
 وتزيًّا العبيدُ الذين يخدمونَ الجَمَلَ والبُغْلَ بالثيابِ البيض. وغُسِلَت لهم أكمامُ الأوصالِ
 فحَبَسوها وتقدَّموا بها أمامه، فكانوا في غايةِ الجمالِ والاحتفال، وأولادُ الواثق بالله معَ
 حاشيتهم وقرايتهم يتلَوْنَهُ، والوزراءُ ورائهم في الساقة الكبرى التي فيها الأعلامُ
 السبعة الخِلافِيَّةُ وعلاماتُ قبائلِ الموحِّدين على العادة المعتادة، وكذلك سائرُ العلامات،
 وترتَّب المشيُّ على هذا الوضع المذكور، وكان التوجُّه إلى مَرَاكُشِ حَرَسِها اللهُ تعالى على
 طريقِ القِبلة. وخرجَ أهلُ مَرَاكُشِ لهذا البروز رجالًا ونساءً، ولم يبقَ بها فارسٌ ولا راجِلٌ
 إلَّا أخرج. وكان لقاءُ السَّيِّدِ أَبِي زَيْدٍ بالقِرابَةِ والطلبةِ وأهلِ الخِدْمةِ ببابِ الكحول، وكان هذا

(١) هذا البيت تأخر في ق، ك، ب بعد بيتين.

اليوم في هذه الدولة الواثقة من أعظم الأيام احتفالاً وأحسنها جمالاً، والناس يُقبلون بعضهم على بعض، وكلُّ يُصافحُ صنفه ويهنئه بهذا القدوم السعيد والإياب الحميد.

ولما دخل الواصل بالله مدينة مراكش، قصد إلى الجامع تيمناً به، وشكراً لله تعالى على جميل مآهبه، وتجدد له الدعاء بذلك، وركب من باب الجامع إلى باب رياض الحزب، ووقف هنالك فهنأه الحاضرون ولثموا يمينه، ودخل إلى قصره وقد قرت عيناه بما كان يتمناه.

وكمُلت هذه الحركة السوسية التي كانت إثر حركته الهسكورية، ولم يكن فيهما معاً من كبير معنى يُذكر، وإن كان فضله لا يُنكر، غير بعض التسكين والتهدين، والقبض على الشقي ابن محمد.

وأما ابن جلداسن مسعود فامتنع في جبله، ونقض العهود، وقطع المواصلات، وما كان تقدم له من المجاملة. وذكر عنه أنه قال في جملة كلامه، وسبب مقاطعته وملامه: كما نقض الواصل لملك المغرب عهده ولم يُنجز له وعده، فكيف أنا الذي قد رأى في عبده؟ وكان في ذلك، على ما قيل، كلام له في هذا المعنى طويل، أضربت عنه خيفة التطويل. وقيل: إن الواصل بالله كان بينه وبين المقام اليوسفي عهداً مؤكدة، وأيماناً مرددة، فلم يف له إلا بالبعض، وأثر على الإبرام النقض. فكانت بينهما أنكاد، ودار بينهما حرب وجلا، على ما يأتي.

ولبعض الطلبة في الواصل بالله إثر حركته جملة أشعار بالتهنئة على تلك الحركة رفعوها إليه، فقرئت بجمليتها عليه، فأحسن إليهم وأنعم عليهم، ورفع له بعض خدامه وهو بالسوس أبياتاً، وهي [من الكامل]:

قالت لنا الأيام بعد صموتها	من ذا الذي يرضى العلى والمنهلا
يحمي الورى ويذود عن حرمايه	يروى سيوف الهند من بري الطلا
من همم قرع العدا وصلاح ما	قد كان عن نهج السداد تحولا
من لا يرى يصبو إلى دنيا وما	يرنو لزهرتها إذا ما تجتلى
قلنا لها ذاك الإمام الواصل الـ	سهادي أمير المؤمنين أبو العلى

ولمّا استقرّ الواثق بالله بحضرته الممراكشيّة بعد حركته السّوسيّة، بلغه الخبر أنّ أبا يوسف توجّه بعساكره لمحاربة يغمراسن، فبقِيَ رسوله بمراكش حتى عاد أبو يوسف إلى مدينة فاس. وبعث الواثق هديّة حفيلة إلى أمير تلمسان يغمراسن بن زيان، فتوجّه الفقيه أبو الحسن بن قطّال ببعضها في البرّ، وتوجّه أبو عبد الله البكريّ بأثقالها في البحر، دَخَلَ من آسفي وخرج في هنين، وأخذ أبو الحسن بن قطّال على طريق سجلماسة مع رسول يغمراسن، وهو ابنُ أبي عثمان، مع ابنِ أبي مديون النّجاسنيّ. فوصلوا إلى سجلماسة، فوجدوا بها عثمان بن يغمراسن، فبعثهم مع بعض أشياخ المعقل فوصلوهم إلى تلمسان، فوجدوا بها أبا عامر بن يغمراسن، وأبوه قد توجّه إلى جهة مليانة وغيرها، وبها وصله رقاصُ ابنِ قطّال بكتب أبي دبّوس وبها وصله من عنده من هديّة، [فوصله جوابه لأبيه يأمره] ^(١) بإجراء كرامة أبي الحسن [وضيافته حتى تنقضي حركته من تلك البلاد] ^(٢) الشّرقية ويعود إلى البلاد الغربيّة ليشغل بني مرّين عن التّوجّه لجهة البلاد الممراكشيّة. فبقِيَ أبو الحسن ابنُ قطّال تحت كرامة يغمراسن مدةً من عام كامل وأشهرٍ يعدّه وعدًا بعد وعد، وهو مع ذلك يسرّ له خيولاً وغير ذلك برسم الهدية لأبي دبّوس، وبنو مرّين في أثناء ذلك قد توجّهوا لحصار مراكش، وحفّوا بها، فخرج إليهم الواثق بالله بجيوشه، فكانت مُحارباتٌ ومقاتلاتٌ ومواقفاتٌ ومقابلاتٌ أجَلَّتْ عن هزيمة الواثق بالله وقتله، فبلغهم بتلمسان أنه قد مات مقتولاً، وتفرّقت جيوشه وعساكره، وانقرضت دولته، وانقطعت أوامره. فرجع أبو الحسن ابنُ قطّال على طريق سجلماسة، ومات في جهة بلاد دَرعة رحمه الله تعالى.

ولمّا ظهر للفقيه القاضي أبي إسحاق ابن القشّاش اختلالُ الأمور والأحوال، وكثرت فيه وفي غيره من بعض الناس الأقوال، رَفَعَ هذا الرّفَع للواثق بالله، فوقّع له التوقيع بها أكْتَبَهُ بعدُ إن شاء الله تعالى، نقلته من خطِّ وَلَدِهِ أبي عبد الله، والتوقيع عليه بخط أبي دبّوس وهو: رضي الله تعالى عن المقام الإماميِّ الواثقيِّ المعتمديِّ، المؤيّد المظفر

(١) ما بين الحاصرتين بياض في ق، ك، ب، والمثبت من ر٣.

(٢) كذلك.

الأسعدِ المبارك، وأطال للمسلمين أيامه، ونصرَ أليوتهِ الكريمةَ وأعلامه. عبدُ نعمته ومملوكُ ميثه إبراهيمُ بن أحمدَ الأوسِيِّ يُسَلِّمُ على المقامِ الإماميَّ أيده اللهُ تعالى ويقبَلُ اليدينَ الكريمَتينِ المباركتينِ، ويهنئُ العبدُ مولاهُ أعزَّ اللهُ مقامه بما سنَّاهُ له من البشائرِ المتناسقة، والفتوحِ المتلاحقة، والحمدُ لله، وهو سبحانه المسؤولُ أن يَشْفَعَ هذا الصُّنْعَ الجميلَ بأمثاله، ويوزعَ العامةَ الشُّكرَ على إنعامه بذلك وإفضاله.

ويعرِّفُ العبدُ مولاهُ أنه لم يزلَ محبًّا في هذه الدولة السعيدة من أولِ بدئها إلى حين كمالها وانتهائها، راغبًا إلى الله تعالى في تميم أمرها وموالاته نصرها. فله الحمدُ سبحانه على أن رَحِمَ المسلمين بدولته السعيدة، وأمنَّ عليهم بأيامه الصالحة السديدة. وإنَّ المقامَ الإماميَّ الوائقيَّ صدرَ عنه في أولِ الفتحِ المباركِ من تقديم العبدِ للنظرِ في الخطَّةِ الشرعية والاعتناء بمعالم الدين ما تكفلَ به اللهُ تعالى لمقامه المؤيَّد [عظيم] ^(١) الأجرِ وجزيل الذُّخر، فشكر العبدُ اللهَ تعالى والمقامَ الكريمَ على هذه الالتفاتِ الكريمة، وشرعَ في النظرِ في هاتِه الخطَّةِ بعد أن أثَّرتْ عفوًا دونَ أن يتقدَّمَ له فيها رغبةٌ ولا طلب، واستخارَ العبدُ اللهَ وتوكَّلَ عليه... ^(٢) والمسلمينَ نُصحًا واجتهادًا بمبلغِ قدرته إلى أن بَلَغَتِ العبدَ عن بعض [الذين كانوا] ^(٣) في المُدَدِ السالفةِ حامِلينَ مهتَضَمينَ أمورٍ وأقاويلَ غَيَّرَتِ نفسَ العبدِ وكدَّرتْ خاطره، [فتحمَّلَ العبدُ] ^(٤) ما بَلَغَهُ عنهم وطَّواه ولم يلتفتْ إليه، فلم يَزَالوا بعدَ هذا مستمرِّينَ على عادتهم طاعنينَ [في الخطَّةِ] ^(٥) متعرِّضينَ بالأقاويلِ حتى ضاقَ بهم ذرْعُ العبدِ، وصاروا بحيث يتفقَّهونَ في الأحكامِ والنوازلِ، وينظرونَ في العقودِ التي بها تُقَطَّعُ الحقوقُ في مجالسِ الخصامِ ويقدَحونَ فيها. فوجبَ على العبدِ إنهاءُ هذا كُلِّهِ إلى المقامِ الإماميَّ أيده اللهُ ونصرَه، والرغبةُ إلى الله تعالى وإليه في أن يكفَّ

(١) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ كافة، وما أثبتناه لعله هو الموافق للسياق.

(٢) فراغ قدر كلمتين.

(٣) فراغ في ق، ك، ب، والمثبت من ر٣.

(٤) كذلك.

(٥) كذلك.

هؤلاء القوم ويدفع ضرر ألسنتهم حتى يعلم جميعهم أنّ للخطّة من يقيم رونقها ويعضد المشتغل بها، أو الإنعام على العبد بصرفه عنها وتأخيرها [وإعفائه منها] ^(١)، ففي ذلكم لعل العبد وأدوائه أكبر شفاء، إذ فيا تكلّموا به أمرٌ كبير وحطّب شنيع.

[ولو صدر شيء من هذا يا سيّدنا عمّن له تخصّص بالفقه أو أدنى ملبسة] ^(٢) للعلم لسكت العبد عنه واحتسبه لله تعالى، [ولكن حرّك العبد أنّ ذلك صدر عن قوم جهلة أحداث لم يشمّوا قط] ^(٣) رائحة العلم، فكيف أن يتعرّضوا [للأحكام] ^(٤) التي هي ثمرة الفقه؟

وقد بلغ العبد من سنّه نيّفاً وثمانين سنة، والرغبة من المقام الواثقي أن يأمر العبد بأحد شيئين: إمّا بصرفه وإراحته بالإعفاء، وإمّا بنصره وشدّ أزّره. وفي كريم علم [المقام] ^(٥) الكريم. إنّ الخليفة بوجوده يكون نظام العالم، والقاضي نائب عنه في أهمّ أموره، فإن لم يكن منه [نظر] ^(٦) وتطلّع لأموره تعرّض إليه من لا خلاق له بمثل ما تعرّض للعبد. ولمولانا رضي الله عنه الفضل الأتمّ في النظر فيما شرح له عبده، وقطع هذه العِلل وحسم هذه الأدواء بما يقتضيه نظره المبارك العليّ أيّده الله. والعبد منتظر لتوقيع كريم بما يعتمد عليه بحول الله تعالى. وهو سبحانه يُديمّ علاءه، وينصّر لواءه، والسلام الأتمّ المبارك العميم، يُخصّص المقام الكريم، ورحمة الله وبركاته.

فوقع له بهذا التوقيع:

هذه جُرأة كبيرة علينا، واحتقارٌ مُفرطٌ لجانبنا، والكلام في هذه الخطّة وفيمن اختير لها ليس بهين، ولا يقع فيه إلا مختلّ العقل غلطٌ في نفسه وفينا، جاهلٌ قدره، متعدّدٌ

(١) كذلك.

(٢) كذلك.

(٣) كذلك.

(٤) كذلك.

(٥) فراغ في النسخ كافة، ولعل ما أثبتناه هو المقصود.

(٦) كذلك.

طوره، والخطّة أكبرُ من أن يسلّك فيها أولو العلم والعقل هذا المسلك الصّعب، فكيف بمن سواهم؟! فيبحث عن المتكلّم بهذا ويُعرّف بهم فننظرُ في قضيتهم بما يظهرُ لنا إن شاء الله تعالى.

ولما قُتل أبو دبّوس كما تقدّم، تفرّقت أجناده، فلم يصل أحدٌ من الموحدّين ولا من رجالهم إلى مدينة مراكش إلّا من وصل إليها منهم... (١) ذلك. فلما وصل إلى مراكش بعضُ أشياخ الموحدّين ومن وجد السبيل للوصول إليها من المتجنّدين، قدّموا أميرًا على أنفسهم أبا محمد عبد الواحد ابن أميرهم أبي دبّوس، وسمّوه المعتصم بالله، وقرّعوا الطبول على مبايعته مدةً من خمسة أيام، وذلك إشغالًا للناس بخلال ما يدبرون لأنفسهم في النّجاة برؤوسهم.

وكان مقتل أبي دبّوس يوم الأحد الثاني لمحرم مفتّح عام ثمانية وستين وست مئة، ووجه أمير المسلمين أبو يوسف وزيره أبا زكريّا بن حازم مع بعض الفرسان ليتشوّف أخبار أهل مراكش... (٢) بوادي تانسيفت يبيعتهم للسلطان المؤيد أبي يوسف، بعثها له قاضيهم [صُحبة] (٣) ولده أبي (٤) عبد الله وصهره تّام، وأبي عمر حجاج، وأخبروا لأبي زكريّا بن حازم... (٥) أبي دبّوس إلى جبالهم بأولادهم وعيالهم وبعض خيلهم ورجالهم.

وخرج الناس... (٦) المنصور أبي يوسف، فدخلها في يوم عاشوراء العاشر لمحرم من سنة ثمان وستين المؤرّخة المذكورة (٧).

(١) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٢) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٣) فراغ في النسخ، ولعل ما أثبتناه يوضح المعنى المراد.

(٤) في النسخ: «أبا»، ولا تستقيم لما سيأتي بعد، ومثله كثير في النسخ تجاوزنا عنه.

(٥) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٦) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٧) فراغ في ق، ك، ب، والمثبت من ر.

وانقَضَتْ دولةُ بني عبد المؤمن ودرَسَتْ... ^(١) منارُها، فسبحانَ مَنْ لا يبيدُ
مُلْكُه، ولا يَفْنِي دَوائِمُه ^(٢)..... ^(٣)

في منامه هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ فَوَرَّخَ ذلكَ اليومُ ^(٤)، فكانَ يومَ مَقْتَلِ أَبِي دَبَّوسِ الوائِقِ
[من مَخْلَعِ البَسيطِ]:

مُلْكُ بني مؤمِنٍ تَوَلَّى وكانَ عِنْدَ السَّماءِ سَمَكُه
فاعتَبَرُوا وانظَرُوا وقولُوا سبحانَ مَنْ لا يبيدُ مُلْكُه ^(٥) ^(٦)

(١) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

(٢) إلى هنا انتهت نسخة ق.

(٣) فراغ في النسخ.

(٤) إلى هنا تنتهي نسخة ب وك، وما يأتي من ر٣.

(٥) كتب هذان البيتان في حاشية ر٣.

(٦) جاء في آخر نسخة ك: «انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وكان الفراغ منه بين صلاة الظهرين من يوم الاثنين الموفي عشرين... للشهر المبارك شعبان سنة خمس وستين وألف ومئة. والحمد لله رب العالمين».

ملاحظة: كتبت ألف ومئة بالأرقام، وهناك طمس بعد لفظة عشرين. وكتب في آخر نسخة ق بخط مغاير لخطها ما يأتي:

«الحمد لله وحده. استودع كاتبه هنا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ. وكتبها بيده الفانية في الأول من رجب الفرد عام ١٢٢٦ عبيد ربّه تعالى وأقل عبيده محمد المكي بن الحسن بن الحسين بن محمد بن محمد بن ناصر غفر الله ذنبه وستر عيبه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

وجاء في آخر نسخة ر٣ ما يأتي:

«انتهى ما وجد من السفر الأخير من البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذارى رحمه الله، نحمد الله حمدًا كثيرًا، وصلى الله على نبيه المبعوث بشيرًا ونذيرًا».

المحتويات

الصفحة

الموضوع

٥	ابتداء أمر اللَّمْتُونِيِّينَ
٧	بعض أخبار عبد الله بن ياسين مع لَمْتُونَةٍ في ابتداء أمرهم
٩	بعض أخبار الأمير أبي زكريّا يحيى بن عُمر أمير اللَّمْتُونِيِّينَ وسبب تسميتهم بالمرابطين
١١	ذكر دولة الأمير أبي بكر بن عُمر اللَّمْتُونِيِّ رحمه الله
١٤	ذكر نسب أمراء الدولة المرابطية
١٧	ذكر حركة الأمير أبي بكر بن عُمر إلى الصحراء
١٧	ذكر ولاية يوسف بن تاشفين ونبذ من أخباره
١٩	ذكر خلع الأمير أبي بكر بن عُمر نفسه عن الملك وإسلامه ليوسف بن تاشفين
٢١	ذكر الهدية التي أهداها الأمير يوسف بن تاشفين إلى ابن عمّه أبي بكر بن عُمر
٢٢	ذكر تسمية يوسف بن تاشفين رحمه الله بأمير المسلمين
٢٣	فتح مدينة تلمسان
٢٥	الكيبطور في بلنسية
٢٥	ثورة القاضي ابن جحّاف ببلنسية
٢٥	نقل القادر حفيد ابن ذي النّون
٢٧	ذكر تغلب العدو على بلنسية في هذه السنة
٢٩	ذكر غدر لُذْرِيْق اللّعين لمحلة المسلمين

- ذكر حرق القاضي أبي أحمد ابن جحاف ومحنة أهله وقرايته ومحنة أهل بلنسية..... ٣٠
- ذكر فتح بلنسية وعودها للمسلمين ٣٤
- بعض أخباره على الجُملة ٣٧
- ذكر دولة أمير المسلمين علي بن يوسف ٣٩
- ذكر حركة أمير المسلمين علي بن يوسف من مراكش إلى الأندلس ٤٠
- بعض أخبار الأذفونش ملك قشتالة أخزاه الله ٤١
- ومن أخبار المستعين ابن هود في هذه السنة ٤٣
- تلخيص التعريف بتاريخ من ملك سرقسطة ٤٥
- ذكر حرق «الإحياء» وما قال أبو حامد حين بلغه ذلك ٤٨
- ذكر ولاية أبي حفص عمر بن يوسف بن تاشفين ٥٤
- ذكر التعيب بالأندلس وبناء الأسوار في هذه السنة ٦٠
- ذكر ولاية تاشفين بن علي بن يوسف الأندلس ونبيذ من أخباره ٦٥
- ذكر وفاة سير ٨١
- ذكر ولاية العهد لتاشفين ابن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ٨٢
- حكاية طريفة ٨٥
- تلخيص التعريف بتاريخ من ولي إشبيلية من مشاهير اللّمُونيين المرابطين ٨٩
- اختصار الخبر بحركة تاشفين إلى الجبل برسم قتال الموحددين ٩١

- اختصارُ الخبر بحركة عبد المؤمن الطويلة الأعوام، ومقتل تاشفين ٩٢
- ذكرُ مقتل الربرتر وأكثَر أصحابِه ٩٧
- اختصارُ الخبر عن فتح وَهْران وما فَتَحَ اللهُ للموحِّدين بعدَ قتال تاشفين ٩٩
- ذكرُ مُنازلة تِلْمُسانَ وفتح تاجررتَ منها وما اتَّصلَ بذلك ١٠٠
- ذكرُ فتح مدينة فاسَ حرسَها اللهُ تعالى ١٠١
- ذكرُ مُنازلة الأمير أبي محمد عبد المؤمن مدينةَ مَرَّاكشَ وفتح مدينة سَلا في طريقه ١٠٣
- ذكرُ فَتَحَ مَرَّاكشَ حرسَها اللهُ ودخولِ الموحِّدين إليها واستيلائهم عليها ١٠٦
- ذكرُ السبب في تقريبِ ابن عَطيَّة ١١٠
- ذكرُ حركة الشَّيخ أبي حفص الهَنْتاتِيَّ من حضرة عبد المؤمن لمحاربة المنافقين ١١١
- ذكرُ الوَفْدِ الناهضِ مِنْ إشبيليةَ إلى عبد المؤمن ١١٢
- تلخيصُ دخولِ الموحِّدين للأندلسِ أولاً ١١٤
- ذكرُ ما حَدَثَ على أهلِ إشبيليةَ من الحوادثِ عندَ فَتَحِ الموحِّدين لها ١١٦
- ذكرُ سببِ كُتُبِ هذه الرسالة إلى البلدان وبقية ما جَرى بإشبيليةَ وغيرها ١١٨
- ذكرُ دخولِ الموحِّدين قُرطُبةَ وقَرْمُونَةَ وخروجِ ابن غانيةَ عنها ١٢٢
- ذكرُ بيعة رؤساءِ الأندلس الوافدينَ على عبد المؤمن بمدينة سَلا وانخلاعهم له ١٢٨
- ذكرُ حركة عبد المؤمن إلى بَجَاية واستيلائه على مملكة بني حَمَّاد وبلاد مَتيجة ١٢٩
- ذكرُ سببِ هجر عبد العزيز وعيسى أخوي المَهْديِّ ومَقْتَلِ يَصْلَاتَن ١٣٢

- ذكر ولاية السادات الأكرمين أولاد الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ١٣٧
- ذكر مقتل الناكثين معهما من الموحدين وأصحابهما ١٣٩
- ذكر ولاية عبد الله بن أبي حفص بن علي على إشبيلية ١٤١
- اختصار الخبر بفتح غرناطة وأخذها من اللمّثونيين ١٤٣
- ذكر ولاية السيد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدينة إشبيلية ١٤٥
- ذكر نكبة الوزير الكاتب أبي جعفر أحمد ابن عطية ومقتله ١٤٧
- ذكر حركة أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن إلى بلاد إفريقية ١٥٢
- ذكر أخبار عبد السلام في وزارته إلى حين الإيقاع به فيها ومنيته ١٥٨
- ذكر جواز عبد المؤمن إلى الأندلس من سبّة بعد إيايه من غزوة المهدية ١٦٠
- ذكر فتح قرمونة وأخذها من يد ابن همّشك ١٦٦
- ذكر غدر ابن همّشك مدينة غرناطة ومملكه لها ١٦٧
- ذكر حركة أمير المؤمنين إلى الأندلس حين بلغه غدر ابن همّشك غرناطة ١٦٨
- ذكر حركة السيّد ابن أبي الأمير عبد المؤمن من مالقة إلى غرناطة وهزيمة ابن همّشك ١٦٩
- ذكر حركة السيّد من غرناطة وقدمهما على قرطبة ١٧١
- ذكر سبب خلع السيّد أبي عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن من ولاية عهد أبيه ١٧٢
- ذكر حركة أمير المؤمنين عبد المؤمن من حضرة مراکش إلى رباط الفتح بسلا ١٧٢
- ذكر وفاة عبد المؤمن رحمه الله تعالى ١٧٣

- ١٧٣..... ذكر بعض أخباره على الجملة وسيره رحمه الله.
- ١٧٧..... خلافة أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله تعالى.
- ١٧٨..... ذكر الإخوة.
- ١٨٨..... ذكر ابتداء الولايات من الأمير أبي يعقوب لإخوته السادات.
- ١٩٠..... ذكر الاتفاق على كتب الأمير أبي يعقوب العلامة بخط يده.
- ١٩١..... ذكر حركة الأمير أبي يعقوب ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله.
- ٢٠٢..... ذكر عذر العليج جرائده الجليقي أخزاه الله لبعض بلاد غرب الأندلس وحصونها.
- ٢٠٣..... ذكر غير الخليفة أبي يعقوب بن عبد المؤمن لله وللدن بتجهيز عساكر الموحدين.
- ٢٠٧..... ذكر حركة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى من إشبيلية إلى قرطبة.
- ٢١٠..... ذكر حركة السيد أبي حفص ابن الخليفة عبد المؤمن لغزو ابن مُردنيس.
- ٢١١..... ذكر تغلب السيد أبي حفص بن عبد المؤمن رحمه الله على بلاد محمد بن سعد.
- ٢١٣..... اختصار الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن عبد المؤمن.
- ٢٢٣..... ذكر العلة التي لازمت ابن مُردنيس إلى أن توفي.
- ٢٢٣..... ذكر طاعة هلال بن مُردنيس بعد موت أبيه.
- ٢٢٤..... ذكر غزوة الخليفة أبي يعقوب إلى مدينة وبدة.
- ٢٢٩..... ذكر سبب عذر النصاري مدينة باجة.
- ٢٣٤..... اختصار الخبر عن دخول أهل باجة مجلس أمير المؤمنين أبي يعقوب.

- ٢٣٤ اختصارُ الخبر برجوع أهل باجّة إلى بلدهم
- ٢٣٧ ذكرُ حركة الخليفة أبي يعقوب من إشبيلية منصرفاً عن الأندلس إلى حضرة مراكش
- ٢٤٢ ذكرُ حركة الخليفة إلى إفريقية وغزوته إلى مدينة قفصة
- ٢٤٩ ذكرُ مُنازلة شتفيلة التي غدرها اللّعين في هذه السنة
- ٢٤٩ اختصارُ الخبر عن حركة الخليفة أبي يعقوب إلى بلاد السّوس
- ٢٥١ ذكرُ غزوة ابن وأنودين إلى طَبِيرة
- ٢٥٣ بعض أخبار يوسف بن وأنودين الهتاتيّ وما كان لابنه محمد من المآثر
- ٢٥٦ ذكرُ السبب في توسعة مراكش حرسها الله
- ٢٥٨ اختصارُ الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوب من مراكش
- ٢٦١ سَطْوَةُ الخليفة أبي يعقوب بعمّال مدينة فاس وأنظارها
- ٢٦٥ إيضاحُ الخبر عن وفاة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن عبد المؤمن في غزوته هذه
- ٢٦٧ بعض أخباره على الجُملة وسيرِهِ رحمه الله تعالى
- ٢٧٠ ذكرُ بيعة أمير المؤمنين يعقوب المنصور وخلافته وصّخامة دولته
- ٢٧١ اختصارُ الخبر عن بيعته رحمه الله تعالى
- ٢٧٢ ذكرُ حركة المنصور من إشبيلية إلى الحضرة وما نفذ من أوامره العلية
- ٢٧٣ اختصارُ الخبر عن تورّع المنصور في قطع المناكر وبسط العدل
- ٢٧٤ ذكرُ جلوسه للأحكام بنفسه

- ذكر اختطاط حومة الصالحة وإدخالها في الحضرة العالية..... ٢٧٥
- اختصار الخبر عن دخول ابن غانية بجاية ٢٧٦
- ذكر حركة السيد أبي زيد إلى بجاية..... ٢٧٨
- ذكر استقرار السيد أبي زيد بجاية وما جرى مدة إقامته بها من الأحداث ٢٨٢
- ذكر تغلب القائد أبي الحسن على قصبه ميورقة المذكورة..... ٢٨٥
- تحرك المنصور إلى قفصة وذكر ما كان فيها من الأنباء والحوادث ٢٨٧
- ذكر وقعة عمرة وهزيمة الموحددين ٢٨٩
- ذكر حركة المنصور أبي يوسف من مدينة تونس لحرب الميارقة والعرب ٢٩٢
- نكبة السيد أبي إسحاق بن عبد المؤمن..... ٣٠١
- نكبة أبي حفص الملقب بالرشييد والي مرسية وأبي الربيع والي تاذلا ٣٠١
- ذكر موت السيدين المذكورين ٣٠٣
- ذكر حركة المنصور الأولى إلى الأندلس من حركاته وما ظهر فيها من قدرته..... ٣٠٧
- اختصار الخبر عن فتح طرُش ومحاصرة حصن المنار والإقلاع عنه..... ٣١٠
- ذكر وصول المنصور لإشبيلية وما طرأ من الأنباء مدة هذا الاستقرار ٣١١
- ذكر قيام الثائر الجزيري..... ٣١١
- ذكر حركة المنصور من الأندلس إلى مراکش بعد انقضاء غزاته على مرغوبه..... ٣١٧
- اختصار الخبر: من يوم إجازة أمير المؤمنين المنصور إلى يوم خروجه من إشبيلية..... ٣٢٣

- ذكر غزوة المنصور والتأهب للعدو يوم الفتح المشهور بموضع الأرك المذكور..... ٣٢٤
- ذكر استقرار المنصور بإشبيلية من حركة غزوة الأرك..... ٣٢٧
- ذكر غزوة المنصور المعروفة بسنة طليطلة..... ٣٢٩
- ذكر نكبة داود بن أبي داود..... ٣٣١
- ذكر حركة المنصور إلى الغزاة الثالثة وهي آخر غزواته من عمره..... ٣٣٢
- بعض أخبار أمير المؤمنين المنصور على الجملة ووصيته وما ذكر الناس في موته.... ٣٣٦
- الخبر لوفاة المنصور وما ذكر فيها..... ٣٤٣
- ذكر بيعة أبي عبد الله الناصر لدين الله وصحامة دولته ومهابة سطوته..... ٣٤٤
- ذكر فتح ميورقة ثانية وأخذها من يد ابن غانية وذكر من وليها من لمتونة ومسوفة..... ٣٤٨
- ذكر منازلة الناصر مدينة المهدية..... ٣٥٤
- ذكر ابتداء ظهور أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهتاتي..... ٣٥٥
- اختصار الخبر عن استقرار الناصر بمدينة تونس..... ٣٥٨
- ذكر ولاية أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص إفريقية..... ٣٥٩
- ذكر حركة الناصر من تونس حرسها الله إلى بلاد المغرب..... ٣٦٠
- ذكر ولاية السيد أبي عمران مدينة تلمسان وحركته منها لحرب ابن غانية..... ٣٦٤
- ذكر ولاية أبي زيد ابن يوجان مدينة تلمسان..... ٣٦٥
- ذكر السبب في حركة أبي محمد بن أبي حفص إلى ابن غانية..... ٣٦٧

- ذكر حركة أمير المؤمنين الناصر إلى الأندلس ٣٧٢
- فصل من الرسالة التي وجهها الناصر لدين الله مُعلِّماً بفتح حصن شلبطرة ٣٧٥
- فصل من ذلك، وهي من إنشاء ابن عيَّاش رحمه الله ٣٧٨
- ذكر دولة المستنصر بالله ونُبد من أخباره ٣٨٠
- فصل منها ٣٨٢
- فصل من ذلك ٣٨٤
- ذكر بيعة أبي محمد عبد الواحد المخلوع ٣٨٥
- ذكر دولة العادل ابن المنصور ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ٣٨٦
- فصل من ذلك ٣٨٧
- ذكر بيعة يحيى ابن الناصر ٣٩١
- ذكر بيعة أبي العلى المأمون ومدته وبعض أخباره مع الموحدّين في دولته ٣٩١
- ذكر بعض أخبار الدولة الهُودِيّة المُتوكِّلِيّة ٣٩٦
- تلخيص الخبر بابتداء الدولة الموحدية الحفصيّة ٤١٠
- فصل منها ٤١٨
- ذكر بيعة الرّشيد وخلافته وما جرى من الأحداث والأخبار في دولته ٤٢١
- دخول أمير المؤمنين الرّشيد مرّاكش حرسها الله ٤٢٤
- بيعة مختصرة لأبي محمد عبد الواحد الرّشيد أمير المؤمنين ٤٢٥

- اختصارُ الخبر عن وُصول ابن وقارِيطَ وسببِهِ وذكرُ ما تعلَّقَ به من الأخبارِ به ٤٢٧
- ذكرُ وفاة السيِّد أبي محمد سَعْد وحمَامِهِ وحضورِ أبي محمد الرّشيد لدَفْنِهِ وبني أَعْمَامِهِ ٤٢٨
- ذكرُ السببِ في انتزاعِ ابن وقارِيطَ وعِنادِهِ ٤٢٨
- حركةُ الرّشيد إلى تادِلا ٤٢٩
- هزيمةُ الرّشيد ليحيى وَمَنْ مَعَهُ على هزرجة ٤٣٠
- إيابُ الرّشيد لحضرته سالماً بجميع عسكرِيتِهِ ٤٣٠
- وصولُ بعضِ الموحّدين إلى الحضرة ٤٣١
- محاولةُ أبي عثمان سعيد بن زكريّا الجدميويّ في استجلابِ الموحّدين إلى أميرِ المؤمنين ٤٣٣
- ذكرُ استدعاءِ مسعود بن حميدان الخُلَطيّ إلى حضرة مَرَاكُش ٤٣٦
- مهلكُ مسعود بن حميدان وكيفيَّةُ قَتْلِهِ مَعَ قَوْمِهِ في ذلك الميدان ٤٣٧
- توجيهُ الرّشيد عن وزيرِهِ وجيشِهِ من حَاحَةٍ ٤٤١
- ذكرُ وصولِ جُمْلَةٍ من الموحّدين إلى حضرة الرّشيد ٤٤٢
- ذكرُ فتنةِ الخُلَط وعِنادِهِم وحِصارِهِم مَرَاكُش وفرارِ الرّشيد منها أَمَامَهُم ٤٤٣
- ذكرُ فرارِ الرّشيد من حضرته أَمَامَ الخُلَط ٤٤٤
- ذكرُ السببِ في بُعدِ العَرَب عن الحَضرة وتهيؤِ الخروجِ منها للرّشيد ٤٤٧
- ذكرُ كيفيَّةِ خروجِ الرّشيد من حضرته بجميع جُنْدِهِ ٤٤٨
- ذكرُ المجاعةِ التي كانت بِمَرَاكُش عَصَمَ اللهُ المُسلمينَ من مِثْلِهَا ٤٥٢

- ذكر فتح مراكش حرّسها الله ليحيى ابن الناصر على يد السيّد عبد الله بن أبي حافة ٤٥٤
- ذكر وصول يحيى ابن الناصر لمراكش ومن معه من الخلط وهسكورة مع ابن وقاريط ٤٥٥
- بعض أخبار الأندلس ٤٥٨
- ذكر ما وقع عليه السّلم بين المسلمين والنصارى في هذه السّنة ٤٥٨
- رجع الخبر إلى أمور الرّشيد وأحواله وكيفيّة قفوله من سجلماسة وانتقاله ٤٥٩
- ذكر مقابلة الرّشيد ليحيى ابن الناصر وانهازم يحيى مع الخلط وجميع أنصاره ٤٦٠
- ذكر حركة الرّشيد إلى الغرب وهي الأولى ٤٦٣
- ذكر حركة السيّد أبي محمد إلى غمارة ومقتل يحيى ابن الناصر رحمه الله تعالى ٤٦٤
- رجع الخبر إلى بعض أخبار الأندلس ٤٦٨
- فصول من ذلك ٤٦٨
- ذكر وصول الأمير أبي عبد الله بن الأحمر إلى غرناطة واستيلائه عليها ٤٧٢
- ذكر مبايعة أبي بكر محمد بن محمد بن يوسف بن هود ٤٧٣
- خبر غدر ابن وقاريط لمدينة سلا في هذه السّنة ٤٧٤
- ذكر القبض على عمر بن وقاريط المذكور وحمله من إشبيلية إلى أزمور ٤٧٦
- ذكر مقتل عمر بن وقاريط رحمه الله تعالى ٤٧٧
- اختصار الخبر عن كيفيّة روم جنوة الذين راموا دخول مدينة سبتة عنوة ٤٨١
- اختصار الخبر بولاية أبي محمد عبد الله بن وانودين بلاد الغرب ٤٨٤

- ذكرُ هزيمة بني مَرين لابن وانودين وعسكرِ الموَحِّدين ٤٨٧
- ذكرُ بيعة أبي الحَسَن المعتضد بالله المدعو بالسَّعيد وُئيد من أخباره ٤٩٢
- اختصارُ الخبر عن حركة الأمير أبي زكريّا إلى تِلْمَسَانَ لمحاربة يَغْمَاسَن بن زَيّان ٤٩٤
- ومن أخبار عبد الله بن زكريّا الهَزْرَجِيّ الثائر بِسِجِلْمَاسَة ٤٩٦
- ذكرُ حركة السَّعيد إلى سِجِلْمَاسَة وظَفَرِه بالثائرِ عليه فيها عبد الله بن زكريّا الهَزْرَجِيّ ٤٩٨
- ذكرُ أخبار ابن وانودين وما كان من أمره وحاله ٥٠١
- اختصارُ الخبر عن حركة السَّعيد والموَحِّدين إلى قتال الأمير أبي يحيى وبني مَرين ٥٠٤
- ذكرُ دخولِ كانونَ مدينةَ أَزْمُور ٥٠٦
- ذكرُ نصِّ البيعة المِكنَاسِيَّةَ لأمير الحضرة التُّونِسيَّة ٥٠٧
- تجديدُ بيعة أهلِ مِكنَاسَة للسَّعيد من إنشاء ابن عَبدونَ الكاتبِ المُجيد ٥١١
- فصلٌ من ذلك بعدَ الدُّعاء والصَّدَر ٥١٣
- ذكرُ القصيدة التي نَظَمَها أبو موسى هارونُ بن هارونَ رحمه الله يُرثي أهلَ إشبيلية ٥١٥
- اختصارُ الخبر عن حركة السَّعيد من حضرته المَرَاكُشيَّة إلى جهة البلاد التِّلْمَسانِيَّة ٥١٩
- ذكرُ خلافة أبي حَفْص المُرْتَضَى رحمه الله ٥٢٢
- ذكرُ السببِ في بيعته ٥٢٢
- اختصارُ الخبر عن وفاة أبي زكريّا الحَفْصِيّ ٥٢٦
- ذكرُ الرِّسالة النبوِّية التي أنشأها الأميرُ أبو زكريّا إلى حضرة خير البرية ﷺ ٥٢٧

- اختصارُ الخبر بظهور الأمير أبي يحيى وبني مَرين على عساكر المرتضى والموحّدين ٥٣٥
- اختصارُ الخبر عن مقتل أشياخ الخلط ٥٤١
- ذكرُ حركة المرتضى إلى الغرب برسم القتال مع بني مَرين في تلك البلاد والحرب ٥٤٣
- ذكرُ هزيمة المرتضى بموضع بني بهلول وقفوله إلى مدينة مراكش مهزوم مفلول ٥٤٣
- اختصارُ الخبر بقيام القطراني بسجلّامة بالدعوة المَريّنة ٥٤٩
- ذكرُ فتح رباط الفتح ليعقوب بن عبد الله ٥٥٣
- اختصارُ الخبر عن كائنة مدينة سَلا الذي كُلِّ قلبٍ عن همّها ما تسَلَّى ولا سَلا ٥٥٤
- فصولُ من الرسالة التي وجَّهها المرتضى للفقير أبي القاسم العزفيّ حين كائنة مدينة سَلا ٥٥٧
- ذكرُ فتح سَلا أمّنها الله وانتزاعها من أيدي الرُّوم على يد أمير المسلمين أبي يوسف ٥٥٨
- ومن أخبار العرب الداخلين تحت طاعة الموحّدين على الجُملة من غير سنة معيّنة ٥٦٣
- اختصارُ الخبر عن مقتل أولاد الأمير أبي يحيى وكيفية أمرهم ٥٧٠
- ذكرُ مقابلة أمير المسلمين أبي يوسف للموحّدين ومقتل ولده عبد الله بالمخالص ٥٧١
- ذكرُ فرار أبي دُبوس من مراكش الذي كان السبب في دخوله إليها واستيلائه عليها ٥٧٢
- كيفية دخول أبي العلى المدعوّ بأبي دُبوس مدينة مراكش ٥٧٦
- كيفية فرار المرتضى من قصره، وما آل إليه أمره في آخر عمره ٥٧٨
- ذكرُ خلافة الواثق بالله أبي العلى ومدّته وبعض الأخبار في أيام دولته ٥٨٦
- ذكرُ القَبْض على ابن السَّعيد، وما جرى عليه من الخطب الشَّديد ٥٩٠
- اختصارُ الخبر عن حركة الواثق بالله إلى السُّوس ٥٩٢



دار الغرب الإسلامي

تونس

لصاحبها: الحبيب المسمي

6 نهج الدالية بالفي - تونس - فاكس: 0021671396545 - خليوي: 216-96-346567

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P.1035 TUNIS

الرقم: 537 / 1000-10-2013 تونس

التنضيد: المؤلف

الطبعة: برنت شوب - بيروت

AL-BAYAN AL-MUGHRIB

By

Abu Al-Abbas Ibn Athari

(Died after 712 AH)

Vol. 3

Edited with a Critical Introduction

By

Prof. Bashar A.Marouf & Mahmoud B.Awad



*DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS*